

قصة
نبي الله يونس







حقوق النشر
محفوظة فرنسا



د. رشيد الجراح

Certificate of Registration
CopyrightFrance

Copyright Registration Number: 9H2F1R2

CopyrightFrance.com, Website registered under number 2104 by the State Prosecutor of the High Court of Evreux (FRANCE) certifies having delivered the certificate of the original following registration

Name of the registrant: Rasheed Saleem Al-Jarrah

Title or URL of the registered document: https://www.dr-rasheed.com/

Description: Dr. Rasheed's blog documents his lifelong reflections on the Quran, offering linguistic and analytical insights without adhe ring to any specific sect. The goal is to officially archive and le gally protect his writing, ideas and stories presented in the blog.

Date / time of the registration: 15-02-2025 à 20:46

The submitted document has been time stamped by a RGS qualified Certification Authority and ETSI TS 102 023 certified.

Paris (date) 15-02-2025 - The publication manager G.E.E. :

Reminder : (code of the intellectual property, extracts) :

✔ **Point L.335-2.** All publishing of written documents, musical composition, drawing painting or any other totally or partly printed, engraved production regardless of the laws and regulations concerning author's property is a forgery and any forgery is an offence. In France, forgery of published work in France or abroad is punished by 3 years in prison and a 300.000 euros fine. Will be punished the same way selling export and import of counterfeit work.

✔ **Point L.335-3.** Is also considered a forgery offence all reproduction , representation or circulation by any mean, of piece of spiritual work by violating the author's rights, as they are set and regulated by law. Is also considered as a forgery offence the violation one of the owner of the software's rights.

Warning : under no circumstances would the website or the Certification Authority guarantee or legitimize any use of registered documents .The authenticity given by this registration is only on the date and time of the registration as well as the existence of the registered documents. This registration would never be a substitute to a legal registration as decided by law, especially regarding patents, brands, RCS, ISBN, rules for competition games, etc.This certificate of registration would never be a substitute to an official affidavit.
Beware ! all use without the author's authorization will be considered an offence and will lead to proceedings. Every modification or copy of this document will lead to proceedings.



3c14c5091f191db578780f4e846d7a176d3cb058592f3b129f067ba1aa063728

كلمة فريق عمل مدوّنة روح

الحمد لله الذي علّم الإنسان بالقلم، وخصّه بنعمة البيان، وجعل تدبّر كتابه العزيز سبيلًا للهداية. أمّا بعد،

يمرّ الفكر الديني المعاصر بمنعطفٍ تاريخي يفرض إعادة تأسيس العلاقة مع النصّ المؤسِّس؛ فكثير من المفاهيم والمناهج قد ترسّخت عبر القرون حتى غدت في الوعي العام بمنزلة المسلّمات المطلقة. في خضمّ هذه الحاجة الملحة للمراجعة والتجديد، يأتي مشروع الأستاذ الدكتور رشيد سليم الجرّاح ليقدّم قراءةً مغايرة للقرآن الكريم، قراءةً لا تكتفي بحدود التفسير الموروث بل تتجاوزه نحو فهمٍ جديد يتأسّس على منهجٍ علميٍّ دقيق، يلامس روح النصّ بعمق ويقترب من منطق العقل والفطرة السليمة.

لعلّ في الاسم الذي يحمله الدكتور رشيد سليم الجرّاح إشارةً بالغة الدلالة؛ فهو بحقٍّ يُجري عمليةً جراحية للكلمة القرآنية. إنه يتعامل مع مفردات الوحي برُشدٍ متناهٍ، كأنّه يضعها تحت مجهر الفكر واللغة، فيُريك نسيجها العضوي، ويكشف عن أعصابها الصرفية وعروقها الدلالية، لتتجلّى بذلك أبعادها النفسية والمادية العميقة. هكذا تتحوّل الكلمة في مشروعه من مجرّد رمزٍ صوتي إلى كيانٍ حيٍّ نابضٍ بالمعنى، يحمل إمكانات التأويل التي تنتظر التحرير.

لقد كانت أبحاث الدكتور الجرّاح ومقالاته بمثابة أطروحات نوعية تميّزت بالعمق والجرأة الفكرية، فمثّلت دعوةً صريحةً لإعادة بناء علاقتنا التلقّائية بالوحي، لا على قاعدة التلقّي الجامد، بل على أساس الفهم المتدبّر والتحليل العلمي المحكم. وهي دعوةٌ ضرورية تُعيد إلى النصّ حيويته الجوهرية، وإلى الفكر الديني توازنه المنشود، وتُحيي مسؤولية الباحث في إعمال العقل وكسر حاجز السؤال الموقوف.

وانطلاقًا من قناعتنا الراسخة بأهمية هذا المشروع الريادي، وبضرورة حفظه وتوثيقه ليكون مرجعًا للباحثين والمهتمين، تضافرت جهود فريق المدوّنة. لقد قمنا بجمع هذه المقالات والدراسات المنشورة، ومن ثم تنظيمها وتصنيفها وتحريرها بعناية فائقة، لتصدر الآن في هذا العمل المتكامل الذي نضعه بكل تقدير بين يدي القارئ الكريم.

نحن نؤمن يقينًا بأنّ هذه الكتابات تمثّل إسهامًا محوريًا في مسار الفكر القرآني المعاصر، وأنها تفتح آفاقًا رحبة للتأمّل والمراجعة والتجديد، بما يليق بكتابٍ أنزله الله للعقل قبل التقليد، وللحياة قبل التاريخ.

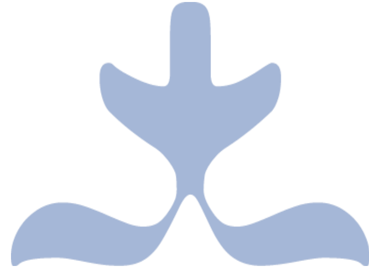
إنّ هذا العمل ليس سوى نقطة انطلاق في مسارٍ نأمل أن يكون مستدامًا؛ وفاءً لصاحب هذا المشروع العلمي الرائد، وإيمانًا بما قدّمه من اجتهادٍ صادق ورؤيةٍ علمية مغايرة تستحقّ كل التقدير والاحتفاء.

فريق عمل مدوّنة الدكتور رشيد الجراح:

- المهندس **عامر محمد العوض، مهندس نظم المعلومات من مايكروسوفت.**
- المهندس **زكرياء مصباح، مهندس مدني.**
- الأستاذ **مصطفى عيسى، مصمم ديكور ومستشار في العقارات.**
- الأستاذ **محمد عادل الخولي، مستشار في العقارات.**
- الدكتور **يوسف فرمي، مهندس البحث والتطوير في الإلكترونيات الدقيقة والبصريات.**

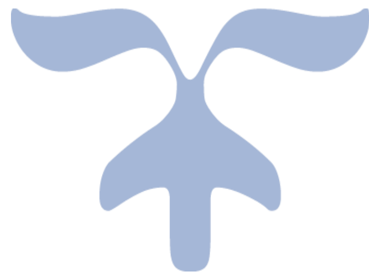
للإتصال بالفريق : roohblog2025@gmail.com

الفهرس



قصة يونس

الجزء الأول



قصة يونس: الجزء الأول

نحاول في هذه المقالة تسليط الضوء على قصة يونس من منظور نظن أنه فيه الشيء الجديد الذي قد يرضي بعض من كان هدفه البحث بعيدا عن موروثات الآباء والأجداد، فنحن نزعم القول أن كلامنا قد يختلف بشكل جذري عن كل ما وصلنا من عند أهل الدراية من سادتنا العلماء كما نقله لنا أهل الرواية في بطون أمهات كتب التفسير. فمن كان هدفه أن لا يناقش موروثاته، فليغلق هذه الصفحة على الفور وليرجع إلى صفحات كتبه الصفراء العتيقة لينهل من غزير العلم فيها. أما من كان يظن أنه ربما ترك لنا الأجداد بعض المتردم الذي يستحق أن ننفق فيه وقتنا، فهذه فسحة من المكان لينظر في تخريصات ربما تطرق مسامعه للمرة الأولى.

لكننا نوجه التحذير لهؤلاء الراغبين في التخريص معنا بأن ما نقوله لا يعدو أكثر من أفهام مفتراة من عند أنفسنا للنص القرآني. فليس بالضرورة أن تكون صحيحة، لأننا لازلنا بشرا ربما نصيب وقد نخطئ. فإن أصبنا فهذا من فضل ربنا علينا، وإن أخطأنا فهذا من سوء ما عملت أيدينا. فكلامنا هذا دعوة للتفكر وليست عقائد ومسلّمات ليسكت عليها وترقى إلى درجة القدسية كقدسية النص الذي استنبطت منه. فشتان بين قول الله الذي هو الحق المبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وقولنا (نحن البشر) الذي غالبا ما يخطئ المقصد وقليلا ما يصيب كبد الحقيقة.

وسيكون الهدف الرئيس في هذه المقالة هو محاولة إيجاد بعض الإجابات على التساؤلات التالية التي نثيرها حول قصة هذا الرسول الكريم (يونس)، سائلين الله وحده أن يهدينا رشدنا وأن يعلمنا ما لم نكن نعلم، وأن يجعل فضله علينا عظيما، وأعوذ به وحده أن أكون ممن وقع عليهم القول فهم لا ينطقون، إنه هو السميع المجيب – آمين.

التساؤلات

- من هو يونس؟
- لماذا سُمِّي بذي النون؟
- أين عاش؟
- متى عاش؟
- من هم قومه؟
- لماذا ترك قومه؟
- لماذا ركب الفلك المشحون؟
- وما هو الفلك المشحون؟
- لماذا ساهم؟
- لماذا كادت تكون نهايته على تلك الشاكلة (في بطن الحوت)؟
- كيف التقمه الحوت؟
- وما هو ذلك الحوت الذي التقمه؟
- وأين حصل ذلك؟

⇐ كم لبث في بطن الحوت؟
⇐ لماذا نجّاه الله من ذلك الغم؟
⇐ لماذا نبذ بالعراء؟
⇐ لماذا تداركته رحمة ربه بعد أن نبذ في العراء؟
⇐ ما هي شجرة القطين التي أنبتت عليه؟
⇐ وأين هي تلك الشجرة؟
⇐ لماذا رجع إلى قومه بعد ذلك؟
⇐ كيف رجع إليهم؟
⇐ كيف آمنوا كلهم؟
⇐ لماذا كان عددهم مئة ألف أو يزيدون؟
⇐ الخ

وفي محاولة منا لجمع إجابات غير متنافرة على هذه التساؤلات التي غالبا ما اجتزءت من سياقها العام (وهو ما نظن أن أهل الدراية من قبلنا قد فعلوه)، فإننا نقدم افتراءات من عند أنفسنا عن قصة يونس، متخيلين أحداث قصة هذا الرسول الكريم (يونس) الرئيسية وقد حصلت على النحو التالي:

⇐ كان يونس في قومه من المسبحين
⇐ كان يظن أن الله سيجتبيه بالرسالة، فما حصل له ذلك
⇐ بعث الله رسولا إلى قوم يونس يدعوهم إلى الإيمان
⇐ كان ذلك سببا كافيا ليسبب الغضب عند يونس نفسه، فكان مغاضبا
⇐ عندما لم يحصل الاجتباء الإلهي ليونس ليكون رسولا، خرج مغاضبا وذلك لأن الرسالة قد جاءت غيره
⇐ ظن يونس أن الله لن يقدر عليه
⇐ خرج يونس مع نفر من قومه مطاردا ذلك الرسول والذين آمنوا معه
⇐ حصل اللقاء بينهم في البحر
⇐ ركب يونس الفلك المشحون مطاردا المؤمنين
⇐ حصلت مواجهة في البحر بين يونس من جهة وأولئك النفر الذين خرج مطاردا لهم من المؤمنين
⇐ انتهت المواجهة بهزيمة يونس ومن معه
⇐ غرقت سفينة يونس بمن فيها من الرجال وما فيها من الأسلحة
⇐ التقم الحوت يونس عندما غرق
⇐ عندما استقر يونس في بطن الحوت، تذكر هناك أن المنجي هو الله وحده
⇐ عاد يونس إلى رشده
⇐ نادى في الظلمات مقرا بوحدانية الله
⇐ نجّاه الله من ذلك الغم
⇐ كانت النجاة الإلهية مكافئة له على ماضيه، أي لأنه كان من المسبحين

- ⇐ أُخرج يونس من بطن الحوت، فنُبذ في العراء وهو سقيم
- ⇐ أُنبتت عليه شجرة من يقطين
- ⇐ شُفِي يونس من سقمه
- ⇐ جاءته الرسالة هناك، فاجتباه ربه وجعله من المرسلين
- ⇐ أرسله الله إلى قومه أنفسهم
- ⇐ آمنوا ومُتعوا إلى حين
- ⇐ لما آمنوا كشف الله عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا
- ⇐ الخ

إن هذا الطرح الذي قد يبدو غريبا للوهلة الأولى دعانا إلى تقديم افتراء خطير جدا هو لا شك من عند أنفسنا مفاده أن قصة يونس في خطوطها العريضة تشبه تماما قصة فرعون. ونحن نتجرأ على افتراء الظن بأن فرعون كاد أن يكون رسولا مثل يونس لو أنه تذكر أو خشي. وكادت أن تكون نهاية يونس كنهاية فرعون لولا أنه كان في ماضيه من المسبحين. فكيف حصل ذلك؟

أما بعد، دعنا نبدأ القصة من نهايتها طارحين التساؤل الكبير التالي: ما الفرق بين ما حصل مع يونس وما حصل مع فرعون في حادثتي الغرق؟

جواب: لو تدبرنا النص القرآني جيدا لوجدنا أن نهاية الرجلين كادت تكون بالغرق في الماء.

فرعون & يونس

فرعون

- ⇐ يخرج ملاحقا موسى ومن معه فيدركه الغرق
- ⇐ يحاول اللحاق بموسى ومن معه داخل الماء
- ⇐ يدركه الغرق، فيدخل في الماء، فيتذكر أن الله وحده هو القادر على أن نجيه
- ⇐ يطلب النجاة بالإيحاء وليس بالتصريح
- ⇐ عندما يدركه الغرق ينطق بكلمة الإيمان
- ⇐ عندما نطق بكلمة الإيمان جاءته النجدة الإلهية بالنجاة
- ⇐ كانت نجاته ببدنه
- ⇐ كان في ماضيه من المفسدين

يونس

- ⇐ يخرج مغاضبا
- ⇐ يساهم
- ⇐ يدركه الغرق، فيدخل في بطن الحوت، فيتذكر أن الله هو وحده القادر أن ينجيه
- ⇐ يطلب النجاة بالإيحاء وليس بالتصريح
- ⇐ يقر بذنبه بأنه كان من الظالمين، فيستغفر ربه
- ⇐ جاءته النجدة بالنجاة
- ⇐ ينجو كله

⇐ كان في ماضيه من المسبحين

والآن دعنا نبحث عن الدليل الذي ربما يدلّل على صحة افتراءاتنا هذه من كتاب الله الكريم، مبتدئين النقاش بالآيات الكريمة جميعها التي جاءت في كتاب الله عن قصة هذا الرسول الكريم، قال تعالى:

- **وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (139) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (140) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (141) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (142) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (144) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (145) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (146) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (147) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ(148)**
- **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (49) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ(50)**
- **فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ(98)**
- **وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ(88)**

بناء على ما في هذه الآيات الكريمة من القول الحق، فربما نتجرأ على طرح التساؤلات المثيرة والغريبة بعض الشيء تباعا. فلنبدأ بالتساؤل الأول الذي تثيره مفردات الآية الكريمة التالية كما نفهمها:

- **وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ(88)**

سؤال 1: لماذا ذهب ذو النون مغاضبا؟ فما الذي أغضبه؟ أو من الذي أغضبه؟

سؤال 2: كيف ظن أن لن نقدر عليه؟ ومن المقصود في هذا الخطاب؟ ولماذا ظن أن لن نقدر عليه؟

نتيجة مفتراة 1: لا شك أن ذا النون كان مغاضبا، أليس كذلك؟

السؤال: ما معنى أن ذا النون كان مغاضبا؟ أو ما معنى مفردة مغاضبا؟ وكيف تختلف عن كلمة غضبان مثلا؟ ألم يرجع موسى إلى قومه غضبان آسفا؟

- **وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(150)**
- **فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي(86)**

السؤال: لماذا رجع موسى غضبان؟ ولماذا ذهب ذو النون مغاضبا؟ فما الفرق؟

رأينا المفترى: لو تفقدنا السياقات القرآنية الخاصة بفعل الغضب (غَضِبَ) لوجدناها محصورة جميعا بالذات الإلهية:

- **وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌۚ اهْبِطُوا مِصْرًا**

فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ(61)

- بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ(90)
- ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ(112)
- وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا(93)
- قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ(60)
- قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ(71)
- إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ(152)
- وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(16)
- مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(106)
- كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ(81)
- وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ(9)
- وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ(16)
- وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا(6)
- أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ(14)
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ(13)
- وما ورد هذا الفعل (غضب) مصاحبا للناس إلا في موطن واحد من الكتاب الكريم في الآية الكريمة التالية:
- وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ(37)

كما أن "الغضب" (كصفة وليس كفعل) لم تصاحب إلا شخصا واحدا في كتاب الله، ألا وهو نبي الله وكليمه موسى:

- **وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ ۖ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ(154)**
- **فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي(86)**

السؤال: لماذا كان موسى فقط (من بين رسل الله جميعا) هو من اتسم بصفة الغضب؟ لِم لَم ترد هذه الصفة مصاحبة لنوح مثلا أو لإبراهيم أو لعيسى بن مريم أو حتى لمحمد؟ فلم كان موسى من بين جميع أولي العزم من الرسل من حصل عنده الغضب؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الغضب وقع عند موسى لأنه كان يحاول أن ينقذ بني إسرائيل من أن يحل عليهم الغضب الإلهي. فكيف كان ذلك؟

الدليل

لعلنا جميعا نعلم الخطوط العريضة لما فعله موسى ليخرج ببني إسرائيل من أرض مصر ويعود بهم إلى الأرض التي كتب الله لهم:

- **فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ(17)**

ولكن، لو تدبرنا السياق القرآني التالي لوجدنا أنه كان متوقعا أن يحل عليهم غضب من ربهم) وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى .(فلننظر السياق القرآني ثم نحاول تدبره بعد ذلك:

- **وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى (77) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (78) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (79) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى (80) كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (81) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى(82)**

ولكي نفهم كيف كانت إمكانية أن يحل عليهم غصب من ربهم واردة، فعلينا بداية أن نتذاكر معا ما حصل في ميعاد موسى مع ربه عندما كُتِب له في الألواح. فهناك جاء موسى الخبر اليقين من ربه بحصول الفتنة الإلهية لقومه من بعده، بسبب ضلالة السامري:

- **وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى (83) قَالَ هُمْ أُولَاء عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (84) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي(86)**

راقب – عزيزي القاري- هذا النص جيدا لتجد أن موسى قد رجع إلى قومه غضبان آسفا بعدما جاءه العلم اليقين من ربه بحصول الفتنة الإلهية لقومه (قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ)، وكان ذلك بسبب ضلالة السامري لهم) وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ(، فكان أول ما نبههم موسى منه عندما عاد إليهم هو أن التذكير باحتمالية أن يحل عليهم غضب من ربه) أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ .(السؤال لماذا؟

لو دققنا في هذه الحادثة جيدا لوجدنا أن ما حصل من بني إسرائيل هي الفتنة بدليل أن الله هو من فتنهم كما جاء الخبر لموسى من ربه:

- **قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ(85)**

ولما كان القوم قد وقعوا في الفتنة، فهم لم يرتدوا تماما عن دينهم الذي هُمْ عليه، فجلّ ما حصل أنهم أجلوا اتخاذ القرار حتى يرجع إليهم موسى بنفسه:

- **وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (90) قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى(91)**

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: كان القوم لازالوا في مرحلة الفتنة، فهم قد فتنوا ولكنهم لم يرتدوا بعد.

السؤال: ما الفرق؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أنه لو ارتد القوم عن دينهم، لوقع عليهم غضب من ربهم، ولأصبح العذاب واقع بهم لا محالة. وذلك لأن الغضب لا يحصل إلى بعد الارتداد عن الإيمان.

الدليل

لجلب الدليل على هذا القول المفترى من عند أنفسنا، وجدنا أنه من الضروري أن نطرح التساؤل التالي مرة أخرى: لماذا كان موسى من بين جميع رسل الله هو من غضب؟

رأينا المفترى: لو تدبرنا سيرة أنبياء الله جميعا لوجدنا أن القوم الذين كانوا يدعونهم إلى رسالة التوحيد لم يصدّقوا رسالة ربهم عن طريق رسلهم، فأقوام هؤلاء الأنبياء لم يؤمنوا برسالات رسلهم إليهم أساسا، فلم يؤمن مثلا قوم نوح برسالة نوح (إلا قليل)، وكذلك كان حال قوم لوط وشعيب وصالح وهود، الخ. لذا لم يكن وقوع العذاب عليهم سببه ارتدادهم عن دينهم بعد إيمانهم. فما كان ذلك (أي وقوع العذاب عليهم) سيسبب الغضب عند رسلهم، كما جاء على لسان شعيب مثلا:

- **فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (91) الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ (92) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ(93)**

نتيجة: مادام أن القوم لازالوا في مرحلة الكفر، فإن وقوع العذاب عليهم لم يكن ليسبب الأسى عند نبيهم.

لكن القصة بالنسبة لموسى على وجه التحديد كانت مختلفة تماما. فالقوم الذين خرجوا معه كانوا مؤمنين برسالته (فهم بنو إسرائيل)، وما أن تركهم موسى مستعجلا لقاء ربه حتى كادت ضلالة السامري أن تردهم عن دينهم، فوقعت الفتنة. فما الذي كان يمكن أن يحصل لو أن القوم فعلا ارتدوا عن دين موسى؟

رأينا المفترى: نحن نكاد نجزم الظن (مفترينه من عند أنفسنا بالطبع) أنه لو ارتد القوم فعلا عن دينهم (دين التوحيد) لوقع عليهم العذاب من عند ربهم لأن ذلك كان سيجلب عليهم غضب من ربهم. وانظر – إن شئت- في كيفية خطاب موسى لقومه بعد أن رجع إليهم:

- **فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي(86)**

نتيجة مفتراة: الغضب الإلهي لم يحل عليهم، ولكنه كاد أن يحل عليهم بدليل قول موسى (أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ). فبقي ذلك في طور الإرادة ولم ينتقل إلى حيز التنفيذ (للتفصيل في هذه الموضوع انظر مقالتنا في التسيير والتخيير)

فما الذي حصل فعلا؟

تخيلات من عند أنفسنا: ما أن استعجل موسى للقاء ربهم، حتى سنحت الفرصة للسامري أن يضل القوم من بعده عندما أخرج لهم عجلا جسدا له خوار:

- **فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ(88)**

عندها، حصلت الفتنة الإلهية للقوم، فأصبحوا في حيرة من أمرهم مادام أنها فتنة حصلت لتميز الخبيث من الطيب، ليحصل العلم الإلهي فيهم

- **أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ(3)**

للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان :هل لعلم الله حدود؟

فكانت الغالبية الساحقة منهم في صف السامري، ولم يستطع هارون على فصاحته أن يردهم عن هذه الضلالة. (للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان قصة موسى: باب السامري. فكان القرار هو انتظار عودة موسى إليهم:

- **قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى(91)**

السؤال المثير: إن صح ما تقول، فلماذا لم يقع على من ضلّ منهم (كالسامري ومن اتبعه منهم مثلا العذاب؟ يستغرب صاحبنا قائلا.

رأينا: نحن نظن أن هذا كان تدبيرا حكيما من هارون

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب: لأنه بقي متواجدا بينهم بالرغم من أن القوم استضعفوه وكادوا يقتلوه.

السؤال: لماذا بقي هارون بينهم؟ لماذا لم يلحق بموسى كما جاء على لسان موسى عندما عاد إليهم؟ ما الذي كان يدفع هارون أن يبقى بين ظهرانيهم فلا يلحق بموسى مادام أن القوم استضعفوه وكادوا يقتلوه؟ أليس هذا ما سأل موسى هارون عنه عند عودته؟

- **قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (93)**

جواب: لأن هارون لم يريد أن يفرّق بين بني إسرائيل. وانظر – إن شئت- رد هارون على سؤال أخيه:

- **قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي(94)**

نتيجة مفتراة: كان السبب الذي منع هارون أن يتبع أخاه موسى بالرغم من استضعاف القوم له وبالرغم أنهم كادوا يقتلوه هو حتى لا يفرق بين بني إسرائيل.

السؤال: ما الذي كان من الممكن أن يحصل لو أن هارون اتبع أخاه موسى؟ أو ما الذي كان يمكن أن يحصل لو أن هارون فرّق بين بني إسرائيل، فاتبع أخاه موسى بمن بقي مؤمنا معه؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا أن العذاب كان – لا محالة- سيحل على من ضلّ من بني إسرائيل كالسامري ومن اتبعه جميعا.

سؤال: هل تهذي يا رجل؟ أتعي ما تقول؟ هل كان بقاء هارون بينهم هو ما منع نزول العقاب الإلهي على القوم بعد أن أضلهم السامري؟ أتريدنا أن نصدق ما تقول؟

جواب: نعم بكل تأكيد. لقد تحمل هارون أذى القوم (عندما استضعفوه وكادوا يقتلوه) رأفة بحالهم حتى لا يحلّ عليهم العذاب من ربهم. فبقاء هارون بينهم (ومن معه من المستضعفين من بني إسرائيل) هو (نحن نفتري القول) ما حال دون أن يحلّ الغضب الإلهي عليهم، وبالتالي منع بقاؤه فيهم نزولَ العذاب الإلهي عليهم.

السؤال: وأين الدليل على مثل هذا الافتراء ربما غير المسبوق؟ يسأل صاحبنا مستغربا.

جواب: دعنا نقرأ الآيات الكريمة التالية:

- **وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ(33)**

لو تدبرنا هذه الآية الكريمة جيدا لوجدنا أن ما يمنع حصول العذاب الإلهي على القوم هما أمران اثنان، لا ثالث لهما:

1. وجود الرسول فيهم (وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ)
2. أن يكونوا مستغفرين (وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

نتيجة مفتراة: لذا، نحن نفتري الظن بأن وجود هارون (كرسول الله) فيهم، ووجود بعض المستغفرين منهم (وهم اللذين استضعفوا معه) هو الذي (نحن نفتري القول) حال دون حدوث الغضب الإلهي وبالتالي نزول العذاب على القوم في غياب موسى.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: كان بقاء هارون فيهم بالرغم من استضعاف القوم له وبالرغم أنهم كادوا يقتلوه حتى لا يفرق بين بني إسرائيل، فيقع العذاب على من ضل منهم مع السامري لو أن هارون تركهم واتبع أخاه موسى بمن بقي معه من المؤمنين.

تخيلات: نحن نتخيل الأمر وقد حصل على النحو التالي: يستعجل موسى للقاء ربه، فيترك هارون فيهم كخليفة له. يستغل السامري غياب موسى فيُخرِج للقوم عجلا جسدا له خوار، فتكون تلك هي ضلالته لهم، تحصل نتيجة هذه الضلالة الفتنة، فينقسم القوم (بني إسرائيل) إلى فريقين غير متكافئين في العدد. يحاول هارون أن يردهم عن ضلالة السامري بفصاحته، فلا يفلح. تصبح الغلبة للسامري ومن اتبعه. يتم استضعاف هارون، ويكاد القوم أن يقتلوه. يجد هارون نفسه في مأزق (ورطة): أن يبقى بين ظهرانيهم ويتحمل استضعافهم له أو أن يتبع أخاه موسى ويترك اللذين أضلهم السامري مع عجلهم وراءه! كان قراره الذي اتخذه هو أن يبقى بين ظهرانيهم ويتحمل أذاهم. ولو أنه اتبع أخاه موسى بمن بقي مؤمن من بني إسرائيل لكان هارون بمثل هذا الفعل قد فرّق بين بني إسرائيل، أي جعلهم فريقين ولم يرقب قول موسى في ذلك. آثر هارون أن يبقى هناك ليرقب قول موسى فيهم قبل أن يفرق بين بني إسرائيل، وذلك لأن قرار كبيرا جدا كهذا يتطلب انتظار قول موسى نفسه، فلم يقدر هارون أن يتخذ قراره الفردي بهذا الشأن لأن الأمر على خطورة بالغة قد لا يقدر هارون بمفرده أن يتحمل عواقبها.

وما أن عاد موسى، حتى أصبح حصول الغضب الإلهي غير وارد مادام أن فيهم الآن رسولان (هارون وموسى)، ولكن المفارقة الغريبة جدا هي أن موسى هو من رجع إليهم غضبان آسفا؟
تساؤلات

- لماذا رجع موسى غضبان؟
- فما الذي أغضبه؟
- فكيف يرجع من كان في لقاء مباشر مع ربه غضبان؟
- ولماذا كان آسفا؟
- وكيف يختلف الغضب عن الأسف؟
- الخ.

باب الأسف

رأينا المفترى: في سلسلة مقالاتنا عن قصة موسى تحت عنوان باب السامري، زعمنا الظن بأن أسف موسى كان سببه العصا. فموسى كان آسفا لأنه ترك العصا في يد خليفته في قومه وهو أخوه هارون الذي لم يدرك تماما قيمتها، فأهملها، وانتهز السامري الفرصة، فاستطاع بقبضة من تلك العصا أن يخرج لهم ذاك العجل الجسد الذي كان له خوار، وهو الذي أحدث الضلالة فيهم .(للتفصيل انظر تلك المقالة).
لكن ما يهمنا إضافته هنا هو أن الآسف عادة ما يكون (نحن نظن) بسبب فقدان شيء مادي دنيوي. فهذا يعقوب يفقد ولده يوسف، فيأسف عليه:

- **وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ(84)**

لذا، نحن نتجرأ على افتراء الظن بأن أسف موسى كان سببه التفريط في العصا.

باب الغضب

لكن يبقى التساؤل التالي قائما: لماذا رجع موسى غضبان؟ فما الذي أغضبه خاصة إذا ما علمنا أنه كان راجعا من لقاء ربه وهو يحمل الألواح التي كُتب له فيها من كل شيء؟ ولماذا ألقى الألواح بمجرد وصوله القوم؟ ولماذا أخذ برأس أخيه يجره إليه؟

- **وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(150)**

رأينا المفترى: لأن الغضب (نحن نظن) لا يحصل إلا لسبب عقائدي. فأنت لا تغضب بسبب فقدان شيء مادي، ولكنك تغضب لله. ولو تدبرنا السياقات القرآنية السابقة الخاصة بالغضب الإلهي لوجدنا أن الإله نفسه يغضب عندما يرتد الناس عن الإيمان:

- **وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ(61)**

- بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ(90)
- ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ(112)
- وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا(93)
- قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ(60)
- قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ(71)
- إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ(152)
- وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(16)
- مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(106)
- كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ(81)
- وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ(9)
- وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ(16)
- وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا(6)
- أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ(14)
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ(13)

السؤال: لماذا عاد موسى غضبان إذن؟

جواب: مادام أن موسى قد عاد غضبان فإننا نتجرأ على تقديم الافتراءات التالية:

⇐ كان الذي سبب الغضب عند موسى هو سبب عقائدي، وهو ضلالة السامري لقومه بعد أن تركهم مؤمنين

⇐ مادام أن موسى عاد غضبان ومكث في قومه ولم يتركهم، فهو كان بذلك يمنع نزول العذاب الإلهي (كما فعل هارون من قبله)

⇐ مادام أن موسى كان غضبان، فهو إذا من سيتولى بنفسه إيقاع العذاب على من ضل من القوم كالسامري، ولنرقب ما قاله موسى للسامري بملء الفم:

- **قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا(97)**

ألا ترى - عزيزي القارئ- أن موسى هو من تكفل بإيقاع العذاب على السامري عندما خاطبه بالقول المباشر:

- **قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ**
- **وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تُخْلَفَهُ**

ثم ألم يتكفل هو بنفسه مهمة التخلص من العجل نفسه:

- **وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا**

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: لو تدبرنا صيغة ضمير المتكلم في هذه الآيات الكريمة، لربما تجرأنا على افتراء الظن بأن ما فعله موسى هو إيقاع العذاب بنفسه على السامري الذي أضل القوم في غياب موسى. وسنتحدث لاحقا بحول الله وتوفيقه عن هذه العقوبات الثلاث بالتفصيل في سياق متابعة حديثنا عن قصة موسى، سائلين الله وحده أن يعلمنا ما لم نكن نعلم، وأن ينفذ أمره بمشيئته وإرادته لي الإحاطة بشيء من علمه لا ينبغي لغيري إنه هو الواسع العليم – آمين).

أما هنا، فإننا مهتمون الآن بمسألة غضب موسى عندما رجع إلى قومه من لقاء ربه يحمل الألواح التي كتب الله له فيها موعظة وتفصيلا لكل شيء. فلو دققنا في السياق القرآني التالي الذي يبرز أيضا غضب موسى، لوجدنا أن ذاك الغضب لم يسكت عن موسى إلا بعد أن أوقع العذاب بالسامري:

- **وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (150) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (151) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (152) وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَآمَنُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (153) وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ(154)**

مؤكدا في الوقت ذاته على أمرين اثنين:

⇐ أن الذين اتخذوا العجل ولم يعودوا إلى صوابهم لن ينجو من العذاب الإلهي:

- **إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ(152)**

⇐ أن الذين عملوا السيئات منهم ثم تابوا من بعد ذلك وآمنوا بربهم سيجدون ربهم غفورا رحيما:

- **وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَآمَنُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ(153)**

وهناك فقط سكت عن موسى الغضب، فعاد ليأخذ الألواح، ويتابع مسيرته (والذين آمنوا معه من بني إسرائيل) صوب الأرض المقدسة التي كتب الله لهم.

نتيجة مفتراة: كان موسى هو من غضب بسبب ضلالة السامري لقومه بعد أن كانوا مؤمنين، ولما كان هو من غضب تولى بنفسه مهمة إيقاع العذاب على من سبب الضلالة للقوم، فكان بذلك يعمل على إنقاذ بني إسرائيل من أن يحل عليهم غضب من ربهم:

- **فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي(86)**

الافتراء الخطير: نحن نظن أنه لولا تدارك موسى الأمر بعد عودته، ولولا حكمة هارون ببقائه بين ظهرانيهم حتى لا يفرّق بين بني إسرائيل من قبل، لكان العذاب الإلهي لا محالة سيحل بمن ضل منهم بعد أن كان مؤمنا. والله أعلم

عودة على بدء

نحن نعود من مناقشة بعض جوانب مفردة "الغضب" في النص القرآني إلى صلب النقاش عن قصة يونس بالافتراء الكبير التالي: أن الغضب يحصل بدافع عقائدي، وليس من أجل شيء دنيوي مادي. لذا نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن حصول الغضب عند يونس كان سببه عقائدي بحت وليس مادي دنيوي، ولو ذهب يونس بسبب دافع مادي لربما جاء النص القرآني على نحو أنه كان آسفا. الأمر الذي يدعونا إلى الطرح التساؤل التالي على الفور: ما الذي أغضب يونس؟ أو ما هو الأمر العقائدي الذي بسببه حصل الغضب عن يونس، فذهب مغاضبا؟

رأينا: لو دققنا في السياق الخاص بنبي الله يونس لوجدنا أن هناك فارق كبير بين حالة موسى وحالة يونس، ففي حين أن موسى قد رجع غضبان) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا(، ذهب ذو النون (يونس) مغاضبا) وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا .(فما الفرق بين من رجع غضبان (كموسى) ومن ذهب مغاضبا (كذي النون)؟

رأينا المفترى: عندما يحصل الغضب فهو يحصل - لا شك- من طرف باتجاه طرف آخر. فأنا قد أكون غضبان منك ولكن ليس بالضرورة أن تكون أنت غضبان مني، والعكس صحيح.

ولو تفقدنا سياقات الفعل (غضب) التي لازمت الإله نفسه في النص القرآني كله لوجدنا على الفور أن الله هو من غضب على من ارتد عن دينه مثلا، ولكن اللذين ارتدوا لا يغضبون على الله، أليس كذلك؟ وانظر – إن شئت- في تلك السياقات جميعها مرة أخرى:

- **وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ(61)**
- **بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ(90)**

- ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ(112)
- وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا(93)
- قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ(60)
- قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ(71)
- إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ(152)
- وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(16)
- مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(106)
- كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ(81)
- وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ(9)
- وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ(16)
- وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا(6)
- أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ(14)
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ(13)

وبالمنطق نفسه، فإننا نتجرأ على الظن بأن موسى هو من عاد غضبان على من ضل من قومه، لكن لم يحصل غضب من اللذين ضلوا (كالسامري) على موسى. لذا كان الغضب من طرف واحد باتجاه طرف آخر.

لكن – بالمقابل- نحن نتجرأ على افتراء الظن بأنه في حالة من كان مغاضبا (كيونس)، فإن الغضب يكون متبادلا، أي أنه يحصل من قبل الطرفين اتجاه بعضهما البعض. فإذا ما حصل الغضب من طرفي باتجاهك، وفي الوقت ذاته حصل الغضب من طرفك باتجاهي، فإن كل منا يغضب على الآخر، فيكون هو سبب غضب الآخر، ويكون هو من وقع عليه غضب الآخر، وفي هذه الحالة (نحن نفتري الظن) يكون كل منا مغاضبا، فيكون الفعل تبادليا (أو reciprocal باللسان الأعجمي).

السؤال: لماذا؟

رأينا: لأن المسؤولية تكون مشتركة. فأنا أغضب منك عندما تسبب أنت لي ما يغضبني، وأنت تغضب مني عندما أسبب أنا لك ما يغضبك. فيكون كل منا سبب في حصول غضب الآخر. وهذا ما نظن أنه كان في حالة ذي النون عندما خرج مغاضبا.

السؤال: من الذي سبب الغضب لذي النون حتى ذهب مغاضبا؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الإجابة على هذا التساؤل تتطلب النبش في كيفية ذهاب ذي النون، لنطرح السؤال الآن على النحو التالي: لماذا ذهب ذو النون ذهابا؟ لماذا لم يخرج خروجا؟ وأين ذهب الرجل؟ ومن أين جاء أصلا؟ وإلى أين كان متجها؟ ولماذا؟

باب ذَهَبَ

عندما حاولنا تفقد معنى هذه المفردة في السياقات القرآنية، وجدناها مصاحبة للناس في الآيات الكريمة التالية التي بعد أن حاولنا أن نتدبرها خرجنا بالاستنباطات المفتراة التالية التي هي لا شك من عند أنفسنا:

⇐ الذهاب يعني وجود مشكلة ما:

- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا(19)
- إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا النساء(133)
- وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ الأنعام(133)
- قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ يوسف(13)
- فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ يوسف(15)

⇐ أو يمكن أن ينتج عنه مشكلة ما:

- قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُۖ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ يوسف(17)
- أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ(17)
- أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ(19)
- أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ(8)
- قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا(63)
- وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا(86)
- فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ(41)

- ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ(33)

⇐ الذهاب يمكن أن يكون بناء على طلب الغير كما جاء في طلب موسى من السامري:

- قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا(97)

⇐ أو كما جاء في طلب بني إسرائيل من نبيهم موسى نفسه:

- قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ۖ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ(24)

أو كما جاء في الطلب الإلهي من موسى:

- اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ(24)
- اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي(42)
- فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا(36)
- قَالَ كَلَّا ۖ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ(15)
- اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ(43)
- اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ(17)

⇐ ويكون ذلك في مهمة محددة

- اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ(44)
- اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (17) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ (18) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ(19)
- يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ(15)
- اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ(93)
- قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا(63)
- قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ(63)
- مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ(91)
- اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ(28)

⇐ وقد يتطلب الذهاب طلب الإذن (أي الاستئذان):

- إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(62)

⇐ وإذا لم يكن ذاك بالاستئذان، تطلب ذلك وقوع دفع البدل:

- وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (11)

⇐ وقد يحصل في فعل الذهاب نوع من التشويش على ما حصل فعلا، فيقع أمر ما في باب الحسبة (الظن):

- يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواۖ وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْۖ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا(20)

عودة على بدء:

لماذا ذهب ذو النون؟ وكيف ذهب؟ ومن أين ذهب؟ وإلى أين ذهب؟

- وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(87)

بناء على ما سبق، فإننا نتجرأ على تقديم الافتراءات التالية:

⇐ كان ذهاب ذو النون بسبب مشكلة ما

⇐ حصل نتيجة ذهابه مشكلة ما

⇐ لم يذهب ذو نون بناء على طلب من أحد، ولكنه كان قرارا شخصيا

⇐ ذهب ذو النون في مهمة محددة

⇐ حصل نتيجة ذلك تشويشا على الهدف من ذهابه.

⇐ الخ

السؤال: كيف حصل كل ذلك؟

افتراءاتنا: نحن نفتري الظن بأن مشكلة عقائدية حصلت آنذاك، سببت الغضب لدى ذي النون، فاتخذ قراره الشخصي بالذهاب، ولم يأتيه الأمر من أحد، ولم يستأذن أحدا في ذلك، فنتج عن ذلك مشكلة ما.

تفنيد الفكر السائد

لعل أكثر الذي أشكل في قصة ذي النون هو الفهم المغلوط بأن ذا النون كان رسولا عندما خرج مغاضبا. فدعنا نجلب ما وجدناه في بطون أمهات كتب التفسير عن قصة هذا النبي الكريم كما وصلنا عن طريق أهل الرواية من عند أهل الدراية في تفسير الطبري مثلا للآية الكريمة التالية التي تتحدث عن ذهاب ذي النون:

- وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(87)

وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه القول في تأويل قوله تعالى : { وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه } يقول تعالى ذكره : واذكر يا محمد ذا النون , يعني صاحب النون . والنون : الحوت . وإنما عنى بذي النون : يونس بن متى , وقد ذكرنا قصته في سورة يونس بما أغنى عن ذكره في هذا الموضع , وقوله : { إذ ذهب مغاضبا } يقول : حين ذهب مغاضبا . واختلف أهل التأويل في معنى ذهابه مغاضبا , وعمن كان ذهابه , وعلى من كان غضبه , فقال بعضهم : كان ذهابه عن قومه وإياهم غاضب . ذكر من قال ذلك : 18698

حدثني محمد بن سعد , قال : ثني أبي , قال : ثني عمي , قال : ثني أبي عن أبيه , عن ابن عباس , قوله : { وذا النون إذ ذهب مغاضبا } يقول : غضب على قومه . 18699

حدثت عن الحسين , قال : سمعت أبا معاذ يقول : ثنا عبيد , قال : سمعت الضحاك يقول في قوله : { إذ ذهب مغاضبا } أما غضبه فكان على قومه . وقال آخرون : ذهب عن قومه مغاضبا لربه

, إذ كشف عنهم العذاب بعدما وعدهموه . ذكر من قال ذلك : وذكر سبب مغاضبته ربه في قولهم : 18700

حدثنا ابن حميد , قال : ثنا سلمة , عن ابن إسحاق , عن يزيد بن زياد , عن عبد الله بن أبي سلمة , عن سعيد بن جبير , عن ابن عباس , قال : بعثه الله - يعني يونس - إلى أهل قريته , فردوا عليه ما جاءهم به وامتنعوا منه . فلما فعلوا ذلك أوحى الله إليه : إني مرسل عليهم العذاب في يوم كذا وكذا , فاخرج من بين أظهرهم ! فأعلم قومه الذي وعده الله من عذابه إياهم , فقالوا : ارمقوه , فإن خرج من بين أظهركم فهو والله كائن ما وعدكم . فلما كانت الليلة التي وعدوا بالعذاب في صبحها أدلج ورآه القوم , فخرجوا من القرية إلى براز من أرضهم , وفرقوا بين كل دابة وولدها , ثم عجوا إلى الله , فاستقالوه , فأقالهم , وتنظر يونس الخبر عن القرية وأهلها , حتى مر به مار , فقال : ما فعل أهل القرية ؟ فقال : فعلوا أن نبيهم خرج من بين أظهرهم , عرفوا أنه صدقهم ما وعدهم من العذاب , فخرجوا من قريتهم إلى براز من الأرض , ثم فرقوا بين كل ذات ولد وولدها . وعجوا إلى الله وتابوا إليه . فقبل منهم , وأخر عنهم العذاب . قال : فقال يونس عند ذلك وغضب : والله لا أرجع إليهم كذابا أبدا , وعدتهم العذاب في يوم ثم رد عنهم ! ومضى على وجهه مغاضبا . 18701

حدثنا ابن بشار , قال : ثنا محمد بن جعفر , قال : ثنا عوف , عن سعيد بن أبي الحسن , قال : بلغني أن يونس لما أصاب الذنب , انطلق مغاضبا لربه , واستزله الشيطان . 18702

حدثنا القاسم , قال : ثنا الحسين , قال : ثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة , عن مجالد بن سعيد , عن الشعبي , في قوله : { إذ ذهب مغاضبا } قال : مغاضبا لربه . 18703

حدثنا الحارث , قال : ثنا عبد العزيز , قال : ثنا سفيان , عن إسماعيل بن عبد الملك , عن سعيد بن جبير ; فذكر نحو حديث ابن حميد , عن سلمة , وزاد فيه : قال : فخرج يونس ينظر العذاب , فلم ير شيئا , قال : جربوا علي كذبا ! فذهب مغاضبا لربه حتى أتى البحر . 18704

حدثنا ابن حميد , قال : ثنا سلمة , قال : ثنا محمد بن إسحاق , عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن , عن وهب بن منبه اليماني , قال : سمعته يقول : إن يونس بن متى كان عبدا صالحا , وكان في خلقه ضيق . فلما حملت عليه أثقال النبوة , ولها أثقال لا يحملها إلا قليل , تفسخ تحتها تفسخ الربع تحت الحمل , فقذفها بين يديه , وخرج هاربا منها . يقول الله لنبيه صلى الله عليه وسلم : { فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل } 46 35 { فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت } 68 48 أي لا تلق أمري كما ألقاه . وهذا القول , أعني قول من قال : ذهب عن قومه مغاضبا لربه , أشبه بتأويل الآية , وذلك لدلالة قوله : { فظن أن لن نقدر عليه } على ذلك . على أن الذين وجهوا تأويل ذلك إلى أنه ذهب مغاضبا لقومه , إنما زعموا أنهم فعلوا ذلك استنكارا منهم أن يغاضب نبي من الأنبياء ربه واستعظاما له . وهم بقيلهم أنه ذهب مغاضبا لقومه قد دخلوا في أمر أعظم ما أنكروا , وذلك أن الذين قالوا : ذهب مغاضبا لربه اختلفوا في سبب ذهابه كذلك , فقال بعضهم : إنما فعل ما فعل من ذلك كراهة أن يكون بين قوم قد جربوا عليه الخلف فيما وعدهم , واستحيا منهم , ولم يعلم السبب الذي دفع به عنهم البلاء . وقال بعض من قال هذا القول : كان من أخلاق قومه الذي فارقهم قتل من جربوا عليه الكذب , عسى أن يقتلوه من أجل أنه وعدهم العذاب , فلم ينزل بهم ما وعدهم من ذلك . وقد ذكرنا الرواية بذلك في سوره يونس , فكرهنا إعادته في هذا الموضع . وقال آخرون : بل إنما غاضب

ربه من أجل أنه أمر بالمصير إلى قوم لينذرهم بأسه ويدعوهم إليه , فسأل ربه أن ينظره ليتأهب للشخوص إليهم , فقيل له : الأمر أسرع من ذلك ; ولم ينظر حتى شاء أن ينظر إلى أن يأخذ نعلا ليلبسها , فقيل له نحو القول الأول . وكان رجلا في خلقه ضيق , فقال : أعجلني ربي أن آخذ نعلا فذهب مغاضبا . وممن ذكر هذا القول عنه : الحسن البصري . 18705

حدثني بذلك الحارث , قال : ثنا الحسن بن موسى , عن أبي هلال , عن شهر بن حوشب , عنه . قال أبو جعفر : وليس في واحد من هذين القولين من وصف نبي الله يونس صلوات الله عليه شيء إلا وهو دون ما وصفه بما وصفه الذين قالوا : ذهب مغاضبا لقومه ; لأن ذهابه عن قومه مغاضبا لهم , وقد أمره الله تعالى بالمقام بين أظهرهم , ليبلغهم رسالته ويحذرهم بأسه وعقوبته على تركهم الإيمان به والعمل بطاعته لا شك أن فيه ما فيه . ولولا أنه قد كان صلى الله عليه وسلم أتى ما قاله الذين وصفوه بإتيان الخطيئة , لم يكن الله تعالى ذكره ليعاقبه العقوبة التي ذكرها في كتابه ويصفه بالصفة التي وصفه بها , فيقول لنبيه صلى الله عليه وسلم : { ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم } 68 48 ويقول : { فالتقمه الحوت وهو مليم فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون } . 37 142 : 144 وقوله : { فظن أن لن نقدر عليه } اختلف أهل التأويل في تأويله , فقال بعضهم : معناه : فظن أن لن نعاقبه بالتضييق عليه . من قولهم قدرت على فلان : إذا ضيقت عليه , كما قال الله جل ثناؤه : { ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله } . 65 7 ذكر من قال ذلك : 18706

حدثني علي , قال : ثنا عبد الله بن صالح , قال : ثني معاوية , عن علي , عن ابن عباس , قوله : { فظن أن لن نقدر عليه } يقول : ظن أن لن يأخذه العذاب الذي أصابه . 18707

حدثني محمد بن سعد , قال : ثني أبي , قال : ثني عمي , قال : ثني أبي , عن أبيه , عن ابن عباس : { فظن أن لن نقدر عليه } يقول : ظن أن لن نقضي عليه عقوبة ولا بلاء فيما صنع بقومه في غضبه إذ غضب عليهم وفراره . وعقوبته أخذ النون إياه . 18708

حدثنا محمد بن المثنى , قال : ثنا محمد بن جعفر , عن شعبة , عن الحكم , عن مجاهد , أنه قال في هذه الآية : { فظن أن لن نقدر عليه } قال : فظن أن لن نعاقبه بذنبه . * - حدثني موسى بن عبد الرحمن المسروقي , قال : ثنا زيد بن حباب , قال : ثني شعبة , عن مجاهد , ولم يذكر فيه الحكم . 18709

حدثنا بشر , قال : ثنا يزيد , قال : ثنا سعيد , عن قتادة , قوله : { فظن أن لن نقدر عليه } قال : يقول : ظن أن لن نعاقبه . * - حدثنا محمد بن عبد الأعلى , قال : ثنا محمد بن ثور , عن معمر , عن قتادة والكلبي : { فظن أن لن نقدر عليه } قالا : ظن أن لن نقضي عليه العقوبة . 18710

حدثت عن الحسين . قال : سمعت أبا معاذ يقول : ثنا عبيد , قال : سمعت الضحاك يقول في قوله : { فظن أن لن نقدر } يقول : ظن أن الله لن يقضي عليه عقوبة ولا بلاء في غضبه الذي غضب على قومه وفراقه إياهم . * - حدثنا ابن حميد , قال : ثنا جرير , عن منصور , عن ابن عباس , في قوله : { فظن أن لن نقدر عليه } قال : البلاء الذي أصابه . وقال آخرون : بل معنى ذلك : فظن أنه يعجز ربه فلا يقدر عليه . ذكر من قال ذلك : 18711

حدثنا ابن بشار , قال : ثنا محمد بن جعفر , قال : ثنا عوف , عن سعيد بن أبي الحسن , قال : بلغني أن يونس لما أصاب الذنب , انطلق مغاضبا لربه , واستزله الشيطان , حتى ظن أن لن نقدر عليه . قال : وكان له سلف وعبادة وتسبيح . فأبى الله أن يدعه للشيطان , فأخذه فقذفه في بطن الحوت , فمكث في بطن الحوت أربعين من بين ليلة ويوم , فأمسك الله نفسه , فلم يقتله هناك . فتاب إلى ربه في بطن الحوت , وراجع نفسه . قال : فقال : { سبحانك إني كنت من الظالمين } قال : فاستخرجه الله من بطن الحوت برحمته بما كان سلف من العبادة والتسبيح , فجعله من الصالحين . قال عوف : وبلغني أنه قال في دعائه : وبنيت لك مسجدا في مكان لم يبنه أحد قبلي . 18712

حدثنا ابن بشار , قال : ثنا هوذة , قال : ثنا عوف , عن الحسن : { فظن أن لن نقدر عليه } وكان له سلف من عبادة وتسبيح , فتداركه الله بها فلم يدعه للشيطان . 18713

حدثنا ابن حميد , قال : ثنا سلمة , عن ابن إسحاق , عن عبد الرحمن بن الحارث , عن إياس بن معاوية المدني , أنه كان إذا ذكر عنده يونس , وقوله : { فظن أن لن نقدر عليه } يقول إياس : فلم فر ؟ وقال آخرون : بل ذلك بمعنى الاستفهام , وإنما تأويله : أفظن أن لن نقدر عليه ؟ ذكر من قال ذلك : 18714

حدثني يونس , قال : أخبرنا ابن وهب , قال : قال ابن زيد , في قوله : { فظن أن لن نقدر عليه } قال : هذا استفهام . وفي قوله : { فما تغني النذر } 54 5 قال : استفهام أيضا . قال أبو جعفر : وأولى هذه الأقوال في تأويل ذلك عندي بالصواب , قول من قال : عنى به : فظن يونس أن لن نحبسه ونضيق عليه , عقوبة له على مغاضبته ربه . وإنما قلنا ذلك أولى بتأويل الكلمة , لأنه لا يجوز أن ينسب إلى الكفر وقد اختاره لنبوته , ووصفه بأن ظن أن ربه يعجز عما أراد به ولا يقدر عليه , ووصف له بأنه جهل قدرة الله , وذلك وصف له بالكفر , وغير جائز لأحد وصفه بذلك . وأما ما قاله ابن زيد , فإنه قول لو كان في الكلام دليل على أنه استفهام حسن , ولكنه لا دلالة فيه على أن ذلك كذلك . والعرب لا تحذف من الكلام شيئا لهم إليه حاجة إلا وقد أبقت دليلا على أنه مراد في الكلام , فإذا لم يكن في قوله : { فظن أن لن نقدر عليه } دلالة على أن المراد به الاستفهام كما قال ابن زيد , كان معلوما أنه ليس به وإذ فسد هذان الوجهان , صح الثالث وهو ما قلنا.

إن أول ما يهمنا رده في هذا التفسير "العظيم" هو افتراؤهم القول بأن الله قد بعث بيونس رسولا إلى قومه قبل ذهابه، فلعل جمهور أهل العلم قد أجمعوا أمرهم أن يونس قد ذهب من قومه بعد أن كان الله قد اجتباه بالرسالة، أي بعد أن أصبح رسولا. وهذا الظن – في رأينا- لا يستطيع أن يصمد أمام الحقيقة الماثلة في الآية الكريمة التالية التي تتحدث عن الاجتباء الإلهي ليونس بالرسالة بعد أن نبذ بالعراء من بطن الحوت وأنبتت عليه شجرة من يقطين:

- **فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاء وَهُوَ سَقِيمٌ (145) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (146) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ(147)**

رأينا المفترى: نحن نفتري القول إذن بأنه من غير الممكن إطلاقا أن تكون الرسالة قد جاءت ذي النون قبل هذا الوقت (أي قبل أن ينبذ بالعراء وهو سقيم وينبت عليه شجرة من يقطين)، ونتجرأ على افتراء الظن بأن يونس عندما ذهب مغاضبا لم يكن الله قد اجتباه بالرسالة بعد. وربما يؤكد ظننا هذا ما جاء بصريح اللفظ في الآيات الكريمة التالية:

- فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاء وَهُوَ مَذْمُومٌ (49) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ(50)

نتائج مفتراة من عند أنفسنا:
لم يحصل الاجتباء الرباني لذي النون بالرسالة قبل ذهابه مغاضبا
ما حصل الاجتباء الإلهي له بالرسالة إلا بعد أن نبذ بالعراء وانبتت عليه شجرة من يقطين
أرسله ربه بالرسالة إلى قومه بعد هذه الحادثة

الدليل

نحن نفتري الظن بأنه لو كان ذو النون رسولا قبل أن يذهب مغاضبا، لما خرج دون أمر من ربه، ولما كان مغاضبا، مادام أن القوم لم يؤمنوا إلا بعد أن رجع إليهم بعد حصول الاجتباء الإلهي له بالرسالة، ولربما تولى عنهم غير آسفا عليهم كما حصل في حالة شعيب مثلا:

- فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ(93)

فما الذي سبّب له الغضب؟ فهل كان ذو النون هو الرسول الوحيد الذي لم يصدق قومه رسالته؟ ألم يحصل ذلك مع نوح وشعيب وصالح وهود، وغيرهم؟ فلم لم يخرجوا مغاضبين إذن؟

ثانيا، لو أن ذا النون كان رسولا في قومه قبل أن يخرج مغاضبا، لخرج بأمر من ربه، ولكان العقاب الإلهي لا محالة نازل بهم كما حصل مع نوح وشعيب وصالح ولوط وهود وغيرهم؟ فنحن نعلم من مجمل السياقات القرآنية أنه عندما يخرج رسول من بين ظهراني قومه اللذين كذبوا رسالته، فإنه يخرج من بينهم، يصحبه في خروجه هذا الذين آمنوا معه (وهم في العادة قليل)، وهناك يقع عليهم العذاب الإلهي مباشرة. فلم إذن لم يقع العذاب على القوم (في حالة ذي النون) مادام أن نبيهم قد خرج من بينهم مغاضبا؟ نحن نتساءل فقط

دعنا ننهي الجزء الأول من هذه المقالة بالافتراء الخطير التالي الذي نكاد نخالف فيه جمهور أهل العلم، ألا وهو: لم يكن ذو النون قد اجتباه الله بعد بالرسالة عندما خرج مغاضبا، لأن الاجتباء بالرسالة جاءه في نهاية رحلته التي ذهب فيها. واقرأ – إن شئت- آيات الكتاب الحكيم:

- فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاء وَهُوَ سَقِيمٌ (145) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (146) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ(147)
- فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاء وَهُوَ مَذْمُومٌ (49) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ(50)

والله أعلم

سنعاود في الأجزاء القادمة بحول الله وتوفيقه النبش في تفاصيل القصة من منظورنا – كما فهمناه- طارحين تساؤلين اثنين:

1. لماذا خرج ذو النون مغاضبا؟
2. ومن الذي سبب له ذلك الغضب؟

سائلين الله وحده أن يهدينا رشدنا وأن يعلمنا ما لم نكن نعلم، وأن يأذن لنا الإحاطة بشيء من علمه لا ينبغي لغيرنا، ونعوذ به أن نفتري عليه الكذب، أو أن نقول عليه ما ليس لنا بحق، إنه هو العليم الحكيم – آمين.



قصة يونس

الجزء الثاني



الجزء الثاني: قصة يونس

حاولنا أن ننهي الجزء الأول من هذه المقالة بالافتراء الذي ربما خالفنا فيه جمهور أهل العلم، ألا وهو: لم يكن ذو النون قد اجتباه الله بعد بالرسالة عندما خرج مغاضبا، لأن الاجتباء بالرسالة جاءه في نهاية رحلته التي ذهب فيها، وقد كان افتراؤنا هذا مدفوع بفهمنا (ربما المغلوط) لتسلسل الأحداث كما تصوره آيات الكتاب الحكيم التالية:

- **فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (145) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (146) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ(147)**
- **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (49) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ(50)**

وافترينا الظن بأن هناك على الأقل دليلان يثبتان زعمنا هذا.

أولا، أن إرسال ذي النون إلى قومه قد حصل بعد أن نُبِذ بالعراء سقيما من بطن الحوت، وبعد أن أُنبتت عليه شجرة من يقطين، فشفي من سقمه، وعاد إلى قومه رسولا. واقرأ – إن شئت- النص في سياقه الأوسع

- **فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (145) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (146) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (147) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ(148)**

ثانيا، أن ذا النون قد جُعل" مِنَ الصَّالِحِينَ "بعد نبذه بالعراء. واقرأ – إن شئت- النص القرآني التالي:

- **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (49) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ(50)**

ولو تدبرنا عبارة" مِنَ الصَّالِحِينَ "التي جاءت في هذه الآية الكريمة الخاصة بذي النون في النص القرآني كلّه لما وجدناها قد وردت إلا بحق من كان رسولا أو نبيا. فهكذا كان إبراهيم:

- **وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ(130)**
- **وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ(122)**
- **وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ**

وبمثل هذا" مِنَ الصَّالِحِينَ"، كان دعاء إبراهيم بالذرية، فكان له الغلام الحليم إسماعيل من الصالحين:

- **رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (100) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ(101)**

وكان له الغلام العليم "إسحق "مِنَ الصَّالِحِينَ "أيضا:

- **وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ(112)**

وهكذا كان لوطا:

- **وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (7) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ(75)**

وهكذا كان يحيى مِنَ الصَّالِحِينَ بدعاء والده زكريا:

- فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ(39)

وهكذا كان عيسى بن مريم كلمة الله وروح منه رسولا مِنَ الصَّالِحِينَ:

- وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ(46)

وكان سليمان من الصالحين:

- فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ(19)

وكان شعيب مِنَ الصَّالِحِينَ:

- قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ(27)

وهكذا كان (ربما) كل رسل الله:

- وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ(85)
- وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (85) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ(86)

وبمثل ذلك جاء طلب يوسف اللحاق بركب الصالحين الذين سبقوه:

- رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ(101)

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: لأن المهمة الأولى لمن كان" مِنَ الصَّالِحِينَ "هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مرتبطة في الوقت ذاته مع المسارعة في الخيرات:

- يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ(114)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: لمّا كان الاجتباء الإلهي لذي النون ليكون" مِنَ الصَّالِحِينَ "قد حصل بعد نبذه بالعراء، لذا نحن لا نتردد بأن نفتري الظن بأنه أصبح رسولا بعد تلك الحادثة وليس قبلها:

- فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (49) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ(50)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: عندما ذهب ذو النون مغاضبا لم يكن من المرسلين، وعندما ساهم وكان من المدحضين لم يكن نبيا، وعندما نبذ بالعراء سقيما لم يكن نبيا، ولكن جاءه الاجتباء الإلهي بالرسالة ليكون "مِنَ الصَّالِحِينَ "بعد تلك الحادثة، فأرسله ربه إلى قومه مرة أخرى فكانوا مئة ألف أو يزيدون:

- فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (145) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (146) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ(147)

وقد وعدنا القارئ الكريم أن نعاود في هذا الجزء الثاني من المقالة النبش في تفاصيل القصة من منظورنا – كما فهمناه- طارحين تساؤلين اثنين:

⇐ لماذا ذهب ذو النون مغاضبا؟
⇐ ومن الذي سبب له ذلك الغضب؟

سائلين الله وحده أن يهدينا رشدنا وأن يعلمنا ما لم نكن نعلم، وأن يأذن لنا الإحاطة بشيء من علمه لا ينبغي لغيرنا، ونعوذ به أن نفتري عليه الكذب، أو أن نقول عليه ما ليس لنا بحق، إنه هو العليم الحكيم – آمين.

لماذا ذهب ذو النون مغاضبا؟

دعنا بداية أن نقدم إجابتنا المفتراة من عند أنفسنا على التساؤلين السابقين، لنحاول بعد ذلك الدفاع عن آرائنا (ربما المغلوطة) بجلب الدليل الذي نظن أنه يدعم ما نذهب إليه من ظن في هذا المقام. وسنكون شاكرين لمن يجلب الدليل الذي يدعم افتراءاتنا هذه أو يدحضها. فالفائدة لا شك تحصل سواء بجلب الدليل الذي يثبت زعمنا وبالتالي المضي بالتفكر خطوات أخرى إلى الأمام، أو بجلب الدليل الذي يدحض افتراءاتنا وبالتالي الرجوع قليلا إلى الوراء لتصحيح المسار قبل أن نصل إلى مرحلة ربما يصعب بعدها الرجوع إلى الوراء (كما هو حاصل في جلّ الفكر الإسلامي الذي ظن أنه يمشي بالاتجاه الصحيح وهو في الحقيقة قد انحراف عن جادة الصواب منذ قرون طويلة، حتى أصبح التراجع عن ما ولّده ذلك الفكر من التناقضات أمرا ليس باليسير – نحن نفتري الظن طبعا).

أما بعد،

⇐ الافتراء الأول: كان سبب خروج ذي النون مغاضبا هو أنه لم يصبر لحكم ربه
⇐ الافتراء الثاني الخطير جدا: كان سبب غضب ذي النون هو الله نفسه

الدليل

نحن نعتقد أنه من أجل أن نجلب الدليل الذي يدعم افتراءاتنا هذه فإن علينا أن نعمد إلى عمل مقارنات بين ذي النون من جهة وأناس آخرين جاء ذكرهم في مواطن أخرى من كتاب الله الكريم من جهة أخرى. والسبب في هذا يعود إلى الافتراء الذي ما انفككنا نروج له في كل كتاباتنا والذي مفاده أنه لا يمكن فهم القرآن الكريم (كوحدة واحدة) دون التعرض لمثل هذه التقاطعات، وذلك لأنه لا يمكن عزل الحدث الواحد عن الأحداث الأخرى في الكتاب نفسه. لذا، نحن على العقيدة التي مفادها بأن كل آية من القرآن الكريم تتقاطع مع جميع آيات الكتاب بطريقة أو بأخرى. ولتبسيط الأمر، نحن نفهم أنّ آيات القرآن الكريم في تداخلها وتشابكها تشبه بيت العنكبوت الذي يتصف بالوهن، فكل خيط من خيوط هذا البيت يتقاطع مع خيوط أخرى تتقاطع هي بدورها مع خيوط أخرى وهكذا، حتى تشكل في النهاية بيتا محكم البناء والترابط، وبكأن قلم وريشة فنان مبدّع قد رسمته، وهو في الوقت ذاته يتصف بالوهن (كبيت العنكبوت) لأن العلاقة على بساطتها واضحة تماما لا تحتاج إلى كثير عناء لتجليتها. وهكذا هي المفردات والآيات والشخصيات والأحداث والقصص التي ترد في القرآن الكريم. ولكن كيف يمكن تبسيط ذلك بالأمثلة التوضيحية؟

رأينا: عندما ندرّس نظريات تحليل الخطاب (Discourse Analysis) ونظريات تحليل النص (Text Analysis)، فإننا نحاول أن نقدم الأمثلة التوضيحية التي تبسط المفردات النظرية ذات الطابع الأكاديمي (Technical jargon)، فلو حاولنا أن ننثر مثل هذه المفردات هنا، لما وجدنا أن القارئ العادي يستطيع متابعة النقاش، لأنّ الأمر سيصبح حينئذ نقاشا فكريا بين أهل التخصص قد لا يهم العامة كثيرا. لكن ما يجلب انتباه العامة وأهل العلم على حد سواء فهو التطبيق العملي (exemplification) لتلك الأفكار النظرية أو التنظيرية (theorizing) على أرض الواقع، فمستخدم التلفون الخلوي قد لا يهمّه المبدأ أو الأساس العلمي الذي يشغّل ذلك الجهاز ولكنّه يهتم كثيرا بالتطبيقات التي تحمّل على هذا الجهاز ليستفيد منها في حياته اليومية، وهكذا هو الحال هنا. لذا لن نحاول أن ندخل في تعقيداتٍ نظريّة قد لا تُسمن ولا تُغني من جوع بالنسبة للقارئ العادي، لكنّنا سنحاول أن نقدّم التطبيق العملي الذي نظن أنه قد يشدّ انتباهه عندما يجد أن الأمر بات يعنيه بشكل مباشر، فكيف يمكن تقديم مثال بسيط يمكن أن يبيّن للقارئ العادي المنهجية التي نتبعها إن هو أراد أن يشتغل بهذه الصنعة وهي تدبر الكتاب الحكيم بنفس تلك المنهجية التي نسلكها نحن.

أما بعد،

أولا، نحن نظن أن أكبر غلط وقع به أهل الدراية من قبلنا هو ظنهم بأن التركيب الكلي لهذا القرآن هو تركيب خطي ,(linear) ويكأن آيات الكتاب الحكيم (ربما كانوا يظنون) تتبع بعضها البعض في تسلسل خطي. لذا نجد أن جميع ما يسمونه بتفسيرات القرآن العظيم قد بدأت من عند فاتحة الكتاب ثم البقرة وآل عمران وهكذا حتى انتهت بالمعوذات. وهذا في ظننا سبّب إرباكا كبيرا في التفسير مما استدعى من أهل العلم إقحام آرائهم البشرية غير المدعومة بالدليل الثابت والقاطع من الكتاب نفسه في تلك الأطروحات التي يقدمونها للناس، والتي ظن كثير من الناس أنها فعلا تفسيرات حقيقة لما في كتاب الله، وهي في ظننا لا تعدو أن تكون أكثر من شطحات فكرية بشرية قد لا تمت بصلة إلى الحقيقة التي يحتويها الكتاب الكريم.

ثانيا، لقد ظن كثير من أهل الدراية من قبلنا أنه يمكن تفسير آيات الكتاب الكريم بالاستعانة بمصادر خارجية، فجلبوا ما يسمى بالأحاديث المرفوعة إلى النبي، ودعموا آراءهم بما سمّوه أسباب النزول للآيات الكريمة، وما توقفوا عند هذا الحد، فأخذوا بعد ذلك من أشعار العرب ومن قواميس أهل اللغة التي أُلّفت بعد كتاب الله بقرون من الزمن، وهكذا.

ثالثا، ظن كثير من أهل الدراية من قبلنا أن آراء بعض الأشخاص (ككبار المفسرين) هي بحد ذاتها دليل على صحة الآراء المنقولة عنهم، فمتى ما يسمع البعض أن هذا القول أو ذاك الرأي منسوب لأحد الصحابة أو التابعين أو كبار العلماء المعروفين حتى تجد الأفواه قد سكتت عن المجادلة وألجمت عن طلب الحجة والدليل، لا لشيء وإنما لأن الكلام قد صدر ممن هو من رجال هم (في ظنهم) ثقات عدول، يندر أن تلد النساء من أمثالهم. من يدري؟!

رابعا، اعتقد كثير من أهل العلم أنهم لا يستطيعون الخوض في كتاب الله دون اللجوء إلى ثقافة الأمة التي نزل فيها القرآن الكريم، فظن كثير منهم أن الضرورة عندهم تستدعي جلب الإرث الثقافي لأمة الأعراب عند محاولة تفسير آيات الكتاب الكريم

الخ.

أما نحن، فإن عقيدتنا تتلخص لمن أراد أن يشتغل في تفسير آيات الكتاب الحكيم بافترائنا التالي: كتاب الله يفسر نفسه بنفسه، فلا يحتاج لمصدر آخر ليسانده في شيء. فنحن على العقيدة التي مفادها أن واحدة

من أهم أوجه الكمال التي يتصف بها هذا الكتاب العظيم هو قدرته على الاستقلال بذاته عن كل مصدر آخر مهما عظم شأنه. انتهى.

السؤال: وكيف يحدث ذلك؟

رأينا: نحن نظن أن ذلك يتم عن طريق تلك التقاطعات التي يحدثها تشابك المفردات والآيات والأشخاص والقصص والأحداث في كتاب الله. وذلك لأن تركيب الكتاب الحكيم وإن كان خطيا على المستوى المحلي إلى أنه عنكبوتي على المستوى الكلي. فمن أراد أن يفسر شيئا من كتاب الله فإن مهمة تكمن في إنتاج بيت لا يقل اتقانا في حياكته (webbing) عن بيت العنكبوت. وهذا ما سنحاول تبيانه في قصة يونس هنا بحول الله وتوفيق منه بعد قليل.

ولكن قبل الانتقال إلى تجلية ذلك بالمثال التوضيحي، نجد لزاما طرح التساؤل التالي الذي غالبا ما طُرح عليّ عندما كنت أحاول مناقشة هذه الأفكار النظرية في قاعة الدرس خاصة مع طلبة الدراسات العليا، والسؤال هو: هل هذا ممكن؟ هل فعلا يستطيع القرآن أن يفسر كل مفردة فيه بنفسه؟ وهل هذا ما يجب أن نفهمه من قوله تعالى بأن هذا الكتاب هو تبيان لكل شيء؟

- **وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ(89)**

رأينا: نعم هو كذلك: هذا الكتاب تبيان لكل شيء. ونحن نظن أنه ربما يكون في هذا جوابا على التساؤل الأكثر إثارة التالي: لماذا لا نجد في كتب الأحاديث أو في كتب السيرة أن الرسول الكريم قد تدخل بنفسه في تفسير بعض مفردات القرآن التي نظن أنها قد تكون عصيّة على الفهم؟ ولماذا لا نجد أن الصحابة الكرام قد سألوا النبي الكريم عن تفسير مفردة "صعبة" الفهم في آية ما؟ ولماذا لا نجد الرسول الكريم قد فسّر للناس من حوله قصة رسول سابق أو قصة شخصية قرآنية بالتفصيل الذي نطلبه في كتب التفاسير؟

ليكون السؤال الآن هو: لِم لَم يسأل الصحابةُ الرسولَ نفسه عن تفسير بعض مفردات القرآن كالأحرف المتقطعة في بدايات بعض السور مثلا أو كبعض المفردات تحت مسمى "غريب القرآن" كما يحب أهل الدراية أن يصفوها في مؤلفاتهم؟[1]

رأينا المفترى: لم يكن الرسول بحاجة أن يفسر شيئا من كتاب الله بنفسه لأن كتاب الله مفسرا لذاته.

السؤال: ولكن لِم لم يَعْمد الصحابة إلى سؤال النبي عن تلك القضايا (التي نظن أنها شائكة) في النص القرآني؟ هل كان الصحابة الكرام مدركون لهذا الأمر (كما تزعمه)؟ أي هل كان الصحابة على وعي تام بأن القرآن الكريم يفسر بعضُه بعضا فلا يحتاج تدخلا من أحد (حتى من الرسول نفسه)؟

جواب مفترى: لا و نعم.

السؤال: ما الذي تقوله (يا رجل)؟ كيف لا؟ وكيف نعم في الوقت ذاته؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن الأمر (كما نزعم) قد حصل على النحو التالي: في بداية تنزل الكتاب الكريم لم يكن الصحابة مدركون لهذه الحقيقة (أي أن كتاب الله مكتف بذاته)، لذا كانوا على الدوام يطلبون من النبي الكريم أن يوضّح (أي أن يفسر أو أن يشرح) لهم ما ينزل في كتاب الله مما كان مُشكلا عليهم. فما أن ينزل شيء في كتاب الله يصعب على من كان حول محمد فهمه حتى يسارع هؤلاء إلى سؤال النبي عنه، ولكن النبي الكريم الذي كان يدرك الأمر منذ بدايته لم يكن ليجيبهم عما يسألون، وذلك لأن النبي الكريم كان يدرك أنه من الاستحالة بمكان الإجابة على تساؤلاتهم ما لم ينتهي تنزيل الكتاب كاملا. ولما كان النبي لا

يجيبهم عن هذه التساؤلات كان يحدث فيما بينهم بعض التساؤلات التي لم يكن يسهل عليهم الوصول إلى إجابات شافية لها تماما.

السؤال: لماذا كان النبي لا يجيبهم على تساؤلاتهم ويتركهم رهينة لأفكارهم الخاصة (كما تزعم)؟

الجواب: لأن النبي الكريم كان يدرك أنه لا يمكن الإجابة على هذه التساؤلات في الوقت الحالي للسببين اثنين:

أولا، أن الوقت لم يحن بعد للإفصاح عنها. فمحمد مأمور أن لا يخرج كل ما عنده من علم جملة واحدة، وهو يتبع ما يقرأ عليه من ربه

ثانيا، أن تفسير هذه الأمور على كليتها يحتاج أن يتنزل القرآن الكريم كاملا. فمادام أن الوحي لازال يتنزل، يصبح من المتعذر أن يتم تفسير شيء من كتاب الله كما يجب

السؤال: أين الدليل على هذه الافتراءات التي ربما تكون غير مسبوقة؟

جواب: لو تفقدنا الآيات الكريمة التالية، لوجدنا أن القرآن خرج للناس مفرقا:

- **وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا(106)**

وأن النبي محمدا كان مأمورا بأن يتبع ما يقرأ عليه، فلا يخرج كل ما في قلبه من العلم جملة واحدة:

- **لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ(18)**

نتيجة مفتراة: لا يستطيع محمد أن يحرك لسانه بكل ما في قلبه من العلم قبل أن يأتيه الأمر بذلك. فمحمد مأمور بإتباع ما يقرأ عليه فقط. فحتى لو كان محمد يعلم شيئا ما إلا أنه لا يستطيع أن ينطق به ما لم يأتيه الأمر بذلك حتى لو سأله من حوله عنه.

ثالثا، لو تفقدنا الآية الكريمة التالية لوجدنا أنه لمّا ألح بعض الصحابة من حول النبي في استفساراتهم، نزل عليهم قرآنا يتلى يأمرهم بالتوقف عن السؤال حتى يكتمل تنزيل القرآن كله:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَاۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ(101)**

فلو تفقدنا هذه الآية الكريمة جيدا، لخرجنا بالافتراءات التالية:

⇐ افتراء 1: كان الذين من حول النبي من المؤمنين يسألون النبي عن بعض الأمور

⇐ افتراء 2: جاء النهي الإلهي لهم بالتوقف عن ذلك

⇐ افتراء 3: كان السبب في ذلك هو أنه لو أبديت لهم في ذلك الوقت الذي سألوا النبي فيها لساءهم ذلك

⇐ افتراء 4: كان المؤمنون مأمورون أن يسألوا عنها عندما ينزل القرآن (أي القرآن كله وليس فقط بعضا منه)

⇐ افتراء 5: ما أن يتم تنزل القرآن كله حتى يبد لهم كل ما سألوا عنه

تخيلات من عند أنفسنا:

نحن نفتري الظن أن القرآن الكريم قد نزل كلُّه جملة واحدة على قلب النبي، فأصبح العلم بالقرآن كله موجود في قلب محمد، فنحن نظن أن الآية الكريمة التالية تبين لنا أن القرآن قد نزل فعلا جملة واحدة على قلب محمد:

- **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا(32)**

نحن نفتري الظن بأن الرسول الكريم كان مأمورا بأن يخرج ما في قلبه من القرآن شيئا فشيئا، متبعا الأمر الإلهي بذلك:

- **لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ(18)**

في غضون ذلك، حاول بعض المؤمنين من صحابة رسول أن يسألوه عن أشياء معينة ربما تعذر عليهم فهمهما حينئذ،

⇐ لم يكن النبي يستطيع إجابتهم على ذلك لأن في ذلك استعجال لأمر ربه

⇐ كان ما يشكل على الناس يبد لهم شيئا فشيئا

⇐ لم تكن الأمور تبد للناس مرة واحدة

⇐ كان على من حول محمد انتظار التنزيل المرتل ترتيلا

⇐ ما أن ينزل القرآن (أي يكتمل تنزيل القرآن) حتى تكون جميع تلك الأشياء التي سألوا عنها قد بدت لهم:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ(101)**

السؤال: لماذا حدثت الأمور على تلك الشاكلة؟

رأينا: نحن نظن أن هناك أكثر من سبب وراء ذلك، نذكر منها:

أولا، أن من العدل الإلهي أن يتساوى الناس جميعا في ذلك، فمن عاصر محمدا ليس له فضل في ذلك على من لم يعاصره. فما أن انتهى التنزيل، وأتم الله نعمته على المؤمنين:

- **...الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(3)**

حتى كان لحاق محمد بالرفيق الأعلى بالموت. فوجد المسلمون أنفسهم حينئذ لا يملكون في أيديهم سوى هذا الكتاب العظيم. فحالهم حينئذ لم تكن أحسن من حالنا في كل وقت وحين في هذه الجزئية على وجه الخصوص. فكان عليهم أن يبذلوا الجهد لفهم تبيان هذا الكتاب العظيم. وربما يكون حالنا الآن أحسن من حالهم حينئذ لأن أدوات البحث أصبحت متاحة بشكل أفضل من ذي قبل.

ثانيا، أن العلم الموجود في ذلك الكتاب أكبر بكثير من أن يحيط به جيل من الناس. فالعلم في هذا الكتاب غزير جدا، لا يستطيع جيل من الأجيال أن يستنفذه، وذلك مصداقا لقوله تعالى:

- **وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(27)**

أن محمدا كبشر لا يستطيع أن يفسر (أي أن يشرح) كلمات ربه للناس كما يرغبون، وذلك لأنه لو كان البحر مدادا لكلمت ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا، لذا لا يستطيع محمد خلال حياته المحدودة زمنيا أن يفسر للناس كل شيء كما يريدون:

- **قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا(109)**

ثالثا، وربما الأهم من هذا كله هو أن القرآن الكريم يستطيع بحد ذاته أن يفسر نفسه بنفسه، لذا تتمثل مهمة محمد في نقل الرسالة للناس (أي تبيان الرسالة) بكل دقة وأمانة وهو غير مأمور بتفسيرها لهم.

نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا: محمد (كرسول من رب العالمين) مأمور أن يوصل الرسالة للناس، ولكنه ليس مأمور بأن يفسرها لهم بطريقة التفسير التي نريدها نحن.

السؤال: بماذا كان محمد مأمورا؟

رأينا: نحن نظن أن محمدا كان مأمورا أن يبين للناس ما نزل إليهم من ربهم، ولكنه في الوقت ذاته لم يكن مطلوب منه أن يفسر لهم ما نزّل إليهم من ربهم.

السؤال: وما الفرق؟ ما الفرق بين أن يبين لهم أو أن يفسر (أو أن يشرح) لهم؟ وأين الدليل على ما تزعم؟

رأينا: مادام أن محمدا قد بيّن للناس ما نزّل إليهم من ربهم فالرسالة إذن واضحة لا تحتاج أن يقوم محمد بتفسيرها

السؤال: ولكننا لا نفهمها، أليس كذلك؟

رأينا: نعم، نحن لا نفهمها جيدا لأننا مقصرون في تدبّرها:

- **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا(24)**

سؤال مفترى: لو كان هذا القرآن واضحا مفهوما للجميع كما نريد فما الحاجة إلى تدبره إذن؟

السؤال: وكيف سنفعل ذلك؟ أي كيف سنستطيع فهم ما في كتاب الله كما يجب أن يفهم؟

رأينا: قد نستطيع أن نفهم الرسالة (أو شيئا منها) بالشكل المطلوب متى ما عرفنا كيف نستطيع أن نقرأها (فنتدبرها).

السؤال: وكيف يجب أن نقرأها؟

رأينا المفترى: أن نبحث عن التبيان في كتاب الله

السؤال: وكيف يكون ذلك؟ وأين نبحث عنه؟

رأينا المفترى والخطير جدا: نحن نجد التبيان في الذكر، فالذكر هو الذي يمكنّنا من تبيان القرآن، مصداقا لقوله تعالى (كما نفهمه):

- **بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ(44)**

دعاء: اللهم علمني الذكر من الكتاب، وأسألك أن أكون أول من يبين له ما نزّل إلينا من ربنا، وأسألك أن أكون من الذين يتفكرون فيه – آمين

نتيجة مفتراة: وجب علينا التمييز بين القرآن من جهة والذكر الذي تكفل الله بحفظه من جهة أخرى:

- إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ(9)

نتيجة مفتراة خطيرة جدا: القرآن يختلف عن الذكر. وانظر – إن شئت- في قوله تعالى:

- ص ۚ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ(1)
- ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ(58)
- أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(63)
- أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(69)
- وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ(104)
- وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ(6)
- وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۚ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ(43)
- وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۖ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ(7)
- بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ(44)
- كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا(99)
- أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ(24)
- قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ(42)
- وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ(48)
- وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ(50)
- وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ(105)
- رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ(37)
- قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا(18)
- لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا(29)
- وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ(5)
- اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ(45)
- إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ(11)
- وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ(69)
- لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ(168)

- أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ(8)
- فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ(32)
- هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ(49)
- إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ(87)
- أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(22)
- اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ(23)
- إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ(41)
- أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ(5)
- وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ(36)
- وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ(44)
- فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(29)
- وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ(17)
- وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ(22)
- أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ(25)
- وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ(32)
- وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ(40)
- أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ(16)
- اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ(19)
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(9)
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(9)
- أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا(10)
- وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ(52)
- لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا(17)
- فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا(5)
- إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ(27)
- وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ(4)

للتفصيل حول هذه الجزئية، انظر مقالاتنا تحت عنوان ماذا كتب في الزبور؟ ولماذا قدم لوط بناته بدلا من ضيوفه؟

إن ما يهمنا طرحه هنا هو التمييز بين كينونتين هما: (1) الذكر و (2) مَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ كما جاء في الآية الكريمة التالية:

- **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ(16)**

لذا نحن نفتري الظن بأن هناك كينونتان يجب التمييز بينهما، ويتطلب الأمر منا معرفة ماهية كل واحدة منهما. فالذكر شيء منفصل عن ما نزل من الحق، وإلا لأصبح ذلك حشوا في الكلام لا فائدة منه. ليكون السؤال الآن هو: ما هو الذكر؟ وكيف يختلف عن ما نزل من الحق؟

- **المر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ۗ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ(1)**
- **أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ(19)**

رأينا المفترى: نحن نظن أن الذكر هو العلم الذي يبين ما نزل من الحق.

- **بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ(44)**

فالناس يسعون في يوم الجمعة ليس فقط لسماع ما نزل من الحق، ولكنهم يسعون إلى ذكر الله:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(9)**

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى :لأن مهمة الخطيب في ذلك اليوم هو أن يبيّن للناس الذكر (أي العلم الذي يبين لهم ما نزل من الحق إليهم من ربهم). فأنت كمسلم تريد سماع التفسيرات والتبريرات الحقيقية لكل التساؤلات التي يثيرها ما نزل إلينا من الحق. فعندما يقرأ الناس في كتاب الله الآية الكريمة التالية:

- **وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا(25)**

فهم بحاجة إلى من عنده الذكر الذي يبين لهم هذه الآية الكريمة، كيف حصلت، ومتى حصلت، وأين حصلت، حتى تتضح الصورة الكليّة في أذهانهم. وعلى من يظن أنه يستطيع أن يتصدى لهذه المهمة أن لا يجلب القصص والخرافات والأساطير من عند الأمم الأخرى ليسردها كأكاذيب وأباطيل على مسامع الناس، فيظن الحضور أن هذا هو الحق الذي أنزل إليهم من ربهم، وكتاب الله – نحن نفتري القول- منه براء. للتفصيل انظر سلسلة مقالتنا كيف تم خلق عيسى بن مريم؟

وعندما يسمع الناس الآية الكريمة التالية:

- **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ(14)**

فعليه أن لا يحضر كل أكاذيب أهل الكتاب، ليسوقها على الناس على أنها مسلمات قرآنية، وهي لا تكاد تصمد أما تساؤل واحد لطالب لم يتعدى الصفوف الأولى في المدرسة. فهل يجوز أن نطرح السنة من العام بهذه البساطة:

1000سنة – 50 عام = ؟

أليست هذه متغيرات لابد من معرفة قيمة كل منها قبل الخروج بنتائج، فهل يجوز أن نطرح المعادلة التالية قبل أن تبين لنا قيمة متغيراتها:

1000س – 50 ص = ؟ للتفصيل انظر مقالتنا: كم لبث نوح في قومه؟

إن النتيجة المفتراة التي نحاول تسويقها من خلال هذا الطرح (على علاّته) هو أن من يريد أن يقدم الذكر من الكتاب (كالخطيب الذي حضر الناس ليسمعوا الذكر من عنده في يوم الجمعة مثلا) أن لا يخرج بالكلام عن حدود النص القرآني، فعليه أن يجلب الدليل على كل صغيرة وكبيرة يفتريها من عند نفسه مما نزل من الحق، أي من القرآن نفسه.

السؤال: وهل هذا ممكن؟ وكيف سيفعل ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن واحدة من أهم الطرق في كيفية تبيان الذكر لما نزل من الحق هو إيجاد تلك التقاطعات التي تثيرها المفردات والآيات والأحداث والقصص في القرآن كله كجملة واحدة.

سؤال: هل تستطيع أن تقدم لنا مثالا توضيحيا على ذلك؟

جواب: نعم، دعنا نتدبر المثال التالي:

داوود، عيسى، آدم

السؤال: ما العلاقة (أو أي جزء منها) بين هؤلاء الثلاثة على وجه الخصوص؟

أولا، لو تدبرنا الآية الكريمة التالية لوجدنا الربط واضحا لا لبس فيه بين داوود من جهة وعيسى بن مريم من جهة أخرى:

- **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ(78)**

داوود ⟺ عيسى

وهذا الربط يثير – عندنا- حلقة ذهنية لابد من التعرض لها وهي: لماذا جاء اللعن للذين كفروا من بني إسرائيل على لسان هذين الرسولين الكريمين على وجه التحديد؟ لِم لَم يأت على لسان موسى أو على لسان زكريا أو على لسان سليمان أو حتى على لسان محمد مثلا؟ ولم لم يأت اللعن لهم على لسان جميع رسل الله؟ فما حقيقة ذلك اللعن لـ أولئك القوم (الذين كفروا من بني إسرائيل) على لسان داوود وعيسى بن مريم فقط؟ هل جاء هذا في كتاب الله من باب المثال فقط أم أنه فعلٌ مقصود لذاته؟

للإجابة على هذا التساؤل، نجد أن الحاجة ملحة لإثارة تقاطع آخر كما تبينه الآية الكريمة التالية:

- **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ(59)**

فالتقاطع هنا بين عيسى (من كان طرفا في التقاطع السابق) وآدم. لتنشأ بذلك علاقة خاصة أخرى بين عيسى بن مريم مرة جديدة مع آدم (شخصية قرآنية أخرى):

عيسى ⟺ آدم

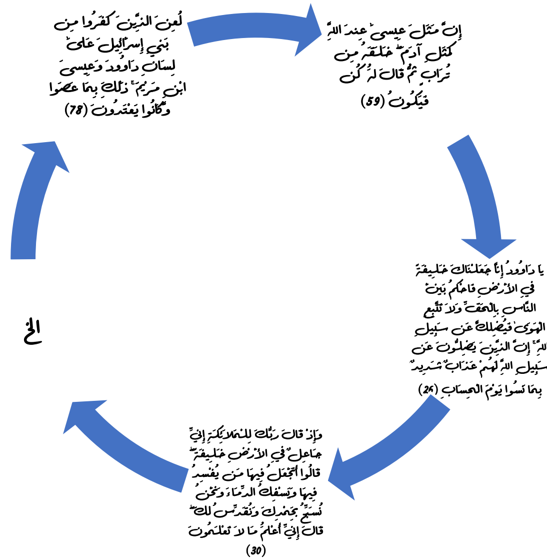
وحتى تكتمل – عندنا- الحلقة الذهنية التي نحاول مطاردتها، فلابد من إيجاد رابط هذه المرة بين داوود من جهة وآدم من جهة أخرى. وقد وجدنا هذا الرابط في الآيات الكريمة التالية:

- **يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ(26)**

- وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةًۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ(30)

داوود ⟺ آدم

لتكتمل بذلك علاقة عظيمة بين هؤلاء الأطراف الثلاثة (داوود عيسى آدم)، فتتشكل – برأينا- على النحو التالي



وهنا تبدأ مهمة العنكبوت (أو من يتصدى لتفسير النص القرآني)، فيضع جلّ جهده في سحب خيوط (تشبه خيوط العنكبوت في دقتها) بين هذه الأطراف (كما تجليها الآيات الكريمة نفسها)، لينسجها بكل حرفية وإتقان، فيتم بناء بيت كبيت العنكبوت لا يقل عنه في مهارة الصانع وإتقان المُنْتَج. والهدف في نهاية المطاف هو الإجابة على التساؤل الذي أثرناه سابقا وهو: لماذا جاء اللعن للذين كفروا على لسان داوود وعيسى ابن مريم على وجه التحديد؟

وهو ما سنحال الإجابة عليه في الأجزاء القادمة من هذه المقالة بحول الله وتوفيق منه، فالله أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا وأن يزدني علما، إنه هو الواسع العليم – آمين.

ومما يجدر الإشارة إليه في هذا السياق هو أنني قد أستطيع (أنا) أن أنسج الحكاية كما أفهمها، فأبني بذلك بيتي الخاص لتلك القصة، وقد تستطيع أنت أن تنسج القصة نفسها بالطريقة التي تفهمها أنت، وهكذا. فكل منا يستطيع أن يروي حكايته، ولكن يبقى الحكم في نهاية المطاف للمتفرج (أي المتلقي)، فهو من يستطيع أن يحكم في نهاية المطاف على درجة الإتقان التي نسج بها كل منا شبكة بيته، وكيف عمد كل منا إلى تفكيك الحلقات الذهنية التي تثيرها الآيات الكريمة مجتمعة.

ومن الجدير بالذكر أيضا أن الآيات نفسها ستثير آيات أخرى جديدة، وهكذا. فتبقى المهمة مستمرة لا تتوقف، لأن القصة قيد البحث ستثير قصصا أخرى جديدة، وهكذا. فلا يكتمل البناء كله ما لم تجلب النصوص كلها التي تترابط مع بعضها البعض في النص القرآني كله.

السؤال: ما علاقة هذا كله بقصة ذي النون، إذن؟

رأينا: لكي نفهم قصة ذي النون التي ظن البعض (وهم مخطئون في رأينا) أنها لم تُفصّل تفصيلا كثيرا في النص القرآني كما في قصة موسى أو قصة يوسف مثلا، فلابد من جلب كل التقاطعات في القصة، وعندها

سنصل إلى النتيجة المفتراة التالية: أن هذا الكتاب هو تبيان لكل شيء وأنه لم يفرط فيه بشيء كبيرا كان أم صغيرا. وأن القصة قد فصلت تفصيلا كاملا لا يقل عن ما جاء في قصة موسى أو قصة يوسف

السؤال: وكيف يكون ذلك؟ هل تستطيع أن تقدم الدليل من قصة يونس نفسها؟

جواب مفترى: نعم، والله وحده أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا وأن يزدني علما – آمين.

أما بعد

دعنا نقرأ الآيات الكريمة التالية التي جاءت في قصة يونس فقط، ثم ننظر بعدها كيف ستحدث لنا هذه الآيات الكريمة ذكرا:

- **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ(48)**
- **فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (142) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ(144)**
- **وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ(88)**

الخ

لو تدبرنا بعض مفردات هذه الآيات الكريمة لوجدنا أنها تلزمنا (إن نحن أردنا التبيان بالذكر) المرور بآيات أخرى في كتاب الله، فلا نستطيع أن نفهم هذه المفردات ولا نستطيع أن نخرج منها بالاستنباطات الصحيحة ما لم نتفكر مليّا بتلك الآيات الأخرى التي أثارتها مفردات الآيات قيد البحث. وهذا ما نسميه (نحن) بالتقاطعات في النص القرآني، وذلك لأن المرور بها يصبح من باب الإلزام، ومما لا شك فيه عندنا أن هذه التقاطعات يجب أن تكون بادية للعيان، فيصبح الاتفاق عليها من البساطة والوضوح ما يشبه وهن بيت العنكبوت. فما أن تبين للناس من حولك حتى تكون الدهشة بادية على ملامحهم. ويأتي مصدر هذه الدهشة من أمرين اثنين:

⇐ الدقة المتناهية في نسج تلك الخيوط

⇐ بساطة العلاقة بينهما ووضوحها

وهذا ما نسميّه نحن بالذكر. فالقرآن (نحن نفتري القول) محفوظ بحفظ الذكر فيه:

- **وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ(1)**
- **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ(9)**

لذا، لا يحتاج (نحن نفتري القول) من لديه الذكر من القرآن (وأسأل الله أن أكون منهم) إلى فرض التفسير عنوة، بل يجب أن يسير المتلقي معه في سكة خطوط العنكبوت نفسها بطريقة سليمة، يفضي بعضها إلى بعضها الآخر بكل يسر وسهولة.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: لو تدبرنا الآية الكريمة التالية الخاصة بقصة ذي النون:

- **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ(48)**

لوجدنا على الفور أنها تثير تقاطعا واضحا بين محمد من جهة وذي النون من جهة أخرى:

ذي النون ⟺ **محمد**

لذا يجب على المتدبر لهذه الآية الكريمة أن يطرح على الفور كل التساؤلات الممكنة حول سبب إنشاء هذا التقاطع القصصي بين صاحب الحوت من جهة ومحمد من جهة أخرى. وهذا ما سنحاول أن ننبش فيه بعد قليل في الجزء الأول القادم بحول الله وتوفيقه. حيث سنحاول طرح التساؤلات ومحاولة تقديم الإجابات التي نظن أنها ذات علاقة بالقصة نفسها (والله وحده أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم - آمين)

ثانيا، عند التعرض للآية الكريمة الثانية التي جاءت أيضا خاصة بذي النون:

- **فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (142) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ(144)**

نجد التقاطع واضحا هنا بين ذي النون من جهة وفرعون من جهة أخرى:

ذي النون ⟺ فرعون

والسبب في ذلك هو عبارة "وَهُوَ مُلِيمٌ". فبعد تفقد جميع سياقات القرآن الكريم، وجدنا أن هذه العبارة لم ترد في النص القرآني كله إلا عند الحديث عن ذي النون وعند الحديث عن فرعون:

- **فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ(40)**

فكان ذو النون مليما) وَهُوَ مُلِيمٌ (وكان فرعون مليما) وَهُوَ مُلِيمٌ .(وحصل ذلك لهما عند غرقهما في البحر؟ ليكون السؤال هو: هل جاء هذا من قبيل المصادفة؟

رأينا: لمّا كنا نعتقد أن كل مفردة في كتاب الله مقصودة بذاتها ولا يمكن استبدالها بغيرها، أصبح لزاما علينا فهم هذا التقاطع بين قصة ذي النون الذي" وَهُوَ مُلِيمٌ "مع قصة فرعون الذي" وَهُوَ مُلِيمٌ"، أيضا. وهذا ما سننبش فيه بحول الله وتوفيقه في الجزء الثاني القادم. (والله وحده أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم - آمين)

ثالثا: عندما حاولنا تدبر الآية الكريمة الثالثة التي جاءت أيضا في النص القرآني عن قصة ذي النون:

- **فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ(88)**

وجدنا أن عبارة " وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ "تحدث تقاطعا ضروريا بين ذي النون من جهة وموسى من جهة أخرى:

ذي النون ⟺ موسى

وذلك لأن النص القرآني خلا من عبارة النجاة من الغم إلا في معرض الحديث عن ذي النون كما جاء في الآية السابقة وعن موسى كما في الآية الكريمة التالية:

- **إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ(40)**

ليكون السؤال: لماذا جاءت النجاة الربانية من الغم خاصة بهذين النبيين الكريمين؟ فهل هذا مصادفة؟!

هذا ما سننبش فيه بحول الله وتوفيقه في الجزء الثالث القادم. (والله وحده أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم - آمين)

تلخيص

نحن نفتري القول من عند أنفسنا أنه من أجل فهم قصة ذي النون (أو على الأقل بعض تفاصيلها)، فلابد أن نصل إلى هذه المحطات (أي التقاطعات على شبكة العنكبوت التي نحاول نسجها عن هذه القصة العظيمة. لذا نحن نريد أن نفهم كيف تتقاطع قصة ذي النون في بعض تفاصيلها مع أحداث حصلت مع محمد نفسه كما جاء في الآية الكريمة لتالية:

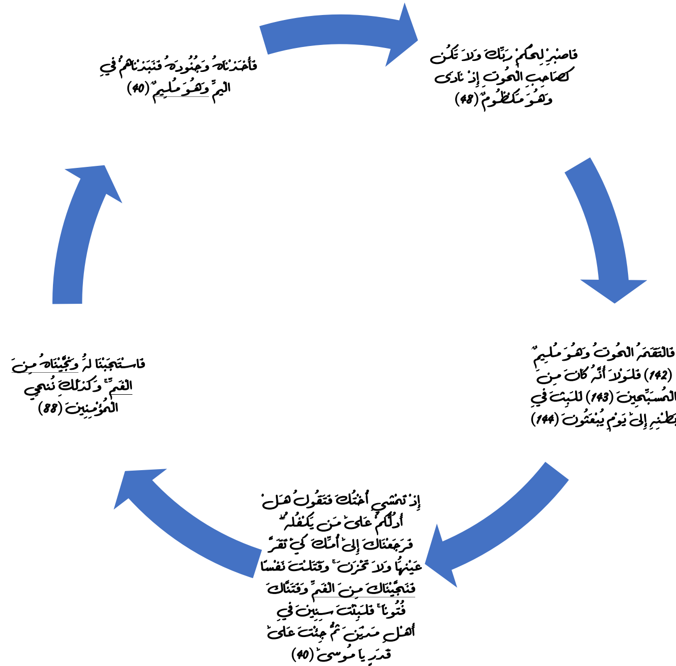
- **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ(48)**

كما لابد من فهم كيف تتقاطع قصة ذي النون في بعض تفاصيلها مع قصة فرعون نفسه كما جاء في الآية الكريمة التالية:

- **فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (142) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ(144)**
- **فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ(40)**

كما لابد من فهم كيفية تقاطع قصة ذي النون في بعض تفاصيلها مع قصة موسى كما في الآيات الكريمة التالية:

- **فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ(88)**
- **إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ(40)**



رأينا: إنّ من واجب كل من يتصدى لتفسير هذه الآيات الكريمة أن ينسج في نهاية المطاف حكاية لا تقل في الإتقان عن مهارة العنكبوت في نسج خيوط بيته، حيث تتشابك الخيوط في محطات واضحة، قد يصعب المجادلة فيها. وكلما كانت العلاقة أكثر ترابطا، كان البرهان أكثر وضوحا وكانت الحجة أكثر إلزاما للجميع.

ومما لا شك فيه أن هذه التقاطعات تبقى قابلة للتحسين شيئا فشيئا، فقط أستطيع أنا (بحول الله وتوفيق منه) أن أجد ثلاثة تقاطعات أو أكثر في هذه القصة العظيمة، وقد يستطيع غيري أن يجد تقاطعات أخرى لم انتبه إليها أنا، ربما يمكنه أن يضيفها إلى التقاطعات التي سبقه إليه غيرها، وهكذا. وسيكون لذلك فائدتان اثنتان على الأقل:

المضي في بناء مسيرة العلم شيئا فشيئا، ليصبح الإنجاز تراكميا، يبذل فيه الجميع جهدهم، فلا يضّيع اللاحقون جهد السابقين

إمكانية تصحيح الأغلاط (إن وجدت) في جهد السابقين، فـ لربما تسعف فكرة بسيطة جدا في تصحيح مسار تفكير خاطئ ساد دهورا من الزمن. فإن قدمت أنا افتراء من عند نفسي (بناء على فهمي الخاص لبعض آيات الكتاب الحكيم)، ثم تبين لاحقا أن افترائي هذا هو افتراء خاطئ، فإن دحضه يكون بالدليل الدامغ والحجة الساطعة من كتاب الله. فنحن نتبع الدليل حيثما يأخذنا ولا نتعنّت لآراء مشايخنا لأغراض فئوية أو لمقاصد وأجندة مسبقة. فالحكمة هي ضالة المؤمن أنى وجدها التقطها.

والآن لنبدأ البحث في تقاطعات قصة ذي النون في بعض جوانبها مع بعض تفاصيل سيرة محمد، وشخصية فرعون وقصة موسى

الجزء الأول: تقاطعات بين يونس ومحمد

لو تدبرنا السياق القرآني التالي لوجدنا (نحن نفتري الظن) أن صريح اللفظ القرآني يدل بشكل جليّ أن ذا النون قد تعجل الأمر، فما صبر لحكم ربه:

- **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ(48)**

وفي الوقت ذاته نجد أن الآية الكريمة نفسها توجّه محمدا (من أُنزِل القرآن على قلبه) أن يصبر لحكم ربه) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ(، وتنهاه بأن يكون كصاحب الحوت في ذلك) وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ .(فالمقارنة (نحن نكاد نجزم الظن) واضحة بين ذي النون وهو الذي لم يصبر لحكم ربه من جهة ومحمد (والذي كاد أن يكون كذي النون في ذلك) من جهة أخرى، والتوجيه الإلهي واضح وهو أن لا يكون محمد في هذا الشأن كصاحب الحوت، وذلك لأن ذا النون – لا شك- لم يصبر لحكم ربه، أليس كذلك؟

التساؤلات:

⇐ ما معنى أن ذا النون لم يصبر لحكم ربه؟ أو بكلمات أخرى، ما معنى (نحن نسأل) أن يصبر شخص (كالنبي مثلا) لحكم ربه؟

⇐ كيف أن ذا النون لم يصبر لحكم ربه؟

⇐ ومتى حصل أن محمدا كاد أن يكون كصاحب الحوت في ذلك؟

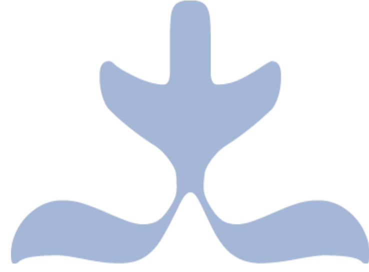
⇐ وما الذي بدر من محمد حتى ينزل قرآنا يتلى يوجهه بأن لا يكون كصاحب الحوت؟

⇐ الخ.

السؤال القوي: كيف كاد محمد أن لا يصبر لحكم ربه؟

هذا ما سنبدأ به الجزء القادم من هذه المقالة بحول الله وتوفيق منه.

فالله وحده أسأل أن يعلمني الحق فلا أفتري عليه الكذب، وأن ينفذ مشيئته بالإذن لي الإحاطة بشيء من علمه لا ينبغي لغيري إنه هو العليم الحكيم – آمين



قصة يونس

الجزء الثالث



قصة يونس - الجزء الثالث

انهينا الجزء السابق من هذه المقالة بزعمنا المفترى من عند أنفسنا بوجود تقاطعات ذات دلالة بين قصة ذي النون في بعض جوانبها مع بعض تفاصيل سيرة محمد، وشخصية فرعون وقصة موسى. ووعدنا القارئ الكريم أن نحاول النبش في هذه التقاطعات علّنا نستطيع بحول الله وتوفيق منه أن نحيك في نهاية المطاف بيتا كبيت العنكبوت عن رؤيتنا لهذه القصة الخالدة في كتاب الله، ربما تكون منافسة في بعض تفاصيلها للفكر السائد الذي نظن أنه أخطأ الهدف عندما لم يبنى نفسه على المنهجية السليمة ذات الأدوات الفعالة في حياكة القصة كما تصورها آيات الكتاب الحكيم. لذا سنحاول تجزئة النقاش في هذا الموضوع تحت ثلاثة عناوين فرعية وهي:

1. تقاطعات بين يونس ومحمد بما وجدناه (نحن) من الآية الكريمة التالية:
   - **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (48)**
2. تقاطعات بين يونس وفرعون كما فهمناه (نحن) من الآيات الكريمة التالية:
   - **فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (142) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143)لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (144) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (40)**
3. تقاطعات بين يونس وموسى كما فهمناه (نحن) من الآيات الكريمة التالية:
   - **فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (88) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (40)**

أما بعد

تقاطعات بين يونس ومحمد

لو تدبرنا السياق القرآني التالي لوجدنا (نحن نفتري الظن) أن صريح اللفظ يدلّ بشكل جليّ أن ذا النون قد تعجّل، فما صبر لحكم ربه: فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) وفي الوقت ذاته نجد أن الآية الكريمة نفسها توجّه محمدا (من أُنزِل القرآن على قلبه) أن يصبر لحكم ربه (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)، وتنهاه بأن يكون كصاحب الحوت في ذلك (وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ). فالمقارنة (نحن نكاد نجزم الظن) واضحة بين ذي النون وهو الذي لم يصبر لحكم ربه من جهة ومحمد (الذي كاد أن يكون كذي النون في ذلك) من جهة أخرى، والتوجيه الإلهي واضح وهو أن لا يكون محمد في هذا الشأن كصاحب الحوت، وذلك لأن ذا النون – لا شك- لم يصبر لحكم ربه، أليس كذلك؟

التساؤلات:

- ⇐ ما معنى أن ذا النون لم يصبر لحكم ربه؟ أو بكلمات أخرى، ما معنى (نحن نسأل) أن يصبر شخص (كالنبي مثلا) لحكم ربه؟
- ⇐ كيف لم يصبر ذو النون لحكم ربه؟ فما الذي فعله الرجل حتى أصبح غير صابر لحكم ربه؟
- ⇐ وما هو أصلا حكم ربه الذي لم يصبر له صاحب الحوت؟
- ⇐ متى حصل ذلك منه؟

⇐ كيف حصل ذلك؟
⇐ ومتى حصل أن محمدا نفسه كاد أن يكون كصاحب الحوت في ذلك؟
⇐ فما الذي بدر من محمد حتى يُنزّل قرآنا يتلى يوجهه بأن لا يكون كصاحب الحوت؟
⇐ الخ.

السؤال القوي: كيف كاد محمد أن لا يصبر لحكم ربه؟

رأينا المفترى: لو تدبرنا السياق القرآني التالي لوجدنا أن الصبر لحكم الرب يعني عدم إطاعة من كان آثما أو كفورا:

- **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (24)**

ولو حاولنا أن نشد خيطا من خيوط بيت العنكبوت بين هذه الآية الكريمة وتلك الآية الكريمة الأخرى التي جاء الربط فيها واضحا بين محمد من جهة وصاحب الحوت (يونس) من جهة أخرى:

- **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (48)**

لربما استطعنا استنباط النتيجة المفتراة من عند أنفسنا التالية: حتى يصبر محمد (أو أي شخص) لحكم ربه فعليه أن لا يطع من كان حوله آثما أو كفورا. لذا، فالذي لم يصبر لحكم ربه - بالمقابل- هو (نحن نفتري القول) من أطاع من حوله ممن كان منهم آثما أو كفورا. وبناء على هذا، فإننا نظن بصحة الافتراءات المستنبطة التالية:

افتراء رقم 1: لم يصبر ذو النون لحكم ربه لأنه أطاع من حوله ممن كان منهم آثما أو كفورا

افتراء رقم 2: كاد محمد أن يقع في المطب نفسه منطقنا المفترى: مادام أن ذا النون لم يصبر لحكم ربه، فلابد إذن (نحن نستنبط القول – ربما مخطئين) بأنه قد أطاع بعض من حوله ممن كان آثما أو كفورا.

السؤال: من هم هؤلاء الذين ربما يطيعهم شخص كالنبي فيكون بذلك غير صابر لحكم ربه؟

رأينا المفترى: إنهم مجموعة الكافرين والمنافقين. وانظر – إن شئت- في قوله تعالى:

- **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (1) وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (48)**

نتيجة مفتراة: عندما يكون حول الرسول بعض الكافرين والمنافقين فإنهم لن يألوا جهدا في محاولتهم التأثير على الرسول، والهدف هو أن يركن إليهم الرسول ولو شيئا قليلا:

- **وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (74)**

نتيجة مفتراة: كادت جهود المنافقين والكافرين في محاولتهم التأثير على الرسول بأن يركن إليهم شيئا قليلا أن تنجح، والذي حال دون ذلك هو التدخل الإلهي بالتثبيت لرسوله.

نتيجة مفتراة مهمة جدا: لو أن محمدا أركن إلى المنافقين والكافرين شيئا قليلا، فلن يكون إذا قد صبر لحكم ربه.

السؤال: ما الشيء الذي كاد محمد أن يركن فيه إلى من حوله من الكافرين والمنافقين؟ومتى حصل ذلك؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الإجابة على هذه التساؤلات موجودة في السياق القرآني نفسه، فدعنا نتدبر الآية الكريمة السابقة في سياقها الكلي:

- **وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (73) وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (74) إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (75)**

السؤال: ما الذي يمكن أن نستنبطه من هذا السياق القرآني الأوسع؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: حاول بعض الكافرين وبعض المنافقين ممن هم حول محمد أن يفتنوه عن بعض ما أوحي إليه

(وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ)، والغاية عندهم هي أن يفتري محمد على الله غير ما أُوحي أليه من ربه

(لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ).ولما كان بعض هؤلاء من المنافقين الذين يبطنون ما لا يظهرون، فإني أكاد أجزم القول بأنهم كانوا يحاولون أن يصوروا ذلك للنبي في باب المصلحة العامة مادام أنها ستجعله خليلا لهم (وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا). فهم يحاولون أن يقنعوا محمدا بأنه لو افترى شيئا غير الذي أُوحي إليه من ربه لأصبح ذلك في صالح دعوته لأنه سيكون مقبولا عندهم، لا بل سيتخذونه خليلا (وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا).

السؤال: كيف يكون ذلك؟

لا شك – عندنا- أن هؤلاء النفر من المنافقين والكافرين من أصحاب النفوذ في قومهم، اللذين لو صدّقوا رسالة محمد لسهل على النبي أمر الدعوة إلى الله، وذلك لأن الكثيرين من قومهم سيتبعونهم في ذلك. فإقناع سادة القوم وقبولهم بالدعوة تحمل في ثناياها قبول العامة لها من بعدهم (وهذا ما سنتحدث عنه بحول الله وتوفيقه عندما ننتقل للحديث عن مكانة فرعون في قومه وكيف أن رسالة موسى وأخيه هارون كانت موجهة فقط لفرعون وملئه). وفي مثل هذا الموقف (نحن لازلنا نتخيل) يجد محمد أن الإغراء كبير، وربما ظن للحظة أن هذا قد يصب في مصلحة الدعوة (إذا ما ذهبنا في غيابة نفق مقاصد الشريعة كما يفعل سادتنا العلماء اللذين نتهمهم بتشويه العقائد كلها تحت هذا البند، فكل منهم يختار من الشريعة مقاصدها التي تسعفه لتبرير رأيه). للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان: والعلماء هم الظالمون.

وفي هذه الأثناء تميل نفس محمد (نحن لازلنا نتخيل) إلى الركون إليهم شيئا قليلا. فيأتي التدخل الإلهي المباشر بالتثبيت كما تصور ذلك الآية الكريمة نفسها أحسن تصوير:

- **وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (74)**

ويأتي التحذير الإلهي منهم صريحا لا لبس فيه في الآية الكريمة التالية:

- **وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (49)**

ولا شك – عندنا- أن الهدف عندهم (أي من كان يحاول من المنافقين والكافرين أن يقنع محمدا بأن يفتري على الله شيئا غير الذي أُوحي إليه ليتخذوه بعدئذ خليلا) هو هدف خبيث جدا، لا يقدر عليه إلا من كان الشيطان هو معلمه ومرشده.

السؤال: كيف حصل التثبيت لمحمد حتى لا يقع في مثل هذا المطب؟

رأينا: نحن نفتري القول بأن التثبيت لمحمد قد حصل بما ترشد إليه الآيات الكريمة التالية:

- وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (120) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (27) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (32)

نتيجة: لقد أنزل الله على قلب محمد القرآن جملة واحدة فكان فيه من أنباء الرسل السابقين (ومنهم قصة يونس نفسه)، فوجد محمد في قصصهم ما يواجهه بنفسه مع هؤلاء الذين حوله من المنافقين والكافرين. فعلم محمد أن هدفهم ليس أن يكون خليلا حقيقيا لهم، لأن الأخلاء بعضهم لبعض عدو إلا المتقين:

- الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (67)

نتيجة مفتراة: لمّا كان هؤلاء الذين يريدون أن يتخذوا محمدا خليلا (وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا) بعد أن يكون قد نزل عند رغبتهم بالافتراء على الله شيئا غير الذي أوحي إليه (وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ) (وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ)

ليسوا من المتقين، علم محمد يقينا عداوتهم له، كما علم أهدافهم ونواياهم الحقيقية من وراء ذلك.

السؤال: ما الذي كانوا يخططون له؟ أي لماذا حاول بعض المنافقين والكافرين إقناع محمد بأن يفتري على الله شيئا غير الذي أوحي إليه؟

- انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا (50) مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (103) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (21) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (93) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (37)

ولا شك أن هؤلاء هم من شياطين الإنس الذين لا يقل خطرهم عن خطر شياطين الجن:

- وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (112)

ولو نجح هؤلاء في مقصدهم لانتفت رسالة محمد بكليتها، لأن رسل الله لا يجيئون إلا بالحق، ويستحيل أن يفتري رسول من رسل الله شيئا غير الذي أوحي إليه:

- هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (53) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ

وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (89)

السؤال: ما العواقب التي كانت ستترتب على ذلك لو حصل فعلا أن نزل محمد عند رغبتهم بافتراء شيء غير الذي أوحي إليه؟

جواب: لا شك أن النتيجة ستكون وخيمة تتمثل في الغصب الرباني والذلة في الحياة الدنيا:

- إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (152)

نتيجة مفتراة: تصور هذه الآية الكريمة أن الغضب الإلهي والذلة في الحياة الدنيا (سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

هي جزاء للمفترين (وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ)، أليس كذلك؟

ولا شك أن ذلك سيقع في باب الفعل الذي يقوم به المجرمون:

- فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (17)

وسينتفي الفلاح حينها:

- قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (69)

وسيقع الظلم، وستقع اللعنة عليهم:

- وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (18)

وسيقع العذاب، وستكون الخيبة من نصيب من يفتري:

- قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (61)

وسيختم الله بعد ذلك على قلب المفتري، ولكن هذا لن يمنع أن يمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته:

- أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (24)

نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا: لو فعلا نزل محمد عند طلبهم وافترى على الله شيئا غير الذي أوحي إليه لختم الله على قلب محمد.

السؤال الثاني الأكثر خطورة: هل كان محمد يفترى؟

رأينا المفترى: نعم، كان محمد يفتري، لكن شتان بين أن يفتري محمد شيئا غير الذي أوحي إليه وأن يفتري محمد ما كان يوحى إليه من ربه. فنحن على العقيدة التي مفادها أن ما كان يفتريه محمد، كان يأتيه مباشرة من ربه. فما جاء به محمد من قرآن فهو مفترى من الله نفسه:

- وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (37)

ومادام أن القرآن مفترى من الله، فمحمد لا يستطيع أن يفتريه من تلقاء نفسه:

- أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (38) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (13) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (35)

نتيجة مهمة جدا 1: من كان يفتري قولا من عند نفسه فهو يقع في قائمة المجرمين
نتيجة مهمة جدا2: من كان يفتري قولا يوحى إليه من ربه فهو يقع في قائمة المرسلين

السؤال: أتدرك – عزيزي القارئ- الآن خطورة ما كان يخطط له هؤلاء المنافقون والكافرون عندما حاولوا أن يتخذوا محمدا خليلا إن هو افتري على الله شيئا غير الذي أوحي إليه؟
الجواب: نحن نفتري القول بأنهم كانوا يحاولون أن ينقلوا محمد من قائمة الرسل (المرسلين) إلى قائمة الكاذبين (المجرمين)

السؤال: ما هو الشيء الذي كان المنافقون والكافرون من حول محمد يحاولون جهدهم أن يقنعوا محمدا بأن يفتريه من عند نفسه؟

وبكلمات أخرى، ما الشيء الذي كان يطلب هؤلاء من محمد أن يفتريه (شَيْئًا) من عند نفسه غير الذي أوحي إليه؟

رأينا المفترى: لو دققنا في النص القرآني نفسه أكثر، لوجدنا أن الآية الكريمة لم تأت على النحو التالي (لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ ... قَلِيلًا)

وانما جاءت على نحو

- (لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا)،

الأمر الذي يدعونا إلى الاستنباط (ربما مخطئين) بأن هناك شيئا محددا بذاته هو الذي كاد محمد أن يركن إليهم فيه، وهو الذي ألح أولئك القوم في طلبه من محمد حتى يتخذوه خليلا:

- وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (73)

السؤال: ما هو ذلك الشيء إذن؟

رأينا: لو دققنا في السياقات القرآنية الخاصة بالافتراء على مساحة النص القرآني كله، لوجدنا أنها غالبا ما تتحدث عن الرزق (الحلال والحرام منه):

- وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (138) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (140) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ۗ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (144) قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (59) وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (56) وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (116)

وأحيانا تتحدث عن افتراء عبادة غير الله:

- وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (50) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ

(28) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۚ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (3) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (8)

وقد يكون الافتراء بهدف مخالفة ما جاء من الرسالة سابقا:

- لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (111)

وقد يحصل الافتراء بتبديل الآيات مكان بعضها البعض:

- وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ۙ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (43)

ولا شك أن أحد أوجه الافتراء تكون بالبهتان:

- يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (12)

نتيجة مفتراة: بناء على ما فهمناه من الآيات الكريمة السابقة، فإننا نستنبط القول (ربما مخطئين) بأن الافتراء غالبا ما يكون خاصا بالحلال والحرام من الرزق أو بعبادة أحد غير الله أو بتبديل الآيات أو بافتراء البهتان، الخ.

السؤال المطروح إذن: ما الشيء الذي ألح المنافقون والكافرون على محمد أن يفتريه من عند نفسه؟

- وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (73) وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (74)

رأينا: لو دققنا في الآية الكريمة نفسها، لوجدنا أن الذي كاد محمد أن يركن إليهم فيه قد كان شَيْئًا قَلِيلًا:

- وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (74)

نتيجة مفتراة 1: كاد محمد أن يركن إليهم في شيء واحد (شَيْئًا)

نتيجة مفتراة: 2: كان ذلك الشيء شيئا قليلا (شَيْئًا قَلِيلًا)

لذا، نحن نتجرأ على الاستنباط بأن ذلك الشيء الذي كاد محمد أن يركن إليهم فيه لم يكن من الأمور التي قد تبدو جوهرية في العقيدة كالكفر أو الشرك ونحوهما. فالقلة هي الاستثناء الذي قد لا يكون ظاهر التأثير، وانظر – إن شئت- في الآيات الكريمة التالية:

- قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ (47) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ (48) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (62) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (58) يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ۖ وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ

عَنْ أَنبَائِكُمْۖ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (20) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3)

النتيجة: في لحظة ما من الدعوة، كاد محمد أن يركن إلى من حوله من الكافرين والمنافقين شَيْئًا قَلِيلًا، فجاءه التوجيه الإلهي بأن لا يفعل، لأن النتيجة ستكون في هذه الحالة وخيمة:

- وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۖ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (73) وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (74) إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (75)

نتيجة مفتراة 1: مادام أن الشيء الذي كان يحاول القوم أن يقنعوا محمد بافتراءه من عند نفسه قد كان شيئا قليلا، لذا نحن نستبعد أن يكون متعلقا بعبادة غير الله أو بتبديل الآيات.
نتيجة مفتراة 2: نحن نعتقد أن الأمر متعلق بواحدة من احتمالين: الرزق (الحلال والحرام) أو النساء، لذا تصبح السياقات القرآنية التالية (في رأينا) هي ذات العلاقة بالموضوع: الرزق (الحلال والحرام):

- وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (138) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (140) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِۗ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (144) قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْۖ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (59) وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (56) وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (116)

النساء:

- يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍۙ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (12)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن بأن الشيء القليل الذي كاد الكافرون والمنافقون أن ينجحوا في جعل النبي يركن إليهم فيه شيء قليل له علاقة بالرزق (الحلال والحرام) أو بالنساء.

السؤال: ما هو ذلك الشيء إذن؟

جواب: هذا ما سنتعرض له لاحقا بحول الله وتوفيقه، فالله أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا وأن يزدني علما، إنه هو الواسع العليم – آمين.

- وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَاۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (203)

لكن الذي يهمنا الآن هو علاقة هذا الأمر (بغض النظر عن طبيعته) بقصة يونس نفسها، القصة التي هي موضوع النقاش هنا.

⇐ السؤال: كيف يمكن فهم ذلك كله في سياق الحديث عن قصة يونس؟

⇐ أي كيف يمكن أن نربط هذا الحديث المفترى من عند أنفسنا من سيرة محمد مع قصة يونس؟

⇐ فما أوجه التشابه والاختلاف بين الحالتين؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الجدول التالي يبرز أهم أوجه التشابه والاختلاف بين الحالتين:

يونس	محمد
• حاول بعض المنافقين والكافرين أن يفتنوه • كان طلبهم أن يفتري على الله شيئا قليلا • وقع يونس فعلا في شركهم • لم يأت توجيه إلهي لذي النون بأن يصبر لحكم ربه • الخ	• حاول بعض المنافقين والكافرين أن يفتنوه • كان طلبهم أن يفتري على الله شيئا قليلا • كاد محمد أن يقع في المطب نفسه • جاء التوجيه الإلهي أن يصبر محمد لحكم ربه فلا يكن كصاحب الحوت • الخ

رأينا: نحن نفتري الظن بأن الذي حصل مع يونس (في هذه الجزئية: الصبر لحكم ربه) يشبه تماما ما حصل مع محمد وإن كانت النتائج مختلفة، وذلك لأن يونس (على عكس محمد) لم يصبر لحكم ربه، فركن إلى من حوله شيئا قليلا، لنطرح من خلال ذلك بعض التساؤلات المثيرة:

⇐ لماذا لم يصبر يونس لحكم ربه؟

⇐ وما معنى أن يكون ذو النون قد صبر أو لم يصبر لحكم ربه؟

⇐ أي ما معنى الصبر لحكم ربه؟

⇐ لماذا لم يأت توجيه إلهي لذي النون بأن يصبر لحكم ربه كما جاء في حالة محمد؟

⇐ لماذا لم يأت التثبيت الإلهي لـ ذي النون كما جاء التثبيت لـ محمد في ذلك؟

أما بعد،

لنبدأ النقاش هنا طارحين التساؤلين الأخيرين

أولا: لماذا لم يُوحى إلى ذي النون بأن لا يركن إلى من حوله كما حصل الوحي في حالة محمد؟ ولماذا لم يأت التثبيت الإلهي لـ ذي النون كما حصل في حالة محمد؟

- **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (48)**

وبكلمات أكثر دقة نقول: إذا كان ما تقوله صحيحا (يسأل صاحبنا)، لِم لم ينزل الوحي على ذي النون بأن يصبر لحكم ربه ولا يطع الكافرين والمنافقين اللذين من حوله كما حصل مع محمد؟

رأينا المفترى والخطير جدا: لأن ذا النون لم يكن قد أصبح رسولا بعد.

فعدم صبر ذي النون لحكم ربه كان قبل حادثة دخوله في بطن الحوت. ولكن الرسالة جاءته بعد أن نبذ بالعراء من بطن الحوت.

السؤال: وما الفرق؟ ما الفرق أن يكون ذو النون قد صبر (أو لم يصبر) قبل البعث بالرسالة أو بعد أن بُعِث رسولا في قومه؟

رأينا: لابد لنا أن نميّز بين مرحلتين في حياة كل رسول من رسل الله، والمرحلتان هما:

1. مرحلة الحكم
2. مرحلة الرسالة

الدليل ها هو موسى يحصل على الحكم والعلم عندما بلغ أشده واستوى، أليس كذلك؟

- **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14)**

ولكن ما الذي حصل بعد ذلك؟ ألم يدخل المدينة على حين غفلة من أهلها فيقتل الرجل الذي كان من عدوه نصرة للرجل الذي كان من شيعته؟

- **وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (15)**

ألم يجد موسى أنه قد ظلم نفسه؟

- **قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (16)**

نتيجة مهمة جدا جدا: وقع موسى في فعل ظلم نفسه بعد أن كان الله قد آتاه حكما وعلما وكان ذلك بعد أن بلغ أشده واستوى. ثم، ألم يهرب بعد ذلك إلى مدين ليقضي فيها سنين من عمرة؟ السؤال: هل كان موسى حينها رسولا من الله إلى القوم؟ جواب مفترى: كلا وألف كلا. رأينا المفترى: في تلك اللحظة التي دخل موسى المدينة بعد أن آتاه الله حكما وعلما لم يكن موسى يحاول أن يكون أكثر من واحد من المصلحين، وقد جاء ذلك على لسان من أراد موسى أن يبطش به في اليوم التالي:

- **فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19)**

نتيجة مهمة جدا جدا: آتى الله موسى حكما وعلما عندما كان يحاول موسى أن يكون من المصلحين السؤال: ما الذي حصل بعد ذلك؟ جواب: ألم يهرب موسى فتوجه إلى مدين؟ ألم يمكث سنين من عمره هناك؟

- **إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (40)**

السؤال: إذا كان موسى قد أصبح حينها رسولا، فلم إذن يهرب من المدينة كلها؟ تلخيص: آتى الله موسى حكما وعلما، فدخل المدينة على حين غفلة من أهلها، فوكز موسى الرجل الذي كان من عدوه نصرة لمن استغاثه من شيعته، فقضى عليه، أقر موسى بظلمه لنفسه، خرج من المدينة خائفا، فتوجه تلقاء مدين ومكث فيها يرعى الغنم عند شعيب لقاء أن أنكحه ابنته. وحصل هذا كله قبل أن يُكلّف موسى بالرسالة. السؤال: متى إذن جاء التكليف الإلهي لموسى بالرسالة؟ جواب: بعد أن سار بأهله قافلا العودة من مدين متجها إلى الأرض المقدسة من جديد:

- إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (10) وهناك جاءه التكليف المباشر من الله بأن يكون رسولا: وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (13)

نتيجة مهمة: عاد موسى من أرض مدين، وكان ذلك على قدر (فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ)، وما أن وصل إلى الواد المقدس حتى جاءه التكليف بالرسالة (وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ). السؤال: كم استغرقت تلك الفترة من عمر موسى؟ ألم تفصل عشرة حجج بين فترة الحكم والعلم الذي حصل عليه قبل هروبه إلى مدين من جهة وتكليفه بالرسالة في الواد المقدس بعد أن عاد سائرا بأهله من جهة أخرى؟

- قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (27)

نتيجة مفتراة جدا جدا: إن أبسط ما يمكن أن نخرج به من هذا النقاش هو أن الله قد يؤتي بعض عباده حكما وعلما (حُكْمًا وَعِلْمًا) ولكن ذلك لا يعني أنه قد كُلّف رسميا بالرسالة، فالحكم والعلم شيء والرسالة شيء آخر. وهذا الفصل بين الحالتين لم يكن فقط خاصا بموسى، فالقصة تتكرر في حالة يوسف. فما أن بلغ أشده حتى كان الحكم والعلم من نصيبه:

- وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (22)

ولكن ما الذي بدر منه بعد ذلك؟ ألم تراوده المرأة التي هو في بيتها عن نفسه؟ وأنظر- إن شئت- في سياق هذه الآية الأوسع:

- وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (22) وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23)

السؤال: هل كان يوسف قد كلّف بالرسالة حينها؟ ألم يكد يوسف أن يقع في الشَرَك الذي نصبته نسوة المدينة له؟

- وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (24) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (34)

السؤال الأهم: هل كان يوسف رسولا مكلفا بالرسالة حينها؟ وهل بدر منه إشارة واحدة للدعوة إلى الله قبل هذه الحادثة؟ ألم يمكث في السجن بضعة سنين؟ ألم تأتي رؤية صاحبيه السجن بعد فترة من الزمن في السجن؟ فمتى بدأ يوسف يدعو إلى الله؟ رأينا: لم نجد في سياق الحديث عن قصة يوسف أن يوسف قد بدأ يدعو إلى الله إلا في السجن، وبالتحديد في حادثة تأويل رؤيا صاحبيه:

- قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (37) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (38) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (39) مَا

تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (40)

نتيجة مفتراة: عندما حاولت المرأة إيقاع يوسف في الشَرَك، كان يوسف ممن يملك حكما وعلما لكنه لم يكن قد كُلّف بالرسالة بعد. لذا، نحن نتجرأ على تقديم الافتراء التالي: تأتي مرحلة الحكم (والعلم) سابقة لمرحلة الرسالة السؤال: لماذا؟ أي لماذا تسبق مرحلة الحصول على الحكم (والعلم) مرحلة التكليف بالرسالة؟ جواب مفترى خطير جدا: لإحداث الفتنة. تخيلات مفتراة: حتى يكون شخص ما مؤهلا للرسالة فعليه أن يكون قد آتاه الله حكما وعلما من ذي قبل، ويستمر هذا الشخص على هذه الحالة فترة من الزمن، وفي غضون ذلك قد يتعرض لبعض مواطن الفتنة، فقد ينجو منها (كما حصل مع يوسف) وقد يقع فيها (كما حصل مع موسى). فإن هو وقع فيها، فإنه سيتحمل تبعاتها، فتحجز عنه الرسالة فترة من الزمن حتى يستطيع تطهير نفسه من الظلم الذي وقع فيه. فما أن قتل موسى ذلك الرجل حتى اعترف على الفور بخطأ ما اقترف من الإثم بحق نفسه، فطلب المغفرة من الله:

- **قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (16)**

افتراء خطير جدا 1: نحن نعتقد أن غفران الذنب الذي وقع فيه موسى (أي قتله للرجل الذي من عدوه) لم يكن في الحال، أي بعد وقوعه فيه مباشرة. افتراء خطير جدا 2: نحن نعتقد أن ذلك قد كلّف موسى عشر سنين (عشر حجج) من عمرة

- **... وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (40)**

تخيلات مفتراة: آتى الله موسى حكما وعلما عندما بلغ أشده واستوى:

- **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14)**

ودخل موسى المدينة بعد ذلك على أثر موت الفرعون الأول (فرعون الطفولة) عندما كانت المدينة كلُّها على حين غفلة (أي فترة الفراغ السياسي) لأن ذلك الفرعون الأول لم يكن له ولد يرث الحكم من بعده مباشرة. فبقيت المدينة كلّها فترة من الزمن بلا فرعون (في غفلة)، وكان الملأ هم من يحكم المدينة، وليس أدل على ذلك من أن الرجل الذي جاءه ناصحا قد حذره من تآمر الملأ به:

- **وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20)**

فالرجل لم يحذره من فرعون نفسه ولكنه حذره من الملأ (إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ) وذلك لأن المدينة – في رأينا- لم يكن فيها فرعون يحكم، وكانت تحت حكم الملأ من آل فرعون. فكانت المدينة كلها في غفلة حتى يتولى فرعون جديد مقاليد السلطة في البلاد (للتفصيل انظر مقالة قصة موسى: فرعون الطفولة وفرعون الرسالة). في تلك الأثناء حاول نفر من بني إسرائيل إحداث ثورة ضد حكم الفراعنة اللذين استعبدوهم فترة من الزمن، وفي تلك اللحظة التاريخية التي كادت أن تكون حاسمة من حياة بني إسرائيل بشكل خاص وحياة المدينة كلها بشكل عام، عاد موسى ليناصر شيعته (بني إسرائيل) على عدوه (الفراعنة)، وما أن دخل المدينة حتى وجد فيها رجلين يقتتلان، فانتصر موسى لمن هو من شيعته على الذي هو من عدوه، فوكزه فقضى عليه، عندها علم موسى على الفور خطأ ما فعل، فنسب ذلك إلى عمل الشيطان:

- وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (15)

لكن ذلك لم يمنع موسى من أن يقرّ بذنبه على الفور:

- قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (16)

السؤال: كيف سيتمكن موسى من التخلص من هذا الذنب الذي وقع فيه؟ رأينا: نحن نظن أن ذلك تم من خلال: 1. هروب موسى من المدينة 2. بقاءه فترة طويلة من الزمن يحاول النجاة من هذا الغم الذي أوقع نفسه فيه نتيجة مفتراة خطيرة جدا (1): حتى تمكن موسى من التخلص من خطيئته تلك (والنجاة من الغم)، كلّفه الأمر (نحن نفتري القول) تأخر الرسالة سنين من عمره، فما حصل على الرسالة إلا بعد أن مكث في مدين عشرة حجج، يرعى فيها الغنم لمن أنكحه إحدى ابنتيه:

- قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (27)

افتراء خطير جدا |(2): نحن نتخيل أن موسى قد لبث تلك الفترة الزمنية غير القليلة (عشر حجج) يحاول أن يكفر عن ذنبه جزاء بما قدمت يداه من السيئة (أي قتل الرجل الذي من عدوه نصرة لمن هو من شيعته) إن هذا الطرح يدعونا على الفور إلى أن تتشابك خيوط العنكبوت في هذا البيت قيد الإنشاء هنا مع الخيوط في بيت آخر من خلال طرح التساؤلات المثيرة التالية عن قصة موسى: - لماذا هرب موسى إلى مدين؟ - لِم لم يسلم موسى نفسه للسلطة ليتم القصاص منه؟ - أليس من المفترض بمن قتل نفسا أن يقدّم نفسه للعدالة على الفور؟ - وإذا كان موسى قد استطاع أن يفلت من العقاب الدنيوي، فهل سَلِم من العقاب الأخروي؟ - ألا يرفع تطبيق العقوبة في الدنيا القصاص عن مرتكبها في الآخرة؟ - لم إذن لم يعمد موسى إلى تسليم نفسه لتطبّق عليه عقوبة القصاص في الحياة الدنيا بدل أن يُسأل عنها في يوم الحساب؟ - الخ رأينا المفترى: نحن نظن أن نسيج خيوط بيت عنكبوت جديد من خلال طرح هذه التساؤلات حول قصة موسى ستتشابك مع خيوط هذا البيت الذي نحاول أن ننسجه الآن، كما أنها ستتشابك - لا شك- مع غيره من البيوت التي يمكن أن تنسجها الآيات الكريمة عندما تتقاطع مع بعضها البعض. ولعلي أجزم الظن بأن العواقب (إن صحّ منطقنا المفترى فيها) ستكون كارثية على الفكر الإسلامي السائد، خاصة ما يتعلق بقضايا الحدود وتطبيقاتها. ولمّا كان هذا أحد بيوت العنكبوت الكبيرة جدا التي تحتاج إلى نسج دقيق جدا، فإننا نؤثر تأجيلها بعض الوقت، سائلين الله وحده أن يهدينا رشدنا وأن يعلمنا الحق الذي نقوله فلا نفتري عليه الكذب، إنه هو السميع المجيب، مركزين في الوقت الحالي على البيت الذي نحاول أن ننسجه الآن عن قصة يونس نفسها، خاصة ما يتعلق منها بقضية التفريق بين فترتين منفصلتين في حياة الرسول وهما: (1) فترة الحكم و(2) التكليف بالرسالة. السؤال: لماذا غفر الله لموسى ذلك الذنب؟ جواب: لأن موسى لم يكن قد أصبح رسولا بعد، فهو لازال في مرحلة الحكم والعلم وهي الفترة السابقة لمرحلة التكليف بالرسالة. السؤال: وما الفرق بين ارتكاب الذنب في هذه الفترة وارتكاب الذنب في مرحلة المعصية؟ جواب: إذا ارتكب الذنب في هذه المرحلة فإن غفران الذنب وارد كما حصل مع موسى:

- قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (16)

السؤال: وماذا لو أن موسى قد وقع في ذلك الذنب بعد أن حصل التكليف له بالرسالة؟ جواب مفترى: لا أظن أن غفران الذنب سيكون ممكنا حينها. السؤال: أين الدليل على أن الذنب لا يغفر لو أنه أُرتِكب في مرحلة الرسالة؟ جواب: لنقرأ الآيات الكريمة التالية التي توجه تحذيرا صريحا وقويا لمحمد بأن لا يركن للمنافقين والكافرين حتى وإن كان شيئا قليلا:

- **وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (73) وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (74) إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (75)**

السؤال: لماذا لم يذق الله موسى أو ذي النون مثلا ضعف الحياة وضعف الممات؟ ولماذا غفر لهما ونجاهما من الغم؟ رأينا المفترى: لأن الذنب الذي وقعا فيه كان سابقا لمرحلة الرسالة، وقد حصل عندما كانا لا زالا يملكان حكما وعلما فقط، ولم يتم تكليفهما بالرسالة بعد. نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن فترة الحكم والعلم هي فترة سابقة للتكليف بالرسالة، وفيها يمكن أن تحدث الفتنة (أو حتى إمكانية الوقوع فيها) من قبل هؤلاء البشر المؤهلين للرسالة. واحتمالية غفران الذنب والنجاة من الغم واردة جدا. السؤال: أين الدليل على الفصل بين المرحلتين؟ جواب مفترى: نحن نجد الدليل على ذلك في طلب إبراهيم هذا:

- **رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (83)**

دقق – عزيزي القارئ الكريم- فيما طلبه إبراهيم هنا. ألا تجد بأن الآية الكريمة تبيّن – بما لا يدع مجالا للشك- أن إبراهيم قد طلب شيئين اثنين؟ 1. أن يهب له ربه حكما (رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا) 2. أن يلحقه بالصالحين (وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) السؤال: ما الفرق بين الطلبين؟ رأينا: تحدثنا في بداية هذه المقالة عن من كان من الصالحين من عباد الله، وافترينا الظن بأن اللحاق بالصالحين تعني الحصول على الرسالة، وزعمنا القول (ربما مخطئين) أن ليس هناك من كان من الصالحين إلا وكان رسولا من رب العالمين. (للتفصيل ارجع إلى الجزء السابق من هذه المقالة) السؤال: إذا كان اللحاق بالصالحين تعني الرسالة، فما الحكم إذن؟ جواب مفترى: إن هذا السؤال ينقلنا على الفور إلى ذروة هذا الجزء من المقالة، ليكون السؤال الذي سننتقل إليه الآن هو: ما معنى "الحكم" في السياق القرآني؟ وكيف يمكن أن يحصل شخص على الحكم من الله مباشرة؟ ولا ننسى في الوقت ذاته أن المقارنة هنا هي بين ذي النون ومحمد في هذه الجزئية على وجه التحديد:

- **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ (48)**

رأينا المفترى: نحن ننفي جملة وتفصيلا أن يكون للحكم في السياق القرآني علاقة بالسلطة. فموسى قد آتاه الله حكما وعلما عندما استوى وبلغ أشده:

- **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14)**

وهناك دخل المدينة، ففعل فعلته التي فعل عندما قتل الرجل، فأصبح فيها خائفا يترقب:

- **فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۚ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ (18)**

وجاءه من يحذره من تآمر الملأ به ليقتلوه، فكانت النتيجة أن هرب من المدينة كلها:

- **وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20)**

وخرج منها خائفا يترقب:

- فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (21)

السؤال: إذا كان الظن (كما قد يتبادر للذهن للوهلة الأولى) هو أن الحكم له علاقة بالسلطة، فكيف إذن كان موسى قد أوتي "حُكْمًا وَعِلْمًا" وها هو الآن خائف مطارد من قبل من كان يملك السلطة حينئذ؟

نتيجة مفتراة: نحن نفتري القول بأنه لا علاقة لمن كان الله قد آتاه حُكْمًا بالسلطة، بل هو على الطرف المقابل لمن كان بيده السلطة. فموسى هو من آتاه الله الحكم ولكن السلطة كانت بيد الملأ من آل فرعون. والسيناريو يتكرر في حالة يوسف، فالله كان قد آتاه حُكْمًا وَعِلْمًا عندما بلغ أشده، وهناك راودته التي هو في بيتها عن نفسه:

- وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (22) وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23)

وكانت النتيجة أن أُغلق عليه سجنه بضع سنين:

- ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ (35)

السؤال: ما معنى الحكم إذن؟ جواب: دعنا نعود لنتدبر طلب إبراهيم السابق كما ورد في الآية الكريمة:

- رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (83)

السؤال: هل كان إبراهيم طالبا السلطة عندما سأل ربه أن يهب له حكما (رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا)؟

وما الذي حصل عندما تقابل مع من كان يملكها كما تصور ذلك الآية الكريمة التالية؟

- أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258)

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن الحاجة ملحة للتفريق بين من آتاه الله حُكْمًا كإبراهيم وموسى ويوسف وجميع رسل الله كما جاء في مثل الآيات الكريمة التالية من جهة:

- فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (79) وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (74)

وبين من آتاه الله الْمُلْكَ كالذي حاج إبراهيم في ربه:

- أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258)

أو كطالوت مثلا:

- وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (247)

أو حتى كداوود نفسه:

- فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (251)

نتيجة مفتراة: كان داوود (وولده سليمان من بعده) هم الوحيدون من بين جميع أنبياء الله من حصل على الأمرين: الحكم (حُكْمًا) والملك (مُلْكًا):

- قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (5) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (79)

مقارنة: لو تفقدنا الفرق بين طلب إبراهيم من جهة وطلب سليمان من جهة أخرى، لوجدنا أن الحكم هو مبتغى إبراهيم بينما كان الملك هو مبتغى سليمان: إبراهيم:

- رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (83)

سليمان:

- قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (5)

نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا: يتم الحصول على الحكم (كما يتم الحصول على الملك) بطريقة الهبة

(دعاء: رب هب لي حكما وعلمني من لدنك علما، إنك أنت الحكيم العليم - آمين)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: وجب علينا التفريق بين الحكم (الذي لا علاقة له بالسلطة) من جهة والملك (الذي له علاقة بالسلطة) من جهة أخرى السؤال: إذا كان الحكم يختلف عن الملك، ولا علاقة لمن آتاه الله الحكم (كإبراهيم وموسى ويوسف ولوط وغيرهم من رسل الله) بالسلطة، فما هو إذن؟

تساؤلات مثيرة

⇐ ما معنى الحكم؟

⇐ وكيف يمكن الحصول على الحكم؟

⇐ ومن المؤهل للحصول على الحكم؟

⇐ الخ

جواب مفترى: نحن نظن أن الحكم مرادف للعلم بدليل التلازم بينهما في كثير من الآيات الكريمة:

- وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (22) وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (74) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (79) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14)

ولكن بالرغم من هذا التلازم شبه الدائم بينهما، إلا أن الحكم شيء والعلم شيء آخر بدليل إمكانية انفصالهما عن بعضهما البعض:

- رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (83) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (21) فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (65)

(دعاء: رب هب لي حكما، وعلمني من لدنك علما، وآتني حكما وعلما، إنك أنت الواسع العليم – آمين)

لتصبح النتائج المفتراة من عند أنفسنا عن هذه الجزئية على النحو التالي:

نتيجة مفتراة 1: الحكم يختلف عن الحكم

نتيجة مفتراة 2: الحكم يقترن بالعلم بشكل كبير جدا

نتيجة مفتراة 3: الحكم قد ينفك عن العلم

نتيجة مفتراة 4: الحكم يسبق العلم

نتيجة مفتراة 5: يتم الحصول على الحكم هبة

نتيجة مفتراة 6: يتم الحصول على العلم تعليما

نتيجة مفتراة 7: يتم الحصول على الحكم والعلم معا إتيانا

السؤال: ما هو الحكم إذن؟ وكيف يختلف عن العلم؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: تحدثنا في عدة مقالات سابقة لنا عن العلم، وحاولنا التمييز بين العلم من جهة والمعرفة من جهة أخرى، وافترينا الظن من عند أنفسنا أن المعرفة هي ما يتحصل للإنسان من معلومة نتيجة جهد يبذله فيها، وقد يصيب وقد يخطئ فيها. فالمعرفة قابلة للصواب وللخطأ لأنها جهد بشري. أما العلم فهو المعلومة التي لا تحتمل الصواب والخطأ لأنها معلومة صحيحة مادام أنها صادرة من مصدر العلم الحقيقي. وقد قدمنا حينئذ الافتراءات التالية:

1. المعرفة صناعة بشرية بينما العلم صناعة إلهية

- وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (30) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (23) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (26)

2. المعرفة تحتاج إلى بذل للجهد للحصول عليها:

- وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (58)

3. المعرفة تحتاج إلى دليل:

- وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (30)

4. المعرفة تراكمية تزيد وتنقص
5. الخ

لتكون النتيجة التي نحاول أن نبرزها هنا هي أن كل ما تحصل عند الناس من خبرات بشرية هي محصلة تراكمية تقع في باب المعرفة ولا تقع في باب العلم، وذلك لأننا نفتري الظن أن العلم – على عكس المعرفة- لا يتطلب الحصول عليه إلى جهد ولا إلى دليل وهو- في رأينا- ليس تراكمي، فهو يأتي دفعة واحدة في صورته النهائية، يستحيل بعدها أن يضاف إليه شيء ليحسّنه. فمتى كان الخبر ناتجاً عن علم فهو إذاً نهائي، ولكن إن كان الخبر ناتجاً عن معرفة فيمكن حينئذ أن يحدث عليه تحسين (وربما تغيير). لذا، فإننا نفتري الظن من عند أنفسنا بأن كل ما تحصل للبشر (غير اللذين منّ الله عليهم بالعلم) بطريقة البحث والتجربة والدليل يقع في باب المعرفة وليس في باب العلم، فالجامعات والمعاهد كلّها مبنيّة على مبدأ المعرفة، ولا يوجد حتى الساعة مؤسسات علمية مبنية على أساس العلم، فما تحصل للغرب حتى الساعة من خبرات لا تتعدى أن تكون معرفة، ولكن ما نحاول البحث عنه في هذا الكتاب العظيم فهو العلم، لذا فالله أسأل أن يأذن لي الإحاطة بشيء من علمه كما كان لصاحب موسى مثلاً:

- فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا الكهف (65)

أو كما كان لبعض ملأ سليمان:

- قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (40)

والله أسأل أن أكون من الذين آتاهم العلم الذي هو من عنده:

- وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا (106) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ۚ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (107)

نتيجة مهمة جدا جدا: هناك طريقتان للحصول على المعلومة وهما:
الحصول على المعلومة كمعرفة
الحصول على المعلومة كعلم

السؤال: كيف حصل مجموع البشر حتى الساعة على المعلومة؟

جواب مفترى: تم الحصول على المعلومة بطريقتين:

1. هناك من حصل على المعلومة كمعرفة مثل انشتاين ونيوتن واديسون وابن الهيثم وغيرهم ممن اشتغلوا بهذه الصنعة على مر التاريخ
2. لكن هناك – بالمقابل- من حصل على المعلومة كعلم كأنبياء الله الذين جاءهم العلم من الله، وكبعض أولياء الله الصالحين (كالذي ذهب موسى ليتعلم عنده)، أو حتى كبعض الكافرين الذين

جاءهم العلم فاستخدموه في غير محله كالذي آتيناه آياتنا وانسلخ منها، وكالسامري وكفرعون وقارون مثلا:

- قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78)

السؤال: عندما حاول نيوتن وانشتاين وأمثالهم الحصول على المعلومة كمعرفة، فقد سلكوا منهجا محددا للوصول إلى غايتهم المنشودة (أو بعض منها)، وتمثل منهجهم باستخدام ما يسمونه بأدوات البحث العلمي في المشاهدة والتجريب والتطبيق، أليس كذلك؟ السؤال: كيف توصل بعض عباد الله (كالرسل مثلا) إلى المعلومة "كعلم"؟ فهل لجأوا إلى استخدام أساليب البحث العلمي في الملاحظة والتجربة والبرهان والتطبيق؟ فهل كان عيسى ابن مريم مثلا يستخدم أدوات الطبيب (كما نعرفها) ليشفي الأبرص والأكمه وليحيي الموتى بإذن الله؟ وهل استخدم سليمان ذلك في تسخير الجن والشياطين له؟ وهل فعل داوود ذلك مع الجبال والطير؟ وهل استخدم موسى ذلك للوصول إلى العلم (العصا) الذي شق البحر والحجر؟ رأينا المفترى: كلا وألف كلا. السؤال: ماذا كانت الطريقة التي استخدمها هؤلاء للحصول على المعلومة "كعلم"؟ وكيف تحصلت لهم تلك المعلومة؟ رأينا المفترى والخطير جدا جدا: استطاعوا الحصول على ذلك العلم بسبب امتلاكهم الحكم. انتهى.

نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا: الحكم هو وسيلة الحصول على العلم الدليل بداية، نحن نؤمن أن العلم الحقيقي كله محصور عند الله:

- قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (23) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (26)

كما نؤمن أن الله هو من يعلم وأننا نحن من لا نعلم:

- كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (216) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (232) هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (66) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (19)

كما نؤمن أن العلم يأتينا من الله:

- وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (120) وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (145) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ

يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (247) إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (19) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (61) وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (93) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (37) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (83) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (14) وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ۖ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (17) وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (16)

ونحن نؤمن كذلك بأن ما أوتينا من العلم يبقى قليل بمقارنة بما عند الله منه:

- وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (85) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ (30)

ونحن نؤمن أن من جاءه ذلك العلم أصبح ينعت على أنه من العلماء اللذين يخشى الله منهم:

- وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (28)

(دعاء: اللهم أسألك أن أكون من عبادك العلماء الذين تخشى منهم – آمين) لكن السؤال الذي نجلب انتباه القارئ الكريم له هو: هل كل من جاءه شيء من العلم أصبح من عباد الله العلماء؟ جواب مفترى: كلا وألف كلا، لأن هناك من هو من عباد الله العلماء الذين يخشى الله منهم، وهناك من العلماء الذين لا يخشى الله منهم بالرغم من حصولهم على العلم. السؤال: كيف نفرق بينهم؟

رأينا: نحن نجد أن الآية الكريمة التالية تبرز الفرق بين نوعين من العلماء

- هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (7)

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا: لو دققنا في هذه الآية الكريمة جيدا لوجدنا بداية أن هناك تناقض ظاهري بين مكوناتها، ليكون السؤال الذي تثيره مفردات هذه الآية الكريمة بصياغتها القرآنية هو: هل الراسخون في العلم ممن يعلم تأويل

الكتاب (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ)؟ هل يستطيع الراسخون في العلم أن يميزوا بين الآيات المحكمات المتشابهات؟ أم أن الله فقط هو من يعلم تأويله (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ) وأن الراسخون في العلم هم الذين يقولون (آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا) فقط؟

جواب مفترى: إذا كان الراسخون في العلم لا يعلمون تأويله وأن ذلك خاصا فقط بالإله نفسه (كما ظن كثير من أهل الدراية من قبلنا)، فلم إذن هم من الراسخين في العلم أصلا؟ وما فائدة رسوخهم في العلم إذن؟ هل مجرد أنهم يقولون " آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا" يجعلهم من الراسخين في العلم؟ ألا نقول نحن جميعا ذلك في كل لحظة؟ ألا نشهد بأننا (آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا)؟ فكيف إذن سيختلف الراسخون في العلم عن غيرهم؟

- **أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (9)**

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الحاجة ملحّة للتفريق بين نوعين من العلماء:

1. هناك من يرسخ في العلم ويقرّ بأنه من عند الله كصاحب موسى مثلا

- **وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (82)**

2. هناك من يعلم ويظن أن علمه من عند نفسه كقارون:

- **قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78)**

السؤال: ما تبعات هذا الظن المفترى من عند أنفسنا؟ رأينا: نحن نظن أن هدف الذي يعلم هو واحد من اثنين:

1. ابتغاء الفتنة وابتغاء التأويل
2. العلم بالتأويل

السؤال: ما الفرق بين العالم الذي يبتغي الفتنة ويبتغي التأويل من جهة والعالم بالتأويل من جهة أخرى؟

رأينا: بداية، نحن نظن أن البغي في إطاره الكلي هو أمر منهي عنه:

- **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (33) إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (90)**

لأن البغي فيه اعتداء طرف على طرف، وعادة ما يتغلب الطرف الأقوى على الطرف الأضعف:

- **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (9)**

وهنا يحق لمن بغي عليه أن ينتصر لنفسه، ولا شك أن الله سيكون ناصرا له:

- **وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (39) ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (60)**

وربما يكون صد البغي بوضع الحاجز بين الطرفين كحالة البرزخ بين البحرين حتى لا يبغي البحر الأكبر حجما على البحر الأصغر حجما:

- بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ (20)

وليس بالضرورة أن يكون الطرف الأكبر (الذي يبغي) على حق، بل على العكس فهو من يكون على الباطل، ولا يدعوه إلى البغي إلا سلطته وقدرته على ذلك كحالة قارون مثلا:

- إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76)

السؤال: ما علاقة البغي بالعلم؟ فهل يمكن لمن جاءه العلم أن يبغي؟ جواب: نعم. قد يبغي من جاءه العلم، والآيات الكريمة التي توضح ذلك كثيرة. واقرأ – إن شئت- قوله تعالى:

- إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (19)

السؤال: لماذا يبغي أهل العلم؟

رأينا: نحن نظن أن الحسد هو محرك البغي بين أهل العلم أنفسهم:

- بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (90)

فكانت النتيجة هي التفرقة:

- وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (14)

وذلك لأنهم ببساطة قد اختلفوا في ذلك العلم:

- كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (213)

السؤال: هل هذا الاختلاف بينهم مبررا؟ أي هل هناك سبب يدعو للاختلاف غير الحسد الذي في نفوسهم؟

رأينا المفترى: كلا، وذلك لأن ما جاءهم من العلم يقع في باب البينات، أي ما هو واضح كوضوح الشمس في رابعة النهار:

- وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ۖ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (17)

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن الذي جاء هؤلاء من عند ربهم كان علما، ولما كان كذلك فهو واضح لا جدال فيه، لكن لما كانت النفوس غير مؤمنة، أصبح العلم هو الوسيلة لإيجاد الاختلاف بين الناس، بهدف أن يبغي طرف منهم على الطرف الآخر. فأصبحت تلك هي (نحن نفتري القول) صنعة العلماء الذي يبتغون تأويله. السؤال: وكيف يفعلون ذلك؟ رأينا: بإتباع المتشابه منه:

- هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (7)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: هناك نوع من العلماء، مملوءة قلوبهم بالزيغ، وهؤلاء النفر من العلماء لهم هدف واحد وهو ليس البحث عن العلم المكنون في هذا الكتاب، ولكن الهدف عندهم هو (ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ). ولا شك أن هؤلاء هم من أزاغ الله قلوبهم لأنهم قد زاغوا بأنفسهم، فكانوا من القوم الفاسقين:

- وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (5)

نتيجة مفتراة: عندما يأتي العلم الحقيقي من مصدره الحقيقي (أي من عند الله) يظهر فئة من الناس يشتغلون بهذا العلم، فيصبحوا من العلماء فيه، ولكن لما كانت قلوبهم قد ملئت زيغا يصبح هدفهم ليس البحث عن الحقيقة التي جاءتهم من عند ربهم، وتصبح لهم أجندة خاصة وهي ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، والهدف عندهم (نحن نكاد نجزم الظن) هو إيجاد التفرقة بين الناس. وذلك لأن الحسد هو عادة ما يحرك هدفهم ذاك، فهم يظهرون المصلحة العامة للناس ويبطنون الكراهية والبغضاء لغيرهم، بالضبط كما حصل مع إبليس في عداوته لآدم. فالله هو من علم آدم الأسماء كلها:

- وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ

ولكن لما كان إبليس لا يقبل بأن يكون آدم خيرا منه:

- قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ

كان من المتكبرين، فطرد منها وخرج من الصاغرين:

- قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (13)

لكن تكبره على آدم دفعه لتدبير المؤامرة المحكمة ضده، حتى تمكن من إيقاعه في شركه. وأفقده تلك النعمة الإلهية التي جاءته من ربه.

- فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (36)

لكن لو تدبرنا خطة إبليس، لوجدنا أنه يقاسم آدم وزوجه على أنه لهما لمن الناصحين:

- وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21)

نتيجة مفتراة: هناك نفر من الناس ممن يشتغلون بصنعة العلم، فيطلق عليهم صفة العلماء، هم (في ظننا) أقرب إلى إبليس في المنهج والغاية. فهم لا ينفكون عن مقاسمة الناس أنهم لهم من الناصحين، ولكن لو تدبرت أقوالهم وأفعالهم جيدا، لوجدت أنهم من شياطين الإنس الذين يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا:

- وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (112)

فهم – نحن نظن- الذين يمتلكون القدرة على زخرف القول، فينبهر الناس من حولهم بما يقاسموهم من شدة اتقان الصنعة عندهم (وهي زخرفة القول غرور)، فيكون القول في ظاهره جميلا (زُخْرُفَ الْقَوْلِ) ولكنه في جوهره لا يعدو أن يكون أكثر من غرورا (غُرُورًا)، أي التغرير بمن حولهم، لأن قولهم لا يعدو أن يكون أكثر من افتراء (فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ)، والأخطر من هذا كله هو أنه مدفوع بأجندة مسبقة عندهم، وهي ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، فهم في حقيقة الأمر لا يبحثون عن الحقائق، أي العلم الحقيقي الذي يكنزه هذا الكتاب الكريم، ولكنهم يتصيدون الدليل الذي يستخدمونه لإثبات صحة آراءهم المسبقة التي تؤكد توجهاتهم ورغباتهم، الخ.

لذا، تتقلّب فتاواهم بتغيّر الظروف والأحوال والأشخاص، ومن أراد المجادلة فلينظر في الفتاوى التي تخرج من عند ما يسمى بدوائر الإفتاء الرسمية في البلاد العربية والإسلامية، ليجد أنها تتغير بتغير المفتي وبتغير السياسة العامة للدولة، وتتقلب بتقلب مزاج وليّ النعمة، صاحب السلطان. فلا يكون المفتي أكثر من شخص "يستمزج" (أي يحاول أن يقرأ مسبقا ما يدور في خلد صاحب السلطان)، لتخرج الفتوى من بين يديه مفصّلة كما يبغيها سيده وولي نعمته. والأخطر من هذا أن جميع فتاواه عادة ما تكون مروّسة ببعض آيات الكتاب الحكيم، وفقراتها موسومة بجملة من الأحاديث المرفوعة إلى النبي الكريم.

السؤال: من هؤلاء العلماء؟ وكيف يمكن أن يصنفوا؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: إنهم جنود إبليس، إنهم اللذين يبتغون الفتنة ويبتغون تأويله السؤال: هل جميع أهل العلم من هذا الصنف؟ رأينا: كلا وألف كلا. رأينا المفترى: نحن نظن أن هناك مجموعة من العلماء (وهم لا شك قلة) هم الذين يخشى الله منهم، وهم الذين لا يبتغون الفتنة ولا يبتغون تأويله، ولكنهم العالمين بالتأويل.

السؤال: كيف هم؟

جواب: إنهم أولئك العلماء المتجردون عن الغايات والأهداف، لأن لديهم هدف واحد لا أكثر: الرسوخ في العلم

- **هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (7)**

السؤال: وكيف نعرفهم؟

رأينا: نحن نظن أن التعرف عليهم هو أمر غاية في السهولة، ولا يحتاج إلى كثير عناء. ويتمثل ذلك باختبار بسيط جدا يتمثل في وضع قضية بسيطة جدا للنقاش، فإذا ما تم جلب الدليل عليها من كتاب الله، ووجدت أن هذا الشخص على استعداد أن يتبع الدليل حتى لو كلفه ذلك تغيير معتقداته السابقة إذا اثبت الدليل بطلانها، فاعلم أن هذا الشخص هو من اللذين يبحثون عن الرسوخ في العلم. ولكن – بالمقابل- إن وجدت أن هذا الشخص على استعداد أن يلوي أعناق النصوص، خوفا من أن تنهار عقائده المسبقة إن أثبت الدليل بطلانها أو بطلان شيء منها، فاعلم أنه من المدفوعين بالأجندة المسبقة، وأنه من اللذين يبتغون الفتنة ويبتغون تأويله. مثال غالبا ما أبدأ بطرح السؤال الاستفزازي التالي على مسامع من يحاول محاورتي، والسؤال هو: هل تعتقد أنه يمكن لإنسان أن يعيش 950 سنة كما حصل مع نوح حسب معتقدات معظم أهل الفرق الإسلامية؟ وهنا تبدأ محاولة كثير من الأشخاص بالدفاع عن عقائدهم بالمنطق المفترى من عند أنفسهم بأن ذلك موجود في كتاب الله. عندها أحاول أن أفاجئ محاوري بالسؤال عن الدليل قائلا: أين ذلك في كتاب الله؟

اقرأ لي ذلك من كتاب الله؟ عندها لا يتردد الكثيرون في تلاوة الآية الوحيدة الخاصة بعمر نوح كما وردت في سورة العنكبوت:

- **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (14)**

وهنا لا أتردد عن طرح التساؤل التالي على محاوري على الفور: كيف توصلت إلى نتيجة الطرح في هذه الآية الكريمة؟ أليست هي على النحو التالي: 950 سنة – 50 عاما ؟ فكم تكون النتيجة؟ وهل يجوز طرح المعادلة على هذا النحو؟ أليس الطرف الأول هو (1000 سنة) بينما الطرف الثاني هو (50 عاما)؟ فكيف إذن تطرح متغير (سنة) من متغير آخر (عام) دون أن تجد قيمة كل متغير؟ فهل يجوز الطرح على النحو التالي: 1000 س – 50 ص = ؟ وهنا ينقسم المجادلون إلى فريقين. أما أحدهما (وهو الغالبية العظمى من الناس) فيحاول اللف والدوران، والهدف هو تبرير فكره الخاطئ حتى لو كلفه ذلك معاداتك واتهامك بكل عبارات الشتم والتوبيخ لأنك ببساطة قد سفهت – في ظنه- دين آباءه وأجداده، وأما الآخر (وهم قلة من الناس) فيقف مكتوفة الأيدي، شارد الذهن، لا تدري ما يقول وكيف يرد، وغالبا ما تكون ردة فعل هؤلاء على نحو طرح التساؤل التالي: كيف إذن يمكن أن نطرح طرفي المعادلة؟ وما الرفق بين السنة والعام (كميا)؟ وهل يمكن أن نصل إلى نتيجة شافية لهذه الحقيقة القرآنية المذهلة؟ وهل يمكن من خلال ذلك أن نصل إلى عمر نوح الحقيقي؟ الخ. إن مراد القول هنا أن محاورة العلماء لا تتطلب أكثر من إثارة سؤال استفزازي كهذا، عندها تستطيع أن تكتشف على الفور أي نوع من العلماء أنت تحاور: - العلماء اللذين يبتغون الفتنة ويبتغون تأويله، وهم المدافعون عن دين آبائهم وأجدادهم سواء صحت عقائدهم أم لم تصح - العلماء الراسخون في العلم اللذين يبحثون عن الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة، وهم الباحثون عن دين الله الحق. السؤال: كيف يستطيع العلماء الراسخون في العلم الوصول إلى تأويل الكتاب

رأينا المفترى الخطير جدا: هؤلاء هم من وهبهم الله الحكم، وهي الحالة التي تقل درجة عن مرحلة الرسالة. فمن آتاه الله حكما وعلما هو من يقل درجة عن مرحلة من كان رسولا من الله إلى الناس. السؤال: كيف كان يونس عندما خرج مغاصبا؟

افتراءات من عند أنفسنا: بناء على منطقنا المفترى من عند أنفسنا السابق، فإننا نظن بصحة الافتراءات التالية:

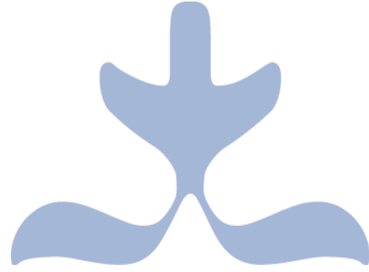
- ⇐ لم يكن يونس قد أصبح رسولا عندما خرج مغاصبا
- ⇐ كان يونس في مرحلة الحكم عندما خرج مغاضبا
- ⇐ استعجل يونس الرسالة - تأخر تكليفه بالرسالة
- ⇐ ظن يونس أنه لن يكون رسولا
- ⇐ خرج يونس من قومه مغاضبا لهذا السبب
- ⇐ نزل يونس عند رغبة بعض من حوله من المنافقين والكافرين
- ⇐ لم يكن من اللذين صبروا لحكم ربه، أي لم يكن من اللذين يملكون الحكم، فيصبرون على تبعاته فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ (48)
- ⇐ الخ

تساؤلات

- ⇐ لماذا لم يصبر يونس لحكم ربه؟
- ⇐ ما الذي أخرجه من قومه؟
- ⇐ كيف حصل الأمر على أرض الواقع؟
- ⇐ لماذا ذهب إلى البحر عندما خرج من عند قومه قومه؟
- ⇐ ولماذا ساهم؟
- ⇐ وكيف ساهم؟
- ⇐ وكيف كان من المدحضين؟
- ⇐ ولماذا عاد إلى ربه بعد أن التقمه الحوت؟
- ⇐ ولماذا عاد إلى قومه بعد ذلك؟
- ⇐ ولماذا نفع قوم يونس إيمانهم؟
- ⇐ الخ

جواب مفترى: لعلي أظن أن الإجابة على هذه التساؤلات (كما نتخيلها) ربما تبين عندما تتشابك خيوط هذه القصة العظيمة مع أحداث قصة موسى وشخصية فرعون التاريخية التي صوّرها القرآن الكريم أحسن تصوير. لذا، سنحاول في الجزء القادم من هذه المقالة بحول الله وتوفيقه ربط خيوط هذه القصة مع قصة موسى، كما سنحاول في الجزء الذي يليه أن نربطها مع خيوط أخرى من شخصية فرعون. وسيكون الافتراء الأكبر الذي سنحاول تسويقه في الجزئين القادمين بإذن الله تعالى هو أن شخصية يونس تتطابق تماما مع شخصية فرعون (وإن تعاكست معها في المقدمة والخاتمة)، وأن أحداث القصة تتطابق مع قصة موسى مع فرعون.

سائلين الله وحده أن يهدينا رشدنا فلا نفتري عليه الكذب ولا نقول عليه غير الحق، ونسأله تعالى أن ينفذ مشيئته بإرادته لي الإحاطة علما بما لم يحط به غيري، إنه هو السميع المجيب – آمين.



قصة يونس

الجزء الرابع



قصة يونس: الجزء الرابع

حاولنا في نهاية الجزء السابق تسويق افتراءنا الذي مفاده أن هناك نوعان من أهل العلم، وهم:

⇐ العلماء اللذين يبتغون الفتنة ويبتغون تأويله، وهم المدافعون عن دين آبائهم وأجدادهم سواء صحت عقائدهم أم لم تصح

⇐ العلماء الراسخون في العلم اللذين يبحثون عن الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة، وهم الباحثون عن دين الله الحق.

وظننا أن الراسخين في العلم منهم هم الذين يعلمون تأويله، وافترينا القول بأنهم يستطيعون ذلك بسبب ما وهبهم الله من "الحكم"، وهي الحالة التي تقل درجة عن (وتسبق) مرحلة الرسالة. فمن آتاه الله حكما وعلما هو من يقل درجة عن مرحلة من كان رسولا من الله إلى الناس.

وحاولنا ربط ذلك بقصة يونس الذي ذهب مغاضبا. فافترينا الظن من عند أنفسنا أنه لمّا ذهب يونس مغاضبا كان عنده الحكم، ولكنه لم يصبر لذلك، بدليل ما جاء في الآية الكريمة التالية:

- **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ(48)**

كما افترينا الظن بأن يونس لم يكن بعد قد اجتباه ربه بالرسالة، ليكون رسولا إلى قومه، وما عاد يحمل رسالة ربه إليهم إلا بعد حادثة الحوت. وانظر – إن شئت- ترتيب الأحداث الذي تصوره الآيات الكريمة التالية:

- **فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاء وَهُوَ سَقِيمٌ (145) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (146) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (147)فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاء وَهُوَ مَذْمُومٌ (49) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ(50)**

وبعد مناقشة (ربما غير دقيقة) للأحداث كما تخيلناها، انتهينا إلى تسجيل الافتراءات التالية:

⇐ لم يكن يونس قد أصبح رسولا عندما ذهب مغاضبا

⇐ كان يونس لا زال في مرحلة الحكم عندما ذهب مغاضبا

⇐ استعجل يونس الرسالة

⇐ تأخر تكليفه بالرسالة

⇐ ظن يونس أنه لن يكون رسولا

⇐ خرج يونس من قومه لهذا السبب، فذهب مغاضبا

⇐ نزل يونس عند رغبة بعض من كان حوله من المنافقين والكافرين

⇐ لم يكن من اللذين صبروا لحكم ربه، أي لم يكن من اللذين يملكون الحكم، فيصبرون على تبعاته.

- **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ(48)**

⇐ لم يكن يونس من أولى العزم من الرسل مادام أنه لم يصبر لحكم ربه

- **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ(35)**

⇐ الخ

وحاولنا – بناء على هذا التصور المفترى- طرح تساؤلات أخرى ذات صلة بالموضوع لمتابعة النقاش فيها في هذا الجزء الجديد وفي الأجزاء القادمة من المقالة نفسها، نذكر منها:

- ⇐ لماذا لم يصبر يونس لحكم ربه؟
- ⇐ ما الذي أخرجه من قومه؟ أي لماذا ذهب مغاضبا؟
- ⇐ إلى أين ذهب مغاضبا؟
- ⇐ كيف حصل الأمر على أرض الواقع؟
- ⇐ لماذا ذهب إلى البحر عندما خرج من عند قومه؟
- ⇐ ولماذا ساهم؟
- ⇐ وكيف ساهم؟
- ⇐ وكيف كان من المدحضين؟
- ⇐ ولماذا عاد إلى ربه بعد أن التقمه الحوت؟
- ⇐ ولماذا عاد إلى قومه بعد ذلك؟
- ⇐ ولماذا نفع قوم يونس إيمانهم؟
- ⇐ الخ

وقد أنهينا ذلك الجزء من المقالة بافتراء الظن بأن الإجابة على مثل هذه التساؤلات (كما نتخيلها) تحتاج إلى ربط خيوط هذه القصة مع قصة موسى وشخصية فرعون، لأننا نظن أن شخصية يونس تتطابق تماما مع شخصية فرعون (وإن تعاكست معها في المقدمة والخاتمة) وأن أحداث قصة يونس تكاد تتطابق في كثير من جوانبها مع أحداث قصة موسى مع فرعون. وهذا ما سنقحم أنفسنا في الدفاع عنه في النقاش التالي.

أما بعد،

الباب الأول: لماذا لم يصبر ذو النون لحكم ربه؟

رأينا: مادام أن ذا النون لم يصبر لحكم ربه، فلابد (نحن نستنبط – ربما مخطئين) أن الله قد وهب له ذلك الحكم، أو على الأقل أن الرجل كان يعرف حكم ربه وكان من المفترض أنه سيصبر له. لذا نحن نفتري الظن بناء على ذلك أن ذا النون كان:

- ⇐ على علم بحكم ربه
- ⇐ أنه كان مؤمنا

الدليل

نحن نظن أننا نستطيع أن نجلب على الأقل دليلين اثنين يثبتان زعمنا هذا.

الدليل الأول: لقد كان ذو النون من المسبحين قبل أن يلتقمه الحوت، وكان ذلك هو سبب نجاته من بطن الحوت:

- **فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (142) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ(144)**

الدليل الثاني: أن القرية التي كان يعيش فيها ذو النون كانوا مؤمنين.

السؤال: وأين الدليل أن قوم ذي النون كانوا في سابق عهدهم مؤمنين؟

جواب مفترى: نحن نجد الدليل على ذلك في الآية الكريمة التالية:

- **فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ(98)**

نتيجة مفتراة: كانت قرية ذي النون هي القرية الوحيدة التي نفعها إيمانها فكُشِف عنها عذاب الخزي في الحياة الدنيا بعد ان كان واقعا بهم.

السؤال: لماذا جاء هذا الاستثناء لقرية يونس على وجه التحديد؟ ألا يبرز هنا سؤال كبير جدا يتعلق بالعدل الإلهي: لماذا نفع قرية ذي النون إيمانهم؟ أليس العدل الإلهي هو ما تصوره الآية الكريمة التالية التي تخط واحدة من سنن الله التي لا تتغير ولا تتبدل؟

- **فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (84) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ(85)**

فلو دققنا في هذه الآية الكريمة لوجدنا أنه ما أن يأتي قوما ما العذاب حتى يؤمنوا، ولكن هل ينفع مثل هذا الإيمان من نزل العقاب الإلهي بحقهم؟

أليست تلك سنة الله في عباده:

- **إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (96) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (97) يونس(97)**
- **كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (200) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (201) فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ(202)**

ألم يقل موسى ذلك بصريح اللفظ القرآني؟

- **وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ يونس(88)**

أليس هذا ما حصل مع قوم فرعون فعلا؟ ألم يؤمن فرعون نفسه عندما أدركه الغرق ورأى العذاب بأم عينه؟

- **وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ يونس(90)**

السؤال المثير هو: لماذا نفع قرية يونس (على وجه التحديد) إيمانهم بينما لم ينفع قوم نوح أو قوم لوط أو قوم صالح أو قوم شعيب، الخ؟ هل في ذلك تحيّز إلهي لهؤلاء القوم من دون الأقوام الأخرى؟ ألا يمكن أن يظن البعض (خاصة المجادلون في آيات الله) أن هذا يمكن أن يقدح في العدل الإلهي "المفترض أن يكون مطلقا"؟ ربما يحاول البعض أن يتحدى بالسؤال.

رأينا: نحن نعتقد جازمين إن هذا الطرح يدعونا إلى النبش في القصة من بدايتها وحتى نهايتها بكل دقة وموضوعيه، فنحاول طرح جميع التساؤلات، ومحاولة الإجابة عليها، سائلين الله وحده أن يهدينا رشدنا، وأن يعلمنا ما لم نكن نعلم، وأن يهدينا لأقرب من هذا رشدا، وأن يزدنا علما – آمين.

أما بعد،

السؤال 1: لماذا نفع يونس إيمانه فنجّاه الله بينما لم ينفع فرعون إيمانه كما نفع يونس؟ هل في ذلك تحيز إلهي لشخص يونس؟

السؤال 2: لماذا نفع قرية يونس إيمانهم فكشف عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا بينما لم ينفع الأمم الأخرى إيمانهم بعد وقوع العذاب عليهم؟

السؤال 3: ما الخصوصية التي تمتع بها يونس وقومه حتى جاءهم هذا الاستثناء الإلهي؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الذي حدث مع يونس وقريته لم يكن استثناء، وأنه لا يتعارض مع سنن الله التي لا تتبدل ولا تتحول، وأن ذلك لا يقدح بالعدل الإلهي المطلق مادام أن سنن الله الكونية لا تتبدل ولا تتحول.

السؤال: كيف يكون ذلك؟ ألم يقع عذاب الخزي عن قوم يونس؟ ألم يكشف عنهم عذاب الخزي بعد أن آمنوا؟ إذن، ألم ينفع قوم يونس إيمانهم فكشف عنهم عذاب الخزي؟ فلماذا لم ينفع الأمم الأخرى إيمانهم بعد أن وقع عليهم العذاب؟

السؤال المربك: ألا يجدر بنا المقارنة بين قوم يونس والأمم الأخرى في ذلك؟

- قرية يونس: **فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ(98)**
- الأمم الأخرى: **فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (84) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَاۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ(85)**

رأينا المفترى: نحن نظن أن المتدبر لهذه الآيات الكريمة ربما يجد على الفور أن هناك فرقا جوهريا بين قوم يونس من جهة وجميع الأقوام الأخرى التي نزل بها عذاب الله من جهة أخرى. وهذا الفرق هو (نحن نفتري القول من عند أنفسنا) السبب الحقيقي في أن نفع قرية يونس على وجه التحديد إيمانهم، فكُشف عنهم عذاب الخزي بعد أن وقع عليهم.

السؤال: ما الفرق؟ ربما يريد صاحبنا أن يسأل.

رأينا المفترى: لو دققنا في جميع السياقات القرآنية لوجدنا أن كل الأقوام التي نزل بها عقاب من ربها كانت أقواما كافرة (غير مؤمنة) وما آمنت إلاّ لحظة أن رأت أن عذاب ربها لا محالة واقع بهم، أي حصل إيمانهم لحظة وقوع العذاب بهم. وهذا هو نوع الإيمان (نحن نفتري القول) الذي لن ينفع. وانظر -عزيزي القارئ – إن شئت- في السياق القرآني التالي جيدا:

- **فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (84) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَاۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ(85)**

نتيجة مهمة جدا: فجميع الأقوام الأخرى التي نزل بها عذاب من ربها لم تكن تؤمن إلا بعد رؤية العذاب الأليم:

- **إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (96) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (97) يونس(97)**
- **كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (200) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (201) فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ(2002)**

لتكون النتيجة المفتراة من عند أنفسنا عن هذه الأقوام هي على النحو التالي: عندما ينزل العقاب الإلهي بقوم ما، ويرى القوم (بأم أعينهم وهم لازالوا على كفرهم) أن العذاب لا محالة نازل بهم (بعد أن يأتيهم بغتة من حيث لم يحتسبوا)، فإنهم يلجئون إلى الإيمان بما كانوا به مشركين، ظانين أن مثل هذا الإيمان في مثل هذه الظروف القائمة ربما ينفعهم، ولكن مثل هذا الإيمان لم يكن لينفعهم، لأن تلك سنة الله الكونية التي لا تتبدل ولا تتحول:

- فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (84) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ(85)

السؤال المعاكس: لماذا إذن نفع قوم يونس إيمانهم؟

- فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ(98)

جواب مفترى من عند أنفسنا: لأن قوم يونس كانوا مؤمنين من ذي قبل.

السؤال: ما الذي حصل إذن؟

رأينا المفترى: لو تدبرنا هذا المنطق المفترى (على علاّته) لربما وجدنا أنه يفسر لنا الفرق بين ما حصل مع يونس نفسه وما حصل مع فرعون. فبالرغم أن الرجلين قد غرقا، ولا شك عندنا أن غرق يونس كان أشد (وأكثر خطورة) من غرق فرعون، وذلك لأن يونس قد ابتلعه الحوت بعد أن غرق في البحر، ليكون في ظلمات أشد من الظلمة التي أحاطت بفرعون عندما غرق:

- وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(87)

لتكون النتيجة المفتراة هي: لم يكن ذو النون في ظلمة واحدة عندما غرق ولكنه كان في ظلمات البحر:

- قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ(63)
- أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ(40)

السؤال: لماذا حصلت النجاة الكلّية لـ ذي النون بالرغم من غرقه واستقراره في بطن الحوت داخل البحر؟

الجواب: لأنه كان من المسبحين:

- فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ(144)

نتيجة مفتراة: حصلت النجاة لـ ذي النون من الغرق فخرج من بطن الحوت سالما لأنه كان في سابق عهده من المسبحين (فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ)، ولو أنه لم يكن كذلك للبث في بطن الحوت إلى يوم يبعثون (لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ). ولو تفقدنا السياق القرآني التالي الذي جاء خاصا بحادثة ذي النون لوجدنا أن ذا النون كان فعلا من المؤمنين:

- فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ(88)

نتيجة 1: كان ذو النون في سابق عهده من المسبحين
نتيجة 2: كان ذو النون في سابق عهده من المؤمنين

السؤال: ولماذا لم تحصل نجاة مشابهة لفرعون؟ ألم يشهد فرعون بأنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل؟ ألم يكن من المسلمين؟

- وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ(90)

رأينا: نحن نظن أن الإجابة على ذلك قد جاءت واضحة في الآية اللاحقة على الفور:

- آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91) يونس

نتيجة 1: كان فرعون في سابق عهده من المفسدين
نتيجة مفتراة: نحن نظن أن النجاة لفرعون لم تحصل كما حصلت لذي النون لأن فرعون كان في سابق عهده من المفسدين

استنباط تخيلي: نحن نتخيل بأنه لو كان فرعون في سابق عهده من المسبحين أو لو أنه كان من المؤمنين (كما كان ذو النون) لحصلت له النجاة من الغرق كما حصلت لـ ذي النون حتى ولو أدركه الغرق

السؤال: كيف يمكن أن تخيل ما حصل مع ذي النون إذن؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: كان يونس في قومه من المسبحين قبل أن يذهب مغاضبا، وكان قومه من المؤمنين، فحصلت حادثة ما قلبت الأمور رأسا على عقب، وأدت تلك الحادثة (نحن نفتري القول) إلى حصول مشكلتين متزامنتين، وهما:

⇐ خروج يونس من بين قومه، فذهب مغاضبا
⇐ ارتداد قوم يونس عن الإيمان

وكان نتيجة ذلك الوضع الجديد (وهو ذهاب ذي النون وارتداد قومه عن الإيمان) أن وقع العذاب الإلهي على الطرفين: على يونس من جهة وعلى قريته من جهة أخرى. وكان العذاب الذي وقع حينئذ على النحو التالي:

⇐ كان عقاب يونس على نحو أن غرق بالماء كما حصل مع فرعون نفسه، وزاد الطين بلّة أن التقمه الحوت بعد ذلك
⇐ وقوع عذاب الخزي على قوم يونس.

السؤال: ما الذي حصل بعد ذلك؟

رأينا المفترى 1: تراجع ذي النون، فعاد إلى ربه، فألقي في العراء سقيما، وأنبتت عليه شجرة من يقطين حتى شفي، ثم بعثه الله رسولا إلى قومه.

رأينا المفترى 2: ما أن عاد ذو النون رسولا إلى قومه حتى آمنوا من جديد، وهناك كشف عنهم عذاب الخزي الذي وقع بهم بعد ذهاب يونس مغاضبا، فآمنوا من جديد. وربما لهذا السبب (نحن نفتري الظن) نفع هؤلاء القوم إيمانهم لأنهم كانوا مؤمنين من ذي قبل:

- فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ(98)

السؤال المربك: لماذا خرج يونس من قومه مغاضبا؟ أو بكلمات أكثر دقة نحن نسأل: ما الذي حدث على أرض الواقع حتى دفع بيونس أن يخرج مغاضبا من عند قومه؟

رأينا المفترى والخطير جدا جدا: نحن نظن أن الحاجة تدعو إلى عقد مقارنة مباشرة بين ذي النون من جهة وفرعون من جهة أخرى. لنفتري القول من عند أنفسنا أن الذي أخرج يونس من قومه، فذهب مغاضبا، هو الشيء نفسه الذي أخرج فرعون من قومه: إنه اللحاق بالرسول الذي بعث إليهم.

لم أفهم شيئا. يقول صاحبنا. ما الذي تريد أن تقوله؟ هل يمكن أن تكون أكثر وضوحا؟

جواب مفترى: نحن نجد لزاما في هذه اللحظة الوقوف عند محطة جديدة وهي محاولة ربط خيوط عنكبوتيه بين شخصية يونس من جهة وفرعون من جهة أخرى، وذلك لظننا أن المقارنة قد عقدت بينهما في كتاب الله في عبارة (وَهُوَ مُلِيمٌ) التي وردت في الآيتين الكريمتين التاليتين فقط:

- ذو النون: فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (142) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ(144)
- فرعون: فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ(40)

مقارنة يونس مع فرعون

لو حاولنا عقد مقارنة بين ذي النون من جهة وفرعون من جهة أخرى لوجدنا بينهما تقاطعات عديدة.

أولا، كلاهما غرق في البحر (وَهُوَ مُلِيمٌ):

- ذي النون: فالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (142) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ(144)
- فرعون: فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ(40)

ثانيا، كلاهما كادت أن تكون نهايته الكليّة على شكل الغرق في البحر

ثالثا، كلاهما دعا ربه في تلك اللحظة، فجاء دعاء ذي النون على النحو التالي:

- ...فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(87)

وجاء دعاء فرعون على النحو التالي:

- حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ(90)

رابعا، حصلت النجاة لفرعون بالبدن فقط ليكون لمن خلفه آية:

- فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (92) يونس

بينما حصلت النجاة لذي النون بالكليّة:

- فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ(88)

خامسا، كان سبب عدم نجاة فرعون بالكلية لأنه كان في سابق عهده من المفسدين:

- آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91) يونس

بينما كان سبب نجاة ذي النون بالكلية لأنه كان في سابق عهده من المسبحين:

- فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ(144)

فكان العدل الإلهي في ذلك مطلق لأن إيمان فرعون في تلك اللحظة لم يكن لينفعه، مصداقا لقوله تعالى:

- **هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ(158)**

وهكذا كان ما حل بقوم فرعون، فلم يكن لينفعهم إيمانهم لأنهم ببساطة لم يكونوا مؤمنين من ذي قبل، وما آمنوا إلا بعد أن رأوا العذاب الأليم، وكان ذلك استجابة إلهية لدعوة موسى نفسه:

- **وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (88) يونس**

فمضت فيهم سنة الله الكونية التي كانت ماضية في الأمم الأخرى، وهي أن الإيمان لحظة رؤية العذاب لا ينفع:

- **فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (84) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ(85)**
- **إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (96) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (97) يونس(97)**
- **كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (200) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (201) فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ(2002)**

أما ما نفع ذا النون فهو إيمانه السابق، وهكذا كان الذي نفع قريته، فلقد نفعهم إيمانهم السابق، وما أن عاد إليهم ذو النون رسولا وآمنوا من جديد حتى كشف الله عنهم عذاب الخزي الذي حل بهم في غيابه:

- **فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ(98)**

إن هذا الطرح (على ركاكته) يثير كثيرا من التساؤلات التي لابد من الوقوف عندها، نذكر منها:

⇐ ما هو الشيء الذي أغضب ذي النون حتى جعله يذهب مغاضبا؟

⇐ ولماذا تراجع قومه عن إيمانهم حتى وقع عليهم عذاب الخزي؟

⇐ ولماذا آمنوا مرة أخرى بعد أن أرسل إليهم ذو النون رسولا؟

⇐ وكيف كُشف عنهم عذاب الخزي حينئذ؟

⇐ الخ.

افتراء خطير جدا جدا لا تصدقوه: نحن نظن أن ذلك كان بسبب ذي النون نفسه. ولكن كيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا أن مكانة ذي النون في قومه كانت متطابقة تماما مع مكانة فرعون في قومه. فذو النون هو (في ظننا) كبير قومه، وهو سيدهم، وهو ربهم الذي يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه، فهو إذن (نحن نتخيل) مطاع فيهم بكل ما يقول ويفعل. فإن هو آمن فهم يؤمنون، وإن هو كفر فهم يكفرون. وهذا (نحن نظن) ما كان من أمر فرعون.

الدليل

لو تدبرنا جميع السياقات القرآنية الخاصة بإرسال موسى وأخيه هارون، لوجدنا أن المهمة موجهة أساسا إلى شخص فرعون نفسه:

- **اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ(17)**
- **اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ(24)**
- **اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ(43)**
- **وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ(38)**
- **إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا(15)**

ثم جاءت بعد ذلك لتخص فرعون وملئه فقط:

- **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ(46)**
- **ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ(103)**
- **ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (75) يونس**
- **ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ(45) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ(46)**
- **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (96) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ(97)**
- **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (23) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ(24)**

ولا نجد في النص القرآني (على مساحته) أن مهمة موسى كانت موجهة إلى قوم فرعون. بل على العكس، فالذي وجدناه في سورة يونس على وجه التحديد هو أن دعاء موسى عليهم بالعذاب كان موجها إلى فرعون وملئه فقط:

- **وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ يونس(88)**

ليكون السؤال هو: لماذا؟ لماذا لم يبعث الله موسى وأخاه هارون إلى قوم فرعون كما كانت رسالات جميع الرسل اللذين سبقوا أو اللذين لحقوا؟ ولماذا كانت رسالة موسى موجهة أساسا إلى فرعون نفسه ثم إلى فرعون وملئه بعد ذلك؟ نحن نسأل.

رأينا المفترى: لأن قبول فرعون بالرسالة وقبول ملئه من بعده بتلك الرسالة يعني قبول قومه جميعا بها.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: لأن قوم فرعون (نحن نفتري الظن) كانوا قوما يأتمرون بأمر فرعون وينتهون بنهيه، وليس أدل على ذلك مما كان يفعله فرعون بهم كما تصور ذلك الآية الكريمة التالية:

- **فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ(54)**

نتيجة مفتراة مهمة جدا: لمّا كان قوم فرعون قوما فاسقين، ولما كان قوم فرعون من اللذين يمكن استخفافهم، لم يكونوا أصحاب مبدأ واضح غير إتباع ما كان يمليه عليهم فرعون نفسه، وليس أدل على ذلك من نفوذ فرعون حتى في ملئه، وانظر – في السياق التالي:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ(39)**

فإذا كان هذا هو حال ملأ فرعون في حضرة فرعون، فما بالك بنفوذ فرعون في قومه؟ هل كان يتجرأ أحد أن يعصي أمر فرعون؟ ولننظر ماذا كان يمكن أن يكون مصير من خالف أمر فرعون كالسحرة اللذين خروا سجدا:

- **قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ(71)**

ولننظر إلى ردة فعل السحرة على كلام فرعون هذا:

- **قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(72)**

نتيجة مهمة جدا جدا وخطيرة جدا: قضاء هذه الحياة الدنيا كانت بأمر فرعون نفسه

استنباط مفترى: لمّا كان قضاء هذه الحياة الدنيا بأمر فرعون نفسه، لم يكن ليتجرأ أحد أن يخالف أمر فرعون لأن خاتمته ستكون وخيمة تتمثل بإنهاء حياته. لذا كان فرعون من أصحاب العقيدة التي مفادها أنه يحيي ويميت كالذي حاج إبراهيم في ربه:

- **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(258)**

السؤال: ماذا لو فعلا تذكر فرعون أو خشي بعد دعوة موسى له؟

- **فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ(44)**

فما الذي كان سيفعله قومه؟

رأينا: نحن نفتري الظن بأن فرعون لم يكن ليجد عناء كبيرا في التلاعب بقومه كيفما يشاء، فقابلية الفسق متوافرة عندهم، والطاعة العمياء له هي ديدنهم، والاستخفاف بهم هي سياسة فرعون تجاههم. لذا كانت رسالة موسى وأخيه هارون (نحن نفتري القول) موجهة لشخص فرعون نفسه ثم لملأ فرعون من بعده، لأن دعوة قوم فرعون هي تحصيل حاصل. فالقرار بيد فرعون، وهو الذي سيوجههم حسب ما يراه مناسبا لهم.

تخيلات مفتراة: كان نفوذ فرعون في قومه نفوذا هائلا، فالطاعة العمياء هي سلوك قومه، وكان فرعون هو الشخص الوحيد القادر على اتخاذ القرار النهائي بخصوص إيمانهم أو كفرهم جميعا، وهو الذي أوقع قومه في

الفخ، فما آمنوا وذلك لأنهم كانوا قوم سوء فاسقين، لذا ستكون مهمة فرعون في الآخرة هي أنه يقدم قومه ليوردهم النار:

- يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ(98)

ففرعون هو من أوقع قومه في شرك سوء أعمالهم (إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)، لذا ستكون مهمته في الآخرة أن يدلهم (فَأَوْرَدَهُمُ) على المكان الذي يستحقونه (النَّارَ).

نتيجة 1: لم يكن فرعون يستطيع أن يوقع قومه في شراكه لولا أنهم كانوا مستعدين لذلك، وهو في ذلك يتبع نهج سيده من قبله، إبليس:

- وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(22)

نتيجة 2: كان فرعون شخصا صاحب مكانة عظيمة في قومه، فهو الرب المطاع في كل ما يقول ويفعل، وذلك لأنه رجل على علم:

- وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ(39)

نتيجة 3: كانت لمكانة فرعون في قومه وللعلم الذي تميّز به عليهم من جهة وباستعدادهم للفسق من جهة أخرى الآثار الكبيرة في استخفافهم:

- فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ(54)

نتيجة 4: استطاع فرعون أن يكسب لنفسه مكانة في الآخرة تختلف عن مكانتهم، ففي حين أنه سيوردهم النار، إلا أننا نجد أن مصير فرعون نفسه غير واضح بالنسبة لنا؟ فهل سيرد النار مع قومه مثلا؟

رأينا المفترى: كلا، فنحن لم نجد في النص القرآني ما يشير بصريح اللفظ إلى ما ستكون عليه حال فرعون في يوم القيامة.

السؤال: ما هو مصير فرعون يوم القيامة؟

رأينا: إن هذا السؤال يدعونا إلى الخروج في "نزهة فكرية" لبعض الوقت قبل أن نعود منها إلى صلب الموضوع وهو مقارنة حال ذي النون بحالة فرعون.

باب الشفاعة المزعومة

بداية، نحن نجد لزاما التذكير مرات ومرات بأن كلامنا على كليته وفي تفصيلاته لا يعدو أكثر من تصورات فكرية قد لا تمت لعقائد الناس بصلة، وهي غير ملزمة لأحد ما لم يجد أنه مقتنع بها من تلقاء نفسه، وليتذكر كل من يقرأ في كلامنا هذا الآية الكريمة السابقة التي تصوّر دعوة إبليس لمن اتبعه:

- وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم

كما يجب أن نلفت انتباه الناس إلى أننا لا نملك صكوك غفران لندخل بها الناس الجنة أو نخرجهم منها، فنحن لسنا وكلاء الله على الأرض، ونحن لسنا من أصحاب مفاتح أبواب الجنة وأبواب النار التي "صكّت ثم وزّعت على بعض منهم" ليفتحوا بها لمن يشاءون من عباد الله وليغلقوا بها على آخرين. فأمر الجنة والنار (في عقيدتنا) متروك لله وحده، فهو صاحب القرار الأول والأخير في ذلك. وما نفعله نحن في هذا الجانب لا يتعدى أن يكون أكثر من رأي فكري قابل للتصحيح بعد أن يوضع على طاولة النقاش (ربما من باب "الترف الفكري")، مادام أن سادتنا العلماء أهل الدراية لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة إلا وقتلوها بحثا وتمحيصا – كما يزعم تلاميذهم النجباء. أما نحن، فإننا نحاول التسلق على أطراف بنيانهم الراسخ في الأرض المتفرع في السماء، علّنا نجد شيئا من المتردم الذي يمكن ترميمه. لذا سنحاول التعرض إلى سؤال بسيط يتعلق بقضية الشفاعة للعباد عند ربهم. محاولين أن نطرح تصورنا المفترى من عند أنفسنا لهذه القضية التي نظن أننا نخالف فيها الفكر الإسلامي السائد بمجمله. لذا نحن بداية نلتمس العذر من تلاميذ سادتنا العلماء أهل الدراية أن لا يحملوا كلامنا هذا محمل الجد إن هم وجدوا أننا قد "سفهنا" تراث آبائهم وأجدادهم، وليعتبروا ذلك من باب الترف الفكري الذي قد يضل طريقه كثيرا وقلما يصيب الهدف المنشود.

دعاء: فالله أسأل أن يعلمنا ما لم نكن نعلم، وأن يعلمنا قول الحق فلا نفتري عليه الكذب، وأن يهدينا لأقرب من هذا رشدا – آمين

أما بعد،

السؤال: هل يستطيع أحد أن يتدخل في أمر دخول العباد الجنة أو النار؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا، فليس لأحد غير الله نفسه الحق في اتخاذ قرار بدخول أحد الجنة أو النار.

السؤال: ولكن، هل يستطيع أحد أن يشفع لأحد في ذلك؟

رأينا الخطير جدا جدا جدا: لا، لا يستطيع أحد أن يتدخل في ذلك إلا لمن أذن له الرحمن.

السؤال: ومن سيأذن له الرحمن بذلك؟

جواب: من رضي له قولا

السؤال: وما معنى ذلك؟

رأينا المفترى: ليس هناك شفاعة لأحد بأحد.

السؤال: ما الذي تقول يا رجل؟ هل جننت؟ ألن يشفع لنا نبينا يوم الدين؟ أليس هو النبي الذي سيظل يقول في ذلك الموقف: "أمتي، أمتي"؟ وماذا عن الورود على الحوض؟!

رأينا: نحن نريد أن نطرح على العامة سؤالا واحدا علّهم يثيرونه على مسامع أهل العلم (وتلاميذهم النجباء) في كل محفل من محافلهم، والسؤال هو: ما الفرق بين الشفاعة التي يتحدث عنها الفكر الإسلامي والخلاص الذي جاء في الفكر المسيحي مثلا؟ لماذا نتقبل نحن المسلمين فكرة أن يكون محمد هو شفيع لنا يوم الدين ولا نتقبل فكرة أن يكون المسيح هو مخلص البشرية من الظلم الذي وقع بهم؟

استدراك مفترى: لعلي أدرك مقدار الحماقة (وربما الجهالة) التي ألقي نفسي بها عندما أتجرأ على طرح هذا الموضوع بهذه الصورة الرعناء، وذلك لأن الغالبية من الناس (نحن نظن) لن يصبروا لحكم ربهم، ليستبينوا ما ستؤول إليه النتائج في نهاية المطاف، وسيكتفون (كما يفعلون في الغالب) باجتزاء النصوص من سياقاتها الكلّية، للخروج بالأكاذيب التي يروجونها من عند أنفسهم عن ما نفتري من أقوال من عند أنفسنا. فهم يضعون الكلام في أفواه غيرهم ويقولونهم ما لم يقولوا عندما سينطلق بعضهم ليحدث الناس بأن رشيد الجراح (هذا المخبول) يضع الفكر الإسلامي في متاهات الفكر المسيحي، ظانين بأن رشيد الجراح يحاول أن يبرر ما يفعله أهل الديانة المسيحية، الخ. لكنهم لن ينتظروا أن يقرءوا الجملة الواضحة التالية جيدا: ما يعتقد به المسلمون في هذه الجزئية (أي الشفاعة) لا يختلف قيد أنملة (في ظننا) عن ما يعتقد به النصارى في الجزئية نفسها تحت مسميات مختلفة. فإذا كانت تسمى عند المسلمين "شفاعة" فهي تسمى عند أهل الديانة النصرانية "خلاص".
-وإذا كان محمد هو شفيع المسلمين، فإن المسيح هو مخلص النصارى (لا بل والبشرية بأكملها). ولو أمعنا التفكر في الموقفين، لربما وجدنا أن الهدف واحد، ألا وهو: وجود وسيط بين العباد وربهم، فالوسيط في الفكر الإسلامي محمد بينما الوسيط في الفكر المسيحي هو عيسى بن مريم، أليس كذلك؟

رأينا: نحن نعتقد أن كلا الفكرين (الإسلامي والنصراني) قد انحرفا عن جادة الصواب في هذه الجزئية، وذلك لأنه ببساطة لا وسيط بين الله وعباده.

الدليل

لما كنا لا نقحم أنفسنا في شغل غيرنا، فإننا سنوجه سهام نقدنا إلى أنفسنا لنستبين حالنا قبل أن نهاجم غيرنا. فمن كان بيته من الزجاج لا يحذف بيوت الآخرين بالحجارة (كما يقول المثل الشعبي الإنجليزي). ونحن لا نجد أكثر بلاغة للرد على الفكر النصراني لدحض فكرة المخلص من قول الله تعالى في كتابه الكريم:

- **وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (116) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (117) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(118)**

فلو دققنا في الآية الأخيرة من هذا المشهد الحواري بين عيسى بن مريم ورب عيسى بن مريم لوجدنا أن المسيح ابن مريم ينأى بنفسه أن يتدخل في مصير هؤلاء، لأن الأمر متروك بكليته لصاحب القرار في ذلك وهو الله نفسه:

- **إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(118)**

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نؤمن يقينا بأن عيسى بن مريم لم يكن ليخلص أحدا من مصير هو يستحقه في يوم الفزع الأكبر

السؤال: إذا كنا نعتقد أن عيسى لا يقدر على ذلك، فلم نؤمن (كما علمنا سادتنا أهل الدراية) أن محمدا قادر على ذلك؟ من يدري؟!

افتراء 1: بداية نحن لم نجد في كتاب الله دليلا وحدا صريحا على ما يسميه سادتنا العلماء بالشفاعة، ومن عنده هذا الدليل فإننا سنكون له شاكرين ونعده أن نضرب بقولنا هذا عرض الحائط على الفور

افتراء 2: كان معظم الدليل الذي يتناقله أهل العلم في هذا الخصوص مبني على ما وصل إليهم من أحاديث يظنون أنها مرفوعة إلى النبي نفسه

افتراء 3: لو تدبرنا جملة الأحاديث في هذا الصدد لوجدنا أنها تتضارب مع بعضها البعض. ففي حين أن هناك كم لا يستهان به من الأحاديث التي تصور شفاعة النبي محمد لأمته يوم القيامة، نجد أن هناك أحاديث أخرى تتضارب معها بشكل لا لبس فيه. ودعنا نقدم بعض الأمثلة على ذلك:

عن أبي هريرة قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله : {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ } فقال :((يا معشر قريش – أو كلمة نحوها – اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئا. يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا. يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئا. يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئتِ لا أغني عنك من الله شيئا))

المصدر:صحيح البخاري - الصفحة أو الرقم : 2753 حديث صحيح

ثم نجد الحديث رقم 1051 حديثا مرفوعا

أَخْبَرَنَا أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ طَلْحَةَ بْنِ غَسَّانَ ، بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِ فِي الطَّرِيفِيِّ الْكَبِيرِ ، قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو الْقَاسِمِ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ الْعَامِرِيِّ الْكُوفِيِّ ، قَالَ : حَدَّثَنِي الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ الْحَكَمِ ، قَالَ : حَدَّثَنَا حُسَيْنُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ عَفَّانَ ، قَالَ : حَدَّثَنَا حَسَنُ بْنُ عَطِيَّةَ ، قَالَ : أَخْبَرَنَا فِطْرِيُّ الْحَسَّابِ ، عَنْ سِمَاكِ بْنِ حُذَيْفَةَ ، عَنْ حُذَيْفَةَ ، قَالَ : جِئْتُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، وَالْعَبَّاسُ جَالِسٌ عَنْ يَمِينِهِ , وَفَاطِمَةُ عَنْ يَسَارِهِ ، قَالَ : يَا فَاطِمَةُ ابْنَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : " اعْمَلِي لِلَّهِ خَيْرًا , إِنِّي لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، قَالَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. "

نتيجة: في هذه الأحاديث يثبت النبي الكريم أنه لا يُغني عن عمّه العباس من الله شيئا ولا عن عمته صفيه ولا حتى عن ابنته فاطمة نفسها.

افتراء 4: ولكن نجد - في المقابل- الأحاديث المشهورة التالية التي تصور شفاعة النبي الكريم لأمته جميعا:

عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مَاجَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ فَيَقُولُ لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ فَإِنَّهُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُ لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللَّهِ فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُ لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَى فَإِنَّهُ رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُ لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَأْتُونِي فَأَقُولُ أَنَا لَهَا فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فَيُؤْذَنُ لِي وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لَا تَحْضُرُنِي الْآنَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيَقُولُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي فَيَقُولُ انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي فَيَقُولُ انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ أَوْ خَرْدَلَةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيَقُولُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي فَيَقُولُ انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةِ

خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ) فَلَمَّا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ أَنَسٍ قُلْتُ لِبَعْضِ أَصْحَابِنَا: لَوْ مَرَرْنَا بِالْحَسَنِ وَهُوَ مُتَوَارٍ فِي مَنْزِلِ أَبِي خَلِيفَةَ فَحَدَّثْنَاهُ بِمَا حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ فَأَتَيْنَاهُ فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ فَأَذِنَ لَنَا فَقُلْنَا لَهُ : يَا أَبَا سَعِيدٍ جِئْنَاكَ مِنْ عِنْدِ أَخِيكَ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ فَلَمْ نَرَ مِثْلَ مَا حَدَّثَنَا فِي الشَّفَاعَةِ ، فَقَالَ: هِيهْ ، فَحَدَّثْنَاهُ بِالْحَدِيثِ فَانْتَهَى إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ فَقَالَ : هِيهْ فَقُلْنَا لَمْ يَزِدْ لَنَا عَلَى هَذَا فَقَالَ لَقَدْ حَدَّثَنِي وَهُوَ جَمِيعٌ مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً فَلَا أَدْرِي أَنَسِيَ أَمْ كَرِهَ أَنْ تَتَّكِلُوا ، قُلْنَا : يَا أَبَا سَعِيدٍ فَحَدِّثْنَا ، فَضَحِكَ وَقَالَ : خُلِقَ الإِنْسَانُ عَجُولا مَا ذَكَرْتُهُ إِلا وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُحَدِّثَكُمْ حَدَّثَنِي كَمَا حَدَّثَكُمْ بِهِ قَالَ : (ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ وَسَلْ تُعْطَهْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَقُولُ يَا رَبِّ ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ فَيَقُولُ وَعِزَّتِي وَجَلالِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي لأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ) رواه البخاري. (7510)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنْه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِكَ ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي ، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لا يُطِيقُونَ وَلا يَحْتَمِلُونَ ، فَيَقُولُ النَّاسُ : أَلا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ أَلا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ : عَلَيْكُمْ بِآدَمَ فَيَأْتُونَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلام . . . ثم ذكر الحديث إلى قوله : فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي ثُمَّ يُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَقُولُ أُمَّتِي يَا رَبِّ أُمَّتِي يَا رَبِّ أُمَّتِي يَا رَبِّ فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ ثُمَّ قَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمْيَرَ أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى) رواه البخاري 4712.

وعن ابن عباس –رضي الله عنه- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: "أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي وَلَا أَقُولُهُنَّ فَخْرًا بُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ فَأَخَّرْتُهَا لِأُمَّتِي فَهِيَ لِمَنْ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا."

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص –رضي الله عنهما-أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَامَ غَزْوَةِ تَبُوكَ قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يُصَلِّي فَاجْتَمَعَ وَرَاءَهُ رِجَالٌ مِنْ أَصْحَابِهِ يَحْرُسُونَهُ حَتَّى إِذَا صَلَّى وَانْصَرَفَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ لَهُمْ: لَقَدْ أُعْطِيتُ اللَّيْلَةَ خَمْسًا مَا أُعْطِيَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي، أَمَّا أَنَا فَأُرْسِلْتُ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ عَامَّةً، وَكَانَ مَنْ قَبْلِي إِنَّمَا يُرْسَلُ إِلَى قَوْمِهِ، وَنُصِرْتُ عَلَى الْعَدُوِّ بِالرُّعْبِ، وَلَوْ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ مَسِيرَةُ شَهْرٍ لَمُلِئَ مِنْهُ رُعْبًا، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ آكُلُهَا، وَكَانَ مَنْ قَبْلِي يُعَظِّمُونَ أَكْلَهَا، كَانُوا يُحْرِقُونَهَا، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسَاجِدَ وَطَهُورًا، أَيْنَمَا أَدْرَكَتْنِي الصَّلَاةُ تَمَسَّحْتُ وَصَلَّيْتُ، وَكَانَ مَنْ قَبْلِي يُعَظِّمُونَ ذَلِكَ، إِنَّمَا كَانُوا يُصَلُّونَ فِي كَنَائِسِهِمْ وَبِيَعِهِمْ، وَالْخَامِسَةُ هِيَ مَا هِيَ قِيلَ لِي: سَلْ فَإِنَّ كُلَّ نَبِيٍّ قَدْ سَأَلَ، فَأَخَّرْتُ مَسْأَلَتِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ لَكُمْ وَلِمَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ."

وعن أبي ذر –رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي : بعثت إلى الأحمر والأسود وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ونصرت بالرعب فيرعب العدو من مسيرة شهر وجعلت لي الأرض طهورا ومسجدا وقيل لي : سل تعطه

واختبأت دعوتي شفاعة لأمتي في القيامة وهي نائلة - إن شاء الله- لمن لم يشرك بالله شيئا)، أخرجه ابن حبان في "صحيحه" (6462)، والبزار في "مسنده.(4077) "

وعن أبي موسى –رضي الله عنه- قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "أُعْطِيتُ خَمْسًا بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تُحَلَّ لِمَنْ كَانَ قَبْلِي وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ شَهْرًا وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ وَلَيْسَ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ سَأَلَ شَفَاعَةً وَإِنِّي أَخْبَأْتُ شَفَاعَتِي ثُمَّ جَعَلْتُهَا لِمَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَمْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ شَيْئًا"

السؤال المثير: لماذا أعطيت الشفاعة لهذا النبي من دون أنبياء الله ورسله السابقين؟ وفي الوقت ذاته نحن نتساءل: كيف يمكن أن نربط ذلك بالآية الكريمة التالية؟

- **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ(144)**

ألم يكن المسيح كذلك؟

- **مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ(75)**

نتيجة مفتراة: لم يكن عيسى بن مريم أكثر من رسول خلت من قبله الرسل، أليس كذلك؟

نتيجة مفتراة: لم يكن محمد أكثر من رسول قد خلت من قبله الرسل، أليس كذلك؟

السؤال المربك للفكر المسيحي والإسلامي الدارج: لماذا الخصوصية لهذين الرسولين الكريمين، إذن؟ فهل لهما خصوصية محدده تختلف عن الآخرين من أولي العزم من الرسول: موسى وإبراهيم ونوح؟

- **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ(35)**

وهم اللذين أخذ الله ميثاقهم جميعا:

- **وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا(7)**

افتراء 6: لعل جميع الافتراءات السابقة يمكن القفز عنها وتجاوزها (إذا كنا لا نريد الدخول في هذه الجدلية) لو أننا لم نجد الآية الكريمة التالية التي تصور بشكل لا لبس فيه حال محمد في الآخرة:

- **قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ(9)**

استنباطات مفتراة بناء على فهمنا (ربما الخاطئ) لما جاء في هذه الآية الكريمة:

⇐ محمد لم يكن بدعا من الرسل، لأن الرسل قد خلت من قبله (قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ)

⇐ محمد لا يدري ما يفعل به (وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي)

⇐ محمد لا يدري ما يفعل بنا (وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ)

⇐ محمد لا يتبع إلا ما يوحى إليه (إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ)

⇐ محمد ليس أكثر من نذير مبين (وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

⇐ الخ.

ليكون السؤال الذي يجب أن يوجّه الجميع (العالم منهم والمتعلم على حد سواء) هو: إذا كان محمد لا يدري ما سيفعل به يوم القيامة (وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ)، فكيف تتوقع أن يكون شفيعا لغيره؟ من يدري؟!

افتراء 7: نحن نفتري القول أن عقيدتنا تلخصها الآيات الكريمة التالية:

- **وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (40) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ(41)**

السؤال المربك: إن صح ما تزعم، من أين جاءت فكرة الشفاعة إذن؟ وما هي عواقبها؟ وهل جميع الأحاديث التي وردت في هذا الجانب هي أحاديث غير صحيحة؟ ألم ترد في صحيح البخاري ومسلم وكثير من كتب السنن؟ ربما يريد محاورنا أن يسأل.

رأينا المفترى: لو تدبرنا موضوع الشفاعة جيدا لربما وجدنا على الفور أن الأمر لم يقف عند شخص محمد بذاته، بل تعداه إلى أبعد من ذلك بكثير حتى أصبح لكل طائفة ولكل فرقة من فرق أهل الدين شفيعها. فها هم المدافعون عن "آل البيت" مثلا يرون أنّ شخصا محددا من أهل البيت (الحسين بن علي) هو طريقهم إلى الجنة وهو طريق غيرهم (الذين لا يؤمنون بذلك) إلى النار. وهذه معظم الفرق التي تدعي أن منهجها هو الإسلام تتسابق (وإن لم تنطق بها صراحة) في تسمية أئمتها وآياتها ومشايخها شفعاء لهم عند ربهم. ومنهج الغالبية منهم يلخصه أحد علمائهم قائلا: "ثم يجب على المريد أن يتأدب بشيخ فإن لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان". الخ.

السؤال: ما الذي يريدونه من وراء ذلك؟ لماذا تصرّ الغالبية الساحقة من الفرق الإسلامية على ذلك؟

رأينا المفترى والخطير جدا: إنها التبعية المطلقة بالانقياد لهم بعد الاستخفاف بالناس بالضبط كما فعل فرعون نفسه.

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ(38)**
- **وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ(51)**
- **أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ(52)**
- **فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ(53)**
- **فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ(54)**

استنباطات مفتراة

⇐ كان صوت فرعون هو الصوت المسموع في ملئه وفي قومه

⇐ كان فرعون هو من يتخذ القرار لهم

⇐ كان فرعون هو صاحب الحجة

⇐ لم يخرج من ملأ فرعون ومن قومه من يخالفه الرأي أو من لا يقبل بحجته

⇐ استطاع فرعون أن يستخفهم

⇐ كان قوم فرعون قوما فاسقين

⇐ الخ

السؤال: كيف استطاع فرعون أن يستخف قومه؟ وكيف استطاع أن ينجح في ذلك؟
رأينا المفترى: نحن نظن أن الأمر له وجهان:

⇐ الوجه الأول يتعلق بقومه
⇐ الوجه الثاني يتعلق بفرعون نفسه

أما بخصوص قومه، فهم كانوا قوما فاسقين:

- وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ(12)
- اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ۖ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ(32)
- فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ(54)

لذا كانوا على استعداد للضلالة:

- إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ(26)

ولما كانوا قوما فاسقين، لم يكونوا مؤهلين لهداية من الله، لأن الله لا يهدي القوم الفاسقين. واقرأ – إن شئت- قوله تعالى:

- ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(108)
- وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(5)
- سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(6)

وذلك لأن الأمور الدنيوية هي – على الدوام- الهمّ الأكبر للقوم الفاسقين:

- قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(24)

هذا ما يخص قومه، أما بالنسبة لفرعون نفسه فقد كان شخصا عالما مدركا لما يدور حوله:

- وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ(38)
- وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ(51)
- أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ(52)
- فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ(53)
- فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ(54)

لذا نجد أنفسنا واقعين في هذا السيناريو الذي يتكرر أمام أعيننا صباح مساء، السيناريو المتمثل بشخص يملك علما يدور في فلكه أشخاص كثيرون يفتقدون هذه البضاعة. ليكون السؤال في مثل هذا الموقف هو: كيف ستكون العلاقة بين الطرفين (العالم مقابل العامة من الناس)؟

نتيجة مفتراة: استطاع صاحب العلم (فرعون) أن يتلاعب بعقول اللذين من حوله لأنهم لا يملكون العلم مثله. لتكون النتيجة على النحو التالي: يستطيع صاحب العلم في كل وقت وحين أن يستخف بمن حوله إذا لم يكونوا من أصحاب العلم مثله، وإذا كان استعدادهم للفسق متوافرا.

السؤال: لماذا؟ وكيف؟

رأينا المفترى: نحن نفتري القول من عند أنفسنا أن أهل العلم يستطيعون الاستخفاف بمن حولهم عندما يتكبرون على الناس (كما فعل فرعون)، وعندها يكون هدفهم هو انقياد الناس لهم انقيادا أعمى، كانقياد القطيع للراعي. فكيف سيفعلون ذلك؟

عودة على بدء

نعود إلى صلب موضوع النقاش بالنتيجة المفتراة التالية: عندما كان فرعون هو صاحب القرار في ملئه وفي قومه كانت الرسالة الإلهية موجهة بشكل رئيسي لشخص فرعون:

- **اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ(17)**
- **اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ(24)**
- **اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ(43)**
- **وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ(38)**
- **إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا(15)**

ثم لفرعون وملئه فقط:

- **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ(46)**
- **ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ(103)**
- **ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ يونس(75)**
- **ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ(45) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ(46)**
- **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (96) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ(97)**
- **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (23) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ(24)**

وذلك لأن قبول فرعون لتلك الدعوة الإلهية على لسان الرسل تعني قبول ملئه وقومه بها. لذا كان إيمان القوم أجمعين مرتبطا بإيمان فرعون نفسه وكان كفرهم مرتبطا بكفره. فهم إذن رهن إشارة من أصبعه،

يحركهم كيفما شاء، وذلك لامتلاكه العلم الذي ينقصهم، فيستطيع بما لديه من العلم أن يتلاعب بعقولهم كيفما شاء.

السؤال: ما علاقة هذا كله بقصة يونس (موضوع النقاش في هذه المقالة)؟

جواب مفترى: نحن نؤمن أنه لمّا آثر عدم تلبية دعوة الرسل، نبذ في اليم وَهُوَ مُلِيمٌ:

- **فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ(40)**

وهذا ما حصل بالضبط مع يونس، فقد استقر في بطن الحوت على تلك الشاكلة (وَهُوَ مُلِيمٌ)

- **فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ(142)**

تساؤلات

⇐ لماذا كادت أن تكون نهاية ذي النون كنهاية فرعون؟
⇐ ما معنى أن كلاهما كان مليما؟
⇐ ولماذا غرق فرعون وانتهى أمره في الحال؟
⇐ لماذا نجا ذو النون وعاد رسولا إلى قومه؟
⇐ لِم لم تتطابق نهايتهما بالرغم أن قصتهما (كما نزعم) كانت متطابقة؟
⇐ لماذا آمن قوم يونس فكشف عنهم العذاب؟
⇐ لم لم يحصل لآل فرعون ما حصل لقوم ذي النون؟
⇐ وأخيرا: ما الذي كان يمكن أن يحصل لو أن فرعون فعلا تذكر أو خشي؟
⇐ الخ.

دعنا نقفل النقاش في هذا الجزء من المقالة بالتصور التالي عن قصة ذي النون: كان ذو النون شخصا ذا مكانة مرموقة في قومه، وكان رجلا على علم، بينما كان من حوله يأتمرون بأمره وينهون بنهيه (بالضبط كما كان فرعون في قومه)، وذلك لأنه ينقصهم العلم الذي كان يحيط به ذلك الرجل. لذا فقد جمع ذو النون (نحن نفتري القول من عند أنفسنا) بين يديه شيئين اثنين: الحكم والملك (كما كان فرعون في قومه). والحالة هذه، لم يكن ليجرؤ أحد من قومه على مخالفة أمره، فأصبحوا جميعا طوع أمره. لذا لمّا كان ذلك الرجل (أي و النون) من المسبحين ومن المؤمنين، كان قومه جميعا كذلك، فكانوا قوما مؤمنين. واستمر الأمر على تلك الشاكلة (نحن لا زلنا نتخيل) حتى حصل أمر كبير جدا فقلب الأمور كلها رأسا على عقب، فكان نتيجة ذلك أن ذهب ذو النون مغاضبا، فترك قومه وخرج باتجاه البحر كما فعل فرعون، وهناك كادت أن تكون نهايته وإلى الأبد. وفي تلك الأثناء (أي في غياب ذي النون بعيدا عن قومه)، تراجع القوم عن إيمانهم فوق عليهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا، وبقوا على تلك الشاكلة (أي تحت وطأة عذاب الخزي) حتى عاد إليهم يونس نفسه مرة أخرى كرسول من رب العالمين، وهنا عاد قومه إلى الإيمان من جديد، فنفعهم إيمانهم على عكس جميع الأمم الأخرى التي وقع عليها العذاب:

- **فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ(98)**

وذلك لأن تلك الأمم ما آمنت من قبل، وما آمنت إلا لحظة أن رأوا بأس ربهم لا محالة نازل بهم:

- **هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ(158)**

فكانت تلك سنة الله الكونية التي لا تتبدل: أن لا ينفع قوما إيمانهم لحظة وقوع العذاب

- **فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (84) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ(85)**
- **إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (96) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (97) يونس(97)**
- **كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (200) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (201) فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ(2002)**
- **وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ يونس(88)**

إلا أن يكونوا قد آمنوا من قبل كقوم يونس مثلا:

- **فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ(98)**

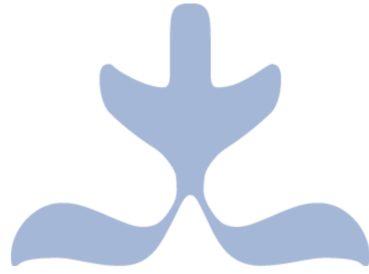
تساؤلات

⇐ ما الشيء الذي أغضب ذي النون حتى ذهب مغاضبا؟
⇐ لماذا توجه صوب البحر؟
⇐ لماذا ساهم؟
⇐ كيف ساهم؟
⇐ لماذا كان من المدحضين؟
⇐ كيف حصل ذلك؟
⇐ ما وجه الشبه في ذلك بينه وبين فرعون؟
⇐ لماذا نجاه الله من الغم؟
⇐ لماذا عاد رسولا إلى قومه
⇐ ما وجه الاختلاف في ذلك مع فرعون؟
⇐ من أين كان مصدر علم الرجل؟
⇐ لماذا لم يصبر لحكم ربه؟
⇐ هل كان من أولي العزم من الرسل مادام أنه لم يصبر؟

- **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ(35)**

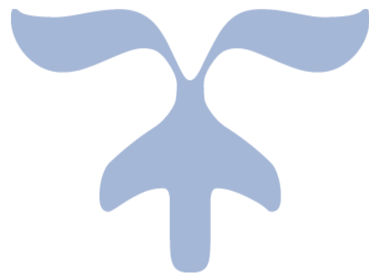
هذه جملة من التساؤلات التي سنحاول الخوض فيها في الجزء القادم من هذه المقالة بحول الله وتوفيق منه.

فالله وحده أسأل أن يعلمني الحق فلا أفتري عليه الكذب، وأن ينفذ مشيئته بالإذن لي الإحاطة بشيء من علمه لا ينبغي لغيري إنه هو العليم الحكيم – آمين



قصة يونس

الجزء الخامس



قصة يونس – الجزء الخامس

حاولنا في الجزء السابق من هذه المقالة نسج خيوط عنكبوتية بين شخصية فرعون التي نعرفها من خلال وفرة السياقات القرآنية التي تتحدث عنها مع شخصية ذي النون التي جاء ذكرها في سياقات قرآنية قليلة جدا. وزعمنا الظن بأنه على الرغم من عدم التوازن في كمية السياقات القرآنية التي تبرز الرجلين إلا أن التشابكات بين الشخصيتين (في ظننا) هو ما يجعل الحديث عن ذي النون لا يقل تفصيلا عن الحديث عن فرعون نفسه. فإذا ما وجدنا أن هناك مفردة واحدة تصف الطرفين بشكل مقصود (أي تقتصر عليهما فقط على مساحة النص القرآني)، فإن تلك المفردة تجلب معها قصة كاملة تحتاج أن تُطارد حتى النهاية، فافترينا الظن مثلا بأن عبارة "وَهُوَ مُلِيمٌ" قد جاءت في النص القرآني كعبارة مقصودة بحق الرجلين وذلك لأنها جاءت خاصة عند الحديث عن هذين الرجلين فقط على مساحة النص القرآني كله، فلا نجد أنها قد وردت بحق شخص آخر غير ذي النون من جهة وفرعون من جهة أخرى، الأمر الذي يجبرنا (نحن نظن) على وجوب التأمل في التشابك بينهما من هذا الجانب، فعند الحديث عن فرعون نجد الآية الكريمة التالية التي تصوره في حالة غرقه في البحر (وَهُوَ مُلِيمٌ):

- **فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ(40)**

وهذا ما حصل بالضبط مع يونس، فقد استقر في بطن الحوت على تلك الشاكلة (وَهُوَ مُلِيمٌ):

- **فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ(142)**

فكانت نتيجة هذا التشابك المقصود بين الشخصيتين وجوب (نحن نظن) طرح التساؤلات التالية:

⇐ لماذا كادت أن تكون نهاية ذي النون كنهاية فرعون؟

⇐ ما معنى أن كلاهما كان مليما؟

⇐ ولماذا غرق فرعون وانتهى أمره في الحال؟

⇐ لماذا نجا ذو النون وعاد رسولا إلى قومه؟

⇐ لِم لم تتطابق نهايتهما بالرغم أن قصتهما (كما نزعم) كانت متطابقة؟

⇐ لماذا آمن قوم يونس فكشف عنهم العذاب؟

⇐ لِم لم يحصل لآل فرعون ما حصل لقوم ذي النون؟

⇐ وأخيرا: ما الذي كان يمكن أن يحصل لو أن فرعون فعلا تذكر أو خشي؟

- **اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ(44)**

⇐ فهل كانت خاتمته ستتطابق مع ما حصل مع ذي النون مثلا؟

⇐ الخ

للإجابة على مثل هذه التساؤلات باستنباطات مفتراة من عند أنفسنا، وجدنا أنفسنا نتخيل ما حصل في قصة يونس على النحو التالي:

⇐ كان ذو النون شخصا ذا مكانة مرموقة في قومه تواز (نحن نظن) ما كان فرعون عليه في قومه، فكان صاحب ملك يأتمر الناس بأمره وينتهون بنهيه.

⇐ بالإضافة إلى هذا، كان ذو النون رجلا على علم، فكان صاحب حكم:

- **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ(48)**

⇐ كانت النتيجة (نحن نفتري القول) أن ذا النون قد جمع بين الحكم والملك معا.

⇐ ولمّا كان ذلك الرجل (على عكس فرعون) من المسبحين، كان قومه جميعا من المؤمنين. لذا، افترينا الظن من عند أنفسنا بأن الاختلاف الأول بين ذي النون من جهة وفرعون من جهة أخرى كان في المقدمة (أي ما حصل منهما قبل بعث الرسول). فكان ذو النون من المسبحين:

- **فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ(143)**

بينما كان فرعون من المفسدين:

- **آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ(91)**
- **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ(4)**

⇐ كما تخيلنا بأن ذا النون بقي على تسبيحه حتى حصل أمر ما أدى إلى أن انقلبت الأمور رأسا على عقب. فكان نتيجة ذلك أن ذهب ذو النون مغاضبا، فترك قومه وخرج باتجاه البحر كما فعل فرعون، وهناك كادت أن تكون نهايته وإلى الأبد.

⇐ ما أن غاب ذو النون عن قومه حتى تراجعوا عن إيمانهم، فوقع عليهم عذاب الخزي، وما كُشِف عنهم ذلك العذاب حتى عاد إليهم يونس نفسه كرسول من رب العالمين:

- **وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ(147)**

⇐ ما أن عاد يونس رسولا إلى قومه حتى آمنوا جميعا، فكشف عنهم عذاب الخزي، ومُتِّعوا إلى حين:

- **فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ(98)**

⇐ لما كان ذو النون من المسبحين، حصلت النجاة له بالكلية. على عكس فرعون الذي كان من المفسدين فما حصلت له نجاة إلا بشكل جزئي:

- **فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (92) يونس**

لذا، كان الاختلاف الثاني بين يونس وفرعون يتمثل في نهاية كل منهما. فنحن نفتري القول بأنه كما اختلفت المقدمة اختلفت النهاية.

للتفصيل أنظر الجزء السابق من هذه المقالة.

عند هذا الحد من الافتراءات (ربما غير المسبوقة)، توقفنا في الجزء السابق، فطرحنا في نهايته تساؤلات أخرى من أجل متابعة النقاش فيها في هذا الجزء الجديد من المقالة نفسها، نذكر منها:

⇐ ما الشيء الذي أغضب ذا النون حتى ذهب مغاضبا؟

⇐ لماذا توجّه صوب البحر؟

⇐ لماذا ساهم؟

⇐ كيف ساهم؟

⇐ لماذا كان من المدحضين؟

⇐ كيف حصل ذلك؟

⇐ ما وجه الشبه في ذلك بينه وبين فرعون؟

⇐ لماذا نجّاه الله من الغم؟

⇐ لماذا عاد رسولا إلى قومه؟
⇐ ما وجه الاختلاف في ذلك مع فرعون؟
⇐ من أين كان مصدر علم الرجل؟
⇐ لماذا لم يصبر لحكم ربه؟
⇐ هل كان من أولي العزم من الرسل مادام أنه لم يصبر؟

- **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ(35)**

التساؤل الأول: لماذا ذهب ذو النون مغاضبا؟

رأينا المفترى والخطير جدا: نحن نظن أن السبب الذي دفع بذي النون للذهاب مغاضبا هو السبب نفسه الذي دفع بفرعون للخروج باتجاه البحر؟

السؤال: لماذا خرج فرعون باتجاه البحر؟

جواب: لأنه كان يطارد موسى للقضاء عليه وعلى من اتبعه من المؤمنين.

السؤال: من هم الذين خرجوا مع فرعون في مطاردته لموسى ومن معه؟

جواب: جنوده

- **وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) يونس**
- **فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ(78)**

السؤال: أين تمت المواجهة بين الطرفين؟

جواب: عند البحر:

- **فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(61)**

السؤال: كيف حصلت النجاة لموسى؟

جواب: بالخوض في البحر:

- **وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ(66)**

السؤال: وكيف حصلت الهزيمة لفرعون وجنوده؟

جواب: بالغرق في البحر:

- **وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ(66)**

نتيجة 1: نجا المُطَارَد (موسى ومن معه) من قبضة المطارِد (فرعون وجنوده)

نتيجة 2: حصل الغرق للمطارِد (فرعون ومن معه)

نتيجة 3: انتهت المواجهة بهزيمة المطارِد (فرعون وجنوده) ونجاة المطارَد (موسى ومن معه)

السؤال: ما معنى ذلك؟

جواب مفترى: كان فرعون وجنوده من المدحضين.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا: نحن نظن أن المواجهة بين الحق والباطل لا بد أن تنتهي بدحض الباطل مهما حاول ذلك الباطل أن يدحض الحق:

- **وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۖ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا(56)**
- **كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ(5)**

فلو تفقدنا هذه الآيات الكريمة، لوجدنا على الفور أن هناك مواجهة بين الحق والباطل، أليس كذلك؟

السؤال: كيف تنتهي هذه المواجهة بين الطرفين؟

جواب: لابد من دحض أحدهما؟

السؤال: من الذي دُحِض في حالة يونس؟

جواب: يونس نفسه هو من كان من المدحضين:

- **فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ(141)**

السؤال: كيف حصل ذلك؟

رأينا: نحن نظن أن ذلك قد تم بالمواجهة بين طرفين، يحاول كل طرف أن يدحض حجة الطرف الآخر:

- **وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ(16)**

لو تفقدنا هذه الآية الكريمة لوجدنا أننا يمكن أن نخرج بالاستنباطات المفتراة من عند أنفسنا التالية:

⇐ هناك من يحاجّ في الله (وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ)

⇐ تتم هذه المحاجّة في الله بعد أن تمت الاستجابة لله (وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ)

⇐ تصبح حجة هؤلاء في مثل هذه الظروف داحضة (حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ)

⇐ لو استمر أمر هؤلاء في الدنيا على هذه الشاكلة، فإن غضب الله عليهم لا محالة نازل (وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ)

⇐ لو انتهى أمر هؤلاء في الدنيا على هذه الشاكلة فإن عذاب الله الشديد سيكون مصيرهم (وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ)

⇐ الخ

السؤال: كيف يمكن ربط هذا بقصة يونس؟

رأينا: كان يونس في قومه من المسبحين، وكان يظن أنه ربما يجتبيه ربه بالرسالة لما كان عنده من الحكم، ولكن كانت المفاجأة له أن ظهر في قومه من يدّعي أنه رسول من الله إليهم، وهنا برز للعيان طرفان يتحاجان، وحصل ذلك بعد أن تمت الاستجابة لدعوة ذلك الرسول من بين بعض قوم يونس، وفي هذه الحالة وجد يونس نفسه على المحك الحقيقي: إما أن يتبع دعوة الرسول ويقر له بشرعية رسالته أو أن يتصدى له ويحاول أن يثنيه عن ما هو مكلف به. وهنا برز دور الكافرين والمنافقين من الملأ الذين يبطنون ما لا يظهرون، فأوغروا صدر يونس بالعداوة على ذلك الشخص الذي يدعي الرسالة، ويمكن تشبيه ذلك بما فعل الملأ من قوم فرعون، عندما كانوا دائمي التذكير لفرعون بالعداوة لموسى ومن معه:

- **وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ(127)**

نتيجة: استطاع الملأ من قوم فرعون التأثير على فرعون لإذكاء العداوة بينه وبين خصمه موسى (وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ). فانجحوا في ذلك (قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ).

ولو أمعنا التفكر أكثر في قصة فرعون مع رسولا ربه لوجدنا أن فرعون حاول أن يدحض حجة موسى بالبينة، فعمد إلى اتهام موسى وأخيه هارون بالسحر:

- **فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ(48)**

وما كان منه إلا أن جاء بكل ساحر عليم بعد أن أرسل في المدائن حاشرين:

- **قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (111) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ(112)**
- **قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (36) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ(37)**
- **فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ(53)**

ووعد السحرة بالأجر وبأن يكونوا من المقربين إن هم استطاعوا أن يدحضوا حجة موسى وأخيه هارون:

- **وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (113) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ(114)**
- **فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (41) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ(42)**

وطلب من موسى بأن يجعل بينهما لقاء في مكان سوى:

- **فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى(58)**

وتمت المواجهة الفعلية بين الطرفين:

- **قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى(58)**

وانتهت بدحض حجة فرعون والسحرة أجمعين:

- **فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ(119)**

ولكن ذلك لم يكن ليوقف فرعون عند حده، فما كان منه (ومن الملأ من حوله) إلا التمادي في العداوة لموسى ومن معه. فأخذ جنوده ولحق بموسى ومن معه اللذين هربوا شرقا، وترآى الجمعان عند البحر:

- **فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (60) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(61)**

وبمثل هذا السيناريو يمكن أن نتخيل ما بدر من ذي النون ومن الملأ من حوله، فلقد حاولوا (نحن لازلنا نتخيل) إيغار صدره ضد من برز أنه خصما له. فكانت النتائج على النحو التالي:

1. ذهاب ذي النون مغاضبا
2. توجهه إلى البحر للمساهمة

التساؤلات

1. لماذا ذهب مغاضبا؟ وما الذي أغضبه؟
2. لماذا توجه صوب البحر على وجه الخصوص؟

رأينا المفترى 1: تحدثنا في الأجزاء السابقة عن مفردة مغاضبا في هذا السياق القرآني، فافترينا القول أن يونس ذهب مغاضبا لأنه اعتقد أن الله لم يجتبيه بالرسالة بالرغم أنه كان مؤهلا (ومتوقعا) للحصول عليها. فكان غضبه (نحن نتجرأ على افتراء الظن) من ربه.

رأينا المفترى 2: أما عن سبب ذهابه باتجاه البحر على وجه الخصوص، فنحن نتخيل أنه قد خرج مطاردا ذلك الرسول الذي بعث فيهم مع جنوده

الدليل

من أجل جلب الدليل على هذا الظن المفترى من عند أنفسنا، فإننا ندعو القارئ الكريم إلى العودة مباشرة إلى الآية القرآنية نفسها التي تتحدث عن ذهاب ذي نون مغاضبا لنجد أن فيها من الدلائل والإشارات ما يستحق الوقوف عنده طويلا، فدعنا – عزيزي القارئ- نضع الآية الكريمة أمامنا مرة أخرى لنتأمل ما جاء فيها بشي من التدقيق والتمحيص، سائلين الله وحده أن يعلمنا ما لم نكن نعلم وأن يزيدنا علما وأن يهدينا لأقرب من هذا رشدا – آمين.

أما بعد،

قال تعالى:

- **وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(87)**

لو تفقدنا هذه الآية الكريمة جيدا لوجدنا أنها تقرر لنا ثلاث حقائق لا مجال للمجادلة فيها بحق يونس، وهي على الترتيب:

1. ظن الرجل أن الله لن يقدر عليه (فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ)
2. إقرار الرجل بنفسه وهو في الظلمات (أي داخل بطن الحوت) بوحدانية الله، فسبحه (فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ)
3. إقرار الرجل بنفسه أنه كان من الظالمين (إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)

الأمر الذي يدعونا إلى طرح التساؤلات الثلاث التالية على الفور:

⇐ ما معنى أن يكون ذو النون قد ظن بأنه لن يُقدر عليه (فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ)؟

⇐ ما معنى أنه قد نادى هناك في الظلمات أنه لا إله إلا الله، فسبّحه (فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ)؟

⇐ ما معنى أنه كان من الظالمين (إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)؟

رأينا المفترى: نحن نعتقد جازمين بأن كل واحدة من هذه الحقائق القرآنية التي يثبتها صريح اللفظ في الآية الكريمة تحتاج إلى مناقشة دقيقة وربما مطولة، علّنا نخرج بعد ذلك باستنباطات ترشدنا إلى ما نصبو إليه، وهو تجلية حقيقة ما حصل على أرض الواقع كما تصوره آيات الكتاب الحكيم لا كما يتصورها الناس (عالمهم ومتعلمهم) بناء على موروثات ومعتقدات وتحريفات من سبقنا من الأمم. لذا سنفرد لكل جزئية بابا منفصلا، سائلين الله وحده أن يهدينا رشدنا وأن يعلمنا الحق الذي نقوله فلا نفتري عليه الكذب، وأن يهدينا لأقرب من هذا رشدا، إنه هو الواسع العليم – آمين.

باب: فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ

السؤال المربك: ما معنى هذه الحقيقة القرآنية؟

⇐ فمن الذي ظن أن لن يقدر عليه؟

رأينا المفترى: نحن نظن جازمين أن يونس هو من ظن أن لن يقدر عليه.

⇐ ومن الذي لن يقدر على يونس؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن يونس ظن أن الله (ومن معه) لن يقدروا على يونس.

السؤال: لماذا ظن يونس أن الله (ومن معه) لن يقدروا عليه؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الإجابة على هذا السيناريو تكمن في واحدة من احتمالين هما:

⇐ ضعف ثقة يونس بقدرات ربه

⇐ اغترار يونس بقدراته الذاتية

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: عندما كان يونس صاحب حكم، وعندما وجد أن الله لم يجتبيه بالرسالة، وأن الرسالة قد أصبحت من نصيب غيره، ثارت ثائرته، فظهر حنقه وغضبه على الجميع، فكان غاضبا على الرسول الذي بعث فيهم، كما كان غاضبا على الذي أرسله وهو رب العالمين، فكانت النتيجة أن أظهر الغضب، فذهب مغاضبا:

ولم يتوقف عند هذا الحد، بل ظن أن الله لن يقدر عليه لأنه ببساطة ناصب رسوله العداء الواضح، ونحن نتخيل الموقف مشابها لما بدر من فرعون عندما ناصب موسى العداء:

- **إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (54) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ(55)**

السؤال: وأين الدليل على أن رسولا قد بعث في قوم يونس غير يونس نفسه؟

رأينا المفترى: نحن نجد الدليل على ذلك جليا شريطة ربط الآيتين التاليتين معا:

- **الآية الأولى: فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ(98)**
- **الآية الثانية: مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا(15)**

لو دققنا في الآية الكريمة الأولى لوجدنا على الفور أن العذاب (عذاب الخزي) قد نزل بقوم يونس، أليس كذلك؟

ولو دققنا في الآية الكريمة الثانية لوجدنا على الفور أن العذاب لا يقع على قوم إلا بعد أن يبعث الله فيهم رسولا، أليس كذلك؟

لتكون النتيجة المفتراة على النحو التالي: مادام أن قوم يونس قد وقع عليهم عذاب الخزي فلابد أن ذلك قد حصل بعد أن بعث الله فيهم رسولا.

السؤال: لم لا يكون الرسول هو يونس نفسه؟

جواب مفترى: لأن الرسالة لم تأتي ليونس (نحن نفتري القول) إلا بعد أن نُبذ في العراء سقيما من بطن الحوت، وبعد أن شفاه الله من سقمه، وهناك أُرسل إلى قومه رسولا:

- **وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (139) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (140) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (141) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (142) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (144) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (145) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (146) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ(147)**

نتيجة مفتراة وخطيرة جدا جدا: عندما بعث رسولا إلى قوم يونس غير يونس نفسه، وجد يونس نفسه في موضع حرج جدا، يتطلب اتخاذ موقف من واحدة من المواقف التالية:

أن يتقبل يونس رسالة ذلك الرسول ويصبر لحكم ربه

أن يرفض يونس رسالة ذلك الرسول وأن لا يصبر لحكم ربه

الخ.

السؤال: ما الذي بدر من يونس حينها؟

رأينا: لم يتقبل يونس رسالة ذلك الرسول، وما صبر لحكم ربه:

- **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ(48)**

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل تصرف بطريقة تشبه تماما ما فعل فرعون مع موسى وأخيه هارون، فبدر منه ما يلي:

⇐ كان مغاضبا

⇐ ظن أن لن يقدر عليه

⇐ توجه إلى البحر

⇐ ساهم

فكانت النتيجة أنه:

⇐ كان من المدحضين

⇐ التقمه الحوت وهو مليم

⇐ الخ

السؤال: كيف بذي النون (وهو الذي كان من المسبحين) يظن أن لن يُقدر عليه؟

- **وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ(87) ...**

من أجل محاولة الإجابة على هذا التساؤل فإنه يلزمنا طرح التساؤل التالي فورا: ما معنى القدرة هنا؟ وما هي القدرة التي ظن ذو النون أن ربه لا يملكها؟

جواب مفترى: دعنا ندقق في السياقات القرآنية التالية التي تتحدث عن القدرة الإلهية، لنجد أنها تتحدث عن تنزيل الآيات

- **وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(37)**

كما نجد أنها تتحدث عن إيقاع العذاب:

- قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ(65)

كما تتحدث عن البعث من الموت:

- إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (8) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (9) فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ(10)

ونجد أخيرا أنها تتحدث عن تحقيق الوعد الإلهي:

- قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (93) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (94) وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ(95)

السؤال: ما الذي كان يدور في ذهن ذي النون عندما ظن أن لن يقدر عليه؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن ذا النون قد ظن أن الله لن يقدر عليه عندما وجد أن آيات الله لم تتنزل عليه، وأن العذاب الإلهي لم ينزل، وأنه لم يرى الوعد الإلهي بأم عينه. عندها ظن الرجل أن الله (ومن معه من الرسل والملائكة) لن يقدروا عليه.

السؤال: لماذا امتلك مثل هذا الظن يونس (وهو الذي كان من المسبحين)؟

رأينا: لما كان يملك الرجل من الحكم:

- فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ(48)

تخيلات مفتراة: كان ذو النون يملك من حكم ربه ما يملك، ولكن لمّا لم يرى بأم عينه ما كان يجب أن يراه من تنزل الآيات ومن تحقيق الوعد الإلهي دخل الشك بربه في نفسه، فتضاءلت ثقته بربه، وفي الوقت ذاته تعاظمت ثقته بقدراته الذاتية.

السؤال: لماذا لم يحصل أن رأى ذو النون كل ذلك بأم عينه؟ هل فعلا تخلى الله عن وعده؟

جواب مفترى: كلا، ولكننا نظن أن الذي حصل هو أن ذا النون قد تعجل الأمر فقط، فما صبر لحكم ربه:

- فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ(48)

سؤال: وماذا كان يمكن أن يحصل لو أن ذا النون قد صبر لحكم ربه؟

رأينا: نحن نظن أنه لو صبر ذو النون لحكم ربه، لتحصل له كل ما أراد ولزاد على ذلك بأن أصبح من أولي العزم من الرسل:

- فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ(35)

نتيجة مفتراة: لما لم يكن ذو النون من الصابرين لم يصبح من أولي العزم من الرسل.

السؤال: أين الدليل على أن الشك (بربب العالمين) قد دخل في نفس ذي النون؟

رأينا: نحن نظن أن الدليل على أن الشك قد دخل في نفس ذي النون موجود في الآية الكريمة نفسها التي تتحدث عن ظنه أن لن يقدر عليه:

- وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(87)

السؤال: وأين ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن ذلك موجود في قوله (فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ).

منطقنا المفترى: إن هذا المنطق المفترى من عند أنفسنا يدعونا إلى طرح تساؤلين اثنين وهما:

⇐ لماذا نادى ذو النون في ذلك المكان بعبارته المشهورة (أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ)؟

⇐ ولماذا أتبعها بقوله (سُبْحَانَكَ)

لو حاولنا أن نربط ما قاله ذو النون عند غرقه بأن شهد لله بالوحدانية المطلقة (أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ) من جهة مع ما قاله فرعون عند غرقه في المقام نفسه لوجدنا أن هناك ترابطا عجيبا بينهما، فدعنا نتدبر السياقات القرآنية معا ثم نحاول أن نخرج من ذلك باستنباطات مفتراة من عند أنفسنا حول عقيدة الرجلين:

- **ذو النون: فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(87)**
- **فرعون: وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) يونس**

لنبدأ النقاش من عند فرعون الذي قال عندما أدركه الغرق (آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)، لتثار التساؤلات تباعا على النحو التالي:

⇐ لماذا قال فرعون (آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)؟

⇐ لماذا أردف ذلك بالقول (وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)؟

⇐ لماذا لم يقل فرعون قولا مطابقا لما قاله ذو النون عندما التقمه الحوت؟

⇐ لماذا قال فرعون ذلك عندما أدركه الغرق؟

⇐ لماذا لم يقل ذو النون ذلك عندما أدركه الغرق؟ ولماذا انتظر حتى استقر في بطن الحوت عندما أصبح في الظلمات؟

⇐ لماذا جاء كلام فرعون في باب القول (قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)؟

⇐ لماذا جاء كلام ذي النون على صيغة نداء (فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)

⇐ الخ.

لو تفقدنا قول فرعون الأول (آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)، وحاولنا ربط ذلك بقصة فرعون الأولى لوجدنا أن فرعون قد كان في سابق عهده يدّعي الإلوهية لنفسه فقط:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ(38)**

لذا كان لزاما على فرعون أن ينفي الإلوهية عن نفسه وعن غيره وأن يعترف بصريح اللفظ أن هناك إلها واحدا فقط هو ذاك الإله الذي آمنت به بنو إسرائيل (آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

ثانيا، لمّا لم يكن فرعون في سابق عهده من المسلمين، كان لزاما عليه أن يسلم وجهه لرب العالمين ليكون من المسلمين، فجاء إقراره بأنه من المسلمين (وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

السؤال: لماذا لم يصدر من ذي النون قولا مثل الذي قاله فرعون مثلا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن ذا النون لم يكن يظن بنفسه أنه إلها كما كان فرعون يظن بنفسه. ولكن كل الذي بدر من الرجل هو ظنه بقدرة هذا الإله قد تزعزعت عندما ظن أن لن يقدر عليه (فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ). لذا لم يتوقف ذو النون عند المناداة (أَن لَّا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنتَ) ولكنه أتبع نداءه هذا بالتسبيح (سُبْحَانَكَ). وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في قوله مرة أخرى:

- **فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(87)**

ليكون السؤال الآن ما فائدة عبارة "سُبْحَانَكَ" هنا؟

رأينا: نحن نظن أن الإجابة على هذا التساؤل تتطلب الغوص في آيات الكتاب الحكيم لمعرفة معنى هذه المفردة (سُبْحَانَكَ)، ليكون السؤال المطروح الآن هو: ما معنى قول ذي النون " سُبْحَانَكَ "؟ وما معنى التسبيح أصلا؟

باب التسبيح: فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ

أما بعد،

أولا، نحن نظن أن التسبيح تعني قبل كل شيء تنزيه الإله عن الشريك لأن الله هو إله واحد أحد، فنحن نسبح الله لأنه أحد، ولو كان هناك إله غير الله لما كان هناك تسبيح أصلا، فوجود إله آخر (أو الإقرار بوجود إله آخر)حتى وإن كان من دون الله) يعني – نحن نفتري الظن- انتفاء التسبيح للإله نفسه. فلو كان عيسى ابن مريم إلها من دون الله مثلا لانتفى أن يسبح لله، ولننظر مثلا إلى ردة عيسى بن مريم كيف ينزّه ربه (الله الواحد الأحد) عن الشريك من دونه بـ التسبيح (سُبْحَانَكَ):

- **وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ(116)**

فلكي ينفي عيسى ابن مريم الاتهام المنسوب له بأنه إله من دون الله وجب عليه تسبيح الله (قَالَ سُبْحَانَكَ)، وبذلك يكون عيسى بن مريم قد كذّب دعوى المشركين، اللذين اتخذوه إلها من دون الله. ولو تدبرنا السياق القرآني التالي لوجدنا أن الغلو في الدين بالقول على الله غير الحق بما في ذلك الظن بوجود إلهين اثنين أو آلهة ثلاثة يعني انتفاء التسبيح لله:

- **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۘ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا(171)**

واتخاذ الأحبار والرهبان أربابا من دون الله ينفي التسبيح عن الإله:

- **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَـٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ(31)**

وهكذا هي ردة الفعل لكل من يريد تنزيه الإله عن الشريك:

- **وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ(100)**

وعبادة من هم من دون الله حتى وإن كان بقصد الشفاعة يعني أيضا انتفاء التسبيح لله الواحد الأحد. فمن يسبح الله يجب أن لا يعبد من دونه شيئا حتى وإن كان ذلك من باب القول بالشفاعة:

- **وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (18)قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا(18)**
- **قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ(41)**

دعاء: سبحانك اللهم ما ينبغي لنا أن نتخذ من دونك أولياء، سبحانك اللهم أنت ولينا من دونهم جميعا – آمين

نتيجة مفتراة: من اتخذ إلها غير الله فهو من اللذين لا يسبحون الله، وهو لا شك إذن من المشركين:

- **أَمْ لَهُمْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ(43)**
- **قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ(108)**
- **أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ(1)**

ثانيا، نحن نسبح الله لأنه صمد، أي لأنه (نحن نظن) دائم الوجود بقدرته على فعل ما لا يستطيع غيره فعله، وذلك لأنه يعلم ما لا يعلمه غيره. فالملائكة مثلا شهدت بالتسبيح لله لأنها لا تعلم ما لا يعلم:

- **قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(32)**

فالذي يظن أن الله لا يعلم ما في السموات والأرض فهو ينفي التسبيح عن الإله:

- **وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ(18)**

وتتمثل قدرة الله بالخلق الذي لا يقدر عليه الخالقون الآخرون اللذين من دونه:

- **الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(191)**

فهناك خالقون كثيرون غير الله ولكن الله هو أحسنهم:

- **أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ(125)**
- **ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ(125)**

وذلك لأن خلق ما دون الله قابل للتحسين (أي التطوير) ولكن خلق الله هو الأحسن لأنه غير قابل للتحسين مادام أنه قد جاء من أحسن الخالقين

وأن هذا الخلق لا يقدر عليه إلا إله واحد، وأن وجود إله آخر معه يودي لا محالة إلى فساد السموات والأرض:

- **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ(22)**

وأن هذا الخالق يتميز عن غيره من الخالقين بعدم قدرة الأبصار عن إدراكه، فموسى هو من نزّه الإله عن قدرة الأبصار على إدراكه:

- وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ(143)
- دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۚ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(10)

وأن هذا الخالق قادر على فعل ما لا يقدر غيره على فعله، فهو وحده من أسرى بعبده مثلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصا ليلا، فهل يقدر على ذلك غيره؟

- سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (1)

ثالثا: نحن نسبح الله لأنه لم يلد ولم يولد، فالذي ينسب الولد لله هو ينفي بذلك التسبيح عن الإله:

- وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ(116)
- قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ الْغَنِيُّ ۖ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ(68)
- وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ(57)
- وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ(100)
- مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَانَهُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ(35)
- يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۘ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا(171)
- وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ(26)
- مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ(91)
- لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ(4)

رابعا: نحن نسبح الله لأن ليس له كفوا أحد، فهل يستطيع محمد مثلا أن يفعل ما طلبه منه المشركون كما تصوره الآية الكريمة التالية مثلا؟

- أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا(93)

ومن يستطيع أن ينفذ وعده كما يفعل الإله الواحد الأحد؟

- وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا(108)

ومن غير الله يستطيع أن يبارك من في النار ومن حولها؟

- فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(8)

ومن غير الله يستطيع أن يخلق ما يشاء ويختار؟

- وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ(68)

وهذا التحدي واضح تماما في عملية الخلق والرزق والموت والحياة بعد ذلك:

- اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ(40)

وهو واضح أيضا في خلق الأزواج كلها:

- سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ(36)
- لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ(13)

وهو أيضا واضح في حيازة ملكوت كل شيء بيده:

- فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(83)

فالذي لا يقدّر الله حق قدره فهو ينفي بذلك التسبيح عن الإله:

- وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ(67)
- قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ(29)
- سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ(159)
- سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ(180)
- سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ(82)
- سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا(43)
- فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ(17)

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن كل من لا يقدر الله حق قدره ينتفي أن يكون من المسبحين، وذلك لأن الله هو الوحيد الذي له جميع الأسماء الحسنى، لذا نحن نسبحه لأن كل ما دونه لا يتصف بهذه الصفات مجتمعة:

- هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ(23)

عودة على بدء

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: عندما ظن ذو النون أن الله (ومن معه من رسوله وملائكته) لن يقدروا عليه (فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ)، فهو بذلك قد تنازل عن تسبيح الإله في فترة ما من حياته، فكان لابد له من أن يعيد الثقة بربه من جديد فيسبحه (سُبْحَانَكَ)، لذا جاء في ندائه في الظلمات إقرار بالتسبيح للإله:

- وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(87)

الدليل

لو تفقدنا السياق القرآني التالي الخاص بذي النون لربما وجدنا الدليل الذي يثبت زعمنا هذا، قال تعالى:

- **فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (142) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ(144)**

دقق – عزيزي القارئ - في الآية (143) من هذا السياق القرآني على وجه التحديد، لنطرح بعد ذلك التساؤل المثير على النحو التالي: لماذا جاءت مفردة كَانَ هنا؟ لِم لم يأتي السياق القرآني بدونها على نحو فَلَوْلَا أَنَّهُ ... مِنَ الْمُسَبِّحِينَ؟

ما الفرق بين أن يكون ذي النون مِنَ الْمُسَبِّحِينَ أو أنه كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن تسبيح ذي النون كان في فترة معينة من حياته، وأن تسبيحه هذا قد تلاشى في فترة من الزمن من حياته، وما عاد ليكون من المسبحين من جديد إلا في بطن الحوت لتكون الصورة على النحو التالي:

في الزمن الماضي البعيد	كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ
في الزمن الماضي القريب	لم يعد من المسبحين (عندما ظن أن لن نقدر عليه)
في الوقت الحالي في بطن الحوت	فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ

سؤال مثير جدا: إذا كان ذو النون قد ترك التسبيح فترة من الزمن بدليل أنه (كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ)، فكيف يمكن أن نربط ذلك بمنطوق الآية الكريمة التالية؟

- **تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا(44)**

السؤال: مادام أن كل شيء يسبح بحمد الله (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ)، فكيف يستطيع ذو النون أن يتوقف عن تسبيح ربه؟ وكيف يمكن لنا أن نتوقف (نحن) عن تسبيح ربنا؟ والأهم من هذا كله هو: لم يطلب الله منا أن نسبحه مادام أن السموات والأرض وما فيهن يسبح له (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ) ومادام أن كل شيء أصلا يسبح بحمده (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ)؟

- **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ(30)**
- **قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ۖ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ(41)**
- **إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩ (206)**
- **قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ(108)**
- **وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ(13)**
- **فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ(98)**
- **تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا(44)**

- فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا(11)
- كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا(33)
- فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ(130)
- يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ(20)
- فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَۚ وَكُنَّا فَاعِلِينَ(79)
- فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ(36)
- أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ(41)
- وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۚ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا(58)
- إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ (15)
- وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا(42)
- فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ(143)
- وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ(166)
- إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ(18)
- وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(75)
- الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ(7)
- فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ(55)
- فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۩ (38)
- تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّۚ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِۗ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(5)
- لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ(13)
- لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا(9)
- فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ(39)
- وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ(40)
- وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَاۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ(48)
- وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ(49)
- فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ(74)
- فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ(96)

- سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(1)
- سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(1)
- هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(24)
- سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(1)
- يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ(1)
- يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(1)
- قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ(28)
- قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ(29)
- فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ(52)
- إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا(7)
- وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا(26)
- سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى(1)
- فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا(3)

السؤال الخطير جدا هو: لماذا احتمالية التسبيح (أو عدمها) عند الناس ممكنة؟

- **قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (28) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ(29)**

بينما هي أصيلة في السموات والأرض ومن فيهن وكل شيء، أليس كذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هذا سؤال كبير جدا جدا سنحاول التعرض به بحول الله وتوفيق منه في مقالات منفصلة لخطورته واتساع إطاره النظري

لذا نسأل الله أن يأذن لنا الإحاطة بشيء من علمه فيه – آمين

إن ما يهمنا قوله هنا هو أن الإنسان (كذي النون مثلا) يمكن أن يكون من المسبحين في وقت ما ويمكن أن لا يكون من المسبحين في وقت آخر، بدليل أن ذا النون نفسه (كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ):

- **فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (142) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ(144)**

ثم عاد ليكون من المسبحين مرة أخرى بعد أن التقمه الحوت:

- **وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(87)**

السؤال: ما الذي دفع ذا النون على ترك التسبيح فترة من الزمن؟

رأينا المفترى: لأنه كان من الظالمين:

- وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(87)

تساؤلات

⇐ كيف كان ذو النون من الظالمين؟

⇐ ما الذي فعله حتى كان في فترة من حياته من الظالمين؟

⇐ وكيف يمكن أن نربط أنه كان من المسبحين كما جاء في قوله تعالى (فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ) مع أنه كان من الظالمين في قوله تعالى (إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)؟

⇐ فهل يمكن أن يجتمع التسبيح مع الظلم؟

⇐ وأيهما حصل في البداية التسبيح أم الظلم؟

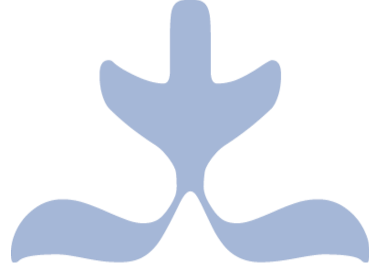
⇐ وما هي طبيعة الظلم الذي ارتكبه ذو النون؟

⇐ وكيف استطاع أن يتخلص من ذاك الظلم؟

⇐ الخ

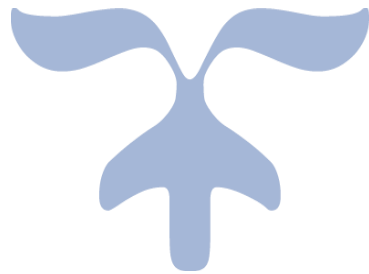
هذا ما سنتناوله في الجزء القادم من هذه المقالة تحت الباب الثالث وهو باب: إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ.

فالله وحده أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يزدني علما وأن يهدينا لأقرب من هذا رشدا، إنه هو العليم الحكيم – آمين



قصة يونس

الجزء السادس



قصة يونس – الجزء السادس

كان الجزء السابق من هذه المقالة متركزا النقاش فيه على الربط بين شخصية ذي النون من جهة وشخصية فرعون من جهة أخرى من حيث جزئية محددة بذاتها وهي أنهما من جاءت عبارة "وَهُوَ مُلِيمٌ" خاصة بهما على مساحة النص القرآني كله، وقد جاءت لتصف حالتيهما عند الغرق على وجه التحديد:

- **ذي النون: فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ(142)**
- **فرعون: فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ(40)**

ولو أمعنا التدبر في السياق القرآني الخاص بفرعون (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ)، لوجدنا أن الدّقة تستدعي جلب الانتباه إلى الفكرة المهمة جدا التالية: بالرغم أن فرعون وجنوده قد نبذوا جميعا في اليم (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ) إلا أن واحدا فقط من بينهم كان مليما (وَهُوَ مُلِيمٌ)، ليكون السؤال هو: لماذا كان فرعون مليما عندما نبذ في اليم؟ ولِم لم يكن أحد من جنده مليما أيضا؟ وبالمنطق نفسه (نحن نسأل): كيف كان ذو النون مليما عندما التقمه الحوت (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ)؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هناك تشابكا يكاد يكون متطابقا بين الرجلين في هذه الجزئية (وَهُوَ مُلِيمٌ)، فحالة فرعون- كما يحب أهل اللغة أن يصفوها من الجملة الحالية (وَهُوَ مُلِيمٌ)- تشبه تماما حالة ذي النون عندما التقمه الحوت.

السؤال: كيف كانت حالتيهما؟

رأينا المفترى: للإجابة على هذا التساؤل، فإننا نظن أننا بحاجة أن ننبش بتفاصيل حياة الرجلين، ومن ثم محاولة ربط الأحداث معا علّنا نخرج بعد ذلك بافتراءات ترشدنا إلى غايتنا المرجوة بحول الله وتوفيق منه.

بداية، نحن نظن (ربما مخطئين) أن مفردة مُلِيمٌ لها علاقة بمفردات مثل لَوْمَةَ و لَائِمٍ و تَلُومُونِي وَلُومُوا ، و اللَّوَّامَةِ و لُمْتُنَّنِي التي وردت جميعا في السياقات القرآنية التالية:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(54)**
- **وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(22)**
- **وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ(2)**

فنسوة المدينة مثلا هن اللواتي لُمْنَ امرأة العزيز في فتاها، فما كان منها إلا أن تذكرهن بذلك بعد أن أكبرن يوسف وقطعن أيديهن :

- **قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ(32)**

ولو أمعنا التفكر في هذه السياقات جيدا لوجدا أن اللائم هو من يلقي بعبء الذنب (وسبب الوقوع فيه) على غيره. فالشيطان مثلا يحاول التنصل من المسؤولية بأن يلقي باللائمة على أنفس اللذين اتبعوه. فكان جل ما فعل هو أنه دعاهم، ولكن الاستجابة كانت منهم. فيصبح هناك داعي وهناك مستجيب. فالشيطان هو

الداعي (وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ) ولكنهم هم المستجيبون (فَاسْتَجَبْتُمْ لِي)، وبالرغم من ذلك ينجح الشيطان في الإفلات من المسؤولية لسبب واحد وهو أن الداعي لا يملك السلطان على من دعاه (وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ). فالذي يتحمل اللائمة هو من كان له سلطان. إن صح هذا المنطق المفترى من عند أنفسنا، فإننا إذن نستطيع أن نخرج منه بالاستنباطات المفتراة التالية:

⇐ الشيطان يدعو

⇐ الشيطان (كداع) لا يملك سلطانا على من يدعوه

⇐ الشيطان لا يتحمل المسؤولية لمجرد أنه يدعو

- **...وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ...**

⇐ الذي يتحمل المسؤولية هو من كان له سلطان

⇐ الإنسان يتحمل المسؤولية لأنه هو من استجاب

⇐ من استجاب هو من يملك السلطان

⇐ من استجاب هو من يتحمل المسؤولية

⇐ اللوم يجب أن يقع على النفس

⇐ النفس هي من تملك السلطان على الإنسان

- **...فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم...**

⇐ الخ

مادام أن النفس هي من تملك السلطان فهي إذن من تتحمل اللائمة:

- **وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ(2)**

نتيجة مفتراة: لمّا كان الشيطان ليس له سلطان على الناس، فهو إذن يقع خارج دائرة الملامة:

- **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ(42)**
- **إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(99)**
- **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا(65)**

ولو تدبرنا السياق القرآني التالي لوجدنا أن سلطان الشيطان لا يكون إلا على اللذين يتولونه والذين هم به مشركون:

- **إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ(65)**

وهذا بالضبط هو ما قاله الشيطان لهم وهم يتحاجون جميعا في النار (إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ). وانظر – عزيزي القارئ- السياق القرآني نفسه جيدا:

- **وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(22)**

نتيجة مفتراة: لا يجب أن نلقي باللائمة على الشيطان فيما نفعل وذلك لأن الشيطان لا يملك سلطانا إلا على من بادر بنفسه ليتولاه من قبل وأصبح به من المشركين (إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ)، وهناك يبدأ سلطان الشيطان ينفذ على هؤلاء وذلك لأنهم تولونه من قبل (إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ).

نتيجة مهمة جدا جدا: ليكف الناس (نحن ننادي) عن إلقاء التهم جزافا على الشيطان، فهو بريء من التهم الموجهة إليه بهدف إلقاء اللائمة عن النفس وتحويلها إلى الشيطان. فغالبا ما نجد أن الذي يسرق – مثلا- يحاول أن يرمي باللائمة على الشيطان، وكذلك الذي يزني ويكذب ويفعل الذنوب جميعها. فنحن نذكر أنفسنا عندما نقول لكل هؤلاء أن فعلكم هذا لا يقع – في ظننا- إلا في باب محاولة تخفيف وطأة الذنب عن نفس الإنسان. فالذي يرتكب المعصية يحاول بكل السبل أن يجب مبررا لفعلته، وعادة ما يكون الشيطان في أغلب الأحوال هو ملاذ هؤلاء، فيلقون باللائمة عليه في محاولة يائسة لتبرئة أنفسهم من تحمل المسؤولية. لكن هذه الآيات الكريمة – نحن نفتري القول- تكذّب دعواهم جميعا. فالشيطان لا يملك سلطانا إلا على من تولاه من قبل. فالذي يسرق فإن نفسه هي المسؤولية وهي المستعدة للسرقة وهي التي تسول له فعلا كهذا قبل أن يجد الشيطان يدفعه ويحثه على الوقع في فعلة كهذه. فالاستعداد للوقوع في المعصية – في ظننا- سابقة على الدوام لدعوة الشيطان. فالشيطان لا يحث الإنسان على الوقوع في الزنا إلا إذا كانت نفس الإنسان تحدثه بذلك من قبل، وكذلك من يسرق ويقتل ويكذب، الخ. فلا يجب بعد ذلك أن يلقي مرتكب الذنب باللائمة على الشيطان، بل عليه أن يمتلك ما يكفي من الشجاعة لتحمل المسؤولية بإلقاء اللائمة بذلك على نفسه. وليكن لنا فيما جاء في قصة يوسف وموسى خير مثال على ذلك. فهذا السياق القرآني في سورة يوسف يبرئ الشيطان ويلقي باللائمة على النفس:

- وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ(53)

هذا موسى يرتكب الذنب بالقتل:

- وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ(15)

ولكن بالرغم من إدراكه بتدخل الشيطان في الأمر (قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ) إلا أنه لم ينفي ظلمه لنفسه:

- قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(16)

عودة على بدء

نعود من هذا النقاش إلى قصة يونس بالنتيجة المفتراة من عند أنفسنا التالية: عندما التقم الحوتُ يونس، كان يونس في حالة أنه مليم (وَهُوَ مُلِيمٌ)، عندها أقر (نحن نفتري الظن) بأنه يتحمل المسؤولية فيما وصلت إليه حاله الآن. وهكذا كان فرعون. فما أن وجد أن الغرق لا محالة قد أدركه حتى أيقن أنه يجب أن يتحمل مسؤولية ما آلت إليه الأمور، فكان هو أيضا مليما (وَهُوَ مُلِيمٌ).

وهناك بالضبط نحن نتخيل جاءت دعوتهما ربهما بالنجاة، فجاء قول فرعون على النحو التالي:

- وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ(90)

وهناك ارتفع صوت ذي النون بالنداء عاليا:

- وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(87)

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن المليم هو من كان يلقي باللائمة، ولكننا نفتري الظن من عند أنفسنا أن ذي النون وفرعون كان في تلك اللحظة يلقون باللائمة على طرفين اثنين وهما:

أنفسهم

الملأ من حولهم اللذين كانوا يحثونهم على التمادي في إلحاق الضرر بالآخرين بعد أن الحقوا الضرر بأنفسهم

الدليل

نحن نظن أن الآية الكريمة التالية ربما تشير إلى صحة افتراءاتنا هذه، خاصة اعتراف ذي النون بلسانه بأنه كان من الظالمين:

- وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(87)

ليكون التساؤل الذي سنثيره الآن هو: كيف كان ذو النون من الظالمين؟

باب: إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ

تساؤلات

- ⇐ كيف كان ذو النون من الظالمين؟
- ⇐ ما الذي فعله حتى كان في فترة من حياته من الظالمين؟
- ⇐ وهل لازال من الظالمين؟
- ⇐ ومتى كان من الظالمين؟
- ⇐ ومتى توقف عن ذلك؟
- ⇐ ثم، ألم يكن ذو النون أصلا من المسبحين (فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ)؟
- ⇐ وكيف يمكن أن نربط أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ مع إقراره بنفسه أنه كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ؟
- ⇐ فهل يمكن أن يجتمع التسبيح مع الظلم؟ وكيف يمكن أن يجتمعا معا؟
- ⇐ وإذا كان التسبيح والظلم لا يجتمعان معا، فأيهما حصل في البداية التسبيح أم الظلم؟
- ⇐ وما هي طبيعة الظلم الذي ارتكبه ذو النون؟
- ⇐ وكيف استطاع أن يتخلص من ذاك الظلم؟
- ⇐ الخ

هذا ما سنحاول النبش فيه فيما تبقى من هذا الجزء من المقالة، سائلين الله وحده يهدينا رشدنا وأن يعلمنا ما لم نكن أعلم وأن يزدنا علما وأن يهدينا لأقرب من هذا رشدا، إنه هو الواسع العليم – آمين.

أما بعد،

السؤال الأول: ما معنى قول ذي النون إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن في قول ذي النون هذا إشارة قوية جدا لنسج خيوط عنكبوتية بينه من جهة وبين كل من كان مِنَ الظَّالِمِينَ على مساحة النص القرآني كله من جهة أخرى كآدم وزوجه مثلا:

- **وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ(35)**
- **وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ(19)**

وهما من أقرا بظلهما أنفسهما، فطلبا المغفرة من الله مباشرة:

- **قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ(23)**

وكذلك كان قوم نوح من الظالمين:

- **فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(28)**

وكان قوم موسى من الظالمين عندما اتخذوا العجل إلها:

- **وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(150)**

وكذلك كان آل فرعون اللذين فرّ موسى منهم:

- **فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(21)**
- **فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(25)**

وهم أنفسهم من طلبت امرأت فرعون النجاة منهم:

- **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(11)**

السؤال: لماذا كان هؤلاء من الظالمين؟

رأينا المفترى: لأنهم لم يتقبلوا الأمر الإلهي الذي صدر، فآدم وزوجه لم يتمثلا الأمر الإلهي بعدم الاقتراب من الشجرة، فكانا ظالمين لأنفسهم عندما خالفا الأمر الإلهي وتقبلا نصيحة الشيطان لهما. وكذلك كان قوم نوح من الظالمين وهم اللذين رفضوا قبول الأمر الإلهي على لسان نبيهم نوح الذي دعاهم ليلا ونهار سرا وعلانية، وكذلك تقبل قوم موسى في غيابه دعوة السامري ورفضوا نصيحة هارون على فصاحة لسانه، فكادوا أن يقتلوه. وكذلك كان آل فرعون من الظالمين، الخ.

السؤال: لماذا كان ذو النون من الظالمين كما أقر بذلك بلسانه (إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)؟

رأينا المفترى: لأن لم يتقبل دعوة النبي الذي جاءه وقومه أجمعين

الدليل:

نحن بداية نؤمن أن الظلم لا يقع عن جهل وإنما على علم بدليل قوله تعالى:

- **وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ(145)**

بناء على فهمنا لما جاء في هذه الآية الكريمة فإنه بإمكاننا أن نخرج بالاستنباط التالي: نحن نظن أن الظالم هو من اتبع الهوى بعد ما جاءه من العلم، أليس كذلك؟

السؤال: كيف يأتي العلم لهؤلاء اللذين اتبعوا أهواءهم فأصبحوا ظالمين؟ أي ما هي طريقة وصول العلم لهؤلاء جميعا؟

جواب: نحن نظن أن واحدة من أهم طرق إيصال العلم للناس هي أن يبعث الله إليهم رسولا، فيتبعون أهواءهم بعدم الاستجابة لدعوة النبي المرسل إليهم من ربهم. وانظر – عزيزي القارئ- مليّا في السياق القرآني التالي:

- **فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(50)**

فتراء خطير جدا من عند أنفسنا: إن كل اللذين جاءتهم دعوة من ربهم على لسان رسله ولم يستجيبوا لها (فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ) وآثروا إتباع أهواءهم (فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ) هم من الظالمين، وهؤلاء هم اللذين لن يهديهم الله (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ).

تخيلات مفتراة: كان ذو النون صاحب مكانة في قومه، وكان الله قد آتاه حكما، فظن أنه مؤهل للرسالة، ولكن الرسالة تأخرت عليه، فلم يصبر لحكم ربه خاصة عندما وجد أن شخصا آخر قد بُعث في قومه رسولا من ربهم إليهم جميعا، وهنا ثارت ثائرة الرجل، فكتم غيظ قلبه، فكان مكظوما (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ)، فما استطاع حينها إلا أن يكون من الظالمين عندما سولت له نفسه – نحن نفتري الظن- أن لا يستجيب لذلك الرسول، فكان ممن اتبع هواه (فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)، وزاد الطين بلة (نحن لا زلنا نتخيل) أن آثر إلحاق الأذى بذلك الرسول، وقد وجد التشجيع والدعم من المنافقين والكافرين ممن حوله، فكان الرجل من أولئك الظالمين اللذين لم يتقبلوا دعوة ربهم على لسان رسوله.

نتيجة مفتراة خطيرة جدا: في تلك الفترة الزمنية من حياة الرجل كان ذو النون من الظالمين وذلك لظنه أن الله لن يجعله إماما للناس.

نتيجة مفتراة خطيرة جدا: كان ذو النون يطمع أن يجعله الله إماما للناس.

السؤال: لماذا لم يجعل الله ذا النون إماما للناس بالرغم أنه كان قد آتاه حكما من ذي قبل؟

رأينا المفترى: لأن ذي النون كان في تلك الأثناء من الظالمين اللذين لن ينالهم عهد الله، مصداقا لقوله تعالى:

- **وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ(124)**

نتيجة مفتراة: لا ينال عهدُ الله الظالمين

السؤال: لماذا لم يهد الله ذا النون حينها؟

رأينا المفترى: لأنه كان ممن يتولى غير المؤمنين:

- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(51)
- إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ(19)

نتيجة مهمة جدا: في تلك الفترة الزمنية التي كان فيها ذو النون من الظالمين فقد كان يتولى الظالمين كما يتولونه هم ما دام أن الظالمين هم أولياء بعضهم بعضا (وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ).

كما نتخيل بأن ذا النون لم يستجيب لدعوة الرسول عندما آثر إتباع الهوى:

- فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(50)

نتيجة مفتراة 1: في فترة محددة من حياة ذي النون كان الرجل من الظالمين، فكان ممن يتولى غير المؤمنين، فلم يكن مؤهلا ليكون إماما للناس لأن الله لا يهدي القوم الظالمين:

- أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(256)
- وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ۗ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(144)
- أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(19)
- أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(109)

كان من المفترض أن يفعل شيئا قد كتب عليه ولكنه لم يفعله:

- أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ(246)

نتيجة مفتراة 2: لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، كان ذو النون ممن شاقق الرسول الذي جاءه وقومه، فكادت أن تكون نهايته وخيمة جدا:

- وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا(115)

السؤال: هل الله هو من هدى ذا النون لاحقا؟

جواب: كلا، فالله لم يهد ذا النون وجل ما حصل أن الله تداركه بنعمة منه:

- لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ(49)

السؤال: ما الفرق بين أن يكون الله قد هدى ذا النون أو أن يكون قد تداركه نعمة منه؟

رأينا: نحن نظن أن الهداية لا تتم إلا لمن يشاء:

- سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (142)كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(213)
- لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ(272)
- ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(88)
- وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(25)
- وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(4)
- وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(93)
- اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(35)
- لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ ۚ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(46)
- إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ(56)
- أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ(8)
- اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ(23)
- وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ(31)

ف الهداية أو الضلالة مرتبطة بالإنسان نفسه، فالله لا يتدخل في هداية فلان (حتى وإن كان رسولا) وضلالة فلان (حتى وإن كان شيطانا رجيما) مادام أن ذلك مرتبط بمشيئة الإنسان نفسه، فمن شاء الهداية وجد الله هاديا له، ومن شاء الضلالة وجد الله مضلا له. انتهى

للتفصيل: انظر مقالاتنا جدلية التسيير والتخيير وسلسلة مقالات هل لعلم الله حدود؟

السؤال: لماذا إذن تدارك الله ذا النون بنعمة منه؟

جواب: لأنه كان في سابق عهده من المسبحين:

- فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ(144)

السؤال: ما معنى أن يتدارك الله ذا النون بنعمة منه؟

رأينا المفترى: نحن بداية نظن بأن مفردة نِعْمَةَ في السياق القرآني لا تعني أنها نعمة واحدة فقط، فالمفردة نفسها تدل على الجمع (أي أكثر من نعمة واحدة) بدليل قوله تعالى:

- وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ(18)

فمادام أن النعمة تحتاج أن تعدد، وهي لا تحصى حتى وإن حاولنا عدها، فهذا يعني أنها متعددة وكثيرة جدا. لذا، نحن نظن أن النعمة الإلهية تتمثل بوجوه كثيرة، نذكر منها:

النجاة من السوء، فهي عكس الضر:

- فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ(174)
- وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ(6)
- وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ(53)
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا(9)
- وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ(8)
- فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(49)

وهي تتمثل أيضا بالرزق:

- وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ(71)
- لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ(13)
- أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ(20)

كما تتمثل بالاجتباء بالرسالة والملك:

- وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ(20)
- شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(121)

السؤال: كيف تمثلت نعمة الله التي تداركت ذا النون؟

- لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ(49)

رأينا: نحن نظن أنها كانت على النحو التالي:

⇐ النجاة من السوء، فأخرج من بطن الحوت
⇐ الرزق، فأنبتت عليه شجرة من يقطين
⇐ الاجتباء بالرسالة

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: كانت نعمة الله بيونس تتمثل بأن نجّاه الله من بطن الحوت فما لبث في بطنه إلى يوم يبعثون. وكانت نجاته تلك متبوعة بجلب الرزق له عندما أنبتت عليه شجرة من يقطين، وتمت نعمة ربه عليه بالاجتباء الإلهي له بالرسالة. ونحن نكاد نجزم الظن بأن ذلك لا علاقة له بالهداية لأن أمر الهداية متروك لمشيئة الإنسان نفسه.

السؤال: أين حصلت الهداية لذي النون إذن؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن ذلك حصل في الفترة الواقعة بعد أن كان من الظالمين (إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) وقبل أن تداركه نعمة من ربه (لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ).

السؤال: ومتى حصل ذلك؟

جواب مفترى: هناك عندما التقمه الحوت فنادى في الظلمات:

- **وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(87)**

لتصبح مسيرة حياة ذي النون – برأينا المفترى- على النحو التالي:

من مسبحين – من الظالمين – الهداية – النعمة – الاجتباء بالرسالة

السؤال: لماذا حصل ذلك لذي النون؟

السؤال المعاكس: لماذا لم يحصل مثل ذلك لفرعون؟ ألم يدعو ربه بدعاء مشابه لدعاء ذي النون؟ ألم يكن من الظالمين كما كان ذي النون؟ الخ.

رأينا المفترى: نحن نفتري القول أن خاتمة الرجلين قد اختلفت لأن مقدمتهما كانت مختلفة. ففي حين أن ذا النون كان في سابق عهده من المسبحين:

- **فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ(144)**

فقد كان فرعون في سابق عهده من المفسدين:

- **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4)وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ(91)**

سؤال: هل هذا هو السبب فقط؟ هل هذا السبب كافيا حتى يصبح الفرق في نهاية كل منهما شاسعا بهذا الشكل؟

جواب مفترى: نحن نظن أن هناك سببا آخر يميّز حالة ذي النون عن حالة فرعون.

السؤال: ما هو ذلك الفرق؟

جواب مفترى: إنه العلو في الأرض. ففي حين أن فرعون كان عاليا في الأرض لم يكن ذو النون كذلك.

افتراء خطير جدا: في حين أن كلا الرجلين كان من الظالمين، إلا أن غاية كل واحد منهما من الظلم الذي ارتكبه تختلف عن غاية الآخر، ففي حين أن ظلم فرعون – نحن نفتري الظن- كان مدفوعا بالعلو بالأرض، لم يكن ظلم ذي النون مدفوعا بذلك الهدف. فغاية ذي النون – نحن نفتري القول من عند أنفسنا- كانت تتمثل بالعلو في الآخرة وليس في الأرض، فالظلم الذي ارتكبه كان الهدف من وراءه بأن يكون من المرسلين، فكانت عاقبته حسنة:

- تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ(83)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: مادام أن ذا النون (نحن نؤمن) من أصحاب الدار الآخر، فهو إذن لم يكن ممن يريدون علوا في الأرض، وإلاّ لما كان مستحقا لها. وبهذا المنطق المفترى فإننا نظن أنه لولا الفساد الذي كان يفعله فرعون ولولا أن هدفه كان العلو في الأرض لكانت عاقبته لا تقل عن عاقبة ذي النون.

نتيجة مفتراة: نحن نفتري الظن أن ذا النون كان من أصحاب الدار الآخرة لأنه:

-لم تكن غايته مدفوعة بهدف العلو في الأرض

-لم يكن من المفسدين

نتيجة مهمة جدا جدا: كان ظلم ذي النون غير مدفوع بالعلو بالأرض ولا بالفساد، بينما كان ظلم فرعون مدفوعا بالعلو بالأرض وبالفساد. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في الآية الكريمة التالية:

- إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ(4)

نتيجة مفتراة: نحن نظن أنه مادام أن فرعون كان يريد العلو في الأرض، فهو لن يكون ممن جعلت لهم الدار الآخرة ، وذلك لن الدار الآخرة لم تجعل لمثل هؤلاء:

- تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ(83)

السؤال: إذا كان هذا هو الفرق – كما تزعم – بين الظلم الذي ارتكبه ذو النون وذاك الذي ارتكبه فرعون، فكيف يمكن التفريق بين الظلم الذي ارتكبه ذي النون وذاك الذي ارتكبه موسى مثلا؟ ألم يقر موسى بارتكابه الظلم عندما قتل الرجل؟ ألا ترى أن قتل موسى للرجل ربما هو أكبر من ظلم ذي النون؟ ربما يريد صاحبنا أن يسأل.

- وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (15) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(16)

رأينا المفترى: دقق – عزيزي القارئ- جيدا فيما قاله موسى بالضبط دون زيادة ولا نقصان. ألا تجد بأنه يعترف بظلمه نفسه (قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي)؟

السؤال: وما الفرق؟

جواب مفترى: نحن نفتري القول بأن ذا النون كان من الظالمين، أليس كذلك؟

- وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(87)

بينما كان موسى ظالما لنفسه فقط:

- قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(16)

الفرق بين الظلم من جهة وظلم النفس من جهة أخرى

السؤال: وما الفرق بين أن تكون ظالما (كذي النون) أو أن تكون ظالما لنفسك (كموسى) مثلا؟

جواب: نحن نظن أن من كان ظالما فقد وقع في فعل ظلم أشمل وأوسع من ظلم النفس.

السؤال: وما الفرق؟

رأينا: نحن نظن أن من كان ظالما لنفسه فهو من يبوء بإثم واحد بينما من كان ظالما فهو من يبوء بإثمين اثنين.

الدليل

دقق – عزيزي القارئ- في الآية الكريمة التالية التي تصور ما قاله أحد ابني آدم عندما أراد أخوه أن يقتله:

- إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ(29)

ألا ترى بأن الظالم (أي من كان من الظالمين) هو من يبوء بإثم غيره (إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي) كما يبوء بإثمه (وَإِثْمِكَ)؟

السؤال: فمن هو الظالم لنفسه إذن؟

رأينا: نحن نفتري الظن بأن الذي يظلم نفسه هو من يبوء بإثمه فقط، ولا يبوء بإثم غيره. ولو دققنا مليّا في الآيات الكريمة التالية لوجدنا أن عقوبة الظالم الذي لا يقر بظلمه ويتراجع عنه هي جهنم:

- لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ(41)
- يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا(31)

وهي لا شك أعظم من عقوبة من كان ظالما لنفسه كآدم وزوجه:

- قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ(23)

أو كموسى مثلا:

- قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(16)

السؤال: لماذا كان موسى ظالما لنفسه ولم يكن من الظالمين؟

جواب مفترى: لأن موسى باء بإثمه ولكنه لم يبوء بإثم الرجل الذي قتله لأن موسى (نحن نفتري القول) لم يكن من المعتدين:

- فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ(107)

سؤال: ما الذي تقوله (يا رجل): ألم يقتل موسى رجلا؟ كيف إذن لم يكن من المعتدين؟ لم لا يبوء بإثم ذلك الرجل؟ ربما يستغرب صاحبنا قائلا.

رأينا المفترى: نحن نظن أنه لابد في هذه اللحظة من جلب سياقين قرآنيين معا يصوران لنا مواجهة بين طرفين (أي رجلين). وهنا نجد على الفور السياقين التاليين:

السياق الأول: المواجهة التي حصلت بين ابني آدم:

- **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (28) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ(29)**

السياق الثاني: المواجهة التي حصلت بين موسى وذلك الرجل الذي قتله موسى:

- **وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (15) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(16)**

السؤال ما الفرق بين المواجهتين؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الفرق يمكن أن يتضح للقارئ الكريم بعد طرح التساؤل التخيلي التالي: ما الذي كان يمكن أن يحدث لو أن موسى لم يقتل الرجل؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لكان ذاك الرجل أسرع إلى قتله موسى، لأن ذلك الرجل كان باسطا يده لقتله موسى كما كان موسى باسطا يده لقتل ذاك الرجل. ولكن هل هذا ما حصل في المواجهة بين ابني آدم من قبل؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا، لأن واحدا منهم فقط كان باسطا يده لقتل الآخر بينما لم يبسط الآخر يده لقتله أخيه.

نتيجة مفتراة: عندما بسط أحد ابني آدم يده لقتل آخيه، فقد باء بإثم نفسه ولكن لما لم يبسط الأخ الآخر يده لقتل أخيه الذي بسط يده لقتله باء الأول بإثم آخر وهو إثم أخيه، فكان القاتل منهما يتحمل إثمين معا: إثم أخيه وإثم نفسه (إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ)، فكان يستحق عاقبة من كان من الظالمين (وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ). وانظر عزيزي القارئ- إن شئت- في الآية نفسها مرة أخرى من هذا المنظور:

- **إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ(29)**

أما في حالة موسى، فقد كان كلا الرجلين (موسى وعدوه) باسطا كل منهما يده لقتل الآخر، فعندما بسط موسى يده لقتل الرجل كان ذلك الرجل هو أيضا باسطا يده لقتل موسى، عندها كان كل منهما يبوء بإثم نفسه (أي إثم القتل) لكنه لا يبوء بإثم الآخر. فكان كل منهما ظالما لنفسه ولكنه لم يكن ظالما لغيره.

تخيلات من عند أنفسنا: نحن نتخيل بأن موسى كان يمكن أن يكون من الظالمين (وليس فقط ظالما لنفسه) لو أنه أقدم على قتل الرجل الآخر في صبيحة اليوم التالي:

- **فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۚ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ (18) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ(19)**

لاحظ – عزيزي القارئ- كيف أن هذا الرجل الذي كان يريد موسى أن يبطش به لم يبسط يده لقتل موسى (قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ)، فلو أن موسى (نحن لازلنا نتخيل) قد أقدم على

قتل هذا الرجل بعد أن امتنع هذا الرجل عن بسط يده ليقتل موسى، لكان موسى (نحن نفتري الظن) من الظالمين ولباء حينها بإثمين اثنين: إثم ذلك الرجل وإثم نفسه.

ولعل مثل هذا الطرح (على ركاكته) ربما يحل إشكالية كبيرة في الفكر الديني تتمثل في حساب موسى عند ربه يوم الدين. لذا علينا أن نطرح تساؤلات كثيرة حول هذا الموضوع مثل:

⇐ ألا يحق لذاك الرجل أن يطلب حقه من موسى؟

⇐ ألم يقتله موسى عندما وكزه؟

⇐ ولِم (نحن لا زلنا نسأل) يغفر الله لموسى ظلمه لنفسه؟

- **قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(16)**

السؤال الخطير: كيف تتحصل المغفرة الإلهية لموسى بالرغم أنه قتل رجلا؟ فأين حق المقتول إذن؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن الله قد غفر لموسى ذلك لأن موسى كان ظالما لنفسه (أي باء بإثمه) ولم يكن ظالما (أي باء بإثمه وإثم غيره). وذلك لأن الإثم بينها قد تساوى، فكما بسط موسى يده لقتل ذلك الرجل كان ذلك الرجل أيضا باسطا يده لقتل موسى أيضا، فكانا كأنما هما جنديان في ساحة حرب، فالأسبق هو من يطيح بخصمه أرضا، وهو لا يبوء بإثم خصمه مادام أن هذا الخصم كان باسطا يده إليه ليقتله أيضا.

ولكن، لو أن المقتول لم يبسط يده لقتل القاتل (كما في حالة ابني آدم)، لحق للمقتول (نحن نفتري الظن) أن يطلب حقه من أخيه الذي قتله لأنه لم يك باسطا يده لقتل أخيه، فكان أخوه هو الذي اعتدى، فكان ظالما يبوء بإثمين أثنين: إثم أخيه وإثم نفسه:

- **إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ(29)**

تبعات هذا الظن

نحن نظن أن أهم تبعات هذا الظن هو أن الإثم الواحد هذا يتحول إلى ذنب، قابلا لأن يغفره الله:

- **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(53)**

السؤال: أين الدليل على أن هذا الإثم (جزاء لمن ظلم نفسه)، يصبح ذنبا قابلا للمغفرة؟

رأينا: نحن نظن أن الدليل متوافر في السياق القرآني التالي الذي جاء على لسان موسى نفسه معترفا بالذنب الذي يتحمله جراء قتله واحدا من آل فرعون:

- **وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ(14)**

الدليل

لا شك - عندنا - أن الظالم هو من اعتدى، مصداقا لقوله تعالى:

- **فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ(107)**

السؤال: إذا كان من اعتدى هو إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ، فهل كان ذو النون من الظالمين (أي ظالما) ولم يكن فقط ظالما نفسه؟

رأينا: نعم، كان ذو النون من الظالمين (لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)، لذا كان من المعتدين، فهو إذا يبوء بإثمين اثنين: أثم نفسه وإثم من حوله، وربما هكذا كان فرعون أيضا.

الدليل

أولا، ما دام أن ذا النون كان من الظالمين، فالاحتمالية قائمة أنه كان من المعتدين:

- **فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ(107)**

ثانيا، ولا شك عندنا أن من كان من الظالمين، ف لربما أنه كان من اللذين يطردون من يدعون ربهم ب الغداة والعشي:

- **وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ(52)**

ثالثا، لا شك عندنا أن من كان من الظالمين فقد كان يزدري الآخرين اللذين هم أقل درجة منه على السلم الاجتماعي كقوم نوح مثلا اللذين كانوا يزدرون المؤمنين المستضعفين اللذين آمنوا بنوح:

- **وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ(31)**

رابعا: لا شك عندنا أن الظالمين قد لا يترددون في إخراج الرسل من أرضهم:

- **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ(13)**

السؤال: فهل كان ذو النون ممن طرد اللذين يدعون ربهم بالغداة والعشي؟ وهل كان من اللذين يعملون على إخراج رسل الله من الأرض؟

خامسا، لا شك أيضا أن عاقبة الظالمين – إن هم لم يتراجعوا عن ظلمهم- هي العذاب:

- **بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ(39)**
- **مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ(83)**
- **أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(21)**

ولا شك أن لعنة الله ستصيبهم إن هم أصروا على ظلمهم:

- **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ(18)**

وذلك لأن الله لا يحب الظالمين:

- **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(40)**

سادسا، ولا شك أن الذي يدعو من دون الله ما لا يضره ولا ينفعه فهو إذن من الظالمين:

- **وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ(106)**

فالمعتدي على غيره حتى بالسرقة فهو من الظالمين:

- **قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ(75)**
- **قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ(59)**

ولا شك أن الشرك هو الظلم العظيم:

- **وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ(13)**

- وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(22)
- وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ(29)
- وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ(44)
- وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ(45)

نتائج مفتراة: نحن نستطيع أن نخرج من هذا النقاش بالافتراءات التالية التي نظن أنها تنطبق في حالة ذي النون:

كان ذو النون في فترة من حياته من الظالمين
ولربما كان ذو النون من المعتدين
ولربما كان ذو النون ممن يطردون من يدعون ربهم بـ الغداة والعشي
ولربما كان ممن يعمل على إخراج الرسل من الأرض
ولربما كان ذو النون ممن يدعون من دون الله ما لا يضره ولا ينفعه
ولربما كان ذي النون ممن يتولى الظالمين ممن هم حوله كما كان بعض الظالمون يتولونه
لكن المؤكد لنا أن ذا النون لم يصرّ على ظلمه
وقد أقر ذو النون بظلمه نفسه وظلمه غيرة فتحمل بنفسه المسؤولية
كما أقر ذو النون بأن الله هو الواحد الأحد الذي يجب أن يدعوه
الخ

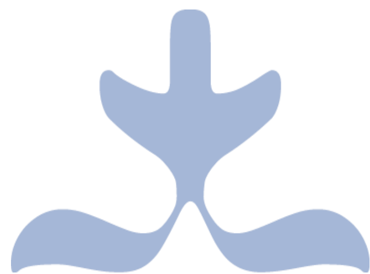
تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نتخيل قصة ذي النون وقد حصلت إذا على النحو التالي: يتحصل ذو النون على الحكم، فيكون في سابق عهده من المسبحين، ويستطيع التأثير بما له من مكانة اجتماعية في قومه على من حوله، فيصبح معظمهم من المؤمنين، ويبقى الرجل على تلك الشاكلة طامعا بأن يجتبيه ربه ويجعله من المرسلين، إلا أن الرجل يقع في فعل الظلم، فيكون من الظالمين، فيصبح كمن يبوء بإثمه وإثم غيره. ونحن نتخيل أن ذلك قد حصل عندما وجد ذو النون أن رجلا آخر قد اصطفاه الله بالرسالة إلى قومه. فعندها دخل الحنق (نحن لازلنا نتخيل) قلبه، فلا يستطيع أن يكتم غيظ قلبه، فيصبح مكظوما، ولما كان فيمن حوله من الملأ بعض المنافقين والكافرين اللذين أوغروا صدر الرجل ضد قبول دعوة هذا الرسول الجديد، لم يتوقف ذو النون عند ذلك الحد، بل عمد إلى العمل على إخراج ذلك الرسول من الأرض، وذهب هو بنفسه ليلحق بذلك الرسول، وهنا يتهاوى إيمان الرجل إلى الحضيض عندما ظن أن الله ومن معه لن يقدروا عليه. فما يكون منه إلا أن يتوجه إلى البحر لاحقا بذلك الرسول ومن معه، وهناك أبق الرجل إلى الفلك المشحون فساهم، ولكن كانت النتيجة أنه كان من المدحضين، فيسقط الرجل في البحر، ولا ينقذه من ذلك إلا الله عندما ساق له ذلك الحوت ليلتقمه، وفي تلك الأثناء يعود الرجل إلى رشده، فينادي في الظلمات بتلك الدعوة المشهورة التي أخرجته من بطن الحوت:

- **وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(87)**

التساؤلات المنوي الخوض فيها في المرة القادمة (بحول الله وتوفيق منه) تشمل:

⇐ من أين جاء ذا النون الحكم؟
⇐ وما ماهية ذلك الحكم الذي لم يصبر عليه؟
⇐ ولماذا لم يصبر عليه؟
⇐ وأين ذلك البحر الذي توجه نحوه؟
⇐ وكيف أبق إلى الفلك المشحون؟
⇐ وما هو ذلك الفلك الذي أبق الرجل إليه؟
⇐ ولماذا ساهم هناك؟
⇐ وكيف ساهم؟
⇐ وكيف دُحِض الرجل؟
⇐ وهل كان وحده عندما دُحِض؟
⇐ ومن هم اللذين دُحِضوا معه؟
⇐ ومن الذي دحضهم؟
⇐ الخ

دعاء: أعوذ بالله وحده أن أكون ممن يفترون على الله الكذب وهم يعلمون، وأسأله وحده أن يعلمني الحق الذي أقوله فلا أفتري عليه غير الحق، وأسأله وحده أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يزدني علما وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا، إنه هو الواسع العليم – آمين



قصة يونس

الجزء السابع



قصة يونس – الجزء السابع

نحاول في هذا الجزء الجديد من المقالة الإجابة على التساؤلات التي أنهينا بها الجزء السابق من المقالة نفسها، وهي تلك التساؤلات الخاصة بقصة ذي النون، نذكر منها:

⇐ من أين جاء ذا النون الحكم؟
⇐ وما ماهية ذلك الحكم الذي لم يصبر له؟
⇐ ولماذا لم يصبر له؟
⇐ ولماذا توجه إلى البحر عندما ذهب مغاضبا؟
⇐ وأين ذلك البحر الذي توجه نحوه؟
⇐ وكيف أبق إلى الفلك المشحون؟
⇐ وما هو ذلك الفلك الذي أبق الرجل إليه؟
⇐ ولماذا أبق إلى فلك المشحون أصلا؟
⇐ ولماذا ساهم هناك؟
⇐ وكيف ساهم؟
⇐ وكيف دُحِض الرجل؟
⇐ وهل كان وحده عندما دُحِض؟
⇐ ومن اللذين دُحِضوا معه؟
⇐ ومن هم اللذين دَحَضوا ذا النون ومن كان معه؟
⇐ الخ

باب الحكم: لماذا سمي يونس بذي النون؟

سنحاول جاهدين في هذا الباب أن نقدم (بما أذن الله لنا فيه من علم) تصورنا المفترى من عند أنفسنا الخاص بتسمية يونس بذي النون، طارحين التساؤل الرئيس التالي: ما معنى أن يكون يونس هو نفسه ذو النون؟

أما بعد،

افترينا الظن في واحدة من الأجزاء السابقة من هذه المقالة وفي غيرها من مقالاتنا السابقة الأخرى بأن الحكم مصدره إلهي، فهذا إبراهيم يطلب من ربه أن يهب له حُكْمًا بمجرد أن أخرجه الله سالما من النار:

- **رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ(83)**

وافترينا الظن (ربما من عند أنفسنا) بأن مرحلة الحكم هي مرحلة سابقة للنبوة. فإبراهيم قد طلب من الله كما جاء في الآية الكريمة السابقة أن يهب له شيئين اثنين وهما:

1. أن يهب له حكما (رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا)
2. أن يلحقه بالصالحين (وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)

ولمّا ظننا أن اللحاق بالصالحين تعني الاصطفاء بالرسالة (انظر المقالات السابقة)، فإن الحكم هو (في ظننا) المرحلة السابقة لتلك الفترة. فحتى يصبح من أراد الله أن يصطفيه بالرسالة مؤهلا لها، فلابد (نحن نفتري الظن) أن يمرّ بمرحلة التجهّز لها، وهي في ظننا مرحلة الحكم والعلم، كما حصل مع موسى مثلا:

- وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(14)

وكما حصل مع يوسف أيضا:

- وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(22)

وربما كما كان يحصل مع جميع رسل الله:

- وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ(74)
- فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَاعِلِينَ(76)
- فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ(21)
- رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ(21)

ولو راقبنا الآيات الكريمة التالية لوجدنا أن الحكم في الأصل محصور بالله وحده، فالله وحده هو من له الحكم:

- مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(40)
- وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ(67)
- وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ ۖ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(70)
- وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۘ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(88)
- ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ۚ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ(12)

ولو راقبنا الآيات الكريمة التالية لوجدنا أن الله هو من يؤتي بعضَ عباده الحكمَ:

- مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ(79)
- أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ(89)

نتيجة 1: لذا نحن نفتري القول بأن الله وحده هو صاحب الحق في أن يُؤتي حكمه من يشاء من عباده. ولكن بالرغم من ذلك يبقى الله وحده هو أَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ:

- أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ(8)

دعاء: اللهم يا من أنت وحدك أَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ فإني أسألك أن تؤتيني حُكْمًا وَعِلْمًا - آمين

نتيجة 2: ولو تفقدنا بعض السياقات القرآنية السابقة لربما وجدنا أن الحكم مرتبط بفترة عمرية معينة وهي بلوغ الأشد، فحصل عليها يوسف مثلا بمجرد بلوغه أشده:

- وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(22)

بينما انتظر موسى فترة زمنية أطول، فما حصل عليها إلا بعد أن بلغ أشده واستوى:

- وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(14)

نتيجة 3: لم يستثنى من هذه السنة الإلهية (نحن نفتري القول) إلا شخص واحد فقط: إنه يحي الذي آتاه الله الحكم وهو لازالا صبيا:

- يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا(12)

ليكون السؤال المطروح على الفور هو: ما هو الْحُكْمَ؟

جواب مفترى غير مباشر: نحن نظن أن الإجابة على هذا التساؤل ربما يحتاج إلى بعض الروية والتأني، نبدأ النقاش فيه بمحاولتنا إمعان التدبر بالآية الكريمة التالية:

- أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ(197)

دقق - عزيزي القارئ- جيدا بهذا السياق القرآني، لتجد – برأينا- حالة من التنافر الظاهري العجيب بينها من جهة والآيات التي سبقتها وتلك التي لحقت بها من جهة أخرى. فدعنا أن نتأمل السياق أولا، ثم لا نتردد أن نطرح التساؤلات بكل جرأة ومصداقية:

- وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (195) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (196) أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (197) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (198) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (199) كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (200) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ(201)

التساؤلات:

⇐ أليس القرآن تنزيل من رب العالمين (وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)؟
⇐ ألم ينزل به الروح الأمين (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ)؟
⇐ ألم ينزله على قلب محمد (عَلَىٰ قَلْبِكَ)؟
⇐ أليس الهدف من ذلك هو ليكون محمد من المنذرين (لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ)؟
⇐ ألم يكن ذلك الإنذار من محمد بلسان عربي مبين (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ)؟
⇐ ما علاقة ذلك بزبر الأولين؟
⇐ وكيف يكون هذا في زبر الأولين (وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ)؟
⇐ وما هو "هذا" الذي هو في زبر الأولين؟
⇐ وما هي زبر الأولين أساسا؟
⇐ الخ

السؤال الكبير المربك لنا الآن هو: كيف يكون في هذا (الذي أُنزل على محمد) أية يعلمها علماء بني إسرائيل (أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ) وهو الذي لا يتحدث بلسانهم مادام أن محمدا ليس من بني إسرائيل؟

- **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(4)**

ثم، كيف أن في نزول هذا القرآن على بعض الأعجمين (لو أنه نزل عليهم) لن يكون سببا في إيمانهم؟

- **وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (198) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ(199)**

⇐ ومن هم هؤلاء الأعجمين اللذين لن يؤمنوا به لو أنه أنزل عليهم؟
⇐ وماذا عن الآخرين منهم؟
⇐ ولم لم ينزل قرآنا مثله بلسان الأعجمين؟
⇐ ألم يكن البعض الآخر سيؤمنون به لو أنه أُنزل عليهم بلسانهم؟
⇐ ألا يكون في ذلك عدل يشمل الجميع؟
⇐ فما ذنب بعض الأعجميين اللذين كان من الممكن أن يؤمنوا به لو أنه أنزل عليهم قرآنا بلسانهم؟
⇐ وكيف بعد ذلك يكون محمد رسولا للناس جميعا؟

- **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(158)**

⇐ وكيف يكون هذا الذي جاء به محمد حجة على الجميع حتى وإن لم يكونوا من أصحاب اللسان العربي الذي أنذر به محمد؟
⇐ الخ.

رأينا المفترى والخطير جدا جدا: نحن نظن أن الجواب على كل هذه التساؤلات ربما نجده في مفردة واحدة وهي " الحكم" – موضوع النقاش في هذا الجزء من المقالة، ليكون السؤال الآن هو: كيف يمكن لمفردة الحكم الواردة في النص القرآني أن تسعفنا في الوصول إلى إجابات مفتراة لجميع هذه التساؤلات المثيرة والمربكة في آن واحد؟

جواب: دعنا ندقق في السياق القرآني التالي:

- **وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ۚ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (36) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ(37)**

السؤال الذي يجب أن يتبادر إلى ذهن الجميع بعد قراءة ما جاء في هذه الآيات الكريمة على الفور هو: كيف أنزل هذا الكتاب حكما عربيا (وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا)؟

نتيجة مهمة جدا 1: نحن نفتري الظن أن محمدا كان منذرا به (أي الكتاب) بلسان عربي مبين، أليس كذلك؟

- **وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ(195)**

نتيجة مهمة جدا 2: نحن نفتري الظن أيضا بأن الكتاب قد أنزل حكما عربيا، أليس كذلك؟

- وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ۚ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (36) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ(37)

السؤال: كيف يمكن أن نفهم أن الكتاب قد أنزل حُكْمًا عَرَبِيًّا إذن؟

منطقنا المفترى: لمّا كان كلام الله مقصود بذاته، فإننا نجد لزاما الإقرار قبل كل شيء بالمبدأ الراسخ عندنا الذي مفاده بأن أي اختلاف في اللفظ (مهما كان صغيرا) يجب أن يكون مدفوعا باختلاف في المعنى، فآيات الكتاب الحكيم "محكمة" الصياغة، لذا يجب توخي أقصى درجات الدقة في التعامل معها. لذا نحن بحاجة أن نتوقف عند كل مفردة لنتدبرها مليّا قبل أن نقفز إلى استنباطات غالبا ما تتصف بالعموميات التي ربما لا تسمن ولا تغني من جوع.

السؤال: على من أنزل الكتاب؟

جواب مفترى: على جميع رسل الله. فالله هو من آتى موسى مثلا الكتاب:

- وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(53)
- وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ 87
- ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ(154)
- وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ(110)
- وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا(2)
- وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ(49)
- وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا(35)
- وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(43)
- وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ۖ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ(23)
- وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ(53)
- وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ(45)

وهو الذي علم المسيح عيسى بن مريم الكتاب:

- قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (47) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ(48)
- إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ

كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِيۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِيۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِيۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ(110)

وهو الذي أنزل الكتاب على محمد:

- وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۚ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًاۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(231)
- نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ(3)
- هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ(7)
- وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍۚ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا(113)
- وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا(140)
- وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(64)
- وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ(89)
- أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(51)
- إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ(41)

نتيجة مفتراة 1: آتى الله موسى الكتاب

نتيجة مفتراة 2: علم الله عيسى الكتاب

نتيجة مفتراة 3: أنزل الله الكتاب على محمد

السؤال المهم: هل الكتاب الذي أُنزل على محمد هو نفسه الذي آتاه الله موسى وعلمه الله عيسى؟

رأينا: نعم هو الكتاب نفسه.

السؤال: هل أُنزل الكتاب الذي آتاه الله موسى حكما عربيا كما أنزل على محمد؟

جواب: كلا وألف كلا، فقد آتى الله موسى الكتاب بلسان قوم موسى. فكان (نحن نتخيل) حكما عبرانيا ولم يكن حكما عربيا وذلك لأن كل رسول كان ينذر بلسان قومه:

- وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(4)

السؤال: وهل أُنزل الكتاب الذي علمه الله عيسى حكما عربيا؟
جواب: كلا وألف كلا، فقد علم الله عيسى الكتاب بلسان من كان عيسى بن مريم رسولا من الله إليهم، فكان (نحن نتخيل) حكما آراميا.
السؤال الكبير: كيف يمكن أن نفهم أن الكتاب الذي أُنزل على محمد قد أنزل حُكْمًا عَرَبِيًّا؟

باب: وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا

بداية، لابد من تدارس الآيات الكريمة التالية التي تبيّن – ربما بما لا يدع مجالا للشك- الفصل الواضح بين الكتاب من جهة والحكم من جهة أخرى، فالكتاب شيء والحكم شيء آخر، والنبوة شيء ثالث:

- **مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ(79)**
- **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ(89)**

لتكون النتائج المستنبطة على النحو التالي:

نتيجة 1: هناك الكتاب (الْكِتَابَ)
نتيجة 2: هناك الحكم (وَالْحُكْمَ)
نتيجة 3: هناك النبوة (وَالنُّبُوَّةَ)

ثانيا، لو أمعنا التفكر في هذه المفردة على مساحة النص القرآني لوجدنا على الفور إمكانية الحصول على واحدة أو أكثر من هذه الثلاثة (الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ) في المرة الواحدة، فانظر مثلا ما حصل عليه هؤلاء:

- إبراهيم: **رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ(21)**
- لوط: **وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ(74)**
- سليمان وداوود: **فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَاعِلِينَ(76)**
- موسى: **فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ(21)**
- يوسف: **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(22)**

ثالثا، نحن نظن أنه بالرغم أن الحكم شيء منفصل عن الكتاب بدليل الفصل بينهما في الآية السابقة (الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ) إلا أن العلاقة بينهما وثيقة، فلو تدبرنا الآيات الكريمة التالية لوجدنا الربط بين الكتاب والحكم مباشرا:

- **وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ(37)**

السؤال الكبير جدا: كيف يرتبط الحكم بالكتاب؟
رأينا المفترى: نحن نظن أن الآية الكريمة التالية تصور ذلك أحسن تصوير:

- الر ۚ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ(1)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا 1: نحن نفتري الظن بأن الكتاب هو عبارة عن جملة من الآيات
نتيجة مفتراة من عند أنفسنا 2: نحن نفتري الظن بأن هذه الآيات قد أحكمت
نتيجة مفتراة من عند أنفسنا 3: نحن نفتري الظن بأن هناك من يتولى مسؤولية إحكام آيات الكتاب
نتيجة مفتراة من عند أنفسنا 4: نحن نفتري الظن بأن تلك الآيات المحكمة لابد من أن تُفصّل بلسان القوم الذي بعث فيهم الرسول حتى يستطيعون فهمه
نتيجة مفتراة من عند أنفسنا 5: نحن نفتري الظن بأن هناك من يتولى تفصيل الآيات التي أحكمت وهو الرسول نفسه

السؤال: كيف يتم ذلك كله؟

رأينا المفترى: لو حاولنا أن نتدبر الآية الكريمة التالية، لربما خرجنا باستنباطات أخرى لها علاقة مباشرة بفحوى النقاش:

- **وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ(44)**

لتكون الافتراءات التي نحاول الخروج بها من هذا النقاش على النحو التالي:

⇐ هناك الكتاب
⇐ هناك القرآن
⇐ الكتاب أحكمت آياته
⇐ آيات الكتاب التي أحكمت قد فصلت قرآنا
⇐ جاءت تلك الآيات مفصلة قرآنا عربيا

ليكون السيناريو الذي نحاول أن نرسمه على النحو التالي:

الكتاب	القرآن
من لدن الله آيات أحكمت	عند محمد آيات فصلت

نتيجة مفتراة: تكون آيات الكتاب محكمة (باللغة الإلهية) فيتم تفصيلها، ويكون ذلك بترجمتها عربية وأعجمية.

السؤال: كيف يمكن أن نفهم هذا كله؟

رأينا: بداية نحن نظن أن الضرورة ربما تستدعي الرجوع إلى ما افتريناه من عند أنفسنا في مقالات سابقة لنا حول هذا الموضوع وأخص بالذكر ما جاء في سلسلة مقالاتنا تحت عنوان لماذا قدم نبي الله لوط بناته بدلا من ضيوفه؟ خاصة الجزء الحادي عشر وما بعده وكذلك ما جاء في سلسلة مقالاتنا كيف تم خلق المسيح عيسى بن مريم؟ لذا نحن ننصح القارئ الكريم بالرجوع إلى تلك المقالات لينظر بما جاء فيها لأن ذلك ربما يكون ضروريا له حتى تتكوّن عنده صورة واضحة لما نحاول تسويقه من ظنون مفتراة من عند أنفسنا حول

هذا الموضوع الخطير جدا. فنحن نعلم مقدار الضعف (وربما العجز) الذي نعاني منه في صياغة الأفكار التي تدور في ذهننا كنصوص واضحة يستطيع القارئ الكريم أن يتابعها بيسر وسهولة، لذا نحن نعتمد على قدرة المتلقي على فهم الفكرة أكثر من قدرتنا على صياغتها بالشكل الذي يجب أن تكون عليه. سائلين الله وحده قبل كل شيء أن يهدينا رشدنا وأن يعلمنا ما لم نكن نعلم، وأن يهدينا لأقرب من هذا رشدا، وأن يزدنا علما، إنه هو الواسع العليم – آمين.

أما بعد،

السؤال الكبير: ما العلاقة بين الكتاب والحكم؟

عد محاولتنا تدبر السياقات القرآنية الخاصة بالحكم وارتباطها بالكتاب، لفت انتباهنا الملاحظة التالية: لم يكن عيسى بن مريم من رسل الله اللذين آتاهم الله حكما، لكننا وجدنا أن "الْحِكْمَةَ" (وليس الحكم) هي المصاحبة له على الدوام:

- **قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (47) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ(48)**
- **إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ(110)**

ليكون السؤال الذي حاولنا على الفور تدبره هو: لماذا؟ أي لماذا جاءت الْحِكْمَةَ مصاحبة لعيسى بن مريم؟ ولِم لم يكن عيسى ابن مريم ممن آتاهم الله حكما كما حصل مع يحيى مثلا، وهو من آتاه الله الحكم صبيا:

- **يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا(12)**

جواب مفترى: لو تفقدنا السياقات القرآنية الخاصة بعيسى ابن مريم على وجه التحديد مرة أخرى، وحاولنا تدبرها جيدا، لوجدنا ما يدعو الوقوف عنده مليّا، وأقصد على وجه التحديد الملاحظة التي فحواها أن عيسى قد حصل على أربعة أشياء وهي الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وكان ذلك بطريقة التعليم، راقب – عزيزي القارئ- هذه الآيات مرة أخرى:

- **وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ(48)**
- **...وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ... ۖ**

ولكن – بالمقابل- لو قارنا ذلك بما كان لمحمد لوجدنا أن ما حصل عليه محمد هو الكتاب والحكمة وكان ذلك بطريقة التنزيل (وليس التعليم)، راقب – عزيزي القارئ- السياق التالي جيدا:

- **وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ۚ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا(113)**

وبالإضافة إلى الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ اللذان جاءا محمدا تنزيلا، علّم الله محمدا أيضا ما لم يكن محمد يعلمه:

- ...وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا(113)

ولو حاولنا تدبر السياقات التالية لوجدنا أن عيسى ومحمدا قد تولّيا مهمة تعليم من حولهما الْحِكْمَةَ، فكان محمد يقوم بتعليم غيره الكتاب والحكمة اللتان جاءته تنزيلا بعد أن يتلو عليهم الآيات:

- **رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(129)**
- **كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ(151)**
- **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(164)**
- **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(2)**

وكان عيسى قد جاء بني إسرائيل من قبل بالحكمة ليبيّن لهم بعض الذي يختلفون فيه:

- **وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ(63)**

بعد هذه المقدمة، دعنا نثير التساؤل الكبير جدا التالي: لماذا جاء علم الكتاب والحكمة عيسى بن مريم تعليما بينما جاء محمد تنزيلا؟

- **عيسى: وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ(48)**
- **محمد: ... وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا(113)**

وبالمنطق المفترى نفسه نحن نسأل: لماذا علم الله محمدا بعد ذلك ما لم يكن محمد يعلمه؟ ولِم لم يعلم عيسى مثل ذلك؟

وبالمنطق المفترى نفسه نحن نسأل: لماذا علم الله عيسى التوراة والإنجيل؟ ولِم لم يحصل مثل هذا التعليم لمحمد؟

نتائج مفتراة خطيرة جدا

كان عيسى يعلم ما في الكتاب وكذلك كان محمد (وإن اختلفت الطريقة)

كان عيسى يملك الحكمة وكذلك كان محمد (وإن اختلفت الطريقة)

كان عيسى يستطيع أن يقرأ ما في التوراة ولكن محمد لم يكن يستطيع ذلك لأن الله لم يعلمه التوراة كما علم عيسى

كان عيسى يستطيع أن يقرأ ما في الإنجيل ولكن محمد لم يكن يستطيع ذلك لأن الله لم يعلمه الإنجيل كما علم عيسى

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى والخطير جدا جدا الذي نطلب من القارئ الكريم أن لا يصدِّقه ما لم يجد أن الدليل يدعمه: نحن نظن أن لهذا علاقة مباشرة بالآية الكريمة التالية التي تخط واحدة من سنن الله الكونية التي لا تتبدل ولا تتحول، والآية هي:

- **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(4)**

السؤال: ما علاقة هذه الآية بمحاولتنا الإجابة على التساؤلات السابقة؟

رأينا: نحن نظن أن ذلك يمكن أن يتضح لاحقا، لكن لابد أن نبدأ (نحن نظن) من المنطق المفترى التالي: لم يكن لعيسى ابن مريم قوم، لذا فهو لا يتحدث لغة الناس بينما كان محمد ينتمي إلى عشيرة محددة فكان ينذرهم بلسانهم.

الدليل

لنبدأ البحث عن الدليل بإثارة التساؤل التالي: إذا كان كل رسول قد أُرسل بلسان قومه (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ)، فمن هم قوم عيسى بن مريم؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هناك اثنان من رسل الله اللذين لم يكن لهم قوم ينتمون إليهم وهما (1) عيسى بن مريم و (2) داوود. وربما لهذا السبب (نحن نفتري الظن من عند أنفسنا كما سنرى لاحقا بحول الله وتوفيق منه) جاء اللعن للذين كفروا من بني إسرائيل على لسان هذين الرسولين الكريمين:

- **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ(78)**

وسنرى لاحقا كيف يمكن أن يكون هذا سببا كافيا أن يكون داوود (كما كان عيسى ومحمد) ممن آتاهم الله الحكمة:

- **فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ(251)**

لكن دعنا هنا نبقي التركيز منصبا على عيسى بن مريم، لنفتري الظن من عند أنفسنا بأن عيسى بن مريم لم يكن من بني إسرائيل ولكنه كان رسولا إلى بني إسرائيل.

الدليل

دعنا نحاول مقارنة السياق القرآني التالي الذي يتحدث عن موسى مثلا، مخاطبا قومه مباشرة:

- **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (5)**

بالسياق القرآني التالي الذي جاء خاصا بعيسى:

- **وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ(6)**

ألا تجد – عزيزي القارئ- أن موسى يوجه خطابه إلى قومه (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ) بأنه رسول الله إليهم (أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ)، ولكن عيسى – بالمقابل- لا يخاطب قوما له ولكنه يخاطب بني إسرائيل كرسول من الله إليهم فقط (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم)

والآن دعنا نحاول أن نربط ذلك بما جاء بحق محمد، لنجد على الفور الآية الكريمة التالية التي تصور محمدا رسولا إلى الناس جميعا:

- قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(158)

لنخرج من هذا النقاش بتساؤلات غاية في الإثارة، نذكر منها:

⇐ هل كل الناس هم قوم محمد؟

⇐ وهل يتحدث محمد بلسان كل الناس؟

⇐ ألم يكن محمد ينذر الناس بلسان عربي مبين؟

- **فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا(97)**
- **فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(58)**
- **عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ(195)**

تلخيص ما سبق: نحن نثير جملة من التساؤلات التي نظن أنها مترابطة، وذلك لغرض التأطير للتساؤل الأول وهو: لماذا جاء علم الكتاب والحكمة عيسى بن مريم تعليما بينما جاء محمدا تنزيلا؟

رأينا المفترى: لمّا لم يكن عيسى بن مريم ينتمي إلى قوم من الناس، فهو بالتالي لم يكن يتحدث لسانهم، وبالتالي كان عيسى بن مريم (نحن نفتري الظن) يحتاج أن يتعلم تعليما، فجاء تعليمه على النحو التالي:

- **وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ(48)**
- **...وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ..ۖ**

ليكون المشهد الخاص بعيسى بن مريم (كما نفتريه من عند أنفسنا) على النحو التالي: ينفذ الله أمره بكلمته المسيح، فيكون المسيح عيسى بن مريم كلمة الله وروح منه:

- **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۘ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا(171)**

ولما كان عيسى بن مريم كلمة الله التي ألقاها إلى مريم ، لم يكن عيسى بن مريم (نتيجة ذلك النفخ الإلهي ككلمة منه) ينتمي إلى قوم من الناس مادام أنه لم يمر بمراحل خلق من كان من الناس كما تصور ذلك الآية الكريمة التالية:

- يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ(5)

ومادام أن عيسى بن مريم لم يخلق من ذكر وأنثى كما يخلق الناس جميعا:

- **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(13)**

وما أن يخلق المسيح حتى ينطلق لسانه بالكلام منذ اليوم الأول الذي ولد فيه:

- **وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ(46)**

- إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًاۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِيۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِيۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِيۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ(110)
- فَأَشَارَتْ إِلَيْهِۖ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا(30)

فلا يكون هناك معلما له من الناس، لذا لم ينطق عيسى بن مريم بلسان قوم من الناس عندما تكلم في المهد صبيا وذلك لأنه (نحن نفتري الظن) ليس منهم.

نتيجة مفتراة مهمة جدا: جاء عيسى بن مريم يتحدث منذ يومه الأول لغة خاصة به ليست من لغات الناس. لذا كان لعيسى بن مريم لسانا يختلف عن ألسن الناس جميعا.

ينشأ المسيح عيسى بن مريم يتحدث كلاما ليس من كلام البشر، فلا يستطيع من حوله أن يفهموا ما كان يقول، لذا فهو لم يخاطب الناس إلا في طفولته وعند كهولته:

- وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ(46)

وذلك (في ظننا) لسبب بسيط وهو أن من كان حول المسيح لم يكن ليفهم ما كان ينطلق لسان المسيح به مادام أنه يتحدث بلسانه الخاص الذي يختلف عن ألسنتهم جميعا. وربما لهذا كان عيسى بن مريم إلى مجموعة من الناس ليفهموا لغته الخاصة، فأختص الوحي الإلهي المقدسة بمجموعة من الشبان هم الحواريون:

- وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ(111)

للتفصيل انظر سلسلة مقالتنا كيف تم خلق المسيح عيسى بن مريم؟

وبالمنطق نفسه، فإن المسيح عيسى بن مريم لم يكن ليفهم كلام من كان حوله من الناس لأنهم يتحدثون بلسان غير لسانه، ولم يكن المسيح أصلا بحاجة أن يفهم كلامهم لأن كلامهم لم يكن أكثر من أسماء سموّها هم وآباءهم ما أنزل الله بها من سلطان، ولما لم يكن عيسى ليستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير:

- وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ(61) ... ۚ

لم يكن ليترك اللسان الذي يتحدث به (وهو خير) من أجل أن يتحدث بلسان القوم من حوله من بني إسرائيل (وهو أدنى). والحالة هذه لم يكن عيسى بن مريم يحتاج أن يتعلم شيئا من عند هؤلاء القوم إلا ما نصت عليه الآيات الكريمة التالية:

- وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ(48)
- ...وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ...ۖ

فجاء التعليم الإلهي له على النحو والترتيب التالي:

⇐ تعليم الكتاب (الْكِتَابَ)

⇐ تعليمه الحكمة (وَالْحِكْمَةَ)

⇐ تعليمه التوراة (وَالتَّوْرَاةَ)

⇐ تعليمه الإنجيل (وَالْإِنجِيلَ)

السؤال الكبير جدا: فأين الحكم؟ لِم لم يؤتي الله المسيح عيسى بن مريم الحكم كما آتى ذلك إبراهيم وموسى ويوسف ولوطا وغيرهم من رسله؟ ولم لم يؤتيه الحكم صبيا كما حصل مع يحيى مثلا؟

- **يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍۖ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا(12)**

رأينا المفترى الخطير جدا جدا: لأن المسيح عيسى ابن مريم قد ولد ومعه الحكم أصلا.

السؤال: وما هو الحكم الذي ولد عيسى وهو يملكه؟

رأينا: إنها اللغة الإلهية. انتهى

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نتخيل الموقف على النحو التالي: ولد عيسى بن مريم يتحدث بلسانه الخاص به، فانطلق لسانه به منذ اليوم الأول، فكلم من حوله وهو لازال صبيا في المهد، ولم يكن يتحدث (نحن لازلنا نتخيل) بلسان القوم اللذين هم من حوله (أي بني إسرائيل) لأنه لم يكن منهم أساسا، ولكنه كان رسولا إليهم. فكان يتكلم حكما (خاصا به)، وهو القول الفصل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ونحن نستطيع تصوير ذلك (من أجل تقريب الصورة إلى الأذهان) على نحو أن عيسى ابن مريم هو النسخة المادية الحية للقرآن الذي هو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فما تكلم عيسى بن مريم إلا الحق، وما يكون له غير ذلك:

- **وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ(116)**

ليكون السيناريو في حالة عيسى على النحو التالي:

⇐ الحكم (جاء معه)

⇐ التعليم (الكتاب الحكمة والتوراة والإنجيل)

تلخيص: ولد المسيح عيسى بن مريم ومعه حكما خاصا به (فحدّث به من كان حوله من الناس منذ اليوم الأول لولادته)، فما تعلم لسان القوم الذين من حوله لأنهم ببساطة ليسوا قومه وإن كان رسولا من الله إليهم، وكان جلّ ما يحتاج المسيح أن يتعلمه مما عند هؤلاء التوراة والإنجيل، فعلمه الله ذلك بعد أن علمه الكتاب والحكمة، فأصبح عند عيسى بن مريم علم الكتاب والحكمة (مما عند الله) وعلم التوراة والإنجيل (مما عند الناس من حوله من بني إسرائيل).

للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا كيف تم خلق عيسى بن مريم؟

نتيجة مهمة جدا جدا سنحتاج إليها لاحقا: مادام عيسى بن مريم لا يعرف لسان الناس الذين من حوله فهو إذن يحتاج أن يتعلم الحكمة تعليما.

أما في حالة محمد ، فإن الأمر يختلف بشكل جذري، فقد كان محمد من الناس مادام أنه مر بمراحل خلق الناس جميعا:

- يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ(5)

ومادام أنه قد خلق من ذكر وأنثى:

- يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(13)

فكان ينتمي إلى قوم بأعينهم:

- وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214)

فجاءه الكتاب والحكمة تنزيلا:

- ...وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا(113)

نتيجة مهمة جدا: مادام أن محمدا يتكلم بلسان قومه (أي لغة الناس من حوله) فقد أنزل الله عليه الحكمة تنزيلا.

فكانت مهمة محمد تكمن في أن يعلم من حوله الكتاب والحكمة:

- رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129)كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ(151)
- لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(164)
- هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(2)

فكان محمد يقوم بمهمته تلك (أي تعليم الناس الكتاب والحكمة اللتان أنزلهما الله عليه إنزالا) بلسان قومه:

- فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا(97)
- فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(58)
- عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ(195)

السؤال: ماذا كان يفعل محمد؟

رأينا المفترى الخطير جدا جدا: أن يبين للناس ما نزّل إليهم من ربهم؟

- وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (178)

السؤال وكيف ذلك؟

جواب: بما أنزل الله إليه من الذكر:

- بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ(44)

ليصبح المشهد (كما نفتريه من عند انفسنا) على النحو التالي:
أنزل الله على محمد الكتاب والحكمة (وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)، كانت مهمة محمد تشمل تعليم الناس ذلك (الكتاب والحكمة: وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)، فكان يقوم بذلك خير قيام، وكان أيضا يبيّن لهم ما نزّل إليهم من ربهم (من الكتاب والحكمة)، وكان يبين لهم ذلك بما أنزل الله إليه من الذكر (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)
السؤال: وكيف يمكن أن نفهم المشهد بصورة أكثر وضوحا؟
رأينا المفترى: نزل على محمد الكتاب المبين:

- **الر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ(1)**
- **تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ(2)**
- **تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ(2)**
- **وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2)وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ(2)**

وأنزل الله معه الحكمة (وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)، فكانت مهمته تكمن في أن يعلّم محمدٌ الناسَ ما أُنزل إليهم من ربهم من الكتاب والحكمة (وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)، وأصبحت مهمة محمد هي تبيان ما هو أصلا مبينا (لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ).
السؤال: كيف كان محمد يقوم بذلك؟
رأينا المفترى: كان محمد يقوم بذلك بلسان قومه وليس بالنسخة الأصلية التي نزل بها الكتاب من لدن الله
السؤال: وما هي النسخة الأصلية من الكتاب؟
جواب مفترى: إنها لغة الوحي. فآيات الكتاب مسطورة في الكتاب (نحن نفتري القول من عند أنفسنا) حكما إلهيا كما نظن أن الآيات الكريمة التالية من بداية سورة الشورى تصورها أحسن تصوير:

- **حم (1) عسق (2) كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(3)**

رأينا المفترى: أنها الآيات المحكمة التي لم تفصل حكما عربيا فبقيت في حكمها الإلهي الأزلي:

- **الر ۚ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ(1)**

السؤال الكبير جدا: كيف يرتبط الحكم بالكتاب؟

- **وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ(37)**

السؤال: وكيف يستطيع محمد أن يفهم ما أُنزل إليه من ربه؟
جواب: بما لديه من الحكمة التي أنزلها الله عليه مصاحبة للكتاب:

- **...وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**

نتيجة مفتراة 1: كان محمد يستطيع أن يفهم آيات الكتاب التي أحكمت بما لديه من الحكمة
نتيجة مفتراة 2: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الحكمة هي الأداة اللازمة لفهم آيات الكتاب التي أحكمت

والآن للنظر في السياقات القرآنية الخاصة بالحكمة:

- رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(129)
- كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ(151)
- وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(231)
- فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ(251)
- يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (269)وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ(48)
- لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(164)
- أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا(54)
- وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ۚ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا(113)
- إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ(110)
- ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ(125)
- ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا(39)
- وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ(12)
- وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا(34)
- وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ(20)
- وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ(63)

- هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(2)

نتيجة خطيرة جدا جدا: كان محمد يستطيع تفصيل آيات الكتاب التي أحكمت بما عنده من الحكمة التي أنزلها الله عليه مصاحبة للكتاب، لذا استطاع أن يفصلها (أي يترجمها) قرآنا عربيا بلسان قومه الذي بعث فيهم. لذا نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الْحِكْمَةَ هي الأداة اللازمة لفهم آيات الكتاب المحكمات. فمن يمتلك الحكمة فهو يستطيع أن يفهم آيات الكتاب المحكمات قبل أن يتم تفصيلها بلسان بشري، لتصبح الصورة على النحو التالي:

الكتاب المبين (آيات محكمات) – الحكمة – التفصيل – الذكر - فالتبيان

تبعات هذا الظن

لو تفقدنا الآية الكريمة التالية لوجدنا فيها (نحن نظن) أمرا يدعو إلى الاستغراب على الفور، فلننظر الآية أولا ثم نطرح التساؤل بعد ذلك:

- هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (7)

السؤال: ألم ينزل الكتاب على محمد؟ ألم تكن مهمة محمد تكمن في تفصيل آيات الكتاب المحكمات؟ فهل فصلّ محمد كل آيات الكتاب المحكمات قرآنا عربيا مبينا؟

رأينا المفترى والخطير جدا جدا: كلا، لم يفصل محمد كل آيات الكتاب المحكمات قرآنا عربيا؟

السؤال: فما الذي فصله محمد وما الذي لم يفصله من آيات الكتاب المحكمات؟

رأينا المفترى: لم يفصل محمد الآيات المحكمات اللاتي هن أم الكتاب؟

نتيجة مفتراة 1: فصل محمد آيات الكتاب المحكمات

نتيجة مفتراة 2: لم يفصل محمد آيات الكتاب المحكمات اللاتي هن أم الكتاب

السؤال: ما هي تلك الآيات التي لم تفصل

رأينا المفترى: إنها الآيات التي ظلت محكمة:

- هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ...

السؤال: وما هي تلك الآيات المحكمات؟

رأينا: أنها التي بقيت صياغتها حكما غير عربي، أي التي لم تفصل قرآنا عربيا.

السؤال: وما هي؟

رأينا المفترى: إنها الأحرف المتقطعة في بداية بعض السور وهي:

الم، الر، المص، المر، كهيعص، طه، طس، طسم، يس، ص، حم، عسق، ق، ن

السؤال: أليست هذه آيات من الكتاب الحكيم؟ فما هذه الآيات؟

نتيجة مفتراة: إنها لغة الوحي كما جاءت رسل الله جميعا، وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في الآيات الكريمة التالية مرة أخرى:

- حم (1) عسق (2) كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(3)

فمفردة كَذَٰلِكَ تعود (نحن نظن) على ما سبقها من الكلام وهو (حم (1) عسق (2))، ليكون المعنى كما نفهمه هو: أنه بمثل هذه الكلام (حم (1) عسق) جاء الوحي محمدا كما جاء كل الذين من قبله من رسل الله.

السؤال: ومن يستطيع من أهل اللسان العربي (مهما بلغ من الفصاحة) أن يبيّنها لنا؟

رأينا المفترى: هي هذه الآيات التي لم تفصل قرآنا عربيا وبقيت حكما عربيا، فلا يستطيع من يعرف اللسان العربي (مهما بلغ من الفصاحة) أن يفهم هذه الآيات المحكمة التي لم تفصل قرآنا عربيا، لأن من يستطيع ذلك لابد أن يكون قد أوتي الحكمة.

السؤال: كيف يمكن فهمها؟

رأينا: من أراد أن يفهم هذه الآيات فلابد أن يؤتي الحكم فيها، أي يستطيع أن يفهم لغتها، ومن ثم يستطيع أن يفصلها أي يترجمها، فيكون بذلك قد أوتي الحكمة، أي لابد أن يكون عنده حكما بها أو ببعض منها، ونحن نتجرأ على الظن بأن كل واحدة من هذه الآيات المحكمة هي "حكما" مستقلا بحد ذاتها، لكنها تشكل مجتمعة "الحكم" كله، فالله وحده هو من له الحكم:

- مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(40)
- وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ(67)
- وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ ۖ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(70)
- وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۘ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(88)
- ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ۚ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ(12)

والله هو من يؤتي بعض عباده حكما كإبراهيم وموسى ويوسف ولوطا وغيرهم.

لكن الجدير بالملاحظة أيضا أن الحكم ليس مقصورا على رسل الله، فالله قد آتى بني إسرائيل الحكم:

- وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ(16)

ولكن من كان يستطيع من بني إسرائيل أن يفهم الكتاب (الحكم) فيفصله بلسان القوم منهم؟

رأينا المفترى: لم يكن يستطيع ذلك إلا من كان الله قد آتاه الحكمة كآل إبراهيم مثلا:

- أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا(54)

وأشخاص من مثل داوود:

- فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ(251)
- وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ(20)

ومن هم من مثل لقمان:

- وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ(12)

وكمحمد نفسه:

- وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا(34)

فالله هو من يؤتي من يشاء من عباده الحكمة:

- يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ(269)

دعاء: اللهم أسألك وحدك أن تنفذ أمرك بمشيئتك وإرادتك بأن أكون من عبادك اللذين آتيتهم الحكمة، وأنت أحكم الحاكمين – آمين

عودة على بدء

السؤال ما علاقة هذا كله بقصة يونس التي نحاول جاهدين أن نتدبرها بما أذن الله لنا فيها من علم؟

جواب: نحن نحاول من خلال هذا الطرح (على ركاكته وعلاّته) أن نفهم الحكم الذي كان يملكه صاحب الحوت ولم يصبر له كما تصور ذلك الآية الكريم التي جاءت في سورة القلم خاصة بهذا الرجل الذي ذهب مغاضبا وظن أن لن يقدر عليه:

- فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ(48)

ليكون السؤال الذي حاولنا طرحه في بداية هذا الباب (باب: وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا) هو: ما هو ذلك الحكم الخاص بيونس الذي لم يصبر له كما جاء في السياق القرآني الذي يتحدث عنه في هذه الآية من سورة القلم؟

- فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) القلم

رأينا الخطير جدا جدا: إنه موجود في بداية سورة القلم نفسها؟

السؤال: وما هو؟

جواب مفترى: لنقرأ معا بداية هذه السورة الكريمة، لترى بأم عينك – عزيزي القارئ- ما نطمح إليه من محصّلة هذا النقاش كله:

- ن ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ(1)

السؤال: وأين الحكم في هذه الآية الكريمة؟

رأينا: أنه الحكم الذي لم يفصل قرآنا عربيا؟

السؤال: وما هو؟

جواب مفترى: إنه ن ۚافتراء خطير جدا جدا: نعم إنه ن ۚ فهذه (نحن نفتري القول) آية محكمة (ظلت حكما عربيا) لم تفصل قرآنا عربيا، فبقيت من الآيات المحكمات التي لا يستطيع من كان لسانه عربيا أن يفهمها ما لم يؤتي الحكمة.

دعاء: اللهم أسألك نفاذ مشيئتك بأن تأذن لي الإحاطة بشيء من علمك فيها، إنك أنت الحكيم العليم – آمين

السؤال: من يستطيع أن يفهمهما إذن؟

رأينا: من كان يملك "الحكمة"؟

السؤال: هل أذن الله لأحد من خلقه الإحاطة علما بهذه الآية المحكمة (نۚ)؟ هل ملك أحد حكمها (أي الحكمة التي تبيّنها)؟ أو بكلمات أكثر بساطة نحن نسأل: هل أوتي أحد العلم ب نۚ؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نعم، نحن نظن أن شخصا واحدا قد أوتي العلم فيها: إنه ذو النون نفسه.

السؤال: لماذا سمي يونس بذي النون؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: لأنه هو من كان قد أوتي الحكم بهذه الآية المحكمة من آيات الله اللاتي هنّ أم الكتاب. فسمي بذي النون – نحن نفتري القول- نتيجة الحكم الذي أوتي فيها، فكان يعلم ماهية هذا الآية المحكمة من آيات الله المحكمات.

السؤال: ما معنى أن يكون يونس قد أوتي حكم نۚ؟ فهل هذا شيء كثير؟

رأينا: لو دققنا في الآية الكريمة نفسها لربما خرجنا بالاستنباط المفترى الخطير التالي: نحن نظن أن العلم ب نۚ يوازي (أو ربما يزيد) عن كل ما سطروا بالقلم:

- **نۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ(1)**

كما أنه – لا شك- سابق للقلم وما يسطرون، بدليل أنها سبقته بالترتيب. فلو حاولنا أن نضع ذلك في كفتي ميزان لجاءت نۚ في كفة وجاء وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ في كفة أخرى، ولربما (نحن نظن) رجحت كفت نون.

السؤال: متى حصل له ذلك؟

رأينا: من أجل الإجابة على هذا التساؤل فلابد من طرح التساؤل المثير التالي: لماذا كان يونس يحمل مسميات مختلفة؟

ألم يكن الرجل يسمى بيونس؟

- **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا**
- **وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ(86)**
- **فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ(98)**
- **وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ(139)**

وألم يسمى أيضا بذي النون؟

- **وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(87)**

وألم يُطلق عليه النص القرآني أيضا تسمية صاحب الحوت؟

- **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ(48)**

السؤال: لماذا كل هذه التسميات بحق رجل واحد؟

هذا ما سنبدأ به الجزء القادم من هذه المقالة بحول الله وتوفيق منه، في محاولة منا الإجابة على بقية التساؤلات التي طرحناها في بداية هذا الجزء من المقالة، نعيد التذكير ببعضها، خاصة تلك التي لم تتح لنا الفرصة لتناوله في هذا الجزء، واعدين القارئ الكريم (إن شاء الله) أن نتناولها في الأجزاء القادمة من المقالة نفسها:

⇐ لماذا توجه إلى البحر عندما ذهب مغاضبا؟
⇐ وأين ذلك البحر الذي توجه نحوه؟
⇐ وكيف أبق إلى الفلك المشحون؟
⇐ وما هو ذلك الفلك الذي أبق الرجل إليه؟
⇐ ولماذا أبق إلى فلك المشحون أصلا؟
⇐ ولماذا ساهم هناك؟
⇐ وكيف ساهم؟
⇐ وكيف دُحِض الرجل؟
⇐ وهل كان وحده عندما دُحِض؟
⇐ ومن اللذين دُحِضوا معه؟
⇐ ومن هم اللذين دَحَضوا ذا النون ومن كان معه؟
⇐ الخ

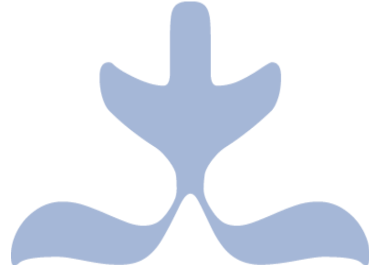
فكان جل ما فعلناه في هذا الجزء هو إبداء رأينا في جزئية واحده تحت باب الحكم الذي آتاه الله ذا النون تتعلق بماهية هذا الحكم، فخلصنا إلى افتراء القول بأن حكم ذي النون هو الذي جاء حاملا صفته تحت أحد الأسماء التي عُرف بها الرجل: إنه ذو النون:

- **وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(87)**

بعد أن ربطنا ذلك بما جاء بالآية الكريمة التالية التي تبين (في رأينا) واحدة من آيات الله المحكمات التي لم تفصل قرآنا عربيا:

- **نٓۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ(1)**

فالله وحده أسأل أن يعلمني الحق الذي أقوله فلا أفتري عليه الكذب، وأن ينفذ مشيئته بالإذن لي الإحاطة بشيء من علمه لا ينبغي لغيري، وهو أحكم الحاكمين – آمين



قصة يونس

الجزء الثامن



قصة يونس: الجزء الثامن

أنهينا الجزء السابق من هذه المقالة بافترائنا الخاص بتسمية يونس بذي النون، فظننا أن الرجل كان عنده الحكم بواحدة من آيات الله المحكمات التي لم يصبر لها وهي آية نۚ التي وردت في بداية سورة القلم في قوله تعالى:

- نۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1)

فكان الرجل يسمى بذي النون لحيازته على حكم نۚ فأصبح الظن عندنا أميل إلى القول بأن الرجل كان على علم علّمه الله إياه من لدنه، ويمكن تشبيه ذلك مبدئيا بما كان عند صاحب موسى الذي جاء موسى يطلب صحبته بعد أن وجد موسى أن هذا الرجل قد آتاه الله رحمة من عنده وعلّمه من لدنه علما:

- **فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا(65)**
- **قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا(66)**

فكان صاحب موسى هذا ممن علّمه الله علما عظيما، فصبر له، إلا أن موسى نفسه لم يكن ليصبر مع الرجل كما جاء على لسان الرجل نفسه موجها خطابه لموسى أكثر من مرة:

- **قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا(67)**
- **قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا(72)**
- **قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا(75)**

ولو حاولنا عقد مقارنة بين الحالتين، لوجدنا أن ما كان يملكه هذا الرجل (أي صاحب موسى) من العلم كان (نحن نفتري القول) علما عظيما، لدرجة أن رسولا من أولي العزم من الرسل كموسى (وهو من كلّمه الله تكليما) لم يكن ليستطيع أن يصبر مع الرجل على ذلك، لتكون النتيجة التي نحاول الوصول إليه أن ذلك علم عظيم لا يقوى عليه إلا من نفذت مشيئة الله له بذلك. فبالرغم أن موسى قد قطع الوعد على نفسه بالصبر:

- **قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا**

إلا أن النتيجة كانت تتمثل بعدم نفاذ مشيئة الله لموسى بالصبر مع الرجل. فكانت النتيجة النهائية طلب الرجل نفسُه من موسى مفارقته:

- **قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا(78)**

نتيجة مفتراة: كان يونس رجلا على علم عظيم، وهو في ظننا العلم بواحدة من آيات المحكمات وهي آية نۚ

ولو راقبنا النص القرآني الخاص بذي النون جيدا، لوجدنا أن الرجل كان يحمل بالإضافة إلى اسمه ذي النون:

- **وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(87)**

مسميات أخرى هي يونس كما جاء في الآيات الكريمة التالية:

- **فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ(98)**

- وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ(139)

وصاحب الحوت كما جاء في قوله تعالى:

- **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ(48)**

لتكون النتائج على النحو التالي:

⇐ كان الرجل يسمى بيونس في قومه، بدليل أن قومه قد نُسبوا إليه بصيغة الإضافة (قَوْمَ يُونُسَ)

⇐ حصل الرجل على علم عظيم من لدن الله، وهو (في ظننا) حكم واحدة من آيات الله المحكمات ن ۚ فأصبح يتميز عن جميع خلق الله بهذه الصفة، فجاءت الإشارة إليه في النص القرآني على أنه ذو النون:

- **وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(87)**

ولو تفقدنا الآية نفسها، لوجدنا أن الرجل قد كان يُسمّى بذي النون قبل أن يذهب مغاضبا، فما ذهب مغاضبا إلا بعد أن أصبح ذا النون (وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا).

⇐ عندما ذهب من عند قومه مغاضبا، كان الرجل غير صابر لحكم ربه ذاك:

- **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ(48)**

⇐ ما أن ذهب ذو النون مغاضبا حتى كان ظنه أنه لن يقدر عليه، ربما (نحن نظن) لما كان يمتلكه من الحكم:

- **وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**

وربما سنرى لاحقا (إن أذن الله لنا بشيء من علمه فيها) كيف يمكن مقارنة ظن الرجل هذا (فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ) بما كان من ظن فرعون عندما طلب من هامان أن يبني له صرحا ليبلغ الأسباب فيطلع إلى إله موسى:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ(37)**

فالله أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يزدني علما، إنه هو العليم الحكيم

⇐ ذهب الرجل متوجها إلى البحر، وكان مغاضبا ظانا أن لن يقدر عليه، فالتقمه الحوت هناك، فأصبح يسمى بصاحب الحوت:

- **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ(48)**

⇐ في تلك الأثناء كان الرجل مكظوما:

- **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ**

باب: مكظوم (إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ)

السؤال: لماذا كان الرجل مكظوما؟ وما معنى أن يكون صاحب الحوت مكظوما؟
رأينا المفترى: نحن نظن أن الرجل كان مكظوما لأنه لم يكظم غيظ قلبه:

- الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(134)

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن مفردة مَكْظُومٌ لها علاقة مباشرة عبارة (الْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ).

ونحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأنه فلا يمكن لمن كان في قلبه غيظ (نحن نفتري القول) أن يشفى صدره منه إلا بالنصر:

- قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (14) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(15)

ولو تفقدنا هذه الآية الكريمة، لوجدنا أنها تصور لنا قتالا بين فئتين (فئة مؤمنة مقابل فئة غير مؤمنة)، وما أن يتم النصر للفئة المؤمنة على الفئة الأخرى حتى يحصل الشفاء لصدور المؤمنين (الفئة الثانية)، وبعد أن يتحقق النصر وشفاء الصدور هناك (فقط) يذهب الله غيظ قلوبهم.

ثانيا، نحن نظن أنه من الجدير بالإشارة إليه في هذا المقام أيضا هو التفريق بين مفردتين قرآنيتين متقاربتين في هذا المجال وهما مفردة مَكْظُومٌ التي وردت في النص القرآني لتصف حالة يونس (صاحب الحوت):

- فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ

ومفردة كَظِيمٌ التي جاءت لتصف حالة يعقوب مثلا:

- وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ(84)

لنفتري الظن من عند أنفسنا أن الفرق بينهما هو في القدرة على كتم الغيظ أو عدمها. فلو استطاع ذو النون أن يكتم غيظ قلبه لكان (نحن نفتري) كظيما كما في حالة يعقوب:

- وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ(84)

أو كما في حالة من بشر بالأنثى مثلا:

- وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (58) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ(58)
- وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (17) أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ(18)

فبالرغم من الحزن الذي أصاب يعقوب، إلا أنه تولى عن من حوله (وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ)، ربما حتى لا تظهر عليه علامات الحزن، وعبر عن أسفه على يوسف (وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ)، فابيضت عيناه من شدة ذلك الحزن (وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ)، فكان نتيجة ذلك كله أن أصبح الرجل كظيما (فَهُوَ كَظِيمٌ). إن ما يهمنا قوله هنا هو أن يعقوب كان (نحن نتخيل) يحاول جاهدا أن يكظم غيظ قلبه. لذا لا نجد أن يعقوب قد اتخذ أي قرار من شأنه أن يلحق الأذى بمن سبب له هذا الحزن، وهم أبناؤه. فصبر على ما أصابه مما قدمت أيديهم جميعا، فصبر على ما هو فيه من البلاء، وتوجه إلى ربه ليشكو إليه وحده بثه وحزنه:

- قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(83)
- قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(86)

وكذلك هي (نحن نظن) حال من بُشِّرَ بالأنثى، فهو يحاول أن يخفي سواد وجهه بالتواري عن القوم (يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ)، وتبقى الحيرة (أي عدم القدرة على اتخاذ قرار واضح) من أهم مميزات كظمه لغيظه أمام الآخرين (أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ)، وتبقى خصومته مع ربه غير بادية. فبالرغم من الأسف الذي في قلبه لما بُشِّرَ به، إلا أنه يحاول ما استطاع إلى ذلك سبيلا أن يبقى ذلك الأسف في داخله فلا يظهره على من حوله، وتبقى مخاصمته لربه غير بادية، فيكون في خصامه غير مبين (وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ). وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في السياق القرآني نفسه مرة أخرى:

- وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (17) أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ(18)

أما من بانت خصومته مع ربه، ولم يكتم غيظ قلبه عن من حوله، فهو - في ظننا- مَكْظُومٌ وليس كَظِيمٌ. فصاحب الحوت كان (نحن نتخيل) معلنا خصومته مع ربه صراحة، فهو من كان قد ذهب مغاضبا، وهو من ظن أن لن يقدر عليه:

- وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(87)

وذلك لأن الرجل ربما لم يكن – برأينا- حزنا آسفا، ولكنه – لا شك- كان مغاضبا. فهناك فرق بين من كان في قلبه بث وحزن (كيعقوب) فيحاول أن لا يعلم به إلا ربه ومن كان غضبان. فيعقوب كان في قلبه بث وحزن لا يستطيع أن يشكوه إلا لله:

- قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(86)

فكان كظيما. وربما كذلك هي حال من بُشّر بالأنثى، فهو لا يستطيع أن يشكو بثه وحزنه إلا لله لأنه يعلم أن من حوله لا يستطيعون أن يساعدوه، وأن الذي يستطيع أن يساعده للخروج من هذا الذي هو فيه هو الله وحده، لذا فإن الخصومة تبقى دفينة (غَيْرُ مُبِينٍ) في القلب يحاول (من كان كظيما) أن يكتمها حتى لا تبد على وجهه، فيعرفها من كان حوله من الناس.

أما من كان مكظوما، فهو – برأينا- الذي كان مغاضبا وليس فقط آسفا، ومادام أنه قد أظهر غضبه ليراه من حوله، فهو إذا لا يشكو بثه وحزنه إلى الله، وإنما قد يشكوه إلى من هم حوله من الناس، ربما ظانا أنه قد يتلقى المساعدة منهم، علّه يجد منهم ما يذهب غيظ قلبه.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن الفرق بين مَكْظُومٌ و كَظِيمٌ هو فرق لغوي له دلالات هائلة في النص القرآن

خروج عن النص في استراحة لغوية قصيرة

حاولنا في واحدة من مقالاتنا السابقة التعرض للفرق اللغوي الظاهر بالرفع والنصب لمفردة (وَالصَّابِؤُونَ وَالصَّابِئِينَ) في الآيات الكريمة التالية:

- **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحًا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(69)**
- **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(62)**
- **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(17)**

فافترينا الظن من عند أنفسنا أن الفرق بينهما قد لا توضحه لنا قواعد اللغة التقليدية التي ورثناها من عند الآباء والأجداد، وذلك لأنه في كل الحالات السابقة جاءت المفردتان كـ أسم لـ إنَّ المشددة (كما يرغب النحويون أن يميّزوها عن غيرها)، لذا من المفترض أن تكون منصوبة كما جاءت في الآيات التالية:

- **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(62)**
- **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(17)**

لكن بالرغم من ذلك، فقد جاءت مرفوعة في الآية التالية:

- **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحًا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(69)**

حينها طرحنا التساؤل المثير التالي: لماذا جاءت مفردة وَالصَّابِؤُونَ مرفوعة في هذه الآية الكريمة بالرغم أنها (من الناحية القواعدية التقليدية) هي اسم لـ إنَّ المشددة؟ ألم يكن من المفترض (إن صحت قواعد الآباء والأجداد) أن ترد منصوبة كما في الآيتين السابقتين؟

وكان الافتراء الخطير الذي قدمناه حينئذ يتلخص بدعوتنا إلى طرح جملة القواعد التقليدية التي وضعها الآباء والأجداد جانبا عند التعرض للتراكيب القرآنية، لأن تلك القواعد هي - برأينا ربما المغلوط - عبء على النص القرآني. لذا ظننا أن النص القرآني ليس كتاب قواعد من صناعة البشر، ولا يجوز بأي حال من الأحوال (نحن نظن) إخضاع النص القرآني للقواعد التي هي من صناعة البشرية، ومن ثم محاكمته بناء عليها. فالنص القرآني صناعة إلهية تخلو من العيب:

- **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا(1)**

بينما القواعد اللغوية ليست أكثر من صناعة بشرية ما أنزل الله بها من سلطان، تندرج في باب المجادلة:

- **قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ(71)**

فهناك (نحن نفتري القول) فرق كبير بين أن يكون القرآن هو ما يحكم القواعد (كما يجب أن تكون عليه الحال) أو أن تكون القواعد هي ما تحكم النص القرآني (كما هو سائد عند سادتنا أهل الدراية). إن ما

يؤسف له هو أن القواعد (التي هي من صناعة البشر) قد أصبحت على مرِّ الأجيال المتعاقبة تحكم النص القرآني. فأصبح التفلت من تلك القواعد أشبه ما يكون بالمستحيل حتى وإن وجد ما يخالفها في النص القرآني. وقد كانت الحيلة التي انطلت على الكثيرين من أبناء العربية وأتباع الديانة الإسلامية هي التخريج لهذه الاختلافات تحت مسميات متعددة كغريب القرآن وغيرها. (للتفصيل انظر مقالاتنا السابقة). والآن انظر عزيزي القارئ – إن شئت- في واحدة من أمهات كتب التفسير عن ما جاء فيها حول حالة الرفع في الآية الكريمة لمفردة:

- **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحًا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(69)**

...قال: ومنه قوله تعالى: " إن الذين آمنوا والذين هادوا «, وقرأ أبو السمال: " هادوا " بفتح الدال. " والذين هادوا " معطوف , وكذا " والصابئون " معطوف على المضمر في " هادوا " في قول الكسائي والأخفش . قال النحاس : سمعت الزجاج يقول : وقد ذكر له قول الأخفش والكسائي : هذا خطأ من جهتين ; إحداهما أن المضمر المرفوع يقبح العطف عليه حتى يؤكد . والجهة الأخرى أن المعطوف شريك المعطوف عليه فيصير المعنى أن الصابئين قد دخلوا في اليهودية وهذا محال , وقال الفراء : إنما جاز الرفع في " والصابئون " لأن " إن " ضعيفة فلا تؤثر إلا في الاسم دون الخبر ; و " الذين " هنا لا يتبين فيه الإعراب فجرى على جهة واحدة الأمران , فجاز رفع الصابئين رجوعا إلى أصل الكلام . قال الزجاج : وسبيل ما يتبين فيه الإعراب وما لا يتبين فيه الإعراب واحد , وقال الخليل وسيبويه : الرفع محمول على التقديم والتأخير ; والتقدير : إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والصابئون والنصارى كذلك , وأنشد سيبويه وهو نظيره : وإلا فاعلموا أنا وأنتم بغاة ما بقينا في شقاق وقال ضابئ البرجمي : فمن يك أمسى بالمدينة رحله فإني وقيار بها لغريب وقيل : " إن " بمعنى " نعم " فالصابئون مرتفع بالابتداء , وحذف الخبر لدلالة الثاني عليه , فالعطف يكون على هذا التقدير بعد تمام الكلام وانقضاء الاسم والخبر , وقال قيس الرقيات : بكر العواذل في الصبا ح يلمنني وألومهنه ويقلن شيب قد علا ك وقد كبرت فقلت إنه قال الأخفش : (إنه) بمعنى (نعم) , وهذه (الهاء) أدخلت للسكت.

أما نحن، فإننا نطالب بدون تردد بقلب الصورة رأسا على عقب. ليصبح النص القرآن هو ما يحكم تلك المسماة بقواعد اللغة، ولا داع للالتفات بأي وسيلة كانت بغية عدم التخلي عن قواعد من صناعة بشرية لا يوافها النص القرآني بأي حال من الأحوال. لذا يجب أن تخضع كل القواعد البشرية للنص القرآني، فما وافق منها النص القرآني أخذناه وما خالف النص القرآني طرحناه أرضا غير مأسوف عليه. لذا يجب علينا أن نتصف بشيء من المرونة فنترك بعض ما ألفيناه من عند الآباء والأجداد خاصة إذا ما وجدنا الدليل القرآني القاطع الذي يكذّبه. فقد تعلمنا (على سبيل المثال فقط) في مدارسنا أن إنَّ المشددة (وأخواتها) مثلا تنصب الأول ويسمى اسمها وترفع الثاني ويسمى خبرها، أليس كذلك؟

ولكن إن سلّمنا بصحة هذا القول البشري (ربما كما يفعل غالبية أهل اللغة وكثير من أهل الدين)، ألن تشكل الآية الكريمة التالية (التي هي قيد الدراسة هنا) تحد صارخ لمثل هذه القواعد البشرية (التي نظن – نحن- أنها مغلوطة)؟

- إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحًا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(69)

ليكون السؤال المبدئي الذي لا انفكاك عن طرحه هو: لماذا جاء اسم إن المشددة مرفوعا في هذه الحالة (وَالصَّابِؤُونَ) مقابل أنه جاء منصوبا في الحالات المتطابقة الأخرى (وَالصَّابِئِينَ)؟ وانظر – إن شئت- في قوله تعالى:

- إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(62)
- إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(17)

رأينا: نحن نظن (مفترين القول) من عند أنفسنا أن جملة هذه الآيات الكريمة تكذّب ما وصَلَنا من قواعد بشرية لا تمت – برأينا (ربما المغلوط)- إلى النص القرآني بصلة. لقد كان الأولى بشيخنا (أستاذ اللغة ومقعِّدُها) أن ينظر في مثل هذا الاختلاف في النص القرآني قبل أن ينطلق لسانه بتلك "الجواهر المزيفة" التي انطلى بريقها على الناس قرونا من الزمن.

لسؤال: ما المخرج؟

رأينا: نحن نظن (ربما مخطئين) أن المخرج من ذلك يكمن في الالتزام بالمبادئ الجوهرية الحقيقة التي لا يجوز التفريط فيها، فمثلا نحن نظن (كما يظن كل أهل العلم) أن كل اختلاف في الشكل يجب أن يكون مدفوعا باختلاف في الدلالة، وإلا لأصبح أي اختلاف في اللفظ غير مبرر، وهذا ما لا يمكن قبوله. لذا، لمّا كان كل اختلاف في اللفظ يحمل معه (نحن نؤمن) اختلافا في الدلالة، فإن السؤال الحتمي هنا هو: ما دلالة هذا الاختلاف (وَالصَّابِؤُونَ مقابل وَالصَّابِئِينَ) في هذه الآيات الكريمة؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الفرق بين الرفع والنصب تكمن في حالة الموصوف، فهم تارة صابِؤُون وهم تارة أخرى صابِئِين.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا: نحن نفتري القول مبدئيا أن هناك الصَّابِؤُونَ وهناك الصَّابِئِينَ، ولابد أن هناك فرق شاسع بين هؤلاء وأولئك بغض النظر عن وجود أو عدم وجود إنَّ (سواء كانت مخففة أو مشددة).

السؤال: ما الفرق بين أن تكون من هؤلاء (الصَّابِئِينَ) أو أن تكون من أولئك (الصَّابِؤُونَ)؟

جواب مفترى: نحن نظن أن هناك نوعان من الذين صبأ- وا:

⇐ فهناك من صبأ اختيارا من نفسه

⇐ وهناك من صبأ إتباعا لغيره

والمنطق نفسه ينطبق (نحن نظن) على اللذين آمنوا والذين هادوا والنصارى. فهناك من آمن بقرار شخصي وهناك من آمن بقرار غير شخصي، وكذلك هناك من هاد بقرار شخصي وهناك من هاد (أي أصبح من الذين هادوا) بقرار غير شخصي، وهناك من تنصّر (أي أصبح من النصارى) بقرار شخصي وهناك من تنصّر بقرار غير شخصي. ولتوضيح الفكرة، دعنا نطلب من القارئ الكريم أن يتخيل - مثلا- الفرق بين إيمان أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم من صحابة النبي الكريم وإيماننا نحن من وجدنا أنفسنا مؤمنين دون قرار فعلّي من أنفسنا. ليكون السؤال هو: ما الفرق بين إيمان أبي بكر وإيماني أنا مثلا؟

رأينا: نحن نظن أن أبا بكر قد آمن بمحض اختيار تام من تلقاء نفسه، فهو من اختار طواعية من تلقاء نفسه ترك دين آباءه وأجداده وآثر أن يتبع الرسول الذي بعث فيهم، فهو إذن من طرح دين آباءه وأجداده وراء ظهره وهو من اتخذ القرار الجريء باللحاق بهذا الدين الجديد. لكن – بالمقابل- لم يكن إيماني (أنا) بنفس الطريقة والمنهج. فما آمنت أنا (بذاك الرسول الذي بعث فينا) إلاّ لأني وجدت آبائي على هذه الأمة. وفي نهاية المطاف كنا جميعا (أبو بكر وأنا وأنت) من الذين آمنوا. لكن هل نحن متساوون في الإيمان؟! من يدري؟!!

والمنطق نفسه ينطبق على إيمان الحواريين مقابل إيمان من جاء بعدهم من النصارى. فالحواريون هم من اتخذ القرار بنصرة الله وإتباع المسيح عيسى بن مريم:

- **فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ(52)**
- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ(14)**

لكن - بالمقابل - تنصّر من جاء بعدهم فقط لأنهم وجدوا آباءهم على تلك الأمة (النصرانية)، وهكذا.

لتكون النتيجة التي نحاول جاهدين أن نصل إليها هي على النحو التالي: من اتخذ قراره بنفسه فهو يتمتع بحالة الفاعل المبادر بالفعل، أي الرفع: الصَّابِؤُونَ، وهو ما يسمى باللسان الأعجمي (the agent or the doer of the action)، أما من وجد نفسه تابعا من سبقه في قراره فهو يتمتع بحالة المفعول) أو الفاعل المتلقي للفعل أو ما يسمى باللسان الأعجمي بـ(the recipient of the action ، لذا فهو يحمل علامة النصب: الصَّابِئِينَ. بغض النظر عن الأداة التي سبقته حتى وإن كانت إنَّ المشددة التي تنصب الأول وترفع الثاني كما ظن أهل الدراية من قبلنا. والأمثلة التي تكذب دعوى أهل اللغة وافرة في كتاب الله. وانظر – إن شئت- في قوله تعالى:

- **إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ(92)**
- **وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ(52)**

فأي نصب وأي رفع يمكن (نحن نسأل) أن يصمد أمام هذه الآيات القرآنية التي تكذِّب دعوى كل أهل اللغة؟ من يدري؟!!

والآن دعنا نعود إلى الآيات الكريمة السابقة لنرى تداعيات هذا الفهم المفترى من عند أنفسنا وكيف يمكن أن يختلف الفهم لكل حالة من الحالات الإعرابية (كالرفع أو النصب)، ولنبدأ بحالة الرفع في الآية الكريمة التالية:

- **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحًا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(69)**

افتراء خطير جدا: نحن نفتري الظن بأن هذه الآية الكريمة تتحدث عن أولئك الفئة من الناس الذين اتخذوا قرارهم بأن يكونوا من "الذين آمنوا أو الذين هادوا أو النصارى أو الصابئون" بأنفسهم، فهم اللذين التحقوا بالركب ولم يكونوا أصلا منه من ذي قبل، وبكلمات أكثر دقة نحن نفتري الظن أنهم هم اللذين بادروا بفعل الإيمان بقرار شخصي منهم. فالذين آمنوا (في هذه الآية الكريمة) لم يكونوا مؤمنين ثم ما لبثوا أن تحولوا

إلى الإيمان بقرار من أنفسهم (كأبي بكر وعمر وعلي وغيرهم من أصحاب محمد)، وكذلك الذين هادوا، وكذلك النصارى (كالحواريين)، وكذلك (نحن نفتري القول) كان الصابئون.

أما الآيات الكريمة التالية التي جاءت بحالة النصب:

- **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(62)**
- **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(17)**

فهي تتحدث – برأينا- عن الذين آمنوا لأنهم وجدوا آباءهم قد التحقوا بركب الإيمان (من مثلنا)، فما كان إيمانهم نتاج قرار خالص من أنفسهم، وكذلك اللذين هادوا وكذلك الصَّابِئِينَ وكذلك النصارى.

ولو حاولنا تدبّر القرآن الكريم لوجدنا فيه عشرات (بل مئات) الأمثلة على مثل ذلك الاختلاف الظاهري الذي يحمل في ثناياه برأينا معاني ودلالات عظيمة. ولتوضيح الفكرة لأهميتها من الناحية التطبيقية، فإننا سنجلب المثال المثير التالي الذي (نحن نظن) يمكن أن ينطبق عليه المنطق نفسه، فهناك اختلاف ظاهر (يستحيل التحايل عليه) في الآية الكريمة التالية:

- **لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا(162)**

فلو راقبنا العطف في هذه الآية الكريمة جيدا، لوجدنا على الفور أن حالة الرفع هي المسيطرة على المعطوف والمعطوف عليه باستثناء حالة واحدة وهي (وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ)، فبالرغم أن كل ما سبقها كان مرفوعا (لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا) وأن كل ما لحقها كان مرفوعا أيضا (وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ) بقيت هي بنفسها منصوبة متوسطة ذلك السياق القرآني. ف لا يستطيع سادتنا العلماء الملتزمون بقواعد الآباء والأجداد (نحن نظن) الخروج من مثل هذا المأزق متعذرين بقضية الاستئناف (التي غالبا ما أقحموها في مثل هذه المواقف)، فالسؤال الذي يجب أن يطرح فورا هو: لماذا؟ أي لماذا جاءت (وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ) منصوبة بالرغم أنها سُبقت بحالة الرفع وأُتبعت بحالة الرفع أيضا؟

جواب: دعنا نبدأ بما وصلنا من عند سادتنا أهل الدرية كما نقله لنا أهل الرواية في تفسير القرطبي مثلا:

- **والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما**

"والمقيمين الصلاة " وقرأ الحسن ومالك بن دينار وجماعة: " والمقيمون " على العطف, وكذا هو في حرف عبد الله, وأما حرف أبي فهو فيه " والمقيمين " كما في المصاحف. واختلف في نصبه على أقوال ستة ; أصحها قول سيبويه بأنه نصب على المدح ; أي وأعني المقيمين ; قال سيبويه : هذا باب ما ينتصب على التعظيم ; ومن ذلك " والمقيمين الصلاة " وأنشد : وكل قوم أطاعوا أمر سيدهم إلا نميرا أطاعت أمر غاويها ويروى (أمر مرشدهم) . الظاعنين ولما يظعنوا أحدا والقائلون لمن دار نخليها وأنشد : لا يبعدن قومي الذين هم سم العداة وآفة الجزر النازلين بكل معترك والطيبون معاقد الأزر قال النحاس : وهذا أصح ما قيل في " المقيمين " . وقال الكسائي : " والمقيمين " معطوف على " ما " . قال النحاس قال الأخفش : وهذا بعيد ; لأن المعنى يكون ويؤمنون بالمقيمين . وحكى محمد بن جرير أنه قيل له : إن المقيمين ههنا الملائكة عليهم السلام ; لدوامهم على الصلاة والتسبيح والاستغفار , واختار هذا القول , وحكى أن النصب على المدح بعيد ; لأن المدح إنما يأتي بعد تمام

الخبر , وخبر الراسخين في " أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما " فلا ينتصب " المقيمين " على المدح . قال النحاس : ومذهب سيبويه في قوله : " والمؤتون " رفع بالابتداء . وقال غيره : هو مرفوع على إضمار مبتدإ ; أي هم المؤتون الزكاة . وقيل : " والمقيمين " عطف على الكاف التي في " قبلك " . أي من قبلك ومن قبل المقيمين . وقيل : " المقيمين " عطف على الكاف التي في " إليك " . وقيل : هو عطف على الهاء والميم , أي منهم ومن المقيمين ; وهذه الأجوبة الثلاثة لا تجوز ; لأن فيها عطف مظهر على مضمر مخفوض . والجواب السادس : ما روي أن عائشة رضي الله عنها سئلت عن هذه الآية وعن قوله : " إن هذان لساحران " [طه : 63] , وقوله : " والصابئون " في [المائدة : 69] , فقالت للسائل : يا ابن أخي الكتاب أخطئوا . وقال أبان بن عثمان : كان الكاتب يملى عليه فيكتب فكتب " لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون " ثم قال له : ما أكتب ؟ فقيل له : اكتب " والمقيمين الصلاة " فمن ثم وقع هذا . قال القشيري : وهذا المسلك باطل ; لأن الذين جمعوا الكتاب كانوا قدوة في اللغة , فلا يظن بهم أنهم يدرجون في القرآن ما لم ينزل . وأصح هذه الأقوال قول سيبويه وهو قول الخليل , وقول الكسائي هو اختيار القفال والطبري , والله أعلم

دقق عزيزي القارئ فيما وصلنا من هذا العلم العظيم من جهابذة أهل الدراية، والأهم بالنسبة لنا هو ملاحظة كيف أن هذه التخريصات– نحن نظن- تربك أكثر مما توضح، فهناك ستة أقوال مختلفة في القضية، ولو أن المقام هو مجال تفنيدها لكتبت في ذلك عشرات الصفحات التي تكذب دعواهم جميعا، لكن المقام يلزمنا التنبيه فقط لأشد خطورة على الإطلاق وهو الجواب السادس (انظر ما وضعنا تحته خط في الاقتباس السابق)، ألا وهو هذا الكذب المفضوح على لسان من روى عن السيدة عائشة في هذا السياق، والذي نعتقد جازمين بأنه - كما روي عنها - ليس إلا زورا وبهتانا. فالسيدة عائشة – في روايتهم هذه- تقول بأن هذه الاختلافات هي من أخطاء الكُتاب (فقالت للسائل : يا ابن أخي الكتاب أخطئوا). لاحظ عزيزي القارئ هذا القول المزعوم جيدا، وتفكر جيدا فيما يمكن أن تؤول إليه الأمور إن صحّت مثل هذه الرواية التي نظن أنها مكذوبة عن السيدة عائشة.

السؤال الذي لا نتردد أن نثيره طالبين الرد من عند أهل العلم (المؤمنون بما في بطون كتبهم العتيقة): هل فعلا أخطأ الكتاب في رسم مفردات الوحي؟ وإذا كان كذلك، فأين بقيت الأخطاء إذن (يا أهل العلم)؟ نحن نصيح بأعلى صوتنا.

السؤال المقابل: إذا كنت تكذب هذه الروايات – يتساءل صاحبنا- فكيف يمكن أن تخرّج لنا هذا الاختلاف الشكلي في مفردة وَالْمُقِيمِينَ التي سبقت بمرفوع ولحقت بمرفوع في الآية الكريمة قيد البحث؟

- **لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا(162)**

وهل عندك رأي سابع يخالف أجوبة أهل العلم الستة التي وردت في ذلك التفسير مثلا؟ لازال صاحبنا يسأل.

منطقنا المفترى من عند أنفسنا: لو رجعنا إلى قواعد اللغة التقليدية، لوجدنا عند أهل الدراية ما يشبه التحايل على الذات (أي الضحك على الذقون)، لأنه لم يجد – نحن نظن- من وضع مثل تلك القواعد "العقيمة" بدّا إلا أن يتحدث هنا وهناك عن بعض الاستثناءات لتلك القواعد التي خطها بيمينه، خاصة عندما وجد نفسه في مواجهة مباشرة مع مثل هذه النصوص القرآنية التي تكذّب دعواه بشكل لا يمكن السكوت عنه.

لكن كان مما يؤسف له حقا هو أنه بدل أن يتخلى عن القواعد التي خطها بيمينه ويحاول أن يبحث من جديد عن قواعد جديدة لا تتعارض مع صريح اللفظ القرآني، أخذته (نحن نفتري القول) العزة بالإثم عندما صدّق بصحة القواعد التي كتبها، فحلف برأس أبيه أن لا يتركها، ولكنّه حاول – في الوقت ذاته- التحايل على نفسه عندما أصبحت كتبه التي سطر فيها تلك القواعد المكذوبة حبلى بالاستثناءات التي يصعب أن تحصى لكثرتها، فانطلقت ألسنتهم بقواعد "ذهنية" تكذّب قواعدهم اللغوية الفاشلة من مثل: لكل قاعدة استثناء، ويحق للشاعر ما لا يحق لغيره، وهكذا.

على أي حال، أنا لا أريد الدخول في جدلية كهذه هنا، فجل ما أجهد نفسي في الوصول إليه هو محاولة تقديم رأيي المفترى من عند نفسي الخاص بمثل هذه الاختلافات الظاهرة في هذه الآية الكريمة مثلا، ثم أترك للقارئ الكريم مهمة المقارنة بين ما نفتريه نحن من عند أنفسنا من جهة وما وجده من "العلم العظيم" من عند الآباء والأجداد في بطون أمهات كتب التفسير من جهة أخرى، ليكون الحكم الفصل بيننا هو سؤال واحد: لماذا جاءت حالة (وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ) منصوبة في وسط الحالات المرفوعة كما هو واضح من صريح اللفظ القرآني؟

- **لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا(162)**

رأينا المفترى: بداية، نحن نظن أن الرسوخ بالعلم لا يتم إلا بقرار من الشخص نفسه، وكذلك هو الأيمان، وكذلك إيتاء الزكاة. لكن إقامة الصلاة – على وجه التحديد- قد لا تكون بقرار محض من الشخص نفسه. فمن المفروض على الشخص أن يقيم الصلاة شاء أم أبى، فأنت لا تستطيع (كمسلم) أن لا تقيم الصلاة لأن الصلاة - كما نص عليها القرآن- كانت على المؤمنين كتابا موقوتا:

- **فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا(103)**

السؤال: كيف كانت الصلاة على المؤمنين كتابا موقوتا؟ وما علاقة هذا بالحركة الإعرابية لمفردة وَالْمُقِيمِينَ التي نحاول أن نجد لها تخريجا منطقيا هنا؟

رأينا المفترى: نحن نؤمن أن كل شخص مطلوب منه إقامة الصلاة خمس مرات في اليوم والليلة، أليس كذلك؟ ولكن هناك أمر يدعو للحيرة في هذا الفعل وهو أن الشارع الكريم قد طلب منا إظهار فعل إقامة الصلاة على الملأ. فلو تأملنا هذه العبادة على وجه التحديد جيدا، لوجدنا على الفور أنها فعل تعبدي مطلوب منا أن نبديه على الملأ ليرى ذلك كل من حولنا بأم أعينهم. فإبداء الصلاة (على وجه التحديد) خير من إخفائها على عكس جميع الأعمال التعبدية الأخرى. فصلاة الرجل في المسجد مثلا خير من صلاته في بيته، وصلاة الرجل في المسجد الجامع خير له من صلاته في مصلى حارته، وصلاة الرجل في المسجد الأقصى خير من صلاة الرجل في مسجد مدينته، وصلاة الرجل في المسجد النبوي خير له من صلاته في مساجد بلده كلها، وصلاة الرجل في المسجد الحرام خير له من صلاته في أي مكان آخر على وجه الأرض.

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى: نحن نظن أن ذلك يكمن في كثرة الشهود وتنوعهم. فكلما كان الشهود على صلاتك أكثر كلما كان أفضل، وكلما تنوع الشهود كان الأجر أكبر. فأكبر تجمع على الأرض وأكبر تنوع في المجتمعين من

المؤمنين يكون في البيت الحرام، لذا فإن الصلاة فيه لا تساويها صلاة في غيره. لذا نحن نتجرأ على تقديم الافتراء التالي: أن الأجر في الصلاة مرتبط بعدد وبنوعية الشاهدين عليها.

كما لا يفوتنا التنبيه هنا إلى أن هذا الظن (ربما) هو ما يجعل الصلاة – على وجه التحديد- كبيرة إلا على الخاشعين، كما جاء في الآية الكريمة التالية:

- **وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ(45)**

ليكون السؤال هو: لماذا الصلاة - على وجه التحديد- كبيرة إلا على الخاشعين؟ أليست هي دقائق معدودة؟ هل الصلاة أكبر من الزكاة أو من الصوم أو الحج، وهكذا؟

جواب مفترى: نعم، هي أكبر من ذلك كله، لأن الصلاة هي كتاب موقوت. انتهى.

السؤال: كيف يمكن فهم ذلك؟

رأينا: لما كان فعل الصلاة يجب أن يبدى للجميع، فإن من الأفضل أن يُصلي الإنسان أمام الناس، وكلما كان الجمع أكبر (كما زعمنا) كان الأجر أعظم، وذلك لأن الشهود أكثر.

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن الشارع قد طلب منا أن نبدي الصلاة حتى يشهدها الناس من حولنا، فأنت تستطيع أن تشهد لمن حولك بالصلاة لكنك لا تستطيع أن تشهد له بإيتاء الزكاة أو بالصيام أو بغيرها.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: لأن الإنسان يستطيع أن يخدع كل من حوله بهذه الأعمال كمّا ونوعا. فأنت لا تستطيع أن تتحقق بأن الشخص (أي شخص) قد قام بإيتاء الزكاة بالكمية المترتبة عليه فعلا، أو أنه قد قام بتوزيعها كما يجب، فذاك فعل متروك لضمائر العباد أنفسهم. أما في حالة الصلاة فإنها (نحن نظن) بمثابة الإقامة الجبرية المفروضة على الإنسان. فأنت مطلوب منك أن تحضر بنفسك لتوقع على السجل خمس مرات في اليوم والليلة، لا بل مطلوب منك أن تسلّم كتابك بنفسك خمس مرات في اليوم والليلة (إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا). فالمحافظ على الصلاة مطلوب منه أداءها في أوقات محددة من اليوم والليلة لا يستطيع أن يترك شيئا منها. ويمكن تشبيه ذلك بمن حَكمتْ عليه المحكمة بالإقامة الجبرية، فأصبح مطلوب منه – مثلا- أن يحضر إلى المركز الأمني ليثبت وجوده في الصباح والمساء. فبالرغم أن الفعل قد لا يتطلب أكثر من دقائق معدودة إلا أن الشخص يتضايق ويتثاقل من ذلك كثيرا، لأنها تصبح مقيّدة لحريته الشخصية.

وكذلك هي الصلاة، تصبح كبيرة إلا على الخاشعين، لأنها كانت على المؤمنين كتابا موقوتا، فلابد حتى لمن ترك فرضا واحدا من الصلاة أن يقضيه إن فاته وقت الصلاة متى ما ذكره على الفور. لذا تصبح الصلاة (بهذا المفهوم المفترى من عند أنفسنا) عبئا ثقيلا، فكانت فعلا كبيرة إلا على الخاشعين. فلا يستطيع الإنسان أن يترك كل ما بيده على الفور ويتفرغ لأداء الصلاة في وقتها (خمس مرات في اليوم والليلة) إلا من كان من الخاشعين:

- **وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ(45)**

نتيجة مفتراة 1: كلما أُظهرت الصلاة أكثر (كالصلاة في المسجد مثلا)، كان الأجر (نحن نظن) أكبر
نتيجة مفتراة 2: كلما أخفيت الأعمال الأخرى (كالصدقة والإيمان وغيرها) كان الأجر (نحن نظن) أكبر.

فإخفاء الصدقات خير من إبدائها بصريح اللفظ القرآني:

- **إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(271)**

لذا، تنقسم جميع الأعمال التي يقوم بها المؤمن إلى قسمين: قسم يستحسن فيه الإظهار وهي الصلاة فقط وقسم آخر يفضل فيه الإخفاء وهي جميع الأعمال الأخرى. فلا أحد يستطيع أن يقرر أنك صائم أو أنك ليست صائما (حتى في شهر رمضان) إلا أنت. فيكفي أن تشهد لنفسك بالصيام. وهكذا هي الزكاة، فلا أحد يستطيع أن يقرر مقدار الزكاة التي يجب أن تخرجها من مالك وكيفية توزيعها على المستحقين إلا أنت بنفسك، وذلك لأن لا أحد يعلم مقدار ما لديك من ثروة مستحق الزكاة فيها إلا أنت نفسك. لذا تستطيع أن تتحايل كما تشاء. وهكذا هو الإيمان، فقد تظهر لمن حولك من الإيمان ما تشاء، لكن الله وحده هو من يعرف حقيقة ما أظهرت وما أخفيت من إيمان:

- **وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مِّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (25) وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ(270)**

وكذلك هي كل الشعائر الأخرى:

- **وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ(270)**

أما الصلاة، فالأمر فيها مختلف بشكل جذري، فأنت لا تستطيع أن تتحايل في تأديتها لأن الشهود عليك من حولك كثيرون:

- **لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا(162)**

فالإنسان مجبور على فعل إقامة الصلاة حتى وإن كان غير راغب فيها، لذا مطلوب منه (لا بل مفروض عليه) أن يصلي شاء أو أبى، وإن ظهر لمن حوله أنه تارك للصلاة (حتى وإن كان غير راغب بها) لزم على كل من حوله أن يسأله وأن يحاسبه عليها. وهذا لا ينطبق في الأفعال الأخرى التي من المفترض بالمؤمن أن يؤديها. فحتى فريضة الحج فهي ملزمة فقط لمن استطاع إلى ذلك سبيلا:

- **فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ(97)**

لكن يبقى السؤال: من يملك أن يقرر أنك تستطيع الحج أو لا تستطيعه؟ لذا يستطيع من كان غير راغب في الحج أن يتعذر بعدم الاستطاعة، وحينها لا يكون لأحد الحق أن يتدخل بالأمر مادام أن الشخص نفسه قد قرر بنفسه عدم استطاعته الحج.

لتكون النتيجة الخطيرة المفتراة من عند أنفسنا على النحو التالي:

⇐ الذي يرسخ بالعلم لا يمكن أن يرسخ فيه وهو غير راغب به (لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ)

⇐ الذي يؤمن بما أنزل إلى محمد وما أنزل من قبله لا يمكن أن يؤمن وهو غير راغب في ذلك (وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ)

⟸ الذي يؤتي الزكاة لا يمكن أن يؤتيها وهو غير راغب في ذلك (وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ)
⟸ الذي يؤمن بالله واليوم الآخر لا يمكن أن يؤمن وهو غير راغب في ذلك (وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ)
⟸ لكن، الذي يقيم الصلاة قد يقيمها وهو غير راغب فيها، مجبور عليها (وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ)

والآن لاحظ – عزيزي القارئ- كيف اختلفت الحركة الإعرابية للمقيمين الصلاة – على وجه التحديد- في الآية الكريمة قيد الدراسة:

- **لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا(162)**

نتيجة مفتراة 1: لمّا كانت الصلاة على المؤمنين كتابا موقوتا، وجب على كل مسلم أن يؤديها في وقتها شاء أم أبى، وللتأكد من ذلك فقد طلب الشارع الكريم منه أن يظهرها ليكون الناس من حوله شهداء عليه بأم أعينهم، لذا كان عليه أن يؤديها في وقتها حتى وإن كان غير راغب في ذلك.

نتيجة مفتراة 2: لمّا كانت الأعمال الأخرى مفضل فيها الإخفاء، فإن المراقب الفعلي للإنسان على القيام بها هو الإنسان نفسه، لذا ليس لأحد الحق أن يراقبه فيها أو أن يشكك في قيام الشخص بها أو عدم قيامه بها. فالإنسان نفسه هو المسئول الوحيد عنها مادام أن إخفائها (كالصدقات) أفضل من إظهارها، ومادام أن التعذر عن القيام بها (كالحج مثلا) منوط بالشخص نفسه.

نتيجة مفتراة خطيرة جدا: نحن نظن أن معظم الأعمال (باستثناء الصلاة) مفضل فيها الإخفاء، أما الصلاة فمفضل فيها الإظهار، فتصبح ملزمة للجميع ليكون الجميع شهداء على بعضهم البعض في هذه الجزئية بالذات.

سؤال ربما يدعو للحيرة: إذا كانت عبارة "وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ" قد وردت في هذه الآية الكريمة بهذه الصيغة، فهل وردت العبارة نفسها في النص القرآني على مساحته بصيغة الرفع "المقيمون للصلاة" في مواطن أخرى؟

جواب: نحن لم نجدها؟

السؤال: لماذا؟

رأينا: لأن إقامة الصلاة إجبارية، شاء من شاء وأبى من أبى. فالإنسان غير مرتبط بإرادة الشخص لأنه مطلوب منه إقامة الصلاة حتى وإن كان غير راغب في ذلك

سؤال ربما يدعو للحيرة: إذا كانت عبارة وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ قد وردت في النص القرآني بصيغة الرفع، فهل نجدها في مواطن أخرى بصيغة النصب (المؤتين الزكاة)؟

جواب: نحن لم نجدها.

السؤال: لماذا؟

رأينا: لأن إيتاء الزكاة فعل إرادي يقوم به الشخص طواعية لا يمكن أن يتم بالإجبار. فالإنسان نفسه هو الفاعل المبادر فيها

سؤال ربما يدعو إلى الحيرة: إذا كانت عبارة (الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) قد وردت بصيغة الرفع، فهل نجدها في مواطن أخرى بصيغة النصب (الراسخين في العلم)؟

جواب: نحن لم نجدها.

السؤال: لماذا؟

رأينا: لأن الرسوخ في العلم هو فعل إرادي يقوم به الشخص طواعية لا يمكن أن يتم بالإجبار.

سؤال ربنا يدعو إلى الحيرة: إذا كانت عبارة (وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ) قد وردت بصيغة الرفع، فهل نجدها في مواطن أخرى بصيغة النصب (المؤمنين بالله)؟

جواب: نحن لم نجدها

السؤال: لماذا؟

رأينا: لأن الإيمان بالله (وليس الإيمان المطلق) هو فعل إرادي يقوم به الشخص طواعية لا يمكن أن يتم بالإجبار. لتكون الصورة الآن – في ظننا- على النحو التالي:

وردت في النص القرآني بصيغة الرفع	لم ترد في النص القرآني بصيغة النصب
الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ الْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ الْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ	

وردت في النص القرآني بصيغة النصب	لم ترد في النص القرآني بصيغة الرفع
الْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ	

السؤال الكبير: هل جاء هذا من قبيل المصادفة؟

جواب: من يدري؟!! اسألوا أهل العربية ومقعّدوها.

عودة على بدء: مكظوم وكظيم

نحن نظن أن واحدة من أهم الفروقات بين الواو(كـ مكظوم) والياء (كـ كظيم) هي حالة الرفع والنصب. فلو لاحظنا الآيات التي وردت فيها مفردة كظيم كما في حالة يعقوب:

- **وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ(84)**

أو كما في حالة من بشر بالأنثى مثلا:

- **وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (58) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ(58)**
- **وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (17) أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ(18)**

لوجدنا أن الشخص لم يكن ليستطيع غير ذلك، فالقرار ليس قراره، وهو مسلوب الإرادة فيما وجد نفسه فيه، فيعقوب وجد نفسه في موقف لا يستطيع أن يعمل شيئا بحق من هم حوله، وهم اللذين كانوا (ربما) سببا في حزنه، فكتم غيظ قلبه، لأنه ببساطة لا يستطيع أن يفعل بأبنائه شيئا يذهب غيظ قلبه. وهكذا هي حال من بشّر بالأنثى، فهو يقف في حيرة من أمره يصعب عليه اتخاذ قرار واضح فيما يفعل، فظل وجهه

مسودا وهو كظيم، فأخذ يتوارى من القوم من سوء ما بشر به، ولكنه لا يستطيع أن يقرر ما يفعله بتلك الأنثى التي بشر بها:

- **وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (58) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ(58)**

ولو كان هؤلاء أصحاب قرار فيما حل فيهم، ولو كانوا يستطيعون أن يفعلوا ما يحلو لهم بما هم من حولهم لما كان أي منهم كظيما، ولأصبح (نحن نفتري الظن) مكظوما، كصاحب الحوت الذي نادى وهو مكظوم.

نتيجة مفتراة: كان صاحب الحوت في تلك الحالة (وَهُوَ مَكْظُومٌ)، أي لم يكظم غيظ قلبه بالرغم أنه كان يستطيع ذلك، وهناك بالضبط حصل نداءه، فنادى (إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ)

السؤال الكبير جدا: على من نادى صاحب الحوت عندما كان مكظوما كما جاء في الآية الكريمة التالية؟

- **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ(48)**

باب: إِذْ نَادَى

لعل الأغلبية الساحقة ممن يقرءون النص القرآني في هذه الآية الكريمة (سواء العامة أو أهل العلم منهم) ربما يظنون أن صاحب الحوت هنا قد نادى ربه، أليس كذلك؟ وانظر – عزيزي القارئ – إن شئت- في ما جاءنا في واحدة من أمهات كتب التفسير، وهو تفسير القرطبي لهذه الآية الكريمة:

فاصبر لحكم ربك

أي لقضاء ربك . والحكم هنا القضاء . وقيل : فاصبر على ما حكم به عليك ربك من تبليغ الرسالة . وقال ابن بحر : فاصبر لنصر ربك . قال قتادة : أي لا تعجل ولا تغاضب فلا بد من نصرك . وقيل : إنه منسوخ بآية السيف.

ولا تكن كصاحب الحوت

يعني يونس عليه السلام . أي لا تكن مثله في الغضب والضجر والعجلة . وقال قتادة : إن الله تعالى يعزي نبيه صلى الله عليه وسلم ويأمره بالصبر ولا يعجل كما عجل صاحب الحوت ; وقد مضى خبره في سورة " يونس , والأنبياء , والصافات " والفرق بين إضافة ذي وصاحب في سورة " يونس " فلا معنى للإعادة.

إذ نادى

أي حين دعا في بطن الحوت فقال : " لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين " [الأنبياء:87].

وهو مكظوم

أي مملوء غما . وقيل : كربا . الأول قول ابن عباس ومجاهد . والثاني قول عطاء وأبي مالك . قال الماوردي : والفرق بينهما أن الغم في القلب , والكرب في الأنفاس . وقيل : مكظوم محبوس . والكظم الحبس ; ومنه قولهم : فلان كظم غيظه , أي حبس غضبه ; قاله ابن بحر . وقيل : إنه المأخوذ بكظمه وهو مجرى النفس ; قاله المبرد . وقد مضى هذا وغيره في " يوسف. "

انتهى

السؤال القوي: هل كان صاحب الحوت مناديا ربه عندما نادى وهو مكظوم؟

رأينا المفترى والخطير جدا جدا: كلا وألف كلا. نحن نظن أن علينا التفريق بين نداء يونس وهو مكظوم كما جاء في الآية الكريمة التالية:

- فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ(48)

ونداءه كما جاء في الآية الكريمة التالية:

- وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(87)

لتكون الصورة في ذهننا على النحو التالي: أطلق يونس نداء- ين اثنين. كان أحدهما وهو مكظوم (إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ)، وكان الآخر في الظلمات (فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ).

السؤال: ما الفرق بين النداءين؟

افتراء خطير جدا 1: نحن نظن أن يونس عندما نادى وهو مكظوم كان ينادي بمن حوله

افتراء خطير جدا 2: نحن نظن أن يونس عندما نادى في الظلمات فقد نادى ربه

الدليل

بداية، لو تفقدنا الآيات الكريمة في سياقها الأوسع لوجدنا أن آية النداء الأول (إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ) قد تبعها السياق ليبين لنا أن يونس كاد أن ينبذ بالعراء وهو مذموم، ولم يمنع حصول ذلك إلا أن الله قد تداركه بنعمة منه:

- فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ(49)

ليكون السؤال المطروح هنا: ما قصة أن يكون يونس مذموما؟

أما إذا ما تفقدنا آية النداء الآخر (فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)، لوجدنا أن هذا النداء على وجه التحديد كان متبوعا بالاستجابة الربانية في الحال:

- وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ(88)

ليكون الافتراء الكبير هو: أن نداء يونس الذي تبعته الاستجابة الربانية هو فقط النداء الذي كان موجها إلى ربه.

ثانيا، أما الدليل اللغوي الذي ربما يصعب المجادلة فيه فيأتي من سياقات النداء الكثيرة في النص القرآني، فدعنا نوردها ثم نتبعها بالتعليق الذي سنفتريه من عندنا:

- فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ(39)
- رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ(193)
- وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ(58)

- فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۖ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ(22)
- وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ(44)
- وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ۚ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ(46)
- وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ(48)
- وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ۚ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ(50)
- وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ(42)
- وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ(45)
- وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا(52)
- إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا(3)
- فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا(24)
- وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا(52)
- وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ(76)
- وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ(83)
- وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(87)
- وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ(89)
- وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(10)
- وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(46)
- وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ(62)
- وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ(65)
- وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ(74)
- وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ(75)
- وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ(104)
- وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ(41)
- وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ(44)

- إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ(47)
- وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ(77)
- إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ(4)
- وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ(41)
- فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ(29)
- يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ(14)
- فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ(21)
- فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ(48)
- إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى(16)

لو تفقدنا صيغة النداء في هذه السياقات القرآنية جميعها لوجدنا أن هناك ثلاثة أركان أساسية وهي:

⇐ المنادي (الفاعل الذي يطلق فعل النداء)

⇐ المنادى (المفعول الذي وجّه إليه النداء فاستقبله)

⇐ فعل النداء

ولو تتبعنا هذه السياقات لوجدنا أن هذه الأركان الثلاثة يجب أن تكون واضحة في السياق ذاته:

- وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(10)

فالمنادي هنا هو رَبُّكَ والمنادى هو مُوسَى وفعل النداء هو أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ.

لكن هناك ملاحظات مهمة نظن أن الإشارة إليها ضرورية في هذا السياق.

أولا، أن النداء يجب أن يكون موجها بشكل خاص، فها هم الملائكة تنادي من كان قائما يصلي بالمحراب (زكريا)، لذا نحن نؤمن باستحالة أن يسمع نداء الملائكة هذا شخص آخر غير زكريا نفسه لأن النداء موجه لـ زكريا فقط:

- فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ(39)

السؤال المثير: هل يمكن أن يكون أحد غير زكريا قد سمع نداء الملائكة هذا؟ من يدري؟!

والمنطق نفسه ينطبق على النداء الإلهي لمن أكل من الشجرة (آدم وزوجه):

- فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۖ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ(22)

السؤال المثير: إذا كان نداء الرب هذا موجها لآدم وزوجه (وَنَادَاهُمَا)، فهل يمكن أن يكون أحد غيرهما قد سمع نداء الله هذا لهما؟ من يدري؟!

وهكذا هو نداء أصحاب الجنة موجها لأصحاب النار:

- وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ(44)

وهكذا هو نداء أصحابُ الأعراف أصحابَ الجنة:

- وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ۚ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ(46)
- وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ(48)

وهكذا هو نداء أصحابُ النار أصحابَ الجنة؟

- وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ۚ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ(50)

وهذا نوح يوجه نداءه لأبنه، فما سمع نداء نوح هذا من البشر أحد غير ابنه:

- وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ(42)

وها هو نوح هنا يوجه نداءه لربه فقط:

- وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ(45)

وها هو زكريا يوجه نداء خفيا لربه:

- إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا(3)

وها هو النداء يأتي مريم من المنادي من تحتها:

- فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا(24)

وهذا النداء ينطلق إلى موسى من جانب الطور:

- وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا(52)
- وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(46)
- وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(10)

وكذلك فعل أيوب، فخص ربه بندائه:

- وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ(83)

وكذلك فعل زكريا:

- وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ(89)

وكذلك فعل أيوب:

- وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ(41)

السؤال المربك: إذا كان نداء الرسل والأنبياء مثلا موجها لا محالة لله، فلِم يأتي النص القرآني محددا أن النداء لله؟ ألم يكن يكفي أن ترد الصيغة على نحو:

- وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ ... رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ(89)
- وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ ... أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ(41)
- وَنَادَىٰ نُوحٌ ... فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ(45)

السؤال: لم جاء النص موضحا المنادى (رَبَّهُ) في كل هذه الحالات؟ ألا ترى عزيزي القارئ أن في صياغة الآية الكريمة التالية على حالها بعض من الزيادة اللفظية غير المرغوب بها (لو أننا سلمنا بصحة ما تلقيناه من تعليم في مدارسنا عن الإيجاز في اللفظ)؟

- **وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ(89)**

فلم تكون الصيغة على نحو (إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ)؟ ألم يكن يكفيه أن يقول (إِذْ نَادَىٰ ... رَبِّ لَا تَذَرْنِي) أو أن يقول (إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ... لَا تَذَرْنِي)؟

رأينا المفترى: نحن نظن أنه عندما يبيّن النص القرآني أن النداء موجها لشخص بعينه، فهذا يعني أن من سمع النداء هو ذلك الشخص فقط، قارن ما جاء في الآيات التالية:

- **وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ(76)**
- **وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ(45)**

فلو تدبرنا الآية الكريمة الأولى، لوجدنا أن فعل النداء جاء على صيغة المفرد (نَادَىٰ)، وذلك لأن نوح هو من كان ينادي، ولكن الملفت للانتباه أن فعل الاستجابة قد جاء بصيغة الجمع (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ)، أليس كذلك؟ ولو دققنا - عزيزي القارئ- في السياق نفسه، لوجدنا أن السياق يخلو من مفردة رَّبَّهُ؟

السؤال: لماذا؟

رأينا: لأن نداء نوح وإن كان موجها لله، إلا أنه لم يكن خاصا بالله وحده مادام أنه قد سمعه آخرون بالإضافة إلى الله

أما بالنسبة لنداء نوح ربه الذي جاء خاصا بابنه (وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي) الذي جاء في الآية الأخرى، فقد كان موجها نوحٌ نداءَه لربه وحده، خاصا بربه به، فما سمعه غيره، فكان الجواب مباشرا من الله بصيغة المفرد، فلم يتدخل الآخرون فيه. وانظر – عزيزي القارئ- في الآية نفسها في سياقها الأوسع، لترى بأم عينك كيف جرى الخطاب بين نوح من جهة وربه من جهة أخرى بصيغة المتكلم المفرد:

- **وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (45) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (46) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ(47)**

ثم لاحظ - عزيزي القاري- كيف تغيّر الخطاب بعد ذلك من الفعل المباشر "قَالَ" إلى الفعل غير المباشر قِيلَ في الآية التي تلت هذا السياق عندما انتهى فعل النداء من نوح والاستجابة من ربه:

- **قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ(48)**

فبعد أن كان الخطاب خاصا، يجري بصيغة المفرد المعلوم (نوح من جهة وربه من جهة أخرى) تحوّل الخطاب على الفور مع نهاية هذا النداء، ليتدخل آخرون في فعل الطلب من نوح (قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ) بالهبوط بسلام (اهْبِطْ بِسَلاَمٍ) بصيغة الجمع (مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ).

ولتأكيد الفكرة، دعنا نعقد مقارنة بين الآيات الكريمة التالية حيث يرد فعل النداء بصيغة الجمع (نَادَيْنَا) موجها إلى مفرد (موسى):

- وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا(52)
- وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(46)

مقابل فعل النداء الذي جاء بصيغة المفرد (نَادَىٰ) من رَبُّكَ إلى مُوسَى مباشرة:

- وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(10)

السؤال: لماذا هذا الاختلاف؟

رأينا: نحن نظن أنه على الرغم أن النداء في جميع هذه الحالات كان موجها لموسى، إلا أن المنادي في الآيات الأولى كان أكثر من شخص (وَنَادَيْنَاهُ)، أما المنادي في الآية الأخرى فهو ربك نفسه (وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ)، ولو حاولنا مقارنة ذلك بما كان لإبراهيم لوجدنا أن الصيغة كانت على الدوام بصيغة الجمع:

- وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ(104)

السؤال: لماذا؟

رأينا: لأن النداء من الله لإبراهيم لم يحصل مباشرة كما حصل في حالة موسى. فبالرغم أنه تم نداء موسى وتم نداء إبراهيم ، إلا أننا نعلم جميعا أن موسى هو الشخص الوحيد الذي حصل كلام مباشر بينه وبين ربه:

- وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا(164)

عودة على بدء

إذا كان هذا صحيح (كما تظن)، فما الذي نستفيده بخصوص قصة نداء ذي النون؟ يسأل صاحبنا.

رأينا: لقد افترينا الظن بأن ذا النون قد أطلق نداءين:

1. نداء لكل من هم حوله ويمكن لهم أن يلبّوا دعوته، وهذا ما تصوره الآية الكريمة التالية (كما نفهمها) أحسن تصوير:

- فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ(48)

ونحن نفتري الظن بأنه لو كان نداء صاحب الحوت هذا موجها لله لجاء على النحو التالي:

فاصبر لحكم ربك ولا تك كصاحب الحوت إذ نادى ربه وهو مكظوم

2. نداء موجها لله لينقذه مما هو فيه من الكرب:

- وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(87)

السؤال: لماذا جاء النداء الآخر لربه بالرغم أن النداء لا يحمل في ثناياه مفردة ربه؟

جواب: نحن نظن أنه بالرغم أن نداء يونس هذا كان موجها إلى ربه بدليل الاستجابة الربانية المباشرة، إلا أن ذا النون كان يقصد أن يسمع نداءه هذا كل من حوله.

لتكون صورة النداء على النحو التالي:

⇐ المنادي يوجه نداء مباشرا إلى المنادي فلا يسمعه غيره كما في الأمثلة التالية، وهنا يجب أن يذكر المنادى صراحة:

- فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ(39)

- فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۖ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ(22)
- وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ(44)
- وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ۚ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ(46)
- وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ(48)
- وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ۚ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ(50)
- وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ(42)
- وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ(45)
- وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا(52)
- إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا(3)
- فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا(24)
- وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا(52)
- وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ(83)
- وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ(89)
- وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(10)
- وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ(62)
- وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ(65)
- وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ(74)
- وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ(75)
- وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ(104)
- وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ(41)
- وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ(44)
- إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ(47)
- وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ(77)
- إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ(4)
- فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ(29)

- يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ(14)
- فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ(21)
- إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى(16)
- وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ(51)

⇐ المنادي يوجه نداء إلى شخص محدد ولكن يريد أن يسمعه الآخرون بالإضافة إلى الشخص المنادى الموجه إليه النداء، فلا يُذكر المنادى صراحة ولكن الرسالة تبين أنه هو المقصود بالنداء كما في الأمثلة التالية:

- وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ(76)
- وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(87)
- وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(46)
- وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ(41)

⇐ المنادي يوجه نداء عاما، فلا يحدد المنادى الذي سيلبى دعوته، ولكنه يظن أنه سيلبيها كل من يسمع نداءه ويكون مقتنعا بها، كما في الأمثلة التالية:

- فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ(48)
- فَحَشَرَ فَنَادَىٰ(23)

والآن لو تفقدنا صيغة النداء الأخيرة هذه، وهي (كما نفتريها) صيغة النداء العام، لما وجدنا أنها قد وردت في النص القرآني على مساحته إلا في موقفين اثنين، وهما:

(1)نداء ذي النون عندما نادى وهو مكظوم:

- فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ(48)

(2)نداء فرعون عندما حشر فنادى:

- فَحَشَرَ فَنَادَىٰ(23)

السؤال: لماذا؟ أي لماذا جاءت صيغة النداء في هذين الموقفين على وجه الخصوص، تخلو من تخصيص للشخص (أو المجوعة) المنادى عليه (أو عليهم)؟ فلماذا لم يذكر النص القرآني من هو المنادى عليه أو من هم المنادى عليهم في حالة صاحب الحوت عندما نادى وهو مكظوم:

- فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ(48)

ولماذا (نحن نتساءل) لم يحدد النص القرآني المنادى عليه أو عليهم في حالة فرعون؟

- فَحَشَرَ فَنَادَىٰ(23)

منطقنا المفترى: نحن نظن أن النداء في هاتين الحالتين كان نداء عاما، المراد منه أن يسمعه كل من يستطيع تلبيته، وذلك لقناعته به. فعندما يتم المناداة إلى الصلاة، فإن الذي يلبي نداء الصلاة هو من ظن بأنه

مشمول بالنداء، وأن عليه واجب تلبية ذلك النداء. فهناك الكثيرون الذين قد يسمعون نداء الصلاة ولكنهم لا يلبوا النداء، بل على العكس فهم قد اتخذوها هزوا ولعبا:

- **وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ(58)**

نتيجة مفتراة: عندما ينطلق فعل النداء العام، ولا يخصص به شخص بعينه أو مجموعة محددة، فإن تلبية النداء لا تتم إلا من ظن أن النداء موجه له، وأن عليه واجب تلبيته.

السؤال: من اللذين كان من المفترض بهم أن يلبوا نداء ذي النون؟

- **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ(48)**

جواب مفترى: أنهم قومه

السؤال: ومن اللذين كان من المفترض بهم أن يلبوا نداء فرعون؟

- **فَحَشَرَ فَنَادَىٰ(23)**

رأينا: أنهم قومه.

السؤال: لماذا؟

رأينا: عندما يصبح الإنسان مكظوما، فإن ذلك لا يحصل إلا عندما يظن الشخص أنه قد تم الاعتداء عليه، وفي هذه الحالة قد يصيب الغيظ قلبه خاصة إذا ما وجد أنه الطرف المعتدى عليه، وعندها قد يظن أن عليه أن يدافع عن نفسه، ولا يمكن أن يشف صدره ويذهب غيظ قلبه إلا بتحقيق النصر على من سبّب له هذا الغيظ. وإذا لم يستطع هذا الشخص أن يكتم غيظ قلبه، فإنه لا شك سينادى بكل من حوله، القادرين على نصرته، المؤمنين بحقه بالدفاع عن نفسه. لينصروه على من ظن أنه قد اعتدى عليه وسبب له الغيظ، كما نفهم ذلك من الآية الكريمة التالية:

- **قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (14) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْۗ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(15)**

السؤال كيف حصل ذلك في حالة ذي النون؟

للإجابة على هذا التساؤل، دعنا نطرح السؤال نفسه ولكن في حالة فرعون، وذلك لأن السيناريوهات القرآنية بحق فرعون كثيرة: فكيف إذن حصل ذلك في حالة فرعون؟

جواب مفترى: نحن نعتقد أنه ما أن جاء فرعون الرسولان، حتى كانت ردة فعله هي التكذيب، فما كان منه إلا أن يطلق نداءه الأول في قومه، فجاء على الصيغة التالية:

- **وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِيۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ(51)**

ولكن ما تمت المواجهة الحقيقية بين الطرفين حتى أظهر فرعون صراحة حنقه من موسى ومن معه، وجاء ذلك واضحا في رسالته التي بعثها في المدائن، طالبا فيها حضور السحرة:

- **فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (53) إِنَّ هَؤُلَاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (54) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ(55)**

نتيجة مفتراة: في هذه اللحظة (نحن نتخيل) ملأ الغيظ قلب فرعون من دعوة موسى وأخيه هارون

لتتم المواجهة الحقيقية بين الطرفين بعد ذلك، ولو تمت الغلبة للسحرة، لكان في ذلك – لا شك- ذهاب غيظ قلب فرعون. ولكن لما كانت النتيجة عكسية، وتمت هزيمة فرعون ومن معه على الملأ، لم يتبق لفرعون إلا دعوة واحدة وهو أن يحشر فينادى:

- **فَحَشَرَ فَنَادَىٰ(23)**

السؤال: لماذا حشر فنادى؟ وعلى من نادى فرعون؟

رأينا: لو تدبرنا هذه الآية الكريمة جيدا في سياقها الأوسع لوجدنا أنها تصور هزيمة فرعون النهائية بالتدخل الإلهي المباشر:

- **فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى(25)**

ليكون الافتراء الذي نحاول جاهدين الوصول إليه هو: أن فرعون قد أطلق نداء عاما لنصرته عسكريا ضد موسى ومن معه. وما لبى نداء فرعون هذا إلا من كان مؤمنا بدعوى فرعون.

السؤال: ومن اللذين سيلبون دعوة فرعون هذه؟

رأينا: إنهم المتضررون من انتصار موسى ومن معه؟

السؤال: ومن هم؟

جواب مفترى: إنهم قوم فرعون (وقليل من بني إسرائيل) اللذين ناصروا فرعون بالرغم من ثبات صدق دعوة موسى بالآيات التي قدمها لهم.

السؤال: لماذا لبى غالبية قوم فرعون نداء فرعون هذا؟

رأينا المفترى: إنها العصبية العمياء. إنها دعوى الجاهلية، إنها دعوى نصرة الدم بغض النظر عن السبب.

تخيلات مفتراة: عندما يجد أي شخص نفسه في موقف الضعف، ويجد أنه لا محالة مغلوب على أمره، فإن واحدة من وسائل الدفاع عن النفس تكمن في إطلاق دعوى الجاهلية، لينصره من هم من قومه على عدوه بغض النظر عن سبب الخلاف. فغالبا ما تجد الناس يصطفون في فريقين ليس إتباعا للحق وإنما معاداة للطرف الآخر. فقوم فرعون مثلا اصطفوا في فريق فرعون ليس لأنهم مقتنعون بصدق دعوى فرعون ولكن لأن نصرة فرعون (هم يظنون) واجب عليهم برابط الدم بينهم. فمعاداة بني إسرائيل هي بالنسبة لهم أكثر أهمية من أي سبب آخر حتى وإن كانت دعوة الحق على لسان نبيين كريمين مثل موسى وأخيه هارون.

افتراء خطير جدا: نحن نفتري الظن بأن الآية الكريمة التالية الخاصة بنداء فرعون:

- **فَحَشَرَ فَنَادَىٰ(23)**

تصوّر لنا (كما نفهمها) نداء فرعون للنفير العام ضد موسى ومن معه. ولما لم يحدد فرعون المنادى عليهم، لم يلبى ذلك النداء (نحن نؤمن) إلا من ظن أن من واجبه نصرة فرعون بغض النظر عن السبب الذي خرج من أجله. ونحن نظن أنه لا يلبي مثل هذا النداء العام إلا من كان مؤمنا بدعوى الجاهلية.

السؤال: كيف يمكن أن نتصور ما حصل في حالة صاحب الحوت؟

رأينا: عندما وجد يونس أنه لا يستطيع أن يكظم غيظ قلبه ، ظن أنه لا محالة مغلوب على أمره إن بقي صامتا لا يحرك ساكنا، فأصبح الرجل مكظوما(وَهُوَ مَكْظُومٌ)، ولما وجد نفسه في هذه الحالة، لم يجد بدا

من أن ينادى (إِذْ نَادَىٰ). فأطلق نداء عاما عندما كان في تلك الحالة من عدم كظم غيظ قلبه (إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ):

- فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ(48)

متوقعا أن يلبي نداءه هذا كل من يسمعه ويظن أن النداء يعنيه وأن عليه واجب النصرة ، فخرج لينصر يونس نفر من قومه، ليس إيمانا بوجاهة دعوى يونس حينئذ، وإنما من باب النصرة للدم (القوم). فلحق بيونس نفر من قومه، وكان هدفهم مطاردة عدوهم، وهو – كما زعمنا سابقا- ذلك النبي الذي بعث فيهم. وهو ما أثار غضب يونس، فكان مغاضبا عندما ذهب وظن أن لن يقدر عليه:

- وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(87)

فتوجهوا جميعا إلى البحر، فحصلت المواجهة بين يونس ومن معه من جهة ضد خصمهم وهو (نحن نظن) ذلك الرسول ومن آمن بدعوته من جهة أخرى هناك في البحر، ويمكن تشبيه ذلك بالمواجهة التي حصلت بين فرعون وقومه من جهة ضد موسى ومن معه من جهة أخرى.

الدليل

نحن نظن أن الدليل على أن نفرا من قوم يونس قد خرجوا معه لنصرته متوافر في الآية الكريمة التالية:

- فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (141)

السؤال: إذا كان يونس هو من ساهم، فلم لم يكن مدحضا؟ لم لم يأتي النص القرآني على نحو:

فساهم فكان مدحضا

التساؤل المثير: لم كان من المدحضين؟ فمن هم اللذين دحضوا معه؟ وكم كان عددهم؟ ومن أين جاءوا؟

ثانيا، لو تفقدنا السياق القرآني لوجدنا أنه بالرغم أنه يونس نفسه كان من المدحضين إلا أنه هو الوحيد الذي التقمه الحوت. وانظر -عزيزي القارئ – إن شئت- في النص القرآني في سياقه الأوسع:

- فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (141) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ(142)

نتيجة مفتراة: كان هناك مدحوضين كثير، ولكن كان من بينهم جميعا شخص واحد هو من التقمه الحوت، وهو نفسه الذي حصلت له النجاة:

- فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنْ الْمُدْحَضِينَ (141) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (142) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (144) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (145) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (146) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ(147)

ولو حاولنا مقارنة ذلك بما حصل لفرعون في مواجهته لموسى ومن معه، لوجدنا أنه على الرغم من أن الغرق قد أصابهم جميعا:

- فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا(103)

إلا أن شخصا واحدا من بينهم هو من حصلت له النجاة ببدنه:

- فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ(92)

نتيجة مفتراة 1: كان يونس هو من نجا من بين كل المدحضين معه
نتيجة مفتراة 2: كان فرعون هو من نجا من بين كل المغرقين معه

تخيلات من عند أنفسنا: نحن نتخيل أن الذي حصل مع صاحب الحوت كان مشابها تماما لما حصل مع فرعون، فكلاهما وجد نفسه في مواجهة مباشرة مع الرسول الذي بعث فيهم، ولما يستطيعا أن يكتما غيظ قلوبهم، بعد أن خسروا المعركة الفكرية مع خصمهم، كان الملجأ الأخير لهما هو الدعوة إلى المواجهة القتالية، علها تشف صورهم وتذهب غيظ قلوبهم إن هم انتصروا فيها، وهنا بالضبط كان كل واحد منهما مكظوما، فأطلق النداء، فكان نداء للنفير العام غير محدد من المنادى عليه أو عليهم، موجها لكل من يستطيع نصرتهما على عدوهما. ونحن نفتري القول بأنه ما لبى ذلك النداء إلا من آمن بدعوى الجاهلية. فخرج لنصرة ذي النون (كما خرج لنصرة فرعون) نفر من قومه ليس إيمانا بحقه في المواجهة ولكن نصرة لرابط الدم بينهم. وكذلك (نحن نتخيل) حصل الأمر في حالة نداء فرعون، فعندما أطلق فرعون نداءه العام، لبى دعوته نفر من قومه للحاق بموسى ومن معه، ولا أظن أن من كان في صف فرعون حينئذ كان مؤمنا بأن فرعون على حق، ولكن كان خارجا لينصر فرعون كراهةً بـ بني إسرائيل، فكان المنطلق قومي بحت، مرتبط بدعوى الجاهلية. انتهى.

عودة على بدء:

- فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ(48)

السؤال: كيف نفهم هذه الآية الكريمة حيث الخطاب موجه فيها إلى شخص النبي الكريم تحثه على الصبر لحكم ربه وأن لا يكون في ذلك كصاحب الحوت عندما نادى وهو مكظوم؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا ربما هي غير مسبوقة: نحن نظن أن هذه الآية الكريمة قد نزلت على النبي الكريم في مكة. ونفتري الظن من عند أنفسنا أنها قد نزلت عليه في وقت كان محمد في أشد الحاجة لمن ينصره وينصر دعوته، كما نفتري الظن بأنها نزلت على النبي الكريم في أشد أوقات الضعف التي مرت بها رسالته، عندما تكالبت عليه قريش كلها. ونحن نتخيل أن ذلك قد تم قبيل ما تسميه كتب السيرة بالمقاطعة التي حصلت للنبي ومن معه في شعب بني طالب. حيث وجد النبي الكريم نفسه مقاطعا من كل من هم من حوله. كما وجد نفسه ضعيفا مغلوبا على أمره، فما الذي يمكن لمحمد أن يفعله في مثل هذه الظروف الصعبة؟

جواب مفترى: لا شك عندنا أن النبي الكريم قد تدارس الوضع مع من حوله، وحاول أن يجنب نفسه واللذين أمنوا معه أذى المتآمرين عليه وعلى دعوته، ولكن كيف له أن يفعل ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن واحدة من السيناريوهات التي طرقت حينئذ، وربما وجدت في البداية بعض القبول عند محمد تمثلت (نحن نتخيل) في إطلاق النداء العام، أي أن ينادي محمد.

السؤال: ما معنى أن يطلق محمد نداء عاما؟ أو ما معنى أن ينادي محمد؟

رأينا: نحن نظن أن ذلك يعني أن يطلق محمد نداء بالنصرة فيمن حوله، ولو فعل محمد ذلك لوجد النصرة في كثير ممن هم حوله خاصة قومه، وهم بنو هاشم، ولا شك أن ملبي الدعوة من بني هاشم سيلبي نداء محمد ليس قناعة برسالة محمد ولكن بالواجب المفروض عليه (كما يفهمه) بدعوى الجاهلية، أي رابط الدم مع محمد. فليس من الطبيعي أن يطلق محمد نداء الاستغاثة بقومه فلا يلبي أحد منهم ذلك النداء، فلا يجب أن ننسى أن ذلك مجتمع قبلي تحكمه روابط الدم أكثر من أي رابط آخر.

السؤال: ما الذي كان من الممكن أن يحدث لو أطلق محمد نداءه العام، أي لو أن محمد نادى؟

رأينا: لهب بنو هاشم لنصرة محمد على الفور.

السؤال: وما المانع أن يفعل محمد ذلك؟

رأينا: لو فعل محمد ذلك لكان أول من يدافع عن محمد عمه أبو لهب، وهو العدو اللدود لدعوة محمد.

السؤال: ما الذي حصل إذن؟

تخيلات مفتراة: ما أن وصل الأمر بمحمد درجة أن "يكاد" أن يكون مكظوما من الأذى الذي لحق به وبمن معه ممن هم حوله حتى تبادر إلى ذهن محمد (ربما بمشورة ممن هم حوله) أن يلجأ إلى هذا الخيار: أي أن يطلق نداءه العام بالنصرة. وفي هذه اللحظة (نحن لا زلنا نتخيل) جاءه الوحي الإلهي بالتوقف على الفور وبأن لا يفعل ذلك، فرُتلت الآية الكريمة التالية على سمعه:

- **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ(48)**

ويكأن الله (نحن نفتري القول من عند أنفسنا) يأمر نبيه بالصبر، وأن يتوقف عن جعل الأمر عشائري قومي بحت. فالله يأمر نبيه (نحن نفتري القول) بأن نصرة هذا الدين لا تكون بدعوى الجاهلية، وأنك يا محمد يجب أن تصبر على هذا الأذى لأن الله يريد أن يمحّص قلوب عباده ليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا حتى وإن كانوا من بني هاشم اللذين يمكن أن ينصروك بدعوى الجاهلية:

- **وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (166) وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوِ ادْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ(167)**

فلربما كانت الرسالة الإلهية – كما نفهمها- على نحو أنه قد ينصرك (يا محمد) نفر من قومك، لكن ذلك لن يكون من باب الإيمان، وإنما من باب النفاق، وهذا ما لا نريده. لذا لا تطلق النداء العام وعليك أن تصبر لحكم ربك حتى وإن كدت أن تكون مكظوما:

- **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ(48)**

والله أعلم

فالله وحده أسأل أن يعلمني الحق الذي أقوله فلا أفتري عليه الكذب، وأن ينفذ مشيئته بالإذن لي الإحاطة بشيء من علمه لا ينبغي لغيري، وهو أحكم الحاكمين – آمين



قصة يونس

الجزء التاسع



قصة يونس: الجزء التاسع

بعد محاولتنا مناقشة التساؤلات التالية:

⇐ كيف دُحِض الرجل؟

⇐ وهل كان وحده عندما دُحِض؟

⇐ ومن اللذين دُحِضوا معه؟

⇐ ومن هم اللذين دَحَضوا ذا النون ومن كان معه؟

افترينا القول في الجزء الثامن من هذه المقالة أن ذا النون لم يكن وحيدا في مواجهته مع خصمه، وحاولنا استنباط ذلك من الآية الكريمة التالية:

- فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ(141)

وكانت النتيجة التي حاولنا تسويقها حينئذ هي أن ذا النون قد وجد نفسه في مواجهة مباشرة مع خصمه، فما أن خسر المعركة الفكرية معه (كما حصل مع فرعون في مواجهته لموسى) حتى أصبح مكظوما، وهناك لم يتبقى لديه وسيلة للمواجهة غير المناداة، فنادى الرجل وهو مكظوم:

- فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ(48)

فظننا أنه قد خرج مناديا مَنْ حوله، طالبا النصرة منهم على خصمه، وافترينا الظن بأنه لم يلبى نداء ذي النون ذاك إلا من وجد أن النداء يخصه، وأن عليه واجب النصرة.فذهب ذو النون (مع من لبى نداءه) متجها نحو البحر، ويمكن تشبيه ذلك بما فعل فرعون عندما خرج مطاردا موسى ومن معه، وهناك عند البحر حصلت المواجهة العسكرية بين الطرفين (للتفصيل انظر الجزء السابق)

فما الذي حصل بعد ذلك؟

هذا ما سنتابع البحث عنه في هذا الجزء الجديد من هذه المقالة، مبتدئين النقاش بالخوض في بقية التساؤلات التي طرحناها في الأجزاء السابقة الخاصة بقصة ذي النون (صاحب الحوت)، نذكر منها مرة أخرى:

⇐ لماذا سُمِّي يونس بصاحب الحوت؟

⇐ لماذا توجه إلى البحر عندما ذهب مغاضبا أصلا؟

⇐ لماذا لم يذهب إلى مكان آخر غير البحر؟

⇐ وأين ذلك البحر الذي ذهب نحوه؟

⇐ وكيف أبق إلى الفلك المشحون؟

⇐ وما هو ذلك الفلك الذي أبق الرجل إليه؟

⇐ ولماذا أبق إلى فلك المشحون أصلا؟

⇐ ولماذا ساهم هناك؟

⇐ وكيف ساهم؟

⇐ الخ

أما بعد،

ما أن التقم يونسَ (ذا النون) الحوتُ حتى أصبح الرجل يسمى بصاحب الحوت، فتسميته بصاحب الحوت لها (نحن نظن) علاقة مباشرة بذلك الحوت الذي التقمه:

- فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ(142)

الفصل الأول: باب الحوت

تساؤلات

⇐ ما معنى أن يونس هو صاحب الحوت؟
⇐ أو لماذا سُمِّي يونس بصاحب الحوت؟
⇐ وما هو ذلك الحوت الذي التقم يونس؟
⇐ ولماذا التقمه الحوت؟
⇐ وأين التقمه؟
⇐ وكيف التقمه؟
⇐ هل استقر يونس في بطن الحوت؟
⇐ لماذا أُخرج من بطن الحوت؟
⇐ لِم لم ينجيه ربه دون الحاجة أن يلتقمه الحوت؟
⇐ وكيف أخرج من بطن الحوت؟
⇐ وكم مكث في بطنه؟
⇐ وأين هو ذلك الحوت؟
⇐ الخ

أما بعد،

بداية، إذا كنا نعلم أن الرجل قد أصبح يسمى بصاحب الحوت لأنه دخل في الحوت بعضا من الوقت، ربما كما دخل أصحاب السفينة في سفينتهم:

- فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ(15)

أو كما يدخل أصحاب القرية في قريتهم:

- وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ(13)

فالسؤال البديهي – بالنسبة لنا- هو: ما معنى أن يكون يونس صاحب الحوت؟

رأينا المفترى: نحن نظن أولا أن الصاحب هو الذي يعاصر صاحبه فترة محدودة من الزمن، شريطة أن لا يكون ذلك على الدوام. فأصحاب السفينة – مثلا- لم يمكثوا فيها طيلة حياتهم، ولكنها كانت الأداة التي أقلتهم فترة من الزمن حتى النجاة من الطوفان.

أصحاب السفينة

كما نفتري الظن أيضا بأن الصاحب لا يملك الشيء على الدوام، فلا شك أن أصحاب السفينة ليسوا هم من يملك تلك السفينة، أليس كذلك؟ ولو راقبنا الآية الخاصة بأصحاب السفينة على وجه التحديد في سياقها القرآني الأوسع لربما وجدنا فيها شيئا عجيبا، وهو أن من بنا السفينة (أي نوح نفسه) لم يكن من أصحابها:

- **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (14) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ(15)**

فلو نظرت - عزيزي القارئ- في هذا السياق القرآني نفسه، لربما وجدت أن النجاة قد حصلت لـ طرفين اثنين، وهما:

1. نوح نفسه (فَأَنجَيْنَاهُ)
2. أصحاب السفينة (وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ)

فلو كان نوح من أصحاب السفينة، لما كان هناك داع (نحن نفتري القول) للفصل بين الطرفين في النجاة، ولربما جاء النص القرآني على النحو التالي:

فأنجينا أصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين

ولكان نوح حينها من أصحاب السفينة، مثله في ذلك مثل كل من ركب السفينة معه. لكن المفارقة العجيبة التي تنبّهنا إليها الآيات الكريمة الخاصة بقصة سفينة نوح هي (كما نفهمها) على النحو التالي: بالرغم أن السفينة قد جرت بهم جميعا، إلا أن واحدا من بين جميع ركابها (وهو نوح نفسه) لم يكن من أصحابها.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: بالرغم أن نوح هو من صنع الفلك بيده، وبالرغم أنه قد ركبها مع الآخرين اللذين حملهم فيها إلا أنه لم يكن من أصحاب السفينة.

السؤال المطروح على الفور هو: لماذا؟ أي لماذا لم يكن نوح من أصحاب السفينة؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن السبب ربما يكمن في الحقيقة التي ربما يصعب المجادلة فيها وهي أن نوحا هو من بنا السفينة بنفسه. ليكون الافتراء الذي نحاول جاهدين تقديمه هو أن صاحب السفينة لم يكن هو من قام ببناء السفينة ولكنه من ركبها واستقر فيها فترة من الزمن من أجل غاية محددة بعينها وهي النجاة من الغرق. انتهى.

وربما ينطبق مثل هذا المنطق المفترى من عندنا على أصحاب القرية:

- **وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ(13)**

فأصحاب القرية ليس بالضرورة أن يكونوا هم اللذين بنوها، ولكنهم هم من سكن فيها قسطا من الزمن، ثم ما لبثوا أن تركوها لغيرهم:

- **وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (24) كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (26) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (27) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ(28)**

وهذا المنطق ينطبق على أصحاب الكهف الذين أووا إليه لينشر لهم ربهم من رحمته فيه:

- وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته ويُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا(16)

نتيجة مفتراة: صاحب الشيء (كالسفينة أو القرية أو الكهف أو الجنة أو النار، الخ) هو من جاء ليجد ذلك الشيء دون تدخل منه، فما يكون منه إلا أن يستفيد من ذلك المكان لغرض محدد فترة من الزمن (بغض نظر عن طولها)، ثم ما يلبث أن يتركه وراءه ليستفيد منه غيره، وهكذا.

السؤال مرة أخرى: لماذا إذن لم يكن نوح صاحب السفينة؟

رأينا: لأنه لو كان نوح هو صاحب السفينة، لربما حُقّ لنا أن نخرج بالاستنباطات الخاطئة التالية:

⇐ أن نوحا لم يبني السفينة بنفسه

⇐ أن نوحا قد استخدم السفينة فترة محدد من الزمن

⇐ أن نوحا قد ترك السفينة لتكون من نصيب آخرين من وراءه

⇐ الخ

السؤال: أين الدليل على أن الأمر لم يحصل على تلك الشاكلة؟

رأينا: نحن نظن أن الدليل هو على النحو التالي:

⇐ أن نوحا هو من بنا السفينة بنفسه:

- وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ(37)
- فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ(27)

⇐ أن السفينة لم تستخدم من قبل الأمم التي حملها نوح معه لغرض آخر:

- قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ(48)

⇐ أن السفينة لم يرثها أحد من الأمم الذين جاءوا بعد نوح

- وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (13) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ (14) وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ(15)

⇐ الخ

نتيجة مفتراة: مادام أن نوحا هو من صنع السفينة، فهو إذن مالكها وليس صاحبها، وشتان بين أن تكون مالك الشيء أو أن تكون صاحبه فقط. لذا لا يحق لغيره أن يستخدمها دون إذن من نوح نفسه، كما لا يحق لغيره أن يدّعي ملكيتها. والحالة هذه، بقيت تلك السفينة متروكة آية (وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً)، ولازالت قابعة في ذلك المكان الذي تركت فيه، وجعلت آية للعالمين:

- فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (15)

نتيجة مفتراة خطيرة جدا: مادام أن سفينة نوح قد جعلت آيَةً لِّلْعَالَمِينَ، لذا فهي لازالت (نحن نؤمن) موجودة حتى يومنا هذا، وستظهر عندما يأذن الله بذلك ليرينا إياها بأم أعيننا:

- وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(93)

دعاء: الحمد لله، واللهَ وحده أسأل أن أكون أول من يرى آيته هذه فيعرفها، إنه هو السميع العليم – آمين

نخلص من هذا النقاش بالتصور التالي: لمّا كان نوح ليس من أصحاب السفينة، كان نوح هو من صنعها بنفسه، وهو من أعدّها لأصحابها ليستقلوها فترة محدّدة من الزمن. وذلك لأن الصاحب (كما زعمنا سابقا) هو من يلازم شيئا ما كان موجودا من ذي قبل، فاستخدمه فترة من الزمن ثم ما لبث أن تركه، ويمكن التدليل على ذلك من الأمثلة التوضيحية التالية:

أولا، أصحاب النار

لعل أكثر تكرار لمفردة أصحاب في النص القرآني قد جاءت ملازمة للنار، كما في الآيات الكريمة التالية

- وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(39)
- بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(81)
- يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَـٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(217)
- اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(257)
- الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ۗ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ۚ فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(275)
- إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(116)
- إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ(29)
- وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(36)
- وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(47)
- وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ۚ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ(50)
- وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(27)
- وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُولَـٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(5)

- وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ(8)
- وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ(6)
- لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ(43)
- لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(17)
- لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۚ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ(20)
- وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(10)
- وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ(31)

وهناك أصحاب الجحيم:

- إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ(119)
- وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ(10)
- وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ(86)
- مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ(113)
- وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ(51)
- وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ۖ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ(19)

وهناك أصحاب السعير:

- إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ(6)
- وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ(10)
- فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ(11)

وهناك أصحاب المشأمة:

- وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ(19)

ثانيا، هناك – بالمقابل- أصحاب الجنة:

- وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(82)
- وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(42)
- وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ۚ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ(46)





- وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ۚ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ(50)
- لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(26)
- إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(23)
- أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (24)أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(14)
- لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۚ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ(20)
- إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ(17)
- إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (55)أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ(16)

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن أصحاب النار أو أصحاب الجحيم أو أصحاب السعير أو أصحاب المشأمة أو حتى أصحاب الجنة هم من سيمكثون فيها فترة من الزمن، ولكن لا علاقة لهم بأعدادها. فالنار والجحيم والجنة قد أعدت لهم إعدادا:

- فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ(24)
- وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ(131)
- وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ(133)
- إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ(42)
- سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ(21)

ولو تدبرنا الآية الكريمة التالية، لوجدنا أن هناك ملائكة هم أصحاب النار:

- وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ(31)

وهم اللذين تكمن مهمتهم بالقيام عليها، ولكنهم (نحن نظن) لم يتدخلوا في إعدادها:

- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ(6)

ثالثا، هناك أصحاب الأماكن التالية:

- وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ(13)

- وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا(36)
- أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(70)
- وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ(44)
- وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ(80)
- أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا(9)
- وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا(38)
- وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (78) كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ(176)
- وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ۚ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ(13)
- وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ(14)
- كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ(12)

رابعا، هناك أصحاب الأشياء التالية:

- قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ(135)
- وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ(48)
- أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ(1)
- قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ(4)
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ(13)

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن أصحاب القبور هم من سكنوا القبور ولكنهم بكل تأكيد ليسوا هم من أعدوها لأنفسهم، فما أن يموت الإنسان حتى يتولى غيره مهمة إعداد القبر له. كما نؤمن يقينا بأن هؤلاء لن يمكثوا في تلك القبور إلى الأبد، فهم لا محالة مخرجون منها في يوم النشور:

- وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ (7)

وبالمنطق نفسه، فنحن نفتري الظن بأن أصحاب الأخدود هم من تم إعداد الأخدود لهم، فوضعوا فيه كما يوضع أصحاب القبور في قبورهم.

خامسا، فكما أن هناك صحبة للأماكن وللأشياء، هناك أيضا صحبة الزمان، كأصحاب السبت مثلا:

- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا(47)

فأصحاب السبت هم اللذين اعتدوا في يوم السبت وهم اللذين جُعِلوا قردة خاسئين:

- وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ(65)

- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا(47)
- وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا(154)
- وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ(163)
- إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(124)

سادسا، وهناك صحبة للاتجاه، فهناك أصحاب اليمين أو الميمنة وهناك – بالمقابل- أصحاب الشمال أو المشأمة:

- فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ(8)
- وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ(9)
- وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ(27)
- لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ(38)
- وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ(41)
- وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ(90)
- فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ(91)
- إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ(39)
- أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ(18)

سابعا، وهناك أيضا صحبة الأشخاص:

- قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ(71)
- فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(61)
- فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ(59)
- بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(101)
- أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ(184)
- إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(40)
- يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ(39)

- يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًاۖ وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۚ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ(41)
- وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا(34)
- قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا(37)
- قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِيۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا(76)
- وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَاۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(15)
- قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍۖ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ(46)
- مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ(2)
- فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ(29)
- وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ(12)
- وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا(3)
- وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ(36)
- وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ(22)

لتكون النتيجة التي نحاول أن نفتريها من عند أنفسنا هي أن الصحبة لا يمكن أن تكون دائمة:

- قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِيۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا(78)

فأنت صاحب الشيء مادمت تستخدمه، ولكن إن أنت تركت صحبته، آلت ملكيته إلى شخص آخر، وانتهت صحبتك له هناك. فأصحاب السفينة لم يقضوا حياتهم كلها في السفينة، ولم يمكث أصحاب الكهف طيلة حياتهم في الكهف، وكذلك كان صاحبي يوسف في السجن:

- أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا(9)
- يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ(39)
- يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًاۖ وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۚ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ(41)

فصحبة يوسف لهما بدأت في السجن، فقبل أن يدخل يوسف السجن لم تكن بينهما (نحن نتخيل) صحبة سابقة، وربما هذا ما صار الحال عليه بعد الخروج منه. فواحد منهم على الأقل لقي حتفه حتى قبل أن يخرج يوسف من السجن. وكذلك هم أصحاب الكهف اللذين لبثوا في كهفهم سنين عددا ثم بعثوا من بعد ذلك. وهم أنفسهم أصحاب الرقيم، لذا لا نتردد أن نفتري القول بأن الرقيم قد تنتهي عند آخرين غيرهم ماداموا أنهم ليسوا أكثر من أصحاب له. (للتفصيل انظر سلسلة مقالات كيف تم خلق عيسى بن مريم؟)

الدليل

دعنا نبحث عن الدليل بطرح التساؤل المثير التالي: لماذا يفر المرء من صاحبته عندما ستجيء الصّاخة؟

- فَإِذَا جَاءتِ الصَّاخَّةُ (33) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (34) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (35) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (36) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ(37)

رأينا: لأنها ليست زوجته، فهي فقط صاحبته.

نتيجة مفتراة: نساء النبي لسن صاحبات النبي لأنهن لو كنا كذلك، لفر النبي منهن يوم تجيء الصّاخّة. لتكون النتيجة على النحو التالي:

إذا كانت المرأة هي صاحبة الرجل فهو لا شك سيفر منها في ذلك اليوم الموعود

إذا كانت المرأة هي زوج الرجل فلن يفر منها وستتزاوج نفسيهما في ذلك اليوم الموعود:

- إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (2) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (3) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (4) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (5) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (6) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ(7)

للتفصيل انظر مقالاتنا الخاصة بالمرأة وخاصة ماذا ستفعل النساء في الجنة؟

نتيجة مفتراة 1: الصحبة مؤقتة ولا يمكن أن تكون أبدية

نتيجة مفتراة 2: الصاحب يترك صاحبه

نتيجة مفتراة 3: الصاحب المتروك قد يستخدمه الغير

السؤال المحوري: إذا كان يونس قد دخل في الحوت بعضا من الوقت، فأصبح هو صاحبه، فهل يعني أن الحوت قد استخدمه غيره؟

رأينا: إن ترك يونس ذلك الحوت، فلا بد أن غيره سيستخدمه، ولكن إن لم يترك يونس ذلك الحوت فسيبقى هو صاحبه مادام أنه مستخدم له، وهذا ما نحاول جاهدين أن نصل إليه بعد هذا النقاش ربما المطول عن مفردة الصاحب.

السؤال: وأين الدليل على ذلك الزعم (إن صح ما تقول)؟ ربما يريد صاحبنا أن يسأل

جواب: نحن نظن أن الجواب ربما يأتي بعد طرح التساؤل المثير التالي حول الحوت نفسه: أين ذهب ذاك الحوت؟

عودة على بدء: باب الحوت

بعد أن حاولنا البحث في النص القرآني كله عن الحوت، وجدناه قد ذكر في السياقات القرآنية التالية:

- فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا(61)
- قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا(63)
- فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ(142)
- فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ(48)

ولو حاولنا تدبرها جيدا لخرجنا بداية بالاستنباط المفترى التالي: جاء ذكر الحوت في موضعين اثنين من كتاب الله فقط، وهما:

1. عند الحديث عن قصة موسى، وجاء ذلك في آيتين كريمتين:
   - **فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا(61)**
   - **قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا(63)**
2. عند الحديث عن يونس، وجاء ذلك في آيتين كريمتين أيضا:
   - **فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ(142)**
   - **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ(48)**

ولو حاولنا إمعان التفكير بهذه الآيات الكريمة أكثر، لخرجنا بالاستنباط المفترى التالي: جاء ذكر الحوت في جميع هذه الآيات بصيغة المعرفة. لتكون التساؤلات المثيرة هي:

⇐ لماذا جاءت مفردة الحوت بصيغة المعرفة (الْحُوتِ، حُوتَهُمَا) في كل هذه السياقات القرآنية؟

⇐ ما العلاقة بين الموضعين؟ أي ما العلاقة بين الحوت الذي التقم ذا النون (الْحُوتُ) والحوت الذي نسيه موسى وفتاه عند مجمع البحرين (حُوتَهُمَا)؟

⇐ هل هما حوتان اثنان أم هما حوت واحد ظهر في الموضعين؟

⇐ الخ.

رأينا المفترى والخطير جدا جدا: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا أن الحوت الذي التقم يونس هو الحوت نفسه الذي نسيه موسى وفتاه عند مجمع البحرين.

الدليل

نحن نظن أن منطقنا المفترى من عند أنفسنا هذا يلزمنا ربط خيوط عنكبوتية بين القصتين: قصة الحوت الذي التقم يونس مع قصة الحوت الذي نسيه موسى وفتاه عند مجمع البحرين. لكن مثل هذا الافتراء الكبير يلزمنا إيجاد الدليل الذي يمكن أن يثبت من كتاب الله نفسه، لذا سنحاول أن نخط بيميننا ما ظننا أنه دليل من كتاب الله يثبت افتراءنا هذا، مؤكدين في الوقت ذاته أن المسؤولية تقع على عاتق الجميع في جمع الأدلة التي قد تثبت أو ربما تنقض ما نزعم، سائلين الله وحده أن يهدينا جميعا إلى الحق الذي نقوله فلا نفتري عليه الكذب، إنه هو السميع العليم – آمين.

أما بعد،

قصة الحوت الذي نسيه موسى وفتاه

- **فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا(61)**
- **قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا(63)**

تعرضنا لهذه الجزئية في سياق الحديث عن قصة موسى (انظر الجزء الرابع في تلك السلسلة من المقالات)، وقد حاولنا تفنيد روايات أهل الدراية السابقة كما نقلها لنا أهل الرواية في بطون أمهات كتبهم، وحاولنا أن نفتري قصة جديدة من عند أنفسنا عن قصة حوت موسى وفتاه الذي نسياه عند مجمع البحرين.

وكان الافتراء الأكبر الذي حاولنا تسويقه حينئذ هو أن الحوت كان علامة اللقاء بين موسى وفتاه من جهة وذلك الرجل الذي جاء موسى يبحث عنه ليتعلم من عنده من جهة أخرى:

- **فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (65) قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا(66)**

لذا نحن نتجرأ على تقديم الافتراء الخطير جدا جدا التالي: جاء موسى مع فتاه إلى مجمع البحرين باحثا عن الحوت وصاحبه (أي عن صاحب الحوت). انتهى.

وقد حاولنا تسويق هذا الظن بالمنطق المفترى من عند أنفسنا التالي:

أولا، كان موسى قادماً مع فتاه من جهة اليابسة (حيث لا يوجد حيتان يأخذانه معهم في الرحلة كما زعم من سبقنا)، وكانا متجهين إلى البحر (حيث تكثر الحيتان – كما نتخيل). فليكن السؤال الأول الذي يجب أن يطرح الآن في هذا السياق هو: لماذا ذهب موسى مع فتاه باتجاه البحر؟ (ربما هذا ما ستبين الإجابة عليه لاحقا بعد متابعة النقاش، فالله أسأل أن يعلمني ما لا ينبغي لغيري إنه هو السميع المجيب – آمين)

ثانيا، مادام أن ذلك الحوت كان علامة ميقات موسى مع ذلك الرجل، فهو إذا حوت يختلف عن بقية حيتان البحر، فهذا حوت مميز جدا، لذا لأبد (نحن نظن) أنه سيقوم بفعل غاية في الغرابة (عَجَبًا). فما أن وصل موسى مع فتاه عند مجمع البحرين حتى جاء ذلك الحوت (علامة اللقاء بالرجل) وقام بفعل غاية في الغرابة، ولكن عندما نسي موسى وفتاه ذلك الحوت (فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا)، لم يشغلهما مجيء ذلك الحوت كثيرا، فما لاحظ ذلك العجب الذي فعله الحوت حتى رجع ذلك الحوت في البحر مع أسراب من الحيتان الأخرى، فاتخذ سبيله في البحر سربا، وكان ذلك عند مجمع البحرين:

- **فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (61)**

ولكن ما أن جاوز موسى مع فتاه مجمع البحرين، فمضيا حقبا، أي في رحلة بحرية، حتى طلب موسى من فتاه أن يجهز الغداء بسبب ذلك النصب من عناء الرحلة:

- **فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا (62)**

وما أن تناول موسى وفتاه غداءهما، وحاولا أن يأخذا قسطا من الراحة حتى عاد فتى موسى ليتذكر تفاصيل الرحلة من جديد، باحثا في مخيلته في كل تفاصيل الرحلة السابقة، فما كان منه إلا أن فطن إلى واحدة من أهم تفاصيلها التي ظن أنه لم يركز عليها جيداً من ذي قبل، ألا وهي رؤية ذلك الحوت عند مجمع البحرين، ولكنه نسي أن يذكر ذلك لموسى:

- **قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۚ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (63)**

ولو حاولنا التدقيق في التباين اللفظي بين هذه الآية والآية السابقة التي تتحدث عن الحوت لوجدنا فرقا جوهريا يخص حركة الحوت في البحر، ففي حين أن الفتى يرى الحوت يتخذ سبيله في البحر "سَرَبًا" عندما وصلا مجمع البحرين في البداية:

- **فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (61)**

يعود الفتى نفسه ليقول لموسى بملء فيه أنه قد رأى الحوت يتخذ سبيله في البحر عَجَبًا:

- **قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۚ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا(63)**

فما الفرق؟ ولماذا ظن الفتى أن الحوت قد اتخذ سبيله في البحر سَرَبًا في البداية؟ ولماذا عاد ليظن أن الحوت قد اتخذ سبيله في البحر عَجَبًا في النهاية؟

رأينا المفترى: نحن نتخيل أنه عندما وصل موسى مع فتاه عند مجمع البحرين قام ذلك الحوت بحركة غريبة جداً، فكان بذلك قد اتخذ سبيله في البحر عجبا (عَجَبًا)، ولكن الفتى ظن أنها حركة عادية من باب حركة الحوت في سربه (سَرَبًا)، أي الحركة الطبيعية المعتادة والمتوقعة من حوت في البحر، لذا لم تجلب انتباهه كما يجب، ولم يقم بإخبار موسى بذلك الحدث على الفور.

ولكن بعد أن جاوزا مجمع البحرين، وأنهكهما البحث عن الرجل فلم يجداه، اضطرا إلى أخذ قسط من الراحة، فتناولا طعام الغداء من عناء السفر، وأخذ الفتى يراجع في نفسه تفاصيل الرحلة من أولها إلى آخرها، فتذكر على الفور ذلك الحوت الذي ظن في البداية أنه قد اتخذ سبيله في البحر سَرَبًا، فطار إلى ذهنه – في ظننا- شيء لم يخطر على باله في البداية، فتوجه بحديثه إلى موسى بالقول أنه قد رأى الحوت المنشود عند مجمع البحرين، وأن ذلك الحوت قد اتخذ فعلا سبيله في البحر عَجَبًا:

- **قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۚ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا(63)**

ربما ليقول لموسى (نحن نتخيل) بأن الحوت قد قام بحركة عجيبة ليست كحركة الحيتان التي تتخذ طريقها في البحر سربا (بالطريقة الطبيعية). عندها ما كان من موسى إلى أن يرد على قول الغلام بالتالي:

- **قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا**

وهنا نصل إلى ذروة مبتغانا من هذا النقاش، فنتوقف لنسأل القارئ الكريم سؤالاً واحد ربما يصدّق جوابه ظننا هذا، والسؤال هو: على ماذا يعود اسم الإشارة " ذَٰلِكَ" في الآية الكريمة نفسها؟

رأينا: يعود اسم الإشارة على الحوت، أليس كذلك؟

افتراء من عند أنفسنا: إن صح ظننا بأن اسم الإشارة ذَٰلِكَ يعود على الحوت، فإننا نستطيع أن نستنتج بأن الحوت لم يكن محمولاً مع موسى وفتاه ولكنه كان هو الهدف المنشود في بحثهما عن الرجل. فموسى وفتاه كانا يبغيان الحوت الذي يتخذ سبيله في البحر عجباً (ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ). فهم قد خرجا من ديارهما وتوجها جهة مجمع البحرين، وكانت بغيتهما ذلك الحوت (ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ) الذي يتخذ سبيله في البحر عجباً (وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا)، فما كان منهما إلا أن يرتدا على آثارهما قصصا (فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا) إلى المكان الذي وجد فيه ذلك الحوت عندما بلغا مجمع البحرين. وما أن يصلا إلى المكان حتى وجدا ذلك الرجل ينتظرهما عند الصخرة:

- **فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (65)**

السؤال الأول: لماذا كان الحوت هو علامة "ميقات" موسى مع ذلك الرجل؟

السؤال الثاني: ما هو ذلك الحوت؟

السؤال الثالث: ولماذا كان موسى يبحث عنه؟

السؤال الرابع: ومن هو ذلك الرجل الذي ارتبط وجوده بالحوت فطلب موسى صحبته؟

رأينا: نحن نظن أن إشارة لقاء موسى مع ذلك الرجل كانت ذلك الحوت الذي يتخذ سبيله في البحر عَجَبًا، فارتبط وجود ذلك الرجل (الذي خرج موسى باحثا عنه) بوجود العلامة الدالة عليه وهو الحوت (ذَٰلِكَ

مَا كُنَّا نَبْغِ)، وذلك لأن ذلك الحوت –ببساطة- سيقوم بشيء عجبا أمام ناظريهما، والعجب – برأينا- هو ما يصعب على الناس تصديقه كالأمثلة التي ترد في الآيات الكريمة التالية:

- أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ(2)
- أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (9)
- قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1)

نتيجة مفتراة: العجب هو ما يصعب على الناس تصديقه أو حتى فهم كيفية حدوثه.

السؤال: ما هو الشيء العجب الذي قام به الحوت وربما سيصعب عليكم تصديقه إن نحن صرحنا به؟

- قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (63)

افتراء خطير جدا جداً هو بلا شك من عند أنفسنا: لقد جاء ذلك الرجل الذي ذهب موسى ليطلب العلم عنده من ما وراء مجمع البحرين (أي من البحر) راكباً الحوت، فكان الحوت هو وسيلة نقله من البحر إلى عند الصخرة، حيث موعد اللقاء مع موسى. فأنزله الحوت عند الصخرة بطريقة العجب، وعاد ليتخذ سبيله في البحر سربا مع مجموعة من الحيتان بعد أن قام بما هو عجبا عندما أنزل الرجل عند الصخرة التي هي عند مجمع البحرين. ف فتى موسى لم يلاحظ في البداية كيف قام ذلك الحوت بإنزال الرجل عند الصخرة، وانتبه فقط عندما عاد الحوت في سربه، ولكن بعد أن حاول استرجاع الشريط في ذهنه مرة أخرى، تذكر أن ذلك الحوت الذي دخل في سربه (سَرَبًا) كان قد نزل إلى الماء من اليابسة (أي من عند الصخرة) بعد أن أنزل من كان يحمله على ظهره (عَجَبًا). فهل تصدق ذلك عزيزي القارئ؟

إذا كان ربما يصعب عليك – عزيزي القارئ- تصديق هذا الخيال العجيب، فإن الأكثر عجبا منه هو ما سيأتي تاليا عن قصة الحوت نفسه الذي التقم يونس، لذا نحن نطالب القارئ الكريم قبل أن يقحم نفسه في خضم هذه الافتراءات ربما غير المسبوقة بما يلي:

1. أن ينظر إلى ما نقوله على أنه قول بشري قابل لأن يكون صحيحا كما أنه قابل أن يكون خاطئا، لذا فالبحث عن الدليل الذي يؤكد أو يدحض هذه الافتراءات هي مسؤولية جماعية
2. أن القناعة بما سنقول هي مسألة فردية يتحمل القارئ نفسه تبعاتها، فنحن لا نلزم أحدا بأن يقتنع بما نقول
3. أن نقل الأفكار يتطلب الأمانة العلمية، فلا داع إلى القص واللصق كما يحلو للناقل، فالمكان الصحيح لأخذ الأفكار هي سياقها الذي وردت فيه، لذا يجب على من أراد الخوض في هذه الأفكار أن يقرأها بنفسه من مصدرها.
4. أن الطريقة الأسهل والأسلم هي ترك هذه الأفكار وصاحبها والبحث عن الحقائق في كتاب الله نفسه
5. الخ

أما بعد،

قصة الحوت الذي التقم ذا النون: فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ

السؤال: ما الذي حصل بعد أن التقم الحوتُ يونسَ؟
جواب: مكث يونسُ في داخل الحوت قسطا من الزمن.
السؤال: وما الذي حصل بعد ذلك؟
جواب: تدارك الله يونس بعمة منه، فما لبث في بطن الحوت إلى يوم يبعثون
السؤال: لماذا تدارك الله يونس بنعمة منه؟
جواب: لأن يونس كان في سابق عهده كان من المسبحين:

- **فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ(143)**

السؤال: ما الذي كان يمكن أن يحدث لو أن يونس لم يكن من المسبحين؟
جواب: لما تداركه الله بنعمة منه.
السؤال: وما الذي كان سيحدث لو أن الله لم يتدارك يونس بنعمة منه؟
جواب: للبث يونس في بطن الحوت إلى يوم يبعثون:

- **فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ(144)**

سؤال خطير جدا: كيف كان من الممكن أن يلبث يونس في بطن الحوت إلى يوم يبعثون؟ ألم يكن ذلك الحوت نفسه سيفنى؟

رأينا الخطير جدا: مادام أن يونس كان من الممكن أن يلبث في بطن الحوت إلى يوم يبعثون، فإن ذلك الحوت ليس حوتا عاديا كغيره من حيتان البحر، بدليل أنه من الممكن أن يبقى حيا إلى يوم يبعثون.

نتيجة مفتراة خطيرة جدا: هذا الحوت هو حوت معرف بذاته، جاء على الدوام بصيغة المعرفة في جميع السياقات القرآنية التي ورد فيها، وذلك لأنه – برأينا- موجود من قبل صاحبه وسيظل موجودا حتى يوم يبعثون.

السؤال: ما الذي حصل نتيجة تدارك الله يونس بنعمة منه؟
جواب: خرج يونس من بطن الحوت، فما لبث فيه إلى يوم يبعثون، فنبذ يونس في العراء:

- **فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ(145)**

السؤال: كيف تمت العملية؟
جواب: نحن نتخيل أن الذي حصل كان على النحو التالي: ما أن تمت هزيمة يونس في مواجهته البحرية مع خصمه حتى كان من المدحضين:

- **فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ(141)**

فسقط يونس في البحر، وهناك جاء هذا الحوت (المعرّف بذاته)، فيسره الله له، فالتقم يونس على وجه التحديد من بين جميع المدحضين:

- **فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ(142)**

وانظر عزيزي القارئ في صيغة التعريف التي جاء فيها لفظ الحوت هنا، ربما ليدلنا أن هذا الحوت معهود من ذي قبل صاحبه، ويمكن تشبيه ذلك بالكهف الذي كان معهودا من قبل أصحابه اللذين أووا إليه، وهكذا.

وهناك بالضبط نادى يونس في الظلمات بندائه الشهير:

- **وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(87)**

السؤال: ماذا كانت نتيجة تلك المناداة؟

رأينا: حصلت الاستجابة الربانية له بالنجاة على الفور:

- **فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ(88)**

السؤال: كيف تمت النجاة له من الغم؟

تخيلات من عند أنفسنا: ما أن نادي يونس في الظلمات، حتى حصلت الاستجابة الربانية له على الفور، فجاء الأمر الإلهي لذلك الحوت بأن يحمل يونس ويتجه به نحو اليابسة، ليقذف إلى منبوذا في العراء، ويعود من هناك إلى البحر في حركة أغرب من الخيال، فيكون ذلك الحوت قد اتخذ سبيلا له في البحر عَجَبًا (بالضبط كما فعل عند مجمع البحرين عندما جاء موسى وصاحبه اللذان جاءا طالبين له):

- **قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (63)**

نتيجة مفتراة مهمة جدا: استطاع ذلك الحوت الذي من المفترض أنه يعيش في الماء أن يصل إلى اليابسة ليفرغ حمولته هناك. فحصل ذلك مرتين:

---

1. حصل ذلك عندما التقم يونس من البحر ليتركه منبوذا بالعراء:

- **فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (145)**

2. وحصل ذلك مرة أخرى عندما جاء يحمل الرجل الذي جاءه موسى ليتعلم عنده وكان ذلك عند مجمع البحرين:

- **قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (63)**

السؤال الكبير جدا جدا: ما العلاقة بين الموقفين؟

رأينا المفترى والخطير جدا جدا 1: كان الحوت الذي نقل حمولة من الماء إلى العراء (اليابسة) هو الحوت نفسه في كلا الموقفين، فذلك الحوت لم يفنى مادام أن يونس (كما أسلفنا) كان من الممكن أن يلبث في بطنه إلى يوم يبعثون

رأينا المفترى والخطير جدا جدا 2: كانت حمولة الحوت هي نفسها في الموقفين، إنه الرجل نفسه: إنه يونس (صاحب الحوت)، فصاحب الحوت هو الذي كان يأوي إليه

رأينا المفترى والخطير جدا جدا 3: صاحب الحوت يونس هو العزير نفسه الذي ظن بعض اليهود أنه ابن الله. فابن الله في الديانة المسيحية هو المسيح، لذا فإن اعتقاد أهل تلك العقيدة أن ابن الله لا يموت ولكنه جزء من الإله الأب الذي هو قيّوم السموات والأرض، وبالمنطق نفسه كان اعتقاد بعض اليهود أن العزير هو ابن الله، لذا فهو جزء من ذلك الإله الأب الذي هو قيّوم السموات والأرض:

- **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ(30)**

نتيجة مفتراة: قارن – والكلام هنا موجه على وجه التحديد للأخ عصام درويش في أرض مصر- بين اللفظين (يونس :: عزير)

الدليل

نحن نظن أننا نستطيع أن نقدم جملة من الافتراءات التي ربما تشكل جميعها الدليل على صحة هذا الظن

أولا، يونس هو صاحب الحوت، أليس كذلك؟

السؤال: ما معنى أن يكون يونس هو صاحب الحوت؟

رأينا: نحن نظن أن صاحب المكان هو الذي يسكن فيه، كما في حالة أصحاب القرية:

- **وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ(13)**

أو أصحاب السفينة:

- **فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ(15)**

أو أصحاب الكهف:

- **أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا(9)**

نتيجة مفتراة: صاحب المكان هو الذي يسكن فيه ويستطيع أن يخرج ويدخل فيه متى شاء.

السؤال: إن صح ما تقول، فهل ينطبق ذلك على أصحاب الجنة أو أصحاب النار؟

- **أصحاب الجنة: وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(82)**
- **أصحاب النار: وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(39)**

رأينا المفترى: نعم، ينطبق ذلك على أصحاب الجنة وأصحاب النار، فهم يستطيعون أن يدخلوا فيها ويخرجوا منها متى شاءوا لولا شيء واحد فقط وهو أنهم خالدين فيهما. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في الآيات السابقة نفسها الخاصة بأصحاب الجنة وأصحاب النار، لتجد أنها تبعت على الفور بعبارة (هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ).

السؤال: ما معنى أن أصحاب الجنة أو أصحاب النار خالدين فيهما؟

رأينا المفترى والخطير جدا جدا: نحن نظن أن عبارة خَالِدِينَ فِيهَا التي تلتصق بأصحاب الجنة وأصحاب النار على الدوام لا تدل (نحن نفتري القول) على أن التواجد فيها إلى ما لا نهاية كما يظن كثير من الناس، ولكنها تعني – برأينا- التواجد الدائم فيها فلا يخرجون منها إلى مكان آخر. فوجود الإنسان في الجنة على شاكلة الخلود تعني أنه لا يتركها ويخرج منها إلى مكان آخر، وكذلك هي الحال بالنسبة لأصحاب النار.

نتيجة مفتراة: نحن نفتري القول أن عبارة خَالِدِينَ فِيهَا لا علاقة لها بالزمن ولكنها مرتبطة فقط بالمكان.

والدليل الذي نسوقه على صحة ما نقول يأتي من الآيات القرآنية الخاصة بأصحاب الجنة وأصحاب النار التي تنقسم بشكل لا لبس فيه إلا قسمين اثنين: قسم خالد فيها، وقسم خالد فيها أبدا.

القسم الأول: خالدين فيها

- **خَالِدِينَ فِيهَالاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ(162)**

- قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ(15)
- خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ(88)
- أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ 136
- لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ(198)
- تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(13)
- فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ(85)
- وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ(128)
- وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ هِيَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ(68)
- وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(72)
- أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(89)
- خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ(107)
- وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۖ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ(108)
- وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ(23)
- فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ(29)
- خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا(108)
- جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ(76)
- خَالِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا(76)
- وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ(58)
- خَالِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(9)
- قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (72)ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ(76)
- أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(14)

- لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا(5)
- يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(12)
- لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(22)
- فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ(17)
- وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(10)
- إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ(6)

القسم الثاني: خالدين فيها أبدا

- وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا(57)
- وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا(122)
- إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا(169)
- قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(119)
- خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ(22)
- وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(100)
- خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا(65)
- يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(9)
- رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا(11)
- إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ۚ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا(23)
- جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ(8)

السؤال: ما الفرق بين من يخلد في المكان من جهة ومن يخلد فيه أبدا من جهة أخرى؟

رأينا المفترى 1: نحن نظن أن الذي يخلد في المكان هو من كان صاحبه فلا يغادره إلى مكان آخر كأصحاب الجنة وأصحاب النار اللذين هم خالدين فيهما.

رأينا المفترى 2: نحن نظن أن الذي يخلد في المكان أبدا هو من كان صاحبه فلا يغادره إلى مكان آخر كأصحاب الجنة وأصحاب النار، وعلاوة على ذلك يكون ذلك إلى ما لانهاية إلا ما شاء ربك. فمفردة أبدا هي - نحن نظن- ما تحمل معنى الديمومة الزمانية، ولكن مفردة الخلد هي ما تعني المكوث في مكان فلا تغادره إلى مكان آخر، أي الديمومة المكانية.

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن عبارة خَالِدِينَ فِيهَا هي مكانية، لذا فمن يخلد في مكان ما فهو لا يغادره
نتيجة مفتراة 2: نحن نظن أن مفردة أَبَدًا هي زمانية، لذا فالذي يخلد أبدا فهو الذي يستمر وجوده فيه

السؤال: ما علاقة ذلك بمفردة أصحاب؟

جواب مفترى: نحن نظن أن هناك فرقا جوهريا بين من كان صاحب مكان يستطيع أن يدخل ويخرج منه متى شاء كأصحاب القرية وأصحاب السفينة وأصحاب الكهف مثلا:

- **وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ(13)**
- **فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ(15)**
- **أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا(9)**

ومن كان صاحب المكان ولا يغادره إلى غيره كأصحاب الجنة وأصحاب النار وذلك لأنهم خالدين فيها:

- **قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ(15)**
- **قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ(72)**

وهذا ما نجده – نحن نظن- في الآية الكريمة التالية:

- **يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ(37)**
- **وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ(167)**

فالخروج الذي يطلبونه هنا هو خروج مؤقت، ولكن لا يستطيع أصحاب النار أن يخرجوا من النار حتى ليوم واحدا:

- **وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ(49)**

نتيجة مفتراة: لو كان أصحاب النار يستطيعون أن يأخذوا قسطا من الراحة حتى ليوم واحد، ولو كانوا يستطيعون الخروج منها إلى مكان آخر حتى لفترة قصيرة لما كانوا خالدين فيها. ولكانوا أصحاب النار وكفى. أما ما دام أنهم أصحاب النار خالدين فيها فهم ماكثون فيها لا ينتقلون إلى مكان غيرها حتى لو شاءوا ذلك، فليس هناك مكان آخر يؤون إليه إلا النار. وما كان من أصحاب النار خالدا فيها أبدا، فهو الذي لا يغادرها إلى مكان آخر ويكون ذلك على سبيل الدوام. وكذلك هي الحال بالنسبة لأصحاب الجنة اللذين هم خالدون فيها.

والآن قارن - عزيزي القارئ الكريم- حال أصحاب الجنة اللذين هم خالدون فيها من أصحاب الجنة اللذين جاء ذكرهم في الآية الكريمة التالية:

- **إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (18) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (19) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (20) فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ**

(21) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ (22) فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (23) أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (24) وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (25) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ(26)

فأصحاب هذه الجنة لم يكونوا خالدين فيها وذلك لأنها جنة يمكن لهم أن يدخلوها ويخرجوا منها متى شاءوا، فهي إذن ليست جنة خلد.

السؤال: هل أصحاب السفينة خالدين فيها. وهل أصحاب القرية خالدين فيها؟ وهل أصحاب الكهف خالدين فيه؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا، وذلك لأنهم يستطيعون الدخول في تلك الأماكن والخروج منها حسب مشيئتهم. فالفتية مثلا أووا إلى الكهف، فأصبحوا أصحابه:

- أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (9) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا(10)

ولكنهم كانوا يستطيعون الخروج منه إن هم شاءوا ذلك، فبعد أن لبثوا في الكهف فترة من الزمن، اتخذوا قرارهم بأن يبعثوا أحدهم من هناك إلى المدينة:

- وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا(19)

السؤال: ماذا عن صاحب الحوت؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن صاحب الحوت هو الذي دخل فترة في لحظة ما في الحوت (ربما كما دخل الفتية في الكهف)، ومكث فيه فترة من الزمن (بغض النظر عن طول الفترة الزمنية)، ثم استطاع أن يخرج منه.

تبعات هذا الظن

افتراء خطير جدا جدا: نحن نظن أن صاحب الحوت (كأصحاب السفينة أو كأصحاب الكهف أو كأصحاب القرية) فإنه كان يستطيع أن يدخل في الحوت ويخرج منه على سبيل المشيئة. وهو لا شك لم يكن خالدا فيه، لذا كان هناك فسحة من المكان أن يتنقل من داخل الحوت إلى خارجه والعودة فيه مرة أخرى متى شاء.

افتراء خطير جدا جدا: أصبح بطن ذلك الحوت هو مكان سكن هذا الرجل (يونس)، فهو صاحب الحوت، ويمكن تشبيه ذلك بصاحب الدار مثلا، فمن كان منّا صاحب دار، فهو يستطيع أن يدخل في داره أو أن يخرج منها حسب حاجته. وهكذا (نحن نتخيل) أصبح صاحب الحوت (يونس).

تخيلات مفتراة خطيرة جدا جدا: بعد أن دخل يونس في بطن الحوت، أصبح هو صاحبه، ولكنه لم يكن يوما خالدا فيه، لذا كان يونس قادرا على التنقل بين بطن الحوت وخارجه. فقد أصبح بطن ذلك الحوت هو المكان الذي يؤوي إليه يونس لينشر له ربه من رحمته، ويمكن تشبيه ذلك بما كان من أمر الفتية اللذين أووا إلى الكهف فأصبحوا هم أصحابه.

تساؤلات

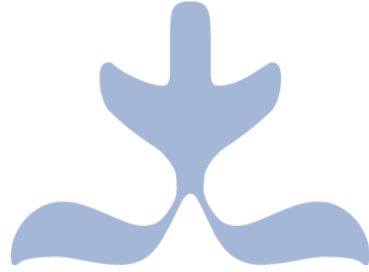
- ⇐ لماذا سكن يونس في بطن الحوت؟
- ⇐ كيف استطاع يونس أن يمكث في بطن الحوت؟
- ⇐ كيف يستطيع يونس أن يدخل في بطن ذلك الحوت ويخرج منه؟

- ⇐ ما علاقة هذا بالحوت الذي جاء موسى مع فتاه إليه؟
- ⇐ ما علاقة يونس بقصة ذلك الرجل الذي وجده موسى عن تلك الصخرة؟
- ⇐ كيف وصل الرجل إلى تلك الصخرة؟
- ⇐ ما سر علم هذا الرجل؟
- ⇐ من أين حصل على ذلك العلم؟
- ⇐ إلى أين كان يريد أن يأخذ موسى؟
- ⇐ لماذا لم يصبر موسى معه؟
- ⇐ من أين تعلم هذا الرجل كل ذلك الصبر؟
- ⇐ ولما كان صابرا جدا؟
- ⇐ أين ذهب ذلك الحوت في قصة موسى مع صاحبه؟

السؤال الكبير جدا: ما سر ذلك الحوت؟

هذا ما سنتابع الحديث فيه في الجزء القادم من هذه المقالة بحول الله وتوفيق منه.

فالله وحده أسأل أن يعلمني ما لا ينبغي لغيري، وأن يزدني علما وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا. وأعوذ به أن أفتري عليه الكذب أو أن أقول عليه ما ليس لي بحق، إنه هو السميع العليم – آمين



قصة يونس

الجزء العاشر



قصة يونس: الجزء العاشر

- يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ(16)

أما بعد،

تعرضنا في الجزء السابق من هذه المقالة لتساؤل يدور حول أن يكون يونس هو صاحب الحوت، وافترينا الظن بأن يونس لم يكن مالكا للحوت، وذلك لأن مكوث يونس في بطن الحوت كان على المشيئة، ف كأصحاب السفينة أو كأصحاب الكهف أو كأصحاب القرية، فإن صاحب المكان هو من يستطيع أن يدخل فيه ويخرج منه متى شاء، مادام أنه ليس خالدا فيه كأصحاب الجنة اللذين هم خالدون فيها أو كأصحاب النار اللذين هم خالدون فيها. فأصحاب الجنة هم خالدون فيها لأنهم – برأينا- لا يبرحونها إلى مكان آخر غيرها، وأصحاب النار خالدون فيها لأنها (نحن نظن) لا يستطيعون الخروج منها حتى لو أرادوا ذلك. فالذي يخلد في المكان هو (نحن نفتري الظن) الذي لا يخرج منه لينتقل إلى غيره.

نتيجة مفتراة 1: أصحاب السفينة أو أصحاب الكهف أو أصحاب القرية ليسوا خالدين في هذه الأماكن مادام أنهم يستطيعون أن يخرجوا منها متى شاءوا

نتيجة مفتراة 2: أصحاب الجنة وأصحاب النار خالدون فيهما لأنهم لا يخرجون منهما إلى مكان آخر. فأصحاب الجنة لا يخرجون من الجنة متى دخلوا فيها وكذلك هم أصحاب النار، وذلك لأنها هي أرض الخلود لهم.

ولو حاولنا أن نتدبر ما جاء في الآيات الكريمة التالية عن أصحاب الجنة حيث لا تصاحبها عبارة الخلود، لربما وجدنا أنها تتحدث عنهم قبل دخولهم فيها. فالآيات التالية من سورة الأعراف تصور لنا الحوار الذي يجري بين أصحاب الجنة من جهة وأصحاب النار من جهة أخرى:

- وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ(44)
- وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (46) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاء أَصْحَابِ النَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(47)
- وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ(50)

وما أن ينتهي بينهم هذا الخطاب حتى يساق كل منهم إلى المكان الذي سيخلد فيه، فيساق اللذين كفروا إلى جهنم أولا:

- وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ(71)

وهنا بالضبط يبدأ الخلود، وبهذه الصيغة يتم خطابهم من القائمين على جهنم. وانظر – إن شئت- في تكملة السياق القرآني السابق:

- **قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ(72)**

وفي تلك الأثناء يساق اللذين آمنوا إلى الجنة زمرا، فيدخلوها خالدين:

- **وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (73) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ(74)**

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن الخلود في المكان يعني أن الشخص الذي يخلد فيه لا يبرح ذلك المكان إلى غيره، فيبقى ذلك المكان هو المكان نفسه الذي يسكنه ما شاء الله له ذلك.

أما من كان صاحب المكان وكفى (كأصحاب السفينة أو كأصحاب الكهف أو كأصحاب القرية)، فلديه – نحن نظن- فسحة من المكان أن يتنقل من ذلك المكان إلى غيره حسب مشيئته، فأصحاب السفينة أو أصحاب الكهف أو أصحاب القرية لم يكونوا خالدين فيها لأنهم – برأينا- كانوا يستطيعون الدخول فيها والخروج منها إن هم شاءوا ذلك. وليس أدل على ذلك من أن أصحاب الكهف قد بعثوا أحدهم من كهفهم إلى المدينة ليأتيهم بأزكى طعام. فذهب إلى هناك، وعاد إليهم من هناك. وكذلك كان (نحن نفتري القول) صاحب الحوت، فقد كان يستطيع أن يخرج من الحوت وأن يعود فيه مرة أخرى متى شاء. لذا، أصبح (نحن نفتري الظن) بطن ذلك الحوت هو مكان سكن هذا الرجل.

كما افترينا الظن بأن ذاك الرجل (صاحب الحوت) هو نفسه من ذهب موسى مع فتاه باحثين عنه في البحر:

- **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا(60)**

وكانت علامة اللقاء بينهما هو ذلك الحوت، فقد خرج موسى (نحن نفتري الظن) باحثا عن الحوت ليقابل صاحبه فيتعلم منه:

- **قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا(66)**

وهو من وجداه عند الصخرة، ربما منتظرا وصولهما:

- **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (60) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (61) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (62) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (63) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (64) فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا(65)**

وهو من ظن اليهود لاحقا بأنه ابن الله، فأسموه في لغتهم العزير، بينما هو (في ظننا) صاحب الحوت:

- **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ(30)**

وحاولنا في نهاية ذلك الجزء من المقالة طرح التساؤلات المثيرة التالية حول القصة، نذكر منها:

⇐ لماذا سكن يونس في بطن الحوت؟

⇐ كيف استطاع يونس أن يمكث في بطن الحوت؟

⇐ كيف يستطيع يونس أن يدخل في بطن ذلك الحوت ويخرج منه؟
⇐ ما علاقة هذا بالحوت الذي جاء موسى مع فتاه إليه؟
⇐ ما علاقة يونس بقصة ذلك الرجل الذي وجده موسى عن تلك الصخرة؟
⇐ كيف وصل الرجل إلى تلك الصخرة؟
⇐ ما سر علم هذا الرجل؟
⇐ من أين حصل على ذلك العلم؟
⇐ إلى أين كان يريد أن يأخذ موسى؟
⇐ لماذا لم يصبر موسى معه؟
⇐ من أين تعلم هذا الرجل كل ذلك الصبر؟
⇐ ولم كان صابرا جدا؟
⇐ أين ذهب ذلك الحوت في قصة موسى مع صاحبه؟
⇐ لماذا أصبح اسمه عزير بعد أن كان هو صاحب الحوت؟
⇐ لماذا نعته اليهود بصفة "ابن الله"؟
⇐ الخ.

السؤال الكبير جدا: ما سر ذلك الحوت؟

للإجابة على هذا التساؤل الكبير، ظننا أن الحاجة ربما تكون الآن ملحة للوقوف عند بعد المحطات الرئيسة في هذه القصة وهي:

⇐ الصبر
⇐ الصخرة
⇐ عزير

باب الصبر

لو حاولنا تدبّر قصة موسى مع ذلك الرجل الذي جاءه موسى عند الصخرة، لوجدنا أن موسى (رسول الله وكليمه) يطلب بنفسه صحبة ذلك الرجل ليتعلم منه، أليس كذلك؟

- **قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا(66)**

ولكن المتدبر للسياق القرآني يجد على الفور أن أول ردة فعل لذلك الرجل على طلب موسى ذاك هو عِلمه المسبق بعدم قدرة موسى على الصبر معه:

- **قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (67) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (68) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا(69)**

نتيجة مفتراة 1: كان ذلك الرجل يعلم أن موسى لن يستطيع معه صبرا
نتيجة مفتراة 2: كان ذلك الرجل يستطيع أن يصبر
نتيجة مفتراة 3: كان ذلك الرجل قد أحاط بما لم يحط به موسى خبرا

ليكون السؤال الآن هو: ما الذي يمكن أن نستنبطه من ذلك كله؟

جواب مفترى: نحن نظن أن ذلك الرجل كان شخصا قادرا على أن يصبر بنفسه، فلو لم يكن كذلك لما طلب من موسى (نحن نفتري القول) أن يصبر معه، فلقد صبر ذلك الرجل على موسى نفسه، فسكت عن عجلة موسى في ثلاث مرات، ففي المرة الأولى لم يصبر موسى على خرق السفينة:

- فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا(71)

فكان جواب الرجل على النحو التالي:

- قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا(72)

وفي المرة الثانية لم يصبر موسى على قتل الغلام:

- فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا(74)

فكان جواب الرجل على النحو التالي:

- قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا(75)

وفي المرة الثالثة لم يصبر موسى على بناء الجدار:

- فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا(77)

فجاء جواب الرجل هذه المرة على النحو التالي:

- قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا(78)

نتيجة مفتراة: صبر الرجل على صحبة موسى في ثلاث مرات

السؤال المهم: لماذا كان الرجل يستطيع الصبر على ما لم يستطع موسى نفسه الصبر عليه؟

جواب مفترى مهم جدا جدا: نحن نظن أن ذلك الرجل كان يستطيع الصبر لأنه تعلم أن يصبر

السؤال: وأين تعلم الرجل أن يصبر؟ ومن هو ذلك الرجل الذي تعلم الصبر على أمور لم يتحملها موسى (رسول الله وكليمه)؟ ومن الذي علمه الصبر؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نظن بأنه هو نفسه من جاء ذكره في الآية الكريمة التالية التي تحث محمدا على الصبر:

- فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ(48)

نتيجة مفتراة: إنه صاحب الحوت الذي لقّنه الله درسا عظيما في الصبر بعد أن ذهب مغاضبا وما صبر لحكم ربه في بداية قصته

لفتة مهمة: قبل أن ينعتني القارئ الكريم بالجنون على هذا الخيال الجامح، فإنني أدعوه أن يمعن النظر جيدا في السياق القرآني الذي جاء مكملا لهذه الآية الكريمة التي تتحدث عن صبر صاحب الحوت:

- فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (49) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (50) وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (51) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ(52)

نتيجة مفتراة 1: صاحب الحوت لم يصبر لحكم ربه في بداية الأمر
نتيجة مفتراة 2: التقم الحوت ذلك الرجل
نتيجة مفتراة 3: تراجع الرجل عن موقفه فنادى في الظلمات
نتيجة مفتراة 4: تدارك الله ذلك الرجل بنعمة منه
نتيجة مفتراة 5: اجتبى الله ذلك الرجل وجعله من الصالحين
نتيجة مفتراة 6: أرسله الله رسولا إلى مئة ألف أو يزيدون
نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن من مرّ بهذه التجربة القاسية قد تعلم (لا شك) الدرس منها جيداء، لذا فقد تعلم صاحب الحوت أن يصبر، فأصبحت – برأينا- تلك واحدة من أهم مميزات شخصيته بعد تلك التجربة التي مرّ بها.

رأينا المفترى: نحن نظن أن هذا هو ذكر ذلك الرجل حتى وإن ظن الكثيرون بأن ما نقوله يقع في باب الجنون:

- وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ(51)

لأن ذلك ذكرٌ ليس لنا فقط، ولكنه ذكر للعالمين:

- وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ(52)

دعاء: أعوذ بك ربي أن يزلقوني بأبصارهم إن هم سمعوا هذا الذكر، وأسألك وحدك أن أكون أول من يسّرت له هذا القرآن للذكر ليكون من المدّكرين - آمين

أما بعد،

نحن نظن أننا مدينون لمن يسمع هذا الذكر أن نفصله له، ليرى بأم عينه كيف سيكون في هذا ذكر ليس له فقط وإنما للعالمين. وإن صح منطقنا المفترى هذا، فإن كلامنا بعد الآن سيصل إلى أقصى درجات الخيال التي قد لا تخطر على بال أحد من العالمين ما لم يكن الله وحده هو من يسر له هذا القرآن للذكر. (فالله وحده أدعو أن أكون أول المدّكرين اللذين يسّر لهم القرآن للذكر، وأعوذ به أن أقول عليه ما ليس لي بحق أو أن أفتري عليه الكذب، إنه هو العليم الحكيم – آمين).

كما أطلب في الوقت ذاته من كل من لا يريد العبث بـ "موروثاته المقدسة" أن يتوقف عند هذه اللحظة لأن النقاش سيذهب – لا محالة- بعيدا جدا، تارك وراءه كل ما وصلنا من عند سادتنا العلماء أهل الدراية كما نقله لنا أهل الرواية، وذلك لأننا نطيق أن نحمل من أوزارهم شيئا مادام أن الأفكار تخصنا فقط، وهي – بلا شك- غير ملزمة لمن لا يجد أن الدليل من كتاب الله يثبتها، فمن تقبل هذه الأفكار فليتقبلها بقناعاته الشخصية وليتحمل مسؤولية قناعاته بنفسه، أما من رفض هذه الأفكار فهو بلا شك قد سلك الطريق الأقصر وربما الأسلم له ولمن حوله، قال تعالى:

- لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ(25)
- وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ(78)

دعاء: أعوذ بك ربي أن أكون ممن يضلون الناس بغير علم، وأعوذ بك ربي أن أكون ممن يظلون الناس عن علم، وأعوذ بك ربي أن أكون ممن يلوون ألسنتهم بالكتاب ليحسبه الناس من الكتاب، وأعوذ بك أن أكون ممن يقولون عليك الكذب وهم يعلم، إنك أنت الواسع العليم – آمين

أما بعد،

باب الصخرة

لو حاولنا تدبر قصة موسى مع ذلك الرجل، لوجدنا أن الصخرة حاضرة في المشهد بكل قوة. فموسى قد عاهد فتاه أن لا يبرح حتى يفعل شيئين اثنين، ألا وهما (1) أن يبلغ مجمع البحرين أو (2) أن يمضي حقبا:

- **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا(60)**

وبالفعل يبلغا معا مجمع بينهما، وهناك ينسيا حوتهما:

- **فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا(61)**

ولكن الرحلة – في مخيالنا- لم تتوقف هناك، فيتابعا الرحلة حقبا (أي الذهاب في البحر) معا، بدليل أنهما جاوزا مجمع بين البحرين:

- **فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا(62)**

وهناك يطلب موسى من فتاه أن يأتيهما غداءهما بعد أن لحق بهما النصب من أعباء تلك الرحلة الشاقة، وما أن يتناولا غداءهما حتى يتذكر الغلام – على وجه التحديد- ما حصل عند الصخرة:

- **قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا(63)**

فما كانت ردة فعل موسى على كلام فتاه هذا إلا على النحو التالي:

- **قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا(64)**

فيرتدا على آثارهما قصصا ليعودا مرة أخرى (نحن لازلنا نتخيل) إلى الصخرة نفسها ليجدا العبد الصالح هناك:

- **فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا(65)**

وهنا ننبري لنطرح سؤالنا الأول عن الصَّخْرَةِ: ما قصة تلك الصخرة؟

رأينا: لكي نتمكن من تقديم تصورنا عن تلك الصخرة، فلابد (نحن نظن) من طرح جملة من التساؤلات عنها، نذكر منها:

⇐ ما هي الصخرة؟

⇐ وأين هي تلك الصخرة؟

⇐ ولماذا أوى موسى مع فتاه إليها؟

⇐ وكيف أوى موسى مع فتاه إليها؟

⇐ وما علاقة الصخرة بالقصة كلها؟

⇐ وهل هناك معتقدات موروثة في الديانات السماوية عن الصخرة؟
⇐ وكيف ستسهم قصة تلك الصخرة في قصة يونس لتكون في مجملها ذكر للعالمين؟
⇐ الخ

بداية، لابد من ملاحظة أن جلّ ما فعله موسى مع فتاه هناك هو أنهما أويا إلى الصخرة، أليس كذلك؟

- **قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا(63)**

لتكون التساؤلات الدقيقة الآن هي:

⇐ لماذا أوى موسى مع فتاه إلى الصخرة؟
⇐ كيف أويا إلى الصخرة؟
⇐ وكم مكثوا من الزمن هناك؟
⇐ ولماذا تركوها ورحلوا عنها؟
⇐ الخ

جواب مفترى: مادام أنهما قد أويا إلى الصخرة، فإننا نفتري الظن أولا بأن مكوثهما هناك كان قصيرا، غير مقصود بذاته، فالذي يأوي إلى مكان ما لا يكون هدفه المكوث فيه إلى الأبد، فالفتية أووا إلى الكهف، لينشر لهم ربهم من رحمته هناك، ولم يكن ذلك بهدف المكوث فيه على الدوام:

- **وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته ويُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا(16)**

وتم إيواء مريم وابنها إلى ربوة ذات قرار ومعين، ربما لتتمكن من أن ترتاح من أعباء الوضع، ثم لتأكل وتشرب مما هو موجود هناك، ولتقر عينها:

- **وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ(50)**
- **فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا(26)**

نتيجة مفتراة: الذي يأوي إلى مكان يستفيد من المكان نفسه

ثانيا، لاشك عندنا أن من يأوي إلى مكان ما، فإن لدية غاية محددة، فابن نوح مثلا كان يريد أن يأوي إلى الجبل الذي (يظن أنه) سيعصمه من الماء:

- **قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ(43)**

وكانت غاية لوط من الإيواء إلى ركن شديد، ليتمكن من النجاة من مخططات القوم التي ظن أنها قد تلحق الأذى به وبضيوفه:

- **قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ(80)**

السؤال: كيف كان لوط يتخيل ذلك الركن الشديد الذي سيركن إليه؟

رأينا المفترى: لابد أنه مكان ما يجعله وضيوفه في مأمن من الخطر المحدق بهم من القوم

ثالثا، نحن نظن أن الإيواء يحمل في ثناياه الخلوة، فعندما آوى يوسف إليه أخاه، فهو قد خلا به من دون إخوته الآخرين جميعا:

- وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(69)

وكذلك فعل مع أبويه عندما دخلوا عليه:

- فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ(99)

ولا أظن أن أحدا كان يشارك الفتية كهفهم الذي أووا إليه (إلا كلبهم):

- إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا(10)
- وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا(18)

كما لا أعتقد أن أحدا من البشر كان حاضر عند تلك الربوة التي تم إيواء مريم وابنها إليها:

- وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ(50)

رابعا: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن فعل الإيواء يتطلب الصعود قليلا إلى الأعلى كما نتخيل ذلك ما حصل مع أصحاب الكهف:

- إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا(10)

للتفصيل حول ماهية الكهف وموقعه وجغرافيته انظر سلسلة مقالات كيف تم خلق عيسى بن مريم؟

وكما حصل فعلا مريم وابنها عندما تم إيوائهما إلى ربوة، فالربوة – في ظننا- مكان يرتفع قليلا عن ما حوله:

- وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ(50)

وكما عبر عن ذلك جليا ابن نوح في خطابه، حيث كان ينوي أن يؤوي إلى جبل:

- قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ(43)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن فعل الإيواء يتطلب وجود مكان خاص، ويتطلب أن لا يتوافر أحد من البشر فيه غير من حصل له فعل الإيواء، ويتطلب أن يستفيد الشخص من ذلك الإيواء، ويتطلب أن يكون من وراء ذلك هدف حقيقي، كما يتطلب الارتفاع قليلا عن مستوى المكان الذي كان يتواجد فيه الشخص قبل أن يقوم بفعل الإيواء.

السؤال: كيف يمكن تطبيق ذلك في حالة موسى وفتاه اللذين أويا إلى الصخرة؟

- قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا(63)

تخيلات مفتراة: مادام أن موسى قد أوى مع فتاه إلى الصخرة، فالصخرة إذن تقع في طريق الرحلة، ولا شك أن موسى وفتاه كانا مستفيدين من ذلك الإيواء، كما تواجدا عند الصخرة فما شاركهم فيها أحد من العالمين في تلك اللحظة التي كانا يأويان إليها، ولا شك أنهما قد ارتفعا قليلا عن السطح الذي كانا عليه قبل أن يأويان إلى الصخرة سواء كان ذلك السطح يابسة أو ماء.

وهنا تبرز تساؤلات أخرى ذات صلة بالموضوع نفسه، نذكر منها:

⇐ لماذا جاء ذكر الصخرة هنا؟
⇐ ولماذا جاء ذكرها على لسان فتى موسى؟
⇐ ولماذا جاء ذكرها بصيغة التعريف؟
⇐ الخ

رأينا المفترى: نحن نظن أنه مادام أن ذكر الصخرة قد جاء بصيغة التعريف، فهي إذا مألوفة لهم. فالصخرة بالنسبة لموسى وفتاة شيء معلوم من ذي قبل.

السؤال: ما هي تلك الصخرة التي كان موسى وفتاه يعرفانها؟ وهل هناك في طريق الرحلة كلها صخرة واحدة؟ أليس من المتوقع أن تكون هناك أكثر من صخرة؟ الخ.

جواب مفترى: نحن نظن أن طريق الرحلة ربما كانت مليئة بالصخر، ولكننا نؤمن يقينا بأن من بينها جميعا كان هناك صخرة واحدة مميزة عن بقية الصخور الأخرى (إن وجدت)، وهي تلك الصخرة التي أوى إليها موسى مع فتاه في طريق رحلتهما بحثا عن الحوت (وعن صاحبه).

السؤال: ما هي تلك الصخرة؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن تلك الصخرة تقع بين مجمع البحرين مباشرة.

الدليل

لو تدبرنا النص القرآني جيدا لربما وصلنا إلى الفهم بأنه ما أن بلغ موسى وفتاه مجمع البحرين حتى توجها مباشرة إلى تلك الصخرة ليأويا معا إليها فترة قصيرة من الزمن لهدف محدد ولغاية مقصودة، وهي التي (في ظننا) قد جاءا من أجلها: إنها مكان اللقاء مع ذلك العبد الصالح. فتوجها مباشرة إلى مجمع بين البحرين حيث تبرز تلك الصخرة (نحن نتخيل) فوق الماء قليلا.

تخيلات مفتراة: إذا كانت علامة لقاء موسى مع ذلك الرجل (كما افترينا سابقا) هو الحوت، فإن الصخرة هي – برأينا- المكان الذي كان من المفترض أن يأتي إليه الحوت مع صاحبه، ليحصل اللقاء بين موسى وذلك العبد الصالح.

السؤال: فما الذي حصل فعلا؟

رأينا: لما كان موسى شخصا يتعجل الأمور كما حصل مثلا في لقاءه مع ربه:

- **وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى (83) قَالَ هُمْ أُولَاء عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى(84)**

ولا يستطيع الصبر كثيرا، كما حصل له مع ذلك الرجل:

- **قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا(75)**

لم ينتظر موسى طويلا في المكان الذي أوى إليه مع فتاه، أي إلى الصخرة. فمكث موسى عند الصخرة فترة أقل مما يجب، ولما ظن (نحن لازلنا نتخيل) أنه لن يجد الرجل هناك، ترك موسى وفتاه تلك الصخرة (فما عادا يأويان إليها)، ثم تابعا ذهابهما في البحر (حقبا) حتى جاوزا مجمع البحرين حيث تقع تلك الصخرة.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: في خلال تلك الفترة التي ترك فيها موسى وفتاه تلك الصخرة التي أويا إليها قسطا من الزمن، جاء صاحب الحوت إلى هناك، فاتخذ الحوت سبيله في البحر عجبا، فما لمح ذلك إلا فتى موسى، ولكنه في البداية لم يكن ليعتقد بأن الحوت المقصود هو ذلك الحوت الذي اتخذ سبيله في البحر عجبا هناك، فابتعدا عن الصخرة في عرض البحر، ويكون موسى وفتاه قد ابتعدا عن المكان الذي كان من المفترض أن يجد فيه ذلك العبد الصالح، وبعد ذهاب في البحر لقسط من الزمن، ربما فقدا الأمل في العثور

على ذلك الرجل، وهناك توقف موسى عن البحث طالبا من فتاه أن يأتيهما بغدائهما من نصب تلك الرحلة. وما أن تناولا غداءهما حتى بدأ الفتى مراجعة شريط الأحداث وهناك بالضبط تذكر أنه رأى الحوت عند الصخرة التي أويا إليها:

- **قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا(63)**

فما كان موسى إلى أن يرتد مع فتاه على آثارهما قصصا، فعادا إلى حيث أويا في البداية، أي حيث الصخرة. وهناك وجد الرجل ربما جالسا:

- **فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا(65)**

فطلب موسى صحبته ليتعلم منه:

- **قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا(66)**

السؤال: لماذا كان فتى موسى هو من رأى ذلك الحوت وقد اتخذ سبيله في البحر سربا؟ لِم لم يلحظ موسى ذلك؟

جواب مفترى من عند صاحبنا محمد السيسي: لما كان موسى وفتاه واقفين عند مجمع البحرين، كان كل واحد منهما قد تكفل بمراقبة واحدا من البحرين، ففي حين أن موسى قد راقب البحر الأول مثلا كان فتاه مكلف في تلك الأثناء بمراقبة البحر الثاني، لذا جاء كلام الفتى لاحقا واضحا في تحميل مسؤولية النسيان على نفسه:

- **قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا(63)**

للتفصيل انظر سلسلة مقالات قصة موسى

السؤال مرة أخرى: لماذا كان الرجل متواجدا عند الصخرة؟ لِم لم يحصل اللقاء في أي مكان آخر؟ وهل كان من الممكن أن يحصل اللقاء في أي مكان غير تلك الصخرة؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: كلا وألف كلا. لابد من أن يكون اللقاء عند الصخرة.

السؤال: لماذا؟

خيال مفترى خطير جدا جدا (1): لأن تلك الصخرة هي – برأينا- المكان نفسه الذي نُبِذ فيه يونس (صاحب الحوت) في المرة الأولى. انتهى.

الدليل

لو رجعنا إلى قصة نجاة يونس من بطن الحوت، لوجدنا على الفور أنه قد نبذ في العراء، أليس كذلك؟

- **فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ(145)**

الافتراءات

⇐ حصل النبذ ليونس (فَنَبَذْنَاهُ)

⇐ حصل له النبذ بالعراء (فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ)

⇐ حصل له النبذ في العراء وهو في حالة السقم (فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ)

السؤال: ما معنى ذلك كله؟

أولا، باب النبذ

السؤال: ما معنى أن يونس قد نُبذ؟ فما وهو النبذ؟ وكيف يتم؟

أولا، نحن نظن أن النبذ يكون بالإبعاد:

- **وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ(101)**
- **كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ(4)**

ثانيا، ونحن نظن أن النبذ يكون بالإبعاد مكانيا، فما يعود المنبوذ في مدى بصر الآخرين كما فعل السامري عندما نبذ قبضة من أثر الرسول

- **قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي(96)**
- **كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ(4)**

ثالثا، نحن نظن أيضا أن النبذ يكون بالابتعاد عن الشيء الأساسي (أي عن الآخرين) وذلك لأنه غير مرغوب فيه، فالذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم هم لا شك غير راغبين فيه:

- **وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ(101)**

رابعا، نحن نظن أن النبذ يمكن أن يتم في أي مكان:

- **وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ(101)**
- **كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ(4)**

ولا يستثنى من ذلك النبذ في الماء كما في حالة فرعون وجنوده مثلا:

- **فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ(40)**
- **فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ(40)**

السؤال: كيف يمكن فهم ذلك في حالة يونس عندما نُبذ؟

رأينا المفترى: عندما نُبذ يونس، كان (نحن نتخيل) وحيدا، بعيدا عن الآخرين، وكان موجودا في مكان ما، يمكن أن يكون يابسة ويمكن أن يكون ماء لكن لا يراه أحد من البشر ليستطيع مساعدته.

ثانيا، باب العراء

السؤال: كيف نبذ يونس في العراء؟

رأينا المفترى: لو تفقدنا النص القرآني على مساحته لما وجدنا أن مفردة العراء على وجه التحديد قد وردت في سياق الحديث عن شخص آخر غير يونس (صاحب الحوت)، فقد جاءت في موضعين اثنين فقط وهما:

- **فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاء وَهُوَ سَقِيمٌ(145)**
- **لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاء وَهُوَ مَذْمُومٌ(49)**

السؤال: كيف نبذ يونس في العراء؟ وأين هو ذلك العراء الذي نبذ فيه؟

خيال مفترى خطير جدا جدا (2): نحن نظن بأن مفردة العراء تعني





1. عدم وجود نبات في المكان بدليل أنه قد أُنبتت عليه بعد ذلك شجرة من يقطين (وهذا ما ذكره الكثيرون من قبلنا)

- **فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاء وَهُوَ سَقِيمٌ (145) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ(146)**

2. عدم وجود تربة في ذلك المكان، فالمكان لا تربة فيه يمكن أن تنبت فيه النباتات (وهذا ما نتخيله نحن وربما لم يسبقنا إليه أحد من العالمين)

السؤال: أين هو ذلك المكان؟

خيال مفترى خطير جدا جدا (3): نحن نظن أن ذلك المكان الذي هو عراء (حيث نبذ صاحب الحوت) ليس موجود في الأرض ولا في السماء. انتهى.

ما الذي تقوله يا رجل؟ هل جننت؟ هل ذلك العراء الذي نبذ فيه يونس هو مكان لا نبات فيه ولا تربة فيه وليس موجود في الأرض ولا في السماء؟ هل تريدنا أن نصدق مثل هذا الخيال "المجنون"؟

رأينا: بداية نحن لا نلزم أحدا أن يصدق ما نقول ما لم يجد أن الدليل من كتاب الله يثبته، لكن دعنا نذكركم هنا مرة أخرى بسياق الآية التي تتحدث عن صاحب الحوت قبل المضي قدما في هذا النقاش:

- **لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاء وَهُوَ مَذْمُومٌ (49) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (50) وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (51) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ(52)**

نعم، نحن نظن أنه عندما يسمع الكثيرون منكم هذا الذكر، ربما ستكون ردة الفعل الأولى عنده هي أن يصنف قولنا هذا في باب الجنون (وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ)، ولكن ذلك – لا محالة- ذكر للعالمين شاء من شاء وغضب من غضب (وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ). وربما يبين للكثيرين ذلك بعد قليل، ولكننا نطلب منهم أن لا يزلقوننا بأبصارهم إن هم فعلا سمعوا الذكر في ذلك (وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ)

السؤال: وأين الذكر الذي تتحدث عنه؟ وكيف سنزلقك بأبصارنا ربما يزيد البعض قائلا؟ لم نفهم شيئا.

رأينا المفترى: نحن نظن أن الذكر الذي نقصده هو ربط الآيات مع بعضها البعض ليبين للقارئ صحة افتراءنا بأن "الْعَرَاء" الذي نبذ به يونس هو مكان غير موجود في الأرض ولا في السماء. فهل تصدقون ذلك (يا سادة)؟

جواب مفترى: إذا كان يصعب عليكم – يا سادة – تصديق ذلك، فدعنا نتحاكم وإياكم إلى كتاب الله، لتروا بأم أعينكم أن الْعَرَاء الذي نُبذ به يونس غير موجود في السموات ولا في الأرض، ويكفينا هنا أن نذكركم بالآية الكريمة التي وضعناها في بداية هذه المقالة مباشرة تحت عنوانها الرئيس، لنتدبرها معا من هذا الباب، والآية هي قوله تعالى:

- **يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ(16)**

والآن دقق – عزيزي القارئ- مليّا بهذه الآية الكريمة ولا تتعجل، فنحن نظن أن فيها ما تحير له الألباب، وتنقل المتدبر إلى مرحلة هي أقرب للجنون منها للركون إلى مسلمات الفكر الكسول، الذي يعول على نفسه أكثر من تدبره للنص نفسه، ففي هذه الآية الكريمة ما يجعلنا نضع العقل في الكف (كما يقول المثل الشعبي)،

ولننظر كيف دأب الكثيرون على التفكر طوال هذه القرون من الزمن بعيدا عن القول الفصل الذي تسطره مفردات الآية نفسها.

السؤال: كيف ذلك؟ لم أفهم شيئا؟ ربما يريد صاحبنا أن يسأل.

منطقنا المفترى: ألا ترى - عزيزي القارئ- أن الآية الكريمة تتحدث عن ثلاثة أماكن يمكن أن تتواجد بها مثقال الحبة من خردل؟

- **يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ(16)**

ألا وهي:

⇐ صخرة (فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ)

⇐ السماوات (فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ)

⇐ الأرض (فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ)

السؤال: هل تلك الصخرة جزء من الأرض؟ أم هل هي جزء من السماوات؟ أم هل هي منفصلة تماما عن السموات والأرض؟

جواب مفترى 1: نحن نظن أن تلك الصخرة ليست جزء من السموات لأنها لو كانت جزء من السماوات لما كان هناك داع لذكرها لأن ذلك يصبح من باب الإطناب والحشو في الكلام الذي لا فائدة منه، وهو ما ننفيه جملة وتفصيلا عن النص القرآني لأنه كلام الله المقصود بلفظه، فلا زيادة تشوبه ولا نقص يعيبه، انتهى.

جواب مفترى 2: نحن نظن أن تلك الصخرة ليست جزء من الأرض لأنها لو كانت جزء من الأرض لما كان هناك داع لذكرها لأن ذلك يصبح من باب الإطناب والحشو في الكلام الذي لا فائدة منه، وهو ما ننفيه جملة وتفصيلا عن النص القرآني لأنه كلام الله المقصود بلفظه، فلا زيادة تشوبه ولا نقص يعيبه، انتهى.

جواب مفترى 3: نحن نظن أن تلك الصخرة هي كينونة مستقلة بذاتها، منفصلة عن السماوات ومنفصلة أيضا عن الأرض.

نتيجة خطيرة جدا جدا: نحن نفتري القول بأن تلك الصخرة التي جاء الحديث عنها في سياق الآية الكريمة (فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ) هي صخرة مميزة جدا مادام أنها ليست جزءا من السموات ومادام أنها ليست جزءا من الأرض.

السؤال الكبير جدا جدا: ما هي تلك الصخرة التي ليست جزء من السموات أو الأرض؟ وأين تقع تلك الصخرة إذن؟

رأينا المفترى: قبل محاولتنا تقديم إجابتنا المفتراة من عند أنفسنا على هذا التساؤل، ربما نجد من الضروري إعادة ربط القصة بالتراث الديني المتوافر بين أيدينا والذي نظن أنه قد أصابه التشويه (من اللذين كانوا يحرفون الكلم من بعد مواضعه)، فبالرغم أن للقصة – لا شك عندنا- أصول دينية حقيقية إلا أن تفاصيلها المتوافرة بين أيدي الناس قد شوهت كثيرا بما خطته أقلام أهل العلم. ونحن نقصد هنا قصة ما يسمى بـ "قبة الصخرة" في القدس الشريف على وجه التحديد. فالموروثات الشعبية قد سطرت حولها ما يشبه الأساطير، كارتفاع تلك الصخرة عن الأرض في رحلة المعراج المزعومة مثلا.

رأينا المفترى: إذا كنا ننفي تفصيل تلك الحكاية الشعبية عن الصخرة، فإن جملتها لدينا موثوقة في شيء واحد وهو الإرث الديني الحقيقي الذي مفاده بأن هناك صخرة (بغض النظر عن مكانها) هي ليست من الأرض مادامت أنها قد ارتفعت عن الأرض وهي ليست من السماء مادام أنها لم تعرج فيها. لذا بقيت معلقة (في مخيالهم بين السماء والأرض). أما نحن فإننا نكذب رواياتهم في النقاط التالية:

- ⇐ أن هناك معراج إلى السماء قد حصل
- ⇐ أن الصخرة قد ارتفعت عن الأرض
- ⇐ أن تلك الصخرة الموجودة في القدس هي الصخرة التي لها أصول دينية حقيقية
- ⇐ الخ.

لنفتري من عند أنفسنا البديل بما يلي:

- ⇐ أن هناك صخرة لها ميزة خاصة وقصة دينية عظيمة الأثر والتأثير في التراث الديني
- ⇐ أن تلك الصخرة قد ارتبطت بإرث موسى الديني
- ⇐ أن تلك الصخرة ليست في السماء ولا في الأرض
- ⇐ أن تلك الصخرة هي التي أوى إليها موسى وفتاه، وهي الموجودة بين مجمع البحرين
- ⇐ الخ.

السؤال: ما الذي حصل فعلا؟

رأينا المفترى: لمّا كانت الصخرة واحدة من الأحداث المميزة في سيرة نبي الله موسى، لم تسلم من التحريف والتبديل على أيدي اللذين كانت مهمتهم على الدوام تحريف الكلم عن مواضعه. وبدل أن يبحثوا عن تفاصيل القصة الحقيقية في النصوص الدينية الموثوق بها، طارت خيالاتهم شرقا وغربا لرسم الأساطير ونسج الحكايات حولها عن علم تارة ومن دون علم تارة أخرى، فاختلطت الأمور على الناس بعد أن حرّف أهل العلم قصتها الحقيقية، فأخفقوا في تحديد مكانها الحقيقي، وشطوا في تفسير أهميتها، حتى استقر بهم الحال في نهاية المطاف إلى تقديس مكان معين في القدس أسموه الصخرة. ثم ما لبث أن انتقلت تلك "الخزعبلات" المكذوبة بتفاصيلها بحلوها ومرها من شروحات التوراة في التلمود وأقول علماء صهيون لتستقر (ربما دون تمحيص ولا تدليل) في بعض بطون كتب المسلمين، فعلت حناجر الكثيرين من أهل الرواية بمثل تلك القصص التي صعب على أهل الدراية منهم جلب الدليل على إثباتها أو نفيها. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد حتى طارت خيالات الآخرين حول فكرة وجود الصخرة في قصصهم الأخرى من مثل قصة الناقة التي أخرجها البعض منهم من صخرة. بالرغم أن أحدا منهم لم يسأل ولم يثبت كيف أو متى خرجت تلك الناقة (إن صحت أقوالهم) من صخرة على وجه التحديد.

رأينا: أما نحن، فإننا نحاول أن نعيد قراءة قصة تلك الصخرة من المصادر الموثوق بها، وهو كتاب الله وحده، وذلك لقناعتنا الراسخة بما جاء فيه، فهو الكتاب الوحيد الذي يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه مختلفون، ولا يستثنى من ذلك – برأينا- موضوع الصخرة:

- **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(76)**

السؤال: ما قصة الصخرة الحقيقية؟

خيال مفترى خطير جدا جدا (4): نحن نظن أن تلك الصخرة التي ليست جزء من السموات أو الأرض التي جاء ذكرها في الآية الكريمة التالية:

- **يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ(16)**

هي الصخرة نفسها التي جاء الحديث عنها على لسان فتى موسى في الآية الخاصة بقصة موسى مع ذلك العبد الصالح الذي ذهب موسى باحثا عنه ليتعلم منه:

- **قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا(63)**

السؤال: ما علاقة الصخرة بالعراء الذي نبذ به يونس؟

- **فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاء وَهُوَ سَقِيمٌ(145)**
- **لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاء وَهُوَ مَذْمُومٌ(49)**

رأينا: نحن نظن أن العلاقة مباشرة شريطة أن نفهم ما هو العراء أصلا. فلقد افترينا الظن سابقا أن المكان (أي مكان) يصبح عراء إذا توافر فيه شرطان اثنان، وهما:

1. عدم وجود النبات
2. عدم وجود التراب

الدليل

ربما لا يحتاج القارئ الكريم إلى إثبات أن العراء يخلو من النبات، فهذا مسطّر في كتب أهل الدراية، وهو مطبوع في أذهان الناس جميعا، العالِم منهم والمتعلم. كما يمكن الإشارة إليه بجلب السياق القرآني نفسه الذي يبيّن بأن الله قد أنبت على يونس شجرة من يقطين بعد أن نُبذ بالعراء، ولو كان المكان متوافرا فيه الشجر ربما (نحن نظن) ما دعت الحاجة إلى ذلك:

- **فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاء وَهُوَ سَقِيمٌ (145) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ(146)**

لكننا نبقى – لا شك- مدينين للقارئ الكريم بجلب الدليل الذي يثبت أن العراء هو مكان لا تربة فيه، فأين يمكن جلب الدليل على ذلك؟

رأينا المفترى: دعنا نتدبر قول الله تعالى في الآية الكريمة التالية:

- **إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى(118)**

السؤال: ما معنى أن تعرى في هذه الآية الكريمة؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن مهمة الشيطان للإطاحة بآدم وزوجه كانت تتمثل بأن ينزع عنهما لباسهما النوراني الذي ألبسهما الله إياه في الجنة فلا تكشف سوءاتهما:

- **يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ(27)**

وبالفعل استطاع الشيطان أن ينزع عنهما لباسهما فأصاب آدم وزوجه العري، فأخذا يخصفان عليهما من ورق الجنة لستر تلك السوءة:

- **فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى(121)**

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن العري هو نزع اللباس عن الشيء لتبان سوءته

خيال مفترى خطير جدا جدا (5): المكان الذي أصابه التعري (أو عوامل التعرية كما تعلمنا في دروس الجغرافيا المدرسية) هو المكان الذي لا تراب فيه، فبان الصخر من تحته. انتهى.

السؤال: ما علاقة ذلك بقصة يونس ؟

جواب مفترى: عندما التقم يونس الحوت، كان الحوت في داخل الماء، ولكن الحوت التقم يونس من الماء، ليخلصه من الغرق، فحمله من عرض البحر وتوجه به نحو مجمع البحرين، وهناك كانت الصخرة التي هي عراء، فنبذ يونس بها وهو سقيم.

نتيجة مفتراة: تلك الصخرة هي العراء الذي نبذ فيه يونس وهو سقيم، وهي الصخرة التي سطّرت حولها الأساطير الشعبية التي حرفت الكلم عن مواضعه، وهي الصخرة التي ليست جزءا من السموات ولا جزءا من الأرض، وهي نفسها التي جاء ذكرها في الآية الكريمة التالية التي تبين أنها ليست من هذه ولا من تلك:

- **يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ(16)**

الدليل: معنى مفردة السموات والأرض

السؤال: ما معنى مفردة الأرض؟

افتراء 1: نحن بداية نفتري الظن من عند أنفسنا أن مفردة الأرض التي ترد في النص القرآني لا تشير في كل سياقاتها القرآنية إلى ما نسميه في أيامنا بـ "الكرة الأرضية"، وإنما تدل على اليابسة فقط، ومصداق ذلك قوله تعالى:

- **وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ البقرة(61)**

السؤال: هل يمكن للبحار والمحيطات أن تنبت؟

ويمكن للأرض أن تثيرها البقر:

- **قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ(71)**

السؤال: هل يمكن للبقر أن يثير المحيطات والبحار والأنهار؟

والأرض يمكن أن تموت وتحيا، ويتم ذلك بنزول الماء عليها:

- **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(164)**

السؤال: هل يمكن للبحار والمحيطات أن تحيا بعد نزول الماء عليها من السماء؟ وهل يمكن لها أن تموت إذا ما توقف نزول الماء عليها من السماء؟

نتيجة مفتراة مهمة جدا: نحن نعتقد جازمين أن الأرض هي التي تنبت. والأرض هي التي يمكن للبقر أن يثيرها، والأرض هي التي تحيا وتموت بنزول المطر عليها أو توقف نزول المطر عنها. انتهى.
نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا: بناء على ما سبق، فإننا نتجرأ على افتراء الظن بأن الكتلة المائية الموجودة على سطح الأرض (كالأنهار والبحيرات والبحار والمحيطات) ليست من الأرض.

افتراء 2: لمّا كانت الأرض – في ظننا- لا تعني الكرة الأرضية وإنما اليابسة منها، بحثنا أكثر في السياقات القرآنية، فوجدنا أن هناك سياقات أخرى عديدة تشير بشكل لا لبس فيه أن مفردة الأرض لا تعني كل اليابسة، فعندما يشير القرآن إلى اليابسة كلها فإنه يستخدم عبارة "الأرض جميعا" كما في السياقات القرآنية التالية:

- **هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ البقرة(29)**
- **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ الزمر(67)**

وإليك عزيزي القارئ بعض الأدلة التي ربما تشير إلى صحة هذا الافتراء الذي هو بلا شك من عند أنفسنا:

أولاً، فهذا يوسف مثلاً يطلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض:

- **قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ يوسف(55)**

السؤال: فهل كان يوسف يتولى خزائن الأرض كلها أم فقط خزائن مصر؟

ثانياً، وهذا أحد إخوة يوسف (وهو كبيرهم) يقسم أن لا يبرح الأرض، قال تعالى:

- **فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ(80)**

السؤال: فهل رفض كبير إخوة يوسف أن يبرح الأرض كلها أم المكان الذي يتواجد فيه وهي أرض مصر؟

ثالثاً، قال تعالى:

- **وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا الإسراء(104)**

فهل سكن من نجا مع موسى الأرض كلها أم أرض مصر؟

رابعاً، قال تعالى:

- **فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ القصص(81)**
- **فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ ۖ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ العنكبوت(40)**

السؤال: فهل خُسفت الأرض كلها بقارون وبداره أم هل هي فقط تلك الأرض التي كان يقطنها وهي جزء من أرض مصر؟

ثم لنحاول أن نتدبر النص القرآني التالي الذي يتحدث عن قصة موسى مع فرعون كما وردت في سورة طه:

- اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (42) اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (44) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ (45) قَالَ لَا تَخَافَاۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (46) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَۖ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ (47) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (48) قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (49) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (50) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ (51) قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍۖ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (52) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّىٰ (53) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ (54) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ (55) وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ (56) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ(57)

وها هي القصة تتكرر في سورة الدخان:

- فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (22) فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (23) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًاۖ إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (24) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (26) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (27) كَذَٰلِكَۖ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (28) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (29) وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ(30)

ربما يدرك المتدبر للسياقات القرآنية أنّ الحديث هنا عن قصة بني إسرائيل، وأن الخطاب الرباني جاء ليبين أن بني إسرائيل قد ورثوا الأرض التي خسرها فرعون (كَذَٰلِكَۖ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ)، وأن تلك الأرض لم تبكي على بني إسرائيل عندما خسروها، ولا أخال أنّ المقصود هنا غير الأرض التي خسروها.

إن الملفت للانتباه هنا هو – برأينا- التطابق القرآني في قصة بني إسرائيل عند الحديث عن الأرض وقصة آدم وزوجه على الأرض، ففي السياق السابق الموجه إلى بني إسرائيل جاء الخطاب على النحو التالي:

- الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّىٰ (53) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ (54) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ(55)

وجاء الخطاب الذي وجه لآدم ومن هبط معه على النحو التالي:

- قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (24) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ(25)

الأمر الذي يدعونا إلى الاستنباط من عند أنفسنا بأنّ الخطاب عن الأرض جاء في القران الكريم على صيغ أربع:

الخطاب عن الأرض كلها ككتلة واحدة، وتكون مفردة الأرض غير مسبوقة بحرف جر، قال تعالى:

- قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْۖ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ(33)

الخطاب عن الأرض كلها، وتكون مفردة الأرض مسبوقة بحرف جر:

- وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ(109)
- إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا(7)

الخطاب عن جزء من الأرض، وتكون مفردة الأرض مسبوقة بحرف جر

- **إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ۚ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا النساء(97)**

الخطاب عن جزء من الأرض، وتكون مفردة الأرض غير مسبوقة بحرف جر، قال تعالى:

- **وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا الإسراء(104)**

إن ما يهمنا قوله هنا هو أنّ الخطاب عن الأرض يدل على المنطقة اليابسة وعلى جزء منها وليس جميعها كما في قصة بني إسرائيل اللذين أورثهم الله مشارق الأرض:

- **وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ الأعراف(137)**

لنخلص إلى النتيجة التالية التي نظن أنها غاية في الأهمية ألا وهي: أن الماء يمكن أن يقسم الأرض، فما وقع شرق البحر (النهر) هو أرض وما كان واقعا غربه فهي أيضا أرض. وهنا يتحدث النص القرآني عن ميراث الأرض، وتتأكد فكرة ميراث الأرض في قوله تعالى:

- **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ الأنبياء(105)**

تلك هي – في ظننا- الأرض التي يتحدث عنها النص القرآني إذا كان المقصود جزءا من الأرض وليس الأرض بأكملها، وسؤالنا هو: هل يرث الأرض (كل الأرض) عباد الله الصالحون؟ فلو كان الأمر على هذه الشاكلة، لما كان لغير عباد الله الصالحين موطئ قدم على الأرض، ولكن الأرض التي تتحدث عنها الآية الكريمة هي جزء من الأرض، ونحن نزعم الظن أنها هي تلك التي تحدث عنها النص القرآني في خطاب المستضعفين في الأرض من قوم موسى.

ولتأكيد فكرة أن مفردة الأرض قد تعني جزءاً من الأرض وليس الأرض كلها نورد الدليل الذي نظن أنه قد يكون حاسما من كتاب الله نفسه، قال تعالى:

- **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ الزمر(67)**

ونحن نتساءل عن سبب ورود كلمة جميعاً في هذا السياق، أي لم قال الله تعالى: وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ؟ أليست الأرض حينئذ بقبضة الله؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن ذلك يصبح من الإطناب غير الضروري إن كانت الأرض كتلة واحدة في قبضة الرحمن. لذا نحن نفتري الظن بأن ورود كلمة جميعاً في قوله تعالى (وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ) ربما لتدل على أنّ الأرض هي مقسمة إلى أجزاء، حيث يشكّل كل جزء أرضا مستقلة تكون جميعا في يد الرحمن. إن مراد القول أن كل قطعة (كتلة) من الأرض هي أرض، فأرض مدين هي أرض، وأرض قوم صالح هي أرض، وأرض قوم نوح هي أرض، وقارة آسيا هي أرض وقارة أفريقيا هي أرض، وتكون يوم القيامة جميعاً قبضة الرحمن لا ينفلت منها شيء.

في ضوء الآية الكريمة نفسها (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ).

السؤال: ما معنى مفردة السموات؟

افتراء 1: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن السماء (كما نفهمها من النص القرآني) تعني كل ارتفاع عن سطح الأرض بغض النظر عن مقداره، فالله ينزل لنا الماء من السماء بالرغم أنها تأتي من الغيوم التي قد تلامس سطح الأرض:

- **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ(22)**

فالسحاب الذي يحمل المطر مبسوط في السماء:

- **اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاء كَيْفَ يَشَاء وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ(48)**

والسماء تبدأ بوجود الغازات الضرورية لعملية التنفس وتستمر السماء مع تناقص تلك الغازات:

- **فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ(125)**

وهذه - برأينا - هي منطقة جو السماء التي أصبحت الطيور مسخرات فيها:

- **أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(79)**

وتبدأ السماء مع فرع الشجرة:

- **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء(24)**

للتفصيل انظر سلسلة مقالات كيف تم خلق عيسى بن مريم؟ لترى رأينا بكيفية هز مريم لجذع الشجرة، ثم للتفريق بين جذوع النخل وفرعها

والسماء هي المرفوعة بغير عمد نراها:

- **اللّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ(2)**
- **خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ(10)**

نتيجة مفتراة: نحن نظن بأن كل ما فوق الأرض فهو سماء:

- **أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ(6)**

افتراء مهم: نحن نظن أن الآيات الكريمة التالية تصور لنا عملية الحركة من وإلى الأرض (الولوج والخروج) ومن وإلى السماء (نزول و عروج):

- **يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ(2)**
- **هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(4)**

نتيجة مهمة جدا جدا: إن أي حركة إلى الأعلى عن سطح الأرض بغض النظر عن مقدارها تؤدي بك للخروج من الأرض والعروج في السماء
نتيجة مهمة جدا جدا: نحن نفتري الظن أيضا بأن النزول من السماء لا يتم إلا بعد أن يصل الشيء النازل منها إلى الأرض.

الدليل

نحن نظن أن الماء النازل من السماء إلى الأرض لا يكتمل تنزيله ما لم يستقر على الأرض حتى تستفيد منه الأرض لتخرج به الثمرات من الرزق:

- **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ(22)**

ولا أظن أن المن والسلوى قد نزلت لو أنها لم تستقر على الأرض، وكذلك كانت المائدة:

- **وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(57)**

ولو أن القرآن الكريم بقي معلقا بين السماء والأرض لما كان ذلك قد نزل علينا:

- **شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(185)**

وكذلك هو تنزيل الكتاب:

- **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(213)**

للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته- الجزء الرابع عشر،
والهدف هو فهم الآية الكريمة التي تتحدث عن أقطار السموات والأرض:

- **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ الرحمن((33)**

نتائج مهمة جدا ذات علاقة بفحوى النقاش هنا

السؤال: ما مفرد كلمة الأرض؟
رأينا المفترى: الأرض

- **وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا الإسراء(104)**

السؤال: ما جمع كلمة الأرض؟
رأينا المفترى: الأرض

- وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ الزمر(67)
- اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا(12)

السؤال: ما مفرد كلمة سماء؟

رأينا المفترى: السماء

- أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ(6)

السؤال: ما جمع كلمة سماء؟

رأينا المفترى: السموات

- خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ(10)

عودة على بدء

أجرينا هذا النقاش هنا لغاية محددة ألا وهي إثبات افتراءنا بأن الصخرة شيء والأرض شيء آخر وأن السماء شيء ثالث مستقل، وأن تلك الصخرة (موضوع نقاشنا) ليست جزءا من الأرض، ولو كان الأمر على نحو أن الصخرة جزء من الأرض (كما قد يظن القارئ فور قراءته للآية الكريمة، لربما جاء الترتيب في الآية الكريمة بشكل مغاير. فلو أمعنا النظر في الآية الكريمة نفسها التي تتحدث عن تلك الصخرة لوجدناها قد أفردت بعيدا عن الأرض لتفصل بينهما مفردة السموات. فجاء الترتيب على النحو التالي (فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ) :

- يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ(16)

ولو كان ظن المخالف لرأينا صحيحا لربما جاءت مفردة الأرض سابقة أو لاحقة مباشرة لمفردة الصخرة على النحو التالي:

فتكن في صخرة أو في الأرض أو في السموات

أو على النحو التالي:

فتكن في الأرض أو في صخرة أو في السموات

أو على النحو التالي:

في السموات أو في صخرة أو في الأرض

أو على النحو التالي:

في السموات أو في الأرض أو في صخرة

السؤال: لماذا جاءت مفردة الصخرة منفصلة عن مفردة الأرض تماما؟ أو لماذا توسطت مفردة السموات بين الصخرة من جهة والأرض من جهة أخرى في الآية الكريمة (فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ)؟

رأينا المفترى: كما أنه يصعب علينا تخيل أن تكون الصخرة جزءا من السماء فلا يجب أن نتخيل بأنها جزء من الأرض، فهي مكان يقبع بين السماء والأرض، فلا هي جزء من هذه ولا جزء من تلك؟

السؤال: أين هي إذن؟

رأينا المفترى: إنها تقع بين السماء والأرض؟

السؤال المحيّر: إذا كنت قد زعمت بأن الأرض هي سطح اليابسة وأن كل ما علا ذلك هو جزء من السماء، فأين هي المنطقة التي تقع بين السماء والأرض كما تصور ذلك آيات الكتاب الكريم؟

- لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(17)
- وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ(18)
- وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ(85)
- رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا(65)
- لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ(6)
- وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ(16)
- الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا(59)
- قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ(24)
- قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ(28)
- أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ(8)
- اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ(4)
- رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ(5)
- أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ(10)
- وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ(27)
- رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ(66)
- وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(85)
- رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ(7)
- وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ(38)
- مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ(3)
- وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ(38)
- رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا(37)

نتيجة مفتراة 1: نحن نفتري الظن بأن الأرض هي التي تنبيت، أي سطح اليابسة

نتيجة مفتراة 2: نحن نفتري الظن بأن ما تحت سطح اليابسة هو ليس أرضا وإنما هو ما تحت الثرى

- لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ(6)

نتيجة مفتراة 1: نحن نظن أن كل ما ارتفع عن سطح اليابسة هي سماء
نتيجة مفتراة 2: نحن نظن أن هناك ما يسمى ما بين السماء والأرض. فما هو؟

رأينا المفترى والخطير جدا: إنه الماء الذي على سطح الأرض، فالمسطحات المائية المتواجدة على سطح الأرض من المحيطات والبحار والبحيرات والأنهار هي المنطقة التي تسمى في النص القرآني (حسب زعمنا) مَا بَيْنَهُمَا، أي ما بين السماء والأرض.

عودة على بدء: إن هذا الافتراء الخطير يقودنا إلى الظن بأن تلك الصخرة التي تحدث عنها النص القرآني في الآية الكريمة التالية:

- **يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ(16)**

هي موجودة في مسطح ماء، ترتفع عنه قليلا، يمكن أن تشكل مكانا يؤوي إليه من كان في البحر. وهي نفسها التي أوى إليها موسى مع فتاه عندما كانا ذاهبين في رحلتهما البحرية بحثا عن صاحب الحوت:

- **قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا(63)**

الدليل

نحن نظن أن هناك معضلة خطيرة جدا في الفكر الديني تتمثل بطرح الملاحظة التالية بعد تدبر الآيات الكريمة التي تتحدث عن رب السموات والأرض وما بينهما:

- **رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ(7)**

فالله هو من له ما في السموات وما وفي الأرض وما بينهما وما تحت الثرى، أليس كذلك؟

- **لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ(6)**

السؤال: إذا كان الله هو رب السموات والأرض وما بينهما، فكيف يمكن أن نفهم قوله تعالى في الآية الكريمة التالية:

- **وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ(84)**

فهل الله هو إله ما بينهما؟

رأينا المفترى: كلا وألف كلا. الله ليس إله ما بين السماء والأرض ولكنه رب ما بينهما فقط. انتهى.

نتائج مفتراة:

⇐ أولا، الله رب السموات وهو إله في السماء

⇐ ثانيا، الله هو رب الأرض وهو إله في الأرض

⇐ ثالثا: الله هو رب ما بين السماء والأرض ولكنه ليس إله ما بين السماء والأرض، ويمكن توضيح ذلك بالشكل التالي:

السماوات	الأرض	ما بينهما
رب	رب	رب
إله	إله	x

تبعات هذا ا الظن

السؤال: ما معنى أن يكون الله هو رب السموات والأرض وما بينهما؟
رأينا المفترى: نحن نظن أن ذلك يعني أن الله هو المتحكم بذلك كله
السؤال: ما معنى أن يكون الله هو إله السموات والأرض فقط؟
رأينا المفترى: نحن نظن أن المكلف بعبادة الله موجود فقط في السموات والأرض.
السؤال المفترى: ما معنى أن يكون الله ليس بإله ما بين السموات والأرض؟
رأينا المفترى: نحن نعتقد أن المخلوقات المتواجدة بين السموات والأرض (أي الكائنات البحرية بكل أشكالها وأنواعها) ليست مكلفة بعبادة الله، وهي مسخرة لمن في الأرض فقط
السؤال: لماذا نأكل صيد البحر وطعامه؟ أي لماذا نأكل كل الكائنات البحرية حتى وإن كانت مفترسة؟
رأينا المفترى: لأن تلك الكائنات غير مكلّفة بالعبادة، فالله هو ربها ولكنه ليس إله لها. انتهى.
للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان ما يؤكل وما لا يؤكل

عودة على بدء

عندما نبذ يونس من بطن الحوت، كان المكان الذي أووي إليه هو العراء:

- **فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاء وَهُوَ سَقِيمٌ (145) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ(146)**

وهناك أنبتت عليه شجرة من يقطين، لتكون له شفاء (نحن نظن) من السقم الذي أصابه. فكيف حصل ذلك؟ وأين حصل ذلك؟ وما علاقة ذلك كله بالصخرة التي أوى إليها موسى مع صاحبه؟ وأين هي تلك الصخرة التي حصل اللقاء عندها؟

ثالثا، باب وهو سقيم

- **فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاء وَهُوَ سَقِيمٌ (145) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ(146)**

السؤال: كيف نبذ يونس بالعراء وهو سقيم؟
رأينا: كان يونس هو من أبق إلى الفلك المشحون بنفسه:

- **إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ(140)**

وكان قبل أن يلتقمه الحوت مساهما، وحصل له الدحض مع آخرين:

- **فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنْ الْمُدْحَضِينَ(141)**

لذا، كان يونس في تلك اللحظة (نحن نتخيل) في أقصى درجات قوته البدنية، لدرجة أن شعوره حينئذ كان على نحو أن لا يقدر عليه:

- **وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(87)**

ولكن ما أن التقمه الحوت، حتى دخل في الظلمات، وهناك نادى بندائه الشهير: أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ.
وما أن حصلت الاستجابة الربانية له حتى كان بطن الحوت (نحن نفتري القول) قد أخذ من يونس مأخذا عظيما، فما نبذ يونس بالعراء حتى كان السقم هو نصيبه:

- **فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاء وَهُوَ سَقِيمٌ(145)**

السؤال: لماذا نبذ يونس بالعراء (أي إلى تلك الصخرة)؟

رأينا المفترى: ليتم شفاءه من السقم الذي لحق به جراء بقاءه فترة من الزمن في بطن الحوت:

السؤال: وكيف تم شفاءه من ذلك السقم؟

رأينا المفترى: بواسطة شجرة من يقطين؟

- **فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاء وَهُوَ سَقِيمٌ (145) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ(146)**

السؤال: ما هي تلك الشجرة إذن؟

خيال مفترى خطير جدا جدا (6): نحن نفتري القول بأن تلك الشجرة هي التي نبتت بتلك الصخرة (أي بالعراء)

السؤال: وكيف تنبت شجرة في صخرة؟ هل يمكن أن تنبت شجرة في صخرة؟

جواب: نعم، يمكن أن تنبت شجرة بالعراء (أي في صخرة)

السؤال: وما هي تلك الشجرة؟

خيال مفترى خطير جدا جدا (7): نحن نفتري القول بأنها الشجرة التي نبتت من حبة الخردل التي جاء ذكرها في الآية الكريمة سالفة الذكر:

- **يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ(16)**

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن الحوت قد حمل يونس من داخل البحر في بطنه، وانطلق به إلى تلك الصخرة التي هي عند مجمع البحرين، وهناك أفرغ ذلك الحوت حمولته، فأصبح يونس منبوذا في العراء سقيما من جراء ما لحق به من الأذى في بطن الحوت. وهناك أنبت الله على يونس شجرة من فصيلة اليقطين (شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ)، فكانت في تلك الصخرة (التي ليست جزءا من السموات ولا من الأرض) حبة من خردل، فنبتت تلك الحبة حتى أصبحت شجرة من يقطين، فكان في تلك الشجرة الشفاء التام ليونس من سقمه.

السؤال: ما هي تلك الشجرة وأين توجد؟

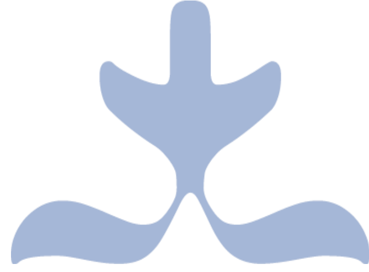
خيال مفترى خطير جدا جدا (8): إنها نوع من أنواع الأشجار المرجانية التي تنبت في صخور البحر، وخاصة تلك التي تتميز بها شطئان (coral reefs) البحر الأحمر المرجانية أو coral reefs باللسان الأعجمي.

خيال مفترى خطير جدا جدا: نحن ندعوكم – يا سادة- للذهاب في رحلة بحرية إلى تلك الشعب المرجانية والبحث هناك فيها عن شجرة من يقطين فيها شفاء من السقم، ليكون هذا الذكر (إن صح منطقنا المفترى هذا) ذكر للعالمين.

- **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاء وَهُوَ مَذْمُومٌ (49) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (50) وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (51) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ(52)**

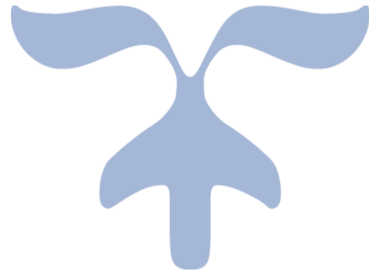
فهل أنا مجنون؟ من يدري؟!!!

والله أعلم



قصة يونس

الجزء الحادي عشر



قصة يونس: الجزء الحادي عشر

- **وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ(163)**

أما بعد،

أنهينا الجزء السابق من هذه المقالة بافتراء الظن من عند أنفسنا بأن الشجرة التي أُنبتت على يونس يوم أن أُلقي في العراء سقيما قد نبتت من حبة الخردل التي كانت متواجدة في تلك الصخرة التي لم تكن جزء من السموات ولا من الأرض، وهي – برأينا- التي جاء ذكرها في الآية الكريمة التالية:

- **يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ(16)**

وكان خيالنا عن ما حصل في تلك اللحظة قد وصل إلى التصور بأن الحوت قد حمل يونس من داخل البحر في بطنه، وانطلق به إلى تلك الصخرة التي هي عند مجمع البحرين، وهناك أفرغ ذلك الحوت حمولته، فأصبح يونس منبوذا في العراء، سقيما من جراء ما لحق به من الأذى في بطن الحوت. وهناك أُنبت عليه شجرة من فصيلة اليقطين (شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ)، فكان في تلك الشجرة الشفاء التام ليونس من سقمه. وقد وصل بنا الخيال إلى الظن بأن تلك الشجرة هي نوع من أنواع الأشجار المرجانية التي تنبت في صخور البحر، وخاصة تلك التي تتميز بها شطئان البحر الأحمر المرجانية) أو coral reefs باللسان الأعجمي) .(للتفصيل انظر الجزء السابق من هذه المقالة).

تساؤلات جديدة

⇐ كيف علم موسى عن ذلك الحوت وعن صاحبه؟

⇐ ولماذا جاء مع فتاه إلى هناك؟

⇐ وما الذي حصل في نهاية رحلة موسى مع الرجل؟

⇐ وما علاقة ذلك الحوت بقصة حيتان البحر التي جاء ذكرها في الآية الكريمة التالية؟

- **وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ(163)**

⇐ وما علاقة ذلك بقصة تلك القرية التي كانت حاضرة البحر؟

⇐ وما هي تلك القرية التي كانت حاضرة البحر؟

⇐ وما علاقة ذلك بنهي بني إسرائيل عن الاعتداء في السبت؟

- **وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا(154)**

⇐ لماذا جاء الأمر الإلهي لبني إسرائيل بأن لا يعدو في السبت؟

⇐ كيف اختلف بنو إسرائيل في السبت؟

- **إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(124)**

⇐ لماذا لعن اللذين اعتدوا منهم في السبت؟

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا(47)**

⇐ لماذا جعل الله اللذين اعتدوا منهم في السبت قردة خاسئين؟

- **وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ(65)**

⇐ الخ.

أما بعد،

بداية، نحن نجد لزاما علينا العودة مرات ومرات إلى الآية الكريمة التي تصور لنا أحسن تصوير قرار موسى الشخصي بأن يبلغ مجمع البحرين أو أن يمضي حقبا:

- **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا(60)**

لنستنبط من ذلك (ربما مخطئين) الافتراء التالي: كان موسى هو من اتخذ القرار بنفسه للذهاب في تلك الرحلة. فموسى هو من ذهب للقاء صاحب الحوت ليتعلم منه.

السؤال: من أين جاء لموسى العلم بقصة الحوت وصاحبه؟

رأينا: نحن نظن أن مصدر علم موسى بقصة الحوت وصاحبه هو مصدر إلهي، وذلك لأن موسى (يجب أن لا ننسى) قد حصل على العلم بتفصيل كل شيء في تلك الألواح التي كُتبت له:

- **وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ(145)**

لذا، توافر عن موسى من العلم المكتوب في تلك الألواح (نحن نفتري القول) تفصيلا لقصة الحوت وصاحبه.

لكن يبقى التساؤل التالي مشروعا: لماذا قرر موسى أن يذهب في تلك الرحلة البحرية؟ وما الذي دفعه لأن يترك بني إسرائيل وينطلق مع فتاه إلى تلك الصخرة الواقعة عند مجمع بين البحرين؟

رأينا المفترى: لقد تعرضنا لهذه الجزئية في واحدة من مقالاتنا السابقة في سلسلة قصة موسى، وكان الظن عندنا هو أنه في لحظة تاريخية محددة من سيرة موسى مع بني إسرائيل حصلت الحادثة التي تصورها الآيات الكريمة الخاصة بالدعوة التي صدرت من موسى لقومه أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لهم، أليس كذلك؟

- يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ(21)

لكن جاء الرد المباشر منهم بالتعذر عن دخولها بسبب وجود القوم الجبارين فيها:

- **قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ(22)**

وفي تلك اللحظة الجدالية بين الطرفين، ينبري من بين الجمع كله رجلان فقط ليأتمران بأمر موسى، فجاءت دعوتهما لمن حولهم على النحو التالي:

- **قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(23)**

لكن ذلك لم يكن ليقنع القوم بالدعوة لدخول الأرض المقدسة، فيصرّ القوم على موقفهم بعدم الدخول في تلك الأرض ما لم يخرج منها القوم الجبارون، وينطلق لسانهم بالطلب من موسى بأن يذهب فيقاتل هو وربه:

- قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ۖ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ(24)

فما يكون من موسى إلا الاعتذار لربه على رد هؤلاء القوم الفاسقين، مؤكدا في الوقت ذاته أن ملكيته لا تتجاوز أخاه هارون، فيطلب من ربه أن يفرق بينهم من جهة والقوم الفاسقين من جهة أخرى:

- قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ(25)

فتأتي الاستجابة الربانية على نحو أن تُحرَّم عليهم الأرض المقدسة أربعين سنة، يتيهون خلالها في الأرض:

- قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ(26)

فتكون الصورة الآن على النحو التالي:

⇐ يتيه القوم الفاسقون في الأرض

⇐ يفرق الله بين موسى وأخيه هارون من جهة والقوم الكافرين من جهة أخرى

⇐ يكون هناك رجلان فقط من بني إسرائيل لا يصيبهم ما أصاب القوم الفاسقين لأنهم كانا بكل تأكيد رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا.

السؤال: ما الذي حصل بعد ذلك؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أنه بعد تلك الحادثة اتخذ موسى قراره أن يبلغ مجمع البحرين، ولكن المدقق في النص القرآني جيدا يجد أن موسى قد أخبر فتاه بهذا القرار:

- وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا(60)

السؤال: من أين جاء فتى موسى هذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن فتى موسى هذا كان أحد الرجلين اللذين خافا أنعم الله عليهما، وهما اللذان حثا قومهما أن يدخلا الأرض المقدسة التزاما بالطلب الذي طلبه موسى منهم جميعا:

- قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(23)

لذا أصبحت الصورة في ذهننا على النحو التالي: ما أن يفرق الله بين موسى وأخيه من جهة والقوم الفاسقين من جهة أخرى حتى تبقى من بينهم جميعا هذان الرجلان مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا، فما يكون من موسى إلا أن يتخذ أحدهما فتى له ويترك الآخر فتى لأخيه هارون. وهنا تنتهي رحلة موسى مع بني إسرائيل اللذين الآن يواجهون التيه في الأرض مدة أربعين سنة. فما الذي سيفعله موسى الآن بعيدا عن بني إسرائيل؟

تخيلات مفتراة: في هذه الأوقات التي خلت من الأحداث المثيرة في سيرة موسى، لم يستطع موسى أن يسبت، فما كان منه إلا أن يتخذ قرارا بالذهاب في تلك الرحلة العلمية ليتعلم من صاحب الحوت الذي يجد تفاصيل قصته قد سُطِّرت في الألواح التي كُتبت له، فيخبر فتاه بأنه قد عقد النيّة على القيام بتلك الرحلة نحو البحر:

- وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا(60)

ما أن بلغ موسى مع فتاه مجمع البحرين حتى كانت مهمة كل منهما مراقبة أحد البحرين بحثا عن الحوت (علامة اللقاء)، فأويا إلى الصخرة الواقعة عند مجمع بينهما، فوقف موسى يراقب بنفسه أحد البحرين ووقف فتاه يراقب البحر الآخر، وكانت المفارقة العجيبة (في مخيالنا) أن الحوت قد جاء من الجهة التي كان الفتى ربما مكلفا بمراقبتها، فما لاحظ وصول الحوت في الوقت المناسب.

في تلك الأثناء، جاء الحوت، فأفرغ حمولته (أي صاحبه)، واتخذ سبيله في البحر سربا، وكان ذلك بالضبط عن مجمع بينهما:

- **فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا(61)**

ولمّا لم يجلب الأمر انتباه الفتى في تلك اللحظة، كان بذلك ناسيا أن يخبر موسى بما حصل، فما كان من موسى (وهو المعروف بعجلته) إلا أن يتابع الذهاب في البحر حقبا:

- **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا(60)**

ولكن الرحلة كانت شاقة وربما طويلة بعض الشيء، حتى جاوزا المكان الذي كان من المفترض أن يتم اللقاء فيه، فطلب موسى من فتاه أن يأتيهما بغدائهما ليتقويا به على أعباء السفر الذي لقيا منه نصبا:

- **فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا(62)**

وما أن تناولا طعام الغداء، وبدءا يأخذان قسطا من الراحة (نحن لازلنا نتخيل) حتى عادت مجريات الرحلة السابقة بتفاصيلها إلى مخيلة الفتى، وهناك فطن أنه قد رأى فعلا ذلك الحوت الذي اتخذ سبيله في البحر عَجَبًا:

- **قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۚ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا(63)**

ولو دققنا في هذا السياق القرآني جيدا، لوجدنا أن الفتى قد ألقى بالمسؤولية كاملة على عاتقه، فهو الذي نسي أن يذكره لموسى هناك، ولكنه أكد لموسى في تلك اللحظة بأن الحوت قد اتخذ سبيله في البحر فعلا عَجَبًا. فما كان من موسى إلى أن يرتد مع فتاه على آثارهما قصصا:

- **قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا(64)**

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: ما أن وصل موسى وفتاه إلى تلك الصخرة (مرتدين على آثارهما قصصا) حتى وجدا ذاك الذي آتاه الله رحمة من عنده وعلمه من لدنه علما:

- **فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا(65)**

فما يكون من موسى إلا أن يطلب منه الصحبة رغبة في تلقي العلم:

- **قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا(66)**

وهنا تبدأ مجريات الأحداث التي نعرفها من خلال الآيات التي تصور تلك الصحبة بين الرجلين (للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان قصة موسى)

السؤال: ما الذي حصل لاحقا؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: ما أن تبدأ قصة اللذين هادوا من بني إسرائيل بعد التيه (أربعين سنة حتى تكون هذه الصحبة لموسى حاضرة في حياتهم، فتبدأ إثارة التساؤلات بينهم على النحو التالي:

⇐ من هو هذا الرجل الذي ذهب موسى (رسول الله وكليمه) بنفسه في فترة غيابهم (بسبب التيه) ليتعلم منه؟

⇐ ومن هو هذا الرجل الذي لم يستطع موسى (رسول الله وكليمه) أن يصبر على صحبته؟
⇐ ومن هو هذا الذي يعلم ما لم يكن موسى (رسول الله وكليمه) يعلمه؟
⇐ الخ.

لم يكن ليأخذ النقاش بين الذين هادوا (أي عادوا من التيه) زمنا طويلا حتى ظهر من بينهم من يطير بخياله إلى أبعد مما يجب، فظن بعضهم أن هذا الرجل هو أعلى مرتبة من الناس بمن فيهم الرسل (كموسى نفسه)، لكنه - لا شك عندهم- أقل مرتبة من الرب الأعلى (الله)، لذا لابد أنه يتخذ مكانة بين الطرفين: الطرف البشري ممثلا بموسى والطرف الإلهي ممثلا بالرب نفسه، فما كان منهم إلا أن استنبطوا (خاطئين) بأن هذا هو ابن الله، فأسموه بلغتهم عزير:

- **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ(30)**

فكما أطرت النصارى المسيح وقالوا أنه ابن الله، فعل هؤلاء من ذي قبل الفعلة نفسها عندما قالوا أن عزير هو ابن الله. ولكن المدقق في الآيات القرآنية في سياقها الأوسع يجد أن هؤلاء لم يستمروا في العقيدة كما استمر فيها النصارى من بعدهم، وذلك لأنهم – نحن نظن- بالرغم من قولهم بأفواههم بأن عزير ابن الله إلا أنهم لم يتخذوه ربا من دون الله. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- الآية السابقة في سياقها الأوسع:

- **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (30) اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ(31)**

نتيجة مفتراة 1: قال اليهود بأفواههم أن عزير أبن الله
نتيجة مفتراة 2: قالت النصارى بأفواههم أن المسيح ابن الله
نتيجة مفتراة 3: اتخذوا جميعا أحبارهم ورهبانهم أرباب من دون الله
نتيجة مفتراة 4: اتخذت النصارى على وجه التحديد المسيح ربا من دون الله. فظهرت فيهم عقيدة الثالوث
نتيجة مفتراة 5: لا يذكر النص القرآني أن اليهود قد اتخذوا عزير ربا من دون الله.
نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أنه لما لم يتخذ اللذين هادوا عزير ربا من دون الله لم تظهر فيهم عقيدة الثالوث الذي يزعم أن عزير هو أحد أطرافه كما فعلت النصارى مع المسيح.

السؤال: لماذا لم يستمر ظهور عزير في الديانة اليهودية حتى الآن؟

رأينا المفترى: لأنهم لم يتخذوه ربا من دون الله كما فعلت النصارى مع المسيح الذي اتخذوه ربا من دون الله.

السؤال: ما تبعات هذا الأمر؟

رأينا: إن صح زعمنا هذا، فإننا نظن أن غياب عزير من المشهد اليهودي (عندما لم يتخذوه ربا من دون الله) يدفعنا إلى طرح السؤال المحيّر التالي: إذا كان المسيح (كما ظن النصارى هو ابن الله) له اسم محدد بذاته وهو عيسى بن مريم، فما اسم عزير الذي ظن اليهود أنه ابن الله:

المسيح	عيسى بن مريم
عزير	؟

(للتفصيل حول اسم المسيح انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان: كيف تم خلق عيسى بن مريم؟)

(للتفصيل حول اسم العزير انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان: قصة موسى)

إن ما يهمنا طرحه الآن هو افتراء القول من عند أنفسنا بأنه كما للمسيح اسم يعرف به، فإن للعزير أيضا أسم يعرف به. فما هو؟

رأينا المفترى: في سلسلة مقالاتنا عن قصة موسى افترينا القول أن مفردة عزير هي كلمة يهودية الأصل (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ)، لذا فإن أصلها – في رأينا- عبرانيا قديما، لكن هذا الاسم قد أصابه التحريف في فترات التاريخ المتعاقبة، وكان أهم تحريف للاسم هو – كما ظن صاحبنا عصام درويش- تحول حرف العين في "عزير" إلى همزة، فأصبح "أزير". ولما دخل هذا الاسم إلى اللغة اليونانية (ذات الأصول الإغريقية) لحقه المقطع اللغوي الذي يميز تلك اللغة وهو "ايس"، فأصبح بعد ذلك يعرف بـ أوزريس، وهو المعروف بإله الحياة والخضرة في الثقافة المصرية القديمة، وهو الوحيد من بين الآلهة جميعا الذي يظهر بشكل بشري في الجداريات المصرية (للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان قصة موسى).

لكن هذا المنطق يتعلق بالتحريف الذي جاء من بعد، أي من بعد الافتراء الكاذب لليهود بأن عزير هو ابن الله، ليبقى السؤال التالي قائما: ماذا كان اسم هذا الرجل الحقيقي قبل أن يُنعت بصفة أنه ابن الله (أي قبل أن يكون عزيرا)؟

رأينا المفترى والخطير جدا: نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأنه لمّا أشكل الأمر على علماء بني إسرائيل، ولم يكن بمقدورهم معرفة هوية هذا الرجل الذي ذهب موسى ليتعلم منه، كان هدف اللذين يحرفون الكلام من بعد مواضعه منهم هو – لا شك عندنا- افتراء الكذب على الله، فكانوا هم اللذين يُؤْفَكُونَ، فاستحقوا القتال من الله، لأن ذلك كان – برأينا- من باب إصباغ الطابع الثقافي المحلي للذين كفروا من قبلهم (يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ) على القصة الدينية الحقيقية:

- **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ(30)**

لذا نحن نفتري القول أن هؤلاء (الذين كان هدفهم تحريف الكلم من بعد مواضعه) قد ذهبوا بعيدا عن تفاصيل القصة الدينية الحقيقة في سبيل مجاراة قول اللذين كفروا من قبلهم. ولعلي أجزم الظن أن الأمر المبين الذي غفلوا عنه جميعا (ربما عن قصد عند أهل درايتهم وربما عن غير قصد عند أهل رواتهم) هو الجزء الأكثر وضوحا في القصة، ألا وهو الحوت. فبدل أن يقفوا عند تفاصيل القصة الدينية الحقيقية والمتمثلة بأن موسى (رسول الله وكليمه) قد ذهب للقاء صاحب الحوت عند مجمع البحرين طارت مخيلتهم في الآفاق لتصديق ظنون اللذين كفروا من قبلهم، فما استقروا إلاّ إلى القول بأن صاحب موسى هذا هو عزير، وهو ابن الله لأن موسى هو كليم الله ورسوله، فما يكون له أن يتعلم ممن هو أقل مرتبة منه. لكنهم (نحن نجزم الظن) لم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن اسمه الحقيقي:

- **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ(30)**

ولو كانت نيتهم صادقة (نحن نؤمن) في البحث عن القصة الدينية الحقيقية، ولو كان هدفهم نبيلا في الوصول إلى الحقيقة، لما أعياهم البحث (نحن نعتقد) أن ينتبهوا بأن الرجل هو نفسه صاحب الحوت:

- **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ(48)**

نتيجة مفتراة خطيرة جدا جدا: نحن نفتري الظن بأن عزير الذي قالت اليهود أنه ابن الله هو صاحب الحوت الذي جاء موسى طالبا العلم على يديه. انتهى.

- **فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا(65)**

الدليل

لو تفقدنا هذه الآية الكريمة التي تخص الرجل الذي جاء موسى يتعلم عنده جيدا، لوجدنا على الفور أن الله قد تداركه باثنتين من نعمه وهما:

⇐ الرحمة (آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا)

⇐ العلم (وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا)

السؤال: إذا كان العلم الذي علّمه الله من لدنه لهذا الرجل معروفا، وهو ما جاء موسى طالبا تعلمه:

- **قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا(66)**

فالسؤال الذي لا مفر منه هو: ما هي الرحمة التي آتاه الله إياها من عنده (آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا)؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن تلك الرحمة كانت رحمة خاصة جدا بدليل أنها كانت من عند الله. فما هي؟

جواب مفترى: نحن نظن بداية أن الرحمة تتحصل نتيجة صرف العذاب:

- **قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15) مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ(16)**

نتيجة مفتراة: مادام أن الله قد آتى ذلك الرجل رحمة من عنده، فإن العذاب – لا شك- قد صُرف عنه. وهذا ما حصل في حالة من وقع عليهم العذاب من الأقوام البائدة، فالله هو من نجّى رسله والذين آمنوا معه برحمة منه:

- **وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ(58)**
- **فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ(66)**
- **وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مَّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ(94)**
- **قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤكُم مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (71) فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ(72)**

والرحمة – لا شك- تحمل في ثناياها كشف الضر أو السوء:

- **فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ(84)**
- **وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ(33)**

- وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ(50)
- وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ(21)
- قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا(17)
- فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ(48)

والآن، لو رجعنا إلى ما اختص الله به صاحب الحوت بهذا المفهوم المفترى من عند أنفسنا عن الرحمة، لوجدنا الآية الكريمة التالية:

- لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ(49)

ولو بحثنا عن النعمة في كتاب الله لوجدنا أن النعمة تعني التعدد، لأن نعمة الله لا تحصى:

- وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَاۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ(18)

لذا، نحن نفتري الظن بأن هناك أكثر من نعمة واحدة أصابت هذا الرجل، ولو فتشنا عن الرجل الذي ذهب موسى لصحبته لوجدنا أن الله قد اختصه بأكثر من ميزة، وهي الرحمة والعلم:

- فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا(65)

ولو حاولنا أن نربط ذلك بقصة صاحب الحوت لوجدنا أن الله قد اختصه بالرحمة بأن أنجاه من العذاب، وما أن أنجاه من العذاب حتى اجتباه وجعله من المرسلين:

- وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (146) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ(147)

ثانيا، لو عدنا إلى قصة الرجل الذي أماته الله مئة عام ثم بعثه لوجدنا فيها ما يدعو إلى الاستغراب:

- أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(259)

فبعد أن تساءل ذاك الرجل عن كيفية إحياء الله القرية الخاوية على عروشها أماته الله مئة عام ثم بعثه، ولما تبين له (فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ)، كانت ردة فعله على النحو التالي (قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)، ليكون السؤال هو على النحو التالي: من أين علم أن الله على كل شيء قدير؟

رأينا المفترى: لابد أن هذا الرجل قد مر بتجربة سابقة أثبتت له أن الله على كل شيء قدير.

السؤال: ما هي تلك التجربة التي مر بها؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن تجربته هي ما جاء في الآية الكريمة التالية:

- وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(87)

فالرجل هو – نحن نظن- صاحب الحوت الذي نادى في الظلمات، ولمّا كان الله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، جاءت الاستجابة الربانية له بالنجاة من الغرق، لذا أصبح الرجل على قناعة تامة بأن الله على كل شيء قدير (فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

وهنا ربما يبادرنا القارئ الكريم بالتساؤل التالي: إذا كان الرجل يعلم أن الله على كل شيء قدير، فلم إذن طلب من الله أن يريه كيف يحيي هذه القرية بعد موتها؟

رأينا المفترى: لو تدبرنا طلب الرجل جيدا، لوجدنا أن الرجل لم يكن (نحن نؤمن) يشك بقدرة الله قيد أنملة. فهو قد علم من ذي قبل أن الله على كل شيء قدير، بدليل أن الفعل جاء بصيغة المقر بهذه الحقيقة التي لا جدال فيها (قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)، ولكن الرجل كان - برأينا- يريد أن يري الكيفية، أي كيفية إحياء الموتى. لذا جاءت الاستجابة الربانية في صيغة الطلب، فالله لم يشكك بإيمان الرجل بأن الله على كل شيء قدير كما حصل في حالة إبراهيم مثلا:

- **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(260)**

ولكنه أراه بأم عينه كيفية إحياء الموتى على أرض الواقع خطوة بخطوة:

- **أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(259)**

ولم يطلب الله منه أن يأخذ شيئا ويضعه على جبل كما طلب من إبراهيم:

- **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(260)**

وسنرى لاحقا (عن أذن الله لنا بشيء من علمه لم كان الجبل هو المكان الأمثل لوضع تلك الطير عليه، ولم كان تسخير الجبال لأيوب، ولم عرضت الآمانة على الجبال، وما قصة الجبال كلها في سلسلة مقالات وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ وَغَرَابِيبُ سُودٌ. فالله وحده أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يزدني علما وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا – آمين).

- **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ(27)**

إن ما يهمنا قوله هنا هو أن هذا الرجل كان قبل حادثة موته على علم، وما أن مر بتجربة الموت مئة عام تبين له علم جديد:

- **قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(259)**

فأصبح الرجل يملك علما جديدا يضاف إلى علمه القديم، فأصبح بذلك عزير.

السؤال: ما معنى عزير؟

معنى عزير

تحدثنا عن هذه المفردة في الجزء الرابع من سلسلة مقالاتنا تحت عنوان قصة موسى، إلا أننا نجد أن الضرورة تستدعي العودة لمراجعة ما جاء هناك من افتراءات حول الموضوع، كما لا نجد ضيرا في إعادة صياغة بعض الأفكار التي وردت هناك والتي نظن أن لها علاقة مباشرة بفحوى النقاش هنا.

أما بعد،

فلقد ظننا – مفترين القول من عند أنفسنا- بأن مفردة "عزير" مشتقة من التعزير، كما ترد باشتقاقاتها المختلفة في السياقات القرآنية التالية:

- **وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ المائدة(12)**
- **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الأعراف(157)**
- **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (8) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (9) الفتح**

ولو تدبرنا هذه السياقات القرآنية جيدا، لربما استطعنا افتراء بعض المشاهدات التي نظن أنها صحيحة بخصوص مفردة التعزير.

أولاً، جاءت المفردة بمعنى إيجابي، لذا نطلب من القارئ الكريم أن لا يربط المفردة بالمعنى "الشعبي" المتوارث في ذهنا عن عقوبة التعزير، والآية الكريمة التالية تظهر بما لا يدع مجالاً للشك المعنى الإيجابي لمفردة التعزير:

- **لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ**

فالآية الكريمة تطلب من الناس تعزير الرسل. فكيف يمكن أن يكون تعزير رسل الله؟

ثانياً، جاءت المفردة بمعنى يختلف عن الإيمان، فالنص القرآني يتحدث عن الإيمان والتعزير معاً، فلابد إذن من التمييز بين الإيمان بالرسل من جهة وتعزير الرسل من جهة أخرى:

- **لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا**

والتعزير – حسب الآية الكريمة نفسها- يختلف أيضاً عن إقامة الصلاة أو إيتاء للزكاة أو إيماناً بالرسل أو إقراض الله قرضاً حسناً

ثالثاً، جاءت المفردة بمعنى يختلف عن النصرة والإتباع، بدليل الترادف في الآية الكريمة التالية:

- **فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ**

رابعاً، جاءت المفردة بمعنى يختلف عن توقير الرسول أو التسبيح:

- **لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا**

خامساً، وأخيرا نقول جاء التعزير ليكون على الدوام خاصاً بعمل يقوم به الناس بمجموعهم للرسول (وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ) و (فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ) و (لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ)، لنطرح بناء على هذه المشاهدة التساؤل التالي: كيف يمكن تعزير الرسل؟ وكيف نستطيع نحن أن نعزر رسولاً جاء برسالة من ربه؟

جواب: لنعد إلى قصة عقوبة التعزير لنستوحي من خلالها بعض المعاني

أولاً، التعزير هي عقوبة

ثانياً، التعزير فيها شهادة، حيث يستطيع أن يشهد جمع من الناس العقوبة

ثالثاً، غالباً ما تكون عقوبة التعزير معززة لعقوبة أخرى سابقة لها، فليس في عقوبة التعزير بحد ذاته حد من حدود الله، فالجلد وقطع اليد ونحوهما هي العقوبات المنصوص عليها، أما ما جاء في عقوبة التعزير فهي إضافة على ما سبق، وهنا يجب أن نجلب السياق القرآني التالي:

- **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الأعراف(157)**

لنطرح على الفور السؤال التالي: لماذا جاءت تعزير النبي الأمي عند الحديث عن من كان مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل؟ أو بكلمات أخرى نحن نسأل: من الذي يمكن أن يعزر محمدا؟

جواب مفترى: نحن نفتري القول بأن تعزير محمد لا يكون إلا من عند أهل الكتاب.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأنه ما أن يؤمن نفر من أهل التوراة والإنجيل على وجه الخصوص بالنبي محمد (النبي الأمي) الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل إلا ويكون ذلك ليس فقط من باب الإيمان وكفى وإنما من باب التعزير أيضاً، ولكن لماذا؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن إيمان نفر من بني إسرائيل (يهودا كانوا أو ونصارى) بالرسول محمد يختلف عن إيمان الأعراب بالرسول محمد، وذلك لأن إيمان بني إسرائيل يأتي – في ظننا- من باب الإيمان بسبب ما توافر عندهم من علم مسبق موجود عندهم في التوراة والإنجيل، فهم يؤمنون بالنبي محمد بناءَ على علم سابق عندهم، لذا نحن نظن أن إيمانهم يأتي من باب العلم على علم، فيكون بذلك – برأينا- تعزيراً (فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ). والآن انظر عزيزي القارئ – إن شئت- في السياقات القرآنية الخاصة بالتعزير كلها من هذا الجانب:

- **وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ المائدة(12)**

- **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الأعراف(157)**
- **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (8) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (9) الفتح**

السؤال: ما علاقة ذلك كله بعزير اليهود الذي نتحدث عنه هنا؟

جواب: لنقرأ الآية الكريمة التي تتحدث عن ذلك الرجل الذي مر على القرية وهي خاوية على عروشها لنتأمل بعض ما جاء فيها:

- **أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ۖ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(259)**

لاحظ – عزيزي القارئ- آخر ما قاله الرجل (فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِير) لنطرح من خلال ذلك التساؤل التالي: ما دام أن الرجل يعلم أن الله على كل شيء قدير، فلم طلب أصلاً أن يعلم كيف يحيي الله هذه بعد موتها؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الرجل قبل أن يميته الله كان علم أن الله على كل شيء قدير (أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِير)، وقد طلب علماً ليضيفه على العلم الموجود أصلاً لديه، فجاءه علم جديد بيّنه الله بنفسه له (فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِير)، وحصل كل ذلك بعد أن أماته الله مئة عاماً (ربما عقوبة وربما مكافأة)، وما أن بعثه الله حتى آتاه علماً جديداً بأن أراه كيف ينشز العظام ثم يكسوها لحماً، فجاء الرجل علماً على علم، فكان بذلك – في ظننا- عزيرا.

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن الرجل كان على علم قبل أن يميته الله مئة عام، وما أن بعثه الله بعد أن أماته مئة عام حتى آتاه علماً فوق علمه السابق، فأصبح بذلك عزيرا.

ولا ننسى كذلك أن في العقوبة (ومنه القصاص) حياة:

- **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(179)**

لو فهمنا أن في موت الرجل ذاك كان قصاصاً منه، لن نعدم الفهم بأنه كان حياة له:

- **فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ**

السؤال: أين ذلك الرجل الذي أماته الله مئة عام ثم بعثه؟ وهل عاد ليموت مرة أخرى ليبعث من جديد في يوم الحشر الأكبر؟ فكم مرة إذن سيكون قد مات وقد بعث؟ من يدري؟!!!

لكن الذي لا يجب الغفلة عنه هو أن هذا الرجل هو – في ظننا- صاحب الحوت:

- **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ(48)**

ليكون السؤال الذي يجب أن يطرح الآن على الفور هو: ما قصة الحوت في القرآن الكريم؟

لو حاولنا تتبع الخيوط العنكبوتية التي تربط الحوت في السياقات القرآنية كلها لما وجدنا أن الحوت قد ذكر إلا في موضعين اثنين وهما:

⇐ قصة يونس الذي لا نشك أنه هو صاحب الحوت

- **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ(48)**

⇐ قصة بني إسرائيل (موسى) الخاصة بالقرية حاضرة البحر التي كانت موطن اللذين اعتدوا من بني إسرائيل في السبت:

- **وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ(163)**

ليكون السؤال الذي لا مفر منه هو: لماذا؟ ما سبب أن ذكر الحوت جاء خاصا بهذين الموطنين وفي سياق الحديث عن هذين الرسولين الكريمين (يونس وموسى)؟ فما الذي يجمع ذلك الحوت الذي التقم يونس عندما ذهب مغاضبا؟

- **فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ(142)**

مع قصة الحوت (والحيتان) في قصة موسى؟ وما الذي جعل الحوت يظهر من جديد في رحلة موسى مع فتاه إلى مجمع البحرين؟

- **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا(60)**
- **قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۚ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا(63)**

لمّا كنا نظن أن لا شيء في كتاب الله يؤخذ على سبيل المصادفة، وأن القرآن الكريم هو كتلة واحدة يفسر بعضه بعضا، كان لابد من التسليم بأن هناك رابطا قويا بين الموطنين، الأمر الذي دفعنا منذ بداية هذه المقالة إلى طرح تساؤلات مثيرة ستشكل في مجملها جل النقاش فيما تبقى من هذا الجزء من المقالة وفي الأجزاء القادمة بحول الله ومشيئته. فالله حده أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم، وأن يزدني علما، وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا، وأن يأذن لي الإحاطة بشيء من علمه لا ينبغي لغيري، وأن يهديني إلى الحق الذي أقوله فلا أفتري عليه الكذب عن علم وعن غير علم مني، إنه هو السميع العليم – آمين(

التساؤلات:

⇐ ما علاقة ذلك الحوت بقصة حيتان البحر التي جاء ذكرها في الآية الكريمة التالية؟

- **وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ(163)**

⇐ وما علاقة ذلك بقصة تلك القرية التي كانت حاضرة البحر؟

⇐ وما هي تلك القرية التي كانت حاضرة البحر؟

⇐ وما علاقة ذلك بنهي بني إسرائيل عن الاعتداء في السبت؟

- **وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا(154)**

⇐ لماذا جاء الأمر الإلهي لبني إسرائيل بأن لا يعدو في السبت؟

⇐ كيف اختلف بنو إسرائيل في السبت؟

- **إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(124)**

⇐ لماذا لعن اللذين اعتدوا منهم في السبت؟

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا(47)**

⇐ لماذا جعل الله اللذين اعتدوا منهم في السبت قردة خاسئين؟

- **وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ(65)**

⇐ الخ.

بداية، نحن نظن أن القرية حاضرة البحر هي القرية نفسها التي اعتدى بعض أهلها على حيتان البحر يوم سبتهم:

- **وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ(163)**

كما نظن أيضا بأن أهل تلك القرية هم اللذين جاءهم الأمر الإلهي بعدم الاعتداء في السبت. كما نؤمن يقينا بأن جزءا منهم (وليس كلهم) قد اعتدوا في السبت وهم الذين جعلوا قردة خاسئين:

- **وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ(65)**

ليكون السؤال المفصلي الأول هو: لماذا جاء النهي الإلهي لهؤلاء القوم بأن لا يعتدوا في السبت؟ فما قصة الحيتان؟ وما قصة السبت؟

قصة السبت

منطقنا المفترى: نحن نظن أنه من أجل محاولة الإجابة على هذه التساؤلات فلابد (نحن نفتري القول) من الخوض في موضوع تسمية الأيام (أيام الأسبوع: السبت والأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة) كما جاءت في كتاب الله.

أما بعد،

لو تدبرنا الآية الكريمة التالية لوجدنا أن القوم قد اختلفوا في السبت، أليس كذلك؟

- **إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(124)**

السؤال: كيف اختلف هؤلاء القوم في السبت؟ ولماذا اختلفوا في السبت؟ وما هو السبت الذي اختلفوا فيه أصلا؟

رأينا المفترى: لو تدبرنا الآية الكريمة التالية لوجدنا فيها شيئا يدعو إلى طرح تساؤلات مثير جدا، والآية هي:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (9) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(10)**

التساؤلات

⇐ لماذا الجمعة؟

⇐ وما هو ذكر الله؟
⇐ لماذا أمرنا أن نذر البيع في يوم الجمعة؟
⇐ لماذا أمرنا بالانتشار في الأرض بعد انقضاء الصلاة؟
⇐ لِم لم يأتينا الأمر الإلهي بالكف عن البيع وعن التجارة في السبت كما جاء بني إسرائيل من قبلنا؟
⇐ فهل اختلفت سنة الله فينا وفيهم؟

- **سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا(62)**

⇐ أم هل يقع هذا الاختلاف في باب أن الله قد جعل لكل منا شرعة ومنهاجا؟

- **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ(48)**

⇐ الخ.

افتراءات خطيرة جدا جدا لا تصدقوها

⇐ نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن "السبت" ليس يوم من أيام الأسبوع
⇐ نحن نفتري الظن بأن أيام الأسبوع هي ستة أيام فقط وليس سبعة كما هو معروف عند العالمين
⇐ نحن نفتري الظن بأن السبت هو يوم من صناعة اللذين كانوا يحرفون الكلم عن مواضعه من أهل الكتاب
⇐ نحن نفتري القول أن أول ما حصل ذلك كان عند اللذين اختلفوا في السبت

السؤال: كيف حصل ذلك كله؟

أولا، لو دققنا في النص القرآني جيدا، لما وجدنا أن الله قد وصف السبت على أنه يوم، فلم يأت في النص القرآني أن هناك يوم من أيام الأسبوع يسمى "السبت" كما هي الحال بالنسبة لـ "يوم الجمعة":

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (9) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(10)**

نتيجة مفتراة 1: الجمعة يوم
نتيجة مفتراة 2: السبت ليس يوم

ثانيا، لو دققنا أكثر في النص القرآني، لوجدنا أن الله قد جعل لكل سبتا، بدليل أنهم قد نهوا عن الاعتداء في يوم سبتهم:

- **وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ(163)**

رأينا المفترى: لما كان هناك يوم سبتهم، كان هناك يوم سبت غيرهم، فلكل كان هناك سبت يختلف عن سبت الآخرين

نتيجة مفتراة خطيرة: نحن نظن بناء على هذا الفهم (ربما مخطئين) بأن الجمعة هي يوم سبتنا.

السؤال: لماذا؟ لماذا نظن بأن الجمعة هي يوم سبتنا؟

رأينا: لو دققنا في النص القرآني أكثر، ربما استطعنا أن نستنبط بأن السبت هو فعل قائم يمكن للجميع أن يفعلوه، ولكنه ليس وقتا معلوما بنفسه. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في الآية الكريمة السابقة نفسها:

- **وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ(163)**

فالقوم، إذن، كان يسبتون، أليس كذلك؟

السؤال: ما معنى أن القوم كانوا يسبتون؟ وكيف يسبتون؟ وكيف تكون حالهم عندما يسبتون؟ وكيف تكون حالهم عندما لا يسبتون؟

رأينا: نحن نظن أن السبت مأخوذة من "السبات"، وهي تعني – برأينا- الكف عن فعل ما هو مألوف في العادة، أي التوقف عن العمل كليا، كما يفعل النائم:

- **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا(47)**
- **وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا(9)**

لكن لا ننسى أن هؤلاء القوم كانوا يسبتون في اليوم وليس في الليلة:

- **وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ(163)**

فهل من يسبت أثناء النوم لا يفعل شيئا.

رأينا المفترى: نحن نظن أن السبات هو الكف عن العمل المعهود من أجل غاية أخرى هي أكثر أهمية.

السؤال: ماذا كان مطلوب من القوم أن يفعلوا في يوم سبتهم؟

رأينا: لو رجعنا إلى الآية التي تتحدث عن يوم الجمعة:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (9) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(10)**

لوجدنا أن فيها ما يلي:

1. المناداة للصلاة
2. الأمر بالسعي إلى ذكر الله
3. الصلاة
4. الانتشار في الأرض بعد انقضاء الصلاة
5. ابتغاء الفضل من الله
6. الدعوة إلى ذكر الله كثيرا

ليكون السؤال المطروح الآن هو: ما الذي يترتب على ذلك كله؟

رأينا: نحن نظن أن أول متطلبات الالتزام بهذا الأمر الإلهي هو "السبات"، أي الكف عن العمل الدنيوي المألوف من أجل التفرغ لعبادة خاصة وهي "ذكر الله."

السؤال: لماذا جاء الطلب من المؤمنين بالسعي إلى ذكر الله في يوم الجمعة على وجه التحديد؟

رأينا: نحن نظن أن الوقت قد حان هنا أن نتدبر سورة "الجمعة" بأكملها مرة واحدة، لننظر فيما جاءنا فيها من عند ربنا:

- **يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (2) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (4) مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (5) قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (6) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (7) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (8) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (9) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (10) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(11)**

لو دققنا في بداية هذه السورة العظيمة لوجدناها قد افتتحت بالآية الكريمة التي تؤكد حقيقة كونية مطلقة وهي أن اللذين يسبحون الله هم:

- ⇐ ما في السموات
- ⇐ ما في الأرض

- **يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ(1)**

لذا نحن نتجرأ على أن نستنبط الافتراء الخطير التالي: لا يسبح الله ما هو موجود بين السماء والأرض (أي ما هو موجود بينهما). فالكائنات البحرية (وهي الموجودة بين السماء والأرض كما افترينا الظن في الجزء السابق) ليس مطلوب منها تسبيح الله. ونحن نظن أن هذا الافتراء الخطير سيفيدنا كثيرا عندما نعود لقصة يونس وخاصة مناداته في بطن الحوت بالتسبيح على وجه التحديد:

- **وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(87)**

(دعاء: فالله وحده أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم، إنه هو السميع العليم)

ثانيا، جاءت الآية الثانية في سورة الجمعة لترشدنا إلى أن مهمة الرسول الذي بعثه الله فينا من أنفسنا هي ذات ثلاث أوجه:

- ⇐ تلاوة الآيات علينا
- ⇐ تزكيتنا
- ⇐ تعليمنا الكتاب والحكمة

- **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(2)**

ولو دققنا في نهاية هذه الآية الكريمة لوجدنا أننا كنا من قبل ذلك في ظلال مبين (وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ). ولو تابعنا قراءة السورة الكريمة لوجدنا أن الآية اللاحقة تبين لنا على الفور بأن حالة الظلال هذه لم تقتصر علينا وحدنا، ولكنها أيضا حال آخرين لما يلحقوا بنا:

- **وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(3)**

ثم نتابع الآية الرابعة لنجد أنها تبين لنا بأن ذلك هو فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده:

- **ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ(4)**

(دعاء: أللهم أسألك نفاذ أمرك بمشيئتك لي بذاك الفضل، فأعلم أني أشاء ذلك)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: بيّن الله لنا في سورة الجمعة (كما نفهمها) أن تسبيح الله هي حال كل ما في السموات والأرض (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)، لذا نحن نفتري الظن بأننا (أي الناس) غير مستثنين من هذه السنة الكونية، وهي تسبيح الله، فعلينا أن نمتثل أمر الله بأن نكون من المسبحين خاصة (برأينا) في يوم الجمعة على وجه التحديد. وهذا التسبيح يجب أن يكون على النحو الذي جاءنا به الرسول النبي الأمي الذي بعثه الله فينا من أنفسنا، ويكون ذلك بتلاوة الآيات (يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ)، والتزكية (وَيُزَكِّيهِمْ) ثم تعليم الكتاب والحكمة (وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ). لذا يجب أن يترك الإنسان (نحن نتجرأ على الافتراء) كل عمل دنيوي في يوم الجمعة لينقطع إلى مهمة محددة فيه، ألا وهي "ذكر الله". فالمؤمن (كل مؤمن) إذن مأمور بالسعي إلى ذكر الله حال المناداة للصلاة في ذلك اليوم (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ). وبخلاف ذلك نبقى في ظلال مبين كحال الآخرين اللذين لم يلحقوا بنا، فما امتثلوا لهذا الأمر الرباني عندما لم يلحقوا بركب الساعين إلى ذكر الله عند سماع النداء. ولا يجب أن ننسى أن سعينا إلى ذكر الله في ذلك اليوم من أجل تلاوة الآيات والتزكية وتعلم الكتاب والحكمة وهو الفضل من الله لا يكون إلا لمن شاء ذلك (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ). فالله - لا شك- سيؤتي فضله ذلك من خرج من بيته ساعيا إلى ذكر الله وإلى الصلاة ونيته مربوطة على ذلك.

(دعاء: اللهم أسألك الفضل منك في يوم الجمعة)

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (9) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(10)**

السؤال: هل هذا السعي إلى ذكر الله خاص فقط بهذه الأمة التي بعث الله فيها ذاك النبي الأمي؟ أم هل هي سنة من سنن الله في اللذين خلوا من قبلنا؟

جواب مفترى: دعنا نتابع قراءة سورة الجمعة نفسها، لنجد الآية الخامسة تتحدث مباشرة عن اللذين حملوا التوراة ولم يحملوها:

- مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(5)

ولو حاولنا أن نربط ما جاء في هذه الآية الكريمة بالسياق القرآني السابق (كما نفهمه)، لربما استطعنا أن نفتري القول بأن هذا الفضل الإلهي لم يكن خاصا بنا فقط، ولكنها سنة من سنن الله في اللذين خلوا من قبلنا، فقد كان فضل الله واضحا على من أنزلت عليهم التوراة، ولكن ما الذي حصل؟

رأينا: لا شك عندنا أن أهل التوراة كانوا مطالبين بما فيها من الهدى والنور:

- إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ(44)

لتكون النتيجة مفتراة التي نحاول تسويقها هي: إن الالتزام بما جاء في التوراة بعد فهم ما جاء فيها (كفهم ما جاء في القرآن) سيرشدنا – لا محالة- إلى النور الذي سيخرجنا من الظلمات إلى النور بإذن ربنا:

- اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(257)

نتيجة مفتراة 1: نحن نظن أن اللذين يسعون إلى ذكر الله في يوم الجمعة تلبية للنداء مؤهلين أن يخرجهم ربهم من الظلمات إلى النور

نتيجة مفتراة 2: إن اللذين لا يلحقون بركب الساعين إلى ذكر الله من يوم الجمعة سيظلون في ظلال مبين.

فهل يستوون؟!

- وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (19) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (20) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (21) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاء وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ(22)

السؤال: لكن كيف يتم ذلك؟

رأينا: بداية نحن نؤمن أن الله هو من جعل الظلمات والنور بعد أن خلق السموات والأرض:

- لِلَّهِ الَّذِي خَلَالْحَمْدُ قَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۖ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ(1)

ونؤمن أيضا بأن الله هو من أنزل إلينا نور مبينا:

- يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا(174)

فقد جاءنا من ربنا نور وكتاب مبين:

- يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (15) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(16)

فكان ذلك النور في التوراة التي أنزلت إلينا:

- إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ(44)

وكان ذلك النور في الإنجيل أيضا:

- وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ(46)

وجاءنا في القرآن العظيم منة من الله بهذا الرسول النبي الأمي:

- الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(157)
- فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(8)

ولكن الناس جعلوا تلك الكتب التي جاءنا نور الله فيها قراطيس يبدون ما يريدون ويخفون كثيرا منها:

- وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ(91)

فالله الذي خلق الظلمات والنور هو نفسه الذي أنول إلينا نورا لنمشي به بين الناس:

- أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(122)

بعد أن كنا أمواتا قبل خلقنا:

- كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(28)

ولكن بالرغم من ذلك الترتيب الإلهي العظيم، كانت إرادة نفر من الناس تتمثل على الدوام بإطفاء نور الله بأفواههم:

- يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ(32)
- يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ(8)

ولكن هيهات لهم مادام أن الله يأبى إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، وويكون ذلك بكلمات الله فقط:

- وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ(82)

فأصبح هناك نتيجة تدخّل هذه القوى الظلامية من هو أعمى مقابل أن يكون هناك بصير، فالأعمى هو – لا شك- الذي لا يتبع نور الله، وأما البصير فهو الذي يتبع نور الله:

- قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ(16)

ومحل ذلك هو القلب:

- أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ(46)

(دعاء: اللهم أسألك وحدك أن يكون لي قلب يعقل وآذان تسمع وأعين تبصر، إنك أنت السميع العليم – آمين)

نتيجة مهمة جدا: جاء إنزال الكتاب من الله لهدف واحد هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم:

- الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ(1)

وكانت هذه مهمة موسى (كما كانت مهمة جميع رسل الله)، أي إخراج قومه من الظلمات إلى النور:

- **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ(5)**

السؤال: وكيف سيفعل موسى ذلك؟

رأينا: يفعل موسى ذلك بما كتب الله له في الألواح وبالنور الذي في التوراة:

- **قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (144) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ(145)**
- **إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ(44)**

السؤال: إلى أين سيذهب موسى (وكل رسل الله) بمن أمروا أن يخرجوهم من الظلمات إلى النور؟

جواب: إلى الله مادام أن الله هو نور السموات والأرض:

- اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(35)
- وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ(69)

ولا شك أننا دون ذلك النور، فإننا كمن هو في ظلمات البحر اللجي الذي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب:

- **أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ(40)**

(دعاء: أسألك ربي أن تهديني إلى نورك الذي أبيت أن تتمه ولو كره الكافرون، وأسألك رب أن تعلمني كلماتك التي بها تحق الحق ولو كره المجرمون – آمين)

السؤال: وكيف يمكن أن نكسب ذلك النور؟

رأينا: نحن نظن أن ذلك يتم بإتباع النور الذي في الكتاب، وكذلك بأن نكسب صلوات الله علينا وملائكته:

- هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا(43)

(دعاء: أللهم أسالك أن أكون ممن تصلي عليهم وملائكتك – آمين)

السؤال: وما الهدف من ذلك؟

رأينا: لكي يشرح الله صدورنا فتلين قلوبنا القاسية لذكر الله:

- أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(22)

السؤال: متى يمكن أن يتم لنا ذلك؟

رأينا: نحن نفتري الظن بأن يوم الجمعة الذي أُمرنا لنسعى فيه إلى "ذكر الله" هو الوقت الأمثل لمثل ذلك الفضل الإلهي:

- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (9) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(10)

السؤال: ما الذي يجب فعله إذن في يوم الجمعة؟

رأينا: "ذكر الله"، ويكون ذلك (نحن نفتري الظن) بتدبر الآيات التي يمكن أن نفهمها لتخرجنا من الظلمات إلى النور:

- وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(52)
- هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ(9)

السؤال: ما الذي يفيدنا في ذلك؟

رأينا: الاستماع إلى أحسن الحديث الذي به ستلين قلوبنا وجلودنا لـ ذكر الله:

- اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاء وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ(23)

السؤال: وما الذي سنستفيده من ذلك في الآخرة؟

رأينا: اكتساب النور

- يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ(13)

- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(8)
- وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ۖ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ(19)
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(28)
- رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا(11)

السؤال: وما هو النور؟

جواب مفترى: نحن نظن أن النور هو انعكاس لتلك الكلمات الحق التي في الكتاب، ويمكن تشبيه ذلك بنور القمر الذي هو انعكاس لتلك الأشعة الساقطة عليه من مصدر الإضاءة:

- وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا(16)
- هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(5)

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن كلمات الله في الكتاب هي الضياء (أي السراج الوهاج) المشغل لذلك النور الذي ننشده. ففهم كلمات الله التي يحق بها الحق ويبطل بها الباطل هو المنتج الحقيقي للنور الذي نبحث عنه.

(دعاء: اللهم أسألك أن تهديني إلى نورك بكلماتك التي تحق بها الحق وتبطل بها الباطل ولو كره المجرمون – آمين)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نؤمن أن السعي إلى "ذكر الله" من يوم الجمعة، والقيام بطقوس الجمعة كما أمرنا الله بها، هي الكفيلة بأن تؤتينا فضل الله الذي منّه علينا، ويكون ذلك بتلاوة الآيات والتزكية وتعلم الكتاب والحكمة.

السؤال: لماذا أمر بنو إسرائيل بأن لا يعدو في السبت؟

رأينا: نحن نظن أن الغاية كانت هي نفسها التي أمرنا بها من يوم الجمعة. فقد كان بنو إسرائيل مطالبون بالتوقف عن أعمالهم المعتادة في يوم معين، وكان ذلك هو "يوم سبتهم"، والغاية المرجوة هي السعي "الذكر الله"، بتدبر الكلمات المكتوبة عندهم في التوراة، للنيل بفضل الله والخروج من الظلمات إلى النور بإذن الله.

السؤال: فما الذي حصل؟

رأينا: اختلفوا في السبت؟

السؤال: كيف كان اختلافهم في السبت؟

رأينا المفترى: كانت صنعة تلك القرية حاضرة البحر اليومية هي اصطياد السمك (الحيتان)، فكانت فعلا تلك الثروة المائية هي لهم، فجاء النص القرآني ليصور لنا بأن تلك الحيتان كانت ملكا لهم، فكانت حيتانهم:

- **وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ(163)**

ولكن لما بدر منهم الفسق، جاءهم الابتلاء الرباني على نحو أن تأتيهم حيتانهم في يوم سبتهم شرعا، أي في الوقت الذي كان من المفترض أن يكرس للسعي لذكر الله، ولا تأتيهم في يوم لا يسبتون. وهنا حصلت الفتنة الحقيقية لمن كان في قلبه الإيمان، فجاءت هذه الفتنة ليميز الله بها الخبيث منهم من الطيب، وليعلم الله من يخافه منهم بالغيب. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في الآية الكريمة التالية:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ(94)**

وهنا يطرح التساؤل التالي على الفور: لِم كانت الحيتان تأتي فقط في يوم سبتهم؟ لم لَم تكن تأتي في الأيام التي لا يسبتون فيها؟

رأينا: بداية لابد من التوقف عن الظن بأن الله هو من أمر هذه الحيتان أن تتصرف على ذلك النحو، وذلك لأن النص القرآني – كما نفهمه- يخلو تماما من مثل هذا الاتهام الذي نظن أنه باطل، فالمدقق بالنص القرآني يجد أن حركة الحيتان كان تلقائية من تلك الحيتان نفسها، فالحيتان هي التي تأتي وهي التي لا تأتي، وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في النص نفسه:

- **وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ(163)**

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن الحيتان لم تكن مأمورة أن تتصرف على ذلك النحو بناء على مصدر خارجي. فهي نفسها التي كانت تأتي وهي نفسها التي كانت لا تأتي.

السؤال القوي: لماذا كانت الحيتان تأتي من تلقاء نفسها في يوم سبتهم؟ ولماذا كانت لا تأتي في يوم لا يسبتون؟ وبكلمات أكثر دقة نحن نسأل: ما الذي جعل (أو لنقل شجع) الحيتان لتأتي في يوم سبتهم على وجه التحديد؟

جواب مفترى: نحن نظن أنه يمكننا استنباط الإجابة على هذا التساؤل من الآية التي جاءت لتصور لنا ما فعل الحوت عند مجمع البحرين في قصة موسى وفتاه:

- **فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا(61)**

دقق - عزيزي القارئ- في هذه الآية الكريمة لتجد أن ذلك الحوت الذي كان موسى وفتاه (نحن نظن) ينشداه قد اتخذ سبيله في البحر سربا، أليس كذلك؟

السؤال: ما معنى أن ذلك الحوت قد اتخذ سبيله في البحر سربا؟

رأينا: لقد رجع الحوت إلى الماء بعد أن أحدث عجبا فكان بصحبة (في رحلته تلك) سرب من الحيتان.

السؤال: ما الذي يمكن أن نفهمه من ذلك؟

رأينا: لم يكن ذلك الحوت يحضر إلى مجمع البحرين وحده، فلقد كانت ترافقه أسراب من الحيتان.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى والخطير جدا جدا: لأنه ببساطة كان (نحن نظن) حوتا مميزا تعرفه حيتان البحر كلها، فكانت تحتفل بقدومه إلى مجمع البحرين كلما غدا وراح، لذا كانت ترافقه في رحلته تلك.

السؤال: متى كان يأتي ذلك الحوت؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأنه كان يأتي في يوم سبتهم

السؤال: لماذا؟

رأينا: لأن صاحبه (أي صاحب الحوت) كان يسمع النداء للصلاة من يوم الجمعة، فكان يحضر ليلبي النداء:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (9) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(10)**

السؤال: لكن هذا يوم الجمعة، وذلك الحوت كان يأتي كما تزعم يوم سبتهم، أليس كذلك؟

رأينا المفترى والخطير جدا جدا: نحن نظن أن يوم سبتهم هو يوم الجمعة، وهو اليوم الذي جاءت سنة الله الكونية لتبين لنا أنه هو اليوم الذي يجب أن يسعى إليه كل اللذين آمنوا. انظر الآية نفسها مرة أخرى لترى كيف توجه الخطاب إلى كل اللذين آمنوا في كل زمان ومكان:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (9) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(10)**

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: الحوت هو المكان الذي يؤوي إليه صاحبه، مادام أنه هو صاحب الحوت. لكن هذا لم يكن ليمنع الرجل من تلبية الدعوة لذكر الله عند سماع النداء من يوم الجمعة، فصاحب الحوت هو واحد من اللذين آمنوا المأمورون بتلبية النداء الصلاة من يوم الجمعة، لذا وجب عليه أن يسعى إلى ذكر الله. فكان الحوت يحمله في ذلك اليوم ليضعه هناك عند مجمع البحرين، وكانت أسراب الحيتان (نحن لازلنا نتخيل) تتبعه في رحلته تلك في غدوّه ورواحه، وما أن ينزل الرجل من حوته حتى يعود الحوت نفسه إلى البحر في سربه بعد أن يكون قد اتخذ سبيله في البحر عجبا. ليكون المشهد على النحو التالي:

في اليوم الذي كان من المفترض للذين آمنوا أن يسبتوا (أي يتوقفوا عن أعمالهم المعتادة من أجل السعي إلى ذكر الله)، وهو يوم الجمعة مادام أنهم من المؤمنين المأمورين بتلبية النداء، كان صاحب الحوت يلبي النداء ساعيا إلى ذكر الله من ذلك اليوم. وفي ذلك اليوم كانت أسراب الحيتان تأتي مرافقة لهذا الحوت على وجه التحديد. محتفلة بقدومه. ونحن نرى احتفالهم به على نحو أن تلك الحيتان كانت كلها تأتي شُرَّعاً:

- **وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ(163)**

وهذا يعني – برأينا- ظهورها العلني فوق سطح الماء (كما الشراع الظاهر فوق السفينة). كما كانت (نحن لا زلنا نتخيل) منتظمة في حركتها كما يوجه الشراع السفينة بالحركة باتجاه محدد. وكان هذا المشهد هو السبب الذي من أجله (نحن نظن) حصلت الفتنة الكبرى لأهل القرية التي كانت حاضرة البحر حينئذ. فقد وقع القوم تحت تأثير الإغراء المادي الكبير: وهو اصطياد تلك الحيتان الآتية إليهم شرعا. لكن كان هناك مانع حقيقي

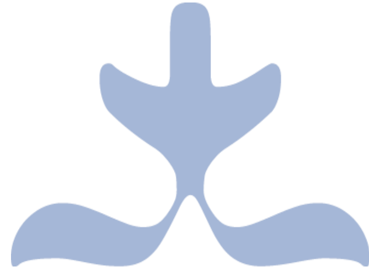
أمامهم يتمثل بأنهم مأمورون بأن يسبتوا فلا يعدوا في ذلك اليوم (أي يوم سبتهم). وهنا دب الخلاف بينهم – نحن نظن- حول ما يسمى بالمفردات الدارجة بين أهل العلم بـ "فقه المصالح" (كما يفعل المشرعون من أهل الأرض الذين يتحدثون دائما باسم الرب)، فظهر من بين هؤلاء من كانت إرادته إطفاء نور الله، فأصدر "فتواه" (أي صك الغفران) بتقديم المصلحة الدنيوية على الأمر الإلهي بداعي الحاجة. فدب الخلاف بين اللذين آمنوا، فاختلفوا في السبت.

تساؤلات

- كيف كان اختلافهم في السبت
- ما هي الآراء التي كانت مطروحة للخروج من المأزق حينئذ؟
- من هم اللذين اختلفوا؟
- كيف انتهت الأزمة؟
- كيف حصل المسخ الإلهي لهم قردة خاسئين؟
- من الذي نجا منهم؟
- كيف وصل الأمر إلينا؟
- ما علاقة ذلك بمسألة الأيام السبعة؟
- ما علاقة ذلك بحقيقة أن الأيام عند الله هي فقط ستة تبدأ بالأحد وتنتهي بالجمعة؟
- ما تبعات هذا الظن في حياتنا؟
- ما علاقة ذلك كله بالتعهد الإلهي بإتمام نوره ولو كره الكافرون؟
- الخ.

هذا ما سنحاول متابعة النقاش فيه في الجزء القادم بحول الله وتوفيق منه.

فالله وحده أسأل أن يأذن لي بعلم لا ينبغي لغيري، وأن يعلمني الحق الذي أقوله فلا أفتري عليه الكذب، وأن يزدني علما، وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا، إنه هو الواسع العليم – آمين.



قصة يونس

الجزء الثاني عشر



قصة يونس: الجزء الثاني عشر

- **وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ(163)**

افترينا الظن في الجزء السابق من هذه المقالة بأنّ الحوت الذي جاء يحمل صاحبه إلى مجمع البحرين قد كان مصحوبا بسرب من الحيتان:

- **فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا(61)**

وذلك لأنه (نحن نظن) حوتا مميزا تعرفه حيتان البحر كلُّها، فكانت تحتفل بقدومه إلى مجمع البحرين كلما غدا وراح، لذا كانت ترافقه في رحلته تلك.

كما افترينا الظن بأن ذلك كان يحصل في يوم سبتهم، أي سبت تلك القرية التي كانت حاضرة البحر حينئذ. وأن ذلك اليوم هو يوم الجمعة التي من المفترض على كل من يسمع النداء للصلاة من ذلك اليوم من المؤمنين أن يلبيه كما في قوله تعالى:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (9) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(10)**

فالمؤمنون مطالبون بتلبية النداء للصلاة من ذلك اليوم، فيتركون أعمالهم المعتادة، ويسعون لسماع الذكر. وهذا ما كان (نحن نفتري الظن) يفعله صاحب الحوت.

لذا كان الافتراء الأخطر الذي حاولنا تسويقه هو عدم وجود يوم يسمى بيوم السبت كأحد أيام الأسبوع، وأن أيام الأسبوع هي ستة فقط، وأن السبت هو اليوم الذي من المفترض أن يكرس للسعي للصلاة من أجل سماع الذكر من قبل كل اللذين آمنوا:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (9) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(10)**

ولمّا كان صاحب الحوت هو – لا شكّ عندنا- واحدا من اللذين آمنوا وجب عليه تلبية الدعوة لـ "ذكر الله" عند سماعه النداء من يوم الجمعة. فذهب خيالنا إلى تصور أن الحوت قد جاء يحمله في ذلك اليوم ليضعه هناك عند مجمع البحرين من أجل تلبية النداء، وكانت أسراب الحيتان (نحن لازلنا نتخيل) تتبعه في رحلته تلك في غدوّه ورواحه، وما أن ينزل الرجل من حوته حتى يعود الحوت نفسه إلى البحر في سربه بعد أن يكون قد اتخذ سبيله في البحر عجبا.

أما أصحاب تلك القرية التي كانت حاضرة البحر فقد كانوا مطالبين بأن لا يعدو في يوم سبتهم. ولمّا كانوا من اللذين فسقوا، جاءهم الابتلاء الرباني ليميز اللهُ الخبيثَ من الطيب منهم. فكانت حيتانهم تأتيهم شُرَّعاً في ذلك اليوم، ولا تأتيهم في غير يوم سبتهم:

- **وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ(163)**

وهنا (نحن نظن) حصلت الفتنة الكبرى لأهل القرية التي كانت حاضرة البحر حينئذ. فقد وقع القوم –كما زعمنا في الجزء السابق- تحت تأثير الإغراء المادي الكبير، ألا وهو اصطياد تلك الحيتان الآتية إليهم شُرَّعاً. لكن كان هناك مانع حقيقي أمامهم يتمثل بأنهم مأمورون بأن يسبتوا فلا يعدوا في ذلك اليوم (أي في يوم سبتهم). فما الذي حصل على أرض الواقع؟

رأينا المفترى: لم يكن المشرّعون منهم (وكلاء الرب على الأرض - كما يحبون أن يعرفهم الآخرون) ليذروا هذه الفرصة تفوتهم، فلا يدلوا بدلوهم فيها، وهنا دبّ الخلاف بين أهل العلم منهم – نحن نظن- حول ما يسمى بالمفردات الدارجة بين أهل العلم بـ "فقه المصالح"، فظهر من بين هؤلاء من كانت إرادته إطفاء نور الله، فأصدر "فتواه" (أي صك الغفران) بتقديم المصلحة الدنيوية على الأمر الإلهي بداعي الحاجة. فدب الخلاف بين اللذين آمنوا كلهم، فاختلفوا في السبت.

- **إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(124)**

وفي نهاية الجزء السابق أثرنا التساؤلات التالية حول اختلافهم في السبت:

- ⇐ كيف كان اختلافهم في السبت؟
- ⇐ ما هي الآراء التي كانت مطروحة للخروج من المأزق حينئذ؟
- ⇐ من هم اللذين اختلفوا فيه؟
- ⇐ كيف انتهت الأزمة؟
- ⇐ كيف حصل المسخ الإلهي لهم قردة خاسئين؟
- ⇐ من الذي نجا منهم؟
- ⇐ كيف وصل الأمر إلينا؟
- ⇐ ما علاقة ذلك بمسألة الأيام السبعة التي لازلنا نتبعها في تقويمنا حتى اليوم؟
- ⇐ ما علاقة ذلك بحقيقة أن الأيام عند الله هي فقط ستة تبدأ بالأحد وتنتهي بالجمعة – كما نفتري القول من عند أنفسنا؟
- ⇐ ما تبعات هذا الظن في حياتنا المعاصرة؟
- ⇐ ما علاقة ذلك كله بالتعهد الإلهي بإتمام نوره ولو كره الكافرون؟
- ⇐ الخ.

لذا سنتابع هذا الجزء من المقالة مبتدئين بالتساؤل الكبير التالي: لماذا جُعِل السبت جعلا؟

- **إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(124)**

أولا، نحن نظن أن الجعل ربما يحمل في ثناياه أن المجعول لم يكن موجودا من ذي قبل، كما حصل في قصة جعل الخليفة في الأرض مثلا:

- **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(30)**

فلو تدبرنا هذه الآية الكريمة لربما صح لنا أن نستنبط أن الخليفة لم يكن موجودا حينئذ، وما تواجد على أرض الواقع إلا بعد أن جعله الله.

ولو تدبرنا الآية الكريمة التالية من هذا المنظور، لوجدنا أن البلد بحد ذاته كان موجودا، لذا فهو لم يجعل، ولكنه الأمن (المجعول) لم يكن موجودا من ذي قبل. فالله قد جعل البلد آمنا، ولكنه لم يجعل البلد نفسه:

- **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(126)**

والمنطق نفسه ينطبق في الآية التالية:

- **وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ(125)**

فالبيت لم يجعل بنفسه، ولكنه جعل مثابة للناس وأمنا (مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً) لأنه لم يكن كذلك من ذي قبل.

وربما كانت الأرض الواردة في الآية التالية متواجدة من قبل إلا أنها جعلت فراشا في لحظة زمنية محددة:

- **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ(22)**

ولا شك أن الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها كان متواجدا ولكنه جعل بعد ذلك آية للناس:

- **أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِي هَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(259)**

وكذلك الجبل، فهو لا شك موجودا قبل أن يجعله الله دكا:

- **وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ(134)**

نتيجة مفتراة 1: إذا جعل الله الشيء، فإن ذلك الشيء لم يكن موجودا، فخلق من العدم مثل (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً)

نتيجة مفتراة 2: إذا جعل الله الشيء شيئا آخر، فإن ذلك يعني أن الشيء قد أصابه التغير مثل (فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: مادام أن السبت قد جُعل جعلا، فهو إذن لم يكن موجود من ذي قبل (إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ). لذا نحن نتجرأ على الظن بأن أيام الأسبوع قبل هذه الحادثة كانت ستة أيام فقط، وما حصل زيادة إلا بسبب اختلاف أهل العلم في السبت بعد تلك الحادثة التي سببت لهم الاختلاف في السبت.

الدليل

بداية لو راقبنا الآية نفسها لوجدنا أنها تدلنا على حصول الاختلاف في السبت، أليس كذلك؟

- **إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(124)**

ليكون السؤال الذي يجب أن يطرح على الفور هنا هو: من اللذين اختلفوا فيه؟

رأينا: نحن نظن أن هناك جملة من الافتراءات حول الاختلاف هي – برأينا- مهمة جدا في سياق حديثنا هنا، نذكر منها:

⇐ الاختلاف لا يقع إلا بين أهل العلم،
⇐ الاختلاف لا يصبح اختلافا إلا بوجود الكتاب وتوافر البينات، فيتوافر العلم فيها
⇐ المحرك للاختلاف هو البغي بين أهل العلم
⇐ تكون نتيجة هذا الاختلاف الانقسام إلى فئتين: فئة مؤمنة وأخرى كافرة

الدليل

أولا، الاختلاف في الكتاب، ويكون ذلك بين أهل العلم منهم:

- **ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ(176)**
- **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللّهِ فَإِنَّ اللّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ(19)**

ثانيا، الاختلاف يحصل بعد وجود البينات:

- **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(213)**

ثالثا، الاختلاف يحصل من قبل اللذين أوتوا الكتاب:

- **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(19)**

رابعا، البغي هو المحرك للاختلاف:

- **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(19)**
- **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ(253)**

خامسا: نتيجة الاختلاف هو الانقسام إلى فريقين: مؤمن وكافر:

- **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ(253)**
- **وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ۖ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(17)**

وقد توعد الله الذين كفروا بسبب هذا الاختلاف:

- فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ(37)
- فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ(65)

سادسا، الاختلاف منهي عنه:

- وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(105)

(نتيجة مهمة جدا: نحن على العقيدة التي مفادها أن في الاختلاف هلاك للأمة وليس فيه رحمة للأمة كما يحاول أهل الدين تسويق فكرهم للعامة، وهم يستندون على ما يزعم بعضهم أنه حديث (اختلاف الأئمة رحمة بالأمة) ، ولو راجعت كتب الأحاديث لما وجدته موجود فيها أصلا)

سابعا، الاختلاف يولد الشك لأن المختلفون يتبعون الظن:

- وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا(157)

ثامنا، لابد لمن يقع في الاختلاف من تقديم الدليل على صحة ما يزعم، ليهلك من هلك عن بيّنة وليحيى من حيّ عن بيّنة:

- إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ(42)

وذلك لأن الناس في الأصل هم أمة واحدة لولا الاختلاف الذي أوقعوا أنفسهم فيه:

- وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(19)

وهذا ما حصل مع الأمم السابقة مثل بني إسرائيل:

- وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(93)

فهم اللذين اختلفوا في الكتاب الذي آتاه الله موسى:

- وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ(110)
- وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ(45)

فأنزل الله الكتاب على محمد ليبيّن لهم الذي اختلفوا فيه:

- وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(64)

لذا، نحن نؤمن يقينا أنه بالقراءة الصحيحة لكتاب الله سيبين لنا "الذي اختلف فيه أهل الكتاب"، ولا يستثنى من ذلك قصة اختلافهم في السبت. لأنّ الحكم في الاختلاف لله وحده، فلا يحق لأي شخص أن يتدخل برأيه فيه، مادام أن الله قد بيّن لنا أن كل اختلاف يرجع الحكم فيه إلى الله وحده:

- وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ(10)

(دعاء: اللهم فأعلم أني أدعوك أن تنفذ قولك بمشيئتك لي الإحاطة علما بالذي أختلف فيه أهل الكتاب من قبلنا بكلماتك التي تحق بها الحق وتبطل بها الباطل ولو كره المجرمون، لتجعل كلمةَ اللذين كفروا السفلى وكلمتُك هي العليا، لتتم بها نورك الذي أبيت إلا أن تتمه ولو كره الكافرون – آمين)

السؤال: ما علاقة هذا بالسبت؟

- **إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(12)**

رأينا المفترى: لما كنا نظن يقينا أن اللذين اختلفوا في السبت هم أهل العلم من اللذين أتوا الكتاب، وأن اختلافهم فيما بينهم كان مدفوعا بالبغي، وجب علينا الآن أن نطرح السؤال التالي: كيف اختلفوا فيه؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لما وجد أهل القرية حاضرة البحر أن الإغراء كبير، فهذه حيتانهم تأتيهم شرعا في يوم سبتهم ولا تأتيهم في يوم لا يسبتون، كان لابد (نحن نتخيل) من استشارة أهل العلم، وأخذ رأيهم بما يجري من حولهم، ولما كان أهل العلم على الدوام فريقين: منهم الربانيون ومنهم من أضله الله لأنه لا شك اتخذ إلهه هواه:

- **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ(23)**

تفاوتت الآراء تبعا للأجندة المسبقة عندهم. فكان الاختلاف مدفوعا بالبغي بينهم، فكان منهم من آمن وكان منهم من كفر:

- **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ(253)**

ليكون السؤال المطروح هو: لماذا كفر بعض أهل العلم؟

رأينا: في حين أنه كان هناك من أهل الكتاب من لا يشتري بآيات الله ثمنا قليا:

- **وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(199)**

كان هناك بالمقابل- نحن نفتري- الظن من يشتري بآيات الله قليلا:

- **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(174)**

لكن لو دققنا في الآية الكريمة التالية أكثر، لوجدنا أن فريقا منهم قد اشترى بِعَهْدِ الله ثمنا قليلا:

- **إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(77)**

ليكون السؤال الآن هو: كيف يمكن أن يشتري أحد بِعَهْدِ الله ثمنا قليلا؟

جواب مفترى: نحن نظن أن ذلك له علاقة مباشرة بالميثاق الذي اشتروا به أيضا ثمنا قليلا كما جاء في الآية الكريمة التالية:

- **وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ(187)**

لتكون الصورة (كما نفهمها) على النحو التالي: يأخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب، ويكون ذلك الميثاق مشروط بالتالي:

⇐ أن يبينوه للناس (لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ)

⇐ أن لا يكتمونه (وَلاَ تَكْتُمُونَهُ)

السؤال: ما الذي حصل على أرض الواقع؟

رأينا المفترى: للإجابة على هذا التساؤل، نجد في هذه اللحظة لزاما التعرض لمفردة الميثاق الذي أخذه الله من بني إسرائيل على وجه التحديد، لنجد في الآية الكريمة التالية أن ذلك الميثاق الخاص بالسبت (موضوع حديثا) كان على وجه التحديد ميثاقا غليظا:

- **وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُواْ فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا(154)**

افتراء خطير جدا جدا: هناك ارتباط مباشر – لا تفك عراه- بين الاعتداء في السبت من جهة (موضوع حديثنا) والميثاق الغليظ الذي أخذه الله من بني إسرائيل من جهة أخرى، أليس كذلك؟

لتكون التساؤلات الآن هي على النحو التالي:

⇐ ما هو الميثاق الغليظ؟

⇐ كيف يؤخذ الميثاق الغليظ؟

⇐ كيف يختلف الميثاق الغليظ عن الميثاق "غير الغليظ" (إن صح القول) ؟

⇐ من الذي يمكن أن يأخذ الميثاق الغليظ؟

⇐ ومن الذي يمكن أن يؤخذ منه الميثاق الغليظ؟

⇐ كيف هي آلية أخذ الميثاق الغليظ على وجه التحديد؟

⇐ ما علاقة هذا بالاعتداء في السبت؟

⇐ الخ

أولا، عند البحث في كتاب الله عن الميثاق الغليظ، وجدناه قد حصل في ثلاثة مواضع فقط على مساحة النص القرآني بأكمله، والمواضع هي:

- **وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً (20) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا(21)**
- **وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُواْ فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا(154)**
- **وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا(7)**

ليكون التساؤل الآن هو: لماذا جاء الميثاق الغليظ في هذه المواضع فقط؟

رأينا المفترى: دعنا ندقق بداية في الآية الكريمة الأخيرة وهي قوله تعالى:

- **وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا(7)**

ألا تجد - عزيزي القارئ- ما يدعو إلى التدبر؟ ألا تجد أن الفصل هنا واضح بين جميع النبيين من جهة ومجموعة محددة منهم وهم (محمد ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى) من جهة أخرى؟ ألا تجد أن الله قد أخذ من كل النبيين ميثاقهم وأنه أخذ من هؤلاء الخمسة وهم أولوا العزم من الرسل ميثاقا غليظا؟

السؤال: كيف يختلف الميثاق الذي أخذه الله من النبيين جميعا كيعقوب ويوسف وإسماعيل وأيوب، الخ مقابل الميثاق الذي أخذه الله من محمد ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى على وجه التحديد؟

رأينا المفترى: في حين كان الميثاق الذي أخذه الله من النبيين جميعا ميثاقا عاديا (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ) كان الميثاق الذي أخذه الله من محمد ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم ميثاقا غليظا (وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا).

السؤال: كيف تم ذلك؟ وما تبعات الأمر؟

رأينا المفترى: نحن نظن بداية أن الميثاق يؤخذ بين طرفين، وانظر - إن شئت- في السياقات القرآنية الخاصة بالميثاق كلها. فالآيات الكريمة التالية تبين لنا (كما نفهمها) أن الميثاق قد تم توثيقه (أي كتابته) بين قومين:

- **إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا(90)**
- **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا(92)**
- **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ۚ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(72)**

ثانيا، كما تبين الآيات التالية لنا (كما نفهمها) أن الله قد يكون طرف في الميثاق الذي يأخذه من الناس الذين هم الطرف الآخر منه:

- **الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(27)**
- **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(63)**
- **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ(83)**

- وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ(84)
- وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(93)
- وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ(81)
- وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ(187)
- فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا(155)
- وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(7)
- وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ(12)
- فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ۙ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(13)
- وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(14)
- لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ(70)
- فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ(169)
- الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ(20)
- وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۙ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ(25)
- وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۙ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(8)

ثالثا، ولو تدبرنا الآية الكريمة التالية لوجدنا أن هناك فرق بين العهد والميثاق:

- الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ(20)

رابعا، لو تدبرنا الآية الكريمة لوجدنا أن الميثاق لابد أن يكون شيئا مكتوبا، أي يتم توثيقه:

- وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۙ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ(25)

لتكون النتيجة التي نحاول الوصول إليها هي أنه في حين أن العهد قد لا يوثق (وقد يوثق)، فإن الميثاق لا محالة موثّق:

- وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(7)

نتيجة مفتراة 1: العهد قد يكون شفهيا فلا يتم توثيقه
نتيجة مفتراة 2: العهد قد يتم توثيقه
نتيجة مفتراة 3: الميثاق لا يتم إلا كتابة

السؤال: وأين يوثّق الله (طرف) ميثاقه مع الطرف الآخر؟

رأينا: في الكتاب:

- فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ(169)
- وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ(187)

خامسا، مادام أنه ميثاق موثق (أي مكتوب) فلابد (نحن نفتري القول) أن تكون هناك شروط واضحة للطرفين فيه:

- وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ(83)
- وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ(84)

والذي ينقض الميثاق هو الذي لا يلتزم بشروطه كما فعل هؤلاء:

- وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(93)

السؤال: إذا كان هذا هو الميثاق (كما فهمناه)، فكيف يكون غليظا؟ أي كيف يمكن أن يصبح الميثاق ميثاقا غليظا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الآية الكريمة التالية ستسعفنا في التفريق بين الميثاق من جهة والميثاق الغليظ من جهة أخرى، ألا وهي الآية التي تتحدث عن العلاقة بين الأزواج:

- وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً (20) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا(21)

السؤال: لماذا يؤخذ الميثاق الغليظ بين الأزواج اللذين أفضى بعضهم إلى بعض؟
رأينا المفترى: تعرضنا في مقالاتنا الخاصة بالمرأة للعلاقة بين الأزواج، وزعمنا الظن أن هناك فرق بين نكاح النساء من جهة والدخول بهن من جهة أخرى. فنكاح المرأة لا يعني الدخول بها، فقد تنكح المرأة دون أن تمس:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا(49)**
- **لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةًۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ(236)**

ويترتب على ذلك أن المرأة التي نكحت ولم تمس تحصل على نصف ما فرض لها في حالة طلاقها:

- **وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِۚ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْۚ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(237)**

لكن المرأة التي نُكحت وتم الدخول بها، فلا يؤخذ شيء مما فرض لها:

- **وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً (20) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا(21)**

السؤال: لماذا؟
رأينا المفترى: لأن الميثاق في هذه الحالة قد أصبح ميثاقا غليظا.
السؤال: لماذا أصبح الميثاق هنا ميثاقا غليظا؟
رأينا: لأن الزوجان قد أفضى بعضهم إلى بعض.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا 1: الميثاق الذي بين الرجل والمرأة التي نكحها ولكنه لم يمسها هو ميثاق عادي (غير غليظ)
نتيجة مفتراة من عند أنفسنا 2: الميثاق الذي بين الرجل والمرأة التي نكحها ومسها هو ميثاق غليظ

السؤال: ما معنى ذلك؟
رأينا المفترى: نحن نظن بأنه مادام أن الزوجان قد أفضى بعضهم إلى بعض، فإن الدخول قد تم إذن، ويستحيل أن يحدث هذا –برأينا- ما لم يحدث انكشاف تام لعورة كل منهما للآخر. فالزوج والزوجة اللذان أفضى بعضهما إلى بعض قد انكشفت عورة كل واحد منهما للآخر. لذا أصبح الزوج يعرف تفاصيل سوءة زوجته، وأصبحت الزوجة تعرف تفاصيل سوءة زوجها. فانكشف اللباس الذي كان يستر سوءة كل منهما أمام الآخر، وما عاد يطلع عليه إلا من كان طرفا في ذلك الميثاق، وهما الزوج والزوجة، أليس كذلك؟
السؤال: ما علاقة ذلك بالآية الكريمة التي تتحدث عن الميثاق الغليظ الذي أخذه الله من مجموعة من رسله وهم أولي العزم منهم: محمد ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى؟

- **وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا(7)**

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن ما انكشف لهؤلاء الرسل على وجه التحديد من الغطاء عن السر الإلهي لا يمكن مقارنته بما كان لغيرهم من أنبياء الله الآخرين. لذا، نحن نفتري القول (من عند أنفسنا) أن هؤلاء الرسل على وجه التحديد قد انكشف لهم ما لم ينكشف لغيرهم من أنبياء الله ورسله الآخرين. لذا كان لابد من أخذ الميثاق الغليظ منهم. ليكون السؤال الآن هو: لماذا؟

جواب: لأن من انكشف له من السر الإلهي فلا بداية أن يصبر عليه، فذاك أكبر بكثير من قدرة الناس العاديين على تحمله، لذا جاءت الدعوة واضحة لمحمد بالصبر كما صبر أولي العزم من الرسل من قبله:

- **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ(35)**

ثانيا، مادام أن الميثاق الذي أُخذ غليظا من هؤلاء الرسل، فلابد أنه كان مكتوبا (موثقا)، فيه شروط واضحة للطرفين. فهؤلاء الرسل هم أصحاب الرسالات المكتوبة في الكتاب الذي أنزله الله.

ثالثا، كان مهمة هؤلاء الرسل أن يبينوه للناس ولا يكتمونه:

- **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ(187)**
- **وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(64)**
- **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (43) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ(44)**

السؤال: ما علاقة هذا كله بقصة اللذين اعتدوا في السبت من بني إسرائيل؟

جواب مفترى: لنقرأ ما جاء في الآية الكريمة التالية:

- **وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا(154)**

ألا تجد – عزيزي القارئ- أن الآية تتحدث عن الأمر الإلهي لبني إسرائيل بأن لا يعدو في السبت؟ ثم ألا تجد أن الله قد أخذ من هؤلاء على وجه التحديد ميثاقا غليظا؟

السؤال: كيف يمكن أن نفهم أن ميثاق هؤلاء هو ميثاق غليظ كما في حالة الأزواج:

- **وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً (20) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا(21)**

أو كما في حالة أولي العزم من الرسل؟

- **وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا(7)**

رأينا المفترى: نحن نظن أن الذي حصل كان على النحو التالي:

⇐ ينزل الله الكتاب

⇐ يفصل الله فيه كل شيء

⇐ يأخذ الله الميثاق مع هؤلاء القوم،

⇐ تصبح مهمة اللذين أتوا الكتاب بأن يبينوه للناس

⇐ وتصبح مهمتهم أيضا أن لا يكتمونه

⇐ كان عدم الاعتداء في السبت هو أحد شروط هذا الميثاق الذي كان الله طرف فيه وكان اللذين اعتدوا منهم في السبت جزء من الطرف الآخر.
⇐ لما كان هذا الميثاق ميثاقا غليظا تكشف فيه لهم كل شيء

السؤال: ما الذي حصل؟

رأينا: لما كانت حقيقة عدم الاعتداء في السبت قد انكشفت لهم تماما، تبين لهم ما كان خافيا عليهم. فقد أصبح واضحا (نحن نفتري القول) للطرف الآخر (وهم اللذين أوتوا الكتاب) تماما لم واثقهم الله بهذا الميثاق، أي لم طلب منهم أن لا يعدو في السبت. فما عاد الغرض خافيا عليهم.

الدليل

لو تدبرنا ما حصل للقوم عندما نقضوا ميثاقهم الذي واثقهم الله به في تلك الجزئية (وهي الاعتداء في السبت)، لوجدنا على الفور أن النتيجة كانت كارثية بكل ما في الكلمة من معنى، فلقد جعل الله الذين اعتدوا منهم في السبت قردة خاسئين، أليس كذلك؟

- **وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ(65)**

ولو تدبرنا ما حصل لهم في سياق قرآني آخر، لوجدنا الآيات الكريمة التالية تصور لنا ما آلت إليه حالهم بعد نقضهم ميثاقهم ذاك:

- **فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ (165) فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ (166) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ(167)**

السؤال: لماذا كان العقاب بهذه الدرجة من الشدة والبطش الإلهي الشديد؟

رأينا: لأنهم نسوا ما ذكروا به

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا: لما كان الميثاق الذي واثقهم الله به هو ميثاقا غليظا جاءهم "الذكر"، أي كانوا قد ذكرّوا بالسبب الذي من أجله أمرهم الله بأن لا يعدوا في السبت، فكان الأمر واضحا أمامهم، لذا كان العقاب من الله أشد وأقسى، وذلك لأن عاقبة مخالفة "الميثاق الغليظ" لا شك وخيمة ولا يستثنى من ذلك الرسل أنفسهم:

- **وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (73) وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً (74) إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا(75)**

فلو تمت فتنة الرسول محمد عن بعض ما أوحى الله إليه (حتى وإن كان شيئا قليلا)، لكانت النتيجة – لا محالة- أن يذيقه الله ضعف الحياة وضعف الممات ولا يجد له نصيرا (إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا).

نتيجة مفتراة خطر جدا جدا: نحن نزعم القول بأن اللذين اعتدوا من بني إسرائيل في السبت كانوا على علم تام بالسبب الذي من أجله أمرهم الله بأن لا يعدو فيه.

السؤال القوي: إن صح ما تزعم (يسأل صاحبنا)، فماذا كان السبب الذي من أجله منعهم الله أن لا يعدو في السبت؟

رأينا المفترى: الحوت

السؤال: وكيف ذلك؟

تخيلات مفتراة: نحن نظن أنه كان معلوما لهؤلاء القوم في الكتاب (الذي كان من المفترض من اللذين أتوه أن يبينوه للناس ولا يكتموه) أن هذا الحوت يأتي في يوم سبتهم، أي في اليوم الذي كان من المفترض أن يسعوا فيه لذكر الله وإلى الصلاة (وهو يوم الجمعة المفروض على كل اللذين آمنوا)، لذا طُلب منهم أن لا يعدو فيه، لأن الاعتداء فيه يعني الاعتداء على واحدة من آيات الله. فأصبح الذين أوتوا الكتاب على علم بهذا "الذكر الإلهي". لكن عندما رأى القوم بأم أعينهم ما يحصل لهم من الفتنة، لجئوا (نحن لا زلنا نتخيل) إلى بعض أهل العلم ليجدوا لهم طريقة للخروج من هذا "المأزق". لذا كان هناك نوعان من الناس في هذه الأحوال المربكة

1. العامة اللذين هدفهم مصلحة دنيوية بحتة، ويبحثون عن صك غفران لتبرير فسقهم
2. أهل العلم اللذين أوتوا الكتاب ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وهم اللذين – من المفترض- يتحملون مسؤولية تبيانه للناس وعدم كتمانه

في ظل هذه الفتنة، أنقسم (نحن نفتري الظن) أهل العلم اللذين أوتوا الكتاب إلى فريقين: فريق مؤمن يرفض تماما أن يشتري بآيات الله وعهده وميثاقه ثمنا قليلا، وفريق آخر على استعداد أن يكتبوا الكتاب بأيديهم ويقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا. فكيف تصرف كل منهما؟

تخيلات مفتراة: نحن نظن أن ردة فعل كل فريق كانت على النحو التالي:

⇐ أصر الربانيون منهم أن لا يعدو في السبت وأن يلتزموا بالأمر الإلهي، منتظرين أن يقضي الله أمرا كان مفعولا

⇐ وبالمقابل وجد أهل العلم "غير الربانيين" المبرر والوسيلة للتحايل على الوضع والخروج منه، ظانين أنهم قد كسبوا الغنيمة

السؤال: كيف خرج هؤلاء من الوضع؟

جواب مفترى: بالاختلاف في السبت

السؤال: وكيف كان ذلك؟

رأينا: لمّا وجد هؤلاء أن النص صريح في الكتاب بأن لا يعدو في السبت كان عليهم إيجاد الحيلة، فبدلا من الالتزام المطلق بتعاليم الكتاب الواضحة، أخذ هؤلاء القوم يشككون الناس في السبت، فلجئوا إلى كتمان العلم ومن ثم تبيان الأمر للناس على نحو ما يرغبون. فبدؤوا بطرح تساؤلات كثيرة حول السبت منها:

⇐ ما هو السبت؟

⇐ لماذا السبت؟

⇐ متى السبت؟

⇐ الخ

وكان أول ما خرج به هؤلاء النفر من العلماء "غير الربانين" هو فلسفة "السبت" (كما نفعل نحن في كتاباتنا المفتراة من عند أنفسنا). ولم يستمر النقاش طويلا (نحن نتخيل) حتى طرحت واحدة من الأفكار التي

كانت (نحن نظن) الأكثر دهاء ومكرا في تاريخ بني إسرائيل، ألا وهي أن السبت هو يوم الراحة الإلهية. فالله – حسب منطق هؤلاء- قد خلق السموات والأرض في ستة أيام، وما أن انتهى من مهمته هذه حتى كان أحوج إلى يوم راحة بعد تعب، فكان السبت، فكتموا الآية الكريمة الموجودة عندهم في التوراة التي بينها الله لنا في القرآن:

- **وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ(38)**

ولو رجعنا إلى النسخ المترجمة من التوراة التي أبدوها للناس لوجدنا أن هذا الجزء الأخير من الآية (وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ) غير موجود عندهم إطلاقا في حين أن جزءها الأول موجود بشكل واضح لا لبس فيه. وانظر – عزيزي القارئ- ما جاء في نهاية الإصحاح الأول من سفر التكوين وبداية ما جاء في الإصحاح الثاني من سفر التكوين:

سِفْرُ التَّكْوِينِ
الأَصحَاحُ الأَوَّلُ

فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ. 2وَكَانَتِ الأَرْضُ خَرِبَةً وَخَالِيَةً، وَعَلَى وَجْهِ الْغَمْرِ ظُلْمَةٌ، وَرُوحُ اللهِ يَرِفُّ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ. 3وَقَالَ اللهُ: «لِيَكُنْ نُورٌ»، فَكَانَ نُورٌ. 4وَرَأَى اللهُ النُّورَ أَنَّهُ حَسَنٌ. وَفَصَلَ اللهُ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ. 5وَدَعَا اللهُ النُّورَ نَهَارًا، وَالظُّلْمَةُ دَعَاهَا لَيْلاً. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا وَاحِدًا.6وَقَالَ اللهُ: «لِيَكُنْ جَلَدٌ فِي وَسَطِ الْمِيَاهِ. وَلْيَكُنْ فَاصِلاً بَيْنَ مِيَاهٍ وَمِيَاهٍ». 7فَعَمِلَ اللهُ الْجَلَدَ، وَفَصَلَ بَيْنَ الْمِيَاهِ الَّتِي تَحْتَ الْجَلَدِ وَالْمِيَاهِ الَّتِي فَوْقَ الْجَلَدِ. وَكَانَ كَذلِكَ. 8وَدَعَا اللهُ الْجَلَدَ سَمَاءً. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا ثَانِيًا.

9وَقَالَ اللهُ: «لِتَجْتَمِعِ الْمِيَاهُ تَحْتَ السَّمَاءِ إِلَى مَكَانٍ وَاحِدٍ، وَلْتَظْهَرِ الْيَابِسَةُ». وَكَانَ كَذلِكَ. 10وَدَعَا اللهُ الْيَابِسَةَ أَرْضًا، وَمُجْتَمَعَ الْمِيَاهِ دَعَاهُ بِحَارًا. وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ. 11وَقَالَ اللهُ: «لِتُنْبِتِ الأَرْضُ عُشْبًا وَبَقْلاً يُبْزِرُ بِزْرًا، وَشَجَرًا ذَا ثَمَرٍ يَعْمَلُ ثَمَرًا كَجِنْسِهِ، بِزْرُهُ فِيهِ عَلَى الأَرْضِ». وَكَانَ كَذلِكَ. 12فَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ عُشْبًا وَبَقْلاً يُبْزِرُ بِزْرًا كَجِنْسِهِ، وَشَجَرًا يَعْمَلُ ثَمَرًا بِزْرُهُ فِيهِ كَجِنْسِهِ. وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ. 13وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا ثَالِثًا.

14وَقَالَ اللهُ: «لِتَكُنْ أَنْوَارٌ فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لِتَفْصِلَ بَيْنَ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ، وَتَكُونَ لآيَاتٍ وَأَوْقَاتٍ وَأَيَّامٍ وَسِنِينٍ. 15وَتَكُونَ أَنْوَارًا فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لِتُنِيرَ عَلَى الأَرْضِ». وَكَانَ كَذلِكَ. 16فَعَمِلَ اللهُ النُّورَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ: النُّورَ الأَكْبَرَ لِحُكْمِ النَّهَارِ، وَالنُّورَ الأَصْغَرَ لِحُكْمِ اللَّيْلِ، وَالنُّجُومَ. 17وَجَعَلَهَا اللهُ فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لِتُنِيرَ عَلَى الأَرْضِ، 18وَلِتَحْكُمَ عَلَى النَّهَارِ وَاللَّيْلِ، وَلِتَفْصِلَ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ. وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ. 19وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا رَابِعًا.

20وَقَالَ اللهُ: «لِتَفِضِ الْمِيَاهُ زَحَّافَاتٍ ذَاتَ نَفْسٍ حَيَّةٍ، وَلْيَطِرْ طَيْرٌ فَوْقَ الأَرْضِ عَلَى وَجْهِ جَلَدِ السَّمَاءِ». 21فَخَلَقَ اللهُ التَّنَانِينَ الْعِظَامَ، وَكُلَّ ذَوَاتِ الأَنْفُسِ الْحَيَّةِ الدَّبَّابَةِ الَّتِي فَاضَتْ بِهَا الْمِيَاهُ كَأَجْنَاسِهَا، وَكُلَّ طَائِرٍ ذِي جَنَاحٍ كَجِنْسِهِ. وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ. 22وَبَارَكَهَا اللهُ قَائِلاً: «أَثْمِرِي وَاكْثُرِي وَامْلإِي الْمِيَاهَ فِي الْبِحَارِ. وَلْيَكْثُرِ الطَّيْرُ عَلَى الأَرْضِ». 23وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا خَامِسًا.

24وَقَالَ اللهُ: «لِتُخْرِجِ الأَرْضُ ذَوَاتِ أَنْفُسٍ حَيَّةٍ كَجِنْسِهَا: بَهَائِمَ، وَدَبَّابَاتٍ، وَوُحُوشَ أَرْضٍ كَأَجْنَاسِهَا». وَكَانَ كَذلِكَ. 25فَعَمِلَ اللهُ وُحُوشَ الأَرْضِ كَأَجْنَاسِهَا، وَالْبَهَائِمَ كَأَجْنَاسِهَا، وَجَمِيعَ دَبَّابَاتِ الأَرْضِ كَأَجْنَاسِهَا. وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ. 26وَقَالَ اللهُ: «نَعْمَلُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا، فَيَتَسَلَّطُونَ عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ، وَعَلَى كُلِّ الأَرْضِ، وَعَلَى

جَمِيعِ الدَّبَّابَاتِ الَّتِي تَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ». 27فَخَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ. عَلَى صُورَةِ اللهِ خَلَقَهُ.
ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُمْ. 28وَبَارَكَهُمُ اللهُ وَقَالَ لَهُمْ: «أَثْمِرُوا وَاكْثُرُوا وَامْلأُوا الأَرْضَ، وَأَخْضِعُوهَا، وَتَسَلَّطُوا
عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى كُلِّ حَيَوَانٍ يَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ». 29وَقَالَ اللهُ: «إِنِّي قَدْ
أَعْطَيْتُكُمْ كُلَّ بَقْل يُبْزِرُ بِزْرًا عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ، وَكُلَّ شَجَرٍ فِيهِ ثَمَرُ شَجَرٍ يُبْزِرُ بِزْرًا لَكُمْ يَكُونُ طَعَامًا.
30وَلِكُلِّ حَيَوَانِ الأَرْضِ وَكُلِّ طَيْرِ السَّمَاءِ وَكُلِّ دَبَّابَةٍ عَلَى الأَرْضِ فِيهَا نَفْسٌ حَيَّةٌ، أَعْطَيْتُ كُلَّ عُشْبٍ
أَخْضَرَ طَعَامًا». وَكَانَ كَذلِكَ.
31وَرَأَى اللهُ كُلَّ مَا عَمِلَهُ فَإِذَا هُوَ حَسَنٌ جِدًّا. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا سَادِسًا.

الأصحَاحُ الثَّانِي

1فَأُكْمِلَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَكُلُّ جُنْدِهَا. 2وَفَرَغَ اللهُ فِي الْيَوْمِ السَّابعِ مِنْ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ.
فَاسْتَرَاحَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ. 3وَبَارَكَ اللهُ الْيَوْمَ السَّابِعَ وَقَدَّسَهُ، لأَنَّهُ فِيهِ
اسْتَرَاحَ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ اللهُ خَالِقًا.
4هذِهِ مَبَادِئُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ حِينَ خُلِقَتْ، يَوْمَ عَمِلَ الرَّبُّ الإِلهُ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ. 5كُلُّ شَجَرِ
الْبَرِّيَّةِ لَمْ يَكُنْ بَعْدُ فِي الأَرْضِ، وَكُلُّ عُشْبِ الْبَرِّيَّةِ لَمْ يَنْبُتْ بَعْدُ، لأَنَّ الرَّبَّ الإِلهَ لَمْ يَكُنْ قَدْ أَمْطَرَ عَلَى
الأَرْضِ، وَلاَ كَانَ إِنْسَانٌ لِيَعْمَلَ الأَرْضَ. 6ثُمَّ كَانَ ضَبَابٌ يَطْلَعُ مِنَ الأَرْضِ وَيَسْقِي كُلَّ وَجْهِ الأَرْضِ.
7وَجَبَلَ الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ تُرَابًا مِنَ الأَرْضِ، وَنَفَخَ فِي أَنْفِهِ نَسَمَةَ حَيَاةٍ. فَصَارَ آدَمُ نَفْسًا حَيَّةً. 8وَغَرَسَ
الرَّبُّ الإِلهُ جَنَّةً فِي عَدْنٍ شَرْقًا، وَوَضَعَ هُنَاكَ آدَمَ الَّذِي جَبَلَهُ. 9وَأَنْبَتَ الرَّبُّ الإِلهُ مِنَ الأَرْضِ كُلَّ
شَجَرَةٍ شَهِيَّةٍ لِلنَّظَرِ وَجَيِّدَةٍ لِلأَكْلِ، وَشَجَرَةَ الْحَيَاةِ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ، وَشَجَرَةَ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ.
10وَكَانَ نَهْرٌ يَخْرُجُ مِنْ عَدْنٍ لِيَسْقِيَ الْجَنَّةَ، وَمِنْ هُنَاكَ يَنْقَسِمُ فَيَصِيرُ أَرْبَعَةَ رُؤُوسٍ: 11اِسْمُ الْوَاحِدِ
فِيشُونُ، وَهُوَ الْمُحِيطُ بِجَمِيعِ أَرْضِ الْحَوِيلَةِ حَيْثُ الذَّهَبُ. 12وَذَهَبُ تِلْكَ الأَرْضِ جَيِّدٌ. هُنَاكَ
الْمُقْلُ وَحَجَرُ الْجَزْعِ. 13وَاسْمُ النَّهْرِ الثَّانِي جِيحُونُ، وَهُوَ الْمُحِيطُ بِجَمِيعِ أَرْضِ كُوشٍ. 14وَاسْمُ
النَّهْرِ الثَّالِثِ حِدَّاقِلُ، وَهُوَ الْجَارِي شَرْقِيَّ أَشُّورَ. وَالنَّهْرُ الرَّابعُ الْفُرَاتُ.
15وَأَخَذَ الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ وَوَضَعَهُ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَهَا وَيَحْفَظَهَا. 16وَأَوْصَى الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ قَائِلاً:
«مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ أَكْلاً، 17وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلاَ تَأْكُلْ مِنْهَا، لأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ
مِنْهَا مَوْتًا تَمُوتُ». 18وَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ: «لَيْسَ جَيِّدًا أَنْ يَكُونَ آدَمُ وَحْدَهُ، فَأَصْنَعَ لَهُ مُعِينًا نَظِيرَهُ».
19وَجَبَلَ الرَّبُّ الإِلهُ مِنَ الأَرْضِ كُلَّ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ وَكُلَّ طُيُورِ السَّمَاءِ، فَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ لِيَرَى مَاذَا
يَدْعُوهَا، وَكُلُّ مَا دَعَا بِهِ آدَمُ ذَاتَ نَفْسٍ حَيَّةٍ فَهُوَ اسْمُهَا. 20فَدَعَا آدَمُ بِأَسْمَاءٍ جَمِيعَ الْبَهَائِمِ وَطُيُورَ
السَّمَاءِ وَجَمِيعَ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ. وَأَمَّا لِنَفْسِهِ فَلَمْ يَجِدْ مُعِينًا نَظِيرَهُ. 21فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الإِلهُ سُبَاتًا عَلَى
آدَمَ فَنَامَ، فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلاَعِهِ وَمَلأَ مَكَانَهَا لَحْمًا. 22وَبَنَى الرَّبُّ الإِلهُ الضِّلْعَ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ
آدَمَ امْرَأَةً وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ. 23فَقَالَ آدَمُ: «هذِهِ الآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي. هذِهِ
تُدْعَى امْرَأَةً لأَنَّهَا مِنِ امْرِءٍ أُخِذَتْ». 24لِذلِكَ يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ وَيَكُونَانِ جَسَدًا
وَاحِدًا. 25وَكَانَا كِلاَهُمَا عُرْيَانَيْنِ، آدَمُ وَامْرَأَتُهُ، وَهُمَا لاَ يَخْجَلاَنِ.

لذا، جاء التحريف واضحا في هذه النسخ البديلة التي أخفوا الأصل منها كما جاء في قوله تعالى:

- وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ(91)

ولما كان هذا الكتاب الذي أنزله الله على محمد فيه تبيان لما اختلفوا فيه:

- وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(64)

جاء فيه ما يفضح قولهم المفترى على الله كذبا (بأن الله قد استراح في اليوم السابع) في الآية الكريمة التالية:

- وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ(38)

نتيجة مفتراة: بدل أن يبين هؤلاء العلماء للناس بأن السبت هو اليوم الذي من المفترض أن يسعى الناس فيه لذكر الله (كيوم الجمعة)، فيأخذوا قسطا من الراحة لأنفسهم من جراء العمل اليومي الذي يقومون به، أصبح المنطق عندهم أن تلك الراحة هي ما كان يحتاجها الإله نفسه كما وصلنا في الإصحاح الثاني من النسخة غير الأصلية منه العهد القديم:

- 1فَأُكْمِلَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَكُلُّ جُنْدِهَا. 2وَفَرَغَ اللهُ فِي الْيَوْمِ السَّابعِ مِنْ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ. فَاسْتَرَاحَ فِي الْيَوْمِ السَّابعِ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ. 3وَبَارَكَ اللهُ الْيَوْمَ السَّابعَ وَقَدَّسَهُ، لأَنَّهُ فِيهِ اسْتَرَاحَ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ اللهُ خَالِقًا.

لكن يبقى السؤال: كيف سيخرجهم منطقهم المفترى على الله كذبا هذا من مأزق الحيتان؟

رأينا المفترى: ما أن تم تسويق منطقهم المكذوب بأن الله كان بحاجة إلى راحة بعد أن فرغ من خلق السموات والأرض حتى سهل عليهم إقناع العامة من الناس بأن السبت هو اليوم الذي يلحق أيام الخلق الستة. فالله قد خلق السموات والأرض في ستة أيام وكانت راحته – حسب زعمهم- في اليوم السابع. لذا أصبح منذ تلك اللحظة المنطق الكاذب على نحو أن أيام الأسبوع هي سبعة أيام بدلا من ستة فقط، كما جاء في الآيات الكريمة العديدة:

- إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِۦ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(54)
- إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ(3)
- وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ(7)
- الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِۚ الرَّحْمَـٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا(59)
- اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ(4)
- وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ(38)

- **هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(4)**

السؤال القوي: إذا كانت أيام الأسبوع هي ستة في الكتاب، فلم لم يعمد هؤلاء إلى نقل سبتهم (أي يوم الجمعة) إلى أي يوم آخر كالأحد أو الاثنين أو الثلاثاء أو الأربعاء أو الخميس، بدل من اختلاق يوم جديد لا أصل له؟

رأينا المفترى: إن المدقق فيما جاء في العهد القديم يجد التفصيل واضحا عن ما عمل الإله في اليوم الأول (الأحد) وما عمل في اليوم الثاني (الاثنين) وما عمل في اليوم الثالث (الثلاثاء) وما عمل في اليوم الرابع (الخامس) وما عمل في اليوم السادس (الجمعة). لذا لا يستطيع هؤلاء اللذين كانت مهمتهم تحريف الكلم عن مواضعه أن ينقلوا السبت إلى أي يوم من هذه الأيام، فخرج شياطينهم بالفكرة الأكثر كرا وخبثا وهي اختلاق يوم جديد لا علاقة له بأيام الخلق الستة، فكان السبت (يوم الراحة).

السؤال: ماذا كانت تبعات هذا الفعل؟

رأينا: بسبب هذا المنطق المفترى على الله كذبا، تم نقل سبتهم من الجمعة (وهو اليوم الذي من المفترض من جميع اللذين آمنوا أن يسعوا لذكر الله فيه) إلى يوم جديد. فأصبح السبت هو يوم الراحة التي يسبتون فيه، وما عادوا يسبتون في يوم الجمعة. فاستطاعوا بهذه الحيلة أن يصطادون الحيتان التي كانت تأتيهم شرعا في ذلك اليوم. وذلك لأنهم وإن كانوا هم قد حرفوا يوم سبتهم، إلا أن الحيتان لم تكن لتغير برنامجها الإلهي المعهود. فاستمرت الحيتان تأتي شرعا يوم الجمعة، وأصبح القوم قادرين على الاعتداء عليها في ذلك اليوم لأن يوم سبتهم هو اليوم التالي للجمعة وليس الجمعة نفسها.

السؤال: ماذا كانت العاقبة؟

رأينا: لما كان الاعتداء في السبت واضحا لا لبس فيه، وهو مخالف للميثاق الغليظ الذي واثقهم الله به:

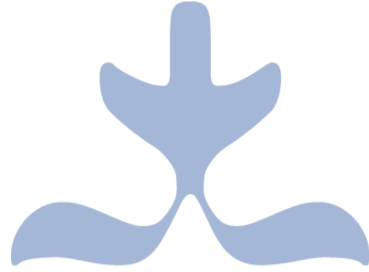
- **وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا(154)**

كانت العاقبة وخيمة:

- **وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ(65)**

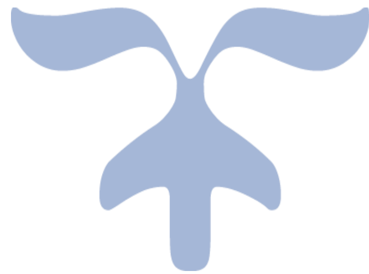
وللحديث بقية

فالله وحده أسأل أن يأذن لي بعلم لا ينبغي لغيري، وأن يعلمني الحق الذي أقوله فلا أفتري عليه الكذب، وأن يزدني علما، وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا، إنه هو الواسع العليم – آمين.



قصة يونس

الجزء الثالث عشر



قصة يونس: الجزء الثالث عشر

- وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ(163)

حاولنا في الجزء السابق من هذه المقالة تفنيد إدعاء أهل الكتاب اللذين كانت مهمتهم تحريف الكلم من بعد مواضعه بأن أيام الأسبوع هي سبعة أيام كما هو معمول به في التقويم الجاري، وظننا أن هذا التقويم قد بدأ منذ تلك اللحظة التي حصل فيها الاختلاف في السبت. وافترينا الظن من عند أنفسنا بأن الأيام عند الله هي ستة فقط، كما جاء في الآيات الكريمة العديدة:

- إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(54)
- إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ(3)
- وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ(7)
- الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا(59)
- اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ(4)
- وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ(38)
- هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(4)

وزعمنا القول بأن هدف اللذين اختلفوا في السبت كان مدفوعا بالحاجة للخروج من مأزق الحيتان التي كانت تأتي القرية حاضرة البحر يوم سبتهم ولا تأتيهم يوم لا يسبتون. وقد سوّق بعض أهل الكتاب من خلال ذلك افتراءهم على الله الكذب على نحو أن الله هو من كان بحاجة إلى راحة بعد أن فرغ من خلق السموات والأرض في ستة أيام، فكان يوم السبت. وقد سهّل عليهم هذا الافتراء المكذوب على الله - كما يظهر في النسخ المترجمة في نهاية الإصحاح الأول وبداية الإصحاح الثاني من سفر التكوين من العهد القديم (انظر الجزء السابق)- إقناع العامة من الناس بأن السبت هو اليوم الذي يلحق أيام الخلق الستة. فالله قد خلق السموات والأرض في ستة أيام، وكانت راحته – حسب زعمهم- في اليوم السابع. لذا ساد منذ تلك اللحظة منطقهم الكاذب على نحو أن أيام الأسبوع هي سبعة أيام بدلا من ستة فقط.

السؤال القوي: لماذا فعل أهل العلم فعلتهم هذه؟ أي لماذا نقضوا الميثاق الذي واثقهم الله به؟ هل كان ذلك من أجل اصطياد بعض الحيتان؟ وهل كان أهل العلم يشتغلون أصلا بمهنة اصطياد حيتان البحر؟

رأينا المفترى: نحن لا نظن بأن هدف اللذين أتوا الكتاب من أهل العلم كان اصطياد أو عدم اصطياد الحيتان، فذاك شأن العامة من أهل تلك القرية حاضرة البحر. لذا لابد أن أهل العلم (نحن نزعم الظن) كان هدفهم الحقيقي أكبر من ذلك بكثير، ليكون السؤال مرة أخرى هو: لماذا فعلوا فعلتهم تلك؟

منطقنا المفترى: نحن نظن أنه لما كانت العاقبة وخيمة (وهي جعل اللذين اعتدوا منهم في السبت قردة خاسئين)، كان الجرم – لا شك- شنيعا ليتناسب مع حجم العقوبة. فعاقبة اصطياد حفنه من حيتان البحر الذي أحل الله لنا صيده وطعامه حتى في حالة الإحرام كما جاء في الآية الكريمة التالية:

- **أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(96)**

قد لا تكون – نحن نفتري القول- بهذا البطش الإلهي الشديد لو لم يكن الأمر حقا أكبر من ذلك بكثير. لذا لابد (حسب منطقنا المفترى هذا) من الظن (ربما مخطئين) أن ما فعله هؤلاء القوم من الجرم كان يواز حجم العقاب الذي نزل بهم:

- **وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ(65)**

السؤال: فما الذي فعله هؤلاء حتى استحقوا هذا العقاب الأليم من الله؟

- **فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ (165) فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ (166) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ(167)**

رأينا: نحن نفتري القول من عند أنفسنا أن مثل هذا العقاب الإلهي الشديد لا يحل بقوم إلا إذا بدر من القوم أنفسهم ما يدعوا إليه. وهذا يعني بمنطقنا المفترى أن اللذين اعتدوا منهم في السبت قد فعلوا فعلة نكراء جعلتهم محل غضب الرب. ولو تدبرنا العقاب الإلهي الذي نزل بهم في سياقه الأوسع كما تصوره الآيات الكريمة التالية لربما استطعنا أن نخرج بافتراءات جديد حول الموضوع:

- **فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ (165) فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ (166) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ(167)**

لتكون الافتراءات الأولية على النحو التالي:

⇐ أن القوم قد ذكروا بشيء ما
⇐ أن القوم قد نسوا ما ذكروا به (فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ)
⇐ كان من بينهم من كان ينهى عن السوء، فحصلت لهؤلاء النجاة (أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ)
⇐ كان من بينهم من كان ظالما، فوقع عليهم عذاب بئيس
⇐ كان الفسق هو سبب هذا العذاب (وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ)
⇐ حصل عن عتوا عن ما نهوا عنه (فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ)
⇐ كان العذاب على شكل أن جعلهم الله قردة خاسئين (قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ)

⇐ حصل الإذن الإلهي من الله أن يبعث عليهم من يسومهم سوء العذاب (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ)
⇐ كان في ذلك دلالة على أن الله سريع العقاب (إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ)
⇐ كما كان في ذلك دلالة على أن الله غفور رحيم (وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ)
⇐ الخ.

السؤال: إن صح ما تزعم، فما الذي فعلوه؟ يسأل صاحبنا.

رأينا المفترى: نحن نظن أن اللذين اعتدوا منهم في السبت قد حاولوا الاعتداء على واحدة من آيات الله، وهي الحوت وصاحبه وهو (برأينا) الذي جعله الله آية للناس بعد أن أماته مئة عام ثم بعثه:

- **أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(259)**

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا خطيرة جدا: نحن نفتري الظن بأن اللذين ظلموا من أهل الكتاب وهم من أخذهم الله بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون (وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ) كان هدفهم الوصول إلى الحوت وصاحبه.

الدليل

لو راقبنا الآيات الكريمة جيدا لوجدنا أن هناك نوعان من العذاب وقعا على القوم، وهما:

⇐ العذاب البئيس الذي أصاب اللذين ظلموا وهم اللذين كانوا يفسقون (وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ)
⇐ عذاب أصاب اللذين اعتدوا في السبت بشكل محدد، وهو جعلهم قردة خاسئين، وهؤلاء هم اللذين عتوا عن ما نهوا عنه:

- **وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ(65)**
- **فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ(166)**

السؤال: كيف حصل ذلك؟ وما الفرق بين العذاب البئيس الذي أخذ الذين ظلموا منهم وعذاب الجعل قردة وخنازير الذي أصاب اللذين اعتدوا منهم في السبت؟

رأينا: دعنا نتدبر الآية الكريمة التالية أولا:

- **فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ(165)**

لنجد أنه كان هناك من كان ينهى عن السوء وهم اللذين أنجاهم الله من العذاب (أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ)، لكن كان هناك بالمقابل من كان ظالما وهؤلاء هم اللذين أصابهم عذاب بئيس، وكان سبب ذلك أنهم كانوا يفسقون (وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ)، وهؤلاء هم اللذين نسوا ما ذكروا به (فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ).

السؤال: كيف حصل هذا كله؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الفسق لا يحصل إلا بعد صدور الأمر الإلهي، كما فعل إبليس يوم أن رفض الأمر الإلهي بالسجود لآدم:

- **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا(50)**

نتيجة مفتراة 1: لما كان بعض القوم من اللذين يفسقون، لذا فهم من اللذين رفضوا الامتثال للأمر الإلهي

السؤال: كيف حصل رفضهم للأمر الإلهي

رأينا: نحن نؤمن أن ذلك قد حصل بطريقة النسيان مصداقا لقوله تعالى: "فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ"

- **فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ(165)**

التساؤلات التي يجب أن تطرح الآن هي:

⇐ ما الذي ذكّروا به؟

⇐ وكيف نسوه؟

نحن نؤمن أن من حلّت عليه نعمت الله ومن أنزل الله عليه الكتاب وآتاه الحكمة يجب أن يذكر:

- **وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النَّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لَّتَعْتَدُواْ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلاَ تَتَّخِذُوَاْ آيَاتِ اللّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(231)**

ثانيا، ونحن نؤمن أن الذكر يجب أن يكون بالطريقة التي علمنا إياه ربنا، وذلك لأن الله هو من علمنا ما لم نكن نعلم:

- **فَإنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ(239)**

والذكر يجب أن يكون لنعمة الله وميثاقه الذي واثقنا به:

- **وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(7)**

وهذا – برأينا- ما حصل مع بني إسرائيل بعد نجاتهم من فرعون وعذابه، ولكن حصل أن نقض بعضهم هذا الميثاق، وذلك بتحريف الكلم عن مواضعه:

- **وَلَقَدْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ (12) فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(13)**

وكانت النتيجة أنهم قد نقضوا ميثاقهم (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ)، فلُعِنوا (لَعنَّاهُمْ)، وجُعِلت قلوبهم قاسية وذلك بسبب تحريفهم للكلم عن مواضعه (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ) ونسوا ما ذكروا به (وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ)، فأصبحت حالهم على النحو التالي:

- **فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (43) فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ(44)**

مادام أنهم قد نسوا ما ذكروا به (فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ)، فُتِحت عليهم أبواب كل شي (فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)، فما أن أصابهم الفرح (حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ)، حتى أخذوا بالعذاب بغتة فإذا هم مبلسون. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في الآية الكريمة مرة أخرى:

- **فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ(44)**

السؤال: من هم هؤلاء اللذين أصابهم هذا العذاب بغتة؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هؤلاء هم بعض من جاء ذكرهم في الآية الكريمة التالية:

- **وَإِذ نطقنا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(171)**

لتكون النتيجة المفتراة من عند أنفسنا على النحو التالي: أخذ الله ميثاق هؤلاء القوم من بني إسرائيل عندما نتق الجبل فوقهم كأنه ظلة، ولما كان هذا ميثاق، جاءت بنوده واضحة تماما. وكان هذا الميثاق غليظا، وكانت واحدة من بنوده تنص على أن لا يعدو في السبت:

- **وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُواْ فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا(154)**

لذا كان هناك انكشاف للحقائق، فأصبحوا على علم بما لم يكونوا يعلمون من قبل، وأصبحت هناك علاقة من نوع خاص بين هؤلاء القوم وربهم، فتمت نعمة الله عليهم، وحصل أن نتق الله فوقهم الجبل كأنهم ظلة. فكان ذلك جزء من التفضيل الإلهي لهم. لكن ما الذي حصل بعد ذلك؟

رأينا المفترى: نسي بعض هؤلاء ما ذكروا به (فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ)

السؤال: كيف نسي القوم ما ذكروا به؟

رأينا المفترى: بداية لابد من التأكيد بأن النسيان لا يعني ما يخطر على بال العامة من معاني للمفردة، فالنسيان (كما نفهمه في السياق القرآني) لا يعني بأي حال من الأحوال غياب المعلومة عن الذهن، وذلك لأن الله نفسه ينسى. وانظر – عزيزي القارئ - الآية الكريمة التالية قبل أن تستشيط غضبا:

- **الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(67)**

السؤال: هل يمكن أن تغيب المعلومة عن الإله الذي نسيهم عندما نسوه (نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ)؟

ثانيا، لا شك عندنا أن القرآن الكريم يثبت إمكانية أن ينسى الإنسان نفسه:

- **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(19)**

السؤال: وهل يمكن أن ينسى الإنسان نفسه (فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ) إذا كان معنى النسيان هو غياب المعلومة من الذاكرة؟

جواب مفترى: نحن نفتري الظن بأن النسيان (كما نفهمه) هو فعل مقصود لذاته، فالإنسان ينسى لأنه يريد أن ينسى، والله نفسه ينسى لأن ذلك كان قراره بنفسه:

- **الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(67)**

السؤال: ما هو النسيان إذن؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن النسيان هو "تجاهل الأمر أو الموقف عن قصد" (أو هو "التطنيش" بلغتنا الأردنية الدارجة). فأنا قد أنساك إذا أردت ذلك، فيكون ذلك على نحو أن "أطنشك". ويكون النسيان عندها قرار نابع من تلقاء نفسي ولا يعني أنك غير حاضر في بالي (أي في الذاكرة) تماما. فأنا قد أنساك حتى عندما تكون حاضرا في ذاكرتي، وهذا ما سيحصل يوم القيامة مع من أراد الله نسيانهم:

- **وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ(34)**

نتيجة مفتراة: النسيان فعل مقصود لذاته (وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ)، لذا الإله نفسه ينسى.

فهؤلاء النفر من الناس (نحن نظن) لم ينسوا اليوم الآخر بمعنى أنه كان يغيب تماما من ذاكرتهم، ولكنهم نسوه (نحن نظن) لأنهم اختاروا أن يتجاهلوه "تطنيشه" عن قصد كلما ورد خبره في ذاكرتهم، فكان فعل النسيان عندهم مقصودا لذاته، وكذلك كان القرار الإلهي بحقهم وهو نسيانهم (الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ).

السؤال المعكوس: ما معنى غياب المعلومة تماما من الذاكرة؟ أو كيف جاء اللفظ القرآني بخصوص من غابت المعلومة تماما من باله (فلم تعد موجودة في ذاكرته)؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: إنها الغفلة:

- **وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ(205)**
- **وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ(39)**
- **وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ(97)**
- **لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ(22)**
- **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ(172)**
- **وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ(17)**

نتيجة مفتراة: الغفلة تحصل بغياب المعلومة من الذهن تماما. لذا فالإله الذي قد ينسى لا يغفل.

الدليل: نحن نفتري القول أنه لما كان صاحب يوسف السجن (مثلا) لم يغفل عن يوسف ولكنه نسي يوسف بتحريض من الشيطان، فإننا نعتقد بأن صورة يوسف في السجن لم تفارق مخيلته يوما منذ أن خرج من السجن حتى لحظة "ادكاره بعد أمة" يوم أن طلب الملك تأويل رؤياه:

- وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ(45)

ولو راقبنا السياق أكثر لوجدنا على الفور أن صاحب يوسف قد ادكر (ولكنه لم يتذكر).

السؤال: لماذا ادكر صاحب يوسف؟ ولم لم يأت النص على نحو أنه قد تذكر مثلا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أنه لو كان صاحب يوسف في غفلة عن يوسف لكانت حادثة رؤية الملك سببا لأن يتذكر (بالذال)، ولكن لما كان صاحب يوسف ناسيا (مطنش) كانت حادثة رؤية الملك سببا له لأن يدّكر (بالدّال) كما في الشكل التالي:

نسيان	غفلة
ادكار (ادكر)	تذكّر (تذكّر)

السؤال: كيف يمكن تطبيق هذا في قضية اللذين اعتدوا في السبت (موضوع حديثنا)؟

رأينا المفترى: لما كان القوم قد نسوا ما ذكروا به، فهم إذا قد تجاهلوا الأمر عن قصد ونية مسبقة بهذا القرار، لذا كان العقاب الإلهي الذي نزل بهم شديدا:

- فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ(165)

السؤال: كيف إذن حصلت القصة برمتها؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن القصة قد حصلت على النحو التالي:

⇐ ينجي الله بني إسرائيل من فرعون وقومه على يد موسى، فيتجاوز بهم البحر، ويغرق فرعون وجنوده:

- وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ(90)

⇐ ما أن تجاوز الله ببني إسرائيل البحر حتى أتى هؤلاء الناجين من فرعون وجنوده على تلك القرية التي كان القوم فيها يعكفون على أصنام لهم، فما كان منهم إلا أن يطلبوا من موسى أن يجعل لهم إلها كما لهم آلهة:

- وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَـهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ(138)

فيأتي رد موسى على طلبهم هذا على النحو التالي:

- إِنَّ هَؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (139) قَالَ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (140) وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ(141)

⇐ ثم يحصل الميقات الإلهي لموسى أربعين ليلة، فيأتي موسى في اليوم الثلاثين متعجلا، لكن الله يتم ميقاته أربعين يوما:

- وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ(142)
- وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ(51)

⇐ لما جاء موسى لميقات ربه، حصلت حادثة الجبل، الذي جعله ربه دكا:

- **وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (143) قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ(144)**

⇐ ما برح موسى لقاءه مع ربه ذاك حتى كتب الله له في الألواح موعظة وتفصيلا لكل شيء، فيطلب الله من موسى أن يأمر قومه بأن يأخذوا بأحسنها:

- **وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ(145)**

فيعود موسى إلى قومه غضبان أسفا، حاملا الألواح، وما أن يصل حتى يبدأ بمعاقبة أخيه هارون، ملقيا الألواح، آخذا برأس أخيه يجره إليه:

- **وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(150)**

⇐ لكن ما أن يسمع موسى حجة أخيه هارون حتى يندم على فعلته، ويطلب المغفرة والدخول في رحمة ربه له ولأخيه:

- **قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ(151)**

⇐ فيتوجه موسى إلى السامري مخاطبا له، وينتهي الحوار بقرار موسى بتحريق العجل ونسفه في اليم:

- **قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (95) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (96) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا(97)**

⇐ ما أن يسكت عن موسى الغضب حتى يعود ليأخذ الألواح التي كان قد ألقاها لحظة عودته:

- **وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ(154)**

⇐ يشيع الخبر في القوم أن موسى قد حظي بالنظر إلى ربه في ميقاته الأول، فتثور ثائرة بعضهم، مطالبين بالروية الإلهية، منكرين الإيمان بموسى حتى حصول ذلك:

- **وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ(55)**

وهنا يكون موسى قد اختار لميقات ربه هذا سبعين رجلا:

- **وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ(155)**

⇐ وما أن يبعث الله هؤلاء من بعد موتهم حتى يظلل عليهم الغمام وينزل عليهم المن والسلوى. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- السياق الأوسع لهذه الحادثة:

- **وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (55) ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (56) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(57)**

ما أن يبعثهم الله من بعد موتهم حتى ينتق الجبل فوقهم كأنه ظلة حتى ظنوا أنه واقع بهم، وهناك بالضبط يأمرهم أن يأخذوا ما آتاهم الله بقوة وأن يذكروا ما فيه لعلهم يتقون:

- **وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(171)**

نتيجة مهمة جدا جدا: في ظلة ذلك الجبل المنتوق فوقهم طلب الله من هؤلاء القوم أن يأخذوا ما آتاهم بقوة (خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ) وأن يذكروا ما فيه (وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ) لعلهم يتقون (لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ).

وعاد موسى إلى قومه مع هؤلاء السبعين رجلا من قومه، فيأمر القوم جميعا أن يأخذوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم. ويقطعهم الله اثنتي عشرة أسباطا أمما بعدد عيون الماء التي انبجست من الحجر الذي أمر موسى أن يضربه بعصاه:

- **وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(160)**

⇐ في هذه الأثناء يطلب الله منهم أن يسكنون قرية محددة:

- **وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ(161)**

⇐ ولو تتبعنا السياق نفسه، لوجدنا أنه في هذه القرية بالذات حصل تبديل ما قد قيل لهم على يد الذين ظلموا منهم:

- **فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ(162)**

⇐ وكانت هذه القرية (حسب فهمنا للسياق القرآني) هي نفسها التي حصلت فيها فتنة الحيتان:

- **وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ(163)**

فانقسم القوم إلى فريقين، فريق مؤمن يهدون بالحق وبه يعدلون:

- **وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ(159)**

وفريق نسوا ما ذكروا به:

- **فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ(165)**

التساؤلات

⇐ من هم اللذين نسوا ما ذكروا به؟

⇐ كيف حصل أن نسوا ما ذكروا به؟

⇐ لماذا نسوه؟

⇐ الخ

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا أن اللذين نسوا ما ذكروا به هم اللذين ظلموا منهم، وهم اللذين نتق الله فوقهم الجبل كأنه ظله حتى ظنوا أنه واقع بهم، وهم اللذين طلب منهم أن يأخذوا ما آتاهم الله بقوة وأن يذكروا ما فيه كما جاء في قوله تعالى:

- **وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(171)**

لكن نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن بعض هؤلاء النفر من بني إسرائيل اللذين كان عددهم سبعين رجلا لم يلتزم بالميثاق الإلهي الذي واثقهم بهم، وليس أدل على ذلك (كما نفهم القول) من قوله تعالى:

- **وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا(154)**

لتكون النتائج المفتراة الآن على النحو التالي:

نتيجة مفتراة 1: كان هناك من رفع الله فوقهم الطور

نتيجة مفتراة 2: كان هؤلاء من طلب الله منهم أن يدخلوا الباب سجدا

نتيجة مفتراة 3: كان هؤلاء هم اللذين أخذ الله ميثاقهم بأن لا يعدوا في السبت

نتيجة مفتراة 4: كان ذلك الميثاق ميثاقا غليظا

عندما نقض بعضهم ميثاق الله، حصل العذاب الإلهي على النحو التالي:

- **وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ(65)**

لكن المتدبر لهذا السياق القرآني يجد تناوبا في الألفاظ يجلب معه الحيرة والدهشة. فالمدقق في هذا النص يجد أن العذاب قد وقع على اللذين اعتدوا منهم في السبت، أليس كذلك؟

والآن دقق عزيزي القارئ في الميثاق الذي أخذه الله منهم:

- **وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا(154)**

لتجد أن الميثاق كان على نحو أن (لَا تَعْدُوا) ولكن العذاب قد وقع على الذين اعتدوا (الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ)

تساؤلات

⇐ ما الفرق؟

⇐ لماذا كان الميثاق على نحو أن لا يعدو (وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ) ؟

⇐ لماذا جاء العذاب على اللذين اعتدوا (الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ) ؟

⇐ فهل اللذين طلب الله منهم أن لا يعدوا في السبت هم أنفسهم اللذين اعتدوا في السبت؟

⇐ الخ.

رأينا المفترى: نحن نظن أن الميثاق الذي أخذه الله منهم كان على نحو أن لا يعدوا في السبت:

- **وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا(154)**

وأن هذا الميثاق قد أخذه الله من الذين نتق الجبل فوقهم كأنه ظلة:

- وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(171)

وأن هؤلاء كان عددهم سبعين رجلا:

- وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ(155)

وأن هؤلاء هم اللذين أخذ الله منهم ميثاقا غليظا بأن لا يعدو في السبت:

- وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا(154)

لذا، كان هؤلاء هم علماء بني إسرائيل الذين انكشف لهم من العلم ما لم ينكشف لغيرهم، وكان هؤلاء (نحن لا زلنا نفتري القول من عند أنفسنا) عالمين بالحكمة الإلهية التي حركت الطلب الإلهي منهم بأن لا يعدوا في السبت. فكان ميثاق الله الذي واثقهم به ميثاقا غليظا (وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا). لكن ما الذي حصل بعد ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نفتري القول بأنه لم يلتزم كل اللذين أُخذ منهم الميثاق بذلك الميثاق كما واثقهم الله به، فظهر من بينهم من كان ظالما، فبدل هؤلاء اللذين ظلموا منهم قولا غير الذي قيل لهم:

- فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ(162)

السؤال: ماذا كان عذابهم؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن عذاب هؤلاء كان هو العذاب البئيس، لأنهم هم اللذين فسقوا عن الأمر الإلهي:

- فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ(165)

نتيجة مفتراة 1: كان هؤلاء قد نسوا ما ذكروا به، أي تجاهلوه عن قصد (فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ)
نتيجة مفتراة: 2: كان هؤلاء هم اللذين ظلموا
نتيجة مفتراة 3: كان عذابهم هو عذاب بئيس
نتيجة مفتراة 4: كانوا هؤلاء يفسقون (وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ)

السؤال: إذا كان هؤلاء قد نسوا ما ذكروا به بأن تجاهلوه عن قصد، فكيف كانوا ظالمين؟

رأينا: نحن نظن أن هؤلاء قد ظلموا لأنه قد جاءهم العلم من قبل. فواحدة من أوجه الظلم تكون بكتمان الشهادة (التي يعلمها):

- أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(140)

والظلم يكون بافتراء الكذب على الله أو بتكذيب آيات الله:

- وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ(21)

- وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ(93)
- وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ(18)
- هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا(15)
- وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ۚ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ(22)
- وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(15)

وعادة ما يحصل الظلم من الشخص الذي جاءه الحق:

- وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ(68)

والغاية تكون من ذلك هو ضلالة الناس الذين لا علم عندهم:

- وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ۗ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(144)
- وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا(57)

وليس أدل على ذلك مما فعل آدم وزوجه وهما اللذان ظلما أنفسهما بعد أن جاءهم العلم مباشرة من ربهم:

- فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (22) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ(23)

نتيجة: مفتراة: كان الذين وقع عليهم العذاب البئيس من الذين ظلموا لأنهم كانوا على علم.

السؤال: إذا كان هؤلاء قد ظلموا، فلم كانوا يفسقون؟ أو كيف كانوا يفسقون؟

- فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ(165)

رأينا المفترى: لما كان هؤلاء يفسقون لذا لابد أنهم قد فسقوا عن الأمر الإلهي كما فعل إبليس الذي فسق عن أمر ربه:

- وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا(50)

نتيجة مفتراة 1: فعل هؤلاء ما فعل آدم وزوجه بأن ظلموا أنفسهم

نتيجة مفتراة 2: لما كان هؤلاء قد فسقوا، لذا فهم قد فعلوا ما يشبه ما فعل إبليس الذي فسق عن أمر ربه

السؤال: كيف إذن يمكن تصور ما حصل على أرض الواقع؟

تخيلات مفتراة: نحن نظن أنه لمّا كان العلم بالسبب الذي من أجله طُلِب منهم أن لا يعدوا في السبت، كانوا إذن عالمين بنبأ السبت، ولكن لمّا خالفوا ما كان من المفترض أن يلتزموا به كان ظالمين (كما حصل مع آدم وزوجه)، ولمّا لم يتوقفوا عند هذا الحد بأن فسقوا عن أمر ربهم، فهم إذا قد خالفوا الأمر الإلهي ليس عن رغبة جامحة عندهم (كما حصل مع آدم)، ولكن عن إصرار مسبق على ارتكاب الذنب كما فعل إبليس الذي أبى واستكبر:

- وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ(34)

نتيجة مفتراة: لمّا وصل الحد بهؤلاء القوم أنهم قد ظلموا وأنهم قد كانوا فاسقين، كان العقاب الإلهي لا محالة نازل بهم. فنزل بهم على نحو أنه رجز من السماء، فكان عذابا بئيسا:

- **فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ(165)**

السؤال: إذا كان هؤلاء الذين ظلموا هم اللذين أصابهم عذاب بئيس بما كانوا يفسقون، فمن الذين وقع عليهم العذاب بأن جعلهم قردة خاسئين؟

رأينا المفترى: نحن نؤمن إنهم الذين اعتدوا في السبت:

- **وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ(65)**

السؤال: وهل هناك فرق؟

رأينا المفترى: نعم، هناك فرق كبير جدا.

السؤال: ما هو؟

رأينا: نحن نظن أن الذين ظلموا هم بعض علماء بني إسرائيل، وهم مجموعة من السبعين رجلا الذين نتق الله فوقهم الجبل وجعله فوقهم كأنه ظله، وهم اللذين أخذ الله منهم ميثاقهم هناك، وهؤلاء هم الذين أصابهم العذاب البئيس بما كان يفسقون:

- **فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ(165)**

أما الذين أصابهم العذاب بأن جعلهم الله قردة خاسئين فهم (نحن نؤمن) اللذين نفذوا الاعتداء على حيتان البحر في يوم سبتهم، وهؤلاء (نحن نظن) كانوا من عامة الناس اللذين لم يكونوا يعلمون، فهم اللذين أضلهم أهل العلم منهم:

- **وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ(65)**

لذا وجب علينا (بناء على هذا المنطق المفترى من عند أنفسنا) التفريق بين مجموعتين ممن وقع عليهم العذاب نتيجة ذلك الاعتداء:

⇐ **المجموعة الأولى** وهم اللذين طُلب منهم أن لا يعدوا، وهؤلاء هم – برأينا- أهل العلم الذين كان هدفهم ضلالة الناس من حولهم لحاجة في أنفسهم

⇐ **المجوعة الثانية** وهم الذين اعتدوا، وهؤلاء هم – نحن نؤمن- اللذين نفذوا ما طلبه منهم أهل العلم اللذين اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا.

باب لا تعدوا (مقابل لا تعتدوا)

السؤال: ما معنى أن "لا يعدوا" التي وردت في قوله تعالى؟

- وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا(154)

رأينا المفترى: لو تدبرنا هذا السياق القرآني لوجدنا أن النهي هو على نحو (لَا تَعْدُوا). وهذا - لا شك عندنا - يختلف كليا عن النهي الذي ورد في الآيات الكريمة التالية على نحو "لَا تَعْتَدُوا":

- وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ(190)
- وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(231)
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(2)
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ(87)
- الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(229)
- وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ(14)

السؤال: ما الفرق؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن النهي الذي جاء على صيغة " لَا تَعْدُوا " له علاقة بما جاء في الآيات الكريمة التالية:

- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا(49)
- وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا(28)
- يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا(1)
- يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا(1)
- وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ(46)

- وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ(60)

لتكون النتيجة المفتراة التي نحاول جاهدين الوصول إليها هي أن النهي في قوله تعالى (لَا تَعْدُوا)، هي مأخوذة – نحن نفتري الظن من عند أنفسنا- من "العدة"، أي الاستعداد، لذا كان الأمر الإلهي في قوله "لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ" (كما نفهمه) نهيا عن التجهز للأمر. أما صيغية "لَا تَعْتَدُوا" فهي التنفيذ الفعلي لفعل الاعتداء.

السؤال: كيف حصل الأمر على أرض الواقع؟

رأينا المفترى: لما كان الأمر الإلهي لمن أخذ الميثاق منهم هو على نحو أن (لَا تَعْدُوا)، فإن النهي كان (كما نظن) يشمل عدم القيام بأي تجهيزات (أي عدّة) يمكن من شأنها أن تؤدي في نهاية المطاف إلى الاعتداء على الحيتان في يوم سبتهم. فالله يعلم بأن القوم قد يقوموا بالتحايل (إن صح القول) على الأمر الإلهي بأن لا يعتدوا على الحيتان في يوم سبتهم ولكنهم قد يقوموا بالحيلة التي تمكنهم من تأخير اعتدائهم إلى يوم غير يوم سبتهم، وذلك على نحو أن يقوموا بعمل المصائد للحيتان التي يعلمون أنها ستأتيهم في يوم سبتهم في غير يوم سبتهم، فتقع تلك الحيتان في يوم سبتهم في تلك المصائد التي عملت في غير يوم سبيتهم. فما يكون منهم إلا أن يصطادونها في يوم غير يوم سبتهم بعد أن تمكنوا منها في يوم سبتهم. لكن لما كان العلم الإلهي مطلقا بما في صدورهم هؤلاء القوم، جاء الاحتياط مسبقا بأن لا يعدوا (لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ)، أي لا يقوموا بمثل هذه الاستعدادات للإيقاع بالحيتان ومن ثم التذرع بأنهم لم يخالفوا الأمر الإلهي. وبكلمات أكثر وضوحا نحن نفتري القول بأنه لو جاء النهي الإلهي لهم على نحو "لا تعتدوا في السبت"، ربما ما أشكل عليهم الأمر بأن يلتزموا بعدم الاعتداء بالسبت ولكنهم يكونوا قد أعدوا العدة مسبقا له، أي العدة التي يمكنهم من إيقاع الحيتان في المصائد التي جهزوها لها في غير يوم السبت. فكانت الحكمة الإلهي (كما نفهمها) عظيمة بأن منعهم عن ذلك بقوله "لَا تَعْدُوا"، فما عادوا يستطيعون التذرع بمثل تلك الذرائع الفاشلة.

السؤال: لماذا؟ أي لماذا منعهم الله بأن لا يعدوا " في السبت

رأينا المفترى: نحن نفتري القول بأن الهدف من ذلك ليس لحصول العلم الإلهي بالتزامهم بميثاقهم أو عدم التزامهم به، ولكن من أجل غاية محددة وهي "الحيتان" نفسها.

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن الله كان يريد أن يمنع أي محاولة منهم (مهما صغرت أو كبرت) تمكنهم من الاعتداء على تلك الحيتان على وجه التحديد. فتلك الحيتان يجب أن لا يمسوها بسوء، وذلك لأن في الاعتداء عليها خطر عظيم جدا.

السؤال: ما هو ذلك الخطر؟ ما الذي كان من الممكن أن يحصل لو أن القوم فعلا قد عمدوا إلى اصطياد الحيتان في يوم سبتهم؟

رأينا المفترى: نحن نظن أنه لو تمكن القوم من الاعتداء على تلك الحيتان، لربما استطاعوا أن يظفروا بذلك الحوت "المميز" وصاحبه الذي كان يأتي في يوم الجمعة من أجل تلبية نداء السعي لذكر الله في ذلك اليوم، وهو الحوت الذي كانت تلك الحيتان – برأينا- تأتي معه أسرابا، احتفاء بقدومه، فتكون شرعا في ذلك اليوم على وجه التحديد:

- وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ(163)

السؤال: لماذا نقض بعض أهل العلم من بني إسرائيل ميثاق الله الذي واثقهم به طمعا في ذلك الحوت؟

رأينا المفترى والخطير جدا جدا: من أجل العلم المكنون فيه.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: في حين أن هدف العامة من الناس اللذين لم يكونوا على علم بقصة هذا الحوت والسبب الإلهي الذي من أجله نهاهم عن الاعتداء على الحيتان في يوم سبتهم كان هدفا ماديا بحت يتمثل (كما نفهمه) بالظفر باصطياد بعض تلك الحيتان، كان الهدف الحقيقي لأهل العلم اللذين سوغوا لهم فعلتهم تلك بالاعتداء على الحيتان هدفا علميا، وهو - برأينا- الظفر بالغنيمة الكبرى وهي الحوت نفسه مع صاحبه، وبالتالي الاعتداء عليهما.

السؤال: كيف كانت عاقبة كل طرف؟

رأينا المفترى: كان العقاب الرباني للذين اعتدوا في السبت وهم الذين نفذوا الاعتداء على الحيتان في يوم السبت (وهم العامة من الناس) طمعا بغنيمة مادية قد نزل بهم على شاكلة أن جعلهم الله قردة خاسئين:

- وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ(65)

لكن - بالمقابل - كان العقاب الذي نزل على اللذين ظلموا منهم هو عذاب بئيس بما كانوا يفسقون:

- فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ(165)

السؤال: ما هو العذاب البئيس الذي نزل بهؤلاء؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن عذاب هؤلاء كان أكبر وأعظم من عذاب أولئك. فالذي يقع في الظلم عن علم مسبق ويكون قد فسق عن أمر ربه هو أشد خطرا من الذي ارتكب الإثم لمطمع دنيوي بسيط. فالأول – لا شك عندنا- شر مثوبة عند الله من الثاني. فعذاب اللذين اعتدوا في السبت كان على نحو أن يكونوا قردة خاسئين، لكن عذاب الذين سوغوا لهم الأمر (وهم في ظننا أهل العلم الظالمين لأنفسهم الفاسقين عن أمر الله) كان - لا شك عندنا- أكبر من ذلك.

السؤال: ما العذاب الذي كان من الممكن أن يكون أكثر من أن يجعلهم الله قردة خاسئين؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الآية الكريمة التالية (كما نفهمها) لها علاقة مباشرة بفحوى النقاش:

- قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ(60)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: كان عذاب الذين ظلموا منهم على نحو أن الله قد لعنهم (مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ)، وغضب عليهم (وَغَضِبَ عَلَيْهِ)، وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت (وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ). والسبب في ذلك هو أن هؤلاء هم شر مكانا (أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا) وأضل عن سواء السبيل (وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ).

نتيجة مفتراة 1: كان اللذين جعلهم الله قردة خاسئين هم اللذين اعتدوا في السبت (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ)

نتيجة مفتراة 2: كان اللذين جعلهم الله خنازير هم الذي جاءهم الأمر الإلهي بأن لا يعدوا في السبت

نتيجة مفتراة 3: جعل الله من هؤلاء اللذين خالفوا الأمر الإلهي بأن لا يعدوا في السبت جعل منهم الخنازير وعبد الطاغوت.
نتيجة مفتراة: كان هؤلاء هم أشر مكانا وأضل عن سواء السبيل

- **قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ(60)**

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن السبب في ذلك يعود لأن هؤلاء قد اختلفوا في السبت.

السؤال: وكيف اختلفوا فيه؟

جواب مفترى: تحدثنا سابقا عن الاختلاف، وزعمنا الظن أن الاختلاف لا يحصل إلا بين أهل العلم، والسبب في ذلك (كما نفهمه) أن أهل العلم قد أصبحوا على دراية تامة بالحكمة التي من أجلها جاءهم الأمر الرباني بالقضية قيد الاختلاف بينهم. فاللذين اختلفوا في السبت – مثلا- يعلمون السر وراء الأمر الإلهي بأن لا يعدو في السبت.

السؤال: أين الدليل على أن القوم كانوا على علم بذلك؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الدليل هو في حصول الاختلاف بينهم.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأنه لو حصلت المشكلة بينهم وهم على غير علم بالأمر، لربما وقع ذلك – نحن نفتري القول- في باب الخصومة وليس في باب الاختلاف. ليكون السؤال الذي سنجلب إليه انتباه القارئ الكريم الآن هو: ما الفرق بين أن يختلف القوم أو أن يتخاصموا فيما بينهم؟

باب الخصومة

لو تتبعنا السياقات القرآنية الخاصة بالخصومة (ومشتقاتها) كما جاءت في السياقات القرآنية التالية:

- **هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ(19)**
- **مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ(49)**
- **وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (21) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ(22)**
- **وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ(58)**

لربما صحّ لنا أن نفتري القول من عند أنفسنا بأن الخصومة تحدث قبل أن يتم اتخاذ القرار بفضها. فاللذين يحضرون إلى القاضي ليحكم بينهم هم خصمان اختصموا فيما بينهم. وذلك لأن البت بالحكم بينهم هو من شأن القاضي نفسه. فاللذين دخلوا على داوود – مثلا- كانوا خصما، وهم اللذين تسوروا المحراب:

- **وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ(21)**

لكن ما أن دخلوا المحراب حتى وجدوا خصمهم الآخر فيه، فأصبحوا خصمان:

- **إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ(22)**

(للتفصيل انظر مقالاتنا تحت عنوان ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته: باب النعجة)

ولا شك – عندنا- أن الخصومة تصل إلى القاضي عندما يبغى طرف منهم على طرف آخر، فيكون قد بغى بعضهم على بعض (خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ). وهنا يأتي دور القاضي للحمن بينهما (فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ) بعد أن يستمع إلى وجه نظر كل طرف منهما، بتقديم البينات التي تثبت حجته في الخصومة. وما أن ينتهي كل طرف من تقديم بينته حتى تصبح مهمة القاضي إنهاء الخصومة بينهما، ويكون ذلك على نحو اتخاذ قرار وجب على الطرفين الالتزام به مادام أنهما قد حضرا معا طالبين فض الخصومة بينهما على يد القاضي نفسه.

رأينا المفترى: ما أن ينطق القاضي بحكمه في الخصومة حتى يصبح الأمر بيّنا للطرفين. عندها يكون الالتزام بقرار القاضي إجباريا، أليس كذلك؟

السؤال: ماذا لو خالف البعض منهم قرار القاضي الذي نطق به لفض الخصومة بينهما

رأينا المفترى: نحن نظن أنه لو حصل ذلك، وخالف البعض قرار القاضي المنطوق في فض الخصومة، لأصبح ذلك يقع في باب الاختلاف، وذلك لأن الخصومة قد فضت في تلك اللحظة التي نطق بها القاضي بالقرار. فتكون الخصومة قد انتهت ولكن نشب الآن اختلاف فيما هو بيّن. والآن انظر عزيزي القارئ – إن شئت- في السياقات التالية التي تبين لنا أن الاختلاف يحصل بعد مجيء العلم:

- **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(19)**
- **وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(93)**
- **وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ(14)**
- **وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ۖ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(17)**

تبين هذه الآيات الكريمة (ربما بما لا يدع مجالا لابتغاء التأويل) بأن الاختلاف قد حصل بعدما جاءهم العلم. كما تبين أيضا بأن مثل هذا يكون دائما مدفوعا بهدف واحد وهو البغي (فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ)، فاللذين اختلفوا بالسبت كانوا مدفوعين بالغاية نفسها، أي البغي بينهم.

السؤال: كيف حصل ذلك؟

رأينا المفترى: في محاولتنا الإجابة على هذا التساؤل وجدنا أن الضرورة تستدعي تتبع أحداث قصة موسى في سياقها التاريخي، منذ لحظة خروجه ومن معه من بني إسرائيل من أرض مصر مطاردين من قبل فرعون وجنوده. فتخيلناها قد حصلت على النحو التالي:

ما أن يخرج موسى من أرض مصر ومعه قومه حتى يتعجل للقاء ربه:

- **وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (83) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ(84)**

فيخبر الله موسى بالفتنة التي حصلت لقومه وبضلالة السامري لهم:

- قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ(85)

وفي ذلك اللقاء يحصل القرب الإلهي لموسى:

- وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا(52)

فتجرأ موسى على طلب الرؤيا المباشرة للإله، فيحدث التجلي الإلهي للجبل، ويتجلى الإله للجبل، فتحصل الصاعقة، فيجعل الله الجبل دكا ويخر موسى صعقا من هول تلك الصاعقة:

- وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ(143)

وفي نهاية ذلك اللقاء، يكتب الله لموسى في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء، ويطلب منه أن يأخذها بقوة وأن يأمر قومه بأن يأخذوا بأحسنها، وفي الوقت ذاته يقطع الله الوعد لموسى بأن يريه دار الفاسقين:

- وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ(145)

وهنا نتوقف للحظة مع هذه الجزئية، حيث نجد أن أصحاب تلك القرية حاضرة البحر اللذين أصاب بعضهم عذاب السبت كان يفسقون:

- واَسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ(163)

وهم – لا شك عندنا- اللذين نسوا ما ذكروا به:

- فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ(165)

وقد حصل ذلك العذاب لهم بعد أن بدلوا قولا غير الذي قيل لهم:

- فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ(59)

ليكون السؤال الآن هو: كيف حصل ذلك؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: ما أن عاد موسى من لقاء ربه حاملا الألواح حتى ألقاها وأخذ بمعاقبة المتسببين بالفتنة والضلالة، فيبدأ بجر أخيه هارون برأسه:

- وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الألْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(150)

ثم ينتقل إلى معاقبة المتسببين بحادثة العجل كالسامري:

- قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تُخْلَفَهُ(97) ...

وانتهى الأمر بتحريق العجل ونسفه في اليم نسفا:

- ...وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا(97)

وما أن يسكت عن موسى الغضب بعد أن أوقع العقاب بالسامري وبالعجل الذي أخرجه لهم حتى عاد ليأخذ الألواح التي في نسختها هدى ورحمة للذين لربهم يرهبون:

- وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ(154)

لكن العقاب الذي أنزله بالسامري وتحريق العجل ونسفه في البحر لم يكن (نحن نفتري القول من عند أنفسنا) لينهي جذوة الكفر التي أُشعلت في صدور بعض هؤلاء القوم بسبب العجل، فبعضهم كان قد أشربوا العجل بكفرهم:

- **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(93)**

نتيجة مفتراة مهمة جدا: لو راقبنا هذه الآية الكريمة جيدا لوجدنا أن أخذ ميثاق القوم ورفع الطور فوقهم والطلب منهم أن يأخذوا ما آتاهم الله بقوة قد حصل بعد حادثة العجل.

السؤال: فما الذي حصل بعد حادثة العجل وقبل أن يرفع الله الطور فوقهم؟

رأينا المفترى: نحن نظن أنه ما أن فرغ موسى من إنهاء فتيل أزمة العجل التي أشعلها السامري، حتى بدأ اللذين اشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم منهم يثيرون شكوكا حول مصداقية موسى في لقاءه ربه وتجلي إله موسى للجبل طلبا من موسى نفسه:

- **وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ(143)**

فما كان من هؤلاء النفر من المتشككين من بني إسرائيل إلا أن يطلبوا من موسى أن يريهم الله جهرة، وإلاّ فقدوا إيمانهم بموسى:

- **وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً...**

فما يكون من موسى (نحن نفتري الظن) إلا أن يخضع لطلبهم، فيختار سبعين رجلا من قومه لميقات ربه، ويطلب من ربه أن يتجلى لهم، فتحصل الصاعقة. انظر عزيزي القارئ – إن شئت- تتمة السياق السابق كيف تبين حصول الصاعقة التي أخذتهم وهم ينظرون بأم أعينهم:

- **وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ(55)**

لذا، نحن نتخيل أن التجلي الإلهي لهم قد حصل بالفعل بدليل حدوث الصاعقة التي أخذتهم. وهي برأينا الصاعقة التي خر بسببها موسى (وَخَرَّ موسَى صَعِقًا)، والتي أدت إلى أن دكّ الجبل دكا:

- **وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ(143)**

فأخذت الصاعقة (نحن لازلنا نتخيل) كل من كان حاضرا، ينظر بأم عينه إلى التجلي الإلهي (فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ)، وهم - برأينا- أولئك السبعين رجلا اللذين اختارهم موسى لميقات ربه:

- **وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ(155)**

ولكن لمّا كان من بينهم أمة يهدون بالحق وبه يعدلون:

- **وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ(159)**

كانت النعمة الإلهية قد نزلت عليهم بطلب من موسى كما يبين من نهاية الآية السابقة التي تبين دعاء موسى بالنجاة:

- ...قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ(155)

وكما تؤكد ذلك الآية اللاحقة لهذا السياق مباشرة:

- وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ(156)

وتتم تلك النعمة بأن يبعث الله (نحن لازلنا نتخيل) أولئك السبعين رجلا من بعد موتهم:

- ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(56)

ولم تتوقف النعمة الإلهية التي لا تحصى وإن حاولنا أن نعدها (وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) عند ذلك الحد، فتجلت في تظليل الغمام عليهم وإنزال المن والسلوى:

- وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(57)

وفي تلك الرحلة لموسى مع أولئك السبعين رجلا، ينتق الله الجبل فوقهم كأنه ظلة:

- وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(171)

فيكون الله بذلك قد أخذ منهم ميثاقهم على نحو (خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ)، وما أن ينتهي من هذا أخذ الميثاق حتى يرفع فوقهم الطور بذلك الميثاق:

- وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ(93)
- وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(63)
- وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُواْ فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا(154)

وهنا تبدأ خيوط قصة النهي الإلهي لهم عن الاعتداء في السبت بالظهور كما يبين من الآيات الكريمة السابقة، لتكون النتيجة التي نحاول الوصول إليها جاهدين على النحو التالي: يرفع الله الطور فوق أولئك النفر اللذين طلب منهم أن يدخلوا القرية سجدا، ويأتيهم الأمر الإلهي بأن لا يعدوا في السبت على وجه التخصيص:

- وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُواْ فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا(154)

السؤال: ما الذي حصل بعد ذلك؟

تخيلات مفتراة: لمّا كان من بين هؤلاء من أشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم، كان لابد أن يري الله موسى ومن معه من اللذين آمنوا دار الفاسقين منهم كما جاء التعهد الإلهي لموسى بذلك عندما كتب له في الألواح في ذلك الميقات الشهير:

- وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ(145)

فهؤلاء هم اللذين – برأينا- لم يأخذوا بأحسن ما كتب الله لموسى. فما يكون منهم (كما يبين من الآية التالية) إلا أن يقولوا بأنهم قد سمعوا (قَالُواْ سَمِعْنَا) ولكنهم في الوقت ذاته يتخذون قرارهم بالعصيان (وَعَصَيْنَا):

- **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ(93)**

والسبب لا شك هو أن هؤلاء كانوا قد أشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم (وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ). فلو تدبرنا هذه الآية القرآنية على وجه التحديد في سياقها الأوسع لوجدنا أنها قد جاءت بعد حادثة العجل:

- **وَلَقَدْ جَاءكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ (92) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ(93)**

السؤال: هل سيلتزم هؤلاء اللذين أشربوا في قلوبهم العجل بالميثاق الذي واثقهم الله به؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا.

السؤال: ما الذي حصل بعد ذلك؟

رأينا: ما أن جاءت قصة حيتان البحر، حتى أطلت رؤوس اللذين أشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم من جديد، ليختلفوا هذه المرة في السبت من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم. أنظر السياق التالي:

- **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (63) ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (64) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ (65) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ(66)**

ولو تدبرنا هذه الآيات الكريمة مرة أخرى في سياقها الأوسع لوجدنا أنها تتحدث عن من آتاه الله آياته فانسلخ منها:

- **وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (171) وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (172) أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (173) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (174) وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176) سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ(177)**

(دعاء: أعوذ بك ربي أن أنسلخ من آياتك فأكون من الغاويين وأعوذ بك ربي أن يكون مثلي كمثل الكلب الذي إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث – آمين)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: كان من بين قوم موسى من أشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم، فبالرغم من أن الله قد آتاهم آياته، وأتم عليهم نعمته، إلا أن العجل الذي اشربوه في قلوبه كان أكبر من إيمانهم:

- وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ(93)

فأصبح مثلُهم مثل "بئس" لأنهم كانوا يظنون أنهم مؤمنون (قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ)، فجاء عقابهم على نحو أن وقع عليهم عذاب بئيس بما كان يظلمون، بعد أن نسوا ما ذكروا به:

- فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ(165)

فكان العقاب على نحو أن جعل الله اللذين عتوا عن ما نهوا عنه قردة خاسئين:

- فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ (166) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ(167)

وكان عذاب اللذين ظلموا منهم شر مثوبة عند الله، فكان على النحو التالي:

- قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللّهِ مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ(60)

السؤال: لماذا؟

رأينا: لأنهم عتوا عن أمر بهم.

السؤال: ما معنى أنهم قد عتوا عن أمر ربهم؟

لو حاولنا البحث عن السياقات القرآنية التي تتحدث عن اللذين عتوا عن أمر ربهم لوجدناها خاصة باثنين من الأقوام السابقة وهما:

⇐ قوم ثمود (الناقة) وهم اللذين عقروا الناقة بعد أن جاءهم الأمر الإلهي بأن لا يمسوها بسوء:

- فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ(77)
- وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (43) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ(44)

⇐ قوم موسى (أصحاب السبت)

- فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ (165) فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ(166)
- وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا(21)

ولو تفقدنا هذه السياقات جيدا لوجدنا على الفور أن الصاعقة قد نزلت بهم، فقد نزلت الصاعقة بثمود عندما عتوا عن أمر ربهم:

- وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (43) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ(44)
- وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (17) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ(18)

السؤال: لماذا؟ أي لماذا نزلت الصاعقة بثمود؟

رأينا: لأن ثمود حاولوا أن يمسوا الناقة بسوء:

- وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(73)
- قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (76) فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (77) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ(78)
- وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (64) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (65) فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (66) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ(67)
- وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا(59)

السؤال: لماذا نزلت الصاعقة بقوم موسى ولماذا نزل بهم العذاب البئيس بعد أن عتوا عن أمر ربهم؟

رأينا: لأنهم حاولوا أن يمسوا الحوت بسوء:

باب الحوت والناقة

لو دققنا في قصة الناقة لوجدنا الآيات الكريمة التالية:

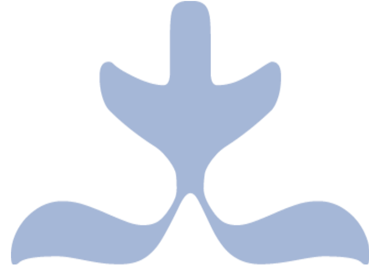
- مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (154) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (155) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (156) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (157) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ(158)

عن أبسط ما يمكن أن نستنبطه من هذه الآيات الكريمة هو الخلاف على شرب ذلك اليوم المعلوم. فالمشكلة كانت (كما نتخيلها) الالتزام بالأمر الإلهي في يوم معلوم. وهذا لا يختلف في جوهره – برأينا- عن ما حصل باللذين اعتدوا في السبت. فمشكلتهم كانت تكمن بالالتزام بالأمر الإلهي الذي فرضه عليهم في يوم معلوم وهو يوم سبتهم:

- وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ(163)

وللحديث بقية

(فالله وحده أسأل أن ينفذ قوله بمشيئته وإرادته لي الإحاطة بشيء من علمه لا ينبغي لغيري إنه هو الواسع العليم، وأعوذ به وحده أن أفتري عليه الكذب أو أن أقول عليه ما ليس لي بحق، إنه هو العليم الحكيم – آمين)



قصة يونس

الجزء الرابع عشر



قصة يونس: الجزء الرابع عشر

⇐ فرعون: قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى (49)
⇐ موسى: قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50)
⇐ فرعون: قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (51)
⇐ موسى: قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (52)

حاولنا منذ بداية هذه المقالة تسويق افتراء من عند أنفسنا مفاده أن قصة ذي النون تشبه في تفاصيلها قصة فرعون، وأن شخصية ذي النون تتقاطع في كثير من جوانبها مع شخصية فرعون، فكلاهما كان رجلا ذا مكانة في قومه، كما أن كلاهما كان صاحب علم عظيم، وأن كلاهما كان يطمع في حصول الاجتباء الإلهي له بالرسالة، وأن الاختلاف بينهما كان في الطريقة والنتيجة. ففي حين أن ذا النون كان في سابق عهده من المسبحين:

- **فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (142) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (144)**

كان فرعون في قومه من المفسدين:

- **آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91)**
- **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4)**

فلقد حصلت النجاة لكليهما بعد الغرق بسبب الدعاء، ولكن كانت النتيجة مختلفة في الحالتين، فقد أصبح فرعون آية لمن خلفه وما نال حظا من الدنيا غير الكلمة التي نطق بها عندما أدركه الغرق:

- **وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90)**

حصل ذو النون – بالمقابل- على الاجتباء الإلهي له بالرسالة، فكان رسولا من الصالحين:

- **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (49) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (50)**

(للتفصيل انظر الأجزاء الأولى من هذه المقالة)

وسنحاول في هذا الجزء الجديد من المقالة المضيّ قدما في عواقب مثل هذه الافتراءات التي نظن أنها غير مسبوقة، سائلين الله وحده أن يهدينا رشدنا وأن يعلمنا ما لم نكن نعلم، وبخلاف هذا الهدي من الله فإن كل افتراءاتنا (أولها وآخرها) لا تعدو أكثر من تخريصات من الخيال المزيّف للكاتب الذي يطلب من الجميع أن لا يصدقوا منها إلا ما يجدوا هم بأنفسهم بأن الدليل من كتاب الله يثبته. لذا سيطير الخيال بعيدا جدا، تاركا وراءه كل ما هو مألوف من تراث الآباء والأجداد، محاولا التجديف بعيدا جدا، مدركا في الوقت ذاته خطورة ما قد تؤول إليه الأمور في نهاية المطاف، مستعدا لتحمل العواقب مهما كانت النتائج. فالخوف (أو لنقل الخشية) من العواقب لن تمنعنا من المحاولة مادام أننا نؤمن يقينا بأن الله لا محالة متم نوره ولو كره الكافرون شاء من شاء وغضب من غضب، لذا ندعوه وحده أن يهدينا صراطه المستقيم بكلماته التي يحق بها الحق ويبطل بها الباطل ولو كره المجرمون – آمين.

أما بعد،

فرعون: صاحب علم عظيم

سنبدأ النقاش في هذا المقام منطلقين من الافتراء الخطير الذي حاولنا تسويقه في مقالاتنا السابقة تحت عنوان قصة موسى، والافتراء هو: كان فرعون من أعظم أهل العلم على مر التاريخ، وقليل من الناس من توافر له من العلم ما كان متوافرا بين يدي فرعون. ونحن نكاد نجزم الظن بأن فرعون كان يفوق موسى نفسه فيما عنده من العلم، ولا يكاد يداني فرعون مكانة في العلم (نحن نفتري الظن) إلاّ صاحب الحوت (ذا النون)، وهو من ذهب موسى طالبا صحبته ووجده عند تلك الصخرة القابعة عند مجمع البحرين (للتفصيل انظر الأجزاء السابقة من هذه المقالة وسلسلة مقالات قصة موسى، وكذلك سلسلة مقالات باب السامري).

السؤال: أين الدليل أن فرعون كان يفوق موسى في العلم ويقارب صاحب موسى في ذلك؟

رأينا المفترى: بداية، قد لا نحتاج أن نسوق الدليل على افترائنا بأن هناك من هو أكثر علما من موسى نفسه، فليس أدل على ذلك من أن موسى هو من ذهب برجليه عند ذلك الرجل طالبا أن يتلقى العلم منه:

- **فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (65) قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66)**

نتيجة مفتراة 1: كان هناك من هو أكثر علما من موسى، فصاحب موسى الذي ذهب موسى يطلب صحبته يملك من العلم ما لم يكن موسى يستطيع الصبر عليه

السؤال القوي: أيهما كان أكثر علما من الآخر موسى أم فرعون؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن فرعون كان يفوق موسى في العلم

الدليل

ربما يستغرب الكثيرون من قولنا هذا، ربما ظانين أن فيما نقول تجاوزا وتطاولا على شخصية رسول كريم مثل موسى، فقد يظن البعض أن مجرد المفاضلة بين موسى وفرعون هي من الأساس باطلة، وذلك لإيمانهم اليقيني بأن الأول (موسى) هو رسول كريم من رب العالمين بينما الآخر (فرعون) هو عدو لرب العالمين، أليس كذلك؟

جواب مفترى: نحن نعتقد أن مثل هذا الظن قد يكون صحيحا لو أن حديثنا هذا يتعلق بالإيمان، فلا شك أن موسى أعظم إيمانا من فرعون. لكن يجب التنبيه بكل قوة إلى أن المفاضلة بين الشخصيتين في حديثنا هنا يقع في باب امتلاك العلم، فشتان (نحن نكاد نجزم الظن) بين العلم من جهة والإيمان من جهة أخرى. فالإيمان شيء والعلم شيء آخر مختلف تماما، وقد لا يتلاقيان. فالسيناريوهات الواقعية بالجمع بين العلم والإيمان – برأينا- ثلاثة فقط، ألا وهي:

⇐ قد يكون هناك من هو صاحب علم وليس له حظ من الإيمان في شيء كحالة فرعون أو كاللذين آتاهم الله آياته من أهل الكتاب فانسلخوا منها

⇐ وقد يكون هناك من لا يملك علما وافرا ولكنه ارتقى عاليا في سلم الإيمان، كموسى مثلا الذي ذهب يطلب العلم على يد شخص آخر

⇐ وقد يكون هناك صاحب علم عظيم وهو على درجة عظيمة من الإيمان كصاحب موسى

(دعاء: اللهم أدعوك وحدك أن أكون من أصحاب العلم اللذين تهديهم صراطك المستقيم، وتدلهم إلى نورك الذي أشرقك به الأرض، لتخرجني من الظلمات إلى النور بإذنك – آمين)

السؤال: ما الفرق بين امتلاك العلم وامتلاك الإيمان؟

رأينا: لو تفقدنا الآيات الكريمة التالية، لوجدنا أن هناك من كان صاحب علم ولم ينفعه علمه شيئا، لا بل لقد كان علمه وبالاً عليه:

- **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176) سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ (177)**

فالمتدبر لهذه الآيات الكريمة يجد على الفور أن مثل هؤلاء هو مثل سيئ، فمَثَلُ هؤلاء هو مثل الكلب (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ)، أليس كذلك؟

ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد عندما تجدد صورتهم التمثيلية في الحمار في الآيات الكريمة التالية:

- **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (5)**

السؤال: من هم هؤلاء؟

رأينا المفترى: إنهم أصحاب الأصوات العالية التي لا تميز (أي المنكرة)، فهم اللذين يرددون فقط ما يسمعون بغثة وسمينه، وهم اللذين لا يفقهون ما يقولون، فأفهامهم لا تتجاوز حناجرهم، وذلك لأن قلوبهم قد طبعت فلا فائدة ترجى منها، فهؤلاء هم "الحمير":

- **وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (19)**

السؤال: من هم هؤلاء؟

رأينا: إنهم المتَّبِعون لما ألفوا عليه آباءهم، فينعقون بما لا يعقلون:

- **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ (170) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ (171)**

(أعوذ بك ربي أن يكون مثلي كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء، وأعوذ بك أن أكون من الصم البكم العمي اللذين لا يعقلون. اللهم أسألك أن تزيل الوقر من أذني والغشاوة عن بصري والأكنة عن قلبي، إنك أنت السميع العليم - آمين)

السؤال: من هم هؤلاء؟

رأينا المفترى: هم أصحاب الأصوات العالية من اللذين حملوا آيات الله ولكنهم لم يستفيدوا منها أكثر مما وجدوا عليه آباءهم ينعقون به مما حرفوا منها.

الدليل

نحن نظن أن الذين حملوا التوراة – مثلا- هم لا شك أصحاب علم عظيم، لأن في نسختها هدى للذين آمنوا:

- **وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (145)**
- **وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (154)**
- **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (5)**

لكن لما لم يحملوها، أي اتخذوا ما جاءهم من عند آباءهم فقدموه على ما في التوراة، كان مثلهم كالحمار الذي يحمل أسفارا، وذلك لأنهم لم يستفيدوا من العلم الذي وصلهم فيها. فكانوا من اللذين لا يعقلون:

- **وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10)**

ونحن نكاد نجزم الظن أن السبب الذي منعهم من الاستفادة مما يحملون من التوراة هي تلك الموروثات التي ألفوا عليها آباءهم حتى وإن كانوا لا يعقلون.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن صاحب العلم الذي لا يستفيد من علمه ليهديه إلى صراط الله المستقيم فهو كالحمار الذي لا يستفيد مما يحمل على ظهره حتى وإن كان في أمس الحاجة إليه.

وهذا لا ينطبق فقط على اللذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها، ولكنه ينطبق على كل من وجدوا عندهم آيات الله تتلى عليهم في الإنجيل والقرآن فما استفادوا منها لأن منطق آباءهم وأجدادهم كان عندهم مقدما على ما في كتاب الله من العلم. وربما يكفيك – أخي القارئ- أن تقلب المحطات الفضائية الدينية الإسلامية والمسيحية واليهودية لتنظر بأم عينك ما ينعق به أصحاب الأصوات العالية اللذين يسوقون للناس سلعة ألفوها من آباءهم وأجدادهم. وأنا مالي؟

بمثل هذا المنطق المفترى من عند أنفسنا نحن نستطيع أن نتخيل ما حصل لفرعون. فبالرغم أنه كان – برأينا - رجلا صاحب علم عظيم، إلا أنه لم يستفد من ذاك العلم الذي كان يحمله، فمثله بذلك مثل الحمار الذي يحمل أسفارا، لأنه كان من اللذين لأنفسهم يظلمون. فهؤلاء هم (نحن نفتري القول) من أضلهم الله على علم:

- **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (23)**

وهذا يشمل كل من كان على شاكلة فرعون كقارون مثلا، فهو أيضا من اللذين أضلهم الله على علم:

- **قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78)**

إن أبسط أبجديات من كان صاحب علم أن ينسب الفضل في ذلك إلى ربه إن هو أراد أن يستفيد من العلم الذي عنده. لكن إن لم يفعل، فهو إذن (نحن نفتري القول) ممن تنطبق عليهم الآيات الكريمة التالية:

- **وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون (48) فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (49) قَدْ**

قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (50) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاء سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (51)

فالله هو من خوّل قارون مثلا نعمة منه، لكن كانت النتيجة أن جحد قارون بآيات الله ونسب الفضل فيما عنده لنفسه (قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي)، فما كانت نتيجة ذلك إلا أن أصابه سيئات ما كسب:

- **فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ المُنتَصِرِينَ (81)**

منطقنا المفترى: نحن نظن أن من البلاء الذي أصاب الفكر الإنساني الإسلامي في حقب الزمن المتعاقب أنه لم يتوقف مليّا ليتدبر جيدا ما جاء في كتاب الله على لسان هؤلاء اللذين جحدوا نعمة ربهم كفرعون وقارون. فعندما يقرأ أهل العلم ما جاء على لسان قارون في قوله تعالى:

- **قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78)**

يطير ذهن الغالبية الساحقة من الناس (ربما بسبب الأفهام التي وصلتهم من السادة أهل العلم) إلى الظن بأن هذا ليس أكثر من كلام جاء على لسان رجل كافر كذاب، لذا فهو (هم يظنون) لا يقول الحقيقة، فيعتقد الكثير منهم أن كلام هذا الكافر (قارون مثلا) يقع في باب الكذب الذي لا يحتاج أن يتدبره السامع، ولا يحتاج من أهل العلم البحث في تفاصيله، عندها وقفت أفهامهم عند عموميات (نحن نظن أنها) قد لا تسمن ولا تغني من جوع. فأهل العلم (نحن نكاد نجزم الظن) لم يأخذوا كلام الرجل على محمل الجد. لذا لم يحاولوا أن يعقلوا ما قال الرجل كما أنهم لم يحاولوا أن يفهموا العامة من حولهم بأن الرجل يقول الصدق.

السؤال: ما الذي تقول يا رجل؟ هل يقول قارون الصدق؟ ربما يصيح البعض بصوته متسائلا ومستغربا.

جواب مفترى: نعم. قارون يقول الصدق ولكنه لا يقول الحق. انتبه – عزيزي القارئ- جيدا.

السؤال: وما الفرق؟

جواب مفترى: نحن نظن أن هناك فرق شاسع بين أن تقول الصدق أو أن تقول الحق.

السؤال: وكيف ذلك؟

التفريق بين الصدق والحق

السؤال: هل كل ما يقوله غير المؤمن يقع في باب الكذب؟

جواب: كلا وألف كلا، فقد يقول غير المؤمن قولا صادقا (لا كذب فيه) كما يفعل العلماء الماديون اللذين يحاولون فهم نواميس هذا الكون بأدواتهم وأساليبهم المعرفية المتوافرة لديهم. فعالم الرياضيات أو الفيزياء أو الطب أو الهندسة مثلا يقدم نظرياته وآراءه فيما يبحث فيه، أليس كذلك؟

السؤال: فهل يقع ما يقوله هذا "العالم" (أو لنقل العارف) في باب الكذب؟

جواب مفترى: نحن نظن أن قول الصدق ليس مرتبطا بالإيمان، وإلا لأصبح كل ما يقوله غير المؤمن هو كلام كاذب.

السؤال: إذا كان ما يقوله غير المؤمن كلاما صادقا، فما العيب فيه؟

رأينا المفترى: قد يكون كلام "غير المؤمن" كلاما صادقا ولكنه يقع في باب عدم قول الحق. لأن هناك – برأينا- فرق شاسع بين قول الصدق من جهة وقول الحق من جهة أخرى.

الدليل:

نحن نظن أن قول الحق هو ما يميز قول الإله:

- مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءكُمْ أَبْنَاءكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (4)
- وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّوَرِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (73)

ونحن نظن أنه لم يتصف بهذه الصفة من البشر إلا شخص واحد فقط وهو عيسى بن مريم (كلمة الله وروح منه):

- ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34)

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن السبب في ذلك هو أن قول الحق يخلو من أي عيب يشوبه في الوسيلة وفي المقصد كبيرا كان أم صغيرا. فوسيلته صحيحة ومقصده (أي غايته) صحيحة. لذا، نحن نظن جازمين بأن عيسى بن مريم (كما افترينا في سلسلة مقالتنا تحت عنوان كيف تم خلق عيسى بن مريم) هو النسخة البشرية لكتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه:

- إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (41) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (42)

إن الغاية من هذا الطرح (ربما غير المألوف) هو لفت الانتباه إلى افترائنا التالي: أن من كان غير مؤمن كفرعون وقارون وهامان (وحتى إبليس نفسه) قد يقول الصدق وإن كان لا يقول حقا (للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان هل كذب إبليس على آدم؟).

السؤال: ما الفائدة من هذا الكلام؟ ربما يريد صاحبنا أن يسأل.

رأينا المفترى: إن صح هذا الكلام المفترى من عند أنفسنا، فإن النتيجة التي نحاول الوصول إليها هي أن ما يقوله هؤلاء الناس كفرعون وهامان وغيرهم من اللذين ربما لم يؤمنوا إلا قليلا هو قول يحتاج إلى تدبر بعد أن يؤخذ على محمل الجد. فإن قال قارون مثلا أنه قد أوتي ذلك على علم عنده، فهو إذن شخص صادق لأن عنده فعلا علم عظيم وإن كان لا يقول الحق لأنه ضل الوسيلة والغاية.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا: لو تدبرنا الآيات التالية جيدا، لربما وجدنا (كما نفهمها) أن الله نفسه قد أثبت أنه هو من آتى قارون تلك النعمة:

- إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77)

ولوجدنا في الوقت ذاته أن قارون لم ينسب الفضل في ذلك إلى الله، فنسى (أي طنش أو لنقل تجاهل عن قصد) ما خوّله الله من نعمة، ونسب الفضل في ذلك لنفسه:

- **قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78)**

ولكن ربما (نحن نفتري القول) يجد المدقق في هذا السياق القرآني كله أن الله لم يكذّب دعوى قارون بأنه رجل صاحب علم، وأن ما نفاه الله جملة وتفصيلا هو دعوى الرجل بأن هذا العلم (النعمة) هو من عنده. فلو نسب قارون العلم الذي آتاه الله إياه لربه والتزم بما وصاه الله به :

- **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77)**

لانتهت المعضلة برمتها، ولكان قارون حينئذ يقول الحق، ولكنه لما قال أنه صاحب علم فهو لم يكذب في هذا، ولكن كان جل افتراء الكذب الذي افتراه هو أنه نسب ذلك لنفسه (قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي) وليس لربه. فكانت مشكلة قارون تكمن في كلمة واحدة فقط وهي (عِندِي). لتكون النتائج التي سنفتريها هي:

نتيجة مفتراة 1: صدق قارون عندما قال أنه صاحب علم

نتيجة مفتراة 2: كذب قارون عندما نسب العلم لنفسه

لذا نحن نكذب دعوى قارون بأن الفضل فيه العلم الذي عنده يعود لقارون نفسه، ولكننا نصدق بأنه كان رجلا صاحب علم عظيم. وأن الله قد أضله على علم:

- **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (23)**

لتكون النتيجة التي نحاول جاهدين الوصول إليها هي حقيقة علم قارون.

السؤال: ما ذا كان علم قارون؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن قارون كان شخصا يملك علما مميزا، ربما لا يدانيه في ذلك أحد من العالمين حتى فرعون نفسه أو حتى موسى نفسه. وهو علم الكنوز.

السؤال: وهل هذا فعلا علم يستطيع من يملكه أن يتحصل على كنوز ككنوز قارون؟

رأينا: نعم هو كذلك.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أنه كان من واجب علماء المسلمين على مر الزمان أن يوجهوا الناس بأن هناك علم عظيم يتعلق "بجمع الكنوز"، وهذا العلم هو ما حصل عليه شخص في غابر الزمان اسمه قارون، لذا وجب البحث عنه، لمعرفة أسراره وخباياه. كما كان من واجب علماء الأمة (نحن لازلنا نفتري الظن) تنبيه كل من أراد التصدي لمثل هذه المهمة أن لا ينسى ربه، لأن النتيجة لن تختلف عن ما حصل لقارون. ووجب أن يكون خطاب أهل العلم على نحو أن ذاك علم من العلوم التي آتاه الله بعض عباده، وأن والهدف منه هي جملة الوصايا الإلهية التي جاءت قارون نفسه كما صورها القرآن الكريم أحسن تصوير:

- **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77)**

لتكون النتائج المفتراة التي وجب على علماء الإسلام – برأينا- أن ينشئوا الأجيال المتعاقبة عليها هي:

⇐ أن هناك علم يختص بالحصول على الكنوز
⇐ أن هذا علم مصدره إلهي، يؤتيه الله بعض عباده
⇐ أن الغاية الأسمى لمن يحصل عليه يجب أن تكون ابتغاء الدار الآخرة قبل كل شيء
⇐ أن لا ينسى من يحصل عليه نصيبه من الدنيا
⇐ أن يحسن من آتاه الله ذلك العلم إلى الآخرين كما أحسن الله إليه
⇐ أن لا يبغي من يحصل على هذا العلم الفساد في الأرض لأن الله لا يحب المفسدين
⇐ أن من يحصل على ذلك العلم ولا يتمثل هذه الوصايا الإلهية ستكون عاقبته كما كانت عاقبة قارون:

- **فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ المُنتَصِرِينَ (81)**

السؤال: ما هو ذلك العلم؟

جواب: هذا ما سنحاول النبش فيه بعد قليل سائلين الله وحده أن يعلمنا ما لم نكن نعلم، فيؤتينا بذلك ما آتى قارون، ونعوذ به أن تكون نهايتنا كنهاية قارون، وندعوه وحده أن يجعلنا مما يمتثل وصاياه كما أمرنا بها، إنه هو الواسع العليم – آمين.)

لكن قبل الخوض في ذلك، نعود إلى طرحنا الأول وهو التنبيه إلى أننا يجب أن نتدبر كل ما جاء في كتاب الله حتى ما جاء ذكره على لسان من أهلكهم الله بكفرهم كفرعون وقارون وهم اللذين ما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون عندما أصابهم سيئات ما كسبوا:

- **قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (50) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاء سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (51)**

السؤال: ما علاقة هذا بالمفاضلة بين موسى وفرعون في العلم؟

رأينا: نحن نظن أن الفكر الإسلامي قد غفل طويلا عن ما جاء في كتاب الله على لسان فرعون، فما حمله أهل العلم على محمل الجد بالتدبر، وما تركوا العامة من الناس (من مثلي) يتفكرون فيه. فغالبا ما يسخر الكثيرون من توجيه فرعون لهامان بالقول:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37)**

فخلت مؤلفات أهل العلم من البحث في مفردات هذه السياقات القرآنية إلا من باب التكذيب والتنديد بقول فرعون والوعيد له بالنار. فانظر عزيزي القارئ – إن شئت- فيما وصلنا من آراء أهل العلم في تفسير الطبري مثلا للآية الكريمة التالية:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36)**

القول في تأويل قوله تعالى : { وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب } يقول تعالى ذكره : وقال فرعون لما وعظه المؤمن من آله بما وعظه به وزجره عن قتل موسى نبي الله وحذره من بأس الله على قيله أقتله ما حذره لوزيره وزير السوء هامان : { يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب } يعني بناء . وقد بينا معنى الصرح فيما مضى بشواهده بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع . { لعلي أبلغ الأسباب } اختلف أهل التأويل في معنى الأسباب في هذا الموضع , فقال بعضهم : أسباب

السموات : طرقها . ذكر من قال ذلك : 23400 - حدثنا أحمد بن هشام , قال : ثنا عبد الله بن موسى , عن إسرائيل , عن السدي , عن أبي صالح { أسباب السموات } قال : طرق السموات . 23401 - حدثنا محمد بن الحسين , قال : ثنا أحمد بن المفضل , قال : ثنا أسباط , عن السدي { أبلغ الأسباب أسباب السموات } قال : طرق السموات . وقال آخرون : عني بأسباب السموات : أبواب السموات . ذكر من قال ذلك : 23402 - حدثنا بشر , قال : ثنا يزيد , قال : ثنا سعيد , عن قتادة { وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا } وكان أول من بنى بهذا الآجر وطبخه { لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات } : أي أبواب السموات . وقال آخرون : بل عني به منزل السماء . ذكر من قال ذلك : 23403 - حدثني محمد بن سعد , قال : ثني أبي , قال : ثني عمي , قال : ثني أبي عن أبيه , عن ابن عباس , قوله : { لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات } قال : منزل السماء . وقد بينا فيما مضى قبل , أن السبب : هو كل ما تسبب به إلى الوصول إلى ما يطلب من حبل وسلم وطريق وغير ذلك . فأولى الأقوال بالصواب في ذلك أن يقال : معناه لعلي أبلغ من أسباب السموات أسبابا أتسبب بها إلى رؤية إله موسى , طرقا كانت تلك الأسباب منها , أو أبوابا , أو منازل , أو غير ذلك.

وانظر فيما وصلنا في تفسير ابن كثير للآية الكريمة نفسها:

وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ

يقول تعالى مخبرا عن فرعون وعتوه وتمرده وافترائه في تكذيبه موسى عليه الصلاة والسلام أنه أمر وزيره هامان أن يبني له صرحا وهو القصر العالي المنيف الشاهق وكان اتخاذه من الآجر المضروب من الطين المشوي كما قال تعالى " فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا " ولهذا قال إبراهيم النخعي كانوا يكرهون البناء بالآجر وأن يجعلوه في قبورهم رواه ابن أبي حاتم.

التساؤلات

- ⇐ هل حاول أهل العلم أن يجلبوا انتباه العامة إلى أن فرعون كان جادا فيما قاله لهامان؟
- ⇐ وهل حاول أهل العلم أن ينبهوا العامة أن هامان قد عمد فعلا إلى تنفيذ أوامر فرعون على الفور؟
- ⇐ هل نبّه أهل العلم الناس إلى أن هامان كان فعلا يعلم كيف يبني ذلك الصرح؟
- ⇐ فهل فكر أهل العلم كيف أوقد هامان لفرعون على الطين حتى جعل له صرحا مكنّه من بلوغ الأسباب؟
- ⇐ هل تفكر الناس كيف بلغ فرعون الأسباب؟
- ⇐ وهل توصل أحد إلى ما فعله فرعون عندما بلغ الأسباب؟
- ⇐ وهل فهم أحد كيف اطلع فرعون فعلا إلى إله موسى؟
- ⇐ وهل أخبرنا أحد بما وجد فرعون بعد أن اطلع إلى إله موسى من خلال تلك الأسباب؟
- ⇐ الخ.

لعل مجرد طرح مثل هذه التساؤلات تنقل صاحبها (حسب فتاوى الأزهر وهيئة كبار العلماء وهم ورثة أهل العلم السابقين من طرف الإسلام الأول وحسب صكوك عدم الغفران التي يصدرها أصحاب الحوزات العلمية من طرف الإسلام الآخر) إلى الكفر والإلحاد والزندقة، وربما لا يترددون جميعا في إصدار فتهاويهم الخاصة (أي صكوك عدم غفرانهم لمن خالفهم) بردة المتسائل وزندقته وربما تطليق زوجته واستباحة دمه وماله.

رأينا: لمّا كنا قد تعهدنا منذ البداية أن نتقبل تبعات جرأتنا عليهم مهما كانت نتائجها، لم يعد يعنينا ما يقولون إطلاقا، لأن قولهم يقع منا موقع ... في الأماكن العامة. فكما قد يتهموننا بالزندقة والكفر، فإننا لا نتردد أن نتهمهم بأنهم هم اللذين ما انفكوا يوما عن طغيانهم عندما منعوا الناس من تدبر كتاب الله كما يجب، ونحن نتهمهم أنهم هم اللذين قدّموا ما ألفوا عليه آباءهم على ما في كتاب الله من الحق المبين، فمثلهم (نحن نتخيله) كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء. وهم بذلك إنما يحاولون أن يطفئوا نور الله بأفواههم. ولما كان هدفنا الأول والأخير أن نقدم ما في كتاب الله على كل ما وصلنا من عند الآباء، فإننا لن نعدم الثقة بالله وحده أن يهدينا بكلماته التي يحق بها الحق ويبطل بها الباطل ولو كره المجرمون إلى نوره الذي أبى إلا أن يتمه ولو كره الكافرون. وهو ربي الذي أساله على الدوام أن ينفذ قوله وأمره بمشيئته لي وإرادته لي الإحاطة بشي من علمه لا ينبغي لغيري، وهو الذي أسأله الآن أن يؤتيني رشدي وأن يجعلني على صراط مستقيم، وهو الذي أعوذ به وحده أن يجعل أمري كأمر فرعون:

- **إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (97)**

أما بعد،

سنحاول في هذا الجزء المقالة وفي الأجزاء القادمة بحول الله وتوفقيه أن نخوض في علمين عظيمين من العلوم التي أذن الله لبعض عباده (بغض النظر عن الوازع الإيماني الذي كان يحركهم) أن يحيطوا بها علما، وهما:

⇐ علم قارون

⇐ علم فرعون

ولنبدأ النقاش بحول الله وتوفيق منه بعلم قارون طارحين التساؤلات التالية:

⇐ من هو قارون هذا؟

⇐ ما هو علم قارون؟

⇐ كيف حصل قارون على ذلك العلم؟

⇐ ما هي أدوات ذلك العلم؟

⇐ أين ذهب علم قارون؟

⇐ هل يمكن أن نستعيد ذلك العلم؟

⇐ هل يمكن تطبيق ذلك على أرض الواقع؟

⇐ ماذا ستكون عواقب ذلك التطبيق (إن حصل)؟

⇐ الخ.

من هو قارون؟ خلفية تاريخية مفتراة من عند أنفسنا

في سلسلة مقالاتنا تحت عنوان قصة موسى، زعمنا الظن أن قارون وفرعون كان أخويين اثنين يقابلهما في ذلك موسى وهارون. كما افترينا الظن بأن موسى كان الأخ غير الشقيق لهارون، فموسى هو أخ هارون من أمه:

- **قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94)**

- وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (150)

نتيجة مفتراة: كان هارون (كما نزعم) من الفراعنة بينما كان موسى من بني إسرائيل بالنسبة لسلالة العرق.

كما افترينا بأن المُلك في أرض مصر قد آل إلى الفراعنة بعد صراع طويل مع بني إسرائيل اللذين كانوا هم ملوك مصر من بعد يوسف. فقد استتب الأمر في مصر لبني إسرائيل على يد يوسف وبعد أن نزل يعقوب بكل أهله مصر قادما من البدو:

- اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (93)
- وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100)

واستمر الحكم لبني إسرائيل في أرض مصر فترة من الزمن فكانوا ملوكا كما جاء على لسان موسى مخاطبا قومه من بني إسرائيل:

- وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ (20)

وما أن حصل الخلاف في بني إسرائيل بعد سنين من هلاك يوسف بعد أن دب الجدل بينهم في آيات الله بغير سلطان:

- وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (34) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (35)

حتى استغل المصريون هذا الخلاف، وتمكنوا على يد الفراعنة (الأسرة الحكمة من المصريين) من الإطاحة بحكم الملوك من بني إسرائيل، فانتقل الحكم من النظام الملكي الإسرائيلي إلى الحكم الفرعوني المصري. وكان أبرز المعاديين لبني إسرائيل هم آل فرعون اللذين أخذوا يذبحون أبناء بني إسرائيل ويستحيون نساءهم فترة من الزمن:

- وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (49)
- وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (6)

واستمر هذا الوضع حتى يوم موت الفرعون الأكبر الذي كان عدوا لله كما كان عدوا لموسى نفسه، وهذا الفرعون هو (نحن نفتري الظن) من تربى موسى عنده:

- أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (39)

وهو من كانت امرأته قد طلبت عدم قتل موسى:

- **وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (9)**

فكان موسى في حماتها حتى وفاتها عندما طلبت من ربها:

- **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11)**

عندها خرج موسى هاربا من المدينة لأنه – برأينا- أصبح يفتقد نصيره الأول في القصر الفرعوني، وظلّ موسى هاربا من فرعون وآله لأنه كان يحاول أن يكون من المصلحين كما جاء على لسان من كاد موسى أن يبطش به من عدوه:

- **فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19)**

لذا، نحن نتخيل أنه عندما ناصب موسى (المصلح) فرعون (المفسد) العداء، لم يجد له مكانا في أرض مصر، فهرب هروبه الأول إلى الأرض المقدسة حتى آتاه الله حكما وعلما عندما بلغ أشده هناك:

- **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14)**

وما عاد موسى إلى المدينة (العاصمة السياسية لفرعون) إلا يوم موت ذلك الفرعون عدو الله وعدو موسى، وهو اليوم الذي أصبحت المدينة كلها في غفلة (وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا)، عندها طلت رؤوس بني إسرائيل لترتفع من جديد في ثورة عارمة ضد الاستبداد الفرعوني فعاد موسى ليناصر من هم من شيعته على اللذين هم من عدوه، فكان أول ما فعل أن قتل رجلا من عدوه بناء على طلب بالمساندة من الذي هو من شيعته:

- **وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (15)**

لكن لما كانت الكفة لازالت ترجح لصالح الفراعنة اضطر موسى للهروب من المدينة مرة أخرى بعد أن نصحه ذلك الرجل الذي جاءه يسعى من أقصى المدينة ليخبره ناصحا بتآمر الملأ من آل فرعون به:

- **وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20)**

وهنا خرج موسى هاربا مرة أخرى ولكن الرحلة حطت به هذه المرة في مدين:

- **فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (21)**
- **وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (22) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23)**

وفي تلك الأثناء اعتلى فرعون شاب جديد عرش مصر، فتوعد بتقتيل أبناء بني إسرائيل واستحياء نساءهم مادام أنهم قد أصبحوا فوقهم قاهرين:

- وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127)

فكان هذا الفرعون الجديد هو من عاد إليه موسى بالرسالة بالتوجيه الإلهي التالي:

- اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (44)

(للتفصيل انظر قصة موسى)

السؤال: من هو قارون؟

رأينا: إن ما يهمنا قوله هنا هو أن موسى قد تربى في كنف فرعون (وهو ما أطلقنا عليه لقب فرعون الطفولة في مقالاتنا السابقة) وعاد بالرسالة إلى فرعون آخر (وهو ما أسميناه فرعون الرسالة في مقالاتنا السابقة)، وهو من خاطب نفسه موسى قائلا:

- قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (18)

لنصل من خلال ذلك إلى تقديم الافتراء الخطير التالي: تربي موسى مع هارون في بيت والد هارون الذي هو من آل فرعون وتربى قارون وفرعون في بيت آخر من آل فرعون. وكانا هذان البيتان على قمة رأس السلطة في مصر حينئذ، لتصبح الصورة على النحو التالي:

البيت الأول	البيت الثاني
موسى وهارون	فرعون وقارون

كما نستطيع تقديم الافتراء التالي الذي حاولنا تسويقه في مقالتنا عن قصة موسى ألا وهو أن البيت الأول كان بيت نبي الله ذي الكفل الذي كفل موسى عندما تزوج أمه بعد ولادة موسى:

- وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (12) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (13) القصص
- إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (40)

وكان ذو الكفل هذا هو (نحن لا زلنا نفتري القول مكن عند أنفسنا) الرجل المؤمن الذي كان يكتم إيمانه من آل فرعون:

- وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (29) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (30) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (31) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (32) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (34) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (35)

كما كان ذو الكفل هذا هو المؤثر الأول في سيرة امرأة فرعون التي طلبت النجاة بالموت من فرعون وعمله:

- **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11)**

فأصبح نبي الله ذو الكفل وامرأة فرعون هذه هما المدافعين عن موسى (وليد بني إسرائيل) أمام جبروت وتسلط الفرعون الأول.

فنشأ موسى في بيئة فرعونية محاط بهارون وقارون وفرعون، وهنا وجد موسى العلم الذي لم يستطع الحصول إلا على جزء منه وهو العصا التي هرب بها من بيت الفرعون الأكبر، وهي العصا الذي ظل موسى متكأ عليها، يحاول أن يفرط بها لأنه كان يظن أن ملكيتها تعود إليه فقط كما جاء في رده على سؤال ربه عنها في الواد المقدس:

- **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (18)**

نتيجة: هرب موسى من بيت آل فرعون يحمل العصا، وهي لا شك الصيد الأثمن على الإطلاق مادام أن الله قد تعهد له بأن يعيدها له سيرتها الأولى:

- **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (18) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (20) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (21)**

كما حصل موسى على آية أخرى وهي ما جاء في قوله تعالى مكملا السياق السابق:

- **وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (22) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (23)**

نتيجة مفتراة: حصل موسى على آيتين من آيات ربه: العصا واليد

السؤال: ما الذي لم يحصل عليه موسى من العلم؟

رأينا: إنه العلم الذي ذهب موسى يطلبه على يد ذلك الرجل الذي طلب اتباعه:

- **قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66)**

السؤال: لماذا طلب موسى إتباع ذلك الرجل ليتعلم منه؟

رأينا المفترى والخطير جدا جدا: لأن موسى قد تعجل بالهروب من بيت آل فرعون في المرة الأولى إلى الأرض المقدسة.

السؤال: وماذا لو لم يتعجل موسى بالهروب من هناك؟

رأينا: نحن نفتري القول من عند أنفسنا أنه لو لم يتعجل موسى بالهروب من بيت الفرعون الأكبر لربما استطاع أن يتعلم في بيت ذلك الفرعون من العلم ما ذهب يطلبه من صاحبه.

السؤال: وهل كان علم ذلك الرجل الذي طلب موسى أن يتعلم منه موجود في بيت الفرعون الأكبر؟

جواب مفترى: نعم، نحن نفتري القول أن ما كان يملكه ذاك الرجل من علم كان متوافرا في بيت الفرعون الأكبر، وهو العلم الذي حصل عليه قارون وفرعون.

الدليل

للبحث عن الدليل على مثل هذا الافتراء الخطير جدا، كان لزاما علينا بداية أن نفهم ما كان من علم الرجل الذي ذهب موسى طالبا صحبته:

- **قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66)**

فلو تفقدنا ما كان لدى ذلك الرجل من العلم لوجدنا بداية أن مصدره الله نفسه:

- **فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (65)**

ولو تفقدنا جزئيات هذا العلم لوجدنا أن احد جوانبه يتعلق بالكنوز:

- **وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (82)**

إن جل ما نود إثارته هنا هو سؤال واحد: ماذا لو استخدم ذلك الرجل ما آتاه الله من العلم بالكنوز لمصلحته الشخصية؟ أي ماذا لو أن الرجل كان يأخذ كل كنز يجده في باطن الأرض فيكنزه في مخازنه؟ ألا يصبح بذلك من أصحاب الكنوز العظيمة؟ ألن ينافس قارون في ذلك؟ الخ.

منطقنا المفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري القول بأن قارون كان يحصل على الكنوز بنفس الطريقة التي كان يستخدمها صاحب موسى مع فارق واحد وهو أنه في حين أن صاحب موسى كان لا يتعدى على أموال الآخرين فيترك الكنوز لأصحابها كان قارون يحوزها لنفسه.

السؤال: وما هي الطريقة التي كان يستخدمها قارون للحصول على الكنوز؟

جواب مفترى خطير جدا: إنها البصر

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب مفترى: لقد كان فرعون يملك العلم الذي يمكنه من إبصار الكنوز التي في باطن الأرض، فلقد كان بصره ثاقبا كما كان بصر الرجل الذي صحبه موسى وهو الذي رأى بأم عينه ما تحت الجدار من كنز اليتيمين، ولكن وازعه الإيماني دله على أن هذا الكنز هو من حق اليتيمين. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في السياق نفسه مرة أخرى لترى كيف بين الرجل أن الكنز من حق اليتيمين، وهو ما دفعه لبناء الجدار ليحفظ لهما كنزهما حتى يبلغا أشدهما ويستخرجاه معا:

- **وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (82)**

السؤال: وكيف فعل الرجل ذلك؟

رأينا: لابد أن بصر الرجل كان ثاقبا لدرجة أنه كان يستطيع أن يرى ببصره ما لا يراه الآخرون من حوله.

السؤال: لماذا كان يرى ذلك؟ وكيف كان يفعل ذلك؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: لابد أن الغشاوة قد كشفت عن بصره، فأصبح بصره ثاقبا.

السؤال: وكيف يكون ذلك؟

رأينا: يستطيع أن يقوم بذلك لأن بصره قد أصبح حديدا

السؤال: وكيف كان بصره حديدا؟

- لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22)

نتيجة مفتراة: عندما يكشف الغطاء عن الشخص يصبح بصره حديدا.

السؤال: ما معنى أن يصبح البصر حديدا؟ وهل يقع هذا في باب المجاز اللغوي مثلا؟

رأينا المفترى، لما كنا نؤمن يقينا بنفي المجاز جملة وتفصيلا عن كلام الله الحقيقي، أصبحنا مدينين لمن خالفنا الرأي أن نبين كيف يمكن أن يكون البصر حديدا، فهل من الممكن أن يصبح بصري أو بصرك حديدا؟ وهل كان بصر صاحب موسى حديدا؟ وهل كان بصر قارون أيضا حديدا؟

جواب مفترى: نعم هو كذلك؟

السؤال: وكيف يمكن أن يكون كذلك؟

باب الحديد

عند بحثنا عن المفردة "حديد" في النص القرآني، وجدنا أنها قد وردت في السياقات التالية:

- قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (50)
- آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (69)
- وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (21)
- وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (10)
- لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَـذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22)
- لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (25)

فظننا أن هناك مادة معينة تسمى بالحديد، وهي التي تقابلت في النص القرآني مع الحجارة كما جاء في قوله تعالى:

- قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (50)

وربما جاءت هذه المقابلة لتبين لنا أن الحديد أشد قسوة من الحجارة:

- ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74)

وربما لهذا السبب كانت مقامع بعض أهل النار من حديد:

- وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (21)

كما أن للحديد زبرا يمكن أن يُجعل نارا كما طلب ذو القرنين ممن كان حوله حينئذ:

- آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (69)

فكان لابد من الذي يريد الاستفادة من الحديد أن يليّنه (أي أن يجعله ليّنا) كما حصل مع داوود الذي ألآن الله له الحديد:

- وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (10)

وربما لهذا السبب جاءنا الحديد إنزالا من السماء، فكان فيه شيئان اثنان لا ثالث لهما:

1. البأس الشديد (وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ)
2. المنافع للناس (وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ)

- **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (25)**

ليكون السؤال الآن على النحو التالي: إذا كان الحديد فيه بأس شديد وهو ما يحتاجه الناس ربما في حربهم ضد عدوهم كما جاء على لسان قوم تلك المرأة من سبأ:

- **قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (33)**

فما هي المنافع التي يكسبها الناس من الحديد؟

باب المنافع

بداية، تشير كثير من السياقات القرآنية إلى التقابل الواضح بين المنفعة من جهة والضر من جهة أخرى:

- **وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (102)**
- وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (123)
- **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164)**
- **يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (11)**
- **قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (76)**
- **قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (119)**
- **قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (71)**

- هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (158)
- قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ۚ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (188)
- وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (18)
- قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (49)
- فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (98)
- وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ (106)
- وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (34)
- قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (16)
- أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (17)
- أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (89)
- يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (109)
- قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (66)
- يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (12)
- يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ۚ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (13)
- وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (3)
- وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا (55)
- أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73)
- يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88)
- فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (57)
- قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (29)
- قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (16)

- وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ۚ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقَّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (23)
- فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (42)
- يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (52)
- فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (85)
- وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (39)
- سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (11)
- وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (55)
- لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ ۚ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (3)
- فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (48)
- أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (4)
- فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ (9)

لكن هذا يدعونا إلى طرح التساؤل التالي على الفور: كيف هي المنفعة؟

افتراء خطير ومهم جدا: نحن نفتري الظن أن المنفعة ليس لها علاقة بالطعام أو الشراب أو الدفء أو المركب. انتهى.

الدليل

لو تفقدنا الآيات الكريمة التالية لوجدنا على الفور التلازم بين الدفء والطعام والشراب والمنفعة:

- وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (5)
- وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (21)
- أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (71) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (72) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (73)
- اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (79) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (80)

نتيجة مفتراة: مادام أن لنا في الأنعام منافع ومنها نأكل، ومادام أن لنا فيها منافع ومشارب، ومادام أن لنا فيها دفء ومنافع، ومادام أننا نركبها ولنا فيها منافع، فإننا نستطيع أن نفتري القول بأن المنفعة هي شيء يختلف تماما عن المأكل والمشرب والدفء والركوب، فالأكل والشرب والدفء والركوب الذي نحصل عليه من الأنعام لا يدخل ضمن نطاق المنفعة.

ليكون السؤال الآن هو: ما هي المنفعة إذن إذا لم تكن طعاما أو شرابا أو دفئا أو مركبا؟ أو بكلمات أكثر دقة، كيف يمكن أن تنفعنا الأنعام في غير ما نحصل عليه منها من الأكل والمشرب والدفء والركوب؟

جواب مفترى: نحن نظن أنه من أجل الإجابة على مثل هذا التساؤل، فلابد من تدبر ما جاء في الآيات الكريمة على مساحة النص القرآني كله عن المنفعة.

أولا، يبيّن الله لنا في كتابه الكريم أننا نحصل على المنافع من الخمر، أليس كذلك؟

- **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (219)**

ليكون السؤال الآن على النحو التالي: ما هي المنافع التي تتحصل من الخمر والميسر؟

ثانيا، يأتي الناس للحج ليشهدوا منافع لهم كما جاء في قوله تعالى:

- **وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27) لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (28)**

ثالثا، الأنعام التي أحلت لنا في الحج هي من شعائر الله التي لنا فيها منافع كما نفهم ذلك من قوله تعالى:

- **ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (30) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (31) ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ (32) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (33)**

رابعا، جاءت المنافع مع الحديد الذي أُنزل إلينا:

- **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (25)**

خامسا، كان أحد الأسباب التي جعلت الذي اشترى يوسف من مصر فيأخذه إلى بيته عند امرأته ليتربى هناك هو ظنه بأن يوسف يمكن أن ينفعهما:

- **وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (21)**

وكان ذلك هو الهدف نفسه الذي من أجله أبقت امرأة فرعون على حياة الطفل موسى، فمنعت عنه القتل الذي كان لا محالة سيصيبه لولا وساطتها بالأمر:

- **وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (9)**

السؤال: كيف هي المنفعة إذن؟

رأينا: دعنا نبدأ النقاش في هذه الجزئية من عند ذلك الرجل الذي اشترى يوسف من مصر وهو الذي ظن أن في تربية يوسف منفعة له ولامرأته وكذلك من عند امرأة فرعون وهي التي ظنت أن في الإبقاء على حياة موسى منفعة لها وربما لمن حولها من آل فرعون بمن فيهم فرعون نفسه، ليكون السؤال هو: كيف يمكن لموسى أن ينفع امرأة فرعون ومن هم من حولها بمن فيهم فرعون نفسه؟

رأينا: إن أوّل ما يجب استثناءه على الفور هو الطعام والشراب والدف والمركب، ف فرعون لا يحتاج إلى شخص يجلب له المأكل أو المشرب أو الدف أو المركبة، فهو في غنى عن الحصول على ذلك من خلال تربية طفل من بني إسرائيل في بيته، وكذلك – لا شك عندنا- هو الأمر بالنسبة لامرأة فرعون، فهي امرأة (نحن نتخيل) لا ينقصها شيء من متاع الدنيا، فهي قبل كل شيء السيدة الأولى التي يمكن أن يقدّم له على طبق من ذهب كل ما تشتهي وترغب من نعم الحياة تلك من المأكل والمشرب والدفء والمركب، لكن بالرغم من ذلك فهي تقول بملء فيها بأن هذا الصبي قد ينفعهما (عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا).

والمنطق نفسه (نحن نظن) ينطبق على من اشترى يوسف من مصر، فنحن لا نعتقد أن الرجل قد اشترى يوسف لمغنم دنيوي سواء في العاجل القريب أو في البعيد المنظور. لكن بالرغم من ذلك، فهو يعلم أن في شراءه ليوسف منفعة له ولزوجه على الأقل (عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا).

السؤال الكبير: ما هي تلك المنفعة التي سيجنيها كل منهما من تربية غلام صغير (يوسف وموسى) في بيتيهما؟

رأينا المفترى: لو تفقدنا هذين السياقين القرآنيين جيدا، لوجدنا على الفور أن الهدف في كلا الحالتين كان ثنائيا (المنفعة واتخاذ الولد) كما جاء على لسان الرجل الذي اشترى يوسف من مصر وكما جاء على لسان امرأة فرعون:

⇐ المنفعة (عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا)

⇐ اتخاذ الولد (أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا)

ولو دققنا في السياق أكثر لوجدنا أن المنفعة سابقة لاتخاذ الولد في كلا الحالتين (عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا)، مما يدفعنا على الفور لاستنباط الافتراء التالي: المنفعة منفصلة عن (وهي سابقة لـ) اتخاذ الولد. فلماذا؟

جواب مفترى: لأن السيناريوهات في هذه الحالة هي في ظننا اثنين فقط:

⇐ قد تتخذ ولد وينفع

⇐ قد تتخذ ولد ولا ينفع

لتكون النتيجة هي أن اتخاذ الولد شيء والمنفعة شيء آخر وقد لا يتلاقيان.

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى: لأن المنفعة – برأينا- متعلقة بالآخرة عندما لا يصبح للأرحام والأولاد منفعة حينئذ:

- **لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (3)**

فيوم القيامة لا تنفع الأرحام ولا الأولاد لأن كل نفس – لا شك- تكون بما كسبت رهينة:

- **كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38)**

لذا، نحن نفتري الظن بأن المنفعة التي يمكن أن يجنيها الإنسان من الأرحام والأولاد يجب أن تكون مما قدّموا لك في الدنيا من أجل الآخرة:

- **يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيما حَكِيمًا (11)**

فما هي المنفعة التي يمكن أن تحصل عليها من الآخرين في الدنيا كما جاء على لسان من اشترى يوسف من مصر أو كما جاء على لسان امرأة فرعون:

- **وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (25)**
- **وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (9)**

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن المنفعة هو ما يقدمه لك الغير لتستفيد منه في الآخرة غير المأكل والمشرب والدفء والمركب.

بناء على هذا الفهم المفترى، نحن نحتاج أن نفهم المنافع التي نحصل عليها من الأنعام غير الأكل والشرب والدفء والركوب كما جاء في الآيات الكريمة الكثيرة:

- **وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (5)**
- **وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (21)**
- **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (71) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (72) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (73)**
- **وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (5)**
- **اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (79) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (80)**

السؤال: ما هي تلك المنافع التي نحصل عليها من الأنعام؟

رأينا: نحن نظن أن الآية الكريمة (كما نفهما) ربما تكون هي الجواب على هذا التساؤل:

- **وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (36) لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (37)**

فتعظيم شعائر الله في الحج هي من تقوى القلوب، ولا شك – عندنا- أن الأنعام من شعائر الله كما جاء في الآية الكريمة التالية:

- ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (30) حُنَفَاء لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (31) ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ (32) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (33)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: مادام أن الأنعام من شعائر الله في الحج، فإن المنفعة التي نحصل عليه منها هي التقوى التي ينالها الله منا. فبمقدار ما تقدم من الأنعام، وبمقدار ما تعظم من تلك الحرمات تكون التقوى التي ينالها الله منك.

السؤال: فما هي المنفعة التي كان سيجنيها من اشترى يوسف (وامرأته) من تربية يوسف في بيتهما؟ وما المنفعة التي كان من الممكن أن تجنيها امرأة فرعون (وربما فرعون نفسه) من الإبقاء على حياة موسى؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: إنها التقوى.

السؤال: وكيف ذلك؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نتخيل الأمر وقد حصل على النحو التالي: كان هناك مشكلة حقيقية ناشبة بين الزوجين تتعلق بالعقيدة، فالرجل الذي اشترى يوسف من مصر كان يعاني من مشكلة تخص العقيدة مع امرأته، وكذلك كان هناك خلاف عقدي بين فرعون وامرأته. ونحن نتخيل ذلك الخلاف على نحو أن كل طرف منهما كان يصرّ على موقف عقائدي مناقض لموقف الآخر، فامرأة فرعون هي أقرب إلى الإيمان منها للكفر، بينما كان فرعون – بالمقابل- أقرب للكفر منه إلى الإيمان. وكذلك كانت (نحن لا زلنا نتخيل) الحال بين من اشترى يوسف من مصر مع امرأته، فقد كانا على خلاف عقائدي. لذا كان الهدف الأول من تربية الغلام في بيتهما (نحن نفتري الظن) هو رأب هذا الصدع بين الزوجين، ولكن كيف يكون ذلك؟

رأينا: نحن نظن (إن صح منطقنا المفترى هذا) أن الآيات الكريمة التالية ربما تجيب على هذا التساؤل:

- **وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (55)**
- **أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (4)**
- **فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ (9)**

نتيجة مفتراة: المنفعة قد تأتي من الذكرى (أو التذكير). فلو تدبرنا هذه الآيات الكريمة لوجدنا أن الذكرى هي ما قد ينفع، وهي لا شك تنفع الذين آمنوا، ولكنها قد لا تنفع غيرهم.

السؤال: ما علاقة هذا بقضية تربية يوسف في بيت الرجل الذي اشتراه من مصر أو في قضية الإبقاء على حياة موسى في آل فرعون؟

جواب مفترى خطير جدا جدا لا تصدقوه: نحن نفتري القول أن الرجل الذي اشترى يوسف من مصر كان يعلم يقينا أن هذا الغلام هو صاحب ذكرى ستنفع المؤمنين. كما نفتري القول بأن امرأة فرعون كانت تعلم يقينا بأن موسى سيكون صاحب ذكرى تنفع المؤمنين كذلك.

فكيف سيحصل ذلك؟

رأينا: لمّا كان الخلاف عقائدينا بين الأزواج في هذه الحالة، كانت محاولة المؤمن منهم (الرجل الذي اشترى يوسف وامرأة فرعون التي طلب الإبقاء على حياة موسى) هي ردع الفجوة بين المؤمن من جهة والشخص الآخر الذي هو أقرب إلى الكفر منه إلى الإيمان. فالرجل الذي اشترى يوسف كان يحاول أن يهدم الفجوة الإيمانية الناشبة بينه وبين زوجه، ولكن لما عجز عن فعل ذلك بنفسه، كأن يأمل أن يتم ذلك على يد يوسف (عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا)، فتتحقق المنفعة الدينية لهما يوم القيامة من تربية هذا الغلام في بيتهما قبل أن يصل الكافر منهما إلى اليوم حيث لا ينفع هناك مال ولا بنون:

- **يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88)**
- **فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (57)**
- **قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (29)**

- وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ۚ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقَّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (23)
- فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (42)
- يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (52)
- فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (85)
- وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (39)
- لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ ۚ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (3)
- فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (48)

السؤال: وكيف تتحصل المنفعة؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: بالإلانة

سؤال: ما هي الإلانة؟ هل هذه مفردة عربية؟

جواب: نحن نشتق هذه المفردة من فعل (ألآن) كما في الآيات الكريمة التالية:

- اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاء وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (23)
- وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (10)

ولو دققنا في هذه الآيات الكريمة لوجدنا على الفور أن الإلانة كانت لثلاثة أشياء فقط:

1. الجلود
2. القلوب

- ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ

3. الحديد

- وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ

السؤال لماذا كانت الإلانة لهذه الثلاثة فقط؟ وما العلاقة بينهم جميعا؟

رأينا المفترى والخطير جدا: نحن نظن أن ذلك ربما يكمن في المنفعة.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى، دعنا نبدأ بالحديد، فالمنفعة من الحديد تتم بإلانته، فعندما يتم إلانة الحديد يستطيع الإنسان أن يستفيد منه كما حصل مع داوود مثلا:

- وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (10)

وهكذا هو الحال (نحن نظن) للقلوب والجلود، فحتى تتحقق المنفعة (التي تكون نتيجتها الحتمية التقوى) فلابد للقلوب من أن تلين.

السؤال: وكيف سيتم ذلك في حالة فرعون وامرأته أو في حالة الرجل الذي اشترى يوسف من مصر مع امرأته؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نتخيل أن العلاقة بين الزوجين كانت تتسم بالقسوة، لذا كان لابد من محاولة إلانة القلوب وربما الجلود حتى تصلح العلاقة بينهما. فعلاقة امرأة فرعون بفرعون كانت علاقة غير سوية ينقصها الولد وربما المحبة، وليس أدل على ذلك من دعاء امرأة فرعون ربها بالخلاص من فرعون وعمله:

- **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11)**

وبمثل هذا المنطق المفترى نحن نتخيل نوع العلاقة التي كانت بين الرجل الذي اشترى يوسف من مصر مع امرأته:

- **وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (25)**

وسنتحدث بحول الله وتوفيق منه عن شخصية هذا الرجل وامرأته عند متابعة البحث في سلسلة مقالات قصة يوسف. فالله وحده أسأل أن يأذن لي الإحاطة بشيء من علمه لا ينبغي لغيري إنه هو الواسع العليم – آمين.

أما النتيجة التي نحاول الوصول إليها هنا فتخص معنى المنفعة في هذه السياقات القرآنية، ليكون الافتراء هو: المنفعة تعني تليين كل ما يتصف بالقسوة

الدليل

لو دققنا في الآية الكريمة التالية لوجدنا أن فيها ما يدعوا إلى الاستغراب، وهو وجود المنافع للناس في الخمر والميسر، أليس كذلك؟

- **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (219)**

السؤال: ما هي منافع الخمر والميسر للناس؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن المنافع هي تليين ما يتصف بالقسوة.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا: رأينا لا شك أن الخمر يستخدم للتخدير، فالخمر لا يقتصر فقط على ما كان معروف في السابق من المادة المسكرة، ولكننا نظن أنها تشمل جميع أنواع "المسكرات أو المخدرات" بدليل أنها هي ما يُذْهِب العقول:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (43)**

فكل الذي يجعل الإنسان لا يعلم ما يقول يقع في باب الخمر الذي يذهب بالعقل.

السؤال: كيف يمكن أن يكون في هذا الخمر الذي يذهب العقل منافع؟

جواب: نحن نظن أن لا علاقة للمنافع بالمأكل والمشرب والدفء والمركب. لذا لابد أن تكون منافع الخمر غير هذا كله.

السؤال: وماذا يمكن أن تكون تلك المنافع؟

رأينا: ما يمكن أن نستفيد منه عندما يذهب العقل، فنصبح لا نعلم ما نقول

السؤال: ما ذلك؟

رأينا المفترى: إنها المادة المخدرة، أي التي تلين ما يتصف بالقسوة.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: دعنا نتخيل الإنسان المريض الذي يصيبه الألم، وهو بحاجة مثلا إلى مخدر (مسكن) لهذا الألم، ألا يعمل ذلك المخدر (الخمر) على تليين الألم؟ من يدري؟!!!

ثم دعنا نتخيل المريض الذي بحاجة مثلا إلى عملية جراحية كما يحصل في المستشفيات، ألا يعطى ذلك المريض جرعة (وربما جرعات) من المادة المخدرة (الخمر) لتذهب عقله فترة من الزمن حتى يتم إنهاء العملية الجراحية؟ من يدري؟!!!

نتيجة مفتراة: نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن المنافع التي تتحصل من الخمر هي المادة المخدرة التي تذهب العقل:

- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (43)

عودة على بدء:

نعود إلى صلب الموضوع الذي كنّا نتحدث فيه الخاص بقارون والذي كان يملك – حسب ما افتريناه سابقا- علم الكنوز:

- **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76)**

وكان مثار النقاش هو كيفية حصول الرجل على تلك الكنوز. وافترينا الظن أن قارون كان يملك قدرة صاحب موسى الذي أقام الجدار لليتيمين عندما رأى الكنز الذي تحته:

- **وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (82)**

ونحن نفتري الظن بأن الرجل كان يفعل ذلك لأن بصره كان حديدا:

- **لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22)**

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا: هناك نوعان من الحديد

⇐ حديد لم يلين

⇐ حديد قد ألين

لذا نحن نفتري القول بأن عامة الناس هم من الذين يملكون بصرا غير حديد وذلك لأن بصرهم قد ألين، لذا لا يتصف بالقسوة اللازمة لاختراق العوائق. فأنت عندما تنظر إلى جدار ما، فإن بصرك لا يستطيع أن يخترقه لأنه غير حديد، فيحصل أن ينقلب ذلك البصر خاسئا لأنه حسير:

- **الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ (4)**

أما من كان بصره حديدا، فإنه لن ينقلب خاسئا لأنه لم يعد حسيرا، لذا يستطيع أن يخترق الحواجز فيرى ما وراءها.

نتيجة مفتراة: لقد كان بصر صاحب موسى حديدا، لذا كان يستطيع أن يرى ما تحت الجدار حتى وإن لم ينقض بعد:

- **فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77)**

وهو ما لم يستطع موسى أن يراه بأم عينه وذلك لأن بصر موسى كان حسيرا.

نتيجة مفتراة خطيرة جدا: وهكذا كان قارون، فقد كان يستطيع أن يرى بأم عينه تلك الكنوز وذلك لأن بصره كان حديدا، فما كان حسيرا.

دعاء: اللهم أسألك بصرا حديدا وأعوذ بك أن يكون أمري كأمر قارون، ونسألك أن نكون ممن يمتثل أمرك في قولك:

- **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77)**

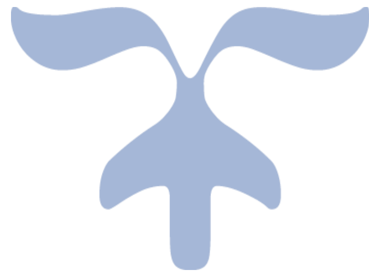
اللهم آمين وللحديث بقية

(فالله وحده أسأل أن ينفذ قوله بمشيئته وإرادته لي الإحاطة بشيء من علمه لا ينبغي لغيري إنه هو الواسع العليم، وأعوذ به وحده أن أفتري عليه الكذب أو أن أقول عليه ما ليس لي بحق، إنه هو العليم الحكيم – آمين)



قصة يونس

الجزء الخامس عشر



قصة يونس: الجزء الخامس عشر

خلصنا في نهاية الجزء السابق من هذه المقالة إلى افتراء الظن من عند أنفسنا بأن قارون كان صاحب علم عظيم؛ وهو علم الحصول على الكنوز:

- **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76)**

وزعمنا القول بأن ذلك كان سببه شيء واحد ألا وهو امتلاك الرجل لبصر لا يلين، أي بصر حديد. لذا كان يستطيع بصره أن يخترق العوائق (الحواجز)، فيستطيع بذلك أن ينظر ما وراءها. وزعمنا القول بأنه يمكن فهم ذلك بنفس آلية ما فعل صاحب موسى عندما وجد كنزا تحت جدار لم ينقض بعد:

- **وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (82)**

وافترينا الظن بأن الرجل كان يفعل ذلك لأن بصره كان حديدا:

- **لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22)**

وذلك لأن الحديد الذي يمكنه أن يخترق الحواجز هو حديد غير ملين، فإذا أصبح حديدا ليّنا، لم يعد فيه خاصية القدرة على اختراق الحواجز، فأصبح هناك في رأينا نوعان من الحديد:

⇐ حديد لم يلين وهو القادر على النفاذ، لذا فهو يتصف بالقسوة اللازمة لاختراق العوائق

⇐ حديد قد أُلين وهو الذي يفقد خاصية النفاذ

لذا كان الافتراء الذي قدمناه هو أن البصر إذا كان حديدا، فقد اكتسب خاصية القسوة اللازمة لاختراق العوائق. فأنت عندما تنظر إلى جدار ما، فإن بصرك لا يستطيع أن يخترقه لأن بصرك غير حديد، فيحصل أن ينقلب ذلك البصر خاسئا لأنه حسير:

- **الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ (4)**

أما من كان بصره حديدا ونظر إلى جدار ما، فإن بصره حينها لن ينقلب خاسئا لأنه لم يعد حسيرا، لذا يستطيع أن يخترق الحواجز فيرى ما وراءها. فأنت عندما تدق مسمارا من حديد في الجدار فإن ذلك المسمار سينفذ من الجدار لأنه – ببساطة- حديدا، أي يتصف بخاصية القسوة اللازمة لاختراق الجدار. أما إن كان هذا المسمار من خشب مثلا، فهو (لا شك) لن يخترق الجدار وذلك لأنه يفقد خاصية القسوة اللازمة لاختراق الحواجز. لأن المعادلة – في ظننا- هي على النحو التالي: كلما ازدادت قسوة المسمار، كلما أصبح اختراقه للجدار أكثر سهوله، أليس كذلك؟

ولو دققنا في الأمر أكثر، لربما وجدنا أن الشيء إذا كان يتصف بالقسوة ووقع عليه وزن زائد عن طاقة تحمله، فإنه يتصدع. فالجبل الذي يتصف بالقسوة، كان سيتصدع لو أنزل عليه حملا ثقيلا أكبر من قدرته على التحمل. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في قوله تعالى:

- **لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (21)**

السؤال: لماذا كان الجبل سيتصدع لو أن الله أنزل عليه هذا القرآن؟

رأينا: لأن هذا القرآن هو كلام الله، وهو لا شك قول ثقيل تم إلقاءه إلقاء:

- **أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (4) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (5)**

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: مادام أن القول ثقيل، فإن هذا القول الثقيل سيكون أكبر من طاقة الجبل على التحمل، لذا فإن النتيجة الحتمية هي تصدع الجبل لو أن هذا القول قد أنزل على الجبل:

- **لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (21)**

السؤال: ما الذي حصل في حالة إنزال القرآن على قلب محمد؟

رأينا: نحن نؤمن أن الله قد ألقى هذا القول الثقيل "القرآن" على محمد، وهو الذي نزل به الروح الأمين على قبل محمد على وجه التحديد:

- وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (194)

ليكون السؤال الآن هو: لماذا لم يتصدّع قلب محمد كما تصدع الجبل الذي كان سيتصدع لو أن الله أنزله عليه؟

رأينا المفترى: لأن قلب محمد لم يكن يتصف بالقسوة. فلو كان قلب محمد قاسيا، لربما (نحن نفتري القول) تصدع جراء إلقاء هذا القول الثقيل عليه.

السؤال: كيف استطاع قلب محمد تحمل الصدمة إذن؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن السبب في ذلك هو ما جاء في قوله تعالى:

- **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159)**
- **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاء وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (23)**

نتيجة مفتراة: نحن نريد أن نميز بين البصر إذا كان حديدا من جهة والبصر إذا كان غير حديد من جهة أخرى، وكذلك نريد أن نميز بين القلب إذا كان فضا غليظا من جهة والقلب إذا كان ليّنا من جهة أخرى.

نتيجة مفتراة: لقد كان بصر صاحب موسى حديدا، لذا كان يستطيع أن يرى ما تحت الجدار حتى وإن لم ينقض بعد، وذلك لأنه يتصف بخاصية القدرة على اختراق العوائق:

- **فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77)**

وبهذا المنطق المفترى من عند أنفسنا، عقدنا مقارنة (ربما غير ضرورية وغير صحيحة) بين ما كان يملكه قارون من العلم مع بعض ما كان الله قد علمه لهذا العبد الصالح الذي جاء موسى يطلب العلم منه:

- **فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (65) قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66)**

لكن المفارقة تكمن في حين أن صاحب موسى قد رأى الكنز تحت الجدار بأم عينه فحافظ عليه لأصحابه الحقيقيين، وهما اليتيمان الموجودان حينئذ في المدينة وليس في القرية حيث بُني الجدار (للتفصيل انظر سلسلة مقالات قصة موسى)، كان قارون يحوز على تلك الكنوز لنفسه، فلربما كان يتعدى بذلك على حقوق الآخرين:

- **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76)**

وربما يعود ذلك إلى أن قلب ذلك الرجل الذي وجد الكنز تحت الجدار كان لينا بينما كان قلب قارون قاسيا، فأصبحت العلاقة عكسية بين البصر الحديد من جهة والقلب اللين من جهة أخرى. فالمطلوب ممن كان بصره حديدا أن يكون قلبه لينا حتى لا يقع في محظور الاعتداء على أموال الآخرين كما فعل قارون.

(دعاء: اللهم أسألك بصرا حديدا وقلبا لينا، إنك أنت العليم الحكيم – آمين).

لكن السؤال الذي لابد أن يثار الآن هو: هل كانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي كان يحوز بها قارون على الكنوز؟ وبكلمات أكثر دقة نحن نسأل: هل كان باطن الأرض هو مصدر كنوز قارون كلها؟

رأينا: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأنه ربما كان لدى قارون أكثر من مصدر للكنوز التي آتاه الله إياها.

السؤال: وماذا كانت مصادره إذن؟

جواب مفترى: من أجل محاولتنا الإجابة على هذا التساؤل، فإننا نجد لزاما الخوض في قضيتين رئيسيتين، وهما:

⇐ ماهية بصر قارون؟

⇐ مكان تواجد الكنوز؟

ماهية بصر قارون

لو رجعنا إلى قصة صاحب موسى (الذي جاء موسى طالبا أن يعلمه)، لوجدنا أن الرجل كان صاحب بصر ثاقب، وتمثل ذلك في أكثر من موقف وليس فقط في قصة الكنز المدفون تحت الجدار.

أولا، كان الرجل قد أخبر أن هناك ملك قادم من بعيد يأخذ كل سفينة غصبا، فكان ذلك هو دافعه لخرق سفينة المساكين اللذين يعملون في البحر، أليس كذلك؟

- **أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (79)**

السؤال: كيف علم هذا العبد الصالح بقدوم ذلك الملك من بعيد؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن الرجل قد رأى قدوم الملك من بعيد بأم عينه. لذا نحن نقدم الافتراء الخطير التالي: كان بصر الرجل حديدا لأنه كان يستطيع أن يرى مسافات بعيدة. لذا لابد أن نتخيل بأن مجال الرؤيا الأفقية عنده بعيد جدا كما في الشكل التالي:



ثانيا، كان الرجل يعلم أن للغلام الذي قتله أبواين مؤمنين يسكنان في مكان بعيد:

- **وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (81)**

لذا كانت مجال الرؤيا الأفقية عنده (نحن نظن) تخترق حتى ما وراء الحواجز (كالبيوت مثلا). فهو لا يرى فقط ما هو بعيد عنده كما في حالة الملك القادم من بعيد بجنده، ولكنه يستطيع أن يرى ما هو بعيد عنه حتى وإن كان وراء حجاب كما في حالة والدي الغلام الذي قتله كما في الشكل التالي:



نتيجة مفتراة: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا أن مجال الرؤيا الأفقية للرجل كانت حديدا، أي تستطيع أن تخترق الحواجز.

ثالثا، عند التعريج على قصة الكنز الذي وجده تحت الجدار الذي لم ينقض بعد، نجد أن مجال رؤيته كانت عمودية إلى الأسفل، فبصره كان يستطيع أن يخترق الحواجز التي تحت قدميه ؟ كما في الشكل التالي:



لكن يبقى الآن تساؤل واحد يخص هذا الرجل ألا وهو: هل كان الرجل يستطيع أن ينظر عموديا إلى الأعلى في السماء كما في الشكل التالي؟



جواب مفترى: نحن نستبعد أن يكون بصر الرجل حديدا (أي ثاقبا يخترق الحواجز) في الاتجاه العمودي إلى الأعلى.

الدليل

بداية، نحن نظن أن من طبيعة الناس أن تنظر في اتجاهات ثلاثة فقط، وهي:

1. أفقيا إلى الأمام

- **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (143) قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (144)**

2. عموديا إلى الأسفل كما فعل صاحب موسى عندما رأى الكنز تحت الجدار

- **وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (82)**

3. عموديا إلى الأعلى:

- مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاء ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (15)

لكن الافتراء الذي نحاول تسويقه هو أنه في حين أن النظرة الأفقية إلى الأمام والنظرة العمودية إلى الأسفل ممكن أن تكون حديدا، فيستطيع صاحبها أن يخترق ببصره الحواجز الأفقية التي أمامه وتلك التي هي من تحته، فإن النظرة العمودية إلى الأعلى لا يمكن أن تكون حديدا.

الدليل

لنبدأ البحث عن الدليل بإثارة التساؤل التالي: إلى أين يمكن أن ينظر الشخص إلى الأعلى؟

جواب: في السماء

فهذا محمد يقلّب وجهه في السماء باحثا عن قبلة يرضاها:

- وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (143) قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (144)

وهذا إبراهيم من قبله يبحث عن ربه في السماء، لذا نحن نتخيل الرجل وهو ينظر أفقيا إلى الأعلى:

- وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78)

وعندما لم يجده هناك، وجّه وجهه للذي فطرهن:

- إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79)

السؤال: هل استطاع أحد من هؤلاء أن يخترق ببصره السماء؟

جواب، كلا وألف كلا، لأنّ اختراق السماء بالبصر ربما هو أمر غير ممكن كما نفهم ذلك من قوله تعالى:

- الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ (4) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (5)

السؤال: كيف يمكن إذن اختراق السماء للنظر فيها؟

رأينا: نحن نظن أنه من أجل اختراق السماء بالبصر فلابد من وجود الوسيلة، وقد لا يتيسّر لنا ذلك بأقل من أن نمدد بسبب بين السماء والأرض للنظر من هناك فيها:

- مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاء ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (15)

السؤال: لماذا الحاجة إلى مد السبب إلى السماء ثم النظر من هناك؟

جواب مفترى: لاستحالة النظر من هنا مباشرة. فلو كنا نستطيع النظر في السماء من هنا لما كان هناك داع أن نمدد بسبب إلى السماء أولا (فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاء) ثم نقطع فننظر فيها من هناك (ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ). وهذا (نحن نظن) ما فعله فرعون عندما طلب من هامان أن يبني له صرحا ليبلغ من خلاله أسباب السموات والأرض ليطلع إلى إله موسى:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)**
- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37)**

منطقنا المفترى: لو كان فرعون يستطيع أن ينظر إلى إله موسى من هنا، لربما ما طلب من هامان أن يبني له ذلك الصرح الذي يمكنه من بلوغ الأسباب حتى يطلع إلى إله موسى من هناك.

وهذا – برأينا- ما آتاه الله لذي القرنين:

- **إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (84)**

فكان ذو القرنين يستطيع أن يتبع سببا عندما كان ينتقل من مكان في السماء إلى مكان آخر في السماء، فاتبع سببا ثلاث مرات:

- **فَأَتْبَعَ سَبَبًا (85) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (86) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (87) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاء الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (88)**
- **ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (89) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (90) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (91)**
- **ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (92) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (93)**

(للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان: قصة يأجوج ومأجوج)

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن اختراق السماء بالبصر أمر غير ممكن حتى للجن أنفسهم، وذلك لأنّ الله قد جعل السماء نفسها رجوما للشياطين:

- **وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (5)**

لذا كانت الشياطين قادرة على استراق السمع فقط:

- **وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (8) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (9)**

فالشياطين كانت قادرة على لمس السماء (وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء)، فوجدوها قد ملئت حرسا شديدا وشهبا (فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا)، فكانوا لا يستطيعون أن يخترقوها بالبصر، وكان جلّ ما يستطيعوه هو أن يسترقوا السمع من هناك حيث المقاعد المتوافرة دونها (وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ). ولكن بعد حادثة محددة (فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ) أصبح استراق السمع أيضا غير ممكن (فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا).

السؤال: لماذا نحتاج أن ننفذ إلى هناك؟
رأينا: يجب أن نميز بين من أراد أن يصل إلى السماء فيأخذ منها، ومن أراد أن يخترقها لينفذ إلى ما بعدها.
افتراء (1): نحن نظن أن قارون كان يعمل على الوصول إلى السماء ليأخذ منها ما يشاء
افتراء (2): نحن نظن أن فرعون كان يريد الوصول إلى أسباب السموات والأرض لينفذ إلى ما بعدها (أي ليطلع إلى إله موسى).
الدليل

باب فرعون يفوق قارون في العلم

جواب مفترى: نحن نفتري الظن بأن علم قارون كان محصورا بالحصول على الكنوز، بينما كان علم فرعون متعدد الأوجه. لذا سنحاول الدفاع عن موقفنا الثابت بأن فرعون هو صاحب علم عظيم ربما يتفوق في ذلك على كل من كان حوله بمن فيهم موسى وهارون وقارون وهامان. ولا يكاد يجاريه في ذلك إلا صاحب موسى الذي جاءه موسى نفسه طالبا العلم منه.
الدليل
نحن نظن أن هذا الافتراء الخطير سينقلنا فورا للحديث عن الكنوز نفسها طارحين التساؤلات التالية:

- ⇐ ما هي الكنوز؟
- ⇐ أين يمكن أن تتواجد الكنوز؟
- ⇐ من استطاع الحصول عليها في السابق؟
- ⇐ كيف يمكن الحصول عليها؟
- ⇐ من يستطيع الحصول عليها الآن؟
- ⇐ الخ.

باب الكنوز

لعل من أبسط أبجديات الفهم أن يكون ما يتم كنزه هو شيء ثمين كالذهب والفضة:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (34) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (35)**

وأن الكنوز هي شيء مرغوب فيها لأنها ترافق من كان له مقام كريم:

- **فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (59)**

لكن الذي قد لا يجلب الانتباه كثيرا هو مكان تواجد الكنوز. ففي حين أن الفكر الشعبي الدارج يربط بين الكنوز وباطن الأرض كما في حالة الكنز الذي كان موجودا تحت الجدار:

- وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (82)

فإن قلة من الناس من قد يلتفت إلى الآيات الكريمة التالية التي تصور مصادر أخرى (غير باطن الأرض) يمكن أن يأتي الكنز منها:

- فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (12)
- أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (8)

فبعد التدقيق في الآيات الكريمة الخاصة بالكنوز، وجدنا أن المثير للدهشة - عندنا - هو أن الكنز يمكن الحصول عليه بالطرق التالية:

1. الاستخراج

- وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (82)

2. الإنزال

- فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (12)

3. الإلقاء

- أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (8)

ليكون السؤال هو: ما الفرق؟ وكيف كان قارون يحصل على تلك الكنوز التي آتاه الله إياها؟

- إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76)

رأينا المفترى: نحن نكاد نجزم الظن بأن قارون كان يملك العلم اللازم الذي يجعله قادرا أن يحصل على الكنوز، وربما حصل على ذلك بطريقة الاستخراج (من باطن الأرض) أو الإنزال (من السماء) أو الإلقاء (من مكان آخر).

السؤال: كيف فعل قارون ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن عملية استخراج الكنوز من باطن الأرض تتطلب بصرا حديدا، وهذا ما كان (نحن نفتري الظن) يملكه قارون، وقد حاولنا تصوير ذلك بنفس الآلية التي كانت لدى صاحب موسى الذي رأى الكنز بأم عينه تحت الجدار الذي لم ينقض بعد:

- وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (82)

وربما تكون هذه هي أسهل الطرق للحصول على الكنوز، أي تلك المدفونة تحت الأرض والتي يمكن النفاذ إليها بالصبر إذا كان حديدا.

(دعاء: اللهم أسألك أن يكون لي بصرا حديدا، وأعوذ بك أن أكون ممن يبغون فسادا في الأرض – آمين)

لكن يبقى السؤال المطروح هو: إذا كان قارون قد حصل على الكنوز بطريقة الإنزال (من السماء) أو الإلقاء (من مكان آخر)، فكيف فعل ذلك؟

باب إنزال الكنوز

بداية، نحن نظن أن الإنزال يكون من السماء، بدليل قوله تعالى:

- يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (2)
- هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (4)

ولو تتبعنا آيات الإنزال من السماء لوجدناه خاصة بالله ومن معه:

- ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (176)
- اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (23)

السؤال: كيف تحصل عملية الإنزال (التنزيل)؟

رأينا: لو تدبرنا آيات القرآن الكريم جميعاً لوجدنا أن الرسالة الدينية وكتب الله المصاحبة للرسالة قد نزلت نزولاً، قال تعالى:

- وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4)
- ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (176)
- شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185)
- يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (65)
- يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۖ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (67)
- وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (7)

افتراء مهم جدا: بناء على هذه السياقات القرآنية، نحن نفتري القول بأن الكتب أنزلت إنزالا.

السؤال: هل أنزلت من السماء؟

الجواب: كلا. لأنه لو نزلت تلك الكتب من السماء لجاء اللفظ على نحو أنها أنزلت من هناك (أي من السماء) كما في الآيات التي تتحدث عن الماء مثلا. فانظر عزيزي القارئ – إن شئت- كيف تصور الآيات نزول الماء من السماء:

- الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22)

افتراء مهم جدا: نحن نظن أنه يجب التفريق بين الإنزال بشكل عام والإنزال من السماء بشكل خاص. فالقرآن الكريم يصور حركة نزول الملك (كالروح الأمين) على أنها حركة نزول فقط:

- قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (97)
- إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ (124)
- وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (8)

في حين يصور حركة الملائكة على أنها نزولا من السماء:

- قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (95)

وعلى نحو أنها تنزيلا:

- وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا الفرقان (25)

الدليل

راقب – عزيزي القارئ- كيف تمت عملية إنزال المن والسلوى التي كانت من نصيب بني إسرائيل مع نبيهم موسى والمائدة التي ذكرت في قصة الحواريين مع نبيهم ابن مريم نزلت نزولاً:

- وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰۖ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57)
- إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِۖ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (112) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (113) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَۖ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (114) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْۖ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (115)

ولو تدبرنا الآيات الكريمة التالية، لوجدنا أن الرجز ينزل من السماء:

- فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (59)

وكذلك الرزق:

- هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ (13)

لكن بالمقابل ربما نزلت السكينة من مكان آخر:

- ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (26)

وكذلك أنزلت أشياء مادية (كالميزان والحديد) من مكان آخر غير السماء:

- لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِۖ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (25)

وربما نزلت الأنعام من مكان آخر غير السماء:

- خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (6)

ولننظر إلى الدقة والروعة القرآنية التي تصور الشياطين في حركة النزول، قال تعالى:

- هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (221) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (223)

فلعل الجميع يدرك أنّ النص القرآني يتحدث عن أولئك الشياطين الذي يلقون السمع لما يحدث في السماء كما تؤكده الآيات التالية:

- وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (8) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (9)

فيكون بذلك في مكان قريب من السماء (كالماء الذي ينزل من السحب) وعندما يتجهوا نحو الأرض تكون الحركة على هيئة النزول، فلب القول إذاً أنّ الحركة بين السماء والأرض هي حركة نزول مصداقاً لقوله تعالى:

- اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (12)

وأخيرا، انظر – عزيزي القارئ- إلى القول الفصل كيف تصور الآيات الكريمة التالية الحركة من وإلى السماء ومن وإلى الأرض، قال تعالى:

- يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (2)
- هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (4)

فهاتان الآيتان تحددان شكل الحركة من وإلى الأرض ومن وإلى السماء، فالحركة من السماء باتجاه الأرض هي حركة نزول.

لكن السؤال الذي نحاول جاهدين طرحه والإجابة عليه هنا هو: أين هو مصدر تلك الأشياء التي لا يذكر القرآن الكريم بصريح اللفظ أنها نزلت من السماء؟ فمن أين أنزلت الكتب والأنعام والحديد وغيرها؟

رأينا: نحن نظن أن الكتب قد أنزلت من مكان غير السماء، وذلك لأنها ببساطة من لدن حكيم عليم:

- وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (6)

ولا شك أن ما أنزل من تلك الكتب كالقرآن مثلا موجود فعليا في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون:

- إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (78) لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (80)

لذا، نحن نتجرأ على القول بأن الكتب قد أنزلت من مكان خارج السموات، وذلك لأن مصدرها هو الله نفسه.

السؤال: أين الله؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأنه لا يمكن أن يكون الله موجود في السموات وذلك لأن الله لا يمكن أن يحيط به شيء مادام أنه هو من يحيط بكل شيء:

- وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا (126)
- أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاء رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ (54)

لذا نحن نفتري الظن بأن الله محيط بالسموات والأرض مادام أنه بكل شيء محيط. ولو دققنا بالآية الكريمة التالية :

- **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (67)**

لربما فهمنا على الفور استحالة أن يكون الله موجود في السموات والأرض مادام أن الأرض جميعا قبضته والسموات مطويات بيمينه، أليس كذلك؟ السؤال: أين الله إذن؟

جواب مفترى: نحن نفتري الظن بأن الله موجود خارج السموات والأرض جميعا.

السؤال: لماذا الله موجود خارج السموات والأرض جميعا؟

جواب: لأنه الله

السؤال: ومن الذي في السموات والأرض؟

رأينا المفترى: إنه الإله

- وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (84)

ألا ترى أنك تناقض نفسك بقولك أن الله موجود خارج السموات والأرض وأن الإله موجود في السموات والأرض؟ يسأل صاحبنا مستغربا.

رأينا: لا نظن أن في هذا تناقض شريطة أن نفهم الفرق بين الله من جهة والإله من جهة أخرى؟

السؤال: وهل هناك فرق بين الله والإله؟

جواب مفترى: نعم. هناك – في ظننا- فرق كبير بين الله الذي هو خارج السموات والأرض والإله الذي هو في السموات والأرض.

السؤال: وما الفرق؟

جواب: للإجابة على هذا التساؤل فلابد من طرح سؤال آخر له علاقة بهذه القضية الكبيرة جدا، والسؤال هو: من الذي في السموات وفي الأرض وما بينهما؟

رأينا المفترى: إنه الرب:

- رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (65)

نتيجة مفتراة 1: الله خارج السموات والأرض

- وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا (126)

نتيجة مفتراة 2: الإله في السموات وفي الأرض

- وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (84)

نتيجة مفتراة 3: الرب في السموات والأرض وما بينهما:

- رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (65)

السؤال: ما الذي تقوله؟ لا أفهم ما تقصد يقول صاحبنا؟
رأينا: لا شك أن هذه قضية كبيرة جدا جدا سيكون لها تبعات جمّة على الفكر الذي نحاول تسويقه بافتراءات هي – لا شك- من عند أنفسنا. لذا لابد من طرحها بكل دقة ممكنة، سائلين الله وحده أن يهدينا رشدنا فلا نفتري عليه الكذب ولا نقول عليه غير الحق، ونطلب من القارئ الكريم أن لا يتعجل النتائج لأن الطرح ربما يتصف في مواطن كثيرة بعد الوضوح في الرؤية، لذا لابد من متابعة النقاش حتى النهاية وعدم اجتزاء النصوص من سياقاتها قبل أن تتكوّن صورة واضحة لما نحاول الوصول إليه في نهاية المطاف. فإن نحن سلكنا الطريق الصواب وأصبنا الهدف المنشود فذاك توفيق من الله وحده، فهو وحده القادر أن يجعلنا نمشي سوّيا على صراط مستقيم، وإن نحن أخطأنا الوسيلة والغاية فذاك مما كسبت أيدينا لأننا نكون بذلك قد اخترنا أن نمشي مكبين على وجوهنا:

- **أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (22)**

لذا نسأل الله أن لا نكون ممن أضلهم على علم، وأعوذ به أن نكون ممن يظلون الناس عن علم أو عن غير علم منا، إنه هو السميع المجيب – آمين.
أما بعد،
نحن نفتري القول بأن الله هو رب السموات والأرض وما بينهما بدليل ما جاء في الآية الكريمة التالية:

- **رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (65)**

ونحن نفتري القول من عند أنفسنا أن الله قد أصبح رب السموات والأرض وما بينهما عندما خلقهن:

- **الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ (1)**
- **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّوَرِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (73)**
- **إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (54)**
- **الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (59)**
- **خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (10)**
- **خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (5)**
- **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (16)**

وذلك لأن الله أصبح هو المدبر لكل شيء خلقه:

- **ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (102)**

- قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (16)
- اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62)
- ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (62)
- بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (101)
- الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (2)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: بعد أن خلق الله كل شيء أصبح هو رب كل شيء:

- قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (164)

نتيجة مفتراة: مادام أن الله هو خالق كل شيء، لذا فقد أصبح هو رب كل شيء لأنه هو على كل شيء وكيل:

- اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62)
- قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ....

لكن حتى تلك اللحظة لم يكن الله (نحن نفتري القول) قد أصبح إلها بالرغم أنه أصبح رب كل شيء خلقه، وذلك لأن الرب هو – برأينا- المالك المدبر (الوكيل) الذي لا يطلب العبادة ممن هو رب له. فليس بالضرورة أن يكون الرب معبودا. فهذا يوسف – مثلا- يطلب من صاحبه السجن أن يذكره عند ربه، وذلك لأن رب الرجل هو وكيله:

- وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (42)

وهذا يوسف نفسه يتحدث عن ربه الذي أحسن مثواه، وذلك لأن زوج المرأة التي راودت يوسف عن نفسه هو وكيل يوسف:

- وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: الرب هو الوكيل الذي لا يطلب العبادة ممن هم دونه

- وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (85)

السؤال: متى أصبح الله (وهو رب كل شيء خلقه) إلها؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري القول من عند أنفسنا أن الله الذي أصبح رب كل شيء خلقه قد أصبح إلها عندما فطر بعض خلقه.

السؤال: من الذي فطرهم الله من خلقه؟

رأينا المفترى: لو تفقدنا النص القرآني على مساحته لوجدنا أن السموات والأرض قد كانت أول من فطر الله ممن خلق، واقرأ عزيزي القارئ – إن شئت- قوله تعالى:

- قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (14)
- رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (101)
- قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (10)
- الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1)
- قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (46)
- فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (11)

نتيجة مفتراة 1: الله هو فاطر السموات: فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

نتيجة مفتراة 2: الله هو فاطر الأرض جميعا: فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

نتيجة مفتراة 3: الله لم يفطر شيئا بين السموات والأرض

السؤال: ما الذي حدث عندما فطر الله السموات والأرض؟

رأينا المفترى: نحن نظن أنه عندما خلق الله السموات والأرض، فقد أصبح هو رب السموات والأرض جميعا، ولم يكن ليكلف السموات والأرض بالعبادة عندما خلقهن، ولكن ما أن فطر الله السموات والأرض (من دون خلقه الآخر) حتى أصبح هذا الخالق إلها يطلب العبادة ممن فطرهن، فأصبح إلها في السماء وإلها في الأرض:

- وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (84)

السؤال: ما الذي تغير عندما أصبح الله إلها؟

جواب مفترى: عندما أصبح الله إلها طلب العبادة ممن فطر من خلقه فقط. ولو راقبنا الآيات التي تتحدث عن فطر السموات والأرض لوجدنا موضوع العبادة واضح لا لبس فيه، وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في الآيات مرة أخرى

- قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (14)
- رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (101)

- قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (10)
- الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1)
- قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (46)
- فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (11)

السؤال: وماذا تغير بالنسبة له عندما أصبح إلها بعد أن كان ربا؟

رأينا: عندما طلب الله العبادة ممن فطر من خلقه (أي السموات والأرض) أصبح هو المتكبر

السؤال: ما علاقة هذا بالأمر؟ أي ما علاقة التكبر بموضوع الربوبية والإلوهية الذي نتحدث عنه؟؟

رأينا المفترى: بداية نحن نظن أن صفة التكبر (الكبرياء) هي صفة مذمومة بحق البشر لكنها محمودة بحق الإله. فالإله هو المتكبر، أليس كذلك؟

- هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (23)

السؤال: لماذا الله هو الإله المتكبر؟ وبكلمات أخرى نحن نسأل: لم يطلب الله من كل خلقه أن لا يتكبروا بينما يكون هو وحده من له الحق أن يتكبر؟

رأينا: نحن نظن أن الله هو المتكبر لأنه هو الوحيد الذي له الحق أن يعبد. ولو تفقدنا السياق القرآني التالي لوجدنا أن "كبرياء الله" موجود فقط في السموات والأرض فقط:

- وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (37)

السؤال: لماذا لله الكبرياء في السموات والأرض فقط؟ لم ليس له كبرياء فيما بينهما مثلا؟

رأينا المفترى: مادام أن الله هو من له الكبرياء في السموات والأرض، فهو بذلك الوحيد الذي يستحق أن يكون معبودا

نتيجة مفتراة: مادام أن الله له الكبرياء في السموات والأرض، ومادام أن الله هو الذي فطر السموات والأرض، لذا أصبح هو نفسه في السماء إله وفي الأرض إله:

- وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (84)

السؤال: لماذا الله هو إله في السموات والأرض فقط؟ ولماذا الكبرياء لله في السموات والأرض فقط؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لأن من هو مكلف بعبادة الله موجود فقط في السموات وفي الأرض.

السؤال: لماذا؟

رأينا: لأن الله هو من فطر السموات والأرض وهو نفسه من فطر بعض خلقه في الأرض كالبشر الذين يقع عليهم واجب العبادة لله.

السؤال: إذا كان الله قد أصبح إلها في السموات والأرض لأنه هو من فطرهن، فلماذا هو إله للناس؟

جواب مفترى: لأن الله هو من فطر الناس:

- **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (30)**

(دعاء: اللهم أنت رب الذي فطرتي، أسألك وحدك أن تهديني إلى الدين القيم وأن تجعلني من القليل الذين يعلمون – آمين)

نتيجة مفتراة مهمة جدا: الله هو من فطر الناس كما فطر السموات والأرض من قبل

السؤال: ما تبعات هذه الفطرة الإلهية للناس؟

رأينا: عندما فطر الله الناس، أصبح هذا الخلق (أي الناس) مكلف بعبادة الله.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: لأن من فطرهم الله هم فقط الذين يعبدون الإله بمحض إرادة منهم؟ فالناس مكلفون بعبادة الله لأنهم يملكون الفطرة، فهم مخلوقات مخيرة تملك الإرادة لعبادة الله أو عبادة غيره أو حتى عدم عبادة أحد.

- **إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79)**
- **يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (51)**
- **أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (51)**
- **تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (90)**
- **قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72)**
- **قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (56)**
- **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (30)**
- **وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22)**
- **تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (5)**
- **إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (72)**

نتيجة مفتراة مهمة جدا: من لم يتم فطره من الخلق فهو غير مكلف بعبادة الله وذلك لأنه لا يملك الإرادة لعبادة الله. لذا فهو مخلوق مسير لا حول له ولا دخل فيما يفعل.

السؤال: وما هي الفطرة؟

جواب مفترى خطير جدا من عند أنفسنا: نحن نظن أن الفطرة هي الاستقلالية التامة عن الخالق. فالسموات والأرض والناس يملكون المقومات اللازمة للاستقلال التام عن ربهم الذي خلقهم جميعا، فيكونون بذلك مخيّرين في كل أفعالهم وتصرفاتهم. انتهى.

الدليل

لو تفقدنا الآيات الكريمة الخاصة بمن فطرهم الله على مساحة النص القرآني لوجدنا أن ذلك خاص باثنتين فقط من خلقه:

1. السموات والأرض

- **قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (46)**

2. الناس

- **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (30)**

لتكون الصورة في ذهننا الآن على النحو التالي: لمّا فطر الله السموات والأرض، أصبح عندهن الإرادة المستقلة عن إرادة خالقهن لاتخاذ القرار، لذا جاء الطلب الإلهي منهن بحمل الأمانة، فرفضن ذلك طواعية بمحض قرار منهن:

- **إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (72)**

ولو دققنا في هذه الآية الكريمة لوجدنا هذا الربط العجيب بين السموات والأرض (وهن من رفضن حمل الأمانة بقرار من أنفسهن) من جهة والإنسان (الذي تقبل حمل الأمانة بقرار من نفسه) من جهة أخرى.

نتيجة مفتراة: لمّا كان الله قد فطر الإنسان، أصبح هذا المخلوق (نحن نفتري القول) مستقل بإرادته وبقراره عن خالقه، يستطيع أن يعبد من خلقه كما يستطيع أن لا يعبده بقرار من الإنسان نفسه. وذلك لأن الإنسان أصبح يستطيع أن يدبّر أمره من تلقاء نفسه، ولا يحتاج أن يرجع إلى خالقه إن هو أراد ذلك. لذا أصبح هذا المخلوق المفطور من قبل خالقه يستطيع الذهاب باتجاهين متعاكسين:

هداية نفسه دون الرجوع إلى ربه كما فعل فرعون مثلا

طلب الهداية من الذي فطره كما فعل إبراهيم:

- **إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (72)**

ولو حاولنا تبسيط الفكرة بالكلمات الدارجة على لسان العامة لربما أمكننا القول بأن الفطر هو ما يشبه "الفطام"، فالطفل يبقى معلقا بأمه، وقد لا يستطيع العيش دون الاعتماد عليها حتى مرحلة الفطام، وما أن يتم فطام الطفل عن ثدي أمه حتى يصبح هذا الكائن قادرا على البحث عن رزقه بعيدا عن أمه، فيسلك طريقا خاصا به قد لا تكون هي الطريق التي كانت ستختارها له أمه لو أنه لم يفطم بعد. ولو حاولنا تفقد الأمر أكثر لوجدنا أن الطفل يقترب من مرحلة الفطام كلما أصبح أكثر قدرة على الاستقلالية. فلا شك أن الطفل في أيامه الأولى في المهد يعتمد على مصدر واحد ليكفل له البقاء، ألا وهو ثدي أمه، وما أن يبدأ الطفل بالنمو شيئا فشيئا حتى يبدأ يأخذ طعامه وحاجاته من مصادر أخرى جديدة حتى يصل إلى المرحلة التي تمكنه من

الاستقلال التام عن والدته. فيبدأ في مرحلة الذاتية (أي الاعتماد على الذات). وتبدأ القصة مع العائلة، فيكون الغلام معتمدا على عائلته في كثير من احتياجاته حتى يصل إلى المرحلة التي تؤهله من الاستقلال التام عن العائلة، ليبدأ في مرحلة ذاتية أخرى أوسع من سابقتها، وهكذا.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن "الفطر" يتعلق بالمصادر الضرورية للبقاء. فإذا كان الشخص معتمدا على مصدر واحد خارجي، فهو لا شك غير مفطور، ولا يصبح مفطورا حتى يكون قابلا للاستقلال عن هذا المصدر، قادرا على تزويد نفسه بمصادر أخرى من أجل البقاء، وما أن يجد بنفسه مصادر أخرى حتى يصبح قادرا أن يتطفّل عليها من أجل كسب ما يحتاجه منها للبقاء، فيكون بذلك قد أصبح مرحلة "الفطر".

خروج عن النص في استراحة لغوية قصيرة

نحن نفتري الظن في سياق الحديث عن مفردة "فطر" ومشتقاتها، أن "الفطريات" (ككائنات حية) لها علاقة مباشرة بهذا الجذر الثلاثي الذي اشتقت منه، أي "فطر". فالفطريات هي – في ظننا- تلك الكائنات ذاتية التغذية، القادرة أن تستفيد بنفسها من مصادر خارجية من أجل البقاء، أي أنها تتطفل على غيرها من أجل سد حاجاتها الذاتية. وربما لمثل هذا السبب، أطلقت مفردة "الفطر" على ذلك النبات الذي يعيش تقريبا في كافة المناخات البرية، والذي يعرف باللغة الإنجليزية بـ (mashroom) ذات الأنواع والأصناف المختلفة التي ربما يجمعها كلها صفة التطفل بالاستفادة من مصادر متنوعة من التغذية. فلربما (نحن نتخيل) أن الفطر هو الكائن النباتي الوحيد ذاتي التغذية الذي يأخذ التغذية من أكثر من مصدر، فلا يعتمد بشكل رئيسي على عملية التمثيل الضوئي كما هي الحال بالنسبة لكل النباتات الأخرى. وانظر – عزيزي القارئ – إن شئت- إلى هذا الاقتباس من موسوعة الويكيبيدا عن هذا النبات:



Source: http://en.wikipedia.org/wiki/Mushroom#/media/File:Amanita_muscaria_(fly_agaric).JPG



Source: http://en.wikipedia.org/wiki/Mushroom

Many species of mushrooms seemingly appear overnight, growing or expanding rapidly. This phenomenon is the source of several common expressions in the English language including "to mushroom" or "mushrooming" (expanding rapidly in size or scope) and "to pop up like a mushroom" (to appear unexpectedly and quickly). In reality all species of mushrooms take several days to form primordial mushroom fruit bodies, though they do expand rapidly by the absorption of fluids.

The cultivated mushroom as well as the common field mushroom initially form a minute fruiting body, referred to as the pin stage because of their small size. Slightly expanded they are called buttons, once again because of the relative size and shape. Once such stages are formed, the mushroom can rapidly pull in water from its mycelium and expand, mainly by inflating preformed cells that took several days to form in the primordia.

Similarly, there are even more ephemeral mushrooms, like *Parasola plicatilis* (formerly *Coprinus plicatlis*), that literally appear overnight and may disappear by late afternoon on a hot day after rainfall.[16] The primordia form at ground level in lawns in humid spaces under the thatch and after heavy rainfall or in dewy conditions balloon to full size in a few hours, release spores, and then collapse. They "mushroom" to full size.

Not all mushrooms expand overnight; some grow very slowly and add tissue to their fruitbodies by growing from the edges of the colony or by inserting hyphae. For example *Pleurotus nebrodensis* grows slowly, and because of this combined with human collection, it is now critically endangered.[17]



Yellow, flower pot mushrooms (*Leucocoprinus birnbaumii*) at various states of development

Though mushroom fruiting bodies are short-lived, the underlying mycelium can itself be long-lived and massive. A colony of *Armillaria solidipes* (formerly known as *Armillaria ostoyae*) in Malheur National Forest in the United States is estimated to be 2,400 years old, possibly older, and spans an estimated 2,200 acres (8.9 km^2). Most of the fungus is underground and in decaying wood or dying tree roots in the form of white mycelia combined with black shoelace-like rhizomorphs that bridge colonized separated woody substrates.[18]

It has been suggested the electrical stimulus of a lightning bolt striking mycelia in logs accelerates the production of mushrooms

mushrooms were also sometimes regarded as magic or satanic, their fruiting bodies appearing quickly overnight from underground. Some believed they were the Devil's fruit, and others that mushroom rings were magical portals

عودة على بدء

منطقنا المفترى: أصبحنا نحن الناس مفطورين عندما زودنا بالإرادة المستقلة التي تمكننا من الاختيار من تلقاء أنفسنا، لكن بالرغم من قدرتنا على الاستقلالية عن خالقنا عندما فطرنا، فإننا مطالبون بالاستعانة به من أجل النجاة وذلك لأننا لا محالة إليه راجعون:

- **وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22)**

فتصبح السيناريوهات المتاحة أمام الناس المفطورين عن خالقهم على النحو التالي:

⇐ الاعتماد على الذات والبحث عن الطريقة والغاية بالجهد الشخصي بعيدا عن الإله، وهذه الطريقة غير مضمونة النتائج، لأنك قد تصيب الهدف مرة ولكنك ستخطئ الطريق والغاية مرات ومرات كما فعل فرعون مثلا

⇐ الرجوع إلى الذي فطرك ليهديك السبيل كما فعل إبراهيم، وهذه الطريقة - لا شك- مضمونة الغاية والوسيلة.

فبالرغم أن الله هو من آتى إبراهيم رشده، وبالرغم أن إبراهيم كان يتصف برجاحة العقل وقوة المنطق والتفكير، إلا أن هذا لم يمنعه أن يعتمد على ربه ليهديه:

- **إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (72)**

وكذلك فعل موسى عندما بحث عن طريق النجاة:

- **وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ (22)**

ولو لم يفعل محمد ذلك لبقى (نحن نفتري القول من عند أنفسنا) طوال حياته ضالا:

- **وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (7)**

(دعاء: اللهم أنت من فطرتني، وأنت من تهديني، فلا تكلني لنفسي، وأسألك وحدك أن تهديني في كل أمري، إنك أنت السميع البصير – آمين)

بناء على هذا الطرح المفترى من عند أنفسنا، فإننا نستطيع أن نستنبط أن هناك ثلاثة مراحل مر بها الله، وهي على النحو التالي:

1. في القديم كان الله ولم يكن هناك شيء غيره:

- **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (39)**

في تلك المرحلة التي لم يكن هناك شيء، كان الله أحدا. لذا نحن نفتري القول من عند أنفسنا أن السورة الكريمة التالية توصف الله في تلك المرحلة:

- **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4)**

2. ما أن بدأ الله يخلق الخلق، حتى أصبح ربا، فكان هو الرب (وكيل كل شيء مادام أنه هو خالق كل شي). فخلق السموات والأرض والضياء والنور، الخ. ونحن نفتري القول من عند أنفسنا أن السورة الكريمة التالية توصف الله الخالق الذي أصبح ربا في تلك المرحلة

- قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (2) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (3) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (4) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (5)

3. بعد أن خلق الله الخلق وأصبح ربا، عمد إلى أن يفطر بعض خلقه، وهم الذين أصبحوا ممتلكين للإرادة المستقلة عند إرادة خالقهم، وهي التي تمكنهم من الاعتماد على أنفسهم (الذاتية) وعدم الرجوع إلى خالقهم إن هم أرادوا ذلك. فأصبح هذا الذي هو رب كل شي إلها لبعض من خلقه، وهم الذين فطرهم من خلقه، ولما أصبح إلها، طلب من هؤلاء عبادته باختيار من أنفسهم مادام أنهم مخيرون ولم يعودوا مسيرين كباقي الخلق الذين كان الله هو ربهم ولم يصبح إلها لهم. ونحن نفتري القول من عند أنفسنا أن السورة الكريمة التالية توصف الله في تلك المرحلة

- قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلَهِ النَّاسِ (3) مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (4) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5) مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ (6)

نتيجة مفتراة 1: كان هو الله أولا وقبل كل شيء

نتيجة مفتراة 2: أصبح الله ربا عندما خلق كل شيء

نتيجة مفتراة 3: أصبح الله إلها عندما فطر بعض خلقه ليعبدوه عن إرادة منهم

السؤال: أين كان الله عندما كان هو الله ولم يكن هناك شيء غيره؟

رأينا: كان الله أحدا، ولم يكن معه شيء، فكان هو في كل اتجاه:

- وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (115)

السؤال: وأين الله نفسه إذا كان وجهه موجود أينما ولينا وجوهنا؟

رأينا: نحن نظن أن الآية الكريمة التالية ربما تجيب على مثل هذا التساؤل:

- وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (88)

السؤال: إذا كان كل شيء هالك إلا وجهه (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ)، فما الذي سيحصل ليديه مثلا؟ هل ستهلكا؟

- وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاء وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (64)

وماذا سيحصل لعينه مثلا؟ هل ستهلك؟

- أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (39)

جواب مفترى من عند أنفسنا: بعيدا عن التحليق في عالم المجازات وسماء الاستعارات اللغوية التي صاغتها عقول الأجداد اللذين ملكوا نواصي العربية، فإننا نحن (الذين ربما لا نقوى أن نتمسك بأكثر من الذيل منها) نظن أن يدا الله وعينه لن تهلكا بالرغم أن كل شيء هالك إلا وجهه.

السؤال: لماذا؟ أي كيف يمكن الموائمة بين الكلام الإلهي بأن (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) وافترائنا الذي مفاده أن يدا الله وعينه لن يهلكا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الموائمة بين الحالتين ربما تكون مفهومة إذا ما سلمنا بالافتراء الخطير التالي الذي هو لا شك من عند أنفسنا، والذي مفاده أن كل ما في الله هو وجه. فيداه وجه. وعينه وجه. وكله وجه:

- **وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (115)**

السؤال: وكيف ذلك؟

بداية، نحن نظن أن الوجه هو تلك الكينونة التي تدل على صاحبها، فأنت لا تتعرف على أحد من خلال يده أو رجله أو أي عضو آخر في جسمه إلا إذا نظرت مباشرة إلى وجهه. فالوجه هو – في ظننا- تلك الكينونة التي تدل على صاحبها. لذا لو طرنا بخيالنا (المزيف بالطبع) إلى مرحلة ما قبل الخلق، أي قبل أن يصبح الله إلها، وقبل أن يصبح ربا، أي عندما كان الله هو أحد. فما الذي يمكن أن نتخيله؟

جواب مفترى: نحن نظن أنه في تلك المرحلة كان الله هو الموجود المطلق، لذا كان الله ولم يكن شيء غيره، وفي تلك المرحلة كان الله هو الصمد، فلو قدّر لنا أن ننظر إلى ذلك الأحد الصمد، لوجدناه في كل اتجاه ننظر إليه (فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ)، فلو أنت نظرت فوقك لكان الله – لا شك- هو الأعلى، ولو أنت نظرت أسفل منك لوجدت الله هناك، ولو نظرت إلى الأمام لوجدت الله أمامك، ولو نظرت إلى الخلف لوجدت الله خلفك، ولو نظرت عن يمينك لوجدت الله ناظرا إليك من تلك الجهة، ولو نظرت عن شمالك لوجدته هناك، ولو نظرت وراءك لوجدت الله وراءك، وهكذا. ولكان الله موجود أينما وليت وجهك:

- **وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (115)**

السؤال: لماذا الله كله وجه؟

رأينا: نحن نعتقد جازمين أنه من الاستحالة بمكان التعرف على الآخرين دون وجود الوجه، فأنت تتعرف فقط على من يكون مقابلا لوجهك ومن خلال وجهه، وربما لا تستطيع أن تتعرف على من كان عن يمينك أو من كان عن شمالك إذا لم يكن يقع في مجال وجهك، وأنت لن تتعرف على من كان خلفك أو وراءك لأنك لا تراه مادام أنه لا يقع في الجهة المقابلة لوجهك، لهذا لا تستطيع أن تستكشف كل ما حولك، فيحضرك شيء (وهو ما يقع مقابلا لوجهك) وتغيب عنك أشياء وهي التي لا تقع في الجهة المقابلة لوجهك.

السؤال: كيف ينطبق هذا التصور المفترى على الإله نفسه؟

جواب مفترى: لمّا كان الله كلّه وجه، فهو الوحيد الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء:

- **وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (61)**
- **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (3)**

فكل شيء مكشوف بالنسبة للإله مادام أنه كله وجه، لذا يكون كل شيء (بغض النظر عن موقعه) مكشوف تحت بصره ما دام أنه هو البصير، فتعالى الله عما يشركون، وهو الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير:

- **فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ (11)**

عودة على بدء على بدء

السؤال: ما علاقة هذا الطرح بقضية التنزيل التي تناولناها في معرض الحديث عن تنزيل الكنوز؟
رأينا: كنا نتحدث عن المكان الذي كانت الكتب التي أنزلت تتواجد فيه قبل أن تنزل، والتي زعمنا أنها لم تكن موجودة في السماء أصلا، محاولين من خلال هذا الطرح (على ركاكته) الوصول إلى ذلك المكان الأول الذي تواجدت فيه تلك الكتب، والتي منها أنزل الله الكتب بالحق:

- **اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (17)**

فتلقى محمد القرآن من لدن حكيم خبير:

- **وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (6)**

ومن هناك أنزل الله الكتاب الذي جاء به موسى:

- **وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (91)**

ليكون الافتراء الآن على النحو التالي: كان المكان الأول في الوجود هو لدُن الله، ففيه العلم ومن هناك نزل الكتاب، ومن هناك يأتي النور الأبدي الذي فيه هدى للناس.

(دعاء: اللهم فاطر السموات والأرض أنت من فطرتني وأنت من تهديني إلى نورك الذي أبيت إلا أن تتمه ولو كره الكافرون، فإني أدعوك أن تدلني على ذلك النور بكلماتك التي تحق بها الحق وتبطل بها الباطل ولو كره المجرمون – آمين)

إذا كان الكتاب – كما تزعم- لم ينزل من السماء لأن مكانه الأبدي هو من لدُن حكيم خبير، فمن أين أنزل الحديد؟ ربما يريد أن يسأل صاحبنا مستغربا.

رأينا المفترى: نحن نظن أن الحديد لم ينزل من السماء بدليل قوله تعالى:

- **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (25)**

ولو كان الحديد (نحن نفتري القول) قد أنزل من السماء، لجاءت الآية الكريمة على النحو التالي:

- **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ من السماء فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ**

كما جاء في الآيات الكريمة التالية التي تتحدث عن الإنزال من السماء بصريح اللفظ:

- **أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (19)**
- **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (22)**
- **فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (59)**

- إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164)
- يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا (153)
- إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ۖ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (112)
- قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ ۖ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (114)
- وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۗ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (99)
- وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (96)
- فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (162)
- إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (11)
- وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (32)
- إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (24)
- قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (31)
- أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (17)
- اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (32)
- وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14)
- وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (22)
- هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (10)
- وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (65)

- قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا (95)
- فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (40)
- وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (45)
- الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (53)
- حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (31)
- أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (63)
- وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (18)
- أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (43)
- وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (48)
- إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (4)
- فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (187)
- أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60)
- أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (64)
- إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (34)
- وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (63)
- وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (24)
- خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (10)
- يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (5)
- يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (2)
- أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (9)
- يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (3)

- أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (27)
- وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (28)
- أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (21)
- هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ (13)
- وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (11)
- وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5)
- وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (9)
- وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ (44)
- هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (4)
- أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (16)
- أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (17)

السؤال مرة أخرى: لماذا لم يأتي النص القرآني على نحو أن الحديد قد أنزل من السماء؟

رأينا: لأن الحديد لم ينزل من السماء؟

السؤال: من أين إذن أنزل الحديد؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الحديد لم ينزل من السماء نفسها، ولكنه أنزل من كينونات أخرى موجودة في السماء. فالمدقق في السياقات القرآنية التالية يجد أن السماء يمكن أن تحوي على أجسام أخرى كالبروج مثلا:

- وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (16)

أو السراج والقمر المنير:

- تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (61)

أو الكواكب والمصابيح:

- إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (6)
- فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (12)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن بأن في السماء كينونات يمكن أن ينزل منها أشياء إلى الأرض، ونحن نفتري الظن أن من يملك العلم بها يستطيع أن ينفذ إليها، ليحوز منها على ما يشاء من كنوز تلك الكينونات البعيدة نسبيا عنا:

- يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (33) فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (34) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ (35) فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (36)

فإذا كان من الممكن أن يرسل النحاس من خارج الأرض كما يمكن أن يرسل علينا شواظ من نار من خارجها، فلا ضير أن يكون الحديد قد جاء من مكان ما في السماء وليس بالضرورة من السماء نفسها.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا أن قارون كان يملك العلم الذي يمكّنه من الوصول إلى تلك الأماكن البعيدة في السماء ليحصل منها على ما يريد من تلك المعادن الثمينة التي جعلته صاحب كنوز عظيمة، تنوء مفاتحها بالعصبة أولي القوة:

- إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76)

السؤال: وهل كان قارون يستطيع الوصول إلى تلك الأماكن البعيدة في الفضاء الخارجي؟

جواب مفترى: إذا سلمنا بالافتراء الذي قدمناه سابقا بأن فرعون قد طلب من هامان أن يبني له صرحا لبلوغ أسباب السموات والأرض ليطلع فعلا إلى إله موسى:

- وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)
- وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37)

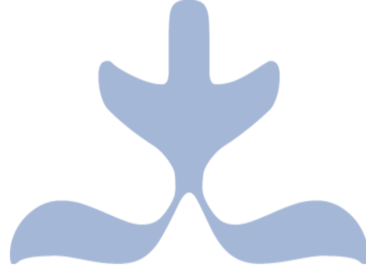
فإن مسألة الارتقاء في السماء لم تكن بعيدة المنال على هؤلاء الجبابرة في غابر الزمان؟

السؤال: وكيف فعل قارون ذلك؟

جواب: هذا ما سنتعرض له بحول الله وتوفيق منه في الجزء القادم من هذه المقالة عندما ننتقل للحديث عن علم فرعون الذي كان - في ظننا- أكثر خطورة وأعظم أثرا من علم قارون هذا.

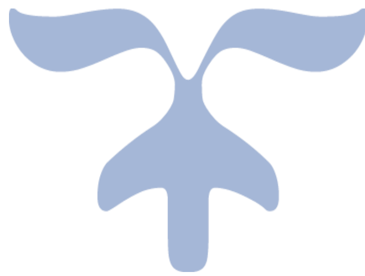
والله أعلم

(دعاء: فالله وحده أسأل أن ينفذ قوله بمشيئته وإرادته لي الإحاطة بشيء من علمه لا ينبغي لغيري إنه هو الواسع العليم، وأعوذ به وحده أن أفتري عليه الكذب أو أن أقول عليه ما ليس لي بحق، إنه هو العليم الحكيم – آمين)



قصة يونس

الجزء السادس عشر



قصة يونس: الجزء السادس عشر

انتهى الجزء السابق من هذه المقالة بالافتراء الذي مفاده أن في السماء كينونات يمكن أن ينزل منها أشياء إلى الأرض، وأن هناك علم حقيقي قد يمكّننا من الوصل إليها كما فعل ذو القرنيين عندما كان يتبع السبب بين السماء والأرض:

- **إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (84) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (85)**

فحصل هناك على زبر الحديد:

- **ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (92) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (93) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (94) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (95) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (96)**

ويمكن لنا أن نفتري القول بأنه هناك (دون السدين) أعان القوم (اللذين لا يكادون يفقهون قولا) ذا القرنين بأن آتوه زبر الحديد حتى استطاع أن يحدث ذلك الردم الذي حجز يأجوج ومأجوج عنهم.

للتفصيل حول مكان القوم ومكان ذلك الردم الذي أحدثه ذو القرنين انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان قصة يأجوج ومأجوج).

وقد أمرنا الله أن لا نتردد بالنفاذ من أقطار السموات والأرض مادام عندنا سلطان يمكّننا من القيام بذلك:

- **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (33) فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (34) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ (35) فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (36)**

وقد حاولنا تسويق افتراءنا بأن قارون كان رجلا ذا علم عظيم مكّنه من الحصول على تلك الكنوز الهائلة:

- **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76)**

ولو دققنا النظر في هذه الآية الكريمة لربما حُقّ لنا أن نطرح التساؤل التالي: لماذا آتى الله قارون كنوزا وليس فقط كنزا واحدا كبيرا؟

رأينا: مادام أن الله قد آتى قارون كنوزا (ربما كثيرة) وليس كنزا واحدا كبيرا، فإننا نفتري القول بأن تلك الكنوز كانت متنوعة المصادر. فلو كان ما آتاه الله لقارون كنزا واحدا كبيرا، لربما جاء ذلك من مصدر واحد كباطن الأرض مثلا كما جاء على لسان صاحب موسى:

- **وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (82)**

فما كان تحت الجدار فهو كنز واحد (وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ)، ولكن لما كان ما آتاه الله لقارون هي "كنوز"، فإن مصادرها كانت (نحن نظن) متعددة.

لكن لم جاءت تتمة الآية بصيغة المفرد في كلمة (مَفَاتِحَهُ)؟ يسأل صاحبنا د. عمر الشفيع من سويسرا في تعليقه على الجزء السابق من هذه المقالة.

وبكلمات أخرى نحن نسأل: إذا كان ما آتاه الله لقارون هي كنوز (ربما كثيرة) فلما كان لها جميعا مَفَاتِحَهُ؟

- **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76)**

أليست كلمة مَفَاتِحَهُ تعود على تلك الكنوز؟

رأينا: نحن نظن أن مصادر كنوز قارون كانت متعددة، لذا جاءت على صيغة الجمع، بدليل أنها بعض من كل (وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ)، ولكن لمّا تجمعت هذه الكنوز عند قارون في مكان واحد، فقد اختلط (نحن نتخيل) بعضها ببعض، لتشكّل في نهاية المطاف كتلة واحدة كبيرة جدا، فكان لها جميعا مَفَاتِحَهُ التي تنوء بالعصبة أولي القوة (مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ)، فالمفاتيح كثيرة لكنها كانت لكنز واحد كبير هو حصيلة الكنوز الكثيرة التي تجمعت في مكان واحد.

السؤال: وأين ذلك المكان الذي تجمعت فيه تلك الكنوز التي آتاها اللهُ قارونَ؟

رأينا: إنها داره التي خسفت به:

- **فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (81)**

السؤال: لماذا كان الخسف بقارون وبداره معا؟

رأينا: نحن نظن أن الخسف كان بقارون لأنه هو من جحد نعمة الله التي آتاه الله إياها، وأن الخسف أصاب أيضا داره لأنها هي التي كانت تحوي تلك الكنوز التي تجمعت فيها من مصادر متعددة.

وبناء على فهمنا للآيات الكريمة التي تتحدث عن الكنوز على مساحة النص القرآني، افترينا الظن بأن هناك طرق ثلاثة يمكن الحصول على الكنوز من خلالها، والطرق الثلاثة هي:

1. الاستخراج

- **وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (82)**

2. الإنزال

- **فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (12)**

3. الإلقاء

- **أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (8)**

فحاولنا في الأجزاء السابقة التعرض للطريقة الأولى (الاستخراج) والطريقة الثانية (الإنزال)، مفترين الظن من عند أنفسنا بأن قارون كان

(1) يحصل على الكنوز بطريقة الاستخراج من باطن الأرض كما فعل صاحب موسى الذي وجد الكنز الذي تحت الجدار وإن لم يكن الجدار قد انقض بعد:

- **وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (82)**

وكان ذلك بسبب بصره الذي يستطيع اختراق العوائق، لذا كان بصره – برأينا- حديدا.

(2) وربما كان يحصل على الكنوز بطريقة الإنزال وذلك بسبب العلم الذي يمكّنه من الوصل إلى مصادرها في السماء. ووعدنا القارئ الكريم أن نستكمل الحديث في الآلية التي كان قارون يستخدمها للوصول إلى مبتغاه ذاك.

ولكن قبل متابعة الحديث في هذا الاتجاه، نظن أن الضرورة تستدعي العودة قليلا إلى الوراء للخوض في الطريقة الثالثة للحصول على الكنوز وهي طريقة الإلقاء كما جاء في الآية الكريمة التالية:

- **أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (8)**

ليكون السؤال المحوري الآن هو: كيف يتم إلقاء الكنز؟ أو بكلمات أكثر دقة نحن نسأل: كيف يمكن الحصول على الكنز بطريقة الإلقاء؟

باب الإلقاء

بداية، نحن نظن أن حصول فعل الإلقاء يتطلب وجود ثلاثة أركان أساسية، ألا وهي:

1. وجود من يقوم بفعل الإلقاء (أي الملقِي – بكسر القاف)
2. وجود شيء ما يتم إلقاءه (أي الملقَى – بفتح القاف)
3. وجود من يقوم بتلقي فعل الإلقاء (أي الملقى إليه)

فلو تدبرنا الآية الكريمة التالية:

- **إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (12)**

لوجدنا أن من قام بفعل الإلقاء هو الله نفسه (سَأُلْقِي)، فكان الله هو الملقِي (بكسر القاف)، وأن ما تم إلقاءه هو الرعب (الرُّعْبَ)، فكان الرعب هو الملقَى (بفتح القاف)، وأن من قام بتلقي الفعل هي قلوب الذين كفروا (فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا)، فكانت قلوب الذين كفروا هي الملقى إليها.

ولو حاولنا تطبيق هذا المنطق على فعل إلقاء الكنوز، لربما صح لنا أن نتخيل الأمر على النحو التالي:

1. وجود كنوز متوافرة من ذي قبل
2. هناك من يملكها أو يحوز عليها، فيقوم بإلقائها إلى غيره
3. هناك من يستطيع أن يتلقى ما يلقى إليه من تلك الكنوز

ولو حاولنا تطبيق هذا المنطق في حالة قارون، لتخلينا الأمر على النحو التالي: كان هناك كنوز متوافرة في مكان ما، وكان هناك من يملكها أو يستطيع حيازتها فيقوم بإلقائها إلى غيره، وكان قارون نفسه هو من يتلقى ما يلقى من تلك الكنوز.

السؤال: كيف تم ذلك؟

جواب مفترى: من أجل محاولتنا الإجابة على مثل هذا التساؤل وجدنا الضرورة تستدعي أن نتدارس فعل الإلقاء على مساحة النص القرآني، لنحاول من خلال ذلك الخروج بافتراءات ربما تسهّل علينا تصوّر الكيفية التي يتم بها فعل الإلقاء من خلال الظروف المحيطة بكل حالة تم فيها هذا الفعل على أرض الواقع في سياقاته المختلفة.

ولنبدأ بالآيات الكريمة التالية التي تصور أن فعل الإلقاء يمكن أن يقوم به الله نفسه، فجاء الفعل بصيغة المفرد:

- **إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (12)**
- **وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (15)**
- **رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (15)**
- **خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (10)**

ويمكن أن يقوم بالفعل من هم من جند الله بأمر من ربهم، فجاء الفعل بصيغة الجمع:

- **وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (64)**
- **وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (19)**
- **وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (7)**

ويمكن للناس أنفسهم أن يقوموا بفعل الإلقاء، فها هو زكريا ومن معه يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم:

- **ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (44)**

وها هم المشركون يلقون السلم كما يلقون القول:

- **إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (90)**
- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (94)**
- **الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ ۚ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (28)**
- **وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (87)**
- **وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (86)**

وها هي أم موسى تلقي برضيعها في اليم بوحي من الله:

- وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7)

وهذا هو اليم يلقى بموسى بالساحل بعد أن قذفته أمه فيه:

- أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (39)

والله هو من ألقى على موسى في ذلك التابوت محبة منه:

- أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (39)

والله هو من طلب من موسى أن يلقي عصاه بالواد المقدس ليرى بأم عينه ما ستصير إليه:

- وَأَلْقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10)
- وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْۖ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (31)
- قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (20)
- وها هو موسى يلقي عصاه كما ألقى السحرة أيضا عصيهم وحبالهم من قبله:
- فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (107)
- قَالَ أَلْقُواۖ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (116)
- وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (117)
- فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (80)
- فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُۖ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (81)
- قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (65)
- قَالَ بَلْ أَلْقُواۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (66)
- وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُواۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (69)
- فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ (70)
- قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87)
- فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (32)
- قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (43)
- فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (44)
- فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (45)

وما أن يرى السحرة ما فعلت عصا موسى بحبالهم وعصيهم حتى ألقوا ساجدين بأنفسهم:

- وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (120)

- فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (46)

وها هو موسى نفسه يأتي قادما من بعيد يحمل الألواح (بعد ميقاته مع ربه)، وما أن يصل حتى يلقيها ليأخذ برأس أخيه يجره إليه:

- وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (150)

وها هم إخوة يوسف يلقون بأخيهم في غيابت الجب:

- قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (10)

وهم أنفسهم يذهبوا (بأمر من يوسف) بالقميص ليلقوه على وجه أبيهم حتى يرتد بصيرا كما فعل البشير منهم:

- اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (93)
- فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (96)

والشيطان نفسه يمكن أن يلقي:

- وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (52)
- لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (53)

وهم من كانوا يلقون السمع:

- يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (223)

وذلك لأن السمع يمكن أن يلقى:

- إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (37)

وها هو الهدهد يلقي بكتاب سليمان إلى تلك المرأة:

- اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (28)
- قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (29)

وها هم قوم إبراهيم يلقونه في نارهم التي أوقدوها ليحرقوه فيها:

- قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (97)

وبفعل الإلقاء يتم إدخال الكافرين في النار على يد ملائكة العذاب اللذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون:

- أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (24)
- الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (26)
- إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (7)
- تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ۖ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (8)

- إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَاۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِۚ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْۖ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (40)
- وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (13)

إن ما يهمنا طرحه الآن هو القول بأن الآيات الكريمة الخاصة بفعل الإلقاء تبين لنا (كما نفهمها) أن مصدر عملية الإلقاء ليست باطن الأرض (كما في فعل استخراج الكنوز) وليست السماء (كما في فعل إنزال الكنوز) ولكن مصدرها بين السماء والأرض (كما في عملية إلقاء الهدهد كتاب سليمان إلى تلك المرأة):

- اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (28)
- قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (29)

وهذا المشهد يتكرر في فعل إلقاء الشيطان في أمنية النبي:

- وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (52)
- لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (53)

فالشياطين تتدخل فيما ينزل إلى الرسول أو النبي من ربهم من الآيات، وما أن تكون تلك الآيات في طريقها إلى الرسول المتواجد على الأرض حتى تتدخل الشياطين، فتقوم بفعل الإلقاء.

لتكون النتيجة التي نحاول جاهدين الوصول إليها هو أن مصدر الإلقاء هو المكان بين السماء والأرض.

فالكنوز التي تلقى هي كنوز متواجدة في هذا المكان بين السماء والأرض، وهي تحتاج إلى من يملك العلم لكي يحصل عليها، فتلقى إليه إلقاء.

نتائج مفتراة من عند أنفسنا خاصة بمصادر كنوز قارون

- ⇐ ربما حصل قارون على الكنوز بطريقة الاستخراج من الأرض كما فعل صاحب موسى
- ⇐ ربما حصل قارون على الكنوز بطريقة الإنزال من السماء
- ⇐ ربما حصل قارون على الكنوز بطريقة الإلقاء ما بين السماء والأرض

السؤال: كيف استطاع قارون فعل ذلك؟

رأينا: نحن نظن أن قارون كان يملك العلم الذي يمكنه من القيام بذلك، بدليل ما قاله الرجل بنفسه:

- قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78)

تساؤلات

- ⇐ من أين حصل قارون على هذا العلم؟
- ⇐ وكيف هي طبيعة هذا العلم؟
- ⇐ وهل لازال هذا العلم موجودا إلى الآن؟
- ⇐ وكيف يمكن تطبيق ذلك على أرض الواقع؟
- ⇐ الخ.

رأينا المفترى: للإجابة على هذه التساؤلات، فإن الضرورة تستدعي البحث في مصدر العلم الذي كان متوافرا حينئذ في أرض مصر. فمسرح الأحداث هي أرض مصر الخالدة بآثارها التي لازالت قائمة حتى يومنا هذا

لتشهد على التفوق الحضاري لتلك الأقوام في غابر الزمان، والوقت هو نفسه الذي تواجد فيه موسى وهارون وقارون وفرعون وهامان. وهو الزمن نفسه الذي تواجد فيه صاحب موسى الذي ذهب موسى يطلب العلم على يديه، ولا ننسى كذلك أنه هو الزمن نفسه الذي يتحدث عنه القرآن بالتفصيل الذي ربما عزّ نظيره في الأزمنة الأخرى. فـ لربما يدرك كل قارئ لكلام الله أن القرآن لا يتطرق بالتفصيل لقصص الأمم السابقة كقصة نوح أو إبراهيم أو عيسى أو حتى محمد نفسه كما تحدث عن قصة موسى التي عاصرها هارون وقارون وفرعون وهامان. ويمكن افتراء القول (دون تردد) بأن شخصية فرعون نفسه طاغية في النص القرآني أكثر من شخصية الأنبياء أنفسهم، وأن قصة فرعون وملئه مفصلة في كتاب الله أكثر من تفصيل قصة كثير من الرسل والأنبياء. فلا يخلو جزء من أجزاء القرآن الثلاثين من بعض أحداث قصة موسى مع فرعون وملئه، ليكون التساؤل الذي لا مفر منه هو: لماذا؟ أي لماذا جاء التفصيل في كتاب الله لقصة موسى مع فرعون بهذا الظهور الذي لا يكاد يجاريه ظهور لقصة أخرى في كتاب الله؟

جواب مفترى من عند أنفسنا (1): نحن نكاد نجزم الظن بأن علم الأولين والآخرين تجمع في تلك الفترة الزمنية التي عاصرها موسى وهارون وفرعون وقارون وهامان، فكانت تلك (في ظننا) هي ذروة الحضارة التي لا يمكن – برأينا- أن تدانيها حضارة أخرى.

جواب مفترى من عند أنفسنا (2): ونحن نكاد نجزم الظن أيضا بأن شخصيات فرعون وقارون وهامان (مضافة إلى شخصيات هارون وموسى وصاحبه) كانت تمتلك من العلم ما تفوقت به على السابقين واللاحقين.

وربما يفسر مثل ظننا هذا الاهتمام الإلهي (ربما الذي لا نظير له) بتلك الفترة الزمنية على وجه التحديد وبالأشخاص الذين وجهوا أحداثها حينئذ كموسى وصاحبه مع أخيه هارون، وكذلك فرعون وقارون وهامان.

والأحداث الفريدة التالية تميز تلك الفترة الزمنية على وجه التحديد:

⇐ فالله هو من كلّم موسى تكليما في الواد المقدس في ذلك الزمن:

- **وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (164)**
- **قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (144)**

⇐ والله هو من آتى صاحب موسى حكما وعلما في ذلك الزمن حتى اضطر موسى (وهو كليم الله) أن يذهب بنفسه لتلقى العلم عنده:

- **فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (65) قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66)**

⇐ والله هو من أرسل إلى هارون ليكون رسولا آخر مع موسى:

- **وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (13) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (14) قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (15)**

فكانت تلك (في ظننا) هي القرية التي أرسل الله إليها رسولين وعززهما بثالث:

- **وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ (13) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (14)**

فكان نبي الله ذو الكفل (كما افترينا القول سابقا) هو ذلك الرسول الذي آثر أن لا يظهر بشخصه إلا معززا لرسالة موسى وهارون

(للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان قصة موسى)

⇐ والله هو من آتى قارون من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة في ذلك الزمن:

- **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76)**

⇐ والله هو من طلب من رسولاه (موسى وهارون) أن يذهب إلى فرعون ليقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى بالرغم من كل ما فعل الرجل من الطغيان والاستعلاء والتكبر في الأرض بغير الحق:

- **اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (42) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44)**

⇐ الخ.

لكن ماذا كانت النتائج بعد كل تلك الأحداث العظيمة؟

⇐ أقر ثلاثة منهم بالفضل الإلهي عليهم، وهم موسى وهارون وصاحب موسى الذي جاء موسى ليتعلم منه

⇐ جحد ثلاثة منهم بالفضل الإلهي وكفروا نعمة ربهم التي أنعمها عليهم وهو فرعون وقارون وهامان

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى: إنه العلم

تلخيص ما سبق

قبل الخوض قدما في هذا النقاش، نجد أن الضرورة تستدعي تأكيد الفكرة المحورية التالية التي تخص سبب الاهتمام الإلهي (الذي قد يبدو للوهلة الأولى أنه مبالغ فيه) بفرعون وملئه وقومه في النص القرآني حيث يكثر الحديث عن قصة فرعون مع موسى على مساحة النص القرآني. فنحن نعتقد بأن هذا الاهتمام الإلهي مبرر إذا ما فهمنا أن في قصص هؤلاء القوم عبر كثيرة جدا لأولي الألباب:

- **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (111)**

فالقرآن الكريم – في عقيدتنا التي نؤمن بها- ليس بكتاب يسرد أحداثا تاريخية لأمم انقضى أمرها منذ الآلاف السنين وكفى، ولكن في هذا القصص القرآني عبرة يمكن أن نستفيد منها نحن من طلب الله منا أن نتدبرها (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ). ولا يقل أهمية عن ذلك – برأينا- أن في قصصهم تلك تفصيل لكل شيء (وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ)، كما أن فيها هدى ورحمة لقوم يؤمنون (وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ).

(دعاء: اللهم أسأل وحدك أن أكون من أولي الألباب فتعلمني العبرة من قصصهم وأن تعلمني كيف فصلت في ذلك كل شي وأن تجلني من القوم المؤمنين اللذين يجدون في ذلك هدى ورحمة – آمين)

فعندما تحدث الله – مثلا- عن الناقة التي أرسلها إلى ثمود، كانت تلك آية واحدة من آيات الله:

- **وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (73)**
- **وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (64)**

فجاء ذكر تلك الآية في كتاب الله بالحجم الذي يناسبها دون زيادة تشوبها أو نقص يعيبها. فكل شيء في كتاب الله بقدر. ولو حاولنا تطبيق هذا المبدأ على قصة موسى مع فرعون لوجدنا أن الله قد أرسل موسى وأخاه هارون بالآيات الكثيرة:

- **وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (12) فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (13)**
- **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (18) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (20) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (21) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (22) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (23) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (24)**

لتكون النتيجة التي لا مفر منها هي أن الله قد أرسل موسى وأخاه هارون بآيات كثيرة إلى فرعون وقومه، أليس كذلك؟

السؤال: لماذا أرسل الله موسى بآيات كثيرة إلى فرعون وقومه؟ ألم تكن تكفي آية واحدة كآية الناقة مثل التي أرسلها الله إلى ثمود مثلا؟

رأينا: كلا وألف كلا، لم تكن آية واحدة لتكفي في حالة موسى وأخيه هارون مع فرعون وقومه.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: لأن الخصم عنيد ولديه من الآيات ما يمكن أن يتفوق به على موسى وهارون لو أنهما جاءا القوم بآية واحدة فقط. فمقارعة فرعون وقارون وهامان تتطلب توافر الآيات الكثيرة التي يستطيع من يملكها أن يتغلب عليهم جميعا. فالتغلب على فرعون وقارون وهامان – نحن نتخيل- ليس بالأمر السهل الذي يمكن أن تنجزه آية واحدة.

السؤال: ما هي تلك الآيات التي جاء بها موسى؟

جواب مفترى: إنها آيتان فقط: العصا واليد

السؤال: هل هذه فقط ما كان من الآيات التي أجراها الله على يد موسى؟

رأينا: كلا، هناك أيضا تسع آيات مفصلات

السؤال: ألا ترى أنك تناقض نفسك؟ يقول صاحبنا. كيف تقول أن ما كان يملكه موسى هما آيتان فقط وتقول في الوقت ذاته أن هناك تسع آيات أجراها الله على يد موسى؟

رأينا المفترى: نحن نفتري القول بأنه لو تدبرنا الآيات التسعة التي أجراها الله على يد موسى كما وردت في الآية الكريمة التالية:

- **وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (12) فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (13)**

لربما صح لنا أن نستنبط أنها آيات فرعية ناتجة عن إدخال يد موسى في جيبه (وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ). لتكون الصورة (كما نفهمها) على النحو التالي:

موسى											
العصا			اليد								
تلقف حبال وعصي السحرة	ضرب البحر فكان كل فرق كالطود العظيم	ضرب الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا	تسع آيات								
			آية 1	آية 2	آية 3	آية 4	آية 5	آية 6	آية 7	آية 8	آية 9

(للتفصيل حول كيفية إحداث الآيات التسعة بواسطة يد موسى، انظر مقالتنا تحت عنوان قصة موسى)

نتيجة مفتراة مهمة جدا: لمّا كان هذا القرآن هو تفصيل لآيات الله، كان لزاما تفصيل الآيات التي جاء بها موسى إلى فرعون وقومه.

نتيجة مفتراة مهمة جدا: لما كانت الآيات التي جاء بها موسى فرعون وقومه عديدة، جاء تفصيلها في كتاب الله ليطغي في الحجم على كل قصص الأمم السابقة التي لم يتوافر عندهم ذاك الكم الكبير من الآيات. فتفصيل آية الناقة لا يعادل في الحجم تفصيل هذه الآيات التي جاء بها موسى فرعونَ وقومه. فلا شك أن تفصيل آيات الله إلى فرعون وقومه ستأخذ حيزا كبيرا في كتاب الله.

السؤال المحوري: لمن جاءت هذه الآيات؟

جواب مفترى خطير جدا: لمّا كان موسى قد جاء بآيتين رئيسيتين فقط وهما العصا واليد، وجب أن نطرح التساؤل التالي: لماذا كانتا آيتين اثنتين؟ لماذا جاء موسى بآيتين من ربه؟ وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في النص القرآني التالي مرة أخرى:

- **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا
مَآرِبُ أُخْرَى (18) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (20) قَالَ خُذْهَا وَلَا
تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (21) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً
أُخْرَى (22) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (23) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (24)**

فالنص يتحدث عن آيتين وهما العصا التي عادت حية تسعى بعد أن ألقاها موسى في النار المقدسة بالحضور الإلهي واليد التي خرجت بيضاء من غير سوء كآية أخرى.

السؤال مرة أخرى: لماذا كانتا آيتين؟

رأينا: نحن نظن أنهما آيتان لأنهما موجهتان إلى طرفين اثنين.

السؤال: لمن كانت كل آية موجهة؟ أي لمن كانت العصا (كآية) موجهة؟ ولمن كانت اليد البيضاء (كآية) موجهة؟

جواب مفترى من عند أنفسنا (1): نحن نعتقد أن آية العصا كانت موجهة لمقارعة فرعون بشخصه:

- اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (17) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى (18) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (19) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20)

نتيجة مفتراة: كانت الآية الكبرى (العصا) موجهة إلى شخص فرعون، فهي الآية الوحيدة القادرة على مواجهة هذا الطاغية الكبير

جواب مفترى من عند أنفسنا (2): نحن نعتقد أن آية اليد (التي نتج عنها تسع آيات فرعية) كانت موجهة لفرعون وملئه وقومه:

- وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (12) فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (13)
- ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (75)

السؤال: لماذا؟

رأينا: نحن نظن أن الآيات التي جاءت ملأ فرعون وقومه كانت كفيلة بمقارعتهم والتغلب عليهم، لكنها لم تكن كفيلة بالتغلب على فرعون نفسه، لذا توجب أن توجد آية (هي الكبرى) لمقارعة هذا العملاق الذي كاد خطره أن يتجاوز حدود الأرض، عندما طلب من هامان أن يبني له صرحا ليبلغ به الأسباب فيطلع إلى إله موسى:

- وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37)
- وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39)

نتيجة مهمة جدا مفتراة من عند أنفسنا: كان فرعون رجلا صاحب علم عظيم، فكان لابد لمن أراد مقارعته من امتلاك آية الله الكبرى ليستطيع مجاراة هذا العملاق الذي كاد خطره أن يتجاوز حدود الأرض.

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا: لما حاولنا أن نتدبر ما قاله الله لموسى في حديثه الأول الخاص بفرعون وجدنا فيه ما يذهب بالعقول (إن وجدت) في غياهب طويلة يصعب على من جعل فيها أن يعود مرة أخرى إلى الوراء. لذا وجب علينا التوقف هنا لتحذير القارئ الكريم بأن لا يتجاوز هذه السطور إن هو أراد أن يسلم بما تبقى له من "تعقل" إن هو أراد أن يلحق بتخريصاتنا هذه منذ البداية. فالحذر الحذر، لأن النتيجة ربما تكون كارثية، لا يتحمل كاتب هذه السطور أن يلقيها أحد على كتفيه مادام أن القارئ الكريم هو من اختار بنفسه اللحاق بنا في هذا الخيال الذي ربما يتبين لاحقا أنه مزيف. فالكاتب هو من يتحمل التبعات المترتبة عليه شخصيا لأنه يظن أن الخوض في هذه الأمور أصبح لا مفر منه مهما كانت النتائج و(ربما) العواقب. وسلاحنا الوحيد الذي لا يمكن أن نتخلى عنه هو دعاؤنا الله وحده أن يهدينا رشدنا، وأن يعلمنا الحق الذي نقوله فلا نفتري عليه الكذب ولا نقول عليه إلا الحق، إنه هو العليم الحكيم، سائلينه وحده أن يعلمنا ما لم نكن نعلم وأن يهدينا لأقرب من هذا رشدنا وأن

يزدنا علما، ونعوذ به وحده أن يكون أمرنا كأمر فرعون مادام أن هدفنا هو أن يجعل الله كلمةَ الذين كفروا السفلى وكلمتُه هي العليا. فالله وحده ندعوه أن يتقبلنا في أنصاره، إنه هو السميع المجيب – آمين.

أما بعد

لنبدأ النقاش بالآيات الكريمة التالية:

- **اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44)**

التساؤلات

⇐ لماذا طلب الله من موسى وهارون أن يقولا لفرعون قولا لينا؟

⇐ لماذا كان الطلب من أجل أن يتذكر فرعون أو أن يخشى؟

⇐ وما الذي كان من الممكن أن يتذكره فرعون؟

⇐ وكيف كان من الممكن أن يخشى فرعون؟

⇐ الخ.

باب الخشية

لعل أكثر ما وضعنا في حيرة من أمرنا هنا هو كيفية أن يخشى فرعون. فما هي خشية فرعون؟ وكيف كان من الممكن أن يحدث ذلك؟ وهل فعلا خشي فرعون في نهاية الأمر؟

جواب خطير جدا جدا لا تصدقوه: نحن نظن أن الإجابة على هذه التساؤلات ربما نستطيع أن نستنبطها من قوله تعالى في الآية الكريمة التالية:

- **وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (28)**

السؤال: كيف يخشى الله من عباده العلماء؟

رأينا المفترى: غالبا ما تحايل أهل العلم على هذا النص القرآني للخروج من "المأزق" الذي ظنوا أنهم ربما يقعون فيه لو أنهم قرءوا النص على ظاهر اللفظ منه. فلسان حالهم يقول باستحالة أن تقع الخشية من الله نفسه، لذا فالعلماء هم من يخشون الله، أليس كذلك؟

تساؤلات

لو كان الأمر على هذه الشاكلة (كما ظن سادتنا أهل الدراية)، فلِم لَم يأت النص على نحو صيغة المبني للمعلوم:

⇐ إنما يَخشى العلماءُ من الله

⇐ إنما يخشى اللهَ عبادُه العلماء

⇐ أو على صيغة المبني للمجهول (كما يحب أهل اللغة ومقعدوها أن يصفوها):

⇐ إنما يُخشى اللهُ من عباده العلماء

⇐ الخ.

السؤال: ما المخرج من هذا "المأزق"، إذن؟

رأينا المفترى الخطير جدا جدا: نحن نظن أن الخشية هي من الله نفسه. انتهى

نعم الله هو من يخشى، وهو يخشى من عباده العلماء. وكفى. ولا نظن أن هناك حاجة للالتفاف على منطوق صريح اللفظ القرآني.

السؤال: كيف يمكن لله نفسه أن يخشى من عباده العلماء؟ ولم يحتاج الله أن يخشى من عباده العلماء أصلا؟ ألا ترى أنك قد تجاوزت كل الحدود؟ يرد صاحبنا قائلا.

رأينا المفترى: ربما نكون قد تجاوزنا الحدود، ولكن لا ننسى أنها حدود وضعها سادتنا العلماء (اللذين قلما نثق بقدراتهم العقلية وإن كنا لا نشكك بوازعهم الإيماني). لذا نحن نرى أنه من العدالة أن يعطى كل شخص فسحة الزمان والمكان أن يخرص بما في ذهنه كما فعل السابقون لأننا لا نظن أن علم من سبقنا هو أحسن حال من تخريصاتنا الجديدة.

السؤال: هات ما عندك؟ ربما يتفضل علينا أهل الحلم قائلين

رأينا المفترى: نحن نرى أن من أبسط مجالات التفكر والتدبر في كتاب الله هو التعرض أولا لمعنى المفردة قيد البحث نفسها. فمن المعيب – نحن نظن- الخروج بافتراءات عن مفردات نحن لا نفقهها (وإن كنا نظن أننا قد أحطنا بها علما). إذن لنبدأ بطرح التساؤل التالي على الفور: ما معنى الخشية؟

جواب مفترى: لابد بداية من التأكيد أن الخشية لا تحمل في ثناياها الخوف. فالخشية شيء والخوف شيء آخر مختلف تماما بدليل ورودهما معا في الآيات الكريمة التالية مثلا:

- **وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ(21))**
- **وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ (77)**

فالله تعالى يوحي إلى موسى أن يسري بمن كان معه من المؤمنين لا يخاف دركا ولا يخشى.

السؤال: ما الفرق بين أن يخاف موسى أو أن يخشى؟

جواب مفترى: تعرضنا لهذه الجزئية في واحدة من مقالاتنا السابقة، وربما لا نجد ضيرا أن نعيد بعض الأفكار الرئيسة التي وردت هناك لعلاقتها المباشرة بفحوى الموضوع هنا.

أما بعد،

فقد زعمنا الظن بأن الخشية هي شعور ينبع من الداخل، ينتج عنه "قلق داخلي" لما قد تؤول إليه الأمور لاحقا. فلو قرأنا السياق القرآني التالي لوجدنا أن الوضع الراهن ليس هو ما سبَّبَ "الخشية" وإنما ما يظن صاحب الخشية أن الأمور ستؤول إليها في المستقبل:

- **وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءاً كَبِيراً (31)**
- **قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإنسَانُ قَتُوراً (100)**
- **وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ (21)**
- **قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (24)**

فتجارتهم – على سبيل المثال- ربما لا تكون كاسدة في الوقت الراهن، ولكن الخشية مرتبطة بما قد تؤول إليه الأمور في المستقبل حسب اعتقادهم الحالي (وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا).

نتيجة مفتراة (1) نحن نظن أن الخشية هي اعتقاد راهن لما ستكون عليه الأمور لاحقا

ولا شك عندنا أن الخشية تتفاوت من شخص إلى آخر بدليل قوله تعالى:

- إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى (21)

فالناس ليسوا متساويين في فعل الخشية، فالآية الكريمة تبيّن لنا أن هناك من يخشون وهناك من لا يخشون. وهذا المعنى واضح في الآيات الكريمة الكثيرة التي تبيّن أن فعل الخشية نابع من داخل الإنسان، لذا فهو متفاوت من شخص إلى آخر:

- **وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ. الرعد (21)**
- **الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُون. الأنبياء (49)**
- **الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبا. الأحزاب (39)**

ولعل هذه – برأينا- واحدة من الفروقات الرئيسية التي تميّز الخشية من جهة عن الخوف من جهة أخرى؛ فلو تعرضنا للسياقات القرآنية التي تتحدث عن فعل الخوف لوجدنا أن فعل الخوف يحدث بتأثير مصدر خارجي. فالله – مثلا- هو من يحدث الخوف في عباده بدليل قوله تعالى

- **لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ. الزمر16**

ولكننا لا نجد أن الله يحدث الخشية في قلوب عباده، بل على العكس فهو من يطلب منهم أن يخشوه:

- **وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (150)**
- **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (3)**
- **إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (44)**
- **أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤُمِنِينَ (13)**

السؤال المثير جدا: لماذا يحدث الله الخوف في الناس ولكنه لا يحدث فيهم الخشية؟

جواب خطير جدا جدا: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا أن الله يستطيع أن يحدث في الناس الخوف لكنه لا يستطيع أن يحدث فيهم الخشية.

السؤال: لماذا؟

رأينا: لو كان الله يستطيع أن يحدث في الناس الخشية، فأحدثها في بعضهم ولم يحدثها في آخرين، لانتفى بذلك العدل الإلهي المطلق، ولأصبح الأمر تبعا لهوى الإله.

السؤال: لكن لماذا يحدث الله الخوف في الناس؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الله يستطيع أن يحدث الخوف في الناس من أجل أن يكون ذلك سببا كافيا لهم لأن يحدثوا الخشية من الله من تلقاء أنفسهم. فهو الذي يحدث البرق ليخوّفنا:

- هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (12)

وهو الذي يخوفنا بالنار:

- لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (16)

فالخوف الذي يحدثه الإله فينا هو – نحن نظن- ناتج عن تأثير خارجي، هدفه إحداث تأثير إيجابي، ألا وهي التقوى (ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ).

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: الخوف ناتج عن عامل خارجي قد يصيب الإنسان.

ولكن الخوف الذي يحدثه الشيطان فهو – نحن نظن- ناتج عن تأثير خارجي هدفه إحداث تأثير سلبي فينا:

- إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (175)

والخوف لا يحصل فقط من الله أو من الشيطان فقط، فقد يخاف الإنسان من الآخرين من حوله، كما كان يفعل فرعون وملأه بمن آمن مع موسى:

- فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (83)

وموسى نفسه كان يخافهم:

- وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (13)
- قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ

وقد خاف موسى من العصا التي تهتز كأنها جآن:

- وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10)

السؤال: ما هي العوامل التي يمكن أن تسبب الخوف عند الإنسان؟

جواب: تشير الآية الكريمة التالية أن الإنسان يخاف عذاب ربه:

- أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً (57)

أو كما في الآية التالية حيث يأتي الخوف من الظلم:

- وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً (112)

وفي الآية التالية نجد أن البرق هو الوسيلة التي تسبب الخوف للناس:

- هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (12)

أو كما في الآية الكريمة التالية يحث يخاف موسى علية السلام من العصا التي رآها تهتز كأنها جان:

- وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10)

وتشير الآية الكريمة التالية أن خوف موسى جاء من فرعون وملئه:

- وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (13)
- قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (33)
- فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (83)

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن الخوف هو شعور نابع من الإنسان نفسه لكنه ناتج عن أسباب وعوامل خارجية.

ولو تدبرنا الآية الكريمة التالية لوجدنا أن الآمن هو ما يقابل الخوف:

- الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ. قريش 4

فكما أن الإطعام يكون من الجوع (أي لتجنب حدوث الجوع) فإن الأمن يكون من الخوف (أي لتجنب حدوث الخوف). فكما أن الجوع هو الشعور بالحاجة إلى الطعام، ولا يمكن أن يشعر الإنسان بالشبع والجوع في آن واحد، فحصول أحدهم يعني غياب الآخر، فالجوع لا يزول إلا بالإطعام. فإن الخوف هو عدم وجود الأمن، والخوف لا يزول إلا بالأمن.

السؤال: لماذا لا يحدث الله الخشية في الناس؟

رأينا: لما كان الله هو من طلب من الناس أن يخشوه، وأنه يترتب على ذلك جزاء من الله:

- إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (12)

نأى الإله بنفسه أن يتدخل في ذلك، ولو تدخل الله في إحداث الخشية في قلوب العالمين لكان أولى الناس بذلك هو محمد نفسه الذي قدّم خشية الناس مرة في حياته على خشيته ربه:

- وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (37)

(للتفصيل انظر سلسلة مقالتنا تحت عنوان حديث الإفك)

إن ما نود إثارته هنا هو أن الخشية هي شعور داخلي يستطيع صاحبه أن يحدثه أو أن لا يحدثه بقرار من نفسه، على عكس الخوف الذي ربما لا يمكن تجنبه. فموسى هو من خاف عندما رأى العصا تهتز كأنها جان حتى بوجود الإله نفسه:

- وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10)

لكن محمد كان يستطيع أن لا يخشى الناس، لذا عندما خشي الناس جاءه الردع الإلهي المباشر:

- وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ

السؤال: لماذا خشي محمد الناس؟

رأينا: نحن نظن أن ذلك بسب ما كان محمد يخفيه في نفسه (وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ)، فالتأثير ليس خارجيا وإنما داخلي.

السؤال: لماذا؟

رأينا: نحن نظن أن خشية محمد كانت شعوري آني (أي في ذلك الوقت فقط) لما قد تؤول إليه الأمور لاحقا كما كان يظن في تلك اللحظة.

نتيجة مفتراة: كان محمد يخفي في نفسه شيئا، فسبب له ذلك شعور بالخشية لأنه ظن أن الأمور قد تؤول لاحقا إلى ما لا يريده ويرضاه.

الدليل

دقق – عزيزي القارئ- في الآيات الكريمة التالية:

- **وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءاً كَبِيراً الإسراء 31**
- **قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإنسَانُ قَتُوراً" الإسراء 100**

لو دققنا مليّا في الآية الأولى التي تتحدث عن قتل الناس أولادهم، لوجدنا أن الله ينهى الناس عن قتل الأولاد لمجرد خشيتهم الإملاق، وهنا نسرع لنسأل: هل الإملاق واقع على الناس في تلك اللحظة أم أن الناس يتوقعون حدوثه إن بقي الأولاد على قيد الحياة؟ من يدري؟!

ولو تدبرنا الآية الكريمة التالية لتعزز لدينا هذا المعنى للمفردة، قال تعالى:

- **وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ ۚ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ۚ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ ۚ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (25)**

فنحن نظن أن الخشية من العنت هي الاحتراز والاحتياط من أن يقع الإنسان في أمر منهي عنه كالزنا مثلاً، لذا فهذا مدعاة للزواج من أجل أن يعفّ نفسه خشية الوقوع بالزنا. إن ما يهمنا أن نؤكده هنا هو أن الأمر مبني على التوقع لأنه كله جاء في باب الخشية، فالذين يخشون العنت لم يقعوا بالزنا (وليس بالضرورة أن يقعوا به في المستقبل لأن الأمر مبني على توقع حدوث أمر سيء أو منهي عنه). وربما يصدق ظننا هذا ما جاء في قوله تعالى:

- **قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94)**

فنحن نظن أن فعل هارون جاء من باب الاحتياط والحذر من أن يوقع الفرقة بين بني إسرائيل إن هو ترك القوم ولحق بأخيه موسى بعد ضلالة السامري لهم.

وهذا يشابه ما جاء في قول صاحب موسى مبررا لقتله الغلام:

- **وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80)**

(للتفصيل حول هذه القضية انظر مقالتنا تحت عنوان "قصة موسى")

رأينا: نحن نتجرأ على الافتراء بأن الخشية (كما نفهمها من الآية السابقة) هي الاحتراس والحذر من تنبؤ وقوع أمر سيء في المستقبل. فالأمر الذي يخشون حصوله ليس واقع بهم الساعة (كما لا نستطيع أن نجزم بوقوعه في المستقبل لأن ذلك من باب الغيب) ولكنهم يتحيّطون ويحترسون من وقوعه.

عودة على بدء

- **وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (28)**

السؤال: ما علاقة هذا كله بخشية الله من عباده العلماء؟

رأينا المفترى والخطير جدا جدا: نحن نظن أن الخشية الإلهية هي شعور الإله نفسه "بالاحتراس والحذر" من عباده العلماء. فالإله – يحتاط لما يستطيع عباده العلماء أن يفعلوه، والذي من الممكن أن لا يكون شيئا يرضاه الإله ويرغب فيه.

السؤال: وكيف ذلك؟

افتراء خطير جدا (1): نحن نظن أن عباد الله العلماء يستطيعون عمل أشياء كثيرة ربما تفوق قدرتنا الحالية على التخيل.

افتراء خطير جدا (2): نحن نظن أن ما يستطيع عباد الله العلماء أن يفعلوه قد يقع بعضها في باب الأعمال التي يرضى الإله وقوعها

افتراء خطير جدا (3): والحالة هذه، يبقى الإله في حالة خشية دائمة من عباده العلماء حتى لا يحدثوا أمورا تخرج عن النطاق المسموح به، فيبقى على الإله على الدوام دائم "الاحتراس والحذر" (بالخشية) أن لا يفعل عباده العلماء ما قد لا يحمد عقباه في نهاية المطاف. فيكون الله لهم دائما بالمرصاد، قال تعالى:

- **وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (4) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (5) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (9) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (13) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14)**

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: إن هذا الطرح يعيدنا على الفور للحديث عن علم فرعون، لنفتري من عند أنفسنا ما يلي: كان فرعون من "عباد الله العلماء"، وكان على درجة من العلم أن جعلت الإله نفسه يخشاه. وبكلمات أكثر دقة نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن فرعون على درجة عالية جدا من العلم تطلبت أن يتدخل الإله بنفسه ليكون له بالمرصاد (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)، فأرسل رسولاه إلى هذا الطاغية بالآيات (وعززهما بثالث) حتى يكف خطره الذي لم يكن بالإمكان أن يكف إلا بتدخل الإله بنفسه.

باب علم فرعون

- **قال تعالى: وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10)**

تساؤلات

⇐ لماذا كان فرعون "ذِي الْأَوْتَادِ"؟
⇐ ومن هو هذا الفرعون "ذِي الْأَوْتَادِ"؟
⇐ وما هي تلك الأوتاد؟
⇐ وأين هي تلك الأوتاد؟
⇐ الخ

رأينا المفترى والخطير جدا جدا: لما كان هناك فرعون هو"ذِي الْأَوْتَادِ" (وليعذرنا أهل الإعراب للتصرف بحركاتهم الإعرابية المقدسة)، فإننا نفتري الظن من عند أنفسنا أنه كان شخصا محددا بعينه، فكما كان صاحب الحوت هو بعينه "ذَا النُّونِ"

- **وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87)**

كان فرعون هو "ذِي الْأَوْتَادِ".

السؤال: ما العلاقة بين صاحب الحوت (ذَا النُّونِ) وفرعون (ذِي الْأَوْتَادِ)؟

افتراء سابق: كان صاحب الحوت هو "ذَا النُّونِ" لأنه كان – برأينا- يملك علم "النون":

- **ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1)**

(انظر الأجزاء السابقة من هذه المقالة)

افتراء جديد: كان فرعون هو "ذِي الْأَوْتَادِ"، لأنه كان – برأينا- يملك علم الأوتاد

السؤال: وما هو علم الأوتاد؟

رأينا: إنه العلم الكنوز في الجبال

- **أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (6) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (7)**

افتراء (1): الجبال هي ما جعلها الله أوتادا

افتراء (2): كان فرعون هو "ذِي الْأَوْتَادِ"، فحاز على العلم المكنون في تلك الجبال التي جعلها الله أوتادا

السؤال: وأين هي تلك الجبال التي كانت أوتادا لفرعون؟

جواب خطير جدا جدا: إنها تلك الأوتاد التي لازالت شاهدة على علم فرعون حتى يومنا هذا. إنها أهرامات الجيزة في أرض مصر الخالدة.

افتراء خطير جدا جدا من عند أنفسنا: كان فرعون هو من حاز على العلم المكنون في تلك الأهرامات، فهو يعلم السر الذي من أجله بنيت، وهو يعلم الآلية التي تشتغل بها تلك الأوتاد. وهو يعلم لم بنيت على شكل الجبال. وهو يعلم السر المكنوز فيها.

السؤال: وما هو ذلك العلم المكنوز في تلك الأوتاد؟

رأينا المفترى: نحن نظن أنه العلم الموجود فيها، وهو السر الذي من أجله طلب الإله نفسه من إبراهيم أن يأخذ أربعة من الطير ليجعل على كل جبل منهن جزءا ليريه كيف يحيى الموتى:

- **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (260)**

السؤال المربك: لماذا طلب الله من إبراهيم أن يضع تلك الطيور على الجبال؟ ألم يكن بالإمكان أن يتم المراد لو أن إبراهيم قد وضع كل جزء منهن على صخرة أو في واد أو في مغارة أو في كهف، الخ؟

السؤال الكبير جدا: ما سر تلك الجبال (التي جعلها الله أوتادا)؟ وما علاقة هذا بفرعون "ذِي الْأَوْتَادِ"؟

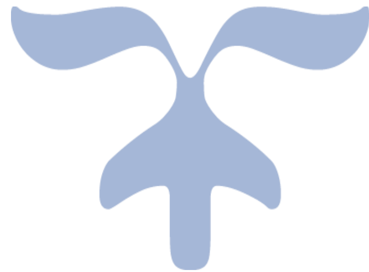
هذا ما سنتعرض له في الجزء القادم من هذه المقالة بحول الله وتوفيق منه.

فالله وحده أسأل أن يعلمني ما لا ينبغي لغيري، وأسأله أن يزدني علما وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا، وأعوذ به أن يكون أمري كأمر فرعون، إنه هو السميع البصير – آمين.



قصة يونس

الجزء السابع عشر



قصة يونس – الجزء السابع عشر

حاولنا في الجزء السابق من هذه المقالة تقديم افتراءنا الخاص بالسبب الذي ظننا أنه هو محرك الاهتمام الإلهي بفرعون بشخصه أولا وبالفترة الزمنية التي عاش بها هذا الطاغية الكبير ثانيا. وزعمنا الظن بأن التفصيل الكبير في كتاب الله لشخصية فرعون وقصة موسى معه ومع قومه كان يحركها وفرة الآيات التي جاءتهم حينئذ. كما زعمنا الظن بأن وفرة تلك الآيات في ذلك الزمن كان سببها ما كان يملكه فرعون وقومه من العلم الذي بلغ ذروته في تلك الحقبة الزمنية. وقد كان الافتراء الأكبر الذي حاولنا تسويقه هو أن فرعون كان من العلماء اللذين كان الله لهم دائما بالمرصاد لأنهم من عباده اللذين يخشاهم:

- **وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (28)**

وقد قدّمنا الافتراءات الخطيرة التالية التي هي – لا شك- من عند أنفسنا:

افتراء (1): أن عباد الله العلماء يستطيعون عمل أشياء كثيرة ربما تفوق قدرتنا الحالية على التخيل.

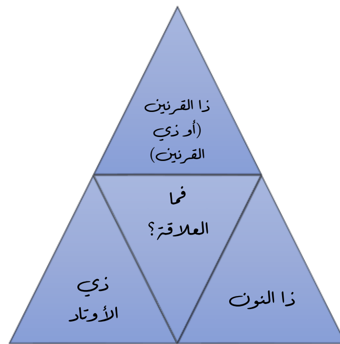
افتراء (2): قد يقع بعض ما يستطيع عباد الله العلماء أن يفعلوه في باب ما لا يرضى الإله وقوعه.

افتراء (3): يبقى الإله في حالة خشية دائمة (احتراس وحذر) من عباده العلماء هؤلاء حتى لا يحدثوا أمورا تخرج عن النطاق المسموح به (الفساد في الأرض).

وقد خلصنا في نهاية الجزء السابق من طرح التساؤلات حول الآية الكريمة التالية التي تحدثت عن فرعون على أنه "ذي الأوتاد"

- **وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10)**

وزعمنا الظن بأن هذه الصفة التي اتصف بها فرعون تمنحه ميزة لم يجاريه فيها غيره، وذلك لأن القرآن الكريم لم يبرز شخصيات يمكن وصفها بهذه الطريقة إلا ثلاث شخصيات، وهم: (1) ذا القرنين و(2) ذا النون و(3) ذي الأوتاد



وهم - برأينا - من امتلكوا علما عظيما ميّزهم عن غيرهم، حتى أصبحوا محل الاهتمام الرباني (أي الخشية الإلهية).

وقد جهدنا – بناء على هذا الفهم الذي قد يكون مغلوطا- تسويق زعمنا التالي: كان فرعون (ذي الأوتاد) من أعظم العلماء اللذين كان الله يخشاهم، وذلك لأن فرعون قد جمع علم الأولين والآخرين، حتى ظن بنفسه أنه هو الإله الأوحد:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ... (38)**

ولكي يتحقق فرعون بنفسه من ظنه هذا، طلب من هامان أن يوقد له على الطين، فيجعل له صرحا علّه يطلع إلى إله موسى. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في تتمة الآية الكريمة السابقة:

- **... فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)**

فكان فرعون يستطيع بلوغ الأسباب، وهو ما طلب من هامان أن يهيئ له أدوات الوصول إلى هناك:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37)**

وهذا العلم لم يكن جديدا خاصا بشخص فرعون وذلك لأن غيره كان قد امتلكه من قبل، وهو ذو القرنين عندما كان يتبع السبب:

- **وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (83) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (84) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (85)**

(للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان قصة يأجوج ومأجوج)

كما افترينا الظن بأن فرعون كان يملك علم الأوتاد، فتقاطع في ذلك – نحن نظن- مع ذي النون، وهو –برأينا- من علمه الله كيفية إحياء الموتى عندما مر على القرية وهي خاوية على عروشها.

(للتفصيل انظر سلسلة مقالتنا تحت عنوان قصة موسى والأجزاء السابقة من هذه المقالة)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: لما كنا نعتقد أن فرعون قد جمع علم الأولين، فإننا نفتري القول من عند أنفسنا بأن ظن فرعون بأنه هو الإله الأوحد كان مدفوعا – برأينا- بما كان يملك الرجل من أدوات العلم كتلك التي تمكنه من الإطلاع على إله موسى إنْ هو أراد ذلك وكعلم إحياء الموتى متى ما أراد ذلك. وسنتعرض للآليات التي اتبعها فرعون لتنفيذ مراده في ذلك بعد قليل بحول الله وتوفيق منه إن هو أذن لنا الإحاطة بشيء من علمه، إنه هو الواسع العليم – آمين.

لكن ما يهمنا طرحه حتى اللحظة هذه هو افتراؤنا بأن فرعون قد امتلك بناصية علم الأولين

الدليل

لو تدبرنا الحوارات التي دارت بين موسى وفرعون كما وردت في كتاب الله، لوجدنا الحوار التالي من سورة طه ظاهرا، وهو الحوار الذي يبين لنا ما جرى بين الرجلين بعد أن جاء موسى فرعونَ بالرسالة مباشرة:

- **رب موسى وهارون: فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى**
- **(47) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى (48)**
- **فرعون: قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50)**
- **موسى: قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (51) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (52)**

لنخلص إلى القول بأن أول ردة فعل لفرعون على الخبر (بأن موسى وأخاه هارون قد أوحي إليهما بأن يكونا رسولان من رب العالمين) كانت مبادرة فرعون موسى بالسؤال التالي على الفور: قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (51)

وهو السؤال الذي لو تدبرنا النص القرآني جيدا بخصوصه لوجدنا أن موسى لم يستطع تقديم إجابة مباشرة له، ربما (في ظننا) لعدم توافر العلم به عند موسى حتى الساعة، فجاء جواب موسى غير مباشر عندما أسند الأمر (حول القرون الأولى) برمته إلى ربه: قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (52)

التساؤلات

- ⇐ لماذا سأل فرعون موسى عن القرون الأولى؟
- ⇐ لِم لَم يستطع موسى إجابة السؤال مباشرة؟
- ⇐ لماذا أسند موسى الأمر إلى ربه؟
- ⇐ من هم القرون الأولى التي كان فرعون يتحدث عنهم؟
- ⇐ ما علاقة القرون الأولى بدعوة موسى فرعونَ هذه؟
- ⇐ الخ.

السؤال الأول: لماذا سأل فرعون موسى عن القرون الأولى؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الآية الكريمة التالية (كما نفهمها) ربما تجيب على هذا التساؤل:

- **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (43)**

نتيجة مفتراة مهمة جدا: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن القرون الأولى قد سبقت رسالة موسى. فالقرون الأولى هي تلك الأمم التي أُهلِكتْ من قبل رسالة موسى (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى)، وما أوتي موسى الكتاب إلا من بعدهم، أليس كذلك؟

ولو تدبرنا الآية الكريمة نفسها جيدا لوجدنا أن ما جاء به موسى بعد هلاك القرون الأولى كان بصائر للناس (بَصَائِرَ لِلنَّاسِ) وهدى (وَهُدًى) ورحمة لعلهم يتذكرون (وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ). انظر الآية الكريمة نفسها مرة أخرى:

- **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (43)**

السؤال: كيف يمكن أن نفهم أن الكتاب الذي أوتي موسى من بعد هلاك القرون الأولى كان بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن البصائر هي آيات الله التي أنزلها لتكون للناس هدى ورحمة لعلهم يتذكرون:

- **قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (104)**
- **وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (203)**
- قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (102)
- **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (43)**
- **هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (20)**

ولو تفقدنا الحوار التالي الذي جرى بين موسى من جهة وفرعون من جهة أخرى لوجدنا أن الآيات التسعة التي جاءت فرعون وقومه كانت منزلةً بصائر من رب العالمين:

- **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَونُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (101) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُورًا (102)**

ولو دققنا مليّا في هذا الحوار القرآني لوجدنا فيه العجب: فموسى يوجه الخطاب لفرعون على نحو أن فرعون عالم تماما بهذه الآيات:

- قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُورًا (102)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: هذا موسى يقر بلسانه بأن فرعون على علم تام بهذه الآيات المنزلة بصائر للناس، أليس كذلك؟

السؤال: ما الفرق بين الآيات والبصائر إن صح ما تقول؟ يسأل صاحبنا.

جواب مفترى: نحن نظن أن البصائر هي الآيات إذا كانت مبصرة:

- **وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا (59)**
- **وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (12) فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (13)**

فالآية مبصرة (نحن نفتري الظن) إذا كانت ترى رأي العين كما هي آية النهار. فآية النهار مبصرة لأنها – برأينا- يمكن أن ترى رأي العين:

- **وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً (12)**

فما أن يرى القوم آيات الله بأم أعينهم حتى تكون تلك الآيات مبصرة كما الآيات التسعة التي جاءت قوم فرعون على يد موسى، لكن كانت ردة فعلهم هي الإنكار والتكذيب حتى ظنوا أنها تقع في باب السحر المبين:

- **وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (12) فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (13)**

(للتفصيل حول ماهية الآيات التسعة التي جاء بها موسى قوم فرعون انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان قصة موسى)

إن ما يهمنا طرحه هنا هو طبيعة الخطاب الذي جرى بين موسى من جهة وفرعون من جهة أخرى حول هذه الآيات المبصرة كما جاء في قوله تعالى:

- **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَونُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (101) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُورًا (102)**

لتكون التساؤلات الخطيرة جدا الآن هي:

⇐ من أين علم فرعون بهذه الآيات (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ)؟
⇐ وهل أوتي فرعون تلك الآيات من ربه كما أُتيها موسى؟
⇐ لماذا كان فرعون مثبورا (وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُورًا)؟
⇐ الخ.

رأينا المفترى: نحن نظن أن علم تلك الآيات كان موجودا عند فرعون بدليل ما قاله موسى له (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ)

السؤال: ومن أين حصل فرعون على العلم بها؟

افتراء (1): نحن نستبعد كليّا أن يكون فرعون قد حصل عليها من مصدر إلهي كما أُتيها موسى.

افتراء (2): نحن نظن أن فرعون قد حصل عليها من القرون الأولى

- **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (43)**

نتيجة مفتراة مهمة جدا: كان فرعون على علم بالآيات التي توافرت عند القرون الأولى (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ)

نتيجة مفتراة مهمة جدا: جاءت تلك الآيات في كتاب موسى لتكون بصائر للناس (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ)

نتيجة مفتراة مهمة جدا: جاءت هذه الآيات بصائر للناس لتكون هدى لهم (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى)

نتيجة مفتراة مهمة جدا: جاءت هذه الآيات لتكون بصائر وهدى للناس وذلك رحمة من ربك (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً)

نتيجة مفتراة مهمة جدا: يمكن لمن تدبر هذه الآيات من كتاب الله أن يتذكرها كما جاءت القرون الأولى (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

(دعاء: اللهم أسألك يا من خلقتني ففطرتني أن تهديني إلى تلك الآيات التي هي بصائر لتكون لي هدى ورحمة وأسألك أن أكون من أولى الألباب اللذين يتذكرون ، وأعوذ بك أن يكون أمري كأمر فرعون، إنك كنت بي بصيرا - آمين)

السؤال: ما هي القرون الأولى التي حصل فرعون على العلم الذي كان متوافرا عندهم؟

جواب مفترى: نحن نظن أن القرون التي أهلكها الله جاءت كلها من بعد نوح، بدليل قوله تعالى:

- **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (17)**

ونحن نظن أن أول تلك القرون كانت عاد وأن آخرها كانوا أصحاب الرس، وكان بين ذلك قرونا كثيرا:

- **وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا (38)**

نوح	قرن 1 عاد	قرن 2 ثمود	قرن 3	قرن 4	قرن 4	الخ	أصحاب الرس

ولو دققنا في الآية الكريمة نفسها لوجدنا بأن ثمود كانت واحدة من تلك القرون، أليس كذلك؟
ولو راقبنا الآيات الخاصة بتلك القرون كلها، لربما صح لنا أن نفتري القول بأنها قد أهلكت وذلك بسبب ظلمهم بعد أن جاءتهم رسلهم بالبينات، فكان ذلك الهلاك هو جزاء القوم المجرمين:

- **وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ۙ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (13)**

وأن اللذين نجوا من ذلك الهلاك هم فقط من كانوا ينهون عن الفساد في الأرض، وهم لا شك قليل:

- **فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (116)**

لنخلص من ذلك إلى فهمنا المفترى التالي: جاءت القرونَ الأولى رسلُهم بالبينات، فأصبح عندهم العلم وافرا، فكان ذلك مدعاة للترف، ففضل اللذين ظلموا ذلك الترف، فكانوا ممن ظلموا أنفسهم لما آثروا الفساد في الأرض على تصديق آيات ربهم التي جاءتهم عن طريق الرسل.
ولو أمعنا التفكر في الآيات الكريمة التالية لوجدنا أن تلك القرون الأولى كانوا أشد قوة من اللذين جاءوا من بعدهم:

- **قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78)**
- **كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُواْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا فَاسْتَمْتَعُواْ بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُواْ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (69) أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وِأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (70)**

ولا شك أن السير في الأرض والنظر فيها سيظهر لنا من آثار تلك القرون ما يدل على تفوقهم علينا وعلى اللذين جاءوا من بعدهم:

- **أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (9)**
- **أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (21)**
- **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (82)**

ولكن ذلك الهلاك الذي أصاب تلك القرون لم يمحو آثارهم تماما بدليل أننا نستطيع أن نمشي في مساكنهم لتكون تلك آيات لأولي النهى:

- أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (128)

ولازالت آثار هلاكهم (مساكنهم التي يمكن لنا أن نمشي فيها) هي آيات لمن أراد أن يسمع:

- أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (26)

(دعاء: اللهم أسألك أن أكون من اللذين ينهون عن الفساد في الأرض، وأسألك وحدك أن أكون من اللذين يسمعون فيعقلون فيفقهون، إنك أنت السميع العليم – آمين)

كما أننا نستطيع أن نرى آثار هلاكهم:

- أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (31)

ولو تدبرنا الآية الكريمة التالية لوجدنا أنه ما أن يُهلك اللهُ واحدة من تلك القرون بعد ظلمهم حتى ينشئ من بعدهم قرونا آخرين:

- ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ (42)

ولا شك أن الفترة الزمنية التي تفصل بين تلك القرون هي فترة طويلة جدا، بدليل قوله تعالى:

- وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45)

وربما كان هذا الفاصل الزمني الكبير هو – برأينا- أحد الأسباب التي جعلت البعض لا يؤمن بها حتى نعتها بأساطير الأولين:

- وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (17)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: كانت آيات الله متوافرة في القرون الأولى، فكذب بها الكثيرون عندما آثرت الغالبية العظمى منهم الترف، فأهلكهم الله لأنهم آثروا الفساد في الأرض على التصديق بآيات الله، وما نجّى الله منهم إلا من كان ينهى عن الفساد في الأرض، وهم قليل. وما أن أهلك الله تلك القرون حتى ترك مساكنهم آثارا تدل عليهم، فما أن راءاها المتأخرون حتى انقسموا إلى فريقين غير متكافئين، يؤمن القليل منهم بتلك الآيات على أنها آيات الله الدّالة على القرون التي أهلكها الله بينما يؤمن الكثيرون بأنها ليست أكثر من أساطير الأولين.

(دعاء: اللهم أشهدك أني أشهد أن رسلك قد جاءوا بالحق من عندك، وأعوذ بك أن أكون من المنافقين، فاجعلني أول من يرى آياتك فيعرفها، فأكن أول الراسخين في العلم، فأكون من اللذين يعلمون تأويله، وأعوذ بك أن أكون ممن يبغون تأويله،، إنك أنت الواسع العليم)

- **هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ (53)**
- **هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ (7)**
- **وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (93)**

تساؤلات

- ⇐ لماذا كانت تلك القرون السابقة أكثر من أولادا وأموالا؟
- ⇐ لماذا عمروا الأرض أكثر مما عمرها من جاء بعدهم؟
- ⇐ لماذا ذهبت حضاراتهم العظيمة بتلك الطريقة؟
- ⇐ من هي تلك القرون التي فاقت علينا في الأولاد والأموال والآثار؟
- ⇐ أين هي مساكنهم؟
- ⇐ كيف يمكن أن تكون آثارهم الباقية آيات تدل عليهم؟
- ⇐ كيف يمكن أن نستفيد نحن اليوم من هذه الآيات؟
- ⇐ ثم، ما علاقة فرعون بهذا كله؟
- ⇐ الخ.

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الإجابة على التساؤلات السابقة كلها تكمن في كلمة واحده:

<u>العلم</u>

رأينا: نحن نعتقد جازمين أن الحضارة (أي حضارة) لا تشيّد إلا بالعلم، فالعلم هو أساس بناء الحضارات ورقيها. وبالعلم تزدهر الحضارة وتنمو وتتطور. ومتى شح العلم أخذت الحضارة بالتراجع والضعف، وإن ضاع العلم تلاشت الحضارة برمتها. لذا نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن تلك الحضارات التي سبقت كان لديها من العلم ما يمكّنها من تشييد العمران الذي لازال قائما حتى بعد هلاكها بالآلاف السنين. ولا شك عندنا أن منازلهم تلك قد بنيت بأيديهم لتظل شاهدة على ما وصلوا إليه من الرقي والتقدم الذي ربما عز نظريه عند من لحق بهم، ولتكون في الوقت ذاته آيات لمن جاء بعدهم ليستفيدوا منها من جديد. لتكون الصورة التي نريد أن نخرج بها على النحو التالي: امتلكت القرون الأولى من العلوم ما لم تستطع القرون اللاحقة من امتلاكه.

باب: القرون الأولى

لو رجعنا إلى بداية القرون الأولى، لوجدنا أنها تبدأ بعاد (قوم هود)، وهم في ظننا أول القرون التي أهلكت من بعد نوح، وربما يبين ذلك عندما نحاول الربط بين الآيتين الكريمتين التاليتين:

- وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (17)
- وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (38)

وقد لحق بعاد (قوم هود) ثمود (قوم صالح):

- وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (73) وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (74)

افتراء 1: جاءت عاد كأول القرون الأولى

افتراء 2: لحقت ثمود بعاد فكانوا خلفاء من بعدهم

نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا: استفادت ثمود مما كان عند عاد من العلم بأن اتخذوا من السهول قصورا (وهي في ظننا ما كانت لعاد) ثم زادوا على ذلك عندما نحتوا بأنفسهم الجبال بيوتا كآثار خاصة بهم ودالة على حضارتهم الجديدة.

والتسلسل الزمني لتلك القرون واضح في الآيات الكريمة التالية:

- أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وِأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (70)
- أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللّهُ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (9)
- وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (42) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (43) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (44) فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (45) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46)
- مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (31)

ولو حاولنا أن نتتبع قصة أول القرون وهم عاد (قوم هود) في كتاب الله، لوجدنا السياقات القرآنية التالية التي تبين لنا ما كان من أمرهم، قال تعالى:

- وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ (65)
- وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ (50) يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (51) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ

رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ (52) قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (53) إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (54) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (56) فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (57) وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (58) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (59) وَأُتْبِعُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (60)

- كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (124) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (125) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (126) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (127) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (128) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (130) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (131) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (132) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (133) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (134) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (135) قَالُوا سَوَاء عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (136) إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (137) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (138) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (139) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (140)
- وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (21) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (23) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (24) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (25) وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون (26) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (27) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (28)
- كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (18) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (19) تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ (20)

ولو دققنا في جميع الآيات القرآنية الخاصة بعاد لوجدنا التلازم واضح بين عاد من جهة وثمود من جهة أخرى:

- وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (38)

- فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (13) إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (14) فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (15) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ (16) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (17) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (18)
- وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (41) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (42) وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (43) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ (44) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ (45) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (46)
- وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (50) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى (51) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى (52)

ولو دققنا في الآيات الكريمة التالية لوجدنا التلازم قوي جدا بين عاد من جهة وفرعون من جهة أخرى على وجه الخصوص:

- كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (12) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُوْلَئِكَ الْأَحْزَابُ (13) إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (14)
- كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (12) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (13) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (14)

ولو راقبنا السياقات التالية لوجدنا الترابط واضح بين عاد وهود وفرعون:

- الْحَاقَّةُ (1) مَا الْحَاقَّةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (3) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (4) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (5) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (7) فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ (8) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (9)
- وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (4) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (5) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (9) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (13) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14)

السؤال: ما سر هذا الترابط بين الطرفين؟

رأينا المفترى والخطير جدا جدا: كان فرعون بشخصه هو من امتلك العلم الذي كان متوافرا في القرون الأولى وخاصة عاد وثمود، وهؤلاء الثلاثة على وجه التحديد هم من امتلكوا العلم العظيم، فاستخدموا ما عندهم من العلم من أجل الإفساد في الأرض، فكان الله لهم بالمرصاد، قال تعالى:

- وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (4) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (5) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8)

وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (9) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (13) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14)

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: إن هذا الطرح يعيدنا على الفور للحديث عن علم فرعون، لنفتري من عند أنفسنا ما يلي: كان فرعون من "عباد الله العلماء"، وكان على درجة من العلم أن جعلت الإله نفسه يخشاه:

- **وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (28)**

وبكلمات أكثر دقة نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن فرعون كان على درجة عالية جدا من العلم تطلبت أن يتدخل الإله بنفسه ليكون له بالمرصاد (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)، فأرسل رسولاه إلى هذا الطاغية بالآيات (وعززهما بثالث) حتى يكفّ خطره الذي لم يكن بالإمكان أن يكف إلا بتدخل الإله بنفسه.

باب علم فرعون

نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن فرعون قد حاز على العلم الذي كان متوافرا في عاد وفي ثمود (وربما علم قرون أخرى لا نعلمها). وقد أدى به ذلك إلى أن يصبح هو بنفسه إله كما قال عن نفسه لمن حوله من الملأ:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)**

وقد خاطب قومه جميعا بصيغة من يملك:

- **وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51)**

وخاطبهم بصيغة التحدي، وبلهجة الواثق مما يقول:

- **أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53)**

وما كان القوم ليستطيعوا رد دعوى فرعون هذه خصوصا بعد أن قدم لهم موسى من الآيات ما كانت كل آية هي أكبر من أختها. وانظر – عزيزي القارئ- في السياق القرآني كله كما جاء في سورة الزخرف:

- **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (46) فَلَمَّا جَاءهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (47) وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (48) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (49) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (50) وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53)**

نتيجة مفتراة 1: يأتي موسى (ومعه أخوه هارون) فرعون وملئه وقومه بالآيات من ربهم
نتيجة مفتراة 2: كانت ردة فعلهم هي الضحك من تلك الآيات
نتيجة مفتراة 3: كانت كل آية هي أكبر من أختها
نتيجة مفتراة 4: وقع العذاب على القوم لعلهم يرجعون
نتيجة مفتراة 5: نعت القوم موسى على أنه ساحر
نتيجة مفتراة 6: طلب القوم من موسى أن يدعو ربهم ليرفع عنهم العذاب فيكونوا من المهتدين
نتيجة مفتراة 7: كشف الله عنهم العذاب (بطلب من موسى) فإذا هم ينكثون
نتيجة مفتراة 8: جاء نداء فرعون في قومه على أنه خير من هذا الذي ظن فرعون أنه مهين ولا يكاد يبين
نتيجة مفتراة 9: تحدى فرعون إله موسى بأن يلقي عليه أسورة أو يجيء معه الملائكة مقترنين

وبعد هذا السيناريو الكامل: ماذا كانت النتيجة؟ هل اصطف القوم مع موسى أم مع فرعون؟

جواب مفترى: انحاز القوم بأغلبيتهم الساحقة مع فرعون

- **فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54)**

السؤال: لماذا اصطف القوم إلى جانب فرعون؟ ألم تكن الآيات التي قدمها موسى لهم كافية لتثنيهم عن الضلال الذي هم فيه؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الإجابة على هذا التساؤل تكمن بالافتراء بأن حجة فرعون كانت قوية جدا لدرجة أن القوم اصطفوا إلى جانبه. وما انهارت حجة فرعون إلا أمام مجموعة واحدة من الناس، وهم السحرة اللذين جمعهم يوم الزينة للتغلب على موسى:

- **فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (70) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (71) قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72)**
- **فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (45) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (46) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (47) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (48) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (49) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (50) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (51)**

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: لم تستطع كل الآيات التسعة التي جاء بها موسى قوم فرعون أن تثنيهم عن ضلالتهم. فما تغلب موسى على فرعون عندما اصطف الناس إلى جانبه ولم ينحازوا إلى طرف موسى.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: استطاعت آية واحدة (هي الكبرى) فقط أن تقهر فرعون، ألا وهي "العصا"، فانحاز السحرة إلى طرف موسى.

فأصبحت المواجهة الآن بين الطرفين (نحن نتخيل) شبه متكافئة: تغلب فرعون على موسى بآية اليد التي خرجت منها تسع آيات مبصرة إلى فرعون وقومه، واستطاعت الآية الكبرى أن تقهر فرعون وملئه، فتكافأ الطرفان في المواجهة، فأصبحت المواجهة التالية بينهم في مكان سوى:

- **وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (57)
فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى (58)**

وقفة قصيرة في مراجعة مهمة: أرسل الله موسى وأخاه هارون إلى فرعون وملئه وقومه، وأيدهما بآيتين اثنين هما العصا واليد، وقد حاولنا توضيح ذلك بالرسم البياني التالي كما جاء في الجزء السابق من هذه المقالة بناء على فهمنا للآيات الكريمة التالية عند ربطها مع بعضها البعض:

- **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا
مَآرِبُ أُخْرَى (18) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (20) قَالَ خُذْهَا وَلَا
تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (21) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً
أُخْرَى (22) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (23)**
- **وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا
قَوْمًا فَاسِقِينَ (12) فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (13)**

<table dir="rtl">
<tr><td colspan="12">موسى</td></tr>
<tr><td colspan="3">العصا</td><td colspan="9">اليد</td></tr>
<tr><td rowspan="3">تلقف حبال وعصي السحرة</td><td rowspan="3">ضرب البحر فكان كل فرق كالطود العظيم</td><td rowspan="3">ضرب الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا</td><td colspan="9">تسع آيات</td></tr>
<tr><td>آية</td><td>آية</td><td>آية</td><td>أية</td><td>آية</td><td>آية</td><td>آية</td><td>آية</td><td>آية</td></tr>
<tr><td>1</td><td>2</td><td>3</td><td>4</td><td>5</td><td>6</td><td>7</td><td>8</td><td>9</td></tr>
</table>

فقدم موسى الآيات إلى فرعون وملئه وقومه التي جاءت عن طريق اليد، فكانت تسع آيات، فأخذ القوم يضحكون منها، وما كانت كافية لأن تقلل من شأ فرعون في قومه، بل على العكس، جاء خطاب فرعون عاليا، يتضح فيه ملامح القوة والتحدي، فاصطف الملأ والقوم إلى جانبه:

- **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (46) فَلَمَّا جَاءهُم
بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (47) وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (48)**

لكن تبقى مع موسى الآية الكبرى التي لم يستطع فرعون أن يقهرها، فجمع كيده ثم أتى، وكان ذلك في يوم الزينة حيث المكان سوى بين الطرفين:

- **وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (57)
فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى (58) قَالَ
مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (59) فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (60)**

وقد حاول موسى أن يثنيهم عن ضلالهم قبل المواجهة الفعلية، فذكرهم بمغبة الافتراء على الله كذبا:

- **قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (61)**

فبدأت أمارات الخلاف تظهر بينهم في الحال، فحصل بينهم بعض النزاع، إلا أن أنهم أسروا النجوى، ظانين أن ما جاء به موسى يقع في باب السحر، فجاء خطاب فرعون (ومن على شاكلته أن الفلاح اليوم لمن استعلى):

- **فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى (62) قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (63) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (64)**

فأصبح لا محالة من المواجهة الفعلية، فحصلت على النحو التالي:

- **قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (65) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (66) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى (67) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى (68) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (69)**

وما أن رأى السحرة بأم أعينهم ما فعلت عصا موسى بحبالهم وعصيهم حتى ألقوا ساجدين جميعا، مؤمنين برب هارون وموسى، كافرين بربهم القديم (وهو فرعون):

- **قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا هَارُونَ وَمُوسَى (70)**

وهنا يظهر لأول مرة "عجز" فرعون في المواجهة، فبأن ضعفه أمام هذه الآية الكبرى، فأخذت قواه تنهار، فما استطاع أن يفعل شيئا في الحال، وجل ما استطاع فعله هو أنه توعدهم بالعذاب:

- **قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (71)**

لكن ذلك الوعيد لم يكن ليثني السحرة عن قرارهم النهائي الذي لا رجعة عنه وهو اللحاق بركب هارون وموسى، تاركين فرعون وملئه وقومه ورائهم بغض النظر عن ما يستطيع هؤلاء فعله بهم:

- **قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (73) إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيى (74) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (75) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء مَن تَزَكَّى (76)**

السؤال الكبير جدا: لماذا لم يستطع فرعون أن يعاقب السحرة في الحال؟ لماذا اكتفى بالوعيد؟ وهل استطاع فعلا تنفيذ وعيده بأن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو أن يصلبهم في جذوع النخل كما قال؟

- **قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (71)**

جواب: كلا وألف كلا، لم يستطع أن يفعل شيئا

السؤال: لماذا؟

رأينا: لأن فرعون لم يكن يستطيع مواجهة موسى والتغلب عليه مادام موسى يملك الآية الكبرى (وهي العصا) بيده.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نتخيل بأنه لو كان فرعون يستطيع فعل شيء في تلك اللحظة التي ألقي فيها السحرة ساجدين لما اضطر إلى أن يتوعدهم بالعذاب، ولأنزل بهم العقاب في الحال. فلا يجب أن ننسى أن فرعون وجنوده (كل كيده) جميعا كانوا حاضرين المواجهة في يوم الزينة:

- **قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (59) فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (60)**

فلِم لَم يستطع فرعون (نحن لا زلنا نسأل السؤال ذاته) أن يأمر جنوده بأن يلقوا القبض على موسى وهارون وكل من ألقي ساجدا من السحرة فورا؟

رأينا: لو كان فرعون وجنوده يستطيعون ذلك لما ترددوا لحظة عن فعله.

السؤال: لماذا لم يكونوا قادرين فعل ذلك إن صح ما تزعم؟ يسأل صاحبنا.

رأينا المفترى: نحن نظن أن فرعون قد أصبح يعلم علم اليقين بأن ما يملكه موسى بيده كفيل بأن يحول بين الطرفين، لا بل وأن يجعل الكفة تميل إلى جانب موسى لو أن فرعون قرر المواجهة المسلحة في تلك اللحظة. لذا كان فرعون غاية بالذكاء (بدهاء السياسي وحيلة الساحر ومكر الكافر) عندما قرر أن ينسحب مسرعا بمن تبقى من الحاضرين حتى لا يلحقوا جميعا بركب موسى. فأظهر لمن حوله أن ما فعله موسى يقع في باب السحر مؤجلا المواجه للمرة القادمة:

- **قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (71)**

ونحن نظن أن هذا كان تكتيكا عسكريا ناجحا من سياسي محنّك يدرك تبعات ما يمكن أن تؤول إليه الأمور لو أنه تعجل في المواجهة. لذا استطاع فرعون أن يظهر لمن حوله بأن ما حصل أمام أعينهم على أرض الواقع هو أمر عادي يستطيع أن يتكفل به لاحقا، فانسحب وجنوده وملئه (نحن لازلنا نتخيل) معلقا أملهم جميعا على المرة القادمة التي ستكون الغلبة فيها لفرعون ومن معه.

سيناريو آخر لما حصل: ولو حاولنا أن نتخيل أن هذه المواجهة قد تمت بين فرعون وملئه وسحرته من جهة وموسى وهارون من جهة أخرى دون حضور الجند، لربما صح ذلك. فيمكن أن يكون فرعون قد حضر هذه المواجهة دون وجود الجند، لذا فقد أجل القبض على موسى وهارون إلى إشعار آخر حتى يحضر جنده.

رأينا: لو أن هذا ما حصل على أرض الواقع لربما دل هذا على دهاء أكبر من فرعون. فالرجل يعلم أن المواجهة بين الطرفين لن تكون سهلة، فإن هو ربحها فقد أقام الحجة على موسى وهارون، واصطف الناس حوله. وإن هو خسرها، فلابد من تدبير الأمر مرة أخرى، لذا قد يكون الرجل لم يحضر جنده معه في تلك المواجهة للغاية نفسها وهي إن حصل أن تغلب موسى على السحرة، فالجند لن يتمكنوا من موسى وهارون لأن موسى يملك آية أكبرى، ربما لا يستطيع الجند مواجهتها.

السؤال: لماذا لم يحضر فرعون جنده معه ليلقوا القبض على موسى وهارون (وكل من اصطف إلى جانبهم) في الحال؟

رأينا الخطير جدا جدا: لقد كان هدف فرعون من المواجهة هي التأكد بأن ما يملكه موسى بيده هي فعلا آية الله الكبرى.

نتيجة مفتراة: في تلك اللحظة التي القي السحرة ساجدين لما فعلت عصا موسى بعصيهم وحبالهم أدرك فرعون أن قدرة موسى أكبر من قدرة السحرة جميعا، فجاء ذلك على لسانه على النحو التالي:

- ... إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ...

وفي هذه اللحظة (نحن نتخيل) أدرك فرعون أن الاستمرار في المواجهة لن يجدي نفعا، لأنه أصبح يعلم علم اليقين بأن الغلبة ستكون لموسى لو أنه قرر المواجهة المسلحة في الحال. فكان قرار الانسحاب وتأجيل المواجهة المسلحة هي الأسلم بالنسبة له حينها. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في تتمة السياق القرآني السابق:

- ... فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (71)

السؤال: لماذا كان يعلم فرعون أن الغلبة ستكون لموسى لو أنه استمر بالمواجهة في تلك اللحظة؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن فرعون قد أدرك في تلك اللحظة أن عصا موسى هي فعلا الآية الكبرى التي كذب بها من قبل عندما أراه موسى إياها:

- اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (17) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى (18) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (19) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21)

السؤال: ألم يكن فرعون يدرك ذلك من قبل؟ ألم يقتنع فرعون فعلا أن عصى موسى هي فعلا الآية الكبرى؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: كلا. لم يكن فرعون (نحن نظن) يؤمن يقينا في تلك اللحظة الأولى بأن عصا موسى التي أراه موسى إياها هي فعلا الآية الكبرى.

السؤال: أين الدليل على ما تقول؟

جواب مفترى: دعنا نرجع بالقصة إلى بدايتها. لأن ذلك سينقلنا (نحن نظن) إلى افتراء خطير جدا سيكون له تبعات جمة لاحقا. فالله أسأل أن يعلمني الحق الذي أقوله فلا أفتري عليه الكذب، إنه هو الواسع العليم – آمين.

أما بعد،

نحن نعلم أن الله هو من نادى موسى في الواد المقدس، وهو من طلب منه الذهاب إلى فرعون لأنه طغى، أليس كذلك؟

- إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (16) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (17) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى (18) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (19) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)

والله هو من موسى أن يلقيها في النار، فأعادها سيرتها الأولى:

- قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (18) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (20) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (21)

والله هو من أيد موسى وأخاه هارون بآية أخرى هي إدخال اليد في جيبه لتخرج تسع آيات إلى فرعون وملئه وقومه:

- وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (22) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (23)

وهناك بالضبط طلب الله من موسى أن يذهب إلى فرعون. انظر تتمة السياق القرآني نفسه:

- اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (24)

وها هو موسى ينفذ الأمر الإلهي له بالذهاب إلى فرعون، فيحصل اللقاء بينهما، فيري موسى فرعونَ الآيةَ الكبرى. لكن ماذا كانت ردة فعل فرعون الأولى عندما أراه موسى الآية الكبرى. انظر عزيزي القارئ في السياق القرآني التالي:

- **إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (16) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (17) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى (18) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (19) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)**

⇐ ألم يكذب فرعون ويعصي؟ فَكَذَّبَ وَعَصَى

⇐ ألم يدبر وهو يسعى؟ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى

⇐ ألم يحشر الملأ وينادى؟ فَحَشَرَ فَنَادَى

⇐ ألم يقل لهم أنه هو ربهم الأعلى؟ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى

السؤال: لماذا؟ أي لماذا كانت ردة فعل فرعون على تلك الشاكلة؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نتخيل موسى وقد ذهب بأمر من ربه إلى فرعون، وما أن يأتي موسى فرعون حتى كان الرجل متواجدا في مكان منعزل لوحده، بدليل أن الحوار دار بين الطرفين فقط. فموسى يخاطب فرعون وحده، وموسى يري الآية الكبرى لفرعون وحده، وفرعون هو من أدبر يسعى:

- **فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23)**

فهناك إذن (نحن نتخيل) تجرى مواجهة فردية بين الطرفين؟ فيقوم موسى بدعوة فرعون (بالقول اللين) بأن يهديه إلى ربه فيخشى، ويقوم موسى في الوقت ذاته بتقديم الدليل على صحة دعوته هذه، فيريه الآية الكبرى التي تثبت أن من يملكها هو فعلا رسول من رب العالمين، لأن تلك الآية (نحن نفتري القول) لا يمكن أن تقع إلا في يد من أذن الله له بذلك. وسنتحدث عن هذا بالتفصيل لاحقا بحول الله وتوفيق منه متى أذن لنا الإحاطة بشيء من علمه، إنه هو العليم الحكيم.

في هذه اللحظة التي يقدم فيها الدليل (الآية الكبرى) لفرعون، يقع فرعون تحت الاختبار الحقيقي: إما أن يصدق دعوة موسى هذه فيقر له بالتبعية أو أن يرفض دعوة موسى ويبقى على ضلاله القديم. وقد كان فرعون في تلك اللحظة (نحن نظن) مؤهلا لأن يتخذ واحدة من الطريقين بقرار شخصي من نفسه، فكان من الممكن لفرعون أن يتذكر أو أن يخشى، بدليل أن هذه كانت "الرغبة" الإلهية كما صاغها لموسى وأخيه هارون:

- **اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44)**

نتيجة مهمة جدا جدا: كانت "الرغبة" الإلهية تكمن في أن يتذكر فرعون أو يخشى. وسنتحدث عن هذا الموضوع بالتفصيل بحول الله وتوفيقه لاحقا. فالله وحده أسأل أن لا افتري عليه الكذب وأسأله وحده أن يعلمني الحق الذي أقوله فلا أفتري عليه الكذب، إنه هو الواسع العليم، آمين.

السؤال: لكن ما الذي حصل على أرض الواقع؟

جواب مفترى: آثر فرعون أن لا يتذكر و أن لا يخشى في تلك اللحظة، فكذب وعصى:

- **فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21)**

لكن يبرز هنا سؤال حتمي وهو: لماذا لم يفرط فرعون ولم يطغى على موسى وأخيه هارون في تلك اللحظة؟ ألم يكن ذلك ما خافه موسى وأخوه هارون عندما أمرهم الله بالذهاب إلى فرعون؟ انظر الحوار الذي دار بين الله من جهة وموسى وأخيه هارون من جهة أخرى:

- **الله: اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44)**
- **موسى وهارون: قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى (45)**

جواب مفترى: نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن فرعون لم يكن يستطيع أن يفرط أو أن يطغى على موسى وأخيه لوجود الآية الكبرى في يد موسى.

تخيلات مفتراة: عندما أظهر موسى ما كان يملك (أي الآية الكبرى) أمام فرعون، بدأ الشك يساور اليقين عند الرجل، فالرجل (نحن نتخيل) لم يكن يستطيع أن يجزم أن تلك هي فعلا الآية الكبرى، فما كان منه إلا أن كذّب دعوى موسى، فما أراد أن يهديه موسى إلى ربه، فعصى:

- **فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21)**

لكن الملفت للانتباه هنا على وجه التحديد هو أن فرعون هو من ولى موسى الدبر، أي هو من هرب من المواجهة، أليس كذلك؟

- **فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23)**

السؤال المربك: لماذا كان فرعون هو من ترك موسى ورحل من المكان؟ لِم لم يأمر فرعونُ موسى بالخروج من المجلس؟ ولم لم يأمر فرعون الجند حينها بالقبض على موسى وأخيه هارون؟ لِم لم يأمر فرعون بإيداع موسى وأخيه السجن وكفى؟ لم ترك فرعونُ موسى ورحل بنفسه؟ ولم سمح فرعونُ لموسى أن يعود إلى بلاطه مرات أخرى وبحضور الملأ من القوم؟ الخ.

السؤال المربك جدا لك من يقرأ قصة فرعون مع موسى في كتاب الله العزيز: ألم تسنح الفرصة لفرعون أن يمسك بموسى فيودعه السجن؟ ألم تسنح الفرصة لفرعون أن يأمر بقتل موسى على الفور؟ أليس ذلك ما كان يخافه موسى وأخوه هارون؟ ألم يكن لفرعون وقومه ذنب على موسى من ذي قبل؟ لم لم يأخذ فرعون موسى بالذنب القديم، فيقتله وكفى؟ ألم يكن هذا ما قاله موسى بملء فيه لربه؟

- **وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (14)**
- **قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (33)**

السؤال: لماذا إذن لم يفرط فرعون عليهم ولم يطغى؟

السؤال الأهم: لماذا جاء التطمين الإلهي لموسى وأخيه هارون بأن فرعون لن يفرط عليهم ولن يطغى حتى وإن كذب وعصى؟

- **اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى (45) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (46)**
- **قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (12) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (13) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (14) قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (15) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16)**

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أنه لما كان فرعون رجل على علم عظيم، كان يدرك كل الأحداث التي كانت تدور من حوله في تلك الساعة التي حصلت فيها المواجهة الفردية بينه وبين موسى. فالمكان

(نحن نتخيل) هو مكان خاص جدا بفرعون، يتواجد فيه فرعون منعزلا عن الآخرين، أي هو مكان عزلة فرعون، بدليل أن موسى هو من أتى فرعون:

- **فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16)**
- **قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (15)**

نتيجة مهمة جدا: موسى وهارون هما من آتيا فرعون. فالمكان إذن خاص بفرعون نفسه.

ونحن نتخيل بأن المتواجدين هناك هم موسى (وربما معه أخوه هارون) وفرعون فقط. وما أن حصلت المواجهة حتى كان الذي ولّى دبره وسعى بعيدا هو فرعون بعد أن كذب وعصى، أليس كذلك؟

- **فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22)**

ليكون سؤالنا المحوري هو: لماذا كان فرعون هو من أدبر يسعى؟

جواب خطير جدا: لأن فرعون كان خائفا، فالذي يولي الدبر هو المهزوم الذي يخشى على نفسه من الهلاك كما في المعركة مثلا:

ولا شك أن من يدبر هو من كان في ظلام، لأن الحق إذا قذف بالباطل فإنه يدمغه فإذا هو زاهق:

- **بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (18)**

فالحق كما النهار الأبلج الواضح الذي يدبر مها الليل بظلامه الدامس:

- **كَلَّا وَالْقَمَرِ (32) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (33) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (34)**

نتيجة مفتراة: لو أن فرعون شعر أنه على حق في تلك اللحظة لما أدبر

السؤال: لماذا خاف فرعون فأدبر إن صح ما تزعم؟ يسأل صاحبنا.

ألم تقل من ذي قبل بأن فرعون لم يصدق بأن عصا موسى هي الآية الكبرى؟ فما الذي دعاه للهرب (أي أن يدبر)؟

جواب خطير جدا جدا لا تصدقوه: لأن المكان لم يكن يتواجد فيه موسى (وربما هارون معه) وفرعون فقط. ولكن كان هناك (نحن نفتري الظن من عند أنفسنا) آخرون متواجدون في المكان وهم اللذين خافهم فرعون فهرب منهم.

السؤال: من الذي كان يتواجد هناك في المكان نفسه الذي حصلت فيه المواجهة الفعلية بين موسى وفرعون في تلك الخلوة من فرعون؟

جواب خطير جدا جدا: إنه الله ومن معه.

الدليل

دقق عزيزي القارئ بجميع السياقات القرآنية التي تبين لنا الحوار الإلهي مع موسى وأخيه هارون عندما طلب منهما الذهاب إلى فرعون:

- **وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (11) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (12) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (13) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (14) قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (15) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16)**

- اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (42) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى (45) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (46)

ألا تجد - عزيزي القارئ- أن الله كان حاضرا اللقاء بذاته؟ ألا ترى أن الله كان معهما يسمع ويرى؟

نتيجة مفتراة خطيرة جدا جدا: بعيدا عن التحليق في عالم المجازات اللغوية وسماء الاستعارات الأدبية التي – لا شك - تصلح لكلام الشعراء، ولكنها يقينا أبعد ما تكون عن كلام الله الحق، فإن منطوق الآيات الكريمة تبين أن الله كان هناك مع موسى وهارون يسمع ويرى:

- قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (46)

كما لا شك عندنا أن جنود ربك (اللذين لا يعلمهم إلا هو) كان بعضهم حاضرا اللقاء ذاته:

- قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (15)

السؤال: كيف يمكن أن نفهم ذلك؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لا شك عندنا أن فرعون لم يصدق بأن ما أراه موسى إياه هي الآية الكبرى. مادام أنه كذب وعصى:

- فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21)

ولا شك عندنا أن موسى قد أخذ فرعون على حين غرة ودون استعداد مسبق من الرجل بدليل أن موسى جاءه في مكان عزلته فكان وحيدا:

- فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23)

فلو كان يحضر آخرون إلى جانب فرعون في ذلك اللقاء، لما اضطر فرعون أن يدبر ويسعى ليحشر وينادي بنفسه، ولربما اكتفى أن يأمر من حوله أن يقوموا بذلك نيابة عنه شخصيا، أليس كذلك؟

وإذا كانت هذه ردة فعل فرعون، فماذا فعل من حوله لو أنهم كانوا يحضرون ذلك اللقاء؟ من يدري؟!!!

إن النتيجة التي نفتريها من عند أنفسنا هي أن موسى قد جاء فرعون في مكان عزلته، وهناك بالضبط أراه الآية الكبرى التي لم يستطع فرعون حينها (نحن نتخيل) أن يتحقق منها. فكذب كلام موسى بأنه رسول من الله إليه ولم يصدق أن تلك التي بيمينه (أي العصا) هي آية الله الكبرى. فما كان من الرجل إلا أن كذب وعصى:

- فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21)

لكن المفاجأة التي كنا لا نتوقعها هي أن فرعون هو من أدبر (أي ولى دبره هاربا) تاركا المكان كله. فما الذي حصل؟ ولماذا؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نتخيل أن فرعون (الذي كذب وعصى) قد أدرك في تلك الساعة أن المكان لم يعد مكانا عاديا، فالرجل يعرف مكان خلوته تماما. ولكن الوضع الآن قد تغير، فلقد خيم على المكان الغمام، وظهر أنه مسكون بكائنات غريبة، لا يستطيع أن يقاومها بنفسه، فولى دبره ساعيا (أي يمشي هاربا على عجل). ولا شك أن أمارات الخوف كانت واضحة على الرجل، فكانت ردة فعله الأولى هي الحشر والمناداة:

- فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)

السؤال: من اللذين حشرهم فرعون؟ ومن اللذين نادى عليهم؟ ولماذا فعل ذلك؟

رأينا المفترى: لو أن المواجهة كانت ثنائية بين موسى من جهة وفرعون من جهة أخرى فقط لربما لم يكن فرعون ليحتاج أن يحشر أو أن ينادى، ولربما عمد فرعون للتصدي لموسى بمفردة، فالرجل (نحن نتخيل) لا تنقصه الشجاعة ولا تعيه الحيلة. ولكن لمّا وجد فرعون نفسه (نحن لازلنا نتخيل) في مواجهة مع موسى ومن ورائه جيش عظيم من المخلوقات الغريبة ترقبهم جميعا قوة عظيمة جدا في المكان نفسه، كان لابد لفرعون من الفرار من المكان طالبا النجدة والمساعدة.

- فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)

السؤال: كيف تظن أن فرعون يستطيع أن يهرب من المكان مادام أن الله متواجد فيه بذاته؟ هل يعقل هذا؟ يصرخ صاحبنا قائلا.

رأينا: ربما كان هذا التساؤل مشروعا لو أن موسى نفسه لم يولي هاربا من المكان الذي ناداه الله بنفسه فيه:

- وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10)
- وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (31)

تساؤلات: ألم يولي موسى مدبرا بالرغم من الحضور الإلهي في المكان؟

السؤال: لماذا هرب موسى من المكان؟ وإلى أين كان يمكن أن يهرب موسى؟ ألم يكن يظن موسى أن الله قادر عليه حتى لو أنه ترك المكان ورحل منه؟ ألم يكن الله هو من نادى موسى بأن يقبل؟ ألم يكن الله هو من طمأن موسى بأن لا يخاف؟

تخيلات مفتراة خطيرة جدا جدا: نحن نظن أن فرعون قد هرب من المكان بالرغم من الوجود الإلهي فيه لنفس السبب الذي دعا موسى أن يهرب منه من ذي قبل؟

السؤال: ما الذي دفع بفرعون أن يهرب؟

رأينا: إنه الوجود الإلهي

السؤال: لكن هل فعلا هرب موسى من ذي قبل من الوجود الإلهي؟ ألم يهرب عندما رأى أن العصا تهتز كأنها جآن؟

- وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10)
- وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (31)

جواب مفترى: تحدثنا في مقالة سابقة لنا عن هذه القضية، وزعمنا الظن بأن موسى قد هرب من المكان (بالرغم من يقينه بالوجود الإلهي فيه) لأن موسى ظن في تلك اللحظة أن ساعة الحساب قد حانت.

فهروب موسى من المكان (نحن نفتري القول إذن) لم يكن مدفوعا بالخوف من العصا، ولكنه كان مدفوعا بالخف من اهتزازها كأنها جآن:

- وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (31)

السؤال: وما الفرق؟ أي ما الفرق بين أن يخاف موسى من العصا أو أن يخاف عندما راءاها تهتز كأنها جآن؟

رأينا: نحن نفتري القول بأن موسى قد ظن حينهما رأى العصا تهتز كأنها جآن بأن الله قد جاء في تلك اللحظة ليحاسبه فيعاقبه على فعلته السابقة عندما ظلم نفسه، وقتل نفسا من ذي قبل. فهرب موسى خائفا من العقاب الذي ظن أنه سينزل به في الحال، لذا جاء التطمين الإلهي لموسى على النحو التالي، فقد جاء مرة على نحو أنه من الآمنين:

- وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (31)

وجاء مرة أخرى على نحو أن الله قد قبل استغفاره مادام أنه قد بدل حسنا بعد سوء، فناداه على أنه من المرسلين:

- وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10) إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (11)

تخيلات مفتراة: في تلك اللحظة العظيمة، لم يكن الخيال ليصل بموسى أن رحمة الله به يمكن أن تكون عظيمة لدرجة أن تكافئه حتى بعد ظلمه لنفسه، فلربما كان أقصى ما يمكن أن يصل إليه خيال موسى (نحن نفتري الظن) هو أن يدركه الله برحمة منه فيغفر له ذنبه، ولكن أن يجتبيه ويجعله من المرسلين بعد ظلمه لنفسه، فهذا أكبر من قدرة موسى على التخيل في تلك الساعة. فكانت ردة فعله الأولى هي الهرب من المكان، ينوي أن لا يعود إلى المكان أبدا بدليل أنه ولى مدبرا:

- فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ

ولو حاولنا أن نعقد مقارنة على الفور بما حصل من أمر فرعون لوجدنا أن فرعون لم يولي مدبرا ولكنه فقط أدبر يسعى:

- فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22)

السؤال: ما الفرق؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هناك عدة فروقات بين ما فعل موسى وما فعل فرعون بالرغم أن هروبهما كانا مدفوعا بالخوف:

موسى: وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ	فرعون: ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى
1. ترك موسى المكان 2. ترك موسى المكان والخوف واضحا عليه 3. ترك موسى المكان موليا (أي راكضا) 4. ترك موسى المكان قاصدا أن لا يعود 5. الخ	1. ترك فرعون المكان 2. ترك فرعون المكان خائفا ولمن الخوف غير باديا عليه 3. ترك فرعون المكان ساعيا (أي يمشي على عجل) 4. ترك فرعون المكان لغرض أن يحشر وينادي، قاصدا العودة مرة أخرى 5. الخ.

وقفة قصيرة في مراجعة مهمة: عندما وجد موسى نفسه في الواد المقدس، جاء السؤال الإلهي الأول له عن العصا:

- **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (18) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (20)**

ولكن ما أن رأى موسى العصا تخرج من النار كأنها جآن حتى ولى مدبرا ولم يعقب:

- **وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ...**

فظن موسى أن الله قد حضر بنفسه ليعاقبه على سوء فعلته، وما توقف موسى عن الهرب إلا لحظة أن ناداه الله مرة أخرى مطمئنا إياه بأن الأمر على عكس ما ظن موسى وتخيل. فالأمر الآن هو الأمن وليس العقاب:

- **... يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (31)**

وعلاوة على ذلك تأتيك الرسالة باصطفاء إلهي مباشر:

- **... يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10) إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (11)**

السؤال: ما علاقة هذا كله بما بدر من فرعون بعد لقاءه الأول مع موسى؟

تخيلات من عند أنفسنا: نحن نتخيل بأن ما حصل مع فرعون عندما أدبر يسعى كان يشبه في محركه ما حصل مع موسى في الواد المقدس، فلقد أدرك فرعون (نحن نفتري الظن من عند أنفسنا) أن هذا المكان المتواجد فيه الآن مع موسى قد أصبح محاط بالقدرة التي يمكن أن توقع به العقاب المباشر، فولى مدبرا يسعى. وربما كان فرعون أكثر رباطة جأش من موسى لأن موسى ولى مدبرا ولم يعقب بينما أدبر فرعون وهو يسعى. ولا شك عندنا أن فرعون قد ترك المكان ساعيا (أي يمشي مسرعا) بينما نحن نتخيل موسى وقد ترك المكان راكضا. فمحرك الهروب عند الطرفين هو الخوف، ولكن كيفية هروب كل منهما كانت مختلفة.

السؤال الحتمي: لماذا لم ينادي الله على فرعون عندما أدبر كما نادى على موسى عندما ولى مدبرا؟ ألم يبدر من فرعون ما بدر من موسى كما تزعم؟ يسأل صاحبنا.

جواب مفترى: نحن نظن أن الله كان من الممكن أن ينادي على فرعون فيطمئنه كما فعل مع موسى لولا وجود فارق واحد بين الحالتين.

السؤال: ما الفرق بين الحالتين؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الفرق يكمن في الغرض الذي من أجله ولى موسى مدبرا مقابل الهدف الذي ولى فرعون دبره من أجله.

السؤال: وما السبب الذي من أجله هرب كل منهما من المكان الذي تواجد فيه الله بذاته؟

جواب مفترى: في حين أن موسى كان هاربا خائفا من وقوع العقاب الإلهي به، مدركا في الوقت ذاته ضعفه وقلة حيلته، كان فرعون على عكس ذلك تماما، فقد أدبر الرجل يسعى من أجل أن يحشر وينادى؟

السؤال: وما الفرق؟ ما العيب في ذلك؟

رأينا المفترى: كان فرعون يظن أنه يستطيع أن يجلب قوته من أجل المواجهة، فكان ظنه ه يستطيع أن يقف ندا عنيدا لموسى ومن معه حتى لو كان الله وملائكته معه.

السؤال: أين الدليل على ذلك؟

رأينا نحن نظن أن الدليل يكمن في الآيات الكريمة نفسها:

- **فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)**

فلو تدبرنا هذه الآيات جيدا، لوجدنا أن فرعون قد أدبر يسعى وكان أول ما فعله هو أن يحشر وينادى، أليس كذلك؟

السؤال: ما معنى أن فرعون قد حشر؟ ومن الذين حشرهم فرعون؟ وما معنى أن فرعون قد نادى؟ ومن اللذين ناداهم فرعونُ؟

رأينا: لو تدبرنا باب الحشر في السياقات القرآنية لوجدنا أنه غالبا ما تلازم مع وجود القوة القتالية كما حصل في حالة سليمان عندما حشر له جنوده:

- **وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (17)**

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن فرعون أدبر يسعى لكي يحشر جنوده مقابل ما يرى من الجنود التي جاءت لتؤيد موسى ضده.

السؤال: وعلى من نادى فرعون؟

جواب مفترى: نحن نظن أن فرعون قد نادى قومه

السؤال: لماذا نادى فرعون في قومه؟

جواب خطير جدا جدا لا تصدقوه: نحن نظن أن فرعون نادى في قومه ليجري مقارنه بينه شخصيا كإله مع إله موسى الذي لا يكاد يبين:

- **وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52)**

السؤال: من الذي لا يكاد يبين كما جاء على لسان فرعون؟

تخيلات مفتراة: لاحظ عزيزي القارئ كيف كان فرعون دقيق في تعبيره. فالرجل يظن بأن هناك قوة أخرى تنافسه، وأن هذه القوة هي ما يدعي موسى أنه إلههم جميعا، ولكن هذه القوة – برأي فرعون- ينقصها شيء واحد، وهي أن صاحبها لا يكاد يبين.

بالرغم من زعم فرعون وظنه بأنه خير من هذا الذي هو مهين – كما قال- ولا يكاد يبين، إلا أن ذلك لا يمنع من وجود قناعة عنده أنها فعلا موجودة. لذا تطلب الآن المواجهة الحقيقية بين الطرفين، لإثبات من هو الأعلى: فرعون من جهة أم هذا الذي لا يكاد يبين:

- **قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (63) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (64)**

ولما كان يظن فرعون بأنه هو الأعلى كما قال عند حشر ونادى:

- **فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)**

أصبحت مواجهة حقيقية بين رب حقيقي هو فعلا الأعلى:

- **سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1)**

وإله كاذب يظن أنه هو الأعلى:

- فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)

فكانت نتيجة المواجهة على النحو التالي:

- فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (25) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى (26)

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن الله لم يأخذه الله نكال الآخرة والأولى إلا ليكون عبرة لمن يخشى.

لكن لو رجعنا بالخطاب إلى الوراء قليلا، لوجدنا حجة فرعون على النحو التالي:

- وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54) فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (55) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ (56)

فالسياق القرآني يبين ربما بما لا يدع مجالا للشك (كما نفهمه) بأن فرعون يعقد مقارنة بينه (كإله) وبين الإله الآخر الذي يدعو موسى الناس للإيمان به، ولو دققنا في الآيات لوجدنا أن ما يطلبه فرعون هو:

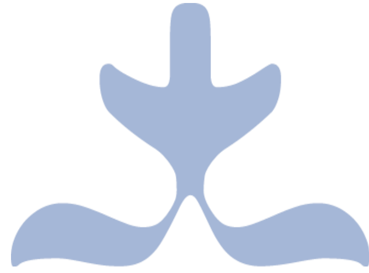
1. أن يبين هذا الإله الذي يدعي موسى أنه هو الأعلى
2. أن يلقي عليه أسورة من ذهب
3. أن يجيء معه الملائكة مقترنين

وهي ما ظن فرعون أنها نقاط ضعف في دعوى موسى ونقاط قوة عنده وذلك:

1. لأن فرعون (على عكس إله موسى) يبين
2. أن فرعون قد ألقي عليه أسورة من ذهب
3. أن فرعون يجيء معه جنده مقترنين

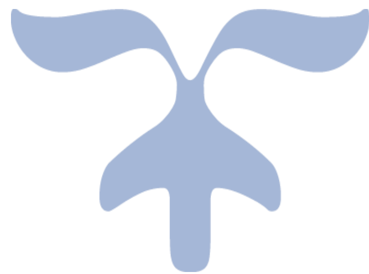
وقد انطلت الحجة على من أراد الفساد في الأرض وعلى كل من كان من الفاسقين، فصدقوا دعوى فرعون هذه، فاستطاع فرعون أن يستخفهم حتى جعلهم الله سلفا ومثلا للآخرين.

(دعاء: أعوذ بك ربي أن تجعلني سلفا ومثلا للآخرين ، وأعوذ بك رب أن أكون من القوم الفاسقين، وأعوذ بك رب أن أكون من اللذين يستخفهم من ناصبوك العداء كما فعل كبيرهم فرعون من قبلهم، وأعوذ بك أن يكون أمري كأمر فرعون، إنك كنت بي بصيرا – آمين).



قصة يونس

الجزء الثامن عشر



قصة يونس: الجزء الثامن عشر

- الله: إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12)
- فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (30)
- فرعون: فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)

السؤال: لماذا جاءت مفردة إِنِّي في السياقات القرآنية التي تحدّث بها الإله عن نفسه (إِنِّي أَنَا رَبُّكَ) و (إِنِّي أَنَا اللَّهُ)، بينما لم ترد مثل هذه المفردة عندما نسب فرعون لنفسه الإلوهية، فجاء النص هكذا: أَنَا رَبُّكُمُ؟

قواعد تقليدية: غالبا ما تغنى أهل اللغة بالفائدة من وجود مفردة "إنّ" في النص اللغوي، فنسب جلّهم الغاية من وجود هذه المفردة إلى معنى التوكيد، فظنوا أن هذه المفردة تستخدم لأغراض توكيد القول، لكننا سنطرح السؤال التالي على كل من ظن بأن "إن" تستخدم لأغراض التوكيد: لِم يحتاج الله أن يؤكد أنه هو الرب (إِنِّي أَنَا رَبُّكَ) أو أنه هو الله رب العالمين (إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)؟ ولِم لم يحتاج فرعون أن يؤكد ذلك واكتفى بالقول (أَنَا رَبُّكُمُ)؟ أليس فرعون هو من بحاجة أن يؤكد ما يقوله لكي يقتنع الآخرون بكلامه؟ نحن فقط نسأل.

رأينا المفترى: نحن ننفي جملة وتفصيلا أن تكون وظيفة (إنّ) في السياق القرآني هي التوكيد، وذلك لأن الله لا يحتاج أن يؤكد ما يقول، لأن قوله الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ولو كانت "إنّ" تفيد توكيد القول، لكان فرعون (نحن نعتقد) أحوج إلى ذلك من رب العالمين. ففرعون هو الكاذب الذي يحاول أن يخدع الآخرين بكلامه، وهو من بحاجة أن يؤكد كلامه لكي تنطلي الحجة الكاذبة على من هم حوله.

السؤال: ما فائدة استخدام "إنّ" في النص القرآني إذن؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن هذه المفردة لا تستخدم في النص القرآني إلاّ من أجل تقرير حقيقة من قبل المتكلم، وكفى. فلو تتبعنا جميع السياقات القرآنية التي ترد فيها هذه المفردة، لوجدنا أنها تقرر حقيقة لا يمكن المجادلة فيها. فالمتكلم الذي يستخدم مفردة "إنّ" ينقل إلى السامع ما يريد أن يقوله له على وجه الحقيقة، فهذا يوسف ينقل الحقيقة التالية لوالده:

- إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (4)

وها هو يقرر الحقيقة التالية لأخيه الذي لا يعرفه:

- وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (69)

وهذا إبراهيم يوصل الرسالة التالية على وجه الحقيقة لابنه الذي يريد أن يذبحه:

- فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102)

والحقائق الواردة في كتاب الله كما صيغت باستخدام هذه الأداة كثيرة جدا، نذكر منها على سبيل المثال:

- إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (62)
- إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحًا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (69)

- **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (277)**
- **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً (137)**

السؤال مربك: إن صح ما تقول، لم قال فرعون (ومن معه) عن موسى وأخيه هارون أنهما ساحران بالصيغة التالية:

- **قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (63)**

لاحظ عزيزي القارئ الحركة الإعرابية التي اشتغل بها الكثيرون حيث جاء اسم إنْ مرفوعا بدل أن يكون منصوبا، وقد عزى بعض النحويين ذلك إلى أن قول فرعون جاء بصيغة إنْ (المخففة كما يحب أهل اللغة والنحو العربي أن يسمونها) بدل إنّ (المشددة)، أليس كذلك؟

السؤال: لماذا استخدمت إنْ المخففة وليست إنّ المشددة في هذا السياق القرآني على وجه التحديد؟ ألم يكن بإمكان فرعون (ومن معه) أن يقولوا "إنّ هذان لساحران" مثلا؟ أو أن يقول إنّ هذين لساحرين؟

رأينا المفترى: كلا، لأنه لو استخدم فرعون إنّ المشددة، لجاء كلامه (نحن نظن) على نحو أنه يقرر حقيقة، وهذا ما لا يصح. ففرعون يعلم أن موسى وأخيه هارون ليسا بساحرين ولكنه يحاول أن يقنع غيره بهذا الاتهام الذي هو لا شك من عنده، ولكن المدقق في كلام الرجل يعرف على الفور أنه لا يقرر بذلك حقيقة بل هو ليس أكثر من رأي المتكلم فقط. لذا لمّا لم يأتي كلامه في باب تقرير حقيقة، فإنه لم يستخدم إنّ المشددة واستخدم إنْ المخففة، متلاعبا باللفظ كما تلاعب بعقول من حوله، فاستخدم إنْ التي تدل على أن المتكلم لا يقصد أن يكون كلامه واقعا في باب تقرير حقائق هو مؤمن بها، ولكنها فقط اتهامات هو ينسبها لغيره وهي في الحقيقة غير صحيحة، ربما تبين لاحقا فينكشف له ولغيره الأمر، ولن يستطيع الآخرون أن يقيموا الحجة على الرجل لأنه سيستطيع التنصل من ذلك بكل سهولة ويسر، فهو لا يحتاج أن يقول لهم أكثر من أني لم أقل لكم "إنّ هذين لساحرين" ولكني قلت لكم إن هذان لساحران، وكفى..

السؤال: لماذا هذه المقدمة اللغوية ربما غير الضرورية؟ يسأل صاحبنا. ما علاقة هذا الكلام بمحور حديثنا عن علم فرعون الذي حازه (كما افترينا القول سابقا) من القرون الأولى؟

جواب مفترى: نحن نحاول تبيان قضية نظن أنها مفصلية في قصة فرعون مع موسى هنا، ألا وهي علم فرعون اليقيني بالتفريق بين ما هو سحر وما هو آية من آيات الله الكبرى. ليكون غاية كلامنا هنا هو الافتراء التالي: ما أن رأى فرعون بأم عينه ما فعلت عصا موسى بحبال السحرة وعصيهم حتى أدرك على الفور أن هذه آية كبرى يستحيل أن ينازلها مباشرة، فحاول تأجيل اللقاء إلى موعد آخر حتى ينظر في الأمر من جديد، فجاء كلامه وكلام الذين ناصروه على النحو التالي:

- **قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (63)**

فكلامهم هذا (بحضور فرعون) لم يكن ليقع (نحن نفتري القول) في باب إقرار حقيقة هم مؤمنون بها جميعا، بل في باب الظن الذي لا يستند إلى الدليل أو لنقل في باب الرأي القابل للصواب والخطأ، وربما يؤكد زعمنا هذا ما جاء في السياق القرآني السابق واللاحق لهذه الآية الكريمة، حيث بدأ النزاع يأخذ طريقه بينهم منذ تلك اللحظة، وما كان الأمر سيحسم إلا بالمنازلة الحقيقية بين الطرفين. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- الآية في سياقها الأوسع:

- فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى (62) قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (63) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (64)

نتيجة مفتراة: لو راقبنا خطاب فرعون كما ورد في كتاب الله، لوجدنا أنه يخلو تماما من إثبات الحقائق، وأن جلّه يعود على ما يظن الرجل بصحته، ولا يجزم به على أنه هو الحق بعينه. فعندما قال لهم الرجل أنه هو ربهم الأعلى:

- فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)

لم يستخدم الرجل "إنّ" التي تدل على إقرار حقيقة يصعب المجادلة فيها كأن يقول "إني أنا ربكم الأعلى"، ولكن جاء كلامه من باب علمه الشخصي بالأمر، فما وقع كلامه في غير باب الظن (غير الحق) المستند على علمه الشخصي بالأمر:

- وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39)

فالكلام إذن ينسب إلى علم فرعون بالأمر وكفى (مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي).

إن هذا الكلام يعيدنا على الفور إلى باب علم فرعون، لنطرح السؤال نفسه مرة أخرى: كيف استطاع فرعون أن يوقع كل من حوله في شراكه؟ وكيف أقنع جنوده بالاصطفاف حوله ومطاردة موسى حتى البحر بالرغم من كل ما قدّمه لهم موسى من الآيات المبصرات؟

إن هذا الطرح يثير في جوانبه تساؤلات كبيرة جدا نذكر منها:

⇐ لماذا أصر فرعون على موقفه؟
⇐ لماذا استمر الجنود في تأيده؟
⇐ لِم أصر فرعون على الاستمرار في المواجهة؟
⇐ لماذا تبع فرعونُ وجنودُه موسى وبني إسرائيل إلى البحر؟
⇐ لِم لم يَدعْ فرعونُ موسى يرحل ببني إسرائيل عن أرض مصر وكفى؟
⇐ ألم يكن الأسلم للطرفين أن يكفوا عن المواجهة؟
⇐ وهل فعلا هرب موسى من المواجهة؟
⇐ ألم يكن بيده آية الله الكبرى؟
⇐ لم حصلت المواجهة عند البحر على وجه الخصوص؟
⇐ لِم لم تحصل من ذي قبل في اليابسة في أرض مصر؟
⇐ لماذا أقدم فرعون وجنوده على الخوض في البحر عندما رأوا ما فعلت عصا موسى بذلك البحر؟
⇐ أليس في خوضهم البحر وراء موسى وبني إسرائيل مجازفة كبيرة غير معروفة النتائج؟
⇐ ألم يصبح واضح لهم مقدار ما يمكن أن تفعله عصا موسى هذه بهم؟

⇐ وإذا كان فرعون قد أصر على المضي قدما في البحر (بعد أن انفلق بفعل عصا موسى)، فلم تبعه الجند؟

⇐ أليست تلك مجازفة حمقاء؟

⇐ الخ.

هذه جملة من التساؤلات التي نظن أنها قد تبين (متى ما أذن الله لنا بشيء من علمه فيها) بعد أن نتبيّن ماهية العلم الذي كان يملكه فرعون، وكذلك مصدر العلم الذي كان يغترف منه. فنحن نفتري الظن بأنه لو لم يكن فرعون يظن أن بيده مقومات المواجهة لما أقدم عليها، ولربما كان أقل ما يمكن أن يفعله فرعون هو أن يذر موسى وقومه يرحلون عن أرض مصر بهدوء ودون إحداث جلبة هو في غنى عنها مادام أن موسى قد رحل ببني إسرائيل وآثر الخروج من مصر تاركا البلاد لأهلها، مقرا لفرعون بملكه على مصر. فهذه كانت رسالة موسى الواضحة إلى فرعون منذ البداية، ألا وهي إرسال بني إسرائيل معه، تاركا مصرا لأهلها الحقيقيين، وهم فرعون وقومه:

- حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (105)

السؤال: لماذا إذن لم يلبي فرعون دعوة موسى هذه منذ أن شعر أن المواجهة قد تنتهي لصالح موسى؟ وبكلمات أكثر دقة نحن نسأل: لِم لم يرسل فرعونُ بني إسرائيل مع موسى وكفى؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن فرعون كان يعتقد أنه يملك مقومات المواجهة التي (في ظنه) تمكّنه من تحقيق النصر على موسى ومن معه.

السؤال: لماذا كان فرعون يظن أنه قادر على المواجهة؟

رأينا المفترى: لأنه كان يملك من العلم ما يجعله يؤمن بقدراته التي يمكن أن تمكّنه من موسى ومن معه.

السؤال: ما مصدر علم فرعون؟ وما هو علمه أصلا؟

باب مصادر علم فرعون

حاولنا في الجزء السابق تمرير افتراءنا بأن فرعون هو الوريث الأكبر لما كان من علم القرون الأولى خاصة عاد وثمود، والرابط بين هذه الأطراف الثلاثة واضح في الآيات الكريمة التالية:

- **وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (4) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (5) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (9) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (13) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14)**

فهناك أطراف ثلاثة هم من أكثروا في الأرض الفساد، وهم من صب عليهم ربك سوط عذاب، وهم من كان الله بنفسه لهم بالمرصاد، ألا وهم:

⇐ عاد (قوم هود)

⇐ ثمود (قوم صالح)

⇐ فرعون بشخصه

لتكون النتيجة المفتراة التي سنحاول الدفاع عنها تاليا هي أن فرعون بشخصه كان يملك من العلم ما قامت عليه تلك القرون الأولى، أي عاد (الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ) وثمود (الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ). لكن هذا لا يمنع من حيث المبدأ أنه قد تحصل لفرعون من علوم القرون الأخرى ما لا يعلمها إلا الله.

الدليل

بداية، نحن نظن أنه يجب التمييز بين العلم الذي اختص فرعون به نفسه والعلم الذي شاركه به غيره. فلا شك عندنا أن الفترة الزمنية التي عاش بها فرعون كانت تتميز بالعلم بدليل ما كان من أمر قارون وهامان من جهة وما كان من أمر هارون وموسى وصاحب موسى من جهة أخرى. لكن ما نود أن نجلب انتباه القارئ الكريم له هو أنه في حين أن الكثيرين كانوا على علم في تلك الحقبة الزمنية إلا أن فرعون (نحن نفتري الظن) كان أكثرهم علما على الإطلاق بدليل أنه هو من تميّز بالصفة التي نعته الله بها في سياق الحديث عن صفات القرون الأولى، فكانت على النحو التالي:

⇐ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8)

⇐ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (9)

⇐ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10)

وهم جميعا من انطبقت عليهم الصفات التالية:

- **الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (13) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14)**

لتكون النتيجة التي نجهد أنفسنا للوصول إليها على النحو التالي:

⇐ 1. علوم يشترك بها كثيرون

⇐ 2. وعلوم اختص بها فرعون على وجه التحديد

أما بالنسبة للعلوم التي شارك فيها فرعون غيره، فلم تكن حكرا على فرعون بشخصه، فهو العلم الذي كان متوافرا في زمنه لفرعون ولآخرين غيره، كعلم بلوغ الأسباب مثلا. ففرعون هو من طلب من هامان أن يبني له صرحا بعد أن يوقد له على الطين لعله يبلغ الأسباب، فيطلع إلى إله موسى:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36)**

نتيجة مفتراة مهمة جدا: طلب فرعون من هامان مساعدته في بلوغ الأسباب وذلك بأن يقوم الأخير (هَامَانُ) ببناء صرح يمكّن الأول (فِرْعَوْنُ) من بلوغ الأسباب. ليكون هامان إذن يملك من مقومات هذا العلم من يجعله يقدّم المساعدة لفرعون نفسه. وليكون علم بلوغ الأسباب في بعض جوانبه ليس حكرا على فرعون مادام أن هامان قد ساهم فيه.

ولو أمعنا التفكر في الأمر قليلا، لوجدنا أن فرعون كان يشبه في هذه الجزئية سليمان الذي سخر الله له كل بناء وغواص:

- **فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ (36) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاصٍ (37)**

ويكأن هامان (من أنجز مهمة البناء لفرعون) إذن بمثابة الشياطين اللذين سخرهم الله لسليمان ليبنوا له الصرح. وهذه المقارنة (نحن نظن) ضرورية في هذا السياق وذلك لأن سليمان (بالإضافة لفرعون من قبله) هو الوحيد على مساحة النص القرآني من كان له صرحا، فهل هذه إذن محض مصادفة؟

- قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (44)

ولتكون النتيجة التي نحاول تسويقها الآن هي أن علم بناء الصروح هو من اختصاص الشياطين، فما كان يستطيع هامان فعله هو ما كانت الشياطين قادرة عليه. لكن نظن أنه يجب علينا هنا ملاحظة أمر نظن أنه غاية في الأهمية ألا وهو التالي: على الرغم أن الشياطين (نحن نكاد نجزم القول) هي من بنت الصرح لسليمان، إلا أنهم لم يكونوا قادرين على الاقتراب منه، بدليل أنهم ما علموا بموت سليمان إلا بعد أن خر:

- فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (14)

لذا يجب التفريق بين من يستطيع بناء الصرح (كـ هامان والشياطين) ومن يستطيع أن يستخدم ذلك الصرح لأغراض خاصة به (كفرعون وسليمان):

- وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36)

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى: لأن الصرح هو فقط الأداة التي من خلالها يمكن بلوغ الأسباب.

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن هامان كان قادرا على بناء الصرح لكنه ربما لم يكن قادرا على الارتقاء في الأسباب، فلو كان هامان قادرا على ذلك، لربما وجدنا واحدة من السيناريوهات التالية:

1. **أن يطلب فرعون منه شخصيا أن يبلغ الأسباب**
2. **أن يرتقي هامان بنفسه في الأسباب حتى دون طلب من فرعون**

لكن النص القرآني على مساحته يخلو (نحن نفتري الظن) من الدليل الذي قد يؤيد أيّا من هذين السيناريوهين الافتراضيين. وجلّ ما نجده هو أن فرعون هو من كان قادرا على بلوغ الأسباب والإطلاع على إله موسى:

- وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36)

ولو دققنا في النص القرآني أكثر لوجدنا أن علم الارتقاء في الأسباب – نحن نظن- لم يكن حكرا على فرعون، فغيره ربما يستطع ذلك:

- أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ (10) جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ (11) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (12) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُوْلَئِكَ الْأَحْزَابُ (13)
- وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)

ولو أمعنا في الترابط النصي في هذه الآيات الكريمة لوجدنا أن علم بلوغ الأسباب هذا هو من علم القرون الأولى (كعاد وثمود وفرعون ذُو الْأَوْتَادِ). انظر الآيات السابقة جيدا مرة أخرى من هذا الجانب:

- أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ (10) جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ (11) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (12) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُوْلَئِكَ الْأَحْزَابُ (13)

ولو تفقدنا الخطاب في هذه الجزئية على مساحة النص القرآني كله لربما صح لنا أن نفتري الظن بأن أكثر من برع في هذا العلم (علم الارتقاء في الأسباب) هو ذو القرنين الذي كان على الدوام يتبع سببا:

- **وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (83) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (84) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (85)**

نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا: كان علم بلوغ الأسباب من العلوم التي حازت عليها القرون اللاحقة من القرون الأولى. وقد تحصل لفرعون وملئه (كـ هامان) من هذا العلم ما مكّنهم من بلوغ الأسباب ببناء الصروح ومن ثم الإطلاع إلى إله موسى.

تلخيص ما سبق: لمّا كان علم بلوغ الأسباب متوافرا في أرض مصر حينئذ، طلب فرعون من هامان أن يبني له صرحا علّه يبلغ من خلاله أسباب السموات والأرض فيطلع إلى إله موسى، ولمّا كنا نؤمن أن هامان هو من قام ببناء هذا الصرح بطلب مباشر من فرعون، فربما يحقّ لنا الخروج الافتراءات المستنبطة التالية:

⇐ كان علم بلوغ الأسباب متوافرا حينها في أرض مصر، فمن غير المعقول أن يطلب فرعون من هامان أن يفعل ذلك لو أن ذلك العلم كان غير موجود أصلا

⇐ كان ذلك العلم متاحا بسهولة وذلك لأن هامان (نحن نفتري القول) لم يتردد في تنفيذ طلب فرعون هذا، فلو لم يكن هامان قادرا على ذلك لربما تلكأ في تنفيذ طلب فرعون، ولربما تساءل عن كيفية فعل ذلك، أو لربما أبدى الرجل عجزه عن القيام بذلك.

⇐ مادام أن علم بناء الصروح التي تمكّن من بلوغ الأسباب كان متواجدا في أرض مصر ولم يكن حكرا على فرعون بذاته، لذا لا نستغرب أن يكون منتشر ا في أرض مصر، ظانين أن هناك صروحا كثيرة متواجدة حتى الساعة في أرض مصر مادام أن ما فعله هامان هو بناء صرح واحد على سبيل التنكير:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36)**
- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)**

فلا غرابة إذن أن نجد بقايا آثارها حتى يومنا هذا لتكون دليلا وافرا على ما كان من أمر القرون الأولى التي لا شك كانت أكثر منا أولادا وأكثر آثارا وأشد قوة.

⇐ الخ

السؤال: أين هي تلك الصروح التي تدل على وجود هذا العلم في أرض مصر؟

جواب مفترى: انظر مقالاتنا تحت عنوان ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته: باب الصرح، حيث الحديث منصبا على ذلك الصرح الذي كان يسكنه سليمان:

- **قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (44)**

ولا تستطيع الجن من الاقتراب منه، بدليل أنهم ما علموا عن موت سليمان إلا عندما خر:

- **فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (14)**

السؤال: وهل فعلا بنا هامانُ لفرعون صرحا؟ يسأل صاحبنا مستغربا. أليس من الممكن أن هذا يقع في باب الكلام وكفى؟ ألا يمكن أن يكون فرعون "بتخوث" (باللهجة الأردنية الدارجة)؟

جواب مفترى: نحن نعتقد أنه من الأولى أخذ النص القرآني بالجدية التي تليق به، فالمتكلم هو فرعون (صاحب القرار الأول والأخير في أرض مصر) والمخاطب هو وزيره هامان (الذي لن يستطيع إلاّ أن ينفذ أمر فرعون) والطلب هو أن يقوم هامان بتنفيذ مراد فرعون ببناء الصرح. فهل في هذا مجال للتلاعب؟

والأهم من هذا كله هو أنه لو راقبنا النص القرآني، لما وجدنا أن هناك نفي لقيام هامان بالمهمة على أكمل وجه. فالقرآن الكريم لم يبين لنا بأن فرعون قد قال هذا الكلام من باب إطلاق الكلام الفارغ، والنص القرآني لم يخبرنا بأن هامان لم ينفذ أمر فرعون، لتكون النتيجة على النحو التالي: قام هامان ببناء صرح لفرعون لعله يبلغ الأسباب فيطلع إلى إله موسى:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)**

السؤال: إذا كان هامان قد بنا صرحا لفرعون، فهل فعلا اطلع فرعون إلى إله موسى كما قال؟

جواب مفترى خطير جدا: نعم، لقد اطلع فرعون إلى إله موسى.

السؤال: أين الدليل على ما تزعم؟ يقول صاحبنا مستغربا.

جواب مفترى: نحن نظن أن الآية الكريمة التالية التي تصور لنا ما قاله فرعون لحظة أن أدركه اغرق ربما تثبت (كما نفهمها بالطبع) افتراءنا هذا:

- **وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90)**

السؤال: وهل في هذا دليل على أنّ فرعون قد اطلع فعلا إلى إله موسى؟ يسأل صاحبنا.

رأينا المفترى: لو دققنا فيما قاله فرعون بلسانه لوجدنا أنه ينفي الإلوهية عن أي مصدر آخر غير ذاك الإله الذي آمنت به بنو إسرائيل:

- **... قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90)**

السؤال: وما الغريب في ذلك؟

رأينا: نحن نفهم الكلام على النحو التالي: لقد كان فرعون واع تماما لم يقول، فهو يعلم تماما من يمكن أن يكون إله ومن لا يمكن أن يكون إله. فهو أساسا من ادعى لنفسه الإلوهية من قبل:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39)**

وهذا يدلّنا على أن فرعون يستطيع أن يحدد مواصفات من هو فعلا إله. ولو دققنا في ما قاله فرعون لحظة أن أدركه الغرق سنجد على الفور أن فرعون لم يقل ذلك من باب الإتباع (أي التقليد). وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في النص مرة أخرى:

- **... قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90)**

لذا، نحن نفتري الظن بأنه لو كان إيمان فرعون في تلك الساعة قد جاء من باب الإتباع الأعمى، لربما جاء قوله على النحو التالي:

- **... قال آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين**

ولكن لمّا كان إيمان فرعون (نحن نفتري الظن) قد جاء نتيجة علم يقيني، فقد نفى الرجل بأن يكون هناك إله آخر غير ذاك الإله الذي آمنت به بنو إسرائيل:

- **... قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90)**

السؤال: كيف علم فرعون أن ليس هناك إله غير الذي آمنت به بنو إسرائيل؟ وبكلمات أخرى نحن نسأل: إذا كان الرجل يعلم أنه هو نفسه ليس بإله، ألم يكن بالإمكان أن يكون هناك إله آخر غيره أو غير ذاك الذي آمنت به بنو إسرائيل؟ فلماذا حصر فرعون (نحن نسأل) الإلوهية كلها بإله بني إسرائيل فقط؟

جواب مفترى: لأنّ كلام فرعون جاء من باب من يعلم الآن ما يقول، فهو من اطلع إلى إله موسى بعد أن بلغ الأسباب بواسطة الصرح الذي بناه له هامان، وهناك وجد موسى الإله الذي آمنت به بنو إسرائيل حقيقيا، وهناك وجد الرجل أن هذا الإله هو الإله الأوحد الذي ليس كمثله إله آخر يستحق أن يؤمن به.

السؤال: هل كلامك هذا يثبت أنه فعلا اطلع إلى إله موسى؟ ألا يمكن أن يكون قول فرعون قد جاء من باب الظن؟

رأينا: كلا وألف كلا. فيجب أن نراقب كلام فرعون منذ البداية حتى النهاية.

لاحظ أولا - عزيزي القارئ- ما قاله فرعون عندما طلب من هامان أن يبني له صرحا لعله يبلغ الأسباب فيطلع إلى إله موسى:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39)**

ألا تجد أن فرعون في تلك اللحظة (أي قبل بناء الصرح) يظن بأن كلام موسى يقع في باب الكذب (وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ)؟

نتيجة مهمة جدا: قبل بناء الصرح جاء كلام فرعون الخاص بإله موسى يتسم بالظنية (وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ)، أي عدم التيقن من حقيقة الخبر.

السؤال: ما الذي تغيّر عندما أقر فرعون بأن إله بني إسرائيل هو الإله الذي لا إله غيره لحظة أن أدركه الغرق:

- **... قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90)**

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نتخيل ما حصل مع فرعون على النحو التالي: كان فرعون على علم عظيم، وكان عنده من أسباب القوة ما يجعله يظن أنه هو نفسه إله، وكان يعتقد أنه يستطيع منازلة الآلهة الأخرى غيره. لذا عندما جاءه موسى بالرسالة وأراه الآية الكبرى، بدا الشك يساور اليقين عنده. ولكنه لم يكن يجزم بالأمر، وفعلا أدبر يسعى، فحشر فنادى، وهناك جهر فرعون بربوبيته لهم:

- **إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (16) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (17) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى (18) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (19) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)**

السؤال: لماذا قال فرعون للقوم بأنه ربهم الأعلى؟ ألم يكن بالإمكان ن يقوله لهم بأنه ربهم وكفى؟ فلم قال الرجل بأنه هو الأعلى؟

جواب مفترى: نحن نظن أن السبب وراء ذلك ربما يكمن في الافتراء بأنه أصبح هناك من ينافسه على هذا المنصب (الإله)، لذا كان على فرعون أن يبيّن للناس من حوله مكانته الشخصية مقارنة بهؤلاء الآلهة الآخرين، خاصة الإله الذي تؤمن به بنو إسرائيل. فما كان منه إلاّ أن نصّب من نفسه أنه هو الرب الأعلى:

- **فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)**

ويكأن فرعون (نحن نظن) يريد أن يقول لمن حوله بأنه حتى لو كان هناك آلهة أخرى غيري وهو ما لا أعلمه لكم حتى الساعة:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ...**

إلا أن وجود هذه الآلهة الأخرى لن يقلل من شأني لأني أنا الأعلى من بينهم جميعا:

- **فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)**

وحتى نقطع الشك باليقين، فدعنا (نحن نتخيل فرعون يقول لمن حوله) نطلع إلى ذلك الإله الذي يتحدث موسى عنه، فلابد من الذهاب إلى هناك، ولكن هذا الذهاب يحتاج أولا إلى بناء الصرح (وهو ما يستطيع هامان فعله)، وبلوغ الأسباب (وهو ما استطيع أنا أن أقوم به بنفسي)، فدعنا نقوم بالمهمة على الفور. فجاء خطابه في حضور ملئه موجها إلى هامان على وجه الخصوص:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)**

نتيجة مفتراة مهمة جدا 1: كان فرعون على علم عظيم يميزه عن كل من حوله.
نتيجة مفتراة مهمة جدا 2: كان هذا العلم من الخطورة بمكان أن جعلت فرعون يظن أنه هو الإله الأعلى.

الدليل

إذا كان كلامنا السابق هذا غير قطعي لإثبات مكانة فرعون العلمية التي تميزه عن غيره، فإننا قد نجد الدليل في مكان آخر بعد طرح التساؤل التالي: إذا كان فرعون هذا قد وصل إلى درجة الجنون بأن ادعى لنفسه الإلوهية فصدق نفسه، أليس من غير الطبيعي أن يقتنع كل من حوله بما يقوله فرعون لهم خاصة بعد أن قدّم لهم موسى من الآيات ما كانت كل آية هي أكبر من أختها؟

وإذا كان فرعون قادرا على إقناعهم لفصاحة لسانه، فهل أعيت الحجة من شهد له موسى بالفصاحة فكان رسولا آخر من رب العالمين إلى فرعون وقومه:

- **وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (34) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (35)**

فلم لم تجدي فصاحة هارون نفعا أمام ادعاءات فرعون "الكاذبة" هذه؟

ثم، ألم يقدّم موسى لهم الآيات التسعة، حتى إذا جاءتهم كل آية كانت أكبر من أختها، فلم كان ردة فعل القوم على نحو أنهم كانوا منها يضحكون؟

- **فَلَمَّا جَاءهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (47) وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (48)**

ثم، لم أصر فرعون على موقفه بالرغم من كل الآيات التي رآها بأم عينه؟ ألم تكن ردة فعله على نحو أنه كذب وأبى؟

- **وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (57) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى (58)**

ثم، ألم تحصل المنازلة بين الطرفين مرة أخرى في مكان سوى، ألم تلقف العصا ما كانوا يأفكون؟

- **قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (43) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (44) فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (45)**

ألم يقع الحق هناك وبطل ما كانوا يعملون؟

- **وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (117) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (118) فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ (119)**

ألم ينسحب فرعون بكل ذكاء من المواجهة مؤجلا الحسم بينهم إلى مرات قادمة، فتوعد السحرة بتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف والتصليب في جذوع النخل؟

- **قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (123) لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (124)**
- **قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (71)**
- **قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (49)**

السؤال الحتمي: لم إذن بقيت الغالبية العظمى من ملأ فرعون وقومه وجنوده في صفه؟ هل فعلا كان فرعون يؤثر عليهم بالكلام وكفى؟ أم هل كان يؤثر عليهم بالتهديد والوعيد فقط ؟

رأينا: كلا وألف كلا، وذلك لأن كلام فرعون لم يكن ليصمد أمام فصاحة هارون (لو أن الأمر كان مجرد كلام)، ولم يكن وعيد فرعون لينفع مادام أن السحرة قد تحدوه مباشرة:

- **قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72)**

السؤال: لِم لم تكن ردة فعل ملأ فرعون على هذه الشاكلة؟

السؤال: لِم لم تكن ردة فعل قوم فرعون على هذه الشاكلة؟

السؤال: لماذا استمر ملأ فرعون وقومه بتأييده ضد موسى ومن معه بالرغم من كل من رأوه من الآيات المبصرة التي قدمها لهم موسى وأخوه هارون؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الأمر كان أكثر من مجرد الكلام وأن الأمر كان أكبر من مجرد وعيد وتهديد. فنحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن السبب هو أن ملأ فرعون وقومه يعلمون فعلا مكانة الرجل الحقيقية فيهم، فهم قد خبروه من قبل ويعلمون أنه يملك من المقومات ما يمكن أن تجعله يتفوق على كل ما رأوه بأم أعينهم مما يملك موسى من الآيات المبصرة.

الدليل

دعنا نفهم بداية ما حصل فعلا على أرض الواقع كما نتخيله بناء على فهمنا المفترى للسياقات القرآنية الخاصة بالقصة.

السؤال الأول: لماذا لم يكن فرعون يستطيع تنفيذ وعيده في الحال بحق السحرة اللذين ألقوا ساجدين؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: ما أن رأى فرعون بأم عينه ما فعلت العصا بحبال السحرة وعصيهم، وما أن رأى بأم عينه ردة فعل السحرة أنفسهم، حتى أصبح الهاجس كبيرا في نفسه أن ما يفعله موسى هو بتأييد إله عظيم غيره، فهذا الذي جرى على أرض الواقع ليس (حسب علم فرعون) من صنيع البشر العاديين، ولابد من وجود قوة خارقة تؤيد الطرف الآخر (أي موسى وأخاه هارون). لذا كانت الخطة التالية عند فرعون هو أن يتبيّن بنفسه ماهية تلك القوة العجيبة التي تؤيد خصمه ضده، فكان لابد من أن يطّلع فرعون بنفسه إلى إله موسى ليتأكد مما يقول الرجل. وبالفعل، يأمر فرعونُ هامان بأن يبني له صرحا لعله يبلغ الأسباب فيطلع إلى إله موسى، وفرعون (نحن نتخيل) لا زال حتى هذه اللحظة أميل إلى الظن أن ما يقوله موسى يقع في باب الكذب:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)**

فيقوم هامان (نحن نفتري الظن) بتنفيذ مراد فرعون في الحال، فيبني له صرحا يمكنه من بلوغ الأسباب، أي أسباب السموات والأرض، فيطلع فرعون إلى إله موسى، فيجده، وعندها يدرك فرعون أن هذا إله عظيم.

السؤال: إذا كان ما تقوله صحيحا، فلمِ لم يتراجع الرجل عن موقفه؟ لِم لم يؤمن إذن بالرسالة التي جاءته من رب العالمين على لسان موسى وأخيه هارون؟

- **فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (47)**

جواب مفترى: إنه الكبر.

نحن نفتري القول بأن الكبر الذي كان متواجدا في نفس فرعون هو ما منعه حتى الساعة من أن يقر بالإلوهية لهذا الإله بعد أن اطلع إليه. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في السياق الذي جاء فيه اطلاع فرعون إلى إله موسى لتجد أن الاستكبار حاضرا في المشهد:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39)**

ولو راقبنا الآية التي تبعت آية الاطلاع إلى إله موسى لوجدنا أنها تتحدث عن استكبار فرعون وجنوده، أليس كذلك؟ وصريح اللفظ يبين لنا بأن استكبار فرعون وجنوده في الأرض كان استكبارا بغير الحق (وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ). لنطرح من خلال ذلك سؤالين اثنين وهما:

⇐ لماذا استكبر فرعون وجنوده في الأرض؟

⇐ لماذا كان استكبارهم بغير الحق؟

جواب مفترى خطير جدا لا تصدقوه: نحن نظن أن استكبار فرعون كان في الأرض بدليل قوله تعالى (وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ)، وذلك لأن فرعون (في ظننا) قد أصبح مقتنعا أنه هو إله على الأرض فقط، وإذا كان إله موسى موجود فهو إله موجود بغير الأرض، فإله موسى لا يكاد يبين هنا حتى وإن كان موجودا هناك:

- أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: عندما اطلع فرعون إلى إله موسى وجد أنه فعلا إله، لكنه رفض بأن يقر له بالإلوهية على الأرض، ظانا أنه هو أحق بها منه هنا، فكان استكباره في الأرض:

- وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39)

وربما يؤكد زعمنا هذا ما نفهمه من قوله تعالى في الآية الكريمة نفسها (وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ). ففرعون الآن يعلم أن هناك في مكان آخر (غير الأرض) إله غيره، لكنه لن يرجع إليه هو وجنوده. فهو إله (نحن نتخيل فرعون يقول في نفسه ولمن حوله من جنوده) لا علاقة له بنا كما أنه لا علاقة لنا به، فنحن لن نرجع إليه مادام أنه هو لن يرجع إلينا، فكان ذلك ظنهم بربهم الذي أرداهم:

- وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنْ الْخَاسِرِينَ (23)

نتيجة مهمة جدا: نحن نظن أن استكبار فرعون وجنوده في الأرض كان مصدره هو ظنه بالله الذي يمكن أن نفهمه على النحو التالي: بعد أن اطلع فرعون إلى إله موسى، أصبح الرجل يقرّ بأن هناك في هذا العالم الفسيح إله غيره، لكن هذا الإله ليس الإله الأحد الصمد، لذا فإن الأمر ليس كله لهذا الإله، ظانا بأنه لن يرجع إليه، فأصبح ظن فرعون بإله موسى هو ظن الجاهلية:

- ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (154)

نتيجة مفتراة مهمة جدا: أصبح جدال فرعون منذ أن اطلع إلى إله موسى لا يتعلق بوجود هذا الإله أم عدم وجوده، ففرعون الآن يدرك تماما وجود هذا الإله، لذا أصبح الجدال يخص صلاحيات هذا الإله مقابل صلاحيات الآلهة الأخرى غيره مثل فرعون نفسه. فأصبح ظن فرعون وجنوده أنهم مستقلون عن هذا الإله تماما وأنهم إليه لا يرجعون.

نتيجة مهمة جدا: أصبح فرعون مستكبرا في الأرض، يقول على الله غير الحق:

- وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (93)

وأصبح فرعون منذ تلك اللحظة ممن تنطبق عليهم سنن الله في اللذين استكبروا في الأرض مثل القرون الأولى:

- وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ (20)
- سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ (146)
- فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (15)

تلخيص ما سبق من الافتراءات: ما أن اطلع فرعون إلى إله موسى حتى أدرك أنه فعلا إله عظيم، لكن استكباره في الأرض هو الذي منعه أن يقرّ لموسى بالتبعية مباشرة، فأجل القرار إلى إشعار آخر بدليل أن الله أنّبه على هذا التأخير الذي وقع فيه فرعون عندما أقر بالتبعية لحظة الغرق:

- وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91)

فلو تدبرنا الرد الإلهي على ما قاله فرعون لحظة أن أدركه الغرق عندما أقر بالوحدانية المطلقة لهذا الإله الذي آمنت به بنو إسرائيل:

- ... قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90)

لوجدنا أن الله يرد عليه بصيغة العالم بحال بفرعون من ذي قبل، فقال تعالى (آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ).

السؤال: لماذا جاء الرد الإلهي على هذا النحو؟

رأينا المفترى: نحن نرى (ربما مخطئين) بأن الرد الإلهي جاء على هذا النحو لأن الله يعلم أن فرعون قد أدرك هذه الحقيقة قبل هذه اللحظة، أي من قبل آلآنَ بأن إله بني إسرائيل هو الإله الأوحد الذي لا يجب أن يشرك معه أحدا. ولكن استكباره في الأرض هو الذي جعله يؤجل الإقرار بها. ففرعون قبل لحظة الغرق كان مدركا أن الله هو الإله الأوحد، وأن ما دونه هم آلهة مزيّفون، كفرعون نفسه الذي أدعى الإلوهية لنفسه من قبل.

السؤال: متى أدرك فرعون أن إله بني إسرائيل هو الإله الأوحد؟

جواب مفترى: نحن نظن أن ذلك لم يحصل قبل أن يبني له هامان الصرح لعله يبلغ الأسباب فيطلع إلى إله موسى، وذلك لأن ظن فرعون في تلك الساعة كان على نحو أن موسى من الكاذبين:

- وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)

ولكن بعد تلك اللحظة التي اطلع فيها فرعون إلى إله موسى تغيّرت الأمور تماما، فقد أصبح فرعون يدرك أن موسى من الصادقين. وأن هناك إله أوحد هو الذي اطلع إليه فوجده بعد بلوغه الأسباب، لكن بقيت مشكلة واحدة عند فرعون وهي الإقرار بهذه الحقيقة "التي ربما لم يكن فرعون يرغب أن تثبت له". فما الذي سيفعله بعد أن ثبتت له؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نتخيل أنه في تلك اللحظة أخذ الصراع الداخلي يشتد في نفس فرعون، فالرجل أمامه واحدة من خيارين:

1. أن يَصْدُق الناس من حوله، فيخبرهم بحقيقة ما وجده عندما اطلع إلى إله موسى
2. أن يسكت عن (أو يتحايل على) ما وجد بعد اطلاعه، فيستمر في خداع من حوله حتى النهاية

السؤال: فأي الطريقين سيسلك فرعون؟

جواب مفترى: لو تدبرنا ما فعل فرعون هذا ببني إسرائيل وبموسى وقومه لوجدنا فيه العجب. ففرعون هو الرجل صاحب السلطان الذي لا يرد له قول، ولكن مع ذلك نجد أن فرعون لم يقدم على قتل موسى:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (26)**

فتدبر هذه الآية الكريمة يثير التساؤل التالي على الفور: لم يحتاج فرعون أن يطلب الإذن ممن حوله حتى يقتل موسى؟ لم لا يأمر بقتل موسى في الحال، وكفى؟

ولو تدبرنا أكثر لوجدنا أن فرعون قد سمح لموسى أن يقدم للناس الآيات:

- **حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (105) قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (106) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (107) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ (108)**
- **قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (30) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (31) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (32) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ (33)**

لا بل فلقد ترك فرعونُ موسى يتبوء وقومه في أرض مصر بيوتا جاعلينها قبلة لهم:

- **وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (87)**

السؤال: لماذا ترك فرعون موسى وبني إسرائيل في أرض مصر هكذا دون اتخاذ قرار حاسم بشأنهم؟ ولماذا كان دائم التأجيل لاتخاذ القرارات الحاسمة. وانظر إن شئت ما قاله الاملأا لفرعون بخصوص موسى وبني إسرائيل:

- **وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ...**

ثم انظر قرار فرعون بخصوص الأمر في تتمة الية نفسها:

- **... قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127)**

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن ذلك له علاقة مباشرة بالصراع الداخلي الذي تولد في نفس الرجل. فالرجل يقع على مفترق طرق يصعب عليه أن يحسم أمره في أي اتجاه يجب أن يذهب:

⇐ أيسلك طريق العودة ويتراجع عن كل فساده السابق ويتنازل عن مكانته كإله في عيون قومه، وبالتالي يخسر كل هذه المكاسب بعد أن يقر بالتبعية من جديد لبني إسرائيل على يد موسى، والأهم من هذا كله هو الإقرار بالوحدانية المطلقة للإله الذي آمنت به بنو إسرائيل؟

⇐ أم يتابع السير في الطريق نفسها فيستمر في خداع من حوله وهم اللذين صدقوا أنه ربهم الأعلى، فآثروا الحياة الدنيا، والفرح فيها، ومن ثم تكذيب آيات الله؟

تخيلات مفتراة: في مثل هذه الحال (نحن نتخيل) وجد فرعون نفسه واقعا. وفي مثل هذه الحال (نحن نفتري الظن) كان الله قد وجده من قبل، فطلب من موسى وأخيه هارون الذهاب إليه ومخاطبته بالقول اللين علّه يتذكر أو يخشى:

- فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44)

فاحتمالية أن يتذكر فرعون أو أن يخشى كانت واردة تماما، بدليل أنها كانت تلك هي "الرغبة" الإلهية بحق فرعون. ولكن لمّا كان هذا الرجل من المفسدين غلبت عليه شقوته حتى بعد أن تليت عليهم آيات الله فكذب بها واستكبر في الأرض بغير الحق:

- أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (105) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (106)

السؤال: لماذا حصل هذا مع فرعون؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نظن أنه يجب أن نميّز بين نوعين من الناس: (1) من كان باحثا عن الله كموسى مثلا و (2) من كان ظانا أنه مستكبرا مستغنيا عن الله كفرعون. وفي ذلك فرق كبير جدا، فالباحث عن الله هو من تكفل الله بهدايته حتى لو كان ضالا، وليس أدل على ذلك مما حصل مع محمد نفسه. فالله هو من وجد محمدا ضالا، فكان الله هو من هداه:

- وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (7)

وقد فعل موسى فعلته عندما كان من الضالين:

- وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (19) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20)

لتكون النتيجة على النحو التالي: لا ضير أن تكون ضالا أو أن تكون من الضالين، وذلك لأن تلك هي سيرة الأنبياء أنفسهم كموسى ومحمد، لأن الله هو من تكفل بهداية من كان ضالا شريطة أن يكون الشخص باحثا عن الهداية.

(دعاء: اللهم إن وجدتني ضالا فاهدني صراطك المستقيم، فأنت من خلقتني وفطرتني وأنت من تهديني إليك، إنك أنت السميع البصير – آمين)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: لو كان فرعون ضالا، باحثا عن الهداية، لهداه الله، وذلك لأن الضال هو – برأينا- من كان يبحث عن الطريق. ولا شك أن الله هو من تكفل بهداية من يشاء الهداية:

- شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (13)
- وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (4) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (5)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أنه لو كان فرعون من قبل هذا ممن يشاءون الهداية، لهداه الله. ولكن فرعون لم يقر بالإلوهية المطلقة والتبعية لهذا الإله إلا لحظة أن أدركه الغرق:

- **وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90)**

ولو دققنا النظر في هذه الآية الكريمة لوجدنا أن فرعون لم يقر بالإلوهية المطلقة لهذا الإله الذي آمنت به بنو إسرائيل فقط (قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)، ولكنه أقر أيضا بأنه من المسلمين (وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ).

السؤال: لماذا أقر فرعون في تلك اللحظة أنه من المسلمين؟

رأينا المفترى: لأن فرعون قبل تلك اللحظة لم يكن من المسلمين، أي لم يكن ممن أسلم وجهه لله وعمل صالحا. بل كان من المفسدين. انظر الآية في سياقها الأوسع:

- **وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91)**

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: في لحظة الغرق أدرك فرعون أنه عليه أن يتخذ موقفين اثنين:
- أن يقر للإلهة الذي آمنت به بنو إسرائيل بالوحدانية، لذا قال: آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ
- أن يتراجع عن سيرته القديمة وهي الإفساد، ويستبدلها بأن يسلم وجهه لرب العالم، فاتبع كلامه قائلا: وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ

السؤال: لماذا أقر فرعون بالإلوهية المطلقة لله لحظة الغرق؟

رأينا: لما كان فرعون هو الشخص الذي نصّب من نفسه ندا عنيدا للإله نفسه عندما ظن بنفسه أنه هو الإله الأوحد كما صاح في ملئه:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39)**

ولما كان ظنه أنه هو الأعلى بعد أن تبين له أن هناك آلهة أخرى غيره:

- **فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)**

كان في ذلك شهادة عظيمة لكل من جاء بعده وكان له قبل أو ألقى السمع وهو شهيد. فهذا فرعون (بما يملك من العلم والنفوذ والأدوات) يقر بملء فيه أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، فكيف لغيره (وهو لا شك أقل شأن منه مكانة وعلما) أن لا يقر بهذه الحقيقة التي أعيت كل من حاول أن يقف ضدها فأطاحت بهم فكانوا مثلا وسلفا للآخرين؟

(دعاء: اللهم أشهدك أنه لا إله إلا أنت، وأنا من المسلمين، وأعوذ بك أن يكون أمري كأمر فرعون، إنك أنت بي بصيرا – آمين).

عودة على بدء

كانت الغاية المنشودة من هذا النقاش هو إثبات افترائنا بأن فرعون هو شخص على علم عظيم. وحاولنا أن نعالج سؤالين اثنين وهما:

1. ماهية علم فرعون؟
2. مصادر علم الرجل؟

وكان النقاش حتى اللحظة منصبا على التحقق من الافتراء بأن فرعون كان شخصا على مكانة عالية جدا من العلم، قد لا يدانيه فيها غيره. وإذا ما صح هذا الافتراء ينتقل النقاش فورا إلى معالجة السؤالين السابقين. ولنبدأ بالسؤال الأول الخاص بماهية علم الرجل.

- **باب علم فرعون: وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10)**
- **كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (12)**

رأينا المفترى: لو صدقنا بهزلية الفكر الذي ظن أن قوم فرعون (وفيهم قارون وهامان) من "السذاجة" لدرجة أن فرعون ربما كان الوحيد صاحب الرجاحة في العقل، لما استطعنا أن نتدبر ما قاله من كان مؤمن من آل فرعون وهو يكتم إيمانه:

- **وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (29) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (30) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (31) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (32) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33) وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (34) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (35) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (38) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (39) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (40) وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (42) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (43) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ**

أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (44) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (45)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: دقق عزيزي القارئ فيما قاله هذا الرجل الذي كان يكتم إيمانه لتجد أن الحديث عن القرون الأولى حاضرا في المشهد بقوة، ربما لنفهم أن النهل من معين تلك الأمم من العلم كان متوافرا في زمن فرعون لكل من أراده.

لكن هذا يطرح السؤال نفسه: كيف يمكن لمن يسمع حجة هذا الرجل أن لا يتدبرها؟ ولِم تجاهل قوم فرعون كل هذه الدعوات والآيات التي جاءت على يد رسولين كريمين معززين بثالث:

- **إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (14)**

السؤال الكبير: ما السر الذي كان يملكه فرعون حتى استطاع أن يستخف بقومه اللذين هم أيضا – لا شك عندنا- على درجة من العلم ربما عز نظريها عند غيرهم، وليس أدل على ذلك مما كان عند قارون وهامان؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: إنه العلم الذي كان يملكه فرعون. فنحن نفتري الظن من عند أنفسنا أن فرعون كان يملك علما يجعله يتفوق على كل من حوله حتى جعله مؤهلا أن يدعي الربوبية لنفسه، وهو الذي نادى فيهم قائلا:

- **فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)**

السؤال: لماذا صدّق القوم دعواه؟

رأينا المفترى: لأن القوم كانوا يثقون بما عند فرعون من العلم

الدليل

لننظر عزيزي القارئ فيما قاله فرعون لهم بنفسه مرة أخرى:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)**

فلو تدبرنا هذه الآية الكريمة، لوجدنا (حسب فهمنا ربما المغلوط) أن القوم ربما استشاروا فرعون في الأمر، وهم مقتنعون أن القول الفصل هو عند فرعون نفسه، فهو من يستطيع من بينهم جميعا أن يتخذ القرار النهائي بالدعوى التي أطلقها موسى (أي وجود إله واحد لا يشاركه أحد في ذلك)، ويكأن القوم (نحن ندعي الفهم) يقولون لفرعون: انظر ماذا ترى فيما يقوله موسى، ثم قدّم لنا المشورة. فيأتي الرد من فرعون بالقول (مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي)، ثم يردف الرجل دعواه هذا بالبرهان العملي فيطلب من هامان أن يبني له صرحا لعله يبلغ الأسباب فيطلع إلى إله موسى، ظانا في البداية أن موسى من الكاذبين. انظر عزيزي القارئ –إن شئت- السياق القرآني نفسه مرة أخرى:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)**

نتيجة مفتراة: لو لم يكن القوم يثقون تماما بالعلم الذي عند فرعون، لما صدقوا ما قال الرجل لهم في الحال. ولو لم يكن فرعون يملك الدليل على قدرته إثبات دعواه هذه، لما طلب من هامان أن يبني له صرحا لعله يبلغ الأسباب. ولو كان غيره يستطيع بلوغ الأسباب لربما فعل ذلك، وأصبح هناك مشكلة ناشبة بين فرعون وغيره ممن عندهم القدرة على بلوغ الأسباب والإطلاع على إله موسى. لنخلص إلى النتائج المفتراة التالية:

- كان فرعون على علم عظيم
- كان القوم يثقون بعلم فرعون
- كان غير فرعون كـ هامان يستطيع بناء الصرح
- لكن كان فرعون هو فقط من يستطيع استخدام ذلك الصرح من أجل بلوغ الأسباب والإطلاع على إله موسى
- كانت الصروح تستخدم لغايات متعددة وكانت واحدة من هذه الغايات هي بلوغ الأسباب
- كان لابد من توافر العلم عند من أراد أن يستخدم تلك الصروح من أجل تلك الغاية
- كان ذلك علما عظيما لا يستطيع من يراه بأم عينه أن يتحداه إلا إذا كان يملك من العلم ما يفوقه
- كان فرعون متفوقا على كل قومه وملئه
- لم ينجو من كيد فرعون هذا إلا رجل مؤمن كتم إيمانه عن القوم
- كان ذلك الرجل عالما بما حلّ بالقرون الأولى كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم
- علم ذلك الرجل أن ما كان من أمر فرعون لم يكن يتجاوز ما كان متوافر في القرون الأولى
- كان الرجل يعلم أن نهاية فرعون وقومه لن تكون أفضل من نهاية تلك القرون التي سبقتهم
- الخ

التساؤلات

⇐ من هو هذا الرجل؟

⇐ لماذا لم تنطلي عليه حجة فرعون؟

⇐ لماذا انطلت الحجة على غيره؟

⇐ وما هو علم فرعون الذي وضعه في مكانة يصعب منافستها؟

⇐ الخ.

رأينا المفترى: لو كان فرعون شخصا عاديا لربما لم ينخدع بكلامه القوم أجمعين (إلا هذا الرجل الذي كان يكتم إيمانه من قوم فرعون)، ولربما حصل بعض الانقسام بين الناس من حوله، كما حصل مع السحرة اللذين حشرهم من المدائن. فلو تدبرنا ردة فعل هؤلاء السحرة لوجدنا أنه على الرغم من وعيد فرعون لهم بتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف والتصليب في جذوع النخل:

- **قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (71)**

إلا أنهم لم يؤثروه على ما جاءهم من البينات. انظر تتمة السياق القرآني نفسه:

- **قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (73) إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيى (74) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ**

عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (75) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء مَن تَزَكَّى (76)

السؤال: لماذا لم يؤثر هؤلاء السحرة فرعون على ما جاءهم من البينات بينما آثر قوم فرعون وجنوده فرعون على ما جاءهم من البينات.

رأينا: لمّا كان هؤلاء السحرة حديثي عهد بفرعون ومكانته وعلمه فيهم، وهم من حشرهم من المدائن:

- قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ (111) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (112) وَجَاء السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالْواْ إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (113) قَالَ نَعَمْ وَإَنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (114)
- **قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (36) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (37) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (38)**

لم يترددوا في أمر اللحاق بموسى ومن معه. لكن – بالمقابل- لما كان قوم فرعون وملئه وجنوده يعرفون مكانة فرعون فيهم، لم تكن تلك البينات التي قدمها موسى تكفي أن تردهم عن فسقهم، أو أن تقوض ثقتهم بفرعون الذي يعلمون مكانته فيهم، فما أحدثه فرعون فيهم كان كفيلا أن يجعلهم قوما فاسقين. فلو تدبرنا الآيات التي تتحدث عن القوم الفاسقين في النص القرآني على مساحته لوجدنا أن جلّها يتعلق بالفترة الزمنية التي تصور ما حصل زمن موسى وفرعون:

- **قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (25)**
- **قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ أَرْبَعِينَ سَنَةًۛ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (26)**
- **ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُواۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (108)**
- **وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍۖ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (102)**
- **وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَاۚ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (145)**
- **قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (53)**
- **وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍۖ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (12)**
- **اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِۖ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (32)**
- **فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54)**
- **وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (46)**
- **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْۖ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (5)**

السؤال: ما الذي أحدثه فرعون فيهم حتى كانوا قوما فاسقين؟

رأينا: إنه رغد العيش والاطمئنان إلى الدنيا. فمن كان فاسقا هو الذي أركن إلى ملذات الدنيا ورضي بها لتكون أحب إليهم مما عند الله:

- قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِۦوَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (24)

وهذا ينطبق (نحن نفتري القول) على كل الأقوام التي أركنت لما عندها من نعيم الدنيا كقوم نوح مثلا:

- وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (46)

نتيجة مفتراة: لقد استطاع فرعون بما عنده من العلم أن يسهل لمن حوله حياتهم الدنيا، حتى ركنوا إليها، فأصبحوا قوما فاسقين.

الدليل

بداية، نحن نظن أن قوم فرعون كانوا فرحين بما عندهم من الأموال، وليس أدل على ذلك من فرح قارون نفسه:

- إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76)

فالأموال كانت متوافرة جدا في عهد فرعون، وربما يدل على ذلك ما طلبه السحرة من فرعون من الأجر:

- وَجَاء السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالْواْ إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (113) قَالَ نَعَمْ وَإَنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (114)

كما يمكن أن يدل على ذلك ما قاله فرعون بنفسه عن إله موسى الذي لم يلقى عليه أسورة من ذهب:

- فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53)

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن الأموال كانت متوافرة في زمن فرعون بكثرة، كما نعتقد جازمين أن ذلك كان سببه فرعون نفسه. فهو من يملك العلم الذي يوفر له من الأموال ما يرغب ويريد.

ثانيا، لم تكن الأموال وحدها كفيلة بتوفير رغد الحياة، بل كان عند فرعون من العلم ما يمكنه من إيقاف الأذى الذي قد يصيب القوم، حتى أصبح الضحك هو ديدنهم:

- فَلَمَّا جَاءهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (47) وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (48) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (49) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (50) وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54)

نتيجة مفتراة 1: كان فرعون يملك من العلم ما يجعل القوم فرحين
نتيجة مفتراة 2: كان فرعون يملك من العلم ما يجعل القوم يضحكون

تساؤلات

- ما هو ذلك العلم الذي كان عند فرعون؟
- أين كان مصدره؟
- لم كان فرعون فقط هو من يستطيع عليه؟
- لم لم يملكه غيره في زمنه؟
- ماذا حل بهذا العلم بعد هلاك فرعون؟
- وأين الدليل عليه الآن؟
- الخ.

جواب مفترى: نحن نظن أن الإجابة على هذه التساؤلات تكمن في آية واحدة من كتاب الله العزيز، ألا وهي قوله تعالى:

- وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ

لتكون النتيجة على النحو التالي: كان فرعون هو من امتلك العلم المتوافر في الأوتاد التي لازالت إلى يومنا هذا قائمة في أرض مصر الخالدة. إنه علم القرون الأولى المكنوز داخل أهرامات الجيزة في مصر.



Sourcehttp://all-free-download.com/free-photos/download/pyramid_landscape_02_hd_pictures_170757.htm

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: لم يستطع شخص على مر التاريخ أن ينهل من معين العلم المتوافر في داخل هذه الصروح العملاقة التي كانت من آثار القرون الأولى كما فعل فرعون. فهو الوحيد الذي امتلك العلم المكنوز فيها، فسخر ذلك لخدمة أغراضه الشخصية حتى ظن من حوله أنه فعلا ربهم الأعلى:

- فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن أيضا بأن ذلك العلم الكنوز في تلك الأوتاد هو ما عزز ظن فرعون بأنه فعلا إله حتى خاطب القوم قائلا:

- وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)

السؤال: لماذا ظن فرعون أنه إله؟

رأينا: لأنه كان هو ذو الأوتاد

- كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (12)

ليكون الافتراء الأكبر الذي نحاول تسويقه الآن هو أنه قد تحصل لفرعون بشخصه ما كان متوافر لعاد وثمود (وربما لقرون أخرى) بمجموعهم، الأمر الذي جعل فرعون يظن أنه إله يستطيع أن ينافس أي إله آخر (إن وجد).

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: لأن من كان إله فلابد له من الأوتاد.

السؤال: وهل للإله الذي آمنت به بنو إسرائيل أوتاد؟

جواب مفترى: نعم، وذلك لأن الله هو من جعل الجبال أوتادا. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في مطلع سورة النبأ:

- عَمَّ يَتَسَاءلُونَ (1) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (2) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (3) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (4) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (5) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (6) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (7)

السؤال: ما عنى أن تكون الجبال أوتادا؟ وما علاقة هذا بفرعون ذي الأوتاد؟

جواب مفترى: نحن نظن أن هذا ينقلنا فورا للحديث عن تلك الصروح العملاقة التي لازالت قائمة في أرض الجيزة بمصر، والتي لازال سرها لغزا لم يقوى على تفسيره كل المتخصصين في هذا الشأن، ولا شك أن الاختلاف في الطريقة والوسيلة والمقصد هي أبرز سمات الآراء والنظريات التي طرحت حول هذا الموضوع حتى الساعة. فالتساؤلات كثيرة جدا، نذكر منها:

- ⇐ من الذي بنا هذه الصروح العملاقة؟
- ⇐ متى بنيت؟
- ⇐ كيف بنيت؟
- ⇐ لماذا بنيت؟
- ⇐ لماذا لم تهلك حتى هذا الوقت؟
- ⇐ ما السر المدفون فيها؟
- ⇐ كيف يمكن الوصل إلى أسرارها؟
- ⇐ وهل هذا ممكن؟
- ⇐ وكيف يمكن تنفيذ ذلك؟
- ⇐ الخ

جواب مفترى: نحن نظن أن بداية النقاش في هذا الموضوع تنطلق من الآيات الكريمة التالية:

- كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (124) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (125) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (126) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (127) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (128) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129)

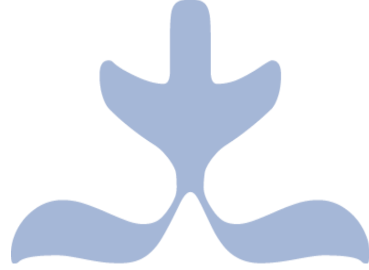
لتكون أول الافتراءات الكبيرة التي نظن أنها ستوجه النقاش بأكمله حول نتائج محدده هي التالي: كانت هذه الصروح قد بنيت لغاية محدده ألا وهي الخلود: وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ

فالأهرامات المتواجدة في أرض الجيزة بمصر هي مصانع اتخذت من أجل الخلود. وفيها من العلم ما قد يمكّن من يفهمه أن يطبق ذلك على أرض الواقع. ونحن نكاد نجزم الظن بأن فرعون كان قادرا على ذلك، الأمر الذي مكّنه من تسويق ظنه على كل من حوله بأنه هو ربهم الأعلى.

السؤال: وكيف ذلك؟

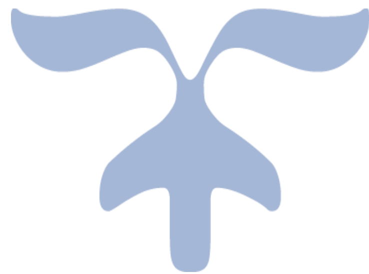
رأينا: هذا ما سنخوض فيه في الجزء القادم من هذه المقالة.

سائلين الله أن ينفذ مشيئته وإرادته لنا الإحاطة بشي من علمه لا ينبغي لغيرنا، إنه هو العليم الحكيم، وندعوه وأدعوه وحده أن يؤتيني رشدي، وأن يجعل لي من لدنه سلطانا نصيرا، وأعوذ به أن يكون أمري كأمر فرعون، إنه هو الواسع العليم – آمين.



قصة يونس

الجزء التاسع عشر



قصة يونس: الجزء التاسع عشر

- قال تعالى: وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56)
- قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (57) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى (58)

أما بعد،

تحدثنا في الجزء السابق من هذه المقالة عن شخصية فرعون الذي جاءه موسى وهارونُ بالرسالة الدنيوية على النحو التالي:

- فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (47)

وكانت رسالتهما الدينية إلى فرعون على النحو التالي:

- إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى (48)

وافترينا الظن بأن فرعون كان في هذه اللحظة لازال أميل إلى الظن (ربما لدرجة اليقين) أنه هو الإله الأوحد، فعِلْمه بالأمر حتى الساعة هو أنه هو الإله الأوحد كما عبر عن ذلك لمن حوله من ملئه:

- وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)

افتراء من عند أنفسنا: نحن نعتقد بأن علم فرعون حتى الساعة لازال يقع في باب ظنه أنه هو الإله الأوحد، لكن فرعون (كما أسلفنا بالجزء السابق) لم يقل ذلك من باب الحقيقة المطلقة وإلا لجاء قوله مستخدما فيه إنّ:

- إني أنا ربكم الأعلى

ولكن لمّا كان ذلك ليس أكثر من رأيه الخاص الذي لا يقع في باب إثبات الحقيقة المطلقة جاء كلامه على النحو التالي:

- فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)

(للتفصيل انظر الجزء السابق)

لذا كان أول سؤال توجه به فرعون إلى موسى وأخيه هارون هو السؤال التالي:

- قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى (49)

وقد جاء ردهما على هذا السؤال (على ما أظن) على لسان موسى على النحو التالي:

- قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50)

وعندها عزّر فرعون سؤاله الأول بسؤال آخر هو:

- قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (51)

عندها ما كان من موسى إلا أن ينسب العلم بها إلى ربه، ربما لقصر علمه في تلك الساعة بتلك القرون الأولى:

- **قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (52) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى (53) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى (54)**

ليتفوق فرعون (نحن نتخيل) بما عنده من علم تلك القرون الأولى على موسى وأخيه هارون معا.

وحتى يتأكد فرعون من ظنه بأن موسى من الكاذبين (وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ)، طلب من هامان أن يبني له صرحا علّه يبلغ به الأسباب علّه يطلع إلى إله موسى:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)**
- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37)**

وبالفعل (نحن نفتري القول) نفّذ هامان طلب فرعون في الحال، فبلغ فرعون باستخدام ذلك الصرح أسباب السموات والأرض، فاطلع من هناك إلى إله موسى، فخاب ظنه بأن موسى من الكاذبين كما قال لمن حوله من ذي قبل (وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ):

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)**

فعاد فرعون من هناك (نحن نتخيل) يعلم أن هناك إله آخر غيره. فرجع فرعون بفكر جديد غير ذاك الذي ذهب به. فالأمر بالنسبة له قد تغير الآن، فقد أصبح على علم بوجود آلهة أخرى غيره كالإله الذي تؤمن به بنو إسرائيل. لكن هذا الظن لم يزعزع ثقة فرعون بنفسه أنه هو أيضا إله، ليصبح ظن فرعون بالنسبة لهذا الإله الذي اطلع إليه على النحو التالي: هذا الإله الذي وجده هو إله في السماء لا علاقة له بمن في الأرض، فجاء استكبار فرعون وجنوده في الأرض بغير الحق. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في الآية التي تلي مباشرة آية إطلاعه على إله موسى:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39)**

ففرعون الآن يعلم بوجود هذا الإله إلا أنه في الوقت ذاته يظن أنه لن يرجع إلى هذا الإله الذي وجده هناك، ظانا أن إلوهية هذا الإله محصورة بالسماء، ولا علاقة له بمن في الأرض، فما ظن فرعون وجنوده من بعده بأنهم راجعون إلى هذا الإله (وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ).

لكن هذا النقاش يثير في ثناياه التساؤلات التالية:

⇐ أين بُني ذلك الصرح؟

⇐ كيف بُني ذلك الصرح؟

⇐ كيف استخدم فرعون ذلك الصرح؟

⇐ إلى أين وصل فرعون باستخدامه ذاك الصرح؟

⇐ أين هي أسباب السموات والأرض التي وصل إليها فرعون باستخدامه ذلك الصرح؟

⇐ أين وجد فرعونُ إلهَ موسى؟
⇐ كيف وجده؟ أي ما هي الحال التي وجده فيها؟
⇐ ما الذي راءاه فرعون هناك بأم عينه؟
⇐ كيف عاد فرعون من هناك؟
⇐ الخ.

السؤال الأول: أين بُني ذلك الصرح؟
جواب مفترى: في أرض مصر
لا شك عندنا أن سلطة فرعون كانت مبسوطة على أرض مصر، أليس هذا هو نداء فرعون في قومه؟

- **وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51)**

ولو تفقدنا الآية الكريمة في سياقها الأوسع لوجدنا أن فرعون يعقد في السياق ذاته مقارنة بينه من جهة وبين كينونة أخرى، هو يظن أنه مهين. أنظر الآية الكريمة السابقة مرة أخرى في سياقها الأوسع:

- **وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52)**

لتكون النتيجة التي نحاول التمهيد لها هنا هي التالي: كان فرعون يظن أنه إله على أرض مصر فقط. ففكرة ارتباط الإله بمكان محدد كانت – برأينا- من صلب العقيدة السائدة هناك حينئذ، ويكأن لسان حال فرعون يقول أن هذا الكون الشاسع تتقاسمه قوى عملاقة، كل منها هو إله يختلف عن إله الآخرين. ففرعون هو إله مصر، وكفى. وسنتحدث بحول الله وتوفيقه عن هذه الجزئية لاحقا إن أذن الله لنا الإحاطة بشيء من علمه.

لذا عندما طلب فرعون من هامان أن يبني له صرحا، كان الرجل – لا شك- يعلم يقينا بأن الصرح الذي سيجعله هامان لفرعون هو صرح سيبنى في أرض مصر، أليس كذلك؟
لكن مما نظن أنه يجدر ملاحظته هنا هو أن فرعون قد طلب من هامان أن يبني له صرحا بصيغة التنكير (أي صَرْحًا)، أليس كذلك؟

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)**
- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37)**

فالمتدبر للنص القرآني على مساحته يجد أن هاتين الآيتين هما اللتان جاء بهما ذكر لذلك الصرح الذي طلب فرعون من هامان أن يجعله له. فجاء الخطاب القرآني بخصوص تلك الكينونة في كلا الآيتين بصيغة التنكير (صَرْحًا).

السؤال: ما أهمية ذلك؟
جواب مفترى: نحن نظن أن ذلك غاية في الأهمية لسبب واحد وهو الاستنباط المفترى من عند أنفسنا التالي: احتمالية وجود أكثر من صرح في أرض مصر.

فلقد طلب فرعون من هامان أن يجعل له واحدة من تلك الصروح (فَاجْعَل لِّي صَرْحًا). دقق عزيزي القارئ – إن شئت- في الآيات الكريمة الخاصة بصرح فرعون مرة أخرى

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)**
- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36)**

السؤال: كيف يمكن أن نفهم ذلك الخطاب الذي جاء بصيغة التنكير في كلتا الآيتين الكريمتين؟

رأينا المفترى: عند تفقد السياقات القرآنية الخاصة بالصروح على مساحة النص القرآني كله لم نجد أنه قد جاء ذكر لها إلا في حالة واحدة أخرى غير حالة فرعون، ألا وهي حالة سليمان. فلقد كان لسليمان صرحا، أليس كذلك؟

- **قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (44)**

ولكن المفارقة التي نظن أنها غاية في الأهمية هي أن المفردة قد جاءت في سياق الحديث عن سليمان بصيغة التعريف (ادْخُلِي الصَّرْحَ). فما أن جاءت تلك المرأة سليمان حتى طُلِب منها أن تدخل الصرح (قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ)، الأمر الذي يدعونا إلى استنباط الافتراء الخطير جدا التالي: لم يكن يتواجد في زمن سليمان على أرض الواقع أكثر من صرح واحد هو خاص بسليمان وحده، لذا جاء طلب القوم من المرأة أن تدخل الصرح (قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ)، فما ترددت المرأة أن تدخله لأنه هو – برأينا- الصرح الوحيد الموجود في المنطقة من حولها حينئذ.

نتيجة مفتراة: كان الصرح الموجود في زمن سليمان هو الصرح الوحيد المتوافر، وكان صرحا خاصا بسليمان، وكان الدخول فيه يتطلب الإذن ممن يتواجد فيه وهو سليمان، ولم يكن الجن (وهم من بنوه لسليمان) قادر على الاقتراب منه، بدليل أنهم ما علموا بموت ساكن الصرح (سليمان) إلا عندما خر:

- **فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (14)**

نتيجة مفتراة 1: كان هناك في أرض سليمان صرحا واحدا فقط، فجاء بصيغة التعريف (الصَّرْحَ)، فلو كنت متواجدا في عصر سليمان وسألت عن الصرح لأشار كل أهل المنطقة إلى كينونة واحدة معروفة لهم جميعا، هي خاصة بسليمان فقط.

نتيجة مفتراة 2: أما في أرض مصر في زمن فرعون، فقد كان هناك (نحن نفتري الظن) أكثر من صرح واحد، وقد طلب فرعون من هامان أن يجعل له واحدة من تلك الصروح علّه يبلغ من خلاله أسباب السموات والأرض فيطلع إلى إله موسى:

- وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)

وربما تتقاطع قصة الصرح الخاص بسليمان مع صروح فرعون في جزئية أخرى لا يشاركهما فيه غيرهم وهو وجود العذاب المهين. فلقد استخدم سليمان الصرح حتى كانت الجن واقعة في العذاب المهين من قبل صاحب الصرح وهو سليمان، لدرجة أن موته هو فقط من أخرجهم من ذلك العذاب المهين الذي كانوا يذقونه على يد سليمان:

- فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (14)

ولو تدبرنا ما كان واقعا ببني إسرائيل في أرض مصر حيث الصروح مشيدة فيها زمن هذا الفرعون، لوجدنا النتيجة ذاتها، ألا وهي العذاب المهين:

- وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (30) مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ (31)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: ذاق بنو إسرائيل العذاب المهين في أرض مصر بسبب وجود تلك الصروح التي كان يسكنها فرعون وآله.

السؤال: كيف يمكن أن نتخيل أرض مصر إذن في تلك الحقبة الزمنية؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نتخيل أرض مصر في تلك الفترة الزمنية وقد ملئت سماؤها بالصروح التي يشبه كل واحد منها صرح سليمان، وهو الذي حسبته المرأة (عندما رأته لأول مرة) لجّة:

- قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (44)

لذا، وجب علينا أن نعود مرة أخرى إلى قصة تلك المرأة مع سليمان لنتعرف (حسب فهمنا المفترى للقصة) على ماهية ذلك الصرح الذي كان يسكنه سليمان، ثم نعود من هناك ببعض التصورات التي ربما تسعفنا في فهم الصروح الكثيرة التي كانت متواجدة في أرض مصر زمن فرعون.

باب صرح سليمان مقابل صروح فرعون

لم تكن تلك المرأة التي جاءت سليمان قد خبرت الصروح من قبل، لأنها ما أن رأت الصرح الذي طلب منها أن تدخله حتى حسبته لجة وكشفت عن ساقيها، أليس كذلك؟

- قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (44)

وقد أثرنا في مقالاتنا عن قصة سليمان تحت عنوان مادلهم على موته إلاّ دابة الأرض تأكل منسأته في بابي الساق والصرح السؤال التالي: لماذا كشفت المرأة عن ساقيها عندما رأت الصرح؟

وافترينا الظن من عند أنفسنا حينها أن سبب كشف المرأة عن ساقيها كان بداعي السجود كما فهمنا ذلك (ربما مخطئين) من الآية الكريمة التالية:

- **يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (42)**

وافترينا الظن بوجود علاقة متينة بين الكشف عن الساق من جهة والسجود من جهة أخرى، لأن من أراد أن يسجد فلابد له – برأينا- من أن يكشف عن ساقه، ربما ليستكشف المنطقة (على الأرض) التي سينزل عليها بساقيه، كما في الشكل التوضيحي التالي:



فكان ظننا هو أن تلك المرأة قد كشفت عن ساقيها لأنها همّت بفعل السجود عندما رأت الصرح وحسبته لجة. ولكن عندما رأى سليمان أنها قامت فعلاً بفعل الكشف عن ساقيها لتهم بالسجود للصرح (وهي التي كانت وقومها يسجدون للشمس من ذي قبل كما جاء على لسان الهدهد الذي نقل خبرها لسليمان):

- **إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (24) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (25) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (26)**

ما كان منه إلا أن منعها من فعل ذلك على الفور، فصحّح لها خطأ ظنها عندما أخبرها بأن ذلك الصرح ليس لجة وإنما هو فقط صرح ممرد من قوارير:

- **قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ**

ولمّا علمت تلك المرأة أن ذلك الصرح ليس لجة، وأنه ليس بأكثر من صرح ممرد من قوارير، أدركت بنفسها على الفور الظلم الذي ارتكبته بحق نفسها (وربما بما ألحقت به قومها من الأذى عندما كانت تقودهم في السجود للشمس):

- **قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ...**

لأننا نظن أن من يسجد لمثل هذه الكينونات بغض النظر عن ماهيتها فهو بلا شك ظالم لنفسه:

- **وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (37)**

ومادام أن المرأة كانت ستسجد لغير الله فهي بلا شك كانت ظالمة لنفسها، وعندما أدركت خطأ فعلتها، وأدركت أنه لا يجوز السجود لتلك الكينونات مهما كانت، فتلك الكينونات سواء كانت شمسا أم قمرا (أم صرحا يشبه الشمس والقمر في طلته) ليست أكثر من مخلوقات لها خالق، وعندما أدركت المرأة أن السجود لا يكون

إلا لرب سليمان وليس للشمس ولا للقمر ولا للصرح، عندها فقط اهتدت المرأة وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين، فتابعت حديثها قائلة:

- ... وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

(للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان مادلهم عن موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته: باب الساق)

إن ما يهمنا في إعادة الطرح السابق هنا مرة أخرى هو التعرف على الصرح الذي حسبته المرأة لجة وكشفت المرأة عن ساقيها بمجرد رؤيته، لنطرح التساؤلات السابقة نفسها مرة أخرى :

⇐ ما هو الصرح؟

⇐ ولماذا حسبته المرأة لجة؟

بداية، لقد افترينا الظن بأن الصّرح هو بناء مرتفع جداً عن الأرض، بدليل أن الصرح هو ما كان سيمكّن فرعون من بلوغ أسباب السموات والأرض:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37)**

ففرعون يطلب من هامان أن يبني له صرحاً، ولا شك أن هدف فرعون كان بلوغ أسباب السماوات والأرض، ليطلع إلى إله موسى، فلا أظن أن فرعون كان يقصد أن يُبنى له بناءً متواضع العلو، فالغاية عظيمة وهي الاطلاع إلى إله موسى، لذا لابد أن يفيد البناء المنشود (الصرح) في تنفيذ الغاية المنوي تحقيقها من خلاله، أليس كذلك؟

ثانيا، لقد افترينا الظن أيضاً بأن بناء الصرح يكون بطريقة غاية في الغرابة، وليس أدل على غرابته من أن المرأة التي جاءت سليمان قد حسبته لجة:

- **قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (44)**

ولو دققنا فيما قاله فرعون لهامان عندما طلب له أن يبني له ذلك الصرح لوجدنا غرابة البناء واضحة تماما، وذلك بأن يتم الوقد على الطين أولاً ليتحقق البناء بعد ذلك، ففرعون يطلب من هامان أن يوقد له على الطين أولاً، ليكون الصرح بناءً فوق ذلك:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)**

نتيجة مفتراة: نحن نفتري الظن أن بناء الصرح يتطلب أولاً أن يوقد له على الطين، كأن يكون الصرح موقداً تحته، لذا فإن له وهجاً وربما ضوءاً ينبعث من تحته نتيجة ما تم من وقود تحته. وفكرة الوقود واضحة في قوله تعالى:

- **اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (35)**

فبمجرد أن يوقد المصبح الذي في زجاجة من تلك الشجرة المباركة حتى تصل الإضاءة. لذا نحن نظن أن المرأة ما أن رأت الصرح وقد أوقد له على الطين حتى حسبته لجة وكشفت عن ساقيها، وكأنها قد دعيت إلى السجود كما كانت تفعل مع قومها عندما كانوا يسجدون للشمس، لذا يمكن أن نتصور الصرح وكأنه الشمس في كبد السماء، ولكن لما كان لجة، فإنه لا شك يختلف في بعض تفاصيله عن الشمس الساطعة في كبد السماء. فكيف يمكن أن نتخيل شكل الصرح الذي كان ممرد من قوارير؟

جواب مفترة: لما حسبت المرأة أن ذلك الصرح هو لجة، أصبح لزاما علينا (نحن نفتري الظن) أن نفهم بأنه كان كينونة مضيئة في كبد السماء يحفها الظلام من كل مكان، فاللجة هو الشيء المتقد الذي تكسوه الظلمة، قال تعالى

- **أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (40)**

لتكون النتيجة المفتراة الآن هي بأن تلك المرأة قد رأت الصرح على أنه بنيان عظيم بين السماء والأرض، وقد تزخرف بطريقة تلفت الأنظار، فأخطأت الظن عندما حسبته لجة، وكان من الصعب عليها تمييز ماهية ذاك الصرح حتى نبهها سليمان إلى أنه ليس أكثر من صرح ممرد من قوارير. وسنتحدث لاحقا بحول الله وتوفيقه عن تلك القوارير التي نظن أن مادتها في الصناعة هي ا يشبه الزجاج الملون، وهو الذي لازال لصوص الآثار يبحثون عنه لعلمهم بقيمته المادية، وسنحاول (إن أذن الله لنا بعلمه أن نفتري الظن حينئذ أن ذلك الصرح هو ما يشبه بيت السندباد التي تصورها قصص التراث على أنها مرتفعة في الآفاق، وهي تتكون من ما يسبه القباب (القوارير) المتعددة، حتى أصبحت تلك نوع من أنواع العمارة الخيالية الجميلة التي لا شك كانت ملهمة لمن بنا صرحا كتاج محل في الهند) كما في الشكل التوضيحي التالي:



وسنرى لاحقا بأن قصة السندباد هي قصة التراث التي حرفت تفاصيلها عن قصة سليمان نفسه. وسنتابع هذا الحديث (إن أذن الله لنا بشيء من علمه) عند تكملة مقالاتنا الخاصة بمنسأة سليمان، فالله أسأل أن يعلمني ما لا ينبغي لغيري إنه هو الواسع العليم – أمين.

ولمّا كان هذا الصرح هو صرح ممرد، فإننا نفتري الظن أن في المرود علو، أي ارتفاعاً إلى الأعلى، وربما يدعم مثل هذا الظن وجود نوع من الشياطين هو الشيطان المارد الذي يحاول أن يسترق السمع من الأعلى:

- رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (5) إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (6) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (7) لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (8) دُحُورًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (9) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (10)

كما نظن أيضا أن المرود فيه القدرة على الخفاء، فعندما يكون هناك شيطان مارد، فمن الصعب رؤيته على حقيقته، وكذلك هم (نحن نفتري الظن) أولئك النفر الذين مردوا على النفاق:

- وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِۖ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْۚ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (101)

فهناك في هذه الآية – حسب فهمنا لها- نوعان من المنافقين:

- وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ
- وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِۖ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ

فالذين مردوا على النفاق من أهل المدينة هم (برأينا) من صعب على النبي نفسه معرفتهم (وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِۖ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ)، والله هو من يعلمهم (نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ)، وربما يعود السبب في ذلك – برأينا- إلى إتقانهم صنعة النفاق.

كما افترينا الظن أيضا بأن المرود فيه شيء من النار، فالشياطين منهم المارد، ونحن نعلم أن الشياطين هم أصلا من الجن الذين خلقوا أصلاً من نار:

- وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (27)

كما أن مردّ المنافقين الذين مردوا على النفاق هو العذاب لعظيم في النار.

لتكون الصورة الذهنية التي نريد أن نشكلها عن ذلك الصرح الممرد هي التالية: الصرح هو بناء مرتفع في مكانه عن الأرض، والصرح فيه شيء من الخفاء، فلا يستطيع الناظر إليه أن يدرك ماهيته على الفور، فعنصرا الإتقان والتخفي موجودان فعلاً فيه، فالمرأة لم تدرك كنهه لحظة أن رأته حتى حسبته لجة. والصرح أيضاً فيه جانب من النار، ففرعون كان قد طلب من هامان أن يوقد له على الطين ليجعل له صرحاً بعد ذلك، لذا ربما ظنت المرأة أنه لجة. ولا يجب أن ننسى أن الله قد سخر لسليمان الشياطين من قبل، فكان منهم كل بناء وغواص.

- فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (36) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (37) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (38)

لذا ربما حقّ لنا أن نفتري الظن بأن ذلك الصرح كان مما بناه الشياطين لسليمان. فكان الصرح كينونة مضيئة تتوهج في كبد السماء كما الشمس التي كانت تسجد له المرأة مع قومها، ولكنه يختلف عنها بأنه محاط بالظلمة من جميع جوانبه حتى يصعب على الناظر إليه أن يدرك ماهيته على الفور.

وفي حين كانت الشياطين البناءون هم من شيدوا صرح سليمان، كان هامان – بالمقابل- هو من طلب منه فرعون أن يبني له صرحا، أليس كذلك؟

- وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)

لتكون النتيجة هي أن بناء الصروح هو علم قائم بذاته له أصوله التي يعلمها هامان، كما فعلت الشياطين (البناءُون)[1] لسليمان من بعد. [1] وسنتحدث لاحقا إن أذن الله لنا الإحاطة بشيء من علمه عن علاقة هذا

الأمر بالحركة "الماسونية التاريخية" التي نظن أن جذورها جاءت من هذا الباب. فالله أسأل أن يعلمني ما لا ينبغي لغيري إنه هو السميع العليم، آمين. فالماسوني (mason) هو من يشتغل بحرفة تقطيع الحجارة وبنائها.

لتكون الصور التي نريد أن نرسمها عن أرض مصر في تلك الحقبة الزمنية هي التالية: كانت أرض مصر مسكونة من قبل بني إسرائيل اللذين استعبدهم فرعون:

- **وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (22)**

فلقد دأب آل فرعون من قبل على تقتيل أولاد بني إسرائيل واستحياء نسائهم:

- **وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (49)**
- **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (6)**

وكان ذلك في عصر الفرعون الذي التقط موسى وهو من كان عدو لله كما كان عدو لموسى:

- **أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (39)**

وظل التقتيل واقعا في بني إسرائيل حتى مات هذا الطاغية الكبير (وهو من تربى موسى عنده)، وهو من طلبت امرأة فرعون النجاة منه ومن عمله:

- **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11)**

وما أن ماتت تلك المرأة التي كانت بشخصها السد المنيع الذي حافظ على حياة موسى في آل فرعون:

- **وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (9)**

حتى وجد موسى نفسه في مواجهة مباشرة مع هذا الطاغية ومع آل فرعون اللذين رفضوا الإصلاح وأصروا على الفساد في الأرض، عندها خرج موسى من أرض مصر هاربا هروبه الأول إلى الأرض المقدسة، وما عاد إلى أرض مصر إلاّ يوم موت ذاك الطاغية الذي لم يكن له ولد، وهناك وجد موسى المدينة كلها في غفلة، فحصلت المواجهة من جديد بين من هم من شيعة موسى (بني إسرائيل) ومن هم من عدوه (آل فرعون) من جديد.

- **وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (15)**

وما أن تم اختيار فرعون جديد ليعلو كرسي الحكم في أرض مصر حتى هرب موسى هروبه الثاني ولكن هذه المرة باتجاه مدين:

- **وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ (22)**

وخلال تلك الفترة (منذ دخول موسى المدينة على حين غفلة من أهلها) ارتقى على كرسي الحكم في أرض مصر هذا الفرعون جديد، وهو الذي (نحن نظن) أوقف تقتيل أبناء بني إسرائيل، وانطوت سياسته الجديدة على تعبيدهم فقط، كما جاء على لسان موسى في واحدة من حواراته معه:

- **وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (22)**

وذلك لأن الملأ حثوه (منذ أن ارتقى على كرسي الحكم) على عدم ترك موسى وقومه دون عقاب:

- **وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127)**

فهذا هو الفرعون الذي – برأينا- كان يتبع سياسة التأجيل على الدوام، فهو الذي وعد بتقتيل أبناء بني إسرائيل واستحياء نسائهم (قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ)، وهو الذي توعد السحرة وهددهم بالعقاب:

- **لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (124)**
- **قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (71)**
- **قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (49)**

إن ما يهمنا طرحه هو أن بني إسرائيل قد اشتغلوا عبيدا في أرض مصر في زمن هذا الفرعون، أليس كذلك؟

وقد جاء موسى هذا الفرعونَ الجديد برسالة واضحة تماما وهي أن يرسل معه بني إسرائيل:

- **فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (17)**

وهنا ما كان من فرعون هذا إلا أن ذكّر موسى بفترة طفولته التي عاشها فيهم (أي في آل فرعون):

- **قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (18)**

ولم ينس كذلك أن يذكره بفعلته التي فعلها فيهم:

- **وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (19)**

فما أنكر موسى أنه قد تربى فعلا فيهم، ولكنه صحح فهم فرعون بأنه ما فعل تلك الفعلة التي فعلها وهو من الكافرين ولكنه فعلها وهو من الضالين:

- **قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20)**

وقص عليه سبب هروبه منهم، وما حصل معه بعد ذلك من المنّة الإلهية بأن وهب له الحكم والعلم وجعله من المرسلين:

- **فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (21)**

ولم يغب عن بال موسى أن ينّبه هذا الفرعون إلى سوء فعلته بتعبيد بني إسرائيل:

- **وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (22)**

نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا: كان بنو إسرائيل يشتغلون عبيدا في مصر زمن هذا الفرعون

السؤال الكبير جدا جدا: أين اشتغل بنو إسرائيل في زمن هذا الفرعون؟

جواب خطير جدا جدا لا تصدقوه: في أرض مصر. انتهى.

ما شاء الله!!! يرد صاحبنا مستغربا. وهل هذا كل شيء؟ يتابع متسائلا.

جواب مفترى: نعم، هو كذلك، كان بنو إسرائيل يعملون عبيدا في أرض مصر زمن هذا الفرعون

السؤال: وما الغرابة في ذلك؟ وهل قلت بشيء جديد حتى طلبت منا أن لا نصدق ما قلت؟ لقد كنا نظن أنك ستقول شيئا كبيرا جديدا لم يقله السابقون ولم يقوى المتأخرون على التفكير به.

رأينا: أظن أني فعلا قد قلت شيئا جديدا لم يقله أحد من قبلي. لكن شريطة أن تتابع طرح التساؤل التالي: وأين كان ملأ فرعون وهم من استعبدوا بني إسرائيل يعيشون في زمن هذا الفرعون الكبير؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: فوقهم.

السؤال: ماذا تقصد أنهم كانوا فوقهم؟

جواب خطير جدا: كان الفراعنة (أهل مصر) متواجدون فوق بني إسرائيل اللذين كانوا يعيشون في أرض مصر حينئذ. واقرأ عزيزي القارئ – إن شئت- ما قاله هذا الفرعون بلسانه للملأ من آل فرعون اللذين طلبوا منه أن لا يذر موسى وقومه:

- **وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ...**

والآن انظر مباشرة في رده على ما طلبوا في تتمة الآية الكريمة نفسها:

- **... قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127)**

والآن دقق عزيزي القارئ فيما قاله الرجل بلسانه بعد طرح التساؤل التالي: كيف كان هذا الفرعون وآله فوق بني إسرائيل؟ وبكلمات أدق نحن نسأل: كيف كانوا فوقهم قاهرين؟

جواب مفترى: بعيدا عن التحليق في سماء الاستعارات والمجازات اللغوية، دعنا نتفقد مفردة فوقهم (على وجه التحديد) في السياقات القرآنية العديدة على مساحة النص القرآني، لنخرج منها بالفهم المفترى البسيط التالي: تدل فوقهم على الارتفاع في المكان، ولا يمنع من وجود مسافة بين من هم تحت (كبني إسرائيل في أرض مصر) ومن هم فوق (كفرعون وآله):

فها هم اللذين آمنوا والذين اتقوا يوم القيامة فوق اللذين كفروا:

- **زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ۘ وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (212)**

وها هو الطور مرفوع فوق بني إسرائيل:

- **وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (154)**

السؤال: كيف يمكن أن تتخيل (عزيزي القارئ) مشهد الطور المرفوع فوق بني إسرائيل؟ من يدري؟!!

وها هي احتمالية أن يأكل الناس مما هو موجود فوقهم:

- **وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (66)**

السؤال: كيف يمكن أن تتخيل (عزيزي القارئ) هذا المشهد؟

- **لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (41)**

وها هو الجبل وقد نتق فوق فئة من بني إسرائيل كأنه ظلة:

- وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (171)

السؤال: كيف يمكن أن تتخيل (عزيزي القارئ) الطور وهو منتوق فوقهم؟

وهذا هو السقف من فوقهم وقد خر عليهم:

- قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (26)

السؤال: كيف يمكن أن تتخيل (عزيزي القارئ) هذا المشهد؟

وهذا ربنا من فوقنا:

- يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ (50)

السؤال: كيف يمكن أن تتخيل (عزيزي القارئ) هذا المشهد؟ وهل في ذلك فعل مجازي؟!

وهذا العذاب يغشى البعض من فوقهم كما يغشاهم من تحت أرجلهم؟

- يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (55)

السؤال: كيف يمكن أن تتخيل (عزيزي القارئ) هذا المشهد؟ فهل ذلك في ذلك تصور مجازي؟!

- لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ۚ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (16)

وإذا كنت لازلت غير مقتنع، فانظر عزيزي القارئ – إن شئت- إلى السماء وقد بنيت فوقنا:

- أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (6)

ثم ألم ترى الطير فوقنا صافات ويقبضن؟

- أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (19)

ولا ريب أنك سترى الملك على أرجائها في ذلك اليوم الرهيب وقد حمل عرش ربنا فوقنا يومئذ ثمانية:

- وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (17)

وبعد هذا كله، هل لازلت (عزيزي القارئ) تظن أن فرعون قد كان يتكلم بالمجاز عندما قال بلسانه أنه هو وآله فوق بني إسرائيل وهم لهم قاهرون؟

- وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127)

من يدري؟!!!

أما أنا، فإني أفتري الظن من عند نفسي أن فرعون كان يصور حقيقة المشهد الذي كان سائدا في مصر حينئذ عندما قال بأنه وملأه فوقهم قاهرين، فبنو إسرائيل يسكنون الأرض:

- وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (104)

وموسى وأخيه يبوءا لقومهما بيوتا بمصر جاعلينها قبلة، ولا أظن أن القبلة تكون باتجاه السماء:

- وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (87)

فالذي يتوجه شطر القبلة في صلاته هو يتوجه نحو نقطة محددة على الأرض ولا يرفع بصره باتجاه السماء كما نفعل عندما نولي وجوهنا شطر القبلة التي ارتضاها لنا محمد وهي البيت الحرام:

- **قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (144)**

نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا 1: كان بنو إسرائيل يسكنون أرض مصر، وكانت بيوتهم قبلة، فكان مكان تواجدهم الدائم هي الأرض، فسكنوا الأرض (وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ)
نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا 2: كان فرعون وآله متواجدين فوق بني إسرائيل مكانيا (وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ)

السؤال: وأين المكان الذي كان يتواجد به فرعون وآله حتى أصبحوا فعلا فوق بني إسرائيل؟
جواب خطير جدا جدا: في تلك الصروح التي كانت – برأينا – منتشرة فوق أرض مصر
الدليل

بداية، نحن نفهم أن تلك الصروح كانت متواجدة في جو سماء مصر، فكانت تتلألأ في كبد السماء حتى يحسبها الناظر لجة، لذا كان لابد لتلك الصروح أن تكون كما البناء المعروش، وكانت الأنهار تجري في أرض مصر من تحت من يسكنها كفرعون الذي وجه الخطاب قائلا:

- **وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51)**

لاحظ عزيزي القارئ – إن شئت- ما قاله فرعون:

⇐ فرعون ينادي في قومه
⇐ فرعون يتساءل فيهم عن ملك مصر
⇐ فرعون يثبت أن الأنهار تجري من تحته
⇐ فرعون يطلب منهم أن يبصروا ذلك بأم أعينهم

التساؤلات:

⇐ لماذا نادى فرعون في قومه مناداة؟ ألم يكن يكفي أن يقول لهم قولا؟ (وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ)
⇐ لماذا تساءل فرعون في قومه عن ملك مصر بالذات؟ (قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ)
⇐ كيف يقول فرعون أن الأنهار فعلا تجري من تحته وحده؟ (وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي)
⇐ ألم تكن تجري من تحتهم أيضا إن صحت تخيلاتك المفتراة؟ يسأل صاحبنا المعهود.
⇐ كيف لهم أن يبصروا ذلك بأم أعينهم؟ (أَفَلَا تُبْصِرُونَ)
⇐ الخ.

رأينا المفترى: لمّا كان فرعون قد نادى في قومه مناداة، فإننا نتجرأ على الافتراء الخطير الذي مفاده أن فرعون كان يسكن صرحا يعلو في مكانه جميع الصروح الأخرى التي كان يسكنها آل فرعون، فصرح فرعون في جو السماء هو الأعلى من بينها جميعا. وليس أدل على أن المنادي يكون في موقع أعلى من مكان المنادى عليه من نداء الله نفسه نبيه موسى:

- وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10)

ألم يكن بإمكان الإله أن يتكلم مع موسى دون مناداة؟ هل يحتاج الله أن يرفع صوته (أي مناديا) حتى يسمعه موسى؟ ألم يقرب الله موسى نجيا؟ لم إذا بعد هذا كله جاء حديثه مع موسى بصيغة النداء؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن ذلك لسبب واحد وهو ارتفاع المنادى (الله) عن المنادى عليه (موسى) مكانيا.

وهكذا يمكن أن نتخيل نداء نوح ابنه في خضم تلاطم الأمواج:

- وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (42)

وليس أدل على ذلك من أن الفتى كان لم يؤوي إلى الجبل بعد. انظر الآية نفسها في سياقها الأوسع

- وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43)

فالأب موجود في سفينة يحملها موج كالجبال، والابن موجود في مكان أقل ارتفاعا من ارتفاع السفينة المتواجد فيها والده، وهو يحاول الآن أن يؤوي إلى الجبل ليعصمه من الماء، وما أن حال بينهما الموج حتى كان الولد من المغرقين. ويمكن أن نتخيل السفينة بحجمها ومكان تواجد من فيها مقارنة بمن لازال متواجد على بداية الجبل كما في الشكل التالي:



فتم الخطاب بين من كان في السفينة (وهو الذي فوق) (على من هو تحت) بالمناداة. فما بالك بالسفينة التي كانت تجري بهم في موج كالجبال؟ من يدري؟!!

إن ما يهمنا طرحه هو أن عملية النداء تتم بين طرفين، يكون أحدهما في مكان يرتفع عن مكان الآخر. فقد يكون المنادي (هو فوق) على منادى عليه أو عليهم (هم تحته)، بالضبط كما يمكن أن نتخيل الله وهو من نادى على موسى عندما كان موسى متواجدا في الواد المقدس، أو كما يمكن أن نتخيل نوح وهو ينادى ابنه في خضم تلاطم الأمواج التي كانت تجري بتلك السفينة كالجبال.

وبالمقابل يمكن أن نتخيل (كما ذكرنا الأخ المهندس محمد السيسي في نقده الأول لهذه المقالة) أن المنادي قد يكون في مكان أخفض من المكان المتواجد فيه المنادى عليه كما في قوله تعالى:

- وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (50)

لتكون الصورة التي نحب أن نشكلها في فعل النداء هو احتمالية عدم التوازن المكاني بالاستواء بين الطرفين: المنادي والمنادى عليه.

وبمثل هذا المنطق المفترى من عند أنفسنا نحن نظن أن بإمكاننا أن نفهم نداء فرعون في قومه:

- وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51)

فلقد كان فرعون (نحن نتخيل) متواجدا في صرح هو الأعلى مقارنة بالصروح التي كانت متواجدة في سماء مصر حينئذ، ويكون في هذا فهما حقيقيا لقول فرعون بأنه وآله هم فوق بني إسرائيل (وهم الذين يسكنون الأرض وهم لهم قاهرون:

- وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127)
- وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (104)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: كان فرعون وآله يسكنون صروحا هي متواجدة في سماء مصر، وكان بنو إسرائيل يسكنون أرض مصر، يشتغلون بها خدمة لفرعون وآله، بعد أن جاء هذا الفرعون الذي عبدوهم في أرض مصر:

- وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (22)

سؤال: لماذا كانت الأنهار تجري من تحت فرعون على وجه الخصوص؟

- وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51)

رأينا المفترى: لمّا كان صرح فرعون هو الأعلى كان يغطي تحته مساحة أكبر من الأرض، فصرح فرعون متواجد في مكان في كبد السماء هو من الارتفاع لدرجة أنه كان (نحن نتخيل) يستطيع مراقبة أرض مصر كلها من الأعلى. لذا كانت كل صروح آل فرعون الأخرى أقل ارتفاعا وبالتالي تغطي مساحة أقل من أرض مصر، فلقد كان لكل واحد من آل فرعون وملئه صرحا يوازي في ارتفاعه مكانته في القوم. فصرح فرعون هو الأعلى، ثم يأتي صرح قارون وهامان، وهكذا. فتتدرج الصروح في جو السماء كما هي النجوم المتلألئة فيها. فمادام أن فرعون هو الشخص الأول في أرض مصر فإن صرحه هو الأعلى.

ولو تدبرنا اللفظ أكثر لربما وجدنا أن ذلك قد يدل أيضا على جغرافية وجود صرح فرعون على وجه الخصوص، فنحن نظن أن صرح فرعون كان متواجدا فوق المكان الذي تتفرع فيه الأنهار الكثيرة في أرض مصر، حتى أصبحت كلها تجري من تحته:

- وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51)

لو تدبرنا ذلك من منظور صروح آل فرعون وملئه الأخرى لربما وجدنا أن من كان يسكن تلك الصروح في الأعلى كان بإمكانه أن يبصر بأم عينه كيف كان صرح فرعون على وجه الخصوص تجري من تحته الأنهار، فهذا فرعون يطلب منهم أن يؤكدوا دعواه تلك ببصرهم:

- وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن آل فرعون وملئه اللذين كانوا يسكنون الصروح العالية في جو سماء مصر كانوا يستطيعون أن يبصروا الأنهار الكثيرة التي كانت تجري من تحت صرح فرعون على وجه الخصوص. هذا وسنتحدث عن مكان صرح فرعون الجغرافي لاحقا إن أذن الله لنا بشيء من علمه، إنه هو الواسع العليم – آمين.

ولو تدبرنا الطلب الإلهي من موسى في رسالته إلى هارون لوجدنا الآية الكريمة التالية:

- **وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (17) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (18) وَأَنْ لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (19)**

لنخرج بالاستنباط التالي الذي هو لا شك من عند أنفسنا: لقد وصلت الجرأة بآل فرعون أن وصل ظنهم أنهم يستطيعون أن يعلوا على الله نفسه. فلقد تجاوز فرعون وآله كل الخطوط الحمراء المسموح بها حتى وصل تطاولهم على الله. وسنتحدث عن هذه الجزئية لاحقا إن أذن الله لنا بشيء من علمه

(دعاء: اللهم أعوذ بك أن يكون أمري كأمر فرعون، وأسألك وحدك أن تريني (إن استطعت) آياتك كلها فأعرفها، فأكون لك عبدا شكورا، كما كان نوح عبدا شكورا، وأسألك وحدك أن تهديني صراطك المستقيم، وأن أكون ممن يعملون شكرا كما كان آل داوود يعملون شكرا، واجعل لي عندك زلفى وحسن مئآب، إنك أنت العلي الكبير، آمين)

لنعود فنطرح التساؤل التالي على الفور: أين ذهبت تلك الصروح الكثيرة التي كانت خاصة بفرعون وآله؟ ألا يوجد بقايا لها في جو سماء مصر؟ هل تريد منا أن نصدق تخيلاتك الزائفة هذه التي لا نكاد نرى لها أثرا في مصر؟

جواب مفترى: نعم لن تروا لها أثرا في أرض مصر، وذلك للسبب الذي تصوره الآية الكريمة التالية:

- **وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ (137)**

دقق عزيزي القارئ الكريم بما جاء في نهاية هذه الآية الكريمة، ألم يثبت الله بأنه قد حصل الدمار لما كان يصنع فرعون وقومه؟ ألم يثبت الله أنه قد حصل التدمير لما كانوا يعرشون؟

ليكون السؤال الآن: ما الذي تم تدميره بالقدرة الإلهية وهو لا شك خاص بفرعون وقومه؟

جواب مفترى خطير جدا: لمّا كانت الأهرامات لازالت موجودة حتى الآن في الجيزة بمصر، فإننا نستطيع أن نفتري الظن بأنها ليست من صناعة فرعون وقومه، ولما لم تكن تلك الأهرامات مما عرش فرعون وقومه، لم يطلها التدمير الإلهي. فبقيت تلك الكينونات شاهدت على فرعون وقومه اللذين ورثوها من القرون الأولى وهي عاد وثمود.

ولكن لما كانت الصروح التي برع هامان في بناءها في أرض مصر هي جزء مما كان يصنع فرعون وقومه، وهي برأينا ما كانوا يعرشون، كانت هي التي لحق بها التدمير الإلهي، فما بقيت لها من باقية:

- **فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ (8)**

ونحن نظن أن الآيات الكريمة التالية تبين (حسب ما نفهمه منها) الصورة الخيالية التي حاولنا أن نرسمها لحالة بني إسرائيل في أرض مصر مقارنة مع حالة فرعون وقومه:

- **طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6)**

تلخيص ما سبق

نحن نظن أن هذه كانت بداية استعباد بني إسرائيل في أرض مصر، وهي الفترة التي تمكن الفرعون الأول من العلو في الأرض (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ)، الأمر الذي مكنه من أن يجعل أهل مصر حينئذ شيعا (وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا)، فاستضعف طائفة واحدة من بينهم جميعا وذلك بتذبيح أبناءهم واستحياء نسائهم (يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ)، فكان من المفسدين (إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ). واستمرت حالة بني إسرائيل في أرض مصر على تلك الشاكلة، حتى مات هذا الفرعون الأول وانتقل الحكم إلى فرعون جديد، فعمد إلى تغيير سياسته تجاه بني إسرائيل، فبدلا من تذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم، أخذ الرجل بتعبيدهم:

- **وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (22)**

وظل بنو إسرائيل يتحملون الأذى حتى بعد مجيء موسى لهم:

- **قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (129)**

وكانت رسالة موسى وأخيه هارون إلى هذا الفرعون واضحة تتلخص بأن يرسل معه بني إسرائيل:

- **فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (47)**
- **فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (17)**

ويكأن موسى وهارون إذن يقران بملك فرعون على أرض مصر، وأحقية بني إسرائيل بالعودة إلى الأرض التي كتب الله لهم:

- **يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (21)**

فينقسم المكان بين طرفين: موسى وأخوه هارون يتبعهما بنو إسرائيل في الأرض المقدسة وفرعون وآله وقومه في أرض مصر.

السؤال: هل رضي فرعون بهذا التقسيم؟

جواب: كلا وألف كلا.

السؤال: لماذا لم يتقبل فرعون هذا الحل الذي طرحه موسى وأخوه هارون؟ ألم يكن في ذلك عدل فلا تطغى طائفة منهم على الطائفة الأخرى؟

جواب مفترى: لم يكن فرعون ليرضى بهذا التقسيم ربما (في ظننا) لسبب شيء واحد، ألا وهو ما كان فرعون وهامان وجنودهما يحذرون:

- **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6)**

السؤال: ما الذي كان فرعون وهامان وجنودهما يحذرونه؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الإجابة على هذا التساؤل تتطلب أولا تدبر الآية القرآنية التالية التي ستثير بدورها عاصفة جديدة من التساؤلات ذات العلاقة، والآية الكريمة هي:

- **وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (41) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (42)**
- **وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (57)**

إن أبسط الاستنباطات المفتراة الأولية التي يجب أن نخرج بها من هذه السياقات القرآنية هي التالي:

⇐ كان آل فرعون هم فقط من جاءتهم آيات الله كلها، فكذبوا بها

- **وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (41) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (42)**

⇐ كان فرعون هو فقط من رأى بأم عينه آيات الله كلها

- **وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (57)**

السؤال المحوري: متى رأى فرعون آيات الله كلها؟ ألم يري موسى فرعونَ الآية الكبرى فقط عندما جاءه في المرة الأولى؟

- **إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (16) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (17) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى (18) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (19) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)**

السؤال مرة أخرى: متى حصل أن رأى فرعون آيات الله كلها؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن ذلك حصل عندما اطلع إلى إله موسى. فما أن بلغ فرعون باستخدامه ذلك الصرح الذي بناه له هامان أسباب السموات والأرض حتى اطلع إلى إله موسى، فخاب ظنه بأن موسى من الكاذبين، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل رأى فرعون (نحن نفتري القول من عند أنفسنا) بأم عينه آيات الله كلها هناك:

- **وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56)**

وما أن بدأت آيات الله تأتي قومه الواحدة تلو الأخرى:

- **وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (41) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (42)**

حتى كانت كل آية هي أكبر من أختها:

- **وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (48)**

فما كان ظنهم بها أكثر من أنها تقع في باب السحر:

- **وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (49)**

وما تزحزح فرعون عن موقفه بأن هذا يقع في باب السحر:

- **قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (57)**

ولكن لا ننسى أن فرعون هو من أضل قومه وما هدى

- وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (79)

لكن هذا لا يمنع بأن فرعون وهامان على وجه التحديد كانا حذرين، وكذلك كان وجنودهما:

- وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6)

ليكون السؤال الآن: ما الذي كان يحذره فرعون وهامان وجنودهما؟

بداية لا شك أن الناس جميعا دائمي الحذر من الله نفسه:

- وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (235)
- لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (28)

والناس هم دائمي الحذر من الموت:

- أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (243)
- يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (30)

ولا شك أن الناس يحذرون عدوهم:

- وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (102)
- وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (4)

والحذر يكون مما هو مجهول:

- يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ۛ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ۚ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (41)
- وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (49)
- وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (92)

- وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (122)

وليس أدل على الحذر من المجهول من أن نحذر الآخرة:

- أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (9)

والمنافقون على وجه التحديد يحذرون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم:

- يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (64)

والحذر يكون من وقوع الفتنة أو وقوع العذاب:

- لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (63)

ويمكن أن يكون الحذر من بعض الأزواج والأولاد اللذين قد ينقلبوا ليكونوا عدوا للشخص نفسه:

- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (4)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن حذر فرعون وهامان وجنودهما كان يحمل ثناياه جل هذه الأمور، لكن كيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأنه ما أن اطلع فرعون على إله موسى حتى أدرك وجوده، وهناك رأى آيات الله كلها، لكن هذا لم يثنه عن ظنه بأنه هو أيضا إله، لكنه إله على الأرض، فجاء استكباره وجنوده في الأرض بغير الحق:

- وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39)

وما أن بدأت الخيوط تنفلت من يديه الواحدة تلو الأخرى بعد مجيء موسى وأخيه هارون بالآيات حتى تنازل فرعون عن إلوهيته المطلقة التي قالها يوما في ملئه:

- وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)

وأصبح ظنه أنه هو ربهم الأعلى:

- فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ (24)

ثم أخذ يحصر ربوبيته في أرض مصر:

- فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (47) وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (48) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (49) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (50) وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا

الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54)

فأصبح فرعون يعي مقدار الخطر الذي داهمه في عقر داره. فكان عليه أن يبقى حذرا من عدوه وهو موسى ومن معه، وهو يحذر رب موسى لأنه أصبح يرى مقدار قدرته التي يمكن أن تشكل خطرا على فرعون وقومه بما راءه من الآيات كلها بأم عينه، وهو يحذر المجهول الآن الذي كان يظن أنه قادر عليه في السابق، وهو الآن يحذر الموت الذي ظن في السابق أنه كان يستطيع التعامل معه، حتى أخذ الحذر يصل إلى من هم حوله في بعض آله، بدليل أن بعضهم قد أنفلت من الدائرة، وأصبح يدور الآن في فلك موسى ومن معه، وهو من كان يكتم إيمانه من آل فرعون:

- **وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (29) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (30) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (31) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (32) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33) وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (34) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (35) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (38) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (39) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (40) وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (42) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (43) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (44) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (45)**

السؤال: ما الذي كان يحذره فرعون وهامان وجنودهما على وجه التحديد؟

- **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6)**

جواب مفترى: نحن نظن أنه مادام أن فرعون وهامان يشتركان في هذه الجزئية مع جنودهما (وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا)، فإن الحذر يصبح – برأينا- واضحا، فالجنود (نحن نفتري القول) لا يحذرون إلا

ضياع الأوطان، فمهمة الجنود الأولى هي الحفاظ على الأوطان والدفاع عنها في وجه الأخطار التي يمكن أن تحدق بها، أليس كذلك؟

السؤال: لماذا إذن لم يتقبل فرعون دعوة موسى وهارون بتسوية الخلاف وذلك بإرسال بني إسرائيل معهما إلى الأرض المقدسة؟

- **فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (47)**
- **فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (17)**

رأينا المفترى: نحن نظن أن فرعون وهامان وجنودهما كان يجمعهم الظن بأن خروج بني إسرائيل إلى الأرض المقدسة (بتأييد من هذا الإله الذي لا يكاد يبين، وبهذه الآيات التي راءاها كلها) سيقلب الموازين رأسا على عقب، ففرعون يعلم أن في وصول بني إسرائيل إلى الأرض المقدسة علو لهم، فبنو إسرائيل لا يستطيعون العلو إلا في الأرض المقدسة:

- **وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (4)**

فوصوله إلى الأرض المقدسة سيمكنهم من العلو، الأمر الذي سيشكل تهديدا كبيرا لعلو فرعون وآله في مصر، فتصبح المنافسة بين الطرفين أشد وأخطر. فالقضاء على بني إسرائيل في أرض مصر أسهل (في رأي فما كان من يفكر بعقلية الجنود) من منازلتهم بعد وصولهم إلى الأرض المقدسة. فوصولهم إلى الأرض المقدسة سيشكل تهديدا كباشرا لأمن مصر. فما كان لمن يفكر بعقلية العسكر أن يتنازل عن مبدأ حماية الأوطان، لا بل والحذر المسبق من الأخطار التي يمكن أن يحملها لهم المجهول في ثناياه. فكان قرار فرعون وهامان وجنودهما هو اللحاق بموسى ومن معه حتى البحر ليمنعوهم من الوصول إلى الأرض المقدسة، والوصول إلى ربهم الذي يؤيدهم هناك.

سؤال: ما الذي تقوله يا رجل؟ هل إله بني إسرائيل موجود في الأرض المقدسة؟ ألا ترى أن الخيال المزيف قد جرفك إلى هاوية التفكير؟ يسأل صاحبنا.

جواب مفترى: دعنا نتمهل قليلا في الرد، لأننا بحاجة أن نطرح التساؤل التالي الذي جاء على لسان أحد القراء الكرام للأجزاء السابقة ألا وهو: لماذا أرض مصر؟ لماذا كانت هذه الأحداث قد وقعت على أرض مصر؟ ما خصوصية تلك الأرض؟

جواب مفترى خطير جدا جدا لا تصدقوه: لأنها الأرض المجاورة للأرض التي يتواجد فيها إله بني إسرائيل، وهو الإله الذي وجده موسى فيها هناك بالقرب من الواد المقدس:

- **إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (10) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12)**

وهي الأرض نفسها التي واعد فيها الله نبيه موسى:

- **وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (142) وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (143)**

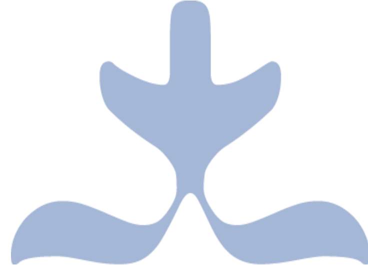
الافتراء الخطير جدا جدا: من أرض مصر، بلغ فرعون أسباب السموات والأرض باستخدامه ذلك الصرح، ومن هناك اطلع فرعون على الأرض المقدسة، ومن هناك اطلع إلى إله موسى فوجده في ظلل من الغمام، ومن هناك رأى آيات الله كلها.

نتيجة مهمة جدا: أصبحت المنافسة (برأي فرعون) بين إله بني إسرائيل الذي يتخذ لنفسه مكان فوق الأرض المقدسة، وإله مصر (فرعون) الذي يسكن في صرح تجري أنهار مصر كلها من تحته، فأصبحت المنافسة ليس فقط عرقية وإنما جغرافية أيضا.

السؤال: كيف حصل ذلك؟

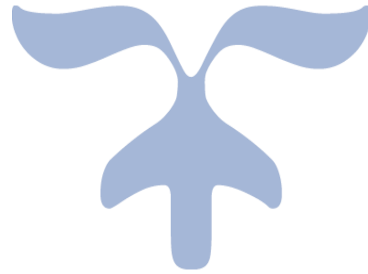
جواب مفترى: هذا ما سيدور النقاش حوله في الجزء القادم من هذه المقالة،

سائلين الله وحده أن يهدينا رشدنا، وأن يعلمنا الحق الذي نقوله فلا نفتري عليه الكذب، وأعوذ به أن يكون أمري كأمر فرعون - آمين.



قصة يونس

الجزء العشرون



قصة يونس: الجزء العشرون

ينقسم هذا الجزء الجديد من المقالة في بابين رئيسيين: حيث نحاول في الباب الأول تقديم الدليل على افترائنا الذي حاولنا تسويقه في الجزء السابق والذي مفاده أن آل فرعون كانوا يسكنون في صروح في جو السماء فوق بني إسرائيل الذين كانوا يسكنون الأرض في مصر حينئذ. وقد قدمنا افتراءنا هذا بناء على فهمنا للآيتين التاليتين بعد ربطهما معا:

- **وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127)**
- **وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً (104)**

أما في الباب الثاني، فسنحاول بحول الله وتوفيق منه أن نجد الدليل لتحديد المكان الذي وصله فرعون بعد أن بلغ الأسباب ومنه اطلع إلى إله موسى، حيث رأى آيات الله كلها بأم عينه:

- **وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56)**

(دعاء: فالله وحده أسأل أن ينفذ قوله بمشيئته لي الإحاطة بشيء من علمه لا ينبغي لغيري إنه هو السميع البصير _ آمين)

الباب الأول: آل فرعون يسكنون فوق بني إسرائيل

حاولنا في الجزء السابق من هذه المقالة تمرير افتراء هو – لا شك- من عند أنفسنا مفاده أن آل فرعون كانوا فعلا يسكنون في الصروح التي نظن أنها كانت منتشرة في سماء مصر، بينما كان بنو إسرائيل يسكنون الأرض:

- **وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (104)**

جاعلين بيوتهم قبلة:

- **وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (87)**

فكان في هذا (نحن نظن) تبيان لقول فرعون بأنهم فوق بني إسرائيل، هم لهم قاهرين، وهو قول فرعون في ملئه الذين حثوه على أن لا يذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض حسب زعمهم:

- **وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127)**

ونحن نعتقد أن بإمكاننا تقديم دليلين اثنين (نحن نظن) أنهما ربما يؤيدان هذا النوع من التفكير (ربما المغلوط) الذي نحاول تسويقه، والدليلان هما:

1. مفردة التابوت التي جاءت في الآية الكريمة التالية

- **أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (39)**

2. مفردة الالتقاط التي جاءت في الآية الكريمة التالية:

- **فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8)**

السؤال: كيف يكون ذلك؟

بداية، نحن نعلم أن الأمر الإلهي قد جاء وحيا لأم موسى بأن تلقي رضيعها في اليم:

- **وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8)**

وقد كان جزءا من ذلك الوحي أن تقذفه في التابوت:

- **إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (38) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (39)**

لتكون التساؤلات المطروحة الآن هي:

⇐ ما الحاجة إلى وجود التابوت؟

⇐ ألم يكن بالإمكان أن تلقي أم موسى برضيعها باليم وكفى (إن كان الأمر أصلا يتعلق بالمعجزات كما يروج عادة لهذه الأمور سادتنا العلماء أهل الدراية)؟

⇐ ومن أين جاء ذلك التابوت؟

⇐ وكيف وصل إليها ذلك التابوت؟

⇐ كيف قذفته في التابوت؟

⇐ كيف قذفته في اليم؟

⇐ ما قصة التابوت أصلا؟

⇐ الخ.

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن بأن التابوت قد وصل إلى أم موسى بنفس الطريقة التي وصل بها إلى غيرها. فالتابوت قد وصل مرة أخرى إلى طالوت كآية ملك له كما جاء على لسان نبي من أنبياء بني إسرائيل في حديثه إليهم:

- **وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَآئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (248)**

ولو دققنا بقصة ذاك التابوت، لوجدنا بأن من أهم مواصفاته هو وجود السكينة فيه (أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ)، أليس كذلك؟

(للتفصيل انظر مقالتنا ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته)

ولو دققنا في لفظ السكينة على مساحة اللفظ القرآني لوجدنا أن مصدرها إلهي، لذا فهي تأتي بطريقة الإنزال من الله:

- **هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (4)**
- **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (18)**

لتكون النتيجة المفتراة من عند أنفسنا الآن على النحو التالي: عندما تأتي السكينة فإنها تأتي بطريقة الإنزال من السماء.

السؤال: ما علاقة هذا بقصة التابوت؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن السكينة قد جاءت هذه المرة في التابوت (أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ)، لذا كان لابد من وجود من يحمل التابوت من الأعلى (السماء) لينزل به إلى الأرض، فكانت الملائكة هي من تحمله. انظر الآية الكريمة مرة أخرى:

- **وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (248)**

فكان في ذلك آية (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ)، ليكون الافتراء الأكبر الذي نحاول طرحه هنا هو ضرورة وجود من يحمل ذاك التابوت، ألا وهم الملائكة (تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ).

السؤال المحوري: كيف جاء الوحي إلى أم موسى؟ هل كانت أم موسى من الرسل اللذين يُوحى إليهم؟ أم هل جاءها الوحي من الله عن طريق رسول من ربها كما حصل مع مريم مثلا؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا. فالنص القرآني لا يذكر وصول رسول يخاطب أم موسى بما تفعل. وجل ما حصل هو حدوث وحي جماعي (أي بصيغة الجمع: أَوْحَيْنَا) لأم موسى بأن تقذف وليدها في التابوت. انظر السياقات القرآنية كلها التي تتحدث عن الوحي لأم موسى:

- **وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8)**
- **إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (38) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (39)**

السؤال مرة أخرى: كيف إذن حصل الوحي (إِذْ أَوْحَيْنَا) لأم موسى بأن تقذف رضيعها في التابوت فتقذفه بعد ذلك باليم؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: يبلغ موسى سن الفطام، يصبح الخوف مسيطرا على أم موسى بأن وليدها لم يعد بالإمكان التستر عليه أكثر من ذلك، فهو لا شك سيخرج من البيت، فينكشف أمره، فما الذي يمكن لها أن تفعله حتى تنجو به من آل فرعون اللذين لا شك لازالوا على عادة تقتيل أبناء بني إسرائيل واستحياء نسائهم في أرض مصر:

- **وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (141)**

تبقى أم موسى شاردة التفكير فيما يجب عليها فعله فترة طويلة من الزمن تحاول إيجاد المخرج من هذا المأزق الكبير الذي لا شك شغل تفكيرها أكثر من أي شيء آخر، لكنها (كامرأة مؤمنة) لا تنسى لحظة واحدة أن الله لا شك سيهديها صراطه المستقيم، وأن الله هو وحده القادر أن يخرجها مما هي فيه من الغم. وبالفعل ما أن يوشك الطفل على الفطام حتى يأتيها الوحي الإلهي بالطريقة المفتراة من عند أنفسنا التالية: ما أن تكون أم موسى في فناء بيتها حتى ينزل ذلك التابوت الذي فيه السكينة تحمله الملائكة فجأة (إِذْ أَوْحَيْنَا)، فينزل

التابوت وبكأنه محمول بقوى خفية، فتدرك على الفور أن هذه هي نجدة أهل السماء للمستضعفين من أهل الأرض، فيكون في ذلك وحي لها بأن هذا التابوت هو مصمم خصيصا لموسى حتى تضعه أمه فيه.

الدليل

نحن نظن بأن الطفل عادة ما ينشأ في المهد، وليس أدل على ذلك من مهد عيسى عليه السلام، فأمه جاءت به قومها تحمله:

- **فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ...**

وعندما تساءل القوم عن ما تحمله:

- **... قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (27) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (28)**

أشارت إليه ليتخاطبوا معه:

- **فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ...**

فجاء استغرابهم من كيفية تكليمهم لمن كان في المهد صبيا:

- **... قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29)**

نتيجة مفتراة: المهد هو المكان الذي يتواجد فيه الصبي.

السؤال المهم: لماذا لم تضع أم موسى طفلها في المهد ثم تلقي به في اليم؟

جواب مفترى: نحن نظن أن المهد هو ما يمكن لشخص واحد أن يحمله، فأنا أعتقد أن مريم (أم عيسى) قد جاءت قومها تحمل طفلها في المهد، لذا كانت قادرة على التعامل معه بنفسها.

أما في حالة موسى، فإن التابوت لم يكن ليقوى شخص واحد على التعامل معه بمفرده، وذلك لأن التابوت من الحجم لدرجة أن اللذين يحملونه هم مجموعة من الملائكة، فلقد أتى التابوت بني إسرائيل في زمن طالوت تحمله الملائكة:

- **وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (248)**

الدليل

نحن نظن أننا نجد الدليل على افترائنا هذا الذي مفاده أن التابوت هو صندوق كبير في الحجم في الآية الكريمة نفسها التي تتحدث عن الوحي الإلهي لأم موسى، قال تعالى:

- **إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (38) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (39)**

إن المتدبر لهذه الآيات الكريمة يدرك على الفور بأن عملية إدخال أم موسى لطفلها في التابوت ومن ثم عملية إدخال التابوت في اليم قد جاءت باستخدام فعل واحد وهو "اقْذِفِيهِ". فأم موسى قامت بقذف طفلها في التابوت، ومن ثم قامت بقذف التابوت الذي قذفت فيه طفلها في اليم، أليس كذلك؟

السؤال: كيف يمكن أن نتصور كيف تمت عملية القذف هذه؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الآيات الكريمة التالية تصور لنا المشهد أحسن تصوير، قال تعالى:

- **إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (6) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (7) لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (8)**

لتكون الصورة على النحو التالي: تتم عملية القذف بإلقاء شيء من مكان ما بهدف وصوله إلى مكان آخر، فعلى سبيل المثال تتم عملية قذف اللذين يسمعون إلى الملأ وذلك عندما يرجمون بالشهاب. انظر الآيات الكريمة السابقة في سياقها القرآني الأوسع:

- **إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (6) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (7) لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (8) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (9) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (10)**

وتتراوح المسافة بين نقطة الانطلاق (أي المصدر) في عملية القذف ونقطة النهاية (أي الهدف) حتى قد تصل أن تكون من مكان بعيد:

- **وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (51) وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (52) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (53)**

السؤال: كيف إذن قذفت أم موسى طفلها في التابوت؟ وكيف قذفت التابوت (الذي قذفت فيه أبنها) في اليم؟

تخيلات مفتراة: لما كانت الملائكة هي من تحمل التابوت، كان التابوت يتحرك بقوى خفيه، فما كان من أم موسى إلى أن تقذف ابنها في التابوت، فتمت عملية القذف في هذه المرحلة من مكان قريب (أي داخل فناء البيت)، فتمت عملية القذف في هذه الحالة من مكان قريب، ثم عمدت بعد ذلك أن قذفت بالتابوت من فناء بيتها (المصدر) في اليم (الهدف)، فتمت عملية القذف في هذه الحالة من مكان بعيد. وهذا الظن يدعونا إلى أن أم موسى قد فعلت ذلك كله وهي في بيتها، فأنا لا أتخيل بأن أم موسى قد خرجت من بيتها عندما قذفت بالتابوت في اليم، لأنه لو حصل ذلك لما غفلت أعين آل فرعون عنها، وربما ما غفلت أعين جنود فرعون وهامان عن ذلك، ولربما تم اكتشاف المصدر الذي جاء منه الطفل (الذي وجدوه في اليم) منذ اللحظة الأولى. فعودة موسى إلى أمه لم تكن لتخفى على آل فرعون اللذين ربما كانوا سيتمكنون من إتباع الأثر واكتشاف المكر الإلهي منذ بدايته.

- **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (30)**

السؤال: كيف انتهى الأمر بالطفل في يد آل فرعون؟ لِم لم يعثر عليه آخرون؟ لم لم يعثر عليه نفر آخر من بني إسرائيل مثلا؟ ألم يكن ذلك وارد في حسبان أم موسى؟ ماذا لو انتهى الطفل فعلا بيد بعض بني إسرائيل حينها هل كانت التدبير الذي في ذهن أم موسى حينئذ سينجح؟

السؤال: لماذا تم الوحي الإلهي لأم موسى بأن تقذف رضيعها في اليم؟ لم لم تضعه على الشاطئ أو على اليابسة؟ ألم يكن ذلك فيه سلامة أكبر للطفل؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الوحي الإلهي قد جاء لأم موسى بأن تقذف رضيعها في اليم حتى لا يقع في يد نفر من بني إسرائيل فتفشل الخطة برمتها.

السؤال: كيف علمت أم موسى أن في قذفها لرضيعها في اليم إحكام للخطة؟ أي كيف علمت أن الطفل سينتهي بيد عدو الله وعدوه كما جاء بالوحي الإلهي لها كما تبينه الآية الكريمة التالية؟

- **أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (39)**

جواب مفترى: نحن نظن أن أم موسى قد قذفت برضيعها في اليم وذلك لعلمها بالحقيقة التي تصورها الآيات الكريمة التالية:

- **وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51)**

فالأنهار تجري من تحت فرعون (وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي) وهي جميعا تقع تحت بصر آله (أَفَلَا تُبْصِرُونَ). لذا لم يكن آخرون (كبني إسرائيل مثلا) يستطيعون الوصول إلى التابوت الذي قذفته أم موسى في اليم دون أن يبصر ذلك آل فرعون. فالخطة الإلهية (نحن نؤمن) قد أحكمت لتتم كما أرادها الله، وهي أن يأخذ موسى عدو الله وعدوه:

- **أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (39)**

لكن السؤال الذي يجب أن يطرح الآن هو: كيف تمت عملية أخذ موسى من قبل فرعون (يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ)؟ هل فرعون هو من وجد موسى بنفسه فأخذه؟ هل فرعون هو من أخرج الطفل من اليم بنفسه؟

جواب مفترى: نحن نفتري القول بأن الآية الكريمة التالية تجيب على هذا التساؤل:

- **فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8)**

لنخرج منها بالاستنباطات المفتراة التالية:

⇐ كان آل فرعون هم من التقطوا الطفل من اليم

⇐ تمت العملية بطريقة الالتقاط

⇐ كانت نتيجة هذه العملية أن يكون هذا الطفل عدوا وحزنا لآل فرعون

⇐ كان فرعون وهامان وجنودهما خاطئين

⇐ الخ.

السؤال: كيف يمكن تجميع هذه الافتراءات مع بعضها البعض في سياق هذه القصة العظيمة؟

جواب مفترى:

أولا، لما كان آل فرعون هم من التقطوا هذا الطفل، لم يكن بمقدور أحد منهم (بشخصه) أن يدعي أنه هو من فعل ذلك، فالتقاط الطفل تم بعملية جماعية (فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ)، أليس كذلك؟

ثانيا، لما كان هذا الطفل سيكون عدو وحزنا لهم (لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا)، فأن أمره – لا شك- قد أشكل على القوم حتى وقعوا (نحن نظن) في حيرة من أمرهم. فلا أخال أن الأمر لم يحدث بينهم هرجا كبيرا. فلعلي أتخيل مقدار الجلبة التي أحدثها العثور على هذا الغلام بهذه الطريقة غير العادية وفي هذا التوقيت بالذات.

ثالثا، لما كان فرعون وهامان وجنودهما خاطئين (إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ)، فإن خبر التقاط هذا الطفل من اليم (نحن نفتري القول) قد وصل إليهم جميعا، فحاولوا البحث عن المصدر الذي

جاء منه هذا الطفل، ونحن نتخيلهم وقد وضعوا جميع الافتراضات والاحتمالات التي تكون قد خطرت على بالهم حينئذ، لكنهم انتهوا جميعا بأن يكونوا خاطئين (إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ).

السؤال: لماذا؟ لماذا لم يتمكن فرعون وهامان وجنودهما من معرفة مصدر هذا الطفل؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن من الأسباب التي كان لها علاقة بالأمر هي عمليات القذف والالتقاط التي حصلت للطفل.

السؤال: كيف يكون ذلك؟

رأينا المفترى 1: لما كانت أم موسى قد قذفت التابوت في اليم، لذا نحن نتخيل بأنها قد دفعت بالتابوت من بيتها وكأنه "قذيفة" باتجاه اليم، فتوجهت الملائكة التي تحمل التابوت به إلى اليم حيث استقر هناك. لذا أصبح من المتعذر على الجنود أن يقصوا أثره، فما استطاعوا أن يحددوا المكان الذي جاء منه التابوت. ولو كانت أم موسى هي من خرجت من بيتها بذلك التابوت لتقذفه في اليم (كما صورت لنا القصة في كتب التراث) لربما سهل على جنود فرعون وهامان أن يقصوا أثره. فقص الأثر كان شائعا ي ذلك الزمن، وليس أدل على ذلك من أن أم موسى نفسها قد طلبت من أخته بعد فترة من الزمن أن تقصه:

- **وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (11)**

وها هو موسى نفسه يرتد مع فتاه على آثارهما قصصا:

- **قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (64)**

لتكون النتيجة التي نحاول تسويقها على النحو التالي: مادام أن أم موسى قد أرسلت بالتابوت الذي قذفت فيه رضيعها إلى اليم بطريقة القذف، فهي إذن لم تخرج من بيتها، وإنما جل ما فعلت هو (نحن نتخيل) دفع التابوت من فناء بيتها باتجاه اليم كـ "القذيفة".

نتيجة مفتراة مهمة جدا: موسى أرسل إلى اليم بطريقة القذف

رأينا المفترى 2: لما كان آل فرعون – بالمقابل- هم من التقطوا موسى من اليم، فإن العملية قد تمت هنا أيضا بطريقة محددة. لذا وجب البحث عنها بكل دقة ممكنة حتى نستطيع أن نتخيل المشهد كما حصل فعلا على أرض الواقع. ليكون السؤال المطروح الآن هو: كيف تمت عملية التقاط آل فرعون لموسى (فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ) من اليم؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الإجابة ممكنة شريطة فهم ماهية الفعل نفسه، أي الفعل "فَالْتَقَطَهُ" الذي جاء في الآية الكريمة نفسها:

- **فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8)**

السؤال: كيف تتم عملية الالتقاط؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن عملية الالتقاط يجب أن تتم من الأعلى. انتهى.

تخيلات مفتراة: لما كنا نظن أن آل فرعون كانوا يسكنون الصروح المتناثرة في سماء مصر فوق بني إسرائيل اللذين كانوا يسكنون الأرض، استطاع آل فرعون أن يروا بأم أعينهم ذلك التابوت في اليم، ولم يكن ليتجرأ احد ممن يسكنون الأرض حينئذ (وهم بنو إسرائيل) أن يقترب من التابوت ليأخذه دون بصر آل فرعون، فهم اللذين يبصرون الأنهار التي تجري من تحت فرعون:

- **وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51)**

السؤال: كيف إذن سيتم أخذ فرعون لهذا الطفل كما جاء بالوعد الإلهي لأم موسى من قبل؟

- **أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ... (39)**

جواب مفترى: نحن نتخيل الأمر على النحو التالي: ما أن أبصر آل فرعون تلك الأنهار التي تجري من تحت فرعون حتى رأوا التابوت في اليم، فما كان منهم إلا أن أدلوا بدلوهم، أي ما يشبه الحبل، ليربطوا به التابوت، ثم ليرفعوه إلى الأعلى حيث صروحهم.

السؤال القوي: وأين الدليل على هذا الخيال المزيف؟ يسأل صاحبنا مستغربا.

جواب مفترى: نحن نظن أن الإجابة تكمن في الآية الكريمة التالية (كما نفهمها بالطبع)، وهي الآية التي تصور لنا أحسن تصوير عملية التقاط السيارة ليوسف المتواجد في غيابة الجب:

- **قَالَ قَآئِلٌ مَّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (10)**

السؤال الآن: كيف تتخيل - عزيزي القارئ- عملية التقاط يوسف من داخل غيابة الجب قد تمت على يد بعض السيارة؟

رأينا المفترى: لاحظ عزيزي القارئ التقاطعات التالية بين الحادثتين:

⇐ أن الملتقط هو في الحالتين نبي كريم، فيوسف هو من التقطه بعض السيارة وموسى هو من التقطه آل فرعون

⇐ أن الكيد الإلهي كان حاضرا في الحالتين، فالله هو من دبر الأمر في الحالتين

⇐ أن عنصر الماء متوافر في الحالتين، فيوسف في غيابة الجب وموسى في اليم

⇐ أن عملية الاستخراج قد تمت بفعل الالتقاط في الحالتين

⇐ الخ

(للتفصيل حول التقاطعات في قصة يوسف وموسى، انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان قصة يوسف ثم قصة موسى)

نتيجة مفتراة: نحن نتصور عملية التقاط آل فرعون لموسى من اليم وقد تمت بنفس آلية التقاط يوسف من غيابة الجب، فكما أدلى وارد السيارة دلوه، أدلى بعض آل فرعون ما يشبه الحبل. وما أن تعلق يوسف بحبل الدلو حتى أعان القوم واردهم في رفع الغلام من غيابة الجب، فكان ذلك هو الالتقاط (يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ). ونحن نتصور المشهد قد حصل بنفس الآلية في حالة موسى، فما أن رأى آل فرعون التابوت في اليم حتى التقطوه، بأن أدلوا إليه ما يشبه الحبل، وما أن علق التابوت بتلك الحبال حتى رفعوه إليهم في صروحهم، فكان ذلك هو الالتقاط (فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ).

السؤال: ما الذي تم بعد ذلك؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: ما أن تم رفع التابوت (التقاطا) إلى صروح آل فرعون حتى نظر (نحن لازلنا نتخيل) بعضهم فيه، فكانت البشرى غير السارة لهم: وجود غلام في التابوت، فما صاح أحدهم بالبشرى كما حصل في حالة يوسف:

- **وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلاَمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (19)**

بل - على العكس- كان هذا الغلام المتواجد في التابوت عدوا وحزنا لهم:

- **فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8)**

السؤال: لماذا؟ أي لماذا لم يكن العثور على غلام في التابوت ليسبب البشرى لآل فرعون؟

جواب مفترى: لأن الأمر سيشكل لهم حرجا كبيرا أمام فرعون نفسه.

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب مفترى: لا شك أن من الأمور التي لا تهاون فيها في زمن ذلك الفرعون هو التأكد من هوية كل طفل، لأن فرعون هذا لا شك قد عمد إلى تذبيح أبناء بني إسرائيل بنفسه:

- **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4)**

ومادام أن هذا الغلام قد التقط من الماء، فلا يمكن استبعاد أن يكون واحدا من أبناء بني إسرائيل الذي لا شك سيذبحه فرعون بيده. فلا مجال للمهادنة في هذا. فما الذي سيفعله آل فرعون على الفور؟

جواب مفترى: لم يكن ليتجرأ (نحن نتخيل) أحد من آل فرعون على التكتم على الخبر (أي العثور على غلام مجهول الهوية في التابوت الذي تم التقاطه من اليم)، لذا كان لابد من نقل الخبر مباشرة إلى فرعون، لينظر بنفسه فيه.

السؤال: ما الذي حصل عندما وصل الخبر إلى فرعون نفسه؟

تخيلات مفتراة: نحن نتخيل بأنه ما أن وصل خبر الغلام في التابوت إلى فرعون حتى حضر الجند جميعا على الفور، فما كان من فرعون إلا أن يصدر أوامره بتحري أصول هذا الطفل المتواجد في التابوت، وانظر إن شئت – عزيزي القارئ - كيف أن ذكر الجنود قد جاء بصريح اللفظ في الآية الكريمة نفسها التي تتحدث عن التقاط الطفل في التابوت:

- **فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8)**

ليكون المشهد الآن (كما نتخيله) على النحو التالي: يحضر فرعون وجنوده كما يحضر هامان وجنوده، وتبدأ عملية "كوجاك" الشهيرة في التحري عن أصول هذا الطفل، وهنا يحاول الجميع تحري الخبر بطريقته، فلا شك أن الجنود قد فتشوا البيوت محاولين أن يقصوا أثره، ولا شك أن المحققين قد رصدوا كل التحركات التي تمت على اليم في ذلك اليوم وفي تلك الليلة، ولا شك أن مخابر تحليل الحمض النووي قد اشتغلت بكامل طاقتها، الخ. لكن ماذا كانت النتيجة؟

جواب: لقد كان فرعون وهامان وجنودهما جميعا خاطئين:

- **فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8)**

ولو فتشنا عن مفردة "خَاطِئِينَ" على مساحة النص القرآني لما وجدنا قد وردت إلا في سياق الحديث عن إخوة يوسف:

- قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (91)
- قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (97)

لتكون النتيجة التي نحاول الوصول إليها الآن هي أن من كانوا خاطئين هم اللذين أخطئوا التقدير، فجاء ظنهم في باب الحسبة وليس التقدير. فهم اللذين يحسبون (فيخطئون) بينما الله هو الذي يقدر (فلا مجال للخطأ).

السؤال: لماذا أخطأ فرعون وهامان وجنودهما؟

جواب مفترى: نحن نظن أن السبب في ذلك ربما يرجع إلى حقيقة أن الغلام قد وجده في الماء، فهو ليس من سكان الأرض كحال بني إسرائيل وهو ليس من سكان كبد السماء (كحال آل فرعون)، ولكنه من سكان ما بينهما (أي الماء). فكيف سيستطيع فرعون وهامان وجنودهما تحديد هويته؟

جواب: لقد اتفق الجميع على أن هذا الطفل هو "موسى" أي طفل الماء (مو) واليابسة (سى)، أي الطفل البرمائي، الذي يصعب تحديد هويته. فلم يتخذوا له اسما كأسماء آل فرعون أو اسما كأسماء بني إسرائيل التقليدية.

لكن حتى يتحقق فرعون من جميع الأمور بنفسه، كان لابد من الإجراء التالي: حشر الجميع ليشهدوا بأم أعينهم ما سيفعله فرعون بنفسه بهذا الطفل.

السؤال: هل فعلا حشر فرعون الجميع في مشهد يحضره بنو إسرائيل وآل فرعون ليشهدوا ما سيفعله فرعون بهذا الطفل؟

جواب مفترى: دعنا نتخيل أن ذلك قد حصل فعلا لنرى ما يمكن أن تؤول إليه الأمور بعد ذلك.

السؤال: وأين الدليل على ذلك (إن صح ما تزعم)؟ يسأل صاحبنا.

جواب مفترى: نحن نظن أن الدليل يمكن أن نجده في الآية الكريمة التالية (كما نفهمها بالطبع):

- **وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (10)**

التساؤلات:

⇐ كيف كادت أم موسى لتبدي به؟
⇐ ألم يأتيها وحي إلهي بما فعلت من قبل؟
⇐ ما الذي يجبرها لتبدي به بعد هذا الوحي الإلهي لها؟
⇐ ألم تكن امرأة مؤمنة تثق بوحي ربها؟
⇐ لم إذن فعلت ما فعلت إن لم تكن قادرة على التحمل أصلا؟
⇐ ومتى كادت فعلا أن تبدي به؟
⇐ الخ.

افتراء 1: نحن نظن بأن ذلك حصل من قبل أم موسى في الصبح (وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا)، أي في صبيحة اليوم التالي لقذفه في اليم.

السؤال: لماذا في الصبح؟ لِم لم يفرغ فؤادها قبل ذلك؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن هذا حصل في الصبح لأن فرعون قد حشر الناس في الضحى كعادته:

- قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (59)

في تلك اللحظة الرهيبة التي حشر الناس فيها لفرعون ضحىً، خرج فرعون مخاطبا لهم جميعا، فأخبرهم بأمر هذا الطفل (موسى) الذي التقطه آل فرعون من اليم، طالبا في الوقت ذاته أن يخرج من بينهم من يستطيع تحديد هوية هذا الطفل. ولا أكاد استطيع أن أتخيل ذلك قد حصل دون تهديد واضح من فرعون بقتل الطفل إن لم يخرج من بين الحشد من يعترف له بنسب الطفل. ونحن نتخيل فرعون في هذا المشهد مخاطبا الناس جميعا يقول:

آل فرعون المبجلون، بني إسرائيل المستعبدون، اسمعوا جيدا ما أقوله لكم اليوم، فالأمر جد خطير، لقد التقط آل فرعون في الأمس هذا الطفل من التابوت، وقد تحرك الجند على الفور للبحث عن أهله وتحديد هويته، ولكنهم لم يتمكنوا من الوصول إلى الحقيقة، لذا فأنا الآن لا محالة سأذبح هذا الطفل بيدي إن لم يخرج من بينكم من يعترف لنا بنسب هذا الطفل قبل أن أذبحه. انتهي.

نحن نتخيل الصمت الرهيب يسود المكان بعد هذا الكلام الذي قاله فرعون في الحشر، كما نستطيع أن نتخيل أنه قد حصل كله على مسمع ومرأى من أم موسى نفسها، فكيف يمكن أن تكون ردة فعل أم ترى رضيعها في مثل هذا الموقف الرهيب؟

تخيلات مفتراة: نحن نظنن أن الخوف قد وصل بها إلى حد لا يستطيع فؤادها أن يتحمله، فالمرأة الآن في مواجهة مباشرة مع الواقع: فطفلها بيد فرعون وقد تله للجبين، فما الذي ستفعله؟

جواب: في هذه اللحظة (نحن نتخيل) كادت أم موسى لتبدي به لولا التدخل الإلهي المباشر بالربط على قلبها:

- وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (10)

فسكتت المرأة ليس لأنها كانت قادرة على تحمل المشهد، ولكن لأنها لم تكن تستطيع أن تفعل شيئا مادام أن قلبها قد رُبط بأمر إلهي.

السؤال: ما الذي حصل في هذه اللحظة الدرامية التي هي غاية في الخطورة (وربما التشويق لمن لا يهمه الأمر)؟

جواب مفترى: دعنا ندقق في الآية الكريمة التالية:

- **فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (9)**

عندما تأكد لفرعون (نحن نتخيل) أن أحدا من بني إسرائيل لم يعترف بنسب هذا الطفل فيهم، أصبح (نحن نتخيل) أميل إلى الظن بأن هذا الطفل ليس من منهم، فلا ضير إذن من تمرير طلب زوجته الذي طلبته منه في الليلة السابقة وهو أن لا يقتلوه، ولا ضير في أن يتربى فيه. فتمت مكيدة الله بفرعون وآله، ومن هناك بدأت (نحن نفتري القول) سورة القصص العظيمة:

- **طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ**

وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6)

نتيجة مفتراة: هكذا (نحن نتخيل) بدا التمكين الإلهي في الأرض لبني إسرائيل (وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ)، وهكذا تم الوعد الإلهية برؤية فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرون (وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ)، فآتاهم الله (كما أتى كل اللذين كفروا من قبلهم) من حيث لم يحتسبوا:

- هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (2)

فكانت المواجهة بين التقدير الإلهي للأمر والحسبة الفرعونية له. فـ لمن تكون الغلبة؟

قال تعالى:

- إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ (20) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (21)

(دعاء: أعوذ بك ربي أن أكون من اللذين يحادّونك، وأسألك وحدك أن أكون في أنصارك، لتجعل كلمةَ اللذين كفروا السفلى وكلمتُك هي العليا، وأعوذ بك أن يكون أمري كأمر فرعون، إنك كنت بي بصيرا – آمين)

الباب الثاني: فرعون يرى بأم عينه آيات الله كلها

تطرقنا في الجزء السابق من هذه المقالة على عجل لبعض ما جاء في الآيات الكريمة التالية الخاصة بآل فرعون بشكل عام وبفرعون نفسه بشكل خاص:

- وَلَقَدْ جَاء آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (41) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (42)
- وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (57)

وحاولنا تقديم الافتراءين التاليين:

⇐ كان آل فرعون هم فقط من جاءتهم آيات الله كلها، فكذبوا بها:

- وَلَقَدْ جَاء آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (41) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (42)

⇐ كان فرعون هو فقط من رأى بأم عينه آيات الله كلها:

- وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (57)

وحاولنا طرح التساؤل الكبير جدا التالي: متى رأى فرعون نفسه آيات الله كلها؟

فظننا مفترين القول من عند أنفسنا بأن ذلك لم يحصل على يد موسى، وذلك لأن موسى كان قد قدّم لفرعون الآية الكبرى فقط:

- إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (16) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (17) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى (18) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (19) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)

وبناء على فهمنا (ربما الخاطئ لهذه الآيات الكريمة) افترينا القول من عند أنفسنا بأن رؤية فرعون للآيات كلها كانت قد حصلت عندما بلغ فرعون نفسه أسباب السموات والأرض محاولا الاطلاع إلى إله موسى. فما أن بلغ فرعون باستخدامه ذلك الصرح الذي بناه له هامان أسباب السموات والأرض حتى اطلع إلى إله موسى، فكانت النتيجة المباشرة الأولى – برأينا- أن خاب ظن فرعون بأن موسى من الكاذبين كما عبر عن ذلك لمن حوله عندما طلب من هامان أن يجعل له صرحا:

- وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)

وكانت النتيجة الثانية هي – برأينا- رؤية فرعون آيات الله كلها هناك:

- وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56)

وما أن بدأت آيات الله تأتي آل فرعون الواحدة تلو الأخرى:

- وَلَقَدْ جَاء آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (41) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (42)

حتى كانت كل آية هي أكبر من أختها:

- وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (48)

فما كان ظنهم بها أكثر من أنها تقع في باب السحر:

- وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (49)

وما تزحزح فرعون عن موقفه بأن هذا يقع في باب السحر:

- قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (57)

فكان فرعون هو من أضل قومه وما هدى:

- وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (79)

فكانت هذه – برأينا- واحدة من أهم الفروق التي تميز فرعون (كإله غير حقيقي لا يهدي) عن الإله الحقيقي (رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ) الذي لا شك هو يهدي كما جاء على لسان موسى في خطابه الأول مع فرعون. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في الحوار الأول بينهما:

- فرعون: قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى (49)
- موسى: قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50)

وسنحاول الآن تقديم الدليل الذي نظن أنه يدعم افتراءنا بأن فرعون هذا قد رأى بأم عينه آيات الله كلها عندما بلغ أسباب السموات والأرض:

- وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37)

الدليل

نحن نظن أن الدليل يمكن أن يجلب بعد طرح التساؤل التالي: إلى أين وصل فرعون بعد أن استخدم ذلك الصرح الذي جعله له هامان؟

- وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)

جواب مفترى: نحن نظن أن فرعون قد بلغ أسباب السموات والأرض كما جاء في الآية الكريمة التالية

- وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37)

ليكون السؤال الآن هو: أين هي تلك الأسباب؟ وبكلمات أكثر دقة نحن نسأل: أين هي أسباب السموات والأرض فعلا؟ فلو أردت أنا (أو أنت) أن نبلغ أسباب السموات والأرض (كما فعل فرعون) فأين – يا ترى- يجب أن نذهب؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: إلى الأفاق

نعم، نحن نظن أن أسباب السموات والأرض هي في أفاق السموات والأرض، فالذهاب في رحلة إلى أسباب السموات والأرض تتطلب الذهاب إلى تلك الأفاق.

الدليل

لو حاولنا تدبر الآيات الكريمة التالية التي تصور لنا (كما نفهمها) ما حصل فعلا مع صاحبنا (محمد) في تلك الليلة التي أسرى به إلى المسجد الأقصى من المسجد الحرام:

- سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ (1)

لخرجنا بالاستنباط الخطير جدا التالي: لما كان هدف الذهاب في رحلة إلى هناك هو ليري الله نبيه من آياته (لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا)، فإن محمد لم يرى إذا آيات الله كلها. أليس كذلك؟

ولو دققنا مليا بما حصل مع نبي الله موسى في الواد المقدس، لوجدنا النتيجة ذاتها: أن موسى لم يرى كذلك آيات الله كلها. واقرأ – إن شئت- قوله تعالى الخاص بموسى:

- لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (23) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (24)

لكن – بالمقابل- كان فرعون قد رأى آيات الله كلها:

- وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56)

ليكون السؤال المحوري الآن هو: لماذا رأى محمد من آيات الله (لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا) ولماذا رأى موسى من آيات الله الكبرى (لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى) بينما رأى فرعون آيات الله كلها (وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا)؟

جواب مفترى من عند أنفسنا لا تصدقوه: لأن محمدا وموسى لم يصلا إلى الآفاق بينما وصل فرعون إلى الآفاق. فمن أراد أن يرى آيات الله كلها فعليه (نحن نفتري الظن) أن يصل إلى الآفاق. انتهى.

الدليل

أولا: محمد لم يبلغ الآفاق

لو تدبرنا الآيات الكريمة التالية، لربما وجدنا أن محمد لم يكن بالآفاق لأن غيره كان هناك:

- **وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (7) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (10)**

ليكون السؤال المحوري الآن هو: من الذي كان في الأفق الأعلى؟ هل هو محمد؟ أم هل هو الروح الأمين؟ أم هل هو الله نفسه؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن من كان في الأفق الأعلى هو ليس محمد، وذلك (نحن نظن) للأسباب التالية:

⇐ لأن من كان في الأفق الأعلى هو المعلم وليس المتعلم (أي محمد)

- **عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى**

⇐ لأن الذي كان بالأفق الأعلى هو الذي كان قاب قوسين أو أدنى

- **فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى**

⇐ ولأن الذي كان بالأفق الأعلى هو الذي أوحى إلى عبده ما أوحى

- **فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى**

(ومن أراد أن يرى كيف تتم عملية التلاعب بمرجعية الضمائر في هذه الآيات الكريمة فعليه أن يقلب صفحات كتب التراث ليرى كيف يرجع سادتنا أهل الدراية الضمير إلى الكينونة التي يريدونها متى شاءوا وكيفما شاءوا. أما نحن فإننا نظن أن ضمير الفاعل في جميع هذه الآيات يعود على الكينونة نفسها:

- **عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (7) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (10)، فالمعلم هو "ذُو" والمتعلم هو عَبْدِهِ)**

إن ما يهمنا الآن في هذا الطرح هو ظننا التالي: لو أن محمد كان هو المتواجد في الأفق الأعلى، لربما رأى بأم عينه آيات الله كلها. لكن مادام أن محمدا لم يكن بالأفق الأعلى، فهو إذا لم يرى إلا من آيات ربه:

- **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ (1)**

ولو تدبرنا الآيات الكريمة التالي، فـ لربما تأكد ظننا بأن محمدا لم يكن هو المتواجد في الأفق:

- **وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ (22) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (23)**

السؤال: من الذي رأى من بالأفق المبين؟

جواب: من يدري؟!!!

ثانيا: فرعون بلغ الآفاق

لكن بالمقابل، لما كان فرعون قد بلغ الأسباب، فهو إذن من استطاع أن يطلع إلى الأفق الأعلى، فرأى بأم عينه "آياتنا كلها":

- **وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56)**

السؤال: أين الدليل على أن فرعون قد اطلع إلى ما هو موجود بالآفاق؟

جواب مفترى: دعنا نجلب السياق القرآني التالي، لنرى ما قد تنتهي إليه الأفهام بعد ذلك، قال تعالى:

- **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (53)**

رأينا المفترى: نحن نظن أن هذه الآية الكريمة تثير سلسلة من التساؤلات ذات العلاقة بفحوى النقاش هنا، نذكر منها:

⇐ أين هي آيات الله موجودة؟
⇐ هل يمكن أن نراها؟
⇐ كيف يمكن أن نراها؟
⇐ لماذا سيرينا الله آياته؟
⇐ هل رؤية الآيات كفيلة بأن تجعلنا على الحق؟
⇐ الخ.

رأينا المفترى: إنّ أبسط ما يمكن أن نخرج به من استنباطات مفتراة من هذا النص القرآني هي أن آيات الله موجودة في مكانين اثنين:

⇐ في الآفاق
⇐ في أنفسنا

السؤال: ما الذي راءاه فرعون بأم عينه؟ ومتى حصل له ذلك؟

جواب مفترى: نحن نظن أنه لما بلغ فرعون أسباب السموات والأرض، كان بإمكانه أن يطلع إلى الآفاق التي تتواجد بها آيات الله، وهناك تمت رؤيته لهذه الآيات.

السؤال: هل سببت تلك الرؤية هداية فرعون إلى الطريق المستقيم؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا، وذلك للسبب الذي يصوره السياق الأوسع الذي وردت فيه الآية الكريمة السابقة نفسها:

- **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (52) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (53) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاء رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ (54)**

مادام أن فرعون لم يهتد إلى الصراط المستقيم بالرغم من رؤيته آيات الله كله، فهو إذن من الذين في شقاق بعيد. ولا شك عندنا أن من كان في شقاق بعيد هم نوعان من الناس:

أولا، أولئك الذين اختلفوا في الكتاب:

- **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (176)**

ثانيا، الظالمين القاسية قلوبهم، وهم اللذين اتبعوا ما ألقى الشيطان في أمنية الرسول:

- **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (52) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (53) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**

(54) وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (55)

فينقسم الناس إلى فئتين:

⇐ فئة تخبت قلوبهم للحق فيؤمنوا به:

- وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (54)

⇐ وفئة كافرة لا يزالون في مرية منه:

- وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (55)

ونحن نكاد نجزم الظن بأن فرعون قد عاد من هناك (بعد إطلاعه إلى الآفاق) وهو ينتمي إلى الفريق الثاني، الذين لازالوا في مرية منه، وما تراجع فرعون عن ذلك حتى آتاهم الله بعذاب عقيم، وهذا (نحن نظن) ما عبّر عنه موسى في حديثه عن العذاب الذي توقع حصوله بفرعون وملئه:

- وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ (88)

تلخيص ما سبق

يأتي موسى وأخوه هارون فرعون برسالة مباشرة من ربه:

- اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44)

وكانت بنود الرسالة هي دنيوية تتمثل بأن يرسل معهما بني إسرائيل فلا يعذبهم، وهي دينية تتمثل بالسلام على من اتبع الهدى:

- فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (47)

فيسال فرعون موسى عن ربه هذا:

- قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى (49)

فيرد موسى على سؤال فرعون بالتالي:

- قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50)

فيتوجه فرعون إلى ملئه بظنه التالي:

- وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ...

ولكن حتى يتأكد فرعون من ظنه هذا طلب من هامان أن يبني له صرحا:

- ... فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)

فتكون مهمة فرعون تتألف من خطوتين اثنتين وهما:

⇐ الإطلاع إلى إله موسى

⇐ تأكيد ظنه بأن موسى من الكاذبين

يقوم هامان بتنفيذ طلب فرعون في الحال، فيعدّ له الصرح الذي يمكّنه من بلوغ الأسباب:

- وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37)

فيكون هامان قد بلغ بنفسه الأسباب (لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ)، وما أن وصل فرعون إلى هناك حتى اطلع من هناك إلى مكان آخر وهو المكان الذي سيجد به إله موسى.

السؤال: إلى أين توجه فرعون ببصره (أي اطلع) بعد أن بلغ الأسباب؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن هنا بأن المكان الذي وجد فيه فرعون إله موسى هو الأفق الأعلى، كما يمكن أن نفهم ذلك من قوله تعالى:

- وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ (22) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (23)

أو كما يمكن أن نفهم ذلك من قوله تعالى:

- وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (7) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (10)

ليكون الافتراء الأخطر على الإطلاق هو التالي: أن الإله الذي آمنت به بنو إسرائيل متواجد بالأفق، لذا من أراد أن يطلع إلى إله موسى فعليه أن:

أولا أن يبلغ الأسباب، وأن يطلع من هناك إلى الأفق ثانيا. وفي تلك الآفاق سيرى آيات الله كلها.

التساؤلات: أين يمكن أن يحدث هذا؟ وكيف يمكن أن يحدث هذا؟

خروج عن الموضوع: باب ليلة القدر

أكتب هذه السطور في اليوم الأول من شهر رمضان لسنة 2015م، ولا شك أن لشهر رمضان خصوصية في الدين الإسلامي مادام أن هذا الشهر هو الذي أنزل فيه القرآن:

- شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185)

وهو من ارتبطت به آيات إجابة الداع إذا دعا الله:

- وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (186)

وهو الشهر الذي كُتب علينا فيه الصيام كما كتب على الذين من قبلنا أياما معدودات:

- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (183) أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (184)

ولعل الفكر الإسلامي قد تغلغلت فيه فكرة أن هذا الشهر الكريم هو الشهر نفسه الذي تتحصل به ليلة القدر، الليلة التي هي خير من ألف شهر:

- **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3)**

وذلك لأنها الليلة التي تحصل بها الأمور التالية:

- **تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (4) سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5)**

فأخذ سادتنا العلماء (أهل الدراية) يدلون بدلوهم في ماهية هذه الليلة، وأفضليتها، ووقتها وكيفية الظفر بها، الخ.

ولعلي أكاد أجزم الظن بأن الاختلاف لازال سيد الموقف، فما أسعفتنا أراء أهل العلم في الوصول إلى حقيقة تلك الليلة المباركة، وظل الباب مفتوحا عل مصراعيه للتكهنات أحيانا لا بل والخزعبلات أحيانا أخرى كثيرة. ونحن نظن أن السبب في ذلك ربما يعود إلى أن جل ما جادت به قريحة سادتنا العلماء أهل الدراية في هذا الموضوع كما نقله لنا سادتنا العلماء أهل الرواية في بطون أمهات كتب التفاسير والعقيدة يكاد يكون مبني في مجمله وتفصيلاته على أدلة نقلية، لا ترقى إلى الدليل القطعي في الأمر، فآراؤهم مبنية على روايات تختلف (هم يؤكدون) في درجة ثبوتها، لذا، أخذت الاختلافات منهم وفيما بينهم كل طريق. والحالة هذه، ما استطاع العامة من الناس (من مثلي) على مدى قرون من الزمن طويلة أن يحسموا أمرهم في هذه الجزئية. فالناس لازالوا في كل سنة (عام) يعيدون الشريط المستهلك نفسه. وحالهم (نحن نظن) لا تتغير إلا ربما لمل لا يرضيهم، وربما تسير أحوالهم على عكس ما انفجرت به حناجرهم في ليالي رمضان التي ظنوا أن الدعاء فيها لا يرد.

ولما كنا لا نريد أن نخوض في إثبات أو رد ما وصلنا من عند أحد من سادتنا العلماء، فإننا سنحاول أن نقدم رأينا في هذه القضية (ليلة القدر)، ظانين أن عندنا ما هو جديد، يختلف بشكل جذري عن كل الموروثات السابقة، معتقدين بالوقت ذاته أننا متسلحين بأدلة نصيّة (أي من النص القرآني ذاته) لإثبات افتراءاتنا التي ربما تكون غير مسبوقة في المنهجية وفي النتيجة، مبتعدين في الوقت ذاته كل البعد عن تقديم آراء الناس في هذه القضية، ليس تقليلا من شأنهم، ولكن لظننا أننا نستطيع أن نجلب الدليل على افترائنا من الكتاب نفسه. فعقيدتنا مفادها أن من يستطيع أن يجلب الدليل من مصدر التشريع الأول (والوحيد) وهو كتاب الله لا يحتاج لما هو دونه إلا ربما من باب التعزير.

لذا سنحاول التطرق إلى القضايا التي تثيرها التساؤلات التالية:

- ⇐ ما هي ليلة القدر؟
- ⇐ لماذا سميت بهذا الاسم؟
- ⇐ متى هي؟
- ⇐ ما الذي يحصل في تلك الليلة؟
- ⇐ كيف يمكن الظفر بها؟
- ⇐ ما الذي يجب فعله لو تم الظفر بها؟
- ⇐ من هم الذين ظفروا بها من الناس؟
- ⇐ كيف استطاعوا الظفر بها؟
- ⇐ ماذا حصل لهم نتيجة ذلك؟
- ⇐ الخ.

وسنعود بعد هذا النقاش لنربط النتيجة التي نخلص إليها بقضية نقاشنا الرئيسية في هذه السلسلة من المقالات الخاصة ببلوغ فرعون الأسباب لاطلاعه إلى إله موسى، طارحين حينها التساؤلات التالية:

⇐ لماذا احتاج فرعون أن يبلغ الأسباب ليطلع إلى إله موسى؟
⇐ لماذا رأى موسى ما رأى دون حاجته بلوغ الأسباب؟
⇐ لماذا رأى صاحبنا (محمد) ما رأى دون الحاجة لبلوغ الأسباب؟
⇐ وهل سيفسر طرحنا السر أن محمدا وموسى راءوا من آيات ربهم بينما رأى فرعون آيات الله كلها؟
⇐ الخ.

أما بعد،

دعنا نبدأ حديثنا في هذه القضية متسلحين بالدعاء التالي: اللهم أنت ربي، أنت من خلقتني وأنت من فطرتني، فأنت من تهديني صراطك المستقيم، اللهم أسألك أن تهديني إلى الحق الذي أقوله فلا أفتري عليك الكذب، وأعوذ بك ربي أن يكون أمري كأمر فرعون:

- **إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (97)**

وأعوذ بك ربي أن يكون مَثَلي كمثل الذي آتيته آياتك فانسلخ منه فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين:

- **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175)**

وأعوذ بك أن يكون مَثَلي كمثل الكلب الذي إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث:

- **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176)**

وأعوذ بك أن يكون مَثَلي كمثل الحمار الذي يحمل أسفارا:

- **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (5)**

وأسألك رب أن أكون ممن جاء ذكرهم في كتابك العزيز في الآيات الكريمة التالية:

- **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (2) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (4)**

فأسألك رب أن تنفذ قولك بمشيئتك لي بذلك الفضل العظيم، فأكون ممن أصابتهم منتك:

- **لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (164)**

آمين.

أما بعد،

السؤال الأول: ما هي ليلة القدر؟

لا شك عندنا أن مفردة "القدر" مشتقة من الجذر الثلاثي (ق- د - ر)، وهو الجذر الذي - في ظننا- يدل على الدقة المتناهية على عكس الفهم الشائع المغلوط عندنا، بينما تعني عملية الحسبة المشتقة من

الجذر (ح – س- ب) الظن والشك وعدم الدقة على عكس ما يفهم الإنسان العادي من المفردات الدارجة. ولقد تعرضنا لهذه الجزئية في مقالات سابقة لنا، لكننا لا نجد ضيرا أن نعيد بعض التفاصيل هنا لأهميتها بفحوى النقاش الحالي.

باب الحسبة والحساب

عندما تعلمنا في المدارس في كتب الحساب "أي الرياضيات" في الأردن، كان المعلم يستخدم مفردتين رياضيتين مهمتين وهما قوله:

⇐ دعنا نحسب النتيجة

⇐ دعنا نقدر النتيجة

وقد درجنا على التفكير في مدارسنا على التفكير أنه عندما نقوم بعملية الحساب (أي حساب النتيجة)، فإننا نتوخى أقصى درجات الدقة حتى أننا نستخدم الآلة "الحاسبة"، أليس كذلك؟

بينما عندما يطلب منا تقدير القيمة، فإننا كنا نظن أن في التقدير هامش من الخطأ مسموح به، فلا حاجة إذن لاستخدام الآلة "الحاسبة"، أليس كذلك؟

لكن السؤال المحوري: هل هذه الأفهام "المدرسية" هي نفسها التي يمكن أن نجدها في كتاب الله عندما نقرأ المفردات المشتقة من الجذر (ح- س- ب) والجذر (ق – د- ر)

جواب مفترى: كلا وألف كلا. نحن نظن أن المفردات في النص القرآني هي العكس تماما. فالحسبة في النص القرآني هي التي تحتمل عدم الدقة وفيها هامش من الخطأ بينما التقدير هو الذي لا يحتمل إلا الدقة المتناهية وينتفي فيها وجود هامش من الخطأ.

الدليل

نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن مفردة " يَحْسَبَنَّ " ومشتقاتها- كما نفهمها (ربما مخطئين) في النص القرآني- تعني الخطأ في التقدير، فالقرآن الكريم يقابل بين مفردتين متضادتين وهما الحسبة (أو الحسبان؟)[1] من جهة والتقدير من جهة أخرى، فنحن نفهم أنّ هناك تقدير صحيح حقيقي لا يرق إليه شيء من الخطأ وهناك – بالمقابل- "تقدير وهمي يشوبه الخطأ".

[1] لا أرغب الدخول في أصل المفردة، فالعربية تميز بين الفعل الثلاثي حَسِب والفعل الثلاثي حَسَب، ولكن التداخل بين مشتقاتها يتطلب مساحة من البحث، ولكن نرغب فقط جلب انتباه القارئ الكريم إلى التداخل في الاشتقاق في قوله تعالى "اَمْ حَسِبْتُمْ اَنْ تَدْخُلُوْا الْجَنَّةَ" ومثيلاتها حيث تكون السين مكسورة وقوله تعالى "يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ" ومثيلاتها حيث تكون السين مفتوحة.

أما التقدير الصحيح الذي ليس فيه خطأ فيرد في القرآن الكريم من الجذر (ق – د - ر)، وأما التقدير الخاطئ فيرد من الجذر (ح – س- ب)، ولنستعرض السياقات القرآنية التي يرد فيها لفظ "الحسبة" و"التقدير" لتميز المعنى لكل منهما:

أولا، الحسبة

- **اَمْ حَسِبْتُمْ اَنْ تَدْخُلُوْا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَأْتِكُمْ مَّثَلُ الَّذِيْنَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَّسَّتْهُمُ الْبَاْسَاۗءُ وَالضَّرَّاۗءُ وَزُلْزِلُوْا حَتّٰى يَقُوْلَ الرَّسُوْلُ وَالَّذِيْنَ اٰمَنُوْا مَعَه مَتٰى نَصْرُ اللّٰهِ اَلَآ اِنَّ نَصْرَ اللّٰهِ قَرِيْبٌ (214)**
- **لِلْفُقَرَاۗءِ الَّذِيْنَ اُحْصِرُوْا فِيْ سَبِيْلِ اللّٰهِ لَا يَسْتَطِيْعُوْنَ ضَرْبًا فِي الْاَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ اَغْنِيَاۗءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيْمٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُوْنَ النَّاسَ اِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوْا مِنْ خَيْرٍ فَاِنَّ اللّٰهَ بِه عَلِيْمٌ (273)**

- وَاِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيْقًا يَّلْوٗنَ اَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتٰبِ لِتَحْسَبُوْهُ مِنَ الْكِتٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتٰبِۚ وَيَقُوْلُوْنَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ وَيَقُوْلُوْنَ عَلَى اللّٰهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُوْنَ (78)
- وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ قُتِلُوْا فِيْ سَبِيْلِ اللّٰهِ اَمْوَاتًا بَلْ اَحْيَاۤءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُوْنَۙ (169)
- وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْٓا اَنَّمَا نُمْلِيْ لَهُمْ خَيْرٌ لِّاَنْفُسِهِمْ اِنَّمَا نُمْلِيْ لَهُمْ لِيَزْدَادُوْٓا اِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِيْنٌ (178)
- وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ يَبْخَلُوْنَ بِمَآ اٰتٰىهُمُ اللّٰهُ مِنْ فَضْلِه هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُوْنَ مَا بَخِلُوْا بِه يَوْمَ الْقِيٰمَةِ وَ لِلّٰهِ مِيْرَاثُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَاللّٰهُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ خَبِيْرٌ (180)
- لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ يَفْرَحُوْنَ بِمَآ اَتَوْا وَّيُحِبُّوْنَ اَنْ يُّحْمَدُوْا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوْا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ اَلِيْمٌ (188)
- وَحَسِبُوْٓا اَلَّا تَكُوْنَ فِتْنَةٌ فَعَمُوْا وَصَمُّوْا ثُمَّ تَابَ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوْا وَصَمُّوْا كَثِيْرٌ مِّنْهُمْ وَاللّٰهُ بَصِيْرٌ بِمَا يَعْمَلُوْنَ (71)
- فَرِيْقًا هَدٰى وَ فَرِيْقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلٰلَةُ اِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيٰطِيْنَ اَوْلِيَاۤءَ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ وَيَحْسَبُوْنَ اَنَّهُمْ مُّهْتَدُوْنَ (30)
- اَمْ حَسِبْتُمْ اَنْ تُتْرَكُوْا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّٰهُ الَّذِيْنَ جٰهَدُوْا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوْا مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ وَلَا رَسُوْلِه وَلَا الْمُؤْمِنِيْنَ وَلِيْجَةً وَاللّٰهُ خَبِيْرٌۢ بِمَا تَعْمَلُوْنَ (15)
- وَلَا تَحْسَبَنَّ اللّٰهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظّٰلِمُوْنَ اِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيْهِ الْاَبْصَارُۙ (42)
- فَلَا تَحْسَبَنَّ اللّٰهَ مُخْلِفَ وَعْدِه رُسُلَه اِنَّ اللّٰهَ عَزِيْزٌ ذُو انْتِقَامٍ (47)
- اَمْ حَسِبْتَ اَنَّ اَصْحٰبَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيْمِ كَانُوْا مِنْ اٰيٰتِنَا عَجَبًا (9)
- وَ تَحْسَبُهُمْ اَيْقَاظًا وَّهُمْ رُقُوْدٌ وَّنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِيْنِ وَ ذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيْدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَّلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (18)
- اَفَحَسِبَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْٓا اَنْ يَّتَّخِذُوْا عِبَادِيْ مِنْ دُوْنِيْٓ اَوْلِيَاۤءَ اِنَّآ اَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكٰفِرِيْنَ نُزُلًا (102)
- اَلَّذِيْنَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُوْنَ اَنَّهُمْ يُحْسِنُوْنَ صُنْعًا (104)
- اَيَحْسَبُوْنَ اَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِه مِنْ مَّالٍ وَّبَنِيْنَۙ (55)
- اَفَحَسِبْتُمْ اَنَّمَا خَلَقْنٰكُمْ عَبَثًا وَّاَنَّكُمْ اِلَيْنَا لَا تُرْجَعُوْنَ (115)
- اِنَّ الَّذِيْنَ جَاۤءُوْ بِالْاِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوْهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْاِثْمِ وَالَّذِيْ تَوَلّٰى كِبْرَه مِنْهُمْ لَه عَذَابٌ عَظِيْمٌ (11)
- اِذْ تَلَقَّوْنَه بِاَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُوْلُوْنَ بِاَفْوَاهِكُمْ مَّا لَيْسَ لَكُمْ بِه عِلْمٌ وَّتَحْسَبُوْنَه هَيِّنًا وَّهُوَ عِنْدَ اللّٰهِ عَظِيْمٌ (15)
- وَالَّذِيْنَ كَفَرُوْٓا اَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيْعَةٍ يَّحْسَبُهُ الظَّمْاٰنُ مَاۤءً حَتّٰٓى اِذَا جَاۤءَه لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَّ وَجَدَ اللّٰهَ عِنْدَه فَوَفّٰىهُ حِسَابَه وَاللّٰهُ سَرِيْعُ الْحِسَابِۙ (39)
- لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا مُعْجِزِيْنَ فِى الْاَرْضِ وَمَأْوٰىهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيْرُ (57)
- اَمْ تَحْسَبُ اَنَّ اَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُوْنَ اَوْ يَعْقِلُوْنَ اِنْ هُمْ اِلَّا كَالْاَنْعَامِ بَلْ هُمْ اَضَلُّ سَبِيْلًا (44)

- قِيْلَ لَهَا ادْخُلِى الصَّرْحَ فَلَمَّا رَاَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَّكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ اِنَّه صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّنْ قَوَارِيْرَ قَالَتْ رَبِّ اِنِّىْ ظَلَمْتُ نَفْسِىْ وَ اَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمٰنَ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰلَمِيْنَ (44)
- وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَّهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللّٰهِ الَّذِىْٓ اَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ اِنَّه خَبِيْرٌ بِمَا تَفْعَلُوْنَ (88)
- اَحَسِبَ النَّاسُ اَنْ يُّتْرَكُوْٓا اَنْ يَّقُوْلُوْٓا اٰمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُوْنَ (2)
- اَمْ حَسِبَ الَّذِيْنَ يَعْمَلُوْنَ السَّيِّاٰتِ اَنْ يَّسْبِقُوْنَا سَاۤءَ مَا يَحْكُمُوْنَ (4)
- يَحْسَبُوْنَ الْاَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوْا وَاِنْ يَّاْتِ الْاَحْزَابُ يَوَدُّوْا لَوْ اَنَّهُمْ بَادُوْنَ فِى الْاَعْرَابِ يَسْاَلُوْنَ عَنْ اَنْۢبَاۤىِٕكُمْ وَلَوْ كَانُوْا فِيْكُمْ مَّا قٰتَلُوْٓا اِلَّا قَلِيْلًا (20)
- وَاِنَّهُمْ لَيَصُدُّوْنَهُمْ عَنِ السَّبِيْلِ وَيَحْسَبُوْنَ اَنَّهُمْ مُّهْتَدُوْن (37)
- اَمْ يَحْسَبُوْنَ اَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوٰىهُمْ بَلٰى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُوْن (80)
- اَمْ حَسِبَ الَّذِيْنَ اجْتَرَحُوا السَّيِّاٰتِ اَنْ نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِيْنَ اٰمَنُوْا وَعَمِلُوا الصّٰلِحٰتِۙ سَوَاۤءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاۤءَ مَا يَحْكُمُوْنَ (21)
- اَمْ حَسِبَ الَّذِيْنَ فِىْ قُلُوْبِهِمْ مَّرَضٌ اَنْ لَّنْ يُّخْرِجَ اللّٰهُ اَضْغَانَهُمْ (29)
- يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللّٰهُ جَمِيْعًا فَيَحْلِفُوْنَ لَه كَمَا يَحْلِفُوْنَ لَكُمْ وَيَحْسَبُوْنَ اَنَّهُمْ عَلٰى شَىْءٍ اَلَآ اِنَّهُمْ هُمُ الْكٰذِبُوْنَ (18)
- لَا يُقَاتِلُوْنَكُمْ جَمِيْعًا اِلَّا فِىْ قُرًى مُّحَصَّنَةٍ اَوْ مِنْ وَّرَاۤءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيْدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيْعًا وَّقُلُوْبُهُمْ شَتّٰى ذٰلِكَ بِاَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُوْنَ (14)
- وَاِذَا رَاَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ اَجْسَامُهُمْ وَاِنْ يَّقُوْلُوْا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَاَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَّحْسَبُوْنَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللّٰهُ اَنّٰى يُؤْفَكُوْنَ (4)
- اَيَحْسَبُ الْاِنْسَانُ اَلَّنْ نَّجْمَعَ عِظَامَه (3)
- اَيَحْسَبُ الْاِنْسَانُ اَنْ يُّتْرَكَ سُدًى (36)
- وَيَطُوْفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُوْنَ اِذَا رَاَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنْثُوْرًا (19)
- اَيَحْسَبُ اَنْ لَّنْ يَّقْدِرَ عَلَيْهِ اَحَدٌ (5)
- اَيَحْسَبُ اَنْ لَّمْ يَرَهٗٓ اَحَدٌ (7)
- يَحْسَبُ اَنَّ مَالَهٗٓ اَخْلَدَه (3)

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن جميع السياقات القرآنية التي ترد فيها المفردات المشتقة من الجذر (ح – س- ب) تفيد معنى عدم الدقة واحتمالية وجود الخطأ في التقدير، كما تبين بشكل لا لبس فيه (نحن نظن) أن الحسبة هي أمر بشري، لأنّ البشر يعلموا فقط ظاهر الأشياء، وهم على غير دراية حقيقية بمضامينها، فالجبال في ظاهرها جامدة (فنحسبها جامدة)، ونحسب أن في جمع المال خير، وأخطأت ملكة سبأ في تقدير ما رأته (فحسبته لجة وهو في الحقيقة ليس كذلك)، والظمآن يحسب السراب ماءً، والناظر إلى أهل الكهف على هيئتهم تلك يحسبهم رقود، وحسب الكثيرون أن من يقتل في سبيل الله هو في عداد الأموات، وحسب الكافرون أنهم يحسنون صنعا، ومن هذا الباب جاءت حسبة الذين كفروا أنهم سبقوا. الخ.

ثانيا، التقدير

أما المفردات المشتقة من الجذر (ق – د – ر)، فهي تفيد الدقة التي لا يشوبها خطأ، قال تعالى:

- وَمَا قَدَرُوْا اللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهٖٓ (92)
- هُوَ الَّذِيْ جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاۤءً وَّالْقَمَرَ نُوْرًا وَّقَدَّرَهٗ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوْا عَدَدَ السِّنِيْنَ وَالْحِسَابَۗ مَا خَلَقَ اللّٰهُ ذٰلِكَ اِلَّا بِالْحَقِّۗ يُفَصِّلُ الْاٰيٰتِ لِقَوْمٍ يَّعْلَمُوْنَ (6)
- اَنْزَلَ مِنَ السَّمَاۤءِ مَاۤءً فَسَالَتْ اَوْدِيَةٌ ۢبِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۗوَمِمَّا يُوْقِدُوْنَ عَلَيْهِ فِى النَّارِ ابْتِغَاۤءَ حِلْيَةٍ اَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهٗ ۗ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللّٰهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ەۗ فَاَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاۤءً ۚوَاَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الْاَرْضِ ۗ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللّٰهُ الْاَمْثَالَ (18)
- اَللّٰهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَّشَاۤءُ وَيَقْدِرُۗ وَفَرِحُوْا بِالْحَيٰوةِ الدُّنْيَاۗ وَمَا الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا فِى الْاٰخِرَةِ اِلَّا مَتَاعٌ (27)
- وَاِنْ مِّنْ شَيْءٍ اِلَّا عِنْدَنَا خَزَاۤىِٕنُهٗ وَمَا نُنَزِّلُهٗٓ اِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُوْمٍ (22)
- اِلَّا امْرَاَتَهٗ قَدَّرْنَآ ۙاِنَّهَا لَمِنَ الْغٰبِرِيْنَ (61)
- اِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَّشَاۤءُ وَيَقْدِرُ ۗاِنَّهٗ كَانَ بِعِبَادِهٖ خَبِيْرًاۢ بَصِيْرًا (31)
- اِذْ تَمْشِيْٓ اُخْتُكَ فَتَقُوْلُ هَلْ اَدُلُّكُمْ عَلٰى مَنْ يَّكْفُلُهٗ ۗفَرَجَعْنٰكَ اِلٰٓى اُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ەۗ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنٰكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنّٰكَ فُتُوْنًا ەۗ فَلَبِثْتَ سِنِيْنَ فِيْٓ اَهْلِ مَدْيَنَ ەۙ ثُمَّ جِئْتَ عَلٰى قَدَرٍ يّٰمُوْسٰى (41)
- مَا قَدَرُوا اللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهٖ ۗاِنَّ اللّٰهَ لَقَوِيٌّ عَزِيْزٌ (75)
- وَاَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاۤءِ مَاۤءًۢ بِقَدَرٍ فَاَسْكَنّٰهُ فِى الْاَرْضِ ۖوَاِنَّا عَلٰى ذَهَابٍۢ بِهٖ لَقٰدِرُوْنَ ۚ(19)
- الَّذِيْ لَهٗ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَّلَمْ يَكُنْ لَّهٗ شَرِيْكٌ فِى الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهٗ تَقْدِيْرًا (3)
- فَاَنْجَيْنٰهُ وَاَهْلَهٗٓ اِلَّا امْرَاَتَهٗ قَدَّرْنٰهَا مِنَ الْغٰبِرِيْنَ (58)
- وَاَصْبَحَ الَّذِيْنَ تَمَنَّوْا مَكَانَهٗ بِالْاَمْسِ يَقُوْلُوْنَ وَيْكَاَنَّ اللّٰهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَّشَاۤءُ مِنْ عِبَادِهٖ وَيَقْدِرُۚ لَوْلَآ اَنْ مَّنَّ اللّٰهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَاۗ وَيْكَاَنَّهٗ لَا يُفْلِحُ الْكٰفِرُوْنَ (83)
- اَللّٰهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَّشَاۤءُ مِنْ عِبَادِهٖ وَيَقْدِرُ لَهٗ ۗاِنَّ اللّٰهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمٌ (63)
- اَوَلَمْ يَرَوْا اَنَّ اللّٰهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَّشَاۤءُ وَيَقْدِرُ ۗاِنَّ فِيْ ذٰلِكَ لَاٰيٰتٍ لِّقَوْمٍ يُّؤْمِنُوْنَ (38)
- مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيْمَا فَرَضَ اللّٰهُ لَهٗ ۗسُنَّةَ اللّٰهِ فِى الَّذِيْنَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ۗوَكَانَ اَمْرُ اللّٰهِ قَدَرًا مَّقْدُوْرًاۙ (39)
- اَنِ اعْمَلْ سٰبِغٰتٍ وَّقَدِّرْ فِى السَّرْدِ وَاعْمَلُوْا صَالِحًا ۗاِنِّيْ بِمَا تَعْمَلُوْنَ بَصِيْرٌ (12)
- وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِيْ بٰرَكْنَا فِيْهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَّقَدَّرْنَا فِيْهَا السَّيْرَۗ سِيْرُوْا فِيْهَا لَيَالِيَ وَاَيَّامًا اٰمِنِيْنَ (19)
- قُلْ اِنَّ رَبِّيْ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَّشَاۤءُ وَيَقْدِرُ وَلٰكِنَّ اَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُوْنَ (37)
- قُلْ اِنَّ رَبِّيْ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَّشَاۤءُ مِنْ عِبَادِهٖ وَيَقْدِرُ لَهٗ ۗوَمَآ اَنْفَقْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهٗ ۚوَهُوَ خَيْرُ الرّٰزِقِيْنَ (40)
- وَالْقَمَرَ قَدَّرْنٰهُ مَنَازِلَ حَتّٰى عَادَ كَالْعُرْجُوْنِ الْقَدِيْمِ (40)

- اَوَلَمْ يَعْلَمُوْٓا اَنَّ اللّٰهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَّشَاۤءُ وَيَقْدِرُ اِنَّ فِيْ ذٰلِكَ لَاٰيٰتٍ لِّقَوْمٍ يُّؤْمِنُوْنَ (53)
- وَمَا قَدَرُوْا اللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهٖۖ وَالْاَرْضُ جَمِيْعًا قَبْضَتُه يَوْمَ الْقِيٰمَةِ وَالسَّمٰوٰتُ مَطْوِيّٰتٌۢ بِيَمِيْنِه سُبْحٰنَه وَتَعٰلٰى عَمَّا يُشْرِكُوْنَ (68)
- وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (10)
- لَه مَقَالِيْدُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِۚ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَّشَاۤءُ وَيَقْدِرُ اِنَّه بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمٌ (13)
- وَلَوْ بَسَطَ اللّٰهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِه لَبَغَوْا فِى الْاَرْضِ وَلٰكِنْ يُّنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاۤءُ اِنَّه بِعِبَادِه خَبِيْرٌۢ بَصِيْرٌ (28)
- وَالَّذِيْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاۤءِ مَاۤءًۢ بِقَدَرٍۚ فَاَنْشَرْنَا بِه بَلْدَةً مَّيْتًاۚ كَذٰلِكَ تُخْرَجُوْنَ (12)
- وَّفَجَّرْنَا الْاَرْضَ عُيُوْنًا فَالْتَقَى الْمَاۤءُ عَلٰٓى اَمْرٍ قَدْ قُدِرَۚ (13)
- اِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنٰهُ بِقَدَرٍ (50)
- نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوْقِيْنَۙ (61)
- لِيُنْفِقْ ذُوْ سَعَةٍ مِّنْ سَعَتِه وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُه فَلْيُنْفِقْ مِمَّآ اٰتٰىهُ اللّٰهُ لَا يُكَلِّفُ اللّٰهُ نَفْسًا اِلَّا مَآ اٰتٰىهَا سَيَجْعَلُ اللّٰهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُّسْرًا (8)
- إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (20)
- اِنَّه فَكَّرَ وَقَدَّرَۙ (19)
- فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَۙ (20)
- ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَۙ (21)
- قَوَارِيْرَا۟ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوْهَا تَقْدِيْرًا (17)
- اِلٰى قَدَرٍ مَّعْلُوْمٍۙ (23)
- فَقَدَرْنَاۖ فَنِعْمَ الْقٰدِرُوْنَ (24)
- مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَه فَقَدَّرَهٗۙ (20)
- وَالَّذِيْ قَدَّرَ فَهَدٰىۖ (4)
- فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16)
- اِنَّآ اَنْزَلْنٰهُ فِيْ لَيْلَةِ الْقَدْرِۖ (1)
- وَمَآ اَدْرٰىكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2)
- لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ اَلْفِ شَهْرٍ (3)

لعلك أدركت عزيزي القارئ بعد هذا السرد لجميع السياقات القرآنية التي وردت فيها مشتقات الجذر (ق – د – ر) بأنها جميعا تفيد بأن التقدير يحمل في ثناياه فكرة الدقة المتناهية التي لا نجدها في الحسبة، فالتقدير يعني الدقة التي لا مجال فيها للخطأ، فموسى جاء على قدر، وكل شيء خلق بقدر، والموت مقدر (لا

زيادة ولا نقصان)، والله ينزّل من السماء بقدر، والله قدّر منازل القمر تقديرا، وهو يقدر الليل والنهار بالرغم من علمه أننا لن نحصيه، الخ، ولكن الناس (بعد كل ذلك) ما قدروا الله حق قدره.

نتيجة مفتراة: نحن نظن إذاً أن لله تقدير وللناس حسبة، ففي حين أن تقدير الله حقيقي صحيح لا يحتمل الخطأ، فإن حسبة الناس لا ينفك الخطأ أن يكون جزءً متجذراً فيها.

السؤال: ما علاقة هذا بليلة القدر؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن ليلة القدر (المشتق اسمها من الجذر ق- د- ر) هي ليلة مقدرة تقديرا إلهي، لذا نحن نتجرأ على تقديم الافتراءات التالية التي هي لا شك من عند أنفسنا:

⇐ هي ليلة محددة ثابتة، لا تتغير.

⇐ نحن نكاد نجزم الظن بأن من البلاء الذي أصاب الأمة هو ظنهم بأن هذه الليلة متغيرة تختلف من سنة إلى أخرى، ومن مرة أخرى، ولعل أشهر الروايات التي اختلف في تفسيرها هو الحديث الذي مفاده طلب النبي ممن حوله أن يتحروها في العشر الأواخر من رمضان، وجزم آخرون أنها في الوتر من تلك الليالي، وتعددت الآراء وتشعبت في ذلك، حتى بات الحليم منا (إن وجد بالطبع) حيرانا فيها.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن ليلة القدر هي ليلة ثابتة لا تتغير في توقيتها. انتهى.

السؤال: لماذا تكون ليلة القدر ثابتة لا تتغير؟ ولم يجب أن تكون كذلك (إن صح ما تزعم)؟ يتساءل صاحبنا مستغربا.

جواب مفترى: لأن في تلك الليلة حصلت حادثة محددة هي في لب مبتغانا من البحث عن تلك الليلة.

السؤال المحوري: ما الذي حصل في تلك الليلة؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الحدث الأبرز الذي حصل في تلك الليلة هو تنزيل الكتاب، وقرأ – إن شئت- عزيزي القارئ بدايات سورة الدخان، قال تعالى:

- **حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (3)**

نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا: نحن نظن أن تلك الليلة المباركة التي أنزل فيها الكتاب المبين هي ليلة القدر. وربما لهذا السبب ومن هذا الباب (نحن نعتقد جازمين) جاءت خيريتها:

- **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3)**

وذلك لأنها الليلة التي تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر:

- تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (4)

فأصبحت سلاما هي كلها حتى مطلع الفجر:

- سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5)

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن ليلة القدر هي الليلة التي أنزل فيها الكتاب الحكيم، لذا من الاستحالة بمكان أن تتغير. لذا لابد من البحث عن تلك الليلة التي أنزل فيها الكتاب الحكيم لأنها هي الليلة التي تكون ليلة القدر، والتي هي خير من ألف شهر، وهي الليلة التي تنزل فيها الملائكة والروح بأمر ربهم من كل أمر، فتكون سلاما هي حتى مطلع الفجر:

- إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (4) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5)

وبناء عليه نحن نظن أن اللقاء الإلهي الأول مع موسى كان في تلك الليلة:

- إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (40)

وفي تلك الليلة رأى من آيات ربه الكبرى:

- لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (23) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (24)

ونحن نفتري الظن أنه في تلك الليلة المباركة علم شديد القوى نبيه محمد ما أنزل إليه:

- وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (7) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (10)

فكانت تلك هي الليلة المباركة التي أنزل فيها الكتاب:

- حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (3)

السؤال: لماذا هذه الليلة مباركة؟

جواب: لكي نعلم لم هذه الليلة مباركة علينا أن نفهم لم هي سلام كذلك:

- إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (4) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5)

نتيجة مفتراة: تلك الليلة هي مباركة

نتيجة مفتراة: تلك الليلة هي سلام

السؤال: كيف تكون تلك الليلة مباركة؟

السؤال: كيف تكون تلك الليلة سلام؟

السؤال: ما الفرق بين أن تكون مباركة وأن تكون سلاما؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الإجابة على هذه التساؤلات ربما تكون ممكنة في ضوء ما جاء في الآية الكريمة التالية:

- قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (48)

لو دققنا مليا في هذه الآية الكريمة لوجدنا أن السلام من الله (بِسَلاَمٍ مِّنَّا)، أليس كذلك؟

السؤال: من أين البركات؟ هل البركات من الله مباشرة؟ لم لم يأتي النص القرآني على النحو التالي (وبركات منا)؟

جواب مفترى: نحن نظن أن مصدر السلام هو السماء فقط، بينما مصدر البركات هي السماء والأرض:

- وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (96)

وهذه هي رسالة الملائكة إلى أهل بيت إبراهيم:

- قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (73)

لتكون البركات قد حلت على أهل بيت إبراهيم، أليس كذلك؟

السؤال: فماذا عن إبراهيم نفسه؟ هل حلت البركات عليه؟ ألم تكن البركات على أهل بيته؟

جواب، كلا لم تحل البركات على إبراهيم وإنما جاءه السلام، وانظر أول شيء قالته الملائكة في زيارتهم له:

- وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (69)
- إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (52)
- إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (25)

السؤال: لماذا كانت ليلة القدر سلاما؟

جواب: لأن خير السماء تنزل فيها:

- إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (4) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5)

السؤال: ولماذا كانت تلك الليلة مباركة:

- حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (3)

جواب مفترى: لأنه أصابنا فيها بركات من السماء والأرض.

- وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (96)

(دعاء: اللهم أسألك سلاما منك عليّ وبركات منك عليّ وعلى أهل بيتي أجمعين – آمين)

السؤال: متى تكون هذه الليلة؟

رأينا المفترى: في رمضان، لأن رمضان هو الشهر الذي أنزل فيه القرآن:

- **شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185)**

وهذا الشهر المبارك هو الذي ارتبطت به آية إجابة دعاء الداع إذا دعا الله، وذلك لأن الله يكون قريبا على وجه الخصوص في هذا الشهر المبارك. وانظر – إن شئت- عزيزي القارئ هذه الآية الكريمة السابقة في سياقها الأوسع:

- **شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185)**
- **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (186)**

السؤال: متى تكون تلك الليلة في شهر رمضان؟

جواب مفترى خطير جدا جدا لا تصدقوه: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا أن ليلة القدر لا تحدث في كل رمضان من كل عام. انتهى.

السؤال: لماذا لا تأتي ليلة القدر في كل رمضان؟

جواب مفترى: لأنها خير من ألف شهر.

السؤال: ما معنى ذلك؟

جواب: دعنا – عزيزي القارئ- نتدبر بشي من الدقة قول الله تعالى في الآية الكريمة التالية:

- **لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3)**

طارحين على الفور التساؤل البسيط التالي: كيف تكون ليلة القدر خير من ألف شهر؟

جواب مفترى: نحن نظن أن أبسط ما يمكن أن نفهمه من هذه الآية الكريمة أن ليلة القدر تعدل في خيرتها ألف شهر وزيادة، فهي في طرف وألف شهر في طرف آخر، والكفة ترجح لليلة القدر كما في الشكل التوضيحي التالي:



فالكفة التي تقع فيها ليلة القدر هي – لا شك- راجحة على كفة الألف شهر. لذا وجب علينا أن نجلب انتباه القارئ الكريم بعد هذا التقديم إلى التساؤل التالي: كم رمضان يحصل في الألف شهر؟

جواب: عندما حاول علماؤنا الأجلاء حسبة الألف شهر، ظنوا أن رمضان يتكرر فيها حوالي ثلاث وثمانين مرة، فعند تقسيمهم للألف شهر على مدة السنة (أو العام) وهي اثنتي عشر شهرا كانت النتيجة على النحو التالي:

1000 / 12= 83.33333333333333333

أي أن الألف شهر (بحسبة سادتنا أهل العلم) تعادل ثلاث وثمانين عاما (سنة) ونيّف.

السؤال الأقوى: كم مرة يتكرر رمضان في فترة الثلاث وثمانين عام (سنة) ونيف؟

الجواب: قرابة ثلاث وثمانين مرة مادام أن رمضان يتكرر مرة واحدة في كل عام (سنة).

السؤال الأقوى من سابقة: كم مرة ستحدث (حسب رأي سادتنا العلماء) ليلة القدر خلال هذه المدة (أي خلال الثلاث وثمانين عام التي تعادل الألف شهر)؟

الجواب: ثلاث وثمانين مرة مادام أن ليلة القدر تحدث (حسب رأيهم طبعا) في كل رمضان مرة واحدة.

السؤال الأقوى من جميع الأسئلة السابقة: كيف يمكن أن تكون ليلة القدر في رمضان هذا العام مثلا خيرا من ألف شهر ستحدث ليلة القدر فيهن ثلاث وثمانين مرة أخرى؟ فكيف إذن تكون ليلة القدر خير من نفسها ثلاث وثمانين مرة مضاف إليها الألف شهر ثلاث وثمانين مرة أخرى؟

ظنون غير مفهومة بالنسبة لنا: إذا صح زعم سادتنا العلماء بأن ليلة القدر تحدث في رمضان في كل عام مرة واحدة، وأن ليلة القدر هي خير من ألف شهر حيث يتكرر فيها رمضان نفسه ثلاث وثمانين مرة ونيف، فإن هذا سيضعنا في حلقة مفرغة، حيث سندور جميعا في حلقة لانهاية لها. ففي كل عام هناك ليلة قدر خير من ألف شهر، أي خير من نفسها ألف مرة وهكذا.

السؤال: هل هذا ممكن؟

الجواب: كلا وألف كلا.

السؤال: متى تحدث ليلة القدر.

جواب مفترى خطير جدا جدا لا تصدقوه: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن ليلة القدرة لا تحدث إلا مرة واحدة كل ألف شهر. وكفى.

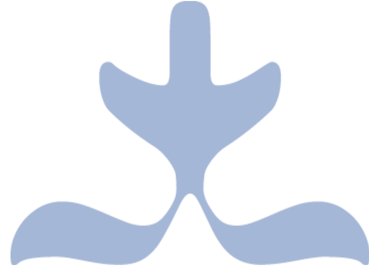
السؤال: ما الذي تقوله يا رجل؟ أيعقل هذا؟ كيف تريدنا أن نصدقك أن ليلة القدر لا تحدث إلا مرة واحدة كل ألف شهر؟ فمن سيدركها إذن؟ ألا ترى أن هذا مستحيل مادام أنك تحتاج أن تعيش ثلاث وثمانين عاما حتى تدرك ليلة القدر مرة واحدة في عمرك؟ وماذا عن اللذين يتوفون قبل ذلك؟

جواب مفترى: أنا لم أقل ذلك، فهذا ما قد يستنبطه القارئ مخطئا مما قلنا مسبقا. ما قلته هو التالي: ليلة القدر تحدث كل ألف شهر مرة واحدة وكفى. وإياك أخي القارئ أن تقفز إلى استنباطات هي من عندك قبل أن تدرك ماهية كلامنا الذي نقوله هنا. فنحن لا شك مسئولون عما نقول ونفتري ولكننا غير مسئولين عما تفهم أنت مما نقول ونفتري. وشتان بين هذا وذاك.

السؤال: لكن كيف تتجرأ على القول أن ليلة القدر لا تحدث إلا مرة واحدة كل ألف شهر؟

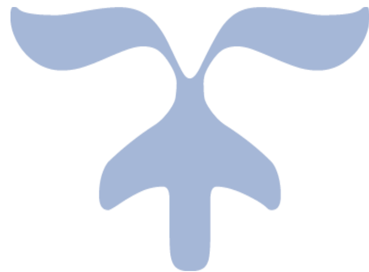
جواب: هي كذلك. وهذا ما سنتحدث عنه بالتفصيل بحول الله وتوفيقه في الجزء القادم من هذه المقالة. فالله وحده أسأل أن يعلمني، وأن يزدني علما، وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا. وأسأله أن لا أكون ممن يفترون عليه الكذب وهم يعلمون وأعوذ به أن أكون ممن يفترون عليه الكذب وهم لا يعلمون. وأسأله وحده أن ينفذ قوله بمشيئته وإرادته لي بعلم لا ينبغي لغيري إنه هو السميع البصير، وأسأله أن يتقبلني في أنصاره

ليجعل كلمة اللذين كفروا السفلى وكلمته هي العليا، وأعوذ به أن يكون أمري كأمر فرعون، كما أدعوه أن ينزل علي السلام منه وأن ينزل البركات علي وعلى أهل بيتي أجمعين – إنه هو العلي الكبير- آمين.



قصة يونس

الجزء الواحد والعشرون



قصة يونس: الجزء الحادي والعشرون

أما بعد،

انتهينا في الجزء السابق من هذه المقالة إلى افتراء الظن من عند أنفسنا بأن ليلة القدر تحدث مرة واحدة كل ألف شهر. وذلك لأنها هي بذاتها خير من ألف شهر. فكان منطقنا المفترى هو التالي: لو أن ليلة القدر تحصل مرة أخرى خلال فترة تلك الألف شهر لأصبحت هي خير من ذاتها، ولأصبحت تلك متسلسلة لا نهاية لها. فما بالك لو صح ما قاله سادتنا أهل العلم بأن فترة الألف شهر تعادل ثلاث وثمانين سنة (عام)، تحصل فيها ليلة القدر (حسب ظنهم) ثلاث وثمانين مرة، مادام أن منطقهم هو أن ليلة القدر تحدث في كل عام (سنة) مرة واحدة، عندها تصبح ليلة القدر (حسب تلك الحسبة) خير من نفسها ثلاث وثمانين مرة مضاف إليها الأيام الأخرى التي تحدث خلال تلك الفترة الطويلة من الزمن.

أما نحن، فإننا نظن بأنه مادام أن ليلة القدر هي خير من ألف شهر، لذا فإنها لا تحصل إلا مرة واحدة في تلك الفترة. وما أن تنقضي فترة الألف شهر كاملة حتى تأتي ليلة القدر من جديد لتكون هي خير من الألف الشهر التي تليها. فتكون ليلة القدر هي ليلة قابعة على رأس كل ألف شهر.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: لو تدبرنا ما يحصل في تلك الليلة، لوجدنا أنه قد حصل فيها مرة واحدة أمر جلل، لم يحصل في غيرها، ألا وهو تنزيل الْكِتَابِ الْمُبِينِ كما جاء في سورة الدخان:

- **حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (3)**

وهذا قُرْآنًا عَرَبِيًّا هو الذي تم جعله بعد ذلك قُرْآنًا عَرَبِيًّا كما جاء في بداية سورة الزخرف:

- **حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (3)**

نتيجة مفتراة 1: أنزل الكتاب المبين في ليلة مباركة (هي في ظننا ليلة القدر)

نتيجة مفتراة 2: جعل ذلك الكتاب قرآنا عربيا بعد ذلك

السؤال: كيف كان الْكِتَابِ الْمُبِينِ الذي جعل بعد ذلك قُرْآنًا عَرَبِيًّا عندما أنزل في تلك الليلة المباركة؟

جواب مفترى: كانت آيات الكتاب المبين على النحو الذي تصوره الآيات الكريمة التالية:

- **الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (1) يوسف**
- **طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) الشعراء**
- **طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) القصص**

فكانت لغة الكتاب المبين هي تلك الأحرف المتقطعة كـ (الر، طسم) التي ترد في بدايات بعض السور. فكان الوحي الإلهي بهذه الطريقة. وانظر – إن شئت- بداية سورة الشورى التي تصور لنا عملية الوحي الذي جاء محمدا وكل اللذين أوحي إليهم من قبله:

- **حم (1) عسق (2) كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3)**

نتيجة مفتراة: نزلت آيات الكتاب المبين بلغة الوحي ك (الر، طسم).

السؤال: كيف أصبحت آيات الكتاب المبين ك (الر، طسم) بعد ذلك قرآنا عربيا؟

- حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (3)

جواب مفترى: بالتفصيل، قال تعالى:

- الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1)
- وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (52)

فجاء تفصيلها بلسان قوم النبي الذي بعث في كل أمة. ففصلت قرآنا عربيا بلسان قوم محمد:

- حم (1) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3)

وعبرانيا بلسان قوم موسى، وآراميا بلسان حواري المسيح عيسى بن مريم، وهكذا.

- وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (4)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: إن ما يهمنا افتراءه في هذه اللحظة هو ظننا بأن الحدث الأهم الذي حصل في تلك الليلة المباركة هو إنزال الكتاب المبين المكتوب أصلا باللغة الإلهية التي لم تفصل بعد بلسان أقوام الأنبياء الذي أنزل عليهم ذلك الكتاب المبين.

- حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (3)

وما أن أنزل ذلك الكتاب المبين حتى حصل أمر آخر مهم جدا في تلك الليلة المباركة. انظر تتمة الآيات السابقة:

- إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (3) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (4)

نتيجة مفتراة مهمة جدا: في تلك الليلة المباركة التي أنزل فيها الكتاب المبين مرة واحدة (أي حدث غير متكرر: إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ) يحصل حدث آخر هو بطبيعته متكرر، ألا وهو أن يفرق كل أمر حكيم (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ)

السؤال: كيف يفرق في تلك الليلة كل أمر حكيم؟ وهل لازال هذا الحدث متكررا حتى يومنا هذا؟

رأينا رقم 1: نحن نظن بداية أن هذه العملية (أي الفرق) مأخوذة من الجذر (ف- ر- ق) التي تحمل في ثناياها التجزئة، أي إبعاد مكونات الشيء (أو الأشياء) بعضها عن بعض كما في حالة فرق البحر ببني إسرائيل:

- وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (50)

أو إبعاد الأشياء المجتمعة عن بعضها البعض كالتفريق بين المرء وزوجه مثلا:

- **وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ (102)**

ومهمة شياطين الجن الذين يفرقون بين الأزواج لا تختلف كثيرا (نحن نظن) عن مهمة شياطين الإنس اللذين يفرقون بين الله ورسله:

- **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (150) أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (151)**

وعقيدتنا مبنية أيضا على الإيمان بعدم التفريق بين رسل الله:

- **قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136)**
- **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (285)**

وسنرى تبعات هذا الظن وأهميته بعد قليل بحول الله وتوفيقه في مسألة فهم الكتاب المبين الذي أنزل في تلك الليلة المباركة والقرآن القرآن العظيم الذي تلى علينا نبيُنا الكريم آياتِه.

السؤال: ما الذي حصل في تلك الليلة المباركة؟

جواب مفترى: لقد تم "فرق أمر حكيم".

السؤال: ما الأمر الحكيم الذي تم فرقه في تلك الليلة المباركة؟ يسأل صاحبنا.

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نظن أنه في تلك الليلة المباركة تم فرق القرآن. انتهى. قال تعالى:

- **وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً (106)**

تخيلات مفتراة: ما أن أنزل الكتاب المبين وحيا باللغة الإلهية في تلك الليلة المباركة:

- **حم (1) عسق (2) كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3)**

حتى أصبح متوافرا كلّه جملة واحدة في قلب محمد:

- **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (194)**

فكان محمد منذرا به بلسان قومه (أي العربية). انظر تتمة السياق السابق:

- **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (195)**

فأصبح الكتاب في قلب محمد وحيا وعلى لسانه قرآنا:

- **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40)**
- **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (19)**

لتكون النتائج الخطيرة ربما غير المسبوقة على النحو التالي:

نتيجة خطيرة جدا جدا (1): الكتاب من الله
نتيجة خطيرة جدا جدا (2): القرآن من محمد

تنبيه مهم جدا جدا: إياك عزيزي القارئ أن تفرق بين الله ورسوله. إياك عزيزي القارئ أن تجتزئ هذه الجملة من سياقها لتروج بين الناس أباطيل وأكاذيب من عندك لفهمك الخاطئ عن ما نقول نحن ونفتري. فالله وحده هو الحكم بيننا يوم يجتمع الخصوم:

- **قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (25) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (26)**

لأن عقيدتنا مبنية كلها على عدم التفريق بين الله ورسوله، فما وصلنا من عند محمد هو نفسه ما جاءنا من عند ربنا، واقرأ إن شئت قوله تعالى:

- **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (41) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (42) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (43) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (47)**

فعقيدتنا مبنية على استحالة أن يتقوّل محمد على ربه بعض الأقاويل، لذا فما جاءنا من عند محمد هي النسخة العربية (قرآنا عربيا) للكتاب الإلهي المبين ((الم، الر، ألمر، كهيعص، طسم، يس، طه، ق، ن). (للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان: لماذا قدم نبي الله لوط بناته بدلا من ضيوفه خاصة الجزء الحادي عاشر وما بعده)

فكانت مهمة محمد تبيان المبين:

- **بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (44)**

ولو تدبرنا هذه الآية الكريمة جيدا، لوجدنا أن محمدا كان يستطيع القيام بهذه المهمة بما أنزل الله إليه من الذكر (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)، أي أن يفصل آيات الكتاب المبين قرآنا عربيا:

- **حم (1) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3)**

لأن التفصيل هو – برأينا- عملية ترجمة (أي تحويل من لغة إلى لغة أخرى):

- **وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (44)**

لتكون النتيجة الآن على النحو التالي: تحصل تلك الليلة المباركة التي هي خير من ألف شهر، فيتم إنزال الكتاب المبين فيها (فكان ذلك هو الوحي). يتولى مهمة التنزيل هذه الروح الأمين، فينزل بذلك الكتاب على قلب محمد:

- **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (195)**

وحتى يستطيع محمد تفصيل آيات الكتاب المبين قرآنا عربيا، يتولى الله نفسه تعليم محمد كيفية تفصيل الكتاب، فيكون ذلك بإنزال الذكر، ويحصل ذلك كله في تلك الليلة المباركة، وهذا ما حصل في تلك الليلة المباركة التي تكون من أهم مميزاتها هو ذلك النجم الذي يهوي:

- **وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (7) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (10) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (11) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (12) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (13) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (14) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (15) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (16) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (17) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (18)**

بعد هذه الحادثة، يصبح متوافر عند محمد ذكر وقرآن مبين:

- **وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (69)**

فيصبح محمد قادرا على تفصيل آيات الكتاب المبين قرآنا عربيا بلسان قومه، فيكون القرآن هو – نحن نفتري الظن- قول محمد:

- **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40)**

لكن يحصل أمر آخر في تلك الليلة، ألا وهو أن يفرق الله فيها كل أمر حكيم:

- **حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (3) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (4) أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (5) رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (6)**

السؤال: كيف تم ذلك؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نظن أن ذلك قد حصل عندما تم فَرقْ القرآن المبين:

- **وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (105) وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً (106) قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (107) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (108) وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (109)**

(دعاء: سبحان ربنا إن كان وعدك لمفعولا- اللهم أسألك وحدك أن أكون من الذين أوتوا العلم، وأسألك ربي أن أكون من الذين يخرون للأذقان يبكون، ومن اللذين يزيدهم هذا القرآن خشوعا – آمين).

والآن، دقق - عزيزي القارئ- بالآية الكريمة الوارد في هذا السياق جيدا:

- **وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً (106)**

لتكون النتيجة التي نحاول أن نفتريها هي التالي: في تلك الليلة المباركة التي يفرق فيها كل أمر حكيم تم فرق القرآن ليقرأه محمد على الناس على مكث. فجاءنا منزلا تنزيلا. فطلب الله من محمد أن لا يحرك به لسانه ليعجل به:

- لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18)

السؤال الخطير جدا: كيف جاء منزلا تنزيلا (وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً). وقرأ عزيزي القارئ – إن شئت- الآية السابقة التي تتحدث عن ذلك مرة أخرى:

- وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً (106)

جواب مفترى خطير جدا: نحن نظن أن إنزاله (أي مفردة: وَنَزَّلْنَاهُ) تعني أنه قد جاء جملة واحدة على قلب محمد في تلك الليلة المباركة:

- وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (32)

فالمحاجون للنبي يطلبون أن يكون هذا القرآن قد جيئ به (نزّل) جملة واحدة (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً)، فيثبت الله لهم بأنه قد جاء فعلا كذلك (كَذَلِكَ). فقد نزل القرآن جملة واحدة ليثبت الله به كله فؤاد النبي (لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ). ولكن ما انتهى ذلك الإنزال جملة واحدة حتى بدأ التنزيل (أي بعد أن تم فرقه):

- وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً (106)

لتصبح الصورة في ذهننا على النحو التالي:

(إنزال كتاب ذكر تفصيل قرآن فرق تنزيل)

رأينا 2: نحن نظن أن "فرق القرآن" لم ينتهي في تلك الليلة بدليل أن الأمر الحكيم يفرق فيها على سبيل الدوام:

- حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (3) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (4) أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (5) رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (6)

فمحمد قد أوتي الفرقان:

- تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1)

وكان موسى وهارون قد أوتيا الفرقان من قبل:

- وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاء وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ (48)

وهذا هو الفرقان الذي أنزل:

- نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (3) مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (4)

ولو دققنا في الآية الكريمة التالية، لوجدنا أن الفرقان (بصيغة التحديد- التعريف) قد نزل على موسى ومحمد فقط، لكن هذا لا يعني أن الله اقتصر الفرق على هؤلاء الاثنين، فالله يجعل للذين آمنوا فرقانا – (بصيغة التعدد - التنكير) شريطة أن يتقوا الله:

- يِا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29)

(دعاء: أللهم إني ادعوك أن أكون من المؤمنين المتقين الذين تجعل لهم فرقانا – آمين).

السؤال: كيف الطريق إلى ذلك؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الآيات الكريمة التالية (كما نفهمها) ربما تجيبنا على ذلك:

- **وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (1) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (2) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (3) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (4) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (5)**

فلو تفقدنا الآية الخامسة لوجدنا قوله تعالى:

- **فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (5)**

ولو تفقدنا الآية الكريمة التالية:

- **أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (25)**

لربما صح لنا أن نفتري القول بأن جل عمل الملقيات (فَالْمُلْقِيَاتِ) هو إلقاء الذكر (ذِكْرًا) ، فالملقيات هي (نحن نفتري الظن) التي ألقت الذكر (بصيغة التعريف) على محمد:

- **كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا (99)**
- **وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (113)**
- **ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (1)**

(دعاء: اللهم أسألك أن تعلمني الذكر من الكتاب، وأدعوك أن أكون من اللذين تصلهم الملقيات بالذكر – آمين)

ولو تفقدنا الآية الكريمة الرابعة:

- **فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (4)**

لوجدنا أن مهمة هؤلاء الفارقات (فَالْفَارِقَاتِ) هو الفرق (فَرْقًا)، فمن أراد أن يكن له فرقان من المؤمنين المتقين فلابد (نحن نظن) أن تصله هذه الفارقات:

- **يِا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29)**

(دعاء: اللهم أسألك أن تعلمني الذكر من الكتاب، وأدعوك أن أكون من اللذين تصلهم الملقيات بالذكر، ومن اللذين تصلهم الفارقات بالفرق – آمين)

تلخيص ما سبق من افتراءات هي من عند أنفسنا:

⇐ في تلك الليلة المباركة أنزل فيها الكتاب المبين وحيا (باللغة الإلهية)





- ⇐ أنزل الله على نبيه الذكر ليبين للناس ما نزل إليهم من ربهم
- ⇐ علّم الله نبيه كيفية تفصيل الكتاب المبين قرآنا عربيا بلسان قوم النبي
- ⇐ توافر الكتاب المبين وحيا في قلب محمد كما توافر القرآن العربي جملة واحدة على لسان محمد
- ⇐ تم فرق القرآن في تلك الليلة المباركة ليقرأه محمد على الناس على مكث
- ⇐ أُمر محمد أن لا يعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليه وحيه، فكان مأمورا بإتباع ما يقرأ عليه
- ⇐ كان ذلك هو الفرقان الذي أنزل على محمد كما أنزل على موسى من قبل (وسنرى لاحقا بحول الله وتوفيق منه لم جاء الفرقان على هذين النبيين الكريمين فقط. فالله أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم - آمين)
- ⇐ لازال يفرق في تلك الليلة المباركة كل أمر حكيم لنا، فالله يجعل للمؤمنين فرقانا في تلك الليلة المباركة كلما حصلت بشرط أن يكونوا من المتقين:

- **يِا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29)**

(أللهم أدعوك وحدك أن أكون من عبادك المؤمنين المتقين الذين تجعل لهم فرقانا – آمين).

السؤال: متى يمكن أن يحصل لي ذلك؟

جواب: في الليلة التي تقع على رأس كل ألف شهر:

- **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (4) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5)**

السؤال الذي أظن أنه يجب أن تتوجه به عزيزي القارئ إليّ على الفور هو: هل فعلا تعرف ليلة القدر؟ وهل يمكن أن يجعل الله لك فرقانا في تلك الليلة المباركة؟ وكيف يمكن أن يتم ذلك؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن هذا ممكن شريطة أن نستطيع التعرف على تلك الليلة المباركة.

السؤال: وهل تعرفها؟ يسأل صاحبنا متعجلا.

جواب: دعنا نبدأ النقاش بقصة ليلة القدر التي تحدث كل ألف شهر مرة واحدة، طارحين التساؤل التالي: ما قصة تلك الليلة التي هي خير من ألف شهر؟

جواب مفترى خطير جدا جدا هو أقرب إلى الخيال منه إلى الواقع: إنها قصة ألف ليلة وليلة.

باب ألف ليلة وليلة

أكاد أجزم الظن بأن حكاية "ألف ليلة وليلة" قد باتت على رأس قائمة قصص التراث العالمي الذي لازال يحظى باهتمام الأمم والشعوب المختلفة. فبالرغم من الطابع الخيالي الذي يسطر على شخصيات وأحداث قصص تلك الحكاية (التي تكاد تكون) غير مسبوقة في الآداب العالمية، فإن الحكاية نفسها لازالت تشكل جزءا لا يتجزأ من كينونة "الإنسان البشري" الذي شيّد الحضارة المادية وآمن بواقعيتها وحاول التهرب من الخيال الجامح الذي غالبا ما ظن أنه قد لا يسمن ولا يغني من جوع. ولكن على الرغم من هذا الإدراك للواقع الذي يمثل عجز الإنسان وقلة حيلته في مواجهة قسوة الحياة بتضاريسها المتعرجة، لم يتخلى الإنسان عن فكرة "الهروب إلى الخيال" بين الفينة والأخرى، علّه يجد فيه بريق أمل بالخلاص حتى وإن كان رجوعه إليه قد جاء في غالب الأوقات من باب التسلية في ساعات الليل الهادئ، تاركا الواقعية وراء ظهره حتى ساعات العمل في الصباح الباكر من اليوم التالي. ففي اليوم ينشغل المزارع والتاجر والطالب والمعلم والطبيب والمهندس و... الخ. في أعمالهم اليومية الروتينية المملّة، ويعود بعد مساء اليوم "المتعب" ليجتمع على مائدة الإفطار الرمضاني (في العالم الإسلامي) في حلقات عائلية، غالبا ما رافقتها قصص شهرزاد لـ شهريار في عالم مملوء بالأحداث الخيالية من قصص حكاية "ألف ليلة وليلة".

التساؤلات المطروحة:

لماذا لازال الناس من كافة الثقافات يركنون في بعض من وقتهم إلى قصص خيال لا تمت للواقع بصلة؟

لماذا لازالت حكاية "ألف ليلة وليلة" على رأس تلك القصص الخيالية التي تربط الثقافات العالمية بعضها مع بعض ؟

لماذا لازال الأدباء العالميون ينهلون من مفردات وأحداث "ألف ليلة وليلة" في مؤلفاتهم حتى وإن كان من باب الرمزية؟

ما الذي يجدونه جميعا في هذه التسلية الخيالية؟

الخ.

لعلي أكاد الجزم الظن بأننا قد نجد بعض الإجابات على هذه التساؤلات شريطة طرح التساؤل التالي أولا: من هو مؤلف حكاية "ألف ليلة وليلة"؟

جواب مفترى: على الرغم من شهرة هذا الإنتاج الأدبي العالمي الذي أعتقد (أنا شخصيا) أنه لا يوازيه إنتاج أدبي آخر على وجه المعمورة، إلا أنه يبقى مجهول المؤلف والمرجع. فليس للقصة مؤلف يطبع اسمه على غلافها الأول، وليس للحكاية جنسية محددة المعالم، وهي لا تخص ثقافة محددة بقدر ما أنها تعبر عن ضمير الأدب العالمي.

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا لا تصدقوه: نحن نكاد نجزم الظن بأن حكاية "ألف ليلة وليلة" هي من الأدب الذي جاء تحريفا للقصة الدينية الحقيقة، فالقصة أصلها ديني، ومؤلفها حقيقي، إلا أنه تم تحريفها من طابعها الديني الحقيقي حتى انتقلت إلى باب الأدب الخيالي. فظلّ الناس في تحديد هويتها، واختلفوا في قيمتها وهدفها، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتخلوا عنها، فبقيت حاضرة في ضمائرهم وإن لم تعقلها قلوبهم.

أما نحن، فإننا سنحاول أن ندلي بدلونا في هذه الجزئية مفترين الظن من عند أنفسنا بأن هذه الحكاية تقص علينا حكاية الكون من بدايته، كما نكاد نجزم الظن أن "الإله" بطابعه "التراثي" هو بطل أحداث الحكاية في قصصها المتعددة والمتنوعة، فأحداث قصص الحكاية هي ما يستطيع الإله فقط أن يحققه على أرض الواقع. كما نكاد نجزم الظن بأن مشاهدها (التي ما انفك الناس يظنون أنها خيالية) هي في الأصل أحداث حقيقية حصلت على أرض الواقع. كما نعتقد بأن التحريفات التي أصابت بعض أجزائها كانت بهدف "التعمية المقصودة"، أي حتى لا يستطيع القارئ تنقيحها بالفصل بين الحقيقي منها والمحرف فيها.

السؤال: لماذا تم تحريفها عن قصد إن صح ما تزعم؟ يسأل صاحبنا مستغربا.

رأينا المفترى: نحن نظن أن الهدف من وراء ذلك كان من أجل أن تبقى الحكاية مقبولة عند جميع الأمم والشعوب على اختلاف عقائدهم كجزء من التراث. فلو صرّح الكاتب بأصولها الدينية، ولو كشف عن هويته الحقيقية، ولو لم يخلطها بشيء من التحريف، لرُفِضت الحكاية منذ زمن بعيد، ولألصقت بأمة محددة، ولما وجدت (نحن نظن) الاهتمام الكافي من قبل الجميع.

ولتوضيح الصورة أكثر، دعنا نرى ما حصل للكتب المقدسة نفسها. فبالرغم أن التوراة والإنجيل والقرآن هي كتب عقائدية معروفة المصدر، إلا أنه لم يحظى أي كتاب منها بالاهتمام العالمي، فبقيت التوراة (على أهميته) كتابا خاصا باليهود وبقي الإنجيل خاصا بالمسيحيين على مدى أكثر من عشرين قرنا من الزمن، وهكذا كان ولازال القرآن خاصا بالمسلمين منذ أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمن. فما تدخل "أصحاب هذا" بذاك ولا "أصحاب ذاك" بهذا، إلا (اللهم) من باب إيجاد الهفوات والسقطات لإثبات فشل الآخرين. فبدل أن تنشغل البشرية كلها بالبحث عن الحقيقة في التوراة والإنجيل والقرآن، انشغل "من يسمون أنفسهم بأهل التوراة" بكتابهم وكذبوا كل ما عند غيرهم، وهكذا فعل من سموا أنفسهم "أهل الإنجيل"، وربما أكثر من هذا فعل من يسمون أنفسهم "بأهل القرآن". فبات كل كتاب من هذه الكتب الدينية خاصا بأتباع أهل العقيدة التي تؤمن به دون سواه. فبدل أن يرقى أن يكون "عالميا" أصبح محليا بامتياز.

السؤال: هل اختلفت الصورة في حكاية "ألف ليلة وليلة"؟

رأينا المفترى: لقد كان مؤلف حكاية "ألف ليلية وليلة" على وعي تام (نحن نظن) بمثل هذا الافتراء، فهو يعلم أنه إن بقيت حكايته تحمل الطابع الديني لرفضت من قبل الجميع باستثناء المؤمنين بها، ولسيطر عليها إذن الطابع المحلي ولما ارتقت إلى العالمية المنشودة. لذا عمد الرجل (نحن نتخيل) إلى جعل الحكاية رمزية لا تمت إلى ثقافة دينية محددة بعينها، فأخرج الحكاية كلها من أصولها الدينية، وغطّاها بالطابع الشعبي التراثي الذي لن يجد من يقرأ فيه ضرا على عقيدته الدينية التي يؤمن بها. فإن قرأها المؤمن بالديانة البوذية تقبلها دون أن يجد فيها ما يعيب تصوراته الدينية الخاصة به، وهكذا هو الحال بالنسبة لليهودي والمسيحي والمسلم. ولا أظن أن الملحد (الذي لا يؤمن بالدين أصلا) سيجد ضرا في الخوض بتفاصيل الحكاية حتى وإن لم تكن واقعية تلامس تفكيره المادي بالأشياء. وبمثل أسلوب التعمية هذا استطاع المؤلف (نحن نكاد نجزم الظن) أن ينقل الأفكار الدينية إلى أذهان الجميع دون دراية منهم، لظنهم أنها فقط قصص خيال وتراث لا تمت إلى العقيدة الدينية بصلة.

السؤال: هل تستطيع أن تثبت لنا ذلك؟

جواب مفترى: لنبدأ من التسمية "ألف ليلة وليلة" أو بالكلمات الأجنبية A THOUSAND AND ONE NIGHTS حيث نأخذ الاقتباس التالي عن هذا العمل من موسوعة الويكيبيديا:

The work was collected over many centuries by various authors, translators, and scholars across West, Central, South Asia and North Africa. The tales themselves trace their roots back to ancient and medieval Arabic, Persian, Indian, Egyptian and Mesopotamian folklore and literature. In particular, many tales were originally folk stories from the Caliphate era, while others, especially the frame story, are most probably drawn from the Pahlavi Persian work *Hazār Afsān* (Persian: هزار افسان, lit. *A Thousand Tales*) which in turn relied partly on Indian elements.

السؤال: لماذا هذه التسمية؟ لِم لم تقتصر التسمية على "ألف ليلة" وكفى؟ لِم لم تكن "ألف ليلة إلا ليلة واحدة" إن كان عنصر الإثارة هو المقصود (كما ظن بعض النقاد للتسمية)؟ فما قصة تلك الليلة التي تأتي بعد الألف؟ لم هي إذن "ألف ليلة وليلة" واحدة فقط؟

جواب مفترى من عند أنفسنا لا تصدقوه: إنها ليلة القدر

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: تمر فترة ألف ليلة، وفي الليلة التالية للألف، تكون المفاجأة، فتحصل أحداث محددة بعينها في تلك الليلة بذات، تجعلها "عروسا" متوّجة على رأس الألف ليلة السابقة لها. ثم تتكرر الحادثة نفسها بعد الألف ليلة التالية، وهكذا.

السؤال: ما الذي تقوله يا رجل؟ أنت تتحدث عن ألف ليلية وليلة، ولكن ليلة القدر التي جاء ذكرها في كتاب الله هي خير من ألف شهر، فما دخل هذا بذاك؟

جواب مفترى: هذا بالضبط هو ما نريد أن نبينه الآن. فالمشكلة في ظننا تكمن في فهم المفردات، فلو تمكننا من ربط المفردات ببعضها البعض، ربما تتضح الصورة لنا أكثر، لكن الشرط الأساسي في ذلك هو فهم المعاني الحقيقية للمفردات، وهنا أخص على وجه التحديد معنى مفردة الشهر، ليكون السؤال المطروح على الفور هو: ما معنى مفردة "شهر" المشتقة من الجذر (ش- هـ- ر)؟

رأينا المفترى: لعلي أظن أنني قد تناولت المفردة في موضع آخر عندما تحدثنا عن قصة سليمان الذي كانت الريح تجري به شهرا غادية وشهر آخر وهي تروح، قال تعالى:

- **وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (12)**

وحينها طرحنا التساؤل التالي: ما هي المسافة التي يمكن أن تغدو الريح بسليمان شهرا كاملا (غُدُوُّهَا شَهْرٌ)؟ وبنفس المنطق نحن نسأل: كم هي المسافة التي يمكن أن تقطعها الريح بسليمان عندما تروح به شهرا آخر (وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ)؟

السؤال: هل فترة الشهر هي مدة زمنية تتراوح بين 29-30 يوما؟ وإذا كان كذلك، فما المسافة التي يمكن أن تجري الريح بسليمان خلال تلك الفترة غدوا ورواحا؟ ألم يكن سليمان يحتاج أن يقضي حاجته بالذهاب إلى الحمام؟ ألم يحتاج أن يقيم الصلاة؟ ألم يكن يحتاج أن ينام أو أن يرتاح؟ الخ.

بعد طرح هذا السؤال وتدارس المفردة قليلاً حينئذ، خرجنا بتساؤل ظننا أن الكثيرين من أهل العلم (والعامة على حد سواء) لم يلقوا له بالاً، والسؤال يتعلق بجمع مفردة "شهر"، فنحن نعرف أن مفردة "شهر" تجمع في العربية على وجهين:

1. أشهر
2. شهور

عندها طرحنا السؤال على بعض أهل اللغة ليسعفونا بالتفريق بين المفردتين: "أشهر" و "شهور"، ثم تجرأنا أن نطرح التساؤل عن سبب توافر المفردتين جنباً إلى جنب في اللغة وفي السياقات القرآنية، كما في قوله تعالى في الآيتين الكريمتين التاليتين:

- **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (197)**
- **إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (36)**

فكان سؤالنا المطروح حينئذ هو: هل هناك فرق بين مفردة أشهر (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ) ومفردة شهور (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ)؟ وإذا كان هناك فرق بين اللفظتين، فما هو؟

للإجابة على هذا التساؤل، وجدنا الحاجة ملحة أن نستعرض جميع القرآنية التي وردت بها المفردتان، فوجدنا أن مفردة "أشهر" قد وردت في السياقات القرآنية التالية:

- **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (197)**
- **لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (226)**
- **وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (234)**
- **فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (2)**
- **فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (5)**
- **وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (4)**

وما وجدنا كلمة شهور قد وردت في كتاب الله إلا في السياق القرآني التالي:

- **إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (36)**

وقد قادنا بحثنا هذا إلى طرح أسئلة لا تقل أهمية عن سابقتها، وشكلت لدينا إرباكاً كبيراً جداً كان لابد من الغوص فيها، لأنها بلا شك تمس جوهر التشريعات والعقائد، فبرزت حينها معضلات تمس جوهر العقيدة، دعنا نذكر بعضها هنا متبوعة ببعض التساؤلات المثيرة:

المعضلة الأولى: عدم الرفث إلى النساء طيلة أشهر الحج

- **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ** البقرة 197

التساؤلات:

⇐ هل فعلا نحج أشهرا؟

⇐ وما هي تلك الأشهر؟

⇐ وإذا كنا نحج أشهرا، فكيف بنا نؤمر بأن لا نرفث إلى نسائنا طوال تلك الفترة؟

⇐ فهل نقدر على ذلك والله هو من علم أننا كنا نختان أنفسنا في شهر رمضان وهو شهر واحد، فأحل لنا الرفث إلى نسائنا في ليلة الصيام؟

- **أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (187)**

المعضلة الثانية: الفرق بين فترة التربص والعدة كما تبين ذلك الآيات الكريمة التالية:

- **لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (226)**
- **وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (4)**
- **وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (228)**
- **وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (234)**

التساؤلات:

⇐ هل فعلا تحتاج من يتوفي عنها زوجها أن تنتظر أربعة أشهر وعشرا؟

⇐ لم لا تنتظر ثلاثة قروء كالمطلقة مثلاً؟

⇐ ولم لا تنتظر كمن يئست من المحيض (فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ)؟

⇐ أو لم لا تنتظر أن تضع حملها إن كانت من أولي الأحمال ؟

⇐ وكم هي فترة الأربعة عشر وعشرا؟

⇐ فهل هي أربعة أشهر وعشر أشهر؟

⇐ أم هل هي أربعة أشهر وعشرة أيام؟

⇐ أم هل هي أربعة أشهر وعشر ليالي؟

⇐ وكيف يتم فهم الحذف في هذه الآية الكريمة

⇐ الخ.

عندها خرجنا بالافتراء التالي الذي هو لا شك من عند أنفسنا: تتربص المرأة بنفسها أربعة أشهر وعشر أشهر ليصبح مجموع فترة التربص أربعة عشر شهر.

(للتفصيل انظر مقالتنا مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته: باب الشهر)

لكن هذا يطرح على الفور التساؤل التالي: كيف يمكن للمرأة أن تتربص بنفسها فترة أربعة عشر شهر (أي حوالي 14 * 30 = 420 يوما)، فهل يعقل هذا؟

جواب مفترى: جواب كلا وألف كلا، وذلك لأن الفكر الشعبي درج على فهم أن مفردة الشهر تعني فترة حوالي 30 يوما، وهذا ما نرفضه جملة وتفصيلا، ليكون السؤال على الفور هو: ما معنى مفردة شهر في النص القرآني؟

افتراء خطير جداً من عند أنفسنا: نحن نظن أن مفردة شهر قد لا تدل دائما على الفترة المتعارف عليها عند الناس والتي هي ما يقرب من الثلاثين يوماً لكل شهر.

الدليل

نحن نظن أن تدبر الآية الكريمة التالية الخاصة بالنهي عن الرفث إلى النساء في أشهر الحج ربما سيلقي بظلال الشك بكل قوة على الفكر الشعبي السائد عن معنى مفردة الشهر، قال تعالى:

- **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (197)**

التساؤلات:

⇐ ألا تذكر الآية الكريمة أن الحج عبارة عن أشهر معلومات (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ)؟ فهل فعلاً نحج نحن أشهراً معلومات بمعنى الأشهر المتعارف عليها بين الناس؟ وهل يجوز الحج في كل تلك الأشهر؟ ولماذا يتم الحج في وقت محدد من العام إذن؟ وماذا عن العشرة الأوائل من ذي الحجة؟ هل يجوز الحج خلال أشهر الحج في غير هذه الأيام العشرة الأولى من ذي الحجة؟ من يدري!!!

⇐ وماذا عن الفترة الزمنية التي نؤدي فيها شعائر الحج؟ هل نؤدي شعائر الحج طيلة أشهر الحج كلها؟ وماذا عن الحديث الذي ينقلوه لنا بأن الحج عرفة؟ وماذا عن شهر ذي الحجة نفسه؟ أليس هو من أشهر الحج؟ فلماذا ينتهي الحج في اليوم العاشر من ذي الحجة؟ من يدري!!!

⇐ وماذا عن تتمة الآية الكريمة؟ فماذا عن الرفث على وجه الخصوص؟ لم نرفث إلى نساءنا في تلك الأشهر ولا نتوقف عن ذلك إلا في وقت الإحرام التي قد لا تتجاوز بضعة أيام وليال؟ ألا ينهانا الله عن الرفث في تلك الأشهر جميعها (فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ)؟ فهل يجب على من فرض فيهن الحج أن لا يرفث إلى نساءه طلية تلك الأشهر الحرم كاملة؟ فلم يحق للحاج الرفث للنساء قبل الإحرام وهو لا شك في أشهر الحج؟ ولم يحق له (كما يرخص لهم علماؤهم) الرفث إلى نساءهم بعد التحلل من الإحرام مباشرة بالرغم أنهم لازالوا في أشهر الحج؟ ألا تعتبر تلك مخالفة فاضحة لصريح اللفظ القرآني؟ فكيف - يا ترى- ينهانا الله عن الرفث في أشهر الحج، وها نحن نرفث إلى نسائنا طوال أشهر الحج ولا نتوقف عن ذلك إلا في مرحلة الإحرام، وما أن نتحلل من الإحرام حتى نعود إلى الرفث إلى نسائنا، مع العلم أن الوقت لا زال ضمن أشهر الحج نفسها التي نهانا الله عن الرفث إلى نسائنا فيهن (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ۚ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ")؟ من يدري!!!

⇐ وماذا عن الفسوق والجدال؟ هل يفسد ذلك حجنا إن نحن فعلناه قبل الأول من ذي الحجة أو بعد العاشر من ذي الحجة مثلاً؟ وماذا عن الجدال قبل وبعد التحلل من الإحرام، هل يفسد ذلك الحج بأكمله؟ ألا نزال في أشهر الحج بالرغم من التحلل من الإحرام؟ ألا تعتبر تلك مخالفة فاضحة لصريح اللفظ القرآني؟ من يدري!!!

رأينا: كلا وألف كلا. لابد من طرح الملف بأكمله للنقاش من جديد شريطة الوقوف عند ألفاظ القرآن الكريم بعد تجلية معانيها كما يبيّنها النص القرآني نفسه، وليس كما نحب ونشتهي أو كما ألفينا عليه آباءنا (ولو كانوا لا يعقلون شيئا).

رأينا المفترى: بعد تدبر النهي الإلهي عن طبيعة الرفث إلى النساء خلال شهر رمضان كما جاء في الآية الكريمة:

- **أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (187)**

مع النهي الإلهي عن طبيعة الرفث إلى النساء في أشهر الحج كما في الآية الكريمة التالية:

- **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (197)**

خرجنا بالافتراء الخطير التالي: في حين أن النهي عن الرفث إلى النساء خلال شهر رمضان يخص يوم الصيام فقط ولا يخص ليل الصيام، فإن النهي عن الرفث إلى النساء في أشهر الحج يخص اليوم والليلة معا. فالرجال مأمورون بعدم الرفث إلى النساء في يوم الصيام ولكن مسموح لهم ذلك في ليلة الصيام. لكنهم مأمورون بعدم الرفث إلى النساء في يوم الحج وفي ليلة الحج.

لذا، فإن النهي عن الرفث إلى النساء في الحج جاء للفترة الزمنية كاملة ليلها ونهارها (أو بكلمات أكثر دقة في اليوم والليلة).

لقد دعانا هذا النوع من التدبر إلى الوقوف مليا عن مفردات ثلاثة أخرى هي: <u>اليوم</u>، <u>الليلة</u>، <u>النهار</u>، فتصبح المفردات الدالة على تحديد الوقت ذات العلاقة على النحو التالي:

المفردة	الفترة الزمنية
نهار	
ليلة	
يوم	
شهر	

ولما كان موضوع نقاشنا هو مادة الشهر، وجب علينا التفريق بين مفردة الشهر التي تجمع على أشهر ومفردة الشهر التي تجمع على شهور، فيصبح الجدول الآن على النحو التالي:

المفردة	الفترة الزمنية
نهار	
ليلة	
يوم	
شهر (أشهر)	
شهر (شهور)	

افتراءات من عند أنفسنا

أما بعد،

لا يتوقف الخلط في الفهم عند العامة وأهل العلم على حد سواء عند مفردة الشهر، بل تتجاوزها إلى مفردات أخرى تخص الزمن ربما يتعذر الفهم دون التعرض لها بالتفصيل، نذكر منها على سبيل المثال مفردات مثل اليوم والليلة والنهار، لنطرح الأسئلة التالية:

- ⇐ ما هو اليوم؟
- ⇐ ما هي الليلة؟
- ⇐ ما هو النهار؟
- ⇐ كيف يختلف اليوم عن النهار؟
- ⇐ الخ

لنخلص بعد ذلك إلى التفريق بينها من جهة ومفردة الشهر من جهة أخرى، لنطرح بعدها التساؤلات التالية:

- ⇐ ما هو الشهر؟
- ⇐ ما الفرق بين الشهر واليوم والليلة والنهار؟
- ⇐ ما هو الشهر الذي يجمع على أشهر؟
- ⇐ وما هو الشهر الذي يجمع على شهور؟
- ⇐ وما الفرق بين الأشهر والشهور؟
- ⇐ الخ.

السؤال الأول: ما هو اليوم؟ وما الفرق بين اليوم والليلة؟

رأينا: نحن نظن أن مفردة اليوم لا تعني في النص القرآني فترة الأربع والعشرين ساعة كاملة كما يستخدمها كثير من الناس في حياتهم اليومية. فغالباً ما ظن الكثيرون أن الحديث عن اليوم يعني فترة الأربع والعشرين ساعة كاملة. لذا عندما يقرؤون آية في كتاب الله يذكر فيها مفردة اليوم، تطير أذهانهم إلى ما تناقلوه عن المفردة من السِنة آباءهم، فهم بذلك ينقلون عربيتهم (على علاّتها) إلى كتاب الله، ويفسرون آيات الكتاب الكريم بناء على تلك الأفهام المغلوطة، وهذا من البلاء الذي أصاب الأمة وربما (نحن نظن) منع أهل العلم من الخروج باستنباطات صحيحة من كتاب الله. أما نحن فتتلخص منهجيتنا بعكس الصورة تماماً وبالتالي الإقرار أن في عربيتنا من العيوب الكثيرة التي لا يجوز أن ننقلها إلى كتاب الله (لأننا نصبح بذلك نحاكم كتاب الله بناء على أفهام مغلوطة ورثناها عن آباءنا)، لذا وجب علينا تهذيب تلك "الأفهام الشعبية" وذلك بإسقاط ما في كتاب الله على عربيتنا، فما نجده في كتاب الله هو الحقيقة التي لا يجب المماطلة فيها وما ألفيناه من عند آبائنا ليس أكثر من أسماء سميتموها ما أنزل الله بها من سلطان.

وعند تطبيق هذه المنهجية في تحليل مفردة "اليوم" في النص القرآني وجدنا أن المفردة تدل <u>فقط على ذلك الجزء من الوقت الذي نصوم فيه</u>، فاليوم ليس أكثر من فترة الصيام في مرة واحدة، والفترة تبدأ عندما يتبين الخيط الأبيض من الأسود من الفجر (أي تقريباً عند رفع الآذان لصلاة الفجر) وتنتهي عند الليل مع

مغيب الشمس (أي تقريبا صلاة المغرب)، فالصيام بنص الآيات الكريمة التالية هو بكل تأكيد أياما معدودات، فنحن نصوم اليوم، ولا نصوم أربعة وعشرين ساعة متتابعة:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (183) أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ ۚ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ۚ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ ۖ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (184)**

ويبدأ وقت الصيام مع تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر:

- **أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ...**

وينتهي بإتمام الصيام إلى الليل:

- **ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (187)**

ولو دققنا النظر أكثر في هذه الآية الكريمة لوجدنا أن الآية الكريمة تثبت لنا بأن الصيام (فعل الامتناع عن الأكل والشرب والرفث إلى النساء) ليس شهراً وإنما هو أيام معدودات، الأمر الذي يدعونا إلى التمييز بين أمرين اثنين وهما:

1. أن رمضان هو شهر
2. بينما الصيام أيام معدودات

السؤال: إذا كان رمضان هو شهر كامل، فلِم يخبرنا الله أن الصيام أيام معدودات؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن الصيام هو فعل الكف عن الأكل والشرب والرفث إلى النساء مصداقاً لقوله تعالى:

- **... ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ...**

أما رمضان فهو ليس أكثر من اسم لذلك الشهر الذي يحتوي على أيام الصيام:

- **شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185)**

السؤال: هل يمكن أن يصوم الإنسان المريض أو المسافر الشهر كله دفعة واحدة (فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) أو أن يفطره كله دفعة واحدة (وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ)؟ سنرى لاحقاً أن مفردة الشهر التي وردت في هذه الآية الكريمة مرتين تستخدم للإشارة إلى شيئين اثنين، كل نهما هو في نهاية المطاف شهر.

وبذلك يكون الصيام أياما معدودات لأننا لا نصوم الأربعة والعشرين ساعة متتابعة، وإنما نصوم فقط تلك الفترة من الزمن التي نتوقف فيها عن تناول الطعام والشراب والرفث إلى النساء وهي ما يطلق عليه باللفظ القرآني اليوم. وبذلك نكون قد أتممنا الصيام إلى الليل:

- **... ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ...**

وما أن يقدم الليل حتى يصبح من حقنا أن نأكل ونشرب ونرفث إلى النساء:

- **أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (187)**

افتراء من عند أنفسنا: نحن نزعم القول أنه من الاستحالة بمكان أن تكون مفردة اليوم دالة على فترة الأربع والعشرين ساعة كاملة لأن ذلك سيشكل معضلة كبيرة جداً في تطبيق الأمر الإلهي الذي تنص عليه الآيات الكريمة التالية:

- **وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (196)**

السؤال: إذا كانت مفردة اليوم تعني (كما يظن الكثيرون) فترة الأربع والعشرين ساعة كاملة، فكيف سنصوم ثلاثة أيام في الحج (أي 3 × 24 = 27 ساعة متتابعة)؟ وإن قدرنا على ذلك، فهل سنقدر على صيام سبعة أيام بعد الرجوع من الحج (أي 7× 24 = 168 ساعة متتابعة)؟ من يدري!!!

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن "اليوم" ليس أكثر من الفترة الزمنية التي يطلب من المسلم فيه الكف عن الطعام والشراب والرفث إلى النساء عند القيام بفعل الصيام، ويتوقف اليوم عند قدوم الليل التي يصبح المسلم مرخصاً له فيه القيام بهذه الأفعال.

المفردة	الفترة الزمنية
نهار	
ليلة	تلك الفترة من الزمن التي يحق لنا أن نأكل ونشرب ونرفث إلى النساء فيها وهي تبدأ من رفع آذن المغرب وتستمر حتى رفع آذان الفجر
يوم	الفترة الزمنية التي لا نأكل ولا نشرب ولا نرفث إلى النساء فيها (وهي تبدأ عند رفع آذان الفجر وتستمر حتى رفع آذان المغرب)
شهر (أشهر)	
شهر (شهور)	

السؤال قيد البحث لاحقاً: إذا كنا نعرف أن هناك دورة كاملة من أربع وعشرين ساعة في اليوم والليلة، وإذا كان اليوم يشكل جزء منها (فترة الصيام بالامتناع عن الأكل والشرب والرفث إلى النساء) والليلة (فترة الرخصة بالأكل والشرب والرفث إلى النساء) تكمل الجزء المتبقي منها، فما المفردة التي يمكن أن نستخدمها لتدل على دورة الأربع والعشرين ساعة كاملة؟ من يدري!!!

السؤال الثاني؟ ما هو النهار؟ وما الفرق بين النهار واليوم؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن هناك فرق كبير بين اليوم والنهار، فالنهار يبدأ مع شروق الشمس وينتهي عند غيابها، وذلك لأن النهار مبصرا:

- هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (67)
- وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا (12)

ولكن الليل هو من يسدل الغشاوة فيذهب بذلك الإبصار الذي كان موجوداً في النهار:

- وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ۖ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (3)
- إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (54)

وفي الوقت الذي يكون الليل يسدل الغشاوة يكون النهار في حركة انسلاخ:

- وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (37)

والنهار يعاكس الليل (كما يعاكس الحي الميت) لأنّ كل منهما يحل محل الآخر، ويتم ذلك بطريقة الإيلاج:

- تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (27)

المفردة	الفترة الزمنية
نهار	الفترة الزمنية من طلوع الشمس حتى غيابها
ليلة	تلك الفترة من الزمن التي يحق لنا أن نأكل ونشرب ونرفث إلى النساء فيها وهي تبدأ من رفع آذن المغرب وتستمر حتى رفع آذان الفجر
يوم	الفترة الزمنية التي لا نأكل ولا نشرب ولا نرفث إلى النساء فيها (وهي تبدأ عند رفع آذان الفجر وتستمر حتى رفع آذان المغرب)
شهر (أشهر)	
شهر (شهور)	

والآن ننتقل إلى السؤال المحوري قيد البحث ألا وهو: إذا كنا نعرف أن هناك دورة كاملة من أربع وعشرين ساعة في النهار والليل معاً، وإذا كان النهار يشكل جزء منها (فترة طلوع الشمس إلى غروبها) والليل (فترة غروب الشمس إلى طلوعها) يكمل الجزء المتبقي منها واليوم (فترة الصيام التي تبدأ من قبل طلوع الشمس وتنتهي بعد غيابها)، فما المفردة التي يمكن أن نستخدمها لتدل على دورة الأربع والعشرين ساعة كاملة؟ من يدري!!!

افتراء خطير جداً من عند أنفسنا: إننا نظن أن دورة الأربع والعشرين ساعة (التي يشكلها اليوم والليلة معاً أو النهار والليل معاً) هي ما يمكن أن نسميه – افتراء من عند أنفسنا- شهرا.

السؤال: ما معنى مفردة "شهر"؟ وكيف تستخدم تلك المفردة؟

رأينا: نحن نظن أن مفردة شهر هي مفردة جامدة بعض الشيء في الاشتقاق، ولكن يمكن أن نربطها بمفردات مثل الاشتهار، والشهرة، والتشهير، والمشهور، والشاهر، والمشاهير، الخ. فلماذا؟

رأينا: إننا نظن أن "فعل الاشتهار" لا يتم إلا بظهور متكرر لصاحب الشهرة، وأظن أن أهم ما يميز الشهرة هو تكرار حصول الفعل. لذا نحن نفتري الظن أن مفردة الشهر تدل على حدث دائم متكرر. فالشخص لا يصبح من المشاهير (أو celebrity بالمفردات الأعجمية) إلا إذا ما تكرر ظهوره للجميع حتى أصبح معروفا بينهم.

ومادام أننا نتحدث في هذا السياق عن زمن، فإن تكرار حدوث ذلك الزمن يشكّل ما يشبه "دورة كاملة" (أي كالدائرة)، فالحدث يبدأ من نقطة ويتحرك في مسار ثابت (بغض النظر عن المسافة الزمنية التي يقطعها ليعود إلى النقطة نفسها، وهذا - في رأينا - ما يمكن أن نطلق عليه – افتراء من عند أنفسنا- لفظة الشهر.

فالنساء يتحدثن عن الدورة الشهرية بالرغم أنها لا تكون في الغالب ثلاثين يوماً، أليس كذلك؟

السؤال: لماذا هي دورة شهرية بالرغم أنها قد لا تحدث كل ثلاثين يوما؟

جواب: حن نعرف أن بعض النساء قد تنقطع الدورة عنها فترة من الزمن، إلا أناه تبقى دورة شهرية، فالحامل مثلا تتوقف دورتها الشهرية تسعة أشهر، إلا أنها مع ذلك تبقى تسمى دورة شهرية. وتنقطع تلك الدورة عن بعض النساء فترة الرضاعة كاملة، إلا أنها تبقى مع ذلك تسمى دروة شهرية، وهكذا. السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن أن السبب في ذلك لا علاقة له بالفترة الزمنية سواء كانت طويلة أو قصيرة وإنما العبرة – برأينا- في حدوثها بشكل متكرر على الدوام).

ولو تفقدنا ما حولنا لوجدنا أن في منزلنا شجرة ليمون شهرية لا يتساقط ثمرها ولا يتجدد بعد اليوم الثلاثين مباشرة (إلا أن إنتاجها دائم متكرر)، ونحن نستلم راتبنا الشهري في السابع والعشرين من الشهر (فهو حدث دائم متكرر)، وهكذا. إن مراد قولنا هنا هو أن ما يميز كل فعل شهري هو أنه متكرر متجدد بنفس الوتيرة.

الدليل

لقد حدد الله لنا الزمن باستخدام كينونتين طبيعيتين هما الشمس والقمر، أليس كذلك؟

- **هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (5)**
- **وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا (12)**

النتيجة: الشمس والقمر هما الكينونتان اللتان جعلهما الله لنا لنعلم عدد السنين والحساب.

السؤال: كيف يمكن أن نعلم عدد السنين والحساب من خلالهما؟

جواب: لو تدبرنا حركة الشمس وحركة القمر في تحديد الزمن، لوجدنا أن كل منهما يسبح في فلك، وبعد البحث عن هذه المعلومة في كتاب الله لم نجد أن هناك كينونات تسبح في فلك إلا الشمس والقمر حيث ارتبط بهما الليل والنهار:

- **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33)**
- **لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40)**

نتيجة: الشمس والقمر هما الكينونتان الوحيدتان اللتان تسبحان في فلك، ويصاحبهما في ذلك الليل والنهار، وهما منفصلتان عن بعضهما البعض بدليل أن لكل منهما فلكاه الذي يسبح فيه (وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)، مما يدعونا إلى طرح التساؤلات التالية:

- ⇐ ما هو الفلك أصلاً؟ وكيف تتم السباحة فيه؟
- ⇐ ما هو فلك الشمس؟ وكيف تسبح الشمس فيه؟
- ⇐ ما هو فلك القمر؟ وكيف يسبح القمر فيه؟
- ⇐ ما الفرق بين فلك الشمس وفلك القمر؟ وكيف تختلف سباحة الشمس عن سباحة القمر؟
- ⇐ كيف يساعدنا فهم ذلك في معرفة الزمن؟
- ⇐ الخ.

افتراءات من عند أنفسنا

باب الفلك: نحن نظن أن الفلك هو ما يشبه شكل الدائرة (وليس بالضرورة التطابق) بغض النظر عن الحجم كما في الشكليين التاليين:



Source: http://findicons.com/icon/69400/circle_grey?id=332952

باب السباحة: لا يرد "فعل السباحة" في كتاب الله إلا بلفظ (يَسْبَحُونَ) ولا يتلازم هذا اللفظ إلا مع الشمس والقمر والليل والنهار:

- **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33)**
- **لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40)**

نتيجة مفتراة: الشمس والقمر والليل والنهار هي فقط ما تقوم بفعل السباحة التي لا تتم إلا في فَلَك. فكيف تتم السباحة في الفَلك؟

رأينا: لمّا كانت الشمس تسبح في فَلك، ينتج عن حركة سباحتها تلك فترة زمنية محدد نستطيع أن نلمسها نحن البشر وهي تعاقب الليل والنهار، وتتم تلك الحركة بشكل متكرر كل أربعة وعشرين ساعة مرة

واحدة، وبكلمات أخرى نقول أن الشمس تكمل دورة كاملة تتكرر بشكل منتظم كل أربعة وعشرين ساعة، فنستطيع بناء على ذلك معرفة اليوم (لنصوم فيه مثلاً) والليلة (لنتوقف عن الصيام)، ونستطيع تحديد النهار (حيث يكون مبصراً) والليل (حيث يحل الظلام محل النور)، وهذا يدعونا على الفور إلى طرح التساؤل المثير جداً التالي: ماذا يمكن أن نطلق على دورة الشمس في فلكها مرة واحدة كل أربعة وعشرين ساعة؟

فهل يمكن أن نسمي ذلك يوم؟

كلا، لأن اليوم هو فترة الصيام فقط التي يتم فيها الإمساك عن الطعام والشراب والرفث إلى النساء

هل يمكن أن نسمي ذلك نهار؟

كلا، لأن النهار هو مبصراً، لذا فهو لا يكوّن أكثر من جزء من تلك الدورة

هل يمكن أن نسمي ذلك ليل؟

كلا، لأن الليل مظلم متى انسلخ منه النهار، لذا فهو أيضاً لا يكوّن أكثر من الجزء الآخر لتلك الدورة

فماذا يمكن أن نسميه إذاً؟

افتراء من عند أنفسنا: إنه الشهر

فنحن نفتري الظن بأن الشمس "تشهر" نفسها مرة واحدة كل أربعة وعشرين ساعة في حركة سباحة في فلكها، فيتكون – برأينا- جراء ذلك الشهر الشمسي الذي ينتج عن تعاقب الليل والنهار أو اليوم والليلة، وبذلك تكمل الشمس في فلكها دورة واحدة متكررة بنفس الوتيرة على الدوام فيما يمكن أن نسميه – افتراء من عند أنفسنا- بالشهر.

سؤال: وماذا عن القمر؟

لو راقبنا ما يحدث في حالة القمر لوجدنا أن القمر هو أيضاً يسبح في فلك خاص به، ويتم ذلك بطريقة متكررة بوتيرة ثابتة على الدوام، فما انفك القمر عن "إشهار" نفسه في وقته المحدد له وذلك لأنه يسبح في فلك خاص به. ويتم تحديد الزمن بناء على منازله، ولكن المفارقة تكمن هنا بأننا لا نستطيع تحديد الزمن من منازل القمر كل يوم وليلة، ولكننا نقدر الزمن بناء على سباحة القمر في دورته الكاملة، والتي تستغرق فترة زمنية أطول من تلك التي تستغرقها الشمس في دورتها لإشهار نفسها، ففي حين أن الشمس تشهر نفسها تقريباً كل أربعة وعشرين ساعة مرة واحدة، فإن القمر يشهر نفسه مرة واحدة كل ثلاثين يوماً تقريباً (أي يكمل دورته في سباحته في فلكه)، فينتج عن ذلك الشهر القمري الذي يعرفه الناس.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: هناك شهر يتحدد بحركة الشمس الدورية كل أربعة وعشرين ساعة وينتج عنه الليل والنهار (واليوم والليلة)، وهناك بالمقابل – شهر يتحدد بحركة القمر ينتج عنه الأشهر القمرية التي نعرفها كشهر رمضان مثلاً.

نحن نظن أن الفرق الذي نجده في استخدام الشمس والقمر في تحديد الزمن لا يختلف إلا بحجم الفَلَك (أي الدائرة) التي يسبح فيها كل منهما. فالقمر كونه يدور حول الشمس فهو يسبح في فلك واسع، والقمر نفسه كون حجمه ليس كبيراً (كالشمس) فإن حركته في فلكه ليست سريعة، لذا تكون دورته واسعة وتستغرق وقتاً أطول، فينتج عنه الشهر القمري الذي يتراوح بين تسعة وعشرين وثلاثين يوماً (بمعنى اليوم الشائع على

ألسنتنا)، وهذا ما يعرفه العامة وأهل العلم على حد سواء. أما بكلماتنا، فنحن نزعم القول أن القمر يشهر نفسه مرة واحدة بعد أن ينهي دورته التي يسبحها في فلكه مرة واحدة.

أما الشمس، فلأنها لا تدور حول القمر وإنما تدور حول نفسها، ولأنها ذات كتلة أضخم بكثير من كتلة القمر، فإن حركتها تكون حركة سريعة جداً، تمكنها من أن تقطع فلَكَها في فترة زمنية أقصر وهي حوالي أربعة وعشرين ساعة. لذا نحن نزعم القول أن الشمس تشهر نفسها مرة واحدة بعد أن تنهي دورتها التي تسبحها في فلكها مرة واحدة.

سؤال للتدبر: كيف نعلم عدد السنين والحساب؟ هل يستطيع الإنسان أن يحدد الفترة الزمنية التي هو فيها بمجرد النظر إلى الشمس والقمر؟

جواب: لو سألنا شخص في أي سنة (أو عام) نحن الآن، لما تردد في القول بأننا الآن في سنة 2015 ميلادي، أو العام 1436 هجري، أليس كذلك؟

سؤال: وفي أي سنة كنا العام الماضي؟ (أرجو المعذرة على الخلط في المفردات، فالهدف هنا هو توصيل الفكرة فقط)

جواب: 2014

سؤال: وفي أي سنة سنكون في العام القادم؟

جواب: 2016

سؤال: هل تتكرر السنة أو يتكرر العام في حسابنا للزمن؟

جواب لا؟

والآن لنطرح السؤال التالي: في أي شهر نحن؟

جواب: في شهر شباط

سؤال: وماذا عن الشهر الماضي؟

جواب: كانون ثاني؟

سؤال: وماذا عن الشهر التالي؟

جواب: آذار

سؤال: وماذا عن أشهر السنة القادمة؟

جواب: ستتكرر الأشهر نفسها في كل سنة وفي كل عام، أليس كذلك؟

نتيجة 1: لاحظ أن الشهر القمري الذي ينتج عن سباحة القمر في فلكه هي أثنا عشر شهراً في كل عام وهذه الشهور تتكرر في كل عام منذ أن خلق الله الأرض وحتى يرثها.

فالدورة القمرية (أو بكلماتنا إشهار القمر نفسه بسبب سباحته في فلكه) ينتج عنها: محرَّم ، صفر ، ربيع الأول ، ربيع الآخر (الثاني) ، جمادى الأولى ، جمادى الآخرة (الثانية) ، رجب ، شعبان ، رمضان ، شَوَّال ، ذُو الْقَعْدَة ، ذُو الْحِجَّة ، وهذه أشهر متكررة على الدوام بشكل منتظم، وهي ليست أكثر من أشهر. (ولا أظن أن الناس على وجه البسيطة كاملة يختلفون في عددها ولكنهم يختلفون فقط في تسمياتها)

نتيجة 2: لاحظ ما يحدث في حالة الشمس أيضاً، فهي تسبح في فلكها بشكل متكرر، فينتج عن ذلك الليل والنهار، (واليوم والليلة)، وهو ما يتعارف عليه الناس باسم "أيام الأسبوع السبعة"، إن ما يجدر ملاحظته هنا هو كيف تتكرر هذه على الدوام منذ أن خلق الله الأرض وحتى يرثها ،

الدورة الشمسية (أو بكلماتنا إشهار الشمس نفسها بسبب سباحتها في فلكها) ينتج عنها: السبت الأحد الاثنين الثلاثاء الأربعاء الخميس الجمعة وهي متكررة على الدوام لذا فهي في نظرنا ليست أكثر من أشهر (ولا أظن أن الناس على وجه البسيطة كاملة يختلفون في عددها ولكنهم يختلفون فقط في تسمياتها)

فيصبح الجدول السابق الآن على النحو المفترى التالي:

المفردة	الفترة الزمنية
نهار	الفترة الزمنية من طلوع الشمس حتى غيابها
ليلة	تلك الفترة من الزمن التي يحق لنا أن نأكل ونشرب ونرفث إلى النساء فيها وهي تبدأ من رفع آذن المغرب وتستمر حتى رفع آذان الفجر
يوم	الفترة الزمنية التي لا نأكل ولا نشرب ولا نرفث إلى النساء فيها (وهي تبدأ عند رفع آذان الفجر وتستمر حتى رفع آذان المغرب)
شهر شمسي (أشهر)	فترة غياب وظهور الشمس كل أربع وعشرين ساعة مرة واحدة، أي إشهار الشمس نفسها بطريقة متكررة وثابتة
شهر قمري (شهور)	فترة إشهار القمر نفسه مرة بشكل متكرر كل حوالي 30 يوما

سؤال: ما علاقة ذلك بعدد السنين والحساب؟

جواب: الناس لا يعرفون في حسابهم للزمن إلا هذه الدورات الشمسية والقمرية، أو بكلماتنا نقول أن الناس يحسبون الزمن بناء على الشهر، ونعني بالشهر الشهر القمري والشهر الشمسي.

عودة على بدء

كيف يساعدنا ذلك في الحساب؟

انطلق هذا النقاش في البداية من التساؤل الذي أثرناه حول معنى مفردة الشهر كما ترد في الآية الكريمة التي تتحدث عن ريح سليمان:

- **وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ سبأ (12)**

وكان السؤال المثار حينئذ هو: لماذا كانت ريح سليمان تجري شهراً بالغدو وآخر بالإياب؟ فما هي المسافة التي يمكن أن تقطعها الريح في فترة شهر كامل؟

وهنا نحاول أن نربط ما تحصل لنا من معرفة عن مفردة الشهر بعد هذا النقاش المطوّل المفترى جله من عند أنفسنا بريح سليمان التي كانت تجري به شهراً بالغدو وآخر بالإياب، لنقدم الافتراء الكبير التالي:لقد كانت ريح سليمان تغدو به شهراً شمسياً وليس شهراً قمرياً.

إن أبسط ما يمكن أن نفهمه نحن من الآية الكريمة هو أن الريح كانت تجري بسليمان بأمر منه إلى الأرض التي باركنا فيها مسيرة يوم وليلة معاً (أي شهراً شمسياً)، وتعود به في رحلة الإياب في شهر شمسياً آخر:

- **وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (81)**

ويمكن أن يعزز فهمنا هذا ما يمكن أن نطرحه من تساؤلات حول رحلة سليمان:

أولاً نحن نظن أن سليمان كان لا يسكن الأرض التي باركنا فيها، ولكن الريح كانت تجري به إلى هناك (انظر الآية السابقة)، فلماذا – يا ترى- كان يذهب سليمان إلى هناك؟

ثانياً، لمّا كان سليمان لا يسكن الأرض التي باركنا فيها وكان يذهب إلى هناك بواسطة الريح، فأين يا ترى كان موطنه الأصلي؟

ثالثاً، إن صح قول من سبقنا، فهل يعقل أن يترك سليمان ملكه فترة شهرين قمرين (شهر للغدو وآخر للإياب) ليذهب إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين؟ وماذا كان يمكن أن تفعل الشياطين الذين كانوا في عذاب مهين تحت حكم سليمان في غيابه؟

- **وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (12)**

جواب: نحن نفتري القول أن بإمكاننا أن نقدم إجابات على هذه الأسئلة أكثر إقناعاً مما هو سائد من فكر (هذا إن كان هناك أصلاً فكر موجود يخص هذه القضية) إن نحن قرأنا السياق القرآني في سياقه الأوسع خاصة الآية الكريمة التي جاءت مباشرة بعد الحديث عن ريح سليمان بشيء من التدبر:

- **وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (12)**

عودة على بدء

تخيلات مفتراة مزيفة: لقد كانت شهرزاد (الشمس) تحكي لـ شهريار (القمر) في كل ليلة جزءا من حكاية ستنتهي منها في الليلة الألف لتأتي المفاجأة الكبرى في الليلة الأولى بهد الألف، لتتوج المجموعة كلها، وتبدأ فصلا جديدا من هناك.

قال تعالى:

- **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (4) سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5)**

السؤال: كيف تكون ليلة القدر خير من ألف شهر؟

جواب مفترى: ليلة القدر خير من ألف شهر شمسي (وليس قمري)

تبعات هذا الظن: نحن نفتري الظن بأن ليلة القدر لا تحدث إلا في الليلة الأولى بعد الألف شهر (أي ألف ليلة وليلة)

كيف يمكن تقديرها: بعد كل ألف شهر شمسي (أي ألف يوم وليلة معا) تأتي تلك الليلة المباركة التي هي خير من كل ما سبقها وذلك لأن أمور جليلة تحصل فيها على وجه التحديد.

إن الفكر الخيالي المزيف الذي نحاول الترويج له وهو لا شك مفترى من عند أنفسنا مفاده ما يلي: بعد كل ألف ليلة تحصل ليلة واحدة، هي الليلة التي تكون خير من الألف التي سبقتها جميعا. وذلك لسبب واحد وهو حصول أمر غاية في الأهمية في تلك الليلة على وجه التحديد لا يحصل إلا مرة واحدة بعد كل ألف ليلة.

السؤال: ما الذي يحصل في تلك الليلة حتى يجعلها خير من الألف ليلة السابقة لها؟

جواب مفترى: نحن نظن أنها الليلة التي يتدلى بها الإله نفسه:

- **وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (7) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (10) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (11) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (12) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (13) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (14) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (15) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (16) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (17) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (18)**

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: في تلك الليلة المباركة يدنو الإله نفسه ويتدلى حتى يكون قاب قوسين أو أدنى

السؤال: لماذا؟ أي لماذا يدنو الإله ويتدلى في تلك الليلة المباركة على وجه التحديد؟

جواب مفترى: لأنه في تلك الليلة المباركة يحصل أن يفرق فيها كل أمر حكيم:

- **حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (3) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (4) أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (5) رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (6)**

نتائج مفتراة

في تلك الليلة المباركة أنزل الكتاب المبين

في تلك الليلة المباركة يفرق كل أمر حكيم

في تلك الليلة المباركة يفرق كل أمر حكيم، أمرا من عند الله

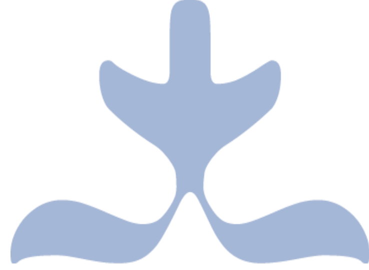
في تلك الليلة المباركة يصطفى الله رسله فيكونوا مرسلين

في تلك الليلة المباركة التي يصطفي الله (المرسل) رسله ليكون ذلك رحمة من ربك

السؤال: متى هي ليلة القدر؟ وهل تستطيع تحديدها؟

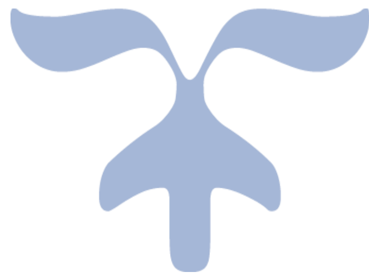
رأينا: هذا ما سنخوض فيه في الجزء القادم من هذه المقالة.

سائلين الله أن ينفذ مشيئته وإرادته لنا الإحاطة بشي من علمه لا ينبغي لغيرنا، إنه هو العليم الحكيم، وندعوه وأدعوه وحده أن يؤتيني رشدي، وأن يجعل لي من لدنه سلطانا نصيرا، وأعوذ به أن يكون أمري كأمر فرعون، إنه هو الواسع العليم – آمين.



قصة يونس

الجزء الثاني والعشرون



قصة يونس: الجزء الثاني والعشرون

خلص النقاش في الجزء السابق من هذه المقالة إلى افتراء الظن بأن الاصطفاء (والاجتباء) الإلهي لرسله جميعا قد حصل في تلك الليلة المباركة التي هي خير من ألف شهر. فالله (نحن نكاد نجزم الظن) قد أصفى نوحا وإبراهيم وموسى ومحمدا كرسل له إلى العالمين في تلك الليلة نفسها. كما نكاد نجزم الظن بأنه في تلك الليلة المباركة ولد المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته. انتهى.

السؤال: أين تم ذلك؟ كيف يتم ذلك؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نفتري الظن بأن هذا قد حدث في مكان محدد بعينه. فلو أمعنا التدبر في الكرة الأرضية لما وجدنا الليل يغطيها جميعا في آن واحد، ولا نجد أن النهار يكون مبصرا فيها جميعا في آن واحد. فعندما يكون الليل في منطقة الشرق الأوسط يكون الظلام قد حلّ قبل ذلك في أدنى الأرض (أي الشرق) ولكن النور لازال قائما في الغرب. ليكون السؤال الآن هو: أين هي تلك الليلة مادام أن الليل لا يحل إلا على بقعة محددة من الأرض في الوقت الواحد. فهل تبقى تلك الليلة المباركة تتنقل ما انتقل الليل إلى مكان ما؟ أي هل تكون في الشرق الأوسط في هذه الساعة حيث يكون الليل واقعا فيها ثم تنتقل مع الليل حتى تطوف أركان المعمورة جميعا؟ أم هل هي في مكان محدد على الأرض لا تنتقل إلى غيره حتى وإن انتقل إليه الليل؟

جواب مفترى: نحن نظن أن تلك الليلة تحصل في بقعة جغرافية محددة على الأرض ولا تنتقل إلى غيرها

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: بداية لابد لنا من فهم معنى مفردة "ليلة" الواردة في الآيات الخاصة بتلك الليلة على وجه التحديد، قال تعالى:

- **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (4) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5)**
- **حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (3) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (4)**

السؤال: ما الذي يمكن أن نفهمه من ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن مفردة ليلة الواردة في هذه الآيات الكريمة تدل على المفرد، فهي إذن ليلة واحدة، أليس كذلك؟

السؤال: ما الذي نستفيده من القول بأن مفردة ليلة الواردة في هذه الآيات الكريمة تدل على المفرد؟ وهل يخفى ذلك على أحد؟

رأينا: لو تدبرنا آيات الكتاب المبين الأخرى، لوجدنا بكل يسر وسهولة أن مفردة "الليلة" تجمع (نحن نظن) على "اليال":

- **قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (10)**

مفرد (ليلة)	جمع (ليال)
إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (3)	قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (10)

ثانيا، لو تدبرنا السياقات القرآنية التي وردت بها مفردة ليلة (وليال) لوجدنا أنها تترافق في كثير من السياقات القرآنية مع مفردة اليوم (وأيام):

- وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (18)
- سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (7)

نتيجة مفتراة 1: هناك ليلة واحدة (مفرد):

- أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (187)
- إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (3)
- إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3)

نتيجة مفتراة 2: هناك ليال (جمع):

- وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2)
- وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ (51)
- وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (142)

وبالمقابل هناك يوم:

- وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ (281)

وهناك أيام:

- وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (18)
- سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (7)

السؤال: ما معنى ذلك؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن اليوم والليلة يكملان بعضهما البعض لينتج عنهما الشهر الشمسي (أي فترة إشهار الشمس نفسها دورة كاملة – 24 ساعة)

ليلة	ليال
يوم	أيام
يوم + ليلة = شهر (24 ساعة)	

السؤال المربك: إذا كانت الليلة هي التي تكمل اليوم، فما هو الليل إذن؟ وكيف تختلف ليلة (وليال) عن الليل؟

رأينا المفترى: دعنا ندقق التفكر في الآيات الكريمة التالية أولا:

- وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (33)
- وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (17)
- وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (17)
- وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (4)
- وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4)
- وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1)
- وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2)

السؤال: ما الفرق بين "ليلة" (التي تجمع على ليال) والليل؟ وما جمع مفردة الليل؟

مفرد	جمع
ليلة: إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (3)	ليال
ليل: وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (17)	؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن مفردة "الليل" تختلف بشكل كبير عن مفردة الليلة، وأول هذه الاختلافات هي أن مفردة "الليل" تدل على المفرد والجمع معا، فالمفردة تستخدم بنفسها في حالة الحديث عن المفرد (أي ليل واحد) وعن الجمع (أي أكثر من ليل واحد)، قال تعالى:

- إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164)
- أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (187)
- الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (274)

- تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ (27)
- لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (113)
- إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ (190)
- وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (13)
- وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (60)
- فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (76)
- فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (96)
- إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (54)
- إِنَّ فِي اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ (6)
- وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (27)
- هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (67)
- قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (81)
- وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (114)
- وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (3)
- سَوَاء مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (10)
- وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (33)
- فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (65)
- وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (12)
- وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا (12)
- أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (78)
- وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا (79)
- فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ (130)
- يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (20)

- وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33)
- قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ (42)
- ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (61)
- وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (80)
- يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (44)
- وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (47)
- وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (62)
- أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (86)
- قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (71)
- وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (73)
- وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (23)
- أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (29)
- وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (33)
- يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (13)
- وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (37)
- لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40)
- وَبِاللَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (138)
- خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (5)
- أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (9)
- اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (61)
- وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (37)
- فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۩ (38)
- وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5)

- وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (40)
- كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17)
- وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (49)
- يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (6)
- قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2)
- إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (6)
- إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (20)

ثانيا، لو تدبرنا الآيات الكريمة السابقة جميعها لوجدنا أن مفردة الليل تأتي مصاحبة لمفردة النهار فقط:

مفرد	جمع
الليل: وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5)	؟
النهار: وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (37)	؟

ثالثا، كما أن مفردة الليل تستخدم للمفرد والجمع معا، فإن مفردة النهار (المصاحبة لها) تستخدم للمفرد والجمع أيضا:

مفرد	جمع
الليل: وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5)	الليل
النهار: وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (37)	النهار

لتكون النتيجة التي نريد أن نفتريها الآن هي أن الليل يكمله النهار، وأن النهار يكمله الليل، فيكملان بعضهما البعض ليكونا شهرا شمسيا (24 ساعة)

مفرد	جمع
ليل	ليل
نهار	نهار
ليل + نهار = شهر (24 ساعة)	

وبمقارنة ذلك ع ما افتريناه سابقا بخصوص الليلة واليوم كما في الجدول السابق الذي نعيده هنا لتوضيح الفكرة:

مفرد	جمع
ليلة	ليال
يوم	أيام
يوم + ليلة = شهر (24 ساعة)	

فإننا نظن (بناء على فهمنا لما جاء في هذه الآيات الكريمة) أن باستطاعتنا تقديم الافتراءات التالية التي هي لا شك من عن أنفسنا:

⇐ الليل هو ما يقابل النهار، فالليل يكمل النهار والنهار يكمل الليل، فتكون الدورة كاملة هي شهر شمسي (أي أربع وعشرين ساعة):

- **يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (6)**

⇐ تستخدم مفردة الليل كما تستخدم مفردة النهار" لتدل على المفرد والجمع، فالليل الواحد هو ليل وأكثر من ليل واحد هو ليل، وكذلك هو النهار، فالنهار الواحد هو نهار، وأكثر من نهار واحد هو أيضا نهار

⇐ أما الليلة فهي ما يقابلها اليوم ، فالليلة يكملها اليوم واليوم تكمله الليلة، فتكون الدورة معا هي شهر شمسي (أي أربع وعشرين ساعة):

- **سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (7)**

⇐ الليلة واحدة تجمع على ليالي

⇐ اليوم واحد يجمع على أيام

ليل (مفرد) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (65) ليل (جمع) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۩ (38)	نهار (مفرد) نهار (جمع)
ليلة (مفرد) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (3) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3) ليال (جمع) وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2)	يوم (مفرد) أيام (جمع)

باب الليلة واليوم مقابل باب الليل والنهار

الجزء الأول: الليلة واليوم

لما كنا نعتقد جازمين أن اليوم لا يبدأ ولا ينتهي مع الشمس، وذلك لأن اليوم هو الوقت الذي نصوم فيه:

- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (183) أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (184)

ومن فاته يوم من رمضان فعليه أن يقضيه في يوم آخر:

- شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185)

فإن الليلة لا تحدد بالشمس أيضا.

نتيجة مفتراة مهمة جدا: لا يتحدد اليوم والليلة بطلوع وغياب الشمس وإنما يحددان بطلوع الفجر، فما أن يطلع الفجر حتى تنقضي الليلة ويبدأ اليوم (وقت الصيام)

نتيجة مهمة جدا: يبدأ اليوم مع طلوع الفجر وليس مع طلوع الشمس، وهنا تكون ليلة الصيام قد انقضت، فلا يصح بعدها الأكل والشرب والرفث إلى النساء حتى إتمام الصيام إلى الليل:

- أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (187)

نتيجة مهمة: لا ينتهي اليوم مع غياب الشمس وإنما بعد ذلك بوقت قصير، وهو حتى يتم الصيام إلى الليل.

نتيجة خطيرة جدا جدا: نحن نظن أنه لا يجوز للصائم أن يفطر مع غياب الشمس مباشرة، ولكن عليه أن يتم الصيام إلى الليل، أي يجب أن ينتظر وقتا قليلا حتى يبدأ الليل يمد غشاوته:

- وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1)

ولا يجب الانتظار كثيرا بعد ذلك لأن الليل يكون حينها قد سجى:

- وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2)

نتيجة مهمة: وقت إفطار الصائم هو الوقت الذي يقع بعد مد الليل غشاوته ولكن قبل أن ينشر سجاه

الجزء الثاني: الليل والنهار

في حين أن الليلة واليوم لا يحددان بطلوع وغياب الشمس، فإننا نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الشمس هي التي تحدد لنا الليل والنهار، فما أن تطلع الشمس حتى يكون النهار مبصرا، وما أن تغيب حتى يبدأ الليل، فتكون الشمس بذلك هي الدليل على تعاقب الليل والنهار، فالنهار يبدأ مع طلوع الشمس وينتهي مع غيابها. عندما تطلع الشمس يكون الصبح قد تنفس:

- **وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (18)**

وعندما تغيب يحل الليل وقد عسعس:

- **وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (17)**

خروج عن النص في استراحة قصيرة: باب المجاز والحقيقة

غالبا ما اقتبس أهل العلم هذا المثال للتدليل على ضرورة تفسير بعض الآيات القرآنية تفسيرا مجازيا، ومراد قولهم هو كيف يمكن أن نفهم على الحقيقة أن الصبح فعلا يتنفس، أليس ذلك قولا مجازيا؟

رأينا: لما كنا نرد التفسيرات المجازية كلية، ولا نقبل بها في النص القرآني لظننا أن كلام الله حقيقي لا يمكن أن يكون فيه شيء من الباطل (الكذب)، فإننا ندين للطرف المقابل بتفسير كيفية تنفس الصبح أو عسعسة الليل مثلا.

السؤال: كيف يمكن تفسير ذلك على الحقيقة؟

رأينا: بداية نحن نظن أن التقابل واضح في الآيتين الكريمتين:

- **وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (17) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (18)**

فالليل هو ما يقابله الصبح وكلاهما يحددان بظهور الشمس وغيابها، فمتى ظهرت الشمس حلّ الصباح ومتى غابت بدأ الليل، أليس كذلك؟

ثانيا، نحن نظن أن العسعسة (وهو ما يقوم به الليل) يقابلها التنفس (وهو ما يقوم به الصبح)، لذا فإن العسعسة هي – برأينا- العملية العكسية للتنفس. فإذا ما استطعنا أن نفهم واحدة استطعنا أن نفهم الأخرى لأنها الصورة المقابلة لها (أي mirror image باللسان الأعجمي).

السؤال: ما هي العسعسة؟ أو ما هو التنفس؟

رأينا: غالبا ما ظن الناس أن التنفس هو عملية الشهيق والزفير التي يقوم به الإنسان لاستنشاق الهواء وإخراجه من جسمه بعد ذلك. فالإنسان يأخذ الهواء من الجو ويحجزه في رئتيه بعضا من الوقت ثم يقوم بنفثه في الهواء من جديد وهكذا. لكن هل فعلا هذه هي عملية التنفس؟ هل هي عملية ميكانيكية بحت؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا، فالعملية ليست فقط عملية ميكانيكية ولكنها أيضا عملية كيميائية، فعندما يقوم الإنسان باستنشاق الهواء فهو يبحث فيه عن غاز الأكسجين على وجه التحديد وعندما يحجزه في رئتيه بعضا من الوقت فإنه يقوم بتحويل جزء كبير منه إلى غاز ثاني أكسيد الكربون، لذا فعملية التنفس هي عملية تحويل الهواء من حالة غازية (أكسجين) إلى حالة غازية أخرى (ثاني أكسيد الكربون)، أليس كذلك؟

والآن تصور معي عزيزي القارئ لو أنك وجدت في جو يخلو من غاز الأكسجين وحاولت أن تتنفس، فما الذي سيحصل لك؟ ألن تشعر بالاختناق؟ هل تستطيع أن تصبر على ذلك وقتا طويلا؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا. وذلك لأن نقص غاز الأكسجين سيجعلك تشعر بالضيق ووجوده بعد ذلك سيجعلك تشعر بالانفراج، أليس كذلك؟

نتيجة مهمة جدا جدا: نقص غاز الأكسجين في الجو يجعل البيئة المحيطة بيئة مشجعة على التثبيط والضيق كما في التصوير القرآني التالي:

- **فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ (125)**

ولكن ازدياد غاز الأكسجين يجعل البيئة المحيطة مشجعة على الراحة والانفراج، أليس كذلك؟

والآن ما الذي يحدث في الجو في فترة ظهور الشمس (الصبح) وغيابها (الليل)؟

جواب مفترى: ألم نتعلم في الصف الخامس ابتدائي (ب) بأن عملية التمثيل الضوئي تحدث مرتين في اليوم: مرة في الضوء عندما تشرق الشمس ثم تنقلب في الليل عندما تغيب الشمس. فما الذي يحصل في كل مرة؟

جواب مفترى: ألا تصبح النباتات تأخذ ثاني أكسيد الكربون عندما تشرق الشمس وتبعث بدلا منه غاز الأكسجين، فتزداد كمية الأكسجين في الجو، فيشعر الإنسان بالارتياح، أليست تلك إذن عملية تحول كيميائي للغاز الموجود في الجو، فيتحول من ثاني أكسيد الكربون إلى أكسجين مما يؤدي إلى الشعور بالارتياح؟ ألم تخرج عزيزي القارئ مرة من بيتك إلى شرفة المنزل في الصباح البكر لتستنشق الهواء فتشعر بالراحة والنظافة في الجو قبل أن يلحق به التلوث فيما بعد. أليس ذلك هو تنفس الصبح:

- **وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (18)**

والآن ما الذي يحصل عند مغيب الشمس، ألا تبدأ النباتات بعملية معاكسة تماما: تبدأ تأخذ الأكسجين وتنفث بدلا منه ثاني أكسيد الكربون في الجو: ألا يبدأ الأكسجين بالتناقص من الجو الخارجي حتى يشعر الإنسان بالكتمان وضيق الصدر: ماذا لوجدت نفسك في مكان معتم تماما؟ ألا تشعر بالضيق والحرج؟ وماذا لو كنت محاطا في ذلك المكان المعتم بالنباتات؟ ألن تنافسك على كمية الأكسجين المتوافرة من حولكم؟ ألم تكن النصيحة العلمية أن لا تنام في مكان معتم محكم الإغلاق مع النباتات؟ ألن يؤدي بك ذلك إلى الاختناق أو على الأقل صعوبة التنفس؟ أليست تلك إذن هي عسعسة الليل؟

- **وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (17)**

من يدري؟!!!

عودة على بدء: الليل والنهار

- وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (17)) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (18)

لما كانت الشمس هي المحددة لليل والنهار، كان الاختلاف في الليل والنهار حاصلا:

- إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164)
- إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ (190)
- إِنَّ فِي اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ (6)
- وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (80)
- وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاء مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5)

فطول فترة النهار وطول فترة الليل ليست واحدة على مدار السنة كلها، فالنهار والليل لا يتقاسمان الشهر الشمسي مناصفة ثابتة (12 ساعة مقابل 12 ساعة لكل منهما على الدوام). فالنهار في أيام الصيف – لا جدال- أطول من الليل، ولكن الصورة تنعكس تماما في أيام الشتاء، وهي (لا شك) تتدرج بين ذلك، فيتناقص النهار كلما اقتربنا من الشتاء ويزداد كلما اقتربنا من الصيف، والعكس صحيح بالنسبة لليل، فهو يزداد كلما اقتربنا من ذروة فصل الشتاء (21 كانون أول) ويتناقص كلما اقتربا من ذروة فصل الصيف (21 حزيران)، ولا شك أن هذه واحدة من آيات الله الكونية.

السؤال: لماذا كان في اختلاف الليل والنهار آية؟

جواب مفترى: نحن نظن أن لذلك علاقة مباشرة بالرزق الذي ينزل من السماء. فالرزق الذي ينزل من السماء مرتبط بهذا الاختلاف ارتباطا مباشرا. فلولا هذا الاختلاف لما وجدنا (نحن نفتري الظن) تنوعا في الطعام، ففاكهة الصيف تختلف عن فاكهة الشتاء، وما يُنزل لنا ربنا من رزق من السماء قد لا ينضج إلا في الخريف أو الربيع وهكذا، فحياة الأرض الدائمة في جميع الفصول مرتبطة بهذا الاختلاف بين الليل والنهار:

- وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاء مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5)

وهذا الاختلاف هو واحدة من آيات الله لمن يسمع:

- هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (67)

ولمن يبصر:

- أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (86)

ولمن يشكر:

- اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (61)

(دعاء: اللهم أدعوك بأن أكون من الذين يسمعون ويؤمنون فيشكرون – آمين)

باب: قيام الليل

- يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2) نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (4)

لو دققت - عزيزي القارئ- في هذه الآيات الكريمة جيدا لوجدت العجب، فالله يأمرنا أن نقوم الليل إلا قليلا، أليس كذلك؟

- قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2)

ألا يدل ذلك أنه مطلوب منا إذن أن نقضي معظم الليل في قيام؟

وإذا كان هذا الظن صحيحا، فكيف يأتي قول الحق بعد ذلك يأمرنا بأن نقوم نصفه أو ننقص منه قليلا؟

- نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3)

أو نزيد عليه ونرتل القرآن ترتيلا؟

- أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (4)

التساؤلات

⇐ كم مطلوب منا أن نقوم الليل؟
⇐ هل مطلوب منا أن نقوم الليل كله إلا قليلا؟
⇐ هل مطلوب منا أن نقوم نصفه؟
⇐ هل مطلوب منا أن ننقص من نصفه قليلا؟
⇐ هل مطلوب منا أن نزيد على نصفه؟
⇐ كم مطلوب منا أن نزيد على نصفه؟
⇐ الخ

ألا ترى - عزيزي القارئ- كم الأمر مربك بالنسبة لمن يريد أن يمتثل لأمر الله هذا؟ فكيف يمكن لمن أراد أن يقوم الليل أن يفهم هذه الآيات الكريمة معا؟

جواب: دعنا نرى أولا ما جاء في بطون أمهات كتب التفسير (كتفسير القرطبي مثلا) حول هذه الجزئية في كتاب الله:

قم الليل

قراءة العامة بكسر الميم لالتقاء الساكنين . وقرأ أبو السمال بضم الميم إتباعا لضمة القاف . وحكى الفتح لخفته . قال عثمان بن جني : الغرض بهذه الحركة التبليغ بها هربا من التقاء الساكنين , فبأي حركة تحركت فقد وقع الغرض . وهو من الأفعال القاصرة غير المتعدية إلى مفعول , فأما ظرف الزمان والمكان فسائغ فيه , إلا أن ظرف المكان لا يتعدى إليه إلا بواسطة ; لا تقول : قمت الدار حتى تقول قمت وسط الدار وخارج الدار . وقد قيل : إن " قم " هنا معناه صل ; عبر به عنه واستعير له حتى صار عرفا بكثرة الاستعمال .

" الليل " حد الليل : من غروب الشمس إلى طلوع الفجر . وقد تقدم بيانه في سورة " البقرة "

واختلف : هل كان قيامه فرضا وحتما , أو كان ندبا وحضا ؟ والدلائل تقوي أن قيامه كان حتما وفرضا ; وذلك أن الندب والحض لا يقع على بعض الليل دون بعض ; لأن قيامه ليس مخصوصا به وقتا دون وقت . وأيضا فقد جاء التوقيت بذلك عن عائشة وغيرها على ما يأتي . واختلف أيضا : هل كان فرضا على النبي صلى الله عليه وسلم وحده , أو عليه وعلى من كان قبله من الأنبياء , أو عليه وعلى أمته ؟ ثلاثة أقوال :

الأول : قول سعيد بن جبير لتوجه الخطاب إليه خاصة .

الثاني : قول ابن عباس , قال : كان قيام الليل فريضة على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى الأنبياء قبله .

الثالث : قول عائشة وابن عباس أيضا وهو الصحيح ; كما في صحيح مسلم عن زرارة بن أوفى أن سعد بن هشام بن عامر أراد أن يغزو في سبيل الله . .. الحديث , وفيه : فقلت لعائشة : أنبئيني عن قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : ألست تقرأ : " يا أيها المزمل " قلت : بلى ! قالت فإن الله عز وجل افترض قيام الليل في أول هذه السورة , فقام صلى الله عليه وسلم وأصحابه حولا , وأمسك الله عز وجل خاتمتها اثني عشر شهرا في السماء , حتى أنزل الله عز وجل في آخر هذه السورة التخفيف , فصار قيام الليل تطوعا بعد فريضة . وذكر الحديث .

وذكر وكيع ويعلى قالا : حدثنا مسعر عن سماك الحنفي قال : سمعت ابن عباس يقول لما أنزل أول " يا أيها المزمل " [المزمل : 1] كانوا يقومون نحوا من قيامهم في شهر رمضان حتى نزل آخرها , وكان بين أولها وآخرها نحو من سنة .

وقال سعيد بن جبير : مكث النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عشر سنين يقومون الليل , فنزل بعد عشر سنين : " إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل " [المزمل : 20] فخفف الله عنهم .

إلا قليلا

استثناء من الليل , أي صل الليل كله إلا يسيرا منه ; لأن قيام جميعه على الدوام غير ممكن , فاستثنى منه القليل لراحة الجسد . والقليل من الشيء ما دون النصف ; فحكي عن وهب بن منبه أنه قال : القليل ما دون المعشار والسدس . وقال الكلبي ومقاتل : الثلث

فكان ذلك تخفيفا إذ لم يكن زمان القيام محدودا , فقام الناس حتى ورمت أقدامهم , ثم نسخ ذلك بقوله تعالى : " علم أن لن تحصوه " [المزمل : 20] .

وقال الأخفش : " نصفه " أي أو نصفه ; يقال : أعطه درهما درهمين ثلاثة : يريد : أو درهمين أو ثلاثة .

وقال الزجاج : " نصفه " بدل من الليل و " إلا قليلا " استثناء من النصف . والضمير في " منه " و " عليه " للنصف . المعنى : قم نصف الليل أو انقص من النصف قليلا إلى الثلث أو زد عليه قليلا إلى الثلثين ; فكأنه قال : قم ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه .

وقيل : إن " نصفه " بدل من قوله : " قليلا " وكان مخيرا بين ثلاث : بين قيام النصف بتمامه , وبين الناقص منه , وبين قيام الزائد عليه ; كأن تقدير الكلام : قم الليل إلا نصفه , أو أقل من نصفه , أو أكثر من نصفه .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ينزل الله عز وجل إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يمضي ثلث الليل الأول , فيقول أنا الملك أنا الملك من ذا الذي يدعوني فأستجيب له من ذا الذي يسألني فأعطيه من ذا الذي يستغفرني فأغفر له , فلا يزال كذلك حتى يضيء الفجر) . ونحوه عن أبي هريرة وأبي سعيد جميعا وهو يدل على ترغيب قيام ثلثي الليل .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا مضى شطر الليل - أو ثلثاه - ينزل الله . ..) الحديث . رواه من طريقين عن أبي هريرة هكذا على الشك .

وقد جاء في كتاب النسائي عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله عز وجل يمهل حتى يمضي شطر الليل الأول , ثم يأمر مناديا يقول : هل من داع يستجاب له ؟ هل من مستغفر يغفر له ؟ هل من سائل يعطى ؟) صححه أبو محمد عبد الحق ; فبين هذا الحديث مع صحته معنى النزول , وأن ذلك يكون عند نصف الليل . وخرج ابن ماجه من حديث ابن شهاب , عن أبي سلمة وأبي عبد الله الأغر , عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ينزل ربنا تبارك وتعالى حين يبقى ثلث الليل الآخر كل ليلة فيقول من يسألني فأعطيه ؟ من يدعوني فأستجيب له ؟ من يستغفرني فأغفر له ؟ حتى يطلع الفجر) . فكانوا يستحبون صلاة آخر الليل على أوله .

قال علماؤنا : وبهذا الترتيب انتظم الحديث والقرآن , فإنهما يبصران من مشكاة واحدة . وفي الموطأ وغيره من حديث ابن عباس : بت عند خالتي ميمونة حتى إذا انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل , استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم , فقام إلى شن معلق فتوضأ وضوءا خفيفا . وذكر الحديث .

اختلف العلماء في الناسخ للأمر بقيام الليل ; فعن ابن عباس وعائشة أن الناسخ للأمر بقيام الليل قوله تعالى : " إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل " [المزمل : 20] إلى آخر السورة . وقيل قوله تعالى : " علم أن لن تحصوه " [المزمل : 20] .

وعن ابن عباس أيضا : هو منسوخ بقوله تعالى : " علم أن سيكون منكم مرضى " [المزمل : 20] .

وعن عائشة أيضا والشافعي ومقاتل وابن كيسان : هو منسوخ بالصلوات الخمس .

وقيل الناسخ لذلك قوله تعالى : " فاقرءوا ما تيسر منه " [المزمل : 20] . قال أبو عبد الرحمن السلمي : لما نزلت : " يا أيها المزمل " قاموا حتى ورمت أقدامهم وسوقهم , ثم نزل قوله تعالى : " فاقرءوا ما تيسر منه " [المزمل : 20] .

قال بعض العلماء : وهو فرض نسخ به فرض , كان على النبي صلى الله عليه وسلم خاصة لفضله ; كما قال تعالى : " ومن الليل فتهجد به نافلة لك " [الإسراء : 79] .

قلت : القول الأول يعم جميع هذه الأقوال , وقد قال تعالى : " وأقيموا الصلاة " [المزمل : 20] فدخل فيها قول من قال إن الناسخ الصلوات الخمس .

وقد ذهب الحسن وابن سيرين إلى أن صلاة الليل فريضة على كل مسلم ولو على قدر حلب شاة . وعن الحسن أيضا أنه قال في هذه الآية : الحمد لله تطوع بعد الفريضة . وهو الصحيح إن شاء الله تعالى ; لما جاء في قيامه من الترغيب والفضل في القرآن والسنة .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كنت أجعل للنبي صلى الله عليه وسلم حصيرا يصلي عليه من الليل , فتسامع الناس به , فلما رأى جماعتهم كره ذلك , وخشي أن يكتب عليهم قيام الليل , فدخل البيت كالمغضب , فجعلوا يتنحنحون ويتفلون فخرج إليهم فقال : (أيها الناس اكلفوا من الأعمال ما تطيقون , فإن الله لا يمل من الثواب , حتى تملوا من العمل , وإن خير العمل أدومه وإن قل) . فنزلت : " يا أيها المزمل " فكتب عليهم , فأنزل بمنزلة الفريضة , حتى إن كان أحدهم ليربط الحبل فيتعلق به , فمكثوا ثمانية أشهر , فرحمهم الله وأنزل : " إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل " [المزمل : 20] فردهم الله إلى الفريضة , ووضع عنهم قيام الليل إلا ما تطوعوا به . قلت : حديث عائشة هذا ذكره الثعلبي , ومعناه ثابت في الصحيح إلى قوله : (وإن قل) وباقيه يدل على أن قوله تعالى : " يا أيها المزمل " نزل بالمدينة وأنهم مكثوا ثمانية أشهر يقومون . وقد تقدم عنها في صحيح مسلم : حولا . وحكى الماوردي عنها قولا ثالثا وهو ستة عشر شهرا , لم يذكر غيره عنها .

وذكر عن ابن عباس أنه كان بين أول المزمل وآخرها سنة ; قال : فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كان فرضا عليه .

وفي نسخة عنه قولان : أحدهما أنه كان فرضه عليه إلى أن قبضه الله تعالى . الثاني أنه نسخ عنه كما نسخ عن أمته . وفي مدة فرضه إلى أن نسخ قولان : أحدهما : المدة المفروضة على أمته في القولين الماضيين , يريد قول ابن عباس حولا , وقول عائشة ستة عشر شهرا . الثاني : أنها عشر سنين إلى أن خفف عنه بالنسخ زيادة في التكليف , ليميزه بفعل الرسالة ; قاله ابن جبير . قلت : هذا خلاف ما ذكره الثعلبي عن سعيد بن جبير حسب ما تقدم فتأمله .

وسيأتي لهذه المسألة زيادة بيان في آخر السورة إن شاء الله تعالى .

أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا

أي لا تعجل بقراءة القرآن بل اقرأه في مهل وبيان مع تدبر المعاني . وقال الضحاك : اقرأه حرفا حرفا .

وقال مجاهد : أحب الناس في القراءة إلى الله أعقلهم عنه .

والترتيل التنضيد والتنسيق وحسن النظام ; ومنه ثغر رتل ورتل , بكسر العين وفتحها : إذا كان حسن التنضيد . وتقدم بيانه في مقدمة الكتاب .

وروى الحسن أن النبي صلى الله عليه وسلم , مر برجل يقرأ آية ويبكي , فقال : (ألم تسمعوا إلى قول الله عز وجل : " ورتل القرآن ترتيلا " هذا الترتيل) . وسمع علقمة رجلا يقرأ قراءة حسنة فقال : لقد رتل القرآن , فداه أبي وأمي , وقال أبو بكر بن طاهر : تدبر في لطائف خطابه , وطالب نفسك بالقيام بأحكامه , وقلبك بفهم معانيه , وسرك بالإقبال عليه .

وروى عبد الله بن عمرو قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (يؤتى بقارئ القرآن يوم القيامة , فيوقف في أول درج الجنة ويقال له اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا , فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها) خرجه أبو داود وقد تقدم في أول الكتاب .

وروى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يمد صوته بالقراءة مدا

رأينا المفترى: بعد استعراض آراء العلماء كما وصلتنا في هذا التفسير العظيم، فإننا لا نتردد أن نرفضها كلها جملة لأنها – برأينا- لا تعدو أكثر من أقوال بشرية متناقضة لا تستند إلى دليل ولا تفضي إلى الحقيقة بشيء،

فهناك الرأي وضده في آن واحد، وهناك الناسخ والمنسوخ الذي لا نؤمن به إطلاقا، وهناك أقوال البشر التي لا دليل عليها من كتاب الله. وهناك، وهناك.

السؤال: ما المخرج؟ كيف يمكن أن نفهم قوله تعالى

- **يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2) نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (4)**

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن فهم هذا النص القرآني ميسرا لمن أراد أن يدّكر، فالله وحده نسأل أن نكون من المدّكرين اللذين يسر الله لهم هذا القرآن للذكر.

أما بعد،

جواب مفترى: بداية نحن نطلب من القارئ الكريم أن يتبنى وجهة نظرنا السابقة بخصوص مفردة "الليل" والتي مفادها أن مفردة "الليل" تدل على المفرد والجمع معا ثم ليرى بأم عينه ما يمكن أن تؤول إليه الأمور بعد ذلك.

مفرد	جمع
الليل: نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (4)	الليل: يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2)

السؤال: كيف يمكن أن يساهم ذلك في فهم هذا النص القرآني؟

جواب: دعنا نظن بداية أن مفردة الليل تدل على الجمع (أي كل ليل وليس فقط ليل واحد)، ثم لنقرأ الآية الكريمة التالية:

- **يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2)**

نتيجة مفتراة 1: فالله إذن يطلب من نبيه الكريم (ومنا من بعده) أن نقوم كل الليل إلا قليلا، فلو افترضنا أن الشهر القمري يتأرجح حول الثلاثين يوما وليلة، فإنه مطلوب منا (نحن نفتري الظن) أن نقوم معظمه (قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا)، كأن نقوم ما يقرب من الثلثين (أي حوالي عشرين يوما وليلة)، فنكون بذلك قد قمنا الليل كله إلا قليلا منه، ولنبدأ بقراءة الآيات الكريمة بهذا الفهم المفترى:

- **يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2)**

نتيجة مفتراة 2: دعنا الآن نتدبر مفردة الليل في صيغة المفرد (أي ليل واحد)، فما الذي نفعله عندما نقوم الليل الواحد؟

جواب: نحن نظن أن علينا أن نفعل ما أمرنا الله به في الآيات الكريمة التالية:

- **نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (4)**

فقيام الليل في ليل واحد يكون (نحن لازلنا نفتري الظن) عند منتصف الليل بالضبط. ويجوز لنا أن ننقص من ذلك فقط قليلا، ولكن يحق لنا أن نزيد على ذلك ما نريد، فالنقصان مشروط بالقليل (نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا) ولكن الزيادة غير مشروطة (أَوْ زِدْ عَلَيْهِ). فلو افترضنا مثلا بأن نصف الليل هو في أغلب الأحيان الساعة الثانية عشر ليلا، فإن صلاة قيام الليل لا تكون قبل ذلك إلا بالقليل أي حوالي الحادية عشر ليلا مثلا ولكن يجوز أن تمتد بعد نصف الليل إلى ما تشاء شريطة عدم انقضاء الليل، أي بداية الفجر.

تلخيص ما سبق: نحن نظن أن الصورة (كما نفهمها) هي الآن على النحو التالي: يأمرنا الله أن نقوم الليل (كل الليل) إلا قليلا (قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا)، فيصبح المسلم مطالبا بقيام معظم الليل، كأن يقوم مثلا خمسة ليال من سبعة في الأسبوع الواحد أو أن يقوم عشرين ليلة من الثلاثين ليلة في الشهر الواحد، وهكذا. وربما بهذا الفهم المفترى يبين لنا معنى (قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2)). ثم يجب على من أراد أن يقوم الليل الواحد أن يتبين وقت القيام فيه، أي في أي ساعة من الليل تقع الصلاة ضمن تصنيف قيام الليل، ونحن نظن أن الصلاة في الليل لا تقع في قائمة قيام الليل إلا إذا ما كانت مقاربة لنصف الليل، ولا يجوز تقديم ذلك عن نصف الليل إلا قليلا، فإذا كان نصف الليل هو الساعة الثانية عشر ليلا فإن وقت القيام يكون حول ذلك ولا يقل مثلا عن الحادية عشر، وبهذا يبين لنا كيف أن النقصان منه مشروط بالقليل (نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3))، ولكن يحق لنا – بالمقابل- أن نؤخر القيام عن نصف الليل ما نشاء شريطة عدم ظهور الفجر، وبهذا يبين لنا كيف أن الزيادة غير مشروطة بالقليل (أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (4)).

نتيجة مفتراة: ونحن إذ لا نتجرأ على القول بأن هذه هي الحقيقة المطلقة، لكننا نقدم هنا فهمنا المفترى من عند أنفسنا لهذه للآيات الكريمة التي تتحدث عن قيام الليل، فإننا في الوقت ذاته نترك للقارئ الكريم مهمة المفاضلة (ومن ثم التطبيق العملي) بين تخريصاتنا هذه وما جاء من علم نفيس في بطون أمهات كتب التفاسير كالتفسير السابق الذي اقتبسنا منه أقوال سادتنا العلماء أهل الدراية كما نقله لنا أهل الرواية منهم:

- **قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (25) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (26)**

(دعاء: اللهم افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت الفتاح العليم – آمين)

إن خلاصة القول هنا هو أن هذا الفهم المفترى من عند أنفسنا مبني في الأساس على تدبرنا للفرق بين مفردة الليلة التي تجمع على ليال (والتي يصاحبها مفردة اليوم في النص القرآني) مقابل مفردة الليل التي تجمع على نفسها (ويصاحبها مفردة النهار في معظم سياقاتها القرآنية):

المفردة		المفردة المصاحبة	
مفرد	جمع	مفرد	جمع
الليلة: إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (3)	ليال	اليوم	أيام
الليل: يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (4)	الليل:	النهار	النهار

عودة على بدء

نحن نظن أن الليلة التي هي خير من ألف شهر هي ليلة وليس الليل. لذا فهي محددة بذاتها، تحصل في وقت محدد معروف وفي مكان محدد بذاته، وليست مرتبطة بظهور وغياب الشمس لذا فهي سلام حتى مطلع الفجر:

- **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (4) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5)**

وليس حتى ظهور الشمس عندما يتنفس الصبح:

- **وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (18)**

ونحن نفتري الظن أيضا بأنها محددة مكانيا، فمن الاستحالة بمكان (نحن نرى) أن تبقى تلك الليلة تتنقل من مكان إلى مكان ما انتقل الليل والنهار. فالذي ينتقل من مكان إلى مكان هو الليل لأنه مرتبط بالشمس التي هي دليل على الظل في نهاره:

- **أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (45) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (46) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (47)**

فالارتباط مباشر بين الشمس من جهة والليل والنهار من جهة أخرى، ولكن لا علاقة للشمس بالليلة واليوم.

السؤال: أين تحصل تلك الليلة على وجه هذه المعمورة إن كانت لا تنتقل من مكان إلى مكان كما تزعم؟ يسأل صاحبنا مستعجلا الإجابة

رأينا المفترى: مادام أنه في تلك الليلة يحدث التنزل كما جاء في قوله تعالى:

- **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (4) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5)**

فإن ذلك لا شك يحدث في مكان محدد بعينه، ولا شك أنها سلام حتى مطلع الفجر في ذلك المكان بعينه.

السؤال: أين هو ذلك المكان؟ يكرر صاحبنا السؤال نفسه

جواب مفترى: نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأنه المكان نفسه الذي حصل فيه تنزيل الكتاب المبين من ذي قبل:

- **حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (3) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (4) أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (5) رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (6)**

السؤال: وأين هو ذلك المكان؟

جواب مفترى: إنه المكان نفسه الذي وجد فيه موسى ربه، إنه الواد المقدس طوى:

- **وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (9) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (10) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي يَا مُوسَى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12)**

السؤال: وأين هو الواد المقدس طوى؟ يريد صاحبنا أن يعرف

رأينا المفترى: إنه الواد الواقع تحت شاطئ الواد الأيمن من البقعة المباركة من الشجرة حيث حصلت المناداة الإلهية لنبيه موسى هناك:

- **فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (30)**

السؤال: وأين هو ذلك المكان؟ يكرر صاحبنا السؤال من جديد

جواب مفترى: إنه المكان الذي تقع فوقه الربوة حيث آوى الله المسيح وأمه بعد أن وضعته عن الشجرة:

- **وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (50)**

السؤال: وأين هو ذلك المكان؟ لم أصل إلى الإجابة بعد (يقول صاحبنا)

جواب مفترى: إنه المكان الذي يقع تحت تلك الربوة حيث كان متواجدا من تولى حراسة مريم (السري) في تلك الليلة:

- **فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (24)**

السؤال: وأين هو ذلك المكان؟

جواب: إنه الوادي الذي يطل عليه المسجد الأقصى حيث المكان الذي أسري بمحمد إليه:

- **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ (1)**

السؤال: لماذا ذلك المكان بالذات؟

جواب: لأن ذلك المكان هو المكان الوحيد الذي يتواجد به إله إبراهيم:

- **قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (97) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (98) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (99)**

وهو المكان نفسه الذي واعد الله فيه موسى، فجاءه موسى متعجلا:

- **وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى (83) قَالَ هُمْ أُولَاء عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (84)**

وهو المكان الذي اتخذته مريم لتضع كلمة الله (المسيح) على مقربة منه:

- **فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (22) فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (23) فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (24)**

وهو المكان الذي أسري بمحمد إلى جواره ليره ربه من آياته:

- **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ (1)**

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: لأنه المكان الذي يتدلى فيه الإله نفسه في تلك الليلة المباركة:

- وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (7) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (10) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (11) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (12) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (13) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (14) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (15) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (16) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (17) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (18)

فلذلك المكان قدسيته الخاصة:

- فَلَمَّا جَاءهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (8) يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9)

كما لتلك الليلة قدسيتها الخاصة:

- حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (3) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (4) أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (5) رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (6) رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (7) لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (8) بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (9)

(دعاء: اللهم أسألك أن أكون من الموقنين، وأعوذ بك أن أكون من اللذين هم في شك يلعبون- آمين)

نتيجة مفتراة خطيرة جدا جدا لا تصدقوها: ذلك هو المكان الذي يمكن أن نطلع إلى الإله فيه:

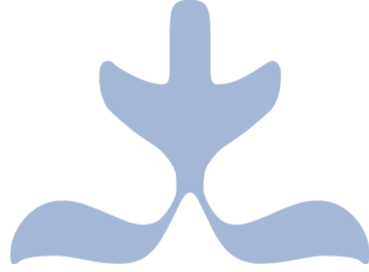
- وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37)

نعم، من هناك من أرض مصر، طلب ربها (فرعون) من هامان أن يبني له صرحا، ليبلغ أسباب السموات والأرض فيطلع إلى إله موسى المتواجد في الأرض المقدسة

السؤال: هل تمكن فرعون من ذلك؟ أي هل فعلا استطاع أن يطلع إلى إله موسى؟

رأينا: هذا ما سنعاود البحث فيه في الجزء القادم من هذه المقالة بحول الله وتوفيق منه.

سائلين الله أن ينفذ مشيئته وإرادته لنا الإحاطة بشي من علمه لا ينبغي لغيرنا، إنه هو العليم الحكيم، وأدعوه وحده أن يؤتيني رشدي، وأن يجعل لي من لدنه سلطانا نصيرا، وأعوذ به أن يكون أمري كأمر فرعون. وأعوذ بك ربي أن افتري عليك الكذب أو أن أقول عليك ما ليس لي بحق، إنك أنت الواسع العليم – آمين.



قصة يونس

الجزء الثالث والعشرون



قصة يونس: الجزء الثالث والعشرون

- وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)
- وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37)

كان الافتراء الأكبر الذي حاولنا تسويقه في الجزء السابق من هذه المقالة هو التالي: في مكان محدد على الأرض وفي ليلة محددة بذاتها تبدأ مراسم تلك الليلة التي هي خير من ألف شهر. وزعمنا الظن بأن البقعة المباركة من الشجرة في الواد المقدس طوى التي تقع بجانب الطور الذي يقع حول المسجد الأقصى هو ذلك المكان الذي تحصل فيه الليلة التي هي خير من ألف شهر. وفي تلك البقعة تحدث الليلة مرة واحدة بعد كل ألف شهر شمسي (أي يوم وليلة معا)، وفي ذلك الوقت بالذات يُفرق كلُّ أمر حكيم:

- حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (3) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (4)

ونحن نكاد نجزم الظن بأن لتلك الليلة "طقوسها" الخاصة بها، التي تجعلها مميزة عن بقية الليالي الألف التي سبقتها.

السؤال: ما هي تلك الطقوس إن صح ما تزعم؟ يسأل صاحبنا مستغربا.

جواب مفترى 1: في تلك الليلة تنزّل الملائكة

جواب مفترى 2: في تلك الليلة تنزل والروح

جواب مفترى 3: تكون تلك الليلة كلها سلام حتى مطلع الفجر:

- إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (4) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5)

دعنا نحاول مناقشة هذه الافتراءات تباعا.

أولا، باب تنزل الملائكة

لنبدأ بتنزّل الملائكة أولا، طارحين التساؤل التالي: لماذا تنزل الملائكة في تلك الليلة؟

جواب مفترى: نحن نظن أن تنزل الملائكة لا يكون إلا بالحق. فعندما طلب الكافرون من الرسول الكريم أن يأتيهم بالملائكة كدليل على صدق رسالته:

- وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (6) لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (7)

جاء الرد الإلهي القاطع بأن تنزل الملائكة لا يكون إلا بالحق:

- مَا نُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَا كَانُواْ إِذًا مُّنظَرِينَ (8) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ(9)

السؤال: ومتى يمكن أن تنزل الملائكة إذا؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الآية الكريمة التالية تجيب (كما نفهمها) على هذا التساؤل، قال تعالى:

- وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاء بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا (25)

نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا: هناك يوم تشقق السماء بالغمام (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاء بِالْغَمَامِ)، ويصاحب ذلك تنزل الملائكة تنزيلا (وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا)

السؤال: لماذا تنزل الملائكة تنزيلا يوم تشقق السماء بالغمام؟

جواب مفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن تشقق الغمام هو العلامة الكبرى التي تدل على أن الإله قد أتى بنفسه:

- **هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الامُورُ (210)**

أي يتدلى الإله بنفسه حتى يكون قاب قوسين أو أدنى:

- **ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9)**

السؤال: لماذا؟ وكيف؟ أي لماذا يكون تشقق الغمام مصاحبا لتدلي الإله نفسه؟ وكيف يكون ذلك؟

رأينا: لو تدبرنا الآية الكريمة نفسها، لوجدنا (نحن نفتري القول) بأن الغمام مصاحب للذات الإلهية فقط ولا يكون الغمام مصاحبا للملائكة بدليل الفصل الواضح بينهما. انظر الآية الكريمة مرة أخرى:

- **هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الامُورُ (210)**

فلو كان الغمام مصاحبا للذات الإلهية وللملائكة معا لجاء النص القرآني (نحن نفتري القول) على النحو التالي:

- **هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله والملائكة في ظلل من الغمام...**

ولكن لمّا كان الغمام خاصا بالذات الإلهي وجب (نحن نفتري القول) الفصل على نحو (هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ) ثم جاء ذلك متبوعا بقوله تعالى (وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الامُورُ)

السؤال: لماذا يكون الإله نفسه في ظلل من الغمام (أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ)؟

جواب مفترى: تحدثنا في مقالات سابقة لنا عن هذه الجزئية، ورفضنا جملة وتفصيلا منطق أهل اللغة الذي يقول بأن حرف الجر "في" يعني الدخول في المكان، كقولنا مثلا:

زيد في الدار

لتعني أن زيدا موجود داخل الدار، فلو كان هذا المفهوم صحيحا لجاز لنا أن نقول بأن الإله موجود داخل ظلل من الغمام عند قراءتنا للآية الكريمة قيد التدبر:

- **هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الامُورُ (210)**

السؤال: هل الله فعلا موجود داخل ظلل من الغمام؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا. فالله ليس موجود داخل شيء، لأنه لو كان الأمر كذلك لأصبح هناك ما يمكن أن يحيط به، وهو القائل بأنه هو المحيط بكل شيء:

- **وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا (126)**
- **أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاء رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ (54)**

السؤال: كيف نفهم أن الله هو من أحاط بكل شيء (إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ) وفي الوقت ذاته أنه سيأتي في ظلل من الغمام (أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ)؟

رأينا المفترى: نحن لا نتردد في مخالفة أهل اللغة في تقديم افتراء جديد (هو من عن أنفسنا) مفاده أن حرف الجر "في" لا يحمل في ثناياه الدخول في الشيء وإنما يدل على معنى الخفاء فقط. فعندما نقول مثلا:

زيد في الدار

فهذا يعني (نحن نفهم القول) أن الدار هي ما تحجز رؤيتنا لزيد في تلك اللحظة. فلو حاولت أن تنظر إلى زيد في تلك اللحظة لن تستطيع رؤيته مادام أنه في الدار. وليس أدل على ذلك من قولنا

زيد يقف على الشباك

فبالرغم أن زيداً موجود داخل الدار في تلك اللحظة إلا أننا لا نقول أنه في الدار. فعندما نقول بأن زيدا يقف على الشباك وهو موجود داخل الدار، فإن عنصر الخفاء قد انتهى مادام أن رؤية الشخص أصبحت ممكنه حتى رغم وجوده داخل الدار. فما عاد زيد بالنسبة لنا في الدار لأن رؤيته أصبحت ممكنة مادام أنه يقف على الشباك. ولو جاءك شخص وقال لك بأن ابنتك تقف على الشباك لربما رجعت غاضبا إلى الدار لتعرف سبب وقوفها على الشباك وذلك لأن رؤيتها من قبل المارة أصبحت ممكنة، فما عادت إذن في الدار. ولكن بالمقابل لو قال لك ذاك الشخص نفسه بأن ابنتك في الدار لربما لم يسبب ذلك لك (كعربي حمش) حرجا لأنك تعرف أن عنصر الخفاء واضح في القول (في الدار).

(للتفصيل: انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان: معنى حرف الجر على في العربية)

إن ما يهمنا افتراءه هنا هو القول بأن الآية الكريمة قد التدبر:

- **هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الامُورُ (210)**

تبيّن لنا (كما نفهمها بالطبع) بأن الغمام هو الذي يمنع الرؤيا المباشرة للإله، ولا يدل ذلك على أن الإله موجود داخل الغمام إطلاقا. وبكلمات أخرى نحن نفتري القول بأن عبارة (أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ) تدلنا على أن الغمام يشكل حاجزا لنا يمنعنا من رؤية الإله لمن أراد ذلك. وليس أدل على ذلك من طلب موسى نفسه:

- **وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ...**

فحتى يستطيع موسى أن يرى الله، فلابد من أن ينكشف ذلك الغمام (أي الحاجز) الذي يمنع الرؤيا البشرية المباشرة للإله، وهذا – برأينا- هو التجلي (أي انكشاف الغمام لتحصل الرؤيا المباشرة)، لذا طلب الله من موسى أن ينظر إلى الجبل حتى يلبي له طلبه ذلك. وانظر (إن شئت) تتمة الآية الكريمة السابقة:

- **... قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (143)**

السؤال: ما الذي حدث عندما تجلى الله للجبل؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الغمام الذي يمنع الرؤيا البشرية للإله قد بدا يتشقق، وهذا ما نفهمه من معنى التجلي.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: عندما يتشقق الغمام الذي يمنع الرؤيا البشرية المباشرة للإله فإن ذلك يسمى تجلي الإله

- **وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاء بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا (25)**
- **إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ (1) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (2)**

خروج عن النص في استراحة قصيرة: تَجَلَّى الإله

غالبا ما يردد أهل العلم على مسامع الناس كلمات جميلة في اللّحن (ربما غير مفهومة المعنى عند السامع والمتكلم)، فتطرب لها آذانهم وإن لم تعقلها قلوبهم، فيظن الكثيرون منهم أنها فعلا من الدين. ولكنهم قد لا يعوون تبعات ما يقولون لأنهم ببساطة ربما لا يفهمونها كما يجب أن تفهم. ولتبسيط الفكرة دعنا نقدم ما يقوله بعض الخطباء على المنابر عن هذه المفردة (أي مفردة تَجَلَّى ومشتقاتها). ففي خطب الجمعة وفي أيام وليالي رمضان المبارك وفي أشهر الحج (خاصة يوم الحج الأكبر)، يردد الخطباء عبارات رنانة كالعبارات التالية:

⇐ هذا يوم يتجلى الله فيه على عباده

⇐ في هذه الساعة يتجلى الله على العالمين

⇐ في هذه المناسبة يتجلى الله على المؤمنين

⇐ الخ.

ولا أخفيك عزيزي القارئ سرا إن قلت بأن الخوف الشديد (وربما الذعر) ينتابني كلما أسمع مثل هذه العبارات من سادتنا أهل العلم، ولا أخفيك سرا أنني كنت في بعض الأحيان أحاول أن لا أنظر حولي، وكم حاولت أن أضع يداي على وجهي مغمضا عيناي على الفور حتى لا أرى ما يحدث حولي. فهل تدري - عزيزي القارئ- لم كانت هذه ردة فعلي عندما أسمع قولهم بأن الإله يتجلى عليهم؟

جواب: لأني كنت أستذكر على الفور تجلي الإله للجبل وما حصل له، قال تعالى:

- **... فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا...**

فكانت مخيلتي تدور حول ذلك المشهد الذي تصوره هذه الآية الكريمة، مرددا في نفسي القول: إذا كان الجبل قد جعله الله دكا عندما تجلى له، وإذا كان موسى قد خر صعقا وهو لا ينظر إلى التجلي الإلهي مباشرة، فما الذي سيحصل لنا لو أن الله فعلا قد تجلى لنا في هذه الساعة (كما يردد هذا الخطيب المفوّه الذي ربما هو - في ظني – لا يعي ما يقول عندما يكون واقفا على المنبر ممسكا بالميكرفون يصيح بأعلى صوته في الجموع الكبيرة من تحته).

السؤال: أما آن لهؤلاء "الببغاوات" أن يتدبروا للحظة ما يخرج من أفواههم من كلمات ربما لا يدركون خطورة مدلولاتها. من يدري؟!!!

عودة على بدء

نتيجة مفتراة مهمة جدا (1): نحن نظن أن التجلي الإلهي يحدث عندما يتشقق الغمام.
نتيجة مفتراة مهمة جدا (2): نحن نظن أن هذا التشقق للغمام يصاحبه تنزل الملائكة تنزيلا

- **وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاء بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا (25)**

السؤال: لكن هل هذا التشقق للغمام يحدث فعلا في تلك الليلة؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا. فلو حصل أن تشققت السماء بالغمام لصاحب ذلك حدوث الصاعقة كما حصل مع موسى الذي خر صعقا:

- ... فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا...

وكما حصل مع النفر من بني إسرائيل اللذين طلبوا الرؤيا المباشرة للإله:

- وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (55)

(للتفصيل أنظر الأجزاء السابقة من هذه المقالة)

ونحن نظن أن تشقق السماء بالغمام كلّيا لن يحدث إلا مرة واحدة، وهو يوم الحساب

- إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ (1) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (2) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (3) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (4) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (5) يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (6) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (7) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (8) وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (9) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ (10) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (11) وَيَصْلَى سَعِيرًا (12)

السؤال: ما الذي يحدث إذن في تلك الليلة المباركة؟

جواب مفترى: يدنو الإله ويتدلى دون أن يتشقق الغمام:

- وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (7) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (10)

نتائج مفتراة:

يكون الإله في الأفق الأعلى

يدنو الإله فيتدلى

يكون الإله قاب قوسين أو أدنى

في تلك الحالة يحدث الوحي من الله إلى عباده المرسلين كنوح وإبراهيم وموسى ومحمد الخ.

ثانيا: باب تنزل الروح

لا تتوقف علامات تلك الليلة المباركة على تنزل الملائكة فقط وإنما يحصل أيضا تنزل الروح فيها.

وانظر – إن شئت- في الآيات الكريمة مرة أخرى:

- إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (4) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5)

السؤال: ما الروح؟

لو تدبرنا ما حصل في قصة خلق المسيح عيسى بن مريم لوجدنا أن الروح كان حاضرا، فالله هو من أرسله إلى مريم:

- فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (17)

وما أن وجدته مريم في مكان خلوتها حتى استعاذت بالله منه لأنه كان تقيا (أي لا تستطيع الأبصار أن تراه رأي العين إلا بإذن الله):

- قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (18)

(للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا: كيف تم خلق عيسى بن مريم؟)

فما كان جوابه أكثر مما جاء في قوله تعالى مكملا السياق القرآني نفسه:

- قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (19)

نتيجة مفتراة: يمكن أن يتواجد الروح فعليا في تلك الليلة المباركة.

السؤال: من هو الروح الذي سيتواجد في تلك اللحظة؟

رأينا المفترى: إنه روح القدس

- وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (101) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (102)

ولو دققنا في السياقات القرآنية الخاصة بروح القدس لوجدناها مصاحبة على الدوام لعيسى بن مريم:

- وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ (87)
- تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (253)
- إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِىءُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (110)

السؤال: ما الذي يمكن أن نستنبطه من ذلك؟

رأينا المفترى والخطير جدا جدا: روح القدس هو الروح الذي ينزل في تلك البقعة المحددة من الأرض (أي القدس)

السؤال: لماذا؟

رأينا: لأنه هو الموكل بتنزيل الكتاب:

- وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (101) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (102)

فالكتاب الذي في اللوح المحفوظ مكتوب باللغة الإلهية (ألم، المر، حم، عس، عسق، ن، ق، كهيعص، طس، طسم) هو – نحن نفتري القول من عند أنفسنا- في يد روح القدس، الذي ينزل بالكتاب في تلك الليلة إلى تلك البقعة المباركة من الشجرة في الواد المقدس طوى.

السؤال: ماذا عن الروح الأمين؟

جواب مفترى: الروح الأمين هو الذي يتولى نقل آيات الكتاب بلغته الإلهية ليلقي به على قلب الرسول:

- وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (195) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (196)

والروح الأمين (نحن نفتري القول من عند أنفسنا – هو الموكل بقراءته على محمد شيئا فشيئا:

- لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18)

حتى يتم فرقه كله:

- وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (105) وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً (106)

نتائج مفتراة مهمة جدا

في تلك الليلة تنزل الملائكة تنزيلا

في تلك الليلة ينزل روح القدس بالكتاب المبين

في تلك الليلة يتولى الروح الأمين تنزيله على قلب الرسول

إن هذا المنطق المفترى من عند أنفسنا يجبرنا على طرح التساؤل التالي: ما الروح؟

رأينا: غالبا ما خلط الناس المفردات بعضها ببعض دون تمحيص يبين لنا الفروقات التي ترشدنا إلى المعاني الحقيقة المقصودة من وراء استخدام تلك الألفاظ في السياقات القرآنية العديدة، فقلما نجد مثلا تميزا بين الروح والروح الأمين وروح القدس وروحنا. فهناك الروح:

- وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (85)
- تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (4)

وهناك الروح الأمين:

- نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193)

وهناك روح القدس الذي أيد الله به المسيح عيسى بن مريم والذي نزل بالكتاب:

- قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (102)
- وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ (87)
- تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا

جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (253)

- **إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِىءُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (110)**

وهناك روحنا الذي أرسل إلى مريم فتمثل لها بشرا سويا:

- **فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (17)**
- **وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (91)**
- **وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (12)**

وهناك روحي الذي نفخ في آدم:

- **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ (29)**
- **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (72)**

ليكون السؤال: ما الذي يمكن أن نستنبطه من هذا التنوع اللفظي الذي لا شك يصاحبه اختلاف في المعنى؟

رأينا: بداية نحن نظن أن مفردة الروح تدل على المفرد (روح واحد) والجمع (أكثر من روح) في آن واحد. فالمفردة هي مفردة جامدة لا يشتق منها المفرد والجمع بلفظين وإنما يستخدم المفرد والجمع بنفس اللفظ، فهي كلمة غير معدودة (uncount بالمفردات الأجنبية). ولتبسيط الفكرة دعنا نقدم المثال التالي: لو أنت استخدمت مفردة ككلمة بندورة وملوخية وهواء، الخ لوجدت أنها تستخدم على صيغة واحدة ولا يمكن اشتقاق صيغة للمفرد وأخرى للجمع منها، ولكن لو أنت أخذت مفردة ككلمة تفاح أو برتقال أو ليمون لوجدت أنها تستخدم على لفظين مفرد وجمع كما في الشكل التالي:

الكلمة	مفرد	المثنى	جمع
التفاح **البرتقال** **الليمون** **الخ**	تفاحة برتقالة ليمونة	تفاحتان برتقالتان ليمونتان	تفاح برتقال ليمون
البندورة (طماطم) **الملوخية** **الهواء**	؟ ؟ ؟	؟ ؟ ؟	؟ ؟ ؟

السؤال: لماذا؟ أي لماذا لا نستطيع اشتقاق المفرد والمثنى والجمع من الكلمات في الجزء الأخير من الجدول السابق (بندورة، ملوخية، هواء، الخ)؟

جواب: لأن هذه مفردات جامدة لا يمكن اشتقاق العدد منها؟

السؤال: كيف يمكن أن نستخدمها في حالة المفرد أو المثنى أو في حالة الجمع؟

جواب: نحن نستخدم المفردة نفسها في حالة المفرد والمثنى والجمع بالاستعانة بمفردة أخرى هي التي تغير شكلها. فنحن نقول مثلا حبة بندورة وحبتان بندورة وثلاث حبات بندورة، وكيلو بندورة وثلاث كيلو بندورة، وصندوق بندورة وعشرة صناديق بندورة، وسيارة بندورة وأربع سيارات بندورة، ومزرعة بندورة ومزارع بندورة، وهكذا.

ولكننا نقول بالمقابل تفاحة تفاحتان ثلاث تفاحات عشر تفاحات دون الحاجة للاستعانة بمفردات أخرى لتدل على العدد، وهكذا. فكلمة التفاح تقبل أن تغير شكلها بنفسها في الإفراد (تفاحة واحدة) والتثنية (تفاحتان) والجمع (ثلاث تفاحات)، فتغيرت الكلمة بذاتها بناء على العدد، بينما نجد بالمقابل أن كلمة البندورة لا تقبل أن تغير شكلها، فتتخذ الشكل نفسه في حالة الإفراد (حبة بندورة واحدة) والتثنية (حبتان بندورة) والجمع (ثلاث حبات بندورة)، ولو دققت عزيزي القارئ جيدا لوجدت أنه في هذه الحالة استعانت كلمة البندورة بمفردة (حبة، حبتان، حبات، وهكذا) لتساعدها في تبيان العدد.

السؤال: ما علاقة ذلك بمفردة الروح؟

جواب مفترى: نحن نظن أن مفردة الروح من الناحية العددية هي كمفردة البندورة، فهي كلمة جامدة لا يمكن اشتقاق العدد منها بذاتها، لذا فهي تستخدم بذاتها لتدل على روح واحدة (الروح) وأكثر من روح واحدة (الروح). فيصبح الجدول السابق على النحو التالي:

الكلمة	مفرد	المثنى	جمع
التفاح البرتقال الليمون الخ	تفاحة برتقالة ليمونة	تفاحتان برتقالتان ليمونتان	تفاح برتقال ليمون
البندورة (طماطم) الملوخية الهواء الروح	؟ ؟ ؟ ؟	؟ ؟ ؟ ؟	؟ ؟ ؟ ؟

السؤال: ما تبعات هذا الظن؟

جواب مفترى: عندما يأتي الحديث عن الروح لابد إذن من فهم ماهية الروح. فيبدأ طرح التساؤل على النحو التالي:

- **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (85)**

عندها يجب – نحن نفتري القول- أن نركز على ماهية الروح، طارحين التساؤل التالي: هل هي روح واحدة؟ أم هل هي أكثر من روح واحدة؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: هي روح واحدة وهي أكثر من روح واحدة في الوقت ذاته.

السؤال: كيف يكون ذلك؟

جواب مفترى: لاشك أن الله نفسه روح واحدة وهي التي نفحها بنفسه في آدم:

- **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ (29)**

ولكن بالوقت ذاته لاشك أن الروح التي أرسلها الله إلى مريم لم تكن روحه وحده بل كانت متعددة بدليل أنها (رُوحَنَا):

- **فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (17)**
- **وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (91)**
- **وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (12)**

السؤال: كيف يكون ذلك؟ هل أرسل الله إلى مريم أكثر من روح؟

جواب: كلا، بل هي روح واحدة، ولكنها لم تكن روح الله وحده ولكنها روح الله وروح غير الله اجتمعت جميعا لتشكل روح واحدة هي التي أرسلت إلى مريم:

- **فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (17)**

السؤال: لم أفهم ما تقول، كيف يمكن تبسيط الفكرة بطريقة يمكن استيعابها دون فلسفة زايدة؟

جواب: يجب أن تكون لديك القدرة عزيزي القارئ على أن تتخيل أن الروح هي كينونة واحدة قابلة أن تجزئ نفسها إلى كينونات أصغر منها، فهي بالنهاية كتلة واحدة يمكن أن تتجزأ إلى كتل أقل منها في الحجم، ويمكن أن تتجمع معا مرة أخرى لتشكل في النهاية كتلة واحدة. فالكتلة الواحدة التي تجتمع فيها كل الكتل المنقسمة منها هي روح الله نفسه:

- **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ (29)**

وهي التي تعرج إلى الله في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة:

- **تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (4)**

ولكن تلك الكتلة الهائلة النهائية هي التي تنقسم منها كتل أقل في الحجم فتشكل الروح (الجمع)، فينتج عنها روح القدس:

- **قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (102)**
- **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ (87)**
- **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (253)**
- **إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِىءُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (110)**

وينتج عنها الروح الأمين:

- وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (195) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (196)

وهكذا.

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: لأن الروح هي "القوة" المنفذة للقول الإلهي. فإذا أراد الله أن ينفذ قوله بشيء، فإن المسئول عن تنفيذ الأمر الإلهي هو الروح (ككتلة واحدة)، قال تعالى:

- وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (85)

فما يكون من تلك الروح إلا أن تتجزأ، فبتزل بعضا على من يشاء من عباده:

- أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (1) يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُواْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاتَّقُونِ (2)
- رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (15)

ويأتي بعضها كوحي للرسل:

- وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (52)

ولكنها تتجمع كلها في النهاية لتشكل الروح (الكتلة الكلية) التي ستقوم والملائكة لرب العالمين.

- يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (38)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا مهمة جدا: الروح قابلة على أن تتمثل (أي التشكل) بكليتها أو بأجزائها، وليس أدل على ذلك من أنها تمثلت لمريم بشرا سويا:

- فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (17)

وعملية تمثل الروح (أي تشكلها) سهلة جدا بدليل أنه تتم بالنفخ:

- وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ

فروحنا التي تمثلت لمريم بشرا شويا انفصل شيء منها (بالنفخ) ودخل فرج مريم حتى أصبح المسيح روح من الله:

- يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً (171)

نتيجة مفتراة: المسيح ابن مريم هو كلمة الله وروح منه

وهذه الروح يمكن أن يؤيد الله بها من يشاء من عباده كما في قوله تعالى:

- لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (22)

نتيجة مفتراة: لا يمكن لبشر غير المسيح عيسى ابن مريم أن يكون كلمة الله وروح منه لكن يمكن أن يؤيدنا الله بروح منه.

(دعاء: اللهم أسألك أن أكون من عبادك المؤمنين الذين تؤيدهم بروح منك، إنك أنت السميع البصير – آمين)

عودة على بدء

دعنا نعود إلى صلب الموضوع بالنتيجة المفتراة من عند أنفسنا التالية: هناك الملائكة وهناك الروح، وجميعها تتنزل في تلك الليلة المباركة التي هي خير من ألف شهر:

- **لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (4)**

وفي تلك الليلة المباركة يفرق كل أمر حكيم:

- **حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (3) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (4) أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (5) رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (6)**

السؤال: ما نتيجة تنزل الملائكة والروح في تلك الليلة التي يفرق فيها كل أمر حكيم؟

جواب مفترى: عندما يتنزل الملائكة والروح فعليا في تلك الليلة تكون هي سلاما، فيستمر ذلك السلام حتى مطلع الفجر:

- **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (4) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5)**

السؤال: كيف تكون تلك الليلة سلاما؟

جواب مفترى: نحن نظن أن السلام يأتي من السماء، أي من الله نفسه:

- **قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (48)**

فلو راقبنا مفردات هذه الآية بدقة لوجدنا أن السلام فقط مرتبط بالإله نفسه. فالله يأمر نوح بالهبوط يحفه السلام من الله مباشرة (اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا). ولكنه لم يقل (اهبط بسلام وبركات منا) أو(اهبط بسلام منا وبركات منا). فارتبط السلام هنا بالإله فقط.

ولو دققنا في الخطاب الذي جرى بين الملائكة (رسل ربنا) من جهة وإبراهيم من جهة أخرى في زيارتهم التاريخية له ولأهل بيته لوجدناه على النحو التالي:

- وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (69)
- إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (52)
- إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (25)

السؤال: إذا كان خطاب الملائكة إبراهيم كان مبدوء بالسلام، فأين البركات؟

جواب مفترى: نحن نظن أن البركات قد جاءت في الآية الكريمة التالية التي تتحدث عن أهل بيت إبراهيم:

- قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (73)

نتيجة مفتراة 1: السلام جاء على جميع الحاضرين بمن فيهم إبراهيم نفسه : وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلاَمًا

نتيجة مفتراة: الرحمة والبركات جاءت خاصة بأهل البيت (ويستثنى من ذلك إبراهيم نفسه): رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ

(للتفصيل حول هذه الجزئية انظر سلسلة مقالاتنا: لماذا قدم نبي اله لوط بناته بدلا من ضيوفه؟)

نتيجة مفتراة: تصبح تلك الليلة سلاما حتى مطلع الفجر وتكون تلك الليلة مباركة.

السؤال: لماذا هي ليلة مباركة؟

جواب مفترى: لأن البركات تأتي من السماء ومن الأرض

- وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (96)
- قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَركَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (48)
- قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (73)

إن هذا التصور المفترى من عند أنفسنا يعيدنا على الفور إلى طرح جملة من الافتراءات الخاصة بطقوس تلك الليلة المميزة التي هي خير من ألف شهر، ففي تلك الليلة تكون الطقوس (كما نتخيلها) على النحو التالي:

⇐ ما أن تنقضي فترة الألف شهر حتى تبدأ مراسم تلك الليلة الأولى بعد مغيب شمس ذلك اليوم الذي ينهي الألف شهر كاملة لتبدأ "حكاية" ألف شهر جديدة

⇐ تبدأ المراسم بتنزل الملائكة فيها ويتنزل الروح فيها بإذن ربهم من كل أمر

⇐ يدنو الإله بنفسه

⇐ يتدلى الإله حتى يكون قاب قوسين أو أدنى
⇐ يأتي الإله في ظلل من الغمام التي تحجز الرؤيا البشرية المباشرة له
⇐ يعم السلام المطلق عندما يأتي الإله بنفسه تلك الليلة حتى مطلع الفجر
⇐ تبدأ طقوس "الفرقان" حيث يفرق في تلك الليلة كل أمر حكيم
⇐ يستمر السلام ليعم تلك الليلة حتى مطلع الفجر
⇐ تكون تلك الليلة قد حظيت بالمباركة الإلهية المباشرة
⇐ الخ

السؤال: هل يمكن أن نشهد تلك الليلة؟

جواب مفترى: نعم يمكن أن يشهد الواحد منا طقوس تلك الليلة المباركة بنفسه، وليس أدل على ذلك مما حصل مع موسى نفسه عندما جاء على قدر في تلك الليلة المباركة:

- **فَلَمَّا جَاءهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (8) يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9)**

وليس أدل من ذلك أيضا مما حصل مع محمد نفسه:

- **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ (1)**

السؤال: كيف يمكن مراقبة تلك الليلة؟

جواب مفترى: لابد من تقدير تلك الليلة، كما لابد من معرفة علامات تلك الليلة.

السؤال: وما هي علامات تلك الليلة؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا أن من أهم علامات تلك الليلة هو ذلك النجم الذي يهوي فيها:

- **وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (16)**

فذاك هو نجم الهداية لمن أرادها. فالذي يطلب تلك الهداية لابد أن يراقب ذلك النجم الذي يهوي في تلك الليلة كعلامة أولى على بداية مراسيم تنزل الملائكة والروح ومن ثم تدلي الإله بنفسه.

السؤال: كيف يمكن أن نقدر تلك الليلة حتى نستطيع أن نرى ذلك النجم يهوي ومن ثم الظفر بالجائزة الكبرى؟

جواب: لابد من أن نقدرها تقديرا كما فعل موسى. فالله هو من شهد أن موسى قد جاء على قدر:

- **... فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (40)**

السؤال: ما معنى أن موسى قد جاء على قدر؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن مجيء موسى إلى ذلك المكان قد حصل في تلك الليلة المباركة (أي ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر)

السؤال: كيف علم موسى ذلك. أي كيف استطاع موسى أن يقدرها؟

جواب مفترى: لنبدأ القصة من أولها. فنحن نعلم جميعا أن موسى قد خرج هاربا من المدينة، فتوجه تلقاء مدين، سائلا ربه أن يهديه سواء السبيل:

- **وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ (22)**

ولما وصل ماء مدين وجد هناك امرأتين تذودان:

- وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23)

فسقى لهما موسى ثم تولى إلى الظل، وهناك دعا الله أن يرزقه:

- فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24)

فجاءته أحداهما، تخبره دعوه أبيها له إلى بيته، وهناك قصص عليه القصص:

- فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (25)

فطلبت تلك المرأة من أبيها (بطريقة غير مباشرة) أن يزوجها موسى:

- قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (26)

وبالفعل أنكح ذلك الرجل الصالح موسى ابنته تلك لقاء أن يأجره:

- قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (27)

نتيجة مفتراة: كان على موسى أن يمكث في مدين أحد الأجلين:
(على أقل تقدير) ثمانية حجج أو
(على أكبر تقدير) عشرة حجج

السؤال: أي الأجلين قضى موسى؟

جواب مفترى: لمّا كان الطالب هو رجل من الصالحين (شعيب)، فهو من كان خطابه:

- وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (27)

ولمّا كان المطلوب منه هو موسى الذي كان خطابه:

- قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (28)

فإن الظن أميل عندنا إلى أن موسى قد قضى الأجل الثاني وهو عشرة حجج:

- فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29)

السؤال: لماذا؟

جواب: للإجابة على هذا التساؤل كان لابد أن نطرح التساؤلات التالية التي نظن أنها ذات صلة بالموضوع:

⇐ لماذا آثر موسى أن يترك الرجل؟

⇐ إلى أين سار موسى بأهله؟

⇐ متى قفل موسى عائدا بأهله؟

⇐ الخ.

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن موسى لم يترك مدين كرها بأهلها، ولم يكن ليتركها جراء ظلم وقع عليه فيها، ولكنه تركها لغاية عظيمة في نفسه.

السؤال: ما غاية موسى في مغادرة مدين بعد أن قضى الأجل؟

جواب مفترى خطير جدا: نحن نفتري القول بأنه لما قضى موسى الأجل في مدين، سار بأهله متجها إلى الأرض المقدسة باحثا عن ربه فيها، ليجد الهداية هناك، كما فعل إبراهيم من قبل. فالله هو من أخرج إبراهيم من النار:

- **قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69)**

ولكن بالرغم من ذلك، كان خطاب إبراهيم وهو خارج من النار على النحو التالي:

- **وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (99)**

فكانت نجاته إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين:

- **وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (71)**

نتيجة مفتراة: ما أن خرج إبراهيم من النار حتى كانت وجهته إلى ربه ليهديه.

السؤال: أين كان إبراهيم ذاهبا؟ أليس ربه هو من أنجاه من النار؟ فأين هو رب إبراهيم الذي كان إبراهيم سيذهب إليه بعد خروجه من النار مباشرة؟

جواب مفترى خطير جدا: نحن نفتري القول بأن إبراهيم كان يعلم جيدا المكان الذي سيجد فيه ربه بذاته.

السؤال: وأين هو ذلك المكان؟

جواب مفترى: إنه المكان نفسه الذي توجه إليه موسى عندما سار بأهله تاركا مدين وراءه؟

نتيجة مفتراة: نحن نفتري القول بأن موسى كان أيضا يعلم جيدا المكان الذي يجد فيه ربه، فتوجه إليه مع أهله. وما أن وصل إلى مقربة من ذلك المكان حتى حصلت العلامة الكبرى التي تدل على أن موسى قد وجد فعلا ما كان يبحث عنه طيلة حياته: إنه ذلك النجم الذي هوى، فالنجم الذي هو عندما جاء محمد إلى سدرة المنتهى التي عنها جنة المأوى:

- **وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (7) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9)**

هو النجم نفسه الذي هوى عندما أنس موسى نارا من جانب الطور:

- **إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (10) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (11)**

نتيجة مفتراة (1): ما أن يهوي ذلك النار حتى تشتعل تلك النار المقدسة

نتيجة مفتراة (2): في تلك الليلة المباركة يهوي ذلك النجم، فتشتعل تلك النار المقدسة، فتكون إذانا بأن الإله قد دنا فتدلى بنفسه، فذلك النجم هو نجم الهداية (الذي يهتدي به نفر قليل جدا من عباد الله الصالحين):

- **وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (16)**

وما أن يهوي ذلك النجم حتى تشتعل النار المقدسة، فهي التي آنسها موسى بنفسه:

- **وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (9) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (10) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي يَا مُوسَى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12)**
- **إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (7) فَلَمَّا جَاءهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (8) يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9)**
- **فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (30)**

السؤال: كيف استطاع موسى أن يأنس تلك النار؟

جواب مفترى: لما كان موسى قد جاء على قدر، فهو إذا كان يقدّر تلك الليلة، أي يعلم اللغة الرياضية التي تمكنه من إجراء الحسابات (أو التقدير بكلمات أكثر دقة) كي يظفر بتلك الليلة:

- **إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (40)**

مادام أن موسى قد آنس من جانب الطور نارا، فتلك النار لم تكن مكشوفة للآخرين حتى أهل موسى أنفسهم، بدليل أنها لو كانت كذلك لجاء النص القرآني على نحو أن موسى قد رأى نار يمكن للآخرين أن يروها بأم أعينهم.

- **إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (10)**

لتكون النتائج على النحو التالي:
كان موسى هو من رأى نارا
لم يرى أهل موسى تلك النار
آنس موسى تلك النار
لم يأنس أهله تلك النار
أراد موسى أن يذهب إلى تلك النار لوحده
لم يذهب أهل موسى معه
كان هناك احتمالان أن تكون تلك النار نارا عادية (كغيرها) فيأتيهم منها بقبس
أو أن تكون تلك هي النار المقدسة فيجد عليها هدى
الخ

السؤال: ما الذي حصل فعلا؟

جواب مفترى: ما أن وصل موسى تلك النار حتى تبين له أنها هي فعلا النار المقدسة التي أشعلها ذلك النجم (أي نجم الهداية):

- **إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (10) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (11)**

فطلب الله من موسى أن يخلع نعليه على الفور قبل أن يتقدم خطوة واحدة إلى الأمام:

- **إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12)**

وذلك لأنّ البركات قد نزلت هناك بالضبط:

- **فَلَمَّا جَاءهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (8)**

(للتفصيل حول هذه الجزئية انظر سلسلة مقالاتنا: قصة موسى)

السؤال: من أين جاء لموسى العلم بتلك الليلة؟ وكيف علم طقوسها؟ وكيف علم سرها؟

جواب مفترى خطير جدا: لما كانت تلك الليلة (نحن نفتري القول من عند أنفسنا) تحدث كل ألف شهر منذ أن خلق الله الأرض، كان العلم بها متوافرا في الأمم التي سبقت. فاستفاد منها من كان باحثا عن الهداية (كإبراهيم وموسى ومحمد) وخسرها من ظن أنه يهتدي بنفسه (كفرعون مثلا). لذا كان خبر تلك الليلة ومكان حصولها وطقوسها معلومة من ذي قبل.

السؤال: من كان يعلم سر تلك الليلة؟

جواب مفترى: لعلي أكاد أجزم الظن أن اللذين عرفوا سر تلك الليلة هم جميع الأمم السابقة التي نزلت بهم الحاقة، قال تعالى:

- **الْحَاقَّةُ (1) مَا الْحَاقَّةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (3) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (4) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (5) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (7) فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ (8) وَجَاء فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (9) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً (10)**

وهم

⇐ عاد (كقوم)

⇐ ثمود (كقوم)

⇐ وفرعون (كشخص)

فالمتدبر لهذا السياق القرآني العظيم يجد على الفور أن هناك قومان من أقوام الرسل السابقين قد نزلت بهم الحاقة وهم ثمود وعاد من قبلهم:

- **كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (4)**

وكانت الحاقة التي نزلت بثمود على النحو التالي:

- **فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (5)**

وكانت الحاقة التي نزلت بعاد على النحو التالي:

- **وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (7)**

ولو تدبرنا السياق أكثر لوجدنا أن فرعون قد حاق به ما حاق بهم. فالترابط بين هذه الأقوام السابقة (كأقوام) وفرعون (كشخص) هو ترابط لا تكاد تنفك عراة:

- وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (4) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (5) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (9) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (13)

السؤال: لماذا هذا الترابط العجيب بين هؤلاء الثلاثة (عاد وثمود وفرعون) على وجه التحديد؟

رأينا المفترى: لأنهم هم الذين عصوا الرسول، والآن لنقرأ النص بدقة أكبر:

- الْحَاقَّةُ (1) مَا الْحَاقَّةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (3) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (4) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (5) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (7) فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ (8) وَجَاء فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (9) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً (10)

السؤال: كيف تكون معصية الرسول؟ أليست المعصية هي معصية الله نفسه؟ ما الفرق بين أن تعصي الله أو أن تعصي الرسول؟

- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (6)

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن من أبسط معاني المعصية هو أنك لا تتبع ما أمرت به. فالذي يعصي الله هو الذي لا يتبع (أو يخالف) الأمر الإلهي له كما فعل آدم من قبل:

- فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (121)

فبالرغم من الأمر الإلهي الذي صدر لآدم وزوجه بأن لا يقربا الشجرة، إلا أنهما آثرا نصيحة الشيطان لهما، راغبين عن الأمر الإلهي الذي سبق، فكان في ذلك معصية لربهما.

السؤال: كيف تكون معصية الرسول:

- وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (59)

جواب مفترى: نحن نظن أن معصية الرسول تكون بعدم الإذعان للآيات التي جاء بها ذلك الرسول حتى قد تصل الجرأة ببعضهم إلى درجة السخرية من آيات الله التي جاء بها ذلك الرسول، فيستهزئوا بالرسل ويسخرون منهم:

- وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ (10)

لاحظ عزيزي القارئ أن الذين سخروا واللذين استهزءوا هم اللذين حاق بهم، أي نزلت بهم الحاقة.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن عذاب الحاقة هو العذاب الذي يحيق بالذين سخروا واستهزءوا برسل الله.

السؤال: من اللذين سخروا واستهزءوا برسل الله؟

جواب مفترى: نحن نظن أن كل من استهزأ برسل الله وسخر منهم قد نزل بهم العقاب الرباني، كما حصل مع قوم نوح:

- وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (38) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (39)
- وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ (10)
- وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون (41)

السؤال: لماذا نزلت الحاقة بعاد مثلا؟

جواب لأنهم جحدوا بآيات ربهم وعصوا الرسل واتبعوا أمر كل جبار عنيد:

- وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (59)

سؤال: وماذا عن ثمود والأقوام الأخرى التي أهلكها الله؟

- أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللّهُ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (9)

سؤال: وماذا عن فرعون؟

جواب مفترى: نحن نظن أنه قد حل به ما حل بثمود.

السؤال: لماذا؟

لأنه هو من عصى الرسول حتى أخذه الله أخذا وبيلا:

- فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا (16)

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب مفترى: بقتاله الله

- هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (17) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (18)

فهؤلاء هم اللذين عملوا على إخراج الرسول وقتاله، بعد أن عصوا رسول ربهم واستهزءوا به وبالآيات التي جاءتهم:

- وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (73) وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (74) قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (75) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (76) فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (77) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (78) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (79)

وهذا فرعون يخرج بجنوده مطاردا موسى (ومن معه) إلى البحر بعد أن عصى الرسول، فأخذ أخذا وبيلا:

- فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا (16)

تلخيص ما سبق:

لما كانت الأمم السابقة على علم بالآيات التي جاءتهم، ولما كان عندهم من العلم ما ظنوا أنه يمكنهم من معصية الرسل والاستهزاء بهم، شن بعضهم الحرب على الله بإخراج الرسل وتكذيب الآيات، وكانت عاد وثمود على رأس القائمة، ثم جاء من بعدهم فرعون كوريث شخصي لما كان عند ثمود وعاد من العلم، فكانت نهايتهم جميعا هي الحاقة:

- **الْحَاقَّةُ (1) مَا الْحَاقَّةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (3) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (4) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (5) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (7) فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ (8) وَجَاء فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (9) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً (10)**

إن مراد القول هو أن العلم بآيات الله (كعلم ليلة القدر) كان متوافرا في عاد وفي ثمود، وقد وصل هذا العلم إلى شخص فرعون، فاستخدمه بطريقة سلبية حتى ظن بنفسه أنه هو الإله لمن حوله، مكذبا رسالة موسى:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)**

فطغى الرجل وتكبر:

- **اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (24)**
- **اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44)**
- **اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (17) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى (18) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (19)**

حتى بلغت به الجرأة أنه حشر فنادى بأنه هو ربهم الأعلى:

- **فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (25)**

السؤال: لماذا وصلت الجرأة بفرعون إلى هذه الدرجة؟

رأينا: نحن نظن أن فرعون قد تجرأ على رسل الله ومن ثم على الله نفسه لأنه كان (نحن نفتري القول) يملك مقومات هذا التمرد. فعند فرعون (نحن لازلنا نتخيل) من العلم ما جعله يظن بنفسه أنه كان قادرا على الوقوف ندا قويا للإله نفسه.

تساؤلات

⇐ ماذا كان علم فرعون؟
⇐ من أين حصل عليه؟
⇐ كيف حصل عليه؟
⇐ أين ذهب ذلك العلم؟
⇐ الخ.

السؤال الأول: ماذا كان علم فرعون؟

جواب مفترى: نحن نظن أن فرعون كان يملك علم القرون الأولى وهم عاد وثمود. ولو تدبرنا النص القرآني التالي لوجدنا أن أول شيء سأل فرعونُ موسى عنه هم تلك القرون الأولى:

- **قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (51) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (52)**

السؤال: كيف يمكن أن نفهم ذلك؟

افتراء خطير جدا (1): مادام أن فرعون يسأل موسى عن القرون الأولى، فهو إذا يعلم ما بال القرون الأولى، فمن غير المنطقي أن يسأل فرعون موسى عن شيء وهو لا يملك العلم فيه، لأن موسى كان سيرد عليه بالقول أنه في كتاب عند ربي لا أعلمه أنا ولا أنت. ولكن لما كان موسى لا يعلمه فهو آثر أن لا يتحدث عنه.

افتراء خطير جدا (2): لما كان ذلك العلم موجود في كتاب عند رب موسى، فإننا نستطيع أن نتجرأ على افتراء القول أن فرعون كان مطلعا على علم القرون الأولى الموجود في كتاب رب موسى. انتهى.

السؤال: ما معنى أن فرعون يملك علم القرون الأولى؟ وما معنى أنه مطلع على ما في ذلك الكتاب؟

جواب مفترى: نحن نظن أن فرعون قد استطاع أن يرى آيات الله كلها:

- **وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56)**

ولو تدبرنا جميع السياقات القرآنية على مساحة النص القرآني كله لما وجدنا أن أحدا قد أراه الله آياته كلها إلا فرعون، فحتى الرسل (كموسى ومحمد) قد رأوا من آيات ربهم ولكنهم لم يروا آيات الله كلها:

- **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ (1)**
- **وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (22) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (23)**
- **مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (17) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (18)**

السؤال: لماذا كان فرعون على وجه التحديد هو من أراه الله آياته كلها؟

- **وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56)**

جواب مفترى خطير جدا جدا لا تصدقوه: لأن الله كان يحضر فرعون ليكون هو الرسول الأعظم على مر التاريخ.

ما الذي تقوله يا رجل؟ هل فعلا أنت في كامل قواك العقلية عندما تقول مثل هذا القول؟ ألا ترى أنك تفتري على الله الكذب؟

(دعاء: أعوذ بك رب أن أكون ممن يفترون عليك الكذب أو أن أكون ممن يقولون عليك غير الحق، وأعوذ بك أن أكون من الذين يظنون ظن الجاهلية، فيقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، إنك أنت السميع العليم – آمين)

السؤال المعاكس: هل لديك دليل يثبت صحة هذا الافتراء الخطير؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الآية الكريمة التالية (كما نفهمها) تنطبق على فرعون فقط، قال تعالى:

- **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175)**

ليكون الافتراء الأكبر الآن هو: كان فرعون بشخصه هو من أوتي آيات الله كلها، ولكنه آثر إلاّ أن ينسلخ منها. وآثرا إلاّ أن يخلد إلى الأرض متبعا هواه، فكان مثله كمثل الكلب:

- **وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176)**

(دعاء: اللهم أعوذ بك أن يكون أمري كأمر فرعون - آمين)، وذلك لأن أمر فرعون ما كان رشيدا:

- **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (96) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (97)**

السؤال: كيف أوتي فرعون آيات الله كلها؟

جواب: لقد استطاع فرعون أن يحوز على علم القرون الأولى (عاد وثمود) التي لم يكن يعلمها إلا الله.

السؤال: كيف استطاع فرعون الحصول على علم القرون الأولى (عاد وثمود)؟

جواب: نحن نظن أن الآية الكريمة التالية تدلنا على طريقة فرعون في الحصول على علم القرون الأولى:

- **وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (4) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (5) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (9) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10)**

نتيجة مفتراة خطيرة جدا: نحن نكاد نجزم الظن بأن علم القرون الأولى متوافر في تلك الأوتاد التي هي من صناعة عاد وثمود، والتي أصبحت من ملكية فرعون لأنه هو الوحيد الذي حاز ما فيها من العلم النفيس.

السؤال: ما هي تلك الأوتاد؟

جواب مفترى: إنها أهرامات الجيزة في أرض مصر الخالدة.

الدليل

أولا، لما كان الله قد دمر ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون، فإننا نتجرأ على افتراء القول بأن تلك الأوتاد (الأهرامات) لم تكن من صناعة فرعون وقومه:

- **وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ (137) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (9)**

افتراء خطير جدا جدا: نحن نظن أن تلك الأوتاد هي من صناعة عاد ومن تقنية ثمود، فعاد هم اللذين بدءوها وثمود هم اللذين أتقنوها بعد ذلك. وما أن حلت بهم الحاقة حتى تركتها دليلا على مساكنهم.

السؤال: أين مساكن عاد؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أنها موجودة تحت الأهرامات، تغطيها الرمال التي سخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما:

- وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (7) فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ (8)

السؤال: وما هي تلك البلاد الموجودة تحت رمال الجيزة المصرية؟

جواب مفترى: إنها إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد:

- أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8)

نتيجة مفتراة: تقع حضارة عاد في منطقة إرم، حيث يوجد فيها تلك العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد كلها، وهي موجودة حتى اللحظة تحت تلك الرمال التي تغطي المنطقة كلها بسبب نوعية العقاب الذي حل بها:

- وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (7) فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ (8)

تخيلات مفتراة: كانت حضرة عاد قائمة في منطقة الجيزة المصرية إرم، ومنها (نحن نفتري القول) اشتقت مفردة الأهرام التي لازلنا نتداولها حتى اليوم، وكانت حضارة عظيمة شيدت على علم، وامتازت بالمباني ذات العماد، وكان أطولها تلك الأهرامات التي لازالت موجودة كآية من الله على مساكنهم، وما أن كذبت عاد بآيات ربهم وعصوا رسله حتى حاق بهم العذاب، فكانت الحاقة التي حلت بهم على شكل رياح تحمل التراب، سخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما، حتى أصبحت

- وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (21) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (23) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (24) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (25)
- وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (38)
- وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (58)

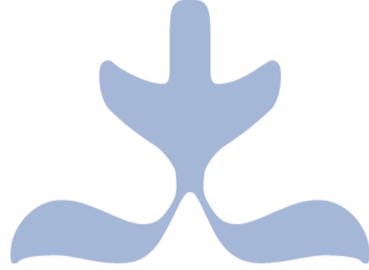
السؤال: هل تساءلت - عزيزي القارئ- عن سبب وجود تلك الأهرامات في تلك الأرض التي تبدو للناظر بأنها صحراء رملية لا حياة فيها؟ هل عجز أهل تلك الحضارة بما لديهم من مقومات العمارة أن يشيدوا مبانيهم تلك في أرض أكثر خصوبة؟ أليس النيل على مقربة منهم؟ لم إذن ذلك المكان؟

رأينا المفترى: لو قدّر لنا أن نكشف تلك الرمال الكثيفة التي تغطي تلك الأرض لوجدنا تحتها العجب.

السؤال: ما الذي يمكن أن نجده تحت كثبان الرمال في أرض الجيزة، أي تحت الأهرامات (إرم)؟

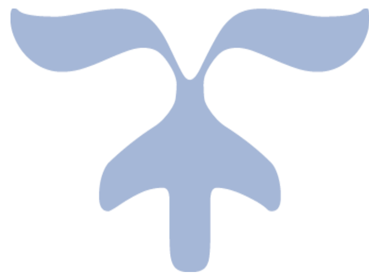
جواب: هذا ما سنحاول النبش فيه في الجزء القادم من هذه المقالة بحول الله وتوفيق منه.

سائلين الله أن ينفذ مشيئته وإرادته لنا الإحاطة بشي من علمه لا ينبغي لغيرنا، إنه هو العليم الحكيم، وندعوه وأدعوه وحده أن يؤتيني رشدي، وأن يجعل لي من لدنه سلطانا نصيرا، وأعوذ به أن يكون أمري كأمر فرعون، إنه هو الواسع العليم – آمين.



قصة يونس

الجزء الرابع والعشرون



قصة يونس: الجزء الرابع والعشرون

- **وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (4) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (5)**
- **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8)**
- **وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (9)**
- **وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10)**
- **الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (13)**

أما بعد،

كانت النتيجة التي خلصنا إليها في نهاية الجزء السابق من هذه المقالة تتلخص بافتراء من عند أنفسنا مفاده أن حضارة عاد التي أهلكها الله بالريح التي سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما:

- **وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (7) فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ (8)**

تقع في منطقة إرم، أي أرض الهرم، وهي – برأينا- أرض الأهرامات الواقعة في الجيزة المصرية، فكان من أهم خصائصها هي تلك العماد (الأهرامات نفسها) التي لم يخلق مثلها في البلاد كلها، وزعمنا الظن بناء على خيالنا – ربما غير المنضبط بقواعد التفكير السليم المعهودة- أن تلك البلاد لازالت موجودة حتى اللحظة تحت تلك الرمال التي تغطي المنطقة بأكملها، وذلك بسبب نوعية العقاب الذي حلّ بها:

- **وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (21) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (23) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (24) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (25)**

ويمكن أن نقدم (بناء على فهمنا لهذا السياق القرآني) بعض الافتراءات الخاصة بتلك الحضارة، نذكر منها:

⇐ أن أخا عاد (أي هود) قد أنذر قومه (وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ)

⇐ كان ذلك الإنذار هو إنذار بالأحقاف (إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ)

⇐ كانت دعوته هي دعوة التوحيد (أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ)

⇐ وحذرهم من وقوع العذاب الأليم بهم (إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

⇐ كان القوم يعبدون آلهة لهم (قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا)

⇐ طلب القوم من رسولهم أن يأتيهم بما يعدهم ليدلّل على صدق دعوته (فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

⇐ نسب هود العلم بذلك إلى الله ولكنه أبلغهم ما أرسل به إليهم (قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ)
⇐ كان هود يرى أن القوم هم قوم يجهلون (وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)
⇐ بدأت تباشير العذاب تظهر وكان أولها ما راءوه بأم أعينهم أنه مستقبل أوديتهم (فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ)
⇐ ظن القوم أن ذلك عارض ممطرهم (قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا)
⇐ لم يخطر ببالهم أن ذلك هو ما كانوا يستعجلون رسولهم أن يأتيهم به (بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ)
⇐ كان ذلك ليس عارضا ممطرهم بل هي ريح فيها عذاب أليم (رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ)
⇐ أخذت الريح تدمر كل شيء بأمر ربهم (تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا)
⇐ لم يتبقى في صباح ذلك العذاب إلا مساكنهم (فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ)
⇐ لم يكن ذلك إلا جزاء القوم المجرمين (كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ)
⇐ الخ

وفي مقامنا هذا، يمكن لنا أن نجلب انتباه القارئ إلى الافتراءات التالية التي هي من عند أنفسنا، والتي نظن أنه يجب الالتفاف إليها مليّا في هذا الطرح:

1. كانت المنطقة التي يسكنها القوم هي منطقة منخفضة بدليل أن ما ظنوا أنه عارض ممطرهم قد جاءهم مستقبل أوديتهم، ففي المكان أودية، فلربما ظنوا أن المطر إذا ما نزل (قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا)، سيسيل في تلك الأودية كما في التصوير القرآني التالي:

- **أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ (17)**

وسنتحدث بحول الله وتوفيقه عن كيف كانوا يوقدون على النار من الزبد الرابي لعمل الحلي والأمتعة لاحقا (وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ)، فالله وحده نسأل أن يعلمنا ما لم نكن نعلم، إنه هو الواسع العليم – آمين.

2. بدأ العذاب ينزل بهم، وما أن أصبح الصباح حتى لم يكن ليتبقى من آثارهم إلا مساكنهم:

- **فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ(25)**

نتيجة مهمة جدا: إن ما يهمنا الإشارة إليه هنا هو وجود الأودية في المنطقة التي كان يسكنها عاد (قوم هود) وبقاء المساكن بعد يوم من العذاب.

وقد فصل القرآن الكريم قصة القوم في موطن آخر على النحو التالي:

- **وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ (50) يَا
قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (51) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ
رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ (52)
قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (53) إِن
نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (54) مِن
دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ
آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (56) فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ
وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (57) وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا
نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (58) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ
بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (59) وَأُتْبِعُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ
الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (60)**

ولو تدبرنا هذا السياق القرآني جيدا، لربما حق لنا أن نخرج بالاستنباطات المفتراة التالية:

⇐ كان رسول القوم هو هود

⇐ كان هود هو أخوهم (وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا)

⇐ كان القوم يعبدون آلهة غير الله فكانوا قوما مفترين (قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ)

⇐ كان القوم أولي قوة حينئذ

⇐ لو آمن القوم برسالة ربهم لزادهم الله قوة إلى قوتهم (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ)

⇐ كان القوم يطلبون بيّنة من رسولهم التي ظنوا أنه لم يأتهم بها

⇐ لم يتقبل القوم قول رسولهم فما تركوا آلهتهم التي كانوا يعبدون (قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)

⇐ ظن القوم أن هودا قد اعتراه بعض آلهتهم بسوء (إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ)

⇐ حذّر هود القوم بأن الله لا محالة سيستخلف قوما غيرهم (فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ)

⇐ جاء أمر الله بعذاب القوم (وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا)

⇐ نجّى الله هودا والذين آمنوا معه (نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا)

⇐ كان العذاب الذي أصاب القوم عذابا غليظا (وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ)

⇐ عادٌ هم أنفسهم قوم هود (أَلاَ بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ)

⇐ الخ

وقد جاء تفصيل آخر للقصة في سورة الشعراء على النحو التالي:

- **كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (124) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (125) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (126) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (127) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (128) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (130) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (131) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (132) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (133) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (134) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (135) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (136) إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (137) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (138) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (139) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (140)**

وبناء على فهمنا لهذا السياق القرآني، فإننا نقدم الافتراءات التالية:

⇐ جاء عاد أكثر من سول: كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (123)
⇐ كان هود هو آخرهم بدليل أن العذاب قد وقع عليهم بعد دعوته إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (124) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (125)
⇐ كان القوم يقومون ببناء آية بكل ريع، فكانوا يعبثون: أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (128)
⇐ كان القوم يتخذون مصانع، وهدفهم من وراء ذلك هو الخلود: وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129)
⇐ كان القوم قادرين على البطش، فكانوا جبارين في بطشتهم: وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (130)
⇐ كان القوم على علم من الله، فهو الذي أمدهم بذاك العلم: وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (132)
⇐ كما أمدهم الله بأنعام وبنين وجنات وعيون: أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (133) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (134)
⇐ ظن القوم أن العذاب لن ينزل بهم: وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (138)
⇐ كان في هلاكهم آية: فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً...
⇐ الخ

وبناء عليه، فإننا مدعوون الآن للتركيز على الافتراءات التالية:

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا (1): كانت حضارة عاد حضارة قائمة على علم عظيم مصدره الله نفسه كما جاء على لسان نبيهم هود (وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ)، وقد وصل بهم العلم لدرجة أنهم كانوا يبنون بكل ريع آية ليعبثون:

- **أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (128)**

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا (2) لما كانت حضارة عاد حضارة قائمة على العلم، وصل بهم العلم لدرجة أنهم كانوا يبنون مصانع لعلهم يخلدون:

- وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا (3): كانت نتيجة ذلك كله أنهم أصبحوا قوما جبارين:

- وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (130)

السؤال: ما هي درجة التقدم العلمي التي وصل القوم إليها؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن القوم قد بنوا الآيات بناء: أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ

السؤال: كيف كان القوم يبنون الآيات بناء؟

جواب مفترى: لو تدبرنا الفعل بنى (ومشتقاتها) في النص القرآني لوجدنا أنه مصاحب للبنيان:

- وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا (21)
- قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (97)

لتكون النتيجة التي نريد التوصل إليها هي أن القوم قاموا ببناء البنيان في كل ريع، فكان كل بنيان بنوه بكل ريع هو آية:

- أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (128)

نتيجة مفتراة: لذا، كان هناك (نحن نتخيل) بنيان كثير وذلك لوجود أكثر من ريع، وكان كل بنيان بكل ريع هو آية.

السؤال: إذا كان كل بنيان بنوه بكل ريع هو آية، فلم كانوا يعبثون؟

جواب مفترى: لمّا تفقدنا مفردة تعبثون (ومشتقاتها في النص القرآني)، لم نعثر إلا على الآية الكريمة التالية:

- أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115)

لنفتري بناء على فهمنا لهذه الآية الكريمة أن العبث له علاقة مباشرة بالخلق (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا)، ولكن كيف يكون كذلك؟

رأينا: لمّا كان الله لم يخلقنا عبثا، لذا كان هناك هدف من وراء ذلك، والهدف هو - لا شك عندنا- العبادة، بدليل قوله تعالى:

- وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56)

كان العابث هو الذي يظن أنه لم يخلق لهذه الغاية (أي العبادة)، لذا عندما كان عاد يعبثون من وراء بنائهم الآيات، كان هدفهم (نحن نفتري الظن) هو أن لا يعبدوا الله، ولا شك أن الذي يظن أنه لا يجب أن يعبد الله، فهو لا يؤمن بالبعث الذي سيؤول به إلى خالق واحد، لأنه يظن أنه ليس براجع إلى الله:

- **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115)**

نتيجة مفتراة (1): هناك من يظن أنه لم يخلق عبثا، لذا فهو يعلم أنه راجع إلى خالقه
نتيجة مفتراة (2) وهناك - بالمقابل - من يظن أنه قد خلق عبثا، لذا فهو يظن أنه لن يرجع إلى خالق
نتيجة مفتراة مهمة جدا: كانت عاد تنتمي إلى الفريق الثاني الذي يظن أنه قد خلق عبثا، لذا كانوا يعبثون (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ)، لأنهم كانوا يعتقدون أنهم لن يرجعوا إلى خالق بعد موتهم، لذا عمد القوم (نحن نفتري القول) إلى فعل آخر هو فعل الخلود، فاتخذوا مصانع لهذه الغاية:

- **وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129)**

نتيجة مفتراة: لمّا كانت عاد لا تؤمن أنهم إلى ربهم راجعون، عمدوا إلى الخلود إلى الأرض.

السؤال: كيف يمكن أن يتحصل لهم الخلود الذي ينشدوه؟
رأينا مفترى: تعرضنا لهذه الجزئية في الأجزاء السابقة من هذه المقالة، وافترينا الظن بأن الخلود هو خلود المكان وليس خلود الزمان، لأن خلود الزمان يجب أن يصاحبه مفردة تدل على ذلك، فحاولنا التفريق بين منطوق الآيات الكريمة التالية:

- **خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ (162)**
- **إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرًا (169)**

فهناك بين من هم خالدين فيها ومن هم خالدين فيها أبدا (خَالِدِينَ فِيهَا) ومن هم خالدين فيها أبدا (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا). فزعمنا الظن أن خَالِدِينَ فِيهَا تدل على أن الخلود هو خلود مكان، أي لا يبرحون ذلك المكان إلى مكان آخر غيره، أما من كانوا خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، فهم الذين لا يبرحون المكان إلى مكان آخر غيره، ويكون ذلك على سبيل الدوام (أي أَبَدًا).

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: لما كانت عاد قد اتخذت مصانع للخلود، كان ظنهم أن هذه الأرض هي مكانهم الوحيد الذي لن يبرحوه إلى غيرها. فهم قوم يجهلون كما جاء على لسان رسولهم هودا:

- قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (23)

ولو دققنا في الأقوام التي خوطبت على لسان رسلهم بأنهم "يجهلون"، لوجدنا موسى يصف من يطلب آلهة غير الله على أنهم قوم يجهلون:

- وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (138)

كما نجد نوحا قد خاطب قومه بتلك الصيغة نفسها:

- وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (29)

وكذلك نجد لوطا يخاطب قومه بتلك الصيغة:

- أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (55)

لتكون النتيجة أن من جاءتهم البينات من ربهم وآثروا أن لا يؤمنوا هم قوم يجهلون:

- وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (111)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا مهمة جدا جدا: ظن القوم بأن هذه الأرض هي دارهم التي لن يبرحوها إلى غيرها في حياتهم الأولى والآخرة، فهي دارهم في حياتهم الأولى وهي نفسها دارهم في حياتهم بعد الموت، فهم يسكنون هذه الأرض في حياتهم الأولى، وسيرجعون إليها في حياتهم الأخرى (أي بعد موتهم)، فاتخذوا مصانع ظانين أنها ستمكنهم من ذلك الخلود:

- وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129)

السؤال: ما هي تلك المصانع؟

افتراء من عند أنفسنا خطير جدا جدا لا تصدقوه: نحن نفتري القول من عند أنفسنا أن الأهرامات الحالية المتواجدة في أرض إرم (أي أرض الهرم) هي تلك المصانع التي كان الهدف منها صناعة الخلود.

السؤال: كيف كان ذلك؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: استطاعت ثمود أن تخلق تلك الحضارة العملاقة التي لم تجاريها حضارة سابقة في منطقة إرم (الهرم)، فبنت البنيان الكثير، فكان لهم بنيان بكل ريع، وكان كل بنيان بنوه في كل ريع هو آية، وكان الهدف من وراء ذلك هو العبث، لأنهم ظنوا أنهم لن يبرحوا هذه الأرض، وأنها هي دار أولهم وآخرهم، فهم سيعيشون فيها في هذه الحياة الدنيا وسيبعثون فيها في حياتهم الأخرى. ولما كانت هذه (كما

نزعم) هي عقيدتهم، عمدوا جميعا إلى اتخاذ بعض ذلك البنيان ليكون مصانع للخلود، فكانت الأهرامات الثلاثة في إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد:

- **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8)**

هي تلك المصانع التي ظنوا أنها ستمكنهم من صناعة الخلود:

- **وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129)**

باب الأهرامات وتمثال أبي الهول ((The Pyramids and the Sphinx)

لعل السرّ لم يكشف بعد عن سبب بناء تلك الأهرامات في تلك البقعة الجغرافية من الأرض، كما لازال الغموض يحيط بجذورها، وطريقة بنائها، والعلم الذي لازال مكنون فيها. ليكون السؤال الأهم الآن هو: لماذا بنيت تلك الأبنية العملاقة في غابر الزمان؟ وكيف استطاعت أن تحافظ على نفسها بالرغم من العبث البشري بها في الحقبات التاريخية المتعاقبة؟ وكيف حافظت على نفسها بالرغم من عوامل التعرية الطبيعية بفعل الحرارة والبرودة وتقلبات الطقس والمناخ؟

رأينا المفترى: لما كانت تلك الأبنية هي التي لم يخلق مثلها في البلاد، فإن الحضارات المتعاقبة لن تكون قادرة على مجاراتها لما وضع فيها من هندسة محكمة، مبنية على علم حقيقي، عزّ نظيره عند الأمم الأخرى، حتى أصبح من الاستحالة بمكان (نحن نفتري القول) منازلتها إلا من قبل من يملك مثل ذلك العلم الذي استثمر فيها. فأنا لا أستطيع – مثلا- أن أهدم برجا من أبراج ناطحات السحاب في منهاتن العجم أو في دبي العرب بمجرد أني أحمل بيدي فأسا ومعولا. فمن أراد أن ينازل ذلك البناء العملاق ليطيح به، فعليه أولا أن يملك من التقنية ما امتلكه من بناها. فالذي بني ناطحات السحاب في نيويورك ودبي قد استخدم من التكنولوجيا ما يجعل من الصعب على غيره الذي لا يملك مثل تلك التكنولوجيا أن يطيح بها، وهكذا.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن السرّ في بقاء الأهرامات قائمة حتى الساعة هو رقي التقنية التي رفعت بنيانها، فهي مبنية على أساس علمي متين لا يمكن منافسته إلا بعلم مثله.

السؤال: من الذي بنى تلك الأبنية العملاقة؟

جواب مفترى خطير جدا: نحن نظن أن من استطاع أن يشيد ذلك العمران قد جاءه تأييد مباشر من ربه.

السؤال: من الذين جاءهم التأييد الإلهي المباشر؟

جواب: نحن نظن أن عاد كانت من القرون الأولى التي جاءها التأييد الإلهي المباشر.

السؤال: أين الدليل على ذلك؟

جواب مفترى: دعنا نقرأ الآية الكريمة التي تدل – برأينا- على حصول التأييد الإلهي المباشر لعاد كما جاء على لسان أخيهم هود:

- **وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (132) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (133) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (134)**

سؤال مربك: وهل هذا دليل على أن عاد قد سكنت تلك الأرض؟

جواب مفترى: لو تفقدنا هذا السياق القرآني لوجدنا فيه العجب، فنبيهم هود يبيّن بأن هؤلاء القوم (أي عاد) قد جاءهم التأييد من الله بـ ثلاثة أشياء رئيسية:

⇐ أمدهم بما يعلمون (أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ)

⇐ أمدهم بأنعام وبنين (أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ)

⇐ وجنات وعيون (وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

ونحن نفتري الظن بأن واحدة من أوجه العجب في هذا السياق القرآني هو أن الأولى والثانية جاءت مصحوبة بالفعل (أَمَدَّكُم)، بينما جاءت الثالثة بدون هذا الفعل (وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ). فالله لم يكرر الفعل أمدكم مع الجنات والعيون.

السؤال: لماذا؟ أي لماذا جاءت الأولى مصحوبة بالفعل أمدكم (أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ)؟ ولماذا جاءت الثانية مصحوبة أيضا بالفعل أمدكم (أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ)؟ ولماذا جاءت الثالثة غير مصحوبة بذلك الفعل (وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن السبب في ذلك أن المدد الإلهي كان مباشرا وخاصا بهؤلاء القوم في حالة العلم (أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ)، وكذلك كان مباشرا وخاصا بهم في حالة الأنعام والبنين (أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ)، فكان ذلك على سبيل الحصر والانقطاع، بينما كان غير مباشر وغير خاص بهم في حالة الجنات والعيون (وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)، فكان ذلك على سبيل الدوام.

السؤال: لماذا؟ وكيف يمكن فهم ذلك؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الأرض التي سكنها عاد كانت تتسم بوجود الجنات والعيون على سبيل الدوام، فذاك مدد إلهي لم يكن خاصا بعاد ولم يعد محصورا عليهم، وإنما يمكن لعاد ولكل من جاء قبلهم ليسكن تلك الأرض، وكل من سيأتي من بعدهم ليسكن تلك الأرض أن يستفيد من تلك الجنات والعيون (وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ). بينما كان العلم الذي حصلت عليه عاد خاص بهم لأنه (نحن نظن) قد جاءهم بمدد مباشر من الله، فلم تتحصل عليه أمة قبلهم ولم تتحصل عليه أمة بعدهم (أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ)، وكذلك الأنعام والبنون، فما أمد الله عاد به من الأنعام والبنين كان أيضا خاصا بهم (أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ).

نتيجة مفتراة مهمة جدا: إن مراد القول هنا هو أنه قد يصبح من الصعب تتبع آثار ذلك العلم الذي أمد الله به عاد مادام أنه كان خاصا ومحصورا بهم (أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ)، وكذلك قد يكون من الصعب تتبع آثارهم من خلال تلك الأنعام والبنين التي أمدهم الله بها (أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ) مادام أنها كانت خاصة بهم ومنقطعة عن غيرهم، ولكن قد يكون من السهل تتبع آثارهم من خلال تلك الجنات والعيون مادام أنها كانت لهم ولغيرهم من الأقوام التي سبقتهم وتلك التي لحقت بهم (وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ).

السؤال: كيف يمكن تتبع آثارهم من خلال تلك الجنات والعيون؟

جواب مفترى: نحن نظن أن ذلك ممكنا شريطة طرح التساؤل التالي: ما هي الأرض التي جاء ذكرها في كتاب الله على أنها أرض الجنات والعيون؟

جواب مفترى خطير جدا: نحن نفتري القول من عند أنفسنا أن مصر هي أرض الجنات والعيون كما جاءت في كتاب الله

باب: مصر أرض الجنات والعيون

بداية، لمّا كنت عقيدتنا مبنيّة على الإيمان اليقيني بأن لا شيء في كتاب الله يعزي إلى عامل الصدفة، وأن كل ما في كتاب الله مقصود لذاته، وجب علينا أن نبحث فيه عن كل السياقات القرآنية الخاصة بالجنات والعيون، طارحين التساؤل التالي: أين هي أرض الجنات والعيون كما يبينها النص القرآني نفسه؟

جواب مفترى: لما حاولنا تتبع عبارة جنات وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ على مساحة النص القرآني كله، وجدناها قد جاءت محصورة بالسياقات القرآنية التالية:

1. الجنة التي سينتهي إليها المتقون بعد الحساب:
   - **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (45) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (46)**
   - **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (51) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (52) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ (53)**
   - **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (16)**
2. الأرض التي كانت تسكنها عاد وثمود:
   - **كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (124) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (125) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (126) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (127) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (128) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (130) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (131) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (132) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (133) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (134)**
   - **إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (142) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (143) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (144) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (145) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (146) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (147) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (148) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (149)**
3. الأرض التي كان يسكنها فرعون وقومه وأورثها الله من بعدهم بني إسرائيل
   - **فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (53) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (54) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (55) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (56) فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (59)**
   - **فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ (22) فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (23) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (24) كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (26) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (27) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (28)**

السؤال: ما الذي يمكن أن نفهمه من ذلك؟

رأينا: لمّا كانت الأرض (أي كل أرض) لها سماتها الطبيعية التي تجعلها تختلف عن غيرها، فإن عوامل الجغرافيا تبقى تميزها عن غيرها على مر الزمان، فهذه – على سبيل المثال- سمات الأرض التي كان يسكنها نوح وقومه:

- قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (6) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (7) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (8) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (9) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (11) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (12)

وهذه سمات الأرض التي بارك الله فيها للعالمين:

- أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (12) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (13) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (14) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (15)
- سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ (1)
- يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى (80)

وهذه سمات الأرض التي بعث الله فيها نبيا لنا من أنفسنا:

- رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (37)

لذا، فإن عوامل الجغرافيا الطبيعية (نحن نظن) من أهم المميزات التي ربما تدلنا على الأرض التي أنزلت فيها الرسالات تباعا كرسالة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد.

خروج عن النص:

- وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) وَطُورِ سِينِينَ (2) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (3)

سنحاول الخروج الآن عن صلب الموضوع قيد البحث من أجل تسطير رأي خاص بنا عن تقسيم الأرض (كل الأرض) بين الأمم التي جاءها النذير، لنعود من هناك باستنباط مفترى من عند أنفسنا نظن أنه غاية في الخطورة، ستكون له تداعيات جمة على هذه القضية قيد البحث وعلى منظومة التفكير في السياقات القرآنية كلها من منظور نظن أنه غير مسبوق. فالله وحده نسأل أن يهدينا رشدنا وأن يهدينا لأقرب من هذا رشدا، وأن يزدنا علما، وندعوه في الوقت ذاته أن لا نكون ممن يفترون عليه الكذب، أو ممن يقولون عليه ما ليس لهم بحق، إنه هو الواسع العليم – آمين.

أما بعد،

السؤال: كيف يمكن أن نفهم الآيات الأولى من سورة التين: وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) وَطُورِ سِينِينَ (2) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (3)؟

تساؤلات

⇐ ما هو التين المذكور هنا؟

⇐ ما هو الزيتون المذكور هنا؟

⇐ ما هو طور سينين المذكور هنا؟

⇐ ما هو البلد الأمين المذكور هنا؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نفتري القول أن هذه أسماء المناطق التي نزلت بها الرسالات السماوية الخالدة: رسالة نوح ورسالة إبراهيم ورسالة موسى وعيسى ورسالة محمد. انتهى.

السؤال: أين الدليل على ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أنه من الضروري قراءة آيات هذه السورة العظيمة في ضوء افتراءاتنا التالية:

1. كان لابد لكل أمة من نذير:
   - **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ (24)**
2. لو شاءت المشيئة الإلهي لبعث الله في كل قرية نذير:
   - **وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (51)**
3. لم يهلك الله قرية إلا بعد أن جاءها نذير:
   - **وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ (4)**
   - **مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً (15)**
4. جاء رسل الله تترا، أي متتابعين مكانيا:
   - **ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاء أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (44)**
5. جاء رسل الله بعضهم بعد بعض، أي متتابعين زمانيا:
   - **ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاء أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (44)**
6. بدأت الرسالات من الشرق، وأخذت تنتقل غربا مع الزمن، فالرسالة الأقدم هي أرض نوح (أي أقصى الشرق)
   - **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (17)**

   (للتفصيل انظر مقالاتنا عن قصة نوح)
7. كان هناك خمسة رسل هم أولي العزم:
   - **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (35)**

   وهم محمد وعيسى وموسى وإبراهيم ونوح، وهم من أخذ الله منهم ميثاقا غليظا::
   - **وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (7)**
8. كان هناك خمس رسالات رئيسية غطت الأرض كلها، وهي شريعة نوح وشريعة إبراهيم وشريعة موسى وعيسى وشريعة محمد:
   - **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (48)**

9. الخ

نتيجة مهمة: لما قضت مشيئة الله أن لا نكون أمة واحدة، كان لزاما على الله أن يبعث في كل أمة نذير:

- **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ (24)**

لفتة مهمة جدا: نحن نجلب انتباه القارئ إلى مفهوم الأمة، وضرورة عدم ربط ذلك بمفهوم القرية. فالسُّنة الإلهية كانت على الدوام على نحو أن يبعث الله في كل أمة نذير:

- **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ (24)**

ولكن لم تقضي المشيئة الإلهية أن يكون في كل قرية نذير:

- **وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (51)**

ليكون السؤال: من هي الأمم التي خلا فيها نذير (وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ)؟

جواب مفترى: نحن نظن أن هناك أمم أربعة رئيسية هي من خلا فيها نذير، وهي على الترتيب:

⇐ أمة نوح

⇐ أمة إبراهيم

⇐ أمة موسى وعيسى

⇐ أمة محمد

السؤال: لماذا جاء موسى وعيسى لأمة واحدة؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الآية الكريمة التالية توضح السبب:

- **وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (6)**

فلقد كان عيسى رسولا من الله إلى بني إسرائيل، كما كان موسى من قبله رسول الله إلى بني إسرائيل، وكان هدف رسالة عيسى هو:

- **وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (50)**

نتيجة مهمة: كان الترابط واضحا بين رسالة عيسى وموسى لدرجة أن مصدر التشريع عند أتباع هذه الديانات هو الكتاب المقدس نفسه بجزأيه الرئيسيين: العهد القديم (التوراة) والعهد الجديد (الإنجيل).

لتكون النتيجة المفتراة الآن هي: أن عيسى وموسى كان رسولان إلى أمة واحدة (بني إسرائيل). وبناء عليه، فإن موطن تلك الأمة هي بقعة محددة من الأرض، وهي الأرض التي باركنا فيها للعالمين:

- وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ (20) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (21)

نتيجة مفتراة مهمة جدا (1): هناك خمسة رسل هم أولي العزم (نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد)
نتيجة مفتراة مهمة جدا (2): لكن هناك – بالمقابل- أمم أربعة، وذلك لأن موسى وعيسى جاءا لأمة واحدة، هم بنو إسرائيل
نتيجة مفتراة: إذن، نستطيع أن نستنبط الافتراء التالي الذي هو لا شك من عند أنفسنا: تنقسم الأرض كلها بين أربعة أمم رئيسية جاءهم خمسة من الرسل هم أولي العزم. فهناك إذن مواطن أربعة على وجه الأرض لرسالات رئيسية أربعة مادام أن رسالة عيسى هي مكملة ومصدقة لرسالة موسى.
نتيجة مفتراة خطيرة جدا: هذه المواطن الأربعة هي التي يمكننا استنباطها من السياق القرآني التالي الذي هو قيد البحث هنا:

- وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) وَطُورِ سِينِينَ (2) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (3)

تساؤلات:

⇐ ما هي تلك الأمم التي خلا فيها نذير؟
⇐ وأين سكنت تلك الأمم من الأرض؟
⇐ فأين موطن الأمة التي بُعث فيها نوح؟
⇐ وأين موطن الأمة التي بُعث فيها إبراهيم؟
⇐ وأين موطن الأمة التي بُعث فيها موسى وعيسى؟
⇐ وأين موطن الأمة التي بُعث فيها محمد؟
⇐ افتراءات من عند أنفسنا:
⇐ نحن نفتري الظن بأن التين هي موطن الأمة التي بُعث فيها نوح
⇐ نحن نفتري الظن بأن الزيتون هي موطن الأمة التي بُعث إبراهيم
⇐ نحن نفتري الظن بأن طور سنين هي موطن الأمة التي بُعث فيها موسى وعيسى
⇐ نحن نفتري الظن بأن هذا البلد الأمين هي موطن الأمة التي بُعث فيها محمد

قال تعالى:

- وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) وَطُورِ سِينِينَ (2) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (3)

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أنه لا يمكن قراءة الآيات الكريمة منفصلة عن بعضها البعض وبكأنها قطع غير متجاورة، لذا لابد من ربط جميع الآيات في السياق الواحد، وبناء علع هذا المنطق المفترى، وجب علينا إذن أن نطرح التساؤلات التالية: ما علاقة التين بالزيتون هنا (التِّينِ وَالزَّيْتُونِ)؟ وما علاقتهما معا (التِّينِ وَالزَّيْتُونِ)

بطور سينين (طُورِ سِينِينَ)؟ وما علاقة الثلاثة (التِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ) بهذا البلد الأمين (هَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ)؟ فكيف يمكن أن نفهم السياق القرآني ككتلة واحدة؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: حتى لا نقع في جدل لا طائلة منه، دعنا نقرأ هذه الآيات بطريقة معكوسة، فلنبدأ بالآية الثالثة أولا:

- وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (3)

السؤال: ما هو هذا البلد الأمين الذي يتحدث الله عنه هنا؟ أليس هو بلد الحرم الآمن؟

- وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (57)
- أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (67)

أليس هو الموجود بواد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم؟

- رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (37)

أليست تلك هي أم القرى وما حولها؟

- وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ (92)
- وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (7)

أليست هي أرض مكة؟

- وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (24)

وأليست بكة، ذلك الحي من مكة، هو الذي يتربع فيه البيت العتيق؟

- إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (96)

وأليس هو ذلك البيت العتيق الذي يؤدي عنده كل من اتبع شريعة محمد مناسك الحج؟

- وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (28) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (29)
- ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ (32) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (33) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (34)

نتيجة مهمة: لما كان لكل أمة منسكا هم ناسكوه:

- **لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ (67)**

ولما كان قد خلا في كل أمة نذير:

- **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ (24)**

ارتبط كل منسك بواحد من الرسل الذي كان نذيرا لتلك الأمة.

وبناء عليه، فإننا نستطيع أن نفتري القول:

⇐ أن المنسك الذي يذكر اسم الله فيه حسب شريعة محمد هو ذلك البيت العتيق الموجود في (هَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ)؟

⇐ كانت مكة هي الأرض التي بُعث فيها خاتم النبيين محمد، وهي أرض لا زرع فيها، تجبى إليها ثمرات كل شيء:

- **وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (57)**

والآن لنعد إلى بدايات سورة التين:

- **وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) وَطُورِ سِينِينَ (2) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (3)**

بالفهم المفترى من عند أنفسنا بأن هَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ هو أرض مكة التي يتواجد بها البيت العتيق، حيث يؤدي من اتبع شريعة محمد مناسك الحج عنده. ليكون السؤال الآن على الفور هو: إذا كان البلد الأمين هو موطن رسالة محمد، فأين موطن الرسالات التي سبقت، كرسالة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: ذلك موجود في الآيات نفسها، فلننتقل بالحديث الآن إلى طُورِ سِينِينَ في الآية رقم 2:

- **وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) وَطُورِ سِينِينَ (2) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (3)**

السؤال: أين طُورِ سِينِينَ؟

رأينا المفترى (1): نحن نفتري الظن بأن أرض طُورِ سِينِينَ هي موطن رسالة موسى وعيسى معا، وهناك يوجد المنسك حيث يؤدي أتباع شريعة موسى وعيسى حجهم.

السؤال: أين الدليل على ذلك؟

رأينا: لمّا كنا قد لا نختلف كثيرا في أن هذا البلد الأمين هو موطن رسالة محمد، فإن الاختلاف قد لا يكون كبيرا بيننا أيضا في باب الحديث عن طور سينين. فالحديث عن الطور قد جاء محصورا بالحديث عن موسى وتفاصيل قصته مع بني إسرائيل في الأرض التي باركنا فيها للعالمين، حيث وجدنا الطور وقد ذكر في المواطن التالية:

⇐ فموسى هو من آنس من جانب الطور نارا عندما سار بأهله راجعا من مدين بعد أن قضى الأجل هناك:

- **فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29)**

⇐ وحصلت المناداة الإلهية له هناك:

- **وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (52)**
- **وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (46)**

⇐ وحصلت المواعدة الإلهية لبني إسرائيل جانب الطور:

- **يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ (80)**

⇐ وذاك هو الطور الذي رُفع فوق بني إسرائيل:

- **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (63)**
- **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُواۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (93)**
- **وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (154)**

⇐ ومن طور سيناء تنبت الشجرة التي تخرج بالدهن وصبغ للآكلين:

- **وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ (20)**

⇐ وهناك الطور:

- **وَالطُّورِ (1) وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ**

⇐ وهناك طور سينين:

- **وَطُورِ سِينِينَ (2)**

السؤال: فأين هو الطور؟

رأينا المفترى والخطير جدا: هو المكان الذي يقضي فيه من كان متبعا لشريعة موسى مناسك حجهم، إنه ما يعرف اليوم بحائط المبكى عن اليهود.

السؤال: ما هو طور سينين؟

رأينا: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن سينين هي جمع لمفردة سيناء:

- **وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ (20)**

فعندما نقول بأن هناك سيناء، فهي قطعة من أكثر من سيناء، هي سينين، فالأرض التي قطعت، واقتسمت بين الناس كان كل قسم منها هو بحد ذاته سيناء، وكانت كلها مجتمعة سينين:

السؤال: ما هي الأرض التي قطعت بهم؟

جواب مفترى: إنها الأرض التي جاء ذكرها في الآية الكريمة التالية:

- وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (160)

منطقنا المفترى: كانت الأرض التي باركنا فيها للعالمين أرضا واحدة، فدخلها قوم موسى، فاستسقى موسى لقومه:

- **وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (60)**

فقطّع الله بينهم الأرض:

- **وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (160)**

فأصبحت الأرض المقدسة سنيين (أي أثني عشر سيناء)، فكان الطور الذي تخرج منه تلك الشجرة موجود بواحدة منها:

- **وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ (20)**

ولما لم يكن هناك طور آخر في بقية القطع (أي السينين الأخرى)، كان هو نفسه الطور وهو نفسه طور سينين:

- **وَالطُّورِ (1) وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ**
- **وَطُورِ سِينِينَ (2)**

(وسنتحدث عن علاقة ذلك الطور بالكتاب المسطور لاحقا بحول الله وتوفيق منه، فالله أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم، إنه هو الواسع العليم – آمين).

والآن لنعد إلى السياق القرآني قيد البحث بهذا الفهم المفترى عن هذا الْبَلَدِ الْأَمِينِ وعن طُورِ سِينِينَ ، لنطرح بعد ذلك التساؤلات حول الزيتون والتين:

- **وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) وَطُورِ سِينِينَ (2) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (3)**

السؤال: ما هو الزيتون في هذه الآية الكريمة؟

جواب مفترى خطير جدا: إنه موطن الأمة التي بُعث فيها إبراهيم نذيرا، وفيها كان يوجد المنسك الذي كان يعكف القوم فيه لتماثيلهم:

- **وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ (51) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52)**

(للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان: ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته: باب التماثيل)

السؤال: أين هي تلك الأرض؟

جواب مفترى: نحن نظن أنها الأرض التي تتسم بالصفات الواردة في الآية الكريمة التالية:

- **اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (35)**

⇐ لم لأفهم شيئا. يرد صاحبنا قائلا.

رأينا: نحن نظن أنها الأرض التي تقع فيها تلك الشجرة، حيث أنها زيتونة لا شرقية ولا غربية (زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ).

السؤال: كيف هي زيتونة لا شرقية ولا غربية؟ فأين تقع؟ فهل يمكن أن يوجد مكان لا شرقي ولا غربي حتى تكون تلك الشجرة متواجدة فيه؟

جواب مفترى: نعم، هناك مكان ليس شرقي وليس غربي.

السؤال: أين هو ذلك المكان؟

رأينا المفتري: إنه المكان (أي المنطقة) التي تقع بين الشرق والغرب.

السؤال: وأين هي تلك المنطقة؟ وهل هي موجودة على الأرض؟ وهل يمكن تحديدها على الخريطة الجغرافية؟

رأينا المفترى: نعم، هي منطقة موجودة على الأرض، وهي التي نظن أننا نستطيع أن نصفها (بمفرداتنا الدارجة) على أنها الأرض الوسطى الواقعة بين الشرق والغرب.

السؤال: وأين هي تلك الأرض (المنطقة أو المكان)؟

رأينا المفترى: إذا كان هناك الشرق، وإذا كان هناك الغرب، فهناك منطقة وسطى بينهما يصعب علينا أن نعتبرها من أرض الشرق كما يصعب علينا في الوقت ذاته أن نلحقها بأرض الغرب، فتبقى واقعة بين الطرفين.

السؤال: وما هي تلك الأرض؟

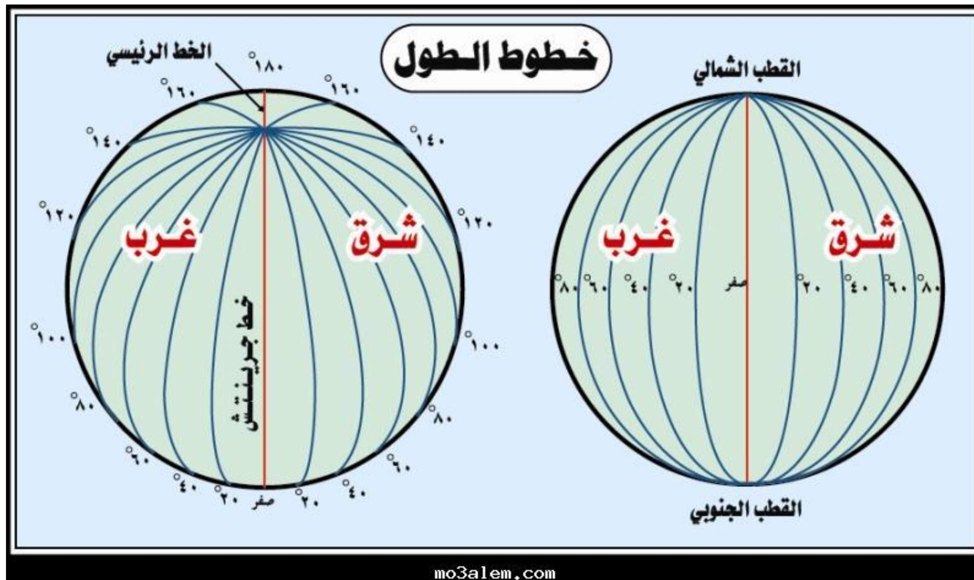
رأينا: نحن نفتري القول أنها الأرض التي تعرف اليوم بمنطقة الشرق الأوسط.

السؤال: وما هي أرض الشرق الأوسط؟ هل تستطيع تحديدها على الخريطة الجغرافية؟

جواب مفترى: لننظر إلى الكرة الأرضية من منظور خطوط الطول (التي تحدد الشرق والغرب) فقط،



فكل منطقة على الأرض يمكن تحديدها إلى الشرق أو إلى الغرب من خط طول معين (أو Meridians Lines بالمفردات الأعجمية). وعددها 360 خط، كل خط منها عبارة عن نصف دائرة افتراضية تمتد من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي، وقد وضعت من قبل علماء الجغرافية لغايات عديدة أهمها ضبط الوقت. وكان خط الصفر هو خط غرينتش كما في الشكل التوضيحي التالي:



وبناء عليه، فإن خط الصفر (غرينتش) ليس شرقي ولا غربي. فكل ما يقع إلى يمين الناظر إلى ذلك الخط على الشاشة يقع إلى الشرق من خط غرينتش، بينما يكون كل ما يقع إلى يسار الناظر هو إلى الغرب من خط غرينتش.

السؤال: ماذا عن غرينتش نفسه (أي خط الصفر)؟ هل هو شرقي أم غربي؟

جواب: لا شرقي ولا غربي.

سؤال: ماذا لوجدت شجرة على ذلك الخط؟ هل تكون شرقية أم غربية؟

جواب مفترى: لا شرقية ولا غربية.

خط الصفر: رواية جديدة

إذا كان خط غرينتش هو لا شك صناعة بريطانية بامتياز تم اعتماده بمؤتمر دولي عام 1884م، حتى أصبحت كل بقعة على الأرض يقاس موقعها (وبالتالي توقيتها) بناء على قربها وبعدها عن هذا الخط الافتراضي. وبمنطق الأيدلوجيا، أصبحت كل بقعة على الأرض تقاس بمقدار بعدها أو قربها الجغرافي عن بريطانيا العظمى، صاحبة خط غرينتش، لأنه هو خط الصفر. ألا يحق لنا أن نطرح التساؤل التالي: أين هو فعلا خط الصفر الحقيقي؟ هل لو كان المسيطر (صاحب الفكرة) هم الأمريكان حينئذ، هل كان خط الصفر سيكون بريطانيا؟ وهل لو ولدت الفكرة في فرنسا، ألن يكون خط الصفر فرنسيا؟ وماذا لو جاءت الفكرة من الدولة العثمانية في العصور الوسطى، هل كان الخط سيكون بريطانيا أو أمريكيا أو فرنسيا؟ وماذا لو أن الرومان أو الإغريق في غابر الزمان التفتوا إلى هذه الجزئية، فأين يا ترى سينتهي خط الصفر؟

رأينا: لما كان خط الصفر (غرينتش) هو خط وهمي من صناعة الحضارة البريطانية، فإننا نرفض جملة وتفصيلا هذا التقسيم، لنطرح التساؤلات العلمية الحقيقية بعيدا عن التعصب الحضاري، نذكر منها:

⇐ أين خط الصفر الحقيقي؟

⇐ وهل هناك أصلا خط صفر حقيقي؟

⇐ وما الفائدة من وجود مثل هذا الخط (إن وجد أصلا)؟

⇐ الخ.

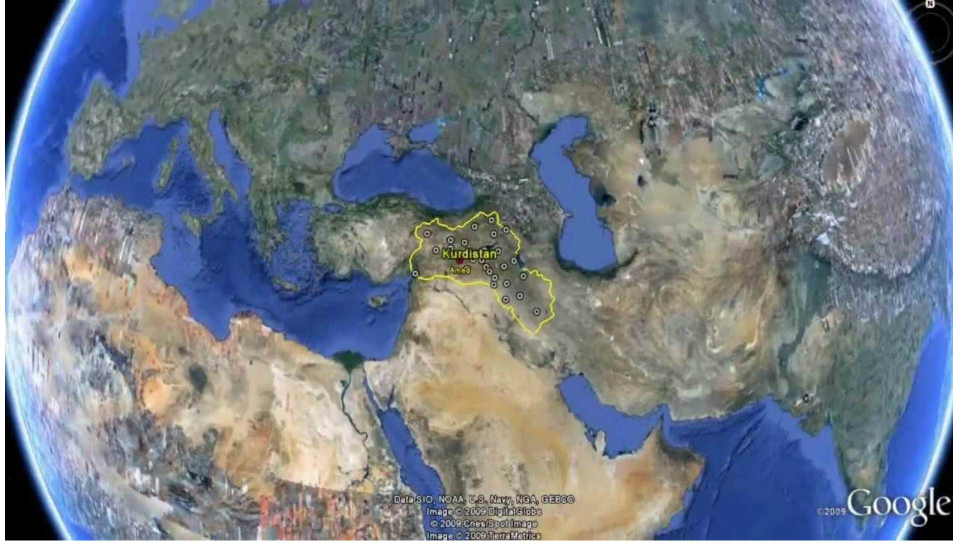
بداية، ربما يعصب المجادلة بأن الصين واليابان والهند – مثلا- هي بلاد ذات حضارات شرقية، وربما يصعب المجادلة بأن الأوروبيين والأمريكان مثلا – أصحاب حضارة غربية، لكن يبقى هناك تساؤل مشروع: إلى أي الحضارات يمكن أن ننسب إيران وتركيا مثلا؟ فهل إيران ذات صبغة شرقية؟ وهل تركيا ذات صبغة غربية؟ وإذا كان هذا ممكنا بالنسبة لإيران وتركيا، فماذا عن العراق؟

رأينا المفترى: لا شك أن الجزء الشرقي من إيران هو أقرب إلى الحضارة الشرقية كحضارة الهند وما حولها، ولا شك عندنا أن الجزء الغربي من تركيا هو أقرب إلى الحضارة الغربية، لكن يبقى التساؤل المشروع هو: ماذا عن منطقة كردستان إيران وكردستان تركيا وكردستان العراق؟ إلى أي حضارة هي أقرب: إلى الشرق أم إلى الغرب؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري القول من عند أنفسنا أن منطقة كردستان (بحدودها الإيرانية والتركية وبقلبها العراقي) هي منطقة لا تتبع إلى الشرق ولا تتبع إلى الغرب، وهي الحد الفاصل بين الشرق والغرب. وبكلماتنا الحالية هي المنطقة التي ليست شرقية ولا غربية، كما في الخريطة التوضيحية التالية:



رأينا المفترى: نحن نظن أن خط الصفر الذي يجب أن يقسم الكرة الأرضية إلى قسمين (شرقية وغربية) يجب أن يمر بالنقطة الحمراء (أو ما يجاورها) الواقعة في منطقة كردستان كما توضحها صورة العم غوغل في الشكل التالي:



افتراءات خطيرة من عند أنفسنا

⇐ يمتد خط الصفر الحقيقي من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي ليمر بتلك النقطة (منطقة كردستان) فيقسم الأرض إلى قسمين: شرق و غرب

⇐ تكون الأرض الواقعة على ذلك الخط لا شرقية ولا غربية

⇐ تقع الشجرة المذكورة في القرآن على أنها لا شرقية ولا غربية على هذا الخط

⇐ هذه هي أرض الزيتون، حيث حضارة الأمة التي بُعث فيها إبراهيم نذيرا

نتيجة مفتراة مهمة جدا: تتوسط هذه الحضارة الأرض، فكل ما يقع إلى يمين الناظر إلى ذلك الخط على الشاشة يكون شرقيا، وكل ما يقع إلى يساره يكون غربيا، وكل ما يقع على ذلك الخط مباشرة، فهو لا شرقي ولا غربي.

السؤال: ما فائدة ذلك؟ ما فائدة أن تكون هناك نقطة تقسم الشرق عن الغرب؟

جواب مفترى خطير جدا لا تصدقوه: هذا هو المكان الأمثل على الأرض كلها لمراقبة الكون بأكمله.

الدليل

إن هذا الافتراء الخطير ينقلنا مباشرة للحديث عن إبراهيم وكل ما يتعلق بهذا الرسول الأعظم على مر التاريخ. فهو بداية من كان بنفسه أمة:

- **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120)**

وهو من اجتباه الله وهداه إلى صراط مستقيم:

- **شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (121)**

وهو من أُري ملكوت السموات والأرض كما جاء في الآية الكريمة التالية:

- **وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75)**

وهو من رأى بأم عينه ذاك الكوكب والشمس والقمر بازغين كما جاء في الآيات التي تلي ذلك مباشرة:

- **فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79)**

وهو من أخرجه الله من النار:

- **قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (68) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69)**

وهو من ذهب إلى ربه بعد أن خرج من النار مباشرة:

- **قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (97) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (98) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (99)**

إن هذه الآيات تدعونا إلى تدبر قصة هذا الرسول الكريم من أولها، طارحين تساؤلات كثيرة حول كل جزئية جاءت في كتاب الله عنه، لأن في ذلك (نحن نؤمن) عبرة لأولي الألباب. فالله وحده أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم، وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا وأن يزدني علما – آمين

أما بعد،

باب إبراهيم كان أمة

تحدثنا عن هذه الجزئية في معرض حديثنا عن قصة يوسف عندما تعرضنا للآية الكريمة التالية:

- **وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (45)**

وافترينا القول بأن الأمة هي ما تشكله مجموعة من الناس بينهم قواسم مشتركة كالعقيدة والأرض والتاريخ، فهناك الأمة العربية وهناك الأمة الإنجليزية وهناك الأمة الهندية وهناك الأمة الصينية، وهكذا. فالأمة هي بمفرداتنا الدارجة الحضارة. وهناك هيئة الأمم المتحدة التي تجتمع فيها كل أمم الأرض تحت مظلة واحدة. أليس كذلك؟

السؤال: ما علاقة ذلك بإبراهيم؟

رأينا المفترى: لمّا كان كلّ رسول قد أُرسل إلى أمة، فإن إبراهيم قد أرسل إلى قومه الذين كانوا يعكفون على أصنامهم:

- وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ (51) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52)

وهناك جرت المواجهة الفعلية بين الطرفين:

- قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ (53) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (54) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (55) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (56) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (57)

وانتهى قرارهم بأن يحرقوه:

- قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (68)

ولكن لما كان كيد الله غالبا، خرج إبراهيم من النار لم يصبه أذى:

- قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (70)

ودارت الدائرة على رؤوسهم، فأتى الله بنيانهم من القواعد، فخر عليهم السقف:

- قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ (26)

وهناك اتخذ إبراهيم قراره بالهجرة إلى ربه:

- وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (99)
- فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (26)

وكانت وجهته الأرض التي باركنا فيها للعالمين:

- وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (71)

السؤال: ما الذي حصل مع إبراهيم بعد ذلك؟

راينا المفترى: ما أن هاجر إبراهيم من تلك الأرض حتى بقى وحيدا، فلم يتخذ قوما من بعدهم. فوهب الله له على الكبر من الذرية اثنين: إسماعيل وإسحق:

- الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء (39)

فأنشأ هو بنفسه أمة جديدة مكونة من بيتين اثنين: واحد في الأرض المقدسة حيث يسكن إسحاق وأمه، والآخر في الأرض التي لا زرع فيها خاصا بإسماعيل وأمه:

- رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (37)

وكان إبراهيم هو المرجع لكليهما، فكان إبراهيم بنفسه أمة:

- إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120)

منطقنا المفترى: لو تفقدنا السياقات القرآنية كلها، لوجدنا أن موسى مثلا كان في قومه:

- وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (5)
- وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (84)

ولكن بالرغم من وجود موسى نبيا لبني إسرائيل، إلا أن الأمة المتبعة لموسى تقبل شريعة إبراهيم أيضا.

والمنطق نفسه ينطبق في حالة عيسى، فالله هو من أرسل عيسى رسولا إلى بني إسرائيل، فلم يرضى المتبعون لشريعة عيسى إلا بعيسى وإبراهيم:

- **وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (6)**

وجاء محمد في أمة جديدة، فلم يرضى أتباع محمد إلا بمحمد وإبراهيم:

- **إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (68)**

فكان إبراهيم هو الأصل الذي يجتمع عنده الجميع، فهو البيت الذي تجتمع فيه كل الأمم الأخرى، ولتبسيط الفكرة فإننا نتخيل إبراهيم بمثابة هيئة الأمم المتحدة التي تنطوي تحتها كل الأمم الأخرى. وبذلك أصبح إبراهيم بشخصه إماما لكل الناس:

- **وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (124)**

تلخيص ما سبق: كان إبراهيم يقيم في قومه، فحصلت المواجهة الإيمانية بين الطرفين، وانتهت بالإبادة الجماعية للقوم، ونجاة إبراهيم ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين، وهناك اتخذ لوط قوما له:

- **كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (160)**

فكان أخوهم:

- **إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (161)**

مرسل إليهم:

- **إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (162)**

ولكن إبراهيم لم يتخذ له قوما كما فعل لوط، فلم يكن إبراهيم أخا لقوم آخرين. وآثر أن يقيم أمة جديدة من صلبه:

- **رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء (40)**

فكان إماما للناس أجمعين:

- **وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (124)أتأ**

استراحة قصيرة: باب الرسول أخ القوم

نجد في النص القرآني أن بعض الرسل قد تم وصفهم بصيغة الأخ للقوم بينما لا نجد رسولا آخرين يحملون هذا الوصف، فموسى مثلا لم يكن أخا لبني إسرائيل، ولم يكن محمد نفسه أخا لقومه.

السؤال: لم نعت بعض الرسل بصفة الأخ للقوم بينما لم ينعت آخرون بهذه الصفة؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الرسول الذي كان أخا للقوم فهو ليس من ذرية القوم أنفسهم، وليس أدل على ذلك من قصة لوط. فلوط هو من هاجر مع إبراهيم إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين:

وهناك اتخذ لنفسه قوما، فكان رسولا لهم:

- كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (160) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (161) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (162)

وهكذا يمكن أن نفهم علاقة نوح بقومه:

- إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (106)

وكذلك علاقة هود بعاد:

- وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ (65)
- وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ (50)
- كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (124)

وعلاقة صاح بثمود:

- وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (73)
- وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (61)
- وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (45)
- كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (141) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (142)

وعلاقة شعيب بمدين

- وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (85)
- وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (84)
- وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (36)

ومن هذا الباب يمكن أن نفهم لم كان القوم ينعتون الرسول الذي هو أخوهم بالضعف:

- قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (91)

باب هداه إلى صراط مستقيم (نكرة)

- إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (121)

السؤال: إذا كان صراط الله هو الصراط المستقيم (معرفة):

- اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ (6)

وإذا كان الله قد هدى بعض عباده إلى ذلك الصراط المستقيم (معرفه):

- وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (114) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (115) وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (116) وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (117) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (118)

فما هو الصراط المستقيم الذي هدى الله إبراهيم إليه؟

- شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (121)

لو تدبرنا هذا النص القرآني لوجدنا أن الله قد هدى إبراهيم إلى صراط مستقيم (نكرة)، أليس كذلك؟

السؤال المربك: لِم لم يأتي النص على نحو أن الله قد هدى إبراهيم إلى الصراط المستقيم، كأن نقول مثلا:

شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى الصراط المستقيم؟

السؤال: هل الصراط المستقيم الذي هدى الله إليه إبراهيم هو نفسه صراط الله المستقيم؟

رأينا: كلا، لأن منطوق الآية يبين أن هناك أكثر من صراط مستقيم، فكانت هداية الله لإبراهيم إلى واحد منها:

- شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (121)

السؤال: ما هو ذلك الصراط المستقيم (على وجه التحديد) الذي هدى الله إليه إبراهيم؟

وللحديث بقية إن شاء الله

التساؤلات في المرة القادمة:

⇐ أين كانت بلاد إبراهيم الأولى؟

⇐ ما علاقة هذا بخط الصفر؟

⇐ ما علاقة هذا بالزيتونة التي لا شرقية ولا غربية؟

⇐ ما علاقة هذا برؤية إبراهيم ذاك الكوكب؟

⇐ ما علاقة هذا برؤية إبراهيم الشمس بازغة؟

⇐ ما علاقة هذا بروية إبراهيم القمر بازغا؟

⇐ وما علاقة هذا بنشوء الحضارات القديمة (آشور وبابل) في تلك المنطقة على وجه التحديد؟

⇐ لماذا برعت تلك الحضارات على وجه التحديد بعلم الفلك؟

⇐ ما علاقة هذا بهداية إبراهيم إلى ربه؟

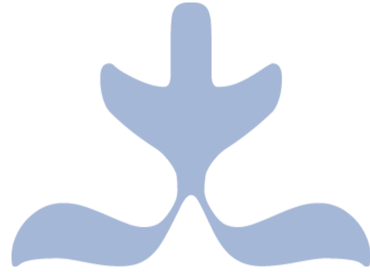
⇐ ما علاقة هذا بالتين؟

⇐ أين هي أرض التين؟

⇐ ومن هي الأمة التي سكنت بلاد التين؟

- ⇐ ومن هو النذير الذي خلا فيهم؟
- ⇐ كيف تكتمل الرسالات في أرجاء الأرض بهذه المناطق الجغرافية (التين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين)؟
- ⇐ ما علاقة هذا بالإله نفسه ومكان لقاءه؟
- ⇐ ما علاقة هذا كله بمنطق فرعون الذي اطلع إلى إله موسى؟
- ⇐ ما علاقة هذا بالأهرامات وبحضارة عاد؟
- ⇐ وما سر هذا الصراع التاريخي القديم الجديد في هذه المناطق الجغرافية على وجه التحديد؟
- ⇐ الخ.

(دعاء: أسأل الله وحده أن ينفذ مشيئته وإرادته لنا الإحاطة بشي من علمه لا ينبغي لغيري، إنه هو العليم الحكيم، وأدعوه وحده أن يؤتيني رشدي، وأن يجعل لي من لدنه سلطانا نصيرا، وأعوذ به أن يكون أمري كأمر فرعون، إنه هو الواسع العليم – آمين)



قصة يونس

الجزء الخامس والعشرون



قصة يونس: الجزء الخامس والعشرون

تعرضنا في الجزء السابق من هذه المقالة لبدايات سورة التين:

- **وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) وَطُورِ سِينِينَ (2) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (3)**

وخلصنا إلى افتراء الظن بأن هذه مناطق جغرافية خاصة بالأمم الرئيسية التي أرسل إليها أولي العزم من الرسل، فبقيت رسالاتهم خالدة على مر الزمان، وكان لكل أمة منهم شرعة ومنهاجا. فافترينا الظن بأن شرعة ومنهاج أمة محمد قد اتخذت منسكها في الواد غير ذي الزرع عند بيت الله الحرام، الموجود في هذا البلد الأمين:

- **وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (3)**

وكانت شرعة ومنهاج رسالة موسى وعيسى قد اتخذت منسكها عند طور سنين:

- **وَطُورِ سِينِينَ (2)**

وخلصنا في مقالات سابقة لنا أن محمدا لم يرضى أن يكون متبعا لشرعة ومنهاج الأمم التي سبقته، فبقي يقلب وجهه في السماء حتى حصل على الاستقلالية التامة:

- **قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (144)**

فما رضي محمد أن يتبع قبلتهم لأنهم بكل تأكيد لا يرضون أن يتبعوا قبلته:

- **وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (145)**

نتيجة مفتراة: ولى محمد (ومن تبع شرعته ومنهاجه) وجهه شطر المسجد الحرام الموجود في هَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ

نتيجة مفتراة: ولى موسى وعيسى (ومن اتبع شرعتهم من أهل الكتاب) وجههما شطر طُورِ سِينِينَ

واتخذت الأمة التي أرسل فيهم إبراهيم شرعتهم ومنهاجهم في بلاد الزيتون:

- **... وَالزَّيْتُونِ (1)**

وكانت الرسالة الأولى (رسالة نوح) قد انبعثت في أرض التين:

- **وَالتِّينِ ... (1)**

(للتفصيل انظر الجزء السابق)

وقد توقفنا في الطرح السابق عند محطة الزيتون التي (ظننا) أن إبراهيم قد خلا فيها نذيرا:

- **... وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ (24)**

فقدمنا افتراءات هي – لا شك- من عند أنفسنا ظننا أنها غير مسبوقة، نعيد أهمها هنا من أجل متابعة النقاش قدما في هذا الجزء الجديد من المقالة

الافتراءات السابقة

⇐ كان إبراهيم قد بُعث نذيرا في أرض الزيتون
⇐ تقع أرض الزيتون هذه (نحن نتخيل) في وسط الكرة الأرضية، فهي بلاد لا شرقية ولا غربية
⇐ ينطلق خط الصفر (الذي يفصل الشرق عن الغرب) من القطب الشمالي ويمتد إلى القطب الجنوبي فيمر في هذه المنطقة، فهو برأينا الخط الحقيقي الذي يفصل الشرق عن الغرب، فيكون بديلا حقيقيا لخط غرينتش الذي كان صنيعة الحضارة البريطانية.
⇐ تقع هذه المنطقة على الحدود الجغرافية الممتدة بين إيران والعراق وتركيا الحالية
⇐ يمكن حصرها بما يسمى اليوم بمنطقة كردستان
⇐ يمر خط الصفر في هذه المنطقة فتصبح كل الأرض إلى يمين الناظر على الشاشة هي أرض شرقية وتكون كل الأرض الواقعة على يسار الناظر إلى الشاشة هي أرض غربية.
⇐ على ذلك الخط (خط الصفر) تقع تلك الزيتونة التي ليست شرقية ولا غربية
⇐ تمتاز هذه المنطقة بأنها الأمثل (برأينا) لمراقبة السماء من الأرض
⇐ اهتدى إبراهيم إلى ذلك الصراط المستقيم
⇐ استطاع إبراهيم من هناك مراقبة السماء
⇐ استطاع إبراهيم أن يراقب ذلك الكوكب عندما كان يبحث عن ربه
⇐ استطاع إبراهيم من هناك أن يرى الشمس بازغة
⇐ استطاع إبراهيم من هناك أن يرى القمر بازغا
⇐ أدرك إبراهيم أن تلك الكينونات لا محالة آفلة، لذا لا تصلح أن تكون ربا له
⇐ أدرك إبراهيم أن ربه الحقيقي الذي يبحث عنه لا يأفل
⇐ وجه إبراهيم من هناك وجه للذي فطر السموات والأرض حنيفا
⇐ هدى الله إبراهيم إلى صراط مستقيم
⇐ رأى إبراهيم من هناك ملكوت السموات والأرض، فكان من الموقنين:

- **وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75)**

⇐ الخ

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن هذه واحدة من آيات الله في الأرض، وهي لا شك آية فقط لمن كان من الموقنين:

- **وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (20)**

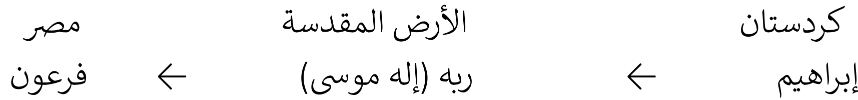
فهذا موسى يوجه الخطاب لفرعون بهذه الصيغة، بعد أن استفسر فرعون عن رب موسى:

- **قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (24)**

وجاءت هذه الصيغة في سياق الحديث عن الليلة المباركة التي يفرق فيها كل أمر حكيم:

- وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (3) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (4) أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (5) رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (6) رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (7)

وسنرى (إن أذن الله لنا بشيء من علمه فيها) تبعات هذا الظن لاحقا عندما نحاول ربط هجرة إبراهيم إلى ربه غربا باتجاه الأرض التي باركنا فيها للعالمين مع طلب فرعون من هامان أن يبني له صرحا يمكنه من الاطلاع شرقا باتجاه الأرض التي باركنا فيها للعالمين إلى إله موسى كما في الشكل التوضيحي المبسط التالي:



(دعاء: اللهم أسألك وحدك أن أكون من عبادك الموقنين، الذين يرون آياتك فيعرفونها، إنك أنت السميع العليم – آمين)

تبعات هذا الطرح

لمّا كنا نظن أن هذه البقعة الجغرافية هي المكان الأمثل على الأرض لمراقبة الأجرام السماوية، كان لابد من الاستفادة من الميزات الفريدة لهذا المكان في تشييد الحضارة. ولو رجعنا إلى السجلات التاريخية التي تتحدث عن نشوء الحضارات القديمة وازدهارها في تلك المنطقة، ربما لن يعيينا البحث أن نجد أن أعرق الحضارات القديمة قد شيّدت في تلك المنطقة الجغرافية على وجه التحديد، فكانت حضارة آشور وبابل من المحطات الحضارية التي لا يستطيع السجل البشري أن يتجاوزها. ولو تدبرنا التفكر في تلك الحضارات، لوجدنا أن لها ميزات خاصة تجعل لها طابعا فريدا لا تدانيه فيه حضارات أخرى على الأرض. فكانت حضارة آشور الأولى وكانت حضارة بابل الأولى، فبقيت آثارهم خالدة دليلا على رقي حضاراتهم.

أولا، حضارة آشور: مرتكزات فكرية مهمة

كانت حضارة آشور هي من أول الحضارات التي شيدت في تلك المنطقة. وهذه لمحة بسيطة عن تلك الحضارة كما وجدناها في موسوعة الويكيبديا:

آشور (Assyria, Ashur)، أول دولة قامت في مدينة آشور في شمال بلاد ما بين النهرين، وتوسعت في الألف الثانية ق.م. وامتدت شمالا لمدن نينوي، نمرود وخورسباد. ولقد حكم الملك شمشي مدينة آشور عام 1813 ق.م. واستولي حمورابي ملك بابل على آشور عام 1760 ق.م. إلا أن الملك الآشوري شلمنصر استولي على بابل وهزم الميتانيين عام 1273 ق.م. ثم استولت آشور ثانية على بابل عام 1240 ق.م. وفي عام 1000 ق.م. استولي الآراميون على آشور، لكن الآشوريين استولوا على فينيقيا عام 774 ق.م. وصور عام 734 ق.م. والسامرة عام 721 ق.م. وأسر سارجون الثاني اليهود في أورشليم عام 701 ق.م. وفي عام 686 ق.م. دمر الآشوريون مدينة بابل وثار البابليون على حكم الآشوريين وهزموهم بمساعدة ميديا عام 612 ق.م. شن الآشوريون حملاتهم على باقي مناطق سوريا وتركيا وإيران.



الإمبراطورية الآشورية في أقصى اتساع لها

وكانت مملكة آشور دولة عسكرية تقوم على العبيد، وكان لها إنجازات معمارية وصنع التماثيل ولاسيما تماثيل الثيران المجنحة التي كانت تقام أمام القصر الملكي، وزينت الجدران بنقوش المعارك ورحلات الصيد. وما بين سنتي 883 ق.م. و612 ق.م. أقامت إمبراطورية من النيل للقوقاز، ومن ملوكها العظام: آشوربانيبال، تغلات فلاصر الثالث، سرجون الثاني، سنحاريب، آشورناصربال، واسرحادون (والد آشور بانيبال) الذي كان مهووسا بحب إذلال الملوك حيث كان يجبر الملوك التابعين له على المجيء إلى عاصمته والعمل في ظروف قاسية لبناء قصوره في نينوى، وآخر ملوك آشور المدعو آشور أوباليط الذي اقام مقر قيادة مؤقت في حران (الجزيرة الفراتية) بعد سقوط نينوى بيد البابليين بقيادة نابو بولاصر الكلداني محاولا تأخير المذبحة الشاملة للشعب الآشوري. وكانت كتابة الآشوريين الكتابة المسمارية التي كانت تكتب علي ألواح الطين، وأشهر مخطوطاتها ملحمة جلجماش التي ورد بها الطوفان لأول مرة. وكانت علومهم مرتبطة بالزراعة ونظام العد الحسابي السومري الذي عرف بنظام الستينات وكان يعرفون أن الدائرة 60 درجة، كما عرفوا الكسور والمربع والمكعب والجذر التربيعي، وتقدموا في الفلك وحسبوا محيط خمسة كواكب، وكان لهم تقويمهم القمري وقسموا السنة لشهور والشهور لأيام، وكان اليوم عندهم 12 ساعة والساعة 30 دقيقة. وكانت مكتبة الملك آشور بانيبال من أشهر المكتبات في العالم القديم حيث جمع كل الألواح بها من شتى مكتبات بلاده

ويمكن أن نضيف الاقتباس التالي أيضا:

وقد اكتشفت في كثير من المدن الآشورية تماثيل هائلة الحجم مصنوعة من الحجر، وكانت توضع على جانبي أبواب الهياكل والقصور. وكان الآشوريون يسمون هذه التماثيل "شيدو" . وكانت تمثل حيوانات لها رؤوس بشرية وأجنحة وأما أجسامها فكانت أجسام أسود أو ثيران. ويرى بعض العلماء شبهًا كبيرًا بين هذه التماثيل "شيدو" وبين وصف حزقيال للكروبيم (حز 1: 5- 14). وكان الآشوريون يعبدون آلهة كثيرة. أما إلههم الرئيسي فكان آشور وهو اله الحرب وكانوا يمثلونه في شكل رامٍ للسهام داخل دائرة تمثل قرص الشمس ولها أجنحة. وكانت أشتارا الآلهة العظيمة للحرب والخصب وكانت الآلهة الأخرى تمثل قوى الطبيعة. وكان "أنو" يمثل قوة السماء و("بل" يمثل الأرض و"ايا" تمثل المياه و"سين" يمثل القمر و"شماش" تمثل الشمس و"رمان" تمثل العاصفة، والخمسة الكواكب السيارة التي كانت معروفة حينئذٍ. وكان معظم هذه الآلهة يعبد في بابل فيما عدا الاله "آشور"

في تلك الحضارة حصلت ملحة قلقامش حيث جاء فيها ذكر الطوفان الكبير. وهذه مقتطفات من الويكيبديا عن هذه الملحمة التاريخية:

بداية الملحمة

تبدأ الملحمة بالحديث عن جلجامش ملك أورك - الوركاء الذي كانت والدته إله خالدا ووالده بشرا فانيا ولهذا قيل بان ثلثيه إله والثلث الباقي بشر. وبسبب الجزء الفاني منه يبدأ بإدراك حقيقة أنه لن يكون خالدا. تجعل الملحمة جلجامش ملكا غير محبوب من قبل سكان أورك؛ حيث تنسب له ممارسات سيئة منها ممارسة تسخير الناس في بناء سور ضخم حول أورك العظيمة.

ابتهل سكان أورك للآلهة بأن تجد لهم مخرجا من ظلم جلجامش فاستجابت الآلهة وقامت إحدى الإلهات، واسمها أرورو، بخلق رجل وحي كان الشعر الكثيف يغطي جسده ويعيش في البرية يأكل الأعشاب ويشرب الماء مع الحيوانات؛ أي أنه كان على النقيض تماما من شخصية جلجامش. ويرى بعض المحللين أن هناك رموزا إلى الصراع بين المدنية وحياة المدن الذي بدأ السومريون بالتعود عليه تدريجيا بعد أن غادروا حياة البساطة والزراعة المتمثلة في شخصية أنكيدو.

كان أنكيدو يخلص الحيوانات من مصيدة الصيادين الذين كانوا يقتاتون على الصيد، فقام الصيادون برفع شكواهم إلى الملك جلجامش؛ فأمر إحدى خادمات المعبد بالذهاب ومحاولة إغراء أنكيدو ليمارس الجنس معها؛ وبهذا تبتعد الحيوانات عن مصاحبة أنكيدو ويصبح أنكيدو مروضا ومدنيا. حالف النجاح خطة الملك جلجامش، وبدأت خادمة المعبد -وكان اسمها شمخات، وتعمل خادمة في معبد الآلهة عشتار - بتعليم أنكيدو الحياة المدنية؛ ككيفية الأكل واللبس وشرب النبيذ، ثم تبدأ بإخبار أنكيدو عن قوة جلجامش وكيف أنه يدخل بالعروسات قبل أن يدخل بهن أزواجهن. ولما عرف أنكيدو بهذا قرر أن يتحدى جلجامش في مصارعة ليجبره على ترك تلك العادة. يتصارع الاثنان بشراسة؛ فهما متقاربان في القوة، ولكن الغلبة في النهاية كانت لجلجامش، حيث اعترف أنكيدو بقوة جلجامش، وبعد هذه الحادثة يصبح الإثنان صديقين حميمين.

يحاول جلجامش دائما القيام بأعمال عظيمة ليبقى اسمه خالدا؛ فيقرر في يوم من الأيام الذهاب إلى غابة من أشجار الأرز؛ فيقطع جميع أشجارها، وليحقق هذا عليه القضاء على حارس الغابة، وهو مخلوق ضخم وقبيح اسمه خومبابا. ومن الجدير بالذكر أن غابة الأرز كان المكان الذي تعيش فيه الآلهة ويعتقد أن المكان المقصود هو غابات أرز لبنان.

الصراع في غابة الأرز

يبدأ جلجامش وأنكيدو رحلتهما نحو غابات أشجار الأرز بعد حصولهما على مباركة شمش إله الشمس الذي كان أيضا إله الحكمة عند البابليين والسومريين وهو نفس الإله الذي نشاهده في مسلة حمورابي المشهورة وهو يناول الشرائع إلى الملك حمورابي وأثناء الرحلة يرى جلجامش سلسلة من الكوابيس والأحلام لكن أنكيدو الذي كان في قرارة نفسه متخوفا من فكرة قتل حارس الغابة يطمأن جلجامش بصورة مستمرة على أن أحلامه تحمل معاني النصر والغلبة.

عند وصولهما الغابة يبدآن بقطع أشجارها فيقترب منهما حارس الغابة خومبابا ويبدأ قتال عنيف ولكن الغلبة تكون لجلجامش وأنكيدو حيث يقع خومبابا على الأرض ويبدأ بالتوسل منهما كي لا يقتلاه ولكن توسله لم يكن مجديا حيث أجهز الاثنان على خومبابا وأردياه قتيلا. أثار قتل حارس الغابة غضب إلهة الماء أنليل حيث كانت أنليل هي الإلهة التي أناطت مسؤولية حراسة الغابة بخومبابا.

بعد مصرع حارس الغابة الذي كان يعتبر وحشا مخيفا يبدأ اسم جلجامش بالانتشار ويطبق شهرته الآفاق فتحاول الإلهة عشتار التقرب منه بغرض الزواج من جلجامش ولكن جلجامش يرفض العرض فتشعر

عشتار بالإهانة وتغضب غضبا شديدا فتطلب من والدها آنو، إله السماء، أن ينتقم لكبريائها فيقوم آنو بإرسال ثور مقدس من السماء لكن أنكيدو يتمكن من الإمساك بقرن الثور ويقوم جلجامش بالإجهاز عليه وقتله.

بعد مقتل الثور المقدس يعقد الآلهة اجتماعا للنظر في كيفية معاقبة جلجامش وأنكيدو لقتلهما مخلوقا مقدسا فيقرر الآلهة على قتل أنكيدو لأنه كان من البشر أما جلجامش فكان يسري في عروقه دم الآلهة من جانب والدته التي كانت إلهة فيبدأ المرض المنزل من الآلهة بإصابة أنكيدو الصديق الحميم لجلجامش فيموت بعد فترة.

رحلة جلجامش في بحثه عن الخلود

بعد موت أنكيدو يصاب جلجامش بحزن شديد على صديقه الحميم حيث لا يريد أن يصدق حقيقة موته فيرفض أن يقوم أحد بدفن الجثة لمدة أسبوع إلى أن بدأت الديدان تخرج من جثة أنكيدو فيقوم جلجامش بدفن أنكيدو بنفسه وينطلق شاردا في البرية خارج أورك وقد تخلى عن ثيابه الفاخرة وارتدى جلود الحيوانات. بالإضافة إلى حزن جلجامش على موت صديقه الحميم أنكيدو كان جلجامش في قرارة نفسه خائفا من حقيقة أنه لابد من أن يموت يوما لأنه بشر والبشر فانٍ ولا خلود إلا للآلهة. بدأ جلجامش في رحلته للبحث عن الخلود والحياة الأبدية. لكي يجد جلجامش سر الخلود عليه أن يجد الإنسان الوحيد الذي وصل إلى تحقيق الخلود وكان اسمه أوتنابشتم والذي يعتبره البعض مشابها جدا أن لم يكن مطابقا لشخصية نوح في الأديان اليهودية والمسيحية والإسلام. وأثناء بحث جلجامش عن أوتنابشتم يلتقي بإحدى الإلهات واسمها سيدوري التي كانت آلهة النبيذ وتقوم سيدوري بتقديم مجموعة من النصائح إلى جلجامش والتي تتلخص بأن يستمتع جلجامش بما تبقى له من الحياة بدل أن يقضيها في البحث عن الخلود وأن عليه أن يشبع بطنه بأحسن المأكولات ويلبس أحسن الثياب ويحاول أن يكون سعيدا بما يملك لكن جلجامش كان مصرا على سعيه في الوصول إلى أوتنابشتم لمعرفة سر الخلود فتقوم سيدوري بإرسال جلجامش إلى الطَوَّافُ أورشنبي، ليساعده في عبور بحر الأموات ليصل إلى أوتنابشتم الإنسان الوحيد الذي استطاع بلوغ الخلود.

عندما يجد جلجامش أوتنابشتم يبدأ الأخير بسرد قصة الطوفان العظيم الذي حدث بأمر الآلهة وقصة الطوفان هنا شبيهة جدا بقصة طوفان نوح، وقد نجى من الطوفان أوتنابشتم وزوجته فقط وقررت الآلهة منحهم الخلود. بعد أن لاحظ أوتنابشتم إصرار جلجامش في سعيه نحو الخلود قام بعرض فرصة على جلجامش ليصبح خالدا، إذا تمكن جلجامش من البقاء متيقظا دون أن يغلبه النوم لمدة 6 أيام و7 ليالي فإنه سيصل إلى الحياة الأبدية ولكن جلجامش يفشل في هذا الاختبار إلا أنه ظل يلح على أوتنابشتم وزوجته في إيجاد طريقة أخرى له كي يحصل على الخلود. تشعر زوجة أوتنابشتم بالشفقة على جلجامش فتدله على عشب سحري تحت البحر بإمكانه إرجاع الشباب إلى جلجامش بعد أن فشل مسعاه في الخلود، يغوص جلجامش في أعماق البحر في أرض الخلود دلمون (البحرين حاليا) ويتمكن من اقتلاع العشب السحري.

عودة جلجامش إلى أورك

بعد حصول جلجامش على العشب السحري الذي يعيد نضارة الشباب يقرر أن يأخذه إلى أورك ليجربه هناك على رجل طاعن في السن قبل أن يقوم هو بتناوله ولكن في طريق عودته وعندما كان يغتسل في النهر سرقت العشب إحدى الأفاعي وتناولته فرجع جلجامش إلى أورك خالي اليدين وفي طريق العودة يشاهد السور العظيم الذي بناه حول أورك فيفكر في قرارة نفسه أن عملا ضخما كهذا السور هو أفضل طريقة ليخلد اسمه. في النهاية تتحدث الملحمة عن موت جلجامش وحزن أورك على وفاته

ثانيا، حضارة بابل الأولى: مرتكزات فكرية مهمة

- نشأت حضارة بابل الأولى على أعقاب الحضارة الآشورية الأولى، ولو تفقدنا السجلات التاريخية لوجدنا بداية أن مفردة "بابل" بحد ذاتها تعني بوابة الإله
- اتسمت هذه الحضارة ببناء ما يسمى الحدائق المعلقة، وبرعوا في بناء ما يسمى بالزقورات، التي وجدنا تعريفها في موسوعة الوكيبيديا على النحو التالي:

اهتم ملوك الدولة البابلية الاوائل ببناء الزقورات المنصة الهائلة الارتفاع لتكون وسيلة لاتصال بين السماء والارض، صممت لتسهيل هبوط الالهة إلى الارض لتقصير المسافة بين السماء والارض. الزقورات بناء عالي مدرج يتألف من عدد من الطوابق يترواح عددها 7 أكبر الطوابق في الاسفل واصغر الطوابق في الاعلى التي يتوجها معبد صغير. قاعدة الزقورات مربعة او متسطيلة الشكل يتراوح ارتفاعها بين 30 إلى 50 مترا. الصعود للزقورة بثلاث سلالم..احدها محوري يتعامد مع أحد الاضلاع ويصل إلى الطابق العلوي.اما الاخران فجانبيان يلتقيان بالسلم المحوري في الطبقة الاولى. تقدم ابنية الزقورات الهائلة الحجم اوضح دليل على المستوى الفني العالي الذي بلغه فن العمارة القديم في بلاد الرافدين. في مجال استخدام الحساب والهندسة جعلت قواعد الزقورات ذات الاضلاع الطويلة بشكل متساوي منتظم دون اي فرق بين طول ضلع واخر. بعد الطبقة الاولى يصغر حجم الطبقات تدريجيا بنسب منتظمة تشير إلى تناسق كبير. تتميز سلالمها الثلاث خاصة سلمها المحوري الذي يوصل إلى قمة الزقورة بأستقامة تامة. كان المعمار تواقا بأسلوب هندسي بارع. اهتم ملوك الدولة البابلية الاؤلى أيضا ببناء المعابد قرب الزقورات فتكون معبدا ارضيا تابعا لالزقورات او في امكنة بعيدة عن الزقورات فتكون معبدا مستقلا يكرس لعبادة اله او ملك من الملوك. تتميز معابد هذا العصر بأشكال منتظمة واضحة التفاصيل تكون اما مربعة او مستطيلة يحيط بكل منها سور ضخم تتجه اضلاعه نحو الجهات الاربع مزين من الخارج بعدد من الطلعات والدخلات. يتألف الجزء الداخلي للمعبد من ساحة مكشوفة صغيرة يحيط بها من ثلاث جوانب صف او صفان من الغرف المسقفة التي استخدمت لسكن الكهنة وخزن نذور المعبد وهداياه. هناك غرفة تضم تمثال الالهه ولذلك فأن معابد هذه الفترة كانوا يضعون تمثال الاله في مدخل المعبد مباشرة من أشهر هذه المعابد (معبد الاله انكي) في مدينة اور.

- كانت إنجازات الحضارة مميزة في الفلك والرياضيات والطب والموسيقى
- الخ.

السؤال المحوري: ما علاقة هذا بقصتنا عن إبراهيم؟

رأينا: لو تفقدنا هذه المنطلقات الفكرية عن تلك الحضارات التي نشأت في أرض الزيتون (كما نزعم)، لوجدنا على الفور أن تلك الحضارات قد برعت في علم الفلك وحساب التوقيت. ليكون السؤال المحوري هو: ما سر اهتمام تلك الحضارات بالفلك والزمن؟

لو رجعنا بالسجلات التاريخية إلى ما قبل ذلك، لوجدنا أن الحضارات الآشورية والبابلية هي وريثة الثقافة الأكادية والسومرية اللتان انطلقتا أساسا من تلك المنطقة الجغرافية. ومما يعرف عن الحضارة الأقدم (السومرية) أن الآلهة الأولى هم ثلاثة جاءوا من السماء إلى الأرض، فترسمهم اللوحات الجدارية مع مركبات مجنّحة، كما كانوا يعتقدون أن هذه الآلهة الثلاث تجتمع في إله واحد، كان يسكن أحد الكواكب، وبالذات كوكب نيبرو (الذي أصبح يعرف في الحضارات اللاحقة بمردوخ).

إن ما يهمنا في هذا الطرح هو الحقيقة التاريخية التي ربما يصعب المجادلة فيها، ألا وهي أن الحضارة في بلاد الرافدين قد بدأت على النحو التالي

السومريون ← الأكديون ← الآشوريون ← البابليون

رأينا المفترى: نحن نظن أن هذه الحضارات كانت السبّاقة إلى فكرة خط الصفر الذي يقسم الشرق عن الغرب، فهم يسكنون في بلاد لا شرقية ولا غربية، وفيها يمر خط الصفر الذي من عنده يمكن مراقبة أفلاك السماء، ومن ثم حساب التوقيت بطريقة دقيقة جدا، فنحن نظن أن القوم كانوا بارعين في مراقبة الشمس والقمر لهذه الغاية، قال تعالى:

- **هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (5)**
- **وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً (12)**
- **إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (20)**

السؤال: متى بدأ الاهتمام بالفلك وبمراقبة الأجرام السماوية؟

جواب مفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا أن الاهتمام بمراقبة السماء قد بدأ في الحضارة التي نشأ فيها إبراهيم، وربما لهذا (نحن لازلنا نفتري القول من عند أنفسنا) نجد السياقات القرآنية الأولى عن حياة إبراهيم تبرزه شخصا مهتما بالكواكب والشمس والقمر، قال تعالى:

- **فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79)**

لذا سنترك الحديث عن ما وصلنا من أخبار تلك الحضارات في النقوش القديمة والكتابات والجداريات التي لازالت قائمة لأهل الاختصاص، وسنحاول تسطير رؤيتنا الخاصة حول الموضوع نفسه، زاعمين الظن أن السياقات القرآنية (كما نفهمها) تؤيد ما سنذهب إليه من أفهام مفتراة من عند أنفسنا، طارحين تساؤلاتنا حول السياقات القرآنية التي تبرز إبراهيم متفكرا في الفلك من حوله، سائلين الله وحده أن يهدينا رشدنا، وأن يعلمنا الحق الذي نقوله، فلا نفتري عليه الكذب، إنه هو العليم الحكيم – آمين.

تساؤلات

⇐ لماذا اهتم إبراهيم بالكواكب والشمس والقمر؟

⇐ لماذا ظن إبراهيم بداية أن ربه هو ذلك الكوكب؟

⇐ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (76)

⇐ ما هو ذلك الكوكب الذي رءاه إبراهيم؟

⇐ ألا يوجد في السماء كواكب كثيرة غيره؟

⇐ كيف لا، ويوسف قد رأى أحد عشر كوكبا؟

- **إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (4)**

⇐ كيف لا، والله قد زين السماء الدنيا بزينة الكواكب؟

- **إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (6)**

⇐ متى رأى إبراهيم ذلك الكوكب على وجه التحديد؟

⇐ كيف علم إبراهيم أن ذلك الكوكب قد أفل؟

⇐ وكيف كانت طريقة أفوله؟

افتراء خطير: نحن نظن أن لذلك كله علاقة بتلك الزيتونة التي لا شرقية ولا غربية:

- **اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (35)**

⇐ لماذا انتقل إبراهيم بعد ذلك مباشرة إلى القمر؟

⇐ كيف رءاه؟

⇐ متى رءاه؟

⇐ كيف أفل؟

- **فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77)**

⇐ لماذا انتقل بعد ذلك إلى الشمس؟

⇐ متى رأى إبراهيم الشمس بازغة؟

⇐ كيف رءاها بازغة؟

- **فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78)**

⇐ لماذا توقف إبراهيم عند هذا الحد؟

⇐ لِم لم يتوقف عن اثنتين فقط؟

⇐ لم لم ينتقل إلى كينونة رابعة ليتفقدها كما فعل مع ذاك الكوكب والشمس والقمر؟

⇐ السؤال: لماذا ثلاثة (كوكب، الشمس، القمر) فقط؟

- **فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79)**

⇐ كيف وجّه إبراهيم بعد ذلك وجهه مباشرة للذي فطر السموات والأرض حنيفا؟

⇐ ما علاقة هذا بهجرة إبراهيم (وذهابه) إلى ربه؟

- **فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (26)**
- **وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (99)**

⇐ الخ

إبراهيم: باب الطفولة

لعلنا بحاجة للخوض في قصة حياة هذا النبي الكريم منذ بدايتها، محاولين التعرف أكثر على تفاصيل حياته في محطاتها المختلفة، مبتدئين النقاش من طفولة هذا النبي الكريم، طارحين التساؤلات التالية:

⇐ من هو إبراهيم هذا؟
⇐ لماذا سُمي بإبراهيم؟
⇐ من هو أبوه؟
⇐ من هي أمه؟
⇐ من هم قومه؟
⇐ متى عاش هذا النبي الكريم؟
⇐ ما سر اهتمامه بربه؟
⇐ كيف بدأ رحلته بالبحث عن ربه؟
⇐ الخ.

دعنا نحاول الإجابة على هذه التساؤلات متسلحين بالآيات القرآنية الكريمة التي تتحدث عن سيرة حياة هذا النبي الكريم، منطلقين من المعضلة التالية: إبراهيم يتبرأ من أبيه وفي الوقت ذاته يستغفر لوالديه، كما نستنبط ذلك من التضارب الظاهري في السياقيين القرآنيين التاليين:

- **وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (114)**
- **الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء (39) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء (40) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (41)**

السؤال المربك: كيف بإبراهيم يتبرأ من أبيه (فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ) وفي الوقت ذاته نجده يستغفر الله لوالديه (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ)؟

النقاش

نجد أولا أن إبراهيم قد تبرأ من أبيه الذي كان يتخذ الأصنام آلهة:

- **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ (74)**

وحصل أن تبرأ إبراهيم منه بعد أن تبين له أنه عدو لله:

- **وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (114)**

ولو تفقدنا معنى عبارة "فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ"، لوجدنا (نحن نفتري القول) بأن مصدر التبيان كان إلهيا، فالله هو من بيّن لإبراهيم أن أباه هذا عدو لله. وليس أدل على ذلك – برأينا- مما حصل مع الرجل الذي مر على القرية وهي خاوية على عروشها، فما حصل له التبيان إلا من مصدر إلهي:

- **أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِي هَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى**

طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259)

نتيجة مهمة جدا: يسلم إبراهيم وجهه لله، يهديه الله إلى صراط مستقيم، يحاول إبراهيم ثني أبيه آزر عن اتخاذ الأصنام آلهة، فلم يفلح، يعد إبراهيم أباه بالاستغفار له، يتبين لإبراهيم (من مصدر إلهي) بأن أباه هذا عدو لله، فيتبرأ إبراهيم منه، أليس كذلك؟

- **وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأوَّاهٌ حَلِيمٌ (114)**

إن صح منطقنا المفترى هذا، فإننا نجد أنفسنا في معضلة كبيرة (أي ورطة) مع السياق القرآني التالية:

- **الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء (39) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء (40) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (41)**

المعضلة: هنا نجد أن إبراهيم يخاطب ربه على الكبر بعد أن وهب له إسماعيل وإسحاق (الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ)، فيطلب من الله أن يجعله من مقيم الصلاة ومن ذريته (رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي)، فيطلب المغفرة في الوقت ذاته لوالديه (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ).

السؤال المربك جدا: كيف بإبراهيم في هذا العمر (أي على الكبر) حيث تبين له – لا شك عندنا- من ذي قبل أن أباه عدو لله، فيتبرأ منه، وهو الآن يطلب المغفرة لوالديه؟ وبكلمات أخرى نحن نسأل: ألم يتبرأ إبراهيم من أبيه هذا من ذي قبل بعد أن تبين له أنه عدو لله؟ فلم إذن يعود على الكبر ليطلب المغفرة لوالديه؟!

السؤال مرة أخرى: نحن نظن أن إبراهيم قد تبرأ من أبيه الذي تبين له أنه عدو لله في وقت مبكر من حياته، ونحن نؤمن أن إبراهيم قد هجر أباه مليّا كما طلب هو بنفسه من إبراهيم:

- **قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46)**

ونحن نؤمن أنه قد تبين لإبراهيم بعد ذلك مباشرة أن أباه هذا عدو لله، فلم بعد هذا كله (نحن نسأل) يعود إبراهيم على الكبر ليطلب المغفرة لوالديه؟

- **الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء (39) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء (40) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (41)**

رأينا المفترى: للخروج من هذا التضارب الظاهري، نجد لزاما علينا البحث عن هوية الأب الذي تبرأ إبراهيم منه مقابل هوية الوالد الذي طلب إبراهيم المغفرة له، مفترين الظن بأن أب إبراهيم يختلف عن والد إبراهيم.

افتراء من عند أنفسنا خطير جدا: هناك فرق بين أب إبراهيم ووالد إبراهيم. انتهى.

السؤال: أين الدليل على زعمك المفترى أن أب إبراهيم الذي تبرأ منه يختلف عن والد إبراهيم الذي طلب المغفرة له على الكبر؟ يسأل صاحبنا مستغربا.

جواب مفترى: تعرضنا لهذه الجزئية في الجزء الخامس من سلسلة مقالاتنا لماذا قدم نبي الله لوط بناته بدلا من ضيوفه؟ وفي سلسلة مقالاتنا عن قصة يوسف عندما تعرضنا لقوله تعالى:

- **وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًاۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّاۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100)**

فحاولنا حينها التفريق بين مفردة أَبَوَيْهِ ومفردة وَالِدَيْهِ كما تردا في النص القرآني، فزعمنا الفهم بأن مفردة "أَبَوَيْهِ" يمكن أن تحمل المعنى بأن يكون الاثنان مذكر (أي أب وأب) وليس فقط مذكر مع مؤنث (أي أب وأم)،ولكن مفردة والديه تعني بالضرورة أن يكون أحدهما مذكر (أب) والآخر مؤنث (أم)

الدليل

عند دراستنا للسياقات القرآنية الكثيرة حول مفردتي الأبوين والوالدين، وجدنا أن الحديث عن الأب والأم معاً يرد في النص القرآني بصيغة "الوالدين"، فالأم لا محالة هي أحد الوالدين، وذلك لأن الوالد هو الذي يلد:

- **وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (3)**

وانظر – إن شئت- في السياقات القرآنية العديدة التي تتحدث عن الوالدين، لترى كيف أن الأم هي طرف في هذا الحديث:

- **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (83)**
- **كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (180)**
- **يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (215)**
- **لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (7)**
- **وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (33)**
- **وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًاۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (36)**
- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُواۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (135)**

- قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151)
- رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (41)
- وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23)
- فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (19)
- رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (28)

فهذا يحيى يتحدث عن والديه:

- يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (12) وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا (13) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (14)

وجاءت الوصيّة من الله لكل إنسان خيراً بوالديه:

- وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۚ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8)

ونهى الله الإنسان عن الإساءة إلى والديه:

- وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (17)

وغالباً ما جاء الحديث عن الأم مفصلاً عند الحديث عن الوالدين:

- وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14)
- وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (15)

فالأم هي والدة:

- وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ ۚ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (233)

لذا جاء حديث عيسى بن مريم عن والدته:

- إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ

كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (110)

- وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (32)

والأب هو كذلك والد:

- يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا ۚ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (33)
- وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (3)

لتكون النتيجة المفتراة الآن هي: الوالد هو الذي يلد

السؤال: هل بالضرورة أن يكون الأب هو الذي يلد؟

رأينا: كلا. فالأب ليس بالضرورة أن يكون الوالد المباشر الذي يلد، بدليل أننا كلنا ننتمي لآدم وزوجه على أساس أنهما أبوينا وليس والدينا:

- يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (27)

فنحن من ذرية آدم وزوجه لأنهم لم يلدونا مباشرة، فهم إذن أبوينا (كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ). ولو جئنا مباشرة من آدم وزوجه لأصبحا (نحن نفتري القول) والدينا.

الدليل

هذا يعقوب يقول ليوسف بملء فيه من هم أبويه:

- **وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (6)**

فيعقوب إذاً يثبت ليوسف بأن إبراهيم وإسحق هما أبويه (وليس والديه)، أليس كذلك؟

نتيجة مفتراة: انظر خط السلالة هذه

إبراهيم (أب) ← إسحق (أب) ← يعقوب ← يوسف

- **... كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ...**

السؤال: ما علاقتهم جميعا بيوسف؟

افتراء (1): إبراهيم هو أب ليوسف لأنه لم يلده مباشرة

افتراء (2): إسحق هو أب ليوسف لأنه لم يلده مباشرة

- **كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ**

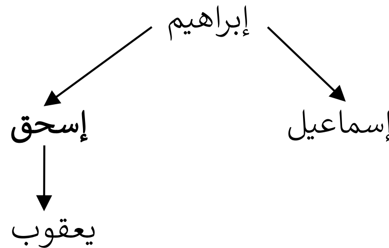
افتراء (3): يعقوب هو والد يوسف لأنه هو من ولده مباشرة

نتيجة مفتراة خطيرة جدا: نحن نفتري القول بأن الأبوين هما (بمصطلحات قومنا الدارجة) الوالدان غير المباشران.

وربما الملفت للانتباه أكثر هو أن الأمر لا يتوقف عن الجد ووالده (كإسحاق وإبراهيم)، ولكن يشمل ذلك أيضا العم كإسماعيل. وانظر – إن شئت- كيف يخاطب يعقوب نفسه جميع أبنائه، وكيف يأتي الرد من الأبناء على سؤال أبيهم:

- **أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133)**

لتكون الصورة بالنسبة ليعقوب على النحو التالي:



ولو تدبرنا رد الأبناء على سؤال أبيهم (<u>قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ</u>) لربما صح لنا أن نخرج بالاستنباطات المفتراة التالية:

نتيجة مفتراة (1): إسحق هو أب يعقوب المباشر (لذا فهو والده وأبوه في نفس الوقت)
نتيجة مفتراة (2): إسماعيل هو عم يعقوب (لذا فهو أبوه لكنه ليس والده)
نتيجة مفتراة (3): إبراهيم هو جد يعقوب (لذا فهو أبوه لكنه ليس والده)

تبعات هذا الظن الخطيرة

لو تفقدنا الآية الكريمة التالية، لربما خرجنا بتشريع قد يكون غير مسبوق. دعنا نقرأ الآية أولا:

- **وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاء سَبِيلاً (22)**

إذن نحن مأمورون (بنص الآية الكريمة) أن لا ننكح ما نكح آباؤنا، أليس كذلك؟

السؤال: هل هذا النهي مقتصر على زوجة الأب المباشر (أي الوالد)؟ وماذا عن ما نكح الجد؟ أليس الجد هو أب؟ وماذا عن ما نكح العم؟ أليس العم هو أب؟! من يدري؟

ولو دققنا جيدا في النصوص القرآنية كلها، لوجدنا أن مفردة الآباء تشمل السلالة كالأب الأول (الوالد) والأب الثاني والثالث والرابع حتى تصل إلى الآباء الأقدمين:

- **فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ (200)**

- وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (91)
- يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيما حَكِيمًا (11)
- قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤكُم مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (71)
- وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (43)
- قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ (53) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (54)
- قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (24)
- لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (61)
- قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (26)
- اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (126)
- لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (8)
- أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76)
- إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى (23)

السؤال: كيف يمكن أن نفهم آية الميراث التالية؟

- يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيما حَكِيمًا (11)

السؤال المربك: إذا كان الأبوان هما الوالد والوالدة، فكيف يتساويان في حصة الميراث (وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ)؟ أليس من المفترض أن يكون للوالد ضعف ما للوالدة؟

- وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أَو امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ

أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوَاْ أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاء فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (12)

من يدري؟!!!

عود على بدء

دعنا نترك أمر التشريع لأصحاب العمائم البيضاء والسوداء فهم الذين سطّروا العقائد كما أرادوها للناس اللذين آثروا على الدوام الالتزام بما سُطّر لهم دون مسائلة أو مناقشة، لأنهم نسوا ما جاء في قوله تعالى:

- **كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى المُقْتَسِمِينَ (90) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (91) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93)**

لنعود إلى صلب النقاش هنا بالافتراءات التالية عن إبراهيم:

افتراء (1): كان الذي تبرأ منه إبراهيم هو أبوه، لذا فهو فليس والده (أي الأب الأول له الذي ولده) وإنما قد يكون واحد من السلالة (كأبيه الثاني أو الثالث أو حتى عمه).

- **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ (74)**

ولو دققنا في النص جيدا لوجدنا أن القرآن الكريم يبرز شخصية ذلك الأب باسمه (آزَرَ)، ليكون السؤال الآن هو: لماذا ذكر القرآن الكريم اسم هذا الأب لإبراهيم؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لما كنا نظن أن هناك أكثر من أب لإبراهيم، كان أحدهم هو آزر هذا الذي تبرأ منه.

- **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (113) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (114)**

افتراء (2): كان الذي استغفر لهما إبراهيم على الكبر هما والداه (أي أبوه وأمه المباشرين)، ليكون الافتراء الآخر الآن هو أن هناك والد واحد لإبراهيم هو الذي ولده، وهناك والده واحدة لإبراهيم هي التي ولدته، وهما والداه اللذان استغفر لهما على الكبر:

- **الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء (39) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء (40) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (41)**

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: جاء إبراهيم من والدين هما أمه وأبوه المباشرين، وما أن كبر إبراهيم حتى وجد نفسه في كنف أبيه (أي والده غير المباشر)، وذلك (نحن نتخيل) لأن والديه كانا قد فارقا الحياة منذ زمن. فنشأ إبراهيم يتم الوالدين (كمثل محمد الذي نشأ أيضا يتيم الوالدين)، فعاش إبراهيم في كنف أبيه الذي رباه، كما عاش محمد في كنف أبيه (أي جده عبد المطلب بعد وفاه والده عبد الله) ومن ثم في كنف أبيه الآخر (عمه أبو طالب بعد موت جده عبد المطلب) كما تقول الروايات.

باب: إبراهيم الفتى

كان هذا الأب الذي تربى إبراهيم في كنفه (نحن لازلنا نتخيل) رجل ذو شأن في قومه، على درجة من العلم:

- إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45)

وربما لهذا السبب انشغل إبراهيم جدا بدعوة أبيه هذا، لأن في استجابة هذا الرجل لدعوة إبراهيم (لا شك عندنا) تأثير عظيم في القوم. فما نجحت دعوة إبراهيم في ثني والده هذا عن عبادة ما كان يعبد آباؤه من قبل:

- قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46)

فما كان من إبراهيم إلا أن يرد عليه قائلا:

- قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47)

ومنذ تلك اللحظة آثر إبراهيم أن يعتزل القوم:

- فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (49)

وكان القوم على عادة عبادة من هم من دون الله، وتمثلت في عبادتهم الأصنام:

- قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ (53)

فكان رد إبراهيم على إفكهم على النحو التالي:

- أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (86)
- قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (54)

فاستغرب القوم من كلام إبراهيم هذا،

- قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (55)

فرد عليهم إبراهيم قائلا:

- قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (56)

فما وجد إبراهيم القبول عندهم، وهناك بالضبط توعد آلهتهم بالكيد:

- وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (57)

فقام إبراهيم بتجذيد تلك الأصنام في لحظة غياب القوم عنها:

- فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (58)

وما أن عاد القوم ووجدوا ما فُعِل بأصنامهم حتى كان استفسارهم الأول عن هوية من فعل هذا بآلهتهم:

- قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59)

فجاء الرد من البعض بأن من فعل هذا هو فتى يقال له إبراهيم:

- قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (60)

فأُحضر إبراهيم على الفور لتلقي العقاب،على مرأى ومسمع من الحضور:

- قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (61)

وحصلت المواجهة الكلامية بين الطرفين على النحو التالي:

- القوم: قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (62)
- إبراهيم: قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (63)

وهنا وجد القوم أنفسهم في حرج لأن إبراهيم قد أقام عليهم الحجة:

- **فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (64)**

لكن حصلت النكسة لهم بعد ذلك مباشرة:

- **ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاء يَنطِقُونَ (65)**

فكانت ردة فعل إبراهيم على النحو التالي:

- **قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (66) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (67)**

وهنا اُتخذ القرار بإيقاع عقوبة التحريق بإبراهيم:

- **قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (68)**

(للتفصيل انظر مقالاتنا السابقة)

السؤال: لماذا سنحت الفرصة لإبراهيم للتنكيل بأصنام القوم في غيابهم؟

جواب مفترى: لأن إبراهيم كان فتى يعمل في ذلك المعبد مع أبيه آزر (المسئول الأول عن المعبد)

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نشأ إبراهيم بعد ولادته يتم الوالدين، فتربى في كنف والده (أي أبيه غير المباشر). وكان هذا الأب يتخذ أصناما لا تسمع ولا تعقل آلهة من دون الله، وفي الوقت ذاته كان يعبد الشيطان. وكان هذا الأب (آزر) هو المسئول الأول المباشر عن المعبد، ولما كان إبراهيم فتى، كان يقوم هو أيضا (ربما بتكليف من والده آزر) هذا على خدمة المعبد. فنشأ إبراهيم في هذه البيئة المشحونة إيمانيا، المنحرفة عقائديا، ولما كان هذا الفتى ذو قلب سليم:

- **وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (83) إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (84)**

لم يتقبل ما كان يعبد قومه من دون الله (ربما كما فعل محمد عندما وجد قومه يتخذون أصناما آلهة من دون الله)، فبدأ يتشكك بما يفعله القوم:

- **إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (85) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (86) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (87) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (88) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (89) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (90) فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (91) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (92) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (93) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (94) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (95) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (96) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (97) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (98) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (99)**

التساؤلات:

⇐ ماذا كانت عقيدة القوم؟
⇐ لماذا شكك إبراهيم بعقيدة قومه؟
⇐ كيف نظر إبراهيم نظرة في النجوم؟
⇐ ولماذا نظر نظرة في النجوم؟
⇐ وماذا كانت تبعات تلك النظرة؟
⇐ الخ.

افتراء خطير جدا جدا: نحن نظن أن عقيدة القوم كانت قائمة على مبدأ ثلاثية الآلهة

الدليل

نحن نظن أنه يمكن جلب الدليل الذي يدعم افتراءنا هذا بطرح التساؤلات القديمة الجديدة التالية:

- ⇐ لماذا اتخذ إبراهيم كوكبا إلها ثم اتخذ القمر إلها ثم اتخذ الشمس إلها؟
- ⇐ لم لم يكتفي إبراهيم بواحدة أو باثنتين؟
- ⇐ لم لم يتخذ شيئا رابعا إلها؟
- ⇐ لم توقف عند هؤلاء الثلاثة فقط؟
- ⇐ ولماذا هذه الثلاثة على وجه التحديد؟
- ⇐ الخ

تفنيد الفكر السائد

لعل الغالبية من الناس (خاصتهم وعامتهم) يفهمون السياق القرآني الذي يتحدث عن اتخاذ إبراهيم هذه الكينونات آلهة من باب بحث إبراهيم عن ربه الحقيقي، لكنهم لا يتجاوزن ذلك في تفكيرهم، فلا يطرحون تساؤلاتنا السابقة عن هذه الكينونات الثلاثة على وجه التحديد من حيث العدد والطبيعة. فلا نجد فيما سطرته أقلامهم سببا عن تفكر إبراهيم بهذه الكينونات بالذات، أو سببا عن عدم تفكر إبراهيم في غيرها، ربما ظانين أن ذلك يقع في باب المصادفة.

وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- فيما سطرته أقلام أهل الرواية عما تنقلوه عن أهل الدراية في بطون واحدة من أمهات كتب التفسير (تفسير القرطبي) عن تفسيرهم هذه الحادثة القرآنية الخاصة بإبراهيم:

فلما جن عليه الليل

أي ستره بظلمته , ومنه الجنة والجنة والجنين والمجن والجن كله بمعنى الستر . وجنان الليل ادلهمامه وستره . قال الشاعر : ولولا جنان الليل أدرك ركضنا بذي الرمث والأرطى عياض بن ناشب ويقال : جنون الليل أيضا . ويقال : جنه الليل وأجنه الليل لغتان .

رأى كوكبا

هذه قصة أخرى غير قصة عرض الملكوت عليه . فقيل : رأى ذلك من شق الصخرة الموضوعة على رأس السرب . وقيل : لما أخرجه أبوه من السرب وكان وقت غيبوبة الشمس فرأى الإبل والخيل والغنم فقال : لا بد لها من رب . ورأى المشتري أو الزهرة ثم القمر ثم الشمس , وكان هذا في آخر الشهر . قال محمد بن إسحاق : وكان ابن خمس عشرة سنة . وقيل : ابن سبع سنين . وقيل : لما حاج نمروذا كان ابن سبع عشرة سنة .

قال هذا ربي

اختلف في معناه على أقوال ; فقيل : كان هذا منه في مهلة النظر وحال الطفولية وقبل قيام الحجة ; وفي تلك الحال لا يكون كفر ولا إيمان . فاستدل قائلو هذه المقالة بما روي عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : " فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي " فعبده حتى غاب عنه , وكذلك الشمس والقمر ; فلما تم نظره قال : " إني بريء مما تشركون " [الأنعام : 78] . واستدل

بالأفول ; لأنه أظهر الآيات على الحدوث . وقال قوم : هذا لا يصح ; وقالوا : غير جائز أن يكون لله تعالى رسول يأتي عليه وقت من الأوقات إلا وهو لله تعالى موحد وبه عارف , ومن كل معبود سواه بريء . قالوا : وكيف يصح أن يتوهم هذا على من عصمه الله وآتاه رشده من قبل , وأراه ملكوته ليكون من الموقنين , ولا يجوز أن يوصف بالخلو عن المعرفة , بل عرف الرب أول النظر . قال الزجاج : هذا الجواب عندي خطأ وغلط ممن قاله ; وقد أخبر الله تعالى عن إبراهيم أنه قال : " واجنبني وبني أن نعبد الأصنام " [إبراهيم : 35] وقال جل وعز : " إذ جاء ربه بقلب سليم " [الصافات : 84] أي لم يشرك به قط . قال : والجواب عندي أنه قال " هذا ربي " على قولكم ; لأنهم كانوا يعبدون الأصنام والشمس والقمر ; ونظير هذا قوله تعالى : " أين شركائي " [النحل : 27] وهو جل وعلا واحد لا شريك له . والمعنى : أين شركائي على قولكم . وقيل : لما خرج إبراهيم من السرب رأى ضوء الكوكب وهو طالب لربه ; فظن أنه ضوءه قال : " هذا ربي " أي بأنه يتراءى لي نوره .

فلما أفل قال لا أحب الآفلين

علم أنه ليس بربه . " فلما رأى القمر بازغا " [الأنعام : 77] ونظر إلى ضوئه " قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين " [الأنعام : 77] . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي " [الأنعام : 78] وليس هذا شركا . إنما نسب ذلك الضوء إلى ربه فلما رآه زائلا دله العلم على أنه غير مستحق لذلك ; فنفاه بقلبه وعلم أنه مربوب وليس برب . وقيل : إنما قال " هذا ربي " لتقرير الحجة على قومه فأظهر موافقتهم ; فلما أفل النجم قرر الحجة وقال : ما تغير لا يجوز أن يكون ربا . وكانوا يعظمون النجوم ويعبدونها ويحكمون بها . وقال النحاس : ومن أحسن ما قيل في هذا ما صح عن ابن عباس أنه قال في قول الله عز وجل : " نور على نور " [النور : 35] قال : كذلك قلب المؤمن يعرف الله عز وجل ويستدل عليه بقلبه , فإذا عرفه ازداد نورا على نور ; وكذا إبراهيم عليه السلام عرف الله عز وجل بقلبه واستدل عليه بدلائله , فعلم أن له ربا وخالقا . فلما عرفه الله عز وجل بنفسه ازداد معرفة فقال : " أتحاجوني في الله وقد هدان " [الأنعام : 80] . وقيل : هو على معنى الاستفهام والتوبيخ , منكرا لفعلهم . والمعنى : أهذا ربي , أومثل هذا يكون ربا ؟ فحذف الهمزة . وفي التنزيل " أفإن مت فهم الخالدون " [الأنبياء : 34] أي أفهم الخالدون . وقال الهذلي : رفوني وقالوا يا خويلد لا ترع فقلت وأنكرت الوجوه هم هم آخر : لعمرك ما أدري وإن كنت داريا بسبع رمين الجمر أم بثمان وقيل : المعنى هذا ربي على زعمكم ; كما قال تعالى : " أين شركائي الذين كنتم تزعمون " [القصص : 74] . وقال : " ذق إنك أنت العزيز الكريم " [الدخان : 49] أي عند نفسك . وقيل : المعنى أي وأنتم تقولون هذا ربي ; فأضمر القول , وإضماره في القرآن كثير . وقيل : المعنى في هذا ربي ; أي هذا دليل على ربي

أما نحن، لمّا كنا نؤمن يقينا بأنّ كل شيء في كتاب الله مقصود لذاته، ويجب أن يكون مبررا، كان لزاما علينا أن نطرح التساؤلات السابقة، وكل تساؤل آخر له علاقة بالقضية قيد النقاش، لذا نحن نرفض الفكر السائد عن الموضوع جملة واحدة، ونحاول تسطير رأينا المخالف في الفقرات التالية، سائلين الله وحده أن يهدينا رشدا، وأن يهدينا لأقرب من هذا رشدا وأن يزدنا علما، إنه هو الواسع العليم – آمين.

أما بعد،

نحن نؤمن أن إبراهيم كان حنيفا، أليس كذلك؟

- إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًاۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79)

السؤال: ما معنى أن يكون إبراهيم حنيفا؟

رأينا المفترى والخطير جدا: نحن نظن أن من كان حنيفا هو المقابل المعاكس لمن كان من المشركين، لتكون النتيجة التي نحاول افتراءها هي أن إبراهيم كان حنيفا ولم يكن من المشركين. ولو تفقدنا السياقات القرآنية الخاصة بإبراهيم بهذه الجزئية لوجدناها جميعا تنفي عن إبراهيم الشرك، قال تعالى:

- وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُواۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (135)
- مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (67)
- قُلْ صَدَقَ اللَّهُۗ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (95)
- وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًاۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (125)
- إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًاۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79)
- قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (161)
- وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (105)
- إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120)
- ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (123)

السؤال: لماذا نفت هذه السياقات القرآنية الشرك عن إبراهيم؟

جواب: لأن قومه كانوا مشركين. وانظر عزيزي القارئ في السياق القرآني الذي يصور محاججة قومه له:

- وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ (80) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (81)

نتيجة مفتراة مهمة جدا: كان قوم إبراهيم يعبدون الله لكنهم كانوا يشركون به من هو دونه (وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا). فانقسموا إلى فريقين:

إبراهيم لا يشرك بالله أحدا من دونه

قومه يشركون بالله ما لم ينزل به سلطانا، وهذا هو الشرك الذي ثار إبراهيم عليه.

السؤال: لكن أي نوع من الشرك ثار إبراهيم عليه؟

رأينا: الشرك الذي كان يمارسه قومه، وهو عبادة من هم من دون الله:

- وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا (48) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (49)

فهم قد اتخذوا من دون الله آلهة:

- وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ (74)

- **وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا (48)**

السؤال: أي نوع من الأصنام كانوا يعبدون؟ وما هي الآلهة التي اتخذوها من دون الله؟

رأينا المفترى: لو تفقدنا السياقات القرآنية السابقة مرة أخرى، لوجدنا على الفور أن من كان حنيفا هو من لم يتخذ من دون الله آلهة، على عكس ما فعل أهل الكتاب. فملة إبراهيم هي الملة المقابلة المعاكسة لما فعل اليهود والنصارى اللذين كانوا مشركين:

- **وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُواۗقُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًاۖوَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (135)**

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفتري القول إذن أن اليهود والنصارى لم يكونوا على حنفية إبراهيم لأنهم اتخذوا آلهة من دون الله، فكانوا مشركين.

السؤال: من الآلهة التي اتخذها اليهود والنصارى حتى انتفت عنهم صفة الحنفية:

جواب مفترى:

- **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (30) اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (31)**

لو تفقدنا هذا السياق القرآني جيدا، لخرجنا بالاستنباطات التالية المفتراة من عند أنفسنا:

⇐ قالت اليهود عزيرا ابن الله، فلم يكونوا على الحنفية

⇐ قالت النصارى المسيح ابن الله، فلم يكونوا على الحنفية

⇐ اتخذ اليهود والنصارى أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله

⇐ كان في سلوكهم هذا مضاهاة لقول الذين كفروا من قبلهم

⇐ الخ

السؤال: من هم اللذين كفروا من قبل اليهود والنصارى وكانت عقيدتهم كذلك؟ أو بكلمات أخرى نحن نسأل: من اللذين كانت اليهود والنصارى تضاهيهم في القول؟

- **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (30)**

رأينا المفترى (1): نحن نفتري الظن من عند أنفسنا أن اللذين كفروا من قبل اليهود والنصارى وكانوا على عادة اتخاذ إلهة من دون الله هم قوم إبراهيم.

رأينا المفترى (2): ونحن نفتري الظن أيضا أن قوم إبراهيم كانوا على عقيدة مفادها ثلاثية الآلهة كما فعل النصارى:

- **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً (171)**

رأينا المفترى (2) ونحن ننفي أن تكون عقيدة قوم إبراهيم مبنية على عقيدة أن الآلهة اثنين كما فعلت اليهود اللذين اتخذوا عزيرا إلها من دون الله:

- وَقَالَ اللّهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلهٌ وَاحِدٌ فَإيَّايَ فَارْهَبُونِ (51)

تلخيص ما سبق:

⇐ اتخذ اليهود عزيرا ابن الله، فكانت عقيدتهم مبنية على أساس إلهين اثنين

⇐ اتخذت النصارى المسيح ابن الله، وزادوا إليه الروح، فكانت عقيدتهم مبنية على مبدأ التثليت

⇐ كان في تصرف اليهود والنصارى هذا باتخاذ آلهة من دون الله مضاهاة لقول اللذين كفروا من قبل

⇐ كانت الأمة التي نشأ بها إبراهيم يتخذون آلهة من دون الله

⇐ كانت عقيدتهم مبنية على مبدأ التثليث (الشمس والقمر وكوكب).

⇐ ثار إبراهيم على عقيدة الشرك هذه، فكان حنيفا

⇐ الخ

الدليل

السؤال: أين الدليل أن عقيدة قوم إبراهيم كانت تشبه عقيدة النصارى القائمة على مبدأ أن الآلهة ثلاثة؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الدليل واضح في أن إبراهيم قد اتخذ آلهة ثلاثة قبل أن يوجه وجهه لله حنيفا، وهي كوكبا والشمس والقمر.

السؤال: لكن هل هذا يعني وجود تقاطع كبير بين عقيدة قوم إبراهيم والنصرانية؟

جواب مفترى: نحن نستطيع أن نجلب عدة تقاطعات من شأنها أن تثبت أوجه الشبه بين عقيدة النصارى القائمة على مبدأ ثلاثية الإله مع عقيدة قوم إبراهيم التي رفضها إبراهيم جملة وتفصيلا وآثر أن يوجه وجهه لله حنيفا، فلم يكن من المشركين.

أولا، باب الرجم

(ملحوظة: نحن نظن أنه يجب قراءة الفقرات التالية بعد الرجوع إلى مقالتنا كيف تم خلق عيسى بن مريم؟)

لو تفقدنا ما قاله الأب لإبراهيم لوجدنا أنه يتوعده بالرجم:

- قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46)

ولو عدنا إلى قصة أصحاب الكهف والرقيم (وهم من افترينا سابقا أنهم حواريو المسيح عيسى بن مريم)، لوجدنا أن الرجم كان يمكن أن يكون مصيرهم لو اطلع القوم عليهم:

- إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (20)

السؤال: لماذا كان الرجم هو العقاب المترقب في الحالتين: حالة إبراهيم وحالة الفتية أصحاب الكهف والرقيم؟

جواب: لأن الهدف من الرجم هو حبس الذي يدعو بكلمة التوحيد حتى يعود إلى الإشراك، فيعبد من هم من دون الله كما فعل قوم الفتية أصحاب الكهف:

- هَؤُلَاء قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (15)

فقوم الفتية (هَؤُلَاء قَوْمُنَا) قد اتخذوا من دون الله آلهة (اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً)، فكانوا ظالمين لأنهم ممن افترى على الله كذبا (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا)، وهؤلاء قوم إبراهيم – بالمقابل- يتخذون من دون الله آلهة، فكان ذلك إفكهم:

- **أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (86)**

ثانيا، لو تفقدنا السياقات الخاصة بإبراهيم من جهة والفتية أصحاب الكهف والرقيم، لوجدنا أن الطرفين قاموا باعتزال قومهم، وكان ذلك بسبب أن قومهم اتخذوا آلهة من دون الله. فهذا إبراهيم يعتزل قومه:

- **وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا (48) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (49)**

وكذلك فعل الفتية أصحاب الكهف، فقد اعتزلوا قومهم أيضا كما اعتزل إبراهيم قومه من ذي قبل:

- **وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته ويُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا (16)**

السؤال: لماذا كان الاعتزال هو التصرف الذي قام به الطرفان؟

رأينا: أولا، نحن نظن أن الاعتزال لا يكون إلا لضرورة شرعية كاعتزال النساء في المحيض:

- **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (222)**

ثانيا، نحن نظن أن الهدف من الاعتزال هو فصل الطهارة عن الأذى كما في حالة المحيض. فاعتزال النساء يتم حتى تحصل الطهارة، فلا يختلط ما هو طاهر بما هو أذى.

ثالثا، نحن نظن أن الاعتزال يحصل لتعذر المواجهة المباشرة كما في حالة القتال

- **إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَآؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً (90)**

رابعا، نحن نظن أن عدم حصول المواجهة يكون مدفوعا بوجود طرفين غير متكافئين في القوة، فهناك طرف ضعيف وآخر قوي.

خامسا، نحن نظن أنه في حالة عدم الاعتزال، سيتمكن الطرف القوي من رجم الطرف الضعيف:

- **وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (17) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (18) وَأَنْ لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (19) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ (20) وَإِنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (21)**

نتيجة مفتراة: لما يكون هناك مواجهة بين طرفين، احدهما قوي (وعادة ما يكون هو الطرف المؤذي) والآخر ضعيف (وعادة ما يكون هو الطرف الطاهر)، يتوجب على الطرف الضعيف الطاهر أن يعتزل الطرف القوي ليتجنب الأذى الذي قد يلحقه به هذا الطرف القوي. وبخلاف ذلك، يكون الرجم هو البديل إذا لم يقم الطرف الضعيف باعتزال الطرف القوي.

نتيجة مفتراة: كان اعتزال إبراهيم قومه، واعتزال الفتية أصحاب الكهف والرقيم مدفوعا بعدم الحاجة للمواجهة المباشرة بين الطرفين حتى لا يتسبب الطرف القوي (القوم) إيقاع الأذى بالطرف الضعيف (الفتية). لذا لم يكن

الفتية (إبراهيم وأصحاب الكهف) ليقربوا قومهم ما لم يتطهر القوم من الشرك (أذى الشيطان) تماما كما تتطهر المرأة من المحيض.

سادسا، نحن نجد التقاطع أيضا بين إبراهيم من جهة وأصحاب الكهف من جهة أخرى في أن جميعهم كانوا فتية، فإبراهيم كان فتى:

- **قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (60)**

وأصحاب الكهف كانوا جميعا فتية آمنوا بربهم، وزادهم الله هدى:

- **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13)**

بالضبط كما حصل لإبراهيم من ذي قبل:

- **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (121)**

تلخيص ما سبق: نحن نتخيل سيرة حياة إبراهيم في شبابه وكأنها تشبه في تفاصيلها قصة الفتية أصحاب الكهف والرقيم. فهم من ثاروا على قومهم اللذين اتخذوا من دون الله آلهة، وكذلك فعل إبراهيم. وهم اللذين اعتزلوا قومهم لهذا السبب، وكذلك فعل إبراهيم، وهم اللذين كان من الممكن أن يرجموا لو أن القوم ظهروا عليهم، وكذلك كان من الممكن أن تكون نهاية إبراهيم. الخ.

نتيجة مفتراة خطيرة جدا: لقد كان إبراهيم (نحن لازلنا نتخيل) أول من ثار على عقيدة اتخاذ آلهة من دون الله.

تخيلات مفتراة ربما غير مسبوقة عن قصة إبراهيم: كان قوم إبراهيم على عقيدة عبادة من هم من دون الله آلهة، فكانوا مشركين، وكانت عقيدتهم مبنية على مبدأ أن الإله ثلاثة (الشمس والقمر وكوكب). نشأ إبراهيم في تلك البيئة المنحرفة عقائديا. لكن لما كان إبراهيم ذو قلب سليم، حاول البحث عن الحقيقة، لذا أخذ يتفقد ما يعبده قومه شيئا فشيئا، فتفقد الآلهة الثلاثة التي يعبدها قومه من دون الله الواحد تلو الآخر، فبدا بالإله الأصغر، ألا وهو ذاك الكوكب:

- **فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (76)**

ثم انتقل إلى الإله الذي يليه وهو القمر:

- **فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77)**

ثم انتهى إلى الإله الأكبر:

فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78)

وفي نهاية تلك المحطة بالذات، بان لإبراهيم أن هذه ليست آلهة تستحق العبادة من دون الله، لذا تبرأ إبراهيم من شرك قومه أجمعين (يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ).

تقاطعات بين يوسف وإبراهيم: كوكب الشمس والقمر

لو تفقدنا السياقات القرآنية الخاصة بإبراهيم لوجدنا أن هذه الكينونات الثلاثة هي التي نبذها إبراهيم كآلهة من دون الله:

- **فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78)**

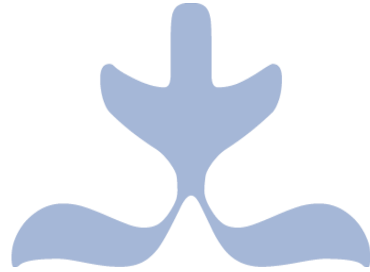
ولو رجعنا إلى تفاصيل قصة يوسف، لوجدنا أن هذه الكينونات كانت حاضرة في رؤياه التي قصها على والده منذ طفولته:

- **إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (4)**

السؤال: لماذا نجد هذه الكينونات حاضرة في الموقفين؟

هذا ما سنتابع النقاش حوله في المرة القادمة.

فالله وحده أسأل أن يأذن لي الإحاطة بشيء من علمه فيها لا ينبغي لغيري، إنه هو العليم الحكيم، وأدعوه وحده أن يكشف الوقر من أذني والأكّنة عن قلبي والغشاوة عن بصري، فأكون أول من يرى آياته فيعرفها، فأكون من الموقنين، وأسأله وحده أن يعلمني الحق الذي أقوله فلا أفتري عليه الكذب، إنه هو السميع المجيب- آمين



قصة يونس

الجزء السادس والعشرون



قصة يونس : الجزءالسادس والعشرون

خلصنا في نهاية الجزء السابق من هذه المقالة إلى افتراء الظن من عند أنفسنا بأن إبراهيم قد نشأ يتيم الوالدين، فتربى في كنف أبيه آزر، وزعمنا الظن بأن قومه كانوا مشركين، فثار إبراهيم على شركهم، وحصلت المحاججة بينهما على هذا الأساس:

- **وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ (80) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (81)**

وزعمنا الظن أيضا بأن شركهم كان من نوع خاص، وهو ما يقابل الحنفية الإبراهيمية، فالقوم لم يكونوا على الحنفية لأنهم – برأينا- اتخذوا الآلهة من دون الله، فكانوا مشركين من هذا النوع، بينما كان إبراهيم بالمقابل حنيفا ولم يكن من المشركين:

- **إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79)**
- **مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (67)**

وزعمنا الظن بأن من لم يكن "حنيفا" وكان من المشركين هو من زعم أن لله ولد، كما فعل اليهود والنصارى:

- **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (30) اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (31)**

فهم اللذين قالوا أن لله ولد، وبذلك كانت اليهود والنصارى على عقيدة تشبه عقيدة من ضاهوهم بالقول من الذين كفروا من قبلهم، وهم – برأينا- قوم إبراهيم.

لذا، تجرأنا على الظن بأن عقيدة الشرك عند قوم إبراهيم كانت مبنية على أساس أن الإله ثلاثة: كوكبا والقمر والشمس. وطار بنا الخيال إلى الظن بأن ثورة إبراهيم ضد شرك قومه كانت ثورة عقلانية منطقية، فبدأ إبراهيم بتفقد آلهة قومه الثلاث، الواحدة تلو الأخرى، فبدأ بالإله الأصغر وهو الولد، أي الكوكب:

- **فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (76)**

ثم انتقل بعد ذلك إلى تفقد الإله الأوسط، القمر:

- **فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77)**

ثم انتهى إلى الإله الأكبر، الشمس:

- **فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78)**

وما أن بان لإبراهيم حقيقة هذه الكينونات حتى وجّه وجهه للذي فطر السموات والأرض حنيفا، تاركا الشرك كله إلى غير رجعة:

- **إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79)**

وفي نهاية تلك المقالة انتهينا إلى إثارة التقاطعات بين إبراهيم في هذه الجزئية وحفيده يوسف الذي بدأ قصة طفولته بالمعضلة الخاصة بهذه الكينونات الثلاث (الكوكب القمر والشمس) في رؤياه الشهيرة:

- **إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (4)**

لنثير بذلك سيلا من التساؤلات عن العلاقة بين الموقفين، خاصة ما يتعلق بحضور هذه الكينونات في القصتين. ليكون السؤال الأكبر هو: ما قصة هذه الكينونات في تلك العائلة الكريمة؟ فلا ننسى أن إبراهيم هو الأب الأكبر ليوسف، ولا ننسى قبل هذا وبعده أنه كان في تلك الرؤيا التي رأها يوسف اجتباء ليوسف نفسه (من دون إخوته جميعا) كما كان فيها إتمام لنعمة الله على يوسف وعلى آل يعقوب كما كان في ذلك إتمام لنعمة الله على آباءه إبراهيم وإسحق من قبل:

- **وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (6)**

السؤال: لماذا ارتبطت رؤية تلك الكينونات بالاجتباء الإلهي ليوسف من بين إخوته جميعا؟ ولماذا ارتبطت رؤية تلك الكينونات بإتمام النعمة الإلهية على يوسف وعلى آل يعقوب كما كان فيها إتمام لنعمة الله من قبل على إبراهيم وإسحق؟

السؤال: هل لرؤية تلك الكينونات (الكوكب والشمس والقمر) كما رأها إبراهيم ويوسف من بعده علاقة بإتمام النعمة الإلهية على بعض عباده؟

بداية، لابد من إعادة التأكيد على كيفية إتمام النعمة الإلهية على هذه العائلة الكريمة كما ترد في السياق القرآني التالي الذي تعرضنا له عند حديثنا عن تفاصيل قصة يوسف:

- **وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (6)**

فلو تدبرنا هذا السياق القرآني بشيء من التركيز لوجدنا فيه شيئا عجيبا: أن النعمة الإلهية لم تتم على يعقوب نفسه. انتهى.

لنخرج بالافتراءات التالية:

⇐ ستتم النعمة الإلهية على يوسف (وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ)

⇐ ستتم النعمة الإلهية على آل يعقوب (وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ)

⇐ تمت النعمة الإلهية من قبل على إبراهيم وإسحق (كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ)

⇐ كان يعقوب بنفسه خارج هذه المعادلة كلها، فنعمت الله لم تتم على يعقوب نفسه.

التساؤلات:

⇐ أين يعقوب نفسه في ذلك؟

⇐ وكيف لم تتم النعمة الإلهية عليه؟

⇐ ولماذا لم تتم النعمة الإلهية على يعقوب نفسه؟

إن المتدبر لهذا السياق القرآني يجد أن يعقوب يقر بنفسه أن ما سيحصل لولده يوسف هو اجتباء خاص من ربه (وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ)، وفيه تمام نعمته عليه وعلى آل يعقوب (وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ)، كما أتمها الله من قبل على أبويه إبراهيم وإسحق (كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ).

السؤال القوي جدا جدا: أين يعقوب نفسه في تمام تلك النعمة؟ ولماذا لم تتم النعمة الإلهية على يعقوب بالذات؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لأن يعقوب كان ينقصه العلم؟

السؤال: أين الدليل على ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الدليل موجود في الآية الكريمة نفسها:

- **وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (6)**

فلاحظ عزيزي القارئ – إن شئت- كيف أن يعقوب يخص يوسف على وجه التحديد بشيئين اثنين:

⇐ الاجتباء الإلهي (وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ)

⇐ والتعليم الإلهي له من تأويل الأحاديث (وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ)

بينما كان تمام النعمة الإلهية تخص يوسف وآل يعقوب وإبراهيم وإسحق من قبلهم، ويستثنى من ذلك يعقوب نفسه.

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى: لأن يعقوب كان نبيا، ولكن لم يكن معه الكتاب

- **وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (27).**

لو تفقدنا هذه الآية الكريمة جيدا لوجدنا الفصل واضحا بين النبوة من جهة والكتاب من جهة أخرى، لتكون السيناريوهات المحتملة على النحو التالي:

⇐ يمكن أن يتوافر لبعض عباد الله النبوة فقط

⇐ يمكن أن يتوافر لبعض عباد الله الكتاب فقط

⇐ يمكن أن يتوافر لبعض عباد الله الاثنتين معا: النبوة والكتاب

افتراء خطير جدا: توافر ليعقوب النبوة فقط، فلم يكن في ذلك تمام لنعمة الله

افتراء خطير جدا (2): توافر ليوسف الكتاب والنبوة، فكان في ذلك تمام لنعمة الله

افتراء خطير جدا: توافر لـ آل يعقوب الكتاب فقط، فكان في ذلك تمام لنعمة الله

الافتراء الخطير جدا جدا: حتى تتم نعمة الله على عباده فلا بد من وجود الكتاب

الدليل

لو تفقدنا الآية الكريمة السابقة في سياقها الأوسع لوجدنا أن الحديث عن لوط يحيط بها، فالآية التي تسبقها تتحدث عن لوط والآية التي بعدها تتحدث عن لوط أيضا:

- **فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (26) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (27) وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (28)**

السؤال: هل كان لوط من ذرية إبراهيم؟

جواب: كلا.

السؤال: هل كان لوط نبيا؟

جواب: نعم.

السؤال: كيف كانت النبوة والكتاب في ذرية إبراهيم وها هو لوط (وهو ليس من تلك الذرية) نبيا؟

جواب مفترى: لأن هناك فرق بين من كان نبيا من ذرية إبراهيم ومن كان نبيا من ذرية غيره كلوط مثلا؟

السؤال: من كان نبيا من ذرية إبراهيم كان يتمتع بخاصية أخرى وهي وجود الكتاب، لكن من كان نبيا من ذرية غيره فهو لا يتمتع بتلك الخاصية.

السؤال: لماذا لم تتم نعمة الله على يعقوب؟

جواب مفترى: لأن يعقوب كان من ذرية إبراهيم لكنه لم يكن يتمتع بالكتاب. فهو نبي بدون كتاب.

السؤال: وماذا عن يوسف وآل يعقوب؟

جواب مفترى: ستتم النعمة عليهم بالنبوة والكتاب معا.

السؤال: وماذا عن إبراهيم وإسحق؟

جواب: تمت النعمة عليهم بالنبوة والكتاب.

السؤال: لماذا لم تتم على يعقوب النعمة بالنبوة والكتاب.

جواب مفترى: لأن يعقوب لم يكن أكثر من نافلة، فنحن نظن أن دور يعقوب (على وجه التحديد) لم يكن ليتجاوز أن يكون حلقة وصل بين من أتم الله نعمته عليهم من قبله (وهما إبراهيم وإسحق) ومن جاء بعده (وهم يوسف وآل يعقوب):

- **وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (72)**

فالبشرى جاءت لإبراهيم أصلا بإسحق:

- **وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (112)**

فتحصلت الذرية لإبراهيم على الكبر بإسماعيل وإسحق فقط:

- **الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء (39)**

وما جاء يعقوب إلا حلقة وصل في تلك السلالة الطيبة:

- **فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (49)**
- **وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (27)**
- **وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (72)**

(للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان قصة يوسف خاصة الجزأين الثالث والرابع)

نتيجة مفتراة: كان الاجتباء الإلهي ليوسف وكان إتمام النعمة الإلهي على يوسف وآل يعقوب قد تمثلت بأن جعل الله فيهم النبوة والكتاب معا. فكان الذي ينقص يعقوب هو الكتاب وليس النبوة:

- **فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (49)**

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لمّا وجد يعقوب أنّ نعمة الله عليه لم تتم كما أتمها الله على أبويه إبراهيم وإسحق من قبل، كان عليه أن ينتظرها في أبناءه، فكانت من نصيب يوسف:

- **وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (6)**

السؤال: ما الذي سيستفيده يوسف (وآل يعقوب كلهم) من الكتاب مادام أن النبوة حاصلة فيهم؟ وبالمقابل ما الذي خسره يعقوب عندما لم تتم نعمة الله عليه بالكتاب وتوقف الأمر عنده عند حد النبوة؟

جواب مفترى: إنه العلم بتأويل الأحاديث:

- **وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (6)**

فلو تدبرنا النص القرآني جيدا لوجدنا أن يعقوب كان ينقصه العلم بتأويل الأحاديث، وهو ما سيتحصل ليوسف عندما يتم الله نعمته عليه لاحقا:

السؤال: من أين سيتعلم يوسف من تأويل الأحاديث؟ أو بكلمات أخرى، ما هو مصدر العلم بتأويل الأحاديث؟

رأينا المفترى: من أجل العلم بتأويل الأحاديث، فلابد أن يتوافر الكتاب، لأن العلم بتأويل الأحاديث يأتي من الكتاب وليس من النبوة. انتهى.

فالفصل بين الكتاب والنبوة واضح تماما:

- **وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (27)**

السؤال: أين سيتعلم يوسف من تأويل الأحاديث؟ أو بكلمات أكثر دقة نحن نسأل: أين سيجد يوسف الكتاب الذي من خلاله سيتم تعليمه من تأويل الأحاديث؟

رأينا المفترى: تحدثنا عن هذه الجزئية في سلسلة مقالاتنا عن قصة يوسف، وزعمنا الظن حينئذ أن يوسف قد وجد ذلك عند أبيه الآخر، وهو الذي أشتراه من مصر. انظر عزيزي القارئ – إن شئت- السياق القرآني الذي نظن أنه يثبت افتراءنا هذا:

- **وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (21)**

فلو دققنا النظر في هذه الآية الكريمة لوجدنا على الفور أن علم تأويل الأحاديث قد تحصل ليوسف في بيت هذا الرجل، فالله هو من مكّن ليوسف في تلك الأرض (وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ)، وهناك (في بيت ذلك الرجل) تعلم يوسف من تأويل الأحاديث (وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ).

سؤال خطير جدا: لماذا تحصل ليوسف العلم بتأويل الأحاديث في بيت هذا الرجل؟ لِم لم يتحصل ليوسف العلم بتأويل الأحاديث في بيت أبيه الأول (يعقوب)؟ ولماذا اختص يعقوب يوسف بذلك العلم على وجه التحديد في خطابه الأول مع يوسف:

- **وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (6)**

جواب خطير جدا جدا: لأن هذا الرجل الذي تحصل ليوسف العلم بتأويل الكتاب في بيته هو من أصحاب النبوة والكتاب. انتهى.

السؤال: لماذا حصلت قصة يوسف كلها على تلك الشاكلة؟ لم أضطر يوسف أن يترك والده يعقوب (الذي يحبه حبا جما)؟ لِم لم يدْعُ يعقوبُ ربَّه أن يعيد له ولده المفقود؟ لماذا صبر يعقوب على فراق يوسف؟

لماذا بعث يعقوب بيوسف مع إخوته بالرغم من علمه بكيدهم لهم؟ لماذا سكت يعقوب على دعوى أولاده بأن الذئب قد أكل يوسف بالرغم من علمه بأن الدم الذي جاءوا به على قميص يوسف هو دم كذب؟ الخ.

رأينا المفترى: لأن يعقوب هو من رسم الخطة لأبنائه بأن يطرحوا يوسف أرضا (أي إبعاده من هذه الأرض إلى أرض غيرها)، فهو من دلهم أن يذهبوا به، فيلقوه في غيابة الجب، فيلتقطه بعض السيارة، ويعودوا إليه بالقول بأن الذئب قد أكله:

- **قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (13)**

فيعقوب في ظننا هو من رسم الخطة بإحكام، وما فعل الأبناء أكثر من تنفيذ خطة أبيهم دون لطرح يوسف أرضا دون دراية منهم.

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لأن يعقوب يعلم أنه من أجل إتمام نعمة الله على يوسف وعلى آل يعقوب فلابد أن يذهب يوسف إلى من عنده علم الكتاب، ليتعلم هناك من تأويل الأحاديث الذي لم يكن يعقوب يملكه بنفسه.

وقد زعمنا الظن في سلسلة مقالاتنا عن قصة يوسف أن يعقوب كان قد أرسل يوسف إذن في "بعثة علمية" إلى ذلك الرجل الذي عنده النبوة والكتاب، وهو الذي اشترى يوسف من مصر بالرغم أن الجميع كانوا فيه من الزاهدين

- **وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (20) وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (21)**

فهو الوحيد الذي كان قادرا أن يرى قيمة هذا الغلام، غريب الديار.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: يحصل اليقين عند يعقوب أن الله لن يتم نعمته عليه كما أتمها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحق، فكان نبيا ينقصه الكتاب، فيحدوه الأمل أن يتحقق ذلك في أبنائه، فيحتار فيهم، فيقع الخيار في بداية الأمر في اثنين منهم، وهما من كانا الأحب إليه:

- **إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ (8)**

فيبين للجميع أن قلب يعقوب متعلق بهذين الأخوين من دون أولاده جميعا. لكن ما هو إلا وقت ليس بطويل حتى تأتي الرؤيا ليوسف:

- **إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (4)**

عندها، يتجه قلب يعقوب بالكلّية ليوسف، ويظهر للجميع أن مشكلة يعقوب الآن مجملة بوجود يوسف، فيقرر الأخوة قرارهم التاريخي:

- **اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (9)**

يعلم يعقوب (من خلال الرؤيا التي قصها يوسف عليه) أن الاجتباء الإلهي بالنبوة هي من نصيب يوسف من دون إخوته جميعا، لكن لابد ليوسف (النبي المرتقب) من الذهاب في رحلة علمية إلى من عنده علم الكتاب، ليتعلم عنده من تأويل الأحاديث، فيتحصل ليوسف (من هذه الذرية الطيبة) النبوة والكتاب معا:

- **وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (27)**

فيحكم يعقوب (بتأييد إلهي) الخطة على أبناءه اللذين ظنوا أنهم يستطيعون تحدي اختيار السماء لمن في الأرض، فيجهز يعقوب الولد الأحب إليه (يوسف) ويرسله مع إخوته اللذين سيكيدون به لا محالة، ولكنّه ينسج لهم خيوط خطة التخلص من يوسف: بطرحه أرضا (أي نفيه) وليس بقتله:

- **اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (9) قَالَ قَآئِلٌ مَّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (10)**

وبالفعل يطبق الأول الخطة التي رسمت لهم دون أن يشعروا أنهم بذلك ينفذون الخطة الإلهية المحكمة لإتمام نعمته على يوسف وعلى آل يعقوب جميعا بأيديهم.

تخيلات مفتراة سابقة: ينطلق يوسف إلى ديار غير أرض أبيه وإخوته، فينتهي به المطاف في أرض مصر، ويكون يعقوب خلال تلك الفترة الزمنية من سفر يوسف إلى أرض مصر قد بعث برسالة لاسلكية (بالواتس أب) إلى ذلك الرجل مضمونها أن يوسف الآن في عهدتك.

ينطلق ذلك الرجل إلى أرض مصر، فيتوجه إلى حيث المكان الذي سيجد به الإرسالية (يوسف)، فينظر الرجل في السوق، فتقع عيناه على من كان كل من في السوق زاهدا فيه. فيشريه من السيارة اللذين كانوا فيه من الزاهدين بثمن بخس دراهم معدودة، ويعود راجعا به من حيث أتى ذلك الرجل. فيطلب الرجل من امرأته أن تكرم مثوى الغلام:

- **وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (21)**

وهناك بالضبط يحصل التمكين الأول ليوسف في تلك الأرض (وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ)، ويبدأ تعليمه من تأويل الأحاديث (وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ).

السؤال: من هو ذلك الرجل الذي اشترى يوسف من أرض مصر وتكفل بتعليمه تأويل الأحاديث؟

جواب مفترى خطير جدا جدا لا تصدقوه: إنه أبوه الثاني

السؤال: ما الجديد في ذلك؟ ألم تقل ذلك من قبل؟

جواب مفترى: نعم، قلت ذلك من قبل، لكن الآن يجب أن نتعرف على هويته. ألا تريد – عزيزي القارئ- أن تعرف من هو هذا الرجل الذي اشترى يوسف من مصر، فكان الأب الثاني ليوسف وهما من رفعهما يوسف معا في نهاية القصة على العرش؟

- **وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100)**

جواب: بلا، من هو ذلك الرجل؟ هل فعلا تعرف من هو؟ يسأل صاحبنا.

جواب مفترى:نعم، أظن أني أعرفه، فهو (أنا افتري القول) من سلالة بيت النبوة نفسه، أي من ذرية الجد الأول إبراهيم نفسه:

- **وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (27)**

السؤال: من هو؟ لقد أشغلتنا بالبحث عنه. يرد صاحبنا مستعجلا.

جواب مفترى: إنه النبي الذي يواز والد يوسف الأول (يعقوب) في الذرية.
السؤال: من هو؟
جواب: دعنا بداية نتدبر من هو أب يوسف الأول. أليس هو يعقوب؟
جواب: نعم هو يعقوب. وهل في ذلك شك؟
السؤال: من هو النبي الذي يواز يعقوب تماما في ذرية إبراهيم؟
جواب مفترى خطير جدا جدا لا تصدقوه: إنه أيوب:

يعقوب	أيوب

السؤال: من هو أيوب أصلا؟
جواب مفترى: إنه من يقابل يعقوب في الذرية الطيبة، دعنا نعيد رسم ذرية ذلك البيت الطيب الذي جعل الله في الكتاب والنبوة، فنحن نعرف أن يعقوب قد جاء من وراء إسحق، وهم من وهبهم الله لإبراهيم، أليس كذلك؟

إبراهيم	
إسحق	
يعقوب	أيوب

السؤال: إذا كنا نعرف خط الذرية في بيت إسحق، فكيف هو خط الذرية في بيت إسماعيل الولد الأول لإبراهيم؟ وما علاقة أيوب بذلك؟ أو من يكون أيوب هذا إذا؟
جواب مفترى من عند أنفسنا: إنه ولد إسماعيل (الابن الحليم لإبراهيم)، لتصبح صورة الذرية في ذلك البيت الطيب (كما نتخيلها مفتراة من عند أنفسنا) على النحو التالي:

إبراهيم	
إسماعيل	إسحق
أيوب	يعقوب

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: يتخذ إبراهيم قراره التاريخي بأن يقسم بيت النبوة الأول إلى بيتين أثنين، فيذهب بنصفه الأول إلى واد غير زرع عند بيت الله الحرام، وهناك يسكن فيه من أهله:

- **رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (37)**

ويبقى النصف الثاني يعيش في الأرض التي باركنا فيها للعالمين، إلى حيث كانت نجاته بعد حادثة التحريق:

- **قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (70) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (71) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (72)**

فيرتبط الابن الثاني إسحق بهذه الأرض المباركة، كما ارتبط الابن الأول إسماعيل بالبيت العتيق:

- **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ**

الرَّحِيمُ (128) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ (129)

فيضطر إبراهيم في نهاية المطاف إلى قسمة ميراث بيت النبوة الأول بين البيتين الجديدين، فيكون بعضها من نصيب الابن الأول (إسماعيل) ويكون بعضها الآخر من نصيب الابن الثاني (إسحاق).

السؤال: كيف تمت القسمة؟

رأينا المفترى: كان الكتاب من نصيب إسماعيل، وكانت العصا والقميص من نصيب إسحاق.

فتقضي مشيئة الله أن يجعل في بيت إبراهيم الكتاب والنبوة:

- **وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (27)**

ليكون السؤال الآن: كيف كان الكتاب والنبوة في بيت إبراهيم وهو نفسه من قسم ذلك البيت إلى بيتين اثنين: بيت إسماعيل الموجود الآن في الواد غير ذي الزرع عند بيت الله المحرم مقابل بيت إسحق الموجود في الأرض التي باركنا فيها للعالمين؟

إن هذا السؤال يدعونا على الفور إلى تفقد ما حل ببيت إسماعيل بعد موت والده إبراهيم، فلعل القارئ للقرآن يجد التفصيل واضحا فيما يخص بيت إسحاق، فهو من جاء ابنه يعقوب نافلة من وراءه؟

- **وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ (71)**

وبعدها جاء يوسف ليكون الوريث الشرعي لهذا البيت الطاهر بعد أن أتم الله عليه نعمته وعلى آل يعقوب جميعا:

- **وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (6)**

ليصبح خط الذرية في هذا الفرع من البيت على النحو التالي:

إبراهيم ← إسحق ← يعقوب ← يوسف

لكن السؤال الذي ربما لا يجد المتدبر للنص القرآني إجابة واضحة له هو: ما الذي حل بيت أخيه إسماعيل في ذاك الواد عند بيت الله المحرم؟ أو كيف سار خط الذرية في ذلك الفرع بعد إسماعيل:

إبراهيم ← إسماعيل ← ؟

تساؤلات

- ⇐ هل عاش إسماعيل في ذاك الواد طيلة حياته؟
- ⇐ ماذا فعل خلال وجوده هناك؟
- ⇐ كيف كان إبراهيم يشرف على ذلك الفرع من البيت؟
- ⇐ ماذا حلّ بذلك الفرع من البيت بعد وفاة إبراهيم بالموت؟
- ⇐ هل حصل لقاء بين إسماعيل وإسحاق بعد أن افترقا؟
- ⇐ لماذا اختار إبراهيم أن يفرق بين ولديه: إسماعيل وإسحاق؟
- ⇐ لِم لم يعيشا معا في أرض واحدة؟
- ⇐ هل تحصل لإسماعيل الذرية؟
- ⇐ أين ذهبت تلك الذرية (إن وجدت)؟

- ألا يعتبر إسحق (وذريته من بعده) من بني إسرائيل؟
- هل يعتبر إسماعيل من بني إسرائيل؟
- هل تعتبر ذرية إسماعيل (إن وجدت) من بني إسرائيل أيضا؟
- لماذا يصر أهل الدراية في الفكر الإسلامي على اعتبار بني إسرائيل هم من ذرية يعقوب (ولد إسحاق)؟
- الخ

هذه بعض التساؤلات التي نظن أنها بحاجة إلى إجابات تكون أكثر إقناعا مما هو متداول بين العامة (وأهل الاختصاص)، والتي نظن أن تبعاتها ستكون جمّة على مجمل النقاش في هذه القضايا العقائدية المتشابكة كتشابك خيوط العنكبوت. فنسج هذه الخيوط بالطريقة الاحترافية المعهودة عن العنكبوت هو ما يجعل ذلك البيت متقن الصنع، وإلا لأصبح عملا عشوائيا لا طائلة منه. لذا نسأل الله وحده أن يؤتينا رشدنا وأن يعلمنا ما لم نكن نعلم وأن يهدينا لأقرب من هذا رشدا، وأن ينفذ قوله بمشيئته وإرادته لنا الإحاطة بشيء من علمه فيها لا ينبغي لغيرنا، ونعوذ به وحده أن نكون ممن يفترون عليه الكذب أو ممن يقولون عليه ما ليس لهم بحق، إنه هو السميع العليم – آمين.

أما بعد،

بعيدا عن الآراء المدفوعة بالعقائد المسبّقة التي نظن أنه ينقصها الدليل، فإننا سنحاول تسطير جملة من الافتراءات حول هذا الموضوع، وسنحاول الدفاع عنها تباعا بجلب الدليل القرآني الذي نظن أنه يؤيد ما نذهب إليه في هذا المقام.

الافتراءات

- عاش إسماعيل طيلة حياته في الواد غير ذي الزرع عند بيت الله المحرم
- رفع إسماعيل مع أبيه إبراهيم القواعد من البيت
- كان إبراهيم دائم التنقل بين البيتين
- انفصل البيتان انفصالا تاما بعد وفاة إبراهيم بالموت
- لم يحصل لقاء بين الإخوة إسماعيل وإسحاق بعد وفاة والدهما إبراهيم بالموت؟
- كان الفصل بين الإخوة ضروريا حتى يكون كلاهما نبيا
- تحصل لإسماعيل الذرية كما تحصل لأخيه إسحاق الذرية
- يعتبر إسماعيل من بني إسرائيل كما كان إسحاق من بني إسرائيل
- كانت ذرية إسماعيل من بني إسرائيل كما كانت ذرية إسحاق من بني إسرائيل
- تجمع كل بنو إسرائيل (من ذرية إسماعيل ومن ذرية إسحاق) في مصر تحت راية يوسف.
- الخ

النقاش

نحن نظن أن النقاش في هذه المحاور جميعها يجب أن ينطلق من السؤال المحوري التالي: لماذا فصل إبراهيم بين الأخوين: إسماعيل وإسحاق؟ لماذا اختار إبراهيم أن يعيش كل منهما في مكان بعيدا عن الآخر؟

رأينا: تعرضنا لهذه الجزئية في سلسلة مقالاتنا تحت عنوان لماذا قدم نبي الله لوط بناته بدلا من ضيوفه، وزعمنا الظن حينئذ أن الفصل الذي قام به إبراهيم بين الأخوين (إسماعيل وإسحاق) كان مدفوعا بضرورة عقائدية، فإبراهيم لم يكن ليرضى أن يميز بين الإخوة بطريقة غير عادلة كما قد يظن القارئ غير المتدبر

للنص القرآني من الوهلة الأولى. فغالبا ما يشعر البعض (وإنْ لم يتجرءوا على البوح بذلك صراحة) أن في إسكان إبراهيم بعضا من ذريته بواد غير زرع شيء من الإجحاف بحق هذا الغلام وأمه. ونحن نظن أن هذا الفهم المغلوط قد تطور عند الكثيرين بسبب موروثات يهود عن هذه القضية على وجه التحديد، فهم (أي اليهود) من روجوا (زورا وبهتانا) للعالمين بأن إسماعيل هو الابن "غير الشرعي" لإبراهيم، وهم من تغنوا في كل محفل لهم بأفضلية إسحاق وأمه على إسماعيل وأمه، وهم من صوّروا للعالم أن هناك شعب مختار (مخدوم) وشعب منبوذ "خادم". وللأسف تسربت تلك الآراء إلى بطون أمهات كتب المسلمين على ألسنة أكثر أهل الدراية من أبناء المسلمين وثوقا ومعرفة. ونحن ندعو المجادل للعودة إلى بطون أمهات كتب المسلمين ليرى بأم عينه ما سطرت أقلام أهل الرواية عن أهل الدراية منهم في تلك الكتب. والمخجل المبكي في هذا المقام هو أنه لما انطلقت حناجر بعض المسلمين للدفاع عن إسماعيل، كانت حجتهم مدفوعة في مجملها بالعاطفة غير المستندة إلى الدليل الحاسم الذي يرد دعوى أهل الكتاب. والقارئ الكريم مدعو – إن هو أراد- للبحث في هذه الجزئية ليتأكد من اتهاماتنا هذه لأهل الدراية من أبناء المسلمين.

ولما كنا – كعادتنا- لا نثق كثيرا بآراء أهل الدراية من أبناء الفكر الإسلامي الدارج كما نقلها لنا أهل الرواية في بطون الكتب الصفراء، فإننا مطالبون أن نعيد النظر في هذه القضايا، طارحين الآن تساؤلنا التالي: كيف يمكن أن نفهم أن في الفصل الذي قام به إبراهيم عدالة في التوزيع بين الأخوين: إسماعيل وإسحاق؟

رأينا: لما تعرضنا لهذه الجزئية سابقا قدمنا الافتراء الذي نظن أنه غير مسبوق التالي: لو لم يعمد إبراهيم إلى الفصل بين الأخوين إسماعيل وإسحاق لما انتهى الأمر بكل واحد منهما أن يكون رسولا نبيا. انتهى

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا: بداية يجب أن نؤمن يقينا أن ما يفعله رسول كريم (من مثل إبراهيم) لابد أن يكون مدفوعا بضرورة عقائدية، فيستحيل أن يتصرف إبراهيم (نحن نؤمن) تصرفا كهذا من أجل مغنم دنيوي، ويستحيل أن يتصرف إبراهيم (نحن نؤمن) من تلقاء نفسه لو لم يكن الأمر له ضرورة عقائدية. وفي ضوء هذا الاعتقاد الذي لا يمكن أن يتزعزع عندنا، نعيد طرح تساؤلنا السابق عن فصل إبراهيم بين الأخوين على النحو التالي: ما الضرورة العقائدية التي استوجبت قيام إبراهيم بهذا التصرف؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن إبراهيم ما كان ليذر ولديه (إسماعيل وإسحاق) ليقعا في الغلط الذي وقع به ابنا آدم من قبل. فإبراهيم كان على دراية كافية بما حل بابني آدم عندما سكنا في نفس المكان. فلقد حصل الخلاف بينهما على ميراث النبوة. ولو ظل إسماعيل وإسحاق يسكنان المكان ذاته لحصل بينهما (نحن نفتري القول) ما حصل بين ابني آدم:

- **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27)**

فابني آدم اقتتلا على ميراث النبوة، وهو – برأينا- البيت الذي وضع للناس:

- **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (96)**

ولو تدبرنا هذا السياق جيدا لوجدنا أن ذلك البيت قد وضع للناس.

السؤال: من هم الناس الذي وضع لهم أول بيت ببكة؟

رأينا: أنهم ابني آدم: إدريس وإسرائيل. (انظر سلسلة مقالاتنا السابقة)

الدليل

لما كنا نفهم أن الناس هم من خلقوا من ذكر وأنثى:

- **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13)**

فإننا نستثني من تلك القائمة (أي الناس) ثلاثة، وهم:

1. آدم (فهو لم يخلق من ذكر وأنثى)
2. زوج آدم (في خلقت من نفس آدم)
3. عيسى بن مريم (فهو خلق من أم دون أب)

ليكون السؤال: من هم الناس (الذين خلقوا من ذكر وأنثى) فوضع لهم أول بيت ببكة:

- **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (96)**

رأينا المفترى: إنهم ابني آدم.

السؤال: لماذا قربا قربانا؟

جواب مفترى: لكي يفضوا الخلاف بينهما.

السؤال: ماذا كانت طبيعة ذلك الخلاف؟ أو على ماذا اختلفا أصلا؟ أو ما هو الخلاف الذي أدى بهما في نهاية المطاف إلى أن يقتل أحدهما الآخر؟

جواب مفترى: إنه ملكية ذلك البيت الأول:

- **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (96)**

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: يهبط آدم وزوجه بأمر إلهي من الجنة (عند الطور في البقعة المباركة من الشجرة) بعد المعصية، فيجدا نفسيهما في تلك البقعة من الأرض في الواد غير ذي الزرع، فيقرا بالظلم الذي أوقعا نفسيهما فيه بعد أن تقبلا نصيحة الشيطان، فتحصل لهما الفتنة من الشيطان، فتكون العاقبة الخروج من الجنة:

- **يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ (27)**

في ذلك الواد، يعيش آدم وزوجه خارج الجنة. ينجب آدم وزوجه ولدين اثنين (وربما بنتين اثنتين) فقط. يأتي الأمر الإلهي بوضع أول بيت للناس (أي ذرية آدم وزوجه) في ذلك المكان. يكبر الولدان فيصبحا في سن الزواج. وهنا تظهر المشكلة الأولى بينهما: من الذي سيسكن البيت؟

تخيلات مفتراة: يتوصل الأخوان إلى قرارهما الحاسم لفض النزاع بينهما: تقديم القربان. لتكون المنهجية على النحو التالي: يكون صاحب البيت من تقبل الله منه قربانه.

السؤال: ما هو القربان الذي قدماه؟

جواب مفترى خطير جدا: أنه الناقة

- **فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (13)**
- **إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (27)**

ومنذ تلك اللحظة أصبح لله ناقة، وهو من رفض أن يكون له ولد:

- **أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (151) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (152)**
- **وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (92)**

فالرحمن الذي لا ينبغي له أن يتخذ ولدا، له الآن ناقة، أليس كذلك؟

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى: لأن الله لا يتخذ مما يخلق

- **لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاء سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (4)**

السؤال: لماذا اتخذ الله الناقة؟

جواب مفترى: لأنها لم تكن مما خلق الله. انتهى

(وسنتحدث عن هذه الجزئية إن شاء الله عندما يصل بنا الحديث إلى ربط قصة فرعون مع ثمود لاحقا بحول الله وتوفيقه)

على أي حال، لازلنا نتخيل أن الله تقبل القربان (الناقة) من أحدهما (إدريس)، ولم يتقبلها من الآخر (إسرائيل) وذلك لأن سنة الله هي على الدوام أن يتقبل من المتقين:

- **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27)**

يصبح إدريس هو المالك الفعلي لذاك البيت، لكن ذاك الوضع لم يكن ليرضي من لم يكن من المتقين (إسرائيل)، فيعمد إلى قتل أخيه من أجل الظفر بالغنيمة. وبالفعل يقتل الأخ (إسرائيل) أخاه (إدريس)، بعد أن طوعت له نفسه ذلك فيصبح من الخاسرين والنادمين:

- **فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (30) فَبَعَثَ اللّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (31)**

وترتبط سنة الله الأبدية بأن من قتل نفسا بغير حق كمن قتل الناس جميعا منذ تلك اللحظة:

- **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (28) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ (29) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (30) فَبَعَثَ اللّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (31) مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاء تْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (32)**

فتصبح الأرض كلها من نصيب إسرائيل القاتل، فيجريها على هواه:

- **كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (93)**

وتصبح الذرية كلها من إسرائيل القاتل، فأصبحنا كلنا بني إسرائيل:

- مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاء تْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (32)

بعد أن كانت الذرية كلها من آدم، وكنا كلنا بني آدم:

- يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ (27)

(للتفصيل انظر مقالاتنا السابقة)

عودة على قصة إبراهيم

لمّا كان إبراهيم يعلم أن الأرض الواحدة لا تتسع للأخوين معا، ولما كان يدرك أن الخلاف لا محالة سيدبّ بينهما إن بقيا يسكنان المكان الواحد معا، وجد لزاما عليه أن يفصل بينهما. فكان من حكمة إبراهيم (نحن نفتري القول) أن يتدارك وقوع المشكلة، لذا قام (مستبقا وقوع المشكلة) بالفصل بين الأخوين، فاختار لأحدهما مكانا لا يقل قدسية عن المكان الذي يسكن فيه ولده الآخر:

- رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (37)

السؤال: كيف فعل إبراهيم ذلك؟

رأينا: لمّا كان إبراهيم قد أرآه الله ملكوت السموات والأرض من قبل:

- وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75)

كان إبراهيم على دراية بمكان ذلك البيت الأول الذي وضع للناس:

- إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (96)

فكان ذلك البيت بنفسه مباركا، فأسكن من ذريته (الابن الأول: إسماعيل) عند ذلك البيت المبارك:

- رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (37)

وترك بقية الذرية (الابن الثاني: إسحاق) يسكن في الأرض المباركة الموجودة حول المسجد الأقصى:

- سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ (1)

فكانت النتيجة على النحو التالي: أسكن إبراهيم ولده الأول إسماعيل في أرض مباركة وأسكن ولده الآخر إسحاق في أرض مباركة.

افتراء (1): كان إسماعيل رسولا نبيا في الأرض المباركة عند بيت الله المحرم

افتراء (2): كان إسحاق رسولا نبيا في الأرض التي باركنا فيها للعالمين

فاقتسم الاثنان وراثة الأرض، فكانا من عباد الله الصالحين:

- وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (105)

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لو لم يعمد إبراهيم إلى اقتسام الأرض بين ولديه، لربما (نحن نتخيل) حلّ الفساد في الأرض، وذلك بسبب الخلاف (وربما الاقتتال) الذي كان من الممكن أن يحصل بينهما كما حصل بين ابني آدم من قبل:

- **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27)**

أو كما حصل بين أبناء يعقوب من بعد:

- **اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (9)**

(للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا عن قصة يوسف)

نتيجة مفتراة: كان إبراهيم يعلم تبعات أن يعيش الإخوة في مكان واحد، فيستحيل أن يحصل الصلاح في الأرض مادام الإخوة يعيشون في مكان واحد، بل سيحل الفساد في الأرض لأن الاقتتال لا محالة سيحصل بينهما يوما ما (للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان قصة يوسف)

السؤال: إذا كان إبراهيم قد قسم الأرض بين ولديه (إسماعيل وإسحاق)، فكيف سيقسم إبراهيم ميراث النبوة بينهما؟

رأينا: كان لابد لإبراهيم أن يكون عادلا أيضا في توزيع ميراث النبوة بين الأخوين.

السؤال: ما الذي فعله إبراهيم بهذا الخصوص؟

جواب مفترى: نظر إبراهيم في ميراث النبوة المتوافر بين يديه، فكان لابد أن يوزّع ذلك الميراث بعدالة لا تنقصها الحكمة

السؤال: كيف فعل إبراهيم ذلك؟

للإجابة على هذا التساؤل، كان لابد أولا من الإجابة على التساؤل التالي الذي يخص ميراث بيت النبوة نفسه: فماذا كان أصلا ذلك الميراث؟ أو بكلمات أكثر دقة: ما الذي كان على إبراهيم أن يوزعه بين ولديه إسماعيل وإسحاق من ميراث النبوة المتوافر بين يديه؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: كان ما يملكه إبراهيم كميراث بيت النبوة كله هو: العصا والقميص والكتاب. انتهى.

(للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان قصة يوسف)

السؤال: كيف قام إبراهيم بتوزيع ذلك الميراث؟

جواب مفترى خطير جدا لا تصدقوه ما لم تجدوا أن الدليل الذي سنقدمه يثبت ذلك: ترك إبراهيم العصا والقميص في بيت إسحاق، وأودع الكتاب عند إسماعيل.

السؤال: أين الدليل على ما تزعم؟ يسأل صاحبنا.

جواب: قبل أن نحاول تقديم تصورنا عن الموضوع، دعنا نطرح السؤال الاستباقي التالي: لماذا وزّع إبراهيم ذلك الميراث على هذا النحو الذي نفتريه من عند أنفسنا؟

جواب مفترى خطير جدا: لأن إبراهيم كان على علم أن ولده الثاني إسحاق لن يعيش طويلا حتى يتمكن من تسليم الكتاب ليعقوب من بعده

الدليل

لو رجعنا للبشرى الذي جاءت به الملائكة بيت إبراهيم في زيارتهم التاريخية، لوجدنا السياق القرآني التالي يصور لنا مجيء يعقوب من وراء إسحاق:

- **وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ (71)**

ولو تفقدنا السياق القرآني التالي، لوجدنا أن يعقوب كان نافلة:

- **وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (72)**

السؤال: ما تبعات ذلك؟ وما علاقة هذا بتوزيع ميراث النبوة من قبل إبراهيم بين ولديه إسماعيل وإسحاق؟ أو بكلمات أكثر دقة نحن نسأل: ما معنى أن يأتي يعقوب من وراء إسحاق؟ وما معنى أن يكون يعقوب نافلة؟

رأينا المفترى: لما كان إبراهيم على يقين بأن يعقوب سيأتي من وراء إسحاق، ولما كان إبراهيم يعلم أن يعقوب لن يكون أكثر من نافلة، كان إذن يدرك (نحن نفتري الظن من عند أنفسنا) بأن إسحاق سيتوفاه الله بالموت قبل مولد يعقوب.

السؤال: كيف يمكن أن نفهم أن الله سيتوفى نفس إسحاق بالموت قبل مولد ولده يعقوب؟

جواب: لو تفقدنا مفردة "من وراء" في النص القرآني على مساحته لوجدنا أن ذلك يعني ما يخفى على الناظر، وهي لا تعني الخلف إطلاقا كما قد يظن العامة (وربما كثير من أهل العلم) عن معنى المفردة. فأنت عندما تقول أن فلانا قد فعل ذلك من ورائي، فأنت تقصد أنه قد فعل ما فعل دون أن يدعك ترى ما فعله. وأنت قد تقول أن المدرسة تقع وراء الجبل، والجبل نفسه أمامك، وهكذا. (للتفصيل انظر مقالتنا والله من ورائهم محيط).

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نتخيل إذن أن الأمر قد حصل على النحو التالي: ما أن تحمل امرأة إسحاق بيعقوب حتى يكون الموت لا محالة سيقضي على إسحاق، لذا سيأتي يعقوب من وراء إسحاق، فلن يحصل تواصل بين إسحاق (الوالد) ويعقوب (الولد).

السؤال: ما علاقة ذلك بتقسيم الميراث؟

جواب: لما أدرك إبراهيم أنه لن يحصل تواصل بين إسحاق ويعقوب من بعده، لم يعد هناك حاجة أن يترك الكتاب في هذا البيت، لأنه من أجل الاستفادة مما في ذلك الكتاب فلابد من وجود "المعلم". فإبراهيم (المعلم الأول) هو من علم إسماعيل وإسحاق ما في الكتاب. لذا يصبح إسماعيل معلما لما في الكتاب وسيصبح إسحاق أيضا معلما لما في الكتاب بعد أن يتوفى الله نفس إبراهيم بالموت. وهنا تبرز مشكلة "إسحاق" كمعلم لما في الكتاب: كيف سيستطيع إسحاق تعليم ولده (يعقوب) ما في الكتاب مادام أن ولده سيأتي من ورائه. فإسحاق إذن (نحن لا زلنا نطير بخيالنا هناك) لن يستطيع بدوره تعليم ولده يعقوب ما في الكتاب مادام أن هذا الغلام سيأتي من ورائه.

نتيجة مفتراة 1: لما كان إسحاق سيقضي بالموت قبل أن تتاح له فرصة تعليم ولده يعقوب، كان وجود الكتاب في هذا الفرع من البيت غير ضروري.
نتيجة مفتراة 2: لكن – بالمقابل- كان لابد من أن يترك إبراهيم في هذا البيت ما يحمي الطفل (يعقوب) حتى يكبر.

السؤال: وما الذي سيشكل له الحماية في هذا البيت؟
رأينا المفترى: العصا والقميص

نتيجة مفتراة 3: ترك إبراهيم العصا والقميص في بيت إسحاق

السؤال: وأين ترك إبراهيم الكتاب إذن؟
جواب مفترى خطير جدا: في بيت إسماعيل
السؤال: ما الذي سيفعله إسماعيل بذلك الكتاب؟
جواب: سيعلمه لولده من بعده.
السؤال: ومن هو ولد إسماعيل؟
جواب مفترى خطير جدا: أيوب
إن هذا النقاش يجبرنا على تقديم الافتراءات التالية:

⇐ كان أيوب هو ولد إسماعيل
⇐ كان أيوب عنده الكتاب الذي ورثه من والده إسماعيل
⇐ تعلم أيوب ما في الكتاب من والده إسماعيل
⇐ الخ

السؤال: ما الدليل أن أيوب هو ولد إسماعيل؟
رأينا: نحن نسوق الأدلة التالية التي نظن أنها تدعم افتراءنا هذا الذي مفاده أن أيوب هو ولد إسماعيل.
أولا، لو تفقدنا الآية الكريمة التالية لوجدنا أن الأنبياء والرسل المذكورين فيها هم جميعا من ذرية إبراهيم، ولكن دون ترتيب زمني، لنجد من بينهم أيوب ويوسف:

- **وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (84)**

ولو تفقدنا السياق القرآني التالي لوجدنا أن جميع الرسل المذكورين فيه قد جاءهم الوحي:

- **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإْسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (163)**

نتيجة مفتراة: كان أيوب (كما كان يوسف) من ذرية إبراهيم

ثانيا، لو تفقدنا السياق القرآني التالي لوجدنا التفريق واضحا بين الهداية من جهة وإيتاء الكتاب المستبين من جهة أخرى:

- وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (114) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (115) وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (116) وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (117) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (118)

نتيجة مفتراة: لما كانت الهداية إلى الصراط المستقيم (وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) تختلف عن إيتاء الكتاب المستبين (وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ)، عندنا على الفور للنظر في السياق القرآني السابق الذي يتحدث عن يوسف وأيوب (على أساس أنهما من ذرية إبراهيم)، فوجدنا في السياق ذاته أن الحديث قد سبق عن إسحاق ويعقوب على وجه التحديد:

- **وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (84)**

لاحظ عزيزي القارئ – إن شئت- كيف يتحدث السياق القرآني عن هداية إسحاق ويعقوب (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا)،

السؤال: ما الذي يمكن أن نستنبطه بعد ربط السياقيين القرآنيين معا؟

رأينا المفترى: إن النتيجة المفتراة التي نحاول جاهدين أن نخرج بها بعد ربط الساقيين معا هي على النحو التالي: في حين أن الهداية كانت من نصيب إسحاق ويعقوب، لم يكن الكتاب المستبين من نصيبهما:

- **وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا...**
- **وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (117) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (118)**

ولو جلبنا السياق القرآني التالي إلى النقاش هنا لوجدنا الفصل واضحا بين الهداية وإتمام النعمة:

- **لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (2)**

لتكون السيناريوهات المحتملة على النحو التالي:

1. قد يتم الله نعمته على شخص دون هدايته (كما حصل لكثير من الناس بالرغم أنهم قد لا يسلمون)

- **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (81)**

2. قد يهدي الله بعض عباد دون إتمام نعمته عليهم كما حصل ليعقوب الذي لم تتم نعمة الله عليه كما حصل لأبويه إبراهيم وإسحاق من قبل وكما حصل لولده يوسف وآل يعقوب من بعده:

- **وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (6)**

3. قد يتحصل بعض عباد الله على الاثنتين، كما حصل ليوسف ومحمد مثلا:

- **لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (2)**

ولو رجعنا إلى قصة هذا البيت من أولها، لوجدنا السياق التالي:

- **وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (84)**

لتكون الهداية من نصيب إسحاق ويعقوب:

- **وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا...**

وما تمت نعمة الله على هذا الفرع من البيت (آل) إلا بمجيء يوسف:

- **وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (6)**

نتيجة: النبوة وعلم الكتاب يجتمعان مرة أخرى عند يوسف:

- **وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (34)**
- **رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (101)**

تلخيص ما سبق:

لما وزّع إبراهيم ميراث النبوة بين الأخوين إسماعيل وإسحاق، كان قراره على النحو التالي: وأودع العلم (الكتاب والحكمة) في بيت إسماعيل وترك الملك (القميص والعصا) في بيت إسحق، قال تعالى

- **أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (54)**

فأصبحت الصورة كما نتخيلها على النحو التالي:

<table>
<tr><td colspan="2">إبراهيم</td></tr>
<tr><td>إسما(عيل)</td><td>إسحا(ق)</td></tr>
<tr><td>أيوب</td><td>يعقوب</td></tr>
<tr><td>الكتاب والحكمة</td><td>الملك (العصا والقميص)</td></tr>
<tr><td colspan="2">يوسف
رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ</td></tr>
</table>

ثالثا، لو حاولنا البحث في سيرة حياة أيوب كما يصورها النص القرآني نفسه (في سعينا لإثبات أن أيوب هو ولد إسماعيل)، لوجدنا أنها لم تكن تخل من المشاكل العائلية:

- وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (41) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (42) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ (43) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (44)

كما نجدها لا تخلو من المشاكل الصحية:

- وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (84)

ولو حاولنا مطابقة ذلك مع حياة يعقوب لوجدنا المشاكل العائلية واضحة تماما:

- قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (5)

ولا تخلو أيضا من المشاكل الصحية:

- وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (84)

ولو تدبرنا قصة الرجلين جديدا، لوجدنا أن كلاهما استعاد عافيته وأهله في نهاية المطاف، فهذا يعقوب يرتد إليه بصره بعد أن ألقي عليه قميص يوسف:

- اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (93)

وهذا أيوب يستعيد عافيته بعد أن ركض برجله، فحصل على مغتسل، بارد وشراب:

- ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (42)

رابعا، لما كنا نؤمن أن كل شيء في كتاب الله مقصود لذاته، كان لزاما علينا أن لا نغفل أيضا عن التوازن اللفظي بين الاسمين:

يعقوب (يع- قوب)	أيّوب (أي – يوب)

وهذا التوازن اللفظي ظاهر لا يتوقف عند الاسمين فقط، بل يظهر واضحا أيضا في الحقبة الزمنية التي عاش بها يعقوب وأيوب، وليس أدل على ذلك مما قاله الملأ في ردهم على ما رأى الملك في منامه:

- قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ (44)

فالفترة الزمنية التي عاش فيها يعقوب كانت تعلم ما هي الأضغاث، أليس كذلك؟

ولو بحثنا في النص القرآني على مساحته كله عن هذه المفردة (أَضْغَاثُ) ، لما وجدنا أنها (أي مفردة أَضْغَاثُ) قد وردت مرة أخرى إلا في سياق الحديث عن أيوب:

- وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (44)

السؤال: هل كان القوم الذي عاش فيهم أيوب يعلمون هم أيضا ما هي الأضغاث؟ من يدري؟!

خامسا، لا يتوقف التقابل المتوازن بين هذين النبيين الكريمين (أيوب ويعقوب) عند ما ذكرنا سابقا فقط، بل يتعداه إلى ما هو أكثر من ذلك. فلو تفقدنا النص القرآني التالي الذي يتحدث عن سيرة حياة أيوب:

- وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ (43)

لربما خرجنا ببعض التساؤلات المقلقلة التي تحتاج إلى إجابات حقيقية، نطرح منها بداية السؤال التالي: كيف وهب الله لأيوب أهله ومثلهم معهم؟

جواب: لما كنا نظن أن هذه جزئية مهمة جدا في سياق حديثنا هذا، رأينا أن الضرورة تستدعي أن نبدأ النقاش فيها بما جاء في بطون بعض أمهات كتب التفسير (تفسير القرطبي) عن هذه الآية الكريمة:

ووهبنا له أهله ومثلهم معهم

قال مجاهد وعكرمة قيل لأيوب صلى الله عليه وسلم : قد آتيناك أهلك في الجنة فإن شئت تركناهم لك في الجنة وإن شئت آتيناكهم في الدنيا . قال مجاهد : فتركهم الله عز وجل له في الجنة وأعطاه مثلهم في الدنيا . قال النحاس : والإسناد عنهما بذلك صحيح . قلت : وحكاه المهدوي عن ابن عباس . وقال الضحاك : قال عبد الله بن مسعود كان أهل أيوب قد ماتوا إلا امرأته فأحياهم الله عز وجل في أقل من طرف البصر , وآتاه مثلهم معهم . وعن ابن عباس أيضا : كان بنوه قد ماتوا فأحيوا له وولد له مثلهم معهم . وقال قتادة وكعب الأحبار والكلبي وغيرهم . قال ابن مسعود : مات أولاده وهم سبعة من الذكور وسبعة من الإناث فلما عوفي نشروا له , وولدت امرأته سبعة بنين وسبع بنات . الثعلبي : وهذا القول أشبه بظاهر الآية . قلت : لأنهم ماتوا ابتلاء قبل آجالهم حسب ما تقدم بيانه في سورة [البقرة] في قصة " الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت " [البقرة : 243] . وفي قصة السبعين الذين أخذتهم الصاعقة فماتوا ثم أحيوا ; وذلك أنهم ماتوا قبل آجالهم , وكذلك هنا والله أعلم . وعلى قول مجاهد وعكرمة يكون المعنى : " وأتيناه أهله " في الآخرة " ومثلهم معهم " في الدنيا . وفي الخبر : إن الله بعث إليه جبريل عليه السلام حين ركض برجله على الأرض ركضة فظهرت عين ماء حار , وأخذ بيده ونفضه نفضة فتناثرت عنه الديدان , وغاص في الماء غوصة فنبت لحمه وعاد إلى منزله , ورد الله عليه أهله ومثلهم معهم , ونشأت سحابة على قدر قواعد داره فأمطرت ثلاثه أيام بلياليها جرادا من ذهب . فقال له جبريل : أشبعت ؟ فقال : ومن يشبع من فضل الله . فأوحى الله إليه : قد أثنيت عليك بالصبر قبل وقوعك في البلاء وبعده , ولولا أني وضعت تحت كل شعرة منك صبرا ما صبرت .

رحمة منا

أي نعمة منا . فعلنا ذلك به رحمة من عندنا . وقيل : ابتليناه ليعظم ثوابه غدا .

وذكرى لأولي الألباب

أي عبرة لذوي العقول وتذكيرا للعباد ; لأنهم إذا ذكروا بلاء أيوب وصبره عليه ومحنته له وهو أفضل أهل زمانه وطنوا أنفسهم على الصبر على شدائد الدنيا نحو ما فعل أيوب , فيكون هذا تنبيها لهم على إدامة العبادة , واحتمال الضرر

رأينا: لما كنت أظن أن ليس هناك ضرورة ملحة لتفنيد هذه "..."، لأنها بحد ذاتها تبطل بعضها بعضا، فلو قرأ العامة بأنفسهم هذه الخزعبلات من بطون تلك الكتب دونما تسويق لها من قبل "أهل الدراية"، لم ترددوا أن يلقوا بها جميعا في "   ". ولو قرأها الناس في بطون كتب غيرهم من الأمم لتبسموا ضاحكين من هذا القول. ولانفجرت حناجر علمائهم بازدراء بضاعة غيرهم، أما لما كانت هذه الآراء لا تصل للعامة مباشرة إلا بعد تصفيتها (وفلترتها) بإضفاء طابع القدسية عليها، تقبّلها الناس دون مساءلة ولا محاججة. فعالمهم لا يحتاج أن يقدم لهم دليلا على ما يقول أكثر من القول أن هذا ما قاله ابن فلان وابن علان من سادتنا أهل الدراية المشهود لهم بالصلاح (وإن كان الدليل يثبت لنا على الدوام أنهم لم يكونوا من أصحاب الرأي الصواب على الدوام).

أما نحن، فإننا نرفض هذه الآراء جملة وتفصيلا ما دام أن الدليل ينقصها، فهي – عندنا- ليست أكثر من آراء شخصية لا تسمن ولا تغني من جوع، والحالة هذه، يصبح لزاما علينا أن نعيد تدبر هذه الآية الكريمة من جديد، علّنا نخرج (بتوفيق من الله وحده) ببعض الأفهام التي قد تسدّ رمق الباحث عن الحقيقة حتى وإن لم تعجب المدافعين عن تراث الآباء والأجداد.

أما بعد،

قال تعالى:

- **وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ (43)**

لنقدم (بناء على فهمنا لما فيها) الافتراءات التالية:

⇐ الله هو من أصدر أمره بأن يهب لأيوب أهله (وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ)

⇐ الله هو من أصدر أمره بأن يهب لأيوب أهله ومثلهم (وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم)

⇐ الله هو من أصدر أمره بأن يهب لأيوب أهله ومثلهم معهم (وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ)

⇐ كان ذلك رحمة (وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا)

⇐ كان ذلك ذكرى لأولي الألباب (وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ)

⇐ الخ

ولو توقفنا عند هذه الافتراءات، لربما حق لنا أن نستنبط القول بأن أيوب قد عانى في حياته من مشاكل شخصية، وقد تلخص ذلك في أن مسه الضر:

- **وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (84)**

وفصّل ذلك الضر في قوله تعالى:

- **وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (41)**

ليكون الافتراء الآن هو أن أيوب قد كان عرضة لمس الشيطان، وكان ذلك بنوعين من المشاكل: النصب والعذاب

- **وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (11) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (12) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (13)**

السؤال: كيف يمكن أن نعيد فهم قصة هذا الرجل في أهله؟

رأينا: من أجل فهم قصة هذا النبي الكريم، فلابد من إعادة تدبر المفردات التي نظن أنها أشكلت على أهل الدراية من سادتنا العلم، فما خرجوا علينا (نحن نفتري القول) بتصور واضح عن قصة أيوب. والمفردات ذات العلاقة متعددة، نذكر منها:

⇐ المشكلة الأولى: وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ

⇐ المشكلة الثانية: وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا

⇐ المشكلة الثالثة: فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ

⇐ المشكلة الرابعة: ارْكُضْ بِرِجْلِكَ

⇐ المشكلة الرابعة: هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ

⇐ المشكلة الخامسة: مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ

فهذه مفردات تحتاج الواحدة تلو الأخرى إلى دراسة متأنية، وهو ما سنقحم أنفسنا فيه (متى ما أذن الله لنا بشيء من علمه فيها) ، سائلين الله أن يعلمنا ما لم نكن نعلم، وأن يزيدنا علما، وأن يهدينا لأقرب من هذا رشدا، طامعين أن ينفذ إرادته ومشيئته لنا الإحاطة بشيء من علمه فيها لا ينبغي لغيرينا، إنه هو الواسع العليم – آمين.

أما ما يخص حديثنا هنا، فإننا نظن أن المشكلة الأولى هي ما يجب تناوله في هذا الطرح، وهي المشكلة الخاصة بقوله تعالى عن أيوب:

- **... وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ**

لتكون التساؤلات هي:

⇐ ما معنى أن أيوب قد أوتي (بأمر من الله) أهله؟

⇐ ما معنى أن أيوب قد أوتي (بأمر من الله) أهله ومثلهم؟

⇐ ما معنى أن أيوب قد أوتي (بأمر من الله) أهله ومثلهم معهم؟

⇐ الخ

لو تفقدنا السياقيين القرآنيين التاليين الخاصّين بهذا النبي الكريم، لوجدنا أن حصول أيوب على الأهل قد ورد بلفظين أثنين، فقد وردة مرة بلفظ "وَآتَيْنَاهُ" كما في سورة الأنبياء:

- **وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (84)**

ومرة أخرى بلفظ "وَوَهَبْنَا" في سورة ص:

- **وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (41) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (42) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ (43) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (44)**

ولو تدبرنا الآيات الكريمة في سياقها لوجدنا أن ذلك قد حصل بعد أن استجاب الله نداء الرجل وبعد أن كُشف الضر عنه، لتكون الصورة المبدئية التي سنحاول الانطلاق منها على النحو التالي: مس الشيطان أيوب بالنصب والعذاب قبل أن يهب الله له أهله. وبالتالي فإن الله قد وهب لأيوب أهله بعد أن كشف عنه الضر:

- **فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (84)**

السؤال: ما معنى أن يهب الله الذرية لأيوب؟

رأينا: عندما تعرضنا لمفردة "وهب" الخاصة بالذرية، وجدناها قد جاءت عند الحديث عن من كان عنده مشكلة في الإنجاب، كما في حالة إبراهيم هو من وهب الله إسماعيل وإسحاق على الكبر:

- **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (39)**

ولو دققنا في كل السياقات القرآنية الخاصة بحصول إبراهيم على الولد لوجدناها قد جاءت بصيغة الهبة:

- **وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (84)**
- **فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (49)**
- **وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (72)**

- وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (27)

ولو انتقلنا إلى زكريا لوجدنا أن المنة الإلهية عليه كانت بأن وهب له الذرية على الكبر:

- فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (90)
- قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (8)

ولو دققنا أكثر لوجدنا أن داوود قد حصل على الذرية (سليمان) هبة من الله:

- وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (30)

وكذلك حصلت مريم على الذرية (عيسى) كهبة من الله:

- قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (19) قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20)

إن ما نود أن نصل إليه هو الافتراء التالي: عندما يتحصل لبشر الذرية بطريقة الهبة، فإن ذلك الشخص يكون في وضعه الطبيعي لا يستطيع الحصول على الذرية:

نتيجة مفتراة: كان أيوب يعاني في شبابه من مشكلة في الإنجاب، فما تحصلت له الذرية.

الدليل

لو صدقنا ظننا بأن أيوب هو نفس الرجل الذي اشترى يوسف من مصر، لوجدنا السياق القرآني التالي:

- وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (21)

السؤال: لماذا طلب هذا الرجل من امرأته أن تكرم مثوى الغلام (يوسف)؟

جواب مفترى: نحن نظن أن طلبه هذا كان مدفوعا بواحدة من اثنتين:

1. أن ينفعهما (عَسَى أَن يَنفَعَنَا)
2. أن يتخذاه ولدا (أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا)

السؤال: وكيف سيكون في إكرام مثوى يوسف منفعة لهما (عَسَى أَن يَنفَعَنَا)؟ لماذا يريدا أن يتخذا يوسف ولدا (أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا)؟

جواب مفترى: نحن نظن أن ذلك كان لسببين، وهما:

1. كان هناك مشكلة زوجية بين الرجل وامرأته
2. كان الرجل والمرأة لا ينجبون الأطفال

الدليل

باب المرأة والزوجة

تحدثنا عن الفرق بين أن تكون المنكوحة من النساء (الأنثى) هي امرأة أو أن تكون زوجة لناكحها (الذكر). وزعمنا الظن أن عدم وجود التوافق بين الطرفين يؤدي بأن تكون المنكوحة من النساء امرأة لناكحها كما في حالة امرأة نوح وامرأة لوط وامرأة فرعون:

- **ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (10) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11)**

فهؤلاء ليسوا أزواج لبعولتهن، وإنما صفة المرأة أقرب إلى الوصف:

- **وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلاَ جُنَاْحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (128)**

نتيجة مفتراة:

مادام هناك مشكلة تدعو إلى الإصلاح بين الذكر (الناكح) والأنثى (المنكوحة)، فإن الرجل يسمى بعلا والأنثى تسمى امرأة، حتى يتم الإصلاح بينهما، فإن حصل الإصلاح بينهما فإن لفظ الزوج والزوجة تصبح هي الأصح كما حصل مع زكريا. فلقد كان هناك مشكلة حاصلة بين زكريا وامرأته، فكانت عاقرا:

- **وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (5)**
- **قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (8)**

وما أن تمت المنة الإلهي على زكريا بالذرية حتى اكتملت بأن أصلح الله له تلك المرأة فأصبحت زوجا له:

- **فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (90)**

السؤال: لماذا خاطب الرجل الذي اشترى يوسف من مصر من كانت في بيته على أساس أنها امرأته؟

جواب مفترى: لأن هناك مشكلة ناشبة بين الطرفين. فالعلاقة بينهما لا تتصف بالتزاوج (أي التوافق)، فكان لابد من إصلاح المرأة أو على الأقل إطفاء جذوة الخلاف بينهما.

السؤال: كيف يمكن إطفاء جذوة الخلاف بينهما؟

جواب مفترى: بأن تكرم مثوى يوسف في تلك الدار

السؤال: كيف سيحصل ذلك؟ وما فائدة أن تكرم مثوى يوسف؟

جواب: بالمنفعة. فإكرام مثوى يوسف ربما يعود بالمنفعة عليهما معا (عَسَى أَن يَنفَعَنَا)

السؤال: وكيف ستتحصل المنفعة من وراء ذلك؟

جواب مفترى: لابد بداية أن نفهم معنى المنفعة.

السؤال: ما معنى المنفعة؟

رأينا: لو رجعنا إلى السياقات القرآنية الخاصة بالمنفعة لوجدنا السياق التالي الذي يتحدث عن فرعون وامرأته:

- **وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (9)**

فعدم الإقدام على قتل موسى الطفل واتخاذه قرة عين لهما سيسبب المنفعة لهما، أليس كذلك؟

السؤال: كيف سيكون ذلك؟

جواب: نحن نظن أن ذلك سيكون بنفس الطريقة التي يسببها الخمر:

- **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (219)**

السؤال: وكيف يكون ذلك؟

جواب: بنفس الطريقة التي يسببها الحديد:

- **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (25)**

السؤال: وكيف يكون ذلك؟

جواب مفترى خطير جدا: بتليين الصعاب.

السؤال: كيف سيكون ذلك؟

تحدثنا في الجزء الرابع عشر من هذه المقالة تحت عنوان باب المنافع عن هذه الجزئية، فمن أراد التفصيل فعليه أن يعود إلى هناك، لكننا سنعيد هنا بعض الأفهام التي افتريناها هناك لعلاقتها بفحوى النقاش هنا:

أولا، المنفعة هي ما تقابل الضر:

- **وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (102)**
- **قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (76)**
- **قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (71)**
- **قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ۚ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (188)**

- وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (18)
- قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (49)
- وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ (106)
- قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (16)
- أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (89)
- قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (66)
- يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (12)
- يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ۚ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (13)
- وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (3)
- وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا (55)
- أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73)
- فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (42)
- سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (11)

ثانيا، افترينا القول بأن المنفعة منفصلة تماما عن الطعام والشراب والمركب:

- وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (5)
- وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (21)
- أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (71) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (72) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (73)
- اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (79) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (80)

نتيجة مفتراة: مادام أن لنا في الأنعام منافع ومنها نأكل، ومادام أن لنا فيها منافع ومشارب، ومادام أن لنا فيها دفء ومنافع، ومادام أننا نركبها ولنا فيها منافع، فإننا نستطيع أن نفتري القول بأن المنفعة هي شيء يختلف تماما عن المأكل والمشرب والدفء والركوب، فالأكل والشرب والدفء والركوب الذي نحصل عليه من الأنعام لا يدخل ضمن نطاق المنفعة.

ثالثا، مادام أن المنفعة منفصلة عن المأكل والمشرب والمركب والدفء، فإن فرعون وامرأته (وكذلك الرجل الذي اشترى مصر وامرأته) لا يحتاجون إلى شخص يجلب له المأكل أو المشرب أو الدف أو المركبة، فهم في غنى عن الحصول على ذلك من خلال تربية طفل في دارهما. لكن بالرغم من ذلك، فإن في تربية الطفل منفعة لهما، أليس كذلك (عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا)؟

رابعا، لو دققنا في كلا السياقين، لوجدنا على الفور أن المنفعة سابقة لاتخاذ الولد في كلا الحالتين (عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا)، مما يدفعنا على الفور لاستنباط الافتراء التالي: المنفعة منفصلة عن (وهي سابقة لـ) اتخاذ الولد. فاتخاذ الولد شيء والمنفعة شيء آخر وقد لا يتلاقيان.

خامسا، ظننا أن المنفعة يمكن أن تتحصل لنا من الأنعام:

- **وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (5)**
- **وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (21)**
- **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (71) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (72) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (73)**
- **وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (5)**
- **اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (79) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (80)**

السؤال: فما هي المنفعة التي كان سيجنيها من اشترى يوسف (وامرأته) من تربية يوسف في بيتهما؟ وما المنفعة التي كان من الممكن أن تجنيها امرأة فرعون (وربما فرعون نفسه) من الإبقاء على حياة موسى؟ وما هي المنفعة التي نتحصل عليها من الأنعام؟ وما هي المنفعة التي نتحصل عليها من الخمر؟ وما هي المنافع التي نتحصل عليها من الحديد؟ ما الذي يجمع بين هذه كلها؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: إنها تذليل العقبات بتلين العلاقة بين الطرفين.

السؤال مرة أخرى: كيف تتحصل المنفعة؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: بالإلانة

السؤال: كيف تتم ذلك من خلال الحديد؟

رأينا المفترى: مادام أن الحديد فيه منافع، فهو المادة التي تطوع قسوة المواد الأخرى. فالصانع الذي يحتاج أن يطوع الخشب أو الحجارة أو غيرها، لابد له من المادة التي تلين قسوة هذه المواد، ولا أنفع من الحديد لأداء هذه الوظيفة.

السؤال: وكيف يتم ذلك في حالة الخمر؟

جواب: من أجل أن يقوم الطبيب بإجراء العملية الجراحية للمريض، فلابد من استخدام المادة القادرة على تلين المريض ليسمح للطبيب من القيام بالمهمة، ولا أنفع من الخمر (المخدر) لأداء هذه الوظيفة.

السؤال: وكيف يتم ذلك في حالة الأنعام؟

جواب مفترى: نحن نظن أن ذلك يتم من خلال ما في الآية الكريمة التالية:

- **لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ ۚ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ۗ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (37)**

السؤال: ما معنى ذلك؟

جواب مفترى: من أجل تليين قلوب وجلود المؤمنين وبالتالي إصلاح العلاقة بين العبد وربه فلابد من ذبح الأنعام تقربا إلى الله

(نصيحة لنفسي: كلما وجدت أن العلاقة بيني وبين ربي قد أصابها الفتور أو الخلل بما كسبت يداي، فعلي أن أذبح الأنعام تقربا إلى الله، ليلين قلبي وجلدي لذكر ربي، وبالتالي لتصلح علاقتي مع ربي)

السؤال: وكيف يتم ذلك من خلال تربية الطفل في قصر فرعون؟

جواب مفترى: كانت العلاقة بين فرعون من جهة وامرأته من جهة أخرى تتسم بالقسوة، فكان لابد من محاولة إلانة القلوب وربما الجلود حتى تصلح العلاقة بينهما. فعلاقة امرأة فرعون بفرعون كانت علاقة غير سوية ينقصها الولد وربما المحبة، وليس أدل على ذلك من دعاء امرأة فرعون ربها بالخلاص من فرعون وعمله:

- **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11)**

وليس أنفع من ذلك من الإبقاء على حياة الطفل (موسى) ليكون قرة عين لهما معا:

- **وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (9)**

السؤال: وكيف سيتم ذلك في بيت الرجل الذي اشترى يوسف من مصر؟

جواب مفترى: نحن نفتري القول أيضا بأن العلاقة بين الرجل وامرأته كانت تتسم بالقسوة، فكان لابد من محاولة تذليل الصعاب، وليس أنفع في ذلك من إكرام مثوى الغلام عندهما:

- **وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (25)**

نتيجة مفتراة: المنفعة في هذه السياقات القرآنية تعني (برأينا) تليين كل ما يتصف بالقسوة

نعود إلى صلب الموضوع بالافتراء التالي: كانت العلاقة بين أيوب وامرأته تتصف بالشحناء (والقسوة)، فما كان من أيوب إلا أن يحاول إصلاح تلك العلاقة، فوجد في إكرام مثوى يوسف الطريقة الأنفع:

- **وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (25)**

كما كان عدم وجود الولد من المعوقات الأخرى التي تضيف إلى قسوة العلاقة بين الطرفين. فلو كان الرجل وامرأته من المنجبين للذرية لما دعت الحاجة أن يتخذوا يوسف ولدا:

- **وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (25)**

عودة على بدء

دعنا نعود إلى قصة يعقوب كما تصورها الآيات الكريمة قيد البحث أحسن تصوير:

- **وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (84)**
- **وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (41) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (42) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ (43) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (44)**

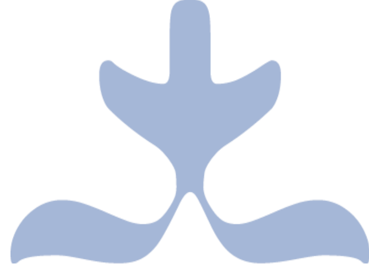
لنخرج بالسيناريو الخيالي التالي: كان أيوب يعاني من مشكلة عدم الإنجاب، كما كان يعاني من مشكلة سوء العلاقة بينه وبين زوجه، وكان ذلك كله بسبب مس الشيطان. فخرج الرجل يبحث عن ما يسكن العلاقة بينه وبين زوجه، فوجد في يوسف (الغلام الذي اشتراه من مصر) منفعة لهما. فعاد به إلى البيت وطلب من امرأته أن تكرم مثواه.

وما أن نشأ يوسف في بيت ذلك الرجل حتى حصل له التمكين في الأرض، وبالمقابل بدأت مشاكل هذا الرجل (أيوب) تنحل، فكشف عنه ضره، وبدأ منذ تلك اللحظة بالحصول على الذرية.

السؤال: كيف حصل له ذلك؟

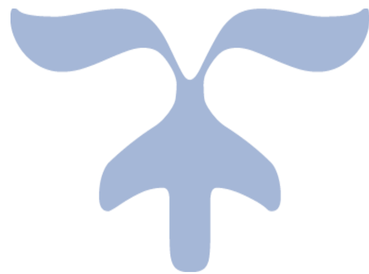
جواب مفترى: هذا ما سنتناوله في بداية الجزء القادم من هذه المقالة بحول الله وتوفيق منه.

سائلين الله وحده أن ينفذ مشيئته وإرادته لنا الإحاطة بشي من علمه لا ينبغي لغيرنا، إنه هو العليم الحكيم، وأدعوه وحده أن يؤتيني رشدي، وأن يجعل لي من لدنه سلطانا نصيرا، وأعوذ به أن يكون ممن يفترون عليه الكذب، أو ممن يقول عليه ما ليس لهم بحق، وأعوذ به أن يكون أمري كأمر فرعون، إنه هو الواسع العليم – آمين.



قصة يونس

الجزء السابع والعشرون



قصة يونس: الجزء السابع والعشرون

توقفنا في النقاش في نهاية الجزء السابق من هذه المقالة عند أجزاء من قصة أيوب، وقدّمنا افتراءات من عند أنفسنا (نظن أنها غير مسبوقة) عن شخصية هذا النبي الكريم، فزعما الظن أن أيوب هو ولد نبي الله إسماعيل، ليصبح خط الذرية في بيت إبراهيم (بفرعيه) على النحو التالي:

إبراهيم	
إسماعيل	إسحق
أيوب	يعقوب

وطار بنا الخيال إلى افتراء الظن من عند أنفسنا بأن أيوب هو ذلك الرجل الذي اشترى يوسف من مصر، وطلب من امرأته أن تكرم مثواه:

- **وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (21)**

وهناك في بيت أيوب حصل التمكين الأول ليوسف في الأرض (وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ)، وبدأ يوسف يتعلم من تأويل الأحاديث (وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ)، وكان ذلك بتدبير مباشر من الله (وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ) وإن لم يكن الغلام ربما يدرك بعدُ سبب ما حل ﷺ به. وكان هذا – برأينا- ربما المحرك الرئيسي الذي دفع بيعقوب أن يرسل يوسف مع إخوته بالرغم من يقينه بأنهم سيكيدون له، وهم لا محالة طارحوه أرضا:

- **قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (13)**

فقد وافق يعقوب على طرح يوسف أرضا (دون دراية من أبنائه)، لأنه كان يظن (نحن نفتري القول) أنّ على يوسف الذهاب إلى من عنده العلم بتأويل الأحاديث، وهو العلم الذي لم يكن متوافرا عند يعقوب نفسه:

- **وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (6)**

وظننا أن السبب في ذلك هو عدم وجود الكتاب في يد يعقوب، وذلك لأنّ الكتاب (نحن لازلنا نتخيل) قد تم إيداعه في الفرع الثاني من بيت إبراهيم (أي عند إسماعيل). فافترينا الظن من عند أنفسنا بأنه قد توافر لآل إبراهيم (وهما فرع إسماعيل وفرع إسحاق) الكتاب والحكمة والملك العظيم:

- **أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (54)**

فبالرغم أن النبوة كانت من نصيب الاثنين: إسماعيل وإسحاق (انظر الجزء السابق لترى كيف كانت حكمة إبراهيم هي السبب في ذلك)، إلا أن الكتاب كان من نصيب إسماعيل وكان الملك من نصيب إسحاق كما في الشكل التالي:

آل إبراهيم	
إسماعيل	إسحاق
الكتاب	الملك

لذا، كان الكتاب والنبوة في بيت إسماعيل وكان الملك والنبوة في بيت إسحاق، وزعمنا الظن من عند أنفسنا أن من كان عنده الكتاب هو من كان قادرا على تأويل الأحاديث، وهو ما كان ينقص يعقوب (ولد إسحاق). وظننا أيضا أن هذا الإرث العظيم عاد ليجتمع كله (الكتاب والملك) مرة أخرى بيد رسول بني إسرائيل جميعا (ذرية إسماعيل وذرية إسحاق معا) عند يوسف في أرض مصر:

- **وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (34)**

فأصبحت الصورة كما تخيلناها في الجزء السابق على النحو التالي:

إبراهيم أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (54)	
إسما(عيل)	إسحا(ق)
أيوب	يعقوب
الكتاب والحكمة	الملك (العصا والقميص)
يوسف رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ	

وبذلك يكون خط سير رحلة بني إسرائيل إلى أرض مصر على النحو التالي:

1. سار يعقوب (الشمس) وأهله أجمعين من الأرض التي باركنا فيها للعالمين جنوبا باتجاه الغرب نحو يوسف في أرض مصر
2. سار أيوب (القمر) وأهله معه من الأرض التي وضع فيها أول بيت للناس (من الواد غير ذي الزرع) شمالا باتجاه الغرب نحو يوسف في أرض مصر



فتجمع كل بنو إسرائيل (نحن لازلنا نفتري القول من عند أنفسنا) مرة أخرى تحت راية يوسف في أرض مصر، وهناك رفع يوسف أبويه الشمس والقمر (يعقوب وأيوب) على العرش، وخروا له سجدا:

- وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100)

كما توضح ذلك هذه الجدارية التي وصلتنا من عند صاحبنا عصام درويش من أرض ملك يوسف الصديق في مصر:



فأصبح كل بنو إسرائيل ملوكا في أرض مصر، فكانوا هم قوم موسى من بني إسرائيل:

- وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ (20)

وكان يوسف (نحن نفتري القول) هو آخر أنبياء بني إسرائيل في أرض مصر:

- رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (101)

حتى مجيء موسى:

- وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (34)

الذي كانت جلّ مهمته هو أن يخرج بني إسرائيل من أرض مصر، ليعود بهم جميعا إلى الأرض التي كتب الله لهم:

- حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (105)
- فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (47)
- فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (17)

ولمّا كان تركيزنا على سيرة نبي الله أيوب، حاولنا البحث عنها كما يصورها النص القرآني، فوجدنا أن النقاش يجب أن ينطلق من السياقات القرآنية التي جاء ذكر الرجل فيها بصريح اللفظ:

- **وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (84)**
- **وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (41) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (42) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ (43) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (44)**

فطار الخيال بنا إلى أن نتصور (ربما مخطئين) أن أيوب كان يعاني من مشكلتين اثنتين في بيته، وهما (1) سوء العلاقة مع امرأته و (2) عدم القدرة على الإنجاب، وكان ذلك كله بسبب مس الشيطان. وفي محاولته الخروج من هذا الوضع الراهن، انطلق الرجل باحثا عن ما يسكّن العلاقة بينه وبين امرأته، فوجد في يوسف (الغلام الذي اشتراه من مصر) منفعة لهما. فعاد به إلى البيت، وطلب من امرأته أن تكرم مثواه:

- **وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (21)**

وما أن نشأ يوسف في بيت ذلك الرجل حتى حصل له التمكين في الأرض (وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ)، وبدأ هناك يتعلم من تأويل الأحاديث (وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ) على يد عمّه أيوب، وهو من عنده علم من الكتاب. وبالمقابل بدأت مشاكل هذا الرجل (أيوب) تنحلّ، فكُشِف عنه ضره، وبدأ منذ تلك اللحظة بالحصول على الذرية.

(وسنتعرض لتفاصيل حياة أيوب لاحقا عندما يأذن الله لنا الإحاطة بشيء من علمه فيها، فالله وحده أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يزدني علما وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا، إنه هو السميع المجيب – آمين).

ونحن ندعو الله أن يهدي أخانا العزيز عصام درويش صراطه المستقيم، فيتكشف له من كنوز العلم المتوافرة في أرض مصر، فلعل يده قد وقعت بعد هذه المقالات على الخيوط التي سترشده (بحول الله وتوفيق منه) إلى قصة هذا الحكيم الذي ما انفك يصاحب يوسف في أرض مصر، فهو من يعمل على إعادة نسج خيوط القصة من جداريات وأحافير في أرض مصر الخالدة. وهو من جاء رده على مقالاتنا السابقة في رسالة الكترونية على النحو التالي:

لا أخفيكم سرا أنني في الفترة التي كتب فيها الجراح درته المكنونة في الجزء 24..25..26 ... كان خيالي مسلوب تماما و قابع في ترقب وفزع تحت هرم زوسر المدرج الذي أكاد ابكي متوسلا الي صخره وحجره أن ينطق لي ولو بحرف واحد يؤكد لي أو ينفي أن يكون زوسر هو جوسر هو جوزيف هو يوسف الصديق. إن احساسي القوي هنا يؤكد لي أن هذا الهرم المدرج فوق رأسي هو غطاء مهيب يخفي من تحت منه أسرار رهيبة وكبيرة.

أكاد اتحسس باناملي واصابعي أزرق الفسيفساء المبطن لجدار بئر الدفن اسفل قدماي. . كما لو كنت اعبث بازرار حاسوبي العتيق لعله ينطق بأي شيء. .. لم أري هذا الأزرق وهذا الفسيفساء إلا هنا.

واطللت بصري علي عمق سحيق الي الجنوب اسفل قدماي وأسفل غرفة الدفن الهرمية لاتامل هذه الآبار الاحدي عشر..واطلعت اليها وهي ميتة من السكون..مقابر احدي عشر... قد غطتها وحجبتها عن العيون توسعات تمت لقاعدة الهرم المدرج فصارت طي النسيان.

لماذا 11 وليست 9 أو 10 أو أقل من ذلك أو أكثر.

هل هنا يوسف العزيز الذي قرأ المترجمون اسمه أسيس؟ وضاع اسمه في قوائم الملوك وقد عبثت بها الفوضي.

وجاءني الجزء 26 من درر الجراح وانا أكاد ابكي متوسلا لتراب وحصي واحجار مقابر أخوة يوسف... ارجوكم تكلموا وافصحوا عن أي شيء ... كفاكم خلاصا نجيا. .. لقد خلصتم نجيا زمن يوسف... ألم يكفيكم هذا الصمت الطويل.

واصابني شاكوش الجراح الرشيد في جنب رأسي. .فذهبت من السكاري ... ولم أقرب الصلاة... ولكني قربت من أيوب.

... وقلت له...أيوب أيها النبي العظيم...أين موقعك هنا من هذه الجنان الأبدية الصامتة... أين أنت من يوسف وزمانه.

لقد كانت ظلمة قبر زوسر الحالكة معينا بقوة للذهاب بعيدا وعميقا الي حيث أحداث وأشخاص وأيام حول زمن يوسف وحوله.

ومررت سريعا علي كل ذلك أو معظمه... والتفت يميناً قليلاً متأملاً رجلاً عجوزا لحيته بيضاء غطاها تراب زمن طويل قابعا في أحد أركان زمن قديم.

أجدني أجمع بين اصابعي حروف وكلمات اجتهد البعض في فك طلاسيمها. . أجدني اقلب كفيبا علي ما أنفقوا فيها من عمر وسنين.

حروف حين اجمعها سويا اسمع كما يقول اللسان المصري تاءتاءا. ... هذا العجوز هو أبو الحكماء في مصر القديمة.

كيف غاب عني هذا الحكيم وسط عماليق في أسمائهم واحجامهم واثارهم. .. ولم افطن ولم أتوقف عنده ولو قليلا.

أنين الأصوات وتاءتاءته يفصح عن حكيم تعلم منه الشرق كله وممالك جنوب أوربا. .. أتاه الله لسان حكمة نادر وحيد وعجيب... أكاد أراها كما لو كانت كبسولات من حكمة عميقة وفريدة... أبطالها بين بشر وكائنات أخري. .. أكاد أجزم الآن أن كليلة ودمنة وكثير من تراث القوم قد كان هذا العجوز مصدره.

هل الرمزية الرفيعة الراقية في كبسولات الرجل هي ما يطلق عليها تأويل الأحاديث. ؟!.

دعوني اتلصص أو اتحسس عن قرب أكثر من هذا الرجل الساكن في صمت رهيب أحد أركان كهف الزمان.

الحروف غير واضحة... الأصوات مدغدغة. ..اسمع منها بعض كلمات مفهومة...أفهم منها أنه في صغره قد بيع في سوق الرقيق و قد اشتراه رجلان!... يبدو لي أنهما كانا يعايرانه بعلة في جسده .... وقد تركت قبحا ونفورا ممن يراه أو يخالطه.

ولكن حكمته وقدرته الفذة علي صياغة الحكم والمواعظ في كبسولات قصيرة رمزية قد اعلت من شأنه وسط كل الأقوام وفي كل زمان.

لا أملك إلا أن انحني خجلا واحتراما لهذا العجوز الحكيم الذي تم رفعه علي عرش الحكمة.... وقد أعجبتني كثيراً كبسولته (الفتي الذي لم ياكله الذئب).!!!!

لقد اعياني السفر الي حيث يقبع هذا العجوز... ولكنني لا استطيع ان اقفل عائدا إلا إذا تحسست لقبا أو اسما له.

يا لها من صدفة رائعة... هاهي حروف اسمه جلية ومشرقة.

ء...ي...س...و..ب.

السؤال: هل نحن إذن على الطريق المستقيم باتجاه الهدف المنشود أيها الدرويش؟

دعاء: أسأل الله وحده أن يهدينا إلى نوره، وأن ينظرنا نقتبس منه، فنكن في أنصاره، ليجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمته هي العليا – آمين)

أما بعد،

إن ما يهمنا طرحه الآن هو الافتراء بأن يعقوب وأيوب هما من رفعهما يوسف على العرش على أساس أنهما أبويه:

- **وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100)**

ولو تدبرنا رؤيا يوسف الأولى التي قصها على والده يعقوب لوجدنا أن الشمس والقمر فيها حاضرين:

- إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (4)

والجزء السابق من الجدارية يوضح سجود الإخوة (الأفاعي الأحد عشر) وسجود والدية (الأفاعي الدائرية) له:



لنخلص إلى الافتراءات التي ستعيدنا مرة أخرى إلى قصة إبراهيم، والافتراءات هي:

1. كان يعقوب هو الشمس
2. كان أيوب هو القمر
3. كان الأبناء هم الكواكب

وهو ما يرتبط – برأينا- مع رؤيا إبراهيم نفسه:

- فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78)

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا: زعمنا الظن سابقا أن إبراهيم كان ثائرا على عقيدة الشرك التي كانت سائدة في قومه:

- وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ (80) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (81)

فتبرأ إبراهيم من عبادة قومه:

- وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ (26)

وتوجه بقلب سليم إلى ربه الذي فطره ليهديه:

- وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (83) إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (84) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (85) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (86)
- إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (27)
- إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79)

وكان شرك قومه مبنيّ على مبدأ أن الإله ثلاثة (شمس وقمر وكوكب). فكان الكوكب هو الإله الابن، وكانت الشمس هي الإله الأكبر، وكان القمر هو الإله الذي يتنزل بينهما. ولو تدبرنا السياق التالي لوجدنا أن عقيدة القوم كانت مبنية على الإفك:

- وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (83) إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (84) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (85) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (86)

ولو حاولنا ربط هذه الآية الكريمة بآية أخرى في كتاب الله، لوجدنا أن الإفك يتمثل بقولهم المفترى على الله كذبا أن له الولد:

- **أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (151) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (152)**

وكان جلّ الدليل الذي قدمناه هو ما تحصل لنا من فهم مفترى من عند أنفسنا عن رؤيا يوسف التي قصها على والده يعقوب:

- **إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (4)**

وسنحاول الآن الخوض في هذه الافتراءات تباعا، علّنا نصل بحول الله وتوفيق منه إلى مبتغانا، عن كيفية رؤيا إبراهيم ويوسف لهذه الكينونات الثلاثة.

باب الإله الابن (الكوكب)

ربما لا نحتاج إلى بذل مزيد من الجهد لتسويق الظن بأن الكواكب في رؤيا يوسف هم الأبناء في الحقيقة، فيوسف قد رأى أحد عشر كوكبا، وهم في ظننا أبناء يعقوب، أليس كذلك؟

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (4)

وهم الذين خروا له سجدا، فكان في ذلك تأويل لرؤيا يوسف الأولى :

- **وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100)**

لتصبح الصورة الآن في ذهننا على النحو التالي:

كان يعقوب هو الأب، لأنه هو الأكبر، وهذا ما نظن أنه الرابط بين رؤيا يوسف ورؤيا أبيه (جده) إبراهيم من قبل، فلو دققنا فيما قاله إبراهيم عن الشمس لوجدنا السياق القرآني يبين أن الشمس هي الإله الأكبر:

- **فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78)**

ولو تفقدنا الحديث عن القمر في رؤيا إبراهيم لوجدنا أنه يتوسط الحديث عن الكوكب (الإله الابن) والشمس (الإله الأكبر):

- **فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78)**

ليكون الافتراء الذي نحاول تسويقه هو أن عقيدة القوم كانت مبنية على الإيمان بأن هناك إله في السماء هو الإله الأكبر (الشمس)، وهناك إله في الأرض هو الإله الابن (كوكب) وهناك من يتنزل بينهما (القمر)، وهو الروح. وهذه هي عقيدة الذين جاءوا من بعهدهم من أهل الكتاب اللذين جعلوا لله الولد، فبعضهم قال أن الإله اثنين:

- **وَقَالَ اللّهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلهٌ وَاحِدٌ فَإيَّايَ فَارْهَبُونِ (51)**

وهم اليهود الذين قالوا أن العزير هو ابن الله:

- **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (30)**

وقال بعضهم الآخر أن الإله ثلاثة، وهم النصارى اللذين افتروا أكثر من ذلك عندما ظنوا أن هناك إله يتنزل بين الأب (إله السماء) والابن (إله الأرض):

- يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً (171)

فجاء الرد الإلهي الحاسم الذي يكذّب دعوى الطرفين في قوله تعالى:

- **قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (81) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (82) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (83) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (84) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (85)**
- **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (12)**

نتائج مفتراة

الإله الذي في السماء هو نفسه إله الأرض (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)

هذا الإله هو نفسه رب (مالك) السموات والأرض وما بينهما (وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا)

الخطاب بين السماء والأرض يتنزل به الأمر (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ)

وهذه هي – برأينا- الحقيقة التي توصل لها إبراهيم عندما ترك شرك قومه ووجه وجهه للذي فطره ليهديه. فإبراهيم يتوصل إلى الحقيقة التي مفادها أن الإله في السماء والإله في الأرض هو واحد، وأن الذي يتنزل بين السماء والأرض هو الأمر.

السؤال: ما هو الأمر الذي يتنزل بين السماء والأرض؟

جواب مفترى: نحن نظن أنه الروح:

- **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (85)**

فلقد كانت عقيدة قوم إبراهيم (نحن نتخيل) على النحو التالي:

السماء (إله): الشمس
بينهما (إله): القمر
الأرض (إله): الابن

فكان القوم على عقيدة السجود لهذه الكينونات:

- **وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (37) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ (38)**

ولكن إبراهيم استطاع أن يرى بأن هذه كينونات (بحد ذاتها) ساجدة لمن هو قاهرها جميعا:

- أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاء (18)

فقد كان علم قوم إبراهيم قد وصل إلى حده الأقصى عند هذه الكينونات (شمس وقمر وكوكب – آلهة ثلاثة)، فظنوا أنها منتهى العلم، لكنهم لم يفطنوا إلى أن هناك ما يتجاوز حدود هذه الكينونات، فكان إبراهيم هو أول من توصل من بينهم إلى ذلك العلم، وهو العلم لم يأتي أباه من قبل:

- يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43)

فلقد آثر الأب البقاء على حده ذاك من العلم:

- قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46)

فأصبح بذلك وليّا للشيطان:

- يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45)

السؤال: لماذا توقف الأب عند ذلك الحد من العلم؟ لِم لم يتبع إبراهيم بما جاءه من العلم؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لأن ذلك الرجل قد نزغه نزغ من الشيطان فلم يستعذ بالله منه:

- وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (200) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (201)

فلقد كان أب إبراهيم هذا (نحن نظن) قد نزغه من الشيطان نزغ، فلم يستعذ بالله منه، فدلّه الشيطان إلى أن الشمس والقمر وهذا الكوكب هي آلهة تستحق أن يسجد لها:

- وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (36) وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (37) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ (38)

لكن لمّا كان إبراهيم من المتقين، استعاذ بالله من الشيطان، فاستطاع أن يتجاوز هذا الحد من العلم (وهو ما كان عليه قومه عامة وأبوه خاصة). فلقد أدرك إبراهيم أن ما حلّ بقومه كان سببه الشيطان، فطلب من أبيه أن لا يعبد الشيطان:

- يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44)

فلقد أدرك إبراهيم أن ما فيه أبوه وقومه من الضلال البعيد هو بسبب نزغ الشيطان، وأدرك أن الخلاص منه سهل ميسر، يتمثل فقط بالاستعاذة بالله من نزغ الشيطان، فاستعاذ إبراهيم بالله منه، وهنا تذكر إبراهيم، فإذا هو من المبصرين:

- وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (200) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (201) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ (202)

فجاءه علم من الإله الذي خلق هذه الكينونات، وهو العلم الذي لم يأتي أباه من قبل:

- يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43)

فوجه إبراهيم وجهه للذي فطر السموات والأرض حنيفا، تاركا عقيدة الشرك التي يعتقد بها قومه:

- إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79) وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ

شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ (80) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (81)

الدليل

السؤال: كيف استطاع إبراهيم تجاوز حاجز العلم الذي كان متاحا لأبيه من قبله؟

- **يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43)**

جواب مفترى: لو دققنا في السياق القرآني من سورة مريم الذي وردت فيه هذه الآية الكريمة، لوجدنا فيه من الغرابة ما يستدعي جلب الانتباه والتركيز:

- **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (41) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا (48)**

فإبراهيم يثبت بملء فيه أن أباه هذا يعبد ما لا يسمع ولا يبصر:

- **إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (42)**

وفي الوقت ذاته يثبت لنا كذلك أن أباه يعبد الشيطان:

- **يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44)**

السؤال المربك: كيف يمكن أن يكون أب إبراهيم هذا يعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنه شيئا، وهي الأصنام، وفي الوقت ذاته يعبد الشيطان؟

جواب: لأن هذا الرجل يتخذ آلهة من دون الله، فأصبح له آلهة:

- **قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46)**

السؤال: ما علاقة الشيطان بعبادة القوم لهذه التماثيل (الأصنام)؟

جواب مفترى: نحن نظن أن علاقة الشيطان بهذه العبادة مرتبطة بشكل مباشر بالشمس.

السؤال: ما معنى ذلك؟ وما علاقة الشيطان بعبادة الشمس؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن العلاقة يمكن أن تستبين بعد جلب السياق القرآني التالي بحول الله وتوفيق منه:

- **وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (20) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (21) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (22) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (24) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (25) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (26)**

لو دققنا النظر في هذا السياق القرآني لوجدنا أنه خاص بعبادة قوم المرأة التي تملك قومها في سبأ، في زمن سليمان، أليس كذلك؟ ولو تدبرنا السياق نفسه لوجدنا أن نبأهم قد جاء به الهدهد، وكان ذلك على نحو

وجود امرأة تملك قومها، وهي صاحبة عرش عظيم، وكانت هي وقومها على عادة السجود للشمس من دون الله، أليس كذلك؟

ولو تفقدنا السياق أكثر لوجدنا الهدهد يثبت لنا بأن سجود المرأة وقومها للشمس من دون الله كان مدفوعا بما كان يقوم به الشيطان، فهو الذي زين للقوم أعمالهم وهو الذي صدهم عن السبيل فلم يهتدوا، أليس كذلك؟

- **وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (24)**

السؤال: ما علاقة السجود للشمس هنا بوجود الشيطان؟

جواب مفترى: الشيطان هو من زين لهم أعمالهم (عبادة الشمس)، فكان بذلك هو من صدهم عن السبيل.

السؤال: كيف يكون ذلك؟

جواب مفترى: لو تفقدنا القرآن أكثر لوجدنا أن هذا ما فعله الشيطان مع عاد وثمود أيضا:

- **وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (38)**

ولو جلبنا السياق القرآني التالي، لوجدنا أن هذا بالضبط ما كان من أمر فرعون عندما بلغ الأسباب:

- **أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37)**

ليكون ما يشغل تفكيرنا الآن هو إيجاد الرابط العجيب بين عبادة قوم إبراهيم وعبادة عاد وثمود وعبادة قوم المرأة في سبأ وما كان من أمر فرعون يوم أن بلغ الأسباب ليطلع إلى إله موسى.

فبالرغم أن فرعون ادعى لنفسه الإلوهية المطلقة على ملئه:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)**

وبالرغم أنه أثبت لنفسه بأنه هو الرب الأعلى لقومه جميعا:

- **فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)**

ألا أن القوم توجهوا بالخطاب لفرعون على النحو التالي:

- **وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127)**

السؤال: ما هي إذن آلهة فرعون (وهو نفسه إله ورب أعلى كما زعم)؟

جواب مفترى: نحن نظن أن آلهة فرعون هي هذه الكينونات (الشمس والقمر والكوكب).

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نكاد نجزم الظن بأن الشيطان كان هو المحرك الرئيسي لهؤلاء الأقوام. فهو الذي كان يزين لهم عبادة من هم من دون الله، وخاصة السجود للشمس على وجه التحديد، واعتبارها الإله الأكبر، وهو الذي كان يصدّهم عن السبيل بالرغم أنهم كانوا قوما مستبصرين.

السؤال: كيف فعل الشيطان ذلك؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الشيطان يفعل ذلك بطريقة الصد عن السبيل:

- وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (38)
- وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (24)
- أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37)

السؤال: ما هو السبيل الذي يصدّ الشيطانُ الناسَ عنه؟ وكيف يصدّ الشيطانُ الناسَ عن ذاك السبيل؟

جواب مفترى: نحن نظن أن السبيل إلى الله هو سبيل واحد:

- قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (108)

ونحن مأمورون بأن لا نتّبع السبل لأنها ستتفرق بنا:

- وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (153)

السؤال: من الذي يفرق بنا السبل؟

جواب مفترى: الشيطان:

- وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (37)

السؤال: كيف يفعل الشيطان ذلك؟

جواب مفترى: غالبا ما يظن الإنسان (ربما كل إنسان) أنه متّبع صراط الله المستقيم، فمن وُلِد في بلاد المسلمين يظن أنه على صراط مستقيم، ومن وُلد في بلاد النصارى يظن أنه على صراط مستقيم، ومن وُلد في بلاد اليهود يظن أنه على صراط مستقيم، وهكذا. ليكون السؤال الذي يجب أن يطرحه – برأينا- المنطق السليم هو: هل فعلا كل هؤلاء على صراط مستقيم؟ وإذا كانت الإجابة بالنفي، فمن - يا ترى- منهم على صراط مستقيم؟ ومن منهم قد زين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل؟

جواب مفترى: نحن نظن أن من زيّن له الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل هم من ينطبق عليهم قول الحق في الآية الكريمة التالية:

- وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (8) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (9)

فالذي يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير هو من كان ثاني عطفه (أي ربما تدفعه عاطفته فقط) ليضل عن سبيل الله. وهو بالتالي يفعل ما يفعل الشيطان الذي يزين للناس أعمالهم ليصدوهم عن السبيل (وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ) فمن كان من أبناء المسلمين (بغض النظر عن طول شعر لحيته وقصر ثوبه) يجادل ليثبت فقط أن ما يفعله المسلم منهم هو الحق بعينه وأن ما يفعله غيرهم من أهل الأرض هو الباطل لا محالة، فهو - لا شك عندنا- من كان ثاني عطفه (أي مدفوعا بعاطفته تجاه المسلمين)، وهو المدفوع بغرض صدّ الناس عن سبيل الله. وكذلك هو النصراني الذي يدافع عن نصرانيته بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، فدفاعه عن نصرانيته مدفوع بعاطفته فقط، فهو إذن يصد الناس عن سبيل الله، وكذلك هو اليهودي الذي يدافع عن يهوديته بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير. فهو يصد الناس عن سبيل

الله، فهؤلاء هم – برأينا- شياطين الإنس (بلباسهم الديني) الذين يزينون للناس أعمالهم ليصدوهم عن السبيل، فلا يهتدون.

(دعاء: أعوذ بك ربي أن أكون ممن يزين للناس أعمالهم ليصدهم عن سبيلك، إنك أنت العليم الخبير – آمين)

السؤال: ما هي ماهية عقائد هؤلاء الذين يدافعون بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير؟

جواب مفترى: إنهم المتبعون لما وجدوا عليه آباءهم. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في السياق القرآني التالي:

- **أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (20) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (21) وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (22)**

ولو دققنا النظر جيدا في السياق نفسه، لو جدنا أن هذا الاعتقاد (الإيمان فقط بما وجدنا عليه آباؤنا) هو ما دعاهم له الشيطان:

- **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (21)**

السؤال: كيف الخلاص من الموقف؟ وكيف هي سبيل النجاة من ذلك؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الخروج من المأزق موجود في السياق القرآني نفسه، ويكون ذلك بأن يسلم الإنسان وجهه إلى الله وحده:

- **وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (22)**

وهذا بالضبط ما فعله إبراهيم:

- **إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131)**

فالمطلوب من الإنسان (كل إنسان) مهما كان المعتقد الذي وجد عليه آباءه هو أن يسلم لرب العالمين.

(دعاء: اللهم اشهد أني قد أسلمت لك، وما أنا من المشركين – آمين)

السؤال: كيف هي آلية تحقيق ذلك؟

رأينا المفترى: على كل من أراد أن يسلم لرب العالمين أن يبدأ بسلامة القلب كما كان إبراهيم:

- **إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (84)**

(دعاء: اللهم أسألك أن أكون ممن جاءوك بقلب سليم – آمين)

فيتدبر ما عليه آباؤه، فإن كان ما عليه آباؤه مبني على علم أو هدى أو كتاب منير، لزمته الحجة. وإن وجد غير ذلك، فعليه أن يدع ما ألفى القوم عليه كما فعل إبراهيم:

- **إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (84) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (85) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (86)**

السؤال: كيف يستطيع الإنسان أن يجزم أن قومه غير متبعي صراط الله المستقيم؟

جواب مفترى: إذا وجد أنهم متبعون لما تأمرهم به الشياطين.

السؤال: وكيف يستطيع معرفة أن هذا ما تأمره به الشياطين؟

جواب مفترى وخطير جدا جدا: نحن نظن أن من السهولة بمكان معرفة أن القوم متبعون عقيدة الشياطين (أو أنهم فعلا يعبدون الشياطين)، وهذا ما نجده في قوله تعالى:

- **وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (37)**

السؤال: وكيف يصدونهم (أي الشياطين) عن السبيل؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: بإتباع السبل:

- **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (153)**

نتيجة مفتراة خطيرة جدا جدا: انظر -عزيزي القارئ- إلى عقيدة من هم حولك، فإن أنت وجدت أن هناك سبلا كثيرة، فأعلم أنك أبعد ما تكون عن سبيل الله، فكل شيطان (من شياطين الجن والإنس) يحاول الترويج لبضاعته، لتحسبوه من عند الله وما هو من عند الله، وهنا يقع الناس في الاختلاف من بعد ما جاءهم العلم، ويكون ذلك مدفوعا بالبغي بينهم:

- **وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (14) فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (15)**

فلو أنت قلّبت محطّات التلفزة، لوجدت أن كل شيطان (بغض النظر عن طول لحيته أو قصر ثوبه) يدعو إلى سبيل خاصة به وبمن اتبعه، فيزين لأتباعه أعمالهم ويبخس كل ما عند الآخرين، فهو بذلك – نحن نفتري القول- يصد الناس عن سبيل الله، وما هي إلا لحظات (إن أنت تابعت تقليب المحطات الدينية) حتى تدرك أن السبل قد تفرقت بالقوم، فهناك العشرات بل المئات منهم اللذين لا ينفكون عن الترويج لعقائد آبائهم وإن كانوا لا يعقلون منها شيئا، فكل يدّعي أنه هو على صراط مستقيم وأن غيره على الضلال المبين، فيقع من كان قلبه سليما في حيرة إلى أي السبل يجب أن ينحاز.

رأينا المفترى: نحن نظن أن الطريق الأسلم هي تركها جميعا والذهاب (لا بل والهجرة) إلى رب العالمين كما فعل إبراهيم:

- **وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (99)**
- **فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (26)**

السؤال: كيف هي آلية الوصول إلى الهداية كما حصل مع إبراهيم؟

أولا، نحن نظن أن الشرط الأول هو سلامة القلب:

- **إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (84)**

ثانيا، لابد للباحث عن الحقيقة أن يكون على استعداد لتقبل الأمر مهما كانت النتائج والعواقب، فهذا إبراهيم مستعد أن يلقى به في النار، فيثبت على مبدأه:

- **قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (97)**

ثالثا، لابد من منطلقات تفكير صحيحة، وأول هذه المنطلقات هو استحالة تعدد الآلهة:

- **وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (81)**

ومن منطلقات التفكير السليم هو أن المقدمات تحكم النتائج، فمادام أن الآلهة لا تعدد، لأن ذلك سيؤدي إلى فساد السموات والأرض:

- **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (22)**

فإن السبل لا تعدد أيضا، فهناك إذن سبيل واحده تؤدي إلى الله:

- **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (108)**

أما المتبعون للشياطين فإنهم لا محالة سيصدونهم عن سبيل الله هذه:

- **وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (37)**

وعندها ستتفرق بهم السبل:

- **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (153)**

نتيجة مفتراة خطيرة جدا جدا: لمّا كان قلب إبراهيم سليما، استقر فيه أن هناك سبيل واحد صحيحة، وهي سبيل الله الواحد الأحد، وأن لما يعبدون من دون الله سبل كثيرة جميعها (لا شك عندنا) مدفوعة بالصد عن سبيل الله، وأن المحرك لها جميعا هي الشياطين.

رابعا، لا شك أن من أراد سبيل الله فهو من كان محبا لله:

- **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (165)**

السؤال: كيف يمكن أن يحب الإنسان ربه؟

جواب: دعنا نعود إلى قصة هداية إبراهيم لنتفقدها من هذا الجانب:

- **فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78)**

فهذا إبراهيم يبدأ (كما افترينا سابقا) يتفقد آلهة القوم الواحد تلو الآخر، ويبدأ بالكوكب، وما أن يجده آفلا حتى تكون ردة فعله على النحو أنه لا يحب الآفلين:

- **فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (76)**

لنخرج من هذا بالافتراء التالي الذي هو من عند أنفسنا: كان إبراهيم يبحث إذا عن الإله الذي يحبه، فإبراهيم يحب الإله الذي لا يأفل.

السؤال: كيف علم إبراهيم أن هذا الإله (الكوكب) قد أفل؟

جواب مفترى: لو تفقدنا بقية السياق القرآني لوجدنا أن القمر قد أفل:

- **فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77)**

ولوجدنا أن الشمس قد أفلت أيضا:

- **فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78)**

لنخلص إلى النتيجة التي مفادها أن إبراهيم لا يحب الكوكب لأنه أفل، ولا يحب القمر لأنه أفل، ولا يحب الشمس لأنها أفلت، أليس كذلك؟

السؤال الكبير : كيف علم إبراهيم أن الكوكب قد أفل؟ وكيف علم أن القمر قد أفل؟ وكيف علم أن الشمس قد أفلت؟

جواب مفترى: بالرؤية. فصريح اللفظ القرآني يدل على أن إبراهيم قد رأى هذه الكينونات وقد أفلت (فَلَمَّا رَأَى)، أليس كذلك؟

السؤال: كيف يمكن لإبراهيم أن يرى هذه الكينونات وقد أفلت؟

جواب مفترى: بداية، يجب أن نسطّر الافتراء الخطير التالي الذي هو من عند أنفسنا: لم تكن رؤية إبراهيم لهذه الكينونات (الكوكب والقمر والشمس) رؤيا منام، ولكنها رؤية حقيقة. فلقد رأى إبراهيم فعلا (نحن نفتري القول) أنّ هذه الكينونات قد أفلت، ولو كانت تلك رؤيا منام لجاء ذلك بصريح اللفظ كما حصل مع رؤياه الخاصة بذبح ابنه:

- **فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102)**

ليكون منطقنا المفترى الخاص برؤية إبراهيم هذه الكينونات (الكوكب والقمر والشمس) على النحو التالي: إن ما بدر من إبراهيم هي رؤية حقيقية وليست رؤيا منام.

السؤال: كيف رأى إبراهيم هذه الكينونات على الحقيقة؟

جواب مفترى: لما علم إبراهيم أن هناك سبيلا واحدة لله:

- **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (108)**

كان يؤمن أنه لابد من الوصول إلى هذه السبيل.

السؤال: وهل وصل إبراهيم إلى هذه السبيل؟

رأينا المفترى، نعم، لقد وصل إبراهيم إلى بداية هذه السبيل.

السؤال: ما الذي حصل عندما وصل إبراهيم إلى بداية هذه السبيل التي ستدله على الإله الذي لا يأفل؟

جواب مفترى خطير جدا: هناك بالضبط (نحن نفتري القول) وجد إبراهيم مَنْ يصد عن هذه السبيل حاضرا، ألا وهو الشيطان:

- **وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (37)**

وهناك وجد إبراهيم الشيطان قاعدا للجميع على صراط الله المستقيم:

- قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16)

وأن جلّ مهمته تكمن في أن يزين لهم أعمالهم، فيصدهم عن السبيل، كما نجح مع قوم إبراهيم، وكما نجح مع عاد وثمود:

- وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (38)

وكما نجح مع المرأة وقومها في سبأ:

- وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (24)

وكما نجح مع فرعون:

- أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37)

السؤال: كيف استطاع إبراهيم أن يرى تلك الكينونات على حقيقتها؟ أو كيف أدرك أنها قد أفلت فعلا؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: كان على إبراهيم أن يتجاوز هذا الحد، أي الحد الذي يتربع عنده الشيطان (الصراط المستقيم).

السؤال: كيف كانت آلية حصول ذلك كما فعلها إبراهيم؟

رأينا المفترى: استطاع إبراهيم بما آتاه الله من علم أن يبلغ أسباب السموات والأرض بما يشبه ما فعله فرعون:

- أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37)

السؤال: وكيف فعل إبراهيم ذلك؟

جواب مفترى خطير جدا جدا لا تصدقوه: بالمصباح الذي يشبه الزجاجة:

- اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (35)

السؤال: وكيف استطاع إبراهيم الوصول إلى ذلك المصباح؟

نتيجة مفتراة: لمّا كان إبراهيم ممن يشاءون الهداية لنور الله:(يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ)، يسر الله له ذلك بالطريقة التالية:

- وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75)

ولا شك عندنا أن ذلك الملكوت موجود بيد الله نفسه:

- قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (88)
- فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (83)

ولو تفقدنا الآية الكريمة التالية، لوجدنا أن هذا لم يكن خاصا بإبراهيم وإنما هو متاح لكل من أراد النظر:

- **أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (185)**

(دعاء: اللهم أسألك أن تهديني إلى نورك، فأكن ممن ينظرون في ملكوت السموات والأرض وليكونوا من الموقنين – آمين)

السؤال: كيف أستطاع إبراهيم الوصول إلى ملكوت السموات والأرض الموجودة بيد الله نفسه؟ وكيف يستطيع كل من أراد أن ينظر في ملكوت السموات والأرض أن يفعل ذلك؟

جواب مفترى: نحن نظن أن هناك خطوات عملية لابد من القيام بها تدريجيا، وهي برأينا على النحو التالي:

أولا، وجب على كل من أراد النظر في ملكوت السموات والأرض أن يتفلّت من شياطين الإنس (بغض النظر عن طول لحيته وقصر ثوبه)، وهم – برأينا- الداعون إلى عقائد آبائهم ولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير:

- **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (21)**

ثانيا، بعد أن تنفلت من شياطين الإنس المروجون لعقائد الآباء بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، عليك أن توجه وجهك للإله الذي تحب. فتكون بذلك قد وصلت إلى بداية السبيل المؤدي بك إلى الله.

ثالثا: سيجد الواصل هناك أن الشيطان الأكبر قد قعد لنا جميعا صراط الله المستقيم:

- **قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16)**

رابعا، لابد لمن أراد تجاوز هذا الحد، أن يتغلب على الشيطان، وسيكون ذلك ميسرا مادام أن كيد الشيطان كان ضعيفا:

- **الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (76)**

ويكون ذلك بالاستعاذة من الشيطان، لكسر حاجز الصد الذي أقامه الشيطان هناك، لتنفذ إلى ما بعده:

- **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (36)**

وذلك لأن الشيطان ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون:

- **إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99)**

وإنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون:

- **إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ (100)**

وما أن يستعذ الذين آمنوا بالله من الشيطان الرجيم حتى تكون النتيجة أن يتذكروا فإذا هم مبصرون:

- **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (200) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (201)**

وهنا بالضبط نجد ردة فعل الواصل هناك تتعدد، فهناك من الناس من لا يستعيذ من الشيطان لظنه أن هذا هو منتهى العلم كما فعل أب إبراهيم، فكان هذا الرجل تابعا للشيطان:

- **يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46)**

وهناك أيضا من كان يعلم أنه يستطيع تجاوز حاجز الشيطان، ويعرف كيف يفعل ذلك، ولكنه كان غير راغب في الهداية، فهذا من كان الشيطان تابعا له بدل أن يكون هو تابعا للشيطان. ولا نجد أفضل على هذا النوع من الناس من مثال فرعون نفسه، فهو الذي تبين له الحق، ولكنه رجع مسرعا مكذبا لأنه لا يريد الهداية:

- **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175)**

(وسنتعرض لهذه القضية بشيء من التفصيل إن شاء الله عند عودتنا للحديث عن فرعون لاحقا، فالله اسأل أن يأذن لنا الإحاطة بشيء من علمه فيها لا ينبغي لغيري إنه هو السميع العليم)

ونجد – بالمقابل- من كان مستعدا أن يتخلى عن الشيطان، فيسلم لرب العالمين كما فعلت المرأة التي تملك قومها في سبأ عندما أدركت أن سجودها وقومها للشمس من دون الله كان سببه الشيطان، فهذا حالها وقومها في البداية:

- **وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (24)**

وهذا حالها وقومها في النهاية:

- **وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (43) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (44)**

وهذا برأينا ما فعله إبراهيم من قبل، فكان على النحو التالي:

أولا، استطاع إبراهيم أن ينفلت من شياطين الإنس المروجون لعقائد الآباء:

- **فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79) وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ (80) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (81)**

وعلى رأسهم أبوه آزر نفسه:

- **قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46)**

ثانيا، وصل إبراهيم إذن إلى بداية السبيل المؤدية إلى الله، فوجد الشيطان الأكبر قاعدا له صراط الله المستقيم:

- **قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16)**

حيث وجده هناك يصد عن السبيل، فاستعاذ إبراهيم بالله من الشيطان الرجيم، وتمثل ذلك بأن وجه وجهه للذي فطر السموات والأرض حنيفا:

- إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79)

ولما لم يكن للشيطان على إبراهيم سلطانا مادام أنه لم يكن من الذين يتولونه والذين هم به مشركين:

- إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ (100)

تبرأ إبراهيم من عبادة الشرك:

- فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78)

فاستطاع إبراهيم بذلك أن يتجاوز حاجز الشيطان الأكبر.

السؤال: كيف فعل إبراهيم ذلك؟ أو بكلمات أكثر دقة نحن نسأل: ما هي الخطوات العملية التي قام بها إبراهيم لتنفيذ مراده هذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن ذلك حصل بالاعتزال.

- وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا (48)

السؤال: أين اعتزل إبراهيم قومه جميعا؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الاعتزال يتم على نحو أن يتخذ من أراد اعتزال غيره مكانا خاصا يبتعد فيه عن القوم:

- إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَآؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً (90)

وقد تعرضنا لهذه الجزئية في الأجزاء السابقة من المقالة نفسها، وافترينا الظن أن الاعتزال يكون من قبل الطرف الأضعف لتجنب الأذى الذي قد يلحق به من الطرف الأقوى إن هو لم يقم بفعل الاعتزال، كما في حالة اعتزال النساء في المحيض:

- وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (222)

لذا يكون الاعتزال بدافع شرعي، وليس أهم من ذلك اعتزال القوم إن كانوا يعبدون من هم من دون الله، كما فعل الفتية أصحاب الكهف والرقيم:

- وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته ويُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا (16)

السؤال: أين نفّذ إبراهيم فعل اعتزاله قومه بمن فيهم أبيه آزر؟

جواب مفترى: بعد أن تفقدنا السياقات القرآنية الخاصة بالاعتزال، وجدنا أن الرابط واضح بين إبراهيم الذي اعتزل قومه لأنهم يعبدون من دون الله:

- وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا (48)

والفتية أصحاب الكهف والرقيم الذين اعتزلوا قومهم لنفس الغاية:

- هَؤُلَاء قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (15) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته ويُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا (16)

(لما كنا نجد لزاما أن ننسب العلم إلى أوليه، فإن من الواجب علي هنا أن أشكر ابن أخي المهندس يزن الذي جلب انتباهنا للربط بين اعتزال إبراهيم لقومه واعتزال الفتية أصحاب الكهف والرقيم قومهم)

ليكون السيناريو الذي نحاول أن نتخيله على النحو التالي:

يأتي إبراهيم من العلم ما لم يأت أباه آزر من قبل، فيحاول ثني أبيه هذا عن عبادة ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنه شيئا وعن عبادة الشيطان أيضا:

- **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (41) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45)**

فلا ينجح إبراهيم في دعوة أبيه الذي كان موقفه على النحو التالي:

- **قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46)**

وهنا يتخذ إبراهيم قراره بالاستغفار لأبيه على وجه التحديد واعتزال القوم أجمعين وما يدعون من دون الله:

- **قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا (48)**

فيتوجه إبراهيم إلى مكان يختلي فيه بنفسه، هاجرا أباه (وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا)، معتزلا القوم أجمعين (وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ)، طامعا أولا في دعاء ربه لئلا يكون شقيا (وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا)، ومتجنبا الأذى الذي كاد أن يلحق به منهم لو أنه لم يفعل ذلك (لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ). فتوجه إبراهيم إلى ما يشبه "كهف الفتية"، أصحاب الكهف والرقيم، وهناك صار إبراهيم وحيدا. فما الذي حصل معه هناك؟

تخيلات مفتراة خطيرة جدا: ما أن يجد إبراهيم نفسه فيما يشبه كهف (أو لنقل غار كالذي آوى إليه محمد وصحبه في هجرتهما إلى المدينة)، حتى يبدأ حياة مختلفة عن حياة الآخرين الذين هم من حوله.

السؤال: كيف أصبحت حياته مختلفة؟

جواب مفترى: هناك جَنَّ على إبراهيم الليل

- **فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (76)**

السؤال: كيف جن الليل على إبراهيم على وجه التحديد؟ فهل الليل الذي جن على إبراهيم لم يجن على غيره؟ ولماذا لم يأت النص القرآني على نحو:

فلما جن الليل أو

فلما جن عليهم الليل.

السؤال مرة أخرى: كيف إذن جن الليل على إبراهيم لوحده (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ)؟

تخيلات مفتراة: لما كان إبراهيم يعيش الآن فيما يشبه الكهف (أو الغار)، فإن ظلمة الليل عليه ستكون مختلفة عن كل من حوله، وربما تكون الظلمة عليه أشد وطأة، وهي لا شك سابقة عليه قبل من هم حوله، فالظلام يحلّ في الكهف أسرع من الظلام خارجه، وكذلك تكون درجة الظلام أشد وأقسى في داخل الكهف عن ما هي خارجه. في تلك الأثناء كان الليل (نحن نفتري القول) يجن على إبراهيم بطريقة مختلفة.

- **فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (76)**

ولو تفقدنا مفردة "جَنَّ" في السياق القرآني، لوجدنا أن لها علاقة بالجَنة، والجِنة، والجن، والجنون، الخ. أليس كذلك؟

السؤال: ما معنى أن الليل قد جَنَّ ؟ ولماذا جَنَّ الليل؟

رأينا: لو تدبرنا حالات الليل المختلفة، لوجدناها في السياقات القرآنية التالية:

- **... وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ...** (114)
- **وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ** (33)
- **وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا** (10)
- **وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ** (17)
- **وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ** (17)
- **وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ** (4)
- **وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ** (1)
- **وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ** (2)

السؤال: لماذا جنّ الليل في حالة إبراهيم؟ لم لم يعسعس مثلا؟ أو لم لم يغشى؟ أو لم لم يسق؟ الخ.

رأينا: نحن نظن إن لهذه المفردة جَنَّ علاقة بالجنون؟

السؤال: ما معنى أن يكون الشخص مجنونا؟ ومتى يُنعت الشخص بالجنون؟

رأينا المفترى: بعيدا عن الخوض في تفصيلات القضية وما قيل في الموضوع سابقا، فإننا نقدم الافتراء التالي الذي هو من عند أنفسنا: نحن نظن أن الشخص ينعت بالجنون لأنه في نظر الآخرين (أي العقلاء من حوله) يعيش في عالم يختلف عن عالمهم، فهو غير محكوم بالقوانين والأعراف السائدة من حوله، فالمجنون يضحك في وقت قد لا يضحك فيه الآخرون من حوله، وهو يبكي لسبب يختلف عن السبب الذي ربما يبكيهم، وهو يفكر بطريقة تختلف عن طريقة تفكير من هم حوله، وهكذا. لذا جاء قول الذين من حول الرسل أن رسولهم الذي أرسل إليهم لمجنون:

- **وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ** (6)
- **قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ** (27)

السؤال: لماذا نعت القوم الرسول بالجنون؟

رأينا: لأن القوم لم يكونوا قد عهدوا ما جاء به الرسول من قبل:

- **مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ** (7)
- **فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ** (24)
- **وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ** (4) **أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ** (5) **وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ** (6) **مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ** (7)

فما كانت ردة فعلهم على ما جاءهم به الرسول من القول العجب (الذي لم يعهدوه من قبل) إلا أن يتولوا عنه، ويقولون في الوقت ذاته أنه معلم مجنون:

- **ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ** (14)

السؤال: كيف يستقيم القول أن يكون الشخص (كالرسول مثلا) معلم ومجنون في آن واحد (مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ)؟

رأينا: نحن نظن أنه لما لم يعهد القوم مثل هذا القول من ذي قبل، فهو إذا قول شخص مجنون (أي قد جنّ)، ولكن في الوقت ذاته يبدو لهم أن قول هذا الشخص (أي الرسول) يختلف عن قول المجانين العاديين في أن ما يقوله هو قول منظم، فهو ليس ككلام المجانين العاديين، بل هو جنون منظم (أو جنون مرتب بلغتنا الأردنية الدارجة)، فهو يقول شيء فيه من الغرابة ما يستدعي أن يقال عنه مجنون، وفي الوقت ذاته فيه من النظام ما يستدعي أن ينعت بالعلم.

السؤال: كيف ذلك؟ وما علاقة هذا بالليل الذي جنّ على إبراهيم؟ وما علاقة هذا برؤية إبراهيم للكوكب وقد أفل وللقمر وقد أفل؟ الخ.

خروج عن النص في استراحة قصيرة: مثال كيف يكون الشخص "معلم مجنون"؟

سأحاول تقديم مثال أظن أنه يبين كيفية أن يتوافق الجنون مع العلم (مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ)، وأكاد أجزم الظن أن في هذا المثال من الخطورة ما يستدعي أن نطلب من الآخرين التوقف عن القراءة عند هذا الحد، لأن البعض قد لا يتحمل سماعه، وذلك للغرابة غير المعهودة فيه (أي الجنون)، وهو ما يجعله يبدو ويكأنه كلام لا يتجرأ عليه إلا المجانين (من مثلي)، ولكننا في الوقت ذاته نميل إلى الظن بأنه لو أعطى القارئ الكريم نفسه فرصة تدبره قليلا، لربما وجد أنه كلام فيه من التنظيم ما قد يجعله يرقى لدرجة أن يكون كلام شخص متمرس في فنون العلم (من مثلي طبعا).

المثال المجنون

السؤال: كيف نميز بين الذكر والأنثى منذ اللحظة الأولى لولادتهم وحتى وفاتهم بالموت بعد طول زمن؟ أو ما هو العامل البيولوجي (الجسمي) الذي يميز الذكر عن الأنثى؟

رأينا المجنون: نحن نكاد نجزم الظن بأنه ليس للأعضاء التناسلية دخل في تمييز الذكر عن الأنثى. فتحديد الذكر والأنثى لا يبنى على وجود أو عدم وجود الأعضاء التناسلية. فهل تصدق ذلك (عزيزي القارئ)؟ ألا تظن أن مثل هذا القول لا يصدر إلا عن المجانين (من مثلي)؟

السؤال المربك: كيف نحدد الذكر والأنثى إن لم يكن ذلك بالأعضاء التناسلية؟ ربما يريد أن يسأل بعض العقلاء.

رأينا المفترى: نحن لا نميز الذكر عن الأنثى بوجود الأعضاء التناسلية الخاصة بالذكر وتلك الخاصة بالأنثى.

السؤال: وكيف إذن نميزهم (أو لنقل نحدد جنس المولود)؟

منطقنا المفترى: دعنا نطرح التساؤل المثير التالي: هل كان عيسى بن مريم ذكرا أم أنثى؟

جواب مفترى: كان ذكرا بدليل صيغ التذكير التي تدل عليه. فجميع الآيات القرآنية الخاصة به تشير إلى أن عيسى بن مريم يخاطب بطريقة خطاب المذكر منذ لحظة خلقه:

- **قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (19)**

وقد كان من السهل على قوم أمه مريم ابنت عمران أن يحددوا جنس من كان في المهد مباشرة:

- **فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29)**

السؤال: هل تطلب منهم الأمر الكشف عن "عورته" لمعرفة جنسه؟! من يدري؟!

السؤال الأقوى: إذا كان لعيسى بن مريم أعضاء ذكورة، فما فائدة ذلك؟ فهل كان عيسى يحتاج أن يستخدمها؟ فهل كان عيسى بن مريم كلمة الله وروح منه يستخدم الحمام مثلا؟ وهل كان عيسى بن مريم سيتزوج؟ من يدري؟!

رأينا: أظن أنه سينقسم المجادلون عند هذه النقطة إلى فئتين: فئة تظن أن لعيسى بن مريم أعضاء ذكورة كغيره (كغالبية أهل الفكر الإسلامي التقليدي)، وفئة أخرى تظن أن عيسى بن مريم مختلف تماما ولا يجوز لنا أن نتعامل معه كغيره من البشر (كغالبية أهل الفكر المسيحي التقليدي).

إذن، لندع حديثنا هذا عن عيسى جانبا، وننتقل إلى درجة أعلى من ذلك بكثير، فلنتحدث عن الإله نفسه؟ هل الإله مذكر أم مؤنث؟ وهل للإله نفسه أعضاء ذكورة؟ وهل يحتاج الإله أن يكون له أعضاء ذكورة؟ ولم يستخدم صيغة التذكير في الحديث عن نفسه إذا لم يكن له أعضاء ذكورة؟ ولم نستخدم صيغ المذكر في الحديث عن الإله؟ ولم يحتاج الإله أصلا أن يكون له أعضاء ذكورة مادام أنه لا يحتاج أن يستخدم الحمام وما دام أنه لا يحتاج أن يتزوج؟

السؤال: ما فائدة أن يكون للإله أعضاء ذكورة إن لم يكن يحتاج إليها؟

الإرباك الذي أوقعنا أنفسنا فيه: إذا قلت (عزيزي القارئ) أن للإله أعضاء ذكورة، فأنت ربما تقع في محظور استخدامها (كالحمام والتزاوج)، وهو الذي ليس كمثله شيء:

- **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4)**

وبالمقابل – إذا قلت أن ليس للإله أعضاء ذكورة، فأنت ستقع معنا في ورطة: كيف تقول أن ليس للإله أعضاء ذكورة وفي الوقت ذاته تستخدم صيغة المذكر (هُوَ) للحديث عنه؟

- **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1)**

السؤال المربك لنا جميعا: لِم لم يستخدم الإله صيغة محايدة للحديث عن نفسه، صيغة لا تدل على أنه ليس مذكر أو أنه ليس مؤنث؟

الاقتراح: لو كان الأمر بهذه البساطة لربما جاءت الصيغ على النحو التالي:

صيغة المذكر: هو

صيغة المؤنث : هي

صيغة محايدة: ها

السؤال الأكثر إرباكا: إذا كان الإله لا يحتاج أن يكون له أعضاء ذكورة، فما الذي يجعله مذكرا في الخطاب؟

جواب مفترى من عند أنفسنا خطير جدا جدا (كلام مجانين): نحن نظن أن الأعضاء التناسلية (أعضاء الذكورة أو الأنوثة على حد سواء) ليست هي الفيصل في التذكير أوالتأنيث.

السؤال: ما الذي يجعل الرجل مذكرا إذا لم تكن هي أعضاءه التناسلية؟

السؤال: ما الذي يجعل المرأة مؤنث إذا لم تكن هي أعضاءها التناسلية؟

جواب خطير جدا جدا لا تصدقوه (كلام العلماء): نحن نظن أن الذي يجعل الكائن (أي كائن) مذكر أو مؤنث هي النفس فقط، قال تعالى:

- وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (116)

السؤال: لماذا عيسى بن مريم مذكر؟

جواب مفترى: لأن له نفس: تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي

السؤال: لماذا الله نفسه مذكرا؟

جواب مفترى: لأن له نفس: وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ

السؤال: من هو الذكر إذن؟

جواب خطير جدا جدا: من كان له نفس كاملة مستقلة

السؤال: ومن هي الأنثى: هي الكائن الذي ليس له نفس كاملة مستقلة، وذلك لأنها خلقت من نفس غيرها:

- وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (21)

وبكلمات أكثر دقة: من كان له نفس أساسية (PRIMARY) فهو مذكر. ومن كانت لها نفس ثانوية (SECONDARY) فهي مؤنث، وبهذا يمكن أن نفهم لِم جعل الله للرجال على النساء درجة:

- وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوءٍ وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُواْ إِصْلاَحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكُيمٌ (228)

لتكون الصورة في التفريق بين الذكر والأنثى على النحو التالي: نحن نتخيل أن نفس المرأة هي درجة واحدة. ولكن لما كان للرجل على المرأة درجة، أصبحت نفس الرجل تتكون من درجتين.

نتائج مفتراة من معلم مجنون:

1. نفس المرأة: درجة واحدة
2. نفس الرجل: درجتين

تبعات هذا الظن

ربما يفسر لنا مثل هذا الافتراء الذي هو من عند أنفسنا ماهية الشهادة: لِم تقابل شهادة الرجل بامرأتين؟

- ... وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى ... (282)

وربما يفسر لنا مثل هذا الافتراء لم يأخذ الرجل نصيبين في الميراث مقابل نصيب واحد للأنثى:

- يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيما حَكِيمًا (11)

- يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُواْ إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاء فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (176)

جواب مفترى: لأن التقسيم (كما الشهادة) مبني على النفس. فالرجل (نحن نفتري القول) عبارة عن نفس واحدة كاملة (درجتين)، والأنثى عبارة عن نفس غير كاملة (درجة واحدة).

وربما يفسر لنا هذا ما هي الأنفس التي يتوفاها الله بنفسه عند موتها:

- اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (42)

وما هي الأنفس التي يتوفاها ملك الموت وترجع إلى ربها:

- قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (11)

وما هي الأنفس التي يتوفاها الموت ولا ترجع إلى ربها:

- وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىَ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً (15)

(وسنتحدث عن هذه الفروقات لاحقا بحول الله وتوفيق منه، فالله أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم، وأن يزدني علما، وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا، إنه هو الواسع العليم – آمين)

نتيجة مفتراة: لما كانت نفس الرجل تتكون من درجتين ونفس المرأة تتكون من درجة واحدة، أصبح لزاما استخدام صيغة التذكير لمن كان له نفس كاملة مستقلة (الذكر) وصيغة التأنيث لم كانت لها نفس غير كاملة (المؤنث).

أليس هذا قول معلم مجنون؟ من يدري؟!

عودة على قصة اعتزال إبراهيم

لو عدنا إلى كيفية "جنون" الليل على إبراهيم:

- **فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (76)**

لوجدنا أن النتيجة التي نريد أن نخرج فيها هي على النحو التالي: أصبح عالم الليل عند إبراهيم يختلف عن غيره، فقد أصبح ليل إبراهيم خاصا به.

السؤال: أين كان ليل إبراهيم جَنَّ عَلَيْهِ عليه لوحده؟

رأينا المفترى: في ذلك المكان (ما يشبه الكهف أو الغار) الذي اعتزل فيه قومه، حيث الظلام شديدا، لا يكاد البصر يفيد فيه في شيء. فالناظر إلى شيء ببصره لا يستطيع أن يرى هناك شيئا رأي العين.

السؤال: ما الذي حلّ بإبراهيم هناك في تلك الظلمة الشديدة؟

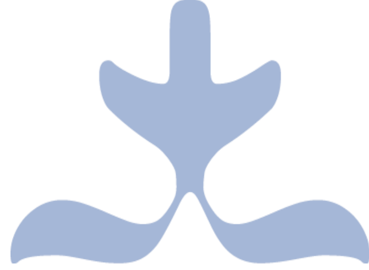
جواب مفترى: نحن نفتري الظن أن الآية الكريمة التالية تفسر ما جرى مع إبراهيم في تلك الظلمة الشديدة التي لا يفيد فيها استخدام العيون:

- **اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (35)**

السؤال: وكيف ذلك؟

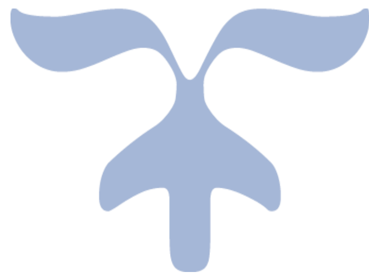
هذا ما سنخوض فيه في الجزء القادم من هذه المقالة بحول الله وتوفيق منه.

سائلين الله وحده أن ينفذ مشيئته وإرادته لنا الإحاطة بشي من علمه لا ينبغي لغيرنا، إنه هو العليم الحكيم، وأن يزدني علما وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا. وأدعوه وحده أن يؤتيني رشدي، وأعوذ به أن يكون أمري كأمر فرعون، فالله وحده أدعو أن أكون ممن أتوه بقلب سليم، فهداهم الصراط المستقيم، إنه هو العليم الخبير – آمين.



قصة يونس

الجزء الثامن والعشرون



قصة يونس: الجزء الثامن والعشرون

عُدنا في نهاية الجزء السابق من هذه المقالة إلى البحث في كيفية جنون الليل على إبراهيم:

- **فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (76)**

فزعمنا الظن أن ذلك حصل في مكان اعتزال إبراهيم لقومه، فظننا أن إبراهيم قد أوى إلى ما يشبه "الكهف أو الغار" كالذي آوى إليه الفتية أصحاب الكهف والرقيم عندما اعتزلوا قومهم:

- **وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته ويُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا (16)**

فأصبحت الصورة في مخيالنا على النحو التالي: أصبح عالم الليل عند إبراهيم يختلف عن غيره، فقد أصبح ليل إبراهيم خاصا به، فكان الليل بذلك قد جنّ على إبراهيم وحده بطريقة تختلف عن كل ما حوله:

- **فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (76)**

الدليل

كنّا قد تفقدنا مفردة "جن" عندما ربطناها بمفردة الجنون في قوله تعالى:

- **أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ (13) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ (14)**

وحاولنا إنشاء علاقة بين المفردتين على النحو التالي: المجنون هو – برأينا- الذي يعيش في عالم يختلف كليا عن عالم العقلاء ممن هم حوله، وذلك لأنه يقول قولا غير ما ألفى الناس آباءهم عليه، فتصبح لغة الخطاب بين الطرفين أقرب إلى المستحيل، لأن كل طرف مسيّر بقوانين وأعراف تختلف عن الطرف الآخر.

وربما من هذا المنطلق (نحن نظن) جاء الحديث عن عالم الجن، فهم قوم يختلفون في طريقة تفكيرهم ومعاملاتهم عن طريقة تفكيرنا ومعاملاتنا، فيصبح عالمهم محكوم بقوانين وأعراف لا تتطابق مع القوانين والأعراف التي تحكم عالم الإنس.

ونحن إذ نؤكد على هذه المعاني المترابطة لمفردة جن مع مشتقات الجنون والجن، فإننا نجد الآن علاقة أخرى يمكن إثارتها مع مفردة جديدة وهي مفردة "الأجنة"، كما جاء في قوله تعالى:

- **الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (32)**

السؤال: لماذا يسمى الكائن في بطن أمه "جنين" (جمع أجنة)؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن لهذا علاقة مباشرة بمفردة جن الليل التي جاءت في سياق الحديث عن إبراهيم، لكن السؤال الذي يجب طرحه على الفور هو: كيف يمكن ربط الحالتين (حالة إبراهيم الذي جن عليه الليل) وحالة هذا الكائن في بطن أمه (الذي هو جنين)؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الطفل في بطن أمه قد أحاطت به الظلمات:

- **خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (6)**

راقب عزيزي القارئ – إن شئت- كيف تحيط بالطفل في ذلك المكان ظلمات ثلاث، ليكون السؤال ما هي تلك الظلمات الثلاث؟

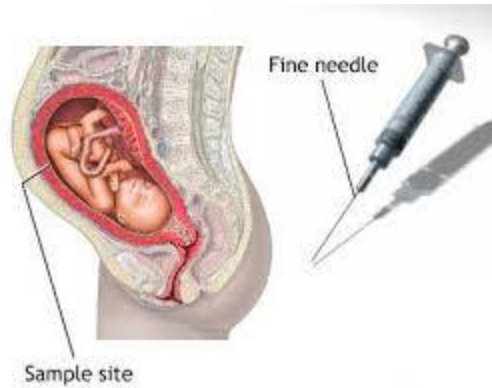
رأينا المفترى: لما كان الطفل موجود داخل جدار بطن الأم فهذه لا شك واحدة من الظلمات التي تمنع وصول الإضاءة إليه، ولكن لو دققنا أكثر في وجوده هناك داخل بطن أمه لوجدناه أيضا محاطا أيضا بما يشبه الكيس (وهو الغشاء الذي يلفه) كما في الأشكال التوضيحية التالية:





فأصبح ذلك الحائط مانعا آخر يحجز الإضاءة عن الطفل، فأصبحت تلك ظلمة أخرى تضاف إلى ظلمة جدار بطن الأم.

ولما كان الطفل لا يستطيع أن يستخدم بصره في تلك الظلمة الحالة، كانت تلك أيضا ظلمة ثالثة، فأصبح (نحن نتخيله هناك) في ظلمات ثلاث كما في الشكل التوضيحي التالي:



السؤال: ما علاقة إبراهيم بهذا؟

جواب: لما كان الليل قد أسدل أستاره على إبراهيم في ذلك الكهف أو الغار، أصبحت تلك ظلمة إبراهيم الأولى التي تصيبه وتصيب غيره، ولكن لما كان إبراهيم (نحن نفتري القول) متواجدا لوحده في ذلك الكهف أو الغار، أصبح ذلك الغار يشكل على إبراهيم ما يشكله ذلك الغشاء الذي يلف الجنين في بطن أمه، فكانت تلك

ظلمة ثانية، تزيد من عتمة المكان، وفي ذلك الظلام الدامس لم يعد من الممكن أن يستفيد إبراهيم من بصره، فكانت تلك ظلمة ثالثة، فأصبح الرجل (نحن لازلنا نتخيل) في ظلمات ثلاث.

وهناك في تلك الظلمات التي كان بعضها فوق بعض، رأى إبراهيم ذلك الكوكب:

- **فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (76)**

السؤال: كيف أستطاع إبراهيم أن يرى ذلك الكوكب في تلك الظلمة الشديدة التي لا تكاد الأبصار تدرك شيئا من حولها؟

جواب مفترى: لقد افترينا حينها أن الآية الكريمة التالية تفسر (كما نفهمها) ما جرى مع إبراهيم في تلك الظلمة الشديدة التي لا يفيد فيها استخدام العيون:

- **اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (35)**

السؤال: وكيف ذلك؟

لو تدبرنا هذه الآية الكريمة جيدا، لوجدنا على الفور أن هناك محطات كثيرة يجب الوقوف عندها وتأملها قبل الخروج باستنباطات هي لا شك افتراءات من عند أنفسنا لما نفهمه نحن من صريح اللفظ في هذه الآية الكريمة. والمحطات هي:

- **اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**
- **مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ**
- **مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ**
- **الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ**
- **الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ**
- **يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ**
- **زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ**
- **يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ**
- **نُّورٌ عَلَى نُورٍ**
- **يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء**
- **وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ**
- **وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**

وربما لا نستطيع أن نخوض في هذه المحطات بطريقة تسلسلية، لذا سنحاول أن نبدأ بالمحطة التي تكون أكثر وضوحا في أذهاننا، ثم ننتقل بعدها إلى المحطة التي تليها، داعين الله وحده أن تنير لنا كل محطة من هذه المحطات طريقنا إلى التي تليها، ونسأله وحده أن يعلمنا ما لم نكن نعلم، وأن يزدنا علما، وأن يهدينا لأقرب من هذا رشدا، ونعوذ به أن نكون ممن يفترون عليه الكذب، أو ممن يقولون عليه ما ليس لهم بحق، إنه هو العليم الخبير - آمين.

أما بعد

باب الوقود (يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ)

افتراء 1: نحن نعتقد أن إيقاد النار ينتج عنه الإضاءة

- **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ (17)**

لو تفقدنا هذه الآية الكريمة جيدا لوجدنا أنه ما أن استوقد واحد من القوم نارا حتى حصلت إضاءة ما حوله فقط (الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ)، أليس كذلك؟

ولو دققنا في الآية الكريمة التالية لوجدنا أن هناك ما يمكن أن يوقد عليه في النار:

- **أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ (17)**

وهناك أيضا من يوقدون نار الحرب:

- **وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاء وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (64)**

ولو دققنا في الآية الأخرى التالية لوجدنا أن الشجر الأخضر هو أحد أهم مصادر ذلك الوقود:

- **الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (80)**

نتيجة مفتراة: الشجر الأخضر هو واحد من أهم وقود النار

وليس الشجر الأخضر هو فقط ما يمكن أن يكون وقود النار، فالناس والحجارة ربما يكونوا هم كذلك وقود النار:

- **فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24)**
- **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (10)**
- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (6)**

نتيجة مفتراة: الناس يمكن أن يكونوا وقودا للنار
نتيجة مفتراة: الحجارة يمكن أن تكون وقودا للنار

افتراء من عند أنفسنا: وقود النار هي الشجر الأخضر والناس والحجارة
فأصبحت هذه النار "ذَاتِ الْوَقُودِ"

- النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (5)

السؤال القوي: وهل كل نار هي ذات وقود؟ وهل يمكن أن تشتعل نار بدون وقود؟
جواب مفترى: نعم، يمكن أن تشتعل النار بدون وقود (كالشجر الأخضر أو كالحجارة أو كالناس).
السؤال: ما هي النار التي يمكن أن تشتعل دون وقود؟ أو ما هي النار التي ليست ذَاتِ الْوَقُودِ؟
جواب مفترى: نحن نظن أن النار التي جاء ذكرها في الآيات الكريمة التالية لم تكن نارا ذات وقود، قال تعالى:

- إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (10) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12)
- إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (7) فَلَمَّا جَاءهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (8)
- فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29)

فالنار التي جاءها موسى في الواد المقدس طوى لم تكن (نحن نفتري القول) ذات وقود.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: بناء على فهمنا المفترى لهذه السياقات القرآنية الخاصة بالنار، نستطيع أن نخرج (ربما مخطئين) بالاستنباط التالي: هناك نوعان من النار:
النار ذات الوقود، وهي النار التي تحتاج إلى ما يشعلها من الوقود كالشجر الأخضر والناس والحجارة
النار التي لا تحتاج إلى وقود ليشغلها، كتلك النار التي آنسها موسى من جانب الطور، وهي النار التي بورك من فيها ومن حولها:

- إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (7) فَلَمَّا جَاءهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (8)

افتراء خطير جدا من عند أنفسنا: ربما تكون هذه النار التي تشتعل دون وقود (أي التي ليست ذات الوقود) هي نفسها ذلك النور الذي يخرج من تلك المشكاة التي يوجد بداخلها المصباح الموجود هو بذاته داخل الزجاجة:

- اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (35)

ولو رجعنا إلى النار ذات الوقود في الآية الكريمة التالية:

- مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ (17)

لخرجنا بالاستنباطات المفتراة المهمة جدا التالية:

1. النار ذات الوقود ينتج عنها الإضاءة

2. النار التي ليست ذات وقود ينتج عنها النور
3. لا علاقة بين الإضاءة والنور

الدليل

لو أمعنا التفكير في هذه الآية الكريمة، لوجدنا الغرابة الشديدة في العلاقة بين إيقاد النار وذهاب النور (فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ):

- **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ (17)**

لتكون الصورة في ذهننا على النحو التالي (ربما غير المألوف في ذهن القارئ للآية الكريمة): ما أن أضاءت تلك النار التي نتجت عن الإيقاد حتى كانت النتيجة أن ذهب الله بنورهم، فوجود الإضاءة من النار ذات الوقود سببت ذهاب النور.

السؤال: كيف حصل ذلك؟ ولماذا حصل ذلك (فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ)؟

السؤال الجوهري هو: لماذا ذهب الله بنورهم (جميعا) عندما استوقد نارا وأضاءت ما حوله فقط ؟

رأينا المفترى: ربما نحتاج للإجابة على هذا التساؤل أن نمعن النظر في استخدام ضمائر المفرد (فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ) والجمع (ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ) في هذه الآية الكريمة، لنطرح بعد ذلك سؤالا ضروريا، ألا وهو: من الذي استوقد نارا (كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً)؟ ومن الذي أضاءت ما حوله (فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ)؟ ومن الذين ذهب الله بنورهم (ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ) وتركهم في ظلمات لا يبصرون (وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ)؟

جواب مفترى: لو تدبرنا هذه الآية الكريمة في سياقها القرآني الأوسع لوجدنا أنها قد جاءت في سياق الحديث عن المستهزئين، الذين يتقلّبون بين المؤمنين والشياطين، فيظن المؤمنون أنهم معهم وفي الوقت ذاته هم إلى فريق الشياطين أقرب، انظر الآية عزيزي القارئ – إن شئت- في سياقها الأوسع:

- **وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ (14) اللّهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (15) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ (16) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ (17)**

فكان مثل هؤلاء المتقلبون بين الإيمان في الظاهر والكفر في الباطن (والحقيقة) كمثل شخص واحد هو الذي استوقد نارا، فأضاءت ما حوله فقط، ولكنها في النهاية ذهبت بنورهم جميعا:

- **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ (17)**

السؤال: ما معنى أن يكون هذا الشخص قد استوقد نارا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هذا الشخص قد استوقد نارا لأنه لم يوقدها بنفسه، ولكنه طلب من غيره أن يوقد تلك النار له.

السؤال: ومن هو ذلك الشخص الذي طلب من غيره أن يوقد له نارا؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن هذا الشخص هو فرعون الذي طلب من هامان أن يوقد له نارا ليبلغ الأسباب:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)**

ولو تفقدنا هذه الآية الكريمة لوجدنا أن الطالب هو فرعون وأن المطلوب منه هو هامان وأن الطلب هو أن يوقد له على الطين، وأن الهدف من وراء ذلك هو أن يبلغ فرعون أسباب السموات والأرض ليطلع إلى إله موسى، أليس كذلك؟

السؤال: كيف تكون الصورة إذن؟

رأينا المفترى: لما كان هامان (نحن نفتري القول) قد نفّذ ما طلبه منه فرعون، فيكون بذلك قد أوقد له على الطين ليبلغ الأسباب، وكان نتيجة ذلك (نحن نتخيل) حصول الإضاءة التي نتجت عن إيقاد تلك النار، ولكنها كانت محيطة بفرعون وحده (فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ)، فهناك في رحلته إلى أسباب السموات والأرض كانت الإضاءة التي نتجت عن إيقاد هامان لفرعون على الطين مصاحبة لفرعون وحده في تلك الرحلة التاريخية، ولكن في الوقت ذاته كانت نتيجة رحلة فرعون تلك أن ذهب الله بنورهم جميعا (فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ) لما صدّقوا ما قاله لهم فرعون:

- **فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)**

والآن لنعد إلى قراءة الآية الكريمة السابقة بتركيز أكبر على التناوب في استخدام ضمائر المفرد والجمع:

- **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ (17)**

لتكون الصور في ذهننا الآن على النحو التالي:

1. الذي استوقد النار هو فرعون
2. والذي أوقدها له هو هامان
3. والإضاءة الناتجة عن إيقاد تلك النار أحاطت بفرعون وحده
4. كانت النتيجة الفورية لرحلة فرعون تلك في أسباب السموات والأرض ذهاب نور جميع من صدق فرعون

السؤال: ما الذي فعله فرعون هناك؟

جواب: هذا ما سنعاود الحديث فيه عندما نحاول لاحقا بحول الله وتوفيق منه أن نربط بين رؤية إبراهيم لتلك الكينونات ومن ثم هدايته صراط الله المستقيم مقابل رحلة فرعون في الأسباب ومن ثم اتباع الشيطان له فكان من الغاوين. فالله أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يزدني علما، إنه هو السميع البصير – آمين

أما الآن فإن حديثنا منصب على التفريق بين الإضاءة الناتجة عن إيقاد النار (أي النار ذات الوقود) والنور الناتج عن النار التي ليست ذات وقود:

- **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ (17)**

ليكون السؤال المحوري هو: لماذا ذهب الله بنورهم عندما تم إيقاد تلك النار التي نتج عنها الإضاءة؟

رأينا المفترى: لأنهم أرادوا الهداية باستيقاد النار.

السؤال: وكيف يمكن فهم ذلك؟

جواب مفترى: ربما يظن البعض أن الهداية إلى النور تتم بإيقاد النار لتحصيل الإضاءة، وذلك لظنهم أن الرؤية تصبح أكثر وضوحا، فالإنسان يرى في وضح النهار ما لا يراه في عتمة الليل، فيخلص إلى النتيجة أن الإضاءة (أي إيقاد النار) هي ما تمكنه من سلوك الطريق السليم دون عثرات، فيظن بذلك أنه يسير على هدى، لأن الطريق أمامه قد أصبحت واضحة المعالم، سهلة السلوك. لكن السؤال الذي يجب أن يطرح الآن هو: هل فعلا وجود الإضاءة هي الطريق إلى الهداية؟

رأينا المفترى: كلا وألف كلا، فنحن نتجرأ على افتراء القول بأن الهداية إلى النور لا تحتاج إلى استيقاد النار (أي الإضاءة). فأنت قد تهتدي إلى النور حتى في أشد حالات العتمة (انعدام الإضاءة كليا).

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى: لأن الله هو نور السموات والأرض:

- **اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (35)**

التساؤلات

⇐ كيف يكون الله هو نور السموات والأرض وفي الوقت ذاته نجد الإضاءة تتراوح درجاتها في الليل والنهار؟

⇐ فأين يا ترى نور الله في الليل؟

⇐ وأين نور الله في النهار؟

⇐ فهل يضمحل نور الله في الليل فلا نجده؟

⇐ وهل يتلاشى نور الله في النهار عندما تسطع الشمس؟

⇐ وهل تستطيع إضاءة الشمس أن تغطى على نور الله في النهار؟

⇐ وهل يكون نور الله في الليل ضئيلا لدرجة أن تسود العتمة المطبقة في المكان؟

⇐ الخ.

جواب مفترى: لابد بداية من التمييز بين الإضاءة التي تتحصل من الشمس:

- **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاء أَفَلَا تَسْمَعُونَ (71)**
- **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (72)**

والنور الذي يتحصل دون وجودها:

- **اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (35)**

فالإضاءة (نحن نفتري القول) تتحصل من الوهج الذي ينتج عن السراج:

- **وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (13)**

وهذا السراج هو – برأينا- تلك الشمس الموجودة في السماء:

- تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (61)
- وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (16)

نتيجة مفتراة: الشمس هي عبارة عن سراج، وينتج عن هذا السراج الوهج (أي الإضاءة)، لأن الشمس بحد ذاتها هي سراج وهّاج.

السؤال: وهل هناك سراج لا ينتج عنه الوهج؟

جواب مفترى: نعم، النبي هو سراج لا ينتج عنه الوهج الذي يتحصل من خلالها الإضاءة، وذلك لأنه سراج منير:

- وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا (46)

السؤال: وكيف يكون النبي سراجا منيرا؟

جواب مفترى: هو عبارة عن سراج، لكن هذا السراج منير كإنارة القمر الذي لا يتوهج:

- تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (61)

نتيجة مفتراة: لابد من التمييز بين نوعين من السراج: السراج الوهاج (كما الشمس) والسراج المنير (كالنبي نفسه)

السؤال: ما تبعات هذا الفهم؟

رأينا: عندما تكون الهداية مبنية على وجود السراج الوهاج (كالشمس)، فإن ذلك لن يحدث إلا في وجود الإضاءة الناتجة عن هذا الوهج. وهذا ما يظن به المجادل في آيات الله، فهو يريد الآيات مبصرة:

ولكن عندما تكون الهداية – بالمقابل- مبينة على وجود النور، فإنه لا تحتاج إلى إضاءة، وقد تحصل هذه الهداية حتى في أشد حالات العتمة (انعدام الإبصار) كما حصل مع إبراهيم.

السؤال: كيف تكون آلية الهداية في كلا الحالتين؟

جواب مفترى (1): من كان يظن أن الهداية لا تتم إلا في وجود الإضاءة، فإنه لا شك يعتمد كليا على بصره (العيون)

جواب مفترى (2): من كان يظن أن الهداية قد تتم حتى في حالات العتمة الشديدة، فإنه يعتمد على قبله:

- أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46)

ولو تفقدنا مفردة الأبصار (وهو ما ينتج عن وظيفة الأعين) في النص القرآني على مساحته، لوجدناها مرافقة للسمع (وهو ما ينتج عن وظيفة للآذان):

- قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (31)

- وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (78)
- وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (78)
- ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (9)
- قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (23)

السؤال: لماذا تتم الهداية لنور الله حتى عند انعدام القدرة على الإبصار (العتمة)؟

جواب مفترى: لأن نور الله لا تدركه الأبصار

- لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (103)

فمن أراد أن يدرك نور الله، فعليه أن يشغل قلبه وليس عيونه (أي بصره) فقط:

- أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46)

لأن الروية باستخدام الأعين هي – برأينا- رأي العين:

- قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (13)

وهي ما يتولد عنه الإبصار:

- وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ (62) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ (63)

والأبصار هي التي ستشخص في ذلك الموقف الرهيب:

- وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42)

نتيجة مفتراة: ليس بالضرورة أن يستطيع الهداية إلى نور الله من كان قادرا على الإبصار، فهذه أبصارهم لم تكن لتفيدهم في شيء:

- وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (97)

تلخيص ما سبق:

علينا أن نميز بين الإضاءة الناتجة عن الوهج الذي بدوره ينتج عن النار ذات الوقود مقابل النور الذي ينتج عن النار التي ليست ذات الوقود. فالشمس هي سراج واهج لأنها تنتج عن نار ذات وقود، وبالتالي فهي تهدي الأبصار التي تتلمس الطريق. بينما النبي هو سراج منير لأن ما جاء به هو طريق الهداية حتى في أشد حالات انعدام الإضاءة.

السؤال: ما تبعات هذا الفهم المفترى من عند أنفسنا؟

رأينا: نحن نظن أن التمييز بين الإضاءة الناتجة عن النار ذات الوقود والنور الذي ينتج دون الحاجة إلى نار ذات وقود له تبعات جمة على الفكر نذكر منها القضايا المتعلقة بالرزق والجنة والخلود وغيرها.

باب: وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ

السؤال: ما علاقة ذلك بالرزق مثلا؟

جواب مفترى: دعنا نحاول أن نتدبر ما جاء في الآية الكريمة التالية التي تسطر (نحن نفتري القول واحدة من سنن الله الكونية:

- **وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22)**

لنطرح بعد ذلك السؤال المباشر التالي: كيف يكون رزقنا جميعا في السماء؟

رأينا: حتى نتمكن من الإجابة على هذا التساؤل، فلابد من طرح التساؤل الأولي التالي: ما هو الرزق؟

رأينا المفترى: لو أمعنا التفكر في الآيات الكريمة التي تتحدث عن الرزق لوجدناها جميعا تخص "ما نأكل"، أي الطعام؟

الدليل

فهذا زكريا يدخل على مريم ليجد عندها رزقا:

- **فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ (37)**

وهذا يوسف يتحدث عن الطعام على أنه رزق:

- **قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (37)**

وها هم فتية الكهف يبعثون أحدهم إلى المدينة لينظر أيها أزكى طعاما ليأتيهم برزق منه:

- **وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (19)**

والله أمرنا أن نأكل من الرزق:

- **وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِيَ أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (88)**
- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (172)**

ونحن نتجرأ على افتراء الظن بأن الماء (على وجه التحديد) منفصل تماما عن الرزق بدليل ما جاء في قوله تعالى:

- **وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (50)**

فأصحاب النار يطلبون من أصحاب الجنة (كما نفهم ذلك من صريح اللفظ في الآية الكريمة) أن يفيضوا عليهم شيئين اثنين:

1. أن يفيضوا عليهم من الماء (أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء)، أو
2. أن يفيضوا عليهم مما رزقهم الله (أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ)

ولو تدبرنا الآيات الكريمة التالية لوجدنا أن الرزق هو جميع الثمرات التي أخرجها ربنا لنا من الأرض بعد أن أنزل من السماء ماء:

- **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (22)**

ولو تدبرنا الآية الكريمة التالية لوجدنا أن الرزق هو ما يمكن أن يختلف الناس فيه، فيجعلون بعضه حلالا وبعضه الآخر حراما:

- **قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ (59)**

لتكون النتائج المفتراة الخطيرة جدا التالية هي محرك البحث عندنا لما سيأتي من افتراءات لاحقا:

افتراء 1: الطعام هو رزق :

- **وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِيَ أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (88)**

افتراء 2: المشروبات (كالعصائر) هي رزق:

- **وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (60)**

افتراء 3: الماء (على وجه التحديد) ليس رزقا:

- **وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (50)**

إن صح ما نزعم، دعنا نحاول أن نثير التساؤل الذي يجلبه التناقض الظاهري بين ما جاء في الآيات الكريمة في المجموعتين التاليتين :

- **(1) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (22)**
- **اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (32)**
- **(2) وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22)**
- **هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاء رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ (13)**

فلو تفقدنا الآيات في المجموعة الأولى، لوجدنا أن الثمرات التي تخرج من الأرض هي الرزق (فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا)، ولو تفقدنا الآيات في المجموعة الأخرى، لوجدنا أن الله هو من ينزل الرزق من السماء (وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاء رِزْقًا)، أليس كذلك؟

السؤال: كيف يكون الرزق هو الثمرات التي تخرج من الأرض وفي الوقت ذاته نقرأ في كتاب الله أن الرزق يمكن أن ينزله الله لنا من السماء؟

- **قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ (31)**
- **أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (64)**

- **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (3)**

السؤال المربك لنا: نحن نستطيع أن نتفهم أن الرزق (الطعام) الذي يرزقنا الله هو ثمرات الأرض، لكن كيف يمكن أن نتفهم أن الرزق أيضا ينزله الله لنا من السماء؟ فهل أنزل الله على أحد من رزق من السماء غير مريم:

- **فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ (37)**

وهل أنزل الله على أحد من رزق (طعام) من السماء غير الحواريين:

- **قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (114)**

وهل أنزل الله على أحد غير بني إسرائيل رزقا (المن والسلوى)؟

- **يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى (80)**

التساؤل: إذا استطعنا أن نتفهم هذه المواقف التي أنزل الله فيها الطعام على بشر من السماء مباشرة، فكيف لنا نتفهم أن الله ينزل علينا نحن (الناس العاديين) رزقا من السماء؟

- **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (3)**

نتيجة مفتراة (1): الله يرزقنا من السماء: هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالْأَرْضِ

نتيجة مفتراة (2): الله يرزقنا من الأرض: هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالْأَرْضِ

السؤال القوي: كيف ينزل الله الرزق على كل الناس من السماء؟ وما هو الرزق الذي ينزله الله علينا (نحن الناس العاديين) من السماء على الدوام؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نفتري القول أن الرزق الذي ينزله الله علينا على الدوام من السماء هو الطاقة (أي السعرات الحرارية) التي نستمدها من وهج النار ذات الوقود (أي الشمس)، فأشعة الشمس هي (نحن نزعم الظن) هي الزق الذي ينزله الله علينا من السماء.

الدليل

لو تفقدنا الآية الكريمة التالية، لوجدنا فيها من الغرابة الشديدة التي تحيّر الألباب:

- **وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاء مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5)**

ألا ترى - عزيزي القارئ- أن الله هو من أنزل من السماء من رزق (وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاء مِن رِّزْقٍ)؟ ثم ألا ترى أن ذلك الرزق هو ما كان سببا في إحياء الأرض بعد موته (وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاء مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)؟

السؤال المربك: كيف يكون الرزق الذي أنزله الله لنا من السماء هو ما أحيا الله به الأرض بعد موتها (وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاء مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)؟

جواب مفترى: ربما يظن البعض أن ذلك الرزق الذي أنزله الله ليحي به الأرض هو الماء، وهذا ما لا نقبله إطلاقا، وذلك لأن الله أنزل الماء فأخرج به الثمرات:

- **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (22)**

وأنزل من السماء ماء فأخرج به نبات كل شيء:

- **وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (99)**

وأنزل من السماء ماء فأخرج به الثمرات فكانت تلك الثمرات هي رزقا:

- **اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (32)**

وأنزل من السماء ماء فأحياء بها الأرض بعد موتها:

- **وَاللّهُ أَنزَلَ مِنَ الْسَّمَاء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (65)**

لتكون النتيجة المفتراة الخطيرة والمهمة جدا هي على النحو التالي: هناك شيئان اثنان هما ما يحي الله به الأرض بعد موتها، ألا وهما:

1. الرزق:

- **وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاء مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5)**

2. الماء

- **وَاللّهُ أَنزَلَ مِنَ الْسَّمَاء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (65)**

نتيجة مفتراة خطيرة جدا: بناء على فهمنا المفترى لما جاء في الآيتين السابقتين، فإننا نتجرأ على افتراء القول بأن الأرض لا تحيا بعد موتها بالماء وحده، وأن الأرض لا تحيا بعد موتها بالرزق وحده، فلكي تحيا الأرض بعد موتها لابد من توافر عنصرين اثنين هما الرزق والماء

السؤال: إذا كان الماء الذي ينزل من السماء لحيي الله به الأرض بعد موتها ربما معروف للجميع، فما هو الرزق الذي ينزله الله من السماء ليحيي الأرض به بعد موتها؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: إنه الرزق الموجود في السماء:

- **وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22)**

السؤال: وما هو ذلك الرزق؟

جواب: إنه الرزق الذي يأتي من ذلك السراج الموجود في السماء كما جاء في الآية الكريمة التالية:

- **تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاء بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (61)**

سؤال: لم أفهم ما تقصد؟ كيف يكون ذلك؟ يسأل صاحبنا مستغربا.

رأينا المفترى: نحن نفتري القول من عند أنفسنا أن الرزق الموجود في السماء يأتي كله من ذلك السراج الوهاج (أي الشمس). فوهج الشمس المنبعث من وقودها هو الذي يصلنا على الأرض، فيكون سببا رئيسيا لإحياء الأرض بعد موتها، فالأرض لا يمكن أن تحيا في غياب أشعة الشمس (أي وهج الشمس)، كما لا يمكن أن تحيا في غياب عنصر الماء. فيصبح هناك عنصران ضروريان لإحياء الأرض بعد موتها وهما:

1. الحرارة (أي الوهج المنبعث من وقود الشمس)، و
2. الماء

فإذا ما توافر هذان العنصران تمت عملية إحياء الأرض بعد موتها، وفي غياب أحد هذين العنصرين أو كلاهما تصبح عملية إحياء الأرض بعد موتها أمرا مستحيلا.

نتيجة مفتراة خطيرة جدا: وهج الشمس (الموجودة في السماء) هو ذلك الرزق الذي أنزله الله لنا من السماء، لنأكل منه وهو مخزن الرزق لكل من سيأتي بعدنا:

- **وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22)**

فالشمس (السراج الوهاج) هي إذن (نحن نفتري القول من عند أنفسنا) خزّان الرزق الدائم لأهل الأرض جميعا

تبعات هذا الفهم المفترى من عند أنفسنا

نحن نظن أن لمثل هذا الفهم المفترى تبعات جمة في التفكير، ربما تساعد في تجلية كثير من الأمور العالقة في الذهن، والتي لم يصار (نحن نزعم) إلى إيجاد تفسير مرض لها حتى الساعة، نتطرق إلى بعضها على شكل تساؤلات مربكة لنا.

السؤال المربك رقم (1): لماذا نفضل في الأكل بعض الطعام على بعضه الآخر بالرغم أنه يسقى بماء واحد؟

- **وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (4)**

رأينا المفترى: الماء لا يؤدي إلى تنوع الجنات، فكل الجنات (مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ) تسقى بما واحد، أليس كذلك؟

السؤال: ما الذي يسبب تفضيل الأكل بعضه على بعض إذن؟ يسأل صاحبنا مستغربا

جواب مفترى: الرزق (أي أشعة الشمس)

السؤال: كيف ذلك؟

جواب مفترى: نحن نظن أن ذلك يعود إلى تنوع المحاصيل في فصول السنة المختلفة. فما ينضج من المحاصيل (الثمرات) في الربيع يختلف عن ما ينتج في الصيف أو في الشتاء أو حتى في الخريف، فبعض الثمرات

شتوية، والأخرى صيفية، وبعضها لا ينضج إلا في الربيع وبعضها يستوي نضجه فقط في الخريف، وهكذا. وحتى ضمن الصنف الواحد، يختلف الطعم بين نوع من الصف ونوع آخر من الصنف نفسه، فهناك جنات من الأعناب (وليس جنة واحدة) وهناك جنات من النخيل (وليس نوع واحد فقط)، الخ.

السؤال: لماذا؟ وكيف يحصل هذا التنوع؟

جواب مفترى: نحن نظن أن هذا التنوع (وبالتالي تفضيل بعضه على بعض) يعتمد كليا على كمية الرزق (وهج الشمس) المنزل من السماء.

- **أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (21)**

فكمية الوهج (أي الطاقة) اللازمة لإنضاج محصول معين من الثمرات تختلف عن كمية الطاقة (الوهج) اللازم لإنضاج محصول آخر من الثمرات، وبهذا يكون لكل نوع طعمه الخاص الذي يميزه عن غيره، ومن هذا الجانب (نحن نفتري الظن) يصبح تفضيل بعض الأصناف من الثمرات على الأخرى مبررا. فكمية الطاقة المتوافرة في صنف محدد هي ما يحدد طعمه ودرجة تفضيله، لذا نجد أن المحاصيل التي تنضج في فصل الصيف والخريف مثلا تمتاز بالحلاوة الشديدة كالأعناب والتمور وغيرها، بينما نجد المحاصيل التي تنضج في الشتاء تميل إلى الحموضة، وهكذا. ونجد المحاصيل السريعة النضوج (كاللوز مثلا) أقرب إلى الحموضة منه إلى الحلاوة، و يعتمد هذا كله – برأينا- على مقدار الطاقة المخزنة فيه، فكلما استهلك المحصول من الثمرات كمية أكثر من الطاقة كلما زادت كمية السعرات الحرارية المخزنة فيه، وهكذا.

ولو تدبرنا الآيات التي تتحدث عن إحياء الأرض بعد موتها لوجدناها تتحدث عن الرزق (وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاء مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) ولوجدنا تتحدث عن الماء (وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ الْسَّمَاء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)، ولو تدبرنا هذين العنصرين من منظور السعرات الحرارية في الثمرات كلها، لوجدنا أن الماء هو (نحن نتخيل) العنصر الوحيد الذي لا يوجد به سعرات حرارية إطلاقا، فلو أنت شربت كمية كبيرة جدا من الماء، فإن ذلك لا يمدك بسعر حراري واحد. ولكن كل ما عدا الماء (من المأكولات والمشروبات) فهو يحتوي على كمية من السعرات الحرارية (kilogram calorie, dietary calorie, nutritionist's calorie, nutritional calorie, or food calorie باللسان الأعجمي).

ولا شك عندنا أن الإنسان يحتاج إلى هذه الطاقة التي تشغل جسمه، ففقدانه لهذه الطاقة يعني فشل أعضاءه في العمل. وكلما أخذ الإنسان كمية أكثر من السعرات الحرارية، كلما خزّن في جسمه كمية أكثر من الطاقة. ويحتاج الإنسان أن يحفظ التوازن بين ما يكسبه من تلك الطاقة (أي السعرات الحرارية) وما يستهلكه منها. فأي خلل في هذا التوازن ستظهر أثاره الجانية على الإنسان على المدى القصير والمدى الطويل معا.

السؤال المربك رقم (2): هل يستهلك الإنسان كل ما يتناوله من الثمرات (الرزق)؟

جواب: كلا، فالإنسان يستهلك جزءا من تلك الثمرات، ويتم إلقاء الجزء الأكبر منها كفضلات في الحمام.

ولو أمعنا التفكر في بنية جسم الإنسان لوجدنا أن تصريف الفضلات يتم من فتحتين:

1. فتحة تصريف الماء (البول)
2. فتحة تصريف الرزق (البراز)

ونحن نعتقد أن جسم الإنسان يبدأ يعاني من المشاكل الصحية متى ما أصبح هناك خلل في تصريف كل مجرى من هذه المجاري، فمتى أصبح تصريف الرزق (السعرات الحرارية) يتم عن طريق مجرى الماء

(البول) مثلا فإن الإنسان يكون قد مسّه بعض الضر(كالأمراض)، وأصبح هناك اختلال في بنيته الجسمية. فمرضى السكري مثلا يعانون من مشكلة نزول كمية من السعرات الحرارية من مجرى البول المخصص أصلا لتصريف الماء (الذي من المفترض أن يكون خاليا تماما من السعرات الحرارية).

(دعاء: ربنا أكشف عنا الضر وأنت أرحم الراحمين)

إن ما يستفيده الإنسان من كمية الرزق (السعرات الحرارية) الداخلة في جسمه هو ما يستطيع جهازه البدني على حرقه، فحرق كمية من ذلك الرزق ينتج عنه طاقة تستطيع أن تشغل جسم الإنسان بمقدارها. ويقوم الجسم بالتخلص من الجزء الأكبر على شكل فضلات في الحمام.

السؤال: لماذا لا يستهلك الجسم كل الرزق من الثمرات التي يتناولها؟ لم لا يستطيع جسم الإنسان حرق كل الرزق الذي يدخل جسمه فلا يبقى منه شيء؟ لم يتم طرح الجزء الأكبر مما يتناوله الإنسان من الثمرات (الرزق) على شكل مخلفات (كريهة)؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لأن تلك الثمرات هي عبارة عن رزق (طاقة) غير نظيفة.

السؤال: لماذا هي طاقة غير نظيفة؟

جواب: لأنها ناتجة عن نار ذات وقود.

السؤال: كيف ذلك؟ لم أفهم شيئا يسأل صاحبنا مستغربا.

رأينا المفترى: لمّا كان الرزق هو عبارة عن وهج الشمس الناتج عن الوقود الذي يشغلها، فإن ذلك الوهج ليس نظيفا تماما، لذا لا يستهلك جسم الإنسان منه إلا ما هو فعلا طاقة حقيقية نظيفة، ويتم طرح الجزء المتبقي كله على شكل فضلات كما هي فضلات وقود النار. فحبة التفاح التي يتناولها الإنسان هي كلها عبارة عن طاقة، لكنها ليست كلها طاقة نظيفة مادام أنها ناتجة عن نار ذات وقود (وهج الشمس)، وكذلك هي حبة البرتقال أو الليمون أو الطماطم أو البطاطا، الخ. فعندما يقوم الإنسان بتناول حبة التفاح، فإن جسمه (يحرق) منها الوقود النظيف، وهو ما يستفيد منه جسمه، ويقوم الجسم بإلقاء بقية الكمية (الفضلات) في الحمام لأنها عبارة عن مخلفات لتلك الطاقة المخزنة فيها أصلا.

الدليل

نحن نكاد نزعم أننا نملك الدليل على هذا الافتراء الذي هو من عند أنفسنا بطرح التساؤل المربك الثالث.

السؤال المربك (رقم 3): هل سيكون لما سنأكله في الجنة من ثمراتها مخلفات تطرح في الحمام؟ هل سيحتاج من سيدخل الجنة أن يتبول أو أن يتغوط فيها؟ هل هناك شبكة مجاري وصرف صحي تمر بين جنات الأعناب والنخيل والرمان وغيرها في جنة الخلد التي وعد الله المتقين؟

جواب: لعل الفكر التقليدي قدّم التصور بأن تلك الجنة الأبدية تخلو تماما من مخلفات الإنسان الناتجة عن التبول أو التغوط، فمن يدخل الجنة لا يحتاج أن يتبول (تصريف الماء) ولا يحتاج أن يتغوط (تصريف الرزق) في الجنة، أليس كذلك؟

لكن ما لم يستطع الفكر التقليدي (نحن نزعم الظن) الإجابة عليه هو: لماذا؟ لم لا يحتاج من كان من أهل تلك الجنة أن يتبول أو أن يتغوط؟ وكيف سيصار إلى تصريف فضلات الثمرات التي يأكلها من يسكن الجنة حينها؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا أن من يأكل من ثمرات الجنة لا يحتاج أن يتغوط، وذلك لأن ما سيتناوله من ثمرات الرزق (الطعام) هناك يتم استهلاكه كله، فلا يتبقى منه شيء من الفضلات.

السؤال: لماذا؟ لماذا لن يكون لثمار الجنة فضلات تطرح (في الحمام) كما هي الحال في الحياة الدنيا؟ أليست هي جنات من أعناب ونخيل ورمان وغيرها؟ أليس هناك أنهار من خمر وأنهار من لبن لم يتغير طعمه؟ أليس هناك فيها من كل الثمرات؟

- **مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاء حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ (15)**

جواب مفترى خطير جدا جدا لا تصدقوه: لأن ثمرات الجنة ناتجة عن نار ليست ذات وقود.

السؤال: كيف ستنبت أرض تلك الجنة بالثمار؟

جواب مفترى: لكي تنبت الجنة بالثمار (كالأعناب والنخيل وغيرها)، فلابد (نحن نتخيل) من توافر رزق ينزل على تلك الثمرات من فوق، أو لنقل طاقة (كطاقة الشمس) التي تساعد في إحياء الأرض بعد موتها. فكما تستمد نباتات الأرض من أشعة الشمس الطاقة التي تساعد في نموها ونضوج ثمارها، فإن نبات الجنة (نحن نتخيل) سيستمد الرزق (أو لنقل طاقة) التي تعمل على نموها ونضوج ثمارها.

السؤال: ما هو ذلك المصدر الحراري (أو الطاقة) الذي ستستمد منه نبات الجنة طاقتها؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: إنه - بكل تأكيد- ليس الشمس، وذلك لأن الشمس تكون غير موجودة إطلاقا بدليل قوله تعالى:

- **مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (13)**

فالشمس إذن غير موجودة إطلاقا لتمد ثمرات جنة الخلد بالطاقة، وعندها تكون الأرض قد بدلت:

- **يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (48)**

السؤال: ما هو مصدر الحرارة حينها، أي عندما تكون الشمس (وكذلك القمر) قد غابت كليا؟

- **وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9)**

جواب مفترى خطير جدا جدا: في تلك الظروف التي ستغيب فيها مصادر الطاقة (كالشمس) كلها، فإن المصدر الوحيد الذي ستشرق به الأرض حينها هو ما جاء في الآية الكريمة التالية:

- **وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (69)**

نعم، ستشرق الأرض الجديدة (جنة الخلد) بنور ربها الذي سيكون (نحن نفتري القول) هو مصدر الطاقة الوحيد حينئذ.

تخيلات مفتراة: في تلك المرحلة سيتم جمع الشمس والقمر، وسيغيبان كلّيا عن المشهد، وستبدل الأرض غير الأرض، وستشرق تلك الأرض الجديدة بنور ربها، وسيصبح نور الله هو مصدر الحرارة (الطاقة)

الأوحد. وستنبت تلك الجنة (الأرض الجديدة) بالثمرات من كل شيء، وسيكون مصدر الرزق النازل عليها من فوق هو ذلك النور الإلهي الأبدي، وستستمد تلك الجنات طاقتها من ذلك النور، وستنبت بالثمرات كلها.

السؤال: ما الذي سيحصل عندما يأكل من سيسكن تلك الجنات من تلك الثمرات التي نزل عليها الرزق (النور الإلهي) فأحيا الأرض الجديدة؟

جواب: لمّا كانت تلك الثمرات كلها رزقا مصدره النور الإلهي الأبدي، فإنه سيكون – لا شك عندنا- كله طاقة نظيفة لا مخلفات له، مادام أنها ناتجة عن نار غير ذات وقود (أي نور)، قال تعالى:

- **اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (35)**

وسيكون لاستهلاك تلك الثمرات الطيبة نتائج جمة نذكر منها:

1. أن من سيأكل من تلك الثمرات لن يحتاج أن يتغوّط، لأن تلك الثمرات كلها طاقة نظيفة سيتم استهلاكها بالكلّية
2. لن يصاب من يأكل من تلك الثمرات بالأذى والضر مادام أن ما يدخل جسمه كله نظيف لا شائبة فيه، فهو أصلا مستمد من النور الأبدي
3. الخ

السؤال المربك (رقم 4): كم سيمكث من سيدخل تلك الجنة فيها؟

غالبا ما تسأل الناس عن جنات الخلد، خاصة ما يتعلق بماهيتها وما يتعلق بالفترة الزمنية التي سيمكثها الداخل فيها، ولعل الإجابات التقليدية المتوافرة لا تسد رمق الباحث عن الحقيقة مادام أنها في كثير من الأحيان متباينة، ومادام أن هذه الآراء المتعددة (نحن نزعم القول) لا تستند إلى الدليل الذي يدعمها. وسنحاول في نهاية هذا الجزء من المقالة التركيز على الجزء الخاص بالفترة الزمنية للمكوث في جنات الخلد، ليكون السؤال هو: كم سيمكث الناس في الجنة بعد دخولهم فيها؟

جواب: غالبا ما جلبت الآيات الكريمة التالية لتدعيم وجهة نظر من يغوص في هذه القضايا:

1. خالدين فيها:

- **قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (15)**

2. خالدين فيها أبدا:

- **وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً (57)**

3. خالدين فيها إلا ما شاء ربك:

- **وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ (108)**

وقد تعرضنا في الأجزاء السابقة للفرق بين خالدين فيها من جهة (خَالِدِينَ فِيهَا) وخالدين فيها أبدا (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) من جهة أخرى، وافترينا الظن من عند أنفسنا أن الخلود (خَالِدِينَ) هو خلود مكاني فقط، أما الأبدية (أَبَدًا) فهي ما يتعلق بالزمن، لذا كان الافتراء الذي قدمناه على النحو التالي:

الذين يخلدون في المكان (خَالِدِينَ فِيهَا) هم الذين لا يبرحونه إلى غيره، فالخالدين في الجنة هم من ستكون الجنة هي مكانهم الوحيد الذي سيتواجدون فيه فلا يبرحونه إلى غيره، وهكذا حال من كانوا خالدين في النار، فهم أصحاب النار الذين لا يجدون مكان آخر غير النار يؤويهم.

أما الخالدين فيها أبدا (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) فهم الذين يمكثون في المكان على سبيل الديمومة، فمن يخلد في الجنة أبدا، فهو الذي لا يجد مكان آخر غير الجنة يؤويه وفي الوقت ذاته يكون ذلك على سبيل الديمومة الأبدية، وكذلك هي حال الخالدين في النار أبدا، فهم الذين لا يستطيعون أن يغادروا النار إلى مكان آخر غيرها ويكون ذلك على سبيل الديمومة.

لكن المعضلة الآن تكمن في الموازنة بين الآيات الكريمة التي تتحدث عن الديمومة المطلقة للخلود في الجنة (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) كما جاء في آيات كثيرة من كتاب الله:

- **وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً (57)**

مقابل ما جاء في الآيات الكريمة التي تؤكد أن ذلك مرتبط بديمومة السموات والأرض وبالمشيئة الإلهية:

- **وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ (108)**

ليكون السؤال هو: هل الخلود في الجنة أبدي لا ينتهي؟ أم هل يمكن أن ينتهي مادام أنه مرتبط بديمومة السموات والأرض والمشيئة الإلهية؟

جواب مفترى خطير جدا: بداية نحن نعتقد جازمين أن الفترة الزمنية للخلود في الجنة ستكون طويلة جدا قد يصعب علينا تخيلها، لكن مع ذلك نحن نعتقد أيضا بأن الديمومة في الجنة (وإن طالت) ربما تنتهي مادامت مرتبطة بديمومة السموات والأرض والمشيئة الإلهية. ولنرقب ما قاله بنو إسرائيل لرسولهم عندما طلب منهم الدخول في الأرض المقدسة التي كتب الله لهم:

- **قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (24)**

فالأبدية إذن (نحن نفتري القول) لا تعني إلى ما لا نهاية وذلك لأنها قد تكون مشروطة بحدث معين (إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا)

نتيجة مفتراة خطيرة جدا: نحن نظن أن أبدية الجنة مشروطة إذن بديمومة السموات والأرض وبالمشيئة الإلهية

السؤال: إن صح ما تزعم، لم يمكن أن تنتهي؟ وكيف يمكن أن تنتهي؟ ومتى يمكن أن تنتهي؟

جواب مفترى: يميل الظن عندنا إلى الاعتقاد بأن مدة المكوث في الجنة تختلف من شخص إلى آخر كما تختلف ماهية الجنة من شخص إلى آخر، فليس كل الداخلين في الجنة يتمتعون بالمزايا نفسها، فقد لا تتطابق جنة الأشخاص العاديين مع الجنة التي سيخلد فيها نوح وإبراهيم وموسى ومحمد. وبالمنطق نفسه نحن نعتقد أن المدة الزمنية التي سيمكث فيها هؤلاء الصالحون من عباد الله قد لا تكون متطابقة مع المدة

الزمنية التي سيمكثها غيرهم فيها. لتكون النتيجة المفتراة الخطيرة جدا هي: لكل شخص جنته الخاصة به من حيث ماهيتها ومدتها الزمنية. فكما تختلف جنة كل شخص عن جنة الشخص الآخر في المزايا فهي قد تختلف في طول فترتها الزمنية.

السؤال: متى ستنتهي جنة أي شخص؟

جواب مفترى: عندما ينتهي رصيده الذي قدمه لها.

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا: نحن نؤمن بالمنطلقات الفكرية العقائدية التالية

أولا، أن الله لا يظلم أحدا:

- **وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (49)**

ثانيا، أن الله لا يظلم مثقال ذرة:

- **إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (40)**

ثالثا، أن ما سيقدمه الإنسان من خير سيجده عند ربه:

- **وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110)**

رابعا، أن ما تقدمه لنفسك تجده عند الله هو خيرا وأعظم أجرا:

- **إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (20)**

خامسا: أن الله يضاعف الحسنات:

- **إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (40)**

سادسا، أن الحساب يكون على كل ذرة:

- **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7)**

الخ.

السؤال: كيف سيتبلور التباين بين الناس في الجنة بناء على ما يقدموه لأنفسهم من خير؟

افتراء خطير جدا (1): نحن نفتري الظن بأن طول الفترة الزمنية التي سيمكثها من يدخل الجنة يعتمد على كمية المخزون (الرصيد) الذي قدّمه لنفسه. فما أحضرت لنفسك من الخير ستجده حاضرا عند الله، وستجده أعظم أجرا لأن الله لا شك يضاعف الحسنات.

افتراء خطير جدا (2): ما أن ينفذ مخزونك من تلك الحسنات التي ضاعفها الله لك حتى تكون جنتك قد أفلت، ومن هذا المنطلق نحن نفهم قوله تعالى:

- **وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ (108)**

السؤال: كيف سيحصل ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن كل ما يعمله الإنسان من عمل يتم تقييمه بكمية محددة من التقوى التي نالها الله منك:

- **لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (37)**

لذا يصبح مخزون الإنسان عند ربه محددا بكمية التقوى التي نالها الله منه، وهذه "التقوى" المتحصّلة من كل شخص هي ما يجعل جنته الخاصة به تدوم فترة متفاوتة من الزمن. فقد يكون مقدار التقوى التي نالها الله مني أكبر من مقدار التقوى التي نالها الله منك، حينها تدوم جنتي مدة أطول من جنتك.

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى: لأن هذه التقوى تتحول إلى النور الأبدي:

- **يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12)**

وهذا ما سيفتقده غير المؤمن:

- **يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (13)**

ولو دققنا في هذه الآية الكريمة جيدا لوجدنا أن ذلك النور الأبدي مصدره ما كان وراءهم، فالمؤمنون يطلبون من المنافقين والمنافقات أن يرجعوا وراءهم ليلتمسوا ذلك النور. وعندها لن يجد هؤلاء إلا ما كنزوا لأنفسهم، وهي ما سيحمى عليها في نار جهنم ليذوقوها بأنفسهم:

- **يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (35)**

تلخيص ما سبق: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الجنة التي وعد المتقون فيها جنات من ثمرات كثيرة:

- **مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاء حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ (15)**

وأن مصدر الرزق لثمرات الجنة هو ذلك النور الإلهي الأبدي، وأن مقدار ما تستفيده منها هو مقدار ما قدمت لنفسك من خير ناله الله منك على شكل تقوى، سيتبلور في نهاية المطاف بنور أبدي، فتكون جنتك محكومة بذلك القدر من النور الذي ساهمت أنت فيه، فمتى نفذ رصيدك من ذلك النور، انطفأت جنتك وانتهت مساهمتك فيها.

وإذا كانت الحياة الدنيا لهو ولعب فإن الآخرة هي الحيوان:

- **وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (64)**

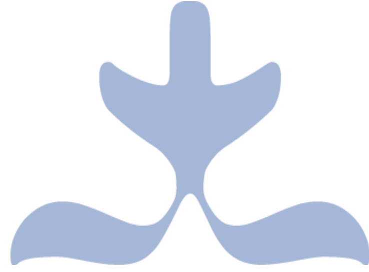
فقدم لنفسك – عزيزي القارئ- بمقدار ما ترغب أن يديم عليك جنتك في الآخرة، فأنت تستطيع أن تزيد أو أن تنقص من ذلك "الحيوان"، ولا تكنز لنفسك لأن ذلك سيحمى عليه في جهنم لتكوى به جباهك وجلودكم، وسيكون مكوثكم فيها أحقابا:

- **لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (23)**

نتيجة مفتراة مهمة جدا: نحن نظن أن عملك في هذه الحياة الدنيا سيتحول إلى نور في الآخرة، وسيكون ذلك النور (مصدر الطاقة النظيفة) هو المشغل الحقيقي لجنتك التي ستنبت لك الثمرات فيها، وستنار جنتك بتلك الطاقة التي خزنتها لنفسك بعد أن يكون الله قد ضاعفها لك أضعافا كثيرة.

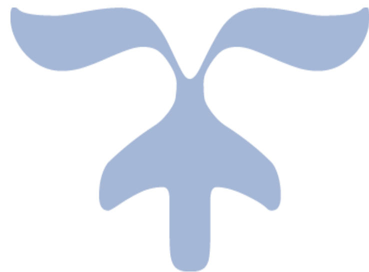
والحمد لله رب العالمين.
لسؤال: ما علاقة هذا كله برؤيا إبراهيم ويوسف لتلك الكينونات (الكوكب والقمر والشمس)؟
هذا ما سنخوض فيه في الجزء القادم من هذه المقالة بحول الله وتوفيق منه.

سائلين الله وحده أن ينفذ مشيئته وإرادته لنا الإحاطة بشي من علمه لا ينبغي لغيرنا، إنه هو العليم الحكيم، وأن يزدني علما وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا. وأدعوه وحده أن يؤتيني رشدي، وأعوذ به أن يكون أمري كأمر فرعون، فالله وحده أدعو أن أكون ممن أتوه بقلب سليم، فهداهم الصراط المستقيم، إنه هو العليم الخبير – آمين.



قصة يونس

الجزء التاسع والعشرون



قصة يونس: الجزء التاسع والعشرون

افترينا الظن من عند أنفسنا في الجزء السابق من هذه المقالة بأن عملك في هذه الحياة الدنيا سيتحول إلى نور في الآخرة بمقدار التقوى التي نالها الله منك من مجموع عملك كله:

- **لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (37)**

وسيكون ذلك النور (مصدر الطاقة النظيفة) هو المشغل الحقيقي لجنتك، وستنار جنتك بتلك الطاقة التي خزنتها لنفسك بعد أن يكون الله قد ضاعفها لك أضعافا كثيرة:

- **مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (245)**

وستكون ماهية تلك الجنة على النحو الذي تصوره الآية الكريمة التالية:

- **لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (20)**

وسيكون هناك تفاوت في الدرجات:

- **وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (132)**
- **أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (4)**
- **انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (21)**
- **وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (75)**
- **وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (19)**

وهو ما سنتحدث عنه لاحقا إن أذن الله لنا بشيء من علمه فيها في مقالات مستقلة بحول الله وتوفيق منه. فالله وحده أدعو أن ينفذ مشيئته وإرادته لي الإحاطة بشي من علمه لا ينبغي لغيري، إنه هو العليم الحكيم، وأن يزدني علما، وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا، إنه هو الواسع العليم – آمين.

وسنعود في هذا الجزء من المقالة إلى التساؤل القديم الخاص بعلاقة هذه الافتراءات برؤيا إبراهيم ويوسف لتلك الكينونات (الكوكب والقمر والشمس)؟

أما بعد،

طار الخيال بنا في السابق إلى أن نتصور ما حلّ بإبراهيم بعد أن اعتزل قومه:

- **وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا (48)**

ولمّا كان اعتزال إبراهيم قومه مرتبطا بالحاجة إلى دعاء ربه، ظننا (ربما مخطئين) أن الرجل قد آوى حينها إلى ما يشبه الكهف الذي أوى إليه الفتية (أصحاب الكهف والرقيم) بعد أن اعتزلوا قومهم:

- **وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته ويُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا (16)**

فوجد إبراهيم نفسه (نحن لازلنا نتخيل) متواجدا لوحده في كهف، وقد حلّت عليه ظلمات ثلاث: ظلمة الليل، وظلمة الكهف، وظلمة الإبصار، بالضبط كحال الجنين في بطن أمه:

- خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (6)

فكان الليل بذلك قد جنّ على إبراهيم:

- فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (76)

عندها لم يكن إبراهيم ليستفيد من حاسة الإبصار (رأي العين)، فما عادت العيون تبصر شيئا، وفي تلك الظروف استطاع إبراهيم أن يشغل فؤاده ليرى به بديلا عن رأي العين:

- أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46)

ولما كان قلب إبراهيم سليما:

- وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (83) إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (84)

ما كذب فؤاده ما رأى:

- مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (11)

ف تحت وطأة تلك الظروف المحيطة به حينئذ، استطاع إبراهيم (نحن نفتري القول) أن يرى تلك الكينونات:

- فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78)

السؤال: كيف استطاع إبراهيم أن يرى تلك الكينونات؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لمّا كان إبراهيم ممن يشاءون الهداية إلى نور الله، استطاع أن يرى تلك المشكاة المنبعث منها ذلك النور الأبدي:

- اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (35)

(دعاء: اللهم فاطر السموات والأرض، جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع، يا من تزيد في الخلق ما تشاء، أسألك نفاذ مشيئتك لي بالهداية إلى نورك الذي أبيت إلا أن تتمه ولو كره الكافرون، فأكن من أنصارك لتجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمتك هي العليا، فتخرجنا بها من الظلمات إلى النور بإذنك، إنك أنت السميع البصير، – أمين)

السؤال: كيف حصل ذلك مع إبراهيم؟

باب: مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ

لو تدبرنا هذه الآية الكريمة لوجدنا أن هناك ثلاث كينونات، يلف بعضُها البعضَ الآخر، لازمة لتصوير النور الإلهي، وهي على الترتيب من الخارج إلى الداخل على النحو التالي:

1. المشكاة
2. الزجاجة
3. المصباح

وهذا ما يشبه بالضبط كينونة تغليف الجنين في بطن أمه. ولو حاولنا تدبّر هذه الكينونات لوجدنا التقابل على النحو التالي:

النور الإلهي	الجنين
المشكاة	جدار بطن الأم
الزجاجة	غلاف الجنين داخل بطن الأم
المصباح	الجنين

ولو حاولنا إسقاط ذلك على إبراهيم في الكهف لوجدنا أن الصورة هي (في مخيالنا) على النحو التالي:

إبراهيم	النور الإلهي	الجنين
ظلمة الليل	**المشكاة**	**جدار بطن الأم**
الكهف	**الزجاجة**	**غلاف الجنين داخل بطن الأم**
البصر (إبراهيم)	**المصباح**	**الجنين**

فلقد كان الكهف يشكل على إبراهيم (وهو موجود بداخله) ما يشكله الغلاف الذي يتواجد به الجنين داخل بطن أمه، فكان عليه أن يبحث عن الهداية باستخدام فؤاده بدلا من بصره الذي لا يقوى على ذلك، فالجنين في بطن أمه يظهر مغلقا عينيه بكلتا يديه كما في الشكل التوضيحي التالي:



باب: يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء

في تلك الظلمة الحالكة بدأ إبراهيم يبحث عن النور الذي سيهديه إلى الصراط المستقيم، ولم يكن يملك إلا وسيلة واحدة وهي الدعاء:

- وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا (48)

(دعاء: ادعوك رب أن أكون ممن يدعونك، وأعوذ بك أن أدعو من هم من دونك، إنك أنت العزيز الكريم – آمين)

فمكث إبراهيم (نحن نتخيل) في ذلك الكهف معتزلا قومه، داعيا ربه ألا يكون بدعائه شقيا. فكان على إبراهيم أن يشغل جميع حواسه للوصول إلى الغاية المنشودة، وكان الرجل على علم بأن أدوات الرؤية هما الأبصار والأفئدة:

- وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (36)

فهو على علم بأن الناس ينقسمون في ذلك إلى ثلاثة أصناف:

1. هناك من كان مشغلا لبصره، فيستطيع أن يرى بعينيه فقط، فيكون قد استفاد من بصره فقط
2. هناك من كان مشغلا لفؤاده، فيستطيع أن يرى بفؤاده فقط، فيكون بذلك قد استفاد من فؤاده فقط
3. وهناك من هو مشغل لبصره ولفؤاده، فيستطيع أن يرى بعينيه وبفؤاده، فيكون بذلك قد استفاد من بصره وفؤاده معا

فكان إبراهيم (نحن نكاد نجزم الظن مفترين القول من عند أنفسنا) من الفئة الثالثة التي تستطيع أن تشغل البصر والفؤاد معا، فكان يستطيع أن يري بعينه كما يستطيع أن يرى بفؤاده:

- وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (45)

فعندما وجد إبراهيم نفسه في ذلك "الكهف" معتزلا قومه، وقد جنّ عليه الليل، أصبحت الأبصار وحدها لا تفيد في شيء، فكان على إبراهيم أن يشغّل فؤاده، ليستطيع أن يرى ما يدور حوله، وهناك بالضبط استطاع إبراهيم أن يشغّل فؤاده الذي هو جزء من قلبه السليم:

- إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (84)

فاستطاع إبراهيم أن يرى بفؤاده ما لم يراه الناس بأعينهم.

السؤال: ما الذي رءاه إبراهيم عندما شغل فؤاده؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نظر إبراهيم بفؤاده إلى ما حوله في ذلك الكهف شديد الظلمة حيث جن عليه الليل فيه، فرأى ما يشبه المشكاة:

- اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (35)

وكان في تلك المشكاة زجاجة وكان في تلك الزجاجة مصباح. ولو تفقدنا النص أكثر لوجدنا أن هذا كله جاء لتشبيه نور الله، فنور الله ليس كذلك ولكنه ما يشبه ذلك، فالأمر واقع في باب التشبيه لأنه من الاستحالة

بمكان أن يحصل التطابق في هذه الحالة، وذلك لأن ما يتعلق بالإله يستحيل أن يكون هناك ما يطابقه لأن الله ليس كمثله شيء:

- **فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (11)**

ولكن يمكن أن يكون هناك ما يشبهه:

- **اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ...**

نتيجة مفتراة: نور الله لا يتطابق مع المشكاة ولكنه يشبه المشكاة

السؤال: كيف يمكن أن نتصور ذلك؟

تخيلات مفتراة: عندما يكون الله هو نور السموات والأرض، لذا يستحيل أن يكون هناك نور آخر يوازيه، ويستحيل في الوقت ذاته أن يكون هناك نور آخر يطغى عليه، لذا يصبح نور الله هو النور الأوحد للسموات والأرض، فلا وجود لمصدر آخر للنور في السموات والأرض غير نور الله.

منطقنا المفترى: إن صح منطقنا المفترى من عند أنفسنا هذا، يصبح النور الصادر من المشكاة هو النور الأوحد الذي يضيء المنطقة التي يسطع عليها، أليس كذلك؟

السؤال: كيف يمكن اسقاط هذا الخيال في حالة إبراهيم؟

رأينا المفترى: إذا تخيلنا أن الليل قد جنّ على إبراهيم وحده، يكون إبراهيم في مكان محدد بذاته لا يشاركه فيه أحد غيره، وهو في مخيالنا ذلك الكهف الذي اعتزل إبراهيم القوم فيه، فإن النتيجة الحتمية التي نظن أننا قد وصلنا إليها هي أن ذلك الكهف كان يسطع عليه النور من مصدر واحد وهي تلك المشكاة، فتكون النتيجة على النحو التالي: كان إبراهيم معتزلا قومه في ذلك الكهف، وكان مصدر الضوء الذي يسطع في ذلك الكهف هو تلك المشكاة، فيدخل منها النور لينير ما في داخل الكهف. فتكون المشكاة في ظننا ما يشبه الكوة التي يدخل منها النور من الأعلى إلى داخل الكهف كما تصور ذلك الجدارية التالية التي وصلتنا من عند صديقنا العزيز عصام درويش في أرض مصر الخالدة:



فالطرف الأيسر للقارئ من هذه الجدارية يبين دخول النور من مكان مرتفع إلى داخل المكان من خلال مسرب محدد، هو في ظننا تلك المشكاة التي يوجد بها النور.

السؤال: كيف استطاع إبراهيم أن يرى النور الإلهي؟

جواب مفترى: للإجابة على هذا التساؤل، نجد لزاما التعريج على قصة أخرى في كتاب الله تخص نبي الله إبراهيم في المحاجة الشهيرة، وهي قصته التي وردت في سورة البقرة مع ذلك الذي آتاه الله الملك كما جاء في الآيات الكريمة التالية:

- **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258)**

فربما سيبين للقارئ الكريم من خلال تعريجنا على هذه القصة أمورا عديدة، نظن (نحن نفتري القول) أنها ضرورية جدا من أجل الخروج بتصور ربما يكون أكثر واقعية لقصة إبراهيم الكلّية، المر الذي سيسهم – لا شك عندنا- في توضيح رؤياه لتلك الكينونات الثلاث التي هي مدار البحث في هذا المقام. فالله نسأل أن يهدينا رشدنا، وأن يزيدنا علما، وأن يهدينا لأقرب من هذا رشدا، إنه هو الواسع العليم.

أما بعد،

قد يجد القارئ غير المتدبر لكتاب الله أن هذه الآية تشير إلى قصة بسيطة عابرة، ربما لا تستدعي منه التأمل كثيرا في مفرداتها ودلالتها وكيفية حدوثها على أرض الواقع، وذلك لأن العبرة منها (في ظن الكثيرين جلّية، تتمثل بقدرة الله التي لا تضاهيها قدرة غيره. لذا دعنا نرجع أولا إلى بطون أمهات الكتب الصفراء لنرى ما خطت أقلام أهل الرواية عن عبقرية فذة من أهل الدراية عن هذه الآية الكريمة. ف فيها – برأينا- ما يثير التعجب والاستغراب تارة والتهكم والاستهجان تارة أخرى، ولنبدأ النقاش بما جاء عن هذه الآية الكريمة في تفسير القرآن العظيم لشيخ المفسرين الإمام الطبري:

ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك

القول في تأويل قوله تعالى : { ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك } يعني تعالى ذكره بقوله : { ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه } ألم تر يا محمد بقلبك الذي حاج إبراهيم ؟ يعني الذي خاصم إبراهيم , يعني إبراهيم نبي الله صلى الله عليه وسلم في ربه , { أن آتاه الله الملك } يعني بذلك : حاجه فخاصمه في ربه , لأن الله آتاه الملك . وهذا تعجيب من الله تعالى ذكره نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم , من الذي حاج إبراهيم في ربه , ولذلك أدلت " إلى " في قوله : { ألم تر إلى الذي حاج } . وكذلك تفعل العرب إذا أرادت التعجيب من رجل في بعض ما أنكرت من فعله , قالوا : ما ترى إلى هذا ؟ والمعنى : هل رأيت مثل هذا , أو كهذا ؟ وقيل : إن الذي حاج إبراهيم في ربه جبار كان ببابل يقال له نمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح , وقيل : إنه نمرود بن فالخ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح . ذكر من قال ذلك : 4575 - حدثني محمد بن عمرو , ثنا أبو عاصم , عن عيسى , عن ابن أبي نجيح , عن مجاهد في قول الله : { ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك } قال : هو نمرود بن كنعان . * - حدثني المثنى , قال : ثنا أبو حذيفة , قال : ثنا شبل , عن ابن أبي نجيح , عن مجاهد , مثله . * - حدثني المثنى , قال : ثنا أبو نعيم , عن سفيان , عن ليث , عن مجاهد , مثله . * - حدثنا ابن وكيع , قال : ثنا أبي , عن النضر بن عدي , عن مجاهد , مثله . 4576 - حدثنا بشر , قال : ثنا يزيد , قال : ثنا سعيد , عن قتادة : { ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه } قال : كنا نتحدث أنه ملك يقال له نمرود , وهو أول ملك تجبر في الأرض , وهو صاحب الصرح ببابل . * - حدثنا الحسن بن يحيى , قال : أخبرنا عبد الرزاق , قال : أخبرنا معمر , عن

قتادة , قال : هو اسمه نمرو , وهو أول ملك تجبر في الأرض حاج إبراهيم في ربه . 4577 - حدثني المثنى , قال : ثنا إسحاق , قال : ثنا ابن أبي جعفر , عن أبيه , عن الربيع في قوله : { ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك } قال : ذكر لنا أن الذي حاج إبراهيم في ربه كان ملكا يقال له نمرود , وهو أول جبار تجبر في الأرض , وهو صاحب الصرح ببابل . 4578 - حدثنا موسى , قال : ثنا عمرو , قال : ثنا أسباط , عن السدي , قال : هو نمرو بن كنعان . 4579 - حدثني يونس , قال : أخبرنا ابن وهب , قال : قال ابن زيد : هو نمرود . 4580 - حدثنا ابن حميد , قال : ثنا سلمة , عن ابن إسحاق , مثله . 4581 - حدثنا الحسن بن يحيى , قال : أخبرنا عبد الرزاق , قال : أخبرنا معمر , قال : أخبرني زيد بن أسلم , بمثله . * - حدثنا القاسم , قال : ثنا الحسين , قال : ثني حجاج , عن ابن جريج , قال : أخبرني عبد الله بن كثير أنه سمع مجاهدا يقول : هو نمرود . قال ابن جريج : هو نمرود , ويقال إنه أول ملك في الأرض .

إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر

القول في تأويل قوله تعالى : { إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت . قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر } يعني تعالى ذكره بذلك : ألم تر يا محمد إلى الذي حاج إبراهيم في ربه حين قال له إبراهيم : ربي الذي يحيي ويميت , يعني بذلك : ربي الذي بيده الحياة والموت يحيي من يشاء ويميت من أراد بعد الإحياء , قال : أنا أفعل ذلك , فأحيي وأميت , أستحيي من أردت قتله , فلا أقتله , فيكون ذلك مني إحياء له . وذلك عند العرب يسمى إحياء , كما قال تعالى ذكره : { ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا } 5 32 وأقتل آخر فيكون ذلك مني إماتة له . قال إبراهيم صلى الله عليه وسلم : فإن الله الذي هو ربي يأتي بالشمس من مشرقها , فأت بها إن كنت صادقا أنك إله من مغربها ! قال الله تعالى ذكره : { فبهت الذي كفر } يعني انقطع وبطلت حجته , يقال منه : بهت يبهت بهتا , وقد حكي عن بعض العرب أنها تقول بهذا المعنى : بهت , ويقال : بهت الرجل إذا افتريت عليه كذبا بهتا أو بهتانا وبهاتة . وقد روي عن بعض القراء أنه قرأ : " فبهت الذي كفر " بمعنى : فبهت إبراهيم الذي كفر . وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل . ذكر من قال ذلك : 4582 - حدثنا بشر , قال : ثنا يزيد , قال : ثنا سعيد , عن قتادة في قوله : { إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت , قال أنا أحيي وأميت } وذكر لنا أنه دعا برجلين , ففتل أحدهما , واستحيا الآخر , فقال : أنا أحيي هذا , أنا أستحيي من شئت , وأقتل من شئت , قال إبراهيم عند ذلك : { فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين } . 4583 - حدثني المثنى , قال : ثنا أبو حذيفة , قال : ثنا شبل , عن ابن أبي نجيح , عن مجاهد , قال : أنا أحيي وأميت : أقتل من شئت , وأستحيي من شئت , أدعه حيا فلا أقتله . وقال : ملك الأرض مشرقها ومغربها أربعة نفر : مؤمنان , وكافران , فالمؤمنان : سليمان بن داود , وذو القرنين ; والكافران : بختنصر ونمرود بن كنعان , لم يملكها غيرهم . 4584 - حدثنا الحسن بن يحيى , قال : أخبرنا عبد الرزاق , قال : أخبرنا معمر , عن زيد بن أسلم : أول جبار كان في الأرض نمرود , فكان الناس يخرجون فيمتارون من عنده الطعام , فخرج إبراهيم يمتار مع من يمتار , فإذا مر به ناس قال : من ربكم ؟ قالوا : أنت . حتى مر إبراهيم , قال : من ربك ؟ قال : الذي يحيي ويميت , قال : أنا أحيي

وأميت , { قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر } قال : فرده بغير طعام . قال : فرجع إبراهيم على أهله فمر على كثيب من رمل أعفر , فقال : ألا آخذ من هذا فآتي به أهلي فتطيب أنفسهم حين أدل عليهم ؟ فأخذ منه فأتى أهله , قال : فوضع متاعه ثم نام , فقامت امرأته إلى متاعه , ففتحته , فإذا هي بأجود طعام رأته , فصنعت له منه , فقربته إليه . وكان عهده بأهله أنه ليس عندهم طعام , فقال : من أين هذا ؟ قالت : من الطعام الذي جئت به . فعلم أن الله رزقه , فحمد الله . ثم بعث الله إلى الجبار ملكا أن آمن بي وأتركك على ملكك ! قال : وهل رب غيري ؟ فجاءه الثانية , فقال له ذلك , فأبى عليه . ثم أتاه الثالثة فأبى عليه , فقال له الملك : اجمع جموعك إلى ثلاثة أيام ! فجمع الجبار جموعه , فأمر الله الملك , ففتح عليه بابا من البعوض , فطلعت الشمس , فلم يروها من كثرتها , فبعثها الله عليهم فأكلت لحومهم , وشربت دماءهم , فلم يبق إلا العظام , والملك كما هو لم يصبه من ذلك شيء . فبعث الله عليه بعوضة , فدخلت في منخره , فمكث أربعمائة سنة يضرب رأسه بالمطارق , وأرحم الناس به من جمع يديه وضرب بهما رأسه . وكان جبارا أربعمائة عام , فعذبه الله أربعمائة سنة كملكه , ثم أماته الله . وهو الذي بنى صرحا إلى السماء فأتى الله بنيانه من القواعد , وهو الذي قال الله : { فأتى الله بنيانهم من القواعد } . 16 26 4585 - حدثني يونس , قال : أخبرنا ابن وهب , قال : أخبرني عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قول الله : { ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه } قال : هو نمرود كان بالموصل والناس يأتونه , فإذا دخلوا عليه , قال : من ربكم ؟ فيقولون : أنت , فيقول : ميروهم ! فلما دخل إبراهيم , ومعه بعير خرج يمتار به لولده قال : فعرضهم كلهم , فيقول : من ربكم ؟ فيقولون : أنت , فيقول : ميروهم ! حتى عرض إبراهيم مرتين , فقال : من ربك ؟ قال : ربي الذي يحيي ويميت , قال : أنا أحيي وأميت , إن شئت قتلتك فأمتك , وإن شئت استحييتك . { قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين } قال : أخرجوا هذا عني فلا تميروه شيئا ! فخرج القوم كلهم قد امتاروا . وجوالقا إبراهيم يصطفقان , حتى إذا نظر إلى سواد جبال أهله , قال : ليحزنني صبياي إسماعيل وإسحاق , لو أني ملأت هذين الجوالقين من هذه البطحاء فذهبت بهما قرت عينا صبيي , حتى إذا كان الليل أهرقته . قال : فملأهما ثم خيطهما , ثم جاء بهما , فترامى عليهما الصبيان فرحا , وألقى رأسه في حجر سارة ساعة , ثم قالت : ما يجلسني ! قد جاء إبراهيم تعبا لغبا , لو قمت فصنعت له طعاما إلى أن يقوم ! قال : فأخذت وسادة فأدخلتها مكانها , وانسلت قليلا قليلا لئلا توقظه . قال : فجاءت إلى إحدى الغرارتين ففتقتها , فإذا حواري من النقي لم يروا مثله عند أحد قط , فأخذت منه فطحنته وعجنته . فلما أتت توقظ إبراهيم جاءته حتى وضعته بين يديه , فقال : أي شيء هذا يا سارة ؟ قالت : من جوالقك , لقد جئت وما عندنا قليل ولا كثير . قال : فذهب ينظر إلى الجوالق الآخر فإذا هو مثله , فعرف من أين ذاك . 4586 - حدثني المثنى , قال : ثنا إسحاق , قال : ثنا ابن أبي جعفر , عن أبيه , عن الربيع , قال : لما قال له إبراهيم : ربي الذي يحيي ويميت , قال هو , يعني نمرود : فأنا أحيي وأميت , فدعا برجلين , فاستحيا أحدهما , وقتل الآخر , قال : أنا أحيي وأميت , قال : أي أستحيي من شئت , فقال إبراهيم : { فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين } . 4587 - حدثني موسى , قال : ثنا عمرو , قال : ثنا أسباط , عن السدي , قال : لما خرج إبراهيم من النار , أدخلوه على الملك , ولم يكن قبل

ذلك دخل عليه فكلمه , وقال له : من ربك ؟ قال : ربي الذي يحيي ويميت , قال نمرود : أنا أحيي وأميت , أنا أدخل أربعة نفر بيتا , فلا يطعمون ولا يسقون , حتى إذا هلكوا من الجوع أطعمت اثنين وسقيتهما فعاشا , وتركت اثنين فماتا ! فعرف إبراهيم أن له قدرة بسلطانه وملكه على أن يفعل ذلك . قال له إبراهيم : فإن ربي الذي يأتي بالشمس من المشرق , فأت بها من المغرب ! فبهت الذي كفر , وقال : إن هذا إنسان مجنون , فأخرجوه ! ألا ترون أنه من جنونه اجترأ على آلهتكم فكسرها , وأن النار لم تأكله ؟ وخشي أن يفتضح في قومه - أعني نمرود - وهو قول الله تعالى ذكره : { وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه } 6 83 فكان يزعم أنه رب . وأمر بإبراهيم فأخرج . 4588 - حدثنا القاسم , قال : ثنا الحسين , قال : حدثني حجاج , عن ابن جريج , قال : أخبرني عبد الله بن كثير أنه سمع مجاهدا يقول : قال : أنا أحيي وأميت , أحيي فلا أقتل , وأميت من قتلت . قال ابن جريج , كان أتى برجلين , فقتل أحدهما , وترك الآخر , فقال : أنا أحيي وأميت , قال : أقتل فأميت من قتلت , وأحيي , قال : استحيي فلا أقتل . 4589 - حدثنا ابن حميد , قال : ثنا سلمة , قال : ثني محمد بن إسحاق , قال : ذكر لنا والله أعلم : أن نمرود قال لإبراهيم فيما يقول : أرأيت إلهك هذا الذي تعبده , وتدعو إلى عبادته , وتذكر من قدرته التي تعظمه بها على غيره , ما هو ؟ قال له إبراهيم : ربي الذي يحيي ويميت . قال نمرود : فأنا أحيي وأميت . فقال له إبراهيم : كيف تحيي وتميت ؟ قال : آخذ رجلين قد استوجبا القتل في حكمي , فأقتل أحدهما فأكون قد أمته , وأعفو عن الآخر فأتركه وأكون قد أحييته . فقال له إبراهيم عند ذلك : فإن الله يأتي بالشمس من المشرق , فأت بها من المغرب , أعرف أنه كما تقول ! فبهت عند ذلك نمرود , ولم يرجع إليه شيئا , وعرف أنه لا يطيق ذلك . يقول تعالى ذكره : { فبهت الذي كفر } يعني وقعت عليه الحجة , يعني نمرود .

والله لا يهدي القوم الظالمين

وقوله : { والله لا يهدي القوم الظالمين } يقول : والله لا يهدي أهل الكفر إلى حجة يدحضون بها حجة أهل الحق عند المحاجة والمخاصمة , لأن أهل الباطل حججهم داحضة . وقد بينا أن معنى الظلم : وضع الشيء في غير موضعه , والكافر : وضع جحوده ما جحد في غير موضعه , فهو بذلك من فعله ظالما لنفسه . وبنحو الذي قلنا في ذلك قال ابن إسحاق . 4590 - حدثنا ابن حميد , قال : ثنا سلمة , قال : ثني محمد بن إسحاق : { والله لا يهدي القوم الظالمين } أي لا يهديهم في الحجة عند الخصومة لما هم عليه من الضلالة

بداية، لابد – نحن نرى- من تفنيد هذا الفكر السائد، الذي يتسم – برأينا- بالسذاجة الممزوجة بالتخريف والتحريف، ومن ثم محاولة إيجاد فهم بديل ربما يكون أكثر وجاهة ومنطقية، وذلك لأن "تخريصات" أهل الدراية هذه لا تختلف (نحن نرى) في شكلها ومضمونها كثيرا عن ما جاء في بطون كتب بني إسرائيل، والقارئ الذي يريد المجادلة مدعو للبحث في المصدرين معا، ليرى رأي العين أوجه التشابه بينهما.

على أي حال، نحن نرى أن هناك منطلقات تفكير بسيطة جدا ربما تفند جلّ ما جاء في كتب التفاسير هذه، وهي التي تدعي أنها تفسّر ما جاء في كتاب الله، وهي في الحقيقة (نحن نزعم القول) "تسرق" من مؤلفات الأمم الأخرى، وتدعي أنها أفهام حقيقية لأهل الدراية من أبناء المسلمين لما في كتاب الله، نذكر منها:

أولا، ظن أهل الدراية – كما نقل لنا أهل الرواية- أن هذا الذي آتاه الله الملك هو ملك في العراق اسمه النمرود بن كنعان: نمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح ، أليس كذلك؟

السؤال: هل فعلا كان ذلك الرجل الذي آتاه الله الملك فحاج إبراهيم ملك من ملوك العراق؟
رأينا المفترى، نحن إذ لا نعلم من أين جاءهم العلم وكيف عرفوا اسم الرجل غير بطون كتب يهود، لنشكك بالقصة من برمتها، وذلك لأن قصة إبراهيم في قومه معروفة في كتاب الله، فالذي حآج إبراهيم هناك والذي أقدم على حرق إبراهيم هم قومه وليس ملك محدد من بينهم:

- وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ (80)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: حصلت المحاججة في أرض العراق بين إبراهيم وقومه، ولم يحصل محاججة بين إبراهيم ومن آتاه الله ملكا في أرض العراق. لذا وجب التفريق بين محآججة إبراهيم قومه في أرض العراق ومحاججة إبراهيم هذا الذي آتاه الله الملك. وذلك لأنه لما حصلت المحاججة بين إبراهيم وقومه، كان إبراهيم حتى الساعة لازال (نحن نتخيل) فتى، غير معروف بين القوم، بدليل أنه لما سأل القوم عن من فعل هذا بآلهتهم، ذكروا إبراهيم بصيغة التنكير:

- قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (60) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (61) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (62)

ولو دققنا أكثر في السياق القرآني لوجدنا أن القوم كانوا يعبدون آلهة لهم، أليس كذلك؟

- قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59)

السؤال: ما الذي يمكن أن نستنبطه من ذلك؟
رأينا المفترى: لما كان القوم يعبدون آلهة لهم، لذا يستحيل (نحن نفتري القول) أن يكون الملك فيهم (إن وُجِد) يدعي أنه قادر على الإحياء والإماته، كما فعل من حاج إبراهيم في ربه:

- أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258)

والأهم من هذا كله – برأينا- هو أنه ما أن خرج إبراهيم من النار (بفضل من ربه) لا يصيبه أذى، حتى كان قراره ترك المكان كلّيا والهجرة إلى ربه:

- فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (26)
- قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (97) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (98) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (99)

فكانت نجاته إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين:

- وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (71)

لنخلص إلى التخيلات المفتراة التالية التي هي لا شك من عند أنفسنا عن ما حصل مع إبراهيم في أرض العراق: لما كان إبراهيم في أرض العراق كان لازال فتى غير معروف بين القوم، وكان القوم يعبدون آلهة لهم، هم

يظنون (نحن نعتقد) أنها هي الكفيلة بالإحياء والإماته، ولم يكن القوم تحت سيطرة ملك محدد، وإلا لما غاب كليا عن الحاجة التي جرت بين إبراهيم من جهة وقومه من جهة أخرى بعد حادثة تجذيذ الأصنام. لأن المحاجة في هذا الوقت كانت بين إبراهيم من جهة وقومه من جهة أخرى. وما أن أخرج الله إبراهيم سالما لا يصيبه أذى من النار، حتى هاجر إبراهيم إلى الأرض المباركة، فما حصل لقاء (نحن نفتري القول) بين إبراهيم وملك في أرض العراق قط. انتهى.

وإن الذي يدعو إلى التندر والسخرية في مثل تفسيرات أهل الدراية من أبناء المسلمين هو افتراءهم القول بأن هذا "الملك" الذي حاج إبراهيم قد عاقبه الله أربعمائة عاما، ليكون السؤال هو: كم يا ترى كانت أعمار الناس في زمان إبراهيم؟ أهي نفس الكذبة التي ألحقوها بنوح؟ من يدري؟!

(انظر مقالتنا تحت عنوان: كم لبث نوح في قومه؟)

والذي يدعو إلى الضحك (بل التبسم ضحكا من قولهم) هو طريقة العقاب الإلهي لهذا "الملك":

ففتح عليه بابا من البعوض , فطلعت الشمس , فلم يروها من كثرتها , فبعثها الله عليهم فأكلت لحومهم , وشربت دماءهم , فلم يبق إلا العظام , والملك كما هو لم يصبه من ذلك شيء . فبعث الله عليه بعوضة , فدخلت في منخره , فمكث أربعمائة سنة يضرب رأسه بالمطارق , وأرحم الناس به من جمع يديه وضرب بهما رأسه . وكان جبارا أربعمائة عام , فعذبه الله أربعمائة سنة كملكه , ثم أماته الله

السؤال: أين الدليل يا أهل الدراية على هذه ...؟

الفهم البديل

سنحاول تقديم تصورنا لهذه الحادثة كما فهمناها من منطوق النص القرآني، ثم نترك للقارئ الكريم مهمة المفاضلة بين تخريصاتنا هذه مع ما وصلهم من علم عظيم من عند سادتنا أهل الدراية كما نقلها لنا أهل الرواية. ونقول مسبقا للمنافحين عن إرث الآباء أن القول الفصل بيننا دائما هو قوله تعالى:

- **قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (25)**

أما بعد،

نحن نظن أن حياة إبراهيم في أرض العراق لم تستمر ساعة واحدة بعد أن أخرجه الله من النار سالما معافى، فكانت هجرته إلى ربه، وكانت نجاته إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين، ولم يصحبه إلى هناك من أهل العراق إلا لوطا:

- **وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (71)**

وهناك في تلك الأرض المباركة، بدأ إبراهيم حياة جديدة، فشكل إبراهيم بنفسه أمة هناك:

- **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120)**

السؤال: من هو هذا الذي حآج إبراهيم في ربه إذن، إن صح ما تزعم؟ يسأل صاحبنا.

جواب مفترى: نحن نعتقد أن الذي حاج إبراهيم في ربه لم يكن ملكا (كما ربما ظن الجميع) ولكنه كان هو الذي آتاه الله الملك.

السؤال: وما الفرق بين أن يكون ملكا أو أن يكون الله قد آتاه الملك؟

جواب مفترى من عند أنفسنا (1): نحن نظن أن من كان ملكا هو من جاءه الملك بالوراثة ممن سبقه. فالذي يرث ملكا من والده يكون ملكا، وذلك لأن المُلك قد جاءه تحصيل حاصل دون جهد يبذله من تلقاء نفسه.

جواب مفترى من عند أنفسنا (2): نحن نظن أن من آتاه الله الملك هو من تحصل على الملك بجهد منه، ولم يأتيه الملك بطريقة الوراثة.

خروج عن النص:

لذا فإنني أعارض بشدة وأعيب على "شيخ مسجدنا" الذي يقرأ في الصلاة الجهرية في بعض الأحيان الآية الرابعة من سورة الفاتحة مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) على نحو "ملك يوم الدين" في مخالفة صارخة لصريح اللفظ والرسم القرآني، قال تعالى:

- **بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (1) الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ (7)**

افتراء خطير من عند أنفسنا: الله ليس ملكا ليوم الدين ولكنه مالك يوم الدين

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لأن الملك لم ينتقل إلى الله انتقالا وراثيا، ولكن الله هو من له الملك الأبدي:

- **يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (16)**

وبهذا المنطق المفترى من عند أنفسنا نحن نفهم لم كانت المرأة في سبأ تملك قومها، ولكنها لم تكن ملكة:

- **إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23)**

فالمرأة لم ترث ملكا ممن سبقها ولكنها حازت على الملك بجهد شخصي منها، فأصبحت بذلك مالكة لقومها وليست فقط ملكة عليهم.

كما افترينا الظن من عند أنفسنا سابقا أن الملك له حيازة عامة بينما المالك هو صاحب الحيازة الخاصة. (للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته)

عودة على بدء

كان الذي حاج إبراهيم في ربه هو شخص آتاه الله الملك (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ)، لذا فهو قد حاز على الملك بجهد شخصي منه وليس بالوراثة عمن سبقه. ولو كان الرجل فعلا ملكا، لجاء اللفظ القرآني (نحن نكاد نجزم القول) على ذلك النحو كما هي الحال في قصة الملك أيام يوسف في أرض مصر:

- **وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (43)**

فالرجل في زمن يوسف كان "ملكا" لأنه حاز على الملك بالوراثة عمن سبقه، ولو لتحصل له الملك بالجهد الشخصي لجاء اللفظ كما في حالة الذي حاج إبراهيم في ربه:

- **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258)**

السؤال: كيف تحصل لهذا الرجل الملك مادام أن والده لم يكن ملكا من قبله مثلا؟

جواب مفترى: كان الله هو من آتى هذا الرجل الملك، انظر الآية الكريمة مرة أخرى:

- **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258)**

السؤال: لماذا كان كافرا مادام أن الله هو من آتاه الملك؟

جواب: نحن نظن أن هذا الرجل قد تصرف بنفس المنطق الذي تصرف به قارون. فبالرغم أن الله هو من آتاه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة:

- **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76)**

إلا أن الرجل جحد وأنكر تلك النعمة الإلهية، ونسب الفضل بذلك لنفسه:

- **قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78)**

السؤال: لماذا أنكر قارون هذه النعمة التي كان الله هو من آتاه إياها؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: إنه العلم. انظر الآية مرة أخرى:

- **قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78)**

نتيجة مفتراة مهمة جدا: عندما يُؤتي الله بعض عباده نعمة من عنده، قد تكون النتيجة الجحود ثم الكفر، وذلك لأن الشخص قد يظن أن الفضل يعود فيما حصل عليه إلى ما عنده من علم. فلقد ظن قارون أن ما تحصّل له من الكنوز هو نتيجة العلم الذي كان عنده (قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي). تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: بالمنطق نفسه، نحن نظن أن هذا الرجل الذي آتاه الله الملك قد اعتقد (مخطئا) أن ما تحصل له من الملك كان الفضل يعود فيه إلى ما عنده من العلم، فأنكر مصدر هذا العلم، ونسبه إلى نفسه بالضبط كما فعل قارون.

السؤال: ما هو العلم الذي كان عند هذا الرجل حتى أنكر فضل الله فيه؟

جواب مفترى خطير جدا جدا لا تصدقوه: إنه علم الحياة والموت:

- **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ...**

السؤال: أين الدليل على ذلك؟

رأينا المفترى: بداية، لابد أن نكف عن التخريفات والتخريصات التي وجدت في بطون أمهات الكتب التفسير التي صوّرت قدرة هذا الرجل على الإحياء والإماتة على النحو التالي:

قال : لما خرج إبراهيم من النار , أدخلوه على الملك , ولم يكن قبل ذلك دخل عليه فكلمه , وقال له : من ربك ؟ قال : ربي الذي يحيي ويميت , قال نمرود : أنا أحيي وأميت , أنا أدخل أربعة نفر بيتا , فلا يطعمون ولا يسقون , حتى إذا هلكوا من الجوع أطعمت اثنين وسقيتهما فعاشا , وتركت اثنين فماتا ! فعرف إبراهيم أن له قدرة بسلطانه وملكه على أن يفعل ذلك . قال له إبراهيم : فإن ربي الذي يأتي بالشمس من المشرق , فأت بها من المغرب ! فبهت الذي كفر , وقال : إن هذا إنسان مجنون , فأخرجوه

ألا ترى – عزيزي القارئ- أن في هذا القول من السخافة ما يدعو إلى الحنق والضحك في آن واحد؟ وهل هذا فعلا يستحق أن يكون موضوع حديث لمثل هذا الرجل الذي سطّر الله قصته في كتابه العزيز؟ ألا يستطيع أي ملك آخر أن يفعل ذلك؟ ألا يستطيع الإنسان العادي فعل ذلك؟ وماذا لو قررت أنا أن أصبح مجرما، ألا استطيع أن أقتل من أريد وأترك من أريد؟ من يدري؟!

السؤال: هل تظن - عزيزي القارئ- أن مثل هذا المنطق يمكن أن يُسكِت إبراهيم؟ فلِم لم يرد إبراهيم على ذلك بالقول بأن هذا ما يستطيع أي شخص أن يفعله؟ والتساؤل الأهم – برأينا- هنا هو: هل كان إبراهيم يقصد ذلك عندما قدّم هذه الحجة للرجل في بداية الحوار؟

- **... إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ...**

السؤال: ما الذي كان يقصده إبراهيم من حجته تلك؟ وهل اختلف اللفظ في رد الرجل؟

- **... قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ...**

السؤال المربك: لماذا نقرأ فعلي الإحياء والإماتة في حالة الرجل بمعنى يختلف عن معناهما في حالة الذات الإلهية؟ فهل اختلف اللفظ في الحالتين؟

جواب مفترى من عند أنفسنا خطير جدا لا تصدقوه: نحن نظن أنه مادام أن اللفظ لم يتغير في حجة إبراهيم (رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ) عن رد الرجل (أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ) بالنسبة للإحياء والإماتة، فإننا نفتري القول من عند أنفسنا أن ما كان يستطيع هذا الرجل أن يفعله بشأن الإحياء والإماتة هو بالضبط ما يستطيع الله نفسه أن يفعله بالإحياء والإماتة. انتهى.

نتيجة مفتراة خطيرة جدا جدا: نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن الرجل كان يستطيع أن يقوم بفعل الإحياء والإماتة كما لو أن الله نفسه هو من فعل ذلك.

الدليل

نحن نجد الدليل على افترائنا هذا من سلوك إبراهيم نفسه، وقد تمثل في أمرين اثنين:

1. سكوت إبراهيم عن الرد، والتحول إلى حجة أخرى، وهي مجيء الشمس من المشرق:

- **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258)**

2. طلب إبراهيم لاحقا من الله أن يريه كيف يحي الموتى:

- **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (260)**

ولو تدبرنا السلوك الأول لوجدنا فيه العجب: فإبراهيم يقول بأن الله هو من يأتي بالشمس من المشرق، ويطلب من الرجل أن يأتي بها من المغرب، عندها يبهت الذي كفر، أليس كذلك؟

السؤال: أين العجب في هذا؟

جواب مفترى: لو صحّ منطق أهل الدراية ممن سبقونا، ولو كنت أنا مكان ذلك الرجل، لرددت على إبراهيم على النحو التالي: كلا، ذلك ليس ربك (يا إبراهيم) الذي يجيء بالشمس من المشرق، بل أنا من يجيء بها من هناك، فدع ربك هو الذي يأتي بها من المغرب.

السؤال: ما الذي يستطيع إبراهيم أن يفعل حينها؟ كيف سيقنع إبراهيمُ الرجلَ أن الله هو من يفعل ذلك؟

رأينا المفترى: كلا وألف كلا، نحن نظن أنه لما بهت ذلك الرجل لم يكن بمقدوره أن يرد على إبراهيم هكذا.

السؤال الخطير جدا جدا: لماذا؟

جواب: لأن المحآججة بين الرجلين قد تمت عن علم لا يمكن أن يرقى إليه الشك.

السؤال: ما معنى ذلك؟

جواب مفترى مهم جدا جدا (1): نحن نظن أن الرجل كان يستطيع أن يبرهن لإبراهيم أنه يحيي ويميت

جواب مفترى مهم جدا جدا (2): ونحن نظن أن إبراهيم كان يستطيع أن يقدم البرهان للرجل بأن الله هو الذي يأتي بالشمس من المغرب.

نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا: إن صح هذا المنطق المفترى من عند أنفسنا، لم يكن من المحتمل أن يكذّب أحدهما الآخر. فلم يرد إبراهيم دعوى الرجل لأنه برهن له ذلك، ولم يرد الرجل حجة إبراهيم لأنه قدم له البرهان على ذلك.

تخيلات مفتراة: وبكلمات أخرى، نحن نتخيل ما جرى بين الرجلين على النحو التالي: يقدّم إبراهيم الحجة بأن ربه هو الذي يحيي ويميت (إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ)، فتأتي المفاجأة كالصاعقة على رأس إبراهيم بأن هناك من يستطيع القيام بذلك غير الله، وهو هذا الرجل (قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ)، فيقدم الرجل لإبراهيم الدليل العملي على قدرته تلك على الإحياء والإماته. وهنا يتحول إبراهيم إلى تقديم حجة جديدة هي أن الله هو الذي يأتي بالشمس من المشرق (قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ) ويطلب من الرجل

أن يأتي بها من المغرب (فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ)، ولما كان إبراهيم يستطيع أن يبرهن للرجل ذلك فعلا، لم يكن بمقدوره أن يرد حجة إبراهيم هذه، وهنا بالضبط يبهت الذي كفر (فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ).

الدليل

لو تدبرنا سلوك إبراهيم بعد هذه الحادثة لوجدنا فيه العجب. ويتمثل ذلك – برأينا- بالشك الذي أخذ يتسرب إلى قلب إبراهيم من جديد. فبالرغم أن إبراهيم قد خرج من أرض العراق بقلب سليم:

- **إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (84)**

إلا أن هذه الحادثة قد أعادت بذور الشك لتنمو في قلب إبراهيم من جديد، بدليل الحوار الذي دار بين إبراهيم وربه بخصوص إحياء الموتى في الآيات التي تلي ذلك:

- **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (260)**

فالمتدبر لهذا السياق القرآني يجد أن قلب إبراهيم الذي كان سليما قد أصابه خلل من جديد، فأصبح بحاجة أن يطمئن. ونحن نفتري الظن بأن المحاججة التي جرت بين إبراهيم من جهة وهذا الذي آتاه الله الملك من جهة أخرى هي ما سببت عدم اطمئنان قلب إبراهيم.

لمّا أدرك إبراهيم أن هناك من يقدر على فعل الإحياء والإماتة (كما يفعل ربه)، تدارك إبراهيم الموقف بحجة أخرى، مفادها أن الله الذي يؤمن به له قدرات أخرى غير الإحياء والإماتة، فاستعان بها فورا، ليرى (نحن نظن) حجم قدرات الرجل الذي حآجّه، فكانت حجة إبراهيم الأخرى هي قدرة الله على أن يأتي بالشمس من المشرق، فطلب من الرجل أن يأتي بها المغرب، وهنا بالضبط بُهت الرجل وهو الذي كفر بنعمة ربه.

السؤال: لماذا بُهت الذي كفر هنا؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الرجل قد بُهت لعجزه عن القيام بمثل ذلك.

السؤال: لماذا أنصاع الرجل للأمر؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نظن أن سبب بهتان الرجل بعد هذه الحجة لأن إبراهيم (نحن نكاد نجزم الظن) قد قدّم له بالدليل العملي كيف يأتي الله بالشمس من المشرق، فما استطاع الرجل أن يكذّب دعوى إبراهيم.

ولو تفقدنا طريقة خطاب إبراهيم مع الرجل، لوجدنا فيها العجب باستخدامه للألفاظ. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في الآية مرة أخرى:

- **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258)**

السؤال: أين الدقة في الألفاظ في كلام إبراهيم؟

جواب مفترى: عندما كان الحديث جار بين الرجلين عن قضية الإحياء والإماتة، جاء اللفظ من إبراهيم على النحو التالي:

- **... إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ...**

ولكن عندما تحول الموضوع إلى قضية الشمس، جاء اللفظ على لسان إبراهيم على النحو التالي:

- ... قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ...

فالمدقق في اللفظ يجد على الفور أن إبراهيم قد نسب الفعل الأول (الإحياء والإماتة) إلى ربه، بينما نسب الفعل الثاني (مجيء الشمس من المشرق) إلى الله. انظر التقابل بين الحالتين مرة أخرى:

- ... إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ...
- ... قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ...

السؤال: لماذا؟

جواب: لأن الأرباب متفرقون، بينما الله فهو الواحد القهار، كما جاء على لسان يوسف في خطابه صاحبي السجن:

- يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (39)

نتيجة مفتراة خطيرة جدا جدا لا تصدقوها: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا أن قضية الإحياء والإماتة متعلقة بقدرات الرب (أي من كان ربا)، ومادامت كذلك، فيمكن (نحن نستنبط القول) لكل من كان ربا (أو زعم أنه ربا) أن يقدر عليها، لذا هناك من يقدر على الإحياء والإماتة غير الله مادام أن هناك أرباب من دونه.

نتيجة مفتراة: الإحياء والإماتة من قدرات الرب، لذا فهي تقع في باب الإيمان بالربوبية

لكن مجيء الشمس من المشرق – بالمقابل- متعلقة (نحن نفتري القول) بقدرات الواحد القهار، أي الله، فلا يقدر على فعل ذلك أحد إلا الله.

السؤال: هل أدرك الرجل الذي حاج إبراهيم ذلك؟

جواب مفترى: نعم، بكل تأكيد، لقد أدرك الرجل أن هناك أفعالا يقدر عليها من كان ربا (كالإحياء والإماتة) ولكن هناك أيضا أفعال محددة لا يقدر عليها إلا من كان إلها. وهذا (برأينا) ما جعله يُبهت. انتهى.

وسنرى لاحقا (إن أذن الله لنا بشيء من علمه في ذلك) تبعات هذا الطرح على قدرات فرعون وهو من ظن أنه ربا:

- فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)

وهو من زعم أيضا أنه إلها:

- وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)

(دعاء: فالله وحده أسأل أن يعلمني ما لا ينبغي لغيري، إنه هو الواسع العليم، وأعوذ به أن يكون أمري كأمر فرعون، إنه هو الغفور الرحيم – آمين)

التساؤلات:

⇐ كيف برهن الرجلُ لإبراهيم أنه يستطيع أن يحيي ويميت؟

⇐ كيف برهن إبراهيمُ للرجل أن الله هو من يأتي بالشمس من المشرق؟

جواب مفترى 1: نحن نظن أن الرجل كان بيده الآلية التي يستطيع أن يبرهن لإبراهيم (ولغيره) من خلالها أنه قادر على فعلي الإحياء والإماتة.

جواب مفترى 2: نحن نؤمن أن إبراهيم كان بيده الآلية التي يستطيع أن يبرهن للرجل (ولغيره) بواسطتها بأن الله هو من يأتي بالشمس من المشرق.

السؤال القوي: هل تستطيع أن تبين لنا الآلية التي استخدمها كل واحد منهما إن صح ما تزعم؟ يسأل صاحبنا.

جواب مفترى: نعم، استطيع ذلك.

التحدي: هات ما عندك إن كنت تستطيع ذلك إذن!

رأينا المفترى: لكي استطيع تبيان ذلك، فلابد بداية من الوقوف على المكان الذي حصلت فيه المحاججة بين الطرفين.

السؤال: لماذا نحتاج التعرف على المكان أولا؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: لأن الأدوات التي برهن بها كل طرف على صدق دعواه لا تزال موجودة حتى الآن في المكان نفسه.

السؤال: وأين ذلك المكان؟

جواب مفترى خطير جدا: إنها أرض مصر الخالدة. انتهى.

السؤال: وأين حصل ذلك في أرض مصر؟

جواب مفترى خطير جدا: في البقعة الجغرافية التي لازالت أثارها دالّة على ذلك.

السؤال: وأين هي؟

جواب: إنها أرض الأهرامات الخالدة

تخيلات مفتراة: نعم، في تلك البقعة الجغرافية حصلت المواجهة بين إبراهيم من جهة وذلك الرجل الذي آتاه الله الملك من جهة أخرى. وهناك لازالت تقبع أدوات العلم التي برهن بها كل طرف على صدق حجته للطرف الآخر. فالأدوات التي استخدمها الرجل لإثبات قدرته على الإحياء والإماتة لازالت موجودة هناك، وكذلك الأدوات التي استخدمها إبراهيم لإثبات حجته بأن الله هو من يأتي بالشمس من المشرق لازالت موجودة حتى الآن هناك.

السؤال الأول: ما هي أدوات العلم التي برهن بها الرجل الذي آتاه الله الملك على أنه قادر على الإحياء والإماتة؟

السؤال الثاني: ما هي أدوات العلم التي برهن بها إبراهيم على حجته بأن الله هو من يأتي بالشمس من المشرق؟

جواب مفترى 1 خطير جدا جدا: لقد برهن الرجل على صدق حجته بالأهرامات

جواب مفترى 2 خطير جدا جدا: لقد برهن إبراهيم على صدق حجته بأبي الهول الدليل

السؤال: كيف استخدم الرجل الأهرامات لإثبات قدرته على الإحياء والإماتة؟

جواب مفترى: لما كنا نفتري الظن بأن الأهرامات هي أوتاد، بدليل قوله تعالى:

- **وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10)**

كانت هذه الأهرامات بمثابة الجبال بالنسبة للأرض:

- **أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (6) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (7)**

باب: الجبال أوتادا

لو عدنا إلى قصة إبراهيم مع ربه بخصوص كيفية الإحياء والإماتة، لوجدنا على الفور أن الله هو من طلب من إبراهيم أن يأخذ أربعة من الطير فيجعل على كل جبل منهن جزءا، ومن ثم يدعوهن بعد ذلك، لتكون النتيجة أن يأتينه سعيا:

- **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (260)**

وهنا نتوقف لنثير تساؤلات (نحن نظن أنها) غاية في الخطورة لما سيترتب عليها من نتائج نظن أنها ربما غير مسبوقة، نذكر منها:

⇐ لماذا طلب الله من إبراهيم أن يضع تلك الطير على الجبال؟
⇐ لماذا لم يتم الأمر مباشرة؟
⇐ ما دخل الجبال بقضية الإحياء والإماتة؟
⇐ الخ

أما بعد،

نحن نطلب من أصحاب القلوب المؤمنة إيمانا مطلقا بدين الآباء أن يتوقفوا عن القراءة هنا فورا، فكلامنا القادم موجّه فقط للباحث عن الحقيقة ليتبع ما أنزل الله من الحق بغض النظر عن المقدمات والعواقب:

- **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ (170)**
- **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (21)**

(دعاء: اللهم أدعوك وحدك أن تنفذ قولك بمشيئتك لي بأن أكون متبعا لما أنزلت من الحق، وأعوذ بك وحدك أن أكون ممن يؤثرون ما ألفوا آباءهم عليه، وأسألك أن أكون ممن يعقلون فيهتدون، وأعوذ بك أن أفتري عليك الكذب أو أن أقول عليك ما ليس لي بحق، إنك أنت العليم الخبير – آمين)

أما بعد،

نحن نجلب انتباه القارئ بداية إلى ضرورة أن يقرأ ما جاء في سلسلة مقالاتنا تحت عنوان ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود...لأن الافتراءات المتوافرة هنا تشكل – برأينا- أساسيات الفهم لما سنتجرأ عليه من افتراءات قادمة ربما تكون غير مسبوقة في هذا الجزء من المقالة.

السؤال: ما قصة الجبال في قضية الإحياء والإماتة؟

لما كنا نعتقد يقينا بأن كل شيء في كتاب الله مقصود بذاته، وهو ما لا يمكن أن يقع في باب المصادفة، لزم علينا طرح هذا التساؤل الخاص بعلاقة الجبال في قضية الإحياء والإماتة، فالله هو من طلب من إبراهيم أن يجعل على كل جبل من تلك الطير التي صرهن إليه جزءا، ومن ثم يدعوهن ليأتيهن من هناك سعيا. وهذا الواقع الذي حصل يجبرنا على طرح التساؤلات التالية:

- ⇐ لم لم يري إبراهيم كيفية إحياء الموتى بطريقة أخرى؟
- ⇐ لم كانت الطير هي فقط مجال التجريب العملي؟
- ⇐ لم لم يطلب الله من إبراهيم أن يضع تلك الطير أمامه ليرى بأم عينه كيفية إحياء الطير في بث حي ومباشر من هناك؟
- ⇐ لم لم يطلب الله من إبراهيم أن يضعهن في واد ثم يدعهن ليأتينه من هناك؟
- ⇐ لم لم يطلب الله من إبراهيم أن يضعهن على صخرة أمام مجموعة من الناس ليشهدوا أيضا على الموقف؟
- ⇐ الخ.

جواب مفترى: نحن نظن أنه لم يكن بالإمكان فعل أي من هذه السيناريوهات المقترحة، كما نؤمن أنه بالاستحالة بمكان أن يتم الأمر على غير ما تم عليه، ولكن لماذا؟

السؤال الأول: لم لم يري إبراهيم كيفية إحياء الموتى بطريقة أخرى؟

جواب مفترى: لو رجعنا إلى النص القرآني لوجدنا أن قضية إحياء الموتى قد تمت بطرق أخرى، فهذا عيسى بن مريم مثلا يخلق لمن حوله من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا:

- **وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِىءُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (49)**

فلم إذن (نحن نتساءل) لم تتم العملية لإبراهيم بهذه الطريقة؟ من يدري؟!

وهذا الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها يريه الله كيف يحيي القرية بعد موتها في بث مباشر أمام ناظريه:

- **أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِي هَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259)**

فلم إذن (نحن نتساءل) لم تتم العملية لإبراهيم بهذه الطريقة؟ من يدري؟!

رأينا المفترى: نحن نظن أنه لم يكن ممكنا أن تتم العملية لإبراهيم بهذه الطرق إطلاقا؟

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لأن إبراهيم (نحن نظن) كان يريد أن يرى بأم عينه كيف يحيي الله الموتى ليتأكد مما فعله الرجل الذي حآجه؟

سؤال: لم أفهم شيئا، ما الذي تريد أن تقوله؟ يسأل صاحبنا مستغربا.

جواب مفترى: نحن نعتقد أن إبراهيم قد طلب من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى بنفس الآلية التي قام بها الرجل الذي حاجه، ليتأكد بأن الفعل الذي قام به الرجل الذي حاجه يقع فعلا في باب إحياء الموتى. فإبراهيم (نحن نتخيل) يريد مقارنة ما فعله الرجل من إحياء الموتى بما يفعله الله نفسه في القضية نفسها.

السؤال: وهل فعلا قام الرجل (كما تزعم) بفعل الإحياء والإماتة أمام ناظري إبراهيم؟ يسأل صاحبنا مرة أخرى.

جواب مفترى: نعم، لقد فعل الرجل ذلك أما ناظري إبراهيم.

السؤال: وكيف حصل ذلك؟

جواب مفترى خطير جدا: نحن نظن أن الرجل قد فعل ذلك من خلال التقنية المتوافرة في الأهرامات، والتي استطاع الرجل أن يستفيد منه على علم منه.

السؤال: وما هي تلك التقنية؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نظن أن الأهرامات هي عبارة عن صروح عملاقة لالتقاط الطاقة من الفضاء. انتهى.

تخيلات مفتراة: كانت الأهرامات (نحن نظن) من صناعة عاد التي لم يخلق مثلها في البلاد. وكانت الغاية من تشييد تلك الصروح العملاقة هي تجميع الطاقة من الفضاء الخارجي، ثم تخزينها في قواعد تلك الأهرامات، للاستفادة منها في أغراض كثيرة، أهمها علم الإحياء والإماتة.

السؤال: من أين حصلوا على العلم بذلك؟

جواب مفترى: من الجبال

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب مفترى: لقد توصلت عاد إلى ما نعتقد أنه حقيقة قرآنية، مفادها أن الجبال بحد ذاتها (نحن نفتري القول) كينونة منفصلة عن الأرض، لها غاية محددة يمكن معرفتها والاستفادة منها، والآية الكريمة التالية تشير - حسب فهمنا - إلى الدليل الذي يمكن أن يثبت زعمنا هذا، قال تعالى:

- **إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (72)**

فهذه الآية الكريمة تبين (كما نفهمها طبعا) حقيقة جلية تتمثل بأن الله تعالى قد عرض الأمانة (قبل أن يحملها الإنسان) على ثلاث كينونات هي:

⇐ السماوات

⇐ الأرض

⇐ الجبال

رأينا المفترى: نحن نزعم القول أن الآية الكريمة تتحدث عن كينونات ثلاثة، مختلفة ومنفصلة عن بعضها البعض، اختلافاً يجعل كل واحدة منها مؤهلة لحمل الأمانة التي عرضها الله عليها لو أنها تقبلتها، فلو تقبّلت الجبال مثلاً حمل الأمانة، لكانت الجبال (ولا شيء غير الجبال) مسئولة عنها، ولما كانت الأرض حينها ستحاسب عليها، والعكس صحيح بالنسبة للسماوات والأرض، فلو تقبلت الأرض حمل الأمانة لما كانت الجبال أو السموات مسئولة عن تحمل تبعات قرار الأرض، وهكذا.

ولقد جاء هذا الفصل بين الأرض من جهة والجبال من جهة أخرى في أكثر من موقع في كتاب الله، قال تعالى:

- وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (14)

فلو كان الأرض والجبال كينونة واحدة (أو كتلة واحدة) لما تطلب الفصل بينهما في هذه الآية الكريمة مادام أن المصير واحد (فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً). إن أبسط ما يمكن استنباطه من هذه الآية الكريمة هو أن الجبال والأرض كينونتان متصلتان لكنهما منفصلتان و مختلفتان عن بعضهما، وإلاّ لانتفت – في ظننا- الحاجة إلى ذكرهما ككينونتين منفصلتين.

ولو أمعنا التفكر في الآية الكريمة التالية لربما تأكد الظن عندنا بضرورة الفصل بين هاتين الكينونتين، قال تعالى:

- وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدً (47)

فالله يخبر عن ذلك اليوم الذي ستسيّر فيه الجبال ولا تسيّر فيه الأرض، ولكنها ستكون حينئذ بارزة فقط.

وقد وردت فكرة حركة الجبال (دون الأرض) في أكثر من سياق قرآني آخر:

- وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (3)
- وسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً (20)
- وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً (10)

ولا يتوقف الأمر عند تسير الجبال دون الأرض، ولكن مصير كل منهما يختلف عن مصير الآخر. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- إلى ما ستؤول إليه الجبال على وجه التحديد كما تصور ذلك الآيات الكريمة التالية:

- وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (10)
- وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً (105)

والآيات الكريمة التالية تشير إلى أن مصير الأرض غير مصير الجبال، ففي حين أن الأرض ستنشق، فإن الجبال ستخر هدّا:

- تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً (90)

وفي حين أن الأرض سترجف فإن الجبال ستصير كثيباً مهيلا:

- يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً (14)

السؤال: ما هي الجبال؟

رأينا المفترى: نحن نفتري القول بأن الجبال هي أوتاد:

- أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (6) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (7)

السؤال: ما هو الوتد؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الوتد هو ما يبرز إلى الأعلى بعد أن يكون هناك ما يثبته في باطن الأرض كما في وتد الخيمة (أو TENT PEG باللسان الأعجمي) كما في الشكل التوضيحي التالي:



فما يظهر من هذا المثبّت فوق سطح الأرض فهو ما (نظن) أنه يجب أن يسمى وتدا. أما ما يدخل في باطن الأرض، فهو ليس وتدا وإنما هو (برأينا) مرساة، لذا فإن الجبال التي هي أوتاد قد تم إرسائها في داخل الأرض:

- **وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (32)**

فأصبح هناك جبال (وهو الجزء الذي يظهر فوق الأرض)، وأصبح هناك رواسي (وهو الذي يغوص في باطنها) كما في الشكل التوضيحي التالي:



ونحن نرى ضرورة التفريق بين الكينونتين لما سيترتب على ذلك من أفهام مفتراة من عند أنفسنا لاحقا. فدعنا أولا نقرأ الآيات الكريمة ذات العلاقة، لنخرج (بحول الله وتوفيق منه) باستنباطات نظن أنها غاية في الأهمية لأغراض التفريق بين المفردتين.

أولاً، الجبال يمكن أن يراها الإنسان بأم عينه:

- **وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (88)**

الجبال يمكن أن يتخذ الناس منها بيوتاً:

- **وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ. (82)**
- **وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ. النحل(81)**

ويمكن أن تتخذ منها الكائنات الأخرى كالنحل مثلاً بيوتا:

- **وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ. (68)**

ويمكن أن يؤوي إليه الإنسان برجليه كما ظن ابن نوح:

- **قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43)**

أما الرواسي فهي – بالمقابل- تلك الأجزاء الداخلية المتجذّرة في بطن الأرض حيث لا يمكن رؤيتها، ولا يمكن للنحل أن تتخذ منها بيوتا، ولا نستطيع نحن أن ننحت منها بيوتا لأنفسنا، ولا يمكن لأي شخص أن يؤوي إليها.

ولو دققنا النظر في الآية الكريمة التالية لوجدنا أن الجبال هي تلك الكينونة التي تظهر فوق السطح، فالآية الكريمة تؤكد أن ما يشبه "شكل الجبل" يمكن أن يتكون على سطح الماء كما كان الحال يوم طوفان نوح:

- **وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (42)**

ولو تفقدنا الآيات الخاصة بالرواسي كما جاءت في كتاب الله، لوجدنا (حسب فهمنا لها) أنها (كما الجبال) ليست جزءا من الأرض. فعند استعراض الآيات الكريمة التي تتحدث عن الرواسي نجد الفصل واضحاً بين الأرض من جهة والرواسي من جهة أخرى:

- **وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (19)**
- **وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (15)**
- **وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون (3)**
- **وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ (10)**
- **خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (10)**

(للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان: "ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته (4)"

افتراء من عند أنفسنا: نحن نزعم الظن بأن الله قد خلق السموات والأرض خلقا، بينما جعل الرواسي والجبال جعلا.

السؤال: ما معنى ذلك؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الجبال والرواسي لم تكن موجودة عند مرحلة الخلق (أي لحظة أن خلق الله السموات والأرض)، فالله لم يذكر الجبال والرواسي عند خلقة السموات والأرض.

الدليل

جاء ذكر "خلق الأرض والسموات" في سياقات كثيرة من كتاب الله الكريم، فقال تعالى:

- **إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (54)**

- **إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (36)**
- **إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ (3)**
- **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (3)**
- **الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً (59)**
- **أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60)**
- **خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (44)**
- **إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ**

إن ما نودّ أن نجلب انتباه القارئ الكريم إليه هنا هو أنّ العرش كان (قبل خلق السموات والأرض) على الماء:

- **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۗ وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (7)**

لم نجد آية واحدة في كتاب الله تشير بأن الجبال قد أوجدت بطريقة الخلق، ولكنها جاءت بصيغة الجعل، فما الذي يمكن أن نفهمه من ذلك؟

السؤال: لماذا لم تكن الجبال حاضرة عندما خلق الله السموات والأرض؟ وبكلمات أخرى نسأل: لماذا لم يجعل الله الجبال إلا بعد أن خلق السموات والأرض؟

جواب مفترى: يقودنا هذا التساؤل على الفور للحديث عن الهدف الذي من أجله أوجد الله الجبال أصلاً، فلا شك عندنا أن الله قد أوجد الجبال لغاية مهمة أنيطت بها.

السؤال: ما هي المهمة التي انيطت بالجبال؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الهدف من إيجاد تلك الكينونة (أي الجبال) بطريقة الجعل بعد أن خلقت الأرض كان –نحن نزعم القول- من أجل تثبيت الأرض، فجاء إيجاد الجبال- برأينا- لكي تحمي الأرض من الحركة العمودية (فلا تبرز إلى الأعلى). فإذا ما سيرت تلك الجبال حتى تصبح الأرض بارزة:

- **وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (47)**

السؤال: ما دور الرواسي؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الرواسي (الجزء الداخلي من تلك الكينونة الكبيرة) تعمل على تثبيت الأرض فلا تتحرك حركة أفقية، فلا تميد بنا الأرض:

- **وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (15)**
- **وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (31)**

- **خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (10)**

نحن نستطيع تبسيط الصورة بالقول أنه لو لم يكن هناك رواسي لتحركت الأرض بالاتجاهات الأربعة (شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً)، فالرواسي تشد كتلة الأرض معاً لتبقيها كتلة واحدة متماسكة، ولو دققنا في اللفظ أكثر لوجدنا أن مفردة الرواسي لم تفرد في القرآن الكريم (أي لم ترد بصيغة المفرد)، فهناك دائماً رواسي، ولو حاولنا ربط ذلك بحجم الرواسي (حيث أنها كتل ضخمة داخل الأرض)، لربما خرجنا بالاستنباط الذي مفاده أن الرواسي جميعها كتلة متصلة مع بعضها البعض، أي أنها جميعها تمثل كتلة واحدة مرتبطة ممتدة داخل الأرض، تمنع الأرض من أن تميد بنا، وبكلمات أخرى فهي تعمل على منع الأرض من التحرك أفقيا بأي اتجاه.

منطقنا المفترى: ما أن خلقت السموات والأرض، ودعت الحاجة إلى تثبيت الأرض بعد ارتفاع العرش عنها، حتى أنزل الله تلك الكينونة الهائلة التي عملت على تثبيت الأرض، وعندما دخل جزء منها في باطن الأرض حصل التحول، فجعل الجزء الذي ألقي في الأرض رواسي. وبقي جزء آخر فوقها فجعل جبالاً.

نتيجة مفتراة: نستطيع القول الآن أن الرواسي تعمل على حماية الأرض من أن تميد بنا (أي حتى لا تتحرك أفقياً), وأن وظيفة الجبال هي حماية الأرض من أن تبرز (فلا ترتفع إلى الأعلى).

والقرآن الكريم لم يفرد الرواسي (ويذكرها على الدوام بصيغة الجمع)، ولا يصورها على أنها أنواع متعددة، فهي على الدوام في كتاب الله على نوع واحد فقط. أما الجبال - بالمقابل- فجاءت في النص القرآني بصيغة الجمع (جبال) وبصيغة المفرد (جبل) كما بيّنت الآيات الكريمة، ونحن نكاد نجزم الظن أن هناك أكثر من نوع واحد من الجبال، فهناك ثلاث أنواع من الجبال كما نفهم ذلك من الآية الكريمة التالية:

- **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (27)**

(للتفصيل أنظر مقالتنا السابقة: وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ)

عودة على بدء:

لما كانت الجبال أوتادا، كانت هي عبارة عن لواقط للطاقة القادمة من الفضاء الخارجي، بالضبط كما يفعل لاقط الموجات الكهرومغناطيسية في الآلات الكهربائية كالتلفزيون والراديو والتلفون، الخ. وما أن يقوم الجبل بالتقاط تلك الطاقة حتى يعمد إلى تخزينها في الداخل، أي في الرواسي، فتصبح تلك الرواسي عبارة عن مجمعات للطاقة (أو بطاريات بالمفردات الدارجة).

السؤال: ما الفائدة من ذلك؟

جواب: لتدب الحياة في الكتلة كلها (أي الكرة الأرضية جميعها).

السؤال: وما الفائدة من ذلك؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نظن أن ذلك هو ما يجعل الكرة الأرضية كلها قادرة على الحركة.

السؤال: وكيف يتم ذلك؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الأرض لا تتحرك ولكن الحركة هي للجبال فقط، بدليل قوله تعالى:

- **وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (88)**

السؤال: ما معنى أن الجبال ليست جامدة كما نحسبها؟

جواب مفترى: لأنها تمر مر السحاب، أي قادرة على الحركة.

السؤال: ما الذي يجعل الجبال على وجه التحديد قادرة على الحركة؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الطاقة التي تلتقطها الجبال من الفضاء الخارجي وتقوم بتخزينها في رواسيها هي ما يجعلها غير جامدة، قادرة على الحركة، فتمر مر السحاب، فهذا هو صنع الله الذي أتقن كل شيء.

السؤال: ما هي تلك الطاقة التي تلتقطها الجبال من الفضاء؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: إنها الروح

تخيلات مفتراة: ترتفع الجبال عن سطح الأرض على شكل لواقط للطاقة (أي الروح)، فتدب الحياة فيها، فلا تعود جامدة كما يحسبها الناظر إليها، فتقوم تلك الطاقة الروح، بتحريك تلك الكينونة في حركة منتظمة، تعمل على تحريك الكتلة كلها (أي الأرض جميعا) بفعل حركة الجبال نفسها.

السؤال: ما الذي سيحصل لو أن تلك الجبال قد نسفت كما سيحصل يوم القيامة:

- **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (105)**

جواب مفترى: ستنتهي تلك الحركة، وستتوقف الكتلة عن الحركة كليا.

عودة على بدء

السؤال: ما علاقة هذا كله بقصة إبراهيم مع ربه في قضية إحياء الموتى:

- **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (260)**

جواب مفترى خطير جدا: لما كانت الطاقة الروح هي ما تلتقطه تلك الجبال من الفضاء الخارجي، كان لزاما على إبراهيم أن يضع تلك الطير على رؤوس الجبال، وهناك يتم بث الطاقة (الروح) في تلك الطير التي صرهن إبراهيم إليه، وهناك تنبعث الحياة فيهن من جديد، فتكون النتيجة أن يأتين إبراهيم سعيا.

السؤال: ما علاقة هذا كله بقصة إبراهيم مع ذلك الذي حاجه في ربه؟

- **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258)**

جواب مفترى: نحن نفتري الظن بأن الرجل كان يستطيع القيام بذلك ولكن من خلال أوتاده هو، أي من خلال الأهرامات التي هي فعلا أوتادا:

- **وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10)**

السؤال: كيف كان يفعل ذلك؟

رأينا المفترى: كان الرجل يعلم أن تلك الأهرامات هي لواقط للطاقة، وأن رواسيها التي تغوض في داخل الأرض هي مخازن لتلك الطاقة (أي الروح) التي تم التقاطها، كما نفتري الظن بأنه كان يعلم كيف يستطيع استغلال تلك الطاقة في بث الحياة من جديد في الأشياء التي ماتت.

السؤال: وكيف يفعل ذلك؟

تخيلات مفتراة: نحن نظن أن الرجل كان يستطيع تفريغ تلك الطاقة في أدوات يتم من خلالها بث الحياة في الأجسام التي توضع بها

السؤال: ما هي الأدوات التي كان الرجل يستخدمها من أجل تفريغ الطاقة؟

جواب: إنه قضيب تفريغ الطاقة

السؤال: وما هو ذلك القضيب؟

جواب: إنه العصا.

تخيلات مفتراة: نحن نتخيل أن الرجل كان قادرا على تفريغ جزء من تلك الطاقة التي التقطتها الجبال وخزنتها في رواسيها في عصاه، التي نظن أنها تشبه في فعلها ما كانت عصا موسى تفعله بعد أن ألقيت في النار، فعادت سيرتها الأولى.

السؤال: كيف يمكن أن نتصور ذلك؟

رأينا المفترى: دعنا نقدم للقارئ الكريم الجدارية التالية التي وصلتنا سابقا من عند صاحبنا عصام درويش من أرض مصر، وهي الجدارية التي نظن أنها تصور تلك المحاججة الشهيرة بين إبرايهم (الفتى) وذلك الذي آتاه الله الملك، ثم نعود بعد ذلك للحديث عن تفاصيل آلية فعل تلك العصا المشحونة التي تظهر بيد ذلك الملك:



السؤال: كيف كان ذلك الرجل يستطيع إحياء الموتى باستخدامه تلك العصا التي بيده؟

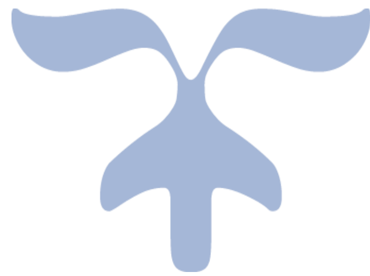
جواب: هذا ما سنحاول تبيانه بحول الله وتوفيق منه في الأجزاء القادمة من هذه المقالة (إن أذن الله لنا بشيء من علمه فيها.

فالله وحده أسأل أن ينفذ مشيئته وإرادته لي الإحاطة بشي من علمه لا ينبغي لغيري، إنه هو العليم الحكيم، وأن يزدني علما وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا. وأدعوه وحده أن يؤتيني رشدي، وأعوذ به أن يكون أمري كأمر فرعون، إنه هو العليم الخبير – آمين.



قصة يونس

الجزء الثلاثون



قصة يونس: الجزء الثلاثون

كان الحديث في الجزء السابق من هذه المقالة منصبّا حول الآية الكريمة التالية:

- **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258)**

وبناء على فهمنا المفترى لمنطوق الآية الكريمة، خرجنا بافتراءات هي لا شك من عند أنفسنا، ظننا أنها غير مسبوقة بخصوص قصة المحاججة الشهيرة التي جرت بين إبراهيم وهذا الذي آتاه الله الملك.

وكانت أبرز الافتراءات التي قدمناها حينئذ تتمثل بالنقطتين الرئيسيتين التاليتين:

⇐ برهن الرجلُ لإبراهيم أنه يستطيع أن يحيي ويميت

⇐ برهن إبراهيمُ للرجل أن الله هو من يأتي بالشمس من المشرق

فلقد افترينا الظن من عند أنفسنا بأن هذا الرجل الذي آتاه الله الملك كان يملك بيده الآلية (أو لنقل الأداة) التي يستطيع بواسطتها أن يبرهن لإبراهيم (ولغيره) أنه قادر على فعلي الإحياء والإماتة.

كما افترينا الظن من عند أنفسنا بأن إبراهيم كان بيده الآلية (أو لنقل الأداة) التي يستطيع من خلالها أن يبرهن للرجل (ولغيره) بأن الله هو من يأتي بالشمس من المشرق.

وقد دفعنا فهمنا هذا (ربما الخاطئ للقصة) أن نقدم الافتراءات الأكثر خطورة التالية:

افتراء خطير جدا (1): نحن نظن أن الرجل قد برهن قدرته على الإحياء والإماتة من خلال العلم المكنوز في الأهرامات

افتراء خطير جدا (2): نحن نظن أن إبراهيم قد برهن على صدق حجته بأن الله هو من يأتي بالشمس من الشرق بالعلم الكنوز في أبي الهول

وسنتابع في هذا الجزء من هذه المقالة حديثنا عن العلم المكنوز في الأهرامات الذي استطاع الرجل أن يستفيد منه في تطوير قدرته على الإحياء والإماتة، ثم ننتقل في بحول الله وتوفيق منه للحديث عن العلم المكنوز في أبي الهول الذي استخدمه إبراهيم للتدليل على صدق حجته بأن الله هو من يأتي بالشمس من المشرق. سائلين الله وحده أن يأتينا رشدنا، وأن يعلمنا ما لم نكن نعلم، وأن يزيدنا علما، وأن يهدينا لأقرب من هذا رشدا، ونعوذ به أن نفتري عليه الكذب أو أن نقول عليه ما ليس لنا بحق، إنه هو العليم الخبير – آمين.

أما بعد،

باب الأهرامات

لا شك عندنا أن هذه الصروح الخالدة في أرض مصر العظيمة هي اللغز الأكبر للبشرية كلها، ولا شك عندنا أن فيها من الأسرار ما قد يعجز الخيال أن يتصوره، ونحن نؤمن عقائديا بأن انكشاف هذه الأسرار ستؤدي في نهاية المطاف إلى الوصول إلى نور الله، ومن ثم خروج الناس من الظلمات إلى النور بإذن الله وحده.

كما نؤمن يقينا في الوقت ذاته بأن رجال الدين قد حاولوا على مرّ الزمان أن يخفوا هذه الأسرار عن الناس لأن في انكشاف ما في الأهرامات من العلم الحقيقي سيبيّن للعامة من الناس زيف العقائد التي يروج لها

كل طرف على حساب الطرف الآخر، ونحن نجزم القول بأن خطابنا هذا موجه إلى رجال الدين في العقائد السماوية الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام. فهم جميعا – بالنسبة لنا- من حاولوا على الدوام ثني الناس عن تدبر آيات الله. فالله وحده نسأل أن ينفذ مشيئته لنا بالهداية إلى نوره الذي أبى إلا أن يتمه، ليجعل كلمةَ اللذين كفروا السفلى، وكلمتُه التي يخرجنا بها من الظلمات إلى النور بإذنه هي العليا، إنه هو السميع البصير – آمين.

وسنحاول في هذه المقالات تبيان رؤيتنا (ربما المغلوطة) لما نعتقد أنه يمثل حقيقة هذه الصروح الخالدة وما تحويه من علم عظيم، عزّ نظيره على وجه الأرض. وسنحاول في هذا السياق تستطير افتراءات نظن أنها غير مسبوقة، ونعتقد جازمين في الوقت ذاته أن افتراءاتنا هذه لن تروق لكل المنافحين عن إرث الآباء من أهل الدين في العقائد السماوية الثلاث، لكننا على يقين بأنها قد تروق لمن لهم آذن يسمعون بها أو أعين يبصرون بها أو قلوب يعقلون بها، فلا يكونون كالأنعام بل أضل سبيلا.

فللمدافعين عن إرث آبائهم الموجود في بطون الكتب الصفراء المقدسة عندهم بحبرها وورقها نقول: دعكم من هرائنا هذا، واذهبوا لتنهلوا من معين العلم في بطن تلك الكتب العظيمة.

أما لمن يجد عنده الوقت الكافي لإضاعته في بعض التسلية الفكرية نقول: دعنا ننطلق من هنا (إن أذن الله لنا بشيء من علمه فيها) بتقديم بعض الافتراءات الخطيرة جدا، ثم ننظر في نهاية المطاف ما ستؤول إليه الأمور بحول الله وتوفيق منه. ولا ننسى أن نذكّر الجميع بعقيدتنا الراسخة التي مفادها أنه إن أصبنا فذلك بفضل الله ونعمة منه وحده، وإن أخطأنا فذلك من أنفسنا ومما كسبت أيدينا، فنحن نجزم القول أن ما نقدمه من افتراءات لا تدلّ بأي حال من الأحوال على ما هو موجود فعلا في كتاب الله، ولكنها تدل فقط على فهمنا نحن لما في كتاب الله. لذا نحن نرجو من كل من سيقرأ ما ستسطره أيدينا هنا من افتراءات أن لا يبخل علينا بالرأي والنقد، الذي سيؤدي (لا شك عندنا) إلى تصحيح الخطأ والمضي قدما بالصواب (إن وجد) إلى الأمام، ولهم من الله وحده الأجر، ومنا الثناء والشكر.

أما بعد،

الافتراء الخطير جدا جدا رقم (1): كان الصراع الأعظم في الكون على مرّ التاريخ بين منطقتين جغرافيتين على الأرض، وهما الأرض المقدّسة (أرض الرب الحقيقي) ومصر (أرض الأرباب المتفرقون من دون الله). انتهى.

وينبثق من هذا الافتراء الخطير جدا منطلقات تفكير متفرعة نذكر منها:

⇐ الأرض المقدسة هي أرض الرب الحقيقي
⇐ مصر هي أرض أرباب متفرقون من دون الله
⇐ ما هو موجود في الأرض المقدسة هو علم الإله
⇐ ما هو موجود في مصر هو علم الأرباب المتفرقون من دون الله
⇐ ما هو موجود في أرض مصر من العلم هو محاكاة للعلم الإلهي الذي سطره في الأرض المقدسة إله هذا الكون الأوحد، واستغله الأرباب المتفرقون في أرض مصر لمصالحهم الذاتية
⇐ ظن من كان ربا في أرض مصر أن هذا العلم هو من عندهم، فما نسبوا الفضل فيما عندهم من علم إلى الإله الحقيقي (الله)
⇐ حصل صراع بين إله الأرض المقدسة وأرباب مصر

⇐ كانت عاد هي أول من توصل إلى هذا العلم الإلهي، فاستفادوا منه في إنشاء حضارة لا مثيل لها على مر التاريخ
⇐ كنزت عاد هذا العلم في صروحها (وخاصة الأهرامات)
⇐ توصل بعض الناس في أرض مصر من بعد عاد إلى ما هو مكنوز في الأهرامات من علم عظيم، فظنوا أنه علم من عندهم
⇐ استخدم بعض الطغاة هذا العلم للسيطرة على من حولهم؛ فاستخفوا قومهم، فأطاعوهم
⇐ كان الذي حآج إبراهيم في ربه واحدا من هؤلاء اللذين توصلوا إلى بعض العلم المكنوز في الأهرامات (خاصة علم الإحياء والإماتة)، فظن أنه ربا
⇐ كان فرعون هو من حاز على القسط الأكبر من هذا العلم، فظن أنه ربا وظن أنه إلها، فاستخف قومه فأطاعوه
⇐ بعث الله الرسل إلى هؤلاء لثنيهم عن ضلالتهم، فما نجحت المهمة.
⇐ كان إبراهيم هو أول من حاول ثني هذا الذي آتاه الله الملك عن ضلالته، فما نجحت مهمته
⇐ عاد إبراهيم إلى أرض الرب (الأرض المقدسة)، بطلب من هذا الذي آتاه الله الملك، فما حصل صراع علني على الملأ بين الرجلين
⇐ كانت مهمة موسى وأخيه هارون تتمثل في ثني فرعون عن ضلالته، فما نجحت مهمتهما
⇐ لم يترك فرعون موسى وأخاه هارون ليذهبا ببني إسرائيل إلى الأرض المقدسة، فحصلت المواجهة الفعلية بين الطرفين على الملأ
⇐ تدخل الإله (رب الأرض المقدسة) في الصراع الذي دار بين الطرفين
⇐ انتهت المواجهة بين رب مصر (فرعون) ورب الأرض المقدسة (الله) بانتصار الرب الحقيقي على الرب الذي كفر
⇐ حصلت المواجهة بين إله الأرض المقدسة الحقيقي وإله مصر الذي كفر في البحر
⇐ الخ.

باب: مصر هي أرض الأرباب المتفرقون من دون الله

لو تفقدنا النص القرآني على مساحته، لما وجدنا أن هناك من أدعى الربوبية من الناس إلا من كان من أهل مصر. فلا نجد أنه قد برز من قوم نوح مثلا رجل محدد بعينه يدعي أنه ربا، أو أنه إلها. ولا نجد من الناس من أدعى أنه ربا في أرض العراق في زمن إبراهيم، فصحيح أن الناس في زمن إبراهيم كانوا يتخذون من الأصنام أربابا ليعبدوهم:

- **إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (70) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (71)**

إلا أنهم لم يتخذوا من بينهم من الناس من يكون ربا عليهم يدينون له بالعبادة كما فعل فرعون مثلا، أو كما كان يفعل من كان رفيقا ليوسف في السجن في أرض مصرا:

- **يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (39)**

كما لا نجد أحدا من الناس قد سكن الأرض المقدسة وأدعى الربوبية لنفسه، وهكذا. لنخلص إلى النتيجة التي مفادها (كما نفهمها) أن أرض مصر هي الأرض الوحيدة التي ظهر فيها من الناس من أدعى لنفسه الربوبية أو الإلوهية وكان على رأسهم فرعون نفسه:

- **فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)**
- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)**

السؤال: لماذا ظهر في أرض مصر من الناس من ظن أنه ربا؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نظن أنه لابد لمن أراد أن يدّعي أنه ربا أو أنه إلها أن يملك من المقومات ما يؤهله لمثل هذا الإدعاء، حتى يستطيع أن يقنع من حوله بأنه كذلك. فحتى الرسل الذي جاءوا أقوامهم بالرسالة كان التحدي الأول الذي واجههم هو إثبات صدق دعواهم لمن حولهم الذي طالبوهم بذلك:

- **قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (106)**
- **لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (7)**
- **مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (154)**
- **فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (187)**
- **قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22)**

فما بالك بمن قال لمن حوله أنه إله فصدّقوه (كفرعون مثلا)؟

- **فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)**
- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)**

ألا يحتاج من يدعي الربوبية أو الإلوهية لنفسه (نحن نسأل) أن يملك من المقومات ما يجعل القوم جميعا يطيعوه؟

- **فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54)**

السؤال: كيف استطاع فرعون استخفاف كل قومه؟ فهل كان القوم (كلّ القوم) على درجة من التخلف العقلي (كما يتصور ذلك الفكر الشعبي) تجعل شخصا واحدا من بينهم قادرا على استخفافهم جميعا؟

رأينا المفترى: لو تدبرنا الآية السابقة في سياقها الأوسع، لوجدنا ما يؤيد حجة فرعون في قومه

- **وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54)**

فالآيات تدل بما لا يدع مجالا للشك أن فرعون كان يملك المقومات التالية:

⇐ هو من له ملك مصر جميعا
⇐ كانت الأنهار تجري من تحته على مرأى من القوم جميعا
⇐ كان فرعون قادرا أن يبين، فظن أنه خير من هذا الذي ظن فرعون أنه مهين فلا يكاد يبين
⇐ كان قد ألقي على فرعون أسورة من ذهب
⇐ كان هناك من يؤيد فرعون، كتأييد الملائكة للإله الواحد

تخيلات مفتراة: لهذه الأسباب، وبهذه المقومات، استطاع فرعون (نحن نفتري القول) أن يقنع من حوله أنه ربهم الأعلى، وأنه هو إلههم الأوحد، فلا إله لهم غيره كما زعم، وسنتعرض لهذه "المقومات الفرعونية" تباعا بحول الله وتوفيقه لاحقا.

لكن السؤال الذي نظن أنه يجب أن يُطرح على الفور هنا هو: ما علاقة هذا كله بأرض مصر؟ أو لماذا برز من أهل مصر على وجه التحديد من ادعى لنفسه الربوبية والإلوهية كما فعل فرعون مثلا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لأن في أرض مصر من العلم ما يمكن أن يؤهل من يصل إليه أن ينسب لنفسه الربوبية أو الإلوهية

السؤال: وأين هذا العلم في أرض مصر؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: إنها تلك الصروح العملاقة التي لا تزال موجود في الجيزة من أرض مصر الخالدة، أي الأهرامات. انتهى.

باب العلم المكنوز في الأهرامات

السؤال: ما هو العلم المكنوز في الأهرامات؟

جواب مفترى: للإجابة على هذا التساؤل، نجد لزاما التعرض بشيء من التفصيل لمن حاز على أكبر قسط من هذا العلم وهو فرعون نفسه. ليكون السؤال الذي نطرحه على الفور هو: ما هو العلم الذي كان عند فرعون؟

جواب مفترى: نحن نظن أن فرعون هو الشخص الأوحد على مدار البشرية كلها الذي استطاع (بجهده الشخصي) أن يصل إلى كل العلم المكنوز في الأهرامات، ونحن نزعم الظن بأن العلم الذي حاز عليه فرعون هو على النحو التالي:

رأينا المفترى 1: نحن نظن أن واحدة من الأسرار العلمية النفيسة التي تحويها تلك الأوتاد (أي الأهرامات) هو علم الفلك، حيث يكون تقدير الزمان والمكان، انتهى.

رأينا المفترى 2: كما نفتري الظن من عند أنفسنا بأن واحدة من الأسرار العلمية النفيسة التي تحويها تلك الأوتاد (أي الأهرامات) هو علم الحياة والموت، انتهى.

رأينا المفترى 3: ونحن نظن أيضا بأن واحدة من الأسرار العلمية النفيسة التي تحويها تلك الأوتاد (أي الأهرامات) هو علم تسخير الجآن، انتهى.

(دعاء: اللهم أدعوك وحدك أن تعلمني أحسن ما أنزل إلينا منك، وأعوذ بك أن يكون أمري كأمر فرعون، إنك أنت الرحمن الرحيم – آمين)

الدليل

دعنا نبدأ النقاش هنا بطرح التساؤل الذي أثرناه قديما في الأجزاء السابقة من هذه المقالة وهو: ما الغاية من خلق تلك الأبنية العملاقة؟

جواب مفترى: نحن نكاد نجزم القول بأن هذه الأهرامات التي هي من صناعة عاد الأولى، كانت عبارة (نحن نفتري الظن من عند أنفسنا) عن مصانع للخلود:

- وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129)

فالقوم - في تصورنا - لم يكونوا يعتقدون أنهم سيرجعون إلى الله، ولكنهم - لا شك عندنا- كانوا على عقيدة مفادها أنهم راجعون إلى الحياة بعد الموت، فكانوا يظنون (نحن لازلنا نتخيل) أن هذه الأرض هي مقرهم في الحياة الأولى وهي مستقرهم في الحياة الأخرى.

السؤال: كيف كانت تلك الأهرامات مصانع للخلود؟

رأينا المفترى: كانت عاد (نحن نفتري الظن) على درجة من العلم الذي أمدهم به الله، وانظر – إن شئت- عزيزي القارئ في قوله تعالى في سياق الحديث عن عاد:

- وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (132)

لتكون النتيجة المفتراة هنا هي: ما تحصل لعاد من العلم كان مصدره الله نفسه، فالله هو الذي أمدهم بذلك العلم.

وما دام الأمر كذلك، فالسؤال الذي نطرحه على الفور هنا هو: ما هو العلم الذي أمد الله به عاد؟

جواب: إنه علم الحياة الأخرى، أي الحياة من بعد الموت.

السؤال: أين الدليل على ذلك؟

رأينا: لو تفقدنا الآية السابقة في سياقها الأوسع، لوجدنا أن عادا كانوا يبنون بكل ريع آية، وكان الهدف من ذلك هو العبث:

- أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (128) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129)

ولو تفقدنا الآية الكريمة التالية لوجدنا أن من كان عابثا هو من حسب أنه لن يرجع إلى الله:

- أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: لمّا كانت عاد تبني بكل ريع آية من أجل العبث، فهم من ظنوا أنهم لن يرجعوا إلى الله، لذا عمدوا إلى بناء مصانع الخلود، وهذا المنطق المفترى من عند أنفسنا يقودنا إلى الظن بأنهم كانوا على درجة من العلم بسر الإحياء والإماتة، فهم – نحن نفتري الظن- يعلمون كيفية إحياء الموتى، ولكن ذلك كان يتطلب منهم بناء التقنية التي من خلالها يستطيعون تحقيق هذه الغاية، فكانت الوسيلة لتحقيق تلك الغاية هي تلك المصانع (أي تلك الأبنية العملاقة) التي هي مصانع للخلود:

- وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129)

وهي – برأينا- بمثابة الأوتاد كما الجبال:

- وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (7)

فكانت تلك الأهرامات مبنية لتكون أوتادا كما الجبال التي جعلها الله بنفسه.

ولو صحّ منطقنا المفترى الذي قدّمناه في الجزء السابق والذي مفاده بأن الجبال هي بحد ذاتها عبارة عن لواقط للطاقة (أي الروح) من الفضاء الخارجي، لخرجنا بالاستنباط الخطير المفترى من عند أنفسنا التالي: بنيت الأهرامات لتكون أدوات استقطاب الطاقة (الروح) من الفضاء الخارجي، في محاكاة واضحة للخلق الإلهي:

الخلق الإلهي	الخلق البشري (عاد)
الجبال (الأوتاد) مستقطبات الطاقة (الروح) من الفضاء الخارجي	الأهرامات (أوتادا) مستقطبات طاقة (الروح) من الفضاء الخارجي

وبناء على ذلك، تقوم هذه الصروح المستقطبة للطاقة (الروح) بتخزين تلك الطاقة التي التقطتها في مكان محدد، وهو - في ظننا- موجود في قواعدها (أي رواسيها)، مما يؤدي إلى شحن الكتلة كلها.

إن هذا الطرح يتطلب وجود الأدوات التالية:

1. اللاقط
2. الممر
3. المخزن

لذا، نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الهرم (الخارج من الأرض كالوتد) هو لاقط الطاقة (أي الروح)، ومن هناك (أي من قمة الهرم) يبدأ الممر الذي يوصل تلك الطاقة حتى ينتهي في قاعدة الهرم حيث يتم تخزين تلك الطاقة. وما أن يتم تخزين تلك الطاقة في مكان محدد حتى يصبح بالامكان الاستفادة من تلك الطاقة، وذلك عن طريق شحن الأجسام الأخرى. التي تدب بها الحياة حتى لو كانت ميتة. ونحن نظن أن هذا كان له الأثر في عدم إلحاق الأذى الجسدي بفرعون، وسنتحدث عن ذلك لاحقا بحول الله وتوفيقه عندما نتعرض لتحديد المكان الذي نستطيع أن نجد فيه مخزن الطاقة هذا في قاعدة الأهرامات. فالله وحده أسأل أن يمدنا بعلم منه، فلا نفتري عليه الكذب ولا نقول عليه ما ليس لنا بحق، إنه هو الغفور الرحيم – آمين.

السؤال: كيف يمكن تصور ذلك؟

لكي نتصور ذلك، فلابد من معرفة ماهية تلك الطاقة التي يتم التقاطها من الفضاء الخارجي. ونحن نكاد نجزم الظن بأن تلك الطاقة هي عبارة عن الروح المشغلة للحياة، فتدب الحياة في أي جسم متى ما نفخت فيه نفخا. وبذلك يشفى الجسم الذي لحق به الأذى. انتهى.

السؤال: كيف يمكن توضيح ذلك؟

جواب مفترى: نحن نظن أنه بالإمكان جلب الحادثة التي حصلت مع موسى في الواد المقدس للنقاش هنا من أجل تصوير ماهية تلك الطاقة التي يتم تخزينها في الأهرامات. ولكن كيف ذلك؟

جواب مفترى: لما أنهى موسى الأجل في مدين، سار بأهله متوجها إلى الأرض المباركة (للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان قصة موسى)، وعلى مقربة من الواد المقدس آنس من جانب الطور نارا:

- **فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29)**

وهنا نثير التساؤل التالي: ماذا كانت ماهية تلك النار التي آنسها موسى من جانب الطور؟

جواب مفترى: لو تفقدنا السياقات القرآنية في هذا المقام، لوجدنا أن النار كانت مصاحبة للمباركة:

- **فَلَمَّا جَاءهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (8)**

- **فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (30) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (31)**

لنطرح بناء على ذلك سؤالين اثنين، وهما:

⇐ لماذا كانت تلك البقعة مباركة؟

⇐ وكيف كان مباركا من في النار على وجه التحديد؟

جواب مفترى 1: لقد افترينا الظن في مقالات سابقة لنا أن المباركة لا تتم إلا بسبب الحضور الإلهي نفسه، لذا كانت تلك البقعة هي البقعة المباركة لأن الإله قد حضر هناك بنفسه.

جواب مفترى 2: أما المباركة لمن في النار، فقد حصلت لمن كانت متواجدا في داخلها (أي في داخل تلك النار)، وهو – برأينا- الروح.

الدليل

كان موسى متواجدا في تلك اللحظة في البقعة المباركة، فجاء الطلب الإلهي الأول من موسى على نحو أن يخلع موسى نعليه:

- **إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (10) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي يَا مُوسَى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12)**

الاستنباطات المفتراة بناء على فهمنا لهذا السياق القرآني هي:

⇐ يأنس موسى نارا

⇐ يطلب من أهله أن يمكثوا في مكانهم

⇐ يذهب موسى لوحده إلى المكان الذي آنس فيه النار

⇐ يصل موسى إلى ذلك المكان، فيجد النار

⇐ يحصل النداء لموسى

⇐ يعلم موسى أن الإله قد حضر هناك بنفسه

⇐ يطلب الإله من موسى أن يخلع نعليه فورا

⇐ يتواجد موسى في الواد المقدس خالعا نعليه حول النار في حضرة الوجود الإلهي

وقد افترينا الظن سابقا بأن السبب من وراء خلع موسى نعليه هناك على وجه التحديد هو حتى لا تدب الحياة في نعلي موسى، فلو لم يخلع موسى نعليه في ذلك المكان في تلك اللحظة، لدبت الحياة – نحن نفتري القول من عند أنفسنا- فيهما كما دبت الحياة في عصاه، ولخرج موسى من المكان بنعلين تدب فيهما الحياة كما حصل للعصا نفسها. لذا جاء الطلب الإلهي من موسى أن يخلع نعليه قبل الاقتراب من النار.

تخيلات مفتراة: هناك على مقربة من النار وقف موسى حول النار حافي القدمين، لا يحمل معه إلا عصاه، وعندها جاء السؤال الأول من الله نفسه موجها إلى موسى، فكان السؤال عن ما يحمل موسى بيمينه:

- **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17)**

فجاء جواب موسى على النحو التالي:

- **قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (18)**

فجاء الرد الإلهي على الفور أن يلقي بها:

- قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (19)

وما أن امتثل موسى للأمر الإلهي ملقيا عصاه في تلك النار حتى خرجت العصا بنفسها حية تسعى:

- فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (20)

إذن، نحن نتخيل بأن موسى قد ألقى بتلك العصا في النار بدليل أنها قد خرجت تهتز كأنها جآن، أليس كذلك؟

- **وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10)**
- **وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (31)**

فجاء التطمين الإلهي لموسى بأن لا يخاف وأنه من المرسلين:

- **وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10)**

وأعطى الله الأمان لموسى في تلك اللحظة:

- **وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (31)**

ما أن عاد موسى إلى المكان حول النار حتى كان الطلب الإلهي من موسى على النحو التالي:

- **قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (21)**

ولم يتوقف الأمر على العصا، بل جاءت موسى آية أخرى وهي أن يضمم موسى يده إلى جناحه لتخرج بيضاء من غير سوء:

- **وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (22)**

فكانت تلك (العصا وضم اليد إلى الجناح) من آيات الله الكبرى التي أراها الله موسى:

- **لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (23)**

وبهاتين الآيتين طلب الله من موسى الذهاب إلى فرعون الذي طغى:

- **اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (24)**

السؤال: ما الذي يمكن أن نستنبطه من هذا كله إذا ما أخذنا بعين الاعتبار فحوى النقاش هنا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن عصا موسى قد أصبحت حية تسعى بسبب إلقائها في النار، فالعصا – برأينا – قد اكتسبت الحياة من تلك النار، ليكون السؤال الآن هو: لماذا اكتسبت العصا الحياة من تلك النار؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: حصل ذلك نتيجة وجود الروح في داخل النار. فتلك الروح هي – برأينا- الطاقة المشغلة للحياة.

السؤال: كيف يمكن أن نتخيل ذلك؟

جواب مفترى: كانت تلك النار هي عبارة عن وعاء مملوء بالروح (الطاقة)، وما أن ألقى موسى عصاه في ذلك الحوض، حتى دبت الحياة فيها، فخرجت من النار حية تسعى.

عودة على بدء

السؤال: كيف استفادت عاد من ذلك في بناء الأهرامات؟

جواب مفترى: كانت عاد على علم أمدهم الله به، فبنوا تلك الصروح العملاقة في محاكاة واضحة للجبال، فأخذت تلك الصروح تلتقط الطاقة (الروح) من الفضاء الخارجي، وتقوم بتجميع تلك الطاقة في وعاء في قاعدة الهرم، وسنرى لاحقا (إن أذن الله لنا بشيء من علمه فيها) أن ذلك الوعاء هو ما يشبه الرحم (حيث تتولد الحياة)، وما أن يتم تجميع قدر كاف من الطاقة حتى يتم شحن المواد التي لا حياة فيها، بفعل تلك الطاقة التي شحنتها (أي الروح).

السؤال: ما علاقة هذا بفرعون؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: كان فرعون على علم بكيفية عمل تلك الأوتاد، فاستطاع الوصول إلى حوض الطاقة التي تجمعت بفعل عمل الأوتاد (الأهرامات)، فعمد إلى شحن الأداة التي سيستخدمها من أجل بث الحياة في ما يريد.

السؤال: وما هي تلك الأداة التي كان يشحنها فرعون من حوض الطاقة؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: إنها العصا. انتهى. وسنفتري القول من عندنا لاحقا أن تلك العصا التي شحنت بالطاقة تستطيع فعل ما يفعله قضيب الرجل في رحم المرأة.

ملاحظة مهمة جدا: أرجو أن لا يتعجل القارئ بفهم هذه العبارة كما يحلو له. فنحن مسئولون عن أقوالنا ولكنا غير محاسبين على أفهام غيرنا.

تخيلات مفتراة خطيرة جدا جدا: كان فرعون بيده عصا تشبه عصا موسى في شكلها وفي آلية عملها، وقد كان يستطيع أن يشحن تلك العصا بالطاقة، فتنقلب حية تسعى.

سؤال: أين الدليل على ذلك؟

جواب مفترى: ما أن ذهب موسى وأخوه هارون إلى فرعون حتى كان اللقاء الأول الذي تصوره الآيات الكريمة التالية:

- **اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (17) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى (18) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (19) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)**

لو تدبرنا هذا السياق القرآني لوجدنا أن أول ما فعله موسى عندما حصلت المواجهة المباشرة مع فرعون هو أنه قد أراه الآية الكبرى:

- **فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20)**

فكانت ردة فرعون على الفور على النحو التالي:

- **فَكَذَّبَ وَعَصَى (21)**

لنثير بناء على ذلك سؤالين اثنين وهما:

⇐ كيف كذب فرعون ما أراه موسى؟

⇐ وكيف عصى؟

جواب مفترى: نحن نظن أن فرعون قد كذب "أن ما أراه موسى (أي العصا) هي الآية الكبرى".

السؤال: إذا كان فرعون قد كذب أن ما في يمين موسى هي آية الله الكبرى، فلماذا عصى؟ ألا يكفي أن يكذب وكفى؟ فكيف به يكذب ويعصى أيضا؟

رأينا: لو رجعنا إلى قصة اللذين عصوا، لوجدنا أول العاصين كان إبليس نفسه:

- **يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44)**

ثم جاء آدم بالمعصية الأولى:

- **فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (121)**

وها هو فرعون يعصى:

- **وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91)**
- **فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا (16)**
- **فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21)**

ولو تفقدنا السياقات القرآنية على مساحة النص القرآني لما وجدنا المعصية تخص شخصا محددا بذاته إلا ما جاء في السياق القرآني التالي الذي يصور الحديث الذي دار بين موسى وأخيه هارون بعد عودة موسى من لقائه الثاني مع ربه:

- **قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (93)**

السؤال: لماذا؟

رأينا: لقد افترينا الظن في مقالات سابقة لنا بأن موسى قد ترك العصا مع أخيه هارون عندما أخلفه في قومه، لذا كان موسى قلقا أن يكون هارون قد استغل العصا التي أودعها موسى عنده، فعصى كما فعل غيره كإبليس وآدم وفرعون.

نتيجة مفتراة خطيرة جدا جدا: ما أن تكون المعصية محددة بشخص بذاته حتى تكون العصا حاضرة. انتهى.

السؤال: لماذا؟

جواب: لا يقدر على المعصية إلا من كان يملك الأداة التي تؤهله لمثل ذلك. لذا نحن نقدم الافتراءات التالية:

⇐ لا يستطيع إبليس أن يعصي ربه إلا بوجود أداة تمكنه من المعصية

⇐ عصى آدم ربه عندما امتلك أداة لتؤهله على ذلك

⇐ عصى فرعون ربه لأنه يملك الأداة التي تمكنه من المعصية

⇐ كان هارون مؤهلا للمعصية (حسب ظن موسى) لأن العصا كانت بحوزته

السؤال: ما هي أداة المعصية؟

جواب مفترى: إنها العصا. انتهى.

تخيلات مفتراة: كيف كذّب فرعون وكيف عصى في نفس الوقت؟

- **فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21)**

جواب مفترى خطير جدا: نحن نفتري الظن بأن فرعون قد كذب أن ما في يمين موسى هي الآية الكبرى وفي الوقت ذاته عصى لأنه كان يملك عصا تشبه العصا التي في يمين موسى، أي لقد كان في يد فرعون عصا مثل العصا التي في يد موسى.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: كان فرعون صاحب علم عظيم، وكان يستطيع الوصول إلى حقل الطاقة الموجود في داخل الهرم، فيقوم بشحن عصاه من هناك، فظن فرعون أن هذه التي يملكها هو هي الآية الكبرى. ولكن لما جاءه موسى بالآية الكبرى وأراه إياها، جن جنون فرعون، فكذب موسى بأن ما في يمينه هي فعلا الآية الكبرى، وفي الوقت ذاته أصر فرعون على موقفه بأنه هو وليس موسى من يملك تلك الآية.

السؤال: ماذا كان يفعل فرعون بتلك العصا؟ ولماذا ظن فرعون أنه هو من يملك تلك الآية؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: لقد كان فرعون يستطيع بتلك العصا أن يسخّر الجآن، وعلى رأسهم هامان

خروج عن النص في استراحة قصيرة: باب هامان (ملك الجآن)

السؤال الأول: لعل الطفل الصغير المولع بالشخصيات الكرتونية مثل سوبرمان وباتمان يريد أن يسأل والده أو والدته السؤال التالي: لماذا تُسمى هذه الشخصيات "الخيالية"، ذات القدرات الخارقة بهذه التسمية؟ أي لماذا اسمه سوبرمان (Superman)؟ ولماذا يُسمى باتمان (Batman)؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن ننصح الآباء أن يوصلوا لأبنائهم الجواب المفترى من عندنا التالي: هذه التسميات جاءت على منوال من تشبهوا به أصلا وهو هامان (الذي جاء ذكره في قصة فرعون هذا). فهؤلاء الشخصيات الخيالية كسوبرمان وباتمان يستطيعون القيام بأعمال خارقة على منوال الشخصية التي يحاولون تقليدها وهي شخصية هامان (Haman).

السؤال الثاني: وربما يريد الطفل أن يسأل والده أو والدته عن سليمان: لماذا سمى داوودُ ولدَه الوحيد "سليمان"؟ فما معنى أن يكون اسم نبي من أنبياء الله "سليمان"؟ أي ما معنى الاسم "سليمان"؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لقد سمى داوودُ ولده الوحيد بهذه التسمية ليكون – برأينا- الشخص البشري القادر على تسخير هامان ومن هم على شاكلته من الجن (والشياطين).

السؤال الثالث: وربما يريد كل شخص يقرأ في كتاب الله من أوله أن يسأل عن اسم من أسماء الله الحسنى وهو الرحمن؟ لماذا الرحمن اسم من أسماء الله الحسنى:

- **قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (110)**

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري القول أن الرحمن هو القادر على فعل ما هو خارق من الأفعال ، والتي لا يستطيع العقل البشري تصورها ببساطة، أو التعامل معها بواقعيته المعهودة (كالتي يمكن أن نتصورها من أفعل الجآن).

الدليل

لنقرأ الآية الكريمة التالية:

- **بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (1)**

السؤال: إذا كان الله هو "الله"، فلم هو الرحمن؟

جواب: غالبا ما سوّق الفكر الشعبي السائد للناس (كما خطته أقلام أهل الرواية عن أهل الدراية منهم) أن الرحمن مشتقة من الرحمة، وأن ذلك يعود إلى وجود صفة الرحمة المطلقة عند الله، ونحن إذ لا ننكر ذلك عليهم، لنود في الوقت ذاته أن نثير تساؤلا (نظن أنه شرعي) حول الآية الكريمة التالية التي جاءت على لسان إبراهيم مخاطبا والده:

- **يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45)**

السؤال: إذا كان الله هو الرحمن المتصف بالرحمة (كما نقل لنا أهل الرواية عن سادتنا العلماء أهل الدراية)، فكيف يتوافق ذلك مع إيقاع العذاب (عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن)؟ فهل من كانت صفته الرحمة يوقع العذاب بالآخرين؟ من يدري؟!!!

رأينا المفترى الخطير جدا جدا: نحن نظن أن الأمر ليس على هذه الشاكلة التي عهدناها من عند سادتنا أهل الدراية، مفترين القول من عند أنفسنا في الوقت ذاته أن الرحمن هو موقع للعذاب (عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن)، وأن ذلك لا يتماشى مع فكرة وجود الرحمة (كما يتخيلها الفكر الشعبي السائد).

السؤال: من هو الرحمن إذن؟ يسأل صاحبنا.

جواب مفترى من عند أنفسنا نظن أنه غير مسبوق: نحن نفتري القول أن الله هو الرحمن مشتقة من الرحم بمعنى الصلة (وسنتحدث عن ذلك لاحقا متى ما أذن الله لنا بشيء من علمه فيها. فالله أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم، لأنه هو العليم الحكيم)

السؤال: ما معنى مفردة الرحمن إذن؟ يسأل صاحبنا مستغربا

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الرحمن هو الإله الذي تتصل فيه على الفور وهو القادر على فعل الأمور الخارقة الخارجة عن نطاق المألوف عند البشر، وهو ما يقع في نطاق علم وفعل الجآن.

الدليل

لو رجعنا إلى قصة مريم التي أحصنت فرجها، لوجدنا الآية التالية التي تصور من كان تقيا:

- **قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (18)**

لنطرح التساؤل التالي حول هذه الآية الكريمة: لماذا استعاذت مريم بالرحمن منه؟ لِم لم تستعذ بـ "الله" منه مثلا؟ أي لم لم تقل مثلا:

- **إني أعوذ بالله منك إن كنت تقيا**

جواب مفترى: نحن نظن أن السبب في ذلك ربما يعزي إلى أنه قد جاءها في مكان عزلتها التي لا يستطيع البشر العاديون أن يصلوا إليه. فمن وصل إلى هذا المكان (أي الحجاب):

- **فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (17)**

لابد أن يكون تقيا، أي يستطيع أن يخفي نفسه عن الأنظار (للتفصيل حول هذه الجزئية، انظر مقالتنا كيف تم خلق عيسى بن مريم؟).

لذا لابد أن تلجأ مريم إلى من سيصلها على الفور، ولابد من تدخّل صاحب القوة الخارقة المطلقة بأن يخلصها منه مادام أنه استطاع أن يتقي عن أنظار الناس جميعا من حولها ويصل إليها في هذا المكان المنعزل، حيث هي متواجدة من دون قومها جميعا. فمن أراد أن يصل إلى مريم، فلابد أن يمر على قومها قبل أن يصل إليها، لذا كانت مريم تتعجب من كيفية وصول شخص عادي إلى حجابها دون أن يراه القوم الذين هي من دونهم جميعا. (للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان: كيف تم خلق عيسى بن مريم؟)

السؤال: بمن إذا ستستعيذ مريم من شخص كهذا؟

جواب مفترى: لابد لمريم أن تمد صلة مع صاحب القدرة المطلقة الخارقة، وهو – برأينا- الرحمن:

- **قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (18)**

ولو رجعنا إلى قصة سليمان مع تلك المرأة التي كانت تملك قومها في سبأ لوجدنا رسالة سليمان لها على النحو التالي:

- **قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (29) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30)**

السؤال: لماذا كانت رسالة سليمان مبدوءة بالتسمية (وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)؟ فأين الرحمة في ذلك وهو من طلب أن يأتوه مسلمين شاءوا أم أبوا؟

- **إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (31)**

أليس في ذلك تهديد واضح من سليمان لها ولقومها إن هم خالفوا الأمر الموجه إليهم في كتابه هذا؟

السؤال: لماذا إذن بدأ سليمان رسالته بالتسمية مادام أن التهديد (والعذاب) واقع بهم لا محالة إن هم لم يلبوا دعوته؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن سليمان قد أوصل للمرأة ولقومها الرسالة التي مفادها أنه يستعين بـ "الرحمن" عليهم، لذا نحن نتخيل سليمان يقول لهم أنه مؤيد بصاحب القدرة الخارقة التي لا قبل لهم بها، مهما بلغ بأسهم وقوتهم. ولو دققنا في القصة أكثر، لوجدنا أن المرأة كانت صاحبة عرش عظيم، أليس كذلك؟

- **إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23)**

لذا، نحن نظن أيضا أن سليمان قد أوصل لهذه المرأة الرسالة التي مفادها أنها وإن كانت صاحبة عرش عظيم، إلا أن هناك الرحمن هو رب العرش العظيم، فهو المستوي على العرش:

- **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (5)**
- **الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (59)**

فهو الإله الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء:

- **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (3)**
- **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (47)**

ونحن نتخيل أن المرأة قد فهمت رسالة سليمان على الفور، فما كان ردها على اقتراح قومها بالمقاومة:

- **قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (33)**

إلا على النحو التالي:

- **قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (34)**

ولو تفقدنا الآيات القرآنية التي جاء فيها ذكر لمفردة الرحمن، لوجدنا أن موضوع الجن (والشياطين) حاضر فيها:

- يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45)

ولو دققنا في الآيات الكريمة التي تتحدث أيضا عن مفردة الرحمن، لوجدنا أن القوة المطلقة الخارقة موجودة فيها أيضا. وسنقدم للقارئ الكريم هذه الآيات ونترك له مهمة تدبرها من هذا الجانب على أن نعاود البحث في هذا الموضوع لاحقا بحول الله وتوفيق منه متى ما أذن الله لنا بشيء من علمه فيها. قال تعالى:

- ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (69)
- قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا (75)
- قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا (75)
- أَاطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (78)
- يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (85)
- لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (87) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (88)
- إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (93) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (94)
- إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (96)
- تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (4) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (5) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (6)
- وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (90)
- يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَت الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (108) يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (109) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (110)
- وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (26)
- وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ (36)
- قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ (42)
- قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (112)
- الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (59)
- الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (59) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (60) تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (61) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (62) وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63)
- وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (5)

- قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (29) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30)
- إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (11)
- قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (15)
- أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونِ (23)
- قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (52)
- حم (1) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3)
- وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (19) وَقَالُوا لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (20)
- وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (33)
- وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36)
- وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَـٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (45)
- مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَـٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (33)
- الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (5) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (6) وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7)
- هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَـٰنُ الرَّحِيمُ (22)
- الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (3)
- أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَـٰنُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (19)
- أَمَّنْ هَـٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَـٰنِ ۚ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (20)
- قُلْ هُوَ الرَّحْمَـٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (29)
- رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَـٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (37)
- يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا (38)

عودة على بدء: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أما بعد،

من هو هامان هذا إذن؟ ولماذا يسمى هامان (Haman)؟ ولماذا كان يستطيع فرعون على وجه التحديد أن يلقي عليه الأوامر فينفذها له على الفور؟

جواب مفترى خطير جدا جدا لا تصدقوه: نحن نظن أن هامان لم يكن من جند فرعون إطلاقا، وذلك لأنّ هامان هذا كان له جنوده كما كان لفرعون نفسه جنوده، واقرأ – إن شئت- قوله تعالى:

- وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6)
- فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8)

فلو كان هامان (نحن نتساءل) من ضمن ملك فرعون، ولو كان هامان شخصا عاديا من ملأ فرعون، ولو كان هامان أحد وزراء فرعون (كما جاء في معظم كتب التفاسير التي لا نثق بها كثيرا)، فلِم كان له جنوده؟ هل يجوز أن يكون للوزير مثلا جنوده الخاصين به؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أنه من غير الطبيعي أن يكون للفرعون الأول جنوده وأن يكون لوزيره جنوده، فجنود الوزير هم جنود الفرعون نفسه، أليس كذلك؟

السؤال: لماذا كان لهامان جنوده إذن كما كان لفرعون جنوده (إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا)؟

رأينا المفترى: لأن هامان لم يكن من ضمن ملك فرعون. ففرعون - لا شك عندنا- له ملك مصر:

- **وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51)**

منطقنا المفترى: مادام أن مُلك مصر كله يعود لفرعون، فيستحيل أن يكون من أهل مصر من له جنوده الخاصين به كما هي الحال بالنسبة لهامان. لذا نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن هامان لم يكن من أهل مصر إطلاقا. انتهى.

السؤال: من هو هامان إذا؟

جواب مفترى: نحن نظن أن هامان هو من كان يستطيع أن يوقد لفرعون على الطين فيجعل له صرحا، يمكّنه من بلوغ الأسباب، أسباب السماوات والأرض ليطلع إلى إله موسى:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)**
- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37)**

السؤال: من يملك القدرة على تنفيذ أمر كهذا، أي بناء صرح يبلغ بصاحبه أسباب السموات والأرض؟

جواب خطير جدا جدا: نحن لا نظن أن أحدا من الإنس يستطيع فعل ذلك.

السؤال: من يستطيع فعل ذلك إذن؟

جواب مفترى خطير جدا: من كان من الجن. انتهى.

السؤال: أين الدليل على ذلك؟

رأينا المفترى: لو تفقدنا النص القرآني على مساحته لما وجدنا أن الصرح قد بُني مرة أخرى من بعد فرعون إلا لسليمان:

- **قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (44)**

ليكون السؤال الذي لابد أن يطرح مباشرة هو: من الذي بنا الصرح لسليمان إذن؟

جواب مفترى: لمّا كان الله هو من سخّر لسليمان من الشياطين كلّ بناء وغواص:

- **قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (35) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ (36) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاصٍ (37) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (38)**

كان من الجن (وبالذات الشياطين منهم) من هو "بناء"، قادر على تشييد الصرح لسليمان، وقد كان سليمان هو من دعا ربه من قبل بالدعاء المشهور التالي:

- قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (35)

فجاءت الاستجابة الإلهية على النحو التالي:

- فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ (36) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاصٍ (37) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (38) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (39)

السؤال: كيف كان سليمان قادرا على التحكم بهؤلاء الشياطين؟

جواب خطير جدا جدا: نحن نتخيل بأن سليمان كان يملك الأداة التي تسخرهم، فلا يستطيع أحد منهم أن يفلت من العقاب إن هو تمرد على أوامر سليمان:

- وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (12)

السؤال: ما هي الأداة التي كان سليمان يستخدمها لتسخير هؤلاء الشياطين؟

جواب: إنها المنسأة، بدليل أن الشياطين قد كسبت حريتها بموت سليمان عندما أكلت دابة الأرض منسأته:

- فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (14)

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن هذه التسميات وهي الرحمن وهامان وسليمان قد جاءت متناغمة في اللفظ (وخاصة القافية كما يحب أهل الشعر أن يسمونها) وذلك لاشتراكها في الوظيفة، وهي القدرة على الصلة مع الجن وتنفيذ الأوامر التي قد تبدو للوهلة الأولى خارقة للقدرات البشرية المألوفة.

خروج عن النص مرة أخرى

ولو تفقدنا النص القرآني أكثر لما وجدنا أن هناك أشخاص آخرون مشتركون في هذه القافية (والوزن) غير شخص واحد وهو لقمان:

- وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (12)
- وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (13)

تساؤلات

⇐ من هو لقمان هذا؟

⇐ ومن هو ابنه الذي كان يعظه؟

⇐ ولماذا جاء ذكرهما في كتاب الله؟

⇐ وكيف لنا أن نتعرف على شخصياتهما؟

⇐ الخ.

سنحاول هنا تقديم افتراء خطير جدا، ولن نخوض في تفاصيله لأننا سنعود للحديث عنه لاحقا بحول الله وتوفيقه متى ما أذن الله لنا بشيء من علمه فيه. وسنركز هنا فقط على فكرة واحدة ألا وهي: لم جاء الاسم (لقمان) على وزن وقافية رحمن وهامان وسليمان.

افتراء خطير جدا جدا ربما يكون غير مسبوق: نحن نفتري القول من عند أنفسنا أن لقمان هو والد نبي الله داوود، وأن الابن الذي كان يعضه لقمان هو داوود نفسه، ليصبح خط الوراثة في تلك السلالة الطيبة على النحو التالي:

لقمان ← داوود ← سليمان

(دعاء: والله وحده نسأل أن يعلمنا ما لم نكن نعلم، وأن يهدينا لأقرب من هذا رشدا، وأن يزيدنا علما، إنه هو الواسع العليم – آمين)

عودة على بدء مرة أخرى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السؤال: ما علاقة هذا كله بفرعون وهامان؟

تخيلات مفتراة: لمّا كان فرعون له مُلك قد سبق ملك سليمان، ولما كان فرعون قادرا على إصدار الأوامر لمن يبني له الصروح، فإننا نعتقد (ربما جازمين) أن فرعون كان يملك بيده الأداة التي يسخّر بها هامان، فلا يستطيع هذا الأخير (أي هامان) إلا أن ينفذ أوامر فرعون في الحال.

السؤال: أين الدليل على ذلك؟

رأينا المفترى: دعنا نناقش الأمر في ضوء ما جاء في الآية الكريمة التالية:

- **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176)**

والتي نثير حولها التساؤلات التالية:

⇐ من هو هذا الذي أوتي آيات الله؟
⇐ لماذا انسلخ منها؟
⇐ كيف انسلخ من تلك الآيات؟
⇐ كيف أتبعه الشيطان؟
⇐ ومن هو الشيطان الذي أتبعه؟
⇐ لماذا شبهه الله بالكلب على وجه التحديد؟ لم لم يشبهه بالحمار مثلا؟
⇐ لماذا جاء هذا في معرض قص القصص؟
⇐ وكيف لنا أن نتفكر في ذلك؟
⇐ الخ.

جواب مفترى من عند أنفسنا (1): نحن نظن أن الذي آتاه الله آياته هو فرعون نفسه (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا)

جواب مفترى من عند أنفسنا (2): نحن نظن أن الشيطان الذي تبعه هو هامان (فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ)

الدليل

لو تفقدنا النص القرآني على مساحته لما وجدنا أن الله قد آتى آياته كلها إلا لشخص واحد وهو فرعون نفسه:

- **وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (57) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى (58)**

وهو الذي كذّب بآيات الله كلها، أليس كذلك؟

ولو تفقدنا النص القرآني على مساحته لوجدنا أن الناس جميعا كانوا تابعين للشيطان:

- **وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (22)**

ويشذ عن هذه القاعدة شخص واحد وهو الذي كان الشيطان تابعا له، ولم يكن هو تابعا للشيطان.

لنقرأ الآية الكريمة مرة أخرى:

- **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176)**

السؤال: كيف تبعه الشيطان؟ وكيف بالشيطان يكون تابعا لغيره؟ ومتى كان الشيطان أصلا يتبع غيره؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نجد الإجابة على ذلك كله في الآية الكريمة التالية:

- **وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (48)**

دقق عزيزي القارئ في هذه الآية الكريمة في ضوء التساؤلات التالية:

⇐ من هو هذا الشيطان الذي زين لهم أعمالهم (وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ)؟

⇐ من هم هؤلاء الذي زين لهم الشيطان أعمالهم (وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ)؟

⇐ لماذا قال لهم لا غالب لكم اليوم من الناس (وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ)؟

⇐ ولماذا قال لا غالب لكم اليوم من الناس؟ فهل يمكن أن يغلبهم من هم ليسوا من الناس مثلا؟

⇐ لم قال لهم أنه جار لهم (وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ)؟

⇐ من هما الفئتان اللتان تراءاتا (فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ)؟ ومتى حصل ذلك؟

⇐ لماذا نكص على عقبيه لما تراءت الفئتان (فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ)؟

⇐ متى حصل ذلك؟

⇐ كيف نكص على عقبيه؟

⇐ لماذا أعلن براءته من الذين كان لهم جار من قبل (وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ)؟

⇐ ولمن قال ذلك؟

⇐ كيف كان يرى ما لا يرون (إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ)؟

⇐ لماذا أكد أنه يخاف الله (إِنِّيَ أَخَافُ اللَّهَ)؟

⇐ الخ.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن الذي فعل ذلك هو هامان (الشيطان)، وحصل ذلك كله يوم أن تراءت الفئتان (المؤمنة والكافرة)، وكان ذلك عندما تبع فرعون وجنوده وهامان وجنوده من جهة موسى ومن آمن معه من جهة أخرى إلى البحر، وهناك تراءى الجمعان:

- **فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61)**

السؤال كيف حصل ذلك كله؟

قصة الغرق في البحر: رؤيا جديدة مفتراة من عند أنفسنا

يأخذنا هذا النقاش مرة أخرى إلى قصة موسى وفرعون (القصص)، التي قُصّت في سورة القصص، حيث بدأت بالآيات الكريمة التالية:

- **طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4)**

ولعل من أهم ميزات فرعون كانت قدرته على استخفاف قومه، حتى حصلت له الطاعة العمياء منهم:

- **فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54)**

وحتى وصلت به القدرة على القول صراحة لهم:

- **... قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (29)**

السؤال: هل فعلا كان فرعون قادرا على ذلك فعلا؟ وكيف كان يريهم فقط ما يراه هو؟

رأينا: لو حاولنا ربط ذلك بالآيات الخاصة بالذي انسلخ من آيات الله كلها وأتبعه الشيطان، لوجدنا أن قص القصص حاضرا فيها بكل وضوح:

- **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176)**

لنخرج بالاستنباط المفترى الأول التالي: إن الذي انسلخ من آيات الله وأتبعه الشيطان هو من جاءت سورة القصص لتتلوا علينا من نبأه، إنه فرعون نفسه.

وفي تلك القصة العظيمة، كان يجب على سادتنا أهل الدراية – نحن نظن- الوقوف مليّا عند المشهد الأخير في المواجهة بين الطرفان وهو يوم أن تراءى الجمعان:

- **فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61)**

ولعل الجزئية التي نريد أن نثيرها هنا تتعلق بالآيات الكريمة التالية التي تصور جزءا مما حصل فعلا على أرض الواقع، فالآيات التالية تبين أن الذين أُغرقوا هم آل فرعون:

- **وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (50)**

- كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَونَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَالِمِينَ (54)

والآيات التالية تبين أن الذين أغرقوا كانوا قوم فرعون:

- فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54) فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (55)

والآية التالية تبين أن الذين غشيهم اليم هم فرعون وجنوده:

- فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (78)

والآيات التالية تبين أن الذين نبذوا في اليم هم جنود فرعون:

- فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (40)
- فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (40)

بعد هذا كله، ألا يحق لنا أن نطرح السؤال التالي: أين هم جنود هامان؟ ألم يغرقوا مع جنود فرعون؟

- وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6)
- فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8)

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن (جازمين) أن هامان وجنوده لم يصيبهم ما أصاب فرعون وجنوده، فهم لم يغرقوا في اليم.

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الآية الكريمة التالية (كما نفهمها) تقدم لنا السبب الذي من أجله لم يذهب هامان وجنوده في الغرق كما حصل مع فرعون وجنوده:

- وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90)

فلو تدبرت - عزيزي القارئ- هذه الآية الكريمة جيدا لوجدت على الفور أن الذي تبع موسى ومن معه في البحر هم فقط فرعون وجنوده (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا).

السؤال: لماذا لم يتبع هامان وجنودُه موسى ومن معه في البحر؟

جواب مفترى: لأن هامان في تلك اللحظة قد نكص على عقبيه.

السؤال: لماذا نكص على عقبيه؟

جواب مفترى: لأنه رأى ما لم يراه جنود فرعون وآله وقومه في تلك الساعة.

السؤال: أين الدليل على ذلك؟

جواب مفترى: دعنا نرجع إلى الآية الكريمة التي أثرنا حولها التساؤلات الجارية لنتدبرها من هذا المنظور الذي نظن أنه غير مسبوق:

- وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (48)

تخيلات مفتراة: لما كانت إستراتيجية الشيطان مبنيّة في الأساس على تزين الكفر للناس، كانت هذه هي المهمة التي قام بها هامان (الشيطان) في إيقاع قوم فرعون في الشرك، فقام بتزين أعمالهم لهم (وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ

الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ)، حتى حصلت المواجهة النهائية بين الطرفين في يوم محدد، وكان قد عقد لهم أنهم غير مغلوبين (وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ)، ولو تدبرنا الآية أكثر لوجدناه يؤكد أن غلبتهم غير حاصلة من الناس على وجه التحديد (وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ)، ونحن نظن أن هامان قد قال لهم ذلك لأنه هو وجنوده ليسوا من الناس أصلا، لذا جاء تزيين الأمر لهم أن غلبتهم من الناس (أي من موسى ومن معه) غير ممكنة حتى تراءى الجمعان عند البحر:

- **فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61)**

فمادام أن البحر قد أصبح من أمام موسى ومن معه، وفرعون وجنوده من ورائهم، أصبحت مهمة الشيطان سهلة في الترويج لفكرة الغلبة اليوم لفرعون ومن معه. فيستحيل على العقل البشري (على محدوديته) أن يدرك أن هناك نجاة من هذا الموقف اليوم (وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ)، فحتى أصحاب موسى أنفسهم قد ظنوا أنهم مدركون لا محالة (قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ). فما بالك بقوم فرعون؟

وقد استطيع أن أتخيل البشرى بادية على وجوه قوم فرعون بأن الخلاص من موسى ومن معه قد أصبح أمرا محققا لا محالة. ولعلي استطيع أن أتخيل الإحباط والخوف قد سيطر على قوم موسى. في هذه اللحظة بالذات انبرى هامان (أنا لا زلت أتخيل) ليؤكد لقوم فرعون أنه جار لهم (وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ). ولم يكن ليسلم من منطق هامان هذا إلا شخص مؤمن بربه الرحمن الذي لا يقطع صلته به، وهو الرب القادر على فعل كل شيء، حتى ما لا يستطيع البشر أن يتخيله، وهو شق البحر والنجاة من الموقف. وهذا الشخص هو موسى فقط، فما كان قوله إلا على النحو التالي:

- **قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62)**

وذلك لأن موسى موقن بأن الله (الرحمن) معه يسمع ويرى، فهذا ما قاله له ربه في الواد المقدس منذ البداية:

- **قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى (45) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (46)**

وهنا في هذه اللحظة الإيمانية التي عزّ مثيلها، جاء الوحي لموسى على الفور بأن يضرب بعصاه البحر:

- **فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ...**

فكانت النتيجة على الفور هي انفلاق البحر حتى كان كل فرق كالطود العظيم:

- **فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63)**

فكان هامان (نحن لازلنا نتخيل) هو أول من رأى بأم عينه ما حصل من انفلاق للبحر بضربة من عصا موسى، فما كانت ردة فعله أكثر من النكوص على عقبيه، وذلك لأنه يرى ما لا يرون:

- **فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (48)**

ولو دققنا في السياق أكثر لوجدنا أن هامان لم يقل ذلك لهم، وإنما قال ذلك لنفسه ولجنوده الذين يأتمرون بأمره،

- **... وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ...**

فهو إذن يرى الآن (في هذه اللحظة) ما لا يراه قوم فرعون. لذا، ما أن أوصلهم الشيطان (هامان) إلى حتفهم نتيجة سوء أعمالهم (إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) حتى ردد عبارته المشهورة بعد نجاح كل مهمة له، ألا وهي أنه يخاف الله:

- فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (48)

وهذه لا شك هي سياسة الشيطان في إيقاع الإنسان في الفخ:

- كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (16)

(دعاء: اللهم إني أعوذ بك أن أكون فريسة للشيطان، فأنت ولي، عليك توكلت وإليك أنيب – آمين)

في هذه اللحظة نجد لزاما طرح تساؤلات غريبة بعض الشيء، نذكر منها:

⇐ ألم يتراءى الجمعان، ألم يرى قوم فرعون كيف شُقّ البحر بعصا موسى؟

⇐ وإذا كان كل فرق كالطود العظيم، لِم أقدم قوم فرعون على اللحاق بموسى ومن معه في تلك الطريق مجهولة المخاطر؟

⇐ لِم لم يتخلف أحد من آل فرعون؟

⇐ لم لم يتخلف أحد من قوم فرعون؟

⇐ لم لم يتخلف أحد من جنود فرعون؟

⇐ هل وصل الغباء بهم لهذا الحد؟

⇐ ألم يخرج من بينهم جميعا عاقل واحد يرجع عن طغيانه أمام هذه الآيات العظيمة؟

⇐ ألم يكن من بينهم شخص واحد تجري في دمائه جينات حب الخيانة لقائده الخالد الرمز كحال أبناء الأمة العربية الذين ما انفكوا يظهرون الشجاعة منقطعة النظير عندما ينهار أمام أعينهم تمثال القائد الرمز بأحذية العسكر من بني الأصفر؟

⇐ لِم لم يراجع هؤلاء الناس حساباتهم في تلك اللحظة؟

⇐ لو كنت (عزيزي القارئ) واحدا من هؤلاء، ألن تراجع حساباتك وتنكص على عقبيك بعد أن ترى بأم عينك ما حصل للبحر؟

⇐ الخ

السؤال القوي: لماذا لم ينكص أحد من آل فرعون أو من قوم فرعون أو من جنود فرعون على عقبيه بعد أن شق موسى البحر بعصاه حتى كان كل فرق كالطود العظيم؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نظن أن السبب هو أنهم لم يروا ما فعل موسى، ولم يروا أن البحر قد شق أصلا؟

السؤال: هل أنت في كامل قواك العقيلة؟ يتساءل صاحبنا. كيف لم يروا أن البحر قد شق فعلا؟

جواب مفترى: هذا ما نظن أنه قد حصل فعلا، مستنبطين ذلك مما قاله من نكص على عقبيه (هامان) في تلك اللحظة:

- فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (48)

السؤال: لماذا لم يروا ذلك؟

جواب مفترى: نحن نظن أن هذه واحدة من أسباب سيطرة فرعون على قومه، لذا نحن نتجرأ على الظن بأن فرعون كان عنده من الإمكانيات ما يجعله يحجب القوم عن رؤية ما يحصل على أرض الواقع. انتهى.

تخيلات مفتراة: عندما تراءى الجمعان، ظن أصحاب فرعون أنهم لا محالة اليوم غالبون، وكان الشيطان هو من يؤيد لهم ظنهم هذا، وفي المقابل أصاب أصحاب موسى الذعر لأنهم ظنوا أنهم لا محالة مدركون، لكن ثقة موسى بربه الرحمن دائمة لا تنقطع، وظنه به أنه لا محالة سيهديه، فجاءه الوحي بأن يضرب بعصاه البحر، فما كان من موسى إلا أن يفعل ذلك باسم ربه الرحمن الرحيم.

لم يكن البحر ليتحمل قوة الضربة، فانفلق حتى كان كل فرق كالطود العظيم، وكان أول من رأى ذلك هامان وفرعون، فنكص هامان على عقبيه، فاتبعه جنوده، فلم يكونوا من المغرقين. لكن فرعون أصر على المواجهة، فكان لابد أن يحجب ما حصل من أمر شق البحر عن قومه، ففعل ذلك، فلم يكونوا يرون إلا ما يريهم:

- **... قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (29)**

فحجب الرؤية عن قومه، وخاض بهم الطريق ليلحق بموسى ومن معه، فكان فرعون هو من أضل قومه وما هدى:

- **فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (78) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (79)**

السؤال: إن صح ما تزعم، لماذا أقدم فرعون بنفسه على الخوض في البحر؟ ألم يكن يدرك أن في ذلك يمكن أن يكون حتفه وقومه أجمعين؟ فهل أصاب فرعون الجنون؟

جواب: كلا وألف كلا، لقد كان فرعون ينتظر هذه اللحظة منذ زمن طويل، فهو يريد المواجهة الفعلية مع إله موسى نفسه، وها هي الفرصة قد سنحت له لمواجهة إله موسى الذي كان فرعون يظن أنه مهين ولا يكاد يبين:

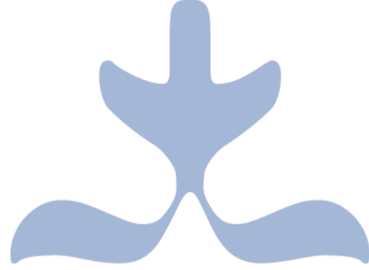
- **أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52)**

السؤال: وكيف ذلك؟ هل فعلا يريد فرعون المواجهة الفعلية مع الإله؟ وهل يستطيع ذلك؟!!!

جواب:

جواب مفترى: هذا ما سنتناوله في بداية الجزء القادم من هذه المقالة بحول الله وتوفيق منه.

سائلين الله وحده أن ينفذ مشيئته وإرادته لنا الإحاطة بشي من علمه لا ينبغي لغيرنا، إنه هو العليم الحكيم، وأدعوه وحده أن يؤتيني رشدي، وأن يجعل لي من لدنه سلطانا نصيرا، وأعوذ به أن يكون ممن يفترون عليه الكذب، أو ممن يقول عليه ما ليس لهم بحق، وأعوذ به أن يكون أمري كأمر فرعون، وما أمر فرعون برشيد، إن ربي الرحمن الرحيم – آمين.



قصة يونس

الجزء الواحد والثلاثون



قصة يونس: الجزء الواحد والثلاثون

خلصنا في نهاية الجزء السابق عند طرح التساؤلات التالية حول ما حصل عند شق البحر بعصا موسى:

⇐ ألم يتراءى الجمعان، ألم يرى قوم فرعون كيف شُقّ البحر بعصا موسى؟
⇐ وإذا كان كل فرق كالطود العظيم، لِم أقدم قوم فرعون على اللحاق بموسى ومن معه في تلك الطريق مجهولة المخاطر؟
⇐ لِم لم يتخلف أحد من آل فرعون؟
⇐ لم لم يتخلف أحد من قوم فرعون؟
⇐ لِم لم يتخلف أحد من جنود فرعون؟
⇐ هل وصل الغباء بهم لهذا الحد؟
⇐ ألم يخرج من بينهم جميعا عاقل واحد يرجع عن طغيانه أمام هذه الآيات العظيمة؟
⇐ ألم يكن من بينهم شخص واحد تجري في دمائه جينات حب الخيانة لقائده الخالد الرمز كحال أبناء الأمة العربية الذين ما انفكوا يظهرون الشجاعة منقطعة النظير عندما ينهار أمام أعينهم تمثال القائد الرمز بأحذية العسكر من بني الأصفر؟
⇐ لِم لم يراجع هؤلاء الناس حساباتهم في تلك اللحظة؟
⇐ لو كنت (عزيزي القارئ) واحدا من هؤلاء، ألن تراجع حساباتك وتنكص على عقبيك بعد أن ترى بأم عينك ما حصل للبحر؟
⇐ الخ

ويمكن تلخيص هذا كله بالسؤال المحوري التالي: لماذا لم ينكص أحد من آل فرعون أو من قوم فرعون أو من جنود فرعون على عقبيه بعد أن شق موسى البحر بعصاه حتى كان كل فرق كالطود العظيم؟

وافترينا الظن من عند أنفسنا بأن السبب في ذلك يعود إلى أن قوم فرعون لم يروا ما فعل موسى من أمر شق البحر، واستنبطنا ذلك مما قاله من نكص على عقبيه (هامان) في تلك اللحظة:

- **فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (48)**

وافترينا القول بأن هذه كانت واحدة من أسباب سيطرة فرعون على قومه، فكان عنده – برأينا- من الإمكانيات ما يجعله يحجب القوم عن رؤية ما يحصل على أرض الواقع. وتخيلنا أن الأمر على أرض الواقع قد حصل على النحو التالي: عندما تراءى الجمعان، ظن أصحاب فرعون أنهم لا محالة اليوم غالبون، وكان الشيطان (هامان وجنوده) هو من يؤيد لهم ظنهم هذا. وفي المقابل أصاب أصحاب موسى الذعر لأنهم ظنوا أنهم لا محالة مدركون. لكن ثقة موسى بربه الرحمن دائمة لا تنقطع، وظنه به أنه لا محالة سيهديه لا يتزعزع مهما حصل على أرض الواقع، فجاءه الوحي بأن يضرب بعصاه البحر، فما كان من موسى إلا أن يفعل ذلك باسم ربه الرحمن الرحيم. فلم يكن البحر ليقدر أن يتحمل قوة تلك الضربة، فانفلق حتى كان كل فرق كالطود العظيم، وكان أول من رأى ذلك هامان وفرعون، فنكص هامان على عقبيه، فاتبعه جنوده، فلم يكونوا من

المغرقين. لكن فرعون أصر على المواجهة، فكان لابد أن يحجب ما حصل من أمر شق البحر عن قومه، ففعل ذلك، فلم يكن من كان مع فرعون في تلك اللحظة إلا أن يرون فقط إلا ما يريهم هو بنفسه:

- **... قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (29)**

فحجب الرؤية عن قومه، وخاض بهم الطريق ليلحق بموسى ومن معه، فكان فرعون هو من أضل قومه وما هدى:

- **فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (78) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (79)**

وتوقفنا في نهاية ذلك الجزء من المقالة عند طرح التساؤل المثير التالي: لماذا أقدم فرعون بنفسه على الخوض في البحر ومعه جنوده بعد أن رأى فرعون نفسه ما فعل موسى بعصاه من أمر شق البحر؟

وافترينا الظن (ربما مخطئين) بأن فرعون قد أصرّ على المضي قدما لأنه كان ينتظر هذه اللحظة منذ زمن طويل، وذلك لأنه كان يريد المواجهة الفعلية مع إله موسى نفسه، فالفرصة الآن قد سنحت له لمواجهة إله موسى الذي كان فرعون يظن أنه مهين ولا يكاد يبين:

- **أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52)**

وسنحاول في هذا الجزء من المقالة متابعة التفكير في هذا الاتجاه، لنرى ما ستؤول إليه الأمور، سائلين الله وحده أن يهدينا رشدنا، وأن يعلمنا أحسن ما أنزل إليه منه، ونعوذ به وحده أن نكون ممن يفترون عليه الكذب، أو ممن يقولون عليه ما ليس لهم بحق، إنه هو الواسع العليم – آمين.

أما بعد،

بسم الله الرحمن الرحيم

السؤال: هل فعلا يريد فرعون المواجهة الفعلية مع الإله؟

وهل يستطيع ذلك؟!!!

بداية، دعنا نتدبر الآية الكريمة التالية التي ظننا أنها جاء لتصور لنا جانبا مما حصل من أمر فرعون:

- **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176)**

لنخرج بالاستنباطات التالية:

⇐ كان فرعون هو من أتيناه آياتنا كلها (الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا)

⇐ انسلخ فرعون من تلك الآيات (فَانسَلَخَ مِنْهَا)

⇐ كان فرعون هو من أتبعه الشيطان (فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ)

⇐ كان فرعون من الغاوين (فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ)

⇐ لم تقضي مشيئة الله أن يرفع فرعون بها لأن مشيئة فرعون لم تكن كذلك (وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا)

⇐ كان فرعون هو من أخلد إلى الأرض، أي أراد الخلود في الأرض (وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ)

⇐ كان فرعون هو من اتبع هواه (وَاتَّبَعَ هَوَاهُ)

⇐ كان مثله في ذلك كمثل الكلب الذي إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث)
⇐ كان فرعون يحمل شيئا، وهو في ظننا الكتاب
⇐ كان فرعون هو من كذب بآياتنا (ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا)
⇐ كانت تلك هي قص القصص (فَاقْصُصِ الْقَصَصَ)
⇐ تلك القصص بحاجة أن نعمل التفكير فيها (لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)
⇐ الخ

الدليل

لو تفقدنا الآية الكريمة التالية الموجّهة من الله إلى موسى، لربما صح لنا أن نستنبط أن فرعون هو فعلا من اتبع هواه:

- **فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي يَا مُوسَى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (13) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14) إِنَّ السَّاعَةَ ءاَتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (15) فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (16)**

فالله ينهى موسى أن يصده عن الساعة من كان لا يؤمن بها واتبع هواه، أليس كذلك؟ ليكون السؤال المطروح على الفور هو: من هذا الذي حذر اللهُ موسى منه حتى لا يصده عن الساعة؟ أليس هو من كان لا يؤمن بالساعة؟ أليس هو من اتبع هواه؟ فمن هو إذن؟

ولو تفقدنا الآية الكريمة لوجدنا أن فرعون هو من اتخذ إلهه هواه، فكانت ضلالة الله له عن علم، فختم الله على سمعه وجعل على قلبه غشاوة:

- **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (23)**

لذا جاءت عقيدة فرعون الذي كذب بالساعة واتبع هواه على نحو أن الهلاك سببه الدهر، وانظر إن شئت – عزيزي القارئ- الآية الكريمة السابقة في سياقها الأوسع:

- **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (23) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (24)**

ولو تفقدنا الآيات الكريمة التالية لوجدنا أنها تصور أن من جاءهم موسى فكفروا بما أوتي موسى هم من اتبعوا أهواءهم، وكان فرعون من بينهم جميعا هو من أضل الله ممن تبع اتبع هواه بغير هدى من الله، وذلك لأن الله لا يهدي القوم الظالمين:

- **فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (48) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (49) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (50)**

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن عقيدة من جاءهم موسى من قوم فرعون كانت مبنية على اتباعهم أهواءهم لأن فرعون هو من أضل قومه وما هدى:

- وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (79)

السؤال: لماذا كان مثال فرعون هو مثال الكلب؟ لِم لم يكن مثاله مثال الحمار؟

جواب: لو عدنا إلى الآية الأولى ولجدنا أن مثال فرعون هو مثال الكلب الذي إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث:

- وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176)

ولا عجب – عندنا- أن الذي يلهث هو من كانت حركته حركة صعود إلى الأعلى. والآية التالية تصور لنا من أرهقه الله صعودا:

- ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (16) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (17) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (27) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (28) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (29) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (30)

ونحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأنه لو تدبرنا هذه الآيات جميعها لوجدناها تتحدث – برأينا- عن فرعون. فالله يتحدث في هذه الآيات بداية بصيغة ذرني:

- ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11)

وها هو فرعون يتحدث بالصيغة نفسها:

- وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (26)

فجاء رد موسى على ذلك على النحو التالي:

- وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (27)

نتيجة مفتراة: فكان فرعون كان متكبرا لا يؤمن بيوم الحساب، وهو ما جاء التحذير الإلهي لموسى منه من ذي قبل:

- فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (16)

السؤال: لماذا؟ لماذا لم يكن فرعون يؤمن بالساعة؟ ولماذا لم يكن يؤمن بيوم الحساب؟

جواب: لأن فرعون هو من فكر وقدر:

- إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18)

وقد جاء حتفه من باب تقديره:

- ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20)

وفرعون هو الذي نظر:

- ثُمَّ نَظَرَ (21)

وكان ذلك عندما بلغ الأسباب:

- وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37)

وهو الذي عاد من هناك بالأخبار التي لا ترضيه، عندما وجد أن هناك إله لموسى، فهو الذي:

- ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22)

وفرعون هو الذي أدبر واستكبر:

- ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23)

وكان ذلك عندما أراه موسى الآية الكبرى:

- فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22)

فما كانت ردة فعله أكثر من القول:

- فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24)

وجاء رأيه هذا واضحا في الآية الكريمة التالية:

- وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (57)

وفرعون هو الذي ستكون نهايته يوم القيامة على النحو التالي:

- سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (27) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (28) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (29) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (30)

ونحن ندعو القارئ الكريم أن يعيد تدبره لهذه الآيات مرة أخرى بهذا الفهم المفترى من عند أنفسنا ليرى ما ستؤول إليه الأمور لاحقا:

- ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (16) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (17) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (27) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (28) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (29) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (30)

السؤال: لماذا كان مثل فرعون كالكلب إذن؟

رأينا المفترى: لما لم يكن مثل فرعون كمثل الحمار، لم يكن إذن يحمل شيئا من النص الديني، قال تعالى:

- مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (5)

نتيجة مفتراة: عندما يحمل الناس شيئا من النص الديني (كالتوراة والإنجيل والقرآن) ولا يحملوه، فإن مثلهم يكون كمثل الحمار، وذلك لأن الحمار هو الذي لا يستفيد مما يحمل عليه.

نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن فرعون لم يأته شيئا من الكتب الدينية ذات المصدر الإلهي. لذا لم يحصل التشبيه لفرعون بالحمار.

ثانيا، لما كان صوت الحمار هو أنكر الأصوات:

- وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (19)

لم يكن صوت فرعون نكرا، وذلك لأن فرعون كان قادرا على توصيل رسالته لمن حوله، فهو رجل يتحدث بكلام يستطيع من حوله أن يفهمه.

لكن الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها فمثلهم كمثل الحمار وذلك لأنهم يرددون كلاما على مسامع الناس غير مفهوم حتى مهما ارتفعت نبرة أصواتهم. والقارئ الكريم مدعو للتفكر في الحاجة لرفع الأصوات عالية على منابر الخطابة في حين أن الرسالة غير مفهومة، تكرار لما قد قيل مرات ومرات، فهي كأصوات الحمير التي لا تختلف مهما اختلفت الحاجة عند الحمار. (للتفصيل أنظر مقالات قصة يوسف).

على أي حال، ما أود قوله هنا هو أن صوت فرعون لم يكن كصوت الحمار، لكن كان مثل فرعون – لا شك- كمثل الكلب.

السؤال: لكن ماذا الكلب على وجه التحديد؟

افتراءات خطيرة جدا من عند أنفسنا نظن أنها ذات علاقة بالموضع قيد النقاش وهو تشبيه فرعون بالكلب:

⇐ الكلب للحراسة كما في الشكل التوضيحي التالي:



⇐ الكلب حريص على ما عنده، فلا يفرط بما عنده ولا يمكن أن تأخذ ما عنده بسهولة

⇐ الكلب يلهث:



⇐ الكلب دائم المراقبة



⇐ الكلب حركته سريعة:



⇐ الكلب يمكن التفاهم معه بالتدريب:



⇐ الكلب يمكن أن يتخذ القرار من تلقاء نفسه، فهو في وضع الاستعداد للانطلاق:



⇐ الكلب يأكل اللحوم، فتجده يركض للظفر بالعظمة كما في الشكل التوضيحي التالي:



نتيجة مفتراة خطيرة جدا جدا: نحن نفتري القول من عند أنفسنا أن فرعون (الكلب) كان يريد اللحاق بموسى للظفر بالعصا التي كانت بيد موسى:



Source:

الباب الأول: فرعون (كلب حراسة)

تحدثنا في مقالاتنا السابقة لنا تحت عنوان (كيف تم خلق عيسى بن مريم؟) عن مهمة الكلب الذي كان متواجدا في كهف الفتية أصحاب الكهف والرقيم، وظننا (مفترين القول من عند أنفسنا) بأن مهمة ذلك الكلب كانت تكمن في حراسة موجودات الكهف الذي أوى الفتية إليه. وطار الخيال بنا إلى تصور ذلك على نحو أن الكهف كان يحتوي على مقتنيات قيّمة جدا، فكان تواجد الكلب في ذلك الكهف على سبيل الدوام من أجل حراسة تلك المقتنيات في غياب الفتية عن الكهف أو في وقت نومهم. وزعمنا القول أن الموجودات القيمة في ذلك الكهف هي الرقيم (جمع كتاب مرقوم). فكان الفتية هم أصحاب الكهف والرقيم:

- **أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (9)**

وكان الكلب هو الموكل إليه حراسة تلك الكتب المرقومة (الرقيم):

- **وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (18)**

وبهذا الفهم المفترى من عند أنفسنا، فإننا نتجرأ على تقديم افتراء خطير جدا جديد يخص فرعون الذي جاء مثله في كتاب الله (كما فهمناه) كمثل الكلب، والافتراء هو على النحو التالي: لمّا كان مثل فرعون كمثل الكلب:

- **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176)**

فإننا نتجرأ على الاستنباط (ربما مخطئين) بأن فرعون كان هو من يحرس ما يشبه ما كان كلب الفتية يحرسه، إنه الكتاب، الذي جاء ذكره على لسان موسى في الآية الكريمة التالية:

- **قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (51) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (52)**

باب ركن فرعون

لو تدبرنا الآية الكريمة التالية لوجدنا أن فرعون كان له ركن خاص به:

- **وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (38) فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (39) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (40)**

وبناء على فهمنا لما جاء في هذه الآية الكريمة فإننا نستطيع أن نخرج بالافتراءات التالية:

⇐ أرسل الله موسى إلى فرعون (وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ)
⇐ أرسل الله موسى إلى فرعون بسلطان مبين (وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ)
⇐ تولى فرعون عن موسى (فَتَوَلَّىٰ)
⇐ تولى فرعون عن موسى بركنه (فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ)
⇐ كانت ردة فعل فرعون على ما جاءه به موسى على أن موسى ساحر أو مجنون (وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ)
⇐ أخذ الله فرعون وجنوده فنبذهم في اليم (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ)
⇐ كان فرعون في حالة مليم (وَهُوَ مُلِيمٌ)
⇐ الخ.

وهذه الافتراءات تلزمنا طرح بعض التساؤلات، نذكر منها:

⇐ ما هو السلطان المبين الذي أرسل الله موسى إلى فرعون به؟
⇐ لماذا تولى فرعون عن موسى؟
⇐ لماذا تولى فرعون إلى ركنه؟
⇐ ما هو ركن فرعون الذي تولى فرعون به؟
⇐ أين هو ركن فرعون ذاك؟
⇐ لماذا كانت ردة فعل فرعون على تلك الشاكلة؟
⇐ لماذا كانت النتيجة النهائية هي النبذ في اليم؟
⇐ لماذا كان مليما؟
⇐ وما علاقة هذا كله بقصة يونس التي بدأنا هذه السلسلة من المقالات بها؟
⇐ ألم يكن يونس هو أيضا مليما؟
⇐ ألم تكاد تكون نهاية يونس كنهاية فرعون (النبذ في البحر) لولا أن تداركه رحمة من ربه؟
⇐ الخ

جواب مفترى 1: نحن نظن أن السلطان المبين الذي أرسل الله به موسى إلى فرعون هو العصا، فكانت هي الآية الكبرى التي أراها موسى لفرعون في ركنه:

- **فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ (20) فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ (22)**

فلقد أصاب فرعون الذهول (نحن نتخيل) عندما وجد أن موسى هو من يملك الآية الكبرى، فما كانت ردة فعله أكثر من التكذيب والعصيان (فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ).

السؤال: لماذا كذب فرعون وعصى؟

رأينا المفترى الخطير جدا: لأن فرعون كان بيده عصا تشبه في فعلها العصا التي كانت بيد موسى. انتهى. لذا لمّا وجد فرعون أن هناك من يملك عصا تشبه العصا التي بيده، وهي – لا شك- سر قوته وسلطانه على كل من حوله، جن جنونه، ولم يكن يستطيع أن يصدق ما تراه عيناه، فكذب موسى، وعصى، فأصر على أن عصاه هي العصا الوحيدة القادرة على فعل الأعاجيب. (وسنتحدث عن عصا فرعون لاحقا بحول الله وتوفيقه، فالله وحده أسأل أن يعلمنا ما لم نكن نعلم وأن يهدينا أقرب من هذا رشدا وأن يزيدنا علما إنه هو الواسع العليم – آمين).

السؤال: ما الذي فعله فرعون بعد أن أراه موسى الآية الكبرى؟

جواب: **ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ**

السؤال: إلى أين توجه فرعون بعد أن أدبر من المكان الذي كان يتواجد فيه مع موسى؟

جواب مفترى: تولى فرعون بركنه:

- **وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (38) فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (39)**

السؤال: لماذا؟ لماذا تولى فرعون بركنه؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الهدف من تولي فرعون بركنه هو جمع كيده كما جاء في الآية الكريمة التالية:

- **فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ (60)**

السؤال: ما هو الكيد الذي جمعه فرعون بعد أن تولى بركنه؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الكيد ليس قوة مادية يمكن تحضيرها من أجل مواجهة الخصم، ولكنها (نحن نفتري القول) عبارة عن اتخاذ التدابير اللازمة لإنجاح المؤامرة ضد الخصم، كما كان يخطط إخوة يوسف بأخيهم:

- **قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (5)**

أو كما فعلت النسوة بيوسف:

- **فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (28)**
- **قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (33)**
- **فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (34)**
- **وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (50)**
- **ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (52)**

فلا أعتقد أن إخوة يوسف قد استخدموا شيئا من القوة المادية كالأسلحة مثلا، لكنهم كادوا له، ولا أعتقد أن النسوة قد استخدمن أسلحة مادية للإيقاع بيوسف، لكنهن كدن له.

وهذا فرعون يطلب من السحرة أنفسهم أن يجمعوا كيدهم:

- **فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ (64)**

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن الكيد هو ما يشبه ما يقوم به الساحر:

- وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (69)

ونحن نفتري القول بأن الشيطان هو أيضا صاحب كيد، لكن كيده - لاشك عندنا- ضعيفا:

- الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (76)

لكن الله – بالمقابل- هو صاحب الكيد المتين:

- وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (183)

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن فرعون قد تولى بركنه، وكانت الغاية من توليه بركنه هو حتى يجمع كيده:

- فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (60)

نتيجة مفتراة 2: كانت أدوات كيد فرعون موجودة في ركنه.

السؤال: ما هي أدوات كيد فرعون التي كانت موجودة في ركنه؟

جواب مفترى: نحن نظن أن أدوات كيد فرعون هما اثنتان: عصا وكتاب. انتهى.

السؤال: لماذا تولى فرعون ليجمع كيده؟

جواب مفترى: نحن نظن أن فرعون قد فعل ذلك من أجل أن يمدد بسبب إلى السماء:

- مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (15)

السؤال: هل فعلا مدّ فرعون بسبب إلى السماء لينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ؟

جواب مفترى: نعم، لقد فعل فرعون ذلك عندما طلب من هامان أن يبني له صرحا ليبلغ به أسباب السموات والأرض فيطلع إلى إله موسى:

- وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37)

نحن نظن أن فرعون قد استطاع بما جهزه له هامان (أي الصرح) أن يبلغ الأسباب ليطلع إلى إله موسى، وحاول أن ينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ، لكن كانت النتيجة عكس ما تمنى ورغب، فوجد إله موسى، وخاب كيد فرعون، ولم يكن كيد فرعون إلا في تباب.

السؤال: كيف كان كيد فرعون في تباب؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن كيد فرعون كله كان في تباب لأنه كيد كتب بيمين الناس، فكل العلم الذي كان عند فرعون هو مأخوذ من ذلك الكتاب الذي خطه الناس بأيديهم، كما فعل أبو لهب الذي تبت يده:

- **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (3) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (5)**

(للتفصيل انظر مقالاتنا السابقة عن قصة أبي لهب كما فهمناها من كتاب الله)

تلخيص ما سبق: نحن نتخيل ما حصل من أمر فرعون على النحو التالي: أرسل الله موسى بسلطان مبين إلى فرعون، كان ذلك السلطان هو العصا، فكان أول شيء أراه موسى لفرعون هو تلك العصا (الآية الكبرى)، فجن جنون فرعون، لأنه علم في تلك اللحظة أن هناك من يقارعه على ملكه الذي أسسه وحماه بالعصا التي بيده هو. وهنا سأل فرعون موسى على الفور عن القرون الأولى:

- **قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (51) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (52)**

فتأكد لفرعون أن موسى لم يملك الكتاب (**قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ**) وإن كان قد ملك العصا (الآية الكبرى). وفي هذه اللحظة تولى فرعون بركنه، وهو ينعت موسى بالسحر والجنون:

- **فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (39)**

وكان الغاية من توليه بركنه هي أن يجمع كيده كله. فكان كيد فرعون في تباب (أي مكتوب بخط اليد – وهو كتاب فيه علم القرون الأولى كلها، وعلى وجه التحديد ما تحصل لعاد وثمود من قبله:

- **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (9) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11)**

الدليل

نحن نجد الدليل على ذلك في مفردة " **فَتَوَلَّى**".

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا المفترى: لما جاءت المفردة مبدوءة بالفاء " **فَتَوَلَّى**"، ظننا (ربما مخطئين) أن هناك أحداث سابقة قد حصلت على أرض الواقع قبل أن يتولى فرعون بركنه. وأن تلك الأحداث كانت هي السبب في أن يتولى فرعون بركنه. فنحن نجد أن هناك فرق بين مفردة " **فَتَوَلَّى**" التي قام بها فرعون:

- **فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (39)**

ومفردة "ثُمَّ تَوَلَّى" التي قام بها موسى بعد أن سقى للمرأتين في مدين:

- **فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24)**

فموسى تولى إلى الظل بعد أن سقى لهما، ولم تكن سقايته لهما هي سبب توليه إلى الظل، ولكنها كانت ما حصل بعد أن سقى لها، لذا جاءت في النص على نحو (**ثُمَّ تَوَلَّى**). ولو دققنا في سياق قصة موسى لوجدنا أن الفاء قد جاءت مصاحبة للفعل " **فَسَقَى**"، لذا كانت سقاية موسى لهما ناتجة عن سبب سبقها وهو ما جاء في ردهما على سؤاله، انظر الآية في سياقها الأوسع:

- وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24)

فحصول العلم عند موسى أن أب الامرأتين شيخ كبير هو السبب الذي دعاه أن يشقي لهما، فجاء النص على نحو " فَسَقَى ".

إن ما يهمنا طرحه هنا هو أن سبب تولي فرعون بركنه (فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ) هو ما حصل قبل ذلك، وهو حصول العلم عند فرعون بأن موسى يملك بيده العصا (الآية الكبرى) لكنه لا يملك بعد الكتاب. في هذه اللحظة (نحن لا زلنا نتخيل) كان على فرعون أن يجمع كيده الموجود في ذلك الركن.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا خطيرة جدا: في هذه اللحظة كانت خشية فرعون تكمن في ظنه أن موسى قد وصل إلى ركن فرعون الذي يوجد فيه الكتاب (كيده)، وهو كتاب علم القرون الأولى. ففرعون يظن أن في وصول موسى إلى ذلك المكان وحصوله على ما في ذلك الكتاب من العلم هو ما يجعله قادرا على تفعيل العصا التي بيده، وذلك لأن فرعون نفسه (نحن نفتري القول) كان بيده عصا يقوم بتفعيلها بسبب وجود العلم بكيفية تفعيلها في ذلك الكتاب. فمن أمتلك علم ذلك الكتاب يستطيع أن يوفر لنفسه عصا تفعل الأعاجيب كالتي بيد موسى. فما أن أدرك فرعون أن موسى يملك العصا ولا يملك علم القرون الأولى الموجود في ذلك الكتاب حتى تولى هو بنفسه بركنه ليجمع كيده ثم يأتي:

- فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (39)

وهنا نطرح سؤالين اثنين وهما:

⇐ كيف تولى فرعون؟

⇐ وما هو الركن الذي تولى به فرعون؟

باب التولي

أولا، نحن نظن أن التولي يحمل في ثناياه اتخاذ اتجاه:

- وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (115)
- لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (117)

ثانيا، يمكن تحديد هذا الاتجاه:

- قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (144)
- وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (149)

- وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (150)

ثالثا، والتولي يحمل في ثناياه تغير الاتجاه:

- ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (64)
- وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (83)

رابعا، وغالبا ما يكون هذا التولي مدفوعا بتغير المبدأ والغاية:

- فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (137)
- أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (246)
- فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (20)
- أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ (23)

خامسا، وهذا التولي يكون فيه مقارعة للخصم، فتنتفي الطاعة:

- قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (32)
- فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (63)
- قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (64)
- فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (82)

سادسا، وهذا التولي غالبا ما يكون المحرض عليه هو الشيطان:

- إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ۖ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (155)

سابعا، وغالبا ما يكون غير المؤمنون هم غالبية الذين يتولون:

- مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (80)
- وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (89)
- وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (115)
- وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (43)

- وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (49)
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (51)
- تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (80)
- وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (92)
- فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (79)
- فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ (93)

ثامناء أما الذين يتولون الله ورسوله فهم الفئة القليلة:

- وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (56)
- إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (196)

والسياقات القرآنية التالية ربما تؤيد هذه الافتراءات السابقة التي هي لا شك من عند أنفسنا:

- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (15)
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ (20)
- وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (23)
- وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ ۚ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (40)
- وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (3)
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (23)
- إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ (50)
- يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ۚ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ۚ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (74)
- فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (76)
- وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (92)
- فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (129)
- فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (72)
- وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (3)

- وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (52)
- فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (57)
- وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (84)
- فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (82)
- إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ (100)
- إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (48)
- فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ (60)
- وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (57)
- فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ (109)
- كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (4)
- إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ۚ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (11)
- وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (47)
- قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (54)
- اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (28)
- فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24)
- فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (90)
- فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (174)
- وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (178)
- يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33)
- ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ (14)
- فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22)
- هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ۚ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم (38)
- قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (16)
- لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (17)
- فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (39)
- فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ (54)

- فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (29)
- أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ (33)
- فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ (6)
- الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (24)
- أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (14)
- لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (6)
- إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (9)
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (13)
- ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا ۚ وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ ۚ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (6)
- وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (12)
- تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ (17)
- وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (32)
- عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (1)
- إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ (23)
- الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (16)
- أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (13)

تلخيص ما سبق

إن ما يهمنا قوله هنا أن فرعون كذب:

- فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ (20) فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ (21)

وأن فرعون قد تولى بركنه:

- وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (38) فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (39) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (40)

ولو تدبرنا ما قاله موسى كما جاء في الآية الكريمة التالية، لوجدنا فيه شيء من الغرابة، قال تعالى:

- وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ (88)

ليكون السؤال هو: لماذا توجّه موسى بالدعاء إلى ربه بأن يهلك فرعون وملئه؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نجد أن موسى قد فعل ذلك لحصول العلم عنده بأن العذاب لا محالة واقع بفرعون وقومه.

السؤال: من أين علم موسى أن العذاب لا محالة واقع بهم؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الآية الكريمة التالية (كما نفهمها) تبين لنا السبب:

- **إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى (48)**

تخيلات مفتراة: يرسل الله موسى إلى فرعون، فما كانت ردة فرعون أكثر من التكذيب، ولم يكتف فرعون بالتكذيب ولكنه تولى أيضا، ما أن رأى موسى ردة فعل فرعون وملئه هذه، حتى تأكد العلم عنده بأن عذاب الله لا محالة واقع بهم وذلك لأن هذا ما قد أوحى الله إلى موسى وأخيه من قبل (أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى).

السؤال: كيف حصل ذلك؟

جواب مفترى: في اللقاء الأول الذي حصل بين موسى وربه في الواد المقدس، جاء الطلب الإلهي من موسى على النحو التالي:

- **فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44)**

السؤال: لماذا لم يرد موسى على ربه بالسؤال عن نهاية فرعون؟ لم لم يسأل موسى ربه كيف ستكون نهاية فرعون (أن يتذكر أو أن يخشى)؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن موسى وأخاه هارون قد سأل ربه عن نهاية فرعون، فكان الوحي الإلهي لهما على النحو التالي:

- **إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى (48)**

لذا، نحن نفهم أنه ما أن سأل موسى ربه عن نهاية فرعون حتى كانت الإجابة الربانية له تكمن في مراقبة ردة فعل فرعون نفسه، كان على موسى وهارون أن يراقبا ردة فعل فرعون، فإن هو كذب وتولى فإن العذاب لا محالة واقع بهم.

جواب: لماذا تولى فرعون؟

جواب مفترى: نحن نفتري القول بأن تولي فرعون كان هدفه الإفساد في الأرض:

- **وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (205)**

السؤال: إذا كانت هذه سنة كونية لمن يتولى، فأين الدليل أن فرعون قد تولى ليفسد في الأرض فعلا؟

جواب مفترى: دعنا ندقق في الآية الكريمة التالية التي تصور نهاية فرعون في الغرق:

- **وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91)**

ولو دققنا في الآية الكريمة التالية لوجدنا أن هذا ما كان يفعله فرعون من قبل:

- **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4)**

السؤال: من هم المفسدون في الأرض؟

جواب مفترى: هم الذين يعملون التقتيل في الناس، ففرعون كان مفسدا في الأرض لأنه جعل أهل الأرض شيعا، فاستضعف طائفة منهم وأخذ يعمل فيهم التقتيل. ولو دققنا في السياقات القرآنية أكثر لوجدنا أن على النقيض من المفسد (الذي يقتل) هو المصلح في الأرض، وهذا ما قاله الرجل الثاني لموسى عندما أراد أن يقتله في اليوم التالي:

- **فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19)**

لذا أصبح السيناريو هو التقابل بين من كان من المفسدين (فرعون) ومن أراد أن يكون من المصلحين (موسى). وأصبحت أدوات المواجهة هي العصا والكتاب. لنخلص إلى النتيجة التالية: كان بيد موسى عصا وكان بيد فرعون عصا، ولم يكن موسى قد حاز بعد على كتاب علم ما في القرون الأولى بينما كان فرعون عنده هذا الكتاب:

من المصلحين (موسى)	من المفسدين (فرعون)
عصا	عصا
....	كتاب

لذا كانت الكفة ترجح حتى هذه اللحظة لصالح فرعون. فهو من ظن أنه يستطيع أن يتفوق على موسى متى ما حصلت المواجهة الفعلية بين الطرفين.

لكن موسى كان يعلم سنة الله الكونية في المفسدين وهي استبدالهم بقوم آخرين، قال تعالى:

- **هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ۚ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم (38)**

نتيجة مفتراة: لما علم موسى أن ردة فعل فرعون هي التكذيب والتولي، كان على علم إذن بأن العذاب لا محالة واقع بهم، وأن استبدالهم لا محالة حاصل، وهذا ما حصل على أرض الواقع في نهاية المطاف:

- **كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (26) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (27) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (28)**

فكانت وراثة الأرض للقوم الصالحين:

- **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (105)**

(دعاء: أسالك الله أن أكون وذريتي من عبادك الصالحين المصلحين الذين يرثون الأرض وأنت خير الوارثين - آمين)

السؤال: إن صح ما تقول عن التولي، فكيف يمكن أن نفهم أن محمد نفسه قد تولى عندما جاءه الأعمى؟

- **عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَن جَاءهُ الْأَعْمَى (2) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (3) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى (4) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (5) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى (6) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (7) وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى (8) وَهُوَ يَخْشَى (9) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى (10) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (11) فَمَن شَاء ذَكَرَهُ (12)**

بداية، نحن نظن أن هذه الآيات يجب أن تفهم بشكل مختلف تماما عن ما وردنا في بطون أمهات الكتب كما نقله لنا أهل الرواية عن سادتنا العلماء أهل الدراية. وهي حادثة عظيمة جدا تحمل في ثناياها الكثير الكثير الذي يجب الوقوف عنده، كما نعتقد أن لها علاقة بقصة فرعون مع موسى، وإن كانت الصورة معكوسة الآن، فمحمد هو الذي تولى، وجاءه الردع الإلهي المباشر، لأن محمدا ما كان يجب أن يتولى. ولو لم يرتدع محمد عن توليه لحصلت (نحن نفتري القول) كارثة كبيرة جدا، ربما يصعب علينا الآن تخيل عواقبها. ولما كانت القصة كبيرة، وتفاصيلها دقيقة جدا، فإننا سنتعرض لها لاحقا بالتفصيل متى ما أذن الله لنا بشيء من علمه فيها، فالله وحده أسأله أن يعلمني أحسن ما أنزل إلينا منه، إنه هو العليم الخبير – آمين.

- **خروج عن النص في استراحة قصيرة: دورة الحرب والأركان**

السؤال: إذا كان هذا ما فهمناه حتى الساعة من معنى التولي، فلما تولى فرعون بركنه؟ فما هو الركن؟ وأين هو ركن فرعون الذي تولى به؟

جواب: لازال العسكر (وخاصة القادة منهم) حتى يومنا هذا يعقدون دورات الحرب والأركان. فيُنعت من يجتاز منهم هذه الدورة بـ لقب "الركن"، فيقولون مثلا أن فلانا هو عقيد ركن أو عميد ركن، وهكذا.

السؤال: لماذا هي دورة حرب وأركان؟ ولماذا هو عميد ركن أو عقيد ركن مثلا؟

جواب: إذا كان من المفهوم عندنا أن تكون هي دورة حرب، وذلك لأن القادة من العسكر على وجه التحديد يتدربون على فنون وتقنيات الحرب، فلم هي أيضا دورة أركان؟ ما معنى أن تكون دورة أركان؟ هل يفهم هؤلاء العسكر معنى المفردة التي يلقبون بها؟ من يدري؟!!!

رأينا: نحن نطلب ممن يقرءون هذه السطور أن يناقشوا من يعرفون من قادة العسكر الذين اجتازوا هذه الدورة ويحملون اللقب عن سر هذه التسمية، وسنكون شاكرين لهم إن وجدوا جوابا أن يوصلوه لنا.

أما نحن فإننا سنقدم للقارئ الكريم رأينا المفترى في هذه القضية، وهو على النحو التالي: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الركن هو "غرفة العمليات الحربية". فمن المفترض أن القادة من العسكر الذين يجتازون هذه الدورة قادرون على إدارة المعركة من ركنهم (أي من غرفة العمليات الخاصة بهم). انتهى.

الدليل

لو تدبرنا الآية الكريمة التالية، لوجدنا أن الركون (مشقة من الركن) هو الميل إلى جانب طرف على حساب طرف آخر:

- **وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ (113)**

فالله هو من ينهانا أن نركن إلى الذين ظلموا، لأن النتيجة ستكون وخيمة، والله هو من نهى النبي الكريم أن يركن إلى الذين كفروا:

- **وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً (74)**

لأنّ العاقبة ستكون حينها وخيمة:

- **إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (75)**

السؤال: كيف إذن سيركن النبي إليهم؟

جواب مفترى: دعنا ندقق فيما قاله لوط:

- **قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (80)**

فلو تدبرنا هذه الآية الكريمة، لوجدنا أن لوطا قد وجد نفسه في حرج مما يفعله قومه مع ضيوفه، فهو الآن في موقف لا يحسد عليه، فهو لا يستطيع أن يدافع عن ضيوفه في ضوء إصرار قومه (أهل المدين) على الظفر بهم، لذا فهو يتمنى شيئين اثنين: القوة (قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً)، أو أن يأوي إل ركن شديد (آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ). ليكون السؤال الآن: كيف نتصور ذلك الركن الذي يتمنى لوط أن يأوي إليه؟

جواب مفترى: إنه ما يشبه الحصن، الذي يصعب على العدو اختراقه، ومن ثم الوصول إلى من يأوي بداخله.

السؤال: لماذا هو قائد ركن إذن؟ لماذا يصبح من يدخل من العسكر دورة الحرب والأركان ركنا؟

جواب: لأنه هو المتواجد في الركن (أي في غرفة العمليات الحربية)، فهو القائد الذي يدير المعركة من ركنه. فمن يجتاز من القادة العسكريين هذه الدورة يصبح من الذين يمكن أن "يركن" عليهم لإدارة المعركة من داخل ركنه (أي غرفة عملياته). وما أكثرهم في بلاد العرب المنتصرين! أليس كذلك؟!!! ألا تجد عزيزي القارئ كثرة انتصارات العرب في معاركهم؟ ألا يعزى ذلك لكثرة الأركان فيهم؟!!! من يدري.

السؤال: متى سينتصر العرب إذن؟

جواب: عندما يفهم قادتهم من العسكر معنى الألقاب التي ينعتون بها أنفسهم.

قال تعالى:

- **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (5)**

عودة على بدء

نحن نتخيل فرعون يتخذ لنفسه ركنا (أي غرفة عمليات) ليدير من داخلها معركته الحاسمة مع خصمه (موسى).

- **فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (60)**

السؤال: ماذا يوجد في ذلك الركن؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نظن أن فرعون كان يملك في ذلك الركن شيئين اثنين، وهما:

⇐ كتاب (العلم)

⇐ عصا (القوة العسكرية)

باب الكتاب

رأينا: لقد افترينا في أكثر من موضع سابق أن فرعون هو من ورث علم القرون الأولى، ففرعون هو ذو الأوتاد:

- **كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (12)**

لذا، كان من أول الحديث الذي ابتدأ به فرعون حواره مع موسى يخص تلك القرون الأولى:

- **قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (51)**

ليكون السؤال الآن: لماذا بادر فرعون موسى بالسؤال عن القرون الأولى؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لأن فرعون يعلم ما بال القرون الأولى بينما ينقص موسى العلم بها.

السؤال: أين الدليل أن فرعون كان يعلم ما بال القرون الأولى بينما لم يكن موسى على علم بها؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الدليل على ذلك يمكن جلبه من صيغة الخطاب نفسه خاصة العبارة التي استخدمها فرعون نفسه وهي عبارة (فَمَا بَالُ)؟

- **قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (51)**

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: عند بحثنا عن هذه الصيغة في النص القرآني لم نجدها إلا في الآية الكريمة التالية:

- **وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (50)**

دقق – إن شئت- عزيزي القارئ جيدا في هذا السياق الخاص بقصة يوسف لتجد أن الذي استخدم صيغة مَا بَالُ على سبيل طرح السؤال هو يوسف نفسه:

- **... قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (50)**

السؤال: لماذا طرح يوسف السؤال بتلك الصيغة؟

رأينا المفترى: لأن يوسف كان على علم بتفاصيل ما فعلت النسوة. فالمتحدث الذي يطرح السؤال على محاوره بصيغة "ما بال" هو (نحن نظن) على علم بما حدث، ولكن المحاور هو الذي لا يعلم تلك التفاصيل، فيوسف هو من يسأل بصيغة مَا بَالُ لأنه (نحن نفتري القول) يعلم ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن، أما المسئول (وهو الملك) قد لا يكون علم بتفاصيل ما حدث، وإن كان ربما على علم بذلك من باب العموميات. وليس أدل على ذلك من إحضاره النسوة وسؤالهن عن ما جرى على أرض الواقع فعلا:

- **قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (51)**

فلو كان الملك (نحن نجزم القول) على علم بتفاصيل ما حدث، لربما لم يحتاج أن يجمع النسوة ليسألهن. لكن لمّا كان (نحن نظن) لا يعلم التفاصيل، كان عليه أن يجري تحقيقا بالقضية لتستبين الحقائق أمامه بحضور النسوة أنفسهن.

نتيجة مفتراة: لذا، نحن نفتري القول أنه عندما طرح فرعون التساؤل على موسى عن القرون الأولى بصيغة "مَا بَالُ"، فإننا نتجرأ على تقديم الافتراء الخطير بأن فرعون (السائل) كان على علم دقيق بتفاصيل تلك القرون الأولى. لكن – بالمقابل- لما كان علم موسى بها يقع في باب العموميات جاء رده على النحو التالي:

- **قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (52)**

السؤال: كيف علم فرعون التفاصيل الدقيقة عن تلك القرون الأولى؟

جواب مفترى: لو تفقدنا رد موسى بشيء من الدقة، لوجدنا فيه (نحن نفتري الظن) العجب. ولكن كيف ذلك؟

رأينا: نحن نظن أن من الخطأ حمل قول موسى على سبيل فهم العوام الذي لا يسمن ولا يغني من جوع. لكننا لا شك بحاجة أن نتدبر الصيغة التي جاء بها رد موسى جيدا لنخرج بافتراءات ربما تساعدنا على فهم المقصود من القول على حقيقته.

السؤال: وكيف يكون ذلك؟

رأينا: غالبا ما ظن من يقرأ الآية الكريمة أن موسى يقول بأن العلم بتلك القرون موجود في كتاب عند ربه، أليس كذلك؟

السؤال: وما الخطأ في هذا الفهم؟

رأينا: نحن نريد من القارئ الكريم أن يتفكر جيدا في قول موسى خاصة قضية التقديم والتأخير في هذه الآية الكريمة.

السؤال: لم أفهم شيئا، ما الذي تريد قوله؟

رأينا: دقق - عزيزي القارئ- في مكان وجود عبارة (فِي كِتَابٍ) في هذه الآية الكريمة:

- **قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (52)**

السؤال: ما الذي يمكن أن نستنبطه من ذلك؟

جواب خطير جدا مفترى من عند أنفسنا: إن علم القرون الأولى موجود في كتاب ولكن ذلك الكتاب ليس موجود عند رب موسى.

السؤال: هل جننت يا رجل؟ ما هو الموجود عند رب موسى إذن؟

جواب مفترى: إنه العلم بتلك القرون الأولى:

- **قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (52)**

السؤال: وأين ذلك الكتاب إن لم يكن موجود عند رب موسى إذن؟

جواب مفترى: نحن نحاول تسويق ظننا الذي مفاده أنه لو كان موسى يقصد من كلامه أن ذلك الكتاب موجود عند ربه، لربما جاء النص القرآني – برأينا- على النحو التالي:

قال علمها في كتاب عند ربي ...

فهناك فرق بيّن أن يأتي النص على هذا النحو (قال علمها في كتاب عند ربي ...) أو أن يكون على نحو ما قال موسى فعلا:

- قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ...

السؤال: ما الفرق؟

جواب مفترى خطير جدا: لا شك أن علم القرون الأولى موجود عن رب موسى (قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي)، لكن مادام أن العلم بها عند رب موسى، فهذا برأينا لا يمنع أن يكون العلم بها موجود في مكان آخر، ولو كان ما قاله موسى على نحو (علمها في كتاب عند ربي) لسلمنا بأن المكان الوحيد لذلك الكتاب هو عند رب موسى.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن الوسيلة للحصول على ذلك العلم هو الاطلاع على ما في ذلك الكتاب. فالمعلومة متوافرة في الكتاب، ولا ضير أن يكون هناك مَنْ عنده علم من الكتاب كجليس سليمان مثلا:

- قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (40)

نتيجة مفتراة: نحن لا نجد تعارضا بين أن يكون العلم الذي عند رب موسى موجود في كتاب، وفي الوقت ذاته يمكن أن يتحصّل البعض منا على علم من ذلك الكتاب، كما فعل من أحضر العرش لسليمان. فهو قد أحضره بما تحصل عنده من علم الكتاب، أليس كذلك؟

بناء على فهمنا المفترى هذا، فإننا نتجرأ على تقديم النتائج التالية:

نتيجة مفتراة (1): هناك كتاب موجود فيه علم القرون الأولى

- قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (52)

نتيجة مفتراة (2): يمكن الإطلاع والحصول على بعض ما في ذلك الكتاب:

- قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ...

نتيجة مفتراة (3) يمكن الحصول على علم الكتاب كله

- **وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (43)**

السؤال: مَن مِن الناس تحصل له الإطلاع على علم الكتاب؟

جواب مفترى خطير جدا جدا لا تصدقوه: نحن نظن أن فرعون قد تحصل له ذلك. انتهى.

(دعاء: اللهم أدعوك وحدك أن أكون ممن عنده علم الكتاب، وأعوذ بك وحدك أن يكون أمري كأمر فرعون، وما أمر فرعون برشيد، إنك كنت بي بصيرا – آمين)

السؤال: كيف تحصل لفرعون ذلك؟

جواب مفترى: لأنه هو الشخص الوحيد الذي تحصل له العلم بتلك الأوتاد، فكان هو بشخصه " ذُو الْأَوْتَادِ":

- **كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (12)**
- **وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (4) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (5) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (9) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (13) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14)**

تساؤلات

⇐ ما معنى أن يكون فرعون بشخصه ذي الأوتاد؟

⇐ لماذا كان فرعون هو بشخصه ذي الأوتاد؟

⇐ وكيف تحصل على ذلك؟

⇐ لماذا تحصل لفرعون ذلك؟

⇐ الخ.

رأينا المفترى: للإجابة على هذا التساؤل فلا بد (نحن نظن) من أن نعود بالنقاش في هذه القضايا من أوله، منطلقين من التساؤل الحتمي التالي: من هو فرعون هذا؟

باب: من هو فرعون؟

بعد تفقدنا لكثير من السياقات القرآنية الخاصة بفرعون وجدنا الآية الكريمة التالية:

- **وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِيۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51)**

وكانت المعلومة التي جلبت انتباهنا هي طريقة مخاطبة فرعون لمن هم حوله، فهو يوجّه لهم الخطاب بصيغة أنهم قومه على النحو التالي:

- **... قَالَ يَا قَوْمِ ...**

السؤال: لماذا وجّه فرعون للناس من حوله الخطاب بهذه الصيغة؟ أليس هو ربهم الأعلى؟

- **فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)**

أليس هو من قال أنه ليس لهم إله غيره؟

- وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)

فكيف بمن كان إلها، وكيف بمن كان ربا، أن يكون له قوم فيخاطبهم على نحو (يَا قَوْمِ)؟ نحن نسأل.

السؤال: مَنْ الذي يحق له أن يخاطب من حوله بصيغة (يَا قَوْمِ)؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: بعد تفقد هذه الصيغة على مساحة النص القرآني وجدناها محصورة بمكن كان نذيرا، أي من كان رسولا.

الدليل

فهذا موسى مثلا يخاطب الناس من حوله بهذه الصيغة (يَا قَوْمِ):

- وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (54)
- وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (20)
- يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (21)
- وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (84)
- فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (86)
- وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (5)

وهذا إبراهيم من قبله يستخدم الصيغة نفسها:

- فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78)
- قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (135)

وهذا نوح من قبلهما يوجه الخطاب لمن حوله بالصيغة نفسها:

- لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (59)
- قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (61)
- وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ (71)
- وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۚ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (29)
- وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (30)
- وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ (23)
- قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (28)

- إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (1) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (2)

وكذلك فعل هود في عاد:

- وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ (65)
- قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (67)
- وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (50)
- يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (51)
- وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (52)

واستخدم صالح الصيغة نفسها في ثمود:

- وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (73)
- فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (79)
- وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (61)
- قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (63)
- وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (64)
- وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (45) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (46)

وكذلك فعل شعيب في مدين:

- وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (85)
- فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ (93)
- وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (84)
- وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (85)
- قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (88)
- وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (89)

- قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (92)
- وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ۖ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (93)
- وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (36)

واستخدم لوط الصيغة نفسها:

- وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ۚ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (78)

وكذلك قال هارون في غياب موسى:

- وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (90)

وجاءت الصيغة على لسان محمد نفسه:

- وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (30)
- وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (38) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (39) مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (40)

وقد وجدنا أن هذه الصيغة قد استخدمت على لسان الذي كان يكتم إيمانه من آل فرعون، وهو في ظننا من عزز الله به موسى وهارون:

- وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20)
- قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26)
- يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (29)
- وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (30)
- وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (32)
- وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (38)
- يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (39)
- وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41)

ولو تدبرنا السياقات القرآنية التالية لوجدنا أن نفر من الجن قد استخدموا هذه الصيغة:

- قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (30)
- يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (31)
- وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (29) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (30) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن

ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (31) وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَولِيَاء أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (32)

ولو تدبرنا الموقف أكثر، لوجدنا أنهم قد ولّوا إلى قومهم منذرين:

- وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (29)

وأن أولئك النفر من الجن قد قاموا بالمهمة التي يقوم بها الرسول:

- قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (2) وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (3) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (4) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (5) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (6) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (7) وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (8) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (9) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (10) وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (11) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا (12) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (13) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (14) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (15) وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا (16) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (17) وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (18)

ومن هذا المنطلق كان فرعون ينادي في قومه:

- وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِيۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51)
- وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍۖ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (12)

ثانيا: من كان يخاطب قومه بهذه الصيغة فهو يملك من أخبار من سبق كما فعل الرجل الذي كان يكتم إيمانه من آل فرعون:

- يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَاۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (29) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (30)وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (32) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (38) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (39) وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41)

أو كما فعل شعيب:

- وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (89)

نتيجة مفتراة: لمّا كان فرعون يخاطب من حوله بصيغة يا قوم، فهو إذا على علم بما حل بالأمم السابقة.

السؤال: لماذا لم يؤمن فرعون؟

جواب مفترى خطير جدا: نحن نظن أن العلم الذي تحصل عليه فرعون جعله يظن أنه أعلى مرتبة من أن يكون رسولا

منطقنا المفترى: إن هذا الطرح يدعونا على الفور لتدبر سيرة حياة هذا الرجل من أولها حتى آخر يوم فيها وهو يوم أن نجاه الله ببدنه من الغرق حتى كان لمن خلفه آية:

- **فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (92)**

فلقد كانت السمة الأبرز لفرعون أنه هو من ملك علم الأوتاد، فكان:

- **كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (12)**
- **وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10)**

ولو دققنا في النص جيدا لوجدنا أن فرعون لم يكن صاحب الأوتاد وذلك لأنه – برأينا- لم يكن يسكنها كما فعل أصحاب السفينة مثلا:

- **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (14) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (15)**

فبالرغم أن نوحا هو من بنا السفينة إلا أنه لم يكن من أصحابها، لأن الصاحب هو الذي يتخذ المكان للمكوث فيه لغرض محدد، ثم ما يلبث أن يتركه، وقد لا يستفيد منه بعد ذلك.

لكن الذي يبقى يستفيد من الشيء على الدوام فهو من جاء بصيغة ذي/ذا/ذو، مثل "ذي" القرنين، وهو – برأينا- من كان يمتلك من العلم ما حاز عليه قرنان من القرون الأولى:

- **وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (83)**
- **قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (94)**

أو كذي النون:

- **وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87)**

وهو الذي امتلك علم النون:

- **ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1)**

السؤال: ما العلم الذي امتلكه فرعون وهو من استحق أن ينعت بذي الأوتاد؟

جواب: إنه كل العلم الموجود في الأوتاد (أي الأهرامات)

السؤال: ما هو ذلك العلم؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: إنها علم آيات الكتاب المبين.

السؤال: وما هي آيات الكتاب المبين؟

جواب: نحن نظن أن آيات الكتاب المبين هو ما جاء في قوله تعالى:

- طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2)

السؤال: لم أفهم ما تود قوله؟ هل يمكن أن تفصح أكثر عن مراد القول هنا؟ يسأل صاحبنا.

جواب مفترى: دعنا ندقق في الآيات السابقة في سياقها القرآني الأوسع:

- **طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4)**

ألا ترى – عزيزي القارئ- أن الحديث هنا عن تلاوة نبأ موسى وفرعون بالحق؟ ألا ترى أن الحديث هنا عن علو فرعون في الأرض؟ ألا يحق لنا أن نسأل عن كيفية علو فرعون في الأرض؟ ألا يحق لنا أن نسأل عن سبب علوه في الأرض؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن فرعون علا في الأرض لأنه كان يملك مقومات العلو فيها.

السؤال: وما هي مقومات العلو في الأرض؟

جواب مفترى: نحن نظن أن من مقومات العلو في الأرض هو العلم بآيات الكتاب المبين؟

السؤال: وما هي آيات الكتاب المبين التي كان فرعون على علم بها؟

جواب مفترى: إنها طسم (1)

نتيجة مفتراة خطيرة جدا: نحن نفتري القول بأن طسم هي نفسها آيات الكتاب المبين التي رأها فرعون كلها:

- **وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56)**

السؤال: ما هذه "طسم"؟

جواب مفترى خطير جدا: هذه ثلاث آيات من آيات الكتاب المبين وهي على الترتيب:

⇐ علم ط

⇐ علم س

⇐ علم م

ونحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن فرعون قد حاز على العلم بهذه الآيات من الكتاب المبين.

السؤال: وما هي هذه الآيات الثلاثة (طسم):

جواب مفترى خطير جدا من عند أنفسنا: نحن نظن أن هذه الآيات هي ثلاثة علوم كونية، ألا وهي:

⇐ علم تسخير الجآن

⇐ علم الإحياء والإماتة

⇐ علم الفلك

السؤال: هل يمكن أن تثبت ذلك لنا بالبرهان؟

جواب مفترى: نعم، استطيع ذلك. وأسأل الله أن ينفذ مشيئته لي الإحاطة بشيء من علمه فيها.

السؤال: إن كنت تستطيع ذلك، فهات ما عندك؟

جواب مفترى: هذا ما سنتناوله في بداية الجزء القادم من هذه المقالة بحول الله وتوفيق منه.

سائلين الله وحده أن ينفذ مشيئته وإرادته لنا الإحاطة بشي من علمه لا ينبغي لغيرنا، إنه هو العليم الحكيم، وأدعوه وحده أن يؤتيني رشدي، وأن يجعل لي من لدنه سلطانا نصيرا، وأعوذ به أن يكون ممن يفترون عليه الكذب، أو ممن يقول عليه ما ليس لهم بحق، وأعوذ به أن يكون أمري كأمر فرعون، وما أمر فرعون برشيد، إن ربي الرحمن الرحيم – آمين.

المدّكرون: رشيد سليم الجراح & المهندس يزن علي سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان

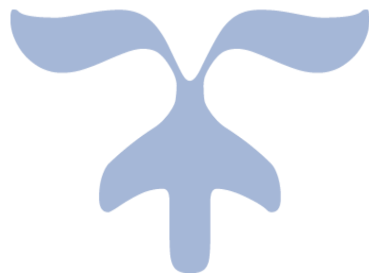
بقلم د. رشيد الجراح

10 كانون أول 2015



قصة يونس

الجزء الثاني والثلاثون



قصة يونس: الجزء الثاني والثلاثون

خلصنا في نهاية الجزء السابق من هذه المقالة إلى افتراء الظن من عند أنفسنا بأن الآيات الكريمة التالية تصوّر لنا الآيات التي أراها الله لفرعون:

- **طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4)**

فالله هو الذي أثبت لنا أنه قد أرى ذلك الرجل آياته كلها، لكنه كذّب وأبى:

- **وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (57)**

ونحن نعلم أن آيات الله موجودة في الآفاق وفي أنفسنا:

- **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (53)**

ولمّا كان هناك عدة آفاق، كان هناك أفق أعلى:

- **وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (7)**

وهذا الأفق الأعلى هو الذي لم يستطع فرعون أن يتجاوزه عندما طلب من هامان أن يبني له صرحا ليطّلع بواسطته على إله موسى:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37)**

لذا نحن نتخيل بأنه ما أن وصل فرعون الأسباب (أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ) حتى وجد من هو بالأفق الأعلى، وهو إله موسى، وقد حجب رؤيته الغمام:

- **هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الامُورُ (210)**

فتأكد لفرعون أن هناك إله كما قال له موسى:

- **قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50)**

وهنا خاب ظن فرعون الذي قال لقومه من قبل أنه لم يعلم لهم إله غيره:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39)**

فعاد فرعون من هناك يعلم يقينا أن هناك إله غيره، فخفف نبرة الخطاب على من هم حوله، فظن أنه هو ربهم الأعلى:

- **فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)**

وبهذا أصبح فرعون من العالين في الأرض:

- إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4)

واستمر فرعون في مكابرته، وفي ظنه أنه هو إله الأرض (مصر)، فعقد مقارنة بينه وبين إله موسى الذي لا يكاد يبين:

- وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52)

فكانت نبرة التحدي لإله موسى نفسه واضحة في خطابه لمن حوله. ولو تفقدنا السياقات القرآنية الخاصة بفرعون وقومه، لما وجدنا أن القوم ينكرون عليه قوله، كما لا نجد أن قوم فرعون قد صدّقوا برسالة موسى، فلم يتبع موسى من قوم فرعون إلا رجل واحد وقد كتم إيمانه:

- وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28)

فكان فرعون هو فعلا من أضل قومه وما هدى:

- وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (79)

لتصبح المقابلة الآن بين إلهين (وهما إله موسى من جهة وفرعون من جهة أخرى) على النحو التالي:

إله موسى	فرعون
قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50)	وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (79)

السؤال: ما الفرق بين الرب الذي يهدي (إله موسى) والرب الذي لا يهدي (كفرعون)؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الهداية هي هداية الصراط المستقيم:

- وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (114) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (115) وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (116) وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (117) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (118)

وهذه الهداية ليست فقط خاصة بموسى وهارون، وإنما بكل مؤمن برب موسى وهارون:

- قَالُواْ آمَنَّا بِرِبِّ الْعَالَمِينَ (121) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (122)
- قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (47) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (48)

فهذا هو الدعاء الأول والأبدي في كتاب الله:

- بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (1) الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ (7)

فهداية الصراط المستقيم هي ما يستطيعها رب موسى وهارون فقط، وذلك لأن هناك من يقعد للناس (كل الناس) صراط الله المستقيم ليصدهم عن السبيل:

- قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (17) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ (18)

فمن أراد أن يفلت من هذا الذي قعد لنا صراط الله المستقيم، فعليه أن يستعين برب العالمين، مالك يوم الدين:

- **بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (1) الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ (7)**

لتكون الغاية القصوى من عبادته (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) هو أن يعيننا (وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) بهداية الصراط المستقيم:

- **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ (6)**

وهذا الصراط هو الصراط نفسه الذي اتبعه من أنعم الله عليهم، وهم الذين جاء ذكرهم في قوله تعالى:

- **وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (69) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ عَلِيمًا (70)**

(دعاء: اللهم أدعوك وحدك أن أكون من الذين يعبدونك ويستعينون بك، فتهديهم صراطك المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا – آمين).

وتكمن الوسيلة في إطاعة الله ورسوله، فمن يطع الله ورسوله فقد ظفر بذاك الفضل لأنه مع الذين أنعم الله عليهم وهم (النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ)، وتكون النتيجة هي الفوز العظيم:

- **يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (71)**

لمّا كان فرعون من الذين لم يطع الله ورسوله، فهو إذن لم يكن من الذين أنعم الله عليهم. لذا فلن يكون من الذين يفوزون فوزا عظيما.

لكن السؤال الجوهري الذي نحاول جاهدين الوصول إليه هو: لماذا وثق قوم فرعون وآل فرعون وملأ فرعون به إلى هذه الدرجة؟ لم كانت طاعتهم له طاعة شبه عمياء؟ ألم يبعث الله لهم رسولين اثنين (موسى وهارون)؟ ألم يبعثهما بالآيات البينات؟ ألم يعززهما برسول ثالث؟ لم إذن لم تنجح كل هذه الوسائل لثني قوم فرعون وآل فرعون وملأ فرعون عن اللحاق بركب فرعون الذي أضلهم وما هدى؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن السبب في ذلك ربما يعود لأن فرعون قدّم لهم من البراهين ما يكفيهم لتصديقه.

السؤال: وكيف ذلك؟ ما الذي قدّمه لهم فرعون؟

جواب مفترى خطير جدا: نحن نظن أن فرعون قدم لمن حوله من الدلائل ما لا يستطيع تقديمه إلا من كان إلها. انتهى.

السؤال: ما الذي قدمه لهم فرعون على وجه التحديد؟

1. أسكنهم في صروح
2. جعلهم قاهرين لمن هم دونهم

- **وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127)**

3. أجرى الأنهار من تحته

- وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51)

4. جعل لهم جنات وعيون

- كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25)

5. جعل لهم زروعا ومقاما كريما، ونعمة كانوا فيها فاكهين

- وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (26) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (27)

6. جعل لهم الكنوز:

- فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58)

7. القي على فرعون أسورة من ذهب

- أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53)

8. كان فرعون قادرا على أن يحشر الناس

- قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (59)
- فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)

9. أصبح لهم الملك، وكانوا ظاهرين، كما جاء على لسان من كان يكتم إيمانه من آل فرعون:

- يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (29)

10. الخ

لو تفقدنا الآيات التالية، لوجدنا أن مجرد القدرة على الحشر، تعنى عدم مغادرة منهم أحدا:

- وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (47) وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا (48)

ولو تفقدنا هذه الآيات الكريمة السابقة، لوجدنا أن بروتوكولات فرعون تشبه في تفاصيلها الأحداث التي لا يقدر عليها إلا من كان إلها.

السؤال: ما الذي حصل في يوم الحشر الفرعوني؟ كيف كانت بروتوكولات (أو لنقل مراسم) ظهور فرعون في ذلك اليوم؟

جواب مفترى: بداية حصل النداء من الفرعون بالحشر، فما استطاع أحد أن يتخلف:

- فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)

كان ذلك في يوم الزينة حسب طلب موسى:

- قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ ... (59)

كان التوقيت هو ضحى:

- ... وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (59)

حصل ذلك في مكان سوى بين الطرفين:

- فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى (58) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (59)

كان المكان السوى هو النقطة الفاصلة بين الوجه البحري (حيث فرعون وملئه) والوجه القبلي حيث موسى ومن معه:

- وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (87)

فكانت صروح قوم فرعون مبنية على تلك الأنهار التي تجري من تحت فرعون نفسه:

- وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51)

كان قوم موسى متواجدين في الطرف الآخر المقابل، فكانت بيوتهم قبلة:

- وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (87)

كان الخط الفاصل بين الطرفين هو الأخدود:

- وَالسَّمَاء ذَاتِ الْبُرُوجِ (1) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (2) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (3) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (4) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (6) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8)

(وسنتحدث عن تفاصيل هذا الأخدود وذلك اليوم الموعود في مقالات قادمة بحول الله وتوفيق منه)

فالله وحده أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يزدني علما وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا، إنه هو السميع العليم – آمين)

خرج فرعون وقد ألقي عليه أسورة من ذهب:

- أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53)

كانت هذه الأسورة علامة فارقة لا يقدر عليها إلا من كان مثل فرعون.

نتيجة مفتراة: مادام أن فرعون يستنكر على خصمه أنه لم يلقى عليه أسورة من ذهب ولم يأتي معه الملائكة مقترنين، فإننا نفتري الظن بأن فرعون قد كان له ذلك، فهو إذن قد ألقي عليه أسورة من ذهب، وهو قد جاء معه من يعاونه في مهمته تلك وهو هامان وجنوده:

- وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6)
- فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8)

ولو تدبرنا مفردة "خَاطِئِينَ"، لوجدنا أنها جاءت في النص القرآني بحق امرأة العزيز التي كادت ليوسف:

- فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (28) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (29)

وكذلك جاءت بحق إخوة يوسف الذين كادوا بأخيهم، ورفضوا الإقرار في بداية الأمر بالحكمة الإلهية التي آثرت يوسف عليهم:

- قَالُواْ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (90) قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (91)

وأقروا بذلك عندما رأوا الآية البينة بأم أعينهم، وهو القميص الذي ألقي على وجه أبيهم، فأرتد بصيرا:

- فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (96) قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (97)

ولو حاولنا تطبق ذلك في حالة فرعون، لوجدنا أن فرعون قد كاد بموسى:

- أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37)

وهو لم ينزل عند الحكمة الإلهية التي قضت باختيار موسى:

- فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي يَا مُوسَى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (13) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14) إِنَّ السَّاعَةَ ءاَتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (15) فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (16) وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (18) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (20) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (21) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (22) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (23) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (24)

ولم يرضى بالاصطفاء الإلهي لموسى برسالاته وبكلامه:

- قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (144) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (145)

بالضبط كما لم يرض إخوة يوسف في بداية الأمر بالحكمة الإلهية لاصطفاء يوسف وتفضيله له عليهم، فكانوا خاطئين (كما كان فرعون ومن وعه خاطئين (إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ):

- قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (91)

وكان السر في ذلك كله هو استكبار فرعون:

- سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ (146)

مقارنة بين إبليس وفرعون

لو تدبرنا السياقات القرآنية الخاصة بإبليس، لوجدناها تتحدث عنه على أساس أنه قد استكبر:

- إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (74)
- قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (75)

ولكن، لو تدبرنا السياقات القرآنية الخاصة بفرعون وقومه لوجدنا أنهم كانوا مستكبرين وعالين:

- فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (133)
- ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (75)
- إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (46)
- وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39)
- وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (39)
- قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10)
- ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23)
- إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4)

السؤال: ما الفرق بين الاستكبار والعلو؟

جواب مفترى 1: نحن نظن أن الاستكبار يكون على الخلق، فإبليس قد استكبر على آدم (المخلوق)، لذا جاء السؤال الإلهي له على النحو التالي:

- قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (75)

ولمّا كان إبليس من المستكبرين ولم يكن من العالين، جاء رده على النحو التالي:

- ... قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (12)

نتيجة مفتراة 1: جاء رد إبليس على الفور بأنه من المستكبرين (على آدم) وليس من العالين:

- قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (76)

السؤال: إذا كان هذا هو الاستكبار، فما هو العلو؟ ولماذا اختار إبليس أن يكون من المستكبرين، ولم يكن من العالين؟

جواب مفترى: لأن من كان من العالين فهو يتطاول على الإله نفسه، فالله هو الأعلى:

- سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1)
- إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (20)

فإبليس يؤكد بأن جوهر مشكلته هي مع هذا المخلوق الجديد (آدم)، لذا فهو يظن أنه خير منه، لذا كان قد استكبر:

- وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (34)

ولكن لم يكن عنده مشكلة مع ربه، بدليل أنه استمر الخطاب مع الإله بهذه الصيغة (قَالَ رَبِّ) حتى بعد أن أُخرج من الجنة وكان رجيما:

- قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (34) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (35) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (36)

ولكن لو راقبنا – بالمقابل - ردة فعل فرعون، لوجدنا أنه يصف نفسه بأنه هو الأعلى:

- فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)
- إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4)

وهكذا كان قوم فرعون:

- إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (46)

نتيجة مفتراة: لذا نحن نفتري الظن بأن مشكلة فرعون كانت أكبر من مشكلة إبليس وذلك لأن إبليس استكبر لكنه لم يعلو، لكن فرعون (وقومه من بعده) بالمقابل استكبر وعلا في الأرض:

إبليس	فرعون
استكبر	استكبر
لم يعلو	علا في الأرض

ومن هنا يمكن أن نفهم كيف كان الشيطان تابعا لفرعون:

- وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175)

نتيجة مفتراة: كان فرعون هو الشخص الوحيد على الأرض الذي تبعه الشيطان. ففي حين أن البشر جميعا قد يتبعوا الشيطان، كان الشيطان يبع فرعون:

- يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (168)
- يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (208)
- وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (142)
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (21)

نتيجة مفتراة مهمة جدا: إن صحّ منطقنا المفترى هذا عن فرعون (وهو الشخص الذي تبعه الشيطان بنفسه)، فيجب علينا أن ننزل الرجل منزلته التي تبين شأنه، فلا ننظر إليه (بسخافة الفكر الشعبي) على أنه حاكم ظالم مستبد. فالقرآن الكريم قد أفرد مساحة لفرعون لم يفردها حتى لأولي العزم من الرسل، فلقد جاء ذكره في كتاب الله أكثر من ذكر أي رسول كريم، وقد أخذت قصته مع موسى وبني إسرائيل الحيز الأكبر في كتاب الله. لذا وجب علينا التوقف لتدبر الاهتمام الإلهي بشخص هذا الرجل على وجه التحديد، وبالفترة الزمنية التي عاصرها والتي سطرت كل تفاصيلها في كتاب الله الكريم، فكانت قرآنا يتلى لكل جاءهم هذا القرآن كهداية من رب الأرض والسموات العلى. لذا وجب علينا طرح كل التساؤلات الممكنة التي قد توصلنا الإجابات الصحيحة عليها إلى فهم شخصية فرعون نفسه ومن ثم فهم تفاصيل قصته كلها. فهذا ما سنحاول الخوض فيه في هذا الجزء من المقالة وفي الأجزاء القادمة بحول الله وتوفيق منه. فالله وحده أسأل أن يعلمني ما لا ينبغي لغيري إنه هو الواسع العليم – أمين.

أما بعد،

السؤال: ما الذي جعل فرعون على وجه التحديد يظن أنه هو ربهم الأعلى؟ وما الذي جعل قومه يظنون أنهم عالين؟

السؤال: ما الذي دفع فرعون وقومه إلى الاستكبار (على الآخرين) والعلو (على الخالق)؟

السؤال: ما الذي جعل الشيطان تابعا لفرعون على وجه التحديد؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نظن أن فرعون كان يملك مقومات العلو في الأرض.

السؤال: وما هي مقومات العلو في الأرض؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: أنا أظن أن واحدة من مقومات العلو في الأرض هي السلطان.

السؤال: وما هو السلطان الذي جعل فرعون يظن أنه الأعلى؟

جواب مفترى: إنها العصا.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: كان فرعون يملك بيده عصا، ظن أنها هي الآية الكبرى التي لا يمكن أن تقهر، فاستخدمها لبسط نفوذه وسيطرته على أرض مصر، فكان له ملك مصر كلها. ولم يكتف عند ذلك الحد، بل فعل بها ما ظن من حوله أنها معجزات لا يقدر عليها إلا من كان إلها، ففجر بها الأنهار التي تجري من تحته:

- وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53)

وأنشأ لهم الجنات والعيون في أرض مصر:

- كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25)

وتحصل لهم الزروع والمقام الكريم:

- وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (26)

فكنوا في نعمة (التي لا تحصى) فاكهين:

- وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (27)

وتحصل لهم الكنوز:

- وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58)

وأصبح لهم الملك، فكانوا ظاهرين في الأرض:

- يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (29)

فظن قوم فرعون وآل فرعون وملأ فرعون أن هذه قدرات خارقة لا يستطيعها إلا من توافرت فيه خصائص الإله. انتهى.

السؤال: كيف يمكن أن نتصور ذلك؟ كيف يمكن أن نتصور الحياة التي صنعها فرعون وقومه في أرض مصر في تلك الحقبة الزمنية؟

رأينا المفترى الخطير جدا جدا: نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن الحياة التي صنعها فرعون وقومه في أرض مصر في تلك الحقبة الزمنية تشبه في تفاصيلها حياة جنات النعيم التي أعدها الله للمتقين. انتهى.

الدليل

أولا، لو تفقدنا السياقات القرآنية الخاصة بالجنات والعيون على مساحة النص القرآني لما وجدناها قد ذكرت إلا في المواطن التالية:

1. جنات الخلد التي أعدها الله للمتقين، قال تعالى:

- إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (45) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (46)
- إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (51) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (52) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ (53)
- إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (16) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (19)

2. في قوم عاد، قال تعالى:

- فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (131) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (132) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (133) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (134)

3. في ثمود، قال تعالى:

- وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (145) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (146) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (147) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (148) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (149)

4. في قوم فرعون، قال تعالى:

- كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (26) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (27)
- فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (59)

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن هذه الحضارات الأرضية الثلاثة وهي عاد وثمود وقوم فرعون هم من استطاعوا أن ينشئوا جنات وعيون مثل تلك التي أعدها الله للمتقين. لذا نجد الجمع بين هذه الحضارات الثلاثة واضحا في الآيات الكريمة التالية:

- **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (9) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (13) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14)**

ثانيا، ولو تدبرنا الآية الكريمة الخاصة بقوم فرعون التالية التي تصور بأنه كان لهم نعمة فيها فاكهين في تلك الجنات

- **وَاتْرُكْ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (24) كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (26) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (27)**

لما وجدناها تكررت إلا في جنات النعيم فقط:

- **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (17) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (18)**

لتكون النتيجة على النحو التالي: لقد استطاع فرعون أن يخلق لقومه في أرض مصر (أرض إرم – أي الهرم) جنات تجري من تحتها الأنهار، فكانت جنات وعيون، فعاشوا فيها في نعمة فاكهين. فلم يكن نتيجة لذلك صدى في أنفسهم لدعوة هارون وموسى فيهم. فكيف بهم سيتركون كل هذه النعمة (التي لا تحصى) والتي كان فرعون هو سببها من أجل اللحاق بموسى ومن معه من المستضعفين في الأرض؟

ثالثا، لو تفقدنا ما قاله الرجل المؤمن الذي يكتم إيمانه من آل فرعون لوجدنا فيه ما يجلب الانتباه على الفور، فدعنا نقرأ الآية الكريمة التي جاءت على لسان ذلك الرجل ثم نحاول تدبر بعض ما جاء فيها:

- **يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (29)**

السؤال: ما معنى قول الرجل لهم بأنهم ظاهرين في الأرض؟ فما هو الظهور في الأرض؟ وكيف يختلف الظهور في الأرض عن الملك (يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ)؟

رأينا المفترى: نحن نميز بين الملك والظهور في الأرض، فالملك شيء والظهور في الأرض شيء آخر، وإلا لانتفت الحاجة إلى مجاورة اللفظ (يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ). ونحن نظن أن الملك يعني السيطرة السياسية والعسكرية، فصاحب الملك هو رأس السلطة السياسية والعسكرية في الدولة. فالغلبة السياسية والعسكرية – لا شك- كانت لـ آل فرعون:

- **وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127)**

لكن يبقى السؤال قائما: كيف كانوا ظاهرين بالإضافة إلى الملك (يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ)؟

جواب خطير جدا جدا: نحن نظن أن ظهورهم في الأرض كان بسبب طريقة سكنهم، كما جاء في الآية الكريمة التالية:

- وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (33)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن الظهور له علاقة بطريقة السكن، فلقد كان آل فرعون يسكنون في معارج في سماء مصر، وكانت لبيوتهم سقفا من فضة. فكان ذلك سبب توحدهم في أمة واحدة، فكفروا جميعا بالرحمن.

رابعا، كان لقوم فرعون مقام الكريم، قال تعالى:

- فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58)
- كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (26)

السؤال: ما معنى أن مقام قوم فرعون الذي تركوه وراءهم كان مقاما كريما؟ ومتى ينعت المقام على أنه كريم؟

جواب مفترى: لا شك أن المقام هو مكان السكن، كمقام إبراهيم في البيت:

- وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125)

فالنار هي مكان الإقامة السيئ:

- إِنَّهَا سَاءتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66)

والجنة هي المقام الحسن:

- خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (76)

لكن يبقى السؤال هو: متى يمكن أن ننعت المقام على أنه مقام كريم؟ أو كيف يكون المقام كريما؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن المقام يكون كريما عندما يكون مرتفعا.

الدليل

ها هي المرأة في سبأ يلقى إليها كتاب كريم:

- قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (29)

ونحن نظن أن واحدة من أسباب أن يكون ذلك الكتاب كريما هو مصدره، فهو قد جاءها من الأعلى.

وهذا الرزق (الذي لا شك مصدره السماء) هو رزق كريم:

- أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (4)

والله هو رب العرش الكريم لاستحالة أن يرتفع فوقه شيء آخر:

- فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (116)

لاحظ كيف نعت الله العرش في مكان آخر بأنه عظيم:

- اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (26)

ولكن في الوقت ذاته جاء وصف عرش المرأة في سبأ على أساس أنه هو أيضا عرش عظيم:

- إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23)

لكن على الرغم أن عرش الله عظيم وعرشها أيضا عظيم، إلا أن عرش الله فقط هو عرش كريم:

- **فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (116)**

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أنه في حين تدل مفردة عظيم على قدرة العرش (capacity) فإن مفردة كريم تدل على موقعه (location). فعرش الله هو الذي يرتفع على كل ما دونه. لذا فهو كاشف، فلا يخفى على الله شيء في الأرض ولا في السماء.

السؤال: كيف يمكن أن نتخيل ذلك؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: كان آل فرعون يسكنون في سماء أرض مصر في بروج مشيدة (أي صروحا)، وهي التي كان يشيدها لهم هامان وجنوده:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36)**

وكانت هذه الصروح عبارة عن معارج، أي طبقات فوق بعضها البعض، ترتفع في سماء مصر بارتفاع مكانة صاحبها، حتى كان الصرح الأعلى على الإطلاق وهو صرح فرعون نفسه. فكان قوم فرعون ظاهرين في الأرض:

- **يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (29)**

السؤال: كيف استطاع فرعون فعل ذلك؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري القول بأن فرعون استطاع أن يفعل كل ذلك بعصاه.

وهنا نثير سؤالين اثنين وهما:

1. ما الذي فعله فرعون في قومه حتى ظنوا أنه إلها؟
2. كيف فعل فرعون ذلك؟

افتراء رقم 1: نحن نظن أن ما فعله فرعون في قومه لا يستطيع أن يقوم به بشر، فحتى رسل الله لا يستطيعون ذلك.

السؤال: ما الذي لا يستطيع فعله البشر، وفعله فرعون في قومه؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن ما جاء في الآية الكريمة التالية (التي تصور الطلبات التعجيزية التي كان يطلبها القوم من رسلهم) هو (نحن نفتري الظن من عند أنفسنا) ما استطاع فرعون أن يفعله:

- وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (93)

فلقد كان فرعون قادرا على :

⇐ تفجير الأنهار

⇐ بناء بيوت من زخرف

⇐ الرقي في السماء

⇐ تنزيل الكتاب

⇐ الخ.

باب تفجير الأنهار

نحن نفتري الظن من عند أنفسنا أن فرعون كان قادرا على تفجير الأنهار:

- وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51)

ويميل الظن عندنا إلى أن فرعون قد فعل ذلك بنفس الطريقة والآلية التي استخدمها موسى لاحقا عندما ضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه أثنتا عشرة عينا:

- وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (60)

بدليل كثرة العيون في أرض مصر في زمن هذا الفرعون، وهي العيون التي كانت متواجدة في الجنات، والتي تركوها وراءهم وأورثها الله قوما آخرين:

- كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (26) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (27)

تخيلات مفتراة: أصبحت أرض مصر كلها في زمن هذا الفرعون هي أرض الجنات والعيون التي فجّرها لهم فرعون، فكانت لهم الزروع وأصبحت عليهم النعمة التي كانوا فيها فاكهين، فأصبحت حياتهم شبيهة بجنات النعيم التي أعدها الله للمتقين.

باب: بيوت من زخرف

لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل تحصّلت لهم الكنوز العظيمة، فكان لبيوتهم سقفا من فضة، وأبوابا وسررا عليها يتكؤون:

- وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (33) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِؤُونَ (34) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (35) وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (37)

وكانت هذه أيضا مما أورثه الله لبني إسرائيل من كنوز قوم فرعون:

- فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (59)

باب الرقي في السماء

ولما كانت بيوتهم في معارج عليها يظهرون، انفرد هذا الفرعون بأن يكون هو الأقدر على الرقي في السماء، فهو الذي طلب من هامان أن يبني له صرحا ليبلغ أسباب السموات:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37)**

تلخيص ما سبق: كانت هذه الأفعال جميعها كفيلة بأن تقنع قوم فرعون وآل فرعون وملئه بأنه هو فعلا ربهم الأعلى، فجاءوا صفا واحدا، وحدثت المنازلة بين الطرفين:

- **قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (63) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (64)**

السؤال: ما الذي حصل بعد ذلك؟

جواب مفترى: ما أن رأى فرعون بأم عينه ما تعمله عصا موسى من الأعاجيب حتى أدرك أن هذا أكبر مما يتحمله هو في منازلة مباشرة مع موسى والسحرة في ذلك الوقت، فاكتفى بالوعيد والتهديد:

- **قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (71)**

ولم يستطع فرعون أن ينزل العقاب الفوري بموسى ومن معه بالرغم من خسارته المنازلة الأولى وذلك بسبب السلطان الذي كان بيد موسى، وهو ما أعطاه الله بنفسه لموسى حتى لا يصل إليه فرعون وجنوده:

- **قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (35)**

لكن، من أجل أن لا يظهر فرعون ضعفه أمام الجميع في المواجهة المباشرة اكتفى بالوعيد والتهديد، ليقتنع من معه (نحن نتخيل) أن الأمر لم يحسم بعد وأن المواجهة المرتقبة القادمة ستحمل معها المفاجئات الأكبر من فرعون نفسه.

السؤال: لماذا كان قرار فرعون هو تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف والتصليب لهؤلاء الذين لحقوا بموسى؟

جواب مفترى: لأن فرعون كان يعتبر نفسه إلها، وهذه هي شريعة الإله (كل إله) لكل من يفسد في الأرض:

- **إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (33)**

ففرعون (كإله) كان يظن أن هؤلاء (أي موسى ومن لحق به) مفسدون في الأرض:

- **وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127)**

وفي هذه اللحظة التي لحق بها السحرةُ الركب مع موسى ومن معه، أدرك فرعون أن ملكه على أرض مصر قد بدأ يتهاوى شيئا فشيئا، فكان لابد من اتخاذ القرار الحاسم بحق كل من أفسد في الأرض، ويكون ذلك

بالتقتيل (لأبناء بني إسرائيل) والتصليب وتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف (للسحرة). لكنه لم يكن ليقبل أن ينفوا من الأرض، لأن في نفيهم من الأرض تزداد قوتهم عندما يصلون إلى الأرض المقدسة (أرض الإله الحقيقي الذي يؤيدهم).

السؤال: كيف كان فرعون سيقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ويصلبهم في جذوع النخل بنفسه؟

- **قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (71)**

جواب مفترى: بالسلطان الذي بيده، أي عصاه

السؤال: لماذا لم يفعل ذلك في الحال؟

جواب: لأن عصا موسى كانت ستمنعه

السؤال: ما الذي فعله فرعون بعد ذلك؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: في هذه اللحظة أدرك فرعون أن المواجهة قد اشتدت، وأن السلطان الذي بيد موسى هو سلطان حقيقي (ولعلي أكاد أجزم الظن أن الهدف من إقدام فرعون على عمل مواجهة مباشرة بين موسى والسحرة منذ البداية هو أن يتبين فرعون بنفسه حقيقة العصا التي بيد موسى)، لكن مكانته (كإله) تمنعه من أن يتنازل في مواجهة مع بشر (كموسى)، فإله (كفرعون) لا يواجه إلا إله (كإله موسى)، وهنا طلب فرعون من هامان أن يبني له صرحا ليبلغ به الأسباب ليطلع إلى إله موسى:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)**
- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37)**

وبالفعل ينفذ هامان المهمة على الفور، فيجعل لفرعون ذلك الصرح، ويذهب فرعون بنفسه حتى يصل إلى أسباب السموات، وهناك يطلع إلى إله موسى.

السؤال: ما الذي حصل عندما ارتقى فرعون في السماء؟

جواب: نعود مرة أخرى لنكرر العبارات نفسها التي نود من كل قارئ لهذه السطور أن يدركها قبل متابعة القراءة، والتي تحمل في ثناياها العقيدة التالية: نحن نؤكد أن كلامنا هذا لا يخلو من العيوب، فهو كلام بشير يصيب أحيانا ويخطئ كثيرا، وهو لا يعبر عن أكثر من وجهة نظر الكاتب نفسه، كما أنه لا يمثل بأي حال من الأحوال الحقائق التي ترد في كتاب الله، وإنما هي أفهام الكاتب (ربما المغلوطة) لما جاء في كتاب الله، لذا أرجو من القارئ الكريم النظر إليها بعين الناقد المتدبر الذي يبحث عن الهفوات والزلات لتصحيح الأخطاء. وأنا أكرر هذا الكلام هنا لأنني أعتقد أن الخيال بعد هذه اللحظة سيجنّح عاليا جدا، وربما يصعب على المتلقي تقبل الأفكار للمرة الأولى لما فيها من الغرابة ربما غير المسبوقة. فمن ظن أنه يستطيع أن يطير بخياله معنا، فهو مدعو لمتابعة القراءة، ومن ظن أنه لا يحتاج إلى هذه النزهة ربما غير المريحة له، فعليه أن لا يتابع القراءة بعد هذه الفقرة، وليبحث له عن تسلية أكثر فائدة في مكان غير هذا.

أما بعد،

افتراءات أم تخريفات:

⇐ حصلت المواجهة الأولى بين فرعون وإله موسى على الأرض، فدارت رحاها في مكة، فكان الخاسر هو فرعون لأنه قتل هناك. لكن قتله لم يسفر عن نهايته

⇐ حصلت المواجهة الثانية بين فرعون وإله موسى في السماء، فدارت رحاها على مشارف مدينة العقبة الأردنية، فكان الخاسر هو فرعون لأنه قتل هناك، لكن قتله لم يسفر عن نهايته.

⇐ حصلت المواجهة الثالثة بين فرعون وإله موسى في البحر، فدارت رحاها هناك، فكان الخاسر هو فرعون، ولكن بالرغم أنه لم يقتل هناك، إلا أنها أسفرت عن نهايته

الافتراء الخطير جدا جدا: لم يكن من الممكن أن يقضى على فرعون نهائيا في البر، ولم يكن ممكنا القضاء عليه في السماء، فكانت الوسيلة الوحيدة للقضاء عليه هي الماء، وذلك لأن الإله لا يقضى عليه إلا بالماء. انتهى.

هذا ما سنحاول تبيانه في الصفحات القادمة، فالله وحده أسأل أن يعلمني الحق الذي أقوله، فلا أفتري عليه الكذب، إنه هو العليم الحكيم.

أما بعد،

باب: فرعون يُقتل مرتين

كانت بوادر الحرب بين الطرفين (فرعون من جهة وإله موسى من جهة أخرى) قد بدأت منذ هذه اللحظة التي قرر فرعون فيها أن يقاتل إله موسى بنفسه.

السؤال: كيف حصلت المواجهة؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: كانت أول دفاعات إله موسى تكمن في إرهاق فرعون في الصعود:

- **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (16) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (17)**

وأسفر الهجوم الفرعوني والدفاعي الإلهي عن قتل فرعون مرتين:

- **إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20)**

لكن هذا لم يكن ليثني فرعون عن الاستمرار في الرحلة حتى وصل إلى أسباب السموات، وهناك نظر:

- **ثُمَّ نَظَرَ (21)**

فوجد ما لم يسرّ باله،

- **ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22)**

وأدرك القوة الحقيقية لهذا الإله، فأدبر ولكنه ظل مستكبرا:

- **ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23)**

فأصر على أن هذا سحر يؤثر:

- **فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (27) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (28) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (29) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (30)**

السؤال: هل فعلا قتل فرعون مرتين؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن الصراع بين الله من جهة وفرعون من جهة أخرى قد أسفر عن قتل فرعون مرتين، حسب فهمنا للآيات الكريمة التالية:

- **إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20)**

تساؤلات مثيرة:

⇐ كيف يمكن أن نفهم أن فرعون قد قتل مرتين؟

⇐ ولم إذن لم يمت؟

⇐ وكيف استمر في المواجهة بعد أن تم قتله مرتين؟

⇐ متى حصل ذلك؟

⇐ الخ

رأينا: بداية لابد من الوقوف عند منطوق الآيات وهو – كما نفهمه- على النحو التالي: هناك من فكر وقدر:

- **إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18)**

وهو نفسه من قتل كيف قدر:

- **إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19)**

وهو نفسه من قتل كيف قدر مرة أخرى، وكان ذلك بعد فترة زمنية بدليل وجود "ثُمَّ قُتِلَ" في المرة الثانية:

- **إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20)**

السؤال: فمن هو الذي حصل معه كل هذا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن هذا ينطبق على فرعون نفسه.

السؤال: إن صح ما تقول، فكيف يمكن أن يكون قد قتل مرتين؟ فلم إذن لم يسفر ذلك عن موته؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نود من القارئ الكريم أن يميز بين الموت من جهة والقتل من جهة أخرى، فالموت شيء والقتل شيء آخر، بدليل أن الله قد تحدث عن نهاية النبي على أن تكون في واحدة من اثنتين: الموت أو القتل:

- **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ (144)**

وهذا لا ينطبق فقط على محمد وإنما على الناس جميعا:

- **وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (58)**

فقد تكون النتيجة لمن هاجر في سبيل الله القتل أو الموت (ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا).

السؤال: ما الفرق بين الموت والقتل؟

خروج عن النص في استراحة قصيرة: لا شهادة في أرض المعركة

غالبا ما تداول الناس (بسبب الموروث الشعبي من العقائد) بأن من يُقْتل من المسلمين في المعركة مع الكفار يسمى شهيدا. فأطلقوا لقب الشهيد على كل من قُتل في أرض المعركة، وتم توزيع الشهادات والأوسمة (من قبل رجال السياسية بمباركة مقدسة من رجال الدين) على من قتل من أبناء المسلمين في أرض المعركة، وأصبح يعرف هذا الذي قضى نحبه باسم الشهيد، وأصبح هناك ميزات خاصة لهذا المُسمى شهيدا يستفيد

منها ورثتهم من بعدهم، فمن هذه الميزات ما هو ديني أسقطه عليهم أهل العقيدة (وكلاء الله في الأرض)، كشفاعة الشهيد في نفر من أهله (وانظر في كتب الأحكام والعقائد عند أهل الدين حول هذا الموضوع)، ومنها ما هو دنيوي يتمتع بها أهل هذا المسمى شهيدا، تمنحها الدولة المدنية لهم كرد للجميل، وكان آخرها في بلد الحشد والرباط (الأردن) مثلا مكرمة الحج لأبناء الشهداء.

على أي حال، نحن نريد أن نثر التساؤل التالي: من أين جاءت تسمية الشهيد في الفكر الديني الشعبي على من قتل في سبيل الله؟

رأينا المفترى: لعلي أكاد أجزم الظن أن لا أصل لهذا في الدين وإنما هي من مسميات أهل الكتاب التي أخذها عنهم أهل العقيدة في الدين الإسلامي، وطبقوها على الناس الذين ظنوا أنها من عند الله، وما هي – نحن نفتري القول- من عند الله.

الدليل

لو تفقدنا النص القرآني على مساحته، لما وجدنا أن لفظة الشهيد تطلق على من قتل في أرض المعركة إطلاقا. فالذي يقتل في المعركة هو بصريح اللفظ القرآني قد "قُتل":

- **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (195)**
- **فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاء اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (4)**

السؤال: من هو الشهيد إذن؟

رأينا المفترى: نحن نفتري القول بأن الشهيد هو من يقوم بفعل الشهادة، أي الذي يشهد، فالله هو من خاطب محمدا عن نهايته في الحياة الدنيا بأن تكون إما بالموت أو بالقتل:

- **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ (144)**

والله هو من أثبت لاحقا أن نهاية محمد في الحياة الدنيا ستكون بالموت على وجه التحديد:

- **إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (30)**

نتيجة مفتراة: كانت نهاية محمد في الحياة الدنيا بالموت وليس بالقتل

لكن لو تدبرنا الآيات التالية، لوجدنا أن محمدا الذي كانت نهايته محتومة بالموت (إِنَّكَ مَيِّتٌ) هو أيضا شهيدا:

- **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (143)**

- وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (78)

نتيجة مفتراة: كانت نهاية محمد بالموت وهو في الوقت ذاته شهيدا

وسيبعث الله يوم القيامة من كل أمة شهيدا عليهم:

- وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (84)
- وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (75)

وسيكون محمد شهيدا علينا:

- وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (89)

فالشهادة هي إذن (نحن نفتري القول) فعل يقوم به شخص أو مجموعة من الأشخاص على الآخرين:

- فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا (41)

فعيسى بن مريم هو شهيد على من كان فيهم:

- بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (158) وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (159)
- مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (117)

وكذلك من عنده علم الكتاب، فهو شهيد على غيره:

- وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (43)

ولا شك عندنا أن الله هو الشهيد الكافي على الجميع:

- هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (28)

وهذا هو الدعاء الخالد في كتاب الله العزيز:

- وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (69)

(دعاء: اللهم أدعوك بأن أكون من الذين أنعمت عليهم من الشهداء - آمين)

نتيجة مفتراة مهمة جدا: نحن نفتري القول بأن الشهيد هو الذي يقوم بفعل الشهادة كما الحال في كتابة الدين مثلا:

- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيرًا أَو كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (282)

أو في حديث الإفك:

- إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (11) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (12) لَوْلَا جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاء فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (13)

أو رمي المحصنات

- وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (4)

أو رمي الأزواج:

- وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاء إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (6)

والشهيد قد يكون حاضرا على الموقف، كالذين كانوا شهداء عندما حضر يعقوب الموت:

- أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133)

وقد تكون الشهادة بالعلم، كشهادة أهل الكتاب:

- قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاء وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (99)

ويجب أن تكون الشهادة بالقسط حتى على الأنفس والأقربين:

- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقَيرًا فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (135)

ولا يجب أن يجرمنا شنآن القوم على أن لا نقسط بالشهادة:

- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (8)

تلخيص ما سبق:

لازلنا حتى اليوم نطلق لفظ الشهيد على من يقوم بفعل الشهادة في المحكمة، فقد يطلب منك القاضي أن تشهد في قضية ما لأنك كنت من الذين حضروا الموقف، أو قد يطلب منك القاضي الشهادة بسبب العلم الذي عندك، كشهادة الخبير في قضية معينة. فالقاضي قد يستعين بأهل الاختصاص في القضايا التي تحتاج

إلى معرفة دقيقة بتفاصيل القضية، فقد يطلب القاضي من خبير الأراضي شهادته في تقدير قيمة العقار مثلا، وقد يطلب القاضي شهادة المتخصص في علم الكمبيوتر في الجرائم الإلكترونية، وهكذا.

نتيجة مفتراة: لابد إذن من الوقوف مليّا عند المسميات الحقيقية لنتدبرها قبل الخروج إلى الناس بأحكام وتشريعات قد يبين لاحقا أنها لا تمت للعقيدة بصلة، والأهم من هذا هو أن الفهم الخاطئ لهذه المسميات قد يعيق التفكير في الاتجاه الصحيح، وبالتالي قد نخفق في أن نتوقف عن مراد منطوق الألفاظ كما بيّنها الله في كتابه الكريم. وقد جلبنا هذا النقاش هنا للوصول إلى التمييز الواضح في النص القرآني للفرق بين "الشهيد" الذي يشهد من جهة وهذا الذي قضى نحبه في الحرب من جهة أخرى، فالذي قضى نحبه في الحرب هو من قتل في سبيل الله.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا (1): الشهيد هو الذي يدلي بفعل الشهادة

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا (2): القتيل هو من قضى نحبه (في سبيل الله)

وسنرى لاحقا (بحول الله وتوفيق منه) تبعات هذا التفريق للحديث عن نهاية فرعون كما فهمناها من النص القرآني. فالله نسأل أن يعلمنا الحق الذي نقوله فلا نفتري عليه الكذب، إنه هو الواسع العليم.

خروج عن النص في استراحة أخرى: التفريق بين القتال والحرب

لعلي أكاد أجزم الظن أن من أخطر الأبواب التي فتحت البابَ على مصراعيه لشنّ الهجوم على الفكر الإسلامي الدارج هو فقه القتال والحرب الوارد في بطون كتب أهل الاختصاص. ويميل الظن عندي أن الهجوم على الدين من هذا الباب كان ولا زال (أنا أفتري القول) بسبب الفهم الخاطئ للتشريع الإلهي في هذا الصدد. فأهل الاختصاص في الإسلام هم – برأينا- الذين شوّهوا الدين عندما أظهرت تصرفات أبناء المسلمين المدفوعة بأفكار أهل العقائد منهم عدوانية واضحة للبشرية كلها؛ فهم الذين وضعوا أنفسهم في عداء دائم مع غيرهم، وهم الذين اغتصبوا حقوق الآخرين باسم الدين، وهم الذين شنوا الحروب على الآخرين عدوا وظلما بغير حق (ربما ظنا منهم أنهم هم فقط الذين يعرفون الحق ويدافعون عنه)، وهم الذين جلبوا الدمار لبلدانهم بذريعة أنهم يحاولون نشر كلمة الحق وهم الذين ما انفكوا يصدّقون أنفسهم أنهم هم فقط من يحملون لواءه، وهم الذين ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم في بلادهم ، حتى أصبحت ديارهم خرابا لا مثيل له على وجه الأرض، حتى نفذت (نحن نفتري القول) بهم سنة الله الكونية التي تقضي بأن هلاك القرى لا يمكن أن يحصل إلا بظلم أهلها، قال تعالى:

- **وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (59)**

فبالرغم أن "أبناء المسلمين" يرون هلاك قراهم جهارا نهارا، فها هي عواصم بلادهم تتهاوى الواحدة بعد الأخرى، إلا أنهم لا يريدون أن يقتنعوا أن هذا كله بسبب ظلمهم أنفسهم (وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ). فكيف (ومتى) سيقتنع هؤلاء أن ما يحصل من هلاك لقراهم واقع بسبب أنهم ظالمون، فمن

يستطيع أن يقنع شيوخ الأزهر وكبار علماء السعودية وخطيب الجمعة في مسجد حارتنا أنهم فعلا ظالمون، ومن يستطيع أن يقول لهم أن هلاك قرى المسلمين الواحدة تلو الأخرى هذه الأيام هي بسبب ظلمنا جميعا.

إن الطامّة الكبرى – برأيي- هي أنه عندما يسمع هؤلاء أنفسهم عن كارثة (حتى وإن كانت صغيرة في الحجم والأثر) في قرية في الشرق أو في الغرب، فإنهم يتسارعون للخطابة على المنابر أن هذا بسبب ظلم أهل تلك القرى، فلو وقع زلزال في اليابان أو فيضان في الهند أو بركان في اسكتلندا، لما تردد كثير من "أبناء المسلمين" في القول بأن هذا عقاب إلهي نزل على أهل تلك القرى، ولكن عندما يرون الهلاك الكلي لبغداد العروبة ودمشق الشام وقاهرة المعز، وطرابلس الشرق والغرب، وصنعاء المجد والتاريخ، فلا تراهم يشيرون من قريب أو بعيد لمسؤوليتهم عن ما يحدث في هذه القرى. من يدري؟!!!

على أي حال، إن ما يهمنا في هذا الطرح هو أن نبيّن وجهة نظرنا في فقه القتال والحرب الذي نظن أنه لم يفهم جيدا (من قبل سادتنا أهل الدراية) كما جاء تشريعه في كتاب الله، فجلب علينا الويلات، وصدّ الناس (كل الناس) عن اللحاق بكلمة الحق في كتاب الله. ولكن كيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا أن الله لم يشرع لنا في كتابه العزيز أن نبدأ بقتال غيرنا إلا في حالة واحدة فقط.

السؤال: كيف ذلك؟

أولا، لو تدبرنا آيات القرآن المجيد، لوجدنا أن القاعدة الأساسية في قتال الآخرين هي ما جاء في قوله تعالى:

- **وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (190)**

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: لا يجوّز لنا أن نشرع في قتال إلا من بدأ بقتالنا. انتهى.

وهذه هي الحقيقة التي لا يمكن أن يختلف فيها أحد، وهي ما يسمى في القانون العالمي البشري المطلق بحق الدفاع عن النفس. وهو ما لا يمكن أن ينكره إنسان مهما كانت عقيدته. فالمسلم هو مسلم لأنه في بداية كل شيء هو شخص مؤمن مسالم لا يقاتل إلا إن أعتدي عليه.

ولو تفقدنا آيات القرآن المجيد أكثر، لوجدنا أن التشريع بالقتال لم ينزل من السماء إلا بعد أن وقع على المسلمين آنذاك فعل القتال من غيرهم:

- **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39)**

وآيات القرآن المجيد تطلب صراحة من المسلم أن يبرّ وأن يقسط إلى من لم يقاتله:

- **لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8)**

ولكن لا تطلب منه أن يبر أو أن يقسط إلى من قاتله وأخرجه من دياره أو ظاهر على إخراج المسلم من دياره:

- **إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (9)**

ثانيا، بالرغم من لزوم وقوع الاعتداء من قبل الغير على المسلم حتى يؤذن له بالقتال، فإن آيات القرآن المجيد تطلب من المسلم في حالة نشوب القتال أن لا يعتدي إلا بمثل ما اعتدي عليه:

- **الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (194)**

لا بل جاء الحث الإلهي على الصبر حتى في حالة اعتداء الآخرين عليك:

- **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ (126) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (127)**

فمطلوب من المسلم (نحن نفتري القول من عند أنفسنا) أن يذهب إلى أبعد درجات ضبط النفس حتى وإن حصل الاعتداء عليه فعلا، فهذا نبي الله موسى يطلب من قومه (بني إسرائيل) الصبر وضبط النفس حتى بالرغم من وقوع الأذى الشديد عليهم في أرض مصر، لأن القاعدة الإلهية تكمن في استخلاف الأرض لمن يشاء من عباده المتقين:

- **قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128) قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (129)**

ثالثا، لو تفقدنا فعل القتال في جميع آيات القرآن المجيد، لوجدنا أنه قد جاء في جميع سياقاته بصيغة المشاركة (قاتلوا، قتال، الخ)، قال تعالى:

- **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (190)**
- **وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (191)**
- **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (193)**
- **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (217)**
- **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (244)**
- **أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (246)**
- **قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (13)**
- **لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (111)**
- **وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146)**

- وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا ۖ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (167)
- فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۖ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (195)
- فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (74)
- وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا (75)
- الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (76)
- فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا (84)
- إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (90)
- قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ۖ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (24)
- وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (39)
- وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ (12)
- أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (13)
- قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (14)
- قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (29)
- وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (30)
- إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (36)
- فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (83)

- إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (111)
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (123)
- أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39)
- يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ۖ وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (20)
- قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (16)
- وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (22)
- وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (9)
- وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (10)
- لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (14)
- لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8)
- إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (9)
- إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ (4)
- وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (4)
- إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (20)

فجميع هذه السياقات القرآنية تدل (كما نفهمها) على أن فعل القتال لا يبدأ به المسلم، بل هو فعل مفروض عليه، لأن خصمه هو الذي بدأ به، وهذا لا ينطبق على المسلم فقط:

- أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39)

- وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ (191) فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (192) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ (193)

وإنما ينطبق على ربه أيضا، فالله نفسه لا يقاتل إلا من ابتدأه القتال:

- وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (30)
- وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (4)

سؤال: لماذا لا يقتلهم الله؟ ولماذا يقاتلهم الله؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الله لا يقتلهم ولكنه يقاتلهم لأنهم هم الذين ابتدءوا قتال الله. ففعل المقاتلة هو فعل تشاركي، يبدأ به من أظهر الخصومة. فالله لا يظهر خصومة مع أحد، فهو لا يظلم أحدا، ولكن الناس هم الذين يبدءون قتال الله عندما يرتكبون الظلم بحق أنفسهم وبحق غيرهم.

نتيجة مهمة جدا جدا سنحتاج لها لاحقا: لما كان الله (نحن نفتري القول) لا يقاتل إلا من بدأ بقتاله، فإننا نتجرأ على الظن بأن فرعون هو من بدأ قتال الله، أي كان فرعون في وضعية المهاجم، وما كان الله إلا مدافعا عن الحق. انتهى.

ولكي تتضح الصورة، فلابد لنا من التفريق بين مفردتين غالبا ما استخدمتا بطريقة خاطئة في هذا الصدد، وهما مفردتا الحرب والقتال:

- إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (33)
- كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (216)

فالآية الأولى تتحدث عن الحرب بينما تتحدث الآية الثانية عن القتال. ليكون السؤال الآن هو: ما الفرق بينهما؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن القتال يحمل في ثناياه:

1. أنه قد كُتِب علينا كتابة (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ)
2. القتال كره لنا (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ)
3. الحرب لم تُكتب علينا كتابة
4. الخ

السؤال: ما الفرق بين القتال الذي كتب علينا كتابة والحرب التي لم تكتب علينا كتابة؟

جواب مفترى: نحن نظن أن كل فعل كُتب علينا كتابة هو فعل فيه مشقّة ولا تتقبله النفس البشرية بارتياح، كالصيام مثلا:

- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (183)

أو كالقصاص:

- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ۖ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (178)

أو كالوصية حين الموت:

- كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (180)

وهذا ينطبق أيضا على القتال ولكنه لا ينطبق على الحرب، فلا نجد في كتاب الله أن الله قد كتب علينا الحرب، لكننا نجد أنه قد كتب علينا القتال:

- كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (216)
- أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (246)

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الأمر إذا فرض على الناس كتابة، فهو يكون أمرا ثقيلا على النفس البشرية لا تطيقه، ولكن لا مناص منه. فالنفس البشرية لا تطيق القصاص إلا أنه لا مناص من تطبيقه حتى لو كان كرها لنا، وكذلك هو الصيام، وكذلك هو القتال. فهو فعل قد وقع بسبب ظلم ارتكبه الناس ولا يرفع عنهم هذا الظلم إلا بالقيام بما كتب عليهم حتى وإن كان كره لهم.

ولو تفقدنا السياقات القرآنية الخاصة بما كتبه الله علينا كتابة لوجدناها قد جاءت جميعها في سياق قرآني واحد، في سورة البقرة في الآيات الكريمة المتتالية التالي:

- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (178) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (179) كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (180) فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (181) فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (182) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (183) أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (184) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ

مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185)

السؤال: لماذا كُتبت علينا هذه الأفعال (وهي القصاص والوصية والصيام) كتابة؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن هذه القضايا قد فرضت علينا كتابة، لعدة أسباب نذكر منها:

1. أنها ردة فعل على ما قد حصل، فالقصاص هو ردة فعل لوقوع الجريمة، فمادام أن الجريمة قد وقعت فإن القصاص أصبح أمرا لا مفر منه، وما دام أن هناك تركة عند الموت، فالوصية تصبح أمرا لا مفر منه، ومادام أن ظلم الناس قد حصل، فالصيام أصبح أمرا لا مفر منه. وليس أدل على ذلك بأن الصيام بحد ذاته هو فعل تكفيري عن ما حصل من ذنب عدم القدرة على الهدي في الحج:

- **وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (196)**

أو كالتكفير عن عدم القدرة على الفدية وتحرير الرقبة لمن قتل مؤمنا خطئا:

- **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مْؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللّهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (92)**

أو التكفير عن تعقيد الأيمان عند تعذر استطاعة الإطعام أو تحرير الرقبة:

- **لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (89)**

أو التكفير عن الصيد في حالة الإحرام:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللّهُ عَمَّا سَلَف وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللّهُ مِنْهُ وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (95)**

أو في حالة مظاهرة النساء عند تعذر استطاعة تحرير رقبة:

- **وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (3) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (4)**

لاحظ أن الصيام (من بين العبادات جميعها) هو ما يمكن أن يكفر الذنب الذي ارتكبه المؤمن في حالة تعذر الاستطاعة. فلا يمكن التكفير عن الذنوب السابقة بالصلاة مثلا، أو الزكاة أو الحج.

نتيجة مفتراة: أي كفارة لا تتحصل فيها الاستطاعة يكون الصيام هو الحل (أي البديل).

نتيجة مفتراة: مادام أن ذنبا (بظلم) قد وقع، فإن الصيام هو العبادة الوحيدة التي يمكن اللجوء إليها للتكفير عن ذلك الذنب، فلا يمكن التكفير عن الذنوب السابقة إن حصلت بالصلاة أو الزكاة أو الحج. ولكن يمكن فعل ذلك بالصيام.

نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا: الصيام هو المنفذ الوحيد والأخير للخروج من المأزق الذي أوقع الإنسان فيه نفسه. وسنرى لاحقا تبعات هذا الظن على القتال الذي كتب علينا كتابة كما الصيام.

السؤال: لماذا لا يمكن التكفير عن تلك الذنوب بغير الصيام من بين العبادات جميعها؟

رأينا لمفترى من عند أنفسنا (1): الصلاة هي فعل يقوم به العبد، فينتفع به الله، فهي إذن صله بين العبد وربه

رأينا المفترى من عند أنفسنا (2): الزكاة هي فعل يقوم به الإنسان لينتفع به الآخرون، فهي صلة الإنسان بغيره من الناس

رأينا المفترى من عند أنفسنا (3): الصيام هو فعل يقوم به الإنسان لينتفع به بنفسه، فيه صلة الإنسان مع نفسه.

السؤال: لماذا جاء الصيام كفعل تكفيري للذنوب التي يقع بها الإنسان؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أنه لمّا كان الإنسان هو من يوقع نفسه (أي بما كسبت يده) في أفعال لا يحمد عقباها، كان لزاما عليه أن يقوم بالفعل الذي يهذّب نفسه، كعقاب له على ما كسب بيديه، فأصبح لزاما عليه أن يقوم بفعل ثقيل عليه قد لا يطيقه، لكن لا مجال لتصحيح الخطأ الذي وقع إلا بهذا الفعل الإلزامي (أي الصيام).

السؤال: ما معنى أن الصيام هو الملجأ الأخير لتصحيح هذه الأغلاط؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن ذلك بسبب أن الصيام هو العبادة الوحيدة على وجه التحديد التي جاءت كتابة (بالأردني نقول كِتْبة ومفروضة علينا).

ثانيا، لو تفقدنا الصيام على وجه التحديد، لوجدنا أنه العبادة الوحيدة التي لا تسقط بالتقادم الزمني، فهو العبادة الوحيدة التي وجب القضاء فيها <u>فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ</u>:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (183) أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (184) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185)**

فالصيام (كما القصاص) لا يسقط بالتقادم الزمني. فمن لم يستطع الصيام بسبب المرض أو السفر، فإن ذلك يكون عدة من أيام أخر (فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ)، ولم يرد في النص القرآني مثل هذا في حالة تعذر الصلاة أو الزكاة أو الحج.

السؤال: لماذا؟ لِم لم تأت الصلاة كتابة؟ ولم لا تكون الزكاة كتابة؟ ولم لا يكون الحج كتابة؟ الخ.

باب : فقه الصيام

سنحاول أن نتناول في هذا الجزء من المقالة بابا من أبواب فقه الصيام، وسنحاول تقديم رؤية (نظن أنها جديدة) تخص مشروعية الصيام، مؤكدين في الوقت ذاته أن هذا لا يتجاوز أن يكون رأيا بشريا قابلا للصواب والخطأ، فلا يظنن أحد أن هذا هو فقه الصيام كما شرعه الله في كتابه العزيز، بل هو فهمنا نحن لما نظن أنه تشريع إلهي لفقه الصيام، سائلين الله وحده أن يهدينا رشدنا، وأن يعلمنا الحق الذي نقوله، فلا نفتري عليه الكذب، إنه هو السميع البصير- آمين.

أما بعد،

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (183) أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (184) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185)**

افتراء خطير جدا جدا لا تصدقوه: نحن نفتري القول أن الصيام قد كُتب على الذين آمنوا فقط (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ). انتهى.

السؤال: ما معنى أن الصيام قد كُتب فقط على "الَّذِينَ آمَنُواْ"؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: ما دام أن الصيام قد كُتب فقط على الَّذِينَ آمَنُواْ، فهو إذن فعل تعبدي إلزامي للذكور من الرجال، فهو إذن لم يكتب على المؤمنات (الإناث). فالمؤمنات غير ملزمات بفعل الصيام. انتهى.

الدليل

نحن نظن أن عبارة "الَّذِينَ آمَنُواْ" (كما ترد في كتاب الله) لا تنطبق (كما نفهمها) إلا على الذكور من المؤمنين بدليل اللفظ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ

ويأتي الدليل على ذلك – برأينا- من الآيات الكريمة الكثيرة التي تخص الَّذِينَ آمَنُواْ فقط بأفعال محددة بذاتها، كما في الآية الكريمة التالية مثلا:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهًا وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (19)**

ف "الَّذِينَ آمَنُواْ" هم من ينهاهم الله أن يرثوا النساء كرها (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهًا). أليس كذلك؟ وهم المأمورون بأن لا يعضلوا النساء ليذهبوا ببعض ما آتوهن (وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ)، أليس كذلك؟

السؤال: ألا يجبرنا مثل هذا القول الفصل من العزيز الحكيم أن لا نخلط بين الألفاظ؟ ألا يجب علينا إذن أن نفصل بين الذين آمنوا (من الذكور) من جهة والنساء من جهة أخرى؟

نتيجة مفتراة: هناك في النص القرآني لفظ "الَّذِينَ آمَنُواْ"

نتيجة مفتراة (2): هناك لفظ النِّسَاء

نتيجة مفتراة (3): جاء النص القرآني ليتحدث عن الذين آمنوا من جهة والنساء من جهة أخرى في الآية نفسها:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهًا وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (19)**

ولو تدبرنا الآية الكريمة الأخرى التالية، لوجدنا أن الذين آمنوا هم الذين ينكحوا المؤمنات:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (49)**
- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (10)**

لذا، يستحيل (نحن نفتري القول) أن تكون المؤمنات من الذين آمنوا مادام أن الذين آمنوا هم من يقومون بفعل نكاح المؤمنات.

ولو أن المؤمنات مشمولات بفئة الذين آمنوا، لأصبح لزاما عليهن (أي على المؤمنات) السعي لذكر الله من يوم الجمعة كما جاء في الآية الكريمة التالية:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (9)**

السؤال: من أين جاء التشريع أن السعي لذكر الله من يوم الجمعة فعل خاص بالذكور من الرجال؟ لم لا نجد النساء على مر التاريخ الإسلامي يشاركن في السعي لذكر الله من يوم الجمعة على سبيل الإلزام؟ فهل

يقبل سادتنا العلماء ([أهل الدراية) أن ينطبق اللفظ "" على الذكور والإناث في هذه الآية؟ لم تنطلق حناجرهم على الدوام أن هذا الفعل (السعي لذكر الله من يوم الجمعة) لا يشمل النساء؟ ولم لا تنطلق حناجرهم بمثل ذلك في حالة الصيام بالرغم أن الخطاب موجه في الحالتين لنفس الفئة وهم الذين آمنوا:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (183)**
- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (9)**

رأينا المفترى: مادام أن المخاطب في الحالتين جاء بصيغة "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ"، فإن عقيدتنا التي نؤمن بها تقضي بأن لا نقبل أن يقع الصيام في باب الإلزام على النساء إلا في اليوم الذي يقع الإلزام عليهن كذلك في السعي لذكر الله من يوم الجمعة. فمتى طلب علماؤنا الأجلاء من النساء السعي لذكر الله من يوم الجمعة على سبيل الإلزام (وأعتقد جازما أنهم لن يفعلوا)، يكون الصيام عليهن إلزاميا كذلك. وبخلاف ذلك، تكون تلك عقيدة مشوهة اخترعوها من عند أنفسهم، وما أنزل الله بها من سلطان. انتهى.

نتيجة مفتراة خطيرة جدا: هناك فصل واضح في كتاب الله بين الذين آمنوا (من الذكور) والمؤمنات (من الإناث)، لتكون النتيجة التي نريد أن نعود إليها (وربما لا يرغب أهل الدين أن تقع على مسامعهم) هي أن الصيام قد كتب فقط على الذين آمنوا:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (183) أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (184) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185)**

السؤال: هل مطلوب من النساء الصيام؟

جواب مفترى: كلا، فالصيام بالنسبة للنساء ليس مفروض عليهن فرضا، وإنما هو بالنسبة لهن فعل تطوعي (إن أردن ذلك). فمن شاءت أن تصوم منهن فلها ذلك، ومن شاءت أن لا تصوم فلها ذلك، ولا يترتب على عدم صيامها عقوبة، ولكن يترتب على صيامها أجرا عظيما من عند الله:

- **إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (35)**

ثانيا، لو دققنا في السياق القرآني نفسه، لوجدنا أن الخطاب جاء بصيغة التذكير (مِنكُم، لَّهُ، لَّكُمْ) حتى في حالة تعذر الصيام لسبب كالمرض أو السفر:

- **أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (184)**

ولا نجد أن ضمير التأنيث (مِنكُنَّ، لَهُنَّ) قد استخدم في حالة الصيام إطلاقا، بالرغم من وروده (ومثله كثير) في آيات أخرى في كتاب الله:

- **وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (29)**
- **وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوءٍ وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُواْ إِصْلاَحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (228)**

فالقضاء في حالة تعذر الصيام بسبب المرض أو السفر لا يقع (نحن نفتري الظن) إلا على الرجل المكلّف بالصيام. فالمرأة التي لا تصوم بسبب الدورة الشهرية أو الحمل والوضع مثلا ليس مطلوب منها (نحن نفتري القول) القضاء مادام أن الصيام في الأصل بالنسبة لها يقع في باب التطوع الاختياري وليس التطوع الإلزامي.

ثالثا، نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الرجل الذي يطيق الصيام (أي يقدر عليه) يمكن له هو أيضا أن لا يقوم بفعل الصيام، ويستبدل ذلك بالفدية (طَعَامُ مِسْكِينٍ):

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (183) أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (184)**

ولكن التطوع في الصيام هو خير لمن يحق له أن يقدم الفدية (وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ).

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا (1): الصيام فعل تطوعي مفروض على الرجل، لكن يمكن له (إن كان يطيق الصيام) أن يقدم بدل ذلك الفدية وإن كان الصيام هو خير له.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا (2): أما بالنسبة للمرأة فالصيام فعل اختياري يمكن أن تقوم به من أجل الثواب إن هي أرادت، ولكن يمكن لها أن لا تقوم به، وليس مطلوب منها الفدية إن لم تقم بفعل الصيام مادام أن الأمر برمته بالنسبة لها ليس أكثر من فعل اختياري.

السؤال: ما معنى أن الإنسان يطيق الصيام في قوله تعالى (وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ)؟

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (183) أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (184)**

رأينا المفترى: نحن نظن أن من يطيق "فعل ما" هو من يستطيع القيام به لكن بحصول المشقة في ذلك، بدليل قوله تعالى:

- **فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (249)**

فنحن نظن أن الطاقة تحتمل معنى الاستطاعة على الفعل مع وجود المشقة في ذلك، فلو كان لجنود طالوت طاقة بجالوت وجنوده، لما ترددوا في المواجهة، ولو كان لهم طاقة بهم، لهزموهم بجهدهم الذاتي، ولكن لما لم يكن لهم طاقة بجالوت وجنوده، عبروا عن ذلك صراحة (قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ)، فكانوا بحاجة لنجدة تساعدهم في الخروج من هذا المأزق (كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ).

نتيجة مفتراة: فالطاقة تحتاج إلى الصبر للقيام بالفعل لأنها هي – برأينا- القدرة على العمل مع وجود المشقة في ذلك.

استراحة قصيرة

لماذا للبيت الذي نسكن فيه طاقة (نافذة صغيرة مرتفعة)؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نعتقد أن طاقة البيت هي عبارة عن منفذ ضيق وصعب لا يلجأ إليه إلا في حالة تعذر الخروج من الباب الرئيسي. ولنتصور المشهد على النحو التالي: يكون في البيت فتحة واسعة معروفة للجميع يتم الدخول والخروج منها بسهولة في الحالات الطبيعية وتسمى الباب:

- **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْاْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (189)**

لكن يكون هناك منافذ جانبية لا تستخدم للدخول والخروج إلى البيت إلا في حالة تعذر استخدام الباب، وهذه تسمى منافذ (كالشباك أو النافذة مثلا)، وقد تسمى أحيانا طاقة، وكلما ارتفعت هذه الفتحة عن الأرض أكثر وضاق اتساعها، أصبحت تعرف أكثر باسم الطاقة، ولكن لماذا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لأنها منفذ صعب لا يلجأ إليه إلا عند تعذر استخدام المنافذ الأخرى كلها. فلو أنت أردت أن تخرج بنفسك أو أن تخرج شيئا من أغراض البيت، لاستخدمت الباب أولا ثم الشباك (النافذة) إن تعذر استخدام الباب. ولو تعذر استخدام الشباك (النافذة) أيضا، لوجدت أن الطاقة هي المنفذ الوحيد على صعوبته.

لذا نحن نتخيل أنه عندما يطيق الشخص منا شيئا، فإنه يستطيع القيام به لكن ذلك يتطلب منه مشتقة كبيرة، وكذلك (نحن نفتري القول) هو "طياق" الصوم (وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ). فمن وجد أنه يستطيع الصيام ولكن ذلك يسبب له المشقة، يكون من الذين يطيقونه، وهنا (نحن لازلنا نفتري الظن) يجوز له الفدية (طعام المسكين)، ولا يطلب منه القضاء في أيام أخر.

السؤال: على من ينطبق هذا السيناريو؟

جواب: نحن نظن أن هذا ينطبق على من كانت حرفته (فيها مشقة) دائمة يتعذر معها قضاء الصيام؟
السؤال: هل لك أن تعطي مثالا على ذلك؟
جواب مفترى من عند أنفسنا: دعنا نتخيل أصحاب الحرف اليدوية الشاقة، كالبناء والخباز مثلا. فكيف يستطيع من كان يعمل في هذه الحرف الشاقة أن يصوم رمضان؟ وكيف له أن يقوم بالقضاء في أيام أخر مادام أن حرفته مستمرة طوال أيام العام؟ فمتى يستطيع أن يصوم ومتى يستطيع أن يقوم بالقضاء؟
جواب مفترى من عند أنفسنا: مادام الرجل المكلف بالصيام يعمل في حرفة كهذه، فإن الصيام يقع عنده في باب التطوع، فيجوز له (نحن نفتري الظن) أن يقدم الفدية وهي طعام مسكين عن كل يوم يفطره من أيام الصيام، ولكن إن كان في إجازة من ذلك العمل كيوم عطلته الأسبوعية مثلا، فيجب عليه الصيام في ذلك اليوم مادام أنه لم يعد من الذين يطيقون الصيام في ذلك اليوم.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الفدية (طعام مسكين) مرتبطة إذن بالطاقة على الصيام، فكلما وجد الشخص نفسه في طاقة أن يصوم، أصبحت الفدية ممكنة (وإن كان التطوع بالصيام هو خير له)، ومتى ذهبت هذه الطاقة، أصبح الصيام واجبا مفروضا عليه.

نتائج مفتراة من عند أنفسنا: يكون الصيام فرضا واجبا على الرجال من الذين آمنوا، ويجب القضاء إن تعذر عليهم الصيام بسبب المرض أو السفر. يصبح الصيام تطوعا على الذين يطيقونه من الرجال، فتجوز هنا الفدية ولا يجب القضاء. لم يكن الصيام إلا فعلا اختياريا على النساء، ولا يجب القضاء في حالة تعذر الصيام بسبب العذر الشرعي كالدورة الشهرية أو كالحمل والوضع. الخ.

رابعا، لما كان شهر رمضان هو أيام معدودات، يمكن للإنسان (الرجال من الذين آمنوا) أن يشهد الشهر كله، ويمكن أن لا يشهده كله، ليكون السؤال الآن هو: كيف يتحدث القرآن عن وجوب الصيام على من شهد الشهر (فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ)؟ ألا يمكن مثلا أن يكون الإنسان في حالة غيبوبة في بداية شهر رمضان ثم يستفيق من غيبوبته في منتصف الشهر أو في آخره، فيشهد من الشهر بعضه وليس كله؟ ثم ألا يمكن أن يكون واع تماما في بداية الشهر ثم يذهب في غيبوبة في منتصفه أو في آخره أو في بعض منه؟ فلماذا جاء النص القرآني على نحو (فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ)؟

- **شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185)**

السؤال: فهل يصبح الصيام مفروضا على من شهد الشهر كله؟ وبكلمات أخرى نحن نسأل: هل يجب عليّ أن أشهد الشهر كله حتى أكون ملزما بصيامه؟ وما المطلوب من الذي شهد بعض الشهر وليس كله؟
رأينا المفترى: نحن نجد لزاما ضرورة الوقوف عند معنى مفردة الشهر؟ لنطرح السؤال على النحو التالي: كيف يمكن لي أن أشهد الشهر؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نظن أننا قد تعرضنا في مقالات سابقة كثيرة لنا عن معنى مفردة الشهر، وحاولنا التمييز بين مفردة الشهر التي تدل على الشهر الشمسي (أي اليوم والليلة معا) ومفردة الشهر التي تدل على الشهر القمري (دورة القمر كاملة). وزعمنا الظن بأن العربية تميز بين مفردتين للشهر على النحو التالي:

⇐ شهر وتجمع على أشهر، وهذه هي دورة الشهر الشمسي، أي غياب الشمس وظهورها بالكلية، وهذا يحدث كل 24 ساعة مرة واحدة، وينتج عنه اليوم والليلة، فنسمي اليوم والليلة معا (أي الدورة الشمسية كاملة) شهرا.

⇐ شهر وتجمع على شهور، وهذه هي دورة الشهر القمري، أي غياب القمر وظهوره بالكلية، وهذا يحدث كل 29- 30 يوما مرة واحدة، وينتج عنه أشهر العام الاثنا عشر.

السؤال: ما علاقة هذا كله بقوله تعالى (فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) في الآية الكريمة التالية؟

- **شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185)**

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نفتري القول أن هذا ينطبق على الشهر الشمسي (أي اليوم والليلة)، فأنت مطلوب منك (كواحد من الذين آمنوا) الذي يقع عليهم تكليف الصيام أن تصوم كل شهر شمسي أنت تشهده فقط. ولا يطلب منك أن تصوم الشهر الشمسي الذي لم تشهده.

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هذا يتطلب منا معرفة كيفية أن نشهد الشهر، فمتى يمكن أن يعتبر الإنسان قد شهد شهرا من رمضان؟ ومتى يعتبر غير شاهد لشهر من رمضان؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن شهر رمضان يبدأ من بعد صلاة المغرب مباشرة:

- **أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (187)**

فلو تدبرنا هذه الآية الكريمة، لوجدناها أنها قد ابتدأت بالحديث عن ليلة الصيام التي أحل الله لنا فيها الرفث إلى نسائنا (أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ)، ويشرع لنا فيها أن نأكل ونشرب حتى يتبين لنا الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر (وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ)، ثم انتقلت لتبيان أن الصيام يبدأ من هناك، فنتوقف عن الأكل والشرب وعن مباشرة النساء، حتى نتم الصيام إلى الليل. فيكون بذلك قد تم شهر واحد من أشهر رمضان، أي شهر شمسي واحد (ليلة ويوم معا). وهكذا يتكرر الشهر الشمسي الثاني والثالث والرابع، الخ. حتى ينتهي شهر رمضان القمري كله.

السؤال: متى إذن تشهد شهر رمضان (فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ)؟

جواب مفترى: إن شهادة شهر رمضان الشمسي تبدأ من الليل، وهناك تبدأ ليلة الصيام التي يجوز لنا فيها أن نرفث إلى النساء وأن نأكل ونشرب في تلك الليلة على نية الصيام (أي الامتناع عن ما كنا نفعل في ليلة الصيام) عندما يتبين لنا الخيط الأبيض والأسود من الفجر حتى نتم الصيام إلى الليل، وفي هذه الحالة يكون المؤمن المكلف بالصيام قد شهد شهرا واحدا من رمضان، فوجب عليه أن يصومه، ويتكرر السيناريو نفسه في كل شهر شمسي (ليلة ويوم معا) طوال شهر رمضان القمري كله.

السؤال: لماذا؟

جواب: دعنا نتصور السيناريو التالي: تخيل لو أنك كنت في غيبوبة خلال شهر شمسي واحد من رمضان، ثم استيقظت من هذه الغيبوبة في نهار رمضان، فهل يعتبر ذلك شهر من أشهر رمضان التي وجب عليك صيامه؟ وماذا لو أنك بدأت تصوم من الساعة الثانية عشر ظهرا عندما استفقت من غيبوبتك، فهل يعتبر ذلك شهر من أشهر رمضان التي شهدتها؟

جواب مفترى، كلا وألف كلا، فحتى يحسب لك أنك قد صمت شهرا من أشهر رمضان الشمسية، وجب عليك (نحن نفتري الظن) أن تشهد ليلة الصيام السابقة لبيان الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، وتكون قد عقدت النيّة على صيام ذلك الشهر متى ما تبين لك الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر. ولعلي أكاد أجزم الظن أن توافر النية المسبقة في الصيام التي اختلف فيها أهل العلم قد جاءت من هذا الباب، أي أن تكون قد شهدت شهر الصيام (من ليلة الصيام) وليس أن تشهد فقط يوم الصيام أو ليلة الصيام فقط، فالصيام يحسب للمسلم بالشهر (اليوم والليلة معا). وشهر الصيام يبدأ (كما بدأت الآية الكريمة السابقة) بليلة الصيام ثم يمتد إلى يوم الصيام حتى الليل، حيث يبدأ الشهر الثاني وهكذا بالنسبة للشهر الثالث والرابع والخامس حتى الشهر التاسع والعشرين أو الثلاثين منه. وما أن تتم تلك الأشهر كلها حتى يكون شهر الصيام القمري كله قد تم.

السؤال: ما علاقة هذا بقصة فرعون (موضوع حديثنا الرئيسي)؟

جواب: انتظر – عزيزي القارئ- لترى ما ستؤول إليه الأمور لاحقا بحول الله وتوفيقه.

فالله أسأل أن يعلمني وأن يزيدني علما وأن يهدين لأقرب من هذا رشدا، وأعوذ به أن يكون أمري كأمر فرعون، إنه هو العليم الحكيم – آمين.

باب: فقه الصلاة

تحدثنا في مقالة سابقة لنا تحت عنوان "لماذا نصلي خمس مرات في اليوم والليلة؟" عن جزئية محددة تخص الصلاة، مفادها أن الصلوات الخمسة المفروضة علينا في اليوم والليلة ليست مستنبطة من فعل الرسول (أي "السنة" كما أحب أهل الدراية من قبلنا أن يروجوا لذلك في مؤلفاتهم)، وحاولنا افتراء الظن من عند أنفسنا بأنه يمكن استنباط عدد الصلوات الخمسة من كتاب الله، وزعمنا القول حينئذ أن هذا هو منطوق الآيتين التاليتين في كتاب الله (كما فهمناهم نحن)، فهذه هي الآية الكريمة الأولى:

- **أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (78)**

ففي هذه الآية (حسب ما نفهمه منها) نجد الحديث عن إقامة الصلاة في وقتين اثنين هما قبل دلوك الشمس (أي صلاة الفجر) وغسق الليل (أي صلاة العشاء)

ثم جاءت الآية الكريمة الثانية التالية:

- **وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (114)**

وفي هذه الآية الكريمة (حسب ما نفهمه منها) نجد الحديث عن إقامة الصلاة في ثلاثة أوقات وهي طرف النهار الأول (صلاة الظهر)، وطرف النهار الثاني (أي صلاة العصر)، وزلفا من الليل (أي صلاة المغرب).

كما افترينا القول حينئذ أن اثنتين من الصلوات الخمسة تقامان في الليل (الفجر والعشاء)، وأن اثنين منهما تقامان في النهار (طرف النهار الأول، أي صلاة الظهر، وطرف النهار الثاني، أي صلاة العصر)، بينما تقام صلاة واحدة بين الليل والنهار (زلفا من الليل: أي صلاة المغرب)، وهذه الصلاة على وجه التحديد هي (كما فهمناها) الصلاة الوسطى التي طُلب منا أن نحافظ عليها محافظة خاصة في الآية الكريمة التالية:

- **حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ (238)**

(للتفصيل انظر مقالتنا السابقة: لماذا نصلي خمس مرات في اليوم والليلة)

كما حاولنا أن نتعرض في مقالة أخرى عن سبب خصوصية الصلاة على وجه التحديد، طارحين التساؤل التالي: لماذا جاء الحث على لإقامة الصلاة المفروضة في المساجد؟

- **قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (29)**
- **يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (31)**

فلو تدبرنا معظم العبادات الأخرى، لوجدنا أن الحث جاء فيها على الخفاء، كالصدقات مثلا:

- **إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (271)**

ففي حين أن إخفاء الصدقات خير من إبدائها، فإن إظهار الصلاة (كإقامتها في المساجد) خير من إخفائها (كإقامتها في البيوت). فزعمنا الظن حينئذ أن السبب في ذلك يعود إلى أمرين اثنين، وهما:

1. أن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا

- **فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا (103)**

2. أن الصلاة هي العبادة الوحيدة التي جاء وصفها في كتاب الله على أنها كبيرة:

- **وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (45)**

وفهمنا ذلك على النحو التالي: جاء وصف الصلاة (من دون العبادات جميعا) على أنها كبيرة بالرغم أنها (ربما) لا تتطلب وقتا وجهدا لإنجازها، وذلك لأنها مرتبطة (نحن نفتري القول) بزمن محدد (كِتَابًا مَّوْقُوتًا). فالعمل (أي عمل) لا يعتبر – برأينا- كبيرا إلا إذا ما كان إنجازه يتطلب الالتزام بمواعيد محددة وثابتة. فلو أنت عملت في وظيفة محددة، ولو أنه طلب منك إنجاز عمل محدد، فإن تلك الوظيفة وأن ذلك العمل لا يكون كبيرا بالنسبة لك إلا إذا كان يتطلب منك القيام به الحضور والمغادرة في أوقات ثابتة محددة. فمهما كان العمل شاقا، لا يكون كبيرا إذا كان الشخص يستطيع القيام به متى شاء، ولكنه يصبح كبيرا إذا تحدد القيام بذلك العمل في وقت محدد (كِتَابًا مَّوْقُوتًا).

مثال: تخيل أنك محكوم عليك بالإقامة الجبرية في مركز أمني، ألا يتوجب عليك الحضور في أوقات محددة للتوقيع وإثبات وجودك؟ ألا يطلب من المحكوم عليه بالإقامة الجبرية أن يثبت وجوده في المركز الأمني في الصباح والمساء مثلا؟ فكم من الوقت تحتاج لإثبات وجودك في المركز الأمني؟ ألا تستطيع القيام بذلك بوقت قصير (ربما ليس أكثر من بضعة دقائق للتوقيع ثم الانصراف في الحال)؟ لكن، ألا يجد الإنسان مشقة في ذلك؟ ألا يكون هذا العمل كبيرا بالنسبة له بالرغم أنه لا يتطلب الوقت والجهد الكبيرين؟

جواب: نعم، هو كذلك، لأنك مضطر أن تتفرغ لهذا العمل بالرغم عن المعيقات جميعا. فمهما كان الظرف الذي تمر به، ومهما كان الشاغل الذي قد يحجزك، إلا أنه وجب عليك أن تترك كل الأعمال الأخرى للحضور للمركز الأمني لبضع دقائق معدودة من أجل إثبات وجودك. فتصبح الدنيا كلها (على اتساعها) وكأنها سجن مفتوح بالنسبة لك.

السؤال: لماذا؟ وما علاقة هذا بالصلاة التي هي فعلا كبيرة (وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ)؟

جواب مفترى: لمّا كانت الصلاة مفروضة على المؤمنين في أوقات محددة، وجب الالتزام بها في هذه الأوقات على وجه التحديد، فتصبح هذه العبادة على وجه التحديد كبيرة، لأنها تتطلب منك التفرغ لها في هذه الأوقات المحددة مهما كان الشاغل الذي قد يحجزك عنها حينئذ. فلو أنت كنت في وسط القيام بأي عمل، وحان وقت الصلاة، وجب عليك أن تترك كل شيء لتتفرغ للصلاة في وقتها.

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الصلاة (كعبادة) هي بمثابة الإقامة الجبرية المفروضة (من السماء) على الإنسان المؤمن في هذه الحياة الدنيا.

السؤال: ما الذي سيحصل لو أنك لم تقم الصلاة في وقتها؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نتخيل بأن الذي يحصل في هذه الحالة مشابه تماما لما قد يحصل لو أن الشخص المحكوم عليه بالإقامة الجبرية قد تخلف عن الحضور إلى المركز الأمني للتوقيع في الوقت المحدد له.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نعلم بأنه لو تخلف الشخص المحكوم عليه بالإقامة الجبرية عن الحضور للمركز الأمني لمرة واحدة لإثبات وجوده في الوقت المحدد له، لربما عرّض نفسه للعقوبة، ولو تكرر غيابه أكثر من مرة، لدُقت أجهزة الإنذار التي تطالب بجلبه على الفور مهما كان السبب الذي منعه عن الحضور.

السؤال: ما الذي يحصل في حالة من تخلف عن إقامة الصلاة في وقتها؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: يُفتح في السماء كتاب خاص لكل شخص مؤمن بربه، ويوجد في هذا الكتاب خمس مربعات للتوقيع فيها (إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا)، وهي أوقات الصلاة المفروضة خمس مرات في اليوم والليلة كما في الشكل التالي:

النهار		الوسطى	الليل	
طرف النهار الأول: الظهر	طرف النهار الثاني: العصر	زلفا من الليل (الصلاة الوسطى) المغرب	غسق الليل (العشاء)	لدلوك الشمس (الفجر)

فإذا ما حضر الشخص لصلاة الظهر مثلا، يكون قد أقفل المربع الأول بالتوقيع فيه، وهكذا بالنسبة لكل وقت من أوقات الصلاة، فتكون الصلاة بذلك كتابا موقوتا:

- فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا (103)

ولكن إذا تخلّف المؤمن عن الحضور لصلاة محددة في وقتها، بقي ذاك المربع مفتوحا (شاغرا)، إيذانا بالإبلاغ أن صاحب هذا الكتاب قد تخلف عن هذه الصلاة في وقتها، وإذا ما تكرر غياب المؤمن عن الصلاة، فإن أجهزة الإنذار في السماء تقرع كلها للتبليغ عنه، فتنطلق الرسالة من السماء مدوّية بأن هذا الشخص هو كمن يفر من وجه العدالة، وربما يصدر الأمر بإحضاره عنوة مهما كان المانع الذي يعيقه.

فتخيل - عزيزي القارئ - ما الذي يحدث عندما تسمع المنادي لصلاة الفجر قائلا (الصلاة خير من النوم) ثم تفضل النوم في فراشك الدافئ على القيام للذهاب للصلاة في وقتها! لعلي لا أتردد أن أقول لك بأن أجهزة الإنذار في السماء تدقّ كلها لتعلن تخلفك عن الحضور في الوقت المحدد، وأن رسالة قد انطلقت من السماء مفادها أنك فار من وجه العدالة في السماء. ولا أتردد بأن أقول لك بأن هذه الخانة التي لم تحضر للتوقيع فيها ستظل شاغرة ومفتوحة حتى تؤديها يوم القيامة (والله وحده يعلم أين وكيف ستؤديها هناك).

لذا، كانت هذه الصلاة كبيرة إلا على الخاشعين، الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون:

- وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (45) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (46)

لذا، لا أتردد أن أنصح نفسي أولا، ثم أنصحك بعد ذلك – عزيزي القارئ- أن لا تتلكأ بأن تؤدي الصلاة في وقتها إن كنت من الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون مهما كان المانع الذي قد يشغلك عنها. وأكاد أجزم الظن أن الذين لا يؤدون الصلاة في وقتها (إن فهموا الغاية منها) هم فقط من يظنون أنهم لن يلاقوا ربهم وأنهم لن يرجعوا إليه.

وهنا أجد لزاما أن أسطر الافتراءات الخطيرة التالية التي هي لا شك من عند نفسي:

الافتراء: مادام أن الصلاة هي كتابا موقوتا، فإن من الاستحالة بمكان:

1. أن يتقبل تأديتها في غير وقتها، فإذا ما فاتتك صلاة ما في وقتها، فإنه لا يسد عن ذلك تأديتها في وقت آخر
2. لا يجوز الجمع بين الصلوات مهما كان السبب.

الدليل

عندما جاء تشريع الصيام، كان هناك رخصة واضحة في كتاب الله أن تصوم في أيام أخر لمن تعذر عليه الصيام في اليوم المحدد، فقال تعالى:

- شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185)

فعدم الاستطاعة على الصيام في شهر من أشهر رمضان يمكن تعويضه في أيام أخر بدليل اللفظ القرآني (فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ)، ولا نجد مثل هذا التشريع واردا في حق عدم الاستطاعة على إقامة الصلاة في وقتها. فما فات من صلاتك لا يمكن تعويضه (نحن نفتري القول) إلا بالاستغفار:

- لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (286)

أما بخصوص الجمع في الصلاة لعارض الحر أو البرد، فلا نجد دليلا على ذلك في كتاب الله، فبالرغم أن الرخصة قد جاءت لقصر الصلاة في أوقات الخوف واضحة وصريحة في كتاب الله:

- وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا (101)

إلا أنه لا يوجد دليل مثل هذا على الجمع بين الصلوات لمن فاته شيء منها في وقتها. ولا يجب أن ننسى أن مفردة "الجمع" قد وردت في آيات أخرى من كتاب الله كما في قوله تعالى:

- حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (23)

فلو كان الجمع ممكنا، لربما جاءت الآية الكريمة التي تتحدث عن قصر الصلاة (نحن نفتري الظن) على النحو التالي:

فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة وأن تجمعوا بينهما.....

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا (1): يجوز قصر الصلاة في حالة الخوف

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا (2) لا يجوز الجمع بين صلاتين مهما كان السبب

ومادام أن إقامة الصلاة هي عمل محدد بوقته، ومادام أنها تمثل الإقامة الجبرية المفروضة على العبد المؤمن بهدف الإقرار بالوحدانية لله فلا يعبد إله آخر من دونه، وجب الالتزام فيه بشيئين اثنين وهما،

1. الاغتسال للصلاة (أو ما يسمى بالوضوء)
2. الالتزام بالدور

باب الاغتسال للصلاة (أو ما يعرف بمسمى الوضوء للصلاة)

جاءت الآية الكريمة التالية:

- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (6)

لتشترط القيام إلى الصلاة بفعل محدد في ثلاث حالات هي على النحو التالي:

1. في الحالة العادية حيث يتوجب فيها الغُسل: فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ
2. في حالة الجنابة حيث يتوجب فيها التطهر: وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُواْ
3. في حالة تعذر الوصول إلى الماء حيث يتوجب فيها التيمم: وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ

ولا شك أن الغاية من ذلك كله ليس الحرج (مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ)، وإنما الظفر بالطهارة (وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ).

السؤال: لماذا يتوجب على المؤمنين "الغسل" (أو ما يسمى بالوضوء) في الأوضاع الطبيعية (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ)؟ أو بكلمات أكثر وضوحا نحن نسأل: ما فائدة الوضوء عند القيام إلى الصلاة؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الإجابة على هذا التساؤل تتطلب طرح سؤال آخر هو: لم نغسل هذه الأعضاء الظاهرة من جسدنا (وهي الوجه واليدين إلى المرفقين والرأس والرجلين إلى الكعبين) عندما نريد القيام للصلاة؟

رأينا المفترى: بعيدا عن التأويلات التي وصلتنا من عند أهل الدراية، فإننا نظن أن السبب في غسل هذه الأعضاء على وجه التحديد تتمثل في أن هذه هي الأعضاء البارزة المحدّدة لجسم الإنسان كله من جميع الجهات، فالرأس هو الجزء الذي يحدد جسم الإنسان من الأعلى، والرجلان هما اللتان تحددان أطراف الإنسان من الأسفل، واليدان هما اللتان تحددان أطراف الإنسان من الجوانب، والوجه هو الذي يحدد طرف الإنسان من الأمام ليتميز عن طرفه من الخلف أو الوراء، وبذلك تتحدد أطراف الإنسان من كل الاتجاهات، أليس كذلك؟

السؤال: وما علاقة هذا بمسألة غسل هذه الأجزاء (أي الأطراف) عندما نريد القيام إلى الصلاة؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الإجابة على مثل هذا التساؤل (كما نحاول تسطيرها) يمكن أن نستنبطها من الآية الكريمة التالي:

- **يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (13)**

السؤال: وما علاقة هذه الآية بغسل الصلاة؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الوضوء هو عبارة عن النور الذي تلبسه على أطراف جسمك من جميع الاتجاهات، لتستفيد منه في ذلك الظلام الرهيب الذي سيسود عندما يجمع الله الجميع للحساب.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: عندما يقوم الناس جميعا لرب العالمين، ستكون الأرض التي بدلت غير الأرض مظلمة تماما:

- **يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (48)**

وذلك لأن الشمس والقمر قد جمعا:

- **يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (6) فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9) يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (10) كَلَّا لَا وَزَرَ (11) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (12) يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13)**

فيسود الظلام التام، فلا يستطيع الإنسان حينها أن يتلمس طريقه أو أن يرى ما حوله، ويبرز في هذا الظلام الحالك نور واحد تتراوح درجات إضاءته: وهو نور المؤمنين، وهم الذين يسعى نوره بأيديهم وإيمانهم:

- **يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12)**

فتبين من بين كل ذلك الظلام ملامحٌ محددة للمؤمنين والمؤمنات، فتتحدد أطرافهم من ذلك النور الذي جلبوه معهم من الحياة الدنيا، كما سيأتي على ألسنتهم عندما يطلب منهم المنافقون والمنافقات أن يلتمسوا شيئا من نورهم، فيردون عليهم بالقول بأن يرجعوا وراءهم ليلتمسوا نورا:

- **يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (13)**

وفي تلك اللحظة يُضرب بين الطرفين بسور (فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ)، فيكون المؤمنون بربهم (وهم المصلون الذين اكتسبت أطرافهم جميعها نورا بما أسبغوا عليها من ماء غسل الوضوء) من داخل باب ذلك السور حيث الرحمة (لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ)، ويبقى المنافقون والمنافقات خارجه حيث العذاب المرتقب (وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ).

وفي هذه اللحظة يطلب من هؤلاء القابعين خارج الباب الكشف عن الساق للسجود فلا يستطيعون:

- **يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (42)**

السؤال: لماذا يطلب من هؤلاء الكشف عن الساق؟

جواب مفترى: أليس ذلك من أجل السجود؟ ألم تكشف تلك المرأة التي جاءت سليمان عن ساقيها عندما رأت الصرح؟

- **قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (44)**

ألم تكن وقومها يسجدون للشمس من دون الله؟

- **وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (24)**

أليس السجود فقط لله:

- **أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (25)**

(للتفصيل انظر مقالة ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته: باب السجود)

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن من كان يغسل (ويمسح على) أطراف جسمه الظاهرة (الوجه واليدين إلى المرفقين والرأس والرجلين إلى الكعبين) عندما كان يقوم إلى الصلاة في الحياة الدنيا، هو فقط من استطاع أن يكتسب ذلك النور الذي سيستفيد منه في تلك الظلمة الرهيبة، ويستمر ذلك حتى تشرق الأرض كلها بنور ربها:

- وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (69) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (70)

في الفترة التي تسبق مجيء الرب بنفسه من أجل الحساب، لا يكون هناك نور يمكن أن يُلتمس إلا نور المؤمنين الذي يسعي بين أيديهم وبأيمانهم:

- يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12)

ويكون ذلك أول علامات البشرى لهم بالجنات التي تجري من تحتها الأنهار.

رسالة قصيرة: عزيزي القارئ الكريم، إذا أردت أن تكون من المؤمنين والمؤمنات الذين يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، فاحرس على الغسل عندما تريد القيام إلى الصلاة كما جاء في قوله تعالى:

- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (6)

لأن ذلك بمثابة شحن أطراف جسمك بالطاقة "الضوئية" التي ستستفيد منها يوم يسود الظلام الحالك عندما يقوم الناس جميعا لرب العالمين:

- يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (6) فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9) يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (10) كَلَّا لَا وَزَرَ (11) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (12) يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13)

ففي يوم القيامة، وهو اليوم الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين، سيخسف القمر وسيجمع الشمس والقمر، وستنعدم مصادر الإضاءة كلها، عندها سيقول الإنسان (أَيْنَ الْمَفَرُّ). في مثل هذا الموقف الرهيب، لن ينفعك في تلك الظلمة الحالكة إلا نور واحد تكون قد جلبته معك، إنه الغسل للصلاة (أي الوضوء)، فكلما أصبغت وضوءك وكلما أتقنته أكثر، كلما شحنت أطراف جسمك بالطاقة التي ستنيرها في ذلك اليوم المجموع له الناس.

(دعاء: اللهم أدعوك وحدك أن أكون من عبادك المؤمنين الذين سيسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، إنك أنت السميع البصير – أمين)

لفتة مهمة: ولو دققنا في الآية الكريمة التي تتحدث عن الاغتسال عند القيام للصلاة، لوجدنا أن اللفظ هو " إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ"، ليكون سؤالنا على عجل هنا هو عن الغاية من وجود حرف الجر إِلَى في هذه العبارة. أليس من المتوقع أن يكون اللفظ على نحو "إذا قمتم للصلاة" مثلا كما في قوله تعالى:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (9)**

انظر المقابلة بين الحالتين في الجدول التالي:

	فعل الشرط	جواب الشرط
المناداة	إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ	فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ
الاغتسال	إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ	فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ

السؤال مرة أخرى: لماذا جاء اللفظ في حالة المناداة من يوم الجمعة باستخدام حرف الجر (لـ) بينما جاء اللفظ في حالة إقامة الصلاة باستخدام حرف الجر (إلى)؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا (1): لمّا كان السعي لذكر الله وترك البيع واجبا في كل مناداة من يوم الجمعة، جاء اللفظ باستخدام حرف الجر (لـ). فأنت مأمور (نحن نفتري القول) أن تسعى لذكر الله وأن تترك البيع كلما نودي للصلاة من يوم الجمعة؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا (2): لما كان غسل الوجه واليدين إلى المرفقين ومسح الرأس وغسل الرجلين إلى الكعبين (نحن نفتري القول) غير واجبه في كل إقامة صلاة، جاء اللفظ باستخدام حرف الجر (إلى). فأنت لست مأمور بأن تغسل وجهك يديك إلى المرفقين ووجهك وتمسح برأسك وتغسل رجليك إلى الكعبين في كل مرة تقيم فيها الصلاة.

السؤال: ماذا لو كان اللفظ على النحو "إذا قمتم للصلاة فاغسلوا"؟ أي ماذا لو استخدم حرف الجر (لـ) بدلا من (إلى) في حالة إقامة الصلاة؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأنه لو جاء اللفظ على هذا النحو، لوجب عليك أن تغسل وجهك يديك إلى المرفقين وأن تمسح برأسك وأن تغسل رجليك إلى الكعبين مع كل إقامة صلاة. ولما جاز لنا أن نقيم صلاة الظهر والعصر مثلا بغسل واحد، ولما صح لنا أن نقيم صلاة المغرب والعشاء بغسل واحد، ولما صح لنا أن نقيم صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء بغسل واحد، ولما صح لنا أن نقيم صلاة الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء جميعا بوضوء واحد. ولأصبح لكل إقامة صلاة غسلها الخاص بها.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: إن المؤمن الذي يقوم إلى الصلاة هو من يغسل وجهه ويديه إلى المرفقين ويمسح برأسه ويغسل رجليه إلى الكعبين بالغسل نفسه مادام أنه لم يُحْدِث، فيبقى المؤمن في طهارة مادام أنه قائم إلى صلاته (أي محافظا على غسله).

باب الالتزام بالدور

لما كانت الصلاة هي بمثابة الإقامة الجبرية المفروضة على العباد المؤمنين في الأرض، وجب الحضور للتوقيع في الأوقات المتفق عليها، ولكن يستطيع المؤمن أن يقيمها منفردا إذا أراد هو ذلك، فيكون قد شهد لنفسه بذلك، ولكن من الأفضل – لا شك عندنا- أن يقيم المؤمن الصلاة في جماعة ربما ليشهد له الآخرون بذلك.

السؤال: ماذا يترتب على من يحضر الصلاة في جماعة أن يفعل؟

رأينا: مادام أنك حضرت إلى مكان يتواجد فيه غيرك للقيام بالفعل نفسه، فإن من أبسط السلوكيات التي وجب الالتزام بها (نحن نفتري القول) هو الالتزام بالدور (أو Queue أو Line باللسان الأعجمي).

السؤال: لماذا؟ وأين الدور في إقامة الصلاة؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: لا شك عندنا أن هناك ميّزة لمن يحضر مبكرا إلى المسجد من أجل فعل إقامة الصلاة في جماعة، وذلك لأنه (نحن نظن) يستطيع أن يقوم بالتوقيع أولا، فكلما كنت أقرب إلى الصف الأول، كلما حان دورك قبل الآخرين.

السؤال: ما الذي يحصل في مساجد المسلمين؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الفوضى العارمة هي السلوك الواضح في مساجد المسلمين على وجه التحديد. وهذه الفوضى واضحة في دخولهم وخروجهم واصطفافهم للصلاة. ولعلي أستطيع أن أتجرأ – بناء على مشاهدتي لسلوكيات المسلمين في المساجد- على الافتراء الخطير جدا التالي: إن الفوضى التي تعمّ بلاد المسلمين بشكل خاص (من دون معظم شعوب الأرض الأخرى) سببها (أنا أفتري القول) ثقافة الحضور إلى المسجد للقيام بالصلاة في جماعة. ولعلي أكاد أجزم القول أيضا بأن هذه الفوضى العارمة في حياة المسلمين كان جلّها بسبب الخطأ في الفهم لما يسميه أهل العلم بحديث الاستهام على الصف الأول، كما جاء في صحيح البخاري:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لَاسْتَهَمُوا وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ لَاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا))

فترى كثيرا من المسلمين الذين يحضرون إلى المساجد يحاولون الوصول إلى الصف الأول بغض النظر عن وقت حضورهم، فقد يكون هو آخر الداخلين إلى المسجد إلا أنه يتخطى رقاب الجميع بهدف الظفر بالوقوف في الصف الأول، ظانا بأنه بهذه الطريقة هو يطبق قول رسوله هذا (إن صح بالطبع).

رأينا: إن هذا المسلم الذي دخل المسجد متأخرا وحاول تخطي رقاب المؤمنين الذين سبقوه هو نفسه الذي لا يلتزم بالدور في المخبز وفي موقف الباص ومحطة القطار، وهو نفسه الذي يحاول أن يسبق الآخرين

في كل تصرفاته (ويكأنه في ساحة معركة مع الجميع)، ظانا أنه بذلك إنما يظفر بحق له، لا بل وأن هذا العمل – في ظنه- هو من النوع الذي يقربه إلى الله زلفا. فترى المسلم (على وجه التحديد) فوضوي في حياته اليومية، لا يلتزم بمواعيد، ولا يتقيّد بدور، ولا ينتبه لمشاعر الآخرين.

السؤال: لماذا يحصل هذا في بلاد المسلمين أكثر من بلاد غيرهم؟

رأينا: نحن نظن أن المسلم الذي وجد أن الشرع (كما فهمه من عند أهل الدراية منهم) يبيح له تخطى رقاب الآخرين في الاصطفاف للصلاة جماعة، والوصول إلى الصف الأول حتى لو اضطر للاستهام (أي رمي الآخرين بالسهام)، ألا يجد أنه ربما يشرع له أيضا (حسب منطقه غير المعلن بالطبع) أن يتخطى "رقاب الآخرين" في الأعمال الدنيوية؟ ألا تراه يأكل ما سبقت يداه الآخرين إليه؟ ألا تراه يحاول أن يتخطى "رقاب" زملائه في العمل حتى لو كان كثير منهم أحق منه فيها؟ ولكن هل رأيت كثيرا من أبناء المسلمين يراجعون أنفسهم إذا ما شعروا أنهم قد أخذوا حقا ربما يكون الآخرون هم أصحابه؟ من يدري؟!

إن ما يهمّني في هذا الطرح هو السلوك الذي يغرزه هؤلاء (بطريقة غير مباشرة) في أذهان الصغار من أبنائهم الذين يحضرون إلى المساجد لإقامة الصلاة فيها.

إن ما يهمّني هو ما يعززه خطباؤهم في أذهان النشء من أبناء لمسلمين بمثل هذه الأحاديث التي يرونها ولا يكادون يفقهون حديثها.

إن ما يهمّني هو أن ما يُغرس في ذهن المسلم الصغير من جراء هذه التصرفات "في المساجد" لا يمكن أن يمحوه التعليم والتثقيف لاحقا. فكم حاولت في حياتي اليومية أن أكون منظما فلا أعتدي على الآخرين! لكن للأسف الشديد، باءت معظم محاولاتي بالفشل، فها أنا أزاحم الناس في المخبز وفي موقف الباص، وفي كل طابور حتى في السيارة على الإشارة الضوئية. وها أنا أزاحم زملائي في العمل لأخرج بمكتسبات ربما غيري هو الأحق بها!

إن ما يهمّني هو هل فكرت للحظة (عندما يطلب مني أن أقوم بعمل ما له مردود معنوي ومادي في وظيفتي) بأن غيري قد يكون أحق به مني؟ هل قلت في نفسي: ألا يمكن أن أكون قد أخذت حق غيري طمعا في بعض المكاسب والمغانم الدنيوية؟ تخيل عزيزي القارئ – إن شئت- ما الذي يمكن أن يفيد بلاد الإسلام لو أن كل منا توقف للحظة ليحاسب نفسه على أن لا يأخذ حق غيره؟ ألا يساهم ذلك في إنهاء الفوضى التي تعم بلاد الإسلام؟

مثال: عندما يُكلّف الوزير الأول (أو رئيس الوزراء) بتشكيل طاقمه الوزاري، ألا تعلو "زغاريد" الوالدة والأخت والزوجة لمن تم اختيارهم؟ ألا تقام الحفلات بالرقص والغناء في مضارب آباء من وقع الاختيار عليهم؟ ألا تنطلق التهاني من كل حدب وصوب وبكل وسائل الاتصال الجماهيرية الممكنة من عند من ظنوا بأن صاحبهم هذا هو من أصحاب "الحظ العظيم"؟ ألا يمكن تلخيص كل عبارات التهاني والتبريكات التي أطلقوها في قول واحد؟ ألا ترى أن لسان حالهم ويكأنه يقول لصاحب "الحظ العظيم" بأنك الشخص المناسب في المكان المناسب؟ لكن أليس من الواجب على هذا الشخص أن يسأل نفسه: هل فعلا أنا الرجل المناسب (صاحب الحق الشرعي) في المكان المناسب؟ من يدري؟!

لذا، يبقى السؤال الذي لابد من طرحه على مسامع الجميع (وخاصة هؤلاء الذين ظنوا أنهم أصحاب حظ عظيم في هذه الحياة الدنيا)، هو: ماذا لو أنه كان هناك من أبناء جلدتك من هو أحق منك بما كسبت

يداك؟ ماذا لو تبين أنك قد أخذت ما هو من حق غيرك؟ هل تستطيع أن تتخيل مقدار الظلم الذي أوقعت فيه نفسك بما كسبت يداك؟ من يدري؟!

السؤال: من أين جاءت هذه الفوضى في بلاد الإسلام على وجه التحديد؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هذه الفوضى قد نشأت معنا في المساجد. فالذين لم يفهموا ولم يفهموا الناس فحوى ما نقلوه عن محمد في هذا الحديث:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لَاسْتَهَمُوا وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ لَاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا))

هم – لا شك عندنا- المسئولون عن كل هذه الفوضى التي تعم بلاد الإسلام، إنهم أهل الدين، إنهم أصحاب العمائم السوداء والبيضاء، الذين تنفجر حناجرهم على المنابر، فيرددون ما لا يفقهون.

السؤال: ما البديل عن هذا الوضع القائم الذي لا يسر أبناء المسلمين أنفسهم؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الدين قد حثّ على الإسراع بالمجيء إلى المسجد للظفر بالدور في حفل التوقيع على الإقامة الجبرية المفروضة عليك، فكلما حضرت مبكرا إلى المسجد كلما حان دورك أولا، بغض النظر عن من سبق (في معركة الصف الأول التي ورثناها من أهل الدين). فإذا حظرت إلى المسجد، فانظر عزيزي القارئ المؤمن بربك لترى بأم عينك من سبقك في القدوم، ولا تحاول أن تتخطاه، حاول أن تقدّمه على نفسك إن وجدت أن المكان يتسع إلاّ لأحدكما، لأنه هو صاحب الحق في ذلك المكان. وأعلم عزيزي القارئ المؤمن بربك أنه حتى لو اغتصبت حق صاحبك ذاك (لأن سهمك كان أمضى من سهمه)، لما ضاع عليه الأجر، ولما تحصلت أنت على الثواب. لا بل سيكون له (نحن نفتري القول) حق في رقبتك تدين له به إلى يوم الدين، وربما لن يتنازل لك عنه بسهولة إن تمكّن منك هناك. فهل لو أنكما تقابلتما في محطة القطار، وكان هو من وصل قبلك ولو بلحظات قليلة، وكان القطار لا يتسع حينئذ إلا لواحد منكما، فهل لو صعدت أنت في عربه القطار عنوة (لأنك الأقوى مثلا)، فهل سيتنازل لك عن حقه هذا بسهوله لو أنه تمكن منك لاحقا؟

ولعلي أكاد أجزم الظن أن سلبيات هذا السلوك الموروث لا تتوقف عند أخذ الحقوق وكفى، بل كانت سببا في وجود الضغينة بين المسلمين حتى لو ظنوا أنهم إخوانا. فكم انتابني شعور بالحنق على من كان يطيح بي ليأخذ دوري في الطابور المدرسي، ومن نجح في أخذ دوري في طابور الدوائر الحكومية (غير المنتظم) الذي لا ينقطع في بلاد المسلمين على وجه الخصوص، وفي أولوية العمل، وحتى في الوقوف للصلاة.

السؤال: ما هي عقيدتي في هذه القضية على وجه التحديد؟

عقيدتي: كنت دائما أقول في نفسي (موجها الخطاب إلى كل من تعجل ليأخذ دوري دون وجه حق دون أن يسمعني) أني والله لن أعفو عنك إن كان لي عندك حق حتى لو أن الله نفسه قد غفر لك. فإن غفر الله لك، فذاك حقه، وهو مسئول عنه، فهو الذي لا يسأل عما يفعل، أما إن أخذت أنت حقي، فاقسم بربي الذي أعرفه إني لن أتنازل لك عنه بسهولة؛ فإن كنت لا استطيع أن أتحصل عليه في الدنيا لضعف قدرتي وقلة حيلتي، فلن أتنازل عنه في الآخرة مادام أن الظلم هناك غير وارد. وبالمقابل، فإني أطلق الدعوة واضحة وصريحة لغيري بأن لا يسمح وأن لا يعفو عني إن وجد أني كنت قد أخذت منه حقا هو الأجدر به. فعند الله تجتمع الخصوم، ولا شك أن الله لا يظلم مثقال ذرة، فكن عزيزي القارئ مستعدا لهذا الموقف لتأخذ حقك من غيرك ولتدفع من جيبك حق الآخرين الذي أخذته منهم دون وجه حق.

السؤال: ما الذي كان من الممكن أن يتعلمه النشء من أبناء الإسلام لو أن هذه الفهم المفترى قد أصبح جزءا من عقيدتهم منذ اليوم الأول الذي دخلوا المسجد لإقامة الصلاة فيه؟ وما الذي كان من الممكن أن يتعلمه هؤلاء الصغار لو أنهم رأوا آباءهم يفعلون هذا كلما يدخلون المسجد؟ وما الذي كان من الممكن أن ينغرس في طبائعهم لو أن هذا ما أفهمهم إياه من تصدروا للخطابة على المنابر من أصحاب اللحى الطويلة والثياب القصيرة؟ من يدري؟!

باب ما يسمى بصلاة "السنة"

السؤال: لماذا جاء الحث على إقامة الصلاة المفروضة في المساجد؟ أي لماذا العلانية في الصلاة خير من إخفائها؟
جواب مفترى: لمّا كانت الصلاة على المؤمنين كتابا موقوتا، ولما كان ذلك (نحن نفهم) بمثابة الإقامة الجبرية المفروضة من السماء على المؤمنين من أهل الأرض، كانت الشهادة فيها واجبة. فأنت عندما تخرج من بيتك بنية الذهاب للصلاة، فإن كل شيء تجده في طريقك يشهد لك بذلك، وأن الناس الذين تقابلهم في الطريق وفي المسجد هم بمثابة شهداء لك بأنك قد أديت الصلاة في وقتها. لذا جاء الحث على الصلاة في المسجد الجامع، فكلما كان المسجد أكبر (من حيث عدد المصلين فيه)، كانت الصلاة أفضل، ليس لزيادة الأجر (كما ظن أهل الدراية من قبلنا)، ولكن (نحن نظن) لتكثير الشهداء لك بأنك قد أديت الصلاة في وقتها. فهم جميعا يشهدون لك بأنك قد حضرت مراسم التوقيع في الوقت المحدد. فلو أنت أقمت الصلاة في بيتك لوحدك، لكنت أنت نفسك (وربما بعض أهل بيتك) هم الشهداء لك على ذلك، ولو أنت أقمت الصلاة في مسجد الحي، لشهد لك أهل الحي بذلك، ولو أقمت الصلاة في مسجد البلدة الرئيسي، لشهد لك أهل البلدة بذلك، ولو أقمت الصلاة في مسجد المدينة الكبير، لشهد لك أهل المدينة بذلك، ولو أديت الصلاة في الحرم المكي، لشهد لك كل الحاضرين هناك بأنك قد أديت الصلاة في وقتها.
السؤال: لماذا الأفضلية للصلاة المفروضة في المسجد في جماعة بينما الأفضلية لصلاة السنة (كما يرغب أهل الدراية في الفكر الديني الشعبي أن يسمونها) في البيت منفردا؟
جواب مفترى: سنحاول اليوم التعرض لمشروعية الصلاة التي عرفت بين الناس (بما أفهمهم إياه أهل الدين) بصلاة "السنّة"، وسنتعرض على وجه التحديد للتساؤلات التالية:

- ⇐ من أين جاءت؟
- ⇐ ومتى جاءت؟
- ⇐ وكيف جاءت؟
- ⇐ وما هي أوقاتها؟
- ⇐ وكم عدد ركعاتها؟
- ⇐ ولماذا جاء الحث على إقامتها في البيت؟
- ⇐ ولماذا لا تؤدى في جماعة المسجد؟
- ⇐ ولماذا جاء الحث عليها كصلاة فردية (ليست جماعية) في البيت؟
- ⇐ وهل هذه فعلا تشريعات حقيقية لها أصل في كتاب الله؟
- ⇐ وهل هي واجبة أم نافلة؟
- ⇐ الخ.

لعلي بحاجة في البداية أن ألفت انتباه القارئ الكريم إلى أنني سأتجرأ (بعد قليل) على افتراءات ربما غير مسبوقة في الفكر الديني، لذا أعود إلى تأكيد الفكرة ذاتها التي مفادها أن ما سأقوله لا يخرج عن نطاق قول البشر الذي يتميز بالخطأ والنقص، لذا فهو قابل للتصويب دائما، فإن أنت وجدت الدليل الذي ينقض ما سنفتريه من قول، فلا تتردد أن تضرب بقولنا هذا كلّه عرض الحائط، أو أن تلقي به في سلة المهملات، لأن هذا هو مكانه الصحيح إن ثبت بطلانه. لكن إن لم تجد دليلا ينقض قولنا هذا، فإننا نحتكم جميعا إلى قوله تعالى:

- **قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (25) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (26)**

فالله وحده أدعوه أن يعلمني الحق الذي أقوله فلا أفتري عليه الكذب، إنه هو الواسع العليم – آمين

أما بعد،

دعنا نبدأ النقاش بالافتراء الخطير جدا التالي: ليس هناك في الدين ما يمكن أن يسمى بسنّة محمد. انتهى.

لذا، نحن نتجرأ على القول بأن ما كان محمد يفعله ليس من عنده، وإنما هو تشريع إلهي، وجب على محمد تبيانه للناس، وذلك لأن محمدا لا يتبع إلا ما يُوحى إليه:

- **قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ (50)**
- **وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15)**
- **قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (9)**

ولا ينطبق ذلك على فعل محمد فقط، وإنما ينطبق أيضا على قوله:

- **مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5)**

لذا، فإن كل فعل قام به محمد، وكل قول نطق به محمد، لم يكن من عنده، وإنما هو إتباعٌ لما كان يُوحى إليه. انتهى.

السؤال: لماذا؟ وماذا عن ما تناقله الفكر الإسلامي على مدى قرون من الزمن تحت مسمى "السنة النبوية"؟

جواب مفترى: نحن نظن بداية أن مفردة "السنّة" لم ترد في النص القرآني مصاحبة لمحمد إطلاقا. ولكنها جاءت في كل سياقاتها القرآنية لتؤكد أن السنّة هي سنّة الله نفسه، قال تعالى:

- **مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا (38)**
- **سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (62)**
- **سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (23)**
- **سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً (77)**

نتيجة مفتراة: إن سنّة محمد (وجميع رسل الله من قبله) هي سنة الله نفسه. فمحمد (وكل رسول من رسل الله) لا يشرع للناس إلا ما جاءهم من ربهم:

- **وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (55)**

(دعاء: اللهم أسألك وحدك أن تعلمني أحسن ما أنزل إلينا منك، وأدعوك أن أكون أول المتبعين، إنك أنت السميع البصير – آمين)

ولعلي أكاد أجزم القول أن هذا الفصل بين ما يسميه علماؤنا الأجلاء بالفرض وما يسمونه بالسنّة كان التخريب الأكبر الذي دخل في هذا الدين، ولعلي أكاد أجزم القول بأن هذا الفصل بين ما جاءنا من عند الله وما بيّنه لنا رسوله الكريم كان الغرض منه واضحا: وهو التفريق بين الله ورسله:

- **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (150)**

فالقول بأن هناك تشريع قام به محمد، وهناك تشريع جاءنا من عند الله، لا تعدوا أن تكون – برأينا- أكثر من عقيدة الذين كفروا، وهم الذين يريدون أن يفرقوا بين الله ورسله.

شهادة مفتراة (1): اللهم أشهدك باني لست من الذين يفرقون بين الله ورسله

شهادة مفتراة (2): اللهم أشهدك بأني أؤمن يقينا بأن محمدا لم يكن إلا متبعا لما أُوحي إليه

شهادة مفتراة (3): اللهم أشهدك بأني على العقيدة التي مفادها أنّ السنّة هي سنتك التي لا نجد لها تبديلا ولا نجد لها تحويلا

نتيجة مفتراة مهمة جدا وخطيرة جدا: السنّة هي سنّة الله وليست سنّة محمد. انتهى.

مفارقات مضحكة مبكية

جاءنا في الأثر أن الصلاة فرضت في المعراج، وجاءنا في ذلك الأثر (الخيالي) بأنها قد ابتدأت بخمسين صلاة، فعاد محمد من عند ربه (كما تصوره الرواية) مأمورا بخمسين صلاة، وما أن وصل عند موسى حتى نصحه بالعودة إلى ربه ليخفف عنه، ففعل، فبدأت "رحلة المساومات المكوكية" – كما قرأنها في بعض الكتب وكما سمعناها من أهل الين على منابر الخطابة وشاشات الشهرة الجماهيرية- في التخفيف حتى وصلت إلى خمس صلوات في اليوم والليلة، وهناك استحى نبينا الكريم (كما تصوره تلك الرواية) أن يعود مرة أخرى ليطلب تخفيفا أكثر من ذلك. أليس هذا – يا ساده- ما نخره معلمو الدين في رؤوسنا في المدرسة وثبته خطباء المنابر وشاشات التلفزة المفوهين في عقولنا؟

ما يربكنا: إذا كان محمد قد بذل جهدا لكي يخفف عنا الصلاة المفروضة (كما نقلوا لنا في مؤلفاتهم)، فنجح في تقليصها إلى خمس صلوات بدلا من خمسين (كما أقنعونا في واقعهم)، رأفة بأمته التي قد لا تطيق ذلك (كما عبرت لنا عن ذلك مشاعرهم)، فما باله يعود من هناك "ليستن" لنا زيادة في تلك الصلوات (كما كذبت علينا ألسنتهم)؟!

السؤال: مادام أنه قد كافح من أجل التخفيف، فلم يعود ليثقل كاهلنا بصلاة من عنده تسمى صلاة السنّة غير الصلاة المفروضة (إن صح ما نقله لنا أهل الرواية)؟ ألا ترى أن قولهم ذاك يناقض بعضه بعضا؟ من يدري؟!

رأينا: المفترى: أنا أعتقد يقينا أن الصلاة كما صلاها محمد (بكل تفاصيلها) هي وحي من الله، لم يكن لمحمد أن يزيد فيها شيئا أو أن ينقص منها شيئا، لأن الله قد توعده بالعقاب المباشر لو أنه فعل ذلك:

- **تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (43) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (47)**

فمحمد (نحن نفتري القول) لم يكن إلا رسول متبع لما يوحى إليه، سواء كان ذلك في الصلاة أو في الصيام أو في الزكاة أو في الحج أو في أي عبادة من العبادات التي فرضها الله على عباده المؤمنين:

- **لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (19)**

الحبكة: كفاك فلسفة، ما الذي تريد أن تقوله؟ يرد صاحبنا وقد استشاط غضبا على إرث آباءه الذي سينهار أمام ناظريه (إن شاء الله) قريبا بحول الله وتوفيق منه.

جواب: نحن نريد أن نقول أن فعل الرسول (أو ما يسميه أهل العلم بالسنّة) هو تشريع رباني لا دخل لمحمد فيه.

السؤال: إن صح ما تقول، فأين الدليل على أن ما يُسمى بصلاة السنّة هي تشريع إلهي لم يكن لمحمد دخل فيه؟ يسأل صاحبنا.

جواب مفترى من عند أنفسنا: دعنا نطبّق هذا المنطق المفترى من عند أنفسنا في فعل الصلاة كلها، ثم ننظر ما ستؤول إليه الأمور لاحقا.

السؤال: كيف يمكن تطبيق ذلك في حالة فعل الصلاة؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: افترينا القول سابقا أن الصلاة المكتوبة (المفروضة) قد وردت في كتاب الله تحت مسمى "إقامة الصلاة" في الآيتين الكريمتين التاليتين اللتين تحددان (كما نفهمهما) أوقات الصلاة الخمسة في اليوم والليلة:

- **أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (78)**
- **وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (114)**

فحددت الآية الكريمة الأولى صلاتين اثنين وهما صلاة الفجر (لِدُلُوكِ الشَّمْسِ) وصلاة العشاء (غَسَقِ اللَّيْلِ)، وحددت الآية الكريمة الثانية أوقات ثلاث صلوات وهي الظهر والعصر (طَرَفَيِ النَّهَارِ) وصلاة المغرب (وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ).

ليكون السؤال الكبير الآن: أين هي الصلاة التي يرغب علماؤنا الأجلاء تسميتها بصلاة "السنة"، والتي ظنوا أنها غير مفروضة وإنما هي زيادة بفعل النبي نفسه؟

جواب مفترى خطير جدا جدا لا تصدقوه: نحن نظن أن هذه الصلاة قد جاء تفصيلها في الآيات الكريمة التالية:

- **فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاء اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (130)**
- **فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (39) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (40)**

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب مفترى: دقق عزيزي القارئ – إن شئت- في قوله تعالى:

- **فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (39)**

لنطرح عليك بعد ذلك سؤالا محددا، ألا وهو: لماذا طلب الله منا أن نسبح بحمده قبل طلوع الشمس وقبل الغروب؟ وماذا لو قمت أنا بالتسبيح بعد طلوع الشمس بالرغم أن الطلب جاء أن أسبح بحمد ربي قبل طلوع الشمس (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ)؟ هل يعيب الله عليّ ذلك؟ ثم، ألا أستطيع أن أسبح بحمد ربي متى ما أشاء؟ وماذا لو سبحت أنت بحمد ربك بعد غروب الشمس وليس قبل الغروب كما جاء في الآية الكريمة (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ)؟ وماذا لو سبحت بحمد ربي قبل طلوع الشمس وبعد طلوعها أو قبل غروب الشمس وبعد غروبها؟ هل يُعاب عليك ذلك؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: لا، لا تستطيع أن تسبح بحمد ربك متى ما تشاء لأن التسبيح بحمد الرب كما فصلته الآيات السابقة يجب أن يقع فقط في أوقات محددة بذاتها وهي:

1. قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ
2. وَقَبْلَ غُرُوبِهَا
3. وَمِنْ آنَاء اللَّيْلِ فَسَبِّحْ
4. وَأَطْرَافَ النَّهَارِ
5. وَأَدْبَارَ السُّجُودِ

السؤال: لماذا جاء التسبيح بحمد الرب في هذه الأوقات على وجه التحديد؟

جواب مفترى من عند أنفسنا خطير جدا جدا: نحن نفتري القول أن هذه هي الأوقات التي تقام بها ما سماه علماؤنا الأجلاء أهل الدراية كما أوصله لنا أهل الرواية منهم بصلاة السنّة.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: إن ما يسميه علماؤنا الأجلاء بصلاة السنّة هو في الحقيقة (كما نفهمها بالطبع) ما جاء في كتاب الله تحت لفظ "التسبيح بحمد الرب". انتهى.

رأينا المفترى: حاول الآن - عزيزي القارئ- أن تستبدل عبارة "صلاة السنّة" كما وصلتنا من عند سادتنا أهل الدراية على لسان أهل الرواية بـ "التسبيح بحمد الرب"، كما نحاول أن نروج لذلك نحن في هذه السطور. ثم انظر ما ستؤول إليه الأمور بعد ذلك بحول الله وتوفيق منه.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: صلاة السنّة كما يحب أهل الدين أن يسمونها هي تسبيح بحمد الرب (كما نحب نحن أن نسميها).

ففي هذه الأوقات المحددة وهي قبل طلوع الشمس (أي ما يصاحب إقامة صلاة الفجر) وقبل غروب الشمس (ما يصاحب إقامة صلاة المغرب)، ومن آناء الليل (ما يصاحب إقامة صلاة العشاء) وأطراف النهار (ما يصاحب إقامة صلاتي الظهر والعصر) هي أوقات التسبيح بحمد الرب. ويضاف إلى ذلك كله أدبار السجود. فهناك تسبيح بحمد الرب تسبق إقامة الصلاة، وهناك تسبيح بحمد الرب في أدبار السجود أي بعد انقضاء إقامة الصلاة.

نتيجة مفتراة: يكون التسبيح بحمد الرب في أوقات إقامة الصلاة المفروضة وفي أدبار السجود (أي بعد إقامة الصلاة) كما في الشكل التوضيحي التالي:

التسبيح بحمد الرب	إقامة الصلاة	التسبيح بحمد الرب
قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ	لدلوك الشمس	وَأَدْبَارَ السُّجُودِ
وَأَطْرَافَ النَّهَارِ	طرف النهار (1)	وَأَدْبَارَ السُّجُودِ
وَأَطْرَافَ النَّهَارِ	طرف النهار (2)	وَأَدْبَارَ السُّجُودِ
وَقَبْلَ غُرُوبِهَا	زلفا من الليل	وَأَدْبَارَ السُّجُودِ
وَمِنْ آنَاء اللَّيْلِ فَسَبِّحْ	غسق الليل	وَأَدْبَارَ السُّجُودِ

ثانيا، لو تدبرت الآيات الخاصة بالتسبيح بحمد الرب مرة أخرى، لوجدت أنها مبنيّة على أساس الرضا للشخص نفسه، قال تعالى:

- **فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاء اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (130)**

السؤال: ما معنى أن التسبيح بحمد الرب في هذه الأوقات المحددة مرتبط برضا الشخص نفسه (لَعَلَّكَ تَرْضَى)؟

رأينا المفترى: للإجابة على هذا السؤال، لابد (نحن نرى) من طرح سؤال آخر متعلق بفقه هذه الصلاة التي يريد أهل الدين أن يسمونها بالسنّة. والسؤال هو: لماذا نصلي صلاة مفروضة تكون أفضليتها بشكل جماعي في المسجد، بينما نصلي صلاة "غير مفروضة" تكون أفضليتها بشكل فردي في البيت؟

ملاحظة (1): إقامة الصلاة (أي الصلاة المفروضة) في المسجد وبشكل علني يشهده الكثيرون خير من إقامتها في البيت

ملاحظة (2): التسبيح بحمد الرب (أي ما يعرفه الناس باسم صلاة السنّة) بشكل سري في البيت خير من إقامتها في العلانية (كقيام الليل مثلا – من آناء الليل)

إقامة الصلاة والتسبيح بحمد الرب: رؤية جديدة

دعنا نعود لنبدأ النبش في قصة الصلاة كلها من أولها، طارحين تصورنا المفترى من عند أنفسنا لفقه الصلاة برمتها، محاولين أن نتلمس الطريق إلى التشريـع الإلهي الحقيقي الذي من أجله تعتبر الصلاة من أركان الدين الأساسية. داعين الله وحده أن يؤتينا رشدنا، وأن يؤيدنا بروح منه إنه هو العلي العظيم.

أما بعد،

نحن نكاد نجزم الظن أن الصلاة بشقيها (إقامة الصلاة المفروضة والتسبيح بحمد الرب المندوبة) هي الصلة الحقيقية التي توطّد العلاقة الصحيحة بين العبد وربه. فأنا على العقيدة التي مفادها أن هناك حكمة في مشروعية كل واحدة من العبادات، فكما أسلفنا سابقا فإن الصلاة هي العبادة التي ينتفع منها الإله نفسه، وأن الصيام هو العبادة التي تفيد الشخص نفسه، والزكاة هي العبادة التي يستفيد منها المجتمع، والحج هي العبادة التي تتوج ذلك كله. فيوم الحج الأكبر هو يوم الجائزة التي تجتمع العبادات فيها جميعا. وسنتعرض لهذا المبحث لاحقا بحول الله وتوفيقه.

أما الآن، فدعنا نركز على فقه الصلاة كواحدة من أهم العبادات التي يقوم بها الإنسان في هذه الحياة الدنيا. ليكون السؤال الحتمي الذي لا مفر منه هو: لماذا نصلي أصلا؟ لماذا طلب الله منا أن نقيم الصلاة في أوقات محددة؟ ولماذا طلب الله منا أن نسبح بحمده في أوقات محددة من اليوم والليلة؟

رأينا المفترى الخطير جدا جدا: نحن نظن أن الصلاة هي العبادة التي قَسَمها الله بينه وبين عباده المؤمنين.

السؤال: كيف ذلك؟

جواب مفترى (1): نحن نفتري القول أن إقامة الصلاة في اليوم خمس مرات (فيما يعرف بين الناس بالصلاة المفروضة) هي حق الله على عباده.

جواب مفترى (2): نحن نفتري القول أن التسبيح بحمد الله في أوقات اليوم والليلة (فيما يعرف بين الناس بصلاة السنّة) هي حق العباد على الله.

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب مفترى: نحن نظن أن ذلك كله يمكن أن يختصر بكلمتين اثنتين كما جاء اللفظ في الآية الكريمة التالية:

- **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5)**

فمن حق الله على العباد أن يعبدوه (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) ومن حق الناس على الله أن يعينهم (وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ).

السؤال: ما علاقة هذا بالفصل بين نوعين من الصلاة (إقامة الصلاة المفروضة) والتسبيح بحمد الرب (ما يسمى بصلاة السنّة)؟

جواب مفترى (1): نحن نقوم بفعل إقامة الصلاة المفروضة بهدف عبادة الله، والشهادة لله بأنه هو الرب الوحيد الذي يستحق أن يعبد. فهي شهادة الوحدانية وعدم الإشراك به شيئا. وذلك لأن الله يغفر الذنوب جميعا إلا أن يشرك به:

- **إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا (48)**

- **إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا (116)**

لذا، نحن نفتري القول بأنه من أقام الصلاة المفروضة خالصة لله، فهو فقط من يشهد بأن الله واحد لا شريك له. وهذه الصلاة لا تسقط عن الشخص حتى لو ارتكب بعض الكبائر ووقع في بعض المعاصي، وحتى لو تعذر الوصول إلى الماء للطهارة:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (43)**

نتيجة مفتراة: عندما يقوم الإنسان المؤمن بفعل إقامة الصلاة (أي الصلاة المفروضة) فهو إذن يكون قد أدى حق الله عليه، أي شهد لله بالوحدانية (إِيَّاكَ نَعْبُدُ).

وما أن يؤدي الشخصُ حقّ الله عليه في هذه الصلاة الجماعية حتى ينفرد الإنسان لوحده في فعل التسبيح بحمد الرب (أي فيما يسمى بصلاة السنّة) ليطلب حقه من الله، وهذا الحق هو أن يطلب العون من الله في صلاة تسمى التسبيح بحمد الله (وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ).

سؤال: لماذا تكون إقامة الصلاة (أي الصلاة المفروضة) جماعية؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن المؤمنين من عباد الله يصطفون معا في فعل جماعي لإقامة الصلاة المفروضة عليهم، لأن الغرض منها واحد، وهو عبادة الله، أي الشهادة بأن ربهم الله، وهو إله واحد يستحق أن يعبد، وأن هذا الإله لا شريك له. فتلهج ألسنتهم جميعا بكلمة واحدة وهي "سبحانك" في ركوعهم وفي سجودهم.

السؤال: ما معنى كلمة "سبحانك" التي يرددها المسلم دائما في الركوع وفي السجود؟

جواب: تعرضنا لهذه المفردة في أوقات سابقة وافترينا الظن أن كلمة سبحانك، هي كلمة تختزل الشهادة لله بالوحدانية، كما جاء على لسان عيسى بن مريم في الآية الكريمة التالية:

- **وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (116)**

لاحظ عزيزي القارئ الحوار الذي يدور بين الله من جهة وعيسى بن مريم من جهة أخرى، فالله يوجه السؤال مخاطبا عيسى ابن مريم على النحو التالي:

- **... أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ...**

فيأتي الرد القاطع من عيسى بكلمة واحدة:

- **... قَالَ سُبْحَانَكَ ...**

ولو دققنا في هذا الحوار لوجدنا أن التساؤل الإلهي كان عن احتمالية حصول الإشراك به باتخاذ عيسى وأمه إلهين من دون الله، فجاء رد عيسى لينفي حصول الإشراك بالقول الفصل، وهو كلمة سُبْحَانَكَ.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: عندما ينحني العبد المؤمن في ركوعه للصلاة ويردد مفردة سبحانك، وعندما يخر على الأرض ساجدا ويردد الكلمة نفسها، فإن أعظم رسالة يؤديها هنا هو أن يفرد الله وحده بالعبودية، فلا إله يعبد من دونه. انتهى.

رسالة قصيرة (1): حاول عزيزي القارئ أن تردد هذه الكلمة (سُبْحَانَكَ) فقط، في ركوعك وفي سجودك بهذه النية، أي إخلاص العبودية لله، مؤمنا بأن الله هو وحده الإله الذي يعبد، فلا يُتخذ من دونه إلها آخر.

نتيجة مهمة جدا: مفردة "سبحان الله" تعني إفراد الله وحده بالعبودية، فلا نتخذ من دونه إلها.

السؤال: لماذا التسبيح بحمد الرب (أي ما يسمى بصلاة السنّة) الله فردي؟ أي لماذا يذهب كل مؤمن ليصلي لوحده فيما يسمى بصلاة السنّة سواء قبل إقامة الصلاة المفروضة أو بعدها؟

جواب مفترى: مادام أن صلاة التسبيح بحمد الرب (أي صلاة السنّة) هي حق العبد على ربه (وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)، فإن لكل شخص حاجته الخاصة التي يطلبها من ربه، فأنا أسبح بحمد ربي لغرض ربما يختلف عن السبب الذي من أجله تسبح أنت بحمد ربك. فكل واحد من المؤمنين له حاجته الخاصة عند ربه، فيلهج لسان كل واحد منهم بحمد ربه لوحده.

السؤال: لماذا يقول المؤمن في ركوعه سبحان ربي العظيم وبحمده؟ ولماذا يقول المسلم في سجوده "سبحان ربي الأعلى وبحمده"؟

رأينا: عندما يقول المؤمن سبحان ربي العظيم أو سبحان ربي الأعلى أو حتى سبحان ربي وكفى، فهو إذن يشهد لله بالوحدانية، ولكن عندما يزيد على ذلك مفردة "وبحمده: فهو إذن يحمد الله على نعمه التي لا يستطيع أن يحصيها:

- وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (18)

وهو بذلك يطلب من الله أن يديم عليه تلك النعمة، لا بل ويزيدها لأن القاعدة الإلهية هي على النحو التالي:

- وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (7)

رسالة قصيرة (2): حاول عزيزي القارئ أن تردد هذه الكلمة (سبحان ربي وبحمده) في ركوعك وفي سجودك في صلاة التسبيح بحمد ربك (أي في صلاة السنّة) بهذه النيّة، مؤمنا بأن ما بك من نعمة فمن الله، وأن الله هو وحده القادر أن يحفظ عليك هذه النعمة وأن يزيدك منها:

- وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (53)

نتيجة مهمة جدا: "حمد الله" هو شكر الله على النعمة التي لا نستطيع نحصيها.

السؤال: لماذا الخيرية في إقامة الصلاة (المفروضة) يكون بالإظهار (أي إشهارها) على الملأ؟

جواب مفترى: لأن الهدف هو الشهادة لله بأنه هو الإله الذي يعبد، فأنت تشهد الناس جميعا بأنك تشهد أن الله هو الواحد الأحد، الفرد الصمد الذي يستحق العبادة.

مثال: أحيانا يصطف المؤمنون كلهم للصلاة جماعة في غير الصلاة المفروضة، كصلاة الاستسقاء مثلا، أو في صلاة العيد، وهكذا. ليكون السؤال هو: لماذا تقام مثل هذه الصلاة (كصلاة الاستسقاء مثلا) جماعة في حين أنها ليست واجبة من كل مسلم مؤمن بربه؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن السبب في ذلك يعود إلى أن جميع المصلين (صلاة الاستسقاء مثلا) مشتركون في الغاية نفسها، وهو نزول المطر بعد انحباس طويل. فما دام أن غاية المشاركين في الصلاة واحدة، وهي طلب نزول المطر، لذا لا حاجة (نحن نظن) لأن يصلي كل منهم لوحده. فالغاية هي التي تجمع المؤمنين في الصلاة.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: إذا ما اشترك المصلون جميعا في الغاية، أصبح اصطفافهم في جماعة واردا، وإذا ما اختلفت غاية المؤمنين من الصلاة، تفرقوا ليصلي كل منهم لوحده.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا (1): مادام أن الغاية من إقامة الصلاة المفروضة لجميع المصلين هي واحدة تتمثل بعبادة الله (أي الإقرار بأن الله هو الواحد الأحد الذي لا شريك له، فلا ضير في أن يصطفوا جميعا لأداء هذه الصلاة في جماعة.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا (1): مادام أن الغاية من التسبيح بحمد الرب (أي ما يعرف بصلاة السنّة) هو طلب العبد المعونة من ربه، يصبح من الأفضل أن ينفرد كل منهم في صلاته لأن حاجات المؤمنين بربهم تتباين.

ملاحظة: لو راقبت عزيزي القارئ ما يفعله الموحدون في المسجد، لوجدت أنهم يطبقون مثل هذا السلوك لكن ربما من غير دراية منهم بما يفعلون. فما أن يحضر أحدهم إلى المسجد قبل وقت إقامة الصلاة حتى يتخذ لنفسه مكانا فيصلي فيه صلاة فردية، وما أن تنقضي إقامة الصلاة المفروضة جماعة، حتى تجدهم يتفرقون، فيبحث كل واحد منهم عن مكان خاص ليسبح بحمد ربه على إنفراد. ولو راقبت المناطق شبه المنعزلة في المسجد كالزوايا وأطراف المسجد، لوجدت أن من يقف هناك وحيدا هو من يريد أن يسبح بحمد ربه بطريقة متأنية، ربما تختلف عن طريقة المصلين في الأماكن الأكثر ظهورا، والذين غالبا ما يتصف تسبيحهم بالعجلة والروتين. ولعلي أكاد أجزم الظن أنه كلما كانت حاجة العبد أكثر إلحاحا، كلما وجدته يحاول أن ينعزل أكثر عن الناس، ربما ليتقرب أكثر إلى ربه ليشكو له بثه وحزنه:

- **وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (84) قَالُواْ تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (85) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (86)**

ولعل التسبيح بحمد الرب في آناء الليل (فيما يعرف بقيام الليل) هو التطبيق الفعلي لمثل هذا المنطق المفترى، فكلما وجد العبد المؤمن بربه أن الأبواب قد أغلقت جميعا في وجهه، وأن الكروب قد توالت عليه، وأصبح على يقين بأن من حوله قد عجزوا عن إخراجه مما هو فيه من الغم والهم، تجده قد شعر بالحاجة الماسة أن يقيم الليل في صلاة لا يراه فيها أحد إلا من لجأ إليه وهو رب العالمين، لأنه يعلم أن هذا هو الإله الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم:

- **اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (255)**

السؤال: لماذا الخيرية في التسبيح بحمد الرب (أي صلاة السنّة) يكون في البيت بدلاً من المسجد؟

جواب مفترى: لأنك تنشد السرية فيما تطلبه من ربك على وجه الخصوص. فالتسبيح بحمد الرب في جنح الظلام يظهر العلاقة الخاصة التي تنشئها بينك وبين ربك، وهي علاقة لا تريد أن يطّلع عليها الآخرون، لأنه لا حاجة لهم بك ولا حاجة لك بهم، وحاجتك فقط عند ربك الذي تعبده وتعلم أنه هو فقط من يستطيع أن يعينك:

- **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5)**

عقيدتنا: كيف يجب على المسلم أن يفكر في موضوع الصلاة بشقيها (إقامة الصلاة الجماعية والتسبيح بحمد الرب (الفردية)؟

رأينا المفترى: عزيزي القارئ الكريم، ربما يكون من الأفضل لك أن تنظر لموضوع الصلاة على النحو التالي: أن تؤمن إيمانا مطلقا بأن هناك إلها واحدا يستحق أن يعبد، فلا يُشرك به شيئا، فيجب عليك أن تُشهد الناس جميعا على إيمانك هذا، ولا يكون ذلك بالقول فقط وإنما بالفعل، ونحن نكاد نجزم الظن بأن إقامة الصلاة المفروضة عليك في اليوم والليلة خمس مرات هي التنفيذ العملي لهذه الشهادة. فيجب أن تحرص على أن تأتي إلى المسجد في هذه الأوقات بنيّة الذي يذهب إلى ربه، ليشهد أمامه بأنه هو الإله الأوحد الذي لا يعبد غيره. فتؤدي الصلاة المكتوبة عليك، وتنصرف من هناك فرحا بأنك قد أديت حق الله عليك، فكنت من الذين طبقوا قوله تعالى:

- **إِيَّاكَ نَعْبُدُ ... (5)**

وقبل أن تأتي إلى المسجد وبعد أن تنصرف منه يمكنك أن تسبح بحمد ربك (فيما يعرف بصلاة السنّة)، ويكون ذلك بنية الذي يؤمن أن له حق على ربه، فكما أن لله حق عليّ بأن أعبده فلا أشرك به شيئا، فإن لي عليه حق أن يعينني في كل أمري. وبهذه النيّة (نحن نفتري القول) تصلي بشكل فردي، أي بنيّة التسبيح بحمد ربك، لتطلب منه حاجتك التي تريده أن يعينك في قضائها. وهذه الحاجة هي على نوعين اثنين، وهما:

1. أن تشكر الله على نعمه التي أصبغاها عليك ظاهرة وباطنة:

- **أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (20)**
- **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (53)**

وهي نعمة لا تستطيع أن تحصيها:

- **وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (24)**

- وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَاۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (18)

فشكرك لله على هذه النعمة التي أسبغها عليك ظاهرة وباطنة هو الكفيل الوحيد لديمومتها لا بل وزيادتها:

- وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (7)

نتيجة مهمة جدا: لعلي أكاد أجزم الظن أنه من المفترض أن تشرع -عزيزي المؤمن بالله- قبل إقامة الصلاة المفروضة عليك بالتسبيح بحمد ربك (فيما يعرف بصلاة السنّة) بشكر الله على نعمه بنيّة أن يحفظ الله عليك نعمه جميعا ظاهرة وباطنة، لا بل وأن يزيدك من فضله.

---

2. أن تطلب من ربك (الذي لا تشرك به شيئا) أن يكشف عنك ضرا قد مسك:

- أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (62)
- وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (186)
- وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (53)

ولعلي أكاد أجزم الظن بأنه ما أن ينتهي العبد المؤمن من إقامة الصلاة المفروضة حتى يهرع إلى ربه مرة أخرى في صلاة خاصة تسبح فيها بحمد ربك بغرض أن يكشف عنك أي ضر قد أصابك. فعقيدة المؤمن في هذه الحالة هي ما نجده في قوله تعالى:

- وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156)

فما عليك أنت كشخص مؤمن (بربك الذي تعبده وحده فلا تشرك به شيئا) إلاّ أن تصبر إذا ما أصابتك مصيبة كما قال موسى لقومه عندما أصابهم الأذى:

- قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُواْ بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128) قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (129)

وتلجأ إلى الله (في صلاة تسبح فيها بحمده) أن يكشف عنك هذا الضر. مؤمنا بأن الله قادر على أن يكشف عنك أي ضر مسك لأن الله هو أكبر من كل شيء.

سؤال: لماذا نقول في صلاتنا "الله أكبر" للانتقال من كل حركة في الصلاة إلى الحركة التالية؟

جواب مفترى: نحن نقول ذلك لإيماننا بأن الله هو أكبر، فلا يعجزه شيء في السماء ولا في الأرض:

- أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (44)

ملاحظة مهمة: لو تفقدنا سلوك المصلين في الصلاة، لوجدنا أنه ما أن ينفك الناس من الصلاة حتى يبدءوا بالذكر الذي يتبع الصلاة، فيأخذون بترديد ثلاث عبارات متتالية هي: سبحان الله والحمد لله والله أكبر. وانتشرت بين المسلمين ما تسمى "بالسبحة"، فيبدأ المسلم بتسبيح ربه ثلاث وثلاثين مرة، وحمد الله ثلاث وثلاثين، والقول الله أكبر ثلاث وثلاثين.

السؤال: من أين جاء هذا السلوك؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الغاية من ذلك هي تثبيت مقاصد الصلاة بجميع أصنافها، فالصلاة هي:

1. إشهار الوحدانية لله، ويتلخص ذلك بقول المؤمن "سبحان الله"
2. شكر الله على نعمة، ويتلخص ذلك بقول المؤمن "الحمد لله"
3. طلب المعونة من الله على البلاء، ويتلخص ذلك بقول المؤمن "الله أكبر"

السؤال: لماذا إقامة الصلاة المفروضة محددة بركات ثابتة لا زيادة فيها؟ ولماذا - بالمقابل- جاء التسبيح بحمد ربك (فيما يعرف بصلاة السنّة) مفتوح السقف في العدد؟

جواب مفترى: لعلي أفتري القول بأن هذا يقع في باب الكرم الإلهي الذي لا نظير له، فالله قد طلب منك أن تعبده في إقامة الصلاة المفروضة عليك في اليوم والليلة خمس مرات، ويكون ذلك بطريقة ثابتة تشمل الجميع، فصلاتي في هذه الحالة لا تختلف عن صلاتك، ونحن نجتمع جميعا في المسجد لنؤديها بالعقيدة نفسها (وهي الشهادة بوحدانية الله) وبالكيفية نفسها، في الركوع السجود وعدد الركعات. ولم يشرع لنا أن نزيد في ذلك شيئا ولا أن ننقص من ذلك شيئا. فحق الله يطلبه من عباده جميعا بنفس الطريقة والكيفية.

لكن – بالمقابل - فإن من حقك على ربك أن تطلب منه ما تشاء (في صلاة التسبيح بحمده – أي ما يعرف بالسنّة)، ومن حقك على ربك أن لا يرد لك طلبا مادام أنه هو من تعهد بذلك:

- **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (186)**

فمهما كانت حوائجك فإن الله (القادر على كل شيء) هو وحده الذي يتكفل بأن يقضيها لك جميعا.

ولو دققنا في الآية الكريمة التي تتحدث عن التسبيح بحمد الرب لوجدناها قد ختمت بعبارة (لَعَلَّكَ تَرْضَى):

- **فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاء اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (130)**

فهذه الصلاة (أي التسبيح بحمد الرب) مشروطة برضا الشخص المؤمن نفسه. فقد أصلي أنا (كتسبيح بحمد ربي) في آناء الليل عشرين ركعة حتى أشعر بالرضا، لكن قد لا تحتاج أنت لأكثر من ركعتين أو أربعة، وهكذا.

السؤال: وهل أستطيع أنا (كمؤمن بربي) أن أقيم الصلاة المفروضة وكفى؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نعم، تستطيع ذلك، لكن تأكد بأنك أنت من سيخسر في نهاية المطاف. لأنك تكون قد أديت حق الله عليك وحرمت نفسك من أن تتمتع بالكرم الإلهي عليك. فالله هو صاحب المنّة والفضل على العالمين:

- **قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَعلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (11)**

فإن كنت من الذين يشاءون منّة الله عليهم، فما عليك إلا أن تسبح بحمد ربك. ولكن إن شعرت أنك لا تحتاج لهذه المنة، فلك أن لا تسبح بحمد ربك وتكتفي بإقامة الصلاة المفروضة فقط.

(دعاء: أللهم أسألك أن تنفذ قولك بمشيئتك وإرادتك بالمنّة عليّ، فإني أشهدك أنني ممن يشاءون أن تمنّ عليهم – إنك أنت العزيز الكريم – آمين)

السؤال: كيف أنفذ ذلك على أرض الواقع؟

رأينا المفترى: تخيل عزيزي القارئ أنك استيقظت من نومك في الصباح الباكر قبل إقامة صلاة لفجر، فما عليك أولا وقبل كل شيء إلا أن تبدأ يومك بأن تشكر الله على هذه النعمة، وعلى نعمه الكثيرة التي لا تستطيع أن تحصيها، فتسبح بحمد ربك بهذه النيّة بأن تصلي شكرا لله ركعتين خفيفتين. ولكن تخيل أنك وجدت أنك تريد من الله أن يسبغ عليك نعمة تظن أنها ناقصة عندك كنعمة المال مثلا، فما عليك إلا أن تصلي لله ركعتين خفيفتين بنيّة أن يؤتيك سعة من المال، ولو أنك وجدت نفسك بحاجة أن يسبغ الله عليك نعمة الولد (إن كانت ناقصة أو إن أردت الزيادة منها)، فما عليك إلا أن تصلي لله ركعتين خفيفتين بهذه النيّة. ولو أنك وجدت نفسك بحاجة أن يسبغ الله عليك نعمة إصلاح الزوجة (إن كنت بحاجة لذلك)، فما عليك إلا أن تصلي لله ركعتين بهذه النيّة، وهكذا تصلي ما شئت بمثل هذه النية لكل نعمة تريد من ربك أن يسبغها عليك، وتبقى في مثل هذا الشغل حتى تشعر بنفسك أنك قد رضيت (لَعَلَّكَ تَرْضَى)، فلا حد لكرم الله مادام أنك بحاجة إليه ليعينك في قضاء حوائجك، فربك (الذي تعبده ولا تشرك به شيئا) قريب يجب دعوة الداع إذا دعاه:

- **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (186)**

وما أن تنقضي إقامة الصلاة المفروضة حتى تهرع إلى الله (بعد أدبار السجود) طالبا منه بأن يكشف عنك ضرا قد مسك، فلو أنت شعرت أن نعمة الصحة قد أصابها العطب أو بعض الخلل، فربك وحده هو من يستطيع أن يكشف ذلك عنك:

- **وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80)**

ولا تنسى أن هذه هي صلاة المضطر، فالله وحده هو من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء:

- **أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (62)**

حاول عزيزي القارئ – إن أردت – أن تهرع إلى الله بمثل هذا الإيمان، ثم انظر عجائب قدرة ربك.

(دعاء: اللهم فاشهد أني أقيم الصلاة لذكرك، بنيّة من يعبدك وحدك، فأنت وحدك إلهي الذي لا شريك له، وأشهد اللهم أني أسبح بحمدك لتحفظ نعمتك التي أسبغتها عليّ ظاهرة وباطنة والتي لا أحصيها، كما أسبح بحمدك وحدك لتكشف السوء والضر عني، فأنا من المؤمنين بأنه لا يكشف السوء إلا أنت، إنك أنت السميع البصير – آمين)

منطق مفترى من عند أنفسنا خطير جدا جدا: دقق - عزيزي القارئ- في الآية الكريمة التالية:

- **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (186)**

ليكون السؤال الآن هو: لماذا قال الله (أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ)؟ ألا يكفي أن يكون قول الله (أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ) وكفى؟ فما الحاجة أن يتبع ذلك بعبارة (إِذَا دَعَانِ)؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نظن أن كلّ إنسان يدعو الله هو داع، ولكن لا يتحقق له الاستجابة إلا إذا كان داع يدعو الله كما جاء بصريح اللفظ في الآية الكريمة (أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ).

السؤال: ومتى يصبح المؤمن بربه داع يدع الله؟

جواب مفترى خطير جدا جدا من عند أنفسنا: لا يكون المؤمن داع يدعو ربه إلا وهو قائم يصلي:

- **هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء (38) فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (39)**

نتيجة خطيرة جدا جدا: نحن نظن أن الدعاء لا يتحقق من العبد إذا كان داع فقط، ولكنه يتحقق إذا كان داع يدعو ربه (أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ)، ولا يتحقق هذا الشرط – برأينا- إلا في فعل الصلاة كما فعل زكريا.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: ما أن شعر زكريا أنه بحاجة إلى نجدة من السماء، وما أن شعر أنه يريد الولد فعلا، ومادام أنه كان مؤمنا بأن الله وحده هو القادر على تحقيق ذلك له، حتى وقف وحيدا ليسبح بحمد ربه، فوجه وجهه في المحراب، ونادى ربه نداء خفيا:

- **إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيًّا (3) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (4) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (5) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (6)**

فجاءه الرد الإلهي مباشرا على النحو التالي:

- **يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا (7)**

رسالة قصيرة (3): حاول -عزيزي القارئ - إذا ما وجدت نفسك بحاجة إلى ربك ليعينك في قضاء شيء من حوائجك، أن تقف وحيدا لتسبح بحمده، فتطلب منه ما شئت أن يسبغ عليك من نعمه، وتأكد بأن الله ربك على كل شيء قدير. مؤمنا بأن ما بك من نعمة هي من الله، وأن الله هو وحده القادر أن يحفظ عليك هذه النعمة وأن يزيدك من نعمه التي لا تستطيع أن تحصيها.

السؤال: لماذا نقرأ فاتحة الكتاب في كل ركعة من الصلاة سواء المفروض علينا إقامتها أو التي نسبح فيها بحمد ربنا (أي ما يسمى بالسنّة)؟

جواب مفترى: دعنا ندقق في آيات فاتحة الكتاب من هذا الباب، قال تعالى:

- بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (1) الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ (7)

بداية، لما كانت هذه الآيات هي من القرآن، كان لزاما أن تبدأ القول بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم:

- فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (98) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ (100) وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (101)

ويكون الهدف من ذلك أن لا تجعل للشيطان عليك سلطان مادمت قائما في صلاتك. فتبدأ بعد ذلك الصلاة باسم الله (الرحمن الرحيم). ليكون السؤال: لماذا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أننا نبدأ باسم الله لأن الله هو الواحد الأحد الفرد الصمد:

- قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4)

وهذا – برأينا- هو جوهر النيّة في إقامة الصلاة المفروضة، فأنت تصلي لله، لأن الله ليس له سميّا:

- رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (65)

فنحن نعبد الإله الذي نعلم أن ليس له سميّا، فهو الله لأنه هو الوحيد الذي يحق له أن يحمل هذا الاسم، فهو الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. وهذه هي شهادة التوحيد في أوضح صورها.

ولكننا لا نكتفي بأن نبدأ باسم الله في فاتحة الكتاب بل نتبع ذلك بالرحمن الرحيم:

- بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (1)

وقد افترينا سابقا أن الدعاء (كل دعاء) لا يكون إلا بهذين الاسمين (الله / الرحمن) فقط:

- قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (110)

نتيجة مفتراة (1): نحن ندعو الله الذي نعبد، وهذا هو جوهر إقامة الصلاة المفروضة.

نتيجة مفتراة (2): نحن ندعو الرحمن الذي يعيننا، وهذا هو جوهر التسبيح بحمد الرب.

ونحن نكاد نجزم الظن – كما افترينا سابقا – أن الله هو الرحمن لأنه القادر على فعل المعجزات التي قد لا تستطيع أن تتخيلها مهما عظمت. فعقيدتك يجب أن تكون مبنة على الإيمان اليقيني أن الله لا يعجزه شيء في السماء ولا في الأرض:

- أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (44)

وهذا هو – برأينا- فقه التسبيح بحمد الرب (فيما يعرف بصلاة السنّة)، فأنت تلجأ إلى الله في هذه الصلاة المنفردة لتطلب من ربك الرحمن أن يريك عجائب قدرته في كل شيء. وذلك لأن عبادتك هنا موجهة ليس لله (الواحد الأحد) وإنما لمن خلقك ففطرك، فكان ربك، انظر الآيات التالية في فاتحة الكتاب:

- **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (1) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4)**

وما أن تصل إلى منتصف تلك السورة العظيمة حتى تجد أن الغاية من الصلاة كلها – كما أسلفنا- قد تجمعت في الآية رقم (5):

- **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5)**

ولعل أهم أنواع الهداية على الإطلاق التي يمكن للعبد أن يطلبها من ربه هي هداية الصراط المستقيم:

- **اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ (6)**

وهو صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين:

- **صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ (7)**

وهؤلاء الذين أنعم الله عليهم هم من توافرت بهم الصفات التي ترد في قوله تعالى:

- **وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (69)**
- **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (58)**

فما دمت أنك تسير على صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين، فأنت لا شك على الحق المبين، فتكون بذلك من المسلمين كما جاء في دعاء إبراهيم ربه:

- **رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128)**

(دعاء: اللهم ربي اجعلني مسلما لك ومن ذريتي، إنك سميع الدعاء – آمين)

تلخيص ما سبق: فقه ما يسمى بصلاة السنة

نحن نفتري الظن بأن فقه ما يعرف بين العامة تحت مسمى صلاة السنة هو في الحقيقة (كما فهمناها) تسبيح بحمد الرب، ويكون ذلك في أوقات محددة كما ورد في آيتين كريمتين تتلاقى في مجملها مع أوقات إقامة الصلاة التي ترد في آيتين الكريمتين، كما في الجدول التالي:

إقامة الصلاة	التسبيح بحمد الرب
⇐ أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (78) ⇐ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (114)	⇐ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاء اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (130) ⇐ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (39)

ويزيد التسبيح بحمد الرب عن إقامة الصلاة في الأوقات التي ترد في الآية الثالثة التالية:

- **وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (40)**

فيصبح الجدول السابق على النحو التالي:

إقامة الصلاة	التسبيح بحمد الرب
⇐ أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (78) ⇐ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (114) ⇐	⇐ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاء اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (130) ⇐ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (39) ⇐ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (40)

السؤال: كيف يجب أن ننتهي من صلاتنا؟

الفكر السائد: للخروج من الصلاة، فإن المصلي يجلس للتشهد والصلاة الإبراهيمية ثم يسلّم عن يمينه وعن شماله.

السؤال: كيف يفعل المسلم ذلك؟ ولماذا؟

باب التشهد والصلاة الإبراهيمية: رؤية جديدة

تعرضنا في مقالة سابقة لنا للحديث عن الصلاة الإبراهيمية، وحاولنا تسويق رؤيتنا المفتراة من عند أنفسنا عن كيفية الصلاة الإبراهيمية، ومن أراد التعرف على وجهة نظرنا بشيء من التفصيل، فليرجع إلى تلك المقالات. أما الآن، فإننا سنتحدث عن فكرة الجلوس التشهد والصلاة الإبراهيمية في سياق بحثنا هذا، وسنبدأ بالجزء الأول وهو الجلوس للتشهد التي وردتنا صيغته من عند أهل الدراية كما نقلها لنا أهل الرواية في أصح رواياتهم على النحو التالي:

التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله.

السؤال الأول: ما هذه البداية التحيات المباركات الصلوات الطيبات؟ وما معنى ذلك؟ ألا ترى - عزيزي المؤمن المصلي- أنك ترد كلمات يغلب عليها طابع السجع غير المفهوم؟ وهل وجدت يوما أن أهل العلم قد أفهموك لم هي على هذا النحو؟

جواب مفترى: لو رجعت إلى تفسيرات أهل العلم لوجدت فيها العجب، وهو ما لا نريد الخوض فيه. لكن يكفينا أن نسجل القول (مفترينه من عند أنفسنا) بأن هذه ليست أكثر من خدعة لتظليل الناس عن الهدف من التشهد في آخر الصلاة. فهذه – برأينا- واحدة من أساليب التعمية التي تغلب على مؤلفات أهل العلم الذين يريدون دائما أن يوهموا الناس بأنهم يعلمون ما لا يعلم غيرهم. وأن عندهم من العلم المكنوز ما لا يستحق العوام من الناس أن يطلعوا عليه.

السؤال: إن صح ما تقول، فكيف يكون التشهد للصلاة؟ يرد صاحبنا على الفور قائلا.

جواب مفترى: نحن نفتري القول بأن التشهد هو شهادة بوحدانية الله. وكفى.

السؤال: وكيف يكون ذلك التشهد؟

رأينا: لو تفقدنا الجلوس في نهاية الصلاة لوجدنا أنها مقسومة إلى قسمين رئيسيين هما:

1. التشهد
2. الصلاة الإبراهيمية

السؤال: كيف يمكن أن نفهم ذلك؟

رأينا: نحن نظن أن التشهد هو خاص بالله وحده، أما الصلاة الإبراهيمية فهي دعاء خاص بالنبي وأهل بيته، أليس كذلك؟

ملاحظة: ولو دققنا في فعل الصلاة نفسه أكثر، لوجدنا أن التشهد يكون في الجلوس الأول في الصلاة الرباعية وفي الجلوس الثاني في الصلاة الثلاثية كصلاة المغرب والصلاة الرباعية كصلاة الظهر والعصر والعشاء. بينما الصلاة الإبراهيمية لا تكون إلا في الجلوس الأخير للصلاة بغض النظر عن عند ركعاتها، أليس كذلك؟

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الصلاة الإبراهيمية لا تكون إلا في الجلوس الأخير (سواء كانت الصلاة ثنائية أو ثلاثية أو رباعية) لهدف الخروج من الصلاة. أما التشهد – بالمقابل- فإن الهدف منه هو إقرار الشهادة لله وحده.

السؤال: ما تبعات هذا الفهم؟

افتراءات خطير جدا جدا: نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن التشهد يجب أن يكون خالصا لله وحده، فلا ذكر لأحد معه حتى وإن كان محمد نفسه. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: أعتقد أن التشهد يجب أن يكون مبنيّا على العقيدة التي مفادها أنك تجلس في الصلاة بعد كل ركعتين لتشهد لله علانية بأنه هو الإله الواحد الذي لا شريك له، ولا يجب أن تأتي على ذكر غيره في هذا الجزء من الصلاة.

أما الحديث عن النبي محمد، فيجب أن يبدأ في الجزء الثاني المُسمى بالصلاة الإبراهيمية، فنحن نفتري الظن بأنه لا يجب أن تأتي على ذكر محمد إلا في ذلك الجزء من الصلاة، وكفى.

افتراء (1): الجلوس للتشهد يجب أن يكون خالصا لله وحده

افتراء (2): الصلاة الإبراهيمية هي دعاء خاص بالنبي وأهل بيته

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن عقيدة المؤمن الذي يصلي لربه ويجلس في نهاية الصلاة يجب أن تكون مبنية على الاعتقاد بأن ذلك الجزء مقسوم إلى قسمين، في القسم الأول (المسمى تشهد) تفرد الحديث فيه لله وحده فلا تذكر معه غيره. أما في القسم الثاني (المسمى الصلاة الإبراهيمية) فهو دعاء بالصلاة والسلام على محمد والدعاء بالبركات على أهل بيت محمد.

السؤال: لماذا يجب إفراد الحديث لله وحده في التشهد؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الهدف من ذلك هو إقرار عدم الإشراك بالله بأي طريقة كانت.

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى: لكي تكون من المسلمين؟

السؤال: ومن هو المسلم؟

جواب: نحن نظن أن المسلم لا يكون مسلما إلا أن يشهد لله بالوحدانية.

السؤال: وماذا عن الشهادة لمحمد بالرسالة؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نفتري القول أن الشهادة لمحمد بالرسالة ليست من شروط الإسلام.

السؤال: ما معنى ما تقول؟ ألم أفهم قصدك؟ يرد صاحبنا مستغربا.

جواب مفترى خطير جدا: أنا افتري القول أنك تدخل الإسلام بمجرد الشهادة لله بالوحدانية حتى وإن لم تشهد لمحمد بالرسالة.

السؤال: هل جننت يا رجل؟ ما الذي تقوله؟ ألا ترى أنك ذهبت إلى أبعد ما يجب؟ ربما يرد القارئ وهو يشاط غضبا.

جواب: تمهل قليلا عزيزي القارئ، وحاول أن تتدبر ما نقول بعد أن نسوق لك ما نظن أنه دليل يثبت افتراءنا هذا.

السؤال: وأين الدليل على ما تقول؟

جواب مفترى: نحن نظن أن علينا الرجوع إلى كل آيات الكتاب الحكيم التي ستعيننا (بحول الله وتوفيقه) على الخروج بتعريف أكثر دقة مما عرفناه من عند أهل العلم عن الشخص الذي يمكن أن يسمى مسلما. فنحن بحاجة أن نطرح السؤال الآن على النحو التالي: من هو المسلم؟

رأينا: دعنا نبدأ النبش في كتاب الله عن هذه اللفظة لنرى كيف يمكن استنباط التعريف من مجملها.

أما بعد،

أولا، نحن نعلم يقينا بأن الدين عند الله الإسلام، أليس كذلك؟

- إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (19)

ثانيا: ونحن نعلم يقينا أيضا بأن إبراهيم هو الذي سمّنا المسلمين:

- وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (78)

ثالثا: ونحن على العقيدة الراسخة أن الله هو من أتمم علينا نعمته ورضي لنا الإسلام دينا، أليس كذلك؟

- حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ۚ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (3)

رابعا: ونحن نعلم بأن الله هو من بيّن لنا أنه لن يقبل ممن يبتغي غير الإسلام دينا:

- وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (85)

فلقد كان إبراهيم وذريته من بعده مسلمين:

- مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (67)
- وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (132)
- أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133)

وعلى ذلك الدين اختار يوسف أن يموت:

- رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (101)

وكذلك كان موسى وهارون ومن آمن معهم:

- وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (84)
- وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ۚ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (126)

وكذلك كان داوود وولده سليمان وكل من آمن معهما:

- أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (31)
- قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (38)
- فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (42)

وكذلك كان الحواريون:

- وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (111)

وكذلك كان محمد وصحبه الصادقين:

- قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (64)

وكذلك كان جميع رسل الله:

- قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136)
- قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (84)
- وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90)
- وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (46)

خامسا: ونحن نفتري القول بأن هذا هو الدين الذي هدى الله إليه محمدا (وهي ملة إبراهيم) رأينا المفترى: مسلمين:

- قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (161) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163)

فكان محمد مأمورا أن يكون بنفسه أول المسلمين:

- قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (11) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (12)

وهذه – لا شك – عندنا هي العقيدة الأحسن:

- وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33)

تساؤلات مهمة جدا

⇐ إذا كان الدين عند الله هو الإسلام، فكيف كان من جاءوا قبل محمد زمنيا مسلمين؟

⇐ فإذا كان إبراهيم هو من سمّانا كذلك، فكيف شهد لمحمد بالرسالة؟

⇐ فهل كان من واجبات إسلام إبراهيم أن يشهد لمحمد بالرسالة، وهو الذي دعا ربه أن يبعث في هذه الأمة رسولا من أنفسهم؟

⇐ وإذا كان رسل الله جميعا مسلمين كنوح وإسماعيل وإسحق وموسى وغيرهم، فهل شهد هؤلاء لمحمد بالرسالة؟

⇐ وهل كان من متطلبات إسلامهم أن يشهدوا لمحمد بالرسالة؟

⇐ وإذا كان يوسف قد طلب من ربه أن يتوفاه مسلما، فهل شهد لمحمد بالرسالة حتى أصبح كذلك؟

⇐ وإذا كان الحواريون (أنصار الله وتلاميذ المسيح عيسى ابن مريم) قد أشهدوا ربهم بأنهم مسلمين، فهل شهدوا هم أيضا لمحمد بالرسالة؟

⇐ الخ

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا (1): إن الدين منذ أن خلق الله الخلائق كلهم هو الإسلام

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا (2): كان هناك مسلمون في كل زمان حتى قبل مجيء محمد بالرسالة

نتيجة مفتراة من عن أنفسنا (3): كان محمد متبعا لملة إبراهيم وهي الإسلام

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا (4): لم يبدأ الإسلام بمجيء محمد وذلك لأن الذين سبقوه كانوا أيضا مسلمين

نتيجة مفتراة خطير جدا جدا: الإسلام هو الشهادة لله بالوحدانية وكفى.

السؤال: وأين تندرج الشهادة لمحمد بالرسالة؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الشهادة لمحمد بالرسالة تقع في باب الإيمان فقط:

- **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (285)**
- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا (136)**
- **وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاء عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (19)**

فالإيمان بمحمد هو جزء من الإيمان بالرسل، وذلك لأن محمد ليس أكثر من رسول من رسل الله:

- **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ (144)**

فالإيمان بمحمد هو كالإيمان بإبراهيم وموسى وعيسى ونوح وجميع رسل الله، فعقيدة المؤمن مبنيّة على عدم التفريق بين رسل الله:

- **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (150)**
- **وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (152)**

فأنا أؤمن بمحمد كإيماني بنوح وإبراهيم وموسى وعيسى وجميع رسل الله ولا أفرق بينهم، لأن الذي يفرق بين رسل الله هو من أراد التفريق بين الله ورسله، وهذه لا تعدو أكثر من عقيدة الذين كفروا. انتهى.

السؤال: ما علاقة هذا بفعل الجلوس للتشهد بالصلاة؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن فعل التشهد في الصلاة هو فعل الغاية منه – برأينا- إقرار الوحدانية لله، فلا نشرك مع الله أحد.

السؤال: وما الغاية التي نرجوها من ذلك؟

جواب: حتى نكون من المسلمين، أي من ممن أسلم وجهه لله حنيفا، فلا يشرك به شيئا، كما في الشكل التوضيحي التالي

الجلوس للتشهد في الصلاة	
الفعل	الغاية
الشهادة لله وحده	لنكون من المسلمين

السؤال: كيف يمكن تنفيذ ذلك على أرض الواقع؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أننا يجب أن نشهد لله بالوحدانية بأفضل طريقة ممكنة.

السؤال: وما هي الطريقة الأفضل على الإطلاق للشهادة لله بالوحدانية؟

جواب مفترى: لو أني قدمت لك – عزيزي القارئ- طريقة من عندي، وزعمت بأنها هي الطريقة الأفضل، هل تقبل بها؟ وماذا لو قدمت أنت طريقة أخرى من عندك وزعمت أنها هي الطريقة الأفضل؟ فهل أقبل بها أنا؟ وماذا لو زعمت أحدى الفرق الإسلامية أو بعض طوائفها بأنها تملك طريقة مثلى للتشهد؟ فهل تقبل بها الفرق والطوائف الأخرى؟

جواب مفترى من عند نفسي: لعلي أكاد أجزم الظن بأن أيًا منا لن يقبل بطريقة الآخر. فكل منا سيزعم أن طريقته هي المثلى وأن طريقة غيره ليست صحيحة أو ربما يشوبها الغلط (بالنقص أو بالزيادة أو بالتحريف).

السؤال: وما المخرج من هذا المأزق؟

جواب مفترى: نحن نظن أن المخرج يتمثل بأن نجد طريقة نرضى بها جميعا. تحقق لنا الفعل والغاية، فنشهد لله بالوحدانية بأحسن طريقة وتتحقق الغاية بأن نكون من المسلمين.

السؤال: وأين سنجد هذه الطريقة التي ننشدها جميعا؟

جواب مفترى: لعلي لا أتردد أن أقول أننا نرضى جميعا بأن نحتكم إلى الله وحده. فهل ترضى - عزيزي القارئ - بالطريقة الإلهية في التشهد؟ وهل أقبل أنا بالطريقة الإلهية لأشهد له بالوحدانية وأكون من المسلمين؟ وهل نحن على استعداد أن نقبل جميعا بالطريقة الإلهية؟

جواب مفترى: لعلي أكاد أجزم الظن بأننا نرضى بالطريقة الإلهية، ولكن هل هناك طريقة إلهية للتشهد أصلا؟ هل علمنا الله الطريقة الأحسن للقرار له بالوحدانية، فنكون من المسلمين؟

جواب مفترى : نعم، أظن أن هناك طريقة إلهية للتشهد هي الأحسن، وهي التي جاءتنا من الله نفسه.

السؤال: وأين ذلك؟

جواب مفترى: لعلي أكاد أجزم الظن بأن الآية الكريمة التالية تعلمنا التشهد الأحسن (الذي لا نقص ولا زيادة ولا تحريف فيه)، قال تعالى:

- شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (18)

نتيجة مفترى من عند نفسي: هل تجد عزيزي القارئ شهادة لله بالوحدانية أحسن من هذه الشهادة؟ هل يمكن لبشر أن يشهد لله بالوحدانية بطريقة أحسن من شهادة الله نفسه؟ ألسنا من أصحاب العقيدة التي مفادها "وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا"؟ ألا يجب أن نكون ممن يشهدون على شهادة الله؟ ألسنا من أصحاب العقيدة التي مفادها (وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ)؟

ثم أليس هذا ما طلب منا أن نقر به كمسلمين في كل عبادتنا:

- **قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163)**

السؤال: ما الذي يجب أن يقوله المسلم في جلوسه للتشهد الأول (سواء في جلوسه بعد الانتهاء من الركوع والسجود الثاني) ليقر لله بالوحدانية وليكون هو من المسلمين؟

جواب مفترى من عند نفسي: أنا افتري القول أن التشهد الأحسن يكون بالنطق بالشهادة كما هي في كلام الله:

- **شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (18)**

السؤال: كيف تصبح الصيغة للشهادة كلها التي تحقق للمصلي إقرار الشهادة بالوحدانية لله وتحقق له بأن يكون هو من المسلمين؟

رأينا المفترى الذي نطلب من القارئ أن لا يصدقه ما لم يجد أن الدليل عنده واضحا كوضوح الشمس في رابعة النهار: نحن نظن أن الصيغة التالية ربما تكون (كما نفهمها) هي الصيغة الأمثل للقرار بالوحدانية لله:

- **شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (18)**
- **... إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163)**
- **وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ.**
- **وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (182)**

وفي هذه الحالة تكون قد شهدت لربك الواحد الأحد الفرد الصمد بالعبودية المطلقة. فلا تأتي على ذكر أحد معه في ذلك. وما أن تنهي هذه الشهادة حتى تنتقل إلى الجزء الثاني في نهاية الصلاة وهي الصلاة الإبراهيمية.

التشهد	الصلاة الإبراهيمية
شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (18) ... إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163) وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (182)	؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

الصلاة الإبراهيمية: رؤية جديدة

ما تنتهي من الشهادة لربك بالوحدانية في الجزء الأول من الجلوس الأخير في الصلاة حتى تنتقل إلى الجزء الثاني المسمى بالصلاة الإبراهيمية، وفيه تنفذ غايتين اثنتين وهما،

1. الصلاة والسلام على النبي محمد امتثالا لقوله تعالى:

- **إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (56)**

2. الدعاء بالبركات على أهل بيت محمد:

- **... إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33)**

والمقصود بأهل بيت النبي هن (نحن نفتري القول) أزواجه اللاتي نزلت بحقهن هذه الآية الكريمة، وأقرأ عزيزي القارئ – إن شئت- الآية كلها:

- **وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33)**

نتيجة مفتراة (1): الدعاء بالصلاة والسلام خاص بشخص النبي محمد فقط

نتيجة مفتراة (2): طلب البركات خاص بأهل بيت النبي فقط

السؤال: كيف يمكن تنفيذ ذلك على أرض الواقع؟

فقه الصلاة الإبراهيمية

باب ما نتلفظ به من قول داخل الصلاة: الفكر السائد

لنبدأ القصة من أولها، فلقد اشتهر عند أهل العلم حول هذه الجزئية الحديثُ المرفوع إلى النبي والمتفق عليه بين رواته التالي:

عن مالك بن الحويرث رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صلُّوا كما رأيتموني أصلّي، وإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم، وليؤمكم أكبركم"

لنطرح التساؤل التالي على الفور: إذا كان من هم حول النبي قد نقلوا لنا ما قام به النبي من حركات في الصلاة (كالوقوف والركوع والسجود)، فكيف نقلوا لنا ما كان يتلفظ به محمد من أقوال داخل الصلاة؟ فهل كانت صلاة النبي جهريّة بما فيها من أفعال وأقوال؟ فهل كان يسمع من هو حول النبي ما كان يقول وهو واقفا؟ وهل كانوا يسمعون ما كان يقول وهو راكعا؟ وهل سمعوا ما قال وهو ساجدا؟ وهل سمعوا ما قال في جلوسه للتشهد في الصلاة؟

السؤال مرة أخرى: هل سمع من كان حول النبي كيف تلفظ محمد بالصلاة الإبراهيمية في التشهد الأخير للصلاة؟ فهل قالها النبي الكريم على النحو الذي ألفناه من عند آبائنا:

اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد

اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

رأينا المفترى: إن كان هذا نقلا صحيحا عن النبي، فدعني أثير التساؤلات التالية حوله.

أولا، على من نسلم في نهاية الصلاة عندما نقول:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الفكر السائد: لعل الجواب الشائع بين العامة (ربما بما فهموه من سادتنا أهل الدراية) أن المصلي يسلم في نهاية صلاته على الملكين اللذين عن اليمين وعن الشمال. ولقد تجرأ بعضهم على القول بأن أهل العلم قد استنبطوا ذلك من قوله تعالى:

- **إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18)**

فهم يظنون أن الذي على اليمين هو رَقِيبٌ وأن الذي على الشمال هو عَتِيدٌ، أليس كذلك؟

رأينا: دعنا بداية نعلن صراحة مخالفتنا إياهم الرأي بالقول بأن عبارة رَقِيبٌ عَتِيدٌ لا تعود على كينونتين اثنين وإنما هو كينونة واحدة (رَقِيبٌ عَتِيدٌ)، وذلك لأن "صيغة الترادف الثنائية" هذه قد وردت كثيرا في كتاب الله، خاصة بحق الإله نفسه. فالله هو حفيظ عليم وهو عليم حكيم وهو لطيف خبير، الخ. فهل يعني ذلك أننا نتحدث عن كينونتين اثنتين؟

جواب: كلا وألف كلا، لأنه لو كان الحديث عن كينونتين اثنتين، لجاء اللفظ بصيغة العطف على نحو (رقيب وعتيد)، ولأصبح تواجد حرف العطف بينهما أمرا لازما، ليعطف الثاني على الأول كما في بداية الآية الكريمة نفسها:

- **إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17)**

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن الذي على اليمين وعلى الشمال هو كينونة واحدة وهو نفسه رَقِيبٌ عَتِيدٌ . وربما يؤكد ظننا هذا ما جاء في الآيات الكريمة التالية:

- **وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (23)**
- **إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (4)**

نتيجة مفتراة مهمة جدا: نحن نفتري القول أن كل نفس عليها حافظ واحد

نتيجة مفتراة مهمة جدا: نحن نظن أن هذا الحافظ الموكل بكل نفسه هو رقيب عتيد. انتهى.

إن الذي يهمنا من هذا النقاش بغض النظر عن عدد الذين عن اليمين والشمال هو التساؤل التالي: لم نحتاج أن نلقي عليهم (حتى وإن كانوا ملائكة) السلام في نهاية كل صلاة؟ ألي هم من يصلوا ويسلموا علينا:

- **هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (43)**

(دعاء: اللهم صل عليّ وملائكتك، وأدعوك وحدك أن تخرجني من الظلمات إلى النور، إنك أنت الغفور الرحيم – آمين)

مفارقات مضحكة مبكية: لعل أظن أن الأخطر من هذا أن بعض سادتنا العلماء أهل الدراية قد أفهموا الناس أن إلقاء السلام على من هو على اليمين واجب للخروج من الصلاة، ولكن إلقاء السلام على من هو عن الشمال غير واجب؟ فهل يعود هذا (نحن نسأل) إلى الظن بأن الذي على اليمين يكتب لنا الحسنات لذا فهو "طيب مليح"، بينما الذي على الشمال فهو غير ذلك لأنه يسجل علينا سيئاتنا؟ من يدري!!!

رأينا الخطير المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أننا لا نلقي السلام على ملائكة متواجدين على يميننا ولا نلقي السلام على ملائكة متواجدين عن شمالنا بغض النظر عن عددهم، فنحن لا نلقي عليهم السلام إطلاقا، ونعتقد جازمين أن السلام الذي نلقيه عن اليمين وعن الشمال للخروج من الصلاة ليس له علاقة بالملائكة إطلاقا. انتهى.

السؤال: على من نلقي السلام إذن للخروج من الصلاة؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري القول بأننا نلقي السلام على محمد وأهل بيته كما نلقي السلام على إبراهيم وأهل بيته.

الدليل

أولا، نحن لا نحتاج أن نلقي السلام على الملائكة إطلاقا لأن الملائكة هم من يصلوّن علينا:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (42) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (43)**

فنحن مطالبون أن نذكر الله، ومطالبون أن نسبحه، وهو بالمقابل من يصلي علينا وملائكته.

ثانيا، لو تدبرنا ما يسميه أهل العلم بالصلاة الإبراهيمية لوجدنا أنها تتحدث عن محمد وعن إبراهيم كما تتحدث عن أهل محمد وعن أهل إبراهيم، ولنعيدها هنا مرة أخرى كما تعلمناها في المدارس على أيدي أهل الرواية كما علمهم إياها أهل الدراية:

اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد	كما صليت على	إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد
اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد	كما باركت على	إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته		السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

السؤال: إذا كان الحديث منصبا على محمد وعلى آل محمد (كما يريدون) وعلى إبراهيم وعلى آل إبراهيم (كما يريدون)، فلم هذا الانتقال العجيب في النهاية للسلام على الملائكة عن اليمين وعن الشمال؟

رأينا: نحن نظن أن الحديث يجب أن يكون متناسقا مادام أنه دعاء نرجو من الله أن يحققه، فمادام أن الشطر الأول (أو الصدر بلغة أهل الشعر) يتحدث عن محمد وعن آل بيت محمد فإن السلام الأول يجب أن يكون على هؤلاء. ومادام أن الشطر الآخر (أو العجز بلغة أهل الشعر) يخص إبراهيم وآل إبراهيم، فإن السلام الثاني يجب أن يكون على هؤلاء. فنحن نسلم على محمد وأهل بيت محمد كما نسلم على إبراهيم وعلى أهل بيت إبراهيم فقط، ولا دخل للرقيب العتيد في ذلك.

ثالثا، لو تفقدنا تلك الصلاة كما ألفناه من عند أهل العلم لوجدنا فيها العجب العجاب، وأخص بالذكر هنا نهايتها في عبارة إنك حميد مجيد. فلعل الذي لفت انتباهي إلى هذه القضية برمتها هو أننا كمسلمين على اختلاف طوائفنا لا نختلف في هذه العبارة على وجه التحديد، ولكن لماذا؟

رأينا الخطير جدا، لأنها هي العبارة الوحيدة الصادقة في هذه الصلاة المنقولة إلينا برمتها، فهي العبارة التي نظن أنه لم يعتريها التحريف من عند أهل العلم. ولكن كيف ذلك؟

جواب: نحن نستغرب لم بقيت تلك العبارة على حالها؟ لم لا يقول بعضنا في نهاية صلاته إنك حميد حكيم أو أنك عليم حكيم أو أنك لطيف خبير، الخ. أليست الأسماء الحسنى جميعها لله:

- **قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (110)**

فما بالنا لا ندعو ببعضها في كل مرة نود الخروج من صلاتنا؟ لم نتمسك بهذه العبارة (إنك حميد مجيد) على وجه التحديد في نهاية الصلاة الإبراهيمية؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هذه العبارة وحدها ستروي لنا قصة الصلاة الإبراهيمية كلها منذ بدايتها، وستكشف لنا (بحول الله وتوفيق منه) عن كل التحريفات التي خطها بعض أهل العلم ربما عن قصد مسبق وربما عن جهل فاضح، ولحق بهم الكثيرون منهم عن غير قصد، غير متنبهين للتبعات الجمّة لذلك على العقيدة برمتها. فهذا ما نفتريه من قول من عند أنفسنا، سائلين الله وحده أن يهدينا رشدنا، وأن يؤتينا رحمة من عنده وعلما من لدنه، فلا نفتري عليه الكذب إنه حميد مجيد - آمين

أما بعد

قصة الصلاة الإبراهيمية: من أين جاءت

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن الصلاة الإبراهيمية قد جاءت عندما شعر النبي محمد ببعض الضيق بسبب بعض ما أنزل إليه من ربه، فأخذ يدعو بهذا الدعاء في نهاية صلاته ليحصل على ما لم يتمكن من الحصول عليه من قبل، وليتأتى له ما كان الله قد آتاه غيره. فكيف ذلك؟

أولا: نحن نجد أن أول دليل يأتي من الحقيقة الثابتة التي تظهر من مجمل تلك الصلاة (الدعاء) وهو محاولة النبي محمد التشبه بأبيه إبراهيم، فإلى الذين يظنون أن محمدا هو سيد الخلق أجمعين، فعليهم أن يجيبونا على التساؤل التالي: لما يدعو محمد أن يُصلّي الله عليه كما صلى على إبراهيم؟

اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد

ولم يدعو محمد أن ينزل الله بركاته عليه وعلى آل بيته (كما يرغب أهل الدراية) بنفس الطريقة التي تمت المباركة فيها على إبراهيم وعلى أهل إبراهيم.

اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد

رأينا: ربما لا يخفى على الصغير (قبل الكبير) وعلى طالب العلم (قبل الذي أمسك بناصيته) بأن المشبه محمد (لم يتحصل) على ما كان للمشبه به إبراهيم. وإلاّ لانتفت الحاجة إلى عقد المقارنة أصلا (للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان لماذا قدم نبي الله لوط بناته بدلا من ضيوفه؟ خاصة الجزء الثالث عشر والرابع عشر)

السؤال ما الذي كان لإبراهيم ولم يكن لمحمد حتى يجهد محمد نفسه في طلبه؟ وما الذي كان لأهل إبراهيم ولم يكن لأهل محمد حتى يجهد محمد في طلبه؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الفرق بين محمد وأهله من جهة وإبراهيم وأهله من جهة أخرى هو ما تصوره الآيتان الكريمتان التاليتان، حيث تتحدث الأولى عن ما تحصل لإبراهيم وأهله وتتحدث الثانية عن ما كان متحصلا لمحمد وأهله:

- **قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (73)**
- **وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33)**

الاستنباطات

1. لو تدبرنا الآيتين الكريمتين لوجدنا أنهما تتحدثان عن إبراهيم وعن محمد
2. لو تدبرنا الآيتين الكريمتين لوجدنا أنهما تتحدثان عن أهل إبراهيم وعن أهل محمد
3. لو تدبرنا الآيتين الكريمتين لوجدنا أنهما تتحدثان عن نساء هؤلاء الأنبياء
4. لو تدبرنا الآيتين الكريمتين لوجدنا أن رحمت الله وبركاته قد نزلت فعلا على أهل بيت إبراهيم
5. لو تدبرنا الآيتين الكريمتين لوجدنا أن رحمت الله وبركات لم تنزل على أهل بيت محمد
6. لو تدبرنا الآيتين الكريمتين لوجدنا أن ما كان يمكن أن يتحصل لمحمد لم يتحصل فعلا لأنه كان في طور الإرادة الإلهية ولم يتنقل إلى مرحلة القول الإلهي (أي التنفيذ الفعلي). للتفصيل حول إرادة الله وقول الله انظر مقالتنا تحت عنوان مقالة في التسيير والتخيير التي فحواها الآية الكريمة التالية:

- **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (82)**

حيث التمييز بين إرادة الله وقول الله، مفترين الظن بأن الأمور لا تتحقق بإرادة الله وإنما تتحقق فقط متى ما صدر قول الله بحقها.

السؤال: ما علاقة هذا كله بمحمد وأهله وإبراهيم وأهله؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري القول بأن النتيجة يمكن أن نستنبطها من هذه الآيات الكريمة (إن كان منطقنا صحيحا) هي أن رحمت الله وبركاته قد صدر قول الله فيها بحق أهل إبراهيم:

- **قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (73)**

ولكن مثل هذا القول الإلهي لم يصدر بحق أهل بيت محمد وبقي الأمر في طور الإرادة الإلهية لهم:

- **وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33)**

ونحن نظن بأنه لما تحققت الرحمة الفعلية لأهل إبراهيم، جاء في نهاية الآية نفسها قوله تعالى (إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ)، فنحن لم نجد هذه العبارة في كتاب الله إلا في هذه الآية الكريمة التي تتحدث عن رحمت الله وبركاته على أهل بيت إبراهيم.

ولكن – بالمقابل- نحن نظن بأنه لما لم يصدر قول الله بالرحمة والبركات بحق أهل بيت محمد، وبقيت في طور الإرادة الإلهية، لم تأتي هذه العبارة (إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ) في نهاية الآية التي تتحدث عن أهل بيت محمد

الصلاة الإبراهيمية الحكاية التي لم تروى: افتراءات من عند أنفسنا

نحن نظن (مفترين القول من عند أنفسنا) أن قصة الصلاة الإبراهيمية قد حصلت على النحو التالي: ينزل على قلب محمد قرآنا يتلى عن ما حصل في بيت أبيه إبراهيم، فها هم الملائكة الذين جاءوا رسلا من ربهم معذبين قوم لوط يصلون أولا إلى بيت من كان الله قد أراه ملكوت السموات والأرض، وهو إبراهيم:

- وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75)

هم الآن في بيت إبراهيم ضيوفا ربما لإخباره بما سيحصل بقوم لوط قبل إنزال العذاب الذي جاء به أمر ربهم:

- قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (57) قَالُواْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (58)

وفي ذلك اليوم بالذات تأتي البشرى إبراهيم بإسحق:

- وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (112)

وتتعجب امرأته التي كانت قائمة من الأمر:

- قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (72)

فما يكون من الملائكة (رسل ربها) إلاّ أن تزفّ لها الخبر العظيم بأن رحمت الله وبركاته قد نزلت على أهل هذا البيت الطاهر:

- قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (73)

انتهت حكايتنا بالنسبة لإبراهيم. فما الذي حصل بالنسبة لبيت محمد؟

افتراء من عند أنفسنا: ما أن ينزل هذا القرآن الذي يخص إبراهيم وأهل بيته على قلب محمد حتى يبقى محمد يدعو ربه خوفا وطمعا، رغبا ورهبا، أن ينزل على أهل بيته من البركات ما أنزل منها على أهل بيت إبراهيم، فينتظر محمد طويلا، ولكن كانت المفاجأة الكبرى (ربما غير السارة) بالنسبة لمحمد أن تلك الرحمة والبركات لم تنزّل، وأن جلّ ما نزل ببيت محمد هو الإرادة الإلهية بأن يذهب عنهم الرجس، قال تعالى:

- وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33)

فلم يكن ذلك ليرضي محمدا تمام الرضا، فما كان منه إلا أن يُقْبِل على ربه بدعاء لازلنا نردده في نهاية كل صلاة نقيمها، سائلين الله أن يتحقق لأهل بيت محمد ما كان قد تحقق لأهل بيت إبراهيم، فكان هذا الدعاء الذي نظن أن أهل العلم قد حرفوا بعضه ولم يتمكنوا من تحريف بعضه وهو ما يطلق عليه مصطلح الصلاة الإبراهيمية:

اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد

اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

السؤال: فما الذي لم يحرّف منه؟ ما الذي لم يضع أهل العلم أيديهم فيه ليحرفوه؟

جواب مفترى: إنه العبارة الأخيرة فيه وهي (إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ). فمحمد قد استخدم هذا الأسماء الحسنى ليدعو ربه به لكي يتم عليه وعلى أهل بيته ما كان قد تحصّل لإبراهيم وأهل بيته.

السؤال: وما الذي تم تحريفه في هذا الدعاء؟

جواب: حرف واحد فقط، وهو إسقاط حرف الهاء من كلمة أهل كما جاءت في كتاب الله في الآيتين الكريمتين اللتان تتحدثان عن أهل بيت إبراهيم وأهل بيت محمد:

- **قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (73)**
- **وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33)**

ليصبح اللفظ على لسان أهل الرواية كما نقلوا ذلك عن أهل الدراية على نحو آل البيت.

الفرق بين الآل والأهل (آل البيت أم أهل البيت؟)

نحن نظن أن إسقاط هذا الحرف من كلمة أهل لتصبح كلمة آل قد أسقط الأمة بأكملها في شرك ما فعل علماؤهم بهم، فانقسمت الأمة إلى فريقين متناحرين على هذا الحرف. فأصبح هناك من يسمون أنفسهم بأهل السنة والجماعة يقابلهم المدافعين عن آل البيت والتشييع.

السؤال: لماذا أسقط هذا الحرف؟ ومن الذي فعل ذلك؟ وما الغاية من ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن شياطين الإنس الذي لم يريدوا بهذا الدين خيرا هم من فعلوا تلك الفعلة النكراء. ونحن على يقين أن دراويش الأمة (من أصحاب اللحى الطويلة والثياب القصيرة) لم يستطيعوا أن يدركوا مقدار خطورة تلك الفعلة وتبعاتها الجمة على الدين أولا ثم على الأمة بأكملها من بعد ذلك.

السؤال: ولماذا فعلوا ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الهدف غير المعلن لهؤلاء الشياطين هو إخراج أزواج النبي من المعادلة كلها. فهم لا يريدون أن يدع الناس في صلاتهم لأزواج النبي بالبركات، فأسقطوا حرف الهاء من كلمة أهل (التي لا شك تشمل أزواج النبي كما سنرى بعد قليل) لتصبح كلمة آل (التي قد لا تشمل نساء النبي إطلاقا). للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان حديث الإفك.

الدليل

لجلب الدليل على ذلك لابد من التعرف على معنى مفردة أهل مقابل معنى مفردة آل كما ترد في السياقات القرآنية.

الأهل: تشمل الزوجة

بداية، نحن نفهم أن مفردة الأهل قد استخدمت في سياقاتها القرآنية المتعددة لتشمل الزوجة.

السؤال: كيف ذلك؟

جواب مفترى:

1. لم تكن امرأة فرعون من آل فرعون (وإن كانت من أهله) لأنه لو كانت امرأة فرعون من آل فرعون لحاق بها سوء العذاب:

- **فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (45)**

ولكانت من المغرقين:

- وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (50)

ولكان مصيرها النار لا محالة لأن آل فرعون مصيرهم جميعا النار:

- النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (46)

2. لم تكن امرأة لوط من آله لأن الله قد نجىّ آل لوط أجمعين:

- إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ (34)

ولكنها لا شك كانت من أهله لذا جاء الاستثناء صريحا بحقها:

- وَلَمَّا أَن جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (33)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفتري الفهم بأن المرأة هي من أهل الرجل ولكنها قد لا تكون من آله.

السؤال: ما علاقة هذا بالصلاة الإبراهيمية؟

عندما كان بعض أهل العلم على دراية بأن الصلاة على أهل بيت محمد سيصيب زوجاته جميعا، لم يكن ليروق للبعض منهم ذلك، ربما بسبب الخلاف التاريخي والسياسي بينهم وبين بعض أزواج النبي (وعلى وجه الخصوص السيدة عائشة)، فلعبوا لعبتهم القذرة في التحريف والتبديل، فما كان منهم إلا أن يسقطوا حرف الهاء من مفردة أهل التي تعني بالضبط بيت النبي محمد نفسه، واستبدلوها بمفردة آل محمد (ليخرجوا بعض أزواجه من المعادلة) وليدخلوا فيها في الوقت نفسه بعض أقرباء محمد (من عشيرته) إلى تلك الصلاة. فبدل أن تكون الصلاة على محمد وعلى أهل بيت محمد، أصبحت الصلاة على محمد وآل بيت محمد.

السؤال: كيف يجب أن نقرأ الصلاة الإبراهيمية إذن؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الصلاة الإبراهيمية يجب أن تمر بثلاث مراحل وهي على النحو التالي:

1. الصلاة على محمد والسلام عليه فقط وعطفها على إبراهيم، فنحن مأمورون بالصلاة والتسليم على من صلى الله وملائكته عليه:

- إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (56)

لذا فنحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن الصلاة الإبراهيمية يجب أن تبدأ على النحو التالي:

الصلاة والسلام على النبي محمد (كما صليت وسلمت صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد)

فعندما قدمت الملائكة إلى بيت إبراهيم كان الخطاب الأول بينهم على النحو التالي:

- وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (69)
- إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (52)
- إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (25)

2. الدعاء بالرحمة والبركات على أهل بيت محمد وعطفها على أهل بيت إبراهيم لأن الله قد أنزل رحمته وبركاته عليهم:

- قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (73)

لذا نحن نطلب رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ لأهل بيت محمد، فنتابع الصلاة الإبراهيمية بالقول:

اللهم بارك على أهل بيت محمد كما باركت على أهل بيت إبراهيم إنك حميد مجيد

3. السلام على أهل محمد وأهل بيته وعطفها بالسلام على إبراهيم وأهل بيته

فنختم تلك الصلاة (وذلك الدعاء) بالسلام على محمد وأهل أهل بيت محمد ونخرج من الصلاة بالسلام على إبراهيم وأهل بيت إبراهيم، فنقول:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته (ونقصد محمد وأهل بيته)

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته (ونقصد إبراهيم وأهل بيته)

فيصبح التشهد والصلاة الإبراهيمية عند الجلوس في الصلاة على نحو ما في الجدول التوضيحي التالي:

التشهد	الصلاة الإبراهيمية
⇐ شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (18) ⇐ ... إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163) ⇐ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ. ⇐ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (182)	وأشهد أن محمدا رسول الله وخاتم النبيين (وكفى بالله شهيدا) الصلاة والسلام على النبي محمد (كما صليت وسلمت على إبراهيم إنك حميد مجيد) اللهم بارك على أهل بيت محمد كما باركت على أهل بيت إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

مشاهدة مهمة جدا: غالبا ما تسمع الناس يرددون العبارة التالية للصلاة على النبي (اللهم صلي على محمد)، ظانين أنهم بذلك يصلون على النبي محمد كما أمر الله بقوله تعالى:

- **... يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (56)**

افتراء من عند أنفسنا: نحن نود أن نلفت الانتباه أن هذه العبارة (اللهم صلي على محمد) المستخدمة بين الناس للصلاة على النبي هي غير صحيحة لأنها ليست تنفيذا للأمر الإلهي بالصلاة على النبي.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا: لو تدبرت هذه العبارة جيدا لوجدت أن جل ما تفعله هو دعاء الله بقولك (اللهم) ليصلي هو (أي الله نفسه) على النبي (صلي على محمد). فما الذي فعلته أنت في هذه الحالة؟ هل صليت أنت بنفسك على النبي كلا؟

ونحن نطرح التساؤل التالي: لم تطلب أنت من الله داعيا أن يصلي هو على النبي بقولك (اللهم صلي على محمد)؟ ألم تقرأ الآية كلها التي تحثك على الصلاة على النبي؟ ألم تبدأ الآية نفسها بإخبارك يقينا بأن الله قد صلى وملائكته على النبي:

- **إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (56)**

تساؤلاتنا: مادام أن الله قد صلى وملائكته على النبي، ومادام أن صلاة الله وملائكته هذه على النبي دائمة غير منقطعة، فما الحاجة أن تدعو الله أن يصلي هو على النبي بقولك (اللهم صلي على محمد)؟

رأينا المفترى: سواء دعوت الله أم لم تدعوه أن يصلي على النبي، فإن صلاة الله وملائكته على النبي غير منقطعة (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ). لذا فإن دعاءك هذا بالقول (اللهم صلي على محمد) لا يزيد في الأمر شيئا ولا ينقص منه شيئا.

السؤال: ما المطلوب إذن؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن المطلوب لا يتمثل بأن تدعو الله بأن يصلي هو على النبي، بل أن تقوم أنت نفسك بالصلاة على النبي لأن الأمر الإلهي للذين آمنوا هو:

- **... يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (56)**

السؤال: وما الذي يجب علي أن أقوله حتى أكون قد صليت أنا بنفسي على النبي؟

جواب مفترى: نحن نظن أن صيغة الصلاة على النبي يجب أن تكون بلفظ يشبه التالي:

الصلاة والسلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته

فتصبح صيغة الصلاة الإبراهيمية (أي الجزء الأخير من الصلاة الخاص بالنبي وأهل بيته) كلها – كما نفتريها من عند أنفسنا- على النحو التالي:

واشهد أن محمدا رسول وخاتم النبيين (وكفى بالله شهيدا)

الصلاة والسلام على النبي ورحمة الله وبركاته (كما صليت وسلمت على إبراهيم إنك حميد مجيد)

اللهم بارك على أهل بيت محمد كما باركت على أهل بيت إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

ملاحظة غاية في الأهمية: نحن نود التأكيد لكل قارئ لهذه السطور بأن هذه هي عقيدتنا وحدنا، ونطلب منه بكل أدب جم أن لا يأخذ بها إذا لم يجد أن الدليل القاطع يثبته، وإن هو تجرأ على الأخذ بها، فيكن في ذهنه دائما أنه هو وحده من يتحمل تبعات الأمر إن ثبت أن كلامنا مغلوط. فنحن لا نقدم فتاوى للناس، ولكننا نفكر فقط بصوت مرتفع. والله أعلم

فقه الزكاة

بعد أن تجرأنا على تسطير بعض الخطوط العريضة التي ربما تبيّن بعض تفاصيل عقيدتنا فيما يخص فقه الصيام وفقه الصلاة كما فهمناها من كتاب الله، دعنا ننتقل إلى تسطير بعض الافتراءات الخاصة بنا عن فقه الزكاة كما نفهمه أيضا من كتاب الله. ولعلنا نحتاج بداية أن ننبه إلى أننا سنتجرأ على بعض الافتراءات التي قد تكون غير مسبوقة في الفكر الديني، والتي نعتقد جازمين بأنه سيكون لها (إن صحّت طبعا) تبعات جمّة على العقيدة الدينية وعلى التطبيق الفعلي لها على أرض الواقع. فمن أراد أن يجازف باللحاق بنا في رحلة متهورة إلى أرض بكر لا ندري طبيعة تضاريسها بعد، فله ذلك شريطة أن يتحمل هو بنفسه تبعات قراره، ولا نملك إلا أن نسدي له النصيحة دائما بأن لا يملّ من دعاء ربه (اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ (7)). ومن أراد الرجوع إلى الوراء، خاصة إذا لم يكن من المغرمين بقصيدة روبرت فرُست (The Road Not Taken)، فله أن يتابع المسير في الطريق التي يعرف تفاصيلها جيدا، فهو الأكثر دراية بمصلحته مادام أنه يعتقد أنه لم يبتعد يوما عن ذلك الصراط الذي ألفى عليه آباءه.

(دعاء: ربنا اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا – أمين)





أما بعد

إن الذي أشغل تفكيرنا في هذه القضية على وجه التحديد هو تناوب اللفظ في كتاب الله بين مفردتين متقاربتين في المعنى، وهما مفردة الزكاة (الزكوة) من جهة ومفردة الصدقة (الصدقات) من جهة أخرى. فطرحنا على أنفسنا التساؤل المثير التالي: ما الفرق بين الزكاة والصدقة كما تردا في النص القرآني؟

وكانت محاولتنا في الإجابة على هذا التساؤل تتمثل بداية في استعراض السياقات القرآنية كلها الخاصة بالمفردتين على مساحة النص القرآني، ثم محاولة تدبرها في تلك السياقات متفرقة أولا ثم مجتمعة بعد ذلك، علّنا نستطيع (بحول الله وتوفيق منه) الخروج باستنباطات ربما تساعدنا في تجلية الفروقات الحقيقية بين المفردتين، ومن ثم محاولة إسقاط تلك الاستنباطات المفتراة من عند أنفسنا على أرض الواقع، والنظر فيما ستؤول إليه الأمور بعد ذلك.

فعند استعراض الآيات القرآنية الخاصة بالصدقة (الصدقات)، وجدناها متعددة ومتنوعة، فحاولنا الخروج باستنباطات نذكر منها:

أولا، أن الصدقة فعل يتعلق بتوافر الأموال:

- **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (103)**

ثانيا، يمكن أن يقوم الإنسان بفعل الصدقة في الحج، قال تعالى:

- **وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (196)**

ثالثا، يمكن لفعل الصدقة أن يجر وراءه الأذى، قال تعالى:

- **قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (263)**

ويمكن لهذه الصدقات أن تُبطل بالمن والأذى:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (264)**

رابعا، يمكن لنا (كبشر) أن نأمر غيرنا بالصدقة:

- **لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (114)**

خامسا، يمكن أن تقدم الصدقة بين يدي النبي نفسه، قال تعالى:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (12)**

سادسا، لا مانع من إبداء الصدقات ولكن إخفاؤها هو خير، قال تعالى:

- إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (271)

سابعا، الربا هو النقيض المقابل للصدقات، ففي حين أن الله يمحق الربا فهو نفسه من يربي الصدقات، قال تعالى:

- يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (276)

ثامنا، ما يؤتي الرجال النساء من مال يقع في باب الصدقة، قال تعالى:

- وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا (4)

ولا يؤخذ منه شيئا إلا عن طيب نفسن منهن:

- وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً (20) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (21)

تاسعا، توزيع الصدقات يكون واضحا للجميع بدليل أن البعض قد يلمز النبي في طريقة توزيعها، قال تعالى:

- وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (58)

عاشرا، جاء تحديد الفئات التي تأخذ من الصدقات واضحا لا لبس فيه في الآية الكريمة التالية:

- إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (60)

أحد عشر، لم يكن هناك حد أدنى للقدرة المالية لمن أراد أن يتصدق، فقد يتطوع المؤمن بأي مقدار من الصدقة ما دام أن هذا هو جهده، قال تعالى:

- الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (79)

اثنا عشر، جاءت آية كريمة تبين بصريح اللفظ أن الله هو من يأخذ الصدقات، قال تعالى:

- أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (104)

ثالث عشر، يمكن للرجال وللنساء إخراج الصدقات، قال تعالى:

- إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (35)
- إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (18)

رابع عشر، جاء الفصل واضحا في كتاب الله بين تقديم الصدقات وإيتاء الزكاة، فتقديم الصدقات هو فعل يختلف عن فعل إيتاء الزكاة، قال تعالى:

- أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (13)

السؤال المحوري: إذا كان فعل تقديم الصدقات يختلف عن فعل إيتاء الزكاة، فما هي الاستنباطات التي يمكن الخروج منها من الآيات الكريمة التي تتحدث عن فعل إيتاء الزكاة؟

جواب مفترى، دعنا نستعرض الآن بعض الاستنباطات التي استطعنا الخروج بها من السياقات القرآنية الخاصة بفعل إيتاء الزكاة.

أولا، ربما لا يخفى على الكثيرين أن فعل إيتاء الزكاة قد ورد مجاورا وملاحقا لفعل إقامة الصلاة في كثير من السياقات القرآنية، قال تعالى:

- **وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (43)**
- **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (83)**
- **وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110)**
- **لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (177)**
- **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (277)**
- **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (77)**
- **لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ۚ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا (162)**
- **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (55)**

ثانيا، جاء فعل إيتاء الزكاة غير مصاحب لفعل إقامة الصلاة في الآية الكريمة التالية:

- وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (156)

ثالثا، جاء فعل إيتاء الزكاة منفصلا بشكل لا لبس فيه عن إقراض الله قرضا حسنا، كما في الآية الكريمة التالية:

- **وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (12)**
- إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا

الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (20)

رابعا، جاء الأمر الإلهي بالكف عن قتال المشركين متى ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، قال تعالى:

- فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (5)

خامسا، كان إيتاء الزكاة (بالإضافة إلى التوبة وإقامة الصلاة) هو الشرط الثلاث لتحقيق الإخوة في الدين، قال تعالى:

- فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (11)

سادسا، جاء فعل إيتاء الزكاة مصاحبا وتابعا لعمارة المساجد، قال تعالى:

- إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ۖ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (18)

ثامنا، جاء فعل إيتاء الزكاة في سياق الحديث عن المؤمنين والمؤمنات، قال تعالى:

- وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (71)

تاسعا، كانت الزكاة واحدة من ما أوصى به الله نبيه عيسى بن مريم، قال تعالى:

- وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31)

عاشرا، كانت من سمات نبي الله إسماعيل هو أنه كان يأمر أهله بالزكاة مباشرة بعد أمره إياهم بالصلاة، قال تعالى:

- وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (55)

أحد عشر، كان فعل إيتاء الزكاة من أهم ميزات من مكّن الله لهم في الأرض، قال تعالى:

- الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (41)

اثنا عشر، جاء فعل إيتاء الزكاة واحد من الأفعال المحددة التي يقوم بها من كان من المسلمين: قال تعالى:

- وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (78)

ثالث عشر، كان فعل إيتاء الزكاة واحدة من أهم الأفعال التي يقوم بها من يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار، وهم الموقنون بالآخرة، قال تعالى:

- رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (37)
- الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (3)
- الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4)

وكان عدم إيتاء الزكاة (على وجه التحديد) واحدة من أهم الأفعال التي تدل على الكافرين بالآخرة، قال تعالى:

- **الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (7)**

رابع عشر، جاء فعل إيتاء الزكاة كواحد من الأفعال التي يمكن أن تجلب لنا الرحمة من الله، قال تعالى:

- **وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (56)**

خامس عشر، جاء الحث واضحا لأزواج النبي على إيتاء الزكاة، قال تعالى:

- **وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33)**

سادس عشر، من أراد أن يكون مخلصا لله الدين، فلابد أن يؤتي الزكاة كما يقيم الصلاة، قال تعالى:

- **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (5)**

سابع عشر: جاء فعل إيتاء الزكاة (بالإضافة إلى إقامة الصلاة) منفصلا عن فعل الخيرات، قال تعالى:

- **وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ۖ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (73)**

السؤال: ما الذي يمكن أن نفهمه بعد هذا السرد للاستنباطات التي حاولنا تسويقها لما فهمنا من السياقات الخاصة بالصدقة والسياقات الخاصة بالزكاة؟

جواب مفترى: بداية، لمّا كان فعلا إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة قد وردا مصاحبين لـ ومنفصلين عن فعل الخيرات، وجب علينا الخروج بالاستنباط التالي المهم جدا جدا وهو أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ليست من أفعال الخير. ففعل الخيرات هو شيء وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة شيء آخر تماما. انتهى.

السؤال: لماذا؟ أي لماذا هذا الفصل بين فعل الخيرات من جهة (وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ) وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من جهة أخرى (وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ)؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لأن فعلي إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من الأفعال المفروضة على المسلم المُلزمة له (شاء أو أبى) التي لا يتحصل له من أدائها الخيرات.

السؤال: لماذا لا يتحصل للمسلم الخيرات من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؟

جواب مفترى: مادام أنه (نحن نفتري الظن) من الأفعال المفروضة على المسلم شاء أو أبى، فهي إذن حق الله على عباده. انتهى.

نتيجة مفتراة (1): إقامة الصلاة هي حق لله على عباده

نتيجة مفتراة (2): إيتاء الزكاة هي حق لله على عباده

نتيجة مفتراة مهمة جدا: نحن نظن أن الذي لا يقيم الصلاة ولا يؤتي الزكاة فهو كما لا يقوم بأداء دين مفروض عليه، والذي يتهاون فيها هو كمن يتهاون في أداء ذلك الدين.

السؤال: ما الذي يمكن أن نستنبطه من هذا التصاحب الذي يكاد لا ينفك في كتاب الله بين فعلي إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة في كتاب الله؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نرى أن هناك أسباب عديدة هي محرك هذا التصاحب، نذكر منها:

1. إن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هي أفعال مفروضة على العبد، ملزمة له شاء أو أبى
2. إن العلانية في أدائهما واجبة، فلا مجال لإخفائها. ففي حين أنه يمكن إبداء الصدقات ويمكن إخفائها، فإن إيتاء الزكاة تجب فيه العلانية. بالضبط كما الحال بالنسبة للصلاة، ففي حين أن العلانية واجبة في إقامة الصلاة (المفروضة)، فإن العلانية غير ملزمة في التسبيح بحمد الرب (أو ما يعرف بين المسلمين بصلاة السنّة).
3. إن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هي أفعال محددة لا يجوز الزيادة فيها أو التنقيص منها، بينما يمكن أن نزيد وننقص من الصدقات بمقدار الجهد. بالضبط كما الحال بالنسبة للصلاة، ففي حين أن عدد الصلوات وركعاتها محددة لا يزاد فيها ولا ينقص منها في إقامة الصلاة (المفروضة)، فإن الباب مفتوح في التسبيح بحمد الرب (أو ما يعرف بين المسلمين بصلاة السنّة).
4. إن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هي أفعال محددة بأزمان ثابتة، بينما يمكن تقديم الصدقات في أوقات متفاوتة. بالضبط كما الحال بالنسبة للصلاة، ففي حين أن إقامة الصلاة هي كتاب موقوت، فإن التسبيح بحمد الرب (أو ما يعرف بين المسلمين بصلاة السنّة) يمكن أن يتم في أي وقت.
5. الخ.

تلخيص ما سبق: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأنه كما ينقسم فعل الصلاة إلى فعلين أساسيين وهما إقامة الصلاة والتسبيح بحمد الرب كما حاولنا توضيح هذا سابقا تحت عنوان فقه الصلاة، فإن فعل لزكاة ينطبق عليه المنطق نفسه، فهو أيضا فعل ينقسم إلى فعلين أساسيين وهما إيتاء الزكاة وتقديم الصدقات كما في الشكل التوضيحي التالي:

الصلاة		الزكاة	
إقامة الصلاة	التسبيح بحمد الرب	إيتاء الزكاة	تقديم الصدقات
حق الله على العباد واجبة لا مفر من أدائها علانية لا تجلب للإنسان مصلحة دنيوية لا تقع في باب فعل الخيرات ثابتة في المقدار فلا نزيد فيها ولا ننقص منها الخ	حق العباد على الله تطوعية قد تبدى وقد تخفى تجلب للإنسان مصلحة دنيوية تقع في باب فعل الخيرات متفاوتة في المقدار يمكن أن نزيد فيها أو أن ننقص منها الخ	حق الله على العباد واجبة لا مفر من أدائها علانية لا تجلب للإنسان مصلحة دنيوية لا تقع في باب فعل الخيرات ثابتة في المقدار فلا نزيد فيها ولا ننقص منها الخ	حق العباد على الله تطوعية قد تبدى وقد تخفى تجلب للإنسان مصلحة دنيوية تقع في باب فعل الخيرات متفاوتة في المقدار يمكن أن نزيد فيها أو أن ننقص منها الخ

السؤال: ما هي الزكاة على أرض الواقع؟ وما هي الصدقة على أرض الواقع (إن صح ما تقول)؟ يسأل صاحبنا.

جواب مفترى من عند أنفسنا: إن صحت استنباطاتنا هذه عن الزكاة، فإننا نتجرأ إذن على افتراء الظن بأن فعل الزكاة ينقسم إلى فعلين رئيسيين هما فعل إيتاء الزكاة وفعل تقديم الصدقات، ففي حين أن فعل إيتاء الزكاة هو فعل إلزامي، محدد بالمقدار والكيفية، ولا يجلب للإنسان مصلحة دنيوية لأنه حق مفروض عليهم:

- **وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (24)**

فإن تقديم الصدقات – بالمقابل- هو فعل تطوعي غير محدد بالمقدار، وهو الذي يجلب للإنسان منفعة دنيوية مادام أنه تطوعي، يقوم به المسلم عن رغبة منه، وهو يتفاوت في المقدار بحسب جهد الشخص نفسه:

- **الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (79)**

السؤال: كيف يمكن إسقاط هذه الأفعال (إيتاء الزكاة وتقديم الصدقات) على أرض الواقع؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نظن أنه يمكن إسقاط ذلك على أرض الواقع على النحو المفترى من عند أنفسنا التالي: نحن نظن (ربما مخطئين) بأن فعل إيتاء الزكاة على وجه التحديد هو ما يعرف بالمفردات الدراجة على أرض الواقع تحت عنوان "دفع الضرائب". فهو – برأينا- الضريبة المفروضة والملزمة في كل ما يتحصل عليه للإنسان من مال (أي في كل غنيمة)، يدفعه هذا المسلم كحق معلوم للدولة، ليستفيد من جراء ذلك الجميع بالقسط (أي بالتساوي في التوزيع والمنفعة)، فهو إذن حق للجميع، السائل منهم والمحروم:

- **وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (24) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25)**

أما الصدقات فهي – بالمقابل- من الأعمال التطوعية التي يمكن للإنسان أن يقوم بها بنفسه إن شاء، بحسب جهد كل شخص منهم،

- **الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (79)**

ولها مصارف محددة، خاصة فقط بالفئات ذات الحاجة الملحة من المجتمع، وهم من جاء ذكرهم واضحا لا لبس فيه في الآية الكريمة التالية:

- **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (60)**

ولا شك عندنا أن فعل إيتاء الزكاة (كما هو فعل إقامة الصلاة) واجب فيه الإظهار (أي يجب أن يكون باديا على غير الصدقات التي قد تبدى وقد تخفى)، فلا يجوز فيه الإخفاء تحت أي ظرف من الظروف:

- **فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (11)**

فحتى تبين إخوة الناس في الدين وجب أن يكون معلوم لدى الجميع أن هذا الشخص من الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة. وسنرى تبعات هذا الافتراء الجمة لاحقا (بحول الله وتوفيقه) عند الحديث عن كيفية تطبيقها على أرض الواقع.

بينما تقديم الصدقات – بالمقابل- فهو فعل يمكن أن يكون ظاهرا (فيعلم به الناس الآخرون) ولكن الخيرية – لا شك- تكون في إخفاءه، كما جاء في الآية الكريمة التالية:

- **إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (271)**

والهدف من إخفائه هو حتى لا يحدث من جراء فعله الأذى:

- **قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (263)**
- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (264)**

السؤال: ما هو المنّ؟ وما هو الأذى؟ وكيف يمكن أن تُبطل الصدقات بالمنّ أو بالأذى؟

رأينا: عندما يقوم شخص بتقديم الصدقة لشخص آخر، قد يقع الشخص الذي تصدّق بإبطال صدقته هذه بواحدة من طريقتين، وهما المن أو الأذى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا **صَدَقَاتِكُم** بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ)، أليس كذلك؟

السؤال الأول: كيف يمكن أن يبطل المؤمن صدقاته بالمنّ؟

السؤال الثاني: كيف يمكن أن يبطل المؤمن صدقاته بالأذى؟

رأينا المفترى: للإجابة على هذين التساؤلين، وجب علينا التوقف على الأمور التالية، كما نفهمها من الآية الكريمة نفسها:

1. أن ذلك سلوك قد يقوم به بعض المؤمنون (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا **صَدَقَاتِكُم** بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ)
2. أن ذلك السلوك يشبه سلوك من يقوم بذلك أصلا من أجل الرياء (كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ)
3. أن ذلك السلوك يشبه ما يقوم به الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر (كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)
4. أن ذلك كله يشبّه بالصفوان الذي عليه تراب فأصابه وابل، فأزاح ذلك التراب عنه بالكلية حتى عاد به إلى حالته الأولى (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا)
5. الخ.

السؤال: ما الفرق بين المنّ والأذى إذن؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن المنّ هو أن يقوم الشخص الذي تصدّق "بمعايرة" من تصدق عليه شخصيا، فالمنّة تقع من "المنعِم" على "المنعَم عليه"، فالله هو الذي منّ علينا:

- **يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (17)**

نتيجة مفتراة: المنّة تقع مباشرة من الذي أَعطى إلى الذي أُعطي. لذا، فإن الشخص الذي قدّم الصدقة لشخص آخر قد يبطل صدقته هذه إن هو منّ مباشرة على الشخص الذي أعطاه نفسه، كأن يذكّره بين الفينة والأخرى بأنه قد تصدق عليه، وبأن له منّة عليه.

رسالة قصيرة: كم نجد في حياتنا اليومية من يقوم بفعل الصدقة، ثم إذا ما حصل خصام بين الطرف، رأيت المتصدِّق يذكّر من تصدق عليه بتلك الصدقة التي أعطاه إياها في يوم من الأيام! فنحن ندعوك عزيزي المتصدق أن هذه المنّة (أي المعايرة بالكلمات الأردنية الدارجة) ستبطل لا محالة كل الصدقة التي قدمتها،

ولن تستفيد منها، وذلك لأن مثل هذا السلوك لا يصدر إلا من الذي يتصدق من أجل الرياء، ولا يصدر إلا ممن كان لا يؤمن بالله واليوم والآخر (كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ). وهذا السلوك يشبه من وضع شيئا قليلا من التراب على الصخرة الكبيرة (صَفْوَانٍ) ظانا أنها ستكون أرضا خصبة للنماء، لكنه لا يعرف أن منّته هذه قد أزالت التراب من المكان كله، فعادت به صلدا، أي ربما أكثر قسوة مما كان عليه سابقا.

والذي ينفق من أجل الرياء هو الذي يكف عن الإنفاق إن لم يجد مردودا مباشرا من الذين أنعم عليهم بصدقته، ويكأن لسان حاله يقول يجب على هؤلاء الذين تصدّقت عليهم أن تبقى ألسنتهم تلهج بذكري الطيب في كل وقت وحين. ولو توقف هؤلاء عن ذكره وذكر آباءه ونعمهم عليهم، لاستشاط غضبا، وربما ما تردد بأن يذكّرهم بصدقته عليهم، فذاك هو – برأينا- المنّ الذي يبطل الصدقات كلها.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: المنّ هو أن "يعاير" المتصدق من تصدق عليهم بصدقته مباشرة.

السؤال: وكيف يمكن أن تبطل الصدقات بالأذى؟

جواب مفترى: للإجابة على هذا التساؤل، دعنا نطرح بداية التساؤل الأولي التالي: ما هو الأذى؟

أولا، نحن نظن أن الأذى هو "عيب أو خلل أصيب به الشخص" لا يمكن إخفاءه عن بعض الناس الآخرين مهما حاول المصاب تغطية ذلك الأذى.

الدليل

قد يصيب الأذى الرأس، وهو الجزء الأكثر وضوحا في جسم الإنسان كله، قال تعالى:

- **وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (196)**

فمن أصابه ذلك الأذى (أي أذى الرأس) قد يحاول (وقد يلجأ إلى) تغطية ذلك الأذى بشيء من القماش أو ما شابه. لكن حتى لو فعل ذلك، فإنه لن يستطيع أن يمنع الآخرين من معرفة حدوث الأذى في الرأس بسبب التغطية. فسواء تمت تغطية الأذى أو لم تتم، فإن العلم به لن يكون فقط للشخص الذي أصابه ذلك الأذى من رأسه، وإنما لمن حوله. فكلُ من يقترب إلى مسافة معينة من الشخص الذي أصاب رأسه الأذى، يعلم به، وكلما اقترب أكثر، كلما اتضح له الأذى أكثر. فيزداد العلم بالأذى كلما ازداد القرب من الشخص الذي يعاني منه، ويقل العلم به كلما ابتعد عن الشخص الذي أصاب رأسه الأذى. وليس أدل على ذلك من العلم بالمحيض، الذي هو أيضا أذى:

- **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (222)**

فأكثر الناس علما بمحيض المرأة هو زوجها، لأنه – لا شك- هو الأقرب لها. فمهما حاولت المرأة التي تعاني من أذى المحيض تغطية الخبر عن الآخرين، إلا أن ذلك لابد أن ينكشف خبره على البعض ممن هم حولها، كالعائلة مثلا (عندما تتوقف المرأة المصابة بأذى المحيض عن إقامة الصلاة أو عن الصيام في وقت حدوث الأذى)، أو كالزوج الذي لا يمكن أن يخفى عليه أذى محيض زوجته لأنه مأمور أن يعتزلها في تلك الفترة الزمنية (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ). فنصل إلى النتيجة التي نظن أنها

مهمة جدا وتتمثل بافتراضنا بأن أقل عدد من البشر يمكن له أن يعرف عن الأذى هو شخص واحد (كالزوج)، ولكن يمكن أن يعرف عن الأذى أشخاص كثيرون كحاله كأذى الرأس في الحج.

نتيجة: العلم بالأذى قد يصل إلى أكثر من شخص، ولكن أقل عدد ممكن أن يعرف عن الأذى هو شخص واحد.

ثانيا، نحن نفتري الظن بأن خبر الأذى (أي العلم به) قد ينتشر بين الناس كانتشار النار في الهشيم، فقد يخبر البعض من الناس بأذى الآخرين للبعض الآخر:

- **لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (186)**

فالعلم بخبر الأذى قد يكون بالسمع (وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيرًا)، وهنا يزداد الأذى، فيصبح أذى كثيرا.

نتيجة مهمة: نحن نظن أنه كلما ازداد عدد العارفين بالأذى، كلما كثر ذلك الأذى. فلو عرف بالأذى شخص واحد لكان أذى محدودا، ولكن لو عرف به أكثر من شخص لاتسعت رقعة الأذى بازدياد عدد من يعلم به.

ثالثا، نحن نظن أن الأذى يستحيل إخفاءه كالذي قد يلحق بالناس من المطر، ولكنه يحدث أيضا فوضى عارمة، كلما ازداد عدد العالمين به:

- **وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (102)**

فلك – عزيزي القارئ- أن تتخيل طبيعة الفوضى (غير المنظمة) التي تنتج عن نزول المطر عندما تدوس أقدام الناس الأرض التي ابتلت بماء المطر (أي ما يعرف بالطين أو mud بالمفردات الأجنبية. فيصبح من الصعب السيطرة عليه، وربما من الاستحالة بمكان تنظيمه، كما في الشكل التوضيحي التالي:



Source

رابعا، ونحن نفتري الظن أيضا بأن الأذى قد يلحق بشخص واحد (كأذى الرأس أو المحيض) وقد يلحق بالمجموعة كلها، كما حصل عندما لحق الأذى ببني إسرائيل كلهم في أرض مصر:

- **قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (129)**

السؤال: ما علاقة هذا كله بإبطال الصدقات بالأذى؟

رسالة قصيرة: كم نجد – عزيزي القارئ- في حياتنا اليومية من يقوم بفعل الصدقة، ولا تراه يقوم بفعل المّن على من تصدق عليه مباشرة، ولكنه يذهب لنشر خبر صدقته هذه للآخرين. فتراه يقول لمن حوله بأنه قد تصدق على فلان بكذا وبكذا. وأقلهم من يسر إلى بعض أصدقائه أو عائلته أو ربما زوجته (التي تتولى نقل الخبر بكل براعة واحتراف في جلسات الشاي الصباحية أو جلسات القهوة المسائية مع صاحباتها وبعض أقاربها) بأنه قد تصدق على بعض الناس فيذكرهم بالاسم. ثم ما هي إلا فترة قصيرة جدا حتى تجد أن خبر تلك الصدقة قد انتشر بين الناس كانتشار النار في الهشيم. وربما أخذ كثير من الناس يتحدثون بذلك الخبر في مجالسهم، وتكثر التأويلات والتفسيرات، وربما تصدر من البعض ألفاظ غير لائقة بحق المتصدق عليهم، فتدب الفوضى في فهم الغاية والمقصد، فهذا التصرف هو – برأينا- أذى، يكثر بمقدار عدد العالمين به، وذلك لأنه يلحق الضرر بالمتصدق عليه بشخصه كما يلحق الأذى بمن حوله (كعائلته وأقربائه وأصحابه).

مثال: عندما يخرج بعض المتصدقين ممن آتاهم الله الأموال الضخمة (وما أكثرهم) لتوزيع بعض صدقاتهم على الآخرين الذين يظنون أنهم أقل حظا منهم، تراهم يجلبون معهم جيشا من الإعلاميين وقنوات التلفزة لتغطية الخبر، ونقلها للناس ربما في بث على الهواء مباشر، وأولا بأول على شبكات التواصل الاجتماعي.

السؤال: هل هذا فعل محمود؟

جواب: لعلي أكاد أجزم الظن بأن هذا مما يبطل الصدقات بالأذى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: ما ذنب البنت الصغيرة (أو الولد الصغير) التي صورتها شاشات التلفزة عندما كانت عائلتها تتلقى الصدقات العينية وغير العينية؟ هل عندما تكبر هذه الطفلة أو عندما يكبر هذا الطفل، هل ستمحي هذه الحادثة من ذهنهم؟ هل هذه الحادثة هي مثار فخر تسجل في تاريخ الطفل أو الطفلة ليحتفظ بها كجزء من سيرتهم الذاتية؟ وماذا لو أن أحد الأصحاب والمعارف قرر أن يحتفظ بتلك الصور في ذاكرة أجهزة

التسجيل المتنوعة عنده؟ وماذا لو عُرضت هذه التسجيلات على مرأى ومسامع من المتصدق عليهم بعد حين؟!

السؤال: هل حفظ هذا المتصدق (صاحب النعمة) للناس كرامتهم عندما أخذ في جيبه حفنة من النقود المتعفنة في خزائنه وألقى بها على هؤلاء "الغلابى" كما يظهر في التسجيل البطيء لتلك الحادثة على شاشات التلفزة؟ فهل جلب لهم خيرا بمقدار الضرر الذي ألحقه بهم طوال حياتهم؟ هل إذا كان أبي أو أمي من الفقراء والمساكين الذين يتلقون الصدقات، هل يجب عليّ أن أتحمل "العار" الذي جلبوه لي منذ نعومة أظفاري؟ من يدري؟!

ربما يرد البعض بالقول أن هذا لا يقع في باب العار. وربما يظن أن هذه من الأمور التي لا يجب أن تتصف بالحساسية المفرطة عند الفقراء والمساكين.

رأينا: إن كان كذلك، فهل تقبل عزيزي القارئ هذا لنفسك؟ هل تقبل أن يتم التقاط الصور (التي قد تبث على شاشات التلفزة وعلى محطات التواصل الاجتماعي) التي تصور أباك أو أمك أو أخاك أو أختك أو أنت نفسك وأيديهم ممدودة للآخرين بالصدقة؟ من يدري؟!

رأينا: إذا كنت ترضى هذا لنفسك، فأعلم (رحمك الله) أن هناك الملايين من الفقراء والمساكين الذين لا يرضون بهذا، وأعلم بأن هناك الملايين من الفقراء والمساكين الذين يأخذون الصدقات وقلوبهم منكسرة، ثم لتتأكد أن هناك الملايين من الناس الذين ما كانوا ليقبلوا بالصدقة لولا أن الحاجة فاقت التصور؟ وتأكد أن هناك الآلاف الآباء الذين ما كانوا ليمدوا أيديهم للآخرين لولا أنهم عجزوا عن إطعام أطفالهم الجياع أو عن ستر عورة بناتهم، وتأكد بأن هناك ملايين الملايين من الناس الذين يفضلون الجوع على الذل، فلا يسألون الناس إلحافا، وهم الذين قد يفضلون الموت على منّة الآخرين عليهم. فالله هو من أحسن وصفهم في قوله:

- **لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ (273)**

السؤال: لماذا؟ لماذا لا يسألون الناس إلحافا؟

جواب: لأن ما ينتج عن الصدقة التي ربما تقدم لهم هو فعلا أذى، بالضبط كالذي ينتج عن المحيض، الذي هو أيضا أذى:

- **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (222)**

السؤال: وما علاقة أذى الصدقة بأذى المحيض؟ ولم جاء وصف الحالتين بالمفردة نفسها (أَذًى)؟

خيال أغرب من الخيال نفسه: نحن نفتري أن ما يتحصل من أذى الصدقة هو مطابق تماما لما يتحصل من أذى المحيض.

السؤال: وكيف ذلك؟ ربما يريد صاحبنا أن يسأل.

جواب مفترى من عند أنفسنا: أن المحيض هو أذى لأنه مقابل للطهارة، فالمرأة التي أصابها المحيض تنقصها الطهارة، ولا تتحصل لها إلا بعد أن تتخلص منه، فما أن تتخلص المرأة من المحيض حتى تكون طاهرة، وهنا يحق لزوجها أن يقربها بعد أن يكون قد اعتزلها في فترة المحيض كاملة. دقق – عزيزي القارئ- في الآية الكريمة مرة أخرى:

- وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (222)

وقد حاولنا تسويق افترائنا سابقا بأن هذا سببه أن الدم الذي يخرج من فرج المرأة بالمحيض هو عبارة عن كمية قليلة جدا مقارنة بالدم الذي يسري في عروقها كلها. فلو حاولنا قياس كمية الدم الخارج بالمحيض من فرج المرأة مع كمية الدم الباقية في جسم المرأة كله، لوجدنا أنه لا يتجاوز كسرا بسيطا من الكمية كلها.

ولو حاولنا مقارنة ذلك بكمية المال الذي يتصدق به الغني من ماله كله، لما وجدنا أن ما يخرج منه بالصدقة قد يتجاوز الكسر البسيط من مجموع المال كله.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن ما يخرجه المتصدق من ماله (بشكل عام) قد لا يتجاوز في مقداره كمية الدم الذي يخرج بالمحيض من فرج المرأة إذا ما فكرنا بالكميات بمنظور النسبة والتناسب.

منطقنا المفترى (1): إن كمية المال الذي يخرج بالصدقة مقارنة مع كمية المال المتوافر للغني يعادل كمية الدم الذي يخرج من فرج المرأة بالمحيض مقارنة مع كمية الدم المتوافر في جسمها كله.

ولو حاولنا دراسة حالة المرأة في فترة خروج الدم بالمحيض من فرجها، لوجدنا أنها لا تكون بأحسن حالاتها النفسية، فالغم والحزن والاضطراب وعدم السكينة هي من ميزات الحالة النفسية التي تصيبها في فترة خروج المحيض من فرجها. ولو حاولنا تفقد نفسية المتصدق عندما يخرج الصدقات من ماله، لما وجدنا نفسيته (في أغلب الأحيان) بأفضل من ذلك.

ولو حاولنا فحص طبيعة ذلك الدم الذي يخرج بالمحيض لوجدنا أنه يختلف عن الدم الذي قد يخرج من جسم الإنسان بالجرح.

السؤال: لماذا يختلف دم المحيض عن الدم الذي يخرج من أي مكان آخر من جسم المرأة (أو حتى أي إنسان)؟

جواب مفترى: نحن نظن أن السبب في ذلك هو "ما يجعل المرأة تتوقف عن الصلاة والصيام في وقت المحيض". فلو حصل نزيف للمرأة من أنفها أو من يدها أو من رأسها أو من أي عضو آخر من جسمها بسبب جرح أصابها، فذلك لا يكون مانعا لها عن الصلاة أو الصيام مهما كانت كمية التي نزفت منها. لكن – بالمقابل- فإن خروج قطرات قليلة من الدم من فرجها بالمحيض هو سبب كاف أن تتوقف عن الصلاة وعن الصيام، أليس كذلك؟

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى: لأن خروج قطرات الدم القليلة من فرجها بالمحيض هو عملية تطهير لجسمها كله. ولو حاولنا تفقد الآيات الكريمة الخاصة بالصدقة لوجدنا فيها العجب من هذه الزاوية، قال تعالى:

- خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (103)

منطقنا المفترى: نحن نفتري الظن بأن إخراج الصدقات من المال كله هو مطابق تماما لخروج دم المحيض من فرج المرأة، وذلك لأن في خروج هذا وذاك طهارة لما تبقى هنا وهناك. انتهى.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نريد أن نرسم صورة بشعة للصدقة حتى لا يقربها ولا يرضى بها إنسان مسلم (مؤمن بربه أنه هو الرزاق الكريم) إلا إن فاقت قدرته تحمل حاجته الماسة. فالإنسان المسلم لا يلجأ للصدقة إلا إن سدت الطرق كلها في وجهه، وأصبح لا مناص من قبولها، كما حصل مثلا مع موسى يوم أن وجد نفسه فقيرا في أهل مدين:

- **فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24)**

لذا، نحن ننصح بأن لا يتم الاقتراب إلى الصدقة إلا في أقصى درجات الحاجة، ونتجرأ على القول بأن من يقتات على مال الصدقة هو كمن يقتات على دم المحيض.

رسالة قصيرة: لتعلم (أخي المسلم) أنك عندما ترضى أن تطعم زوجتك وأطفالك من مال الصدقة، فأنت كمن يضع الأذى (كأذى المحيض) في بطونهم، فلا تلجأ لذلك إلا عندما تكون الحاجة قد وصلت بك إلى درجة الهلاك، كمن يضطر أن يأكل لحم الميتة إن هو أشرف على الهلاك. فنحن ننصح أنفسنا وإياك بأن لا تتخم بطون أبنائك بهذا الأذى.

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: مادام أن خروج الدم من فرج المرأة هو طهارة لها، فإن عدم خروجه يعني بقاء "الرجس" فيها، ومادام أن خروج الصدقة من مال المؤمن هو طهارة له، فإن عدم إخراجه يعني بقاء الرجس فيه. والآن قارن – عزيزي القارئ- الحالتين كما تصورهما الآيات الكريمة أحسن تصوير:

- **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (222)**
- **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (103)**

السؤال: كيف تحصل الطهارة بمجرد خروج جزء يسير جدا (كدم المحيض والصدقة) من الكمية الكبيرة كلها؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: مادام أننا نتحدث عن حصول الطهارة، فهي إذن فعل يحدث للتخلص من رجس الشيطان. انتهى.

منطقنا المفترى: يتمكن الشيطان من الدخول في أجسامنا (كرجال ونساء) كما أقسم على ذلك قديما:

- **لَّعَنَهُ اللّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (118) وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا (119) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا (120)**

وقد بدأ هذا من اللحظة التي بدت فيها عوراتنا يوم أن نزع الشيطان عن آدم وزوجه لباسهما، وأصبحا مشاهدين بالرؤية له من حيث لا نراه نحن:

- **يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ (27)**

ولما كان آدم هو من عصى ربه فغوى:

- فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (121)

ولما كان آدم هو من اضطر أن يتوب إلى ربه:

- **ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (122) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123)**

فهبط من الجنة وزوجه على تلك الحالة، فكان عليه أن يقوم بأفعال محددة تذهب عنهما رجس الشيطان:

- **وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ (100)**

ولكن بالمقابل، لما لم تكون زوج آدم قد عصت ربها، ولما لم تكن قد غوت كزوجها، ولما لم تكن بحاجة أن تتوب إلى ربها كما فعل زوجها، ولما كان جل ما فعلته (نحن نفتري الظن) هو نزولا عند رغبة زوجها (وليس معصية لربها)، جاء الكرم الإلهي عليها بالتحديد بأن أمدها بالطريقة الطبيعية البيولوجية (الجسدية) للتخلص من رجس الشيطان على الدوام. لذا نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الدورة الشهرية التي تصيب المرأة في سن المحيض هي عبارة عن هدية إلهية للنساء جميعا (من دون الذكور جميعا)، وذلك لكي تتم لها الطهارة بشكل دوري منتظم من ذلك الرجس.

منطقنا المفترى: نحن نفتري الظن بأن الرجال لا يستطيعون التخلص من رجس الشيطان الذي يصيبهم بطريقة بيولوجية (كالدورة التي تثيب النساء)، لذا وجب عليهم القيام بأفعال محددة كفيلة بأن تخلص الرجل من هذا الرجس.

السؤال: لماذا تتوقف المرأة عن الصلاة في وقت المحيض؟ ولماذا تتوقف عن الصيام في لحظة حدوث المحيض؟

رأينا المفترى الخطير جدا جدا: نحن نظن أن السبب في ذلك هو حصول الغاية المرجوة من الصلاة والصيام: إنها الطهارة. لذا نحن نفتري القول بأنه وجب علينا جميعا أن ننظر إلى المرأة التي أصابها المحيض وكأنها في صلاة دائمة وفي صيام دائم، لأنها في وقت طهارة من رجس الشيطان، لذا وجب اعتزالها وعدم الاقتراب منها، بالضبط كحالة الرجل الواقف للصلاة في محرابه، فهل يسمح الرجل الواقف في صلاته لأحد أن يقترب منه مادام في صلاته هناك؟ وما أن يفرغ من صلاته حتى يقترب من الآخرين ويسمح للآخرين بالاقتراب منه، فذلك هو الهدف – برأينا- من اعتزال النساء في المحيض:

- **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (222)**

نتيجة مفتراة (1): نحن نفتري الظن بأن في خروج دم المحيض من فرج المرأة هو طهارة لها.
نتيجة مفتراة (2): نحن نفتري الظن بأن في إخراج الصدقة من مال المؤمن هو طهارة له.
نتيجة مفتراة (3): نحن نظن أن عملية خروج وإخراج هذا الجزء اليسير من الكتلة الكبيرة كلها هي عبارة عن عملية تطهير للكتلة كلها. فخروج دم المحيض يطهر جسم المرأة كلها، وإخراج الصدقة من مال المؤمن يطهّر المال كله.
نتيجة مفتراة (4): نحن نفتري الظن بأن عملية التطهير هذه هي عبارة عن عملية تنظيف كامل من رجس الشيطان الذي دخل في الجسم وفي المال.
نتيجة مفتراة (5): نحن نظن أنه لو لم تتم عمليات التطهير هذا للجسم والمال، لأفسدته كله. فقليل من الخل قد يفسد العسل كله.

رسالة قصيرة: هل تقبل عزيزي المسلم أن تقتات على الأذى؟ أليس من أهم صفات من كان من المؤمنين هي العزة؟

- **وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (139)**

رسالة قصيرة: إذا أردت - عزيزي المؤمن- أن تكون من المؤمنين الذين لا يهنوا ولا يحزنوا، فحاول (ما استطعت إلى ذلك سبيلا) أن لا تملأ بطنك ولا بطون أهل بيتك بالصدقة لأنها تجر معها الأذى.

دروس من الواقع

لو نظرت حولك عزيزي القارئ وتفقدت طبائع الناس من حولك، لربما حار الظن عندك لم يكون الأشخاص الذين تربوا في البيئات الفقيرة في اغلب الأحيان - يتصفون بسوء الطبع، والغيرة (وربما الكره) لمن هم أكثر حظا منهم فيما يعرف بين أهل الاختصاص في العلوم الاجتماعية "بالحقد الطبقي". ولكن - بالمقابل – ألا تجد أن الذين نشئوا وترعرعوا في البيئات ذات الحظ العظيم، ألا ترى أنهم (في أغلب الأحيان) أكثر سلامة في الطبع والسلوكيات؟ من يدري؟!

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى: بغض النظر عن الأسباب الأخرى التي قد تساهم في هذا الواقع، وبغض النظر عن الاستثناءات التي قد تحصل هنا وهناك، فإن واحدا من أهم الأسباب التي نظن أنها قد ساهمت في هذا "التباين الطبقي" هو أذى الصدقة. فالأشخاص الذين نشئوا وبطونهم مليئة بأذى الصدقة، قد أصابهم (نحن نفتري القول) رجس كبير من الشيطان، فأصبح وسواسهم الخناس أكبر في صدورهم، فانعكس ذلك في طبائعهم وفي سلوكياتهم الاجتماعية.

وقد لا ينطبق هذا فقط على الأفراد وإنما ينطبق كذلك (نحن نفتري الظن) على المجتمعات والحكومات. ألا ترى – عزيزي القارئ- بأن شعوب الحكومات في دول العالم الأول الغنية تمتع بصحة وراحة نفسية تكاد تكون شبه معدومة في مجتمعات دول العالم الفقير البائس؟

السؤال: لماذا تتمتع تلك الشعوب براحة نفسية أفضل من شعوب دول العلم الفقير؟

جواب مفترى: لعلي أكاد أجزم الظن أن واحدا من أهم الأسباب العاملة المؤثرة في هذا المجال يعود إلى أن تلك الشعوب الغنية لا تقتات على الصدقة التي تعيش عليها معظم مجتمعات الدول الفقيرة.

أنا لا أنكر أن كثيرا من دول العالم المتقدم قد سرقت ونهبت خيرات الدول الفقيرة، وأن جزءا كبيرا من الثروات المتحصلة في خزائنها هي نتاج عمليات السرقة والسطو على مقدرات الأمم الأخرى، إلا أن ذلك قد أعطاها الشعور بالعزة، وذلك لأنها لا تقتات على أموال الصدقة وإن هي أكلت من أموال السرقة.

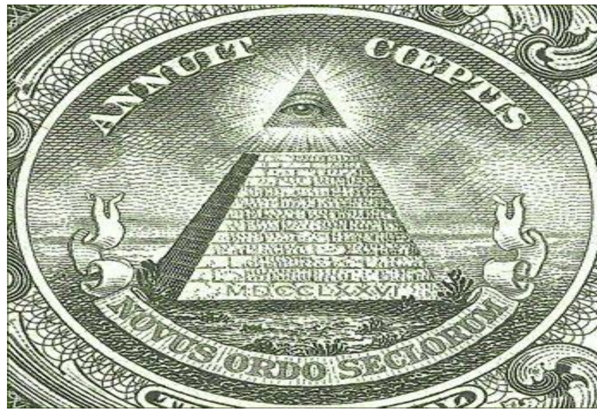
وأنا لا أنكر كذلك أن كثيرا من الأموال في ميزانيات الدول الغنية هي حق لشعوب العالم الفقير الذين نُهبت ثرواتهم جهارا نهارا، إلا أن ذلك قد أعطاها الشعور بالذلة، لأنها لم تطالب بأموالها المنهوبة كحق مكتسب لها لا يجوز التفريط فيه، بل رضيت بما تقدمه لها تلك الشعوب السارقة كصدقة، فأورث من أخذ الصدقة منهم (وهم الشعوب الفقيرة) الشعور بالمهانة والذلة.

مثال للتوضيح فقط: ما الذي كنت سأفعله لو أني كنت رئيس جمهورية مصر العربية مثلا؟

جواب: بعيدا أن المطالبة بالثروات التي نهبتها الدول الاستعمارية من مصر الحضارة التاريخ، وبعيدا عن المطالبة بالآثار العظيمة التي تدر المليارات في خزائن فرنسا وألمانيا وبريطانيا وإيطاليا والولايات المتحدة الأمريكية التي لو أنها عادت إلى مصر كفت الشعب المصري كله، فإن أول فعل سأقوم به (لو كنت رئيسا لجمهورية مصر العربية) هو تحريك دعوى قضائية ضد حكومة الولايات المتحدة الأمريكية التي لازالت تسرق مصر يوميا جهارا نهارا في أعظم سرقة عرفها التاريخ البشري على الإطلاق؟

السؤال: وما هي تلك السرقة؟

جواب مفترى: إنه ما هو مرسوم على الدولار الأمريكي، إنها تلك الصورة للهرم الأعظم بالعين التي تحرسه:



والتي تظهر على الدولار الأمريكي:



Source

السؤال: لماذا تضع الولايات المتحدة هذا الرمز (وهو رمز مصر الخالد) على عملتها الورقية؟ هل يحق لدولة على وجه الأرض أن تستخدم آثار بلاد أخرى كعلامة مميزة لها؟ ماذا لو قامت "إسرائيل" مثلا بوضع صورة البتراء (الأردنية) على عملتها؟ هل يقبل الشعب والحكومة الأردنية بذلك؟ وهل أقبل أنا بذلك؟!

السؤال: وماذا لو فعلت؟ وما الذي يضيرنا أن تضع حكومة الولايات المتحدة صورة الهرم الأكبر (رمز مصر الخالد) على عملتها الورقية؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: لعلي لا أتردد أن أقول بأن قوة الدولار كعملة عالمية تكمن بوجود هذا الرمز على صورتها، ولو تم إزاحة هذا الهرم عن العملة الورقية الأمريكية، لما عاد الدولار (نحن نتجرأ على الافتراء) القوة الاقتصادية الأولى المهيمنة على العالم.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: هذا ما سنحاول بحول الله وتوفيق منه تبيانه لاحقا عندما نعاود الحديث عن قصة فرعون، ونسأل الله وحده أن يعلمنا ما لم نكن نعلم وأن يهدينا لأقرب من هذا رشدا وأن يزدنا علما، إنه هو العليم الحكيم – آمين.

(دعاء: اللهم أسألك وحدك أن تهديني لما اختلف فيه الناس من الحق، وأنت خير حافظا وأنت أرحم الراحمين – آمين)

عودة على بدء

دعنا نعود إلى صلب موضوع الصدقة بالرسالة القصيرة التالية الموجهة أولا إلى الأفراد: لعلي لا أتردد (أنا شخصيا) إن دعت الحاجة الماسة لذلك (والتي أسأل الله وحده أن لا أضطر إليها ولا أن يضطر إليها أحد من أهلي) أن أدخل في بطون أهل بيتي من مال السرقة على أن أدخل فيها من مال الصدقة.

وهنا قد يقول قائل بأني أروج للجوء إلى السرقة أكثر من ترويجي لتقبل الصدقة. فأرد بالقول كلا وألف كلا، ولكني أريد أن أوضح بأن مال السرقة لا ينعكس تأثيره إلا على السارق نفسه، فهو من يتحمل تبعاته، ولا دخل لأهل بيته (الذين قد يأكلون منه) بذلك، وذلك لأن مال السرقة (نحن نفتري الظن) لا يحدث في نفس من يأكل منه الأذى. لكن – بالمقابل- فإنه وإن لم يكن للمال المأخوذ صدقة تبعات على الشخص نفسه، فإن تبعاته (التي قد تكون كارثية جراء الأذى الذي يحدثه) تلحق بكل من يأكل منه. فإن أنت أردت – عزيزي المؤمن- أن لا تفسد طبائع أبنائك، وإن أنت أردت أن لا يدخل الرجس فيهم، فلا تدخل الصدقة في بطونهم. ولا تنشئهم على حب مال الصدقة. بل يجب عليك أن تعلّم أبنائك بأن لا يأكلوا من "قذارة" أموال الأغنياء التي يطهرون أموالهم بها. فالغني يريد أن يطهر ماله بالصدقة، فلا تجعل بطون أهل بيتك مكبات لتلك النفايات.

دروس من التاريخ

وردنا في الأثر (الذي لا أثق بتفاصيل نقله كثيرا) أن الرسول الكريم كان يوزع الصدقات بطريقة لم تكن لترضي الكثيرين من حوله حتى حصل اللمز به شخصيا في توزيعها، كما نفهم ذلك من قوله تعالى:

- **وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (58)**

السؤال: لماذا وزّع النبي الصدقات بطريقة جلبت له اللمز؟ لماذا لم يعط هؤلاء الذين لمزوه منهم ليكف ألسنتهم عنه؟ وهل وضّح النبي لهم سبب توزيعه للصدقات بهذه الطريقة التي لم ترضيهم في بادئ الأمر؟ وكيف وضّح لهم ذلك؟ هل رضوا في نهاية المطاف بفعل الرسول في توزيع الصدقات؟ ولماذا رضوا بذلك في نهاية المطاف؟

جواب مفترى: نحن نظن أن كل الجلبة التي حصلت حول كيفية توزيع النبي للصدقات التي لم ترض بعض الناس من حوله كان سببها طريقة التوزيع. فنحن نفتري القول من عند أنفسنا أن النبي الكريم كان يوزع الصدقات بالعدل ولم يكن يوزعها بالقسط. انتهى.

السؤال: ما معنى ذلك؟

لمّا كان النبي الكريم وحيا يوحى، فهو يعلم بالضبط ما يفعل، فلا يركن إلى أحد ما دام أنه يتبع التشريع الإلهي الذي أوحي إليه. لذا كان عليه أن يوزع الصدقات بالطريقة الصحيحة التي يرضاها الله حتى وإن لم يكن ذلك ليرضي بعض الناس من حوله.

السؤال: كيف يجب أن توزع الصدقات؟

جواب مفترى: كان مرشد محمد في توزيع الصدقات هو قوله تعالى:

- **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (60)**

نتيجة مفتراة: لمّا كانت هذه هي الفئات المستحقة للصدقات، فإن محمدا ما كان ليعطي منها من لا يقع ضمن هذه الفئات.

السؤال: لماذا إذن حصل اللمز بمحمد مادام أن الفئات المستهدفة بالصدقة محددة؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: فنحن نتخيل بأن اللمز لم يحصل بسبب التوزيع على هذه الفئات، وإنما حصل بسبب الكمّية التي كان محمد يعطيها لكل شخص منهم، فهو (نحن لا زلنا نتخيل) لم يكن يعطي الجميع المقدار نفسه، وذلك لأن محمدا كان يعطي كل شخص حسب حاجته (أي بالعدل وليس بالقسط). ولكن لما رأى بعض المسلمين من حوله أن بعضهم قد أخذ أكثر من البعض الآخر حصل اللمز في ذلك. فارتفعت بعض الأصوات التي تظن أن محمدا كان يعطي من يريد كما يشاء، فظنوا أن من أعطاهم محمد أكثر هم الأقرب إليه، وبكأن لسان حالهم يقول أن محمدا يقرب إليه البعض بزيادة كمية الصدقة التي يعطيها إياه. فكان ظنهم أن من أعطاهم محمد أكثر، هم أحب إليه ممن أعطاهم أقل.

السؤال: كيف أسكت محمد تلك الأصوات؟

تخيلات مفتراة: نحن نتخيل أن ما قام به محمد بعد أن حصل اللمز به منهم هو أنه قد بيّن للجميع بأن ما فعله في أمر توزيع الصدقات هو تماما عكس ما كانوا يظنون. فمحمد لم يكن ليمنع مال الصدقة (نحن نظن) إلا عن من أحب فعلا. فهو لا يرضى بأن يملأ بطن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعائشة بمال الصدقة. فلا شك أن هؤلاء هم أكثر الناس الذين منع عنهم محمد مال الصدقة.

السؤال: كيف بيّن لهم محمد ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن محمدا لم يكن يحتاج حينئذ أكثر من تلاوة الآيتين التاليتين على مسامعهم ليذكرهم بحقيقة الصدقة وماهية المال المتحصل منها:

- **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (103)**
- **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (222)**

فلقد أفهمهم محمد (نحن لازلنا نتخيل) أن مال الصدقة ليس أكثر من طهارة للمال كله، بالضبط كما أن دم المحيض ليس أكثر من طهارة لدم المرأة كله. فمن أكل منهم من مال الصدقة شيئا، فهو ك "من اقتات على بعض دم المحيض". ولا شكّ أن محمدا لم يكن ليرضى أن يملأ بطون أصحابه المقربين إليه بذلك الأذى. ولا شك أن أكثر من منعهم محمد عن أكل مال الصدقة هم أهل بيته.

السؤال: هل رضي المسلمون بتوزيع محمد للصدقات في نهاية المطاف بعد أن كانوا قد لمزوا به فيها في بداية الأمر؟

جواب: بكل تأكيد، لقد خرجوا من عنده وأعينهم تفيض دمعا. وذلك لأنهم (نحن مقتنعين) من الذين كانت قلوبهم تخشع لذكر الله:

- **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (16)**

(دعاء: اللهم أسألك وحدك أن أكون من الذين تخشع قلوبهم لذكر وما نزل من الحق، وأعوذ بك أن أكون كالذين أوتوا الكتاب فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم، إنك أنت السميع البصير – آمين)

السؤال: لماذا جاءنا في الأثر أن النبي الكريم لم يكن يأكل بنفسه مما يقدّم له كصدقة ولكنه كان يأكل مما يقدم له كهدية؟

رأينا المفترى: لمّا كان محمد هو حقا من المؤمنين، ولما كان هو أول المسلمين، لم يكن ليقبل أن يدخل في جوفه شيئا من الأذى.

السؤال: لماذا ننعت الرسول دائما بصفة الكريم (فنقول الرسول الكريم)؟

جواب مفترى: نحن نظن أن في الكرم علواء، ومادام أن محمدا لا يقبل أن تكون يد أحد (غير يد الله) فوق يده، لذا كان هو أكرم المؤمنين، فهو كان يترفّع عن أخذ ما يقدّمه له الناس كصدقة، ولكنه كان يعطي كل ما يملك لهم. فكان حقا كريما بكل ما في الكلمة من معنى. فالكرم لا يتحدد بالكمية، ولكنه يتحدد بالنوعية. فمن كان يملك دينارا واحدا وتصدق به (وإن كان به خصاصة) هو لا شك أكثر كرما ممن دفع الملايين ولازالت خزائنه ملئ بالمليارات.

السؤال: ما الفرق بين الصدقة والهدية؟

جواب مفترى: لو دققنا جيدا في فعلي تقديم الصدقة وتقديم الهدايا، لوجدنا أنهما في نهاية المطاف الفعل ذاته. فهو تقديم شيء من مالك لغيرك، أليس كذلك؟

لكن يبرز التساؤل التالي على الفور: لم تطمئن نفس الإنسان السويّ للهدية أكثر من اطمئنانها للصدقة؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الهدية لا يمكن أن تبطل بالمنّ والأذى، فمن قدم لك الهدية لا يستطيع أن يمنّ عليك، ولا يستطيع أن يجلب لك الأذى من جراء ذلك. وذلك لأنه لم يعطيك من مال الصدقة الذي هو في نهاية المطاف تطهير لماله كله من رجس الشيطان. ولكنه لا شك قد لأعطاك من المال "النظيف" المطهر أصلا. فلا يكون لذلك عواقب "سيئة" على من دخل ذلك المال في بطنه. فحتى الملوك (وهم لا شك لا ينقصهم المال) يرضون بقبول الهداية (لا بل ويفرحون بها)، أليس كذلك؟ لكن هل يقبلون بالصدقة؟!

السؤال: ما هي أفضل طريقة لتوزيع الصدقات؟ وما هي أفضل طريقة لقبول الصدقات؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الآية الكريمة التالية تبيّن لنا الطريقة المثلى في توزيع الصدقات، قال تعالى:

- **إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (271)**

السؤال: كيف يمكن أن تتم عملية إخفاء الصدقات؟ ألا يحدث العلم بالصدقة بمجرد أن يقوم الإنسان بتوزيعها على الآخرين؟ هل يجب عليّ (كمتصدق) أن أتخفى في منتصف الليل لأقدم الصدقة للآخرين كما صوّر لنا ذلك الفكر الشعبي السائد؟ وماذا لو تم ضبطي (في منتصف الليل) أمام بيتك قبل أن أقوم بترك الصدقة على باب البيت وتولية الدبر؟ هل كنت ستقتنع أن وجودي أمام بيتك في تلك اللحظة هو من باب توزيع الصدقة؟ هل ستحسن الظن بي؟! هل ما سمعناه من شيوخ المنابر حول هذه القصص "المكذوبة" على بعض الصالحين من عباد الله هي فعلا الرواية الصحيحة التي يجب أن يتبعها الناس لإخفاء صدقاتهم؟ وماذا لو كان عندي من الأموال الملايين التي يجب عليّ أن أوزعها، هل وجب علي أن لا أخلد إلى النوم لأبقى متسترا على شخصيتي (مغطيا رأسي) باحثا في أروقة المدينة (في ظلمة الليل) عن البيوت التي تستحق أن تقدم لهم الصدقات؟

رأينا المفترى: كلا وألف كلا. تلك ليست – برأينا- الطريقة المثلى لإخفاء الصدقات. وذلك لأنه بمجرد أن تذهب بنفسك إلى بيت شخص لتقدم له الصدقة، فإن ذلك دليلا كافيا على إبداء الصدقة، فصدقتك قد بدت، ولا يمكن أن تقع ضمن إطار الخفاء.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الصدقة قد أصبحت بادية لأنك (أنت المتصدق أصبحت) تعلم من الذي أخذ منك الصدقة، فيمكن أن يقع منك المن لاحقا، فحتى لو لم يعلم بك الشخص الذي تصدقت عليه، فقد علمت أنت به. فأصبحت المعرفة على الأقل من طرف واحد.

السؤال: وكيف تخفى الصدقة؟ متى يمكن أن تصبح الصدقة خافية؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الصدقة لا يمكن أن تكون خافية إلا إذا لم يحصل معرفة أي طرف بالطرف الآخر، فلا المتصدق يعلم من المتصدق عليه، ولا المتصدق عليه يعلم من هو المتصدق.

السؤال: ما فائدة ذلك؟ ما فائدة أن لا يعرف أي طرف بالطرف الآخر؟

رأينا المفترى: نحن نظن أنه في هذه الحالة فقط يستحيل أن تبطل الصدقة بالمنّ والأذى، لأن المتصدق لن يكون عارفا بمن تصدق عليه فلن يمن عليه شخصيا، ولأن المتصدق عليه لن يكون عارفا بمصدر المال الذي جاءه بالصدقة، فلن يحصل له الأذى.

رأينا المفترى: وكيف تكون آلية التوزيع إذن؟

رأينا: نحن نظن أن آلية التوزيع (إن أردتْ أن تخفي صدقتك) يجب أن تكون بالتوكيل، أي أن تدفع المال إلى جهة موثوقة تقوم هي بتوزيعها نيابة عنك. ولعلي أكاد أجزم الظن بأن الجمعيات والمؤسسات الخيرية التي يعرف القائمون عليها أحوال الناس في مناطق عملهم هي الأقدر على فعل ذلك. فإن أنت (كغني) دفعت أموالك لهذه الجمعيات للقيام بعمليات التوزيع نيابة عنك (ويكون لهم نصيب منها لأنهم هم العاملون عليها)، فإنك تظفر بأفضلية إخفاء الصدقة التي حثّ الله عباده المؤمنين عليها:

- **إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (271)**

السؤال: لماذا جاء الحث من النبي أن يأخذ هو الصدقات بنفسه؟

- **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (103)**

رأينا: لأن المتصدقين كانوا يبحثون عن الخيرية في إخفاء الصدقات، فقاموا بدفع صدقاتهم للنبي، ليقوم هو (كأفضل شخص موثوق به حينئذ) بتوزيعها في مصارفها الحقيقية:

- **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (60)**

ومن هنا جاء اللمز بشخص النبي نفسه في توزيعها كما أسلفنا:

- **وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (58)**

باب إيتاء الزكاة

إن صحّ منطقنا المفترى من عند أنفسنا هذا عن الصدقات، فإننا نتجرأ على طرح التساؤلات التالية عن إيتاء الزكاة، نذكر منها:

⇐ هل نجد في النص القرآني دليلا يثبت أن يأخذ النبي الزكاة بنفسه كما جاء بالنسبة للصدقات؟
⇐ هل نجد دليلا في كتاب الله على إمكانية إبداء الزكاة أو إخفائها كما جاء بالنسبة للصدقات؟
⇐ هل نجد في النص القرآني دليلا على إمكانية إبطال الزكاة بالمنّ والأذى كما جاء بالنسبة للصدقات؟
⇐ هل نجد في كتاب الله دليلا على مصارف الزكاة كما جاء بالنسبة للصدقات (لتكون للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وابن السبيل)؟
⇐ هل نجد دليلا في كتاب الله أن الزكاة يمكن أن تكون بناء على جهد الإنسان نفسه كما جاء بالنسبة للصدقات؟
⇐ هل نجد دليلا في كتاب الله أن يقوم الإنسان بتوزيع الزكاة بنفسه كما جاء بالنسبة للصدقات؟
⇐ هل نجد دليلا في كتاب الله على أن الزكاة يمكن أن توزع بتفاوت حتى يحصل اللمز فيها كما جاء بالنسبة للصدقات؟
⇐ الخ.

أما بعد،

دعنا نبدأ النقاش هنا بالافتراء الخطير التالي: لا يمكن أن يبطل فعل إيتاء الزكاة بالمن والأذى.

السؤال: لماذا؟ لماذا لا يمكن أن تبطل الزكاة بالمن والأذى بينما يمكن أن تبطل الصدقات بالمن والأذى؟

رأينا المفترى: نحن ننفي احتمالية أن تبطل الزكاة بالمن والأذى لأنك لا تقدمها لأشخاص محددين بذاتهم، فلا تستطيع إذن أن تمنّ على أحد من جراء إيتاء الزكاة، ولا تستطيع أن تتسبب في وقوع الأذى على أحد من جراء إيتاء الزكاة المفروضة عليك.

السؤال: لماذا؟

جواب: لأن إيتاء الزكاة لا تستهدف فئات محددة، كأصحاب الحاجة الملحّة التي يتم تقديم الصدقات لهم:

- **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (60)**

السؤال: لماذا؟

رأينا: لأن إيتاء الزكاة فعل إلزامي على عكس تقديم الصدقات التي هي غير إلزامية، فأنت تدفع الزكاة شئت أم أبيت ولكن دفعك للصدقات يقع في ضمن الأفعال التطوعية:

- **الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (79)**

السؤال: لماذا؟

جواب: لأن الفئات المستهدفة من دفع الزكاة هي المجتمع كله، السائل منهم والمحروم:

- **وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (19)**

نتيجة مفتراة: لذا نحن نفتري الظن بأنه يجب مراعاة القسط في توزيع الأموال المتحصلة من الزكاة ولا حاجة أن يراعى في توزيعها العدل.

السؤال: لماذا؟

جواب: لأن المستفيدين من أموال الزكاة هم أفراد المجتمع كلهم، الغني منهم والفقير، لذا يستحيل (نحن نرى) أن يحدث في توزيع الزكاة اللمز كما قد يحصل في حالة توزيع الصدقات:

- **وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (58)**

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى: لأن العلانية (نحن نفتري الظن) واجبة في إيتاء الزكاة، فيستحيل أن تخفى كما قد يحصل عند توزيع الصدقات:

- **إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (271)**

السؤال: لماذا؟ وكيف يكون إيتاء الزكاة علانية؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: لأن أموال الزكاة تدفع مباشرة لبيت مال المسلمين. فهي بمثابة "الضريبة" التي تستوجب في مال الأغنياء من أجل خدمة المجتمع كله، السائل منهم والمحروم.

رأينا المفترى: لمّا كان تصريف "إيتاء الزكاة" على الجميع، فإنها تراعي القسط في التوزيع وليس العدل، فالجميع يستفيد من خدمات الدولة العامة التي ينفق عليها من أموال الزكاة المتوافرة في بيت مال المسلمين بنفس الدرجة، فلا تفاوت في الاستفادة من الخدمات العامة.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا: لما كانت أموال الزكاة هي الممولة لخدمات الدولة العامة التي يستفيد منها الجميع بنفس الطريقة، فليس هناك في الإسلام إذا – نحن نظن- مريض يدخل المستشفى بدرجة خاصة (وكأنه في فندق سبعة نجوم) وآخر يدخل المستشفى بدرجة عامة (وكأنه في ورشة حدادة).

ولا يجوز – نحن نرى- أن يتعلم ابنك في مدرسة خاصة (ذات الرسوم الخيالية لتوافر الخدمات والكفاءات المميزة لها) بينما يقبع ابني في غرفة صفية متآكلة، صفوفها مكتظة، وكفاءاتها التدريسية متدني، ولا يطاق لها حر في الصيف ولا برد في الشتاء، وربما لا يصلح الكثير منها في بعض الأحيان كحظائر للأنعام.

ولا يجب أن تنعم أنت بالشوارع العامة ذات المسارب العريضة والاتجاهات المحددة والشواخص المرورية المنظمة لحركة السير، مادام أنك تسكن في جوار عِلية القوم، بينما أكافح أنا من أجل دخلة صغيرة ربما يمكن للدواب فقط أن تسلكها بصعوبة ولا يمكن للبشر أن تسلكها إلا بشق الأنفس.

ونحن نود أن ينظر المجادل في التفاوت الطبقي الذي يكاد يكون في أوضح صوره في بلد الإسلام فقط. فلعل رحلة قصيرة لا تتجاوز النصف ساعة في أحياء عمان (عاصمة أرض الحشد والرباط) ستبين لك كيف يعيش الناس في أحياء عِلية القوم وكيف يقبع السواد الأعظم في باقي مناطق العاصمة العزيزة. والصورة لا تختلف كثيرا في الجزائر والرباط وتونس، وقد تكون أكثر سواء في القاهرة والخرطوم ونواكشوط، أما طرابلس الغرب ودمشق وبغداد فحدث ولا حرج.

السؤال: هل ترى أنه لا يجوز الخصخصة في التعليم والصحة والأشغال العامة؟

جواب مفترى: نعم، يكاد الظن عندي أن يكون أميل عندي إلى أن هذه الخصخصة قد تصل إلى درجة التحريم، فلا يجوز أن تتم خصخصة الصحة والتعليم والأشغال العامة على وجه التحديد.

السؤال: لماذا؟

رأينا: إن من حق المسلم على الدولة الإسلامية (التي يتكدس في بيت مالها أموال الزكاة التي دفعها أبناء المسلمين أنفسهم) أن توفر له الخدمات أين ما سكن في تخوم الدولة الإسلامية كلها. فلا يجب أن تكون شوارع العاصمة أفضل من شوارع المدن الأخرى، ولا يجب أن تكون المدارس في ألحياء الراقية أفضل وأكثر كفاءة من المدارس في أي مكان آخر. ولا يجب أن تجهز مستشفيات بتجهيزات أفضل من مستشفيات أخرى لا لشيء وإنما لأن زبائنها من فئة أو طبقة اجتماعية محددة.

السؤال: لماذا؟ ألا يحق لي كغني أن أوفر لأبني تعليم أفضل من غيره؟ ألا يحق لي أن أتمتع بخدمة أفضل من الخدمات التي تقدم للآخرين مادام أني استطيع الإنفاق عليها؟

جواب: نعم تستطيع ذلك في كل ما لا يعتبر من الأساسيات الضرورية الواجب توفيرها للجميع. وهذه لا تشمل التعليم والصحة والأشغال العامة. فأنت تستطيع أن تشتري لنفسك طائرة بدل أن تركب السيارة، وأنت تستطيع أن تبني لنفسك قصرا بدلا من البيت العادي. لكن ليس لابنك أن يتلقى خدمة تعليمية في الصف

الأول الابتدائي أفضل من الخدمة التي تقدم لغيره. وليس لزوجتك الحق في أن تدخل مستشفى الولادة ذات السبعة نجوم بينما تضع النساء الأخريات أولادهن على أدراج المستشفيات وممراتها؟

السؤال: لماذا؟ ما الفائدة من ذلك؟

رأينا: نحن نظن بأنه لو عاش الغني ولو عاش صاحب السياسي "صاحب القرار" الأجواء نفسها التي يعيشها غيره، لكان ذلك مدعاة أن يحل مشاكل الناس لأنها ستصيبه. أما لما وضع الغني وصاحب القرار السياسي (وهم اللذين يشكلون العصابة الأكبر في المجتمع) في مجتمع عاجي، لم يكن ليهمهم كثيرا ما يعانيه الآخرون لأنهم لم يمروا بالتجربة نفسها في يوم من الأيام. فلو كان صاحب القرار السياسي مجبرا أن يتعلم أولاده في المدارس التي يتعلم بها أبناء الشعب كلهم، لأصلحت المدارس وزادت كفاءتها في فترة قياسية، ولو أدخلت زوجته أو أحد من أفراد أسرته (أو هو نفسه) في المستشفى الذي يتلقى غيره العلاج فيه، لأصلحت المستشفيات فورا. ولو أضطر أن يسلك بسيارته نفس الشارع الذي تسير عليه سيارات الآخرين، لأصلحت الخدمات العامة بين ليلة وضحاها.

تلخيص ما سبق: الصدقات والزكاة

نتيجة مفتراة: لا شك عندنا أن الهدف من إيتاء الزكاة هو تقديمها لبيت مال المسلمين، حتى تستطيع الدولة أن تقدم للناس جميعا (على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية) الخدمات الأساسية في الصحة والتعليم والأشغال العامة، بينما يأتي فعل تقديم الصدقات من باب التكافل الاجتماعي في المجتمع، وذلك لأن الناس بطبيعة تجاورهم يعرفون حاجات بعضهم البعض، لذا، في حين أن إيتاء الزكاة يأتي في باب سد حاجات الناس العامة، فإن فعل تقديم الصدقات يقع في باب سد حاجات الناس الخاصة. ومن هنا (نحن نفتري القول من عند أنفسنا) جاء التوجيه الإلهي بالحث على الأمر بالصدقة:

- **لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (114)**

الدليل

دروس من التاريخ: قصة حرب الردة (أبو بكر يقاتلهم على عدم دفعهم الزكاة).

لعل واحدة من الذكريات التي لازالت راسخة في ذهني منذ أيام المدرسة هي قصة حرب الردة التي حصلت بعد وفاة النبي مباشرة. فمما لازلت أذكره من كلام معلم الدين حينئذ أن أبا بكر (خليفة المسلمين) قد شن حربا لا هوادة فيها على المرتدين لأنهم رفضوا دفع الزكاة، أليس كذلك؟

السؤال: إذا كان ذلك صحيحا – قلت في نفسي حينئذ ولم أستطع أن أفصح عنه لمعلمي ربما لضعف قدراتي التعبيرية حينئذ أو لشدة معلمي الذي كان لن يتردد أن يعاقبني لو تبين له أني مخطئ) فلم يقاتلهم أبو بكر من أجل الزكاة؟ ألم يكن بمقدورهم أن يقولوا له بأنهم لا يدفعون الزكاة له لأنهم يخرجونها بأنفسهم؟ ألم يكن بمقدورهم أن يقولوا له بأنهم ينشدون الإخفاء في تقديمها؟ أليست إخفاء الصدقة خير من إظهارها (كما تعلمنا في الدرس الذي سبق)؟

السؤال: لم إذن يدفع أبو بكر بجيش المسلمين في حرب محركها هو عدم دفع الزكاة؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لو كان دفع الزكاة (أي إيتاء الزكاة) يمكن أن يتم بالإخفاء، لما حق ؓ لأبي بكر أن يقاتل من قاتلهم من أجل رفضهم دفع الزكاة له. انتهى.

الدليل

لو تفقدنا ما يخص الزكاة على وجه التحديد، لوجدناه مرتبطا على الدوام بفعل إقامة الصلاة، قال تعالى:

- وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (43)
- وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (83)
- وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110)
- لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (177)
- إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (277)
- أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (77)
- لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ۚ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا (162)
- إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (55)

السؤال: لماذا؟ أي لماذا هذا التجاور الذي يكاد يكون شبه دائم بين إقامة الصلاة من جهة وإيتاء الزكاة من جهة أخرى؟

رأينا المفترى: لما كان من الاستحالة بمكان (نحن نرى) إخفاء إقامة الصلاة أصبح لزاما (نحن نفتري القول) إبداء الزكاة كذلك، فكما نعلم أن فلانا يقيم الصلاة، فيجب على المجتمع أن يكون على دراية أيضا بأن فلانا يؤتي الزكاة كذلك.

السؤال: وكيف يمكن تنفيذ "إيتاء الزكاة" على أرض الواقع ليتحصل العلم للجميع بها؟

جواب: تلك هي فائدة سجلات الدولة الرسمية التي تسجل بكل دقّة عملية إيتاء الزكاة لكل من غنم شيئا من المال: إنه الكشف الضريبي الذي يجب على كل فرد من أفراد المجتمع أن يقدمه بنفسه لبيت مال المسلمين.

السؤال: ممن تؤخذ الزكاة؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نظن أن الزكاة لا تؤخذ إلا ممن يقيم الصلاة.

السؤال: هل نفهم من تخريصاتك هذه أن الذي لا يقيم الصلاة لا يكلّف بدفع الزكاة؟ يسأل صاحبنا مستغربا.

جواب مفترى خطير جدا: نعم، لا يكلف من لا يقيم الصلاة بدفع الزكاة. انتهى.

السؤال: هل هذا معقول؟! ألا ترى أنك قد وصلت إلى أبعد درجات الهذيان؟ وإن صح ما تقول، فما الواجب على من لا يقيم الصلاة أن يقدم للدولة؟ أو بكلمات أخرى: ما المطلوب من الدولة أن تفرضه على من لا يقيم الصلاة؟

جواب مفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الدولة يجب أن تلزم من لا يقيم الصلاة بدفع الجزية، كما جاء في قوله تعالى:

- **قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (29)**

تفنيد الفكر السائد: إن طرحنا هذا يدعونا إلى افتراء الظن من عند أنفسنا بأن الجزية ليست ملزمة لأهل الكتاب (اليهود والنصارى) في بلاد المسلمين فقط (كما أفهمنا أهل الدراية من أبناء الإسلام)، بل هي – برأينا- ملزمة لكل الفئات الذين جاء ذكرهم في الآية الكريمة نفسها، وهم:

- **الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ**
- **وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ**
- **وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ**

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نرى أن الذين لا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب هم فقط فئة واحدة من الفئات الملزمة بدفع الجزية.

السؤال: لماذا يكون دفع الزكاة واجبة فقط على الذين يقيمون الصلاة؟

رأينا: نحن نظن أن ذلك من أجل تحقيق الإخوة في الدين، فالأخوة في الدين (الذي هو دين الله، الذي هو الإسلام ولا شيء غير الإسلام) لا تتحقق إلا بالشروط الواردة في الآية الكريمة التالية:

- **فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (11)**

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: لا تتحقق الإخوة بالدين للجميع إلا بالتوبة وبإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. لذا، إذا لم يكن الشخص مقيما للصلاة فلا تؤخذ منه زكاة، ويصبح مفروض عليه أن يدفع الجزية عن يد وهو صاغر.

السؤال: كيف يمكن تطبيق ذلك على أرض الواقع؟

جواب مفترى: نحن نرى أن الضرورة تستدعي من الدولة المسلمة أن تسلك طريقين لتحصل المال المفروض كحق واجب للسائل والمحروم من كل ما يتحصل للمسلم من الغنائم (أي الضرائب)، وهما

1. استمارة (استبانة) الزكاة
2. استمارة (استبانة) الجزية.

فإذا ما عرف أن الشخص المكلّف هو من الذين يقيمون الصلاة، فشهد لنفسه بذلك وشهد له الناس بذلك، أصبح من الواجب عليه أن يقدم الحق المفروض عليه في ماله على شكل زكاة. وأما إذا لم يكن من الذين يقيمون الصلاة (بغض النظر عن ديانته)، يصبح لزاما أن يدفع الجزية عن يد وهو من الصاغرين. انتهى.

باب: التهرب الضريبي

لعل كل حكومات الأرض تضع التشريعات المنظّمة لضبط عملية تحصيل الضرائب من رعاياها لخزينة الدولة، التي تقوم بدورها بإنفاق هذا المال على المرافق العامة الأساسية التي توفر الأمن المجتمعي لكل أفراد المجتمع بغض النظر عن الفئات الاجتماعية التي ينتمون إليها. فالخدمات الأساسية في الصحة والتعليم والأشغال العامة هي – برأينا- حق يتكافأ فيه الجميع بنفس الدرجة مهما كانت قدرته المالية. ولا شك عندنا أن موارد الدولة من الضرائب هذه هي من أهم مصادر الدخل للدولة. لكن ما يلاحظ في كل المجتمعات هو محاولة المكلَّف بتقديم كشف الضريبة الذاتي إيجاد الثغرات في القانون التي تمكّنه من التهرب من دفع الضرائب أو جزء منها. فمما يقضّ مضاجع أصحاب الملايين والمليارات (وما أكثرهم) هو هذا الواجب الضريبي المكلفين بدفعه لخزينة الدولة. وهنا تبدأ لعبة القط والفأر. فيحاول توم (الدولة) أن تتحصل على أكبر قدر ممكن من جيري (المواطن)، ولكن ذكاء وحنكة جيري هو الذي ينقذه من مخالب توم على الدوام. فينشرح فؤاد جيري كلما استطاع أن يخذل توم، وهكذا.

السؤال: هل ترك الشارع الكريم لأي طرف أن يتغول على الطرف الآخر؟ ألم ينظم العلاقة بين الأشخاص فلا يعتدي شخص على آخر؟ ألا يجب أن يكون قد نظم العلاقة بين الدولة والأفراد، فلا تعتد الدولة على أفرادها، ولا يتلاعب الأفراد بحق الدولة في أموالهم؟

جواب: لا شك عندنا أن الزكاة هي المنظم الأساسي لعلاقة الدولة بأفراد الشعب فيها

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا: لمّا كانت الزكاة هي حق معلوم للسائل والمعلوم، فإن محاولة التهرب من دفع هذا الحق تجر على صاحبها الويلات في الآخرة أكثر من تلك التي قد تحصل له لو ثبت أنه فعلا يحاول التهرب من أداء هذا الحق المفروض عليه في الحياة الدنيا. فعقاب الله هو أشد من عقاب ولي الأمر. فمن أهم صفات المؤمن الصدق مع ربه، فهو يدفع الزكاة لأنها تشريع إلهي وليس لأنها جزية مفروضة من الحاكم على الرعايا. فإذا كان الحاكم لا يعرف ما أنت مكلف بدفه بكل دقة وأمانة، فإن رب الحاكم لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. وإذا كنت تستطيع أن تتهرب من دفع هذا الحق بسلوك الطرق الملتوية، فإن هذا لن ينفعك في يوم الحساب، يوم لا تظلم نفس شيئا والأمر يومئذ لله.

فالمسلم المؤمن بربه يعلم أنه لا يستطيع أن يفلت من العقاب الرباني حتى لو استطاع أن يتفلت من العقاب الدنيوي. لذا يجب أن تكون العقيدة التي ينقلها أهل الدين للعامة من الناس (أغنيائهم وفقرائهم) أن المؤمن لا يتفلت من دفع الحق الذي فرضه الله عليه. فكما لا تستطيع أن تتفلت من إقامة الصلاة في وقتها، فعليك أن لا تحاول أن تتفلت من إيتاء الزكاة المفروضة عليك أيضا بالطرق الملتوية.

السؤال: ومتى يجب على المؤمن أن يدفع الزكاة على ماله؟

جواب مفترى: نحن نفهم من الآية الكريمة التالية أن وقت الحصاد هو الموعد المحدد لأداء هذا الحق المفروض عليك:

- **وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (141)**

السؤال: وما هي كميّة المال الواجب إخراجها بالزكاة؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: إنها الخمس، قال تعالى:

- **وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (141)**

نتيجة مفتراة: الحق المفروض على المؤمن هو الخمس في كل ما غنم.

رأينا: صحيح أن الحاكم لا يستطيع أن يسيطر على أفراد المجتمع بطريقة تمكّنه من أخذ الزكاة المفروضة في كل ما يغنمه أفراد مجتمعه، لكن الله (رب الجميع) قد أوكل المهمة للشخص نفسه، لذا فالله هو من سيحاسب المؤمن عليها يوم تكون كل نفس بما كسبت رهينة. فعليك أخي المسلم المؤمن بربك (لا بل من واجبك الديني) أن تحاسب نفسك قبل أن تلقى ربك ليحاسبك عليك. ومن واجبك أيضا أن تحسب بكل دقة وأمانة ما غنمت من مال، فتقدم خمس الغنيمة كحق مفروض في مالك إلى بيت مال المسلمين، ليكون العامود الفقري لاقتصاد الدولة كلها. وليعلم الذي يحاول أن يتهرب من هذا الواجب أنه ك من يمسك المعول بيده لهدم بيته فوق رأسه. فما غنمت من مال هو - لا شك - نتيجة الأمن الاجتماعي الذي وفّرته لك الدولة. فتجارتك لن تزدهر ومغانمك لن تتأتى في غياب الدولة. وأعلم أن حدوث أي خلل في الأمن الاجتماعي في الدولة سينعكس سلبا على مردودك المالي. لذا من واجبك أن تقدّم ما عليك من واجب لضمان الديمومة في النمو والازدهار.

السؤال: وما هو المال الواجب دفع الزكاة فيه؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الزكاة في المال تدفع مرة واحدة فقط. انتهى.

تفنيد الفكر السائد: غالبا ما أفهمنا سادتنا أهل الدراية منهم أن الزكاة تدفع كل سنة على ما يزيد من المال عن حاجة المسلم، أليس كذلك؟

رأينا المفترى: نحن نرفض هذا المنطق كله جملة وتفصيلا، لأن هذا هو مدعاة التهرب والتلاعب في دفع المستحقات المالية المترتبة على الشخص.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا: لما ربط علماء الإسلام دفع الزكاة بالحاجة المزعومة، أصبح كل شخص يقدر حاجاته بنفسه، وهو ما جعل – برأينا- الكثيرين يحسبون بأنهم غير مكلفين بذلك.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: لما ظن الكثيرون (كما أفهمهم أهل الدين) أن دفع الزكاة يكون ملزما بعد تسديد كامل حاجيات الإنسان، وهو مفروض فقط في الزيادة منه (أي ما فاض عن حاجتك)، أخذ أصحاب الدخل المحدود والمتوسط يبحثون عن "طرق ملتوية" لإنفاق المال تحت مسمى الحاجة، فها هو زميلي في العمل يشتري السيارة باهظة الثمن (لا بل ويشغل نفسه بأقساطها الشهرية التي ربما لا طاقة له بها)، ثم إذا ما سألته عن الزكاة تعذر بعدم الاستطاعة لأنه لا يملك فاضا من المال. وها هو الآخر ينفق عشرات الآلاف من الدولارات والدنانير على تشييد بيته الفخم، ويقوم بتأثيثه (أي شراء الأثاث) بأحدث الماركات العالمية، وقد يلجأ إلى الاستدانة من المؤسسات والبنوك لتمويل ذلك، ثم إذا ما سألته عن الزكاة تعذر بعدم الاستطاعة وعدم توافر الفائض من المال. وها هو ثالث يملأ يدي زوجته ورقبتها وجيدها (لا بل وبعض سيقانها) بالحلي والمجوهرات باهظة الثمن في سلوك مقصود بذاته للتهرب من دفع الزكاة بحجة أن هذا مال لا تجب فيه الزكاة، وهو قد نسي أن الله لم يأمر المؤمنين فقط بالزكاة بل جاء التكليف واضحا للمؤمنات أيضا:

- **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (71)**

وبالمقابل، لما وجد أصحاب الدخل غير المحدود (أي الأثرياء جدا) أن الزكاة تجب على المال المخزون كله كل عام، تلكأ الكثيرون عن دفع الزكاة بحجة ضخامة المبالغ التي يجب عليه أن ينفقها في كل عام، لا بل ذهب الكثيرون منهم إلى تشغيلها في الأسواق تحت مسمى الأسهم والسندات وشراء العقارات والأراضي حتى تصبح جزءا من رأس المال في حركة مفضوحة للتهرب من دفع الحق المفروض من الله في كل ما يغنموا يوم حصاده.

السؤال: ما المخرج من هذه الفوضى العارمة؟

رأينا المفترى: نحن نرى أن المخرج بسيط جدا، وربما يكون مرض للجميع، لأنه يحقق العدالة الاجتماعية المنشودة، وتتمثل في إخراج الخمس من الغنائم وقت الحصاد مرة واحدة وكفى.

السؤال: كيف يمكن تطبيق ذلك على أرض الواقع؟

رأينا المفترى: نحن نرى أن التطبيق يجب أن يكون على النحو التالي: على المؤمن المكلف بدفع الزكاة إلى بيت مال المسلمين أن يحسب بنفسه (مؤمنا أن لا رقيب عليه إلا الله وحده ولا محاسب له إلا الله وحده) كل غنيمة تحصلت له مهما كانت كبيرة أو صغيرة، ومن ثم يقوم بإخراج حقها وقت حصادها، وهو الخمس. لتكون رافد بيت مال المسلمين الرئيسي. فالذي يكسب عشرة دنانير يجب أن يخرج منها دينارين، والذي يكسب مئة يخرج منها عشرين، والذي يكسب ألفا يخرج منها مئتين، والذي يغنم عشرة الآلاف يخرج منها ألفين، والذي يغنم مئة ألف يخرج منها عشرين ألفا، وهكذا. ونحن نفتري الظن من عند أنفسنا أن هذا هو الحق المعلوم الذي فرضه الله علينا في أموالنا:

- **وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (24)**

سؤال: قد يقول قال: أليس هذا بكثير؟ هل فعلا يستطيع الإنسان أن يدفع الخمس في كل ما يكسب كثيرا كان أم قليلا؟

جواب مفترى: نحن نظن أن هذا ليس بكثير، وأن فيه مصلحة لجميع الأطراف، ففيه مصلحة لصاحب المال وفيه مصلحة للدولة كلها، وفيه مصلحة لأفراد المجتمع جميعا.

السؤال: وكيف ذلك؟

نحن نظن أن في هذا مصلحة للأفراد للأسباب التالية:

أولا، لأن هذه الزكاة (أي الخمس) تدفع مرة واحدة. فلا يتوجب دفعها مرة أخرى مهما تراكمت الثروات في رصيد الشخص بعد ذلك. فمادام أنك قد أخرجت الخمس من المال الذي دخل خزينتك، فقد أصبح كل ما تراكمت فيها من ثروات هو مال نظيف طاهر، لك الحق أن تتمتع به كيفما شئت بعد ذلك.

ثانيا، لأن هذا المال يدفع مقابل تقديم الخدمات العامة لأفراد المجتمع كلهم، فأنت تساهم في بناء مؤسسات الدولة العامة بمقدار ما تملك من ثروة، فكلما زادت ثروتك، كلما ساهمت أكثر في بناء تلك المؤسسات، وفي تقديم تلك الخدمات للعامة. فيساهم فيها الفقير بالشيء القليل ويساهم فيها الغني بالشيء الكثير، ولكن الجميع يستفيدون منها بالتساوي، وهذا هو – برأينا- منطق العدالة في الواجبات والحقوق المنشود من فعل إيتاء الزكاة.

ثالثا، يجب علينا أن لا ننسى أن هذا واجب ديني يتأتى منه الخير في الدنيا والآخرة. فمقدار مساهمتك في رفد مال المسلمين بالمال هو ضمان لك بأن تكون في الآخرة من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، قال تعالى:

- **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (277)**

رابعا، لو حسبت مقدار ما تقدم لخزينة الدولة بمقدار ما تتلقاه من خدمات عامة من الدولة، فإن المستفيد الأكبر من ذلك هو الفقير، لأنه هو المساهم الأضعف فيها، لكنه يتلقى الخدمات العامة كالغني الذي هو المساهم الأكبر فيها. وهذه لا شك هي العدالة المنشودة في كل مجتمع من المجتمعات.

خامسا، يجب أن يفهم كلامنا هذا في ضوء المنهج كله وليس في ضوء التطبيق السائد في بلاد الظلم والاستبداد، وهي ما تسمى نفسها زورا وبهتانا بدول العالم الإسلامي التي هي في واقع التطبيق العملي أبعد ما تكون عن الإسلام الحقيقي.

سادسا، نحن نرى أن في هذا سلامة من تغول سلطة الدولة على حقوق الأفراد. فالزكاة المعلومة (أي الخمس) هي الرادع الحقيقي لفرض الضرائب التعسفية التي تفرضها الدولة كلما وجدت نفسها في ورطة مالية. فلو أنت نظرت إلى الدول المسماة بالإسلامية لوجدت أنها ترهق كاهل أفرادها خاصة أصحاب الدخل المحدود بالضرائب المتعددة والمتنوعة التي تعجز أحيانا أن تجد لها مسميات حقيقية لتسويقها بين الناس. فالزكاة بمقدارها المعلوم هي العقد الذي لا يحق لطرف أن يفضه متى ما أراد في سبيل تحقيق مآربه الخاصة. فلو علمت الدولة أن لا حق له في جيوب أفرادها إلا بمقدار الزكاة، لنمّت قدراتها المالية بناء على ذلك. ولما تمادت في الإنفاق غير المبرر على رفاهية طبقة معينة من أفرادها على حساب الطبقات كلها. فرجال السياسة الفاسدون في طبعهم هم المستفيدون الوحيدون من غياب التنظيم الحقيقي لمدخلات بيت مال المسلمين.

السؤال: لماذا فرض الله الخمس في كل المغانم التي يحصل عليها الأفراد لصالح خزينة الدولة؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن ذلك يتمثل في تحقيق غايتين رئيسيتين وهما:

1. السيطرة على التضخم

2. الحد من الربا

السؤال: وكيف يكون ذلك

باب الربا: رؤية جديدة

قال تعالى:

- **الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىَ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (275) يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (276) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (277) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (278) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ (279) وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (280) وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ (281)**

نحن نفتري القول أن هذه الآيات الكريمة ستكون مرشدة لنا (كما نفهمها) في تحديد ماهية الربا وخطورة الوقوع فيه وطريقة تجنبه. فالله وحده أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يزدني علما وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا. وأدعوه وحده أن لا أكون ممن يفترون عليه الكذب، وأساله أن يعلمني فلا أقول عليه إلا الحق، إنه هو العليم الحكيم- آمين.

أما بعد،

السؤال: ما هو الربا؟

الإشكالية الحديثة في تحديد الربا: استطاع رجال الدين في العصر الحديث أن يحصروا الربا بالمعاملات المالية التي تجري داخل البنوك التجارية، فكل معاملة بنكية - بالنسبة لهم- هي معاملة ربوبية، وهنا تبرز الإشكالية الأولى التي نود إثارتها على الفور وهي: هل فعلا لا يوجد ربا خارج حدود البنوك التجارية؟ ألا يقع الأفراد أنفسهم في معاملاتهم التجارية بأعمال ربوية؟ وماذا عن زمن النبي نفسه؟ هل كان هناك بنوك تتعامل بالربا؟ وإلاّ، كيف كان الأشخاص العاديون يقومون بالأعمال الربوية فيما بينهم؟

ولعل الطامة الكبرى التي حصلت في بلاد الإسلام تمثلت – برأينا- بتشييد ما يسمى بالبنوك الإسلامية التي ظن العامة من الناس أنها لا تقوم بالأعمال الربوية، وهي المخلصة لهم من براثين البنوك الربوية الأخرى؟ وما هي إلا فترة قصيرة حتى بانت حقيقتها، فهي (نحن نرى) التي تثقل كاهلهم أكثر مما تفعل البنوك الربوية. فلو حاولت أن تتقدم بالمعاملة المالية نفسها لبنكين اثنين، أحدهما ربوي والآخر إسلامي، لوجدت أن البنك الربوي أكثر منطقية وأقل تكلفة من البنك الإسلامي. لكن للأسف فإن استخدام ساطور الدين على رقاب العباد هي التي تجبرهم على اللجوء إلى البنوك الإسلامية حتى وإن كانت التكلفة عليهم أكثر. فهم طلاب جنان هاربون من النيران، أليس كذلك؟

على أي حال، دعنا نطرح التساؤل التالي: بعيدا عن المعاملات البنكية سواء كانت ربوية أو إسلامية، هل يمكن أن يحصل الربا في المعاملات التجارية غير البنكية؟ فهل يمكن لتاجر الخضار والفاكهة أن يقع في

فعل الربا؟ وهل يمكن لتاجر الذهب أن يقع في فعل الربا؟ وهل يمكن لتاجر الأجهزة الكهربائية أن يقع في فعل الربا؟

السؤال: كيف يحصل الربا؟ ومتى يمكن أن يقع المتعاملون بالتجارة في السوق بفعل الربا؟

رأينا المفترى: للإجابة على هذه التساؤلات، لابد لنا بداية من تعريف الربا، والوقوف على ماهيته.

السؤال: كيف يمكن فهم ماهية الربا؟

رأينا المفترى: دعنا ندقق مليّا بما جاءنا في الآية الكريمة التالية:

- **... ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا...**

لنخرج بالاستنباط المهم جدا جدا التالي: كل المعاملات التجارية على اختلاف أنواعها تقع في باب واحد من بابين اثنين لا ثالث لهما، فإما أن تكون بيعا أو أن تكون ربا. انتهى.

السؤال: ما الذي يجب أن نفهمه من ذلك؟

رأينا المفترى: عليك أخي المسلم أن تفهم بأن أي معاملة تجارية بغض النظر عن حجمها (كبيرة كانت أو صغيرة) وبغض النظر عن مكان إبرامها يمكن أن تقع في باب البيع أو يمكن أن تقع في باب الربا. فشراؤك لبيضة دجاجة قد تقع في باب البيع وقد تقع في باب الربا، وكذلك تمويل صفقتك التجارية التي قد تصل إلى عشرات الملايين، قد تكون بيعا وقد تكون ربا.

السؤال: ما فائدة ذلك؟

جواب مفترى: لعل أول فائدة منشودة من ذلك هو عدم حصر الربا بالمعاملات البنكية. فالربا منتشر في الأسواق كلها، وفي جميع المعاملات مهما كان حجمها ومهما كان مكانها. انتهى.

السؤال: كيف يمكن للشخص العادي معرفة ماهية المعاملة التجارية سواء كانت بيعا أم كانت ربا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الطريقة بسيطة جدا. وتتمثل بالمعادلة التالية: إذا لم تكن معاملتك بيعا فهي إذن ربا، والعكس صحصح: إذا لم تكن معاملتك ربا فهي بيع، أليس كذلك؟

السؤال: ماذا تقصد؟ لم أفهم شيئا. يرد صاحبنا قائلا.

جواب مفترى: مادام أن المسألة ثنائية (إما بيعا وإما ربا)، فإن معرفة واحدة تغني عن معرفة الأخرى. فإذا ما استطعت أن أُعرِّف البيع، يأتي تعرف الربا كتحصيل حاصل، والعكس صحيح. لذا فأنا أحتاج أن أقف على تعريف لواحدة منهما ليتحصل لي تعريف الأخرى دون جهد.

سؤال: إذا كان كلامك هذا صحيحا، فهل لك أن تعرف لنا واحدة منهما؟ يسأل صاحبنا.

جواب: دعنا نحاول تعريف الربا. وليكن السؤال هو: ما هو الربا؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الآية الكريمة التالية تقدم لنا التعريف الأول اللازم للربا، قال تعالى:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (130)**

لتكون النتيجة المفتراة الأولى من عند أنفسنا هي: الربا يحمل في ثناياه مضاعفة رأس المال. انتهى.

السؤال: وماذا نعني بالمضاعفة (أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً)؟

رأينا: نحن نظن أن المضاعفة هي الزيادة بالمثل، فالواحد يصبح اثنين، والاثنين تصبح أربعة، والأربعة تصبح ثمانية، وهكذا. قال تعالى:

- **يَا نِسَاء النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (30)**

السؤال: هل تقصد أنه لا يجوز للتاجر أن يبيع بأكثر من الضعف؟ وكيف يمكن تحديد كمية الضعف هذه؟

رأينا: نحن نظن أن الآلية بسيطة جدا، لكن دعنا بداية نحاول التعرف على الغاية المنشودة من وراء ذلك، أي الغاية المنشودة من عدم أكل الربا أضعافا مضاعفة.

السؤال: لماذا يجب علينا أن لا نأكل الربا أضعافا مضعفة؟

جواب مفترى: نحن نفتري القول بأن أكل الربا أضعافا مضاعفة ستكون نتيجته الحتمية هو تكدّس الثروة بيد حفنة من الناس (وهم الأغنياء)، قال تعالى:

- **مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (7)**

نتيجة مفتراة مهمة جدا: جاء الشرع الكريم ليبيّن لنا الطريقة التي لا تؤدي في نهاية المطاف إلى أن يكون المال دولة بين الأغنياء منا. (وسنرى تبعات ذلك لاحقا بحول الله وتوفيقه)

السؤال: وما الذي يمنع أن لا تصير الأموال دولة بين الأغنياء منا؟

جواب مفترى: نحن نظن أن هناك شرطان رئيسيان يحققان هذه الغاية، وهما:

1. عدم أكل الربا
2. إيتاء الزكاة

وانظر – عزيزي القارئ- في التقابل بينهما في الآية الكريمة التالية:

- **وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (39)**

ولو حالنا ربط ذلك بمقدار الزكاة الواجبة في أموال الناس في قوله تعالى:

- **وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (141)**

لربما تجرأنا على الافتراء التالي: الزكاة هي تطهير لمال المسلم من شبهة الربا. فإخراج خمس ما غنم المسلم هو تحقيق لمبدأ سلامة المال من كل ما يمكن أن يشوبه.

ولو حالنا ربط ذلك بالصدقات أيضا، لوجدنا أن الصدقة تعمل كذلك على تطهير المال من كل ما دخل فيه من رجس الشيطان، فالمال الذي فيه ربا يكون الشيطان شريكا فيه، قال تعالى:

- **الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىَ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (275)**

السؤال: ولماذا يكون ذلك؟

جواب مفترى مهم جدا جدا: نحن نظن أن أكل الربا يجر معه أكل أموال الناس بالباطل، قال تعالى:

- وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (161)

السؤال: كيف يجر أكل الربا معه أكل أموال الناس بالباطل؟

نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا (1): نحن نظن أن المعاملة التجارية (أي معاملة) لا تكون ربا (أي بيعا) إذا لم يحدث جراء ذلك أكل مال الناس بالباطل.

نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا (2): نحن نظن أن المعاملة التجارية (أي معاملة) تقع في باب الربا إذا حدث جراء ذلك أكل أموال الناس بالباطل.

السؤال: كيف يمكن أن يأكل التاجر أموال الناس بالباطل؟ وما هو الباطل أصلا؟

رأينا: لو تفقدنا السياقات القرآنية التالية لوجدنا أن الباطل هو المقابل النقيض للحق، قال تعالى:

- وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (42)
- يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (71)
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (34)

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن التقابل بين الحق والباطل هو التقابل نفسه بين البيع والربا، فالبيع يقع في باب الحق بينما يقع الربا في باب الباطل، كما في الشكل التوضيحي التالي:

الحق		الباطل
البيع		الربا

نتيجة مفتراة (1): إذا كانت المعاملة التجارية قد نتج عنها أكل مال الناس بالحق فهي – لا شك عندنا- بيع.

نتيجة مفتراة (2): إذا كانت المعاملة التجارية قد نتج عنها أكل مال الناس بالباطل فهي – لا شك عندنا- ربا.

ولو حاولنا تفقد الآيات الكريمة التالية، لوجدنا تتحدث عن النهي عن أكل أموال الناس بالباطل:

- وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (188)
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (29)

- وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (161)

السؤال: متى يمكن أن يأكل التاجر أموال الناس بالحق ؟ ومتى يمكن أن يكون قد أكل أموال الناس بالباطل؟

جواب: نحن نظن أن الآية الكريمة التالية (كما نفهمها) تقدم لنا المفتاح الأول للإجابة على هذا التساؤل، قال تعالى:

- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (29)

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن الآية الكريمة (كما نفهمها) تسطر لنا القاعدة الأساسية الأولى في التجارة، ألا وهي حصول التراض بين الطرفين (إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ). انتهى.

السؤال: أليس ما يجري من معاملات تجارية في البنوك تكون مبنية على التراض بين الطرفين؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا، لأنها مبنية على رضا طرف واحد وهو البنك نفسه. فالزبون لا يملك إلا الموافقة على الشروط التي يفرضها البنك نفسه. أي الشروط التي يفرضها صاحب المال. وهذا - برأينا- أول خطوات الوقوع في باب الربا.

لذا، نحن نتجرأ على القول أن المعاملات التي تجري في البنوك التي تسمي نفسها إسلامية لا تختلف قيد أنملة عن المعاملات التي تجري في أروقة ما يسمى بالبنوك الربوية، وذلك لانتفاء حصول التراض بين الطرفين، لذا، فهي ليست أكثر من معاملات انطلقت من مبدأ ربوي، وهي رضا طرف واحد على حساب الطرف الآخر. وهي في جميع الحالات تبين رضا الغني على حساب الفقير. ولو نظرنا حولنا لوجدنا أن هذه البنوك (ومن هم وراءها يملكون معظم ثروة البلاد)، فكان المال دولة بين الأغنياء. انتهى.

نتيجة مفتراة: كل معاملة تجارية لا تكون ناشئة عن رضا الطرفين، فهي معاملة يشوبها الباطل، أي الربا.

السؤال: وماذا عن المعاملات التجارية التي تجري في الأسواق، ألا تكون مبرمة برضا الطرفين؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا، فمعظم المعاملات المبرمة في الأسواق مبرمة أيضا برضا طرف واحد، وهو التاجر.

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: لأن الزبون لا يعرف التكلفة الحقيقية للبضاعة المباعة، ولأن التاجر هو الوحيد الذي يعرف القيمة الحقيقية للبضاعة.

السؤال: وما علاقة هذا بأكل أموال الناس بالباطل؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هذا السؤال يوصلنا إلى مبتغانا من هذا النقاش كله.

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب مفترى: هل يقبل التاجر أن يفصح فعلا عن التكلفة الحقيقية للبضاعة المباعة؟
السؤال: وهل يجب على التاجر أن يفصح عن التكلفة الحقيقية للبضاعة؟
جواب مفترى: نعم. يجب عليه ذلك.
السؤال: لماذا؟ أي لماذا يجب على التاجر أن يفصح عن القيمة الحقيقية للبضاعة المباعة؟
جواب مفترى: حتى يحصل التراض في إبرام الصفقة التجارة. فالتجارة يجب أن تكون في الأساس مبنية على تراض بين الطرفين (إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ).
السؤال: لماذا؟
جواب: تخيل عزيزي القارئ أنك قمت بشراء سلعة معينة بقيمة خمسين دينارا، ثم تبين لك لاحقا بأن قيمتها الحقيقية هي عشرة دنانير، هل تشعر عندها بالرضا؟ هل لو أفصح لك البائع عن قيمتها الحقيقية (وهي عشرة دنانير) وقت إبرام الصفقة التجارية، هل كنت سترضى أن تشتريها بخمسين دينارا؟!
جواب: لعلي أظن أن الغالبية الساحقة من الناس لن ترضى بذلك. لا بل وسينتابك شعور بالغبن، وربما لا تتردد أن تدعو الله أن يمحق تجارته لأنها ليست أكثر من ربا، أكل من خلالها مالك بالباطل، قال تعالى:

- **يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ** (276)

(دعاء: اللهم أسألك تمحق الربا الذي أكل التجار به أموالنا بالباطل – آمين).

لكن بالمقابل، تخيل لو أنك اكتشفت لاحقا أن قيمة السلعة التي اشتريتها فعلا بخمسين دينارا هي أربعين أو خمسة وأربعين دينارا، هل كنت ستشعر بالغبن حينها؟ هل كنت ستشعر أن من باعك السلعة قد أكل مالك بالباطل؟ هل كنت ستدعو الله أن يمحق رباه؟
جواب: كلا، لأنك ستشعر أن التاجر لم يأكل مالك بالباطل، والأهم من ذلك هو أنه لو أفصح لك التاجر عن قيمتها الحقيقية (كان تكون أربعين أو خمسة وأربعين دينارا) ستكون راض تمام الرضا، لا بل وستدعو له بالخير والبركة.
السؤال: ما الذي تقوله يا رجل؟ هل يجب على التاجر أن يفصح للزبون عن القيمة الحقيقة لكل سلعة يبيعها؟ هل هذا ممكنا؟
جواب مفترى: كلا، هو ليس مضطرا إلى ذلك.
السؤال: فما الذي يجب على التاجر فعله إذن؟ يسأل صاحبنا.
جواب مفترى: نحن نظن أنه يجب على التاجر المسلم المؤمن بربه (الذي ينشد البيع في معاملاته التجارية والذي يريد أن تحرى أن لا يقع في فعل الربا) أن يكون نبراسه في تجارته القاعدة الإلهية الثانية التي جاءت لتحديد البيع الصحيح (وتبيان الربا الممنوع)، وهي – برأينا- ما جاء في قول الحق تعالى:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** (278) **فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ** (279)

نتيجة مهمة جدا: نحن نظن أن البيع الصحيح هو الذي يقوم على مبدأ نفي الظلم على الطرفين (التاجر والزبون)، فلا التاجر يظلم الزبون ولا التاجر يظلم نفسه.

لذا، نحن نفتري القول بأنه على التاجر المؤمن بربه (الذي لا يريد الوقوع في الربا) أن يبني تجارته كلها على مبدأ "لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ". فعليه إذن أن يتحرى في تجارته أن لا يوقع الظلم على الآخرين كما عليه أن يتحرى أن لا يوقع الظلم على نفسه.

السؤال: وكيف يمكن تطبيق هذا المبدأ في التجارة؟

جواب مفترى: نحن نظن أن تطبيق هذا المبدأ غاية في البساطة، ويتمثل في أن يضع التاجر نفسه مكان الزبون قبل أن يقوم ببيع البضاعة له، فعليه أن يتخيل نفسه أنه هو الزبون الذي سيشتري البضاعة، ثم يقوم بحساب الربح بطريقة لا تلحق الضرر به ولا يلحق الضرر بالآخرين، وهي الطريقة التي يتحقق فيها رضا الطرفين. فتاجر القماش سيضطر سيحتاج أن يشتري الخضار والفاكهة لأطفاله من السوق في نهاية اليوم، وسيحتاج أن يشتري الأثاث لبيته في نهاية الشهر من تاجر آخر، وسيحتاج أن يشتري الذهب في نهاية السنة من تاجر، فهل يقبل أن يأكل هؤلاء ماله بالباطل كما أكل مال غيره يوم أن باعهم قطعة من القماش؟ فهل لو كان هو فعلا الزبون الذي سيدفع ثمن البضاعة، هل يرضى أن تؤكل أمواله بالباطل من قبل غيره؟

نتيجة: كما تحب أن لا يأكل الناس أموالك بالباطل فلا تأكل أموال الناس أنت بالباطل، أليس هذا هو المبدأ الإلهي (لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ).

مثال: تخيل - عزيزي القارئ- أنك كنت مقدما على شراء بضاعة ما، وكان ثمن هذه السلعة عشرة دنانير، هل تقبل أن تأخذها بأقل من تكلفتها الحقيقية؟

جواب كلا وألف كلا، فذلك مما لا يقبله الطبع السليم، فأنت لن ترضى للتاجر أن يخسر، فلا تقدم مصلحتك على مصلحة التاجر، ولا تبني سعادتك على تعاسة الآخرين، أليس كذلك؟

سؤال: لماذا لا ترفض أن تأخذ البضاعة بأقل من تكلفتها الحقيقية؟

جواب: لأن في ذلك ظلم واضح للتجار، وهو ما نهانا الله عنه، فكما نحب أن لا نُظلَم فيجب علينا أن لا نظلِم الآخرين، أليس كذلك؟

السؤال: وماذا لو باعك التاجر البضاعة (التي كلفته عشرة دنانير) بأحد عشر دينار؟

جواب: لا شك أنك ستكون راض تمام الرضا، لا بل ستنظر إلى ذلك على أنه يقع في باب المودة.

السؤال: وماذا لو باعك إياها باثني عشر دينارا؟

جواب: لا شك أنك ستكون راض تماما، وربما ستنظر إلى ذلك من باب العدل، وقد تدعو له بالخير والبركة.

السؤال: وماذا سيكون شعورك لو أنه باعك إياها بأكثر من ذلك؟

جواب مفترى: لا شك أن رضاك سيبدأ يتناقص كلما زاد التاجر في كمية الربح الذي أخذه منك.

السؤال: ومتى ستقع المعاملة في باب الربا.

جواب مفترى: إذا شعرت أنه قد أخذ مالك بالباطل، أي قد أخذ منك "ربحا" أكثر مما يجب.

السؤال: وكيف يمكن تحديد ذلك؟

جواب مفترى: نحن نظن أن هذا يقع في يد ولي الأمر نفسه، فهو المنظم المتحكم بالسوق، وهو الذي يحق له أن يحدد هامش الربح الذي يحقق المبدأ الإلهي (لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ)

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى: لأنه هو من ستؤول إليه أموال الزكاة في نهاية المطاف. فعلى ولي الأمر أن يحدد هامش الربح الذي سيحاسب التاجر على ما غنم جراء ذلك عندما يقوم التاجر بتقديم كشف الزكاة.

السؤال: ما علاقة هذا بإيتاء الزكاة؟

جواب مفترى: عندما يكون التاجر مؤمنا ملتزما بالشرع الإلهي وهو أن يدفع خمس ما يغنم لخزينة الدولة، فهو إذا سيعمد إلى تقليل هامش الربح، لأنه سيشعر أن من الأولى أن تبقى الأموال بيد أصحابها، فلا يأكلها بالباطل، ولا يضطر أن يدفع قسطا كبيرا منها لخزينة الدولة.

السؤال: ما الذي يحصل عندما لا يلتزم التاجر بذلك ويفضل أن يأكل أموال الناس بالباطل؟ فما هي عواقب أكل الناس بالباطل من جراء الربا الفاحش؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن أن النتيجة ستكون لا محالة وخيمة، وهي على النحو الذي تصوره الآية الكريمة التالية:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (278) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ (279)**

نعم، هي الحرب المعلنة من الله التي ستكون عاقبتها على النحو التالي:

- **يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (276)**

نعم، النتيجة هي أن الله لا محالة سيمحق الربا، وسيرى الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون:

- **إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (227)**

وسنرى لاحقا عندما نتعرض لهذه القضايا في مقالات منفصلة ومفصلة بحول الله وتوفيق منه انعكاسات هذه القضايا على الفرد والمجتمع، ولعلي لا أتردد في القول أن ما يحصل في بلاد المسلمين من فوضى عارمة هو وقوعهم في الربا، فكانت حرب الله عليهم معلنة، وكانت النتيجة أن الله قد محق أسواقهم، فبالرغم من وفرة المال في بلاد المسلمين (التي لا يكاد يوجد مثيل لها في بلاد أخرى على وجه الأرض) إلا أنها البلاد الأكثر معاناة في الفقر والبطالة والبغضاء والتشاحن والحسد فيما بينهم.

فالله وحده أسأل أن يعيد الناس إلى رشدهم وأن يهيئ لهم من أمرهم رشدا، فلا يظلِمون ولا يظلَمون، إنه هو السميع المجيب.

والله وحده أدعوه أن يهديني لما اختلف فيه الناس من الحق، إنه هو نعم المولى ونعم المجيب.

أما بعد،

كانت الغاية المرجوة من هذا الاستطراد الطويل هو الدخول في معنى الحرب والقتال في النص القرآني، وذلك من أجل التعرف على كيفية القتل الذي حصل لفرعون عندما شن هجومه على رب العالمين. فافترينا

الظن من عند أنفسنا أن فرعون قد شن هجومين اثنين على رب العالمين، وكانت النتيجة هي قتله في كل مرة، وما حصلت له النهاية الأكيدة إلا عندما استدرج إلى البحر، وهناك خارت قواه وأدرك أنه لا يستطيع الاستمرار في المواجهة. وخلصنا إلى افتراء الظن بأن فرعون قد قتل مرتين لكن قتله لم يسفر عن موته، قال تعالى:

- **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (16) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (17) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26)**

وذلك لأن القتل نحن نفتري الظن من عند أنفسنا يختلف عن الموت، كما جاء في الآية الكريمة التي صورت لنا إمكانية أن يقتل محمد أو أن يموت، قال تعالى:

- **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ (144)**

وذلك لأن من أنهيت حياته بالقتل لا يكون قد مات كما جاء في قوله تعالى:

- **وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169)**

ثم أتبعها مباشرة بالآية الكريمة الأخرى التالية، حيث ينهانا الله فيها أن نسمي من قتل في سبيله أمواتا:

- **وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ (154)**

السؤال: كيف دار رحى القتال بين فرعون من جهة ور ب العالمين من جهة أخرى؟ وكيف كان مجريات أحداث القتال؟ وأين حصل القتال بين الطرفين؟ وكيف كانت نتائجه؟

رأينا: هذه هي التساؤلات التي سنحاول الخوض فيها في الجزء القادم من هذه المقالة.

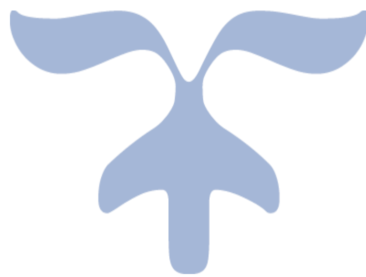
سائلين الله أن ينفذ مشيئته وإرادته لنا الإحاطة بشي من علمه لا ينبغي لغيرنا، إنه هو العليم الحكيم، وأدعوه وحده أن يؤتيني رشدي، وأن يجعل لي من لدنه سلطانا نصيرا، وأعوذ به أن يكون أمري كأمر فرعون، إنه هو الواسع العليم – آمين.

المدّكرون: رشيد سليم الجراح
علي محمود سالم الشرمان
المهندس: يزن علي سليم الجراح
بقلم د. رشيد الجراح
21 كانون ثاني 2016



قصة يونس

الجزء الثالث والثلاثون



قصة يونس – الجزء الثالث والثلاثون

خرجنا في الجزء السابق من هذه المقالة عن فحوى النقاش الخاص بمقاتلة فرعون رب موسى، وكان الهدف من ذلك هو محاولة تسطير الخطوط العريضة في طريقة الاستنباط من النص القرآني بناء على المنهجية التي نتبعها، فحاولنا تقديم رأينا فيما يخص استنباط الأحكام والتشريعات في فقه الصوم والصلاة والزكاة والربا، وتبيّن لنا أننا لا نسير في خط متواز مع الفكر التقليدي السائد، فكان ذلك جليا في النتائج التي خلصنا إليها والتي تعارض في مجملها وفي تفاصيلها ما ألفناه من عند سادتنا أهل الدراية كما نقلها لنا أهل الدراية عنهم. ولا شك أننا خلصنا إلى الظن بأن الحاجة ملحة أن نفرد لهذه القضايا (إن شاء الله) مقالات منفصلة ومفصّلة لاحقا بحول الله وتوفيقه لنا، لأن هناك الكثير الذي لازال البحث فيه جاريا، ونسأل الله وحده أن يعلمنا ما لم نكن نعلم وأن يهدينا صراطه المستقيم، فلا نفتري عليه الكذب، إنه هو السميع البصير. لذا نحن نعد القارئ الكريم أن نخوض في هذه القضايا بالتفصيل المطلوب فيها إن شاء الله متى ما أذن الله لنا بشيء من علمه فيها.

أما الآن فسنعود إلى فحوى النقاش الخاص بفرعون، محاولين تسطير رأينا فيما يخص فقه القتال كما نفهمه من النص القرآني على مساحته. فلا نتسلح بمنطوق آية واحدة وننسى ما جاء في الآيات الأخرى التي تشكل بمجموعها كتلة واحدة، يجب الخوض في كل تفاصيلها من أجل الخروج بالاستنباطات الصحيحة التي ربما تكون مرضية للجميع مادام أن فيها (نحن نفتري الظن) السنة التي سطرها لنا ربنا في كتابه الكريم.

ولكن قبل الخوض في هذه التفاصيل علينا أن نحاول أن نبيّن للقارئ الكريم بأن هذه المنهجية (إن صحت) ستساعدنا ليس فقط في فهم الأحكام والتشريعات (فيما يخص الصلاة والزكاة والصيام وغيرها) بل ستساعدنا أيضا في فهم الظواهر الكونية المحيطة بنا. ولكي يبين للقارئ الكريم وجاهة ما نفتريه من ظن هنا، فإننا سنحاول تقديم المثال التالي الذي (إن صحت افتراءاتنا فيه) فإنها ستقلب الأمور رأسا على عقب، وسيبين للجميع بأن هذا الكلام (أي القرآن الكريم) ما كان أن يفترى من دون الله:

- **وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (37)**

مثال: قانون الجاذبية

لعل مما أصبح من المسلمات عند أهل المعرفة من بني البشر أن هناك قوانين تسيطر على الظواهر الطبيعية التي بدورها تجعل الحياة ممكنة، وبخلاف ذلك تعم الفوضى في الكون، وقد تصبح الحياة فيه أقرب إلى المستحيل، فحاول المختصون في هذه العلوم الفرعية (كعلم الفيزياء والرياضيات والطبيعة) إعمال التفكير في هذه "القوانين"، وخرج بعضهم بأفهام بشرية سُطِّرت على شكل قوانين أصبح التصديق بها من المسلمات، وبات التكذيب بها من قبيل الجنون والتخلف. وكان واحدا من هذه القوانين التي كانت (لا شك) نتاج الفكر الغربي المادي هو قانون الجاذبية الذي يرجع الفضل فيه إلى العالم الشهير إسحاق نيوتن. وكان فحوى ذلك "القانون" البشري أن الأجسام الكبيرة في حجمها تتحكم بالأجسام الصغيرة بفعل قوة الجذب الكامنة فيها. فبالرغم أن للأرض (بحسب مفردات هذا القانون) قوة جذب خاصة بها وأن للشمس قوة جذب خاصة بها، فإن الشمس هي التي تسيطر على الأرض، لأن كتلة الشمس تفوق كتلة الأرض بالآلاف المرات. والمنطق نفسه

ينطبق على العلاقة بين الأرض والقمر، فهم يظنون أن الأرض هي المسيطرة على القمر بفعل جاذبيتها التي تفوق جاذبية القمر، وهكذا. والمنطق نفسه ينطبق على الأجسام الموجودة في الكوكب الواحد. فكل جسم موجود على الأرض ينجذب إليها لأن قوة جذب الأرض (الكتلة الكبيرة) أكبر من قوة جذب أي جسم آخر فيها.

السؤال: هل هذه فعلا حقائق كونية أم أفهام بشرية؟ وهل يمكن إعادة النظر فيها من منظور النص الديني (كالقرآن مثلا)؟ فهل يوجد في القرآن الكريم ما قد يثبت هذا الكلام أو ينفيه؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن النص الديني (الكامل) لا يجب أن يكون قد غفل عن مثل هذه القضايا، فيجب أن يكون فيه (كما نفهم) ما يثبت أو ينفي مثل هذا الكلام. وذلك لأن الله قد سطّر في كتابه الكريم قوله الخالد التالي:

- **... مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (38)**

وبناء على هذا القول الفصل، فإننا نفهم أن كل شيء يجب أن يأتي ذكره في الكتاب حتى يرقى أن يكون الكتاب نفسه كتابا إلهيا، وإلاّ لأصبح ناقصا يعتريه الضعف بالتفريط. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل جاءنا القول الإلهي (الذي نؤمن بصحته المطلقة) أن هذه الأمور لم تذكر في كتاب الله على العموم، وإنما جاءت مفصلة تفصيلا، قال تعالى:

- **... وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً (12)**

لذا نحن نتوقع من النص القرآني ما يلي:

1. أن يأتي ذكر كل شيء فيه صغيرا كان أم كبيرا
2. أن يأتي كل ما جاء ذكره في كتاب الله مفصلا تفصيلا

وبناء عليه، فإن الأفهام البشرية (إن صحت) يجب أن تكون مطابقة تماما لما جاء ذكره في كتاب الله، كما نؤمن أنها يجب أن تكون مفصّلة بنفس التفصيل الذي ورد في كتاب الله. ومتى ما تعارضت أفهام البشر مع من ما جاء في كتاب الله وجب تركها بالكلّية، والبحث من جديد عن الحقيقة المطلقة بين مفردات النص القرآني.

ونحن نؤمن يقينا بأن الفهم الصحيح لمفردات النص القرآني أولا، ثم محاولة ربط هذه الأفهام بعضها ببعض في الآيات الكريمة على مساحة النص كله هي الكفيلة بالخروج بالاستنباطات الصحيحة التي لن يرقى إليها الشك مهما حاول الباحثون الخوض في تفاصيلها من جميع الزوايا، وكيفما طرقت في مؤلفاتهم على مر السنين.

لذا، نحن نحتاج إلى خطوتين اثنتين من أجل الخروج بالاستنباطات التي نظن أنها صحيحة، وهما:

1. فهم منطوق المفردات بمرادها الإلهي، لا كما ألفينا عليه آباءنا من قبل
2. ربط هذه المفاهيم بعضها ببعض على مساحة النص القرآني كله.

السؤال: هل يمكن إثبات ذلك في قضية قانون الجاذبية المطروح الآن على طاولة البحث؟

جواب: دعنا نحاول الخوض في ذلك، تاركين للقارئ نفسه فرصة الحكم على ما قد نتوصل إليه من أفهام هي لا شك من عند أنفسنا. ولا ننسى أن نعيد التأكيد لكل من يقرأ هذه السطور أن ما صح منها فهو بفضل الله وتوفيق منه وحده، وما قد يثبت خطأه من هذه الأفهام المفتراة من عند أنفسنا فهو مما كسبت أيدينا. والله وحده نسأل أن يعلمنا قول الحق فلا نفتري عليه الكذب، إنه هو الواسع العليم.

أما بعد،

قال تعالى:

- **اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (1) وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (2) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ (3) وَلَقَدْ جَاءهُم مِّنَ الْأَنبَاء مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (4) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (5)**

بداية، نحن نظن أن هذه الآيات الكريمة التي ترد في بداية سورة القمر هي التي ستكون مرشدنا في الخوض في تفاصيل هذه القضية (أي ذكر وتفصيل ما يسمى بـ "قانون الجاذبية").

فبعد التدبر الأولي لهذه الآيات، تبين لنا ما يلي:

1. هناك حقيقتان كونيتان جاء ذكرهما هنا، وهما (1) اقتراب الساعة (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ) و (2) انشقاق القمر (وَانشَقَّ الْقَمَرُ).
2. هاتان الآيتان هما من الآيات التي يمكن أن نراها كما يمكن أن نرى الآيات الأخرى (وَإِن يَرَوْا آيَةً)
3. تكون ردة فعل الغالبية الساحقة من البشر عندما يرون هذه الآيات الإعراض ونعتها بالسحر (يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ)
4. يكون التكذيب بها هو السمة الغالبة لردة فعل الغالبية الساحقة ممن يرونها (وَكَذَّبُوا)
5. يفضل هؤلاء المكذبون بالآيات إتباع أهواءهم على تدبر هذه الآيات (وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ)
6. يفضل الكثيرون إتباع ما هو مستقر من الأمر (وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ)
7. جاءت هذه الآيات كجزء من الأنباء لتكون زاجرة لهم عن إتباع أهواءهم وكل أمر مستقر (وَلَقَدْ جَاءهُم مِّنَ الْأَنبَاء مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ)
8. يكون في ذلك حكمة بالغة (حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ)
9. الخ.

افتراء خطير جدا: نحن نظن أن ما يسمى بـ "قانون الجاذبية" الذي صاغته العقول البشرية قد أصبح من الأمور المستقرة التي يفضل الناس إتباعه بدلا عن البحث عن الحقيقة في الأنباء التي جاءتنا في النص الديني (كالقرآن الكريم).

السؤال: كيف يمكن إثبات ذلك؟

رأينا المفترى: لو بدأنا النقاش في الآية الأولى:

- **اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (1)**

لوجدنا على الفور أن هناك أربع مفردات وجب علينا محاولة تجلية معانيها الحقيقة بمراد الإله منزل الكتاب نفسه، فلا نتفكر بالآية الكريمة بناء على ما ألفيناه من أفهام من عند أهل اللغة والشعر والخطابة عن هذه المفردات كما هي دارجة على ألسنة العامة من الناس وأهل الاختصاص منهم. وبناء عليه، تصبح هناك أربعة أسئلة فورية وجب طرحها وهي:

1. ما معنى (اقْتَرَبَتِ)؟ أو ما هو الاقتراب كما جاء في النص القرآني؟
2. ما هي (السَّاعَةُ)؟ أو ما معنى الساعة كما ترد في النص القرآني؟

3. ما معنى (وَانشَقَّ)؟ أو كيف يحصل الانشقاق كما يرد في النص القرآني؟
4. ما هو (الْقَمَرُ)؟ أو كيف يجب أن نفهم معنى مفردة القمر الذي جاء ذكره كثيرا في النص القرآني؟

باب الاقتراب (اقْتَرَبَتِ)

لو تفقدنا النص القرآني على مساحته، لوجدنا أن مفردة الاقتراب قد وردت في الآيات الكريمة التالية:

- **أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (185)**
- **اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَّعْرِضُونَ (1)**
- **وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ**
- **اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (1)**
- **كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ (19)**

ليكون السؤال الآن هو: ما معنى الاقتراب؟

رأينا المفترى: نحن نستطيع أن نقدم جملة من الافتراءات التي نظن أن مفردة الاقتراب تحملها في ثناياها، نذكر منها:

أولا، نحن نفتري الظن بأن الاقتراب لا يعني حدوث الشيء (الذي اقترب) فعلا على أرض الواقع، ولكن زمنه قد دنا. وذلك لأن الأجل لم يحن بعد ولكنه قد اقترب (وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ)، ولأن الحساب لم يحصل بعد ولكنه اقترب (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ)، ولأن الساعة لم تقع بعد ولكنها اقتربت (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ)، أليس كذلك؟

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن الاقتراب يحمل في ثناياه قرب زماني

ثانيا، نحن نؤمن أن في الاقتراب دنو في المكان، فها هم سحرة فرعون يطلبون الأجر من فرعون، فيرد عليهم بالإيجاب، بل ويزيد على ذلك تقريبهم إليه مكانيا:

- وَجَاء السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالْواْ إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (113) قَالَ نَعَمْ وَإَنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (114)
- **فَلَمَّا جَاء السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (41) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (42)**

والله هو نفسه من نهى آدم وزوجه عن الاقتراب من الشجرة مكانيا:

- **وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ (35)**

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن الاقتراب يحمل في ثناياه قرب مكاني أيضا.

ثالثا، نحن نؤمن أن الاقتراب يكون على درجات (أي تدرجي)، فهناك ذوي القربى:

- **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (83)**
- **لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (177)**
- **وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (8)**

وهناك المقربون (أو المقربين):

- **لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعًا (172)**
- **إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (45)**
- **فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (8) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (9) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10) أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (12)**
- **وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (19) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (20) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (21)**
- **يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (25) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (26) وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ (27) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (28)**
- **وَجَاء السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالْواْ إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (113) قَالَ نَعَمْ وَإَنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (114)**
- **فَلَمَّا جَاء السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (41) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (42)**
- **فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (88) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (89)**

فنحن نفهم أنه ليس كل من كان من ذوي القربى يتمتع بنفس المسافة المكانية من الشخص، فقد يكون هناك من ذوي القربى من يقربك من الدرجة الأولى والثانية والثالثة، وهكذا.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن الاقتراب يحمل في ثناياه التدرج في العلاقة

رابعا، لو تدبرنا الآيات الخاصة "بذوي القربى والأقربين" على وجه التحديد، لوجدنا على الفور أن الوالدين ليسوا منهم، بدليل الفصل بين الوالدين من جهة وذوي القربى والأقربين من جهة أخرى، قال تعالى:

- **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (83)**

- كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (180)
- يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (215)
- لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (7)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: الوالدان ليسوا من الأقربين وليسوا من ذوي القربى. انتهى.

رابعا، وربما ينطبق هذا (نحن نفتري الظن من عند أنفسنا) على الأبناء أيضا:

- يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (11)

نتيجة مفتراة: يصعب علينا اتخاذ قرار حاسم بدرجة القرابة بين الشخص وآباءه من جهة والشخص وأبناءه من جهة أخرى (آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا):

الآباء ↔ الشخص ↔ الأبناء

السؤال: لماذا؟ أي لماذا يصعب تقدير درجة القرب بين الشخص وآبائه من جهة والشخص وأبنائه من جهة أخرى؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الاقتراب يعني وجود الشخص (أو الشيء) في متوسط العلاقة بين طرفين، فإذا ما قصرت المسافة بين شخص وطرف آخر ولو بمقدار ضئيل جدا أصبح هذا الذي دنا منه هو الأقرب، كما في قوله تعالى:

- وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا ۖ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (167)

فتكون الصورة للذين نافقوا (كما نفهم ذلك من الآية الكريمة) على النحو التالي:

الإيمان ← ←الذين نافقوا ←**الكفر**

فالذين نافقوا ليسوا بكافرين ، فهم لم يصلوا إلى درجة الكفر بعد، ولكنهم قد اقتربوا من الكفر بسبب ما نافقوا به. فهم بذلك أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان (هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ).

دعنا نحاول أن نفهم الموضوع أكثر باستخدام مثال الساعة بعقاربها المتحركة. فعندما يقف عقربا الساعات والدقائق على رأس الساعة، تدق الساعة الثانية عشر كما في الشكل التالي:



وعندما يبدأ عقرب الدقائق بالحركة متجاوزا هذه النقطة يبقى أقرب إلى الساعة الثانية عشر منه إلى الساعة الواحدة التي تليها (انظر الشكل التوضيحي في نهاية هذه الفقرة)، ويبقى كذلك حتى يصل إلى منتصف الدورة (أو الدائرة)، فتكون الساعة قد دقت عند ذلك الحد الثانية عشرة والنصف تماما. وعندما يصل عقرب الدقائق إلى نقطة المنتصف هذه، يصبح من الصعب الحكم على درجة القرب من الساعة السابقة (أي الثانية عشر) أو الساعة اللاحقة (أي الواحدة). ولكن لو تحرك عقرب الدقائق دقيقة واحدة بعد المنتصف لأصبح أقرب إلى الساعة الواحدة (أي الساعة اللاحقة) منه إلى الساعة الثانية عشر (التي سبقت)، كما في الأشكال التوضيحية التالية:



وربما ينطبق هذا (نحن نفتري الظن) على علاقة الشخص بـ آبائه وأبنائه، فالشخص يقف في منتصف الخط لتكون المسافة الفاصلة بينه وبين آبائه هي نفس المسافة التي تفصله عن أبنائه كما في الشكل التالي:

الآباء ← الشخص ← الأبناء

وهنا يصبح من الصعب تحديد أيهما أقرب، مصداقا لقوله تعالى:

- ... آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (11)

السؤال: ما علاقة هذا بالآية الكريمة (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ)؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الساعة قد اقتربت لأنها تجاوزت نقطة المنتصف. انتهى.

السؤال: ما معنى ذلك؟

جواب: من أجل فهم المقصود من هذا المنطوق، وجب علينا الآن محاولة تدبر المفردة الثانية في الآية الكريمة نفسها وهي مفردة السَّاعَةُ.

باب السَّاعَةُ

السؤال: ما الساعة؟ ولماذا سميت بـ السَّاعَةُ؟

لو تدبرنا ما يدور على ألسنة العامة، لوجدنا بداية أن الساعة تعني ما يلي:

1. الجهاز اليدوي الذي يستخدم لقياس الوقت، ويظهر بأشكال متعددة كالذي يلبسه المرء على يده، أو كالذي يعلقه على الجدار، كما في الأشكال التوضيحية التالية:





2. الفترة الزمنية التي تمتد 60 دقيقة، ويُسأل عنها بالسؤال التالي: كم الساعة الآن؟ وقد جاء ما نفتري أنه يحمل هذا المعنى في آيات الكتاب الحكيم التالية:

- **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (34)**
- **لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (117)**

- وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (45)
- قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (49)
- وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (61)
- قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ (30)
- فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (35)

3. للحديث عن نهاية الحياة على الأرض كما جاء في الآيات الكريمة التالية:

- قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (31)
- قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (40)
- يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (187)
- أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (107)
- وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (85)
- وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (77)
- وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا (21)
- وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (36)
- قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا (75)
- إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (15)
- الَّذِينَ يَخْشَوْنَ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (49)
- يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1)
- وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ (7)
- وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (55)
- بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (11)
- وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (12)

- وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (14)
- وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (55)
- إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (34)
- يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (63)
- وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (3)
- النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (46)
- إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (59)
- إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ (47)
- وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (50)
- اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (17) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ۗ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (18)
- وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (61)
- هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (66)
- وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (85)
- وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (27)
- وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (32)
- فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (18)
- اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (1)
- بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ (46)
- يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (42)

السؤال مرة أخرى: لماذا نسمي هذا الجهاز الذي نلبسه على أيدينا ساعة وذاك الذي نعلقه على الحائط ساعة؟ ولماذا تسمى هذه (أي الفترة من النهار) ساعة وتسمى تلك (أي نهاية الحياة) ساعة؟ وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- الجمع بينهما في الآية الكريمة التالية:

- وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (55)

فما هي الساعة إذن؟

جواب مفترى خطير جدا من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الساعة هي الدورة فقط.

الدليل

السؤال: لماذا نسمي الساعة ساعة؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الساعة (60) دقيقة تعني دورة كاملة، فعندما تدق الساعة 12، فإن عقرب الدقائق يتحرك دورة كاملة، فينطلق من عند النقطة (12) ويتحرك باتجاه اليمين، وما أن يعود إلى النقطة (12) التي انطلق منها حتى تكون قد اكتملت ساعة كاملة. وأصبحت الساعة الآن الواحدة، أليس كذلك؟

السؤال: لماذا تسمى نهاية الكون ساعة؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نفتري الظن بأنها تسمى ساعة لأنها تمثل دورة كاملة.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا: نحن نؤمن أن الكون قد بدأ بنقطة زمنية محددة، كما نؤمن بأنه سيعود إلى النقطة ذاتها التي انطلق منها، فالحياة عبارة عن دورة كاملة، انطلقت من نقطة محددة وستعود إلى النقطة ذاتها، بالضبط كحركة الساعة عندما تنطلق من نقطة محددة ثم تعود إلى النقطة نفسها، فتكون بذلك قد أكملت الساعة.

السؤال: أين الدليل على أن حركة الحياة من بدايتها إلى نهايتها تشبه حركة الساعة؟

جواب مفترى: دعنا نقرأ الآية الكريمة التالية:

- **لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (103) يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (104)**

السؤال: ما الذي تفهمه عزيزي القارئ من هذه الآية الكريمة؟

رأينا: في ذلك اليوم الموعود (هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ)، ستطوى السماء كطي السجل للكتب (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ)، ويكون في ذلك عودة للخلق الأول (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ)، وهذا هو الوعد الذي لا محالة حاصل (وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ)، وعندما تتم هذه العملية (أي العودة للخلق الأول)، تكون الساعة قد قامت:

- **وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (55)**

نتيجة مهمة جدا: نحن نظن أن الساعة هي عبارة عن دورة (أي circle باللسان الأعجمي) بغض النظر عن حجمها. فقد تكون دورة قصيرة (كدورة الساعة ستين دقيقة) وقد تكون طويلة جدا كدورة الحياة كلها، والشكل التوضيحي التالي تبين ما نقصد من معنى الساعة



فكل دائرة مكتملة في هذا الشكل هي عبارة عن ساعة (أي دورة).

السؤال: ما علاقة هذا بالآية الكريمة (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ)؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الله قد اتخذ قراره بأن يبدأ الخلق، كما اتخذ قراره بأن يعيد هذا الخلق كما بدأه، فبدأ المؤشر (العقرب) يسير بانتظام تام، فانطلق من النقطة (صفر):



متجها في حركة دائرية تشبه حركة عقرب ساعة اليد:



ليعود هذا العقرب إلى النقطة صفر نفسها التي انطلق منها، وما أن يكمل دورته كلها حتى تكون هذه هي الساعة التي وعد الله أنها لا محالة آتيه:

- **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (3)**

السؤال: ما علاقة هذا كله بانشقاق القمر كما جاء في الآية الكريمة نفسها (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ)؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن انشقاق القمر كان هو العلامة الأكبر والأهم لاقتراب الساعة.

السؤال: وكيف يكون ذلك؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن دورة الكون التي اتخذ الله قراره أن تكتمل (ساعة) قد تجاوزت نقطة المنتصف، فالعقرب قد وصل إلى المنتصف كما في الشكل التالي:



وأخذ يتعدى هذه النقطة (أي المنتصف). ولكن ما أن تجاوز العقرب حاجز المنتصف بنقطة واحدة حتى حصل أمر عظيم ليدل على أن الجزء الأول من الدورة قد انتهى، مؤذنا في الوقت ذاته بداية الجزء الثاني منها، فكان انشقاق القمر، فانشقاق القمر (نحن نفتري الظن من عند أنفسنا) هو الآية الكبرى على اقتراب الساعة من موعدها، أي لقد أصبح العقرب (أي الساعة) الآن بعد انشقاق القمر هو أقرب إلى نقطة النهاية منه إلى نقطة البداية. انتهى.

السؤال: كيف حصل ذلك؟

رأينا: نحن نظن أن الآية الكريمة التالية تصور لنا ما حصل:

- **يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (187)**

بناء على فهمنا لهذه الآية الكريمة نستطيع أن نتجرأ على الافتراءات التالية:

- للساعة مرسى (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا)
- علم الساعة عند ربي (قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي)
- ستحدث تجلية لوقتها، والله هو الذي وكّل نفسه بهذا (لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ)
- ثقلت الساعة في السموات والأرض (ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)
- ستأتي الساعة بغتة (لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً)
- كان سؤال الناس للنبي عنها وبكأنه حفي عنها (يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا)
- جاء القول الإلهي الفصل بأن علمها عند الله (قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللّهِ)
- جاءنا العلم من الله نفسه بأن كثيرا من الناس لا يعلمون (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ).

السؤال: ما الذي يمكن أن نفهمه من هذا كله؟

أولا، لما كان للساعة مرسى فإننا نظن (مفترين القول من عند أنفسنا) بأن مرسى الساعة هو نقطة النهاية التي سيعود إليها المؤشر (العقرب) بعد أن انطلق في تلك الرحلة الدائرية الطويلة. ولتوضيح الفكرة دعنا نقارن ذلك بحركة السفينة في الماء كما جاء في الآية الكريمة التالية:

- **وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (41)**

فلقد انطلقت سفينة نوح مباشرة مع بداية الطوفان، واستمرت تجري بهم في موج كالجبال، حتى وصلت إلى نقطة النهاية، فكان ذلك هو مرساها. والآيات الكريمة التالية تصور حركة الساعة بنفس المفردات، قال تعالى:

- **يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (42) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا (43) إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا (44) إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا (45) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (46)**

نتيجة مفتراة: نحن نتخيل الساعة وكأنها تجري إلى مرساها كما تجري الفلك في البحر إلى مرساها.

ثانيا، لما قضى الله أن يجلي الساعة لوقتها، أصبح العلم بها ممكنا. فصحيح أن علمها عند الله، وصحيح أن كثيرا من الناس لا يعلمون، لكن هذا لا يمنع أن يحصل العلم بها عند بعض الناس.

(دعاء: اللهم أسالك وحدك أن أكون أول الذين يأتيهم العلم بها، إنك أنت الواسع العليم – آمين)

السؤال: هل نستطيع إذن تحديد وقتها؟

جواب مفترى: نعم نستطيع ذلك بحول الله وتوفيق منه، لكن دعنا أولا نتحدث عن قضية أخرى لها علاقة بفهم موضوع الساعة، وهو عملية قيام الساعة. ليكون السؤال الآن هو: كيف تقوم الساعة؟ أو لماذا تقوم الساعة قوما؟

- **وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (12)**
- **وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (14)**
- **وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (55)**

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الإجابة على هذا التساؤل تتطلب تدبر مفردة "تَقُومُ". فكيف يحصل الفعل "تَقُومُ"؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن القيام يحمل في ثناياه الارتفاع، فعندما تقوم أنت من مقامك، فإنك تبدأ بالارتفاع من الأسفل إلى الأعلى، كما جاء في قوله تعالى:

- **قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (39)**

وهذا القيام يعني الارتفاع التدريجي، فلو قام شخص من مقامة لظهر رأسه أولا، ثم يتبع ذلك بقية أجزاءه شيئا فشيئا، فأول ما يظهر منه رأسه وآخر ما يظهر منه هو قدميه، وهذا واضح عندنا في تصور قيام الناس لرب العالمين:

- **يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (6)**

ويمكن تشبيه ذلك بحركة ظهور السفن في البحر. فلو كنت واقفا على ساحل البحر ترقب حركة السفن القادمة من بعيد، لظهرت لك السفينة بشكل تدريجي، فترى قمتها قبل قاعدتها، والسبب في ذلك يعود إلى الحركة القوسية على سطح الماء، بفعل كروية المكان. وهذا يعني أن السفينة تجري لمرساها. فإذا ما وصلت المرسى بانت كلها.

السؤال: ما علاقة هذا بالساعة؟

رأينا: ذكرنا سابقا أن للساعة مرسى كما في قوله تعالى:

- **يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (42)**

وهذا يشبه مرسى السفينة:

- **وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (41)**

ولكن الاختلاف بين السفينة والساعة، هي أن الساعة تقوم قياما، فكيف يكون ذلك؟

رأينا: دعنا نعود إلى مثال الساعة التي جاوزت المنتصف كما في الشكل التالي:



ألا ترى - عزيزي القارئ- أن الساعة تجري لمستقرها في حركة قوسية لتنتهي إلى نقطة الصفر التي انطلقت منها. ولكن لو تدبرت الحركة أكثر لوجدت أن العقرب (انظر عقرب الدقائق) في حركة ارتفاع بعد المنتصف، بعد أن كان في حركة انخفاض إلى الأسفل قبل نقطة المنتصف. انظر الشكلين التاليين:



تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: عندما انطلق عقرب الساعة من بداية الخلق كان في حركة انخفاض إلى الأسفل، واستمر على تلك الشاكلة حتى وصل إلى نقطة المنتصف، وهناك أصبح من المستحيل تحديد درجة القرب لأن العقرب يقع على نقطة المنتصف من بداية الخلق ونهايته، ولكن ما أن بدأ العقرب يتجاوز نقطة المنتصف حتى أصبح أقرب إلى النهاية منه إلى البداية، وهناك حدث انشقاق القمر كآية لهذا الحدث الكوني العظيم، وهنا بالضبط بدأت الساعة في حركة قيام، فالعقرب بدأ يرتفع ارتفاعا تدريجيا منتظما، ويبقى على تلك الشاكلة حتى يصل إلى نقطة النهاية وهو المرسى:

- **يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (187)**
- **وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (41)**
- **يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (42)**

ولو تفقدنا الآية الكريمة التالية، لوجدنا أن الله لم يخفي الساعة تماما:

- **إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (15)**

نتيجة مفتراة: لما قضى الله أمره بأن لا يخفي الساعة تماما، ولكنه قضى بأن لا يجليها تماما للناس، كان هناك متسعا من المكان أن نبحث عن العلم فيها. فهل يمكن أن نعلم شيئا عنها أو عن وقتها؟

جواب: دعنا ننتظر قليلا لنرى ما يمكن أن يأذن الله لنا به من العلم فيها.

ثالثا، لما كانت الساعة قد ثقلت في السموات والأرض، وجب علينا أن نفهم كيفية حصول ذلك. فبعد أن حاولنا تدبر ذلك من كتاب الله، وجدنا الآية الكريمة التالية:

- **إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ (47)**

فطرحنا التساؤل التالي: لماذا جاء ذكر الساعة في هذه الآية الكريمة مع خروج الثمرات من أكمامها ومع وضع الأنثى ما تحمل في بطنها؟

وقد تخيلنا الأمر على النحو التالي: عندما تبدأ الحياة في الأكمام، تكون الثمرة قد تولدت داخل تلك الأكمام، وتبدأ دورة حياتها هناك داخل تلك الأكمام، ولا تخرج تلك الثمرات من أكمامها إلا بعد اكتمال نضوجها، ولكل نوع من الثمرات دورته الخاصة به، فمنه من يبدأ وينتهي في أيام قليلة، ومنها ما يستمر بعض الشهور، ومنها ما يستمر حولا كاملا، وهكذا. فلكل نوع منها ساعته الخاصة به، أليس كذلك؟

والمنطق نفسه ينطبق (نحن نفتري القول) على تولد الجنين داخل بطن أمه، فيبدأ بتلك النطفة التي يقذفها الرجل في رحم المرأة، وهنا بالضبط تبدأ دورة الحياة، فيبدأ الجنين بالنمو داخل بطن المرأة، ولا يخرج منه إلا بعد اكتمال دورته (أي ساعته) وهي تسعة أشهر، فإن هو خرج قبل ذلك أو تأخر عن ذلك الموعد، أُصيب الجنين بالأذى، الذي قد يؤدي به إلى الموت. فالوضع الطبيعي يتمثل في خروج الجنين من بطن أمه عندما يكمل دورته، وهي الفترة الزمنية اللازمة لنضوجه وخروجه سليما، أليس كذلك؟

السؤال: وما علاقة هذا بالساعة؟

رأينا المفترى: لو تفقدنا الآية الكريمة التالية، لوجدنا أن هناك مرحلة محددة من حياة الجنين في بطن أمه تبدأ فيها الأم (وهي من تحمل الجنين في بطنها) تشعر بالثقل، مصداقا لقوله تعالى:

- **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (189) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (190)**

فلو تدبرنا مفردات هذه الآية العظيمة، لوجدنا أن الحمل يبدأ من تلك اللحظة التي يتغشى فيها الرجل زوجته، وهنا يبدأ الحمل، ولكنه يكون حملا خفيفا (فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا)، وما أن تمر المرأة بذلك حتى تبدأ المرحلة التالية وهي مرحلة الشعور بالثقل (فَلَمَّا أَثْقَلَت). وتستمر هذه المرحلة حتى تضع المرأة حملها.

السؤال: متى تبدأ مرحلة الثقل عند المرأة؟ أو متى تبدأ المرأة تحس بثقل ما في بطنها؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نظن أن المرأة تبدأ تشعر بثقل الحمل في اليوم الأول بعد منتصف المرحلة كلها.

السؤال: كيف يكون ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نعلم أن فترة الحمل الطبيعية هي تسعة شهور كاملة، ولو قسمنا فترة الحمل كلها إلى ثلاث مراحل كما في الشكل التالي:

بداية الحمل	منتصف الحمل	نهاية الحمل
خفيفا	ثقيلا	الوضع

لربما جاز لنا أن نستنبط بأن مرحلة الثقل هي المرحلة التي تتوسط نقطة البداية وتستمر حتى نقطة النهاية (أي الوضع)، لذا تبدأ مرحلة الثقل في اللحظة التي يبدأ النصف الثاني من الحمل.

السؤال: ما علاقة هذا بأمر الساعة؟

جواب مفترى: نحن نظن أن السيناريو في حالة الساعة يشبه تماما سيناريو الحمل كما جاء في الآية الكريمة التالية:

- **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (189)**

وليس أدل على ذلك من أن الساعة قد ثقلت في السموات والأرض:

- **يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (187)**

وربما يفسر لنا مثل هذا الفهم (على ركاكته) سبب الجمع بين الحدثين في الآية الكريمة التالية:

- **إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ (47)**

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نتخيل بأن السموات والأرض هي وعاء الساعة (كما أن بطن المرأة هو وعاء الجنين)، وتبدأ الحركة المنتظمة من أجل الاكتمال (أي النضوج) بنفس الآلية، فيزداد حجمها كما يزداد حجم الجنين في بطن أمه، وما أن يتجاوز المنتصف حتى تبدأ مرحلة الثقل، ولا تتوقف حتى يكتمل نضوجها فتأتينا بغتة كما يحصل في حالة الولادة. فبالرغم أن أيام الحمل تكون قد شارفت على نهايتها، وبالرغم من وجود العلم بها مسبقا بمفردات الشهر كله، فالمرأة الحاملة للجنين تعلم أن هذا هو شهر الوضع، وكذلك يعلم من حولها بذلك، إلا أنهم لا يستطيعون تحديد لحظة حصوله، لأن لحظة ولادة الجنين تأتي دائما بغتة. وكذلك هي الساعة، فنحن نستطيع (بحول الله وتوفيقه) أن نحدد موعدها، لكن هذا لن يكون على سبيل الدقة المطلقة، لأنها ستأتينا بغتة خلال الفترة المرتقبة، كما يأتي المولود بغتة خلال فترة الشهر الأخير من الحمل.

السؤال: كيف سنستطيع تحديد موعدها؟

جواب مفترى خطير جدا: نحن نظن أننا نستطيع ذلك بالعلامة الكبرى لاقترابها وهو انشقاق القمر، قال تعالى:

- **اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (1)**

فانشقاق القمر كان دليلا (نحن نفتري الظن) على أن النصف الأول من الرحلة (أو الدورة) قد تم. وأن النصف الثاني منه قد بدأ. وكان انشقاق القمر هو العلامة الفارقة على بداية هذا الجزء الثاني منها. لذا، لو استطعنا أن نحدد متى انشق القمر، لربما استطعنا أن نعرف متى ستكتمل الدورة ومتى يحين موعد قيام الساعة. انتهى.

السؤال: وهل نستطيع ذلك؟

جواب مفترى: نعم بكل تأكيد، لكن بشرط أن نفهم موضوع انشقاق القمر برمته، وأول مستلزمات هذا الفهم المنشود هو طرح الموروث التراثي الذي جاءنا من عند سادتنا أهل الدراية كما نقله لنا أهل الرواية

جانبا ومحاولة البحث عن البديل الذي ربما يكون أكثر وجاهة تليق بالنص القرآني كنص إلهي، يفصل لنا آيات هذا الكون تفصيلا. فنحن نتجرأ على القول بأن ما وصلنا من عندهم لا يعدو أن يكون أكثر من "تخريفات" الأعراب في ليال الصيف أو الشتاء بمجالسهم الليلة العامرة بالتهريج والتقول على الآخرين بما لم يقال أصلا.

السؤال: كفاك تهجما على الآخرين، هات ما عندك. يطلب ابن عمي إبراهيم في أرض الاغتراب البعيدة.

بداية أقول للمهندس إبراهيم (في أرض النمسا على وجه التحديد) أن هذا الكلام موجه لمن هو من مثلك. فقناعتي بقدراتك العقلية راسخة لا تتزعزع، وأنا على علم بأنك قادر على أن تتنبأ بما أريد قوله قبل أن تسمعه، فأنت أهل لذلك، لأني أعتقد أننا (أي أنا وإياك) نملك من القدرات العقلية المتواضعة (بفعل العوامل البيولوجية والبيئة) ما يمكننا من فهم بعضنا البعض.

لكن دعني أسرد على مسامعك أولا ما قاله أجدادنا عن هذه الآية الكريمة (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ) قبل أن نخوض فيما قد يصدّع الرؤوس قبل أن يستقر نبأه في القلوب، فهذا بداية ما سطرته أقلام أهل الرواية عن أهل الدراية في تفسير القرآن العظيم للطبري مثلا:

اقتربت الساعة

القول في تأويل قوله تعالى : { اقتربت الساعة } يعني تعالى ذكره بقوله . { اقتربت الساعة } : دنت الساعة التي تقوم فيها القيامة , وقوله { اقتربت } افتعلت من القرب , وهذا من الله تعالى ذكره إنذار لعباده بدنو القيامة , وقرب فناء الدنيا , وأمر لهم بالاستعداد لأهوال القيامة قبل هجومها عليهم , وهم عنها في غفلة ساهون.

وانشق القمر

وقوله : { وانشق القمر } يقول جل ثناؤه : وانفلق القمر , وكان ذلك فيما ذكر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة , قبل هجرته إلى المدينة , وذلك أن كفار أهل مكة سألوه آية , فأراهم صلى الله عليه وسلم انشقاق القمر , آية حجة على صدق قوله , وحقيقة نبوته ; فلما أراهم أعرضوا وكذبوا , وقالوا : هذا سحر مستمر , سحرنا محمد , فقال الله جل ثناؤه { وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر } , وبنحو الذي قلنا في ذلك جاءت الآثار , وقال به أهل التأويل . ذكر الآثار المروية بذلك , والأخبار عمن قاله من أهل التأويل : 25292 - حدثنا بشر , قال : ثنا يزيد , قال : ثنا سعيد , عن قتادة أن أنس بن مالك حدثهم أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية , فأراهم انشقاق القمر مرتين . 25293 - حدثنا ابن المثنى , قال : ثنا محمد بن جعفر , قال : ثنا شعبة , قال : سمعت قتادة يحدث , عن أنس , قال : انشق القمر فرقتين . 25294 -حدثنا ابن المثنى والحسن بن أبي يحيى المقدسي , قالا : ثنا أبو داود , قال : ثنا شعبة , عن قتادة , قال : سمعت أنسا يقول : انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . * حدثني يعقوب الدورقي , قال : ثنا أبو داود , قال : ثنا سعيد , عن قتادة , قال : سمعت أنسا يقول : فذكر مثله . * علي بن سهل , قال : ثنا حجاج بن محمد , عن شعبة , عن قتادة , عن أنس , قال : انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين . 25295 - حدثني محمد بن عبد الله بن بزيع , قال : ثنا بشر بن المفضل , قال : ثنا سعيد بن أبي عروبة , عن قتادة , عن أنس بن مالك أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية , فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما

. 25296 -حدثني أبو السائب , قال : ثنا معاوية , عن الأعمش , عن إبراهيم , عن أبي معمر , عن عبد الله , قال : انشق القمر ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى حتى ذهبت منه فرقة خلف الجبل , فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اشهدوا " . 25297 - حدثني إسحاق بن أبي إسرائيل , قال : ثنا النضر بن شميل المازني , قال : أخبرنا شعبة , عن سليمان , قال : سمعت إبراهيم , عن أبي معمر , عن عبد الله , قال تفلق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين , فكانت فرقة على الجبل , وفرقة من ورائه , فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اللهم اشهد " . 25298 - حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل , قال : ثنا النضر , قال : أخبرنا شعبة , عن سليمان , عن مجاهد , عن ابن عمر , مثل حديث إبراهيم في القمر . * حدثني عيسى بن عثمان بن عيسى الرملي , قال : ثني عمي يحيى بن عيسى , عن الأعمش , عن إبراهيم , عن رجل , عن عبد الله , قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى , فانشق القمر , فأخذت فرقة خلف الجبل , فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اشهدوا " . 25299 -حدثني محمد بن عمارة , قال : ثنا عمرو بن حماد , قال : ثنا أسباط , عن سماك , عن إبراهيم , عن الأسود , عن عبد الله , قال : رأيت الجبل من فرج القمر حين انشق . 25300 -حدثنا الحسن بن يحيى المقدسي , قال : ثنا يحيى بن حماد , قال : ثنا أبو عوانة , عن المغيرة , عن أبي الضحى , عن مسروق , عن عبد الله , قال : انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم , فقالت قريش : هذا سحر ابن أبي كبشة سحركم فسلوا السفار , فسألوهم , فقالوا : نعم قد رأيناه , فأنزل الله تبارك وتعالى : { اقتربت الساعة وانشق القمر } . 25301 -حدثنا ابن حميد , قال : ثنا جرير , عن مغيرة , عن إبراهيم , عن عبد الله قال : قد مضى انشقاق القمر. 25302 - حدثني أبو السائب , قال : ثنا أبو معاوية , عن الأعمش , عن مسلم , عن مسروق , قال : عبد الله خمس قد مضين : الدخان , واللزام , والبطشة , والقمر , والروم. 25303 - حدثني يعقوب بن إبراهيم , قال : ثنا ابن علية , قال : أخبرنا أيوب , عن محمد , قال : نبئت أن ابن مسعود كان يقول : قد انشق القمر . 25304 -قال : أخبرنا ابن علية , قال : أخبرنا عطاء بن السائب , عن أبي عبد الرحمن السلمي , قال : نزلنا المدائن , فكنا منها على فرسخ , فجاءت الجمعة , فحضر أبي , وحضرت معه , فخطبنا حذيفة , فقال : ألا إن الله يقول { اقتربت الساعة وانشق القمر } ألا وإن الساعة قد اقتربت , ألا وإن القمر قد انشق , ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق , ألا وإن اليوم المضمار , وغدا السباق , فقلت لأبي : أتستبق الناس غدا ؟ فقال : يا بني إنك لجاهل , إنما هو السباق بالأعمال , ثم جاءت الجمعة الأخرى , فحضرنا , فخطب حذيفة , فقال : ألا إن الله تبارك وتعالى يقول : { اقتربت الساعة وانشق القمر } ألا وإن الساعة قد اقتربت , ألا وإن القمر قد انشق , ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق , ألا وإن اليوم المضمار وغدا السباق , ألا وإن الغاية النار , والسابق من سبق إلى الجنة . * حدثنا ابن المثنى , قال : ثنا محمد بن جعفر , قال : ثنا شعبة , عن عطاء بن السائب , عن أبي عبد الرحمن قال : كنت مع أبي بالمدائن , قال : فخطب أميرهم , وكان عطاء يروي أنه حذيفة , فقال في هذه الآية : { اقتربت الساعة وانشق القمر } قد اقتربت الساعة وانشق القمر , قد اقتربت الساعة وانشق القمر , اليوم المضمار , وغدا السباق , والسابق من سبق إلى الجنة , والغاية النار ; قال : فقلت لأبي : غدا السباق , قال : فأخبره. 25305 - حدثنا أبو كريب , قال : ثنا ابن فضيل , عن حصين , عن محمد بن جبير بن مطعم , عن أبيه , قال : انشق القمر ,

ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة . * حدثنا ابن حميد , قال : ثنا مهران , عن خارجة , عن الحصين بن عبد الرحمن , عن ابن جبير , عن أبيه { وانشق القمر } قال : انشق ونحن بمكة . 25306 - حدثنا محمد بن عسكر , قال : ثنا عثمان بن صالح وعبد الله بن عبد الحكم , قالا : ثنا بكر بن مضر , عن جعفر بن ربيعة , عن عراك , عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة , عن ابن عباس , قال : انشق القمر في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . 25307 -حدثنا نصر بن علي , قال : ثنا عبد الأعلى , قال : ثنا داود بن أبي هند , عن علي بن أبي طلحة , عن ابن عباس , قال : انشق القمر قبل الهجرة , أو قال : قد مضى ذاك . * حدثنا إسحاق بن شاهين , قال : ثنا خالد بن عبد الله , عن داود , عن علي , عن ابن عباس بنحوه . 25308 -حدثنا ابن المثنى , قال : ثنا عبد الأعلى , قال : ثنا داود , عن علي , عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية : { اقتربت الساعة وانشق القمر } قال : ذاك قد مضى كان قبل الهجرة , انشق حتى رأوا شقيه . 25309 - حدثني محمد بن سعد , قال : ثني أبي , قال : ثني عمي , قال : ثني أبي , عن أبيه , عن ابن عباس , قوله : { اقتربت الساعة وانشق القمر } . .. إلى قوله : { سحر مستمر } قال : قد مضى , كان قد انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة , فأعرض المشركون وقالوا : سحر مستمر . 25310 - حدثني محمد بن عمرو , قال : ثنا أبو عاصم , قال : ثنا عيسى ; وحدثني الحارث , قال : ثنا الحسن , قال : ثنا ورقاء جميعا , عن ابن أبي نجيح , عن مجاهد في قوله : { اقتربت الساعة وانشق القمر } قال : رأوه منشقا . 25311 -حدثنا ابن حميد , قال : ثنا مهران , عن سفيان , عن منصور , وليث عن مجاهد { اقتربت الساعة وانشق القمر } قال : انفلق القمر فلقتين , فثبتت فلقة , وذهبت فلقة من وراء الجبل , فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " اشهدوا " . 25312 - حدثنا ابن حميد , قال : ثنا مهران , عن أبي سنان , عن ليث , عن مجاهد انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم , فصار فرقتين , فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر : اشهد يا أبا بكر " فقال المشركون : سحر القمر حتى انشق . 25313 - حدثنا ابن حميد , قال : ثنا مهران , عن أبي سنان , قال : قدم رجل المدائن فقام فقال : إن الله تبارك وتعالى يقول : { اقتربت الساعة وانشق القمر } وإن القمر قد انشق , وقد آذنت الدنيا بفراق , اليوم المضمار , وغدا السباق , والسابق من سبق إلى الجنة , والغاية النار. 25314 - حدثنا بشر , قال : ثنا يزيد , قال : ثنا سعيد , عن قتادة { اقتربت الساعة وانشق القمر } يحدث الله في خلقه ما يشاء . * حدثنا ابن عبد الأعلى , قال : ثنا ابن ثور , عن معمر , عن قتادة , عن أنس , قال : سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم آية , فانشق القمر بمكة مرتين , فقال : { اقتربت الساعة وانشق القمر } . 25315 - حدثت عن الحسين , قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد , قال : سمعت الضحاك يقول في قوله : { وانشق القمر } قد مضى , كان الشق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة , فأعرض عنه المشركون , وقالوا : سحر مستمر . 25316 - حدثنا ابن حميد , قال : ثنا سلمة , عن عمرو , عن مغيرة , عن إبراهيم , قال : مضى انشقاق القمر بمكة

السؤال: هل فهمت (يا مهندس) من هذا الكلام شيئا؟ أما أنا فلا. فلا أظن أن قدراتي العقلية المتواضعة تمكنني من سبر أغوار هذا "العلم العظيم" في بطون تلك الكتب الصفراء. لذا دعني أترك الاشتغال بها لأهل العقول الفذة من أصحاب العقائد الراسخة، لأبحث لنفسي (ومن هم على شاكلتي) عن ما يمكن لنا أن نستوعبه، داعين الله وحده أن يهدينا صراطه المستقيم.

ولما كنت أنت الآن (كما كنت أنا في يوم من الأيام) قد عشنا في بلاد الاغتراب مدة من الزمن، ورسخت العقيدة عندنا هناك بحرية الرأي والرأي الآخر، فدعنا نترك هذا القول بما فيه من علم عظيم لمن أراد التصديق بعقائد آباءه، وتعال معي لسرد على سمعك رأيا ربما يكون جديدا ومغايرا لما ألفناه، ثم سأترك الفرصة لك (كشخص يحاول أن يكون صاحب فكر محترم) أن تفاضل بين هذا التخريص الذي سنسطره نحن بعد قليل وذاك العلم العظيم الذي سطروه هم في مؤلفاتهم الخالدة بخلود عقولهم العظيمة.

أما بعد،

السؤال: كيف انشق القمر؟

جواب: دعنا نحاول الإجابة على هذا التساؤل بطرح التساؤلات التالية أولا:

- ⇐ لماذا لم يأتي النص على نحو شق القمر؟
- ⇐ ولم جاء على نحو انشَقَّ الْقَمَرُ؟
- ⇐ وما الفرق بين أن يكون القمر قد شق أو قد انشَقَّ؟
- ⇐ الخ

رأينا المفترى: نحن نظن أنه لو جاء النص على نحو شق القمر، لربما سلّمنا بفرضية انفلاق القمر نفسه، كأن يكون القمر نفسه قد انفلق إلى شطرين كما جاءنا من عند أهل لرواية. ولكن لما جاء النص على نحو أن القمر قد انشَقَّ، فإننا نرفض جملة وتفصيلا أن يكون القمر قد انفلق إلى شطرين.

السؤال: ما الذي حصل إذن؟

رأينا المفترى: لما كان القمر قد انشق، فإننا نظن أن القمر قد انفصل ككتلة كاملة عن كتلة أكبر منه. ويمكن أن نتخيل ذلك بمثال انشقاق الجيش، فعندما يحدث انشقاق في الجيش، فإن كتلة منه (بغض النظر عن حجمها) تنفصل عن الكتلة الكبيرة التي كانت تشكل بجموعها الجيش والواحد. فنحن نقول أن الفصيل الفلاني قد انشق عن الجيش، وأن القائد الفلاني قد انشق عن الجيش، وهكذا. وهذا يعني بمفردات بسيطة انفصل كتلة صغيرة عن الكتلة الأم.

فتكون الصورة على النحو التالي: يكون الجيش كله قد شق ويكون الفصيل المنفصل عنه قد انشق.

وربما ينطبق المنطق نفسه على انشقاق الثوب، فانشقاق الثوب يحدث عندما تنفصل قطعة صغيرة منه عن القطعة الكبيرة، فيكون الثوب كله قد شق وتكون تلك القطعة التي انفصلت عنه قد انشقت. وغالبا ما يكون هذا الانشقاق غير منظم. فلو كان الانفصال منظما، لأصبح ذلك يقع (نحن نفتري الظن) في باب القص، فالخياط يقص الثوب بحرفية، لأنه يعرف بالضبط ما يفعل. لكن عندما ينشق الثوب انشقاقا، فإن ذلك يحصل بطريقة غالبا ما تتصف بالعشوائية، وذلك لأنه ينقصها التنظيم في الهدف والطريقة. ولو حاول الخياط إعادة تجميع الثوب بعد الانشقاق بالخياطة، لظل أثر الانشقاق واضحا.

ولو تفقدنا النص القرآني حول هذا الموضوع، لوجدنا قصة موسى مع البحر حاضرة، فالله هو من أمر موسى أن يضرب البحر بعصاه، فحصل انفلاق للبحر، قال تعالى:

- فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63)

لذا، نحن نفتري القول أنه كان من الواجب على علمائنا الأجلاء التمييز بين الانشقاق (الذي حصل للقمر) والانفلاق (الذي حصل للبحر)، وعدم الخلط بين الأمرين، فلو رجع القارئ إلى ما جادت به عقول سادتنا العلماء عند تفسيرهم لحادثة انشقاق القمر، لوجدناهم يتحدثون عنها بمفردات الانفلاق. فهم – برأينا- لا يميزون بين الانشقاق والانفلاق.

السؤال: ما الفرق بين الأمرين؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن من أهم سمات الانفلاق هو التنظيم، بدليل وجود فرقين (فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ)، عادا معا في نهاية المطاف إلى وضعهما الطبيعي. فبعد أن جاوز موسى ببني إسرائيل البحر ضاربا لهم طريقا في البحر يبسا، وما أن دخل فرعون ومن معه في تلك الطريق حتى أطبق عليهم البحر من جديد، فعاد البحر إلى وضعه الطبيعي الذي كان عليه قبل حصول الانفلاق، فما ترك الانفلاق أثرا واضحا يمكن رؤيته بعد تلك الحادثة.

أما في حالة الانشقاق فإنه يتعذر ذلك، أي يتعذر عودة الجزء المنشق إلى الكتلة الكبيرة بنفس الآلية، ويستحيل أن يعود الأمر إلى سالف عهده كما كان من ذي قبل. وذلك لأن الانشقاق يكون عشوائيا، ينقصه التنظيم. فعندما ينشق الثوب، فإن من الاستحالة أن يعود إلى سالف عهده ويكأن شيئا لم يكن، فلابد أن يبقى أثر الانشقاق واضحا حتى لو عملت على إعادة تجميعه من جديد. وهذا ما يحدث – برأينا- في حالة انشقاق فصيل من الجيش عن الجيش كله، فحتى لو حصلت العودة إلى أحضان الجيش الأم، لحصل ذلك بالتجميع، بعد أن تحصل هناك بعض التصفيات لعناصر من الفصيل المنشق، فيحدث ذلك أيضا بطريقة التجميع.

نتيجة مهمة جدا جدا: عندما يحصل عودة للطرف المنشق إلى أحضان الكتلة الكبيرة التي انشق عنها فإن ذلك يحدث بطريقة التجميع. انتهى.

السؤال: ما علاقة هذا بانشقاق القمر؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن ما حدث في حالة انشقاق القمر كان على النحو التالي: كانت هناك كتلة كبيرة عملاقة جدا. انفصل جزء من تلك الكتلة عن الكتلة الأم، سميت هذا الكتلة الصغيرة التي انشقت بالقمر، فكان القمر بذلك قد انشق (انشَقَّ الْقَمَرُ).

السؤال: ما هي الكتلة الكبيرة التي انشق القمر عنها؟ أو ما هي الكتلة الكبيرة التي شقت؟

جواب مفترى خطير جدا جدا لا تصدقوه إن استطعتم: إنها الشمس. انتهى.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لم يكن القمر (ككتلة منفصلة) موجودا عندما انطلقت الساعة (مؤذنة ببداية رحلة الكون). ولكن كانت الشمس حاضرة حينئذ. أخذت الشمس تجري في فلكها، متجهة نحو مستقرها. وما أن وصلت الساعة إلى المنتصف، حتى حصل أمر جلل، إيذانا ببداية النصف الثاني من الرحلة، وما أن تجاوزت الساعة مرحلة المنتصف حتى بدأت مرحلة الثقل، وهنا بالضبط، انشقت قطعة صغيرة (هي القمر) عن الكتلة الأم الكبيرة (هي الشمس)، فكان ذلك إيذانا باقتراب الساعة:

- اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (1)

فأصبحت هذه الكتلة الصغيرة المنشقة عن الكتلة الكبيرة تجري في فلكها الخاص بها:

- وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33)
- لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40)

فكان ذلك هو بداية العلم بالسنين والحساب:

- هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (5)

نتيجة مفتراة: بدأت رحلة الساعة من نقطة الخلق الأول، ولم يكن القمر حاضرا حينئذ ككينونة منفصلة مستقلة. واستمر الأمر على تلك الشاكلة حتى بلغت الساعة مرحلة المنتصف، وما أن تجاوزت الساعة نقطة المنتصف إيذانا ببدء النصف الثاني من دورة الحياة حتى حصل انشقاق القمر، فسَبَحَ القمر في فلك خاص به، مستقلا عن الفلك الذي تسبح فيه الشمس:

- هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (5)
- وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً (12)

وهناك بالضبط بدأت مرحلة السنين والحساب.

نتائج مفتراة مهمة جدا
لم يكن القمر حاضرا عند نقطة الخلق الأولى
كانت الشمس حاضرة حينئذ
وصلت الساعة إلى نقطة المنتصف
ما أن تجاوزت الساعة نقطة المنتصف حتى انشق القمر
انشق القمر عن الشمس
كان ذلك من أجل العلم بعدد السنين والحساب
كانت تلك آية من آيات الله الكونية
سبح القمر في فلك خاص به
استمرت الشمس تسبح في فلكها الخاص بها
أصبح من الاستحالة أن تدرك الشمس القمر، فما عاد ممكنا أن تجمع مرة أخرى ما انشق منها الخ.

الدليل

بداية، لعل من الأمانة العلمية القول بأن فكرة انشقاق القمر عن الشمس قد سمعتها من مصادر أخرى على مواقع التواصل الاجتماعي التي أصبح من العسير أن أحددها، فالمتحدثون عن هذه القضية يذكرون الأمر من باب الاستعجال، غير المضبوط بقواعد التوثيق العلمي، فلا تشكل أكثر من فكرة سريعة تلقى على مسامع المتصفحين لتلك المواقع على عجل. ولعل أهم ما ينقصها – برأينا- هو جلب الدليل الذي يثبت أو ينفي ما يفترونه من قول. أما نحن، فإننا سنحاول تثبيت الفكرة نفسها بجلب الدليل الذي نعتقد أنه يؤيد ما قدمنا من افتراءات في هذا الجزء من المقالة.

الدليل

لو تفقدنا النص القرآني على مساحته لوجدنا التلازم الواضح بين الشمس والقمر:

- **فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (96)**
- **إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (54)**
- **هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (5)**
- **إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (4)**
- **اللّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (2)**
- **وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (33)**
- **وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (12)**
- **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33)**
- **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاء (18)**
- وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (61)
- **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (29)**
- **يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (13)**
- **وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39) لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40)**

- خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (5)
- وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (37)
- الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (5)
- وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (16)
- يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (6) فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9)
- وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (2)

ولو تفقدنا النص القرآني على مساحته لما وجدنا أن هناك تلازما بين الشمس والأرض أو القمر والأرض، لنخرج من ذلك بالافتراءات التالية:

⇐ وجود الشمس والقمر هو لخدمة ما في الأرض
⇐ تلازم الشمس والقمر
⇐ تبعية القمر للشمس
⇐ انشقاق القمر عن الشمس
⇐ خلق الليل والنهار
⇐ العلم بالسنين والحساب
⇐ الخ.

أين الدليل على صحت هذا الكلام؟

أولا، لو تدبرنا الآية الكريمة التالية، لوجدنا أن الدليل حاسم على الترابط بين الشمس والقمر فقط، قال تعالى:

- يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (6) فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9)

السؤال: ما معنى أن واحدة من أحداث يوم القيامة هو جمع الشمس والقمر على وجه التحديد (وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)؟

رأينا المفترى: مادام أن القمر قد انفصل ككتلة صغيرة عن الشمس، فسبح في فلك خاص به، واستمرت الشمس تسبح في فلك خاص بها، فإن تلاقيهما من جديد لن يحدث إلا في نهاية الرحلة كلها. فعندما تقترب الساعة من موعدها، تبدأ الفجوة بين الشمس والقمر تضيق شيئا فشيئا على طول تلك الرحلة حتى يتلاقيا من جديد، فيجمع الشمس والقمر ككتلة واحدة مرة أخرى.

ثانيا، دعنا نتدبر الآية الكريمة التالية:

- وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (2)

فنحن نفتري القول بأن هذه الآية الكريمة تبين لنا (كما نفهمها) عدم وجود الشمس والقمر معا في آن واحد، فوجود القمر كان تاليا لوجود الشمس. ولو تدبرنا هذه الآيات الكريمة في سياقها الأوسع، لربما خرجنا باستنباطات غاية في الخطورة نظن أنها غير مسبوقة:

- وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (2) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (5) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (6)

الافتراءات

⇐ القمر يتلو الشمس (وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا)
⇐ النهار يجلي الشمس (وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا)
⇐ الليل يغشى الشمس (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا)
⇐ السماء مبنية (وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا)
⇐ الأرض مطحاة (وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا)

إن أهم ما يمكننا أن نستنبطه هنا مخالفين تماما كل النظريات البشرية هو أن الليل والنهار لا يتكونان بفعل الشمس (كما درسنا في معاهد المعرفة البشرية)، ولكن النهار موجود منفصلا عن الشمس وهو الذي يقوم بتجلية الشمس (وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا)، والليل موجود منفصلا عن الشمس وهو الذي يقوم بتغشية الشمس (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا). لو تفقدنا الآية لكريمة التالية لوجدنا ذلك – برأينا- جليا، قال

- **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33)**

فالآية الكريمة تصور لنا خلق الليل والنهار سابقا لخلق الشمس والقمر.

نتائج هذا الفهم المفترى: نحن نظن أن الافتراءات المفتراة التالية هي النتائج الطبيعية لهذا الفهم (ربما الخاطئ) الجديد.

أولا، نفي ما يسمى بقانون الجاذبية جملة واحدة، فالشمس لا تجذب إليها شيئا، بل هي تسير في فلك خاص بها حتى تنتهي إلى نقطة النهاية.

ثانيا، القمر لا ينجذب إلى شيء، فهو يسير في فلك خاص به

ثالثا، انتظام مسير الشمس والقمر في أفلاك متوازية متقاربة هو ما سبب الخلط في الفهم، فظن أهل المعرفة أن سبب هذا الانتظام هو ما يسمى بقانون تجاذب الكتل.

رابعا، النهار موجود ككينونة منفصلة عن الشمس وهو الذي يجلي الشمس

خامسا، الليل موجود ككينونة منفصلة عن الشمس وهو الذي يغشيها

سادسا، الأرض هي الكينونة المركزية، ولا علاقة لها بالشمس والقمر، الموجودان أصلا لخدمتها.

سابعا: إن أهم خدمة للشمس لما في الأرض هي الرزق (انظر الأجزاء السابقة من هذه المقالة)

ثامنا: إن أهم خدمة يقدمها القمر لمن في الأرض هو معرفة السنين والحساب.

تاسعا: علاقة الأرض منظورة مع السماء، ففي حين أن الارتباط للقمر مع الشمس، فإن ارتباط الأرض مع السماء.

عاشرا: حصل التباعد بين الأرض والسماء بطريقة بالفتق:

- **أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (30)**

السؤال: كيف حصل ذلك؟

جواب مفترى: هذا ما سنتناوله في الأجزاء القادمة بإذن الله

السؤال: ما أهمية ذلك؟

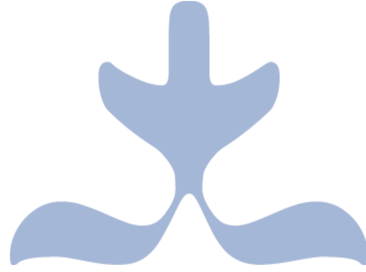
رأينا: نحن نظن أن من أراد أن يفهم ما فعله فرعون في قتاله رب موسى، وفي بلوغه الأسباب، فعليه أولا أن يفهم هذه الآيات الكونية. وليس أدل على ذلك مما حصل في المحآجة الشهيرة بين إبراهيم وذاك الذي آتاه الله الملك:

- **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258)**

وللحديث بقية

نسأل الله وحده أن ينفذ مشيئته وإرادته لنا الإحاطة بشي من علمه لا ينبغي لغيرنا، إنه هو العليم الحكيم، وأن يزدني علما وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا. وأدعوه وحده أن يؤتيني رشدي، وأعوذ به أن يكون أمري كأمر فرعون، فالله وحده أدعو أن أكون ممن أتوه بقلب سليم، فهداهم الصراط المستقيم، إنه هو العليم الخبير – آمين.

المدّكرون: رشيد سليم الجراح & المهندس يزن علي سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان
بقلم د. رشيد الجراح
11 شباط 2016



قصة يونس

الجزء الرابع والثلاثون



قصة يونس – الجزء الرابع والثلاثون

سنتابع في هذا الجزء الجديد من المقالة تقديم الأمثلة على فعالية المنهجية التي نتبعها في استنباط الأحكام من كتاب الله العزيز، وهي المنهجية التي تتمثل في استنباط المعاني الحقيقية للمفردات القرآنية من النص نفسه، ثم محاولة ربط الأفهام المفتراة من عند أنفسنا مع بعضها البعض، للخروج باستنباطات تؤطر للفكر الديني الذي نظن أنه صحيحا. فقد قدمنا في الجزء السابق من هذه المقالة مثال انشقاق القمر واقتراب الساعة كآيات كونية ظننا أنه قد جاء ذكرها وتفصيلها في النص القرآني. وافترينا القول في نهاية ذلك الجزء بأن مثل هذه الأفهام ستسعف في تكوين صورة أكثر وضوحا لحقيقة الأحداث كما يبينها النص الديني المقدس، وكان مثار النقاش حينئذ هو قصة مقاتلة فرعون رب موسى في ثلاث مناطق كونية، فقد حصلت (بناء على فهمنا ربما المغلوط للنص الديني) مقاتلة فرعون رب موسى في المواقع التالية:

⇐ في الأرض
⇐ في السماء
⇐ في البحر

وافترينا الظن بأن هزيمة فرعون الكلية لم تكن لتحصل إلا في البحر، فقد هُزِم فرعون في المعركة الأرضية الأولى التي حصلت قريبا من البيت الحرام بمكة، وبالتحديد في منطقة منى (العقبة)، ولم يستطع فرعون اقتحام تلك العقبة:

- **لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (1) وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (2) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ (4) أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا (6) أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7) أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12) فَكُّ رَقَبَةٍ (13)**

ولكن فرعون أعاد الكرة في القتال مرة أخرى ولكن في السماء هذه المرة، وحصل ذلك على مشارف الأرض المقدسة في منطقة العقبة الأردنية، فما استطع فرعون أن يقتحم تلك العقبة أيضا، ولكن تلك الهزيمة لم تكن لتثني فرعون عن الاستمرار في المواجهة، فحصلت الواقعة الثالثة في البحر، وهنا بالضبط كانت هزيمة فرعون النهائية:

- **فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا (16)**

وقد افترينا الظن من عند أنفسنا بأن الله (الذي هو خير الماكرين) قد استدرج فرعون إلى حتفه في البحر، وذلك لأن أدواة القتال التي كان يملكها فرعون في المواجهة قد فشلت في الماء. وذلك لأنه لا يمكن – برأينا- هزيمة الإله (كما ظن فرعون بنفسه) إلا في الماء.

وقد جلبنا الدليل الذي ظننا أنه قد يثبت مثل هذا الافتراء من قصة عجل السامري. وكان ذلك على النحو التالي: يخرج السامري لبني إسرائيل الذين كانوا يمشون على إثر موسى للحاق به عجلا جسدا له خوار، فيظن القوم جميعا أن هذا العجل هو إلههم وإله موسى:

- **فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (88)**

فيتوقف القوم عن المسير للحاق بموسى، فيظلون عاكفين عليه حتى يرجع إليهم موسى:

- قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ (91)

وما أن رجع موسى من لقاءه ربه حتى كان يعلم يقينا بأن القوم قد فتنوا (من الله) ووقعوا في الضلالة (من السامري):

- قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85)

فرجع موسى غضبان أسفا. فيلقي الألواح ويأخذ برأس أخيه يجره إليه:

- وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (150)

وما أن يدرك موسى السبب الذي من أجله بقي هارون فيهم ولم يلحق بأخيه:

- قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94)

حتى يسكت عن موسى الغضب:

- وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ ۖ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (154)

ولكنه كان يعلم يقينا أنه لابد من التعامل مع العجل بطريقة حكيمة حتى لا تستمر الضلالة للقوم الذين اشربوا في قلوبهم العجل:

- وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (93)

فيتوجه إلى السامري، يسأله عن ما بدر منه:

- قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (95)

ولما علم موسى بأن السامري لم يقبض إلا قبضة (واحدة) من أثر الرسول (وهي الجزء الأعلى من رأس عصا موسى) كما في الشكل التوضيحي التالي:



Source

(وسنتحدث عن هذه القبضة لاحقا بحول الله، ولكن أرجو العودة أولا إلى قصة السامري على الموقع)

حتى يدرك موسى على الفور بأن الأمر لازال قابلا للمعالجة، وذلك لأن السامري لم يتمكن من عصا موسى إلى بالقبضة:

- **قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (96)**

وهنا يتوجه إلى السامري بالقول:

- **قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ ...**

فتصبح مهمة موسى بعدئذ تتمثل في التخلص من العجل نهائيا وإلى الأبد، فكيف سيتم التخلص من هذا العجل؟

جواب مفترى: لو دققنا في النص القرآني، لوجدنا أن موسى لم ينكر على السامري بأن ما أخرجه لهم هو إله:

- **... وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (97)**

لذا كان على موسى أن يعمد إلى الطريقة التي لابد من سلوكها (نحن نفتري القول) للتخلص ممن هو فعلا إله (كالعجل)، وهنا يقوم موسى بالتالي:

⇐ تحريق العجل

⇐ نسفه في اليم نسفا

السؤال المربك لنا: ما فائدة أن يقوم موسى بنسف العجل في اليم نسفا بعد أن يكون قد حرّقه؟ فلم (نحن نسأل) لم يكتف موسى بتحريق العجل؟ هل كان من الضروري أن ينسفه في اليم نسفا بعد أن يكون قد حرّقه؟ وماذا كان من الممكن أن يحصل لو أن موسى حرّق العجل فقط ولم ينسفه في اليم نسفا؟

رأينا: المفترى: لما كنا نعتقد أن كل ما جاء في كتاب الله هو الحق ولا يمكن الاستغناء عن أي جزئية منه مهما كانت، وجب علينا أن نتفكر في السبب الذي من أجله قام موسى بتحريق العجل (لَّنُحَرِّقَنَّهُ) أولا ثم نسفه في اليم نسفا (ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا) ثانيا.

رأينا المفترى والخطير جدا: نحن نظن أنه لو لم يقم موسى بنسف العجل في اليم نسفا بعد أن حرّقه، لما تم التخلص من العجل نهائيا وإلى الأبد. لذا نحن نفتري ما يلي:

⇐ كان الهدف من تحريق العجل هو التخلص منه نهائيا، فلا يبقى منه شيئا

⇐ كان الهدف من نسفه في اليم نسفا هو التخلص من العجل إلى الأبد فلا يعود إلى الحياة مرة أخرى

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أنه لا يمكن التخلص تماما ممن كان إلها إلا بالماء. انتهى.

السؤال: ما علاقة هذا بنهاية فرعون؟

رأينا المفترى: نحن نظن أنه لمّا كان فرعون يملك من صفات الإلوهية ما يمكنه أن يدعيها لنفسه:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)**

فإن التخلص منه تماما وإلى الأبد لن يكون ممكنا بغير الماء.

السؤال: أين الدليل على هذه الافتراءات (ربما غير المسبوقة)؟ يسأل صاحبنا مستغربا.

رأينا: من أجل جلب الدليل الذي يمكن أن يثبت افتراءاتنا هذه، فلا مناص (نحن نظن) من العودة مرات ومرات إلى قصة فرعون، والتركيز على شخصية هذا الرجل الذي جاء ذكره كثيرا في كتاب الله. فلم يذكر نبي ولا رسول ولا عبد صالح من عباد الله بنفس الحجم الذي ذكر فيه فرعون في كتاب الله، فلا يكاد جزء في كتاب الله يخلو من ذكر فرعون بالتصريح أو بالتلميح، ليكون السؤال الحتمي دائما هو: من هو هذا الرجل؟

باب: شخصية فرعون

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نظن أن فرعون هو ذلك "الإنسان" الذي جاء ذكره كثيرا في كتاب الله. انتهى.

سؤال: وهل هذا فعلا افتراء خطير؟ ما الذي تقوله (يا رجل)؟ ألا ترى أنك لا تنفك عن قول كل ما فيه جنون؟

جواب: نعم، نحن نظن أن فرعون هو ذلك "الإنسان" الذي جاء ذكره كثيرا في كتاب الله.

السؤال: وما الجديد في ذلك؟ أليس فرعون هو الإنسان كما هم بقية الناس (من مثلي ومثلك)؟

جواب: كلا وألف كلا.

السؤال: لماذا؟

رأينا: لأني أنا شخصيا لست إنسانا. ولا أفضل أن أكون إنسانا.

جواب: إذا لم تكن أنت "إنسان" كما تزعم؟ فمن أنت إذن؟ هل أنت قرد أو حيوان؟ ربما يريد أن يرد محاورنا بكل أدب جم.

رأينا المفترى: أسأل الله وحده أن لا أكون إنسانا وأفضل أن أكون حيوانا؟

(دعاء: أللهم رب أدعوك وحدك أن لا أكون إنسانا، إنك أنت السميع العليم – آمين)

السؤال: لماذا لا تفضل أن تكون إنسانا؟

جواب: دعني أطرح التساؤل التالي على مسمع كل من يقرأ هذه السطور: هل محمد نفسه إنسان؟ وهل كان نوح أو إبراهيم أو موسى إنسانا؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نفتري الظن بأن محمدا أو نوحا أو إبراهيم أو موسى أو عيسى أو كل عباد الله الصالحين لم يكونوا "إنسانا. انتهى.

السؤال: هل فعلا هذا قول يستحق أن يقرأ؟ وأين الدليل على ما تفتريه من قول؟ يسأل صاحبنا مستغربا.

جواب مفترى: دعنا ندقق في كل الآيات الكريمة التي جاء فيها ذكر مفردة الإنسان في كتاب الله، ثم نرى بعد ذلك ما يمكن لنا جميعا أن نستنبطه منها.

باب الإنسان في كتاب الله

قال تعالى:

- **يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا (28)**
- **وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (12)**
- **وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (9)**

- وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (34)
- وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (26)
- خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (4)
- وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا (11)
- وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا (67)
- وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (83)
- قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا (100)
- وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (54)
- وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (67)
- خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (37)
- وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ (66)
- وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (12)
- وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۚ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (8)
- وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14)
- الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ (7)
- إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (72)
- أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (77)
- وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (8)
- فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (49)
- لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (49)
- وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (51)
- فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ۗ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ (48)
- وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ۚ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ (15)

- وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (15)
- وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16)
- خَلَقَ الْإِنسَانَ (3)
- خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (14)
- إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19)
- أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ (3)
- بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (5)
- يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (10)
- يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13)
- بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14)
- أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (36)
- هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (1) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (2)
- يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ (35)
- قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17)
- فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (24)
- يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6)
- يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (6)
- فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5)
- فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15)
- وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ (23)
- لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ (4)
- لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4)
- خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2)
- عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5)
- كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (6)
- وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا (3)
- إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (6)
- إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2)

لو دققنا في جميع هذه السياقات القرآنية السابقة الخاصة بمفردة الإنسان كما وردت في كتاب الله الكريم، لوجدناها تقع جميعا (نحن نفتري القول) في بابين اثنين رئيسيين، وهما:

1. باب الخلق
2. باب السلوكك

أما في باب الخلق، فإننا نجد الآيات الكريمة التالية، التي تتحدث على أن الإنسان لم يكن في الأصل شيئا مذكورا:

- وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (67)
- هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (1)

وأن خلقه قد بدأ من طين:

- الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ (7)
- وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (12)

وأن خلقه كان من صلصال من فخار:

- وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (26)
- خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (14)

وأن خلقه أصبح من نطفة:

- خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (4)
- أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (77)
- إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (2)

وأن خلقه جاء من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب:

- فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (6) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (7)

وأن خلقه كان من علق:

- خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2)

وأن الإنسان قد خلق ضعيفا:

- يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا (28)

وأن خلقه كان من عجل:

- خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍۚ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (37)

وأنه قد خلق هلوعا، وفي كبد:

- إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19)
- لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ (4)

وبالرغم من هذا كله، فقد جاء خلقه في أحسن تقويم:

- لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4)

وأما في باب السلوك، فإننا نجد الآيات الكريمة التي تتحدث عن كفر الإنسان بنعمة ربه:

- وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (12)

فالإنسان يئوس كفور:

- وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (9)
- وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (83)
- وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا (67)
- وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ (66)

فهل ينطبق هذا على محمد ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى وكل عباد الله الصالحين؟

والإنسان ظلوم كفار:

- وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (34)

والإنسان خصيم مبين:

- خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (4)
- أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (77)

والإنسان دائما عجولا:

- وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا (11)

والإنسان قتورا:

- قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا (100)

والإنسان هو أكثر شيء جدلا:

- وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (54)

والإنسان هو الذي تقبل حمل الأمانة لأنه ظلوم جهول:

- إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (72)

والإنسان هو الذي ينسى نعمة ربه:

- وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (8)

وهو الذي ينسب الفضل نعمة ربه إلى نفسه:

- فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (49)

والإنسان دائم الدعاء بالخير ولكنه قنوط عندما يمسه الشر:

- لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (49)

والإنسان هو صاحب الدعاء العريض عندما يمسه الشر:

- وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (51)

وهو الذي يفرح بالنعمة ولكنه يكفر عندما تصيبه السيئة:

- فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ۗ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ (48)

- فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16)

فيكون بذلك كفور مبين:

- وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ۚ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ (15)
- وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16)

وهو الذي يخطئ التقدير فيقع عمله في باب الحسبة (التي لا خلو من الخطأ):

- أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ (3)
- بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (5)
- يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (10)
- يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13)
- بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14)
- أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (36)
- يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ (35)
- يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6)
- يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (6)
- وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ (23)
- عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5) كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (6)
- وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا (3)
- إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (6)

وتكون النتيجة النهائية لذلك كله هو ما جاء في قوله تعالى:

- قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17)
- إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2)

رأينا المفترى: لو تدبرنا هذه الآيات الكريمة التي تتحدث عن سلوك "الإنسان" جميعها، لوجدناها قد جاءت تتحدث عن الإنسان على سبيل الذم، أليس كذلك؟

السؤال: إذن، دعنا نطرح التساؤل التالي على الفور: هل يمكن أن يكون محمد إنسانا؟ فهل يمكن أن يكون محمد إنسانا والله هو من وصف الإنسان على أنه يئوس كفور وظلوم كفار وخصيم مبين وكفور مبين؟

- وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (9)
- وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (34)
- خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (4)
- وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ۚ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ (15)

وهل يمكن أن يكون محمد إنسانا والله هو من وصف الإنسان على أنه لا يعترف بنعمة الله التي أنعمها عليه؟

- وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (12)
- إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (6)
- فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16)

وهل يمكن أن يكون محمد إنسانا والله هو من تحدث عن نهاية الإنسان على النحو التالي:

- كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (6)
- إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2)
- قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17)

السؤال مرة أخرى: هل يمكن أن تنطبق مثل هذه السلوكيات على محمد (أو على نوح وإبراهيم وموسى)؟

رأينا: كلا، وألف كلا.

السؤال: إذا لم يكن محمد كذلك، ألم يخلق محمد أصلا من نطفة كما جاء في قوله تعالى؟

- يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا (28)
- وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (26)
- وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (67)
- خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (37)
- وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (12)
- الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ (7)
- وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16)
- خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (14)
- إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19)
- هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (1) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (2)

جواب: بلى. لقد خلق كذلك.

السؤال: وكيف إذن لا تعتبر محمدا إنسانا مادام أنه قد خُلِق من طين، ومادام أنه قد خُلِق من نطفة؟

رأينا المفترى: نعم، هنا نصل إلى غاية المقصد من كلامنا عن مفردة الإنسان في السياقات القرآنية كلها.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن محمدا (ونوحا وإبراهيم وموسى وفرعون وأنا وأنت) قد خلقنا بهذه الصفة (أي إنسان). ولكن في حين أن محمدا ونوحا وإبراهيم وموسى استطاعوا أن يتخلصوا من هذه الصفة (أي الإنسانية)، لم يتخلص فرعون منها، وها أنا وأنت نحاول جاهدين أن نتخلص منها.

(دعاء: أللهم أشهدك بأني أعلم أني قد خُلقت إنسانا ولكني أدعوك وحدك أن لا أموت كذلك)

السؤال: ما الذي تريد أن تقوله؟ لم أفهم ما تقصد. يرد صاحبنا قائلا.

تلخيص ما سبق: نحن نظن أن كل من بدأ الله خلقه من طين ثم من نطفة من ماء مهين، فهو يحمل هذه الصفة (الإنسان). ولكن الذين استطاعوا أن يحصلوا على الهداية من الله (كمحمد ونوح وإبراهيم وموسى)، فهم الذين استطاعوا أن يتخلصوا من هذه الصفة تماما. ولكن الذي لم يحصل على الهداية من الله (كفرعون) فقد استمر يحمل هذه الصفة. أما أنا وأنت فإننا نحاول (ما استطعنا إلى ذلك سبيلا) أن نتخلص منها.

السؤال: متى تخلص محمد مثلا من هذه الصفة (الإنسانية)؟

رأينا: نحن نظن أن محمدا قد خلق إنسانا، وظل يتصف بهذه الصفة مادام في الضلالة، وما تخلص منها إلى عندما هداه الله، مصداقا لقوله تعالى:

- **وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (7)**

إذن نحن نريد أن نميز بين فترتين زمنيتين في حياة محمد وهما:

1. فترة الضلالة
2. فترة الهداية

افتراء خطير جدا: خلال فترة الضلالة التي عاشها محمد، كان يتصف بصفة الإنسانية (فكان محمد إنسانا). ولكن وما أن وجده ربه ضالا وهداه حتى انقلبت الأمور تماما، فما عاد محمد إنسانا بعد هداية الله له:

- **وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (7)**

ولو راقبنا الحوار الذي دار بين موسى وفرعون من هذا الباب، لوجدنا السيناريو نفسه ينطبق على موسى، فهذا فرعون يوجه الحديث إلى موسى على أنه كان من الكافرين عندما فعل فعلته التي فعل:

- **وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (19)**

فيرد عليه موسى (مصححا قول فرعون الذي أخطأ في التقدير) بالقول:

- **قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20)**

نتيجة مفتراة: عندما فعل موسى فعلته التي فعل، كان لا يزال من الضالين، فكان (نحن نفتري الظن) لازال يحمل صفة الإنسان، وما تخلص منها إلا بعد أن هداه الله صراطه المستقيم؟

وهذا المنطق ينطبق أيضا على إبراهيم الذي قال في قومه:

- **وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ۚ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ۚ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (80)**

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هناك حد فاصل في حياة كل من يولد إنسانا، عندها يصبح لزاما عليه أن يختار في أن يبقى إنسانا أو أن يتحول، وهذا الحد الفاصل هو- برأينا – سن الأربعين، مصداقا لقوله تعالى:

- وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (15)

فإذا ما اختار الإنسان الذي بلغ سن الأربعين أن يشكر نعمة ربه التي أنعمها عليه وعلى والديه وقرر أن يعمل صالحا يرضاه ربه، فعاد إلى ربه مسلما تائبا، فهو بذلك قد اختار الطريق السليم وهي التخلص من الإنسانية، وأما إذا قرر خلاف ذلك، فإننا نظن أن قول الحق التالي ينطبق عليه:

- قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17)

(دعاء: رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين)

وليس أدل على ذلك مما فعل الإنسان (فرعون) الذي رفض أن يتذكر أو أن يخشى، فالله هو من بعث موسى وأخاه هارون إلى فرعون بالرسالة التالية:

- اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (44)

فما كانت ردة فعله إلا التكذيب:

- وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ (56)

نتيجة مفتراة: نحن نظن أنه لو كانت ردة فرعون على نحو أن يتذكر أو أن يخشى، لخرج من نطاق إنسانيته، ولما استمر في طغيانه.

السؤال: ما المطلوب من الإنسان أن يفعل حتى يخرج من نطاق إنسانيته؟

جواب مفترى: نحن نفتري الظن بأن الإنسان (أي إنسان) يستطيع أن يتخلص من إنسانيته بواحدة من طريقين أو بالطريقين معا، وهما:

1. أن يتذكر، أو
2. أن يخشى

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: إن هذا النقاش يعيدنا إلى القضية الكبيرة جدا التي تطرقنا لها في سلسلة مقالاتنا تحت عنوان باب الأمانة، الخاصة برحلة الإنسان في الوجود. طارحين التساؤلات التالية:

- متى بدأت؟

- كيف بدأت؟
- ولماذا حصلت على هذا النحو؟
- وإلى أين ستنتهي؟
- الخ.

لذا، أدعو القارئ الكريم إلى العودة إلى سلسلة تلك المقالات من أجل متابعة النقاش في هذا الجزء من المقالة)

تلخيص الافتراءات السابقة التي جاءت في سلسلة تلك المقالات

أولا، لقد افترينا القول حينئذ بأن خلق الإنسان (كل إنسان) قد بدأ مع خلق آدم نفسه. فنحن كنا متواجدين كبشر (وليس كـ ناس) مع خلق آدم نفسه، وقد كنا حاضرين بصورنا (أي بهيئاتنا الحالية دون تغيير قبل أن يطلب الله من الملائكة السجود لآدم، مصداقا لقوله تعالى:

- **وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (11)**

لذا، نحن نفهم أن خلقنا وتصويرنا قد حصل قبل حدوث الطلب الإلهي (أو بكلمات أدق الأمر الإلهي للملائكة) السجود لآدم.

ثانيا، ما أن تم خلقنا وتصويرنا حينئذ حتى تم إيداعنا جميعا كذرية في ظهر أبينا الأول آدم، فحصل السجود من قبل الملائكة لآدم ونحن متواجدين في ظهره كذرية.

ثالثا، ما أن انتقلت تلك الذرية في ظهور الآباء حتى حصل أمر جلل، يتلخص بقول الحق في كتابه الكريم:

- **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (172)**

لذا، حصلت منا الشهادة بأن الله هو وحده ربنا.

ثالثا، حصلت المعصية الأولى من قبل آدم، فتحولت الآلية في الإنجاب من الخلافة التي كان الله يريدها لآدم:

- **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (30)**

إلى الملك الذي أرداه الشيطان لآدم:

- **فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى (120)**

رابعا، كانت أول نتائج هذا التحول هو نزع اللباس عن آدم وزوجه:

- **يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ (27)**

وكان ذلك – برأينا- سبب نشوء العلاقة الجنسية الحميمة بنسختها الجديدة التي نعرفها.

خامسا، أصبح من مسلمات تلك العلاقة انتقال الذرية من ظهور الآباء إلى بطون الأمهات

سادسا، كانت الذرية في ظهور الآباء شاهدة كلها لله بالربوبية:

- وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (172)

سابعا، انتقلت الذرية من ظهور الآباء لتمكث في بطون الأمهات فترة تسعة أشهر (أي فترة الحمل حتى الوضع)

ثامنا، كانت أول ثمرات مكوث الذرية في بطون الأمهات هذه الفترة الطويلة من الزمن أن خرجوا جميعا لا يعلمون شيئا:

- وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (78)

السؤال: ما الذي نفهمه من هذا كله؟

جواب مفترى: إن ما نحاول تبيانه جاهدين هو الظن بأن الله خلقنا بشرا:

- وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (28)
- إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ (71)

ولكننا أصبحنا أناسا بسبب المعصية التي غيرت طريقة الإنجاب والتكاثر، فبدل أن نكون خلائف في الأرض، أصبحنا ذرية بعضها من بعض. ولم يسلم من هذه المعادلة إلا عيسى بن مريم.

الدليل

قال تعالى:

- يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13)

فكل من خلق من ذكر وأنثى فهو إذن من الناس. وبناء عليه يخرج من هذا التصنيف (الناس) ثلاثة، هم:

1. آدم
2. زوجه
3. عيسى بن مريم

السؤال: ما الذي حصل مع كل واحد من هؤلاء الثلاثة؟

رأينا المفترى: أما آدم فقد خلق بشرا:

- إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ (71)

ولكنه نسي فما كان له عزم على ذلك:

- وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (115)

فنسي، فتحول بسبب هذا النسيان (نحن نفتري القول) إلى أن يصبح إنسانا، وهناك تلقى من ربه كلمات:

- فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37)

أما زوج آدم، فهي لم تخلق أصلا من ذكر وأنثى أصلا، لذا فهي لم تخسر الكثير، وذلك لأنها لم تنزل عند رغبة الشيطان، فلم تنسى كثيرا، فما حملت من التكليف ما حمل زوجها، ولازالت تشعر بنعيم الجنة حتى اليوم. وليس أدل على ذلك من شعورها بحب الحلي والزينة (انظر ماذا ستفعل النساء في الجنة). وسنتحدث

عن هذا بالتفصيل بحول الله وتوفيقه عندما نتحدث عن أسورة فرعون. فالله وحده أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يجعل فضله وحده عليّ عظيما – آمين.

أما عيسى بن مريم فلم ينسى، فكان كلامه الأول في المهد على النحو التالي:

- **قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (32) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33) ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34)**

النتيجة المفتراة: نحن نظن أن رحلتنا في هذا الكون قد بدأت على أساس البشرية ثم تحولت إلى الإنسانية (بسبب النسيان)، فأصبحت مهمة هذا الإنسان (الذي نسي) الرجوع مرة أخرى إلى بشريته بعد أن يستطيع التخلص من عبء الإنسانية الذي أثقل كاهله.

افتراءات خطيرة جدا جدا: نحن نظن بأن

⇐ البشرية هي صفة فطرية في الخلق
⇐ الإنسانية هي صفة مكتسبة وليست فطرية في الخلق
⇐ النسيان هو الذي سبب ذلك
⇐ الإنسانية هي إذن تدرجية تزيد وتنقص
⇐ الإنسانية تختلف من شخص إلى آخر، فتزداد الإنسانية في الشخص كلما زاد نسيانه وتقل كلما تذكر
⇐ الإنسانية يمكن التغلب عليها بالخشية
⇐ الخ.

نتيجة مفتراة خطيرة جدا: كلما زادت إنسانيتك زاد كفرك، قال تعالى:

- **قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17)**

باب القتل

سنحاول فيما تبقى من هذا الجزء من المقالة تبيان افتراءنا بأن فرعون (بشخصه) كان يمثل قمة الإنسانية، فهو الشخص الذي تنطبق عليه الآيات القرآنية التي تتحدث عن الْإِنسَانَ بسلوكياته المذمومة التي جاءت في آيات الكتاب الحكيم التي أوردناها سابقا، ونعيدها هنا لتأكيد الفكرة نفسها ثم نحاول بعد ذلك المضي قدما في النقاش الخاص بشخص فرعون نفسه، قال تعالى:

- **وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (12)**

- وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (9)
- وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِۦۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (83)
- وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا (67)
- وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ (66)
- وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَاۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (34)
- خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (4)
- أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (77)
- وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا (11)
- قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا (100)
- وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (54)
- إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (72)
- وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (8)
- فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (49)
- لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (49)
- وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (51)
- فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُۗ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ (48)
- فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16)
- وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًاۚ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ (15)
- وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16)
- أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ (3)
- بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (5)
- يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (10)
- يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13)
- بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14)
- أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (36)
- يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ (35)
- يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6)

- يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (6)
- وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ (23)
- عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5) كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (6)
- وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا (3)
- إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (6)
- قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17)
- إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2)

وقد كان فرعون بشخصه هو فقط من ادعى لنفسه الإلوهية والربوبية، وتجرأ على مقاتلة رب موسى، فما كان نصيبه أكثر من القتل:

- قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17)

السؤال: كيف حصل ذلك؟

رأينا: إن هذا الظن يدعونا إلى محاولة تدبر مفردة القتل في سياقاتها القرآنية، مبتدئين النقاش بالافتراء الخطير التالي: القتل لا ينهي الحياة. انتهى.

السؤال: أين الدليل على أن القتل لا ينهي الحياة (كما تزعم)؟ يسأل صاحبنا مستغربا.

جواب مفترى من عند أنفسنا: دعنا نتدبر ما جاء في الآية الكريمة التالية:

- وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن هناك من يقتل في سبيل الله، فالبعض كان يحسب (من باب الخطأ) أن من قتل في سبيل الله قد مات، وهذا ما جاءت الآية الكريمة السابقة لتصححه. فالظن بأن المقتول في سبيل الله هو من الأموات هو قول يقع في باب الحسبة الخاطئة (وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا)، والحق هو أن من قتلوا في سبيل الله هم أحياء (بَلْ أَحْيَاء)، ولكن حياتهم هذه هي عند ربهم (بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ). واقرأ – إن شئت- الآية الكريمة السابقة كلها مرة أخرى:

- وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169)

والله ينهانا في الآية الكريمة الأخرى التالية أن نقول لمن يقتل في سبيله أمواتا:

- وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ (154)

لكن المشكلة تكمن في أننا لا نشعر بذلك (وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ)، فيقع فعلنا كله في هذا المجال في باب الحسبة (وَلاَ تَحْسَبَنَّ).

عندما يقتل شخص في سبيل الله، يظن الكثيرون بأن حياة هذا الشخص قد انتهت عند هذه اللحظة التي قتل فيها، فتنطلق ألسنتهم بالقول بأن هؤلاء الذين قتلوا في سبيل الله هم أمواتا، فيكون قولهم هذا من باب الحسبة الخاطئة، لأن الحقيقة هي أن هؤلاء ليسوا أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون وإن كنا لا نشعر بذلك.

السؤال: كيف يمكن أن نفهم ذلك؟ هل فعلا يكون المقتول في سبيل الله حي عند ربه يرزق؟ وما فائدة ذلك؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نفتري الظن أن من قتل في سبيل الله حي عند ربه يرزق وذلك لأن أجله المسمى عند ربه لم يحين بعد. انتهى.

السؤال: ما معنى هذا؟ لم أفهم شيئا. يرد صاحبنا قائلا.

رأينا المفترى: نحن نظن أنه يجب علينا أن نميز بين نوعين من الوفاة وهما:

1. الوفاة بالموت
2. الوفاة بالقتل

فقد تحصل الوفاة للشخص بالموت وقد تحصل الوفاة له بالقتل. والفرق بينهما يتمثل بأن الوفاة بالموت تحصل بسبب حضور الأجل المسمى عند الله أما الوفاة بالقتل فتحصل قبل حضور ذلك الأجل.

الدليل

لو تفقدنا الآية الكريمة التالية لوجدنا أن هناك أجل مسمى. وإذا ما حضر هذا الأجل المسمى فإن من الاستحالة بمكان أن يستقدم الإنسان ساعة أو أن يستأخر ساعة:

- **وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ (61)**

وهنا بالضبط (نحن نفتري القول) يحصل الموت:

- **وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ (61)**

وهنا بالضبط (نحن نفتري القول) تحصل الوفاة بالموت، ويكون الموكل بوفاتك هنا هو ملك الموت:

- **قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (11)**

وهنا بالضبط (نحن نفتري القول) يتوفى الله بنفسه نفسَ من مات:

- **اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (42)**

نتائج خطيرة جدا جدا مفتراة من عند أنفسنا:
هناك أجل مسمى عند الله لكل شخص
إذا حضر هذا الأجل وقع فعل الموت
إذا وقع فعل الموت بالأجل المسمى عند الله يصبح من الاستحالة بمكان أن يتقدم الشخص ساعة أو أن يستأخر ساعة
يكون الموت (ككينونة) هو الذي ينهي حياة الشخص الذي حضره الأجل المسمى عند الله
تقوم رسل ربنا (وبالذات ملك الموت الذي وكّل بنا) بفعل الوفاة، فهو الذي يتوفانا
يكون الله نفسه هو الذي يتوفى النفس، أي نفس الشخص الذي مات.
نتيجة خطيرة جدا جدا: يشترك في إنهاء حياة الشخص الذي حضره الأجل المسمى ثلاثة أطراف، وهم:
الموت
ملك الموت
الله

وتكون مهمة كل طرف على النحو التالي:

1. الموت (الذي يجيء ككينونة) هو الذي يسبب نهاية حياة الشخص
   - **وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ (61)**
2. ملك الموت هو الذي يتوفى الشخص
   - **قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (11)**
3. الله هو الذي يتوفى نفس الشخص
   - **اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ...**

تلخيص ما سبق: إذا ما حصلت الوفاة للشخص بالموت عند حضور الأجل المسمى، يجيء الموت (ككينونة) ليكون السبب في إنهاء حياة هذا الشخص، ويتوكل ملك الموت حينها بوفاة هذا الشخص، ويتوكل الله نفسه بوفاة نفس هذا الشخص الذي مات. وفي هذه الحالة يستحيل الرجوع:

- **فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (83) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (84) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ (85) فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (86) تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (87)**

لهذا، نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن الموت لا يجيء (ككينونة) إلا حين يحضر الأجل المسمى عند الله، فيجيء الموت ليسبب نهاية حياة هذا الشخص، ويحضر معه ملك الموت (كرسول من ربنا)، وتتلخص مهمة هذا الرسول (المسمى بملك الموت) بأن يتوفى الشخص الذي قضى عليه الموت، فيكون ذلك الشخص في عهدة هذا الملك (أي مدون في سجلاته)، ويتولى الله بنفسه وفاة نفس هذا الشخص الذي قضى عليه الموت.

السؤال: كيف يمكن أن نفهم هذا الكلام المفترى؟

فلسفة وجودية جديدة: ثلاثية الجسد والنفس والروح

دعنا نحاول تبيان ذلك بطرح تصورنا لفكرة الموت، كما نفهمها (ربما مخطئين) من الآيات الكريمة.

بداية، نحن على العقيدة التي مفادها أن الإنسان ككينونة يتشكل من ثلاث طبقات (أو مستويات)، وهي على الترتيب:

1. مستوى الجسد
2. ومستوى النفس
3. ومستوى الروح

فحتى تحصل الحياة للشخص، فلابد من تجمّع هذه المستويات معا، فخلق الإنسان (نحن نفتري القول) قد مر بهذه المستويات الثلاثة. فالله هو الذي خلق بشرا من طين (مستوى الجسد)، وقام بعد ذلك بتسويته (أي وضع النفس فيه)، ثم نفخ فيه روحه (مستوى الروح)، فكان حيا:

- **إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (72)**

فحتى أصبح كائنا حيا (بصورته النهائية)، مر هذا الكائن بثلاثة مراحل متتابعة وهي مرحلة الخلق (الجسد من طين) ثم مرحلة التسوية (وضع النفس) وأخيرا مرحلة النفخ (أي الروح). وما كان قادرا على الحياة

إلا بعد أن تجمعت هذه المستويات الثلاثة مع بعضها البعض، فشكلت كينونة واحدة، هي هذا الكائن الحي الذي نعرفه.

ولكي يتم إنهاء حياة هذا الكائن، لابد (نحن لازلنا نفتري القول) من تفكك هذه المستويات، ولكن بطريقة عكسية تماما:

1. خروج الروح
2. وفاة النفس
3. هلاك الجسد

السؤال: كيف يحصل ذلك؟

رأينا المفترى: عندما يحين الأجل المسمى عند الله، يجيء الموت، فيكون سببا في نهاية حياة الشخص، ويحصل ذلك بإخراج الروح من الجسد، أي تفريغ الجسد من الطاقة (الحرارة). فيبرد الجسد، ويؤدي ذلك إلى تعطل وظائف الأعضاء فيه تماما. ولتقريب الصورة دعنا نتخيل الروح وكأنها مفتاح التشغيل في الآلة. فإذا ما تم إطفاء المحرك بالمفتاح، فإن حرارة الآلة تنفذ، وبالتالي تؤدي إلى تعطل عمل كل الأجزاء الأخرى في الآلة حتى لو كانت سليمة.

وفي حالة الكائن الحي، فإن مجرد توقف الحرارة (الروح) فيه، فإن ذلك يؤدي إلى الموت المحتم إذا لم يتم التدخل السريع لشحن الجسم مرة أخرى، كما يحصل في حالات الإنعاش بالمستشفيات. فعندما يتم إحضار شخص إلى المستشفى في حالة تعطل لحرارة جسمه، تقوم فرق الإنقاذ بشحن الجسم بالكهرباء، في محاولة لتشغيل الدينامو المولد للطاقة في الجسم، وهو القلب. فيصعق قلب المريض بالشحنات الكهربائية، وإذا ما نجحت المحاولات، فإن الشخص يعود إلى الحياة، وتستمر أعضاء جسمه بالعمل كالمعتاد.

نتيجة مفتراة مهمة جدا: إذا ما خرجت الروح (أي الحرارة) من الجسم يمكن إعادتها إذا حصل تدخل طبي مباشر.

السؤال: لماذا تنجح بعض محاولات الإنعاش؟ ولماذا تفشل بعض المحاولات؟ أي متى يمكن أن تنجح محاولة إعادة الروح (الحرارة أو الطاقة) للجسم ومتى تفشل؟

رأينا المفترى الخطير جدا جدا: نحن نظن أن محاولات الإنعاش (أي إعادة الطاقة) للجسم لا يمكن أن تنجح إذا كان الموت هو الذي قضى نفس الإنسان. لكن بالمقابل إذا لم يكن الموت هو سبب الوفاة، فإن محاولة الإنعاش يمكن لها أن تنجح بالتدخل الطبي المباشر.

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى: لأن الموت لا يجيء إلا إذا قضى الأجل المسمى عند الله. انتهى.

السؤال: وهل يمكن أن تحصل الوفاة للشخص دون حضور الموت (ككينونة)؟

جواب مفترى خطير جدا: نعم. يمكن أن تحصل الوفاة للشخص بدون حضور الموت.

السؤال: ومتى يكون ذلك؟

جواب: بالقتل.

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نظن أن القتل يحصل قبل أن يأتي الأجل المسمى عند الله. انتهى.

الدليل

لو تفقدنا السياقات القرآنية الخاصة بالقتل على مساحة النص القرآني لوجدنا أن القتل هو فعل غالبا ما يقوم به الناس بحق بعضهم البعض، أو بحق أنفسهم. فها هو الأمر الإلهي قد جاء بني إسرائيل بأن يقتلوا أنفسهم:

- وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (54)
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (29)
- وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (66)
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (56)
- الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ۗ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (168)
- وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169)
- فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۖ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (195)
- إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (33)

وهذا هو النهي إلهي عن أن يقتل الإنسان ولده:

- قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (140)
- قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151)
- وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (31)
- يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (12)

وها هم آل فرعون يقتلون أبناء بني إسرائيل:

- وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (141)

وقد كان موسى يخاف أن يقتله بنو إسرائيل حتى بعد أن طلب الله نفسه منه أن يأتيهم:

- وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (11) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (12) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (13) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (14) قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (15)

وبالفعل كان الملأ يأتمرون به ليقتلوه:

- وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20)

وذلك لأن موسى قد قتل منهم نفسا:

- قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (33)

وها هم الناس يقتلون بعضهم البعض:

- فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (5)
- اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (9)
- قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (10)
- وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (58)
- مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا (61)
- فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (25)
- فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (4)

وها هم بعض الناس يقتلون أنبياء الله:

- وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ (61)
- إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (21)
- ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ (112)

والله نهانا عن قتل النفس بغير حق:

- وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا (33)

والقتل يقع بحق الصيد:

- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ۗ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (95)

وهذا هو جزاء القتل المتعمد

- وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (93)

وهذا هو جزاء القتل الخطأ:

- وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مْؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللّهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (92)

السؤال: ما الذي يمكن أن نستنبطه من هذا كله؟

رأينا المفترى: نحن نظن أننا نستطيع تقديم الاستنباطات المفتراة من عند أنفسنا التالية عن القتل:

⇐ القتل فعل يقوم به الناس بحق بعضهم البعض، كقتل الناس العاديين، وكقتل الأنبياء، وكقتل الأولاد

⇐ القتل قد يكون خطأ

⇐ القتل قد يكون متعمدا

⇐ القتل الخطأ له كفارة

⇐ القتل المتعمد جزاءه جهنم

⇐ القتل يقع بحق الصيد

⇐ الخ

السؤال: لماذا يسمى ذلك قتلا؟

جواب مفترى: لأن ذلك قد وقع قبل أن يأتي الأجل المسمى عند الله. لذا فإن جزاءه النار إذا كان متعمدا، وله كفارة إن كان القتل قد وقع خطأ.

السؤال: كيف يقع القتل قبل أن يأتي الأجل؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أنه إذا حصلت الوفاة للشخص قبل أن يأتي الأجل المسمى عند الله، فإن ذلك لا يقع في باب الموت، وإنما يقع في باب القتل، فالذي يقتل في المعركة قد حصلت له الوفاة بالقتل وليس بالموت:

- وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169)

وكذلك هو قتل الأنبياء بغير حق، وكذلك هو قتل الآباء أولادهم أو قتل الأمهات أولادهن، وهكذا هو قتل الصيد. الخ.

السؤال: كيف يمكن أن نفهم ذلك؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: لو تفقدنا الآية الكريمة التالية:

- **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ (2)**

لوجدنا أن الدقة في التدبر تتطلب منا التفريق بين أجلين، هما:

1. الأجل
2. الأجل المسمى عند الله

فلقد مضت سنة الله في الخلق أن يكون هناك أجل (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً) كما قضت سنته أن يكون هناك أجل مسمى عنده (وَأَجَلٌ مُّسمًّى). وبناء على هذا (كما نفهمه)، فإننا نتجرأ على الافتراءات التالية:

- نهاية حياة هذا الكائن (الإنسان) قد تحدث بالأجل الأول أو قد تحدث بالأجل الثاني (وهو الأجل المسمى عند الله)
- إذا حصلت النهاية لحياة الإنسان بالأجل الأول فإن الموت (ككينونة) لا يمكن أن يكون هو السبب في ذلك، فيسمى ذلك قتلا، وتكون نهاية هذا الكائن قد حصلت بالقتل وليس بالموت.
- إذا حصلت النهاية لحياة الإنسان بالأجل الثاني (أي الأجل المسمى عند الله) فإن الموت (ككينونة) هو السبب في ذلك، ويسمى ذلك وفاة بالموت وليس بالقتل.

الموت أو القتل: فلسفة جديدة

نحن على العقيدة التي لا تتزحزح بأن الله لا يظلم مثقال ذرة:

- **إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (40)**

فقضى مشيئته بأن يكون لجميع الخلق أجل مسمى عنده. ويكون سببه الموت (ككينونة)
ولكن لم يقضي الله مشيئة بأن لا يظلم الناس أنفسهم، فوقع الظلم من الناس لأنفسهم:

- **إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (44)**

فكان هناك (نتيجة ظلم الناس أنفسهم) أجل آخر قد يسبق الأجل المسمى عند الله، وهذا ما يمكن أن يكون سببه الناس أنفسهم.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا 1: هناك لكل إنسان أجلان

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا 2: هناك أجل (ثُمَّ قَضَى أَجَلاً)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا 3: هناك أجل مسمى عند الله (وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ)

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: قضت مشيئة الله أن يخلق، فكان هذا الكائن بشرا، فقضى لهذا الكائن أجلا مسمى عنده، فكان من العدل الإلهي أن يقضي لكل إنسان الأجل نفسه (أي بنفس المقدار)، فكان هذا هو – برأينا- الأجل المسمى عند الله. فلو لم يحصل ظلم للناس من أنفسهم لحصلت الوفاة بالموت للناس جميعا بهذا الأجل المسمى عند الله. فالله (نحن نتخيل) قد قدر أعمار الناس كلهم لتكون متساوية تماما، فكان من المفترض أن يعيش كل إنسان العمر نفسه الذي يعيشه غيره، فلا تحصل الوفاة بالموت لأحد قبل أن يحين هذا الأجل المسمى عند الله.

ولكن لمّا كان هناك فرصة أن يظلم الناس أنفسهم، أصبح من الممكن أن تحصل الوفاة للناس قبل هذا الأجل المسمى عند الله، وهنا يمكن أن يقضى أجل قبل الأجل المسمى عند الله. فيحصل التفاوت في الوفاة بين الناس، مصداقا لقوله تعالى:

- **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5)**

نتائج مفتراة من عند أنفسنا:

إذا لم يقع ظلم للناس على أنفسهم من أنفسهم، فإن الإنسان يعيش الفترة الزمنية بطولها حتى يبلغ الأجل المسمى عند الله، وهنا بالضبط يمكن أن تحصل الوفاة للشخص بالموت، ويقوم بتنفيذ بذلك الموت نفسه:

- **وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ (61)**

إذا وقع ظلم للناس على أنفسهم، فإن ذلك يؤدي إلى أن يقضى أجل قبل الأجل المسمى عند الله، وهنا بالضبط تحصل الوفاة للشخص بالقتل، ويقوم بتنفيذ ذلك القاتل وليس الموت.

لذا وجب علينا التفريق بين الموت (ألذي هو من الله وينفذه الموت نفسه) والقتل (الذي هو من عند الله ولكنه ليس من الله) وهو الذي لا ينفذه الموت:

- **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ (144)**

الدليل

تساؤلات

⇐ لماذا قضى الله أن يكون هناك عقاب للقاتل المتعمد وهو الخلود في النار؟

⇐ لماذا شرع الله أن يكون هناك كفارة للقتل الخطأ؟

⇐ إن صح منطق الفكر الشعبي السائد بأن كل ذلك من الله (وهو ما نرفضه جملة وتفصيلا)، ألا يكون القاتل منفذا لقضاء الله؟ فلم يعاقب الله من يقوم بتنفيذ قضاءه؟

⇐ لم يكون الشعور بالحزن متفاوتا في حالة القتل المختلفة؟ فلم يزداد الشعور بالحزن كلما كان المقتول أصغر في العمر؟

⇐ الخ.

تخيل عزيزي القارئ أنك كنت تقود سيارتك ، وحصل (لا قدر الله) أن أصدمت بشخص في الطريق، فكانت النتيجة قتل هذا الشخص، فماذا ستكون ردة فعلك لو كان هذا الشخص قد بلغ من العمر السبعين أو الثمانين من العمر؟ وماذا ستكون ردة فعلك لو أن هذا الشخص المقتول كان في الثلاثين أو الأربعين من العمر؟ وماذا ستكون ردة فعلك لو أن هذا المقتول لازال شابا صغيرا أو حتى طفلا؟ ألا يزداد شعورك (وكذلك شعور الناس من حولك) بالحزن كلما كان المقتول أصغر في العمر؟ فلماذا؟ نحن نتساءل.

جواب مفترى: نحن نظن أن الشعور بالحزن يزداد كلما كان المقتول أصغر في العمر وذلك لأنك أنت (القاتل) قد كنت سببا في قضاء الأجل الأول بفترة زمنية أطول. فلو تخيلنا مثلا بأن الأجل المسمى عند الله هو مئة عام، أي كان من المفترض أن يعيش هذا الشخص (المقتول) مئة عام، وكنت أنت سببا في وفاته بالقتل في سن الطفولة، كأن يكون عمر المقتول حينئذ عشرة أعوام، فتكون أنت قد سلبت هذا الشخص (المقتول) تسعين عاما من عمره الافتراضي. فالمقتول الذي كنت أنت سببا في أجله هذا قد فقد من عمرة (أي أجله المسمى عند الله) تسعين عاما، وهذه لا شك فترة زمنية طويلة. ولكن لو كان عمر الشخص المقتول ثلاثين عاما، فأنت تكون قد تسببت في أن يفقد هذا الشخص 70 عاما، وهذه أيضا فترة زمنية لا بأس بها، وفي هذه الحالات يكون شعورك (وشعور جميع الناس من حولك) هو الحزن الشديد. ولكن لو كان عمر الشخص المقتول خمسين عاما، لخف الحزن بعض الشيء لأن الشخص المقتول قد تمتع بخمسين عاما سبقت، وسلبته أنت خمسين عاما كان من المفترض أن يعيشها لو لم تتسبب أنت في أجله هذا. ولو أن الشخص المقتول كان قد بلغ من العمر ثمانين عاما، لخف الحزن كثيرا، لأنه قد تمتع بثمانين عاما من عمره وما تبقى إلا عشرين عاما.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: يزداد الحزن في حالة القتل كلما كان المفقود من العمر الافتراضي (أي الأجل المسمى عند الله) أكثر.

تبعات هذا الظن.

نحن نفتري القول بأن الله قد شرع كفارة للقتل الخطأ تتمثل في تحرير رقبة (وفي الصيام لمن لم يجد) وفي الدية المسلمة إلى أهل المقتول:

- وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مْؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللّهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (92)

السؤال: كم يجب أن تكون مقدار الدية المسلمة إلى أهل المقتول؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نفتري الظن بأن الدية المسلمة إلى أهل المقتول يجب أن تتناسب تناسبا عكسيا مع عمر المقتول وطرديا مع مقدار الفترة الزمنية المفقودة.

السؤال: وكيف يكون ذلك؟

رأينا المفترى: دعنا نحدد السقف جدلا (أقول جدلا) بأن السقف هو مئة عام. فإذا كان المقتول قد وصل من العمر ثمانين عاما، وجب على القاتل (الذي تسبب في وفاة المقتول) أن يدفع دية (كتعويض) بمقدار ما فقده المقتول من العمر أي عشرين عاما. ولكن إن كان المقتول قد بلغ من العمر خمسين عاما، فإن الدية لا شك – عندنا- يجب أن تكون أكبر، أي بمقدار الخمسين عاما التي فقدها المقتول (وأهله بالطبع). ولو كان المقتول طفلا يبلغ العاشرة من العمر، وجب على القاتل أن يدفع ديّة بالمقدار الذي يعوض عن فقدان تسعين عاما من العمر. وهكذا.

دعنا نحاول تبسيط الفكرة باستخدام الأرقام الافتراضية. فلو افترضنا أن الدية هي بمقدار ألف دولار للعام الواحد. فلو أنت قتلت شخصا يبلغ من العمر عشرة أعوام، فإنك تكون بذلك قد تسببت في خسارة تسعين عاما من حياة الشخص حتى يبلغ الأجل المسمى عند الله، لذا وجب عليك أن تدفع دية مسلمة إلى أهله بمقدار تسعين ألف دولار (أي ألف دولا عن كل عام واحد). ولكن لو أنت قتلت شخصا يبلغ من العمر سبعين عاما، فإنك تكون قد تسببت له في خسارة ثلاثين عاما من عمر المقتول، لذا وجبت عليك دية بمقدار ثلاثين ألف دولارا وهكذا. وهذا ما يسمى عندنا بدفع جزاء المثل كما جاء في كفارة قتل النعم:

- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ۗ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (95)

الغرب يطبق الإسلام أكثر من بلاد المسلمين

لاحظ القوانين التي تضعها الدول المتقدمة في أدب التعامل مع الطريق مثلا. فلو راقبنا تشريعاتهم لوجدنا أنها تلزم السائق بتوخي أقصى درجات الحذر على الطريق في حالة وجود الأطفال، فعليك أنت كسائق المركبة أن تتوقف توقفا تاما على مسافة معقولة لإتاحة الفرصة للطفل أن يستخدم الطريق بكل حرية، ولكن لا نجد مثل هذا الحذر واجبا في حالة وجود البالغين من الناس على الطريق.

السؤال: لماذا؟

رأينا: نحن نظن أنه من الفطرة البشرية أن لا يتسبب الإنسان في قتل النفس، ويتناسب هذا الاهتمام عكسيا مع عمر المقتول. فكلما كان المقتول أصغر في العمر كلما وجب الحذر أكبر.

تلخيص ما سبق: نحن نحاول التمييز بين الموت من جهة والقتل من جهة أخرى. فافترينا الظن بأن الموت لا يحين إلى بالأجل المسمى عند الله، ويتولى تنفيذه الموت نفسه الذي يجيء بنفسه ككينونة، ولكن القتل يحين بالأجل الذي يسبق الأجل المسمى عند الله، ويتولى تنفيذه القاتل، ولا علاقة للموت به.

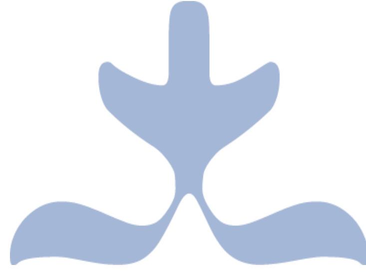
السؤال: كيف تتم الآلية في كل حالة؟

جواب: هذا ما سنحاول تبيانه في الجزء القادم من المقالة بحول الله وتوفيق منه، والهدف من هذا النقاش كله هو محاولة الوصول إلى قصة فرعون الذي لم يقضي عليه الموت، ولم تكن نهايته سابقة للأجل المسمى عند الله، فما مس فرعون طوال حياته سوء ولا فحشاء. فعاش حياة سليمة تماما. واستطاع أن يواجه رب موسى مواجهة شخصية، حتى كانت نهايته بالقتل.

دعاء: أسأل الله وحده أن ينفذ مشيئته وإرادته لنا الإحاطة بشي من علمه لا ينبغي لغيرنا، إنه هو العليم الحكيم، وأن يزدني علما وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا. وأدعوه وحده أن يؤتيني رشدي، وأعوذ به أن يكون أمري كأمر فرعون، فالله وحده أدعو أن أكون ممن أتوه بقلب سليم، فهداهم الصراط المستقيم، إنه هو العليم الخبير – آمين.

المدّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان & المهندس يزن علي سليم الجراح

بقلم د. رشيد الجراح



قصة يونس

الجزء الخامس والثلاثون



قصة يونس – الجزء الخامس والثلاثون

بداية، لابد أن نلفت انتباه القارئ الكريم إلى أننا سنخوض في هذا الجزء الجديد من المقالة في قضايا جدلية غاية في الخطورة، سيكون لها – لا شك عندنا- تبعات جمّة على مجمل العقيدة من الجانب النظري والتطبيقي، لذا فإننا نطلب من القارئ الكريم ما يلي:

أولا، مراعاة أقصى درجات الدقة في التعامل مع الألفاظ، فقد يجد القارئ الذي لم يعتاد أسلوب كتابتنا صعوبة كبيرة في متابعة النقاش، وذلك لأن خلط المفردات ستؤدي بالضرورة (نحن نرى) إلى ضبابية التفكير وبالتالي صعوبة إدراك المراد من النقاش، فنحن نظن أنه مادامت الألفاظ مرسومة في ذهن القارئ بطابعها التقليدي الذي اعتاد عليه، فلن يستطيع التمييز مثلا بين الوفاة من جهة والموت من جهة أخرى، أو بين الموت والقتل، أو بين الشهيد ومن قتل في سبيل الله، وهكذا. فلقد اعتاد العامة من الناس (نتيجة الفوضى في استخدام المفردات من قبل أهل الدراية والمتكلمين المفوهين على منابر الخطابة)على خلط هذه المفردات، فهي إذن – برأينا- مرسومة في ذهنهم على أنها مفردات متعددة للمفهوم ذاته، وهو ما نرفضه جملة وتفصيلا.

ثانيا، نحن نظن أن القارئ الكريم قد يجد صعوبة في النقاش أيضا لأن كثيرا من الأفكار التي ستطرح هنا قد سبق التطرق لها في مقالات سابقة، لذا نحن نرى ضرورة قراءة تلك المقالات السابقة كلما تمت الإشارة لها في سياق الحديث لاحقا، لتصبح الفكرة أكثر وضوحا في ذهن القارئ. وبالتالي متابعة النقاش بكل يسر وسهولة.

ثالثا، ضرورة عدم العجلة في الاستنباط قبل نهاية النقاش، وذلك لأن النتائج ستكون غاية في الغرابة، وهو ما قد لا يرضاه العقل الذي انطبع على حب المألوف كما وردنا من عند أهل الدين.

رابعا، نحن نؤكد أن القارئ قد يجد أيضا صعوبة في متابعة النقاش وذلك لضعف القدرة عندنا على توصيل المراد كما يجب، فقد لا يستطيع الكاتب تجلية الأفكار التي تدور في خلده بالصورة نفسها على الورق. لذا، نحن نراهن على ذكاء القارئ وفطنته في التقاط الأفكار حتى وإن خانته قدرة الكاتب اللغوية على صياغتها بالشكل المناسب.

خامسا، نحن لا نملّ من تكرار مقولتنا المعتادة بأن ما سنفتريه لاحقا لا يعدو أكثر من أفهام بشرية قابلة للنقاش، فقد يثبت صحت بعضها (ما ثبت الدليل عليها)، وقد يبين خطأ بعضها (إن لم يكن الدليل كافيا لإثباتها). فإن نحن أصبنا، فذلك فضل من الله وتوفيق منه، وإن نحن أخطأنا فذلك مما كسبت أيدنا، ولكنا لا نعدم اليقين الإيماني بأن الله هو من يهدي من يشاء من عبادة إلى نوره ليخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه. فالله وحده نسأل أن يهدينا إلى نوره، فلا نفتري عليه الكذب، ولا نقول عليه ما ليس لنا بحق، إنه هو الواسع العليم.

أما بعد،

كان جلّ النقاش في الجزء السابق من هذه المقالة منصبا على محاولتنا التمييز بين الموت من جهة والقتل من جهة أخرى. فنهاية حياة الإنسان تتم بطريقتين اثنتين، هما:

⇐ الموت
⇐ القتل

- **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ (144)**

ولا شك عندنا أن الموت هو النهاية الطبيعية لحياة الإنسان، وهذا – برأينا- لا يحصل إلا عندما يحين الأجل المسمى عند الله:

- **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ (2)**

وفي هذه الحالة (أي عندما يحين الأجل المسمى عند الله) يتولى الموت نفسه (ككينونة) إنهاء حياة الإنسان:

- **وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ (61)**
- **قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (8)**

ولكن – بالمقابل- عندما تحصل نهاية لحياة الإنسان بالقتل، فإن الموت (ككينونة) لا يتدخل في ذلك، ويكون القاتل هو المسئول الأول والأخير. وفي هذه الحالة يُقضى الأجل الأول قبل أن يقضى الأجل المسمى عند الله:

- **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ (2)**

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: هناك إذن أجل قد يقضى قبل أن يقضى الأجل المسمى عند الله، وهو ما يكون سببه (نحن نفتري القول) القتل وليس الموت.

ولو حاولنا ربط هذا الموضوع بما افتريناه في مقالة سابقة لنا تحت عنوان "وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه"، لربما صحّ لنا أن نميز بين نوعين من النهاية، وهما

⇐ الوفاة

⇐ القتل

⇐ أما الوفاة فتتفرع إلى نوعين، وهما:

⇐ الوفاة بالموت

⇐ الوفاة بالنوم

- **اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (42)**

ويتفرع القتل إلى نوعين أيضا، وهما:

⇐ القتل الخطأ

⇐ القتل المتعمد

- **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مْؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن**

قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللّهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (92) وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (93)

السؤال: كيف تتم الآلية في كل حالة من هذه الحالات؟

باب الوفاة

هنا تجدر الإشارة إلى التفريق بين الموت (ككينونة) من جهة وملك الموت (ككينونة أخرى) من جهة أخرى، لنقدم بناء على ذلك الافتراءين الخطيرين التاليين:

- ⇐ افتراء (1): الموت هو الذي ينهي الحياة عندما يقضى الأجل المسمى عند الله
- ⇐ افتراء (2): ملك الموت هو الذي يتوفى كل من يموت

ولو تفقدنا السياقات القرآنية الخاصة بالوفاة، لوجدنا لزاما التفريق بين الوفاة التي يقوم بها الله بنفسه والوفاة التي يتوكل بها ملك الموت. وبناء عليه نحن نقدم الافتراءين الخطيرين التاليين:

- ⇐ افتراء (1): الله هو الذي يتوفى الأنفس
- ⇐ افتراء (2): ملك الموت هو الذي يتوفى من يموت

وبناء على هذا، يجب التمييز بين الشخص (الذي يتوفاه ملك الموت) ونفس الشخص (الذي يتوفاها الله بنفسه)

وبهذا يكون التمييز واجبا بين الإنسان من جهة ونفسه من جهة أخرى:

- **بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14)**

وبناء عليه يجب أن نفرق بين من يتولى وفاة الإنسان (وهو ملك الموت) ومن يتولى وفاة نفس الإنسان (وهو الله)

الدليل

نحن نفتري القول بأن الله هو من يقوم بوفاة الأنفس، مصداقا لقوله تعالى:

- **اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (42)**

نتيجة مفتراة (1): الله يتوفى الأنفس

نتيجة مفتراة (2): الله يتوفى الأنفس في حالة الموت

نتيجة مفتراة (3): الله يتوفى الأنفس في حالة النوم

نتيجة مهمة جدا جدا: وفاة الأنفس فعل خاص بالله فلا يتدخل في ذلك غيره.

السؤال: لماذا يتولى الله بنفسه وفاة الأنفس؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن السبب في وفاة الله للأنفس يتمثل في أن هذه النفس هي الأمانة التي عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان:

- **إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (72)**

ولما كانت الأمانات تؤدى إلى أصحابها:

- **إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (58)**

وجب أن ترجع (نحن نفتري القول) هذه الأنفس (التي هي أمانة عند الإنسان) إلى صاحبها وهو الله:

- **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (28)**

(للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان: باب الأمانة)

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: ما أن يقضى الأجل حتى يحدث تفكك لمكونات الإنسان الثلاثة وهي الجسد والنفس والروح بطريقة عكسية، فالموت أو القاتل يقضي على الروح (أي الحرارة أو الطاقة المشغلة للجسم وللنفس)، وعندها ترجع النفس مباشرة إلى ربها، وتصبح في عهدة الإله نفسه، فيتم مسكها من قبل الله، وتخزن في صناديق خاصة ليتم استخراجها في يوم الحساب الكبير:

- **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (93)**

فتنتقل النفس إلى ربها لأن الله جعل على كل نفس حافظ:

- **إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (4)**

وما أن ترجع النفس إلى ربها حتى يتولى ملك الموت وفاة الشخص الذي رجعت نفسه إلى ربه، ويتم التخلص من الجسد بالدفن في التراب.

السؤال: ما الذي يحصل في حالة القتل؟

قال تعالى:

- **وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (170) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (171)**

في هذه الحالة يقوم القاتل بالفعل الذي كان من المفترض أن يقوم به الموت في حالة مجيء الأجل المسمى عند الله، فيسكت تلك الروح (الحرارة) المشغلة للنفس والجسد، ولكن لما كان القاتل قد استبق الأمر، فهو إذن قد كان سببا في أن يقضى الأجل الأول قبل مجيء الأجل المسمى عند الله. فيقوم بإطفاء الروح، فيقع بذلك فعل القتل، فيصبح لزاما أن ترجع نفس المقتول إلى ربها ليتوفاها بنفسه، ولكن تحصل – برأينا- الفارقة العجيبة التالية: لا يحضر ملك الموت ليتوفى المقتول كما في حالة الموت بمجيء الأجل المسمى عند ربك. وذلك لأن هذا الشخص المقتول لم يحن أجله بعد. فلا يتم تسجيل الميت بالقتل (أي وفاته) في سجلات ملك الموت، وينتظر ملك الموت حتى يحين الأجل المسمى عند الله ليسجل المقتول في سجلاته (أي ليتوفاه).

السؤال: كم يمكث ملك الموت منتظرا؟

جواب مفترى: يمكث ملك الموت منتظرا طوال الفترة الممتدة بين القتل (الذي يحين بالأجل الأول) والموت (الذي يحين بالأجل المسمى عند الله). انتهى.

السؤال: ما معنى ذلك؟

تخيلات مفتراة من عن أنفسنا: تخيل أن فلانا قد قتل في سبيل الله وهو في سن الأربعين من العمر، ولكن أجله المسمى عند الله هو مثلا مئة عام. وفي هذه الحالة، ينتظر ملك الموت (نحن نفتري القول) فترة ستين عاما حتى يعمد إلى وفاة الشخص المقتول. وما أن يحين الموعد حتى يحضر ملك الموت ليتوفى المقتول (أي ليتم تسجيله في سجلاته) التي وكلّ بها:

- **قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (11)**

السؤال: ما الذي يحصل خلال فترة الانتظار هذه؟

جواب مفترى: نحن نفتري القول بأن المقتول في سبيل الله يبقى حيا يرزق عند ربه حتى يحين أجل المقتول المسمى عند ربه:

- **وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (170) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (171)**

حياة من قتل في سبيل الله عند ربه: الفكر الشعبي بقالب قتل جديد

كثيرا ما سمعنا من عند أهل العلم (في مختلف العقائد الدينية) بأن جثة الذي قتل في سبيل الله (وهو من يسمونه شهيدا بمفرداتهم) لا تتحلل، أليس كذلك؟

رأينا: إن صحّ منطق علمائنا الأجلاء بأن جثة الذي قتل في سبيل الله لا تفنى، فإننا نظن أن الأمر (إن صحّ طبعا) يكون على النحو المفترى التالي: نحن نفتري الظن بأن حياة الذي قتل في سبيل الله ليست أبدية كما ظن أهل الدراية من قبلنا. وهي متفاوتة من شخص إلى آخر، وتعتمد على مقدار المدة الزمنية المتبقية لكل شخص حتى يحين أجله المسمى عند ربه. فلو افترضنا أن المقتول قد فارق الحياة في سن الأربعين، بينما أجله المسمى عند ربه هو مئة عام، فإن ذلك المقتول في سبيل الله يبقى حيّا عند ربه يرزق مدة ستين عاما. ولكن لو أن المقتول في سبيل الله قد فارق الحياة في سن الستين عاما لظل حيّا عند ربه يرزق مدة أربعين عاما.

السؤال: كيف يمكن أن نفهم ذلك على أرض الواقع؟

جواب مفترى: لو تأكدنا بأن شخصا قد قتل في سبيل، فما علينا إلا أن نراقب جثته في قبره، فنحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن جثة هذا الشخص الذي قتل في سبيل الله لن تتحلل على الفور، بل ستمكث فترة من الزمن حتى تبدأ بالتحلل، وهذه الفترة هي الفارق الزمني بين أجله الذي قتل فيه وأجله المسمى عند ربه. بينما في حالة من مات بطريقة طبيعية (أي لم يكن قتلا في سبيل الله)، فإن جثته ستبدأ بالتحلل على الفور.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن نفس المقتول في سبيل الله تنتقل على الفور إلى ربها، وهناك يتم النفخ فيها من جديد، فتعود مدركة واعية، تعمل بكامل طاقتها. أما في حالة الموت الطبيعي (أي إذا لم يكن الشخص

قد قتل في سبيل الله)، فإن نفسه لا ينفخ فيها من جديد، وإنما يتم إيداعها على الفور في ذلك الصندوق المحكم عند الله إلى يوم البعث المعلوم حتى يتم حسابها بعد أن تخرج من مخزنها:

- وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (93)

ولما كانت تلك النفس قد فقدت الروح (النفخ)، لذا يبدأ جسد الميت بالتحلل على الفور.

السؤال: لماذا يتم النفخ في نفس من قتل في سبيل الله؟

رأينا: دعنا نتصور الأمر على النحو التالي: تصور أن شخصا ما قد شارف على الهلاك بسبب حادث مروري أو نوبة قلبية، ولكن تم نقل المصاب إلى المستشفى قبل أن تخرج نفسه من جسده، ألا يستطيع الأطباء أحيانا إنقاذ الشخص في غرفة الإنعاش (غرفة الحياة) بصعقه بالشحنات الكهربائية التي تعيد عمل قلبه، ولكن ما الذي يمكن أن يحصل لو أن الشخص لم ينقل في الوقت المناسب إلى المستشفى، ألا يكون ذلك موتا مؤكدا؟

جواب مفترى: نحن نتخيل أن هذا ما يحصل في حالة من قتل في سبيل الله، فيتم نقله إلى "المشفى الإلهي"، وهناك يصار إلى صعقه بالشحنات الكهربائية (الروح) لتشتغل نفسه من جديد. فيكون بذلك حيا عند ربه يرزق وإن كنا لا نشعر بذلك:

- وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ (154)

وتظل الروح عاملة في نفسه، مشغلة لها حتى يحين الأجل المسمى عند الله، وهناك بالضبط (نحن نفتري الظن) يأتي الموت فيقضي عليه، ويتولى ملك الموت وفاته، وترجع نفسه المطمئنة إلى ربه، فيتم إيداعها في ذلك الصندوق المحكم إلى يوم البعث المعلوم. ومنذ تلك اللحظة يبدأ جسده بالتحلل الطبيعي كما لو أنه مات في هذه اللحظة.

السؤال: من هو الذي قتل في سبيل الله؟

رأينا الخطير جدا جدا: دعنا نترك الفكر الشعبي الذي صور أن المقتول في سبيل الله هو من فقد حياته في ساحة المعركة لحظة من الزمن، ثم لنتصور الأمر بطريقة أخرى، ربما قد لا تلقى رواجا عند العامة وأهل الدين، لأنها لا شك تخالف كل الموروث العقائدي، لا بل وربما تقلبه (إن صحت) رأسا على عقب. فنحن نرى (ربما مخطئين) بأن المقتول في سبيل الله هو حالة واحدة فقد، تتمثل فقط في من فقد الحياة الدنيا من أجل غاية نبيلة واحدة وهي: أن تكون كلمة الله هي العليا. انتهى.

السؤال: هل تريد أن تقول بأن القتل في ساحة المعركة ليس قتلا في سبيل الله؟

جواب: نعم، هذا ما أريد قوله شريطة أن نفهم الأمر على النحو التالي: ليس كل من قتل في ساحة المعركة هو مقتول في سبيل الله.

السؤال: إذا كان القتل في ساحة المعركة ليس قتلا في سبيل الله، فما هو القتل في سبيل الله إذن؟

رأينا: لعلنا لا نختلف في أن كل ما ورثناه من عند أهل الدين في كل العقائد خاصة السماوية منها كاليهودية والمسيحية والإسلامية تروج للفكرة التي تروق لهم بأن من قتل في ساحة المعركة هو في سبيل الله (أي شهيد بمفرداتهم)، أليس كذلك؟

السؤال المربك لنا: ما الذي يحصل في حالة تلاقي جيوش هذه العقائد ضد بعضها البعض؟ فمن من القتلى من هؤلاء الجيوش التي تصارع بعضها البعض وتحمل جميعها لواء الدفاع عن دينها هو "شهيد" (أي مقتول في سبيل الله)؟ أم هل تظن أن هذا يقاتل في سبيل الله وغيره لا يقاتل في سبيل الله؟ فلم إذن يرفع كل منهم صوته عاليا بأنه هو (وليس خصمه) من يقاتل في سبيل الله؟ أم هل أن القتلى من كل الأطراف هو "شهيد"؟

رأينا المفترى: نحن ننفي جملة وتفصيلا أن يكون أيا من القتلى (من جميع الأطراف) "شهيدا" (بمفرداتهم) إلاّ إذا كان فعلا يدافع ليكون كلمة الله هي العليا.

السؤال: وكيف يمكن لنا أن نعرف ذلك؟

رأينا المفترى الخطير جدا جدا لا تصدقوه (1): نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأنه من الاستحالة أن يكون يحصل القتل في سبيل الله إلا لمن كان مدافعا.

رأينا المفترى الخطير جدا جدا لا تصدقوه (2): نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأنه من الاستحالة أن يحصل القتل في سبيل الله لمن كان مهاجما.

قصة موسى مع رجل بني إسرائيل: رؤية جديدة

يدخل موسى المدينة على حين غفلة من أهلها فيجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه، فيستغيثه الذي من شيعته على الذي من عدوه، فما يكون من موسى إلا أن يكز الرجل فيقضي عليه:

- **وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (15) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (16) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (17)**

وفي صبيحة اليوم التالي يستصرخ الرجل نفسه موسى ليقتل رجلا آخر:

- **فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ (18)**

فما يكون من موسى إلا أن يريد أن يبطش به، فكان جواب هذا الرجل على الفور موجها إلى موسى نفسه على النحو التالي (قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ):

- **فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19)**

نتيجة مفتراة: كان موسى هو القاتل (أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ)، أليس كذلك؟

السؤال: لماذا كان موسى قاتلا؟

جواب: لأن موسى كان هو المهاجم.

السؤال: لماذا كان الرجل من آل فرعون هو المقتول؟

جواب: لأن الرجل كان في حالة دفاع.

قصة ابني آدم بالحق: رؤية جديد

يقدم ابني آدم قربانا لفضّ الخلاف بينهما، فيتقبل الله من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، فلا يروق ذلك لمن لم يتقبل الله منه، فيتوعد أخاه بالقتل:

- **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27)**

فما كانت ردة الأخ الآخر الذي تقبل الله منه أكثر من التسليم بالقول:

- **لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (28)**

فيعمد الأخ إلى قتل آخيه بعد أن طوعت له نفسه ذلك:

- **فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (30)**

السؤال: لماذا كان الأخ الأول قاتلا؟

جواب: لأنه هو من كان في حالة الهجوم.

السؤال: لماذا كان الأخ الآخر مقتولا؟

جواب: لأنه كان في حالة دفاع.

قتل أنبياء الله: رؤية جديدة

كانت المنة الإلهية تتمثل في أن يجعل من بيننا أنبياء، فجاءوا أقوامهم بكلمة الحق، فما كان من تلك الأقوام إلا قتل هؤلاء الأنبياء:

- **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاء اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (91)**
- **لَّقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ (181)**
- **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بَآيَاتِ اللّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاء بِغَيْرِ حَقًّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (155)**

السؤال: لماذا كان القوم هم القاتلون؟

جواب: لأنهم كانوا في حالة هجوم.

السؤال: لماذا كان الأنبياء هم المقتولون؟

جواب: لأنهم كانوا في حالة دفاع.

السؤال: ما علاقة هذا بالقتل في سبيل الله؟

رأينا: هذه قصة ذلك الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى:

- **وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (21) وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن**

يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونِ (23) إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ (24) إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (25) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (27)

السؤال: ماذا كانت ردة فعل قومه؟

جواب مفترى: قتله على الفور بدليل نهايته التي تصوره حيّا عند ربه يرزق:

- **قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (27)**

السؤال الكبير جدا: هل حمل هؤلاء الذين قتلوا في سبيل الله (كالأنبياء وهؤلاء الصالحين) السلاح في وجه خصمهم؟ وهل كانوا (كما تصورهم آيات الكتاب الحكيم) في طرف الهجوم أم في طرف الدفاع؟

رأينا المفترى: لو كان هؤلاء في وضعية هجوم، لوجدناهم يحملون أسلحتهم، ليرفعوها في وجه خصمهم، أليس كذلك؟

السؤال: ما هي أسلحتهم التي كان يتسلح بها كل من قتل في سبيل الله؟

رأينا المفترى الخطير جدا جدا: إنها الكلمة.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن من قتل في سبيل الله لا يحمل سلاحا سوى الكلمة، فهو لا يشهر سلاحا في وجه خصمه ولا يكون في حالة هجوم أبدا. وليس أدل على ذلك من قتل الأنبياء. فلا أخال أن أنبياء الله الذين قتلهم أقوامهم قد حملوا السلاح وشهروه في وجه خصمهم، بل كان جلّ ما فعلوه هو الوقوف إلى جانب الحق بالكلمة ولا شيء غير الكلمة. انتهى.

نتيجة مفتراة خطيرة جدا جدا: نحن ننفي أن يكون أحد قد قتل في سبيل الله إلا من كان سلاحه الكلمة. انتهى.

رسالة شخصية إلى علماء الجهاد والنكاح

إن من أكبر المصائب الذي ابتلي بها هذا الدين هم أولئك الرجال أصحاب اللحى الطويلة والثياب القصيرة الذين ظنوا أن ذروة سنام الدين هو حمل السيف في وجه البشرية كلها، وهم يظنون في الوقت ذاته أن غاية هذا الدين هو تلك الجنة المليئة بالحور العين المنتظرات لهم على سرر مرفوعة، والمتجهزات لحفلات الخمر والمضاجعة.

فهم (نحن نفتري القول) الذين صوّروا للنشء من أبناء هذه الأمة بأن أعظم فعل يستطيع "المسلم" القيام به هو حمل سيفه والخروج إلى ساحة المعركة لقتل كل من لا يتقبل عقيدتهم، ثم الظفر بالغنائم المتمثلة بأموال العدو ليأخذوها إلى بيت مالهم، والظفر بنساء الأعداء الحسناوات ليستحلوا فروجهن (ومن أراد المجادلة فليرجع إلى الجزء الرابع من كتاب الترغيب والترهيب)، والظفر كذلك بأولاد وغلمان العدو ليكونوا لهم رقيقا، فيستعبدوهم إن شاءوا أو يبيعونهم ليسددوا ديونهم ومستحقاتهم المالية المتأخرة عليهم من أيام الحج إلى البيت العتيق. فهذا هو نصيب من نجا منهم من القتل في ساحة المعركة.

أما من فقد حياته في ساحة المعركة، فإن نصيبه يتمثل بوفرة الحور العين في الجنات المليئة بالعسل المصفى والخمر الذي هو لذة للشاربين وباللبن الذي لم يتغير طعمه، وبالولدان المخلدون الذين يطوفون عليهم بأكواب وأباريق، أليس كذلك؟ من يدري؟!

السؤال: وما الذي يضيرك في ذلك؟ يسأل صاحبنا مستغربا من لهجة خطابنا التي يظن أنها تهكمية.

أولا، إن ما يضيرني في ذلك هي الصورة الذهنية التي أتخيلها لتلك الجنة التي رسموها لنا، فهي جنات فيها المسكرات من المشروبات وفيها النساء (الحور العين) المتجهزات للجنس غير المحكوم بأي ضابط. فأنا أدعو القارئ الكريم أن يتخيل معي (إن شاء) ماهية تلك الجنات (كما صوروها لنا) بعد كل ما يحصل فيها من قذف بالعمليات الجنسية التي تحصل فيها. فهل يروق لك (عزيزي القارئ) العيش في مثل تلك الأماكن كجنات فعلا نظيفة يطيب فيها السكن والخلود أبدا؟!

فقط تخيل معي أولئك الرجال (أصحاب اللحى الطويلة والثياب القصيرة) وقد فضوا بكارة الحور العين بالعمليات الجنسية التي لا تتوقف (كما تصورها كتبهم)، فهل يروق لك أن تتواجد في تلك الأماكن؟! من يدري؟!!!

ثانيا، إن ما يضيرني أكثر هو تلك الصورة الذهنية التي رسموها لهذا الدين في مخيال الذين لا ينتمون إليه. فهم الذين ظنوا أن الالتحاق بالدين الإسلامي يجب أن يتم عنوة (أي بالسيف). فجهزوا جيوشهم على مدار القرون (كما فعلت جيوش كثير من أهل الشرائع التي سبقتهم) وغزوا البلاد الأخرى بحجة نشر الدين، ظانين أنهم بذلك هم الذين يقاتلون لتكون كلمة الله هي العليا، في حين أن شريعة الله الخالدة قد سطرتها الآيات الكريمة التالية في كتاب الله الحكيم:

- **وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقًا (29)**
- **لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (256)**

السؤال المربك: إذا كانت سنّة الله قد قضت بأنه لا إكراه في الدين (لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)، فلم نجهز الجيوش لغزو الآخرين من أجل أن يؤمنوا شاءوا أم أبوا؟ وإذا كانت مشيئتهم هي الكفر (فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ)، فلم نطلب منهم أن تكون مشيئتهم الإيمان ولا شيء غير الإيمان؟!

رأينا المفترى: نحن لا نتقبل إطلاقا ما فعلته كثير من جيوش الإسلام (وجيوش غيرهم) عبر القرون من الزمن. فنحن على العقيدة التي مفادها بأن جيش الإسلام هو جيش دفاع لا جيش هجوم. انتهى.

السؤال: هل جننت يا رجل؟ ألا ترى أنك قد تجاوزت كل الحدود؟ فما الذي يجب على جيش المسلمين فعله؟ ألا يحق لجيش المسلمين الهجوم على الأمم الأخرى لنشر دين الله؟

رأينا: تمهل عزيزي القارئ واسمع ما سنقول لك في هذا المقام قبل أن تتهمنا بما ليس فينا. فنحن لا نقبل أن توضع الكلمات في أفواهنا. لأننا ربما نرى ما لا ترون.

أما بعد،

فقه خروج الجيش المسلم إلى بلاد غير المسلمين: رؤية جديدة

أولا، نحن نظن أن الغاية الأساسية من وجود جيش للمسلمين هو من أجل الدفاع عن المسلمين وعن بلاد المسلمين ضد المعتدين، فجيش المسلمين لا يخرج إلى البلاد الأخرى ليحتلها ويستبيح حرمات أهلها من أجل إجبار الآخرين على الدخول في دين الله بالإكراه ما دام أن عقيدة المسلم مبنية على الأساس المتين بأنه لا إكراه في الدين. لكننا نرى في الوقت ذاته أنه إذا ما تم الاعتداء على مسلم على وجه الأرض وإذا ما اعتدي على شبر واحد من أرض المسلمين في كل أصقاع المعمورة، أصبح لزاما على جيش المسلمين أن يتحرك لنصرته، فجيش المسلمين هو جيش دفاع لا جيش هجوم. ولو تفقدنا سيرة النبي محمد في المدينة المنورة، لوجدنا أن كل الحالات التي حرّك فيها محمد جيشه ضد عدوه تقع في خانتين وهما:

1. للدفاع عن نفسه وعن مدينته كما حصل في غزوات بدر وأحد والخندق
2. للدفاع عن المسلمين وعن حلفاء المسلمين كما حصل في غزواته ضد يهود المدينة وفي فتح مكة

- **وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (190)**

ثانيا، نحن نعتقد جازمين أنه يحق لجيش المسلمين أن يتحرك ضد أي أمة على وجه الأرض ليغزوها في عقر دارها في حالة واحدة فقط ألا وهي: إذا منعت سلطات تلك البلاد إتاحة الفرصة لإيصال كلمة الإسلام إلى مواطنيها، فضيقت الخناق في مجال حرية الاعتقاد على رعاياها. وهنا جاء – برأينا- الخلط في الفهم عند علماء الإسلام.

السؤال: وكيف يمكن أن نفهم ذلك؟

رأينا: نحن على العقيدة التي مفادها أن محمدا لم يكن يهدف من غزواته جلب أموال الأمم الأخرى إلى بيت مال المسلمين، فمحمد (نحن نؤمن) يفهم أن ربه لا يحب المعتدين. كما أننا لا نعتقد أن محمدا كان يحاول من وراء الخروج بجيشه إلى الآخرين الظفر بنساء وغلمان الأمم الأخرى. فغاية محمد كانت تتمثل في إيصال دين الله الحق إلى الناس دون إجبارهم على الدخول في الإسلام كرها، لأن الآيات الكريمة التالية هي (نحن نفتري القول) هي المرشدة له في هذا الهدف:

- **مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (99)**
- **قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (54)**
- **وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (18)**

نتيجة مفتراة: نحن نفتري القول بأن مهمة محمد لا تتعدى البلاغ.

السؤال: كيف يمكن تطبيق ذلك على أرض الواقع في كل الأزمنة والعصور؟

رأينا: لمّا كانت من واجبات الرسول هي إيصال الرسالة إلى الناس كافة، ولما كانت مهمتنا أيضا تتمثل في متابعة هذه الغاية من بعده، أصبح لزاما على حكومات أهل الأرض كلها أن تفتح المجال لأهل الإسلام

لتبليغ هذه الرسالة إلى الناس بالطريقة السلمية (أي بالكلمة)، دون إجبار الناس في تلك البلاد على اعتناق رسالة الإسلام، فالدخول في دين الله أو عدم الدخول في دين الله هو حق يعود للشخص نفسه دون إجبار ولا إكراه، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. وبناء عليه نحن نرى (ربما مخطئين) بأنه لا يحق لحكومات الأرض على اختلاف عقائدها أن تجبر أحدا على الدخول في الإسلام أو أن تمنع أحد عن الدخول في الإسلام.

ونحن نرى أيضا (ربما مخطئين) بأن هذا الحق ليس حركا على المسلمين، بل يجب على حكومات بلاد المسلمين أن تفتح المجال أمام أهل الشرائع الأخرى أن توصل رسالتها إلى الناس في بلاد المسلمين، ولا يحق لحكومات بلاد المسلمين أن تجبر أحدا من رعاياها (حتى المسلمين منهم) على اعتناق تلك الشرائع أو أن تمنع أحدا عن اعتناق تلك الشرائع.

وبهذا المنطق المفترى من عند أنفسنا، يصبح الباب مفتوحا في كل أصقاع الأرض للدعوة بحرية وبالطرق السلمية (أي بالكلمة) أمام كل الشرائع. لتكون الغلبة في نهاية المطاف للشريعة الحق، الشريعة التي يرى الناس بأنفسهم أنها دين الله الخالد. وهذا برأينا ما يمكن أن يصاغ تحت عنوان حرية الاعتقاد.

السؤال: لماذا يجب أن تكون الحال على هذا النحو؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن العقيدة السليمة هي التي تستطيع أن تدافع عن نفسها. فإذا كانت العقيدة صحيحة سليمة (ربانية) فهي – برأينا- قادرة على الدفاع عن نفسها بنفسها، ولا تحتاج إلى سيف مسلط على رقاب الناس لتقبلها. فصاحب البضاعة السليمة لا يخشى على بضاعته من الكساد، بل يتفاخر بها لأنها بضاعة تسوق نفسها بنفسها. وصاحب هذا البضاعة السليمة القادرة على المنافسة هو شخص دائم الدعوة لغيره إلى المنافسة بطريقة شريفة سليمة تخلو من الغش والخداع واستخدام القوة. أما صاحب البضاعة الفاسدة فهو الذي يخشى كساد بضاعته وهو الذي قد يلجأ إلى التحايل والخداع، لا بل واستخدام القوة أحيانا للترويج لبضاعته.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: إن مهمة أتباع أي شريعة على الأرض تتمثل في إبراز عقيدتهم بمجملها وبتفاصيلها للناس، فلا يجعلها قراطيس يبدي ما يشاء منها ويخفي كثيرا منها، لأن هذا المنهج الفاسد هو ما حذرنا الله منه يوم سلكه من سبقنا من الأمم:

- **وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (91)**

فالتنافس الشريف المحكوم بالمقاصد السليمة وبالآلية السلمية بين هذه الشرائع هو ما يجلّي للناس العقيدة السليمة من العقيدة الفاسدة والمحرّفة. فالذي يؤمن أن ما جاءه من ربه هو هدى ونور لا يخشى أن يقدمه للناس كما هو، وذلك لأن العامة من الناس في كل أصقاع الأرض تتوق إلى معرفة الحقيقة، ولا شك عندنا أن العقيدة السليمة هي التي تخرج الناس من الظلمات إلى النور. لذا يصبح لزاما على المنظرين المدافعين عن عقائدهم من أهل الدين (من مختلف الشرائع) أن يبينوا للناس الآلية التي من خلالها يتم إخراجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم. فلا يجب أن يكون الهدف هو إثبات إرث الآباء كما ألفوه، وإنما الوصول إلى الحقيقة المطلقة بغض النظر عن صاحبها. لكن الواقع الأليم الذي نعيشه بسبب ما أوقعنا به أهل الدين يتمثل في أن أصحاب الشرائع الدينية يبذلون جهدهم في البحث عن الدليل الذي يثبت صدق دعوتهم وتكذيب

دعوى غيرهم. ويكأن لسان حالهم يقول أننا نحن فقط أصحاب الحق المطلق وغيرنا لا يعدو أن يكون أكثر من كاذب مروج لبضاعة فاسدة. والأخطر من هذا يتمثل في أنه إذا ما ثبت لديهم أنهم مخطئون لجئوا إلى الغش والتحايل لا بل واستخدام القوة للدفاع عن ألإرث الذي ألفوا عليه آباءهم. فهدهم إذن ليس الوصول إلى كلمة الحق (كما أرادها الله) بل إثبات أن ما ألفوا عليه آباءهم هو الحق بعينه بغض النظر عن الطريقة والآلية.

السؤال: إذا كان أهل شريعة ما يظنون أنها هي الحق بعينه، فلم إذن يخافون من المواجهة مع الشرائع الأخرى بالطرق السلمية (بالكلمة)؟ ولم يوصدون الباب في وجه غيرهم من أصحاب الشرائع الأخرى التي يظنون أنها باطلة؟ ولم يلجئون إلى استخدام القوة في فرض وجهة نظرهم؟ أليس هذا هو الظلم والاعتداء؟

- **وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (190)**

نتيجة مفتراة: إذا كنا نحن المسلمين نظن بأن ديننا هو الحق، فلم إذن لا نقبل المواجهة الفكرية؟ ولم نخاف من الشرائع الأخرى؟ ولم نمنع أهل الشرائع الأخرى عن نشر دعوتهم بالطرق السلمية؟ ألا نؤمن بأن الغلبة لا محالة هي لدين الله الحق؟

- **كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (21)**

مفارقات عجيبة: لم نطلب نحن المسلمين أن تبنى المساجد في كل الأرض، ونفرح بذلك، ونحتج بأشد الطرق المتاحة لنا على كل من يمنع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ويسعى في خرابها، وفي الوقت ذاته لا نتقبل أن تبنى كنيسة واحدة أو معبد واحد على أرضنا؟ لم نقيم الدنيا ولا نقعدها إذا ما أرادت طائفة (غير مسلمة) أن تمارس طقوس وشعائر عبادتهم على أرضنا؟ ألم تأت نص الآية لكريمة على النحو التالي:

- **الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40)**

فلم نُطالب بهدم الصوامع والبيع والصلوات، بينما نطالب بإقامة المساجد فقط؟ لماذا إذا رفضت سويسرا مثلا أن تُبني فيها المآذن، يقف الخطباء منا على المنابر ليتهموهم بالتعصب والكرة للإسلام، بينما لا نتهم أنفسنا بالتعصب عندما نرفض أن يبنى معبد للبوذيين أو الهندوس في دبي أو المنامة أو أن تبنى كنيسة أو دير في عمان أو القاهرة؟ ولم نقيم الدنيا ولا نقعدها فوق رؤوس من يريد أن يعبد ربه في معبد يهودي في صنعاء أو الرباط؟ أليس تلك إذن قسمة ظيزى؟! من يدري؟!!

ألا نجد المسلمين يفرحون بدخول اليهودي والمسيحي والبوذي في الإسلام ويعتبرون ذلك انتصارا لهم؟ فلم لا نتقبل أن يترك بعض المسلمين دينهم لاعتناق عقيدة غيرهم؟ هل نريد أن يكون الإسلام هو الدين الوحيد على الأرض؟ أليس الله هو من قضى مشيئته أن لا يؤمن الناس كلهم؟

- **وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ (99)**

فلم إذن نُكرِه الناس حتى يكونوا مؤمنين؟

- **وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ (99)**

إن من أكبر البلاء الذي أصاب هذه الأمة هي – برأينا- تلك العقيدة التي سطرتها أقلام أهل الدراية كما نقلها لنا أهل الرواية والمتمثلة في استحلال دم من آثر ترك دين الإسلام. فنقلوا ما سموه بحديث نسبوه إلى محمد مفاده ما يلي:

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ، إلا بإحدى ثلاث : الثيّب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة) رواه البخاري ومسلم .

السؤال: إذا كانت شريعة محمد هي استحلال دم المسلم إذا ترك دينه وفارق الجماعة، فهل نجد تطبيقا عمليا لذلك في حياة محمد؟ فهل حدث أن استحل محمد دم من كان مسلما وفارق الجماعة كما حصل مع بعض من هاجروا إلى الحبشة مثلا؟

وإذا كانت هذه شريعة محمد، فلم يوافق محمد نفسه أن تكون واحدة من شروط صلح الحديبية أن يرد محمد من جاءه مؤمنا مسلما من قريش بينما لا ترد قريش له من جاءها مرتدا تاركا لدين محمد؟ فهل يتهاون محمد في حد من حدود الله (كهذا) لو أن هذه فعلا من شريعته:

- **وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (49)**

ولو وافقهم محمد على ذلك وهو ليس من شريعته ألا يكون بذلك قد ركن إليهم شيئا قليلا:

- **وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً (74)**

فهل تعلم عزيزي القارئ ماذا كانت ستكون عليه عاقبة محمد لو أنه ركن فعلا إليهم شيئا قليلا. انظر الآية السابقة في سياقها الأوسع:

- **وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً (74) إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (75)**

نتيجة مفتراة: ما كان محمد ليتهاون في الأمر لو أن ذلك من شريعته. انتهى.

ثم، هل نجد تطبيقا عمليا لذلك في حياة الخلفاء الراشدين؟ فهل استحل أبو بكر مثلا دم من ترك دين محمد؟

ربما يريد البعض بالقول بأن ما يسمونها "حرب الردة" كانت لهذه الغاية، فنرد عليه بالقول بأن هذا أبعد ما يكون عن الحقيقة، وذلك لأن قتال أبي بكر "للمرتدين" (إن صح التعبير) كان بسبب منعهم إياه زكاة أموالهم. فلقد واجه أبو بكر في بداية خلافته ثورة داخلية تمثلت في رفض جماعة من المسلمين دفع الزكاة لبيت مال المسلمين (انظر الجزء الثاني والثلاثين من هذه المقالة)، وكرئيس للدولة الناشئة كان على أبي بكر أن يتعامل مع هذا الشأن الداخلي المدني؛ فهو كخليفة للمسلمين لن يتهاون في حق من حقوق رعاياه. لذا جهز أبو بكر جيشه لإسكات هذا التمرد الداخلي.

ثم يأتي السؤال الأكبر، ماذا لو أردت أنا أن أتخلى عن دين الإسلام، هل يستطيع أحد أن يمنعني؟ ألا أملك من الطرق والوسائل ما يمكّنني من ذلك دون الوقوع في العقاب؟ ألا أستطيع مثلا أن أهاجر من بلاد

المسلمين كلها إلى بلاد غيرهم ثم أعلن من هناك عداوتي للإسلام في بلاد الاغتراب كما فعل كثير من أبناء الإسلام على مر التاريخ؟ ألا أصبح بذلك شوكة في حلوق أهل الإسلام؟ ثم ألا أستطيع أن أتخلى عن الإسلام دون البوح بذلك حتى وأنا أعيش بين ظهراني أهل الإسلام؟ فمن يستطيع أن يكشف عن قلبي؟ ألا نجد في بلاد المسلمين من يعيش بينهم كمسلم بالهوية الشخصية وهو لا ينتمي إلى الإسلام بشيء؟

السؤال: هل نريد من الناس أن يكذبوا علينا أنهم مسلمين (خوفا من السيف المسلط على رقابهم فقط)؟ هل هذا هو الإسلام الذي نريده؟ وهل هؤلاء هم المسلمون الذين سيرفعون رايته ويدافعون عنه كلما لزم الأمر؟ من يدري؟!

نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن حرية العقيدة هي الحق الذي كفله الله للناس أجمعين لأنه لا أكراه في الدين، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، ولا وصاية لمخلوق على عباد الله في هذا الجانب، فلا يحق لمحمد نفسه أن يكره الناس حتى يكونوا مؤمنين:

- **وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ (99)**

لذا، نحن نرى أن كفالة حرية العقيدة التي نحاول الترويج لها تتمثل بالسطور التالية، ضمن قاعدة ترتيب الأولويات:

1. لا لاستخدام القوة في نشر الدعوة إلى الله
2. لا يحق للفرد استخدام السلاح على المستوى الشخصي تحت أي ذريعة كانت
3. لا يحق لمجموعة من الأفراد تنظيم أنفسهم كمجموعة قارة على استخدام السلاح لأي غرض كان
4. استخدام السلاح هو قرار الدولة نفسها
5. تنشر الدعوة إلى الله بالكلمة الطيبة (كما فعل رسل الله جميعا)
6. قبول الدعوة إلى الله أو رفضها حق شخصي يعود للفرد نفسه
7. حماية هذا الحق تكفله الدولة نفسها سواء كانت دولة مؤمنة أو دولة كافرة
8. إذا أخلت أي دولة بهذه الشروط فاعتدت على مواطنيها وجبت مقاتلتها
9. لا يحق لأي دولة على وجه الأرض أن تغلق أرضها أمام واجب نشر كلمة الله بالسلم
10. هذا حق مكتسب لكل الشرائع على وجه الأرض
11. المواجهة بين الشرائع المختلفة هي مواجهة فكرية بالكلمة فقط في كل أصقاع المعمورة
12. لا يحق لأي دولة أن تتدخل لصالح شريعة محددة على حساب الشرائع الأخرى
13. الخ.

مثال: متى يحق لي أن أقاتل حكومات أمريكيا أو روسيا أو اليابان أو جزر المالديف مثلا؟

بداية، لا يحق لي كشخص أن أقاتل أحدا لأن شريعة الله التي أعرفها تمنعني عن قتل نفس واحدة، لأن قتل نفس واحدة كقتل الناس جميعا، قال تعالى:

- **مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاء تْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (32)**

ثانيا، لا يحق لي أن أعمل تنظيما جماعيا لمقاتلة الآخرين، وذلك لأن في ذلك تفريقا لصف المسلمين، فالذين تحزبوا جماعات هم الذين فرقوا هذا الدين وجعلوا أهله شيعا:

- مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (32)

فلا تفرح أخي المسلم أنك على الطريق الصحيح مادمت تنتمي إلى حزب محدد بعينه، فذاك ليس مدعاة للفرح لأنك أنت من شققت صف هذه الأمة وجعلت أهلها شيعا. فالله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص:

- إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ (4)

فلتعلم يا من حملت السلاح بمفردك ولتعلم يا من حملت السلاح مع مجموعة دون الأمة كلها أنك أنت من شققت هذا الصف. فلا تفرح كثيرا بمنجزاتك. فقد جلبت من الخراب أضعاف أضعاف ما تظن أنك حققته من إصلاح:

- وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ (13)

ولو راقبت سلوك هؤلاء الأفراد وهذه المجموعات لوجدت أنهم يملكون خطابين: خطاب مع العامة من الناس وعلى الملأ وخطاب مع شياطينهم عندما يخلون بهم:

- وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ (14)

فهؤلاء (أصحاب اللحى والعمائم) يخاطبون الناس على الملأ بخطاب الجماعة المسلمة الذين يحرصون على مصالح الجميع، ولكن تجدهم إذا ما خلو إلى شياطينهم من شياطين الإنس (الذين يوجهونهم وينظرون لهم) تجد أن خطابهم مختلف تماما. فهم يستهزئون من الجميع فلا يتقبلون إلا من آمن بعقيدتهم الخاصة كما روجها لهم شيطانهم الأكبر، فكل الناس الذين لا يقبّلون يد شيخهم ولا يؤدون له طقوس والولاء والطاعة فهو عدو لهم وجبت مقاتلته. فنحن ننبّه هؤلاء إلى السؤال التالي: هل يجوز للمؤمن أن يظهر ما لا يبطن؟ وهل يجوز للمؤمن أن يقول ما لا يفعل؟ قال تعالى:

- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (3)

ثالثا، يصبح لزاما عليّ أن أطالب حكومة الدولة المسلمة أن تتحرك لنشر دين الله في تلك البلاد، ويجب أن يتم ذلك أولا بالطرق السلمية، أي بالكلمة الطيبة. لذا، على حكومة الدولة المسلمة أن تتحرك دبلوماسيا لتندد بالتضييق على حرية الاعتقاد في كل بقعة من بقاع الأرض. فواحدة من واجبات الدولة المسلمة (نحن نفتري القول) هو مراقبة حرية الاعتقاد على وجه الأرض. وإذا ما فشلت الدبلوماسية الإسلامية عن تحقيق هذه الغاية، بثني المعتدي الذي يمنع حرية الاعتقاد، صار هناك خياران لا ثالث لهما أمام حكومة الدولة المسلمة، وهما:

1. إذا كانت الدولة المسلمة قادرة على إحقاق الحق بالقوة، وجب عليها أن تفعل لثني المعتدي حتى لو حصلت المواجهة الفعلية في ساحة المعركة. وفي هذه الحالة يحق (نحن نرى) للدولة المسلمة أن تفرض على المعتدي الذي منع حرية الاعتقاد الجزية:

- قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (29)

فالجزية المفروضة على هؤلاء هي من أجل ثنيهم عن ظلم الناس المستضعفين على أرضهم:

- وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا (75)

وليست الجزية– برأينا- طريقة لإتخام بيت مال المسلمين بالغنائم، وسلب الآخرين مقدراتهم، وإنما هي وسيلة ضغط تمارس على المعتدي لثنيه عن ظلمه، وإحقاقا لحق المستضعفين في الأرض في كل مكان.

2. إذا كانت الدولة المسلمة غير قادرة على ثني المعتدي لأنه يملك من القوة ما لا تستطيع الدولة المسلمة مواجهته، لجأت الدولة المسلمة إلى سياسة الإغلاق (أي المقاطعة). وهذه المقاطعة تتمثل في قطع علاقاتها الدبلوماسية مع المعتدي، وإغلاق حدودها أمام مصالح تلك الدولة المعتدية، فلا تستورد منها ولا تصدر لها، ولا تتقبل عضويتها في أي مكان تواجدت هي فيه. شريطة عدم المساس بحقوق الأفراد على أرضها، فتتكفل لهم بحرية الاعتقاد على أرضها، فلا يلحق أذى بأحد من رعاياها مهما كانت عقيدته، وذلك لأن المرشد لنا هو قوله تعالى:

- **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (64)**

السؤال: لماذا خرج محمد بجيشه إلى بعض قبائل العرب من حوله كـ بني المصطلق مثلا؟ ولِم لم يخرج بجيشه إلى كل القبائل من حوله؟ ومن هم القبائل التي خرج إليهم محمد بجيشه؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نؤمن أن محمدا لم يخرج بجيشه إلى كل القبائل التي كانت تعيش من حوله، ونحن نؤمن كذلك بأن محمدا قد خرج إلى قبائل محددة (كبني المصطلق مثلا) ولم يخرج بجيشه إلى قبائل أخرى لسبب معلوم للجميع بالضرورة، ونحن نظن أن السبب في ذلك يعود إلى أن هذه القبائل التي خرج إليها محمد بجيشه هي القبائل التي منعت حرية الاعتقاد على أفرادها، فهي التي أنزلت العقاب بكل من سولت له نفسه اللحاق بركب محمد أو تغيير عقيدة آباءه وأجداده، وذلك لأنهم قوم لا يؤمنون بحرية الاعتقاد، ويقدسون موروثات الآباء والأجداد. لذا كان لزاما على محمد أن ينصر المستضعفين في الأرض حتى ولو لم يكونوا من رعاياه، وذلك لأن حرية الاعتقاد هي واجب مقدس كفله رب الناس للناس أجمعين، فلا يحق لأمة على الأرض أن تحضره على أحد من رعاياها. وليس أدل على ذلك من قرار محمد في لحظة تاريخية محددة بذاته أن يجهز جيشه للخروج به إلى مكة. فخروج محمد في نهاية دعوته إلى مكة بجيش عظيم كان مدفوعا (نحن نرى) بهذه الغاية، فلقد وصلت الوقاحة بسادة مكة وحلفاءهم أن يلحقوا الأذى بمن أراد أن يغير دينه. لذا نحن نتخيل أنه لما أصبح من المتعذر على سادة مكة وحلفائهم إلحاق الأذى بمحمد وأصحابه في المدينة لما تحصل لمحمد من قوة مادية يستطيع بها الدفاع عن نفسه وعن أصحابه، اتخذ هؤلاء السفهاء قرارهم بمحاربة دين محمد بطريقة أخرى، تتمثل في التضييق على رعاياهم في حرية الاعتقاد. فأنزلوا العقاب بكل من حاول تغيير دين آباءه. ولما انتهى الخبر إلى محمد، لم يكن ليسكت عن هذا الظلم الذي وقع على المستضعفين في الأرض، فكان لزاما عليه أن يتحرك بجيشه لنصرة المظلوم، لكي ينتهي هؤلاء السفهاء عن فعلتهم:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (123)**

فجاءت الدعوة الإلهية صريحة لقتال الذين يلون المسلمين من الكفار. ويكونوا بذلك قد نقضوا عهدهم وطعنوا في دين محمد وأصحابه:

- **وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ (12)**

نتيجة مهمة جدا: كان الدافع عند محمد لقتال هؤلاء هو حتى ينتهي أئمة الكفر عن طغيانهم وإلحاقهم الأذى بغيرهم.

السؤال: لماذا يجب أن تكون هذه هي سياسة الدولة المسلمة؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن ذلك يجب أن يكون مدفوعا بالعقيدة الراسخة المتمثلة بأن الهدف الأول والأخير هو أن نجعل كلمةَ الذين كفروا السفلى وكلمةُ الله هي العليا:

- **إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (40)**

تخيلات مفتراة: تخيل عزيزي القارئ أن هذه هي سياستنا مع العالم من حولنا، ألا يبين للناس أجمعين بأننا منصفين غير معتدين؟ ثم ألا تشكل تلك قوة عظيمة لهذا الدين الذي يحاور الجميع بالكلمة لا بل وينصر المظلوم في كل أصقاع الأرض؟ ألا نستطيع بذلك أن نجلب الناس الباحثين عن الحقيقة إلى دين الله؟ ألا نتيح بذلك الفرصة أمام الجميع لسماع كلمة الله التي هي العليا؟ ألا نكون بذلك قد أوقعنا الحجة على غيرنا فكنا رسل مبشرين ومنذرين للناس أجمعين؟

- **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (28)**

ألا يبين للبشرية حينها بأن رسولنا الذي جاء بهذه الدعوة المنصفة هو فعلا رحمة للعالمين:

- **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (107)**

لكن بالمقابل، ألم تجلب العقيدة التي روّج لها سادتنا العلماء (علماء الجهاد والنكاح) من أهل الدراية من قبلنا على مر القرون الأذى لمحمد؟ ألم تصوره تصرفاتهم بأنه ليس أكثر من زير نساء باحثا عن المتعة بين فروج النساء وأدبار الغلمان؟

(دعاء: اللهم أني أبرأ إليك من كل أذى ألحقوه بنبيك الكريم الذي شهدت له أنت بنفسك أنه على خلق عظيم):

- **وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4)**

عودة على بدء: باب مقاتلة فرعون ربه

لقد خرجنا عن موضوع النقاش الخاص بمقاتلة فرعون ربه في باب القتال هذا لإثبات شيء واحد، وهو أن الله (صاحب القوة المطلقة) لا يقاتل إلا من يشرع في مقاتلته كفرعون مثلا. وذلك لأن سنة الله الكونية تقضي بأن الله لا يحب المعتدين:

- **وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (190)**

فالذي يقاتل من لا يقاتله فهو إذن من المعتدين:

- إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَآؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً (90)
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (123)
- لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (9)

ولو تدبرنا الآية الأخيرة جيدا، لوجدنا أن القتال لا يقع إلى على من قاتلنا في الدين وعلى الذين أخرجونا من ديارا ظلما (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ).

السؤال: كيف يمكن لهؤلاء أن يقاتلونا في الدين (إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ)؟

إن هذا السؤال يعيدنا على الفور إلى سبب تقتيل فرعون لأبناء بني إسرائيل واستحياء نساءهم في أرض مصر. فلو تفقدنا الآية الكريمة التالية لوجدنا أن بني إسرائيل قد منعوا من حرية الاعتقاد، فلقد كان لزاما عليهم أن يؤمنوا بما آمن به فرعون وملأه، قال تعالى:

- وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127)

فما أن انتهى إلى علم فرعون أن موسى وقومه سيفسدون في الأرض وهم الذين ذرءوا فرعون وآلهته، كان الرد الفوري من فرعون هو أن يعمد إلى تقتيل نساءهم واستحياء نساهم، فكان ذلك هو الأذى الذي لحق ببني إسرائيل من قبل أن يأتيهم موسى ومن بعد ما جاءهم:

- قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (129)

فكان الطلب من موسى واضحا وهو الصبر:

- قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128)

فجاءت المنّة الإلهية على المستضعفين في الأرض أن يكونوا هم الوارثين:

- وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5)

فكان فرعون هو المفسد لأنه ما أن علا في الأرض حتى استضعف طائفة من أهل مصر، فجعل أهلها شيعا، فاستضعف طائفة منهم (وهم بنو إسرائيل) فذبح أبناءهم واستحيي نسائهم:

- إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4)

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن المفسد في الأرض هو الذي يمنع الآخرين من حرية الاعتقاد.

نتيجة مهمة جدا جدا لا تصدقوها: نحن نفتري الظن بأن واقعنا الآن يحتم علينا الخروج بالنتيجة المفتراة من عند أنفسنا بأن أفسد أهل الأرض هم من يسمون أنفسهم بحكومات العالم الإسلامي، لأنهم هم الذي يمنعون الناس من ممارسة حرية الاعتقاد. انتهى.

فحالهم (نحن نرى) لا يختلف كثيرا عن حال حكومة فرعون في أرض مصر، فلقد كان آل فرعون يؤمنون بما آمن به فرعون نفسه، ولا يتقبلون أن يكون غيرهم على عقيدة غير عقيدتهم. فهو يريدون الجميع أن يؤمنون بما يؤمنون به هم. فهذا فرعون نفسه يخاطبهم بالصيغة المطلقة التالية:

- وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)

وكان جل خوفه من موسى أن يبدل لهم دينهم:

- وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (26)

فحرية الاعتقاد في أرض مصر كانت محظورة حينئذ، فلحق ببني إسرائيل الأذى:

- قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (129)

لكن لنستفيد عزيزي القارئ من هذه الحالة التاريخية في حياتنا المعاصرة؛ فقد يلحق الأذى بالقتل للمؤمن لكن هذا ليس سببا كافيا أن يعمد هو إلى قتل غيره، فنحن نرى بأنه حتى لو تم الاعتداء على المؤمن بالقتل، فلا يحق له أن يدفع هذا الأذى عن نفسه بمفرده، فعليه أن يصبر كما فعل ابن آدم الذي قتله أخوه:

- لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (28)

فالمؤمن الذي يخاف الله ربه لا يبسط يده بالقتل لمن بسط يده إليه ليقتله، وعليه أن ينتظر حتى يصبح الأمر جماعيا، تقوم به الأمة بمجملها، بدليل قوله تعالى:

- أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39)

فلو تفقدنا الآيات التي تتحدث عن نصر الله للمؤمنين، لوجدناها خاصة باللذين يقاتَلون (بفتح التاء) وليس باللذين يقاتِلون (بكسر التاء). فنحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الله لا ينصر من يحمل سيفه ويقاتل الناس، ولكنه ينصر من ظُلم لأن القتال وقع عليه رغما عنه.

السؤال: لماذا لا ينصر الله من يقاتل الآخرين بينما ينصر من وقع القتال عليه رغما عنه؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن المؤمن الذي يخاف الله يخشى أن يكون من المعتدين، لذا فهو الذي يرفع صوته بالكلمة الطيبة، وإذا ما وجد المقاومة من غيره، فعليه أن يصبر حتى يحكم الله بين الطرفين:

- وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يْؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (87)

فالمؤمن لا يجبر غيره على قبول الهداية، لأن هذا شأن شخصي، ولكن يبقى المؤمن متبعا لما أوحي إليه صابرا حتى يحكم الله:

- قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (108) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىَ يَحْكُمَ اللّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (109)

ولن يأتي النصر من الله إلا إذا مس المؤمن البأساء والضراء من الذين لم يؤمنوا:

- أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ (214)
- وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ (34)
- وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (26)
- وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (62)
- حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (110)
- ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (60)
- وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (114) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (115) وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (116)

نتيجة مهمة جدا (1) على المؤمن أن يؤمن بما أنزل إليه من ربه

نتيجة مهمة (2): على المؤمن أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة

نتيجة مهمة (3): على المؤمن أن يجادل غيره بالتي هي أحسن

نتيجة مهمة (4): على المؤمن أن لا يحاول إجبار غيره على قبول دعوته

نتيجة مهمة (5): على المؤمن أن يصبر على الأذى الذي قد يلحق به جراء ذلك

نتيجة مهمة (6): على المؤمن أن ينتظر النصر من ربه

نتيجة مهمة (7): على المؤمن أن يعتقد يقينا بأن النصر من عند الله، ينصر من يشاء

سنحاول في الجزء القادم من هذه المقالة متابعة النقاش في هذه القضايا وذلك بإسقاط تبعاتها على ما بدر من فرعون (الإنسان) في مقاتلته ربه في المواطن الثلاث التي حصلت فيها المواجهة، وهي على النحو التالي:

1. المواجهة في الأرض
2. المواجهة في السماء
3. المواجهة في الماء

وستكون الفكرة المسيطرة على النقاش حينئذ تتمثل في الافتراء الخطير جدا الذي هو لا شك من عند أنفسنا، ألا وهو: لقد استطاع فرعون أن يدرأ القتل عن نفسه لأنه لم يستطع أن يدرأ الموت عنها، قال تعالى:

- **الَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (168)**

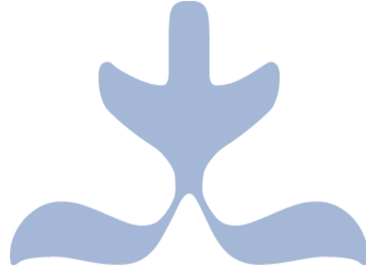
ولكي تستبين الصورة التي نحاول تجليتها سنتعرض للقضايا الخطيرة جدا التالية:

1. الفرق بين الموت والقتل والذبح
2. لماذا يبدأ الله الحرب لكنه لا يبدأ القتال
3. دافع فرعون من تذبيح أبناء بني إسرائيل
4. الطلب الإلهي من بني إسرائيل ذبح البقرة، وطريقة تنفيذها وآلية عملها
5. استخدام فرعون عصاه الشخصية في مواجهة عصا موسى
6. العودة إلى باب الخلافة والملك.
7. الخ.

فالله وحده أدعو أن ينفذ مشيئته وإرادته لي الإحاطة بشي من علمه لا ينبغي لغيري، إنه هو العليم الحكيم، وأدعوه أن يزدني علما وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا. وأدعوه وحده أن يؤتيني رشدي، وأعوذ به أن يكون أمري كأمر فرعون وما أمر فرعون برشيد، إنه هو العليم الخبير – آمين.

المدّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان & المهندس يزن علي سليم الجراح

بقلم د. رشيد الجراح



قصة يونس

الجزء السادس والثلاثون



قصة يونس – الجزء السادس والثلاثون

السؤال: لماذا كانت نهاية فرعون في البحر؟

نحاول في هذا الجزء الجديد من المقالة العودة إلى القصة الأكثر سيطرة على النص القرآني، وهي قصة فرعون، طارحين مجموعة من التساؤلات التي نظن أن الفكر الإسلامي الدارج لم يلق إليها الانتباه المطلوب، ربما لأنهم ظنوا أنها تقع في باب البديهيات التي قد لا تحتاج إلى إثارة النقاش حولها، نذكر منها:

⇐ لماذا كانت نهاية فرعون في البحر؟

⇐ لماذا لم يُصب فرعون بالسوء والأذى (كالمرض مثلا)؟

⇐ لماذا بعث الله إلى فرعون أكثر من رسول؟

⇐ لماذا تجرأ فرعون على الله؟

⇐ لماذا لم يعمد فرعون إلى قتل موسى وهارون مباشرة؟

⇐ لماذا لم يعمد فرعون إلى سجن موسى وهارون وهم اللذين كانا (حسب زعم قومه) يفسدون في الأرض؟

⇐ لماذا جاء طلب فرعون من قومه على نحو أن يذروه يقتل موسى؟ فهل كان هناك من يمنعه عن فعل ذلك؟

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (26)**

⇐ ألم يحرضه الملأ منذ البداية على أن لا يذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض؟

- **وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127)**

⇐ لماذا خاف فرعون أن يبدل موسى لهم دينهم؟ وما هو دينهم أصلا؟ أليس هو ربهم الأعلى؟

⇐ ما قصة آلهة فرعون التي تحدث عنها ملأ فرعون؟

- **وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127)**

⇐ أليس هو إلههم الأوحد كما صرح لهم بذلك فرعون نفسه؟

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)**

⇐ فكيف يستقيم المعنى أن يكون لفرعون آلهة وهو نفسه من كان إلههم الأوحد؟

⇐ الخ.

حاولنا في نهاية المقالة السابقة تقديم افتراء خطير جدا (هو لا شك من عند أنفسنا) زعمنا أنه سيكون محرك البحث في هذا الجزء الجديد من المقالة مفاده أن فرعون كان يستطيع أن يدرأ عن نفسه القتل وإن كان لا يستطيع أن يدرأ الموت عنها، مصداقا لقوله تعالى:

- **الَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (168)**

فلو تدبرنا هذه الآية الكريمة جيدا، لوجدنا أن فيها ما قد يفتن كل ذي لب، باحث عن الحقيقة بين مفردات النص الإلهي المقدس؛ فالتناوب في اللفظ بين مفردتي القتل والموت يدعو إلى التوقف مليّا لتدبر المعاني المستفادة من ذلك. فبالرغم أن حديثهم قد جاء عن درء القتل عن أنفسهم بالقعود وعدم الخروج إلى القتال (الَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا)، جاء الرد الإلهي متحديا لهم بأن يدرؤوا عن أنفسهم الموت (قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)، ولم يأت على نحو أن يدرؤوا عن أنفسهم القتل، فلم لم يأت النص القرآني على نحو:

قل فادرؤوا عن أنفسكم القتل إن كنتم صادقين؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الإنسان (أي إنسان) لا يستطيع أن يدرأ عن نفسه الموت بدليل قوله تعالى:

- **إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (30)**
- **قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (8)**

لكنه يستطيع (نحن نفتري الظن) أن يدرأ عن نفسه القتل، لأن القتل يحصل (كما افترينا القول سابقا) بالأجل الأول وليس بالأجل المسمى عند الله:

- **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ (2)**

السؤال: كيف يستطيع الإنسان أن يدرأ عن نفسه القتل؟

جواب: نحن نظن أن الإنسان يستطيع أن يدرأ القتل عن نفسه بأن لا يعرض نفسه لمواطن القتل، فالذي يقعد ولا يخرج للقتال، لن يقتل في ساحة المعركة، والذي لا يركب السيارة ولا يعرض نفسه لها، لا يقتل بحادث طريق، والذي لا يتناول السم، لا يقتل به، وهكذا.

السؤال: لماذا؟

جواب: لأن القتل يقع لسبب غير الموت.

السؤال: وما هي الأسباب التي تؤدي بالإنسان إلى القتل؟

جواب مفترى: نحن نظن أن القتل يقع بسبب وجود قاتل.

السؤال: من هو القاتل؟

جواب: نحن نظن أن القاتل يمكن أن يكون أي شيء ما عدا الله نفسه، لأن الله لا يقتل أحدا، وذلك لأن الله حرّم قتل النفس بغير الحق:

- **قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151)**

ولتوضيح الفكرة التي نحاول تبيانها هنا، دعنا نقدم المثال التالي الذي جاء في هذه الآية الكريمة نفسها، فهذه الآية الكريمة تبين لنا بأن القاتل يمكن أن يكون الوالد نفسه عندما يعمد إلى قتل ولده من إملاق، قال تعالى:

- قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151)

وجاء التبيان حول هذه الجزئية على وجه التحديد في الآية الكريمة التالية أيضا:

- وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءًا كَبِيرًا (31)

السؤال: كيف يمكن أن يقتل الوالد ولده؟ هل فعلا يحصل أن يقتل والد ولده؟ ومتى يمكن أن يعمد والد إلى قتل ولده؟ ولماذا يقع هذا الفعل في باب القتل؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الوالد يمكن أن يعمد إلى قتل ولده لسبب واحد، وهو الإملاق أو الخشية منه.

خروج عن النص في استراحة قصيرة: ما هو الإملاق

دعنا نخرج في هذه الاستراحة القصيرة لنحاول تقديم رأينا بمعنى الإملاق الذي جاء في هذه الآية الكريمة، مفترين القول بأن ما وصلنا من عند سادتنا أهل الدراية قد لا يكون اجتهادا حقيقيا يرقى إلى مستوى النص القرآني. فإليك عزيزي القارئ بداية ما جاء في تفسير الطبري حول هذه الآية الكريمة:

ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم

القول في تأويل قوله تعالى { ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم } . يقول تعالى ذكره : { وقضى ربك } يا محمد { ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا } , { ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق } فموضع تقتلوا نصب عطفا على ألا تعبدوا . ويعني بقوله : { خشية إملاق } خوف إقتار وفقر . وقد بينا ذلك بشواهده فيما مضى وذكرنا الرواية فيه . إنما قال جل ثناؤه ذلك للعرب , لأنهم كانوا يقتلون الإناث من أولادهم خوف العيلة على أنفسهم بالإنفاق عليهن , كما : 16812 - حدثنا بشر , قال : ثنا يزيد , قال : ثنا زيد , عن قتادة , قوله { ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق } : أي خشية الفاقة , وقد كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الفاقة , فوعظهم الله في ذلك , وأخبرهم أن رزقهم ورزق أولادهم على الله , فقال : { نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطأ كبيرا } . * - حدثنا محمد بن عبد الأعلى , قال : ثنا محمد بن ثور , عن معمر , عن قتادة { خشية إملاق } قال : كانوا يقتلون البنات . 16813 - حدثنا القاسم , قال : ثنا الحسين , قال : ثني حجاج , عن ابن جريج , قال : قال مجاهد { ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق } قال : الفاقة والفقر . 16814 - حدثني علي , قال : ثنا أبو صالح , قال : ثني معاوية , عن علي , عن ابن عباس , قوله { خشية إملاق } يقول : الفقر .

إن قتلهم كان خطئا كبيرا

وأما قوله : { إن قتلهم كان خطئا كبيرا } فإن القراء اختلفت في قراءته ; فقرأته عامة قراء أهل المدينة والعراق { إن قتلهم كان خطئا كبيرا } بكسر الخاء من الخطإ وسكون الطاء . وإذا قرئ ذلك كذلك , كان له وجهان من التأويل : أحدهما أن يكون اسما من قول القائل : خطئت فأنا أخطأ , بمعنى : أذنبت وأثمت . ويحكى عن العرب : خطئت : إذا أذنبت عمدا , وأخطأت : إذا وقع منك الذنب خطأ على غير عمد منك له . والثاني . أن يكون بمعنى خطأ بفتح الخاء والطاء , ثم كسرت الخاء وسكنت

الطاء , كما قيل : قتب وقتب وحذر وحذر , ونجس ونجس . والخطء بالكسر اسم , والخطأ بفتح الخاء والطاء مصدر من قولهم : خطئ الرجل ; وقد يكون اسما من قولهم : أخطأ . فأما المصدر منه فالإخطاء . وقد قيل : خطئ , بمعنى أخطأ , كما قال : الشاعر : يا لهف هند إذ خطئن كاهلا بمعنى : أخطأن . وقرأ ذلك بعض قراء أهل المدينة : " إن قتلهم كان خطأ " بفتح الخاء والطاء مقصورا على توجيهه إلى أنه اسم من قولهم : أخطأ فلان خطأ . وقرأه بعض قراء أهل مكة : " إن قتلهم كان خطاء " بفتح الخاء والطاء , ومد الخطاء بنحو معنى من قرأه خطأ بفتح الخاء والطاء , غير أنه يخالفه في مد الحرف . وكان عامة أهل العلم بكلام العرب من أهل الكوفة وبعض البصريين منهم يرون أن الخطء والخطأ بمعنى واحد , إلا أن بعضهم زعم أن الخطء بكسر الخاء وسكون الطاء في القراءة أكثر , وأن الخطأ بفتح الخاء والطاء في كلام الناس أفشى , وأنه لم يسمع الخطء بكسر الخاء وسكون الطاء , في شيء من كلامهم وأشعارهم , إلا في بيت أنشده لبعض الشعراء : الخطء فاحشة والبر نافلة كعجوة غرست في الأرض تؤتبر وقد ذكرت الفرق بين الخطء بكسر الخاء وسكون الطاء وفتحهما . وأولى القراءات في ذلك عندنا بالصواب , القراءة التي عليها قراء أهل العراق , وعامة أهل الحجاز , لإجماع الحجة من القراء عليها , وشذوذ ما عداها . وإن معنى ذلك كان إثما وخطيئة , لا خطأ من الفعل , لأنهم إنما كانوا يقتلونهم عمدا لا خطأ , وعلى عمدهم ذلك عاتبهم ربهم , وتقدم إليهم بالنهي عنه . وبنحو الذي قلنا في ذلك , قال أهل التأويل . ذكر من قال ذلك : 16815 - حدثني محمد بن عمرو , قال : ثنا أبو عاصم , قال : ثنا عيسى ; وحدثني الحارث , قال : ثنا الحسن , قالا : ثنا ورقاء , جميعا عن ابن أبي نجيح , عن مجاهد { خطئا كبيرا } قال : أي خطيئة . * - حدثنا القاسم , قال : ثنا الحسين , قال : ثني حجاج , عن ابن جريج , عن مجاهد { إن قتلهم كان خطئا كبيرا } قال : خطيئة . قال ابن جريج , وقال ابن عباس : خطئا : أي خطيئة

أولا، لو تدبرنا ما جاء في هذا التفسير العظيم لوجدنا في العجب العجاب. فغالبية المفسرون ظنوا أن هذه عادة خاصة بأمة العرب، ويكأن لسان حالهم يقول أن هذا القرآن فعلا جاء خاصا لأمة العرب، وقد لا تنطبق بعض آياته (كهذه الآية) على الأمم الأخرى.

ثانيا، جاء في قولهم بأن هذا خاص بقتل الإناث، ويكأن لسان حالهم يقول أن الوالد يقتل فقط الإناث من المواليد، ولا يمكن أن يقتل الوالد الذكور من المواليد. بالرغم أن النص الإلهي جاء بلفظ الأولا:

- **وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ...**

ولو تدبرنا الية الكريمة التالية لوجدنا أن مفردة الأولاد تشمل الذكور والإناث معا:

- **يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ ...**

لذا، يستحيل (نحن نرى) أن يكون قتل الاولاد خاصا بعادة الأعراب على وأد البنات كما زعم أهل الدراية من قبلنا.

ثالثا، أجمع غالبيتهم أن السبب وراء هذا القتل هو خوف الفاقة والفقر. ويكأن لسان حالهم يقول أن هذا فعل لا يقوم به إلا المعوزين من الناس

رابعا، ذهب جل جهد أهل العلم على كيفية قراءة بعض المفردات، فأنفقوا جهدهم في النصب والجر والرفع والمد، حتى أصبح القارئ (كالعادة) يظن أن كتاب الله ليس إلا كتاب نحو وصرف، لا يشتغل به إلا من أتقن فنون اللغة.

السؤال: على الرغم من هذا كله، هل فعلا نجد (نحن نتساءل) إجابة شافية على السؤال الذي قد يخطر في بال كل من يقرأ هاتين الآيتين الكريمتين؟

- **قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151)**
- **وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءًا كَبِيرًا (31)**

السؤال (1): كيف يمكن أن يقتل الوالد ولده من إملاق (وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ)؟ وكيف يمكن أن يقتل الوالد ولده خشية إملاق (وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ)؟ وما الفرق بين أن يقتل الوالد ولده من إملاق أو أن يقتله خشية إملاق؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: عندما يعمد الوالد إلى قتل ولده خشية إملاق، فإن الإملاق (نحن نفتري القول) غير حاصل بعد على أرض الواقع، فذاك لا زال يقع في باب الخشية منه، أما عندما يقتل الوالد ولده من إملاق، فإن ذلك يعني أن الإملاق قد حصل فعلا على أرض الواقع.

السؤال (2): هل يمكن للوالد أن يقتل ولده؟ ولماذا يمكن للوالد أن يقتل ولده بسبب وقوع الإملاق أو حتى الخشية من وقوع الإملاق؟ فما هو الإملاق أصلا الذي يمكن أن يدفع بالوالد أن يقتل ولده بسببه سواء خشية منه أو لوقوعه فعلا؟

رأينا المفترى: لو تفقدنا النص القرآني على مساحته، لوجدنا أن الوالد لا يمكن أن يعمد إلى قتل ولده إلا في هذه الحالة، وهي الإملاق، سواء كان واقعا أو متوقعا. ليكون السؤال هو: ما هو الإملاق الذي قد يدفع بالوالد أن يقتل ولده بسببه؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لو تفكرنا بالأمر على أرض الواقع، لما وجدنا أن الوالد يمكن أن تسوّل له قتل ولده إلا لأمر جلل، فالإملاق أمر كبير جدا يمكن أن يدفع بالوالد أن يقتل بسببه ولده، أليس كذلك؟

السؤال: متى يمكن أن يحصل ذلك على أرض الواقع؟

رأينا المفترى: لو تدبرنا الآية الكريمة التي تتحدث عن قتل الوالد ولده خشية إملاق، لوجدناها قد انتهت بتصوير هذا الفعل على أنه خطء كبير:

- **وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءًا كَبِيرًا (31)**

لكن – بالمقابل- لو تدبرنا الآية التي تتحدث عن قتل الوالد ولده من إملاق لوجدناها تتحدث عن الرزق ولا تصور الفعل نفسه على أنه خطء كبير:

- **قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151)**

لتكون الافتراءات التي نقدمها من عند أنفسنا عن هذا الأمر على النحو التالي:

⇐ قتل الوالد ولده خشية إملاق هو خطء كبير

⇐ قتل الوالد ولده من إملاق ليس خطءا كبيرا

⇐ قتل الوالد ولده من إملاق مرتبط بالرزق

⇐ الخ.

السؤال: كيف يمكن لنا أن نفهم الإملاق إذن؟

رأينا المفترى: لو كان الأمر يعني الخشية من عدم توافر الرزق (أي الفقر)، لربما كان الأولى بالوالد أن يقتل نفسه أيضا من ذلك الإملاق؟ فلم لا يقتل الإنسان نفسه بينما يقتل ولده من الإملاق؟ ولو كان الأمر يرتبط بالفقر، لربما قتل الوالد جميع ولده؟ فلم يقتل بعضهم وقد يترك بعضهم؟ ولو كان الأمر مرتبطا بالفقر، فلم يعمد الوالد إلى طلب الذرية أصلا؟ ألم يكن الأولى به أن لا يتزوج (حتى لا تتحصل له الذرية فيقتلها) مادام أنه يخشى الإملاق؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الإملاق أمر خاص بالولد ولا علاقة للوالد به. انتهى.

السؤال: إذا كان الإملاق خاصا بالولد، ولا يخص الوالد، فما هو؟ يسأل صاحبنا ربما متعجلا الإجابة.

رأينا: لو تفقدنا الآية السابقة التي تبين الإملاق فعلا واقعا مرة أخرى

- **قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151)**

لوجدنا فيها (نحن نفتري القول) ما يدعو إلى الحيرة. فهذه الآية الكريمة تطلب بصريح اللفظ أن لا نقتل أولادنا من إملاق (وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ)، وفي الوقت ذاته تبين الآية نفسها بصريح اللفظ حرمة قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق (وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ)، ليكون السؤال: لم هذا التكرار؟ أليس قتل الوالد ولده من إملاق هو قتل نفس؟ ألا يقع قتل الولد من إملاق في باب قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: كلا وألف كلا. فنحن نفتري الظن بأن قتل الولد من إملاق لا يقع في باب قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وإلا لأصبح ذلك تكرارا لا فائدة منه.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى الخطير جدا جدا: نحن نظن بأن الولد الذي يعاني من الإملاق لا نفس له، وهذا هو السبب الذي نظن أنه قد يدفع بالوالد إلى قتل ولده. انتهى.

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا المفترى: عندما يتحصل للوالد ذرية لا نفس لها، ربما تسوّل له نفسه قتل هذا المولود لظنه بأنه سيكون عبء عليه وعلى من هم حول المولود الذي يعاني من الإملاق.

السؤال: من هو هذا الولد الذي يعاني من الإملاق (فلا نفس له)؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: إنه الولد الذي يعاني من الإعاقة التي تمنعه من كسب رزقه بنفسه. فالوالد (عربيا كان أم أعجميا) الذي تتحصل له ذرية (ذكورا كانت أم إناثا) تعاني من إعاقة كبيرة جدا، قد تسول له نفسه قتله ربما رأفة من هذا الأب بهذا المولود، وخوفا على مستقبل هذا الولد الذي يعاني من الإملاق، لأنه بكل بساطة لن يكون قادرا على جلب رزقه بنفسه (في حالة وجود الأب أو وفي حالة وفاته من بعده)، وفي الوقت ذاته سيكون عبئا ثقيلا على من هم حوله.

السؤال: لماذا قد يقع ذلك الفعل خشية الإملاق (وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ)؟ ولماذا يمكن أن يقع ذلك من إملاق (وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ)؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: أحيانا يتحصل لبعض الآباء بعض الذرية، فيبين لهم منذ ولادة هذا المولود (وربما قبل ذلك بوسائل التكنولوجيا الحديثة) أن هذا المولود قد يعاني من إعاقة كبيرة جدا (كالطفل الذي يعاني من متلازمة داون أو المنغوليين بلغتنا الدارجة) ستمنعه من جلب رزقه بنفسه، فيصبح عبئا على من هم حوله. فتأخذ الوالد رأفة بهذا المولود، لدرجة أنه قد يظن بأن الموت خير له من الحياة، ومع تفاقم هذا الشعور لديه، ربما تسوّل له نفسه التخلص منه حتى لا يعاني هذا المولود من تكبد مشاق الحياة، وحتى لا يشكل عبئا زائدا على من هم حوله. فيقع قتله في هذه اللحظة له في باب الخشية من الإملاق.

ولكن قد لا يكون هذا الأمر جليا للوالد منذ اللحظة الأولى لوالدته (كالطفل الذي تعرض لنقص الأكسجين عند الولادة مثلا)، وقد يبين الأمر لاحقا، فيصبح الإملاق أمرا حاصلا لا مفر منه، وفي هذه الحالة يقع قتل هذا الولد في باب القتل من الإملاق.

الدليل

لما كان هذا المولود (نحن نفتري الظن) لا نفس له، لا يندرج قتله (نحن نفتري القول) في باب قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، بدليل الفصل الواضح بين الحالتين في الآية الكريمة نفسها، وانظر – إن شئت- في قوله تعالى مرة أخرى:

- **قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151)**

فهذا الوالد الذي يعاني من الإملاق هو شخص فاقد للتكليف مادام أن التكليف يقع أصلا على النفس:

- **لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (286)**
- **وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (152)**
- **وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ۗ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (54)**
- **أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33)**
- **إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (15)**
- **الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (17)**
- **وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (22)**
- **كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38)**

ولو دققنا مرة أخرى في الآيتين الكريمتين الخاصتين بالإملاق، لوجدنا أن قتل الوالد ولده خشية الإملاق على وجه التحديد كان خطءا كبيرا:

- وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءًا كَبِيرًا (31)

فقتل الوالد لولده لمجرد خشية الإملاق هو خطء كبير، لأن على الوالد (نحن نفتري الظن) أن يتريث في الأمر، فلا يتعجل بالخلاص من هذا المولود بالقتل لمجرد حصول الخشية عنده من الإملاق، فربما يبين لاحقا أنه مخطء في ظنه. وقد يقع الأمر في باب الخطأ في التقدير، فالإقدام على فعل كهذا لمجرد الخشية هو لا شك خطء كبير. أما إذا ما أصبح الأمر واقعا لا مفر منه، فإن قتل الوالد لولده الذي يعاني من الإملاق لا يكون خطءا كبيرا. وعندها يصبح الخوف من عدم توافر الرزق هو المحرك الرئيسي لإقدام الوالد على قتل ولده الذي يعاني من الإملاق. فجاءت الضمانة الإلهية جليّة لا لبس فيها بأن الله هو من تكفل برزق هذا الولد الذي يعاني من الإملاق، لا بل وسيكون سببا في رزق أهله أيضا.

ولو تدبرنا أحوال هؤلاء المواليد الفاقدين للأهلية على أرض الواقع (أو ما نسميهم بالمعاقين)، لوجدنا أن رزقهم كثير، يجلب لهم من كل مكان، فالجميع يعطف عليهم ويقدم لهم المساعدة، وغالبا ما تكون هذه المساعدة المقدمة لهم زائدة عن حاجتهم، فيكون فيها رزقا لذويهم معهم، مصداقا لقوله تعالى (نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ):

- **قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151)**

والله أعلم.

عودة على بدء

لقد حاولنا جلب هذا النقاش هنا من أجل تعزيز فكرة واحدة وهي أن القتل يمكن درءه، فبالتوعية الصحيحة المبنية على فهم حقيقي لآيات الكتاب الحكيم يمكن أن نقلل من حوادث قتل الوالد لأولاده خشية إملاق أو من إملاق، وبالعلم النافع يمكن أن تقلل حوادث القتل التي تحصل في الحروب وعلى الطرقات وفي النزاعات البشرية الفردية والجماعية منها، وبالتالي نستطيع درء القتل عن أنفسنا وإن كنا لا نستطيع أن ندرأ الموت عنها.

السؤال: ما علاقة هذا كله بالحديث عن فرعون؟

جواب مفترى خطير جدا: نحن نفتري القول بأن فرعون كان قادرا أن يدرأ القتل عن نفسه. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا: لو تدبرنا قصة فرعون من أولها، لوجدنا أن الرجل لم يكن ليصيبه سوء، فلا نجد أن الرجل قد مرض، ولا نجد أن الرجل قد أصابه مكروه، بل على العكس نجد أن الرجل كان يتحصل له كل ما يريد. ونحن نرى وجاهة هذا الافتراء عندما نقرأ الآيات الكريمة التالية التي نظن أنها جاءت خاصة بفرعون نفسه:

- **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (16)**

فقد تحدثنا في الأجزاء السابقة أن الذي كان لآيات الله عنيدا هو فرعون بشخصه بدليل أن الله هو من أراه آياته كلها:

- **وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (57)**

وبدليل أن الله هو من آتاه آياته كلها:

- وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176)

نتيجة مفتراة (1): رأى فرعون آيات الله كلها

نتيجة مفتراة (2): أوتي فرعون آيات الله

(للتفصيل انظر الأجزاء السابقة من هذه المقالة)

وبالرغم من ذلك، فقد كان لآيات الله عنيدا (إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا).

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى (1): نحن نظن أن فرعون كان يملك مكتسبات عظيمة جدا، ربما لم تتحصل لغيره على الإطلاق

جواب مفترى (2): نحن نظن أن فرعون كان يملك المقومات التي تجعله قادرا على المحافظة على تلك المكتسبات التي تحصلت له، فلا يصيب الرجل سوء ولا نصب ولا عذاب.

السؤال الأول: ما هي تلك المكتسبات؟

جواب مفترى: نحن نظن أن المكتسبات التي تجمعت عند فرعون في آن واحد هي:

⇐ أنه خلق وحيدا

⇐ كان عنده مال ممدود

⇐ وبنين شهود

⇐ مهد الله له تمهيدا

⇐ الخ

- ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (16)

دعنا نحاول فهم المعاني الحقيقية لهذه المفردات قبل الانتقال إلى السؤال الكبير وهو: كيف استطاع فرعون أن يحافظ عليها فلا يمسه السوء أو الأذى أو النصب أو العذاب؟

باب: فرعون خلق وحيدا (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11))

لو تدبرنا هذه الآية الكريمة جيدا، ربما نتفق أنها تتحدث عن شخص محدد بذاته، ونحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن هذا الشخص المقصود بالخطاب هو فرعون، وليعذرنا سادتنا العلماء أهل الدراية وأهل الرواية في مخالفتهم الرأي، كما ندعو المتمسكين بإرث الآباء العودة إلى مؤلفاتهم لينهلوا من عظيم العلم فيها، وحتى لا نكلفهم الجهد الزائد، فهذا مثلا ما جاء في الطبري عن تفسير هذه الآية الكريمة:

ذرني ومن خلقت وحيدا

وقوله : { ذرني ومن خلقت وحيدا } يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : كل يا محمد أمر الذي خلقته في بطن أمه وحيدا , لا شيء له من مال ولا ولد إلي . وذكر أنه عني بذلك : الوليد بن المغيرة المخزومي . ذكر من قال ذلك : 27415 - حدثنا سفيان , قال : ثنا وكيع , قال : ثنا يونس بن بكير , عن محمد بن إسحاق , عن محمد بن أبي محمد مولى زيد , عن سعيد بن جبير أو عكرمة , عن ابن عباس , قال : أنزل الله في الوليد بن المغيرة قوله : { ذرني ومن خلقت وحيدا } وقوله : { فوربك لنسألنهم أجمعين } . .. 15 92 إلى آخرها . 27416 -حدثني محمد بن عمرو , قال : ثنا أبو عاصم , قال : ثنا عيسى ; وحدثني الحارث , قال : ثنا الحسن , قال : ثنا ورقاء , جميعا عن ابن أبي نجيح , عن مجاهد { ذرني ومن خلقت وحيدا } قال : خلقته وحده ليس معه مال ولا ولد . 27417 -حدثني أبو كريب , قال : ثنا وكيع , عن محمد بن شريك , عن ابن أبي نجيح , عن مجاهد { ذرني ومن خلقت وحيدا } قال : نزلت في الوليد بن المغيرة , وكذلك الخلق كلهم . 27418 - حدثنا بشر , قال : ثنا يزيد , قال : ثنا سعيد , عن قتادة , قوله : { ذرني ومن خلقت وحيدا } وهو الوليد بن المغيرة , أخرجه الله من بطن أمه وحيدا لا مال له ولا ولد , فرزقه الله المال والولد , والثروة والنماء . 27419 - حدثني يونس , قال : أخبرنا ابن وهب , قال : قال ابن زيد , في قوله : { ذرني ومن خلقت وحيدا } . .. إلى قوله : { إن هذا إلا سحر مبين } . .. حتى بلغ { سأصليه سقر } قال : هذه الآية أنزلت في الوليد بن المغيرة . 27420 - حدثنا عن الحسين , قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد , قال : سمعت الضحاك يقول في قوله : { ذرني ومن خلقت وحيدا } يعني الوليد بن المغيرة

وهو ما نرفضه جملة وتفصيلا، وليتركونا نخوض في تخريصات هي لا شك من عند أنفسنا. فنحن نفتري القول بأن الشخصية التي تتحدث عنها هذه الآية الكريمة (كما نفهمها) هو فرعون (وليس الوليد بن المغيرة). ليكون السؤال الآن هو: ما معنى أن فرعون قد خلقه الله وحيدا؟

رأينا المفترى: بعيدا عن الفكر الشعبي الدارج الذي عوّدنا على فهم المفردات كما يحلو له، فإننا نطلب من القارئ الكريم أن يتدبر معنا السؤال التالي: لماذا تحدث الله عن فرعون أنه وحيد؟ هل لأن فرعون كان مثلا وحيد أهله (أي لم يكن له إخوة مثلا)؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا.

السؤال: لماذا إذن؟ يسأل صاحبنا مستغربا.

جواب مفترى: لأن فرعون مخلوق بدليل قوله تعالى (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا).

السؤال: وماذا لو لم يكن فرعون مخلوقا؟ ماذا يمكن أن نطلق عليه إذن؟

جواب: لو لم يكن فرعون مخلوقا خلقا، لأصبح أحد (وليس وحيد)، قال تعالى:

- **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4)**

فنحن لا نقول عن الله بأنه وحيد، ولكننا نقول عنه أنه أحد، وذلك لأن الله لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. وهذه الصفات لا يمكن أن تنطبق إلا على الله الواحد الأحد. أليس كذلك؟

السؤال: من هو الأحد؟

رأينا: الأحد هو الذي ليس كمثله شيء.

نتيجة مفتراة: الله هو أحد

نتيجة مفتراة: فرعون هو وحيد

السؤال: من هو الوحيد إذن؟
جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الوحيد هو من كان له مثيل، ولكنه يمتاز عن من هم مثله بأنه هو الأفضل من بينهم جميعا.
مثال: عندما تعمد شركة إلى صناعة سيارة معينة، فإنها تنتج الكثير منها، لكن ربما تعمد في الوقت ذاته أن تصنع من بين جميع هذه السيارات ذات الماركة التجارية نفسها (كمرسيدس مثلا) سيارة واحدة تمتاز عن بقية المنتجات كلها، ألا تكون هذه السيارة على وجه التخصيص وحيدة (أي unique أو special بالمفردات الدارجة). فكم من مشايخ الأعراب (nouveau riche) يطلب من شركات السيارات والطائرات أن ينتجوا له سيارة أو طائرة خاصة فريدة لا يمتلكها غيره؟! فماذا نسمي هذه السيارة الفريدة التي تمتاز عن جميع مثيلاتها التي تحمل الماركة التجارية نفسها؟
رأينا: نحن نظن أن هذه سيارة وحيدة

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا (1): الوحيد هو الذي له مثيل لكنه يمتاز عن مثيله، فيصبح بذلك هو أفضل الموجود (أي optimal باللسان الأعجمي)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا (2): الأحد هو الذي لا مثيل له، فليس له كفوا أحد، لذا فهو الكامل الذي لا يعتريه النقص (أي perfect باللسان الأعجمي)

لذا، لمّا كان فرعون هو الشخص الوحيد الذي تميّز عن جميع من هم مثله، فقد أصبح بذلك شخصا مميزا بذاته، ولما كان فرعون له مثيل، فإن مثيله هو كل إنسان (من مثلي ومثلك)، لكن ما يميز فرعون عنا جميعا أنه يتمتع بصفات إنسانية لا يدانيه فيها شخص آخر على مر التاريخ. انتهى.
السؤال: وأين الدليل على أن فرعون حاز على أعلى الصفات الإنسانية حتى جعلته مميزا على الناس أجمعين؟
رأينا المفترى: نحن نظن أن ما جاء في الآيات الكريمة التالية تصور لنا ماهية فرعون (الوحيد)، أي كإنسان مميز على الناس أجمعين (بمن فيهم الأنبياء والرسل)، قال تعالى:

- **وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) وَطُورِ سِينِينَ (2) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (5)**

نعم، لقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، فكان فرعون (كإنسان) هو الذي حاز على أعلى مراتب الحسن في التقويم، فما مر على الإنسانية (نحن نفتري الظن) شخص أحسن تقويم من فرعون. (جمل رائعة للباحثين عن القصاصات لنشر الإشاعات، أليس كذلك؟)

ولو تدبرنا مفردة التقويم، لوجدناها مشتقة (نحن نظن) من القيام، فهي – برأينا- تخص البناء الجسدي للشيء بمن فيهم الإنسان، فهذا زكريا قائم يصلي في المحراب بجسمه:

- **فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (39)**

وها هم أصحاب محمد يتركوه قائما جسميا من أجل تجارة انفضوا إليها:

- **وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (11)**

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الآية الكريمة (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) تخص فرعون على وجه التحديد، فهو – برأينا- الذي جاء خلقه في أحسن تقويم، ولكن الله رده (بما كسبت يداه) أسفل سافلين (ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ).

السؤال: لماذا تظن بأن هذه الآية الكريمة تتحدث عن فرعون أصلا؟ يسأل صاحبنا مستغربا.

جواب مفترى: عندما تحدثنا في الأجزاء السابقة عن سورة التين افترينا الظن من عند أنفسنا بأن آياتها السابقة (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) وَطُورِ سِينِينَ (2) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (3)) تتحدث عن أجزاء الأرض التي جاءتها الرسالة الإلهية الخالدة، وهي رسالات أولى العزم من الرسل، وهم محمد وعيسى وموسى وإبراهيم ونوح، وقد جاءت افتراءاتنا حينئذ على النحو التالي:

⇐ البلد الأمين هي موطن رسالة محمد

⇐ طور سنين هي موطن رسالة موسى (التي جاءت رسالة عيسى مصدّقة لها)، لذا فهي موطن رسالة موسى وعيسى معا

⇐ الزيتون هي موطن رسالة إبراهيم

⇐ التين هي موطن رسالة نوح

وبذلك تكون الرسالة الإلهية (رسالة الإسلام طبعا) قد غطت كل أصقاع المعمورة، باستثناء منطقة جغرافية واحدة، وهي أرض مصر.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا، لمّا كانت سنّة الله قد قضت بأن يبعث رسله تترا، متبعا بعضهم بعضا:

- **ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاء أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (44)**

بدأت الرسالة السماوية من أقصى الشرق، من أرض التين، فكانت رسالة نوح هي الرسالة الأولى على الأرض:

- **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (17)**

فكان القرن الأول هو قرن نوح، فكانت رسالته (نحن نفتري القول) في أرض الشرق الأدنى، أي في الأرض المجاورة للجبال العالية (الهملايا). (انظر مقالتنا تحت عنوان سفينة نوح ونظرية تكون القارات). فغطت رسالته تلك المنطقة، وكان نوح (أو بوذا) هو رسول تلك الأمة:

- **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ (24)**

ثم انتقلت الرسالة غربا، فكانت أرض إبراهيم (الزيتون)، وهي المنطقة الفاصلة بين الشرق والغرب (أو ما يسمى بالشرق الأوسط)، فغطت رسالة إبراهيم تلك المنطقة، وكان إبراهيم هو نذير تلك الأمة:

- **اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (35)**

ثم انتقلت الرسالة غربا إلى الأرض المقدسة، فكانت رسالة موسى موجهة إلى بني إسرائيل:

- **يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (21)**

وجاءت رسالة عيسى موجهة إلى بني إسرائيل أنفسهم:

- **وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (6)**

ثم، انتقلت الرسالة إلى البلد الأمين، فجاءت رسالة محمد لتغطي هذه المنطقة الجغرافية، وليكون محمد هو نذير هذه الأمة:

- **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (7)**

مفارقة غريبة جدا: إن هذا الفهم المفترى من عند أنفسنا يثير تساؤلا واحدا وهو: ماذا عن أرض مصر؟ لِم لم يأتيها نذير كباقي أجزاء الأرض؟ ولم لم يأت رسول مخصصا للأمة التي تسكن مصر؟

جواب مفترى خطير جدا جدا لا تصدقوه إلا إن وجدتم الدليل يثبته: نحن نفتري الظن بأن أرض مصر كانت بحاجة إلى رسالة إلهية خاصة بها، ونحن نفتري الظن بأن أهل مصر كانوا بحاجة إلى رسول ليكون نذيرا لهم على وجه التحديد كباقي أمم الأرض.

السؤال: لماذا إذن لم تأت رسالة خاصة في أرض مصر؟ ولِم لم يبعث الله رسولا من أهل مصر أنفسهم ليكون نذيرا لتلك الأمة؟

رأينا المفترى والخطير جدا جدا: لقد جهّز الله فرعون ليكون هو رسول الله في تلك الأرض، والنذير إلى تلك الأمة.

الدليل

ربما تبادر إلى ذهن القارئ المتدبر لكتاب الله التساؤل التالي: لما كان فرعون طاغية قد علا وتكبّر في الأرض، فلم (يا ترى) أراه الله آياته كلها؟

- **وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (57)**

رأينا المفترى: لقد كانت المنة الإلهية تقضي بأن يتم نوره على أرض مصر وعلى أهل مصر، فكان فرعون هو الشخص الذي جهزه الله ليكون نذير تلك الأمة، ورسول تلك البلاد، فأرا ه الآيات كلها كخطوة سابقة وتمهيدية للرسالة، ولكن ما الذي حصل على أرض الواقع؟

رأينا: ما أن آتى الله آياته كلها لفرعون حتى انسلخ منها:

- **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176)**

فكان القرار الذي اتخذه فرعون هو الانسلاخ من آيات الله، والخلود إلى الأرض، وإتباع هواه، فكان مثله في ذلك كمثل الكلب.

(اللهم رب أعوذ بك أن يكون أمري كأمر فرعون وما أمر فرعون برشيد – آمين)

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: كانت أرض مصر هي الأرض المؤهلة للرسالة السماوية حينئذ، وكان فرعون هو الشخص الوحيد المؤهل لحمل تلك الرسالة، فكانت المنّة الإلهية تقضي بأن يرى الله فرعون آياته كلها، ليكون نذيرا لتلك الأمة، ورسولا في تلك البلاد. فجاءت مرحلة تجهيز الرجل للقيام بتلك المهمة، وكانت مرحلة التجهيز تتمثل في الحصول على الكتاب والحكم قبل أن تأتي مرحلة النبوة. ولم يكن هذا استثناء لفرعون، وذلك لأن كل رسول من رسل الله مرّ بهذه المرحلة قبل الحصول على الرسالة، كما حصل مع موسى مثلا:

- **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (22)**

(للتفصيل انظر مقالاتنا السابقة)

فمرحلة الحكم والعلم هي مرحلة سابقة للنبوة، فهي الاختبار الحقيقي الإلهي لكل من كان مؤهلا لحمل الرسالة. وما أن ينجح الرسول المنتظر في تلك المرحلة حتى تتحصل له النبوة (الرسالة). لذا، نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأنه لو لنجح فرعون في هذه المرحلة، لجاءته الرسالة. ولربما كان أعظم رسول عرفته البشرية حتى تلك اللحظة.

السؤال: لماذا هناك مرحلة سابقة للنبوة؟ ولماذا يحصل فيها الشخص المؤهل للرسالة على الكتاب (الآيات) والحكم؟

رأينا: نحن نظن أن السبب في ذلك قد جاء في الآية الكريمة التالية:

- **مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (79)**

فلو تدبرنا هذه الآية الكريمة لوجدنا على الفور أن هناك ثلاثة مراحل متتالية وهي: الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ

لقد قضت سنّة الله الكونية أنه ما أن يؤتي أحدا من عباده الكتاب والحكم والنبوة حتى يكون منهج هذا الرسول هو الدعوة إلى الله بالوحدانية، فلا يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله. لذا كانت هذه المرحلة ضرورية ليمحص الله ما في قلوب العباد الذين اصطفاهم برسالته. فتأتي مرحلة الكتاب والحكم، وفي هذه اللحظة تبين حقيقة ما في قلوب هؤلاء العباد على النحو التالي:

1. إذا تحصل لهذا العبد الكتاب والحكم ولم ينسب الفضل في ذلك لنفسه، ولم يدعو الناس إلى عبادته من دون الله (كما فعل نوح وإبراهيم وموسى ومحمد)، أصبح مؤهلا لمرحلة النبوة، فتأتي المنّة الإلهية عليه بالاصطفاء برسالته
2. إذا تحصل لهذا العبد الكتاب والحكم ونسب ذلك الفضل لنفسه، ودعا من حوله إلى عبادته من دون الله (كما فعل فرعون)، لم يكن مؤهلا لمرحلة النبوة، لذا لن يتم اصطفاءه بالرسالة.

السؤال: ما الذي كان من الممكن أن يحصل لو أن فرعون فعلا تذكر أوخشي؟

- **فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44)**

رأينا المفترى الخطير جدا: نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأنه لو تذكر فرعون أو خشي، لكان رسولا من الله إلى الأمة المصرية، ولكان من أولي العزم من الرسل، لا بل وربما كان من أعظم رسل الله على مر التاريخ. انتهى.

السؤال: ما الذي حصل عندما آثر فرعون أن لا يتذكر وأن لا يخشى؟

رأينا المفترى: لما كان فرعون هو الوحيد الذي رأى آيات الله كلها:

- **وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56)**

ولما كان فرعون هو من آتاه الله آياته:

- **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175)**

فإننا نتجرأ على القول بأن النتيجة ستكون – لا شك- عظيمة لو أن فرعون فعلا تذكر أو خشي.

السؤال: وكيف يمكن أن نتخيل ما كان من الممكن أن يحصل لو أن فرعون تذكر فعلا أو خشي؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نتخيل أن النتيجة ربما كانت على نحو أن يتم الله نوره على الأرض منذ ذلك الوقت.

السؤال: وما الذي حصل عندما لم يتذكر فرعون ولم يخشى؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: لقد استطاع فرعون أن يطفئ نور الله عن الأرض لفترة ليست بالقصيرة. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: من أجل فهم هذه الجزئية علينا أن نتدبر الآيتين الكريمتين التاليتين معا:

- **وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56)**
- **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175)**

ليكون السؤال على النحو التالي: ما الفرق بين أن نرى آيات الله وأن نؤتى آيات الله؟

إن من أبسط أنواع التفكير الذي ربما لا جدال فيه هو أن آيات الله يمكن أن تُرى وأن آيات الله يمكن أن تُؤتى، أليس كذلك؟ فما الفرق بين الحالتين؟

رأينا المفترى: لو تدبرنا كتاب الله العزيز لوجدناه ليس أكثر من آيات:

- بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (49)

ولا شك أن هذا القرآن (الذي هو آيات بينات) قد آتاه الله محمدا:

- وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (87)

ونحن نفتري الظن بأن هذا ينطبق أيضا على كتب الله السابقة كالتوراة والنجيل. ففيها آيات الله متلوة. أليس كذلك؟

ولكن – بالمقابل- لو تدبرنا ما حصل من أمر محمد في ليلة الإسراء لوجدنا أن الله قد أراه من آياته:

- سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ (1)

السؤال: كيف يمكن التوفيق بين الحقيقة التي لا جدال فيها أن الله قد آتى محمدا آياته وفي الوقت ذاته قد أراه من آياته؟

جواب: لو تدبرنا الأمر أكثر، لوجدنا أن الله قد آتي محمدا آياته كلها بدليل أن هذا الكتاب الذي أحكمت آياته من لدن حكيم خبير :

- الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1)

قد فصلت قرآنا عربيا:

- كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3)

فكل آيات الكتاب التي أحكمت قد فصلت قرآنا عربيا، وهو ما آتاه الله محمدا.

لكن السؤال هو: إذا كان محمد قد أوتي آيات الكتاب الحكيم التي فصلت قرآنا عربيا، فهل فعلا رأى محمد كل آيات الله؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: لأن الله لم يُري محمدا كل آياته ولكنه أراه من آياته؟

- سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ (1)

نتيجة مفتراة (1): أُوتي محمد كل آيات الله

نتيجة مفتراة (2): رأى محمد بعض آيات الله

السؤال: كيف يمكن أن نفهم ذلك؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: علينا إذن أن نميز بين آيات الله التي يمكن تلاوتها:

- تِلْكَ آيَاتُ اللّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (252)

وآيات الله التي يمكن رؤيتها:

- لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ (1)

نتيجة مفتراة (1): هناك آيات الله تُتلى تلاوة

نتيجة مفتراة (2): هناك آيات الله تُرى رؤية

السؤال: ما هي الآيات التي تُتلى تلاوة؟
جواب: إنها آيات الكتاب الحكيم والقرآن المبين:

- الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ (1)

السؤال: وما هي الآيات التي تُرى رؤية؟
جواب: إنها الآيات المادية، كالعصا التي هي – لا شك- الآية الكبرى:

- فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20)

وكضم اليد إلى الجناح لتخرج بيضاء من غير سوء:

- وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (22) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (23)

وكالناقة التي هي آية مبصرة:

- وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا (59)

وكسفينة نوح:

- تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ (14) وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (15)

وكالمسيح عيسى بن مريم نفسه:

- قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (21)

نتيجة مفتراة: هناك آيات يمكن أن نتلوها تلاوة وهي آيات الكتاب الحكيم والقرآن المبين، وهناك آيات يمكن رؤيتها كالعصا ويد موسى والناقة وسفينة نوح وحتى عيسى بن مريم نفسه.

السؤال: مَن الذي تحصّلت له آيات الله المتلوة كلها؟
جواب: نحن جميعا تحصلت لنا آيات الله المتلوة، فالقرآن المبين (الذي هو آيات الله المتلوة) بين أيدينا جميعا. نستطيع أن نتلوها آناء الليل وأطراف النهار.
السؤال: مَن الذي رأى آيات الله التي يمكن رؤيتها؟
جواب: لقد رأى من كان في زمن موسى العصا ويد موسى، ورأى قوم صالح الناقة مبصرة بأم أعينهم، ورأى من عاصر المسيح عيسى بن مريم بأم أعينهم، وها هي سفينة نوح لازالت آية للعالمين، وهكذا.

السؤال: مَن أيضا رأى آيات الله رؤية؟
جواب: هذا محمد يرى في ليلة الإسراء من آيات ربه:

- سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ (1)

وهذا موسى يرى من آيات ربه الكبرى:

- وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (22) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (23)

والآن، دقق مليّا عزيزي القارئ – إن شئت- بما حصل من أمر فرعون كما جاء في الآيات الكريمة التالية:

- وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (57)

نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا: كان فرعون هو الشخص الوحيد الذي رأى آيات الله كلها. انتهى.

تلخيص ما سبق: هناك نوعان من الآيات: آيات متلوة وآيات مرئية، ففي حين أنه تحصل لنا جميعا آيات الله المتلوة، لم تتحصل روية آيات الله المرئية إلا لبعض عباده، فبعضهم رأى واحدة من هذه الآيات، ورأى بعضهم اثنتين منها، وربما رأى بعضهم ثلاث أو أربع آيات منها، وهكذا. ولكن ما تحصلت رؤية آيات الله كلها إلا لشخص واحد وهو فرعون:

- وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (57)

السؤال: هل تدرك (عزيزي القارئ) ما معنى أن يكون فرعون هو الشخص الوحيد على مر التاريخ الذي رأى آيات الله كلها؟ هل تستطيع أن تتخيل مقدار ما تحصل لفرعون من العلم إذن؟ هل تستطيع أن تنزل الرجل مكانته؟ وهل تستطيع إذن أن تدرك سر الاهتمام الإلهي بشخص فرعون؟ وهل ترى الآن لم يتحدث القرآن الكريم عن فرعون على وجه التحديد أكثر من أي شخصية أخرى على الإطلاق؟! من يدري؟!!

رأينا المفترى: لمّا كانت آيات الله المتلوة قد تحصلت لفرعون كما تحصلت لغيره:

- وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175)

ولما كان فرعون هو الوحيد الذي أراه الله آياته كلها ولم يتحصل ذلك لغيره:

- وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (57)

كان فرعون (نحن نفتري الظن) وحيدا:

- ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11)

خروج عن النص في استراحة قصيرة

قبل أن نتابع النقاش في شخصية فرعون كما تصوره الآيات التي بدأنا حديثنا هنا فيها، وهي:

- ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (16)

والتعرض لمكتسبات فرعون الشخصية الأخرى، وهي المال الممدود (وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا)، والبنين الشهود (وَبَنِينَ شُهُودًا)، والتمهيد له في الأرض (وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا)، دعنا نخرج في استراحة قصيرة (ربما تكون

ضرورية لفهم الافتراءات الخطيرة التي ستأتي لاحقا)، لنطرح التساؤل التالي الذي هو حصيلة الافتراءات السابقة، والسؤال هو: لماذا سُميت الآيات المتلوة آيات وسُميت الآيات المرئية آيات؟ وبكلمات أكثر دقة نحن نسأل: لماذا ما نقرأه في كتاب الله هو آيات؟ ولماذا سميت عصا موسى والناقة والسفينة وعيسى بن مريم آيات؟ فما المشترك بين الطرفين؟

جواب مفترى: لو دققنا في آيات الكتاب الحكيم وفي آيات القرآن المبين، لوجدناها متباينة في الحجم. فبعض آيات القرآن المتلوة تأخذ حيزا كبيرا كالصفحة كلها، وليس أدل على ذلك من حجم آية الدين في سورة البقرة:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيرًا أَو كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (282)**

بينما نجد – بالمقابل- أن بعض الآيات المتلوة الأخرى لا تتجاوز في حجمها الكلمة الواحدة أو الكلمتان أو الثلاث، وانظر في سورة الرحمن مثلا لترى حجم كل آية فيها:

- **وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (62) فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (63) مُدْهَامَّتَانِ (64) فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (65) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (66) فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (67)**

ولو دققنا في سور القرآن في الجزء الثلاثين منه، لوجدنا أن بعض السور الكاملة لا يتجاوز عدد آيتها الثلاثة التي هي أصلا آيات صغيرة في حجمها كسورة العصر مثلا:

- **وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3)**

أو كسورة الكوثر:

- **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (1) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (2) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (3)**

السؤال: لماذا؟ لماذا هذا التفاوت في الحجم بين الآيات؟ لِم لم تأت الآيات كلها متوازنة أو حتى متقاربة في الحجم؟

جواب مفترى من عند أنفسنا خطير جدا جدا: دعنا أولا نستخدم المفردات الصحيحة. فبدل كلمة الحجم، دعنا نستخدم مفردة (أكبر) عند الحديث عن الآيات. فنحن نظن أن آيات الله المتلوة متفاوتة في الكُبر، فبعض آيات الله هي أكبر من البعض الآخر.

وهذا المنطق ينسحب أيضا – نحن نفتري الظن- على آيات الله المرئية. فبعض آيات الله المرئية هي أكبر من البعض الآخر، وليس أدل على ذلك من أن العصا هي آية الله الكبرى:

- **فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20)**
- **وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (22) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (23)**

نتيجة مفتراة خطيرة جدا ومهمة جدا: تتفاوت آيات الله (المتلوة والمرئية) في الكُبر. فبعض تلك الآيات هي أكبر من البعض الآخر.

السؤال: ما فائدة ذلك؟

رأينا المفترى: لا شك عندنا أن ذلك يعود إلى فاعلية تلك الآية، فما فعلته العصا (التي هي الآية الكبرى) لا تستطيع أن تفعله آية أخرى.

السؤال: وما علاقة ذلك بالآيات المتلوة؟

جواب مفترى: نحن نظن أن هذا المنطق ينسحب على الآيات المتلوة: ففاعلية بعض الآيات المتلوة (كآية الكرسي مثلا) هي أكبر من فاعلية آيات أخرى. ولو تدبرت آيات الكتاب الحكيم، لوجدت أن الناس لا يكادون يغفلون عن بعضها (كآية الكرسي مثلا)، فهي بمثابة آية بيّنة للجميع، وهذا لا ينسحب على آيات الكتاب كلها، فربما تقرأ على مسامع بعض الناس بعض آيات الكتاب الحكيم الأخرى، فلا يظنون أنها أصلا آيات في كتاب الله، وبكأنها تطرق مسامعهم لأول مرة. لتكون النتيجة التي نحاول جاهدين تبيانها هي أن آيات الكتاب الحكيم ليست واضحة في أذهان الناس كلها بنفس الدرجة. وهذا المنطق– برأينا- واضح عند التطرق لآيات الله المرئية، فلا شك أن عصا موسى هي الآية الأكثر وضوحا في كتاب الله، فبالرغم أن موسى قد جاءهم بتسع آيات بينات إلا أنها لم تكن جميعا واضحة بينة بوضوح العصا نفسها، وذلك لأن العصا هي الآية الكبرى.

السؤال: كم عدد آيات الله المرئية؟

رأينا المفترى: لا شك عندنا أن جميع رسل الله قد جاءوا أقوامهم بآيات بينات، ولكن المفارقة العجيبة تكمن في الآية الكريمة التالية:

- **وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (164)**

ليكون السؤال الجوهري الآن: إذا كان الله لم يقصص بعض الرسل، فأين ذهبت آيات أولئك الرسل الذين لم يقصصهم الله على نبيه الكريم؟ ولماذا قصّ الله على نبيه بعض رسله ولم يقصص الآخرين؟ وكيف يمكن التوفيق بين ما جاء في هذه الآية الكريمة التي تبين أن بعض رسل الله لم يتم قصهم على رسوله وفي الوقت ذاته نجد أن الله لم يفرط في الكتاب من شيء؟

- **وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (38)**

وكيف يمكن التوفيق بين ذلك أيضا وما جاء في الآية الكريمة التالية التي تبين أن الله قد فصل كل شيء تفصيلا؟

- **وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً (12)**

جواب مفترى خطير جدا: نحن نظن أنه على الرغم من أن الله لم يقص على نبيه كل قصص الرسل الذين سبقوه إلا أن ذلك لا يعني أنهم غير متواجدين في كتاب الله ولا يعني ذلك أن آياتهم قد غير موجودة في كتاب الله، مادام أن الله لم يفرط في الكتاب من شيء.

السؤال: أين هم أولئك الرسل الذين لم يقصصهم الله على نبيه؟ وأين هي آياتهم تلك؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نظن أننا نستطيع أن نستنبط من الكتاب الحكيم من هم أولئك الرسل الذين لم يقصصهم الله على نبيه، كما نستطيع أن نستنبط ما هي آياتهم التي جاءوا بها أقوامهم.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن ذلك ممكنا إذا ما استطعنا الإجابة على التساؤل المثير التالي: ما العلاقة بين آيات الله المتلوة (كآية الكرسي مثلا) وآياته المرئية (كعصا موسى مثلا)؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نظن أن عدد آيات الله المرئية هي بالضبط بعدد آياته المتلوة.

السؤال: ما معنى هذا الكلام؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن آيات الله المرئية تواز في العدد آيات الله المتلوة. فكل آية متلوة يقابلها آية مرئية، والعكس صحيح، فكل آية مرئية (كالعصا) يقابلها آية متلوة (كآية الكرسي).

السؤال: لماذا؟ وكيف يمكن تطبيق ذلك؟

جواب مفترى: نحن نظن أن السبب في ذلك ربما يعود إلى افترائنا التالي: إن الآيات المتلوة (كآية الكرسي) هي نسخة للآيات المرئية (كالعصا). وبكلمات أكثر دقة نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن الآيات المرئية (كالعصا) قد نسخت بآيات متلوة (كآية الكرسي).

مثال: العصا (آية الكرسي)

نحن نفتري القول بأن عصا موسى (كآية من آيات الله الكبرى) قد نسخت بآية متلوة هي – برأينا- آية الكرسي. وبهذا نحن نصل إلى الافتراء الخطير جدا جدا التالي: نحن نستطيع أن نستفيد من آية الكرسي بالضبط كما استفاد موسى من العصا التي كانت بيمينه. فآية الكرسي تعمل عمل عصا موسى. انتهى.

الدليل

لو تدبرنا كتاب الله جيدا، لوجدنا أن تقسيمه جاء على نحو سور (وعددها 114 سورة) وإلى آيات (وعددها 6236 آية). وهذا يقودنا إلى افتراء القول من عند أنفسنا بأن آيات الله المرئية التي جاء بها رسل الله جميعا هي 6236 آية (أي بعدد الآيات المتلوة). فالله هو الذي بعث رسله إلى أقوامهم وأيدهم بالآيات المرئية، وتجمعت كلها (كآيات منسوخة) في القرآن الكريم بآيات متلوة وعددها 6236. قال تعالى:

- **مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (106)**

إن أول ما يمكن استنباطه من منطوق هذه الآية الكريمة أن آيات الله ثابتة في عددها، وذلك لأن ما نسخ منها وما نسي منها قد تم استبداله بمثلها أو بخير منها، لتبقى في مجموعها ثابتة. لكن كيف يمكن تطبيق ذلك على أرض الواقع؟

جواب: من أجل فهم ذلك، فلابد (نحن نرى) من فهم آلية النسخ للآيات أو نسيانها. لنثير بناء على ذلك سؤالين اثنين هما:

⇐ كيف يتم نسخ الآيات؟

⇐ كيف يتم نسيان الآيات؟

باب الناسخ والمنسوخ

لعل هذه القضية من أكبر الإشكاليات التي واجهت الفكر الإسلامي منذ بداياته. فانقسمت الآراء وتعددت حول كيفية نسخ آيات الله. واستقرت في مجملها حتى الساعة عند ما جاءنا من أهل الدراية كما نقله لنا أهل الرواية في مؤلفاتهم، فكان التفسير التالي الذي جاءنا في الطبري مثلا يحوي أهم الآراء التي قيلت في هذه القضية:

ما ننسخ من آية

القول في تأويل قوله تعالى : { ما ننسخ من آية } يعني جل ثناؤه بقوله : { ما ننسخ من آية } إلى غيره , فنبدله ونغيره . وذلك أن يحول الحلال حراما والحرام حلالا , والمباح محظورا والمحظور مباحا ; ولا يكون ذلك إلا في الأمر والنهي والحظر والإطلاق والمنع والإباحة , فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ . وأصل النسخ من " نسخ الكتاب " وهو نقله من نسخة إلى أخرى غيرها , فكذلك معنى نسخ الحكم إلى غيره إنما هو تحويله ونقل عبارته عنه إلى غيره . فإذا كان ذلك معنى نسخ الآية فسواء - إذا نسخ حكمها فغير وبدل فرضها ونقل فرض العباد عن اللازم كان لهم بها - أأقر خطها فترك , أو محي أثرها , فعفي ونسي , إذ هي حينئذ في كلتا حالتيها منسوخة . والحكم الحادث المبدل به الحكم الأول والمنقول إليه فرض العباد هو الناسخ , يقال منه : نسخ الله آية كذا وكذا ينسخه نسخا , والنسخة الاسم . وبمثل الذي قلنا في ذلك كان الحسن البصري يقول . 1448 - حدثنا سوار بن عبد الله العنبري , قال : ثنا خالد بن الحارث , قال : ثنا عوف , عن الحسن أنه قال في قوله : { ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها } قال : إن نبيكم صلى الله عليه وسلم أقرئ قرآنا ثم نسيه فلا يكن شيئا , ومن القرآن ما قد نسخ وأنتم تقرءونه . اختلف أهل التأويل في تأويل قوله : { ما ننسخ } فقال بعضهم بما : 1449 - حدثني به موسى بن هارون , قال : ثنا عمرو بن عمار , قال : ثنا أسباط , عن السدي : { ما ننسخ من آية } أما نسخها فقبضها . وقال آخرون بما : 1450 - حدثني به المثنى , قال : ثنا عبد الله بن صالح , قال : حدثني معاوية بن صالح , عن علي بن أبي طلحة , عن ابن عباس قوله : { ما ننسخ من آية } يقول : ما نبدل من آية . وقال آخرون بما : 1451 - حدثني محمد بن عمرو , قال : ثنا أبو عاصم , قال : ثنا عيسى , عن ابن أبي نجيح , عن أصحاب عبد الله بن مسعود أنهم قالوا : { ما ننسخ من آية } نثبت خطها ونبدل حكمها . * وحدثني المثنى , قال : ثنا أبو حذيفة , قال : ثنا شبل , عن ابن أبي نجيح , عن مجاهد : { ما ننسخ من آية } نثبت خطها , ونبدل حكمها , حدثت به عن أصحاب ابن مسعود . * حدثني المثنى , قال : ثنا إسحاق , قال : حدثني بكر بن شوذب , عن ابن أبي نجيح , عن مجاهد , عن أصحاب ابن مسعود : { ما ننسخ من آية } نثبت خطها .

أو ننسها

القول في تأويل قوله تعالى : { أو ننسها } . اختلفت القراءة في قوله ذلك , فقرأها قراء أهل المدينة والكوفة : { أو ننسها } ولقراءة من قرأ ذلك وجهان من التأويل , أحدهما : أن يكون تأويله : ما ننسخ يا محمد من آية فنغير حكمها أو ننسها . وقد ذكر أنها في مصحف عبد الله : { ما ننسك من آية أو ننسخها نجئ بمثلها } , فذلك تأويل النسيان . وبهذا التأويل قال جماعة من أهل التأويل . ذكر من قال ذلك : 1452 - حدثنا بشر بن معاذ , قال : ثنا يزيد بن زريع , قال : ثنا سعيد , عن قتادة قوله : {

ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها } كان ينسخ الآية بالآية بعدها , ويقرأ نبي الله صلى الله عليه وسلم الآية أو أكثر من ذلك ثم تنسى وترفع . * حدثنا الحسن بن يحيى , قال : أخبرنا عبد الرزاق , قال : أخبرنا معمر , عن قتادة في قوله : { ما ننسخ من آية أو ننسها } قال : كان الله تعالى ذكره ينسي نبيه صلى الله عليه وسلم ما شاء وينسخ ما شاء . 1453 - حدثني المثنى , قال : ثنا أبو حذيفة , قال : ثنا شبل , عن ابن أبي نجيح , عن مجاهد , قال : كان عبيد بن عمير يقول : { ننسها } نرفعها من عندكم . 1454 - حدثنا سوار بن عبد الله , قال : ثنا خالد بن الحارث , قال : ثنا عوف , عن الحسن أنه قال في قوله : { أو ننسها } قال : إن نبيكم صلى الله عليه وسلم أقرئ قرآنا , ثم نسيه . وكذلك كان سعد بن أبي وقاص يتأول الآية إلا أنه كان يقرؤها : { أو تنسها } بمعنى الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم , كأنه عنى أو تنسها أنت يا محمد . ذكر الأخبار بذلك : 1455 - حدثني يعقوب بن إبراهيم , قال : ثنا هشيم , قال : أخبرنا يعلى بن عطاء , عن القاسم , قال : سمعت سعد بن أبي وقاص يقول : { ما ننسخ من آية أو تنسها } قلت له : فإن سعيد بن المسيب يقرؤها : { أو تنسها } قال : فقال سعد : إن القرآن لم ينزل على المسيب ولا على آل المسيب , قال الله : { سنقرئك فلا تنسى } 87 6 { واذكر ربك إذا نسيت } . 18 24 * حدثنا الحسن بن يحيى , قال : أخبرنا عبد الرزاق , قال : أخبرنا هشيم , قال : ثنا يعلى بن عطاء , قال : ثنا القاسم بن ربيعة بن قانف الثقفي , قال : سمعت ابن أبي وقاص يذكر نحوه . * حدثنا محمد بن المثنى وآدم العسقلاني قالا جميعا , عن شعبة , عن يعلى بن عطاء , قال : سمعت القاسم بن ربيعة الثقفي يقول : قلت لسعد بن أبي وقاص : إني سمعت ابن المسيب يقرأ : { ما ننسخ من آية أو تنسها } فقال سعد : إن الله لم ينزل القرآن على المسيب ولا على ابنه , إنما هي : { ما ننسخ من آية أو تنسها } يا محمد . ثم قرأ : { سنقرئك فلا تنسى } 87 6 { واذكر ربك إذا نسيت } . 18 24 1456 - حدثني المثنى , قال : ثنا إسحاق , قال : ثنا ابن أبي جعفر , عن أبيه , عن الربيع في قوله : { ما ننسخ من آية أو ننسها } يقول : ننسها : نرفعها ; وكان الله تبارك وتعالى أنزل أمورا من القرآن ثم رفعها . والوجه الآخر منهما أن يكون بمعنى الترك , من قول الله جل ثناؤه : { نسوا الله فنسيهم } 9 67 يعني به تركوا الله فتركهم . فيكون تأويل الآية حينئذ على هذا التأويل : ما ننسخ من آية فنغير حكمها ونبدل فرضها نأت بخير من التي نسخناها أو مثلها . وعلى هذا التأويل تأول جماعة من أهل التأويل . ذكر من قال ذلك : 1457 - حدثني المثنى , قال : ثنا عبد الله بن صالح , قال : حدثني معاوية , عن علي بن أبي طلحة , عن ابن عباس في قوله : { أو ننسها } يقول : أو نتركها لا نبدلها . 1458 - حدثني موسى , قال : ثنا عمرو , قال : ثنا أسباط , عن السدي قوله : { أو ننسها } نتركها لا ننسخها . 1459 - حدثنا أبو كريب , قال : ثنا هشيم , قال : أخبرنا جويبر , عن الضحاك في قوله : { ما ننسخ من آية أو ننسها } قال : الناسخ والمنسوخ . قال : وكان عبد الرحمن بن زيد يقول في ذلك ما : 1460 - حدثني به يونس بن عبد الأعلى , قال : أخبرنا ابن وهب , قال : قال ابن زيد في قوله : { ننسها } نمحها . وقرأ ذلك آخرون : { أو ننسأها } بفتح النون وهمزة بعد السين بمعنى نؤخرها , من قولك : نسأت هذا الأمر أنسؤه نسأ ونساء إذا أخرته , وهو من قولهم : بعته بنساء , يعني بتأخير . ومن ذلك قول طرفة بن العبد : لعمرك إن الموت ما أنسأ الفتى لكالطول المرخى وثنياه باليد يعني بقوله أنسأ : أخر . وممن قرأ ذلك جماعة من الصحابة والتابعين , وقرأه جماعة من قراء الكوفيين والبصريين , وتأوله كذلك جماع من أهل التأويل . ذكر من قال ذلك : 1461 - حدثنا أبو كريب , ويعقوب بن إبراهيم , قالا : ثنا هشيم , قال : أخبرنا عبد

الملك . عن عطاء في قوله : { ما ننسخ من آية أو ننسأها } قال : نؤخرها . 1462 - حدثنا محمد بن عمرو , قال : ثنا أبو عاصم , قال : ثنا عيسى , قال : سمعت ابن أبي نجيح , يقول في قول الله : { أو ننسأها } قال : نرجئها . 1463 - حدثني المثنى , قال : ثنا أبو حذيفة , قال : ثنا شبل , عن ابن أبي نجيح , عن مجاهد : { أو ننسأها } نرجئها ونؤخرها . 1464 - حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي , قال : ثنا أبو أحمد الزبيري , قال : ثنا فضيل , عن عطية : { أو ننسأها } قال : نؤخرها فلا ننسخها . 1465 - حدثنا القاسم , قال : ثنا الحسين , قال : حدثني حجاج , عن ابن جريج , قال : أخبرني عبد الله بن كثير عن عبيد الأزدي , عن عبيد بن عمير { أو ننسأها } إرجاؤها وتأخيرها . هكذا حدثنا القاسم عن عبد الله بن كثير , عن عبيد الأزدي . وإنما هو عن علي الأزدي . * حدثني أحمد بن يوسف , قال : ثنا القاسم بن سلام , قال : حدثنا حجاج , عن ابن جريج , عن عبد الله بن كثير , عن علي الأزدي , عن عبيد بن عمير أنه قرأها : { ننسأها } . قال : فتأويل من قرأ ذلك كذلك : ما نبدل من آية أنزلناها إليك يا محمد , فنبطل حكمها ونثبت خطها , أو نؤخرها فنرجئها ونقرها فلا نغيرها ولا نبطل حكمها ; نأت بخير منها أو مثلها . وقد قرأ بعضهم ذلك : { ما ننسخ من آية أو تنسها } وتأويل هذه القراءة نظير تأويل قراءة من قرأ { أو ننسها } إلا أن معنى { أو ننسها } أنت يا محمد . وقد قرأ بعضهم : { ما ننسخ من آية } بضم النون وكسر السين , بمعنى : ما ننسخك يا محمد نحن من آية , من أنسختك فأنا أنسخك . وذلك خطأ من القراءة عندنا لخروجه عما جاءت به الحجة من القراءة بالنقل المستفيض . وكذلك قراءة من قرأ { تنسها } أو { تنسها } لشذوذها وخروجها عن القراءة التي جاءت بها الحجة من قراء الأمة . وأولى القراءات في قوله : { أو ننسها } بالصواب من قرأ : { أو ننسها } , بمعنى نتركها ; لأن الله جل ثناؤه أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم أنه مهما بدل حكما أو غيره أو لم يبدله ولم يغيره , فهو آتيه بخير منه أو بمثله . فالذي هو أولى بالآية إذ كان ذلك معناها , أن يكون إذ قدم الخبر عما هو صانع إذا هو غير وبدل حكم آية أن يعقب ذلك بالخبر عما هو صانع , إذا هو لم يبدل ذلك ولم يغير . فالخبر الذي يجب أن يكون عقيب قوله : { ما ننسخ من آية } قوله : أو نترك نسخها , إذ كان ذلك المعروف الجاري في كلام الناس . مع أن ذلك إذا قرئ كذلك بالمعنى الذي وصفت , فهو يشتمل على معنى الإنساء الذي هو بمعنى الترك , ومعنى النساء الذي هو بمعنى التأخير , إذ كان كل متروك فمؤخر على حال ما هو متروك . وقد أنكر قوم قراءة من قرأ : { أو تنسها } إذا عني به النسيان , وقالوا : غير جائز أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم نسي من القرآن شيئا مما لم ينسخ إلا أن يكون نسى منه شيئا ثم ذكره . قالوا : وبعد , فإنه لو نسي منه شيئا لم يكن الذين قرءوه وحفظوه من أصحابه بجائز على جميعهم أن ينسوه . قالوا : وفي قول الله جل ثناؤه : { ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك } 17 86 ما ينبئ عن أن الله تعالى ذكره لم ينس نبيه شيئا مما آتاه من العلم . قال أبو جعفر : وهذا قول يشهد على بطوله وفساده الأخبار المتظاهرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بنحو الذي قلنا . 1466 - حدثنا بشر بن معاذ , قال : حدثنا يزيد بن زريع , قال : حدثنا سعيد , عن قتادة , قال : حدثنا أنس بن مالك : إن أولئك السبعين من الأنصار الذين قتلوا ببئر معونة قرأنا بهم وفيهم كتابا : " بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا " . ثم إن ذلك رفع . فالذي ذكرنا عن أبي موسى الأشعري أنهم كانوا يقرءون : " لو أن لابن آدم واديين من مال لابتغى لهما ثالثا , ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب , ويتوب الله على من تاب " ثم رفع ; وما أشبه ذلك من الأخبار التي يطول بإحصائها الكتاب . وغير مستحيل في فطرة ذي عقل صحيح ولا بحجة

خبر أن ينسي الله نبيه صلى الله عليه وسلم بعض ما قد كان أنزله إليه . فإذا كان ذلك غير مستحيل من أحد هذين الوجهين , فغير جائز لقائل أن يقول ذلك غير جائز . وأما قوله : { ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك } فإنه جل ثناؤه لم يخبر أنه لا يذهب بشيء منه , وإنما أخبر أنه لو شاء لذهب بجميعه , فلم يذهب به والحمد لله ; بل إنما ذهب بما لا حاجة بهم إليه منه , وذلك أن ما نسخ منه فلا حاجة بالعباد إليه , وقد قال الله تعالى ذكره : { سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله } 87 6 - 7 فأخبر أنه ينسي نبيه منه ما شاء , فالذي ذهب منه الذي استثناه الله . فأما نحن فإنما اخترنا ما اخترنا من التأويل طلب اتساق الكلام على نظام في المعنى , لا إنكار أن يكون الله تعالى ذكره قد كان أنسى نبيه بعض ما نسخ من وحيه إليه وتنزيله .

نأت بخير منها أو مثلها

القول في تأويل قوله تعالى : { نأت بخير منها أو مثلها } . اختلف أهل التأويل في تأويل قوله : { نأت بخير منها أو مثلها } , فقال بعضهم بما : 1467 - حدثني المثنى , قال : حدثنا عبد الله بن صالح , قال : حدثني معاوية بن صالح , عن علي بن أبي طلحة , عن ابن عباس : { نأت بخير منها أو مثلها } يقول : خير لكم في المنفعة وأرفق بكم . وقال آخرون بما : 1468 - حدثني به الحسن بن يحيى , قال : أخبرنا عبد الرزاق , قال : أخبرنا معمر , عن قتادة في قوله : { نأت بخير منها أو مثلها } يقول : آية فيها تخفيف , فيها رحمة , فيها أمر , فيها نهي . وقال آخرون : نأت بخير من التي نسخناها , أو بخير من التي تركناها فلم ننسخها . ذكر من قال ذلك : 1469 - حدثني موسى , قال : حدثنا عمرو , قال : حدثنا أسباط , عن السدي : { نأت بخير منها } يقول : نأت بخير من التي نسخناها أو مثلها أو مثل التي تركناها . فالهاء والألف اللتان في قوله : { منها } عائدتان على هذه المقالة على الآية في قوله : { ما ننسخ من آية } والهاء والألف اللتان في قوله : { أو مثلها } عائدتان على الهاء والألف اللتين في قوله : { أو ننسها } . وقال آخرون بما : 1470 - حدثني به المثنى , قال : حدثنا أبو حذيفة , قال : حدثنا شبل , عن ابن أبي نجيح , عن مجاهد , قال : كان عبيد بن عمير يقول : { ننسها } نرفعها من عندكم , نأت بمثلها أو خير منها . 1471 - حدثني المثنى , قال : حدثنا إسحاق , قال : حدثنا ابن أبي جعفر , عن أبيه , عن الربيع : { أو ننسها } نرفعها نأت بخير منها أو بمثلها . 1472 - وحدثني المثنى , قال : حدثنا إسحاق , قال : حدثنا بكر بن شوذب , عن ابن أبي نجيح , عن مجاهد , عن أصحاب ابن مسعود , مثله . والصواب من القول في معنى ذلك عندنا : ما نبدل من حكم آية فنغيره أو نترك تبديله فنقره بحاله , نأت بخير منها لكم من حكم الآية التي نسخنا فغيرنا حكمها , إما في العاجل لخفته عليكم , من أجل أنه وضع فرض كان عليكم فأسقط ثقله عنكم , وذلك كالذي كان على المؤمنين من فرض قيام الليل , ثم نسخ ذلك فوضع عنهم , فكان ذلك خيرا لهم في عاجلهم لسقوط عبء ذلك وثقل حمله عنهم ; وإما في الآجل لعظم ثوابه من أجل مشقة حمله وثقل عبئه على الأبدان , كالذي كان عليهم من صيام أيام معدودات في السنة , فنسخ وفرض عليهم مكانه صوم شهر كامل في كل حول , فكان فرض صوم شهر كامل كل سنة أثقل على الأبدان من صيام أيام معدودات . غير أن ذلك وإن كان كذلك , فالثواب عليه أجزل والأجر عليه أكثر , لفضل مشقته على مكلفيه من صوم أيام معدودات , فذلك وإن كان على الأبدان أشق فهو خير من الأول في الآجل لفضل ثوابه وعظم أجره الذي لم يكن مثله لصوم الأيام المعدودات . فذلك معنى قوله : { نأت بخير منها } لأنه إما بخير منها في العاجل لخفته على من كلفه ,

أو في الآجل لعظم ثوابه وكثرة أجره . أو يكون مثلها في المشقة على البدن واستواء الأجر والثواب عليه , نظير نسخ الله تعالى ذكره فرض الصلاة شطر بيت المقدس إلى فرضها شطر المسجد الحرام . فالتوجه شطر بيت المقدس , وإن خالف التوجه شطر المسجد , فكلفة التوجه شطر أيهما توجه شطره واحدة ; لأن الذي على المتوجه شطر البيت المقدس من مؤنة توجهه شطره , نظير الذي على بدنه مؤنة توجهه شطر الكعبة سواء . فذلك هو معنى المثل الذي قال جل ثناؤه : { أو مثلها } . وإنما عنى جل ثناؤه بقوله : { ما ننسخ من آية أو ننسها } ما ننسخ من حكم آية أو ننسه . غير أن المخاطبين بالآية لما كان مفهوما عندهم معناها اكتفي بدلالة ذكر الآية من ذكر حكمها . وذلك نظير سائر ما ذكرنا من نظائره فيما مضى من كتابنا هذا , كقوله : { وأشربوا في قلوبهم العجل } 2 93 بمعنى حب العجل ونحو ذلك . فتأويل الآية إذا : ما نغير من حكم آية فنبدله أو نتركه فلا نبدله , نأت بخير لكم أيها المؤمنون حكما منها , أو مثل حكمها في الخفة والثقل والأجر والثواب . فإن قال قائل : فإنا قد علمنا أن العجل لا يشرب في القلوب وأنه لا يلتبس على من سمع قوله : { وأشربوا في قلوبهم العجل } أن معناه : وأشربوا في قلوبهم حب العجل , فما الذي يدل على أن قوله : { ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها } لذلك نظير ؟ قيل : الذي دل على أن ذلك كذلك قوله : { نأت بخير منها أو مثلها } وغير جائز أن يكون من القرآن شيء خير من شيء ; لأن جميعه كلام الله , ولا يجوز في صفات الله تعالى ذكره أن يقال بعضها أفضل من بعض وبعضها خير من بعض .

ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير

القول في تأويل قوله تعالى : { ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير } . يعني جل ثناؤه بقوله : { ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير } ألم تعلم يا محمد أني قادر على تعويضك مما نسخت من أحكامي وغيرته من فرائضي التي كنت افترضتها عليك ما أشاء مما هو خير لك ولعبادي المؤمنين معك وأنفع لك ولهم , إما عاجلا في الدنيا وإما آجلا في الآخرة . أو بأن أبدل لك ولهم مكانه مثله في النفع لهم عاجلا في الدنيا وآجلا في الآخرة وشبيهه في الخفة عليك وعليهم . فاعلم يا محمد أني على ذلك وعلى كل شيء قدير . ومعنى قوله : { قدير } في هذا الموضع : قوي , يقال منه : " قد قدرت على كذا وكذا " . إذا قويت عليه " أقدر عليه وأقدر عليه قدرة وقدرانا ومقدرة " . وبنو مرة من غطفان تقول : " قدرت عليه " بكسر الدال . فأما من التقدير من قول القائل : " قدرت الشيء " فإنه يقال منه : " قدرته أقدره قدرا وقدرا "

لو نظرنا في هذا التأويل العظيم وما وصلنا من تأويلات لاحقة لهذا الفكر الكبير لوجدنا أن الناسخ –عندهم- هو ما يبطل المنسوخ. لذا جاءت بعض الآيات – كما فهموها – مبطلة لآيات سابقة لها. فاللاحق يبطل السابق، وهكذا. وقد قسموا الناسخ والمنسوخ إلى أقسام، ذكروا منها:

- منسوخ لفظا مثبت حكما (أي ذهب لفظه فلم يعد جزء من القرآن ولكن بقي حكمه كآية الشيخ والشيخة... الخ)
- منسوخ حكما مثبيت لفظا (أي ذهب حكمه وبقي لفظه في القرآن كآية ... الخ)
- منسوخ حكما ولفظا (أي ذهب لفظه وحكمه فما عادا جزءا من الشريعة كقولهم: " لو أن لابن آدم واديين من مال لابتغى لهما ثالثا , ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب , ويتوب الله على من تاب "

رأينا المفترى: نحن نرفض هذا الفكر جملة وتفصيلا، وذلك لأن الله قال في محكم كتابه:

- ... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (3)

فدين الله كامل لا يعتريه نقص، ولا يمكن أن يزاد فيه شيء، فليس هناك آية في كتاب الله لا يعمل بحكمها، وليس هناك حكم لم يفصل في كتاب الله. انتهى.

الدليل

دعنا نسأل السؤال التالي أولا: ما معنى إكمال الدين (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ)؟ وما معنى إتمام النعمة (وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي)؟ ولماذا جاء الدين بلفظ الإكمال؟ ولماذا جاءت النعمة بلفظ الإتمام؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن إكمال الشيء يعني عدم النقص أو الزيادة فيه. أما الإتمام فيحتمل الزيادة والنقص. فهناك مثلا عدّة مطلوب من الشخص إكمالها، فالعدة (لا محالة) محددة بعدد ثابت، فلا يمكن أن تكون كاملة لو أنها أنقصت يوما واحد. قال تعالى:

- شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185)

ومطلوب ممن تمتع بالحج إلى العمرة أن يصوم ثلاثة أيام في الحج وسبعة بعد الرجوع، فتكون بذلك عشرة كاملة:

- وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (196)

فلا يمكن أن تكتمل الفترة إلا بصيام عشرة كاملة، فلو صام من تمتع بالعمرة إلى الحج تسعة أيام، لما أكتمل المطلوب، ولا يجوز أن يصوم أكثر من ذلك، لأن ذلك يصبح زيادة على المطلوب، أي كمن يصلي خمس ركعات بدلا من أربعة، فهذا لا يجوز بأي حال من الأحوال.

ولا تكتمل الرضاعة إلا بالحولين الكاملين:

- وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُواْ أَوْلاَدَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (233)

والكافرون يحملون أوزارهم كاملة يوم القيامة، فلا ينقص منها شيء، ولا يزاد عليها مثقال ذرة، وإلا لأصبح ذلك ظلما للعباد:

- لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ (25)

ونحن لا ننعت البدر بالاكتمال كأن نقول (اكتمل البدر) إلا عندما يصل إلى المرحلة التي لا يمكن أن يزاد فيها شيء. فيبقى القمر غير كامل حتى يصبح بدرا، فبعد ذلك يتعذر الزيادة فيه، بل يعود مرة أخرى إلى مرحلة التناقص بعد أن يكون قد اكتمل.

وإذا ما كنت جالسا في امتحان في قاعة الدرس، وقمت بتسليم ورقة الإجابة إلى المدرس، فأنت بذلك تكون قد أكملت الامتحان، لأنه من الاستحالة (في الوضع الطبيعي) أن تعاد إليك ورقة الامتحان لتضيف إليها شيئا جديدا. فتسليم ورقة الامتحان للمراقب على الامتحان يعني أنك وصلت إلى مرحلة لا يمكن الزيادة على ما كتبت.

نتيجة مهمة: الاكتمال يعني وصول المرحلة التي لا يمكن الزيادة عليها.

أما الإتمام، فهذا قابل للزيادة حتى وإن وصلت إلى مرحلة التمام.

فلا شك أننا جميعا نتمتع بنعمة الله علينا، فنعمة الله أصابتنا جميعا، لكننا نعلم يقينا أننا لا نستطيع أن نحصي نعمة الله:

- **وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (18)**

فمهما تحصلت لك من هذه النعمة (بغض النظر عن عددها)، فإن نعمة الله تكون قد تمت عليك، لكن ذلك لا يعني أن هذه النعمة لا تزاد. فقد تكون نعمة الله تامة عليك، فتصيبك نعمة أخرى، فيكون ذلك من فضل ربك عليك. وتبقى النعمة دائمة الزيادة فيها مادام أننا لا نستطيع أن نحصي نعمة الله، وبذلك تكون النعمة قابلة للإتمام على الدوام.

نتيجة مفتراة: الإتمام لا يعني الوصل إلى مرحلة نهائية مادامت قابلة للزيادة دائما.

(ملحوظة: للأمانة العليمة أود أن أؤكد بأن مثل هذا التفريق بين معنى الإكمال والإتمام قد سمعته من الأستاذ الكبير فاضل السامرائي الذي هو عندنا أستاذ كبير، ولغوي من الطراز الأول الذي يعتد كثيرا بكلامه)

وليس أدل على أن الإتمام قابل للزيادة من هذا الحوار الذي دار بين موسى وشعيب:

- **قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (27)**

فالأجل المتفق عليه الذي لا يجوز لطرف منهما أن يخل به هو ثماني حجج، لكن كان بمقدور موسى (إن هو رغب في ذلك) أن يتمم ذلك الأجل، فيصبح عشر حجج بدلا من ثمانية.

وسنتابع هنا تبعات هذا الظن لنرى ما يمكن أن يتحصل لنا من فهم في مجمل العقيدة خاصة ما يتعلق منه بقضية الناسخ والمنسوخ. ولكن قبل الدخول في تفصيلات هذا الأمر، دعنا نحاول أن نبين كيف يمكن الاستفادة من هذه الأفهام في قضايا عقائدية مثل الصيام، قال تعالى:

- **أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (187)**

السؤال: لماذا قال الله تعالى (ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ)؟ لماذا لم يقل (ثم أكملوا الصيام إلى الليل)؟

جواب مفترى: لا شك عندنا أن الإفطار من الصيام يحصل في وقت محدد، وهو وقت قدوم الليل (أي عند صلاة المغرب)، لكن لما كان الله قد طلب منا إتمام الصيام إلى الليل، فإن هناك فسحة وافرة في الزيادة في وقت الصيام حتى تتحقق من قدوم الليل. فيمكن للإنسان أن يفطر مباشرة عند أذان المغرب (كما تفعل الغالبية الساحقة من أبناء المسلمين)، لكن جاء الطلب الإلهي منّا أن نتم الصيام إلى الليل، فمن المستحب إذن (وربما من الواجب علينا) أن لا يفطر الصائم مباشرة عند أذان المغرب، بل عليه أن يحاول إتمام الصيام (أي الزيادة فيه قليلا) للتحقق من بلوغ الليل. فهذه الزيادة القليلة (وإن كانت دقائق معدودة) تقع في باب إتمام الصيام. ويستحيل – نحن نرى – أن يأتي النص على نحو (ثم أكملوا الصيام إلى الليل) لأن ذلك يصبح وقتا محددا لا يمكن الزيادة فيه، وهذا غير ممكن لأن الله قال عند الحديث عن الليل:

- **إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (20)**

فما دام أننا لن نستطيع أن نحصي الليل، فإننا لن نكون قادرين على تحديد اللحظة التي يكتمل فيها الليل أو النهار، لذا لا يمكن أن يطلب الله منا (نحن نفتري القول) أن نفطر باكتمال الليل، لذا جاء الطلب الإلهي على نحو أن نتم الصيام إلى الليل.

رسالة إلى العامة من الناس: نحن نرى أن من واجب المسلم الذي يريد أن يلتزم بالطلب الإلهي (ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ) أن يتحرى قدوم الليل، فلا ضير أن ينتظر دقائق معدودة بعد أذان المغرب، ليفطر من صيامه، ويكون بذلك قد أتم الصيام إلى الليل. ولعل أفضل طريقة إلى ذلك تتمثل (نحن نرى) في أن يقوم المسلم بتأدية صلاة المغرب التي يقع وقتها في زلفا من الليل، ثم ما أن ينهي صلاته حتى يكون بذلك قد ضمن إلى حد كبير حلول الليل، فيظفر بالأجرين، أجر الصلاة على وقتها، وأجر إتمام الصيام إلى الليل. والله أعلم.

أما القضية الأكبر التي يمكن الخوض فيها بعد محاولتنا تجلية الفرق بين الإكمال والتمام، فهي قضية الناسخ والمنسوخ.

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا: لمّا كان دين الله قد اكتمل فهو إذن قد وصل إلى المرحلة التي لا يمكن الزيادة فيها بشيء. قال تعالى:

- **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (108)**

لذا، لما كانت سبيل الله واضحة المعالم، لا لُبس فيها، فإننا نرفض جملة وتفصيلا أن يكون قد حذف شيء من التنزيل الحكيم، ونحن نؤمن يقينا بأن ليس هناك شيء موجود في كتاب الله قد ألغي حكمه، أو أن هناك آية في كتاب الله لا يعتد بحكمها. أو أن هناك آية في كتاب الله قد ألغت حكم آية أخرى، وإلا لأصبحت فوضى عارمة، عرضة لأهواء الناس وميولهم. لذا سنحاول تسطير رأيا جديدا في فهم منطوق الآية الكريمة:

- **مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (106)**

نظن أنه يختلف جملة وتفصيلا عن كل ما جاءنا في بطون أمهات كتب التفسير. ولما كان هذا الرأي هو من عند أنفسنا، فإننا لا نستثني احتمالية أن يكون خاطئا في مجمله أو في بعض تفاصيله، لكن هذا لن يثنينا عن تقديمه، ظانين أن فيه شيء جديد، ربما يسعف في فتح آفاق جديدة للتدبر، سائلين الله دوما أن يهدينا رشدنا، وأن يعلمنا الحق الذي نقوله فلا نفتري عليه الكذب، إنه هو الواسع العليم.

أما بعد،

التساؤلات

⇐ ما معنى النسخ؟

⇐ ما هي الآيات الناسخة؟

⇐ ما هي الآيات المنسوخة؟

⇐ كيف تمت آلية النسخ؟

⇐ كيف يمكن تطبيق ذلك على أرض الواقع؟

⇐ الخ.

أولا، معنى النسخ

كنا في مراحل الدراسة الأولى في المدرسة الابتدائية مطالبين (كتلاميذ جديدي العهد بالقراءة والكتابة) بنسخ درس القراءة في كتاب اللغة العربية، فكان المعلم الذي كان هدفه (على ما أظن) تعليمنا أبجديات القراءة والكتابة يطلب منا نسخ الدرس الواحد مرة أو مرتين أو ثلاثة أو ربما أكثر من ذلك، فكنا نقضي اليوم كاملا بعد العودة من المدرسة في عملية نسخ لذاك الدرس الذي قرأناه في المدرسة في صبيحة ذلك اليوم، وكانت آلية تنفيذ النسخ تتمثل في أن نفتح الكتاب (المطبوعة كلماته طباعة على صفحات الكتاب المدرسي) عند الصفحة المراد نسخها، ثم نقوم بكتابة تلك الكلمات بكل دقة ممكنة بخط اليد، وما أن ننهي كتابة جميع الكلمات بالصورة نفسها الموجودة في الكتاب الأصل حتى تتولد عندنا نسخة من ذلك الدرس، ثم نعاود الكرة مرة أخرى من البداية حتى النهاية، فتتولد عندنا نسخة أخرى من الدرس نفسه، وهكذا حتى ننهي العدد المطلوبة من النسخ التي أمرنا بها المدرس.

وفي اليوم التالي، نأخذ معنا دفتر النسخ (أي الدفتر الذي نسخنا عليه الدرس) إلى قاعة الصف المدرسي، وما أن يدخل المدرس إلى قاعة الصف حتى يطلب منا أن نضع دفتر النسخ أمامنا على الدرج الذي كنا نجلس عليه، مفتوحا على الواجب الذي طلبه منا، فيمر المدرس من بين الصفوف ليتفقد قيامنا بالواجب المطلوب منا الواحد تلو الآخر. وتكون الكارثة حاصلة لا محالة إن هو وجد أن نسخ أحدنا للدرس غير دقيق، كأن يكون قد تخطى بعض الكلمات أو تجاوز بعض الأسطر في محاولة من بعضنا للتحايل على المدرس عن قصد، أو كخطأ غير مقصود من بعضنا الآخر، عندها كان المعلم يطلب في العادة من ذلك الطالب إعادة الكرة من جديد، وربما يثقل كاهله بعدد أكبر من النسخ، بعد أن يكون قد أذاقه من ويلات عصاه التي كانت تترنح في يده

مسلطة على من زاغ عن أمره، فيذيقنا منها ما هو أقرب إلى عذاب السعير، ويكأنها منسأة سليمان مسلطة على الشياطين اللذين كانوا يزيغون عن أمره.

السؤال: لماذا نسمي تلك الكتابات التي رقمناها بخط أيدينا نسخا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن السبب في ذلك ربما يعود لأنها محاكاة للنص الأصلي.

السؤال: ما وجه الشبة بين النص الأصلي ونسخته؟

جواب: كلاهما يحتوي على النص نفسه

السؤال: ما وجه الاختلاف بين النص الأصلي والنسخة منه؟

جواب: الآلية، ففي حين أن النص الأصلي مكتوب طباعة، فإن النسخة منه مرقومة بخط اليد.

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن النسخة هي محاكاة (أو تقليد متقن) للنص الأصلي

السؤال: ما الشرط اللازم توافره ليكون النص المكتوب بخط اليد نسخة للنص الأصلي المطبوع طباعة؟

جواب: أن لا يضيع منه شيء.

نتيجة مفتراة: عندما يكون هناك نصان أحدهما أصلي والثاني تقليد له، فإن هذا التقليد هو نسخة للأصل. وليس أدل على ذلك – برأينا – مما جاء في الآية الكريمة التالية:

- **وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ** (154)

لو تدبرنا هذه الآية الكريمة، لوجدنا أن هناك الألواح وهي التي كتبت لموسى بأمر إلهي مباشر:

- **وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ** (145)

وهي التي عاد بها موسى يحملها بيديه بعد لقاءه ربه في المرة الثانية في الواد المقدس، وهي نفسها التي ألقها على الأرض لحظة وصوله قومه بعد أن رجع غضبان أسفا:

- **وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** (150)

وهناك (في قومه) حصل النسخ لتلك الألواح بعد أن سكت عن موسى الغضب:

وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (154)

السؤال: كيف حصل ذلك؟

جواب مفترى: نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن الألواح قد كتبت لموسى بأمر مباشر من ربه، ونحن نؤمن بأن الذين قاموا بالكتابة الفعلية للألواح هم جنود ربك. لذا نحن نتخيل (ربما مخطئين) بأن الألواح قد كتبت بلغة الوحي، أي اللغة الإلهية، كما في قوله تعالى:

- **حم (1) عسق (2) كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** (3)

لذا، كانت الألواح مكتوبة بلغة الرمز التي لا يفهمها إلا الرسل الذين جاءهم الوحي من الله. (انظر الأجزاء السابقة من هذه المقالة، وكذلك سلسلة مقالات لماذا قدم نبي الله لوط بناته خاصة الجزء العاشر والحادي عشر منها)

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: رجع موسى من لقاءه ربه في الواد المقدس إلى قومه يحمل الألواح المكتوبة بلغة الوحي، فما كان قوم موسى سيستطيعون فهم تلك اللغة لو أن موسى أعطاهم تلك الألواح فقط. فكان لابد لموسى أن يفصل ما جاء في تلك الألواح (أي يترجمها) بلغة قومه، وذلك لأن كل رسول جاء بلسان قومه:

- **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (4)**

وكانت مهمة كل رسول أن يبيّن لقومه ما أنزل إليهم من ربهم، فكان يفعل ذلك بما آتاه الله من الذكر:

- **بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (44)**

ولما كان الرسول يعلم الطريقة التي يستطيع بها تبيان ذلك لقومه، كان يملك الحكم:

- **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14)**

والحكم هو – برأينا- معرفة الطريقة التي أحكمت بها آيات الكتاب قبل أن تفصل:

- **الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1)**

فالرسول هو الشخص القادر على فهم اللغة التي أحكمت بها آيات الكتاب، وتبلورت مهمته في تبيان تلك الآيات بتفصيلها بلسان قومه:

- **وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (44)**

السؤال: ما علاقة هذا بالنسخ؟

رأينا: لما رجع موسى يحمل الألواح التي كتبت له، كان من الواجب استصدار نسخة بشرية من النسخة الأم المكتوبة بلغة الإله نفسه (أي بلغة الوحي). وهنا عمد موسى إلى نسخ الألواح، فكان هناك نسخة منها:

وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (154)

فكانت التوراة – نحن نفتري الظن- هي النسخة البشرية من الألواح. فكتبت التوراة بلسان قوم موسى.

نتيجة مهمة جدا جدا: النسخة هي تقليد محكم للأصل.

ولا شك عندنا أن عملية النسخ هي عملية متفاوتة، محكومة بقدرة الشخص الذي يقوم بفعل النسخ. فلو حاولنا أن ننسخ القرآن (الذي هو أصلا عربي) إلى اللغة الإنجليزية أو الفرنسية مثلا، فإننا نستطيع أن نستصدر منه نسخة إنجليزية، وأخرى فرنسية. ولكن هذه النسخة لن تكون مطابقة تماما للأصل لأن العملية تضبط بقدرة الشخص على النسخ (أي تحويلها من اللغة الأصلية إلى اللغة الأخرى) دون تفريط. فلا ينقص منها شيء ولا يزاد فيها شيء. وهذه لا شك مهمة صعبة جدا جدا، لأنها بالنهاية هي إنتاج بشري قبل للتشويه.

السؤال: لماذا؟

رأينا: نحن نظن أنه من أجل أن تخرج النسخة الجديدة محكمة كإحكام الأصل، فلابد من توافر الحكم، أي الشيفرة اللازمة لتحويله فيكون لفظه دقيقا، كما لابد من توافر الذكر، حتى يكون معناه تاما لا يشوبه النقص أو الزيادة. فيتطابق اللفظ مع المعنى. ويتطابق المعنى مع اللفظ. ولا يكون هناك تهافت بين الاثنين.

السؤال: كيف يحصل ذلك في حالة الرسل؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لما كان الرسول قد أنزل إليه الذكر، فهو لن يحرف المعنى، فلا يفتري على الله الكذب بالزيادة أو النقص، ولما كان الرسول قد أوتي الحكم، فإنه لن يبدل اللفظ. فيستخدم الألفاظ الصحيحة التي توصل المعاني الحقيقية.

السؤال: ما فائدة ذلك؟

جواب مفترى: لما كانت كلمات الكتاب محددة، فالقرآن الكريم عبارة عن آيات محددة بكلمات واضحة، لذا فهي محددة في اللفظ، وهي جميعها متواجدة في صفحات المصحف الذي بين أيدينا، وبالتالي فهي محدودة. أليس كذلك؟

السؤال: إذا كانت كلمات القرآن محددة بعدد ثابت، فكيف سنفهم ما جاء في الآية الكريمة التالية:

- **وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (27)**

إن النتيجة التي نحاول تبيانها هي التناقض الظاهري التالي: كلمات الكتاب (وكلمات القرآن) محددة في العدد، لكن كلمات الله لا تنفذ. فكيف يكون ذلك؟

رأينا: نحن نظن أن الطريقة التي نسخ بها القرآن (عن الكتاب الذي أحكمت آياته) هي ما يجعل كلمات الله لا تنفد.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا: نحن نفتري القول أن كلمات القرآن المحددة بعددها قد نسخت بطريقة محكمة تجعل كلمات الله لا تنفذ، بسبب نشأت العلاقة بين مفردات وآيات القرآن بعضها ببعض. فبالرغم أن الآيات والمفردات محددة إلا أن ربط هذه الآيات ببعضها البعض هي عملية لا تنتهي. فكلما ربطت بعض الآيات ببعضها الآخر، تولد لديك من الذكر ما لم يكن بالحسبان. فآيات ومفردات القرآن الكريمة قد ربطت مع بعضها البعض بنفس آلية بناء بيت العنكبوت الذي تتشابك خيوطه وتتقاطع بصورة عجيبة، وهذا يقودنا إلى الافترائين المهمين التاليين:

⇐ لفظ الكتاب محدد بالحكم

⇐ معاني القرآن لا تنفد بالذكر

فالله هو من يؤتي بعض عباده الحكم والعلم، فيكونوا بذلك قادرين على فهم مفرداته. ولكن الرسل هم من ينزل الله عليهم الذكر لتبيان كل ما أنل إلى الناس من ربهم، فيكتمل بذلك الدين:

- **... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (3)**

فالدين يكتمل باكتمال اللفظ والمعنى معا. فليس هناك زيادة في اللفظ أو نقصان فيه (وهذا هو برأينا سر الحكم)، وليس هناك تحريف في المعنى (وهذا هو برأينا سر الذكر).

السؤال: ما علاقة هذا بنسخ الآيات؟

رأينا: لا شك أن الكتاب هو عبارة عن آيات، ولا شك أن القرآن هو آيات كذلك:

- الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (1)
- طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2)
- الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (1)

ولا شك أن آيات الكتاب هي نفسها آيات القرآن المبين:

- الَرَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ (1)

ولكن في حين أن آيات الكتاب محكمة باللفظ الإلهي، فإن آيات القرآن محكمة باللفظ البشري، ولكن بالرغم من ذلك، فهما متطابقان تماما، فلا زيادة ولا نقصان، وهذا يقودنا إلى الافتراء الخطير جدا التالي الذي نحاول جاهدين الوصول إليه:

الافتراء: القرآن هو نسخة للكتاب. انتهى.

وهذا يقودنا إلى تقديم الافتراءات التالية:

⇐ الكتاب محكم باللفظ الإلهي، لذا فهو قول الله

⇐ القرآن محكم باللفظ بالبشري، لذا فهو قول محمد

⇐ القرآن هو النسخة البشرية للقول الإلهي

⇐ تم نسخة فأحكم لفظه (بالحكم)

⇐ تم نسخة فما حرفت معانيه (بالذكر)

⇐ جاء التطابق التام بينهما، بالموافقة الإلهية على ذلك، فما تقول الرسول على الله شيء من عنده

⇐ الخ

نتيجة مفتراة: الآيات قابلة للنسخ (أي التحويل من شكل إلى آخر، بشرط الدقة المتناهية في استخدام اللفظ وعدم تحريف المعنى).

- مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (106)

السؤال: إذا كان من الممكن أن يتم نسخ الآيات المتلوة، فيتم تحويلها من لغة إلى لغة أخرى، وتكون النتيجة الإحكام في الحالتين. فكيف يتم نسخ الآيات المرئية كعصا موسى وكناقة صالح أو كسفينة نوح أو حتى كعيسى بن مريم؟

رأينا: نحن نفتري القول بأننا قد وصلنا إلى المحطة الأكثر خطورة على الإطلاق. فنحن نظن أن بإمكاننا تقديم الافتراءات الخطيرة التالية التي سنحاول الدفاع عنها تباعا:

1. هناك ترابط بين آيات الكتاب المتلوة وآيات الله المرئية
2. نحن نظن أن تقابل تطابقي (1=1) بينهما
3. نحن نظن أن آيات الكتاب المتلوة يمكن أن تنسخ
4. نحن نظن أن الآيات المرئية يمكن أن تنسخ كذلك
5. نحن نظن أن الآيات كلها يمكن أن تنسى
6. نحن نظن أن الآيات المنسوخة قد تم الإتيان بمثلها أو بخير منها
7. نحن نظن أن عدد الآيات ثابت لا يتغير حتى لو نسخت أو نسيت، لأن الإتيان بخير منها أو مثلها هو سنة الله الكونية
8. نحن نظن أن الله هو القادر على نسخ تلك الآيات بالصورة التي يريدها، فذلك لا يعجز من هو على كل شيء قدير
9. الخ.

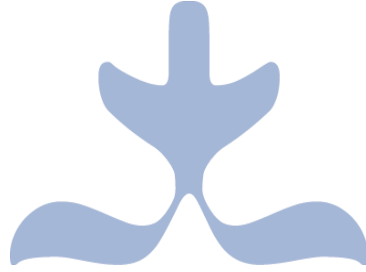
تساؤلات:

- ⇐ كيف يمكن فهم ذلك نظريا؟
- ⇐ كيف يمكن تطبيق ذلك عمليا؟
- ⇐ ما الفائدة المرجوة من ذلك؟
- ⇐ ما علاقة هذا كله بقصة فرعون التي نحن بصدد الحديث عنها؟
- ⇐ إلى أين يمكن أن يصل بنا النقاش في نهاية المطاف؟
- ⇐ الخ.

هذا هو جدول أعمالنا في الجزء القادم من هذه المقالة بحول الله وتوفيق منه.

فالله وحده أدعوه أن يأذن لي الإحاطة بشيء من علمه لا ينبغي لغيري أنه هو العلي العظيم – آمين.

المدكرون: رشيد الجراح
بقلم: د. رشيد الجراح
23 آذار 2016



قصة يونس

الجزء السابع والثلاثون



قصة يونس – الجزء السابع والثلاثون

وصلنا في نهاية الجزء السابق من هذه المقالة إلى جلب الآية الكريمة التالية إلى النقاش عن شخصية فرعون:

- **مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (106)**

وزعمنا الظن بأن عملية نسخ الآيات تتم على نحو تحويل الآيات المرئية (كالعصا) إلى آيات متلوة (كآية الكرسي). فالنسخ هو – برأينا- عملية اختزال للآية المرئية المادية في آية متلوة (لغة). فتحولت من شكل إلى آخر. وبناء عليه فقد قدمنا من عند أنفسنا افتراءات خطيرة (ربما غير مسبوقة)، نذكر منها:

1. هناك ترابط بين آيات الكتاب المتلوة وآيات الله المرئية
2. يمكن نسخ الآيات المرئية بآيات متلوة
3. التقابل بين الآيات المتلوة والآيات المرئية هو تقابل تطابقي (1=1)
4. عدد الآيات (سواء كانت متلوة أو مرئية) ثابت لا يتغير حتى لو نسخت أو أُنسيت، لأن الإتيان بخير منها أو مثلها هو سنّة الله الكونية
5. الله وحده هو القادر على نسخ تلك الآيات بالصورة التي يريدها، فذلك لا يعجز من هو على كل شيء قدير
6. الخ.

وحاولنا التفريق بين النسخ والاستنساخ. فالنسخ خاص بالآيات:

- **مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (106)**

فالنسخ – برأينا- هو أخذ صورة طبق الأصل للآية ولكن بعد تحويلها من شكل إلى آخر. كنسخ الآية المرئية (مثل عصا موسى) بآية متلوة (مثل آية الكرسي).

بينما الاستنساخ فهو خاص بأعمال العباد:

- **هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (29)**

فالاستنساخ هو أخذ الصورة طبق الأصل للعمل دون تحويله، فأنت سترى ما كنت تعمل في الحياة الدنيا:

- **وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (49)**

وسترى بأم عينك كل صغيرة وكبيرة عملتها في الحياة الدنيا:

- **يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (6) فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8)**

وقد كان هذا النقاش منصبا على محاولتنا فهم شخصية فرعون، الذي ظننا أن الآيات الكريمة التالية تتحدث عنه على وجه التخصيص:

- **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (16)**

وكانت أول محطات النقاش حينها هي البحث في كيفية أن يكون فرعون وَحِيدًا. فزعمنا القول بأن فرعون هو إنسان (مثلي ومثلك)، لكنه يمتاز (عني وعنك) بأنه يمتلك من الصفات الإنسانية أفضلها. لذا كان الافتراء حينئذ على النحو التالي: لم يكن هناك في الوجود شخص أكثر كمالا في بنيته الإنسانية من فرعون نفسه (للتفصيل انظر الجزء السابق من هذه المقالة).

وسنتابع النقاش هنا عن شخصية فرعون بالتعرض لبقية مفردات الآيات الكريمة هذه، مبتدئين النقاش بمفردة ذَرْنِي في قوله تعالى:

- **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11)**

لنطرح هنا على الفور التساؤل التالي:

ما المراد بالقول الإلهي ذَرْنِي؟

جواب مفترى: لو تدبرنا هذه المفردة في سياقات قرآنية أخرى، لوجدناها قد جاءت على لسان فرعون نفسه في خطابه لملئه عن موسى:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (26)**

فهنا يخاطب فرعون من حوله بالصيغة نفسها، أي بأن يذروه يقتل موسى (ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى). وهنا نطرح التساؤل السابق نفسه، ولكن حول مراد فرعون هذه المرة: لماذا يطلب فرعون ممن حوله أن يذروه يقتل موسى؟ فهل كان أحد ممن هم حول فرعون يمنعه عن قتل موسى؟ ألم يكن فرعون يملك كامل الحرية في أن يتصرف كما يريد؟ أليس هو ربهم الأعلى؟ فهل يحتاج من كان ربا (أو إلها) أن يطلب الإذن ممن هم دونه ليفعل ما يريد؟ أليست من مواصفات الإله (أو من ظن بأنه إله) أن لا يسأل عما يفعل:

- **لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (23)**

وإذا كان فرعون يحتاج أن يسأل من حوله (إن ظننا أنه إله كاذب)، فهل الإله الحق يحتاج أن يأخذ الإذن من أحد عندما قال:

- **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11)**

رأينا المفترى: بعيدا عن الفكر الشعبي الدارج الذي صوّر لنا أن مفردة ذَرْنِي ربما تتطلب أخذ الأذن من الآخرين، فإننا نرى أن المفردة تحمل معان جمّة لابد من تجليتها أولا قبل الخروج باستنباطات مفتراة من عند أنفسنا عن كيفية حصول الأمر على أرض الواقع.

السؤال: كيف يمكن إذن أن نفهم معنى القول الإلهي (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا)؟ وكيف نفهم مراد فرعون عندما قال (ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى)؟

رأينا المفترى: نحن نفتري القول بأن مفردة ذَرْنِي لا تعني بأي حال من الأحوال طلب الإذن من الآخرين، وذلك لأن من كان إلها لا يحتاج أن يستأذن من هم من دونه، فهو لا يسأل عما يفعل.

السؤال: ماذا تعني مفردة ذَرْنِي إذن؟ يسأل صاحبنا

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن (ربما مخطئين) بأن المفردة تحمل في ثناياها وجود المانع أن يقوم الآخرون بتنفيذ الأمر الذي ارتبطت به المفردة، وذلك لأن القادر على تنفيذه هو من استخدم المفردة

نفسها. فالله هو وحده القادر على التعامل مع من خلقه وحيدا (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا)، وبالمنطق نفسه فإن فرعون هو وحده القادر على قتل موسى (ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى).

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا: لما قال فرعون لمن حوله (ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى)، فهو يعلم يقينا بأن الآخرين لا يستطيعون القيام بذلك الفعل، أي قتل موسى؛ فهم لا يستطيعون مواجهة موسى والتصدي له، ثم قتله، وذلك لأن موسى يملك من أسباب القوة ما تمنعهم عن فعل ذلك. وبكلمات أكثر دقة، نحن نقول بأن من كان حول فرعون لا يملكون القدرة المادية اللازمة التي تمكنهم من قتل موسى على وجه التخصيص، فهم قد يستطيعون إلحاق الأذى بمن هم حول موسى (كبني إسرائيل) بدليل ما قاله بنو إسرائيل لموسى:

- **قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (129)**

فقد أُلحق الأذى ببني إسرائيل من قبل أن يأتيهم موسى ومن بعد ما جاءهم، وكان ذلك على يد آل فرعون وقومه وملئه. لكن المشكلة الآن تكمن في إلحاق الأذى بموسى نفسه. فهل يستطيع آل فرعون أن يلحقوا الأذى بموسى كما فعلوا ببني إسرائيل من قبل أن يأتيهم موسى ومن بعد ما جاءهم؟ نحن نسأل.

جواب مفترى من عند أنفسنا: كلا وألف كلا. فبالرغم أن آل فرعون كانوا يستطيعون إلحاق الأذى ببني إسرائيل، إلا أنهم كانوا عاجزين عن فعل مثل ذلك بموسى.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: لأن موسى كان يملك من أسباب القوة ما تمنعهم عنه.

السؤال: وما الذي كان يملكه موسى فلا يقع عليه أذى مباشر من آل فرعون؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: إنها العصا.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لما كان موسى يحمل بيمنه تلك العصا، فإن من الاستحالة بمكان أن يستطيع آل فرعون إلحاق الأذى بالرجل. وليس أدل على ذلك من طلب فرعون نفسه من موسى أن يجعل بينه وبينهم موعدا في مكان سوى:

- **فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى (58)**

تساؤلات مشروعة: إذا كان موسى قد وصل إلى القصر الفرعوني، وإذا كانت المواجهة المباشرة بين الطرفين قد حصلت أكثر من مرة، فلِم لم يعمد فرعون إلى الطلب من جنوده أن يلقوا القبض على موسى؟ ولِم لم يعمد فرعون إلى سجن موسى؟ فما الذي كان يمنعه من ذلك؟

رأينا المفترى: لمّا كان موسى يحمل العصا بيمنه، كان الوصول إليه شخصيا أمرا أقرب إلى المستحيل. فعصا موسى كفيله بأن تمنع عنه أذى القوم.

السؤال: لماذا قال فرعون لمن حوله (ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى)؟ فما مراد القول عند فرعون؟ وكيف فهم من هم حوله حينئذ مراده من هذا القول؟

رأينا المفترى: لمّا كان فرعون يعلم يقينا بأن موسى يملك من أسباب القوة (العصا) ما تمنع آل فرعون جميعا من الوصول إليه، كانت دعوة فرعون لمن هم حوله على نحو أن لا يحاولوا العبث مع موسى، وذلك لأن موسى "أكثر قوة" منهم جميعا مهما حاولوا العبث معه. ولكنه لفت انتباههم في الوقت ذاته إلى أمر غاية في الأهمية، وهو – برأينا- على النحو التالي: أنه هو وحده (أي فرعون نفسه) القادر على التصدي لموسى

شخصيا، فلا أحد غيره يستطيع أن يقتل موسى إلا هو. لذا فهو يوجههم إلى أن يتابعوا إلحاق الأذى ببني إسرائيل، ولكن دون حصول مواجهة مباشرة مع موسى نفسه. لذا فقد قسم فرعون ساحة صراعه مع موسى ومن معه إلى فريقين: فريق (يتألف من آل فرعون وعلى رأسهم أبناء فرعون نفسه كما سنرى لاحقا بحول الله وتوفيقه) يوجّه قوته وبطشه تجاه بني إسرائيل، وفريق آخر (يتألف من فرعون شخصيا) لمواجهة موسى على وجه التخصيص. وهذا يعني بمفرداتنا الدارجة أن قوة كل طرف محددة بقوة الطرف الآخر، وهي برأينا هرمية تصاعدية على النحو التالي:

4. فرعون
3. موسى
2. آل فرعون
1. بني إسرائيل

ففي حين أن بني إسرائيل يقبعون في أدنى درجات الهرم (من حيث القوة)، لأنهم هم المستضعفون في الأرض:

- **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5)**

كان فرعون وملئه وقومه فوقهم قاهرون:

- **وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127)**

ولكن جاء موسى وحده يحمل من أسباب القوة ما تمنع آل فرعون عنه على وجه التخصيص، فهو إذن يحتل مرتبة أعلى من آل فرعون على سلم القوة الآن. ولم يكن بمقدور آل فرعون أن يواجهوا موسى بشخصه مادام يحمل بيمينه تلك العصا (وهي الآية الكبرى)، فكان على فرعون أن يتعامل معه شخصيا، ومن هنا جاء – برأينا- أن يذروه وموسى:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (26)**

ولو دققنا في السياق القرآني نفسه لوجدنا أن فرعون يظن أن باستطاعته مواجهة موسى ورب موسى معا.

نتيجة مفتراة: نحن نطلب من القارئ الكريم أن يتفكر بمفردة ذَرُونِي على نحو جديد. فبدل أن يظن بأن معناها هو أن "يتركوا فرعون على موسى" - كما نقول في العامية الأردنية- نرى أنه ربما من الأفضل أن تُفهم على نحو أن "يتركوا موسى لفرعون".

ولو حاولنا تطبيق المنطق نفسه في حالة قوله تعالى:

- **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11)**

لربما وصلنا إلى الافتراء الخطير جدا جدا التالي: يبين الله لنا بأن هذا الذي خلقه وحيدا (وهو – برأينا- فرعون) لا يمكن لبشر أن يواجهه فيتغلب عليه، فحتى موسى نفسه لا يستطيع مواجهة فرعون مواجهة شخصية، بدليل أن موسى قد فرّ أمام فرعون في المواجهة الأخيرة حتى وصل البحر. ولما وصلا إلى البحر، جاء قول من كان مع موسى حينئذ على النحو التالي:

- **فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62)**

فهم إذا مدركون أن موسى نفسه لا يستطيع أن يحميهم من بطش فرعون إن هو وصل إليهم، وهذا ما لم ينكره موسى نفسه، فهو من ظن حينئذ أن الله وحده هو من سيهديه إلى كيفية الخلاص من فرعون حينها، فجاء الرد الإلهي المباشر على النحو التالي:

- **فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63)**

لذا (نحن نتجرأ على الاستنباط) بأن القادر على مواجهة فرعون هو الله فقط. لذا جاءت صيغة الخطاب في هذه الآيات الخاصة بفرعون بضمير المفرد العائد على الله نفسه:

- **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11)**

فالمتدبر لهذه الآيات الكريمة يجد أن الله هو نفسه من تصدى لهذا الرجل الذي خلقه وحيدا، ليصبح سلّم القوة الآن على النحو التالي:

5. الله
4. فرعون
3. موسى
2. آل فرعون
1. بني إسرائيل

فالله هو الذي اختصه بنعمة المال الممدود والبنين الشهود، والله هو من مهد له تمهيدا، لكن كانت ردة فعل الرجل على نحو أن يطمع بالمزيد، فكان لآيات الله عنيدا، فتكفل الله بنفسه التعامل معه، فأرهقه صعودا.

- **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (16) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (17)**

السؤال: لماذا تكفل الله بإرهاق فرعون صعودا؟

رأينا المفترى: نحن نجد في كتاب الله أن سنته الكونية هي على النحو التالي:

- **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (7)**

فالله هو من يسبغ نعمته على عباده جميعا. وهنا تحصل المفارقة من عند العباد أنفسهم فينقسموا إلى قسمين: قسم يكون شاكرا لأنعم ربه، وقسم يكفر بأنعم ربه. فمن شكر الله على نعمته التي أنعمها عليه، فإن النتيجة (لا محالة) ستكون الزيادة في النعمة (لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ). وهذا ما بدر من إبراهيم مثلا:

- **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (121)**

فكانت نتيجة شكر إبراهيم لأنعم ربه، ما جاء في الآية الكريمة التالية:

- **أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (54)**

ولكن - بالمقابل – كانت ردة فرعون الكفر بأنعم ربه، فاستحق بذلك أن يقع عليه عذاب الله الشديد (وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ). وكان هذا العذاب على نحو أن يرهقه الله صعودا:

- **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (16) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (17)**

تساؤلات:

⇐ كيف تحصل لفرعون هذا المال الممدود؟
⇐ كيف تحصل له البنين الشهود؟
⇐ كيف مهد الله له تمهيدا؟
⇐ كيف طمع بالزيادة؟
⇐ كيف كان لآيات ربه عنيدا؟
⇐ كيف أرهقه الله صعودا؟

باب المال الممدود: وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (12)

قال تعالى:

- **الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (46)**

لو تدبرنا هذه الآية الكريمة، لوجدنا أن الله يبين لنا بأن زينة الحياة الدنيا تتحقق بوجود المال والبنين معا. فوجود المال وحده لا يكفل للإنسان الحياة الكريمة التي يمكن أن تكون مرضية. وبالمقابل فإن وجود البنين فقط لا يكفل للإنسان الحياة المرضية. فحتى يتمتع الإنسان بالحياة الكريمة، فلابد من توافر المال والبنين معا. فالإنسان الذي لديه وفرة من المال وينقصه البنون، يجد أن حياته ناقصة، غير مرضية. فـ لمن - يا ترى- يجمع هذا المال؟! ولم - يا ترى- سيتركه من بعده؟ وبالمنطق نفسه، فإن الإنسان الذي تحصل له البنون ولم يتحصل له المال، فإنه سيكون مشغول البال، غير راض عن حياته، كما سيكون قلقا على ذريته من بعده:

- وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا (9)

فحتى تتحقق الحياة الكريمة، وحتى يكون الإنسان في غاية الرضا عن حياته، وحتى لا ينتابه القلق على ذريته من بعده، فلابد أن يتوافر العنصران اللذان هما زينة الحياة الدنيا جنبا إلى جنب، وهما المال والبنون:

- **الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (46)**

ولا شك عندنا أن المال يختلف عن الرزق، ففي حين أن الرزق هو ما يتعلق بالطعام:

- **وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (19)**
- **فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ (37)**

(انظر سلسلة مقالات كيف تم خلق عيسى بن مريم؟)

فإن المال خاص بالنقد (كالذهب والفضة):

- **وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (247)**

فبوجود الوفرة من المال (كالذهب والفضة) تتشكل الكنوز. وليس أدل على توافر الكنوز في زمن فرعون من وفرة كنوز قارون:

- **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76)**

ولم تكن هذه الكنوز محصورة على قارون فقط (وإن كان هو أكثرهم حصولا عليها)، فقد كان آل فرعون جميعا أصحاب كنوز، قال تعالى:

- **فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (59)**

لتكون النتيجة التي نريد أن نصل إليها أن فرعون كان من أصحاب الكنوز. ولكن المفارقة العجيبة في هذا السياق تكمن – برأينا- في أن فرعون كان ذا مال ممدود:

- **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (16) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (17)**

ليكون السؤال: كيف كان مال فرعون ممدودا؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن المد هو ما يقابل السكون، فالله قد وصف الظل بالمد والسكون:

- **أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (45)**

فما دام أن الله قد جعل الظل ممدودا، ولم يجعله ساكنا، فإننا نستطيع أن نستنبط أن الظل الممدود هو الذي ينقص ويتزايد، فيبدأ الظل مثلا قصيرا، ثم ما يلبث أن يأخذ بالتزايد شيئا فشيئا، والعكس صحيح، في حركة منتظمة لأن الشمس هي الدليل عليه. فحركة الشمس هي التي تزيد الظل أو تنقصه. ففي الصباح الباكر يكون الظل طويلا، ثم ما أن تبدأ الشمس بالارتفاع في كبد السماء حتى يتقلص الظل إلى أدنى درجاته وقت الظهيرة (أو القيلولة)، ثم ما أن تبدأ الشمس بالميل عن وسط السماء حتى يعود الظل بالارتفاع شيئا فشيئا، حتى يصل أقصى ذروته مرة أخرى قبل مغيب الشمس. فحركة المد للظل هي حركة على النحو التالي:

الصباح	الظهيرة	المساء
ظل طويل	ظل قصير	ظل طويل

إن ما نود إثارته هو أن هناك مال ممدود وهناك الكنوز. ونحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الفرق بين المال الممدود من جهة والكنوز من جهة أخرى هو توفر مبدأ الزيادة والنقص فيه. فالكنز مهما بلغ حجمه يبقى ثابتا. فأنت عندما تكنز الذهب والفضة:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (34)**

تحرص على ثباته لا بل وزيادته؛ فلقد كان لقارون من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة:

- إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76)

ولا أخال أن كنوز قارون كانت تنقص بل كانت دائمة الزيادة. لكن – بالمقابل- كان لفرعون مال ممدود، وذلك لأن فرعون كان دائم الإنفاق من ماله، بدليل قوله:

- يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا (6)

التي جاءت في سياق الحديث عن فرعون نفسه في الآيات الكريمة التالية التي تعرضنا لها سابقا:

- لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (1) وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (2) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ (4) أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا (6) أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7) أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11)

ولو تدبرنا مفردة المد أكثر، لوجدنا أن الله قد مد الأرض:

- وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (3)

فما معنى أن تكون الأرض قد مدت؟

رأينا: بعيدا أن موروثاتنا في كتب التفاسير العظيمة، فإننا نرى أن مد الأرض يشبه مد البحر. فالأرض ليست مسطحة بشكل كامل، ففيها ارتفاعات وانخفاضات ما يشبه مد البحر، فهي تتموج كتموج ماء البحر، فأحيانا تكون هناك الأمواج العالية جدا (كالجبال العالية):

- وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (42)

ثم ما تلبث هذه الأمواج أن تبدأ بالانحدار شيئا فشيئا حتى تسوّى مع سطح الأرض، ثم تعاود الارتفاع من جديد، وهكذا. فتشكل ما نسميه بمد البحر. وهو عبارة عن قدوم موجه عالية ما تلبث أن تتكسر على الشاطئ، ولكنها تخرج من عند حافة الشاطئ باتجاه اليابسة في شكل موجه عالية، فتشكل ما يشبه الشكل التالي:



وبمثل هذا الفهم يمكن أن نفهم الآيات الكريمة التالية:

- وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (19)
- وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (7)

ولا يقتصر مبدأ المد على الأرض، بل يتعداه إلى المال والبنين، فالله هو من أمدنا بأموال وبنين:

- ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (6)
- وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (12)

وبهذا يبقى المال والبنون في حركة مد، أي زيادة ونقصان. وينطبق هذا – برأينا- أيضا على عذاب الله:

- كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (79)

ونحن نفهم أن الزيادة والنقصان هي من أساسيات المد، بدليل المداد، الذي ما أن ينفذ حتى يعود إلى الزيادة من جديد:

- قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (109)

ومن هذا المنطلق، نحن نرى فكرة المدائن، فالمدائن ليست ثابتة في العدد والحجم، بل تزيد وتنقص عن بعضها البعض:

- فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (53)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفهم أن المد يحمل معنى الزيادة والنقصان، الارتفاع والانخفاض، وهكذا.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: كان فرعون صاحب مال ممدود، وذلك لأنه كان دائم الإنفاق من ماله، فهو من أهلك مالا لبدا. لذا نحن نفتري القول بأن حركة المال عند فرعون كانت تشبه حركة الظل، فالله هو من جعل لفرعون مالا ممدودا:

- وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (12)

والله نفسه هو من جعل الظل ممدود:

- وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (30)
- أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (45)

والله هو نفسه من جعل عملية تقلص الظل هي عملية قبض:

- ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (46)

والله هو من جعل عدم إنفاق المال (مقابل عملية حجزه) هي عمليات قبض وبسط:

- مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (245)

نتيجة مفتراة مهمة جدا: لمّا كان فرعون قد أهلك مالا لبدا، فقد كان (نحن نتخيل) دائم الإنفاق منه، فكانت يده مبسوطة على كل من هم حوله. فكان فرعون – برأينا- رجلا كريما جدا، لأن يده هي العليا على كل من هم حوله، ونحن نجد الدليل على ذلك في قوله تعالى مخاطبا فرعون على وجه التخصيص في يوم الحساب:

- **ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (49)**

تخيلات مفتراة: نحن نظن أن صناعة المال في زمن فرعون كانت رائجة جدا، فتحصل لهم من المال الكثير، فكان قارون هو صاحب الكنوز، لذا كان قارون يحرص على زيادة كنوزه، فما كان ينفق منها الكثير، لكن فرعون – بالمقابل – كان صاحب مال كثير، ولم يكن يعمد إلى أن يكنز ذلك المال، بل كان يبسط يده بالإنفاق حتى أهلك منه الكثير. وكانت أموال فرعون تشبه في حركتها حركة الظل، فكلاهما ممدود. ونحن نتخيل ذلك على النحو التالي: يصبح عند فرعون في الصباح الباكر مالا كثيرا، فيكون ماله في أعلى مستوياته (كما هو الظل في الصباح الباكر لحظة شروق الشمس)، فيبدأ بالإنفاق منه حتى يصل إلى أدنى مستوياته في وقت الظهيرة، ثم ما يلبث أن يبدأ ماله بالزيادة بعد ذلك حتى يصبح في أعلى درجات الوفرة مرة أخرى مع مغيب شمس ذلك اليوم، وهكذا تكرر القصة نفسها في كل يوم.

السؤال: كيف كان فرعون يفعل ذلك؟

رأينا: إنها حرفة صناعة المال. فلقد كان فرعون بارعا في صناعة المال لأنه كان يملك العلم الذي يمكّنه من ذلك. فبالعلم الحقيقي يمكن أن تصنع الكثير من المال.

السؤال: كيف يمكن فهم ذلك عمليا؟

جواب مفترى: سنحاول تسطير رؤيتنا الخاصة لطريقة حصول فرعون على المال الممدود، وسنحاول تقديم افتراءات من عند أنفسنا (ربما غير مسبوقة) هي أقرب إلى الخيال منها إلى التصديق، لذا نحن نطالب القارئ الكريم أن لا يأخذ ما سنفتريه من قول على محمل الجد إلا أن وجد أن الدليل يثبته، ونحن لا نتردد بأن ندعو الله وحده بأن يأذن لنا الإحاطة بشيء من علمه فيها لا ينبغي لغيرنا إنه هو الواسع العليم، وندعوه أن يعلمنا الحق الذي نقوله فلا نفتري عليه الكذب، إنه هو السميع البصير – آمين.

أما بعد،

السؤال: كيف كان يحصل فرعون على المال الممدود؟

رأينا المفترى: من المال اللبدا. قال تعالى:

- **لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (1) وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (2) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ (4) أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا (6) أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7) أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12) فَكُّ رَقَبَةٍ (13)**

لقد تعرضنا لهذه الآيات الكريمة في الأجزاء السابقة من هذه المقالة، وزعمنا الظن بأنها تخص شخص فرعون. فهو الشخص الوحيد الذي حسب أن لن يقدر عليه أحد (أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ)، وليس أدل على ذلك من قوله:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (26)**

فهو الذي دعا من حوله بأن يتركوا موسى له وحده (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى)، وزاد نبرة التحدي عندما طلب أن يدعو موسى ربه معه (وَلْيَدْعُ رَبَّهُ)، ففرعون إذن لا يخشى مواجهة موسى وربه معا (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ). وبهذا يكون فرعون هو من حسب أن لن يقدر عليه أحد (أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ). وهو نفسه من قال بأنه قد أهلك مالا لبدا:

- **أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا (6)**

السؤال: ما معنى أن فرعون (هو كما ظننا) قد أهلك مالا لبدا؟

رأينا المفترى: لو تدبرنا السياق القرآني نفسه، لوجدنا أن الرجل قد حسب أن لم يره أحد:

- **أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا (6) أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7)**

السؤال: كيف حسب فرعون أن لم يره أحد؟ ومتى حصل ذلك؟ وأين حصل ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن فرعون كان يتواجد في مكان محدد، وفي هذا المكان على وجه التحديد كان ظنه بأن أحدا لن يراه فيه. فالمكان (نحن نتخيل) محصن جدا لدرجة أن فرعون كن يظن أنه في منأى أن يراه أحد، حتى الله نفسه، قال تعالى:

- **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1)**

السؤال: أين هو ذلك المكان؟

رأينا: نحن نظن أن فرعون كان يتواجد في أماكن كثيرة، منها – على سبيل المثال- تلك التي حصلت المواجهة بينه من جهة وموسى وهارون من جهة أخرى، كما يصور ذلك الموقف التالي:

- **فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (47) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى (48) قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (51) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (52)**

أو في المكان الذي يصوره الموقف التالي:

- **اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (17) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى (18) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (19) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)**

ولا شك عندنا أن فرعون كان في هذه المواقف مشاهدا من قبل الآخرين كموسى وفرعون. ولم يكن فرعون متخفيا دائما عن قومه وملئه، بدليل الحوارات الكثيرة التي حصلت بين الطرفين:

- **وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127)**

لذا، كان فرعون (نحن نفتري القول) مشاهدا من قبل الآخرين في هذه المواقف، ولكن – بالمقابل- كان هناك مكانا واحدا حكرا على فرعون نفسه، لدرجة أنه ظن أن أحدا لن يراه:

- **أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7)**

السؤال: أين هو ذلك المكان الذي كان فرعون عصيّا على المشاهدة من قبل الآخرين؟

رأينا المفترى: لو تدبرنا السياق القرآني نفسه، لربما صحّ لنا أن نستنبط بأنه المكان الذي يرافقه إهلاك المال اللبدا. وانظر (إن شئت) عزيزي القارئ في سياق الآية الأوسع:

- **أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا (6) أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7)**

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: لقد كان لفرعون مالا لبدا، وكان هذا المال وفيرا بكميات هائلة في مكان محدد يستحيل أن يتواجد فيه شخص آخر غير فرعون نفسه، وفي هذا المكان بالذات كان فرعون يحسب أن لم يره أحد.

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى: لأن هذا المال هو مال لُّبَدًا.

السؤال: ما معنى ذلك؟

رأينا المفترى: للإجابة على هذا التساؤل، نجد لزاما التعرض لمفردة لُّبَدًا نفسها، لنطرح السؤال المعتاد هو: ما معنى لُّبَدًا (ومشتقاتها) كما يبينها النص القرآني؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لو تفقدنا هذه المفردة في جميع سياقاتها القرآنية، لوجدنا أنها قد جاءت مرة واحدة في السياق القرآني التالي:

- **وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (19)**

السؤال: ما معنى ذلك؟ وما علاقة هذا بذاك؟

رأينا: بداية، لو تفقدنا المفردة في هذا النص القرآني، لوجدنا أنها قد جاءت مكسورة اللام على نحو (لِبَدًا)، بينما جاءت في سياق الحديث عن المال مضمومة اللام على نحو (لُّبَدًا). فالمفردة قد جاءت إذن بشكلين اثنين وهما (لِبَدًا و لُّبَدًا)، أليس كذلك؟

السؤال: ما الفرق بين الشكلين (لِبَدًا و لُّبَدًا)؟

رأينا المفترى: لما كان المال هو مال لُّبَدًا، لذا يستحيل أن يكون المال هو الفاعل، فهناك من قام (إن صح قولنا) بلبد المال، فيكون المال بذلك قد لُبد (بضم اللام). أما في حالة فعل اللبد عند دعوة عبد الله، فهناك من قام بالفعل، أي هناك من كانوا قادرين على القيام بفعل اللبد، فهم أنفسهم من كانوا لِبَدًا (بكسر اللام).

السؤال: من هم اللذين كادوا يكونون عليه لِبَدًا في حالة دعوة عبد الله؟

- **وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (19)**

إن هذا السؤال يدعونا إلى جلب السياق القرآني كله الذي جاءت فيه هذه الآية الكريمة لنفهم من هم اللذين كادوا يكونون عليه لِبَدًا عندما قام عبد الله بالدعوة:

- **قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (2) وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (3) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (4) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (5) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (6) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (7) وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (8) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (9) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ**

بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (10) وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (11) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا (12) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (13) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (14) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (15) وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا (16) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (17) وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (18) وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (19)

يجد المتدبّر للآية الكريمة في سياقها الأوسع أنها تتحدث عن الجن، وأن هؤلاء الجن هم من استمع إلى القرآن الذي ظنوا أنه عجبا:

- **قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (2)**

وأن هؤلاء الجن هم من كانوا يقعدون مقاعد للسمع، وأنهم ما عادوا يستطيعون ذلك بعد نزول هذا القرآن:

- **وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (8) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (9)**

وهم درجات في الصلاح:

- **وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (11)**

فكان منهم المسلمون، وكان منهم القاسطون:

- **وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (14) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (15)**

والآن، ما الذي يمكن أن نستنبطه من الآية الكريمة التي نحن بصدد محاولة فهمهما:

- **وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (19)**

رأينا المفترى: نحن نفتري القول من عند أنفسنا أن هذه الآية الكريمة تبين لنا ما حصل على أرض الواقع عندما قام عبد الله (وهو محمد) بفعل الدعوة (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ) مع حضور هذا النفر من الجن الذين سمعوا القرآن، فهؤلاء الجن (أو مجموعة منهم) هم من كادوا يكونون عليه لِبَدًا. فالذي قام بفعل اللبد هنا هم مجموعة من الجن الذين استمعوا لهذا القرآن العجب.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا (1): كانت مجموعة من الجن هي من قامت بفعل اللبد، فهم اللذين كادوا يكونون على عبد الله (محمد) وهو المكلف بالدعوة لِبَدًا (بكسر اللام). فكانوا هم لِبَدًا (أي الفاعل)، وبهذا تكون صيغة لِبَدًا (بكسر اللام) صيغة من صيغ أسم الفاعل كما يرغب أهل اللغة أن يسمونهما). فالجن هم فاعل فعل اللبد.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا (2): كان المال الموجود عند فرعون في ذلك المكان الذي ظن فرعون أن أحدا لن يراه فيه هو مال لُبَدًا (بضم اللام)، لأن المال كان ملبودا (أي اسم مفعول، ربما كما يرغب أهل اللغة أن يسمونه). فالمال هو إذن اسم مفعول لفعل اللبد.

السؤال: ما علاقة هذا بذاك؟ أو بكلمات أخرى ما العلاقة التي يمكن أن نستنبطها بين الموقفين، مال فرعون من جهة:

- **يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا (6)**

ودعوة عبد الله من جهة أخرى:

- **وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (19)**

رأينا المفترى والخطير جدا جدا: نحن نظن أن فعل (لبدا) مشتقاته لا تقوم به إلا الجن. انتهى.

نتيجة مفتراة (1): الجن هم القادرون على القيام بفعل اللبد، فهم من يستطيعون أن يكونون لِبَدًا (بكسر اللام)

نتيجة مفتراة (2): إذا استطاعت الجن أن تلبد على شيء، فإن ذلك الشيء الملبود، سيكون لُّبَدًا (بضم اللام)

السؤال: ما معنى اللبد أصلا؟ وكيف يمكن أن يحدث؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن بأنه إذا ما قام الجن بفعل اللبد، فإنهم بذلك يشكلون ما يشبه الحاجز بين الشيء الملبود (أي الـ لُّبَدًا) والآخرين، فلا يستطيع الملبود الوصول إلى الآخرين ولا يستطيع الآخرون الوصول إليه.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: دعنا نتدبر الآية الكريمة التي تتحدث عن ما حاول الجن فعله عندما سمعوا عبد الله يقوم بالدعوة:

- **وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (19)**

فنحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأنه عندما سمع الجن هذا القرآن العجب الذي يدعو إلى الرشد، حاولت مجموعة منهم (وهم القاسطون) أن يشكلوا ما يشبه الحاجز الذي يمنع وصول دعوة هذا العبد إلى من هم حوله. ولو استطاعوا فعل ذلك، ولو نجحوا في ذلك، لتعذر على الآخرين الوصول إلى هذا العبد، وإلى دعوته، ولربما تمكنوا من حجزه وحجز دعوته من النفاذ إلى الآخرين.

- **وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (14) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (15) وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا (16) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (17) وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (18) وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (19)**

فهؤلاء القاسطون من الجن، هم الذين لم يرغبوا في الإيمان لأنفسهم، فكانوا لجهنم حطبا (وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا)، ولم يريدوا الآخرين أن يؤمنوا بدعوة هذا العبد الذي قام يدعو. فهم الذين ما استقاموا على الطريقة (اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا)، وهم المعرضون عن ذكر الله، وهم الذين يسلكهم الله عذابا صعدا (لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا). فجل مهمتهم أن لا تنشأ المساجد التي تكون الدعوة فيها خالصة لله وحده (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا).

راقب عزيزي القارئ – إن شئت- كيفية عذاب هؤلاء النفر من الجن بطريقة العذاب الصعد:

- لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (17)

مقابل طريقة عذاب فرعون نفسه كما صورها النص القرآني:

- كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (16) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (17)

فكلاهما يقع عليه العذاب نفسه هو العذاب الصعد، أو العذاب بطريقة الصعود.

ويحدث ذلك بطريقة الإرهاق (سَأُرْهِقُهُ)، لأن هذا أيضا خاص بالجن:

- وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (6)

لنخلص إلى نتيجة مهمة جدا سنرى تبعاتها لاحقا (بحول الله وتوفيق منه) تتمثل في استعاذة فرعون بالجن. ففرعون كان يستخدم الجن كوقاية له من حصول المكروه به، وليس أدل على ذلك – برأينا- مما كان يفعله زعيم الجن حينئذ (وهو هامان) لفرعون:

- وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)
- وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37)

نتيجة مفتراة: لقد كان هامان (الشيطان الكبر) يشتغل تحت إمرة فرعون نفسه. فلقد كان تابعا لفرعون.

السؤال: كيف يمكن تطبيق هذا الفهم في حالة المال الذي أهلكه فرعون؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن المال الذي كان بحوزة فرعون كان موجودا في مكان محدد، وكان هذا المكان محجوزا عن الآخرين، وكان الذي يقوم ببناء هذا الحاجز الذي يمنع الآخرين من الوصول إليه هم الجن، فكان ذلك المال لُبَدًا. وكان فرعون هو الشخص الوحيد القادر على النفاذ من ذلك الحاجز والوصول إلى ذلك المال. فكان الجن يشكلون ما يشبه الحاجز الذي يمنع الآخرين من الوصول إلى فرعون بعد أن يكون قد تخطى هو بنفسه حاجز الجن. وهناك ظن فرعون أن أحدا لن يراه. انتهى.

- يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا (6) أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7)

السؤال: لماذا كان فرعون هو الشخص الوحيد القادر على الوصول إلى ذلك المال؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن فرعون كان قادرا على الوصول إلى ذلك المكان لأنه هو – برأينا- الشخص الوحيد الذي آتاه الله آياته كلها، فانسلخ منها. وما أن انسلخ فرعون من آيات الله حتى كان الشيطان بنفسه تابعا لفرعون:

- وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175)

فكان فرعون قادرا على تسخير الشيطان لخدمته، فكان الشيطان تابعا لفرعون بدل أن يكون فرعون تابعا للشيطان.

السؤال: لماذا فعل فرعون ذلك؟

جواب: لأن فرعون آثر الخلود إلى الأرض بدلا من أن يرتفع إلى الأعلى، واقرأ – إن شئت- الآية السابقة نفسها في سياقها الأوسع:

- **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176)**

نتيجة مفتراة خطيرة جدا: توافر في أرض مصر من المال الكثير جدا جدا، وكان هذا المال على شكل كنوز عظيمة:

- **فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58)**

وتحصل لقارون على وجه التحديد أكثرها:

- **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76)**

ولكن كان فرعون يملك ما هو أكثر من الكنوز وهو المال الممدود:

- **وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (12)**

فكان ذلك المال لا ينضب لوفرته، فأخذ فرعون ينفق من ذلك المال في كل يوم، حتى تحصل لقومه منه الكنوز الكثيرة، ولا شك عندنا أن الكنوز هي عبارة عن ذهب وفضة:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (34)**

فكان فرعون دائم الإنفاق منها، فكان رجلا كريما جدا، ولكن لم يكن إنفاقه ذلك المال في سبيل الله، وإنما من أجل خلوده إلى الأرض، فكانت نتيجته على النحو التالي:

- **ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (49)**

السؤال: لماذا تلبد الشياطين على المال (الذهب والفضة)؟

الفكر السائد: تصورات مفتراة جديدة

غالبا ما تناقل الفكر الشعبي الدارج فكرة وجود الكنوز من الذهب والفضة المخبأة في باطن الأرض، وفي الوقت ذاته فهم يتناقلون فكرة أن تلك الكنوز منظورة من قبل الجن، فلا يستطيع الناس الوصول إليها بسبب الجن التي ترصد تلك الكنوز. ونحن إذ نؤيد مثل هذا التصور الشعبي، إلا أننا نخالفهم في السبب الذي من أجله تقوم الجن بحراسة أو بحماية هذا المال، في محاولة منهم لمنع الناس من الوصول إليه. فالفكر الشعبي (والفكر العلمي الديني) لم يحاول البحث في أسباب قيام الجن بمثل هذا الفعل، وهو حراسة هذا المال، أو بكلمات أكثر دقة "لبد هذا المال". ففي حين أن الغالبية تؤمن بوجود الجن كحرس على هذا المال، إلا أنهم لا يجيبون على التساؤل المثير التالي وهو: لماذا تقوم الجن بذلك؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الجن تقوم بذلك في محاولة منهم لمنع الناس من الوصول إلى تلك الكنوز من الذهب والفضة.

السؤال: ما الفائدة التي يرجوها الجن أنفسهم من لبدهم لهذه الكنوز فلا تصل إليه أيدي الناس؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: ربما الأجدر بنا أن نحاول الإجابة على هذا التساؤل بعد طرح التساؤل المثير التالي: لم لا يقوم الجن أنفسهم بالاستفادة من تلك الكنوز؟ ولم لا يستخدمونها بأنفسهم؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نظن أن الجن لا يستفيدون أنفسهم من تلك الكنوز وإلا لكان الأولى بهم أن يستخدمونها بأنفسهم.

السؤال: وكيف يمكن للجن أن يستخدموا تلك الكنوز؟

جواب مفترى: نحن نظن أن المنطق يفرض علينا واحدا من سيناريوهين اثنين، وهما (1) أن يستفيد الجن بأنفسهم من تلك الكنوز (أي لفائدة تعود عليهم أنفسهم)، أو (2) أن يستخدموها للصد عن سبيل الله، فيوصلونها إلى الذين يدعون مع الله أحدا.

السؤال: هل فعلا يستفيد الجن أنفسهم من تلك الكنوز؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا. فلا فائدة مرجوة للجن من استخدام تلك الكنوز بأنفسهم.

سؤال: وهل يقدم الجن تلك الكنوز لمن يصد عن سبيل الله ويدعو مع الله أحدا؟

جواب: كلا وألف كلا. فالجن لا يقدمون الكنوز من الذهب والفضة للناس سواء كانوا مؤمنين بربهم أو كافرين بأنعمه.

السؤال: إذا كانت الجن لا تستفيد من تلك الكنوز بأنفسهم، وإذا كانوا لا يقومون بإيصاله إلى الذين يدعون مع الله أحدا (كما تزعم)، فلم إذن يقومون بلبد (أي حراسة) ذلك المال عن الناس أجمعين؟ يسأل صاحبنا مستغربا.

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نظن أن الجن تقوم بلبد المال (الذهب والفضة على وجه التحديد) فلا يصل إلى أيد الناس، لأن في وصول ذلك المال إلى أيد الناس تتحقق غايتان اثنتان، هما عكس إرادة الجن كلهم أجمعين.

السؤال: وما هما تلك الغايتان؟

جواب مفترى (1): نحن نظن أن بوصول الذهب والفضة إلى أيدي الناس تتحقق منفعة عظيمة للناس

جواب مفترى (2): نحن نظن أن بوصول الذهب والفضة إلى أيدي الناس تتحقق مضرة كبيرة جدا للجن

نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا: نحن نظن أن الحصول على الذهب والفضة يجلب منفعة عظيمة للناس كما يجلب في الوقت ذاته مضرة كبيرة للجن.

السؤال: ما هي المنفعة التي يمكن أن تتحقق للناس من الحصول على الذهب والفضة؟ وما هي المضرة الكبرى التي ستحصل للشياطين عندما تصل أيدي الناس للذهب والفضة؟

باب كنوز الذهب والفضة

لعل السؤال الأكبر وربما الأخطر الذي نحاول الوصول إليه بعد هذا النقاش المطول عن مال فرعون الممدود هو: ما سر الذهب والفضة؟ ولماذا يكون الذهب على وجه التخصيص هو المعدن الأنفس في الوجود؟ وما سر تصارع الحضارات للحصول عليه؟ وما السر الذي يجعل الناس جميعا راغبين فيه؟

الفكر الشعبي الدارج: لعل أكثر الإجابات على هذا السؤال تداولا حتى الساعة هو أن قيمة هذا المعدن تكمن في قلة وفرته، أي لندرته. فلقد درج العامة من الناس على الظن (ربما بسبب أفهام أهل الدراية من قبلنا) بأن هذا المعدن النفيس قليل الوجود في الطبيعة، ومن هنا جاءت (برأيهم) أهمية هذا المعدن، أليس كذلك؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نرفض مثل هذا التبرير جملة وتفصيلا لسبب بسيط وهو أن هناك معادن أخرى في الطبيعة أكثر ندرة من الذهب. فالذهب متواجد في الطبيعة بكميات هائلة؛ فالأفراد يملكون منه الكثير، والحكومات تخزّن الآلاف الأطنان منه. ولو أن الندرة هي المحك الرئيسي في ذلك لقلت أهميته ولخفت شهوة الناس في الحصول عليه. فلم لا يتسابق الناس للحصول على البلاتينيوم أو على الزئبق مثلا؟ أليست هذه المعادن أقل وفرة من الذهب في الطبيعة؟

لو تدبرت فعل الناس في أصقاع الأرض لوجدت أن الذهب مصاحبا على الدوام لحفلات الفرح، كالأعراس. فمهر العروس غالبا ما يتم تحديده بالذهب. فلم - يا ترى – نجد مثل هذه السلوكيات عند المجتمعات البشرية (وخاصة المجتمعات التي هي أقرب إلى البدائية منها إلى ما يسمى بالمجتمعات المتحضرة)؟

السؤال: لماذا إذن يتسابق الناس في الحصول على الذهب على وجه التخصيص؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن في الحصول على الذهب منفعة عظيمة جدا للناس.

السؤال: وما هي تلك المنفعة المرجوة من الذهب للناس؟ يسأل صاحبنا مستعجلا الإجابة.

جواب مفترى: نحن نظن أن الفائدة المرجوة من الذهب هي عكس المضرة التي تتحقق للجن عند حصول الناس عليه.

السؤال: وما هي المضرة التي تحصل للجن عندما يحصل الناس على الذهب؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نظن أن منفعة الإنس من الذهب هي نفسها مضرة الجن منه.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى الخطير جدا جدا: نحن نظن أن في استخدام الذهب حماية للإنس من الجن. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟ لم أفهم شيئا. يقول صاحبنا مستغربا.

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الجن تقوم بلبد الكنوز (الذهب والفضة) حتى لا يصل إلى أيد الناس لأن في وصوله إلى أيديهم حماية لهم من خطر الجن.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن الناس الذين يلبسون الذهب والفضة، إنما يتخذون لأنفسهم من تلك المعادن النفيسة دروعا واقية لهم من خطر الجن. فخطر الجن على الإنس يخف (وربما ينعدم) عندما يحصن الناس أنفسهم بهذا المعدن النفيس.

السؤال: وأين الدليل على ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الدليل يمكن أن يجلب من حب النساء لهذا المعدن النفيس، والسر الذي يحدثه هذا المعدن في نفس المرأة التي تتزين به. وهو ما سنتحدث عنه بتفصيل أكبر لاحقا بحول الله وتوفيقه.
لكن السؤال الذي نود إثارته الآن لمتابعة النقاش في النقطة ذاتها هو : لماذا يحاول الجن أن يحجزوا الذهب، فيحولوا دون وصول الناس إلى هذا المعدن؟

رأينا المفترى: لأن في استخدام الذهب يفقد الجن كثيرا من فاعليتهم في التأثير على الناس.

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب مفترى: نحن نظن أن أول الأسباب في ذلك يعود إلى اللون. فالذهب بلونه الأصفر اللامع يصد الشياطين، فلا يقتربون من الذهب. فالجن (نحن نخرص) تهاب اللون الأصفر، ولا ترتاح لوجوده. فهو مؤذ لهم.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا: نحن نظن أن الشياطين من الجن هم من المكذبين، الذين يكذبون بيوم الدين، فهم الذين ظنوا كما ظن كثير من الإنس أن الله لن يبعث أحدا، وهم الذين يريدون الدعوة إلى ألهة أخرى مع الله:

- **وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (6) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (7) وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (8) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (9)**

لذا، فإن جزاءهم هو العذاب الذي سيقع بهم لا محالة. ولما كانت الشياطين مخلوقة من نار:

- **وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (27)**

كان لابد من وجود آلية العذاب التي تناسبهم، فكانت آلية تعذيبهم في الحياة الدنيا تتمثل في الشهاب الرصدا الذي سيكون جاهزا لكل من يقعد منهم مقاعد للسمع:

- **وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (8) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (9)**

ولا شك أن آلية تعذيبهم في جهنم هي على نحو ما تصوره الآيات الكريمة التالية:

- **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (28) انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (29) انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (30) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (31) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (32) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (33)**

ولو دققنا في طبيعة تلك الشهب، وحاولنا التفكر في طبيعة تلك الشرر التي تُرمى بها الشياطين في جهنم، لوجدنا بأنها صفراء اللون:

- **إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (32) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (33)**

السؤال: ما علاقة هذا بالذهب الذي تهابه الجن؟

رأينا: لما كان الذهب هو معدن أصفر اللون، يخرج منه بريق (أشعة)، تخطف الأبصار، يحصل الظن عند هؤلاء الجن بأن هذا الذهب هو مصدر عذابهم (أي الشهب و الشرر)، لذا فهم يهابونه، ويحاولون أن يتجنبوه. لا بل ويبذلون قصارى جهدهم أن لا تصل أيدي الناس إليه. لذا فهم اللذين يلبدون ذلك المال.

السؤال: إذا كان الجن يلبدون الكنوز من الذهب والفضة، فيشكلون ما يشه الحاجز الذي يمنع الناس من الوصول إليهما، فلم لا يؤذيهم ذلك المعدن ماداموا يحرسونه؟ يسأل صاحبنا مستغربا.

تخيلات مفتراة: نحن نتخيل أن الجن لا تقترب من تلك الكنوز، بل تقوم فقط بحراسة المكان الذي يتوافر به تلك المعادن النفيسة، لكنهم لا يقتربون منها بأنفسهم، ولتبسيط الفكرة، فإن مهمتهم تشبه مهمة حارس البنك. فحارس البنك يقبع خارج مبنى البنك، وتكون مهمته أن يمنع الناس من الاقتراب إلى المال الموجود داخل البنك، لكنه لا يستطيع هو بنفسه (حتى وإن كان هو الحارس للمال) أن يصل إلى المال. فمهمته تبقى في مراقبة المكان الذي يتوافر به المال دون القدرة على الوصول بنفسه إليه. وهذا (نحن نتخيل) ما تقوم به الجن: إنها مهمة الحراسة فقط.

السؤال: كيف استطاع فرعون أن يخترق حاجز الجن للوصول إلى المال الممدود؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لو حاولنا إمعان التفكر في شخص فرعون الذي نجد النقوش والجداريات تصوره كثيرا، لوجدناه مغرما بالذهب، فلباس فرعون وقناعه، وغطاء رأسه وحتى نعل رجليه مصنوعة جميعها من الذهب الخالص. انظر الشكل التوضيحي التالي:



Source:

ليكون السؤال الآن: ما سر غرام فرعون بالذهب؟ ولماذا كان فرعون يغطي جسمه (تقريبا كاملا) بالذهب؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن (ربما مخطئين) بأن فرعون كان على دراية تامة بمفعول الذهب السحري، والتأثير الحقيقي الذي يحدثه الذهب في الشياطين. فحتى يق فرعون نفسه من خطر هذه الكائنات اللامرئية:

- **يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ (27)**

كان لزاما عليه أن يحصّن نفسه منها بالدرع الواقعي المصنوع من الذهب الخالص.

السؤال: وأين الدليل على أن فرعون كان يحمي نفسه بالذهب؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نجد الدليل على هذا الظن في الآية الكريمة التالية (كما فهمناها):

- **فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53)**

ففرعون يتحدى خصمه بأنه لم يلق عليه أسورة من ذهب، وذلك لأنه هو نفسه قد ألقي عليه أسورة من ذهب. فما هي الأسورة التي ألقيت على فرعون؟ نحن نسأل.

رأينا المفترى: نحن نجد لزاما أن نعاود البحث في معنى مفردة الأسورة من ذهب التي ألقيت على فرعون. فلا شك عندنا أن أسورة فرعون كانت من الذهب الخالص (أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ)، لكن هذا لا يمنع أن نتساءل عن الأسورة نفسها: فما هي الأسورة التي ألقيت على فرعون أصلا؟

رأينا المفترى: نحن نرفض جملة وتفصيلا الفهم الشعبي الذي صوّر لنا الأسورة على نحو تلك الحليّ التي تلف المعصم من اليد كما في الشكل التالي:




Source

وذلك لسبب بسيط وهو أن هذا النوع من الحلي لا تلبس بطريقة الإلقاء، بينما جاء بصريح اللفظ القرآني بأن أسورة فرعون تلبس بطريقة الإلقاء (فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ)، أليس كذلك؟

السؤال: كيف يمكن أن يتم إلقاء الأسورة من ذهب على شخص كفرعون مثلا؟

رأينا: نحن لا نستطيع أن نتخيل شخصا يلبس الأسورة من ذهب (بمعناها الشعبي الدارج) بطريقة أن تلقى عليه إلقاء، لأن الإلقاء يتم من فوق إلى تحت كما فعل موسى بعصاه:

- **فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (107)**

أو كما فعل السحرة عندما ألقوا حبالهم وعصيهم:

- **قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (43) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (44)**

أو كما ألقي السحرة أنفسهم ساجدين:

- **فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (46)**

السؤال: كيف يمكن لنا أن نتخيل إذن طريقة إلقاء الأسورة من ذهب على فرعون؟

رأينا المفترى: نحن نظن أننا نستطيع تخيل ذلك ببساطة إن نحن غيّرنا مفهومنا الشعبي لمفردة الأسورة، فبدل أن نفكر بأنها ما يلف المعصم من اليد، فلا مانع – برأينا- أن نرى أن الأسورة على أنها ما يلف الجسد كله، أي هي أشبه ما تكون بالعباءة التي تلبسها المرأة، أو تلك التي يلبسها المسنون في بلادنا، كهذه التي يظهر فيها تمثال فرعون في الشكل التالي:



الدليل

بداية، نحن نظن أن مفردة الأسورة تدل على ما يلبسه شخص واحد كفرعون مثلا. لذا فهي كلمة بصيغة المفرد (كما يحب أهل اللغة أن يسمونها). لذا، فالمفردة تجمع – برأينا- على نحو أسارو، وهي ما نجده في السياقات القرآنية الخاصة بما يلبسه من كان ذو حظ عظيم من أهل الجنة:

- **أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (31)**
- **إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (23)**
- **جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (33)**
- **عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (21)**

إن أول ما يتبادر للذهن هو الربط بين وجود الجنات التي تجري من تحتها الأنهار ولبس الأساور من ذهب. ففرعون كان يلبس الأسورة من ذهب لأن جناته كانت تجري من تحتها الأنهار:

- **وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51)**

الدليل

سنحاول أن نجلب مجموعة من المشاهدات التي نظن بأنها تدعم افتراءنا (ربما غير المسبوق) بأن للذهب فاعليه كبيرة في صد خطر الشياطين.

أولا، ربما لم يحاول الكثيرون البحث في الأسباب التي تجعل النساء على وجه التحديد أكثر رغبة من الرجال في التحلي بالذهب والفضة. فنحن نعلم جميعا مقدار الحب في أنفس النساء للذهب. ولعل من الصعب على الرجل أن يفهم السر الذي ينطوي عليه حب النساء (على العموم) لهذا المعدن النفيس. فمهما كانت المشكلة بين الرجل وزوجته، فإن قطعة صغيرة من الذهب (كهدية بعد خصام) كفيلة بأن تنهي الخلاف، وتعيد المياه إلى مجاريها الطبيعية. لكن الغريب في الأمر أن الرجال يعرفون مثل هذه السلوكيات ولكنهم ربما لا يفقهون علّتها. وكثيرا ما يصعب على المرأة التي لا تخفي حبها العظيم للذهب أن تبرر للرجل سبب حبها لهذا المعدن النفيس. فالمرأة لا تستطيع أن تعبر بالكلمات عن ما يعتريها من شعور عند لبسها لقطعة من الذهب، والرجال لا يستطيعون أن يتفهموا مثل هذا الشعور الغريب بالنسبة لهم عند النساء.

السؤال: لماذا يدخل الذهب البهجة والسرور إلى نفس المرأة؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لأن هذا المعدن هو معدن نفيس. انتهى.

السؤال: لم هذا المعدن هو معدن نفيس؟ وما معنى أنه نفيس؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لأن هذا المعدن يهدئ من غضب المرأة ويرفع من طاقتها الإيجابية ويحد من طاقتها السلبية. فهو معدن له تأثير في نفس المرأة. انتهى.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى الخطير جدا جدا: لأن هذا المعدن هو كابح لجماح الجن. فالمرأة التي تتحلى بالذهب إنما تلبس درعا يقيها من ثورة الوسواس الخناس.

السؤال: وأين هو إذن ذلك الوسواس الخناس؟

جواب مفترى: إنه في صدور الناس:

- **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلَهِ النَّاسِ (3) مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (4) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5) مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ (6)**

تخيلات غريبة جدا جدا: لما كان الناس (أي من بلغ النكاح من الرجال) لا يلبسون الذهب، فهم إذن أكثر عرضة لخطر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدورهم. ولما كانت النساء على عادة لبس الذهب فهن إذن أكثر حماية لأنفسهم من خطر ذلك الوسواس الخناس. فالناس (أي من بلغ سن النكاح من الرجال) هم "ألعوبة" (أي أراكوز بالمفردات المصرية) في أيدي الوسواس الخناس، وذلك لأن هذا الوسواس الخناس يستطيع النفاذ إلى صدور الرجال التي لا تزينها قطع الذهب، على عكس النساء اللاتي يكسو صورهن قطع الذهب المتنوعة. فوجود قطعة من الذهب على صدر المرأة كفيل بأن يبعد عنها ذلك الوسواس الخناس فلا ينفذ إلى صدرها. انتهى.

السؤال: هل الذهب ممنوع لبسه من قبل الرجال؟ وهل الذهب فعلا حلال لنساء المؤمنين حرام على رجالهم كما جاءنا في الأثر؟

رأينا المفترى: بداية، لابد لكل قارئ لهذه الصدور أن يدرك الغاية من نقاشنا هنا، فنحن لا نقدم للناس فتاوى دينية، ونحن لا نحرم ولا نحلل، ولكننا نناقش، فجميع افتراءاتنا (السابقة واللاحقة منها) تقع تحت مظلة النقاش العلمي البحت الذي يهدف فقط إلى الوصول إلى الحقائق العلمية، لا غير. لذا فقولنا لا يعدو أن يكون أكثر من رأي فكري قابل للخطأ والصواب. لذا نجد لزاما التنبيه إلى عدم جر كلامنا هذا تحت باب الفتاوى الدينية، فنحن لسنا أهلا لذلك، ونحن بالتأكيد لسنا مصدرا للفتاوى الدينية، ولكننا مصدر للتخريصات الفكرية لمن أراد أن يذهب معنا في هذه رحلة غريبة ربما لا ندري إلى أين ستنتهي بنا محطاتها.

أما بعد،

السؤال: هل فعلا لا يحق للرجال لبس الذهب على وجه التحديد؟

رأينا: لما كنا مشغولين في البحث في كتاب الله فقط، فإننا لم نجد فيه بعد الدليل القاطع على حرمة الذهب على الذكور من المؤمنين. فبإتباع القاعدة الفقهية التي تنص على أن الأصل في الأشياء هو الإباحة، ولا يجوز التحريم إلا بنص، فنحن نطالب أهل الدراية أن يقدموا لنا النص الذي يحرم الذهب على ذكور المؤمنين. وفي الوقت ذاته نحن نجد أن الأمر من الجدية بمكان أن يرد تحريمه بنص صريح في كتاب الله كتحريم الخمر أو لحم الخنزير أو نكاح الأم والأخت ونحو ذلك. فمن غير المستساغ عندنا أن يأتي تحريم الخمر أو الميتة أو الدم أو لحم الخنزير بنص واضح صريح، ولا يرد مثل ذلك بخصوص تحريم الذهب على الذكور من المؤمنين.

وإذا كان التحريم قد ورد بنص حديث مرفوع إلى النبي الكريم، فهذا إذن من شأن المشتغلين بعلم الحديث وهو ما لا نجيده إطلاقا.

السؤال: من أين جاءت قصة تحريم الذهب على ذكور الأمة إذن (إن صح ما تقول)؟ يسأل صاحبنا مستغربا.

جواب خطير جدا جدا لا تصدقوه: نحن نظن أن الذين تصدوا (من أهل الدين) لتبيان ما في الكتاب للناس لم يكونوا جميعا – برأينا- من الذين أخلصوا الدعوة لله. فلم يكن هدف هؤلاء (أو ربما فئة منهم) تبيان الحقيقة التي يتم من خلاها نور الله على الجميع، بل نحن نتجرأ على القول بأن هدف بعضهم كان إطفاء نور الله بأفواههم، فثلة منهم هم من جعلوا الكتاب قراطيس يبدونها ويخفون كثيرا منها، كما فعل معلموهم من علماء أهل الكتاب:

- **وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (91)**

السؤال: ما الذي فعله هؤلاء؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن بعض أهل الدين الذي تصدوا لتبيان آيات الكتاب للناس كانوا على دراية بأهمية الذهب، وربما يعون ما يمكن أن يتحصل للمؤمنين من خير لو أنهم فقهوا سر هذا المعدن النفيس، لذا كان هدفهم هو أن لا يقع هذا المعدن النفيس في أيدي المؤمنين ليستفيدوا منه، فما كان منهم إلا أن يخترعوا عقيدة هي – برأينا- من عند أنفسهم- تحرم على المؤمنين الذهب، وبالتالي تحجزهم عن الاستفادة منه كما يجب. فخرجوا لنا بفقه هو أقرب إلى فعل الشياطين منه إلى الحق المبين، فأوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا:

- **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (112)**

فهؤلاء – برأينا- هم شياطين الإنس الذين أوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا. فهم الذين يفترون على الله الكذب، فيحلّون بعض ما حرم، ويحرمون بعض ما أحل الله، حتى التبست الصورة على الناس، فما عادوا يميزون فعلا بين ما هو حلال عن ما هو حرام، وهم بالتأكيد (نحن نفتري القول) لا يعون فقه هذا ولا فقه ذاك. فلو سألت أحدهم عن المقصد من تحليل الذهب على نساء المؤمنين وتحريمها على ذكورهم (كما افتروا ذلك من عند أنفسهم)، لما وجدت أن لديهم أجوبة تقنعهم أنفسهم بما يقولون. ومن أراد أن يجادل فليرجع إلى بطون تلك الكتب لينهل من غزير العلم فيها. أما نحن فما وجدنا ضالتنا عندهم، لذا وجدنا أن البحث بعيدا عنهم هي الطريقة الأمثل للوصول إلى غايتنا المنشودة.

بعد أن ندعو الله وحده أن يؤتينا رشدنا وأن يهدينا إلى نوره، فنقتبس منه، فنكن في أنصاره، ليجعل كلمةَ الذين كفروا السفلى، وكلمتُه هي العليا، فيخرجنا بها من الظلمات إلى النور بإذنه، إنه هو العلي العظيم – آمين.

باب حب النساء للذهب: (الوسواس الخناس)

لعلى لا أحتاج إلى كثير عناء في تسويق حب النساء على وجه التخصيص للذهب. فغرام المرأة بالذهب لا يمكن إنكاره في كل المجتمعات وعلى مر العصور. ولعل الفكر الشعبي (المتخم بالفكر الديني المحرّف) لا يفسر لنا – كما أسلفنا- سر تعلق النساء على وجه التحديد بهذا المعدن النفيس. فالمرأة لا تستطيع أن تتلفظ بكلمات معبرة تماما عن ما يجول في نفسها عند لبسها للذهب، ولا يستطيع الرجال بالمقابل تفهم سر حب النساء لهذا المعدن وتعلقهن به. ليكون السؤال المحوري هو: ما الذي يحصل عندما تلبس المرأة الذهب؟ أو بكلمات أكثر دقة نحن نسأل: ما الذي يتغير في طبيعة المرأة عندما تلبس قطعة من هذا المعدن الثمين (أو بكلمات أكثر دقة هذا المعدن النفيس)؟

رأينا: لا شك عندنا أن التغير الذي يحصل عند المرأة عندما تلبس قطعة من الذهب هو حدوث تغير في نفسيتها. فتأثير الذهب مباشر على النفس، ولكن كيف يكون ذلك؟

أولا، نحن نعلم أن الإناث (ككينونات) قد خلقن من أنفس أزواجهن:

- **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (21)**

فجل المرأة (ككيان مادي) مكوّن من عنصر واحد هو النفس، لذا فإن تأثير هذا المعدن على المرأة هو أكبر من تأثيره على زوج المرأة، لأن زوج المرأة مكون من عنصرين، وهما (1) الشخص و (2) نفسه:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (6)**

لهذا يجب أن نميز بين الذكر والأنثى كما افترينا في أجزاء سابقة من مقالاتنا المتعددة، ففي حين أن الأنثى هي درجة واحدة، فإن للذكر عليهن درجة:

- **وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوَءٍ وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُواْ إِصْلاَحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكُيمٌ (228)**

ولهذا جاء تقسيم الميراث للذكر مثل حظ الأنثيين:

- **يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيما حَكِيمًا (11)**
- **يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُواْ إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاء فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (176)**

ولهذا جاءت شهادة الرجل لتقابل شهادتين من النساء:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ**

يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيرًا أَو كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (282)

ولهذا كان الرجل صاحب قرار في طلقتين اثنتين قبل أن تكون المرأة هي صاحبة القرار في النكاح من بعد ذلك:

- **الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (229) فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىَ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (230)**

نتيجة مفتراة: لما كانت المرأة كلها نفس، كانت آلية وقايتها من الشيطان سهلة، فالمرأة التي تزين صدرها بقطعة من الذهب، إنما هي تكبح بذلك الشيطان، فلا يقترب منها، وبالتالي فهي تكبح جماحه وتأثيره عليها. وليس أدل على ذلك من الفارق في الرغبة الجنسية عند الذكر مقابل الرغبة الجنسية عند الأنثى. فالشيطان لا يستطيع أن يوقع المرأة في شراكه من هذا الباب. وما رغبة المرأة في الجنس إلا تلبية لحاجة شريكها (وسنتحدث عن هذا الموضوع بالتفصيل بحول الله وتوفيقه عندما يصل بنا الحديث إلى موضوع الشجرة التي أكل منها أدم وزوجه. فالله أسأل أن يعلمني من لدنه علما لا ينبغي لغيري، إنه هو الواسع العليم.

إن ما يهمنا قوله هنا هو أنه مهما حصل من خلاف بين الرجل وزوجته، فإن الرجل الحصيف (من مثلي) يستطيع أن يهدئ من نفسية زوجته بتقديم هدية بسيطة لها تتمثل بقطعة من الذهب كلما كان على ذلك مقتدرا، وإن تعذر له ذلك، فيستطيع أن يقدم لها هدية حتى من الذهب المغشوش، لكن النتيجة ستكون مرضية في معظم الحالات.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هدية من الذهب تستطيع أن تهدئ من نفسية المرأة لأن ذلك سيكون خط الدفاع الأقوى لها ضد فعل الشيطان. فما أن تمسك المرأة قطعة الذهب حتى تهدأ نفسيتها، وتتغير طباعها فورا من الثوران والغضب إلى الهدوء والسكينة. فالشيطان الذي أشعل فتيل الأزمة بين المرء وزوجه سيولي مدبرا بمجرد حضور الذهب:

- **وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ (102)**

فالشياطين (نحن نفتري القول) هم الذين تعلموا ما يفرقون به بين المرء وزوجه (فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ)، وهم الذين تعلموا ما يضرهم ولا ينفعهم (وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ)، فهم إذن الذين تعلموا – برأينا- سر الذهب الذي يضرهم ولا ينفعهم، وهم (نحن نفتري القول من عند أنفسنا)

الذين شروا أنفسهم بالذهب حتى لا يكن وبالا عليهم (وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ)، فعمدوا إلى لبد الذهب، فقيدوا أنفسهم عنده (أي رصدوه) حتى لا يقع في أيدي الناس فيكون عليهم وبالا وعذابا.

لكن الصورة تبدو على عكس ذلك عند الرجال. فالخلاف الذي نشب بين المر وزوجه، والذي كاد أن يؤدي بهم إلى الفرقة، وكان سببه الشياطين، يسكت تماما عند المرأة بمجرد حصولها على قطعة من الذهب. ولكن هذا الخلاف لا يسكت تماما عند الرجل، فنفسية الرجل تبقى غير راضية حتى وإن توقف الخلاف، وذلك لأن الرجل لم يلبس الذهب، فما تخلص من تلك الشياطين التي ركبته، ولا تنفك توسوس له.

السؤال: أين تقبع تلك الشياطين عند الرجال؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الشياطين عند الرجال تقبع في صدورهم، فالشياطين (نحن نتخيل) جاثمة على صدور الناس (أي الرجال البالغين المكلفين)، بدليل قوله تعالى:

- **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلَهِ النَّاسِ (3) مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (4) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5) مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ (6)**

فهناك إذن الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس (أي من بلغ سن النكاح من الرجال)، وهذا الوسواس الخناس الذي يولي هاربا عن صدر المرأة الذي تزين بالذهب ظل جاثما في صدر الناس الذين ما استفادوا من هذا المعدن النفيس، ولا يمكن أن ينفك تأثيره إلا بآيات الله المتلوة. فهذه الآيات الكريمة السابقة هي برأينا آيات منسوخة بالتلاوة، لها من الفاعلية في صدور الناس ما للذهب من فاعليه في صدور النساء. انتهى.

نتيجة مفتراة (1): يتم طرد الوسواس الخناس عن الأنثى بقطعة من الذهب
نتيجة مفتراة (2): تتم هزيمة الوسواس الخناس من صدور الناس (الذكور) بهذه الآيات المتلوة.

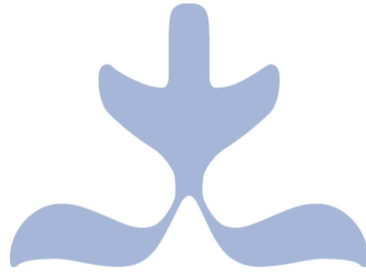
ثانيا، هل الذهب محرم على الذكور من المؤمنين؟

ولو تدبرنا حال الناس (أي الرجال) الذين يكنزون الذهب، لوجدنا أن نفسيتهم ترتاح بمجرد الحصول عليه، وكلما تحصل له من كنوز الذهب أكثر كلما هدأت نفسيتهم أكثر.

سنتحدث في الأجزاء القادمة عن سر تلك البقرة الصفراء الفاقع لونها التي تسر الناظرين.

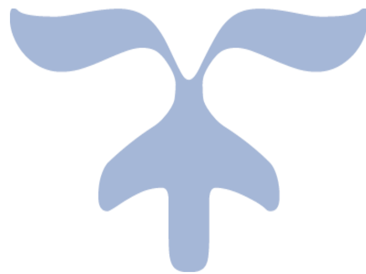
اللهم أدعوك وحدك أن تعلمني علما لا ينبغي لغيري إنك أنت العليم الحكيم – آمين.

المدّكرون: رشيد سليم الجراح & المهندس يزن علي سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان
بقلم د. رشيد الجراح
10 أيار 2016



قصة يونس

الجزء الثامن والثلاثون



قصة يونس – الجزء الثامن والثلاثون

افترينا الظن من عند أنفسنا في الجزء السابق من هذه المقالة بأن الشياطين الذين كفروا قد شروا أنفسهم بما يضرهم ولا ينفعهم. وكان ذلك الثمن هو الذهب، وذلك لأن الذهب هو المعدن النفيس الذي يضر الشياطين ولا ينفعهم:

- **وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ (102)**

ويكمن ضرهم في أن الذهب يشكل خط دفاع قوي ضد فعل الشيطان. ولكي لا يفقد الشياطين قدرتهم في التأثير بالناس كان لابد لهم من أن يقوموا بلبد الذهب، أي بتشكيل ما يشبه الحاجز الذي يمنع الناس من الوصول إلى هذا المعدن النفيس.

وجلبنا الدليل على ذلك من مفعول الذهب العجيب في المرأة. فما أن تزيّن المرأة جسمها بقطع الذهب اللامع حتى تهدأ نفسيتها، وتتغير طباعها فورا إلى الهدوء والسكينة. وزعمنا الظن أن السبب في ذلك يعود إلى عدم اقتراب الشياطين من الهالة التي يكوّنها الذهب حول جسم المرأة التي تتزين به. فلو تدبرنا سلوكيات النساء بالتزين بالذهب في كل المجتمعات وعلى مر العصور، لوجدنا فيه من الغرابة ما يدعو للتدبر. فالنساء تتحلى بالذهب بلبسه في الأيدي والأرجل وعلى الصدور، لا بل وفي الآذان، وتظهر عادات التثقيب (أو piercing بالمفردات الأجنبية) على كل فتحات الجسم، كالأنف والحواجب التي تعلو العينين، وشفاه الفم، وحتى المناطق الحساسة في الجسم كالأعضاء التناسلية. ونحن نحاول الترويج لافترائنا بأن هذا لا يقع في باب المصادفة، بل هو فعل مقصود لذاته (وإن كنا لا نفقه كثيرا علّته). وربما يعود السبب في ذلك – برأينا- أن المرأة تحاول تحصين فتحات الجسم التي يمكن للشياطين أن تنفذ إليها من خلالها. فمجرد وجود قطعة من الذهب على أي عضو من أعضاء جسم المرأة كفيل بأن يبعد خطر الشيطان عنها، فلا ينفذ إليها من خلال ذلك العضو من جسمها.

وأول ما يصدّ خطر الشياطين في الذهب هو لونه الأصفر اللامع الذي يسرّ الناظرين. فهذا اللون الأصفر الفاقع هو ما يخيف الشياطين لظنهم بأن هذا من نوع العذاب الذي يقع عليهم كخطر الشهاب الرصد الذي يمنع الشياطين من استراق السمع في الملأ الأعلى:

- **وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (8) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (9)**

و ك لون العذاب الذي سيقع عليهم في جهنم:

- **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (28) انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (29) انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (30) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (31) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (32) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (33)**

فالشرر الذي تُرمى به الشياطين في جهنم هو من النوع ويكأنه (جِمَالَتٌ صُفْرٌ). فهذا اللون الأصفر هو ما تهابه الشياطين فلا تقترب منه. وليس أدل على ذلك – برأينا- من تلك البقرة الصفراء الفاقع لونها التي تسرّ الناظرين:

- **قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (69)**

فنحن نفتري الظن بأن اللون الأصفر الفاقع هو واحد من أسرار اختيار تلك البقرة التي طلب موسى من قومه أن يذبحوها:

- **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (67)**

فواحدة من أسباب وقوع الاختيار على تلك البقرة بذاتها كان – برأينا – لونها الأصفر الفاقع، وذلك لأن تلك البقرة – نحن نفتري الظن- لم تكن عرضة لخطر الشياطين. فمادام أن تلك البقرة كانت صفراء فاقع لونها، كانت بمنأى (نحن نفتري الظن) عن خطر دخول الشياطين فيها. لذا كانت بقرة متطهرة من أذى الشياطين. ولو تدبرنا لون تلك البقرة، لوجدنا على الفور أنه السبب في أن تكون البقرة تسر الناظرين (إِنّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ). وليس هناك ما يسرّ الناظرين أكثر من لون الذهب الأصفر اللامع. فمجرد رؤية الذهب بلونه الأصفر اللامع يدخل السرور إلى قلب الناظرين. فالذهب بلمعانه الأصفر يشبه منظر ما زيّن الله به السماء:

- **وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (16)**

(وسنتحدث بشيء من التفصيل عن هذه البقرة لاحقا بحول الله وتوفيق منه، فالله وحده أدعوه أن يأذن لي الإحاطة بشيء من علمه فيها لا ينبغي لغيري، إنه هو الواسع العليم – آمين).

وافترينا القول من عند أنفسنا بأن مفعول الذهب العجيب في صدّ خطر الشياطين لم يكن ليفوت شخصا مثل فرعون، وهو الذي كان لآيات الله عنيدا. فاستفاد فرعون من هذا المعدن النفيس في جلب المنافع لنفسه. وتمثل ذلك بما نجده في الآيات الكريمة التالية (كما نفهمها):

- **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (16)**

فكانت تلك المنافع تتمثل في التالي:

⇐ منافع جسدية، فكان فرعون وحيدا

⇐ منافع مالية، فكان له مالا ممدودا

⇐ منافع عائلية، فكان له بنين شهودا

⇐ الخ.

وسنحاول في الفقرات التالية من هذه المقالة مناقشة هذه المنافع التي جلبها فرعون لنفسه بواسطة معرفته الدقيقة بقيمة هذا المعدن النفيس تباعا.

باب: ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا

حاولنا الترويج لافترائنا في الأجزاء السابقة بأن فرعون كان شخصيا وحيدا على نحو أنه كان من الناحية البدنية على أحسن ما خلق الله من حيث التقويم (أي البنية الجسدية). قال تعالى:

- **لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4)**

ليكون السؤال الذي نود إثارته في هذا السياق هو: لماذا لم يكن فرعون ليصاب بأذى؟ فلِم لَم يصب فرعون بنصب أو عذاب كما حصل مع نبي الله أيوب مثلا؟

- **وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (41)**

فلو تدبرنا هذه الآية التي جاءت لتبين لنا ما حلّ بـ نبي الله أيوب، لوجدنا أن الشيطان قد مسّ أيوب نفسه بنصب وعذاب. ليكون السؤال هو: كيف استطاع الشيطان أن يمس أيوب بنصب وعذاب ولم يمس فرعون ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الشيطان لم يكن ليستطيع أن يمس فرعون بأذى، وذلك لأن الشيطان كان تابعا لفرعون بدلا أن يكون فرعون فريسة سهلة له:

- **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175)**

ولو تدبرنا هذه الآية في سياقها الأوسع لوجدنا أن فرعون قد استطاع أن يستفيد من سيطرته على الشيطان من أجل هدف واحد، ألا وهو الخلود إلى الأرض. وانظر – إن شئت – الآية نفسها في سياقها الأوسع:

- **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176)**

ليكون السؤال هو: كيف استطاع فرعون الخلود إلى الأرض؟

رأينا: لو تدبرنا الآية الكريمة التالية، لوجدنا أن الخلود إلى الأرض يتطلب وجود المصانع:

- **وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129)**

السؤال: هل فعلا اتخذ فرعون مصانع من أجل الخلود؟

جواب مفترى: نعم، نحن نظن أن فرعون قد اتخذ مصانع للخلود، وليس أدل على ذلك – برأينا – مما جاء في الآية الكريمة التالية:

- **وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ (137)**

فهذه الآية الكريمة – كما نفهمها- تبين لنا بأن فرعون كان يقوم وقومه بفعل الصناعة، وهو ما دمره الله (بالإضافة إلى ما كانوا يعرشون) في نهاية المطاف (وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ).

السؤال: ما هي تلك المصانع التي اتخذها فرعون؟

جواب مفترى: لو تدبرنا الآية الكريمة التالية، لوجدنا فيها العجب:

- **وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (88)**

السؤال: لماذا كانت الجبال على وجه التحديد هي صناعة الله؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الهدف من الصناعة هو النجاة، كما فعل نوح عندما صنع الفلك:

- **وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (37)**

فالسفينة هي أداة النجاة من الغرق، وهي سبب مباشر في وراثة الأرض لمن نجا مع نوح من المؤمنين:

- **حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (40)**

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: كان آل فرعون يصنعون ما يشبه الجبال، وذلك من أجل استخدامها بهدف الخلود إلى الأرض.

السؤال: كيف يكون ذلك؟

رأينا: تحدثنا في الأجزاء السابقة من هذه المقالة عن سر الجبال في الأرض، وزعمنا القول بأن الجبال هي عبارة عن مستقطبات الروح، فهي إذن مخزن الطاقة الكونية للأرض، فالجبال تعمل على جمع الطاقة الكونية لتخزنها في قاعدتها، وذلك من أجل شحن كتلة الأرض، لذا فإن الأرض تسبح في الفلك بسبب هذه الطاقة المخزنة في الجبال. وبكلمات علمية نستطيع أن نتخيل الجبال ويكأنها بطاريات الشحن التي تشغل الجهاز كله. فوجود البطارية الممتلئة بالطاقة هي التي تشغل الجهاز كله، ونفاذ الطاقة من هذه البطارية يعني بالضرورة تعطل الجهاز كله عن العمل. فالجهاز لا يعمل إلا إذا وجد في بطاريته من الطاقة ما يكفي لتشغيله.

وبهذا الفهم نستطيع أن نستوعب سر حركة الأرض كلها، فالأرض لا تتحرك بفعل الجاذبية التي تحدث عنها أهل المعرفة في مؤلفاتهم العلمية، وليس أدل على ذلك من أن هذه الجاذبية المزعومة تتلاشى بمجرد الخروج من مجال الكتلة. فلو أن هناك قوة جاذبية بين الأرض والشمس مثلا، لصار لزاما أن الجسم الصغير الذي يخرج من نطاق جاذبية الأرض مثلا سيقع فريسة لجاذبية الشمس نفسها. فمادام أن الشمس قادرة على جذب كتلة عظيمة كالأرض، فتبقيها في مجالها، فهي إذن لا تعجز عن جذب كل كتلة تخرج من نطاق الأرض إليها. فلو صح ما قاله أهل الدراية من العلماء، فإن من البديهي أن أي جسم صغير سيخرج من الأرض لن يستطيع أن ينفذ من جاذبية الشمس، ولظل كل جسم خرج من نطاق محيط الأرض منجذبا (لا بل ومحكوما) بجاذبية الشمس، فلا يستطيع أن يفلت منها. ونحن نثير التساؤل التالي: إذا كانت الأرض لا تستطيع أن تفلت من جاذبية الشمس لها (كما زعم أهل المعرفة)، فلم تفلت الأجسام الصغيرة (كالمركبات الفضائية مثلا) من جاذبية الشمس لها؟ هل يعني ذلك استحالة الفرار من جاذبية الشمس لكل الكتل التي تقع في محيطها؟

رأينا: نحن نظن أن هذا غير صحيح، فليس هناك جاذبية للشمس، وليس هناك جاذبية للأرض، وليس هناك علاقة جذب بين تلك الكتل، ولكن هناك قوة ذاتية محركة لكل كتلة. فالأرض تخزن فيها طاقة كافية لتحريكها، وكذلك الشمس (وكل الأجرام السماوية). والجبال هي – برأينا المفترى- مخزن تلك الطاقة للأرض، بدليل أن الجبال هي مصدر الحركة:

- **وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (88)**

فالجبال (وليس الأرض) هي مصدر الحركة، وهذه الجبال تتحرك – برأينا – بسبب الطاقة المخزّنة فيها، ومادام أن الجبال هي التي تتحرك كحركة السحاب المسخر بين السماء والأرض، فإنها تدفع بالكتلة كلها (أي الأرض) لأن تتحرك معها. وقد جلبنا سابقا الدليل على أن الجبال هي مستقطبة تلك الطاقة المشغلة للحركة من قصة الطير التي طلب الله من إبراهيم أن يصرهنّ إليه ويجعل على كل جبل منهن جزءا:

- **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (260)**

فالطلب الإلهي من إبراهيم أن يضع تلك الطيور التي صرهنّ إليه على الجبال يعزى – برأينا- إلى أن الجبال هي مستقطبات تلك الطاقة، فما أن وضع إبراهيم تلك الطيور على الجبال حتى تم شحن أجسادها بالطاقة، فعادت إليها الحياة، فإذا بها تسعى من جديد كما كانت تسعى من ذي قبل.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن الطاقة التي تستقطبها تلك الجبال من الكون الخارجي هي عبارة عن الروح. انتهى.

السؤال: ما علاقة هذا بمصانع الخلود التي كانت لفرعون وقومه؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن فرعون وقومه كانوا على علم بوجود هذه الطاقة الكونية (أي الروح)، وأن هذه الروح هي بمثابة الطاقة المشغلة للكون بأكمله. فعمدوا إلى اتخاذ المصانع التي توفر لهم تلك الطاقة بطريقة التجميع من الفضاء الخارجي، وما أن يتم توفير تلك الطاقة حتى يتم استخدامها من أجل الخلود.

السؤال: ما هو الخلود؟

لعلنا لا نحتاج إلى جهد كبير لتسويق ظننا بأن الخلود هو النقيض للفناء (أو الهلاك). فمن هلك فهو الذي خسر الخلود، ولابد لمن أراد الخلود أن يتغلب على مسألة الفناء. لكن كيف له ذلك؟

رأينا: نحن نفتري الظن بأن الإنسان لا يهلك مادام أن في جسمه ما يكفي من الطاقة (أي الروح) التي تشغله. فما أن تنفذ تلك الطاقة (أي الروح) من الجسم حتى يكون مصير ذلك الجسم الحتمي هو الهلاك. فمن أراد لجسمه أن لا يهلك، فعليه أن يحافظ على مقدار من الطاقة تكفل له تشغيل هذا الجسم.

السؤال: لماذا لم تكن نهاية فرعون بالهلاك؟ ولِم لم يصب فرعون بمس من الشيطان؟

رأينا المفترى: لما كان فرعون يعلم كيف يستطيع أن يحافظ على مقدار الطاقة اللازمة لتشغيل جسمه، لم يكن ليصيبه الفناء (أي الهلاك)، ولما كان فرعون يعلم كيف يحافظ على شحن جسمه بتلك الطاقة، كان يستطيع أن يحفظ جسمه من أذى الشيطان. فلو أصاب فرعون الأذى من الشيطان، لاستطاع فرعون أن يشحن جسمه بكمية كافية من الطاقة كفيلة بأن تتغلب على أذى الشيطان من النصب والعذاب.

السؤال: كيف فعل فرعون ذلك؟

تخيلات مفتراة: نحن نتخيل أن ما كان فرعون قادرا على فعله هو على النحو التالي: عمد فرعون وقومه إلى بناء تلك المصانع التي غايتها الخلود. فكانت أشبه ما تكون بالجبال التي تستقطب الطاقة الكونية (أي

الروح). وما أن يصب أحد منهم بأذى حتى يتم شحن جسمه من جديد بكمية كافية من الطاقة اللازمة للتغلب على أذى الشيطان.

الدليل

نحن نفتري القول بأن آل فرعون كانوا يعيشون في جنات:

- **فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (59)**
- **كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (26) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (27) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (28)**

كما نفتري الظن من عند أنفسنا بأن من أبسط معاني العيش في الجنات هو عدم حصول المرض. فمهما تحصل للإنسان من رغد الحياة، فإن ذلك لن يرق إلى مستوى العيش في الجنات مادام خطر المرض يهدده. فما معنى أن تتحصل لك الزروع والمقام الكريم والنعمة التي لا يحصيها إلا الله مادام أن خطر الإصابة بالنصب والعذاب وارد؟ تخيل – عزيزي القارئ- طبيعة الحياة التي ستشعر بها لو أن كل رغد الحياة قد حيزت لك ولكن تنقصك الصحة الجيدة لتتمتع بما لديك من النعمة؟ فهل سيصبح لتلك الحياة معنى؟ وهل يمكن أن تصف حياتك بحياة من يعيش فعلا في جنات وعيون؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الله لم يكن ليصف حياة فرعون وقومه على نحو أنها جنات لو أن خطر الإصابة بالمرض وارد عندهم. ولا أظن أن فرعون نفسه سيستطيع أن يقنع من حوله بأنه هو ربهم الأعلى لو أنه كان واقعا تحت تهديد الإصابة بالنصب والعذاب (أي المرض).

فهذا إبراهيم يقر بأن الله هو الذي خلقه، فهداه، وأنه هو الذي يشفيه إن أصابه المرض:

- **الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80)**

ولكن كان فرعون - بالمقابل - يظن أنه هو نفسه الإله الأوحد لمن هم حوله:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)**

السؤال: أليس من ظن أنه إله قادر على أن يطعم ويسقي؟ أليس هو أيضا قادر على أن يشفي؟ ألا يدين بذلك لمن آمن بأنه إله له؟ ألم يكن فعلا فرعون يدين لملئه بأن يطعمهم ويسقيهم ثم إذا ما مرضوا أن يشفيهم؟!

رأينا المفترى: لقد استطاع فرعون – نحن نفتري الظن من عند أنفسنا- التغلب على مشكلة المرض (أي النصب والعذاب). فلا أظن أن فرعون سيستطيع أن يبرهن على أولوهيته لمن هم حوله بأقل من ذلك.

السؤال: كيف فعل ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن فرعون استطاع القيام بذلك بواسطة المال. انتهى.

السؤال: وكيف تغلب فرعون على مشكلة المرض بالمال؟

رأينا: نحن نظن أن الآية الكريمة التالية – كما نفهمها- تصور لنا ما فعله فرعون في هذا المجال:

- **يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا (6)**

السؤال: كيف أهلك فرعون ذلك المال اللبدا؟

رأينا: لو تدبرنا الآيات الكريمة التالية، لوجدنا أن المال هو واحد من مصادر الخلود:

- **الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (2) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (3)**

إن أبسط ما يمكن أن نستنبطه من هذه الآيات الكريمة أنها تتحدث عن شخص محدد وهو الذي جمع مالا وعدده، فحسب أن ماله هذا سيكون سببا في خلوده. ونحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن هذا ينطبق بشكل مباشر على فرعون نفسه. ولو تدبرنا هذه الآيات الكريمة في سياقها الأوسع لوجدنا أنها مرتبطة بوجود الشياطين، قال تعالى:

- **وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (1) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (2) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (3) كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (4) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (5) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (6) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (7) إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ (8) فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ (9)**

وربما يبادرنا القارئ الكريم بالتساؤل التالي: وأين ذكر الشياطين في هذه الآيات الكريمة؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن ذكر الشياطين قد جاء في المفردة الأولى من هذه السورة العظيمة، وهي مفردة (هُمَزَةٍ).

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا: نحن نفتري الظن بأن هذه الآية الكريمة تتوعد بالويل من كان هُمزة (وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ). فمن هو إذن من كان هُمزة؟

رأينا: لو تدبرنا هذه المفردة في السياقات القرآنية الأخرى، لوجدنا على الفور الآية الكريمة التالي:

- **وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (97)**

فـ للشياطين إذن هَمزات (بفتح الهاء)، ونحن نفتري الظن بأن هؤلاء الشياطين الذين لهم هَمزات (بفتح الهاء) هم أنفسهم هُمزات (بضم الهاء). فكل شيطان هو همزة بحد ذاته، وهو القادر على إحداث الهَمزات (بفتح الهاء).

ولو تدبرنا الآيات الكريمة التالية لوجدنا أن هناك من هو أيضا همّاز:

- **وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ (11) مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (13) أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (14) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (15)**

فهذا الهماز هو أيضا:

⇐ حلاف محين

⇐ مناع للخير

⇐ معتد أثيم

⇐ عتل

⇐ زنيم

⇐ كان ذا مال وبنين

⇐ كان ينعت آيات الله بأنها أساطير الأولين

السؤال: من هو هذا الشخص؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: هذه الصفات مجتمعة تصف – برأينا- شخصا واحد بعينه: إنه هو فرعون نفسه.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا: نحن نظن أن فرعون نفسه هو من كان ذا مال وبنين، بدليل قوله تعالى:

- **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (16)**

فهو إذن الشخص الذي تكفل الله بمواجهته شخصيا، بدليل قوله تعالى (ذَرْنِي). فلا أحد يستطيع مواجهة هذا الشخص مواجهة مباشرة والتصدي له إلا الله نفسه. فالله هو من طلب أن لا يعبث أحد آخر مع هذا الشخص في مواجهة مباشرة، لأن النتيجة ستكون لا محالة لصالح هذا الشخص. وبهذا المنطق المفترى من عند أنفسنا نستطيع أن نتخيل مقدار ما كان يملك فرعون من بطش.

والآيات الكريمة تبين لنا (كما نفهمها بالطبع) بأن هذا الشخص قد خلقه الله وحيدا. فليس هناك من يستطيع أن يجاري فرعون في خلقته. فهو من كان في أحسن تقويم خلقه الله. ولكن المتدبر لهذا النص يجد أن الله قد نعت هذا الشخص بأنه زنيم (عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ). فما معنى أن يكون هذا الشخص زنيم؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن هذا الفرعون هو من اعتلى عرش مصر بعد وفاة الفرعون الأول الذي تربى موسى في كنفه. فذاك الفرعون الأول كان – ربما كما نعلم جميعا - لا يملك الذرية بدليل ما طلبته زوجته منه بأن يبقي على الطفل موسى فلا يقتلوه، ليكون لهم ولدا:

- **وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (9)**

فلو كان هذا الفرعون ممن له الولد، لما طلبت امرأة فرعون الإبقاء على حياة موسى الطفل من أجل هذه الغاية (أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا). فهذا الفرعون الأول الذي تربى موسى في كنفه كان يعاني من نقص الذرية. وما أن مات هذا الفرعون حتى كانت المدينة كلها في غفلة عندما دخلها موسى:

- **وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (15)**

وقد تحدثنا في سلسلة مقالاتنا عن موسى بأن هناك فرق بين فرعون الطفولة (الذي تربى موسى عنده) وفرعون الرسالة (الذي جاءه موسى بالرسالة). فما أن مات الفرعون الأول حتى عمّ المدينة الفوضى السياسية بسبب صعوبة انتقال السلطة في هذه الحالة مادام أن هذا الفرعون المتوفى ليس له وريث شرعي ليعتلي سدة الحكم من بعده، فآل الأمر برمته إلى الملأ من آل فرعون، وهم الذين تآمروا على قتل موسى في غياب الفرعون صاحب القرار الأول والأخير، وهذه هي الرسالة التي جاء بها الرجل الصالح يسعى ليحذر موسى من تآمر الملأ به:

- **وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20)**

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: في خلال هذه الفترة الزمنية على وجه التحديد كانت المدينة كلها في غفلة بسبب الفراغ السياسي الذي أحدثه موت الفرعون الأول الذي تربى موسى عنده. فحاول نفر من شيعة موسى (أي بني إسرائيل) التمرد على الحكم، فحصلت المواجهة المباشرة بين الطرفين. فعاد موسى ليدخل المدينة (بعد أن كان هاربا منها إلى الأرض المقدسة) ليقود ذلك التمرد، وما أن وجد موسى واحدا من شيعته يستغيثه على الآخر الذي هو من عدوه حتى وكزه موسى، فقضى عليه. وحاول في اليوم التالي تكرار الفعلة

نفسها لولا أن نبّهه من كان يريد موسى أن يبطش به بأن هذا ليس أكثر من سلوك المفسدين وليس سلوك من أراد أن يكون من المصلحين:

- **فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19)**

فرجع موسى إلى صوابه، فجاءه ذلك الرجل الصالح يسعى من أقصى المدينة ليحذره من خطر تآمر الملأ به بالقتل، ونصحه بالخروج من المدينة مرة أخرى:

- **وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20)**

فخرج موسى من المدينة خائفا يترقب، وتوجه هذه المرة تلقاء مدين. وفي هذه الأثناء كان على الملأ – نحن نتخيل – أن يتخذوا قرارهم التاريخي الحاسم بمن سيخلف هذا الفرعون الذي مات (وهو من تربى موسى عنده) على عرش مصر مادام أنه ليس له ولد. فوقع اختيارهم بعد جدل كبيرعلى فرعون جديد.

السؤال: من هو هذا الشخص الذي أختير ليكون هو الفرعون الجديد على عرش مصر خليفة للفرعون السابق الذي مات ولم يكن له ذرية؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: في هذه الأثناء كان الجميع من آل فرعون يطمع أن يكون الفرعون الجديد منهم. فأصبح هناك (نحن نتخيل) تنافس عائلي للوصول إلى كرسي عرش مصر مادام أنه الآن شاغرا. وأصبحت كل عائلة صغيرة من آل فرعون (العائلة الكبيرة) تظن أنها صاحبة الحق في أن يكون الفرعون الجديد منها، بالضبط كما يحصل (نحن نتخيل) في حالات التخاصم على السلطة الوراثية. فأقطاب العائلة الممتدة تحاول جهدها بأن ينتهي الأمر إلى أن يكون الحكم فيهم. فكيف بهم سيحسموا هذا الجدل الدائر بينهم؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نتخيل أن الذي حصل على أرض الواقع كان على النحو التالي: لم تكن لترضى أي عائلة بأن يؤول الحكم إلى غيرهم. لكن هذا لا يمنع أن يكون هناك مقومات أساسية لمن أراد أن يدّعي أحقية الملك، فعلى من أراد الوصول إلى كرسي الحكم أن يقدم من المسوغات ما يجعله صاحب حق في ذلك.

السؤال: ما هي مقومات الوصول إلى كرسي الحكم؟

رأينا المفترى: نحن نفتري القول بأن مثل هذا الجدال قد حصل على أرض الواقع عندما بعث الله طالوت ملكا على الملأ من بني إسرائيل، وهم الذين طلبوا أن يبعث الله فيهم ملكا:

- **أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (246)**

وما أن بعث الله لهم طالوت ملكا

- **وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ... (247)**

حتى تنازعوا أمرهم على النحو التالي:

- **... قَالُوَا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (247)**

فنحن نفهم من هذه الآية الكريمة أن أحقية الملك (بالنسبة للناس) تكمن في أمرين اثنين، وهما الوراثة والمال. فالأبن الأكبر للملك هو الوريث الشرعي من بعده (حتى وإن كان ينقصه مقومات الرجولة الكثيرة). فربما

يكون الأخ الأصغر أكثر كفاءة ورجاحة عقل من أخيه الأكبر إلا أن هذا لا يمنع الأخ الأكبر أن يكون هو الوريث الشرعي للملك من بعد أبيه بغض النظر عن قدراته على المستوى الفردي. وفي حالة عدم وجود الأبناء، يصبح الأخ هو الوريث وهكذا. فهؤلاء الملأ من بني إسرائيل يظنون أنهم أحق بالملك من طالوت لأنه ليس منهم. لذا فهم قد ادعو الأحقية بالملك (قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ).

وإذا ما تعذر أن يحسم الأمر بالوراثة، أصبح المال هو أداة الحسم، فهذا الرجل المبعوث إلى الملأ من بني إسرائيل (والغريب فيهم) لم يؤت سعة من المال (وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ). لذا ظن ألقوم أن هذا يفقده الأحقية في الملك.

نتيجة مفتراة: نحن نفتري الظن بأن لسان حال الملأ من بني إسرائيل يقول بأن الحكم لا يؤول إلا بالوراثة أولا وبالمال بعد ذلك.

لذا، نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن الصورة نفسها قد حصلت في آل فرعون عندما مات الفرعون الأول الذي ليس له ولد، وهو من تربى موسى عنده. فكيف بهم سيحسموا أمر الملك من بعده.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: كان قرارهم على نحو أن يختاروا من بينهم من يتوافقون جميعا عليه، فأصبحت المدينة كلها على حين غفلة من أهلها، فساد الفراغ السياسي بعضا من الوقت في غياب الفرعون الأكبر. ولكن لما كانت كل عائلة مصغرة من آل فرعون يظنون أن لهم حق في الملك، أصبح من الصعب تحديد شخصية الفرعون الجديد بالوراثة، فانتقل حسم الموضوع (نحن لازلنا نتخيل) إلى عامل وفرة المال، فوقع اختيارهم على من كان ذا سعة من المال، فوجدوا ضالتهم فيمن كان من بينهم وحيدا:

- **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (12)**

وربما كان هدفهم من ذلك (نحن لا زلنا نتخيل) حتى يكون لكل منهم نصيب من الحكم في ظل حكم هذا الفرعون الجديد، مادام أن هذا الشخص "وَحِيدًا" (فلا ناصر له من بينهم). ولكن لم يكونوا مدركين سر هذا الرجل (الفرعون الجديد)، فهو من كان زنيما.

- **عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (13)**

السؤال: كيف كان هذا الرجل زنيما؟

- **عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (13) أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (14) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (15)**

رأينا المفترى: نحن نظن بأن مفردة زنيم لها علاقة مباشرة بمفردتي الزانية والزاني اللتان وردتا في الآيات الكريمة التالية:

- **الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (2) الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (3)**

فهناك من يقوم بفعل الزنا من الإناث وهي الزانية، وهناك من يقوم بفعل الزنا من الذكور وهو الزاني. وهناك – برأينا – من يولد جراء فعل الزنا، أي الذرية التي تتحصل بهذه الطريقة. فماذا يمكن أن نسمي الذرية التي تتحصل بفعل الزنا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الطفل الذي يكون نتاج عملية الزنا هو الزنيم. لذا نحن نتجرأ على الافتراء (ربما مخطئين) بأن هذا الفرعون الوحيد الذي اعتلى عرش مصر بعد موت الفرعون الأول الذي لم يكن له ذرية هو نتاج عملية زنا، فكان زنيما:

- عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (13) أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (14) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (15)

الدليل

لو تفقدنا هذه الآيات الكريمة في سياقها الأوسع ربما تتضح الصورة لنا أكثر:

- **وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ (11) مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (13) أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (14) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (15)**

فمن مواصفات هذا الرجل الذي كان زنيما هو أنه حلّاف مهين. ليكون السؤال الآن هو: ما معنى أن يكون هذا الرجل حَلَّافٍ مَّهِينٍ؟

لو تفقدنا مفردة (الحلف) في جميع السياقات القرآنية التي وردت بها، لوجدنا أن الحلف يكون بالله، كما في قوله تعالى:

- **فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (62)**

ولو دققنا أكثر في هذه السياقات القرآنية التي حصل فيها الحلف، لوجدنا أن من أول مواصفات من يحلف هو الكذب:

- **لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَـٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (42)**
- **وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (56)**
- **يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ (62)**
- **يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ۚ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ۚ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (74)**
- **سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (95)**
- **يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (96)**
- **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (107)**
- **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (14)**
- **يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (18)**

لذا نحن نتجرأ عل الاستنباط بأن من يلجأ إلى الحلف هو كاذب، لأنه يحاول أن يتخفى بهذا الحلف على حقيقة ما في نفسه. فالذي يحلف فإنما يحلف على الكذب وهو يعلم (وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ

يَعْلَمُونَ). فهذا الحلاف يعرف إيمان الناس بالله، فيستغل ذلك من أجل التغطية على حقيقة ما في نفسه، وهي لا شك عكس ما حلف عليه. وهم يتجرءون على الحلف لله كما يحلفون للناس (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ)، ظانين أنهم يستطيعون النجاة بذلك من سوء ما فعلوا أو ما ظنوا.

إن الذي يهمنا الآن من هذا الطرح هو أن الحلف يكون بالله، أليس كذلك؟

- **فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (62)**
- **لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَـٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (42)**
- **وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (56)**
- **يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ (62)**
- **يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ۚ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ۚ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (74)**
- **سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (95)**

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نتجرأ على البوح بالظن بأن الحلف لا يقوم به إلا من كان كاذبا، فهو يبطن في قلبه ما لا يظهره للناس.

السؤال: ما الذي يجب على المؤمن أن يفعله إذا كان لا يجوز له أن يحلف كما نزعم؟

رأينا: نحن نظن أن المؤمن يقسم ولكنه لا يحلف.

السؤال: ما الفرق بين الحلف والقسم؟

رأينا: لو تفقدنا السياقات القرآنية الخاصة بالقسم، لوجدنا أن الله نفسه يقوم بفعل القسم:

- **فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76)**

وكذلك يفعل الناس، فهم يقسمون بالله:

- **وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (38)**
- **وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (44)**

السؤال مرة أخرى: ما الفرق بين من يحلف بالله ومن يقسم بالله؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الذي يحلف يقوم بهذا الفعل وهو كاذب، أي هو يعلم في قرارة نفسه أنه كاذب، ولا يقوم بذلك إلا ليغطي على كذبه وهو يعلم ذلك:

- أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (14)

أما الذي يقسم فهو الذي يقوم بذلك الفعل لأنه فعلا مؤمن بهذه العقيدة ولا يقوم بذلك من باب الكذب. فالذين أقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت، إنما يفعلون ذلك لأن هذه هي عقيدتهم فعلا:

- وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (38)

نتيجة مفتراة: ولو تدبرنا هذا السلوك في المحاكم عند الشهادة، لوجدنا أن القاضي يطلب منهم أن يقسموا ولكنه لا يطلب منهم أن يحلفوا، أليس كذلك؟

السؤال: لماذا يطلب القاضي ممن يشهد في القضية أن يقسم ولا يطلب منه أن يحلف؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن ظن أن القاضي يطلب من الشاهد في القضية أن يقسم لأنه يريد منه أن يدلي بشهادته بصدق كما يعتقد أن الفعل قد حصل على أرض الواقع فعلا، فلا يضمر في نفسه الكذب، ولا يحاول أن يخفي شيئا من الحقيقة، أي لا يطلب منه أن يقول الكذب وهو يعلم.

فربما تكون شهادة الشاهد غير صحيحة ولكن ذلك لا يمنع أن يؤخذ بها، ولا يجر ذلك عليه العقاب إن تبين أنها غير صحيحة، ولكن يقع على الشاهد العقاب – برأينا- إن ثبت أنه كاذب في الشهادة. فأنت (كشاهد) تقول ما عندك كما تظن فعلا أنه قد حصل، فلا تحاول أن تخفي منه شيئا ولا تحاول أن تزيد فيه شيئا بتوخي أقصى درجات الصدق في القول. ولو تبين للقاضي أنك تدلي بشهادتك وأنك تكذب فيها، لحق للقاضي أن يوقع عليك العقوبة، لأنك في هذه الحالة تكون قد حلفت ولكنك لم تقسم.

نتيجة مفتراة (1): الذي يَحلف هو الذي يدلي بشهادته وهو يبطن ما لا يظهر، ويعلم أنه يكذب فيها.

نتيجة مفتراة (2): الذي يُقسم هو الذي يدلي بشهادته وهو يبطن ما يظهر فقط، ويعلم أنه صادق فيها.

السؤال: ماذا إذن عن فرعون؟

جواب مفتري: نحن نظن أن فرعون لم يكن يقسم ولكنه كان يحلف، لأنه كان يبطن ما لا يظهر.

السؤال: هل كان فرعون يحلف بالله؟ وهل كان فرعون أصلا يؤمن بالله حتى يحلف به؟ ألم يكن فرعون يظن بأنه هو نفسه إله؟ ألم يقل لهم بأنه هو ربهم الأعلى؟

- فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)

ألم يقل لكل من حوله أنه ليس لهم إله غيره؟

- وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)

أليس من المتوقع أن يحلف هؤلاء بفرعون نفسه؟ ألم يقسم السحرة بعزة فرعون أنهم هم الغالبون؟

- فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (44)

السؤال: إذا كان من هم حول فرعون مؤمنون بألوهيته فيحلفون به (ويقسمون به)، فما بال فرعون نفسه؟ فبمن سيحلف فرعون نفسه؟ هل سيحلف بنفسه؟

جواب: كلا وألف كلا، وذلك لأن فرعون سيحلف بآلهته.

السؤال: وهل كان لفرعون آلهة؟ أليس هو نفسه إله؟

جواب مفترى: نحن نفتري القول بأن فرعون نفسه كان هو إله لقومه، إلا أن له آلهة.

السؤال: وأين الدليل على ذلك؟ أين الدليل على أن لفرعون نفسه آلهة؟

جواب مفترى: دعنا نتفقد الآية الكريمة التالية التي تبين ما قاله من كان حول فرعون وهم من ظنوا أن فرعون نفسه هو إله:

- وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127)

نتيجة مفتراة: تبيّن لنا هذه الآية الكريمة بما لا يدع مجالا للشك بأنه كان لفرعون آلهة خاصة به (وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ). لتكون الصورة كما نتخيلها الآن على النحو التالي: كان فرعون هو نفسه إله لقومه، فهم إذن يحلفون به (ويقسمون به)، لكن كان هناك آلهة خاصة لفرعون نفسه، وهذه الآلهة هي التي كان فرعون يحلف بها. ولما كان لفرعون أكثر من إله واحد (أي آلهة)، كان هذا الرجل يحلف بهم جميعا، لذا فقد كان حلاف (أي كثير الحلف):

- وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ (11) مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (13) أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (14) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (15)

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: كان التنظيم الديني في أرض مصر حينئذ على النحو التالي:

آلهة فرعون	
فرعون الإله	يحلف بآلهته
قوم فرعون	يحلفون بإلههم فرعون

لذا كان فرعون (كإله) هو حلقة الوصل بين قومه من جهة وآلهة فرعون نفسه. فقوم فرعون لا يستطيعون الوصول إلى آلهة فرعون إلا من خلال فرعون نفسه.

السؤال: من أين حصل فرعون على المال والبنين؟

- ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13)

لا شك عندنا أن جميع ما تحصل لفرعون كان من عند الله، فالله هو من جعل لهذا الرجل الوحيد مالا ممدودا وبنين شهودا، إلا أنه أنكر ذلك كله لأنه كان لا يؤمن بالله العظيم:

- وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ (25) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ (26) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (27) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ (28) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ (29) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (32) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (34)

فهذا الرجل الذي نجد (نحن نرى) الآيات القرآنية تصوّر ما سيصير إليه في يوم الدين هو شخص ذو مال، لكن هذا المال لم يغني عنه (مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ)، وأنه كان صاحب سلطان، لكنه هذا السلطان قد هلك عنه (هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ). فهو كان لا يؤمن بالله العظيم (إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)، وإن كان يؤمن بوجود آلهة أخرى له من دون الله (وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ)، كما أنه كان لا يحض على طعام المسكين (وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ). فكان حلافا بآلهته (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ)، مناعا للخير معتد أثيم (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ)، حتى وإن كان ذا مال كثير (أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ).

- وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ (11) مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (13) أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (14) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (15)

السؤال: لماذا فعل فرعون كل ذلك؟

رأينا: كان فرعون لا يؤمن بالله العظيم (إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)، ولكنه كان مؤمنا بآلهته التي هي لا شك من دون الله (وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ).

السؤال: ما الذي استفاده فرعون من إيمانه بآلهته هذه؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن إيمان فرعون بهذه الآلهة هو ما مكّنه من تحقيق ما يريد، حتى أصبح له ملك مصر، وحتى أصبحت الأنهار تجري من تحته:

- وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52)

ولو تدبرنا هذا السياق القرآني جيدا، لوجدنا أن فرعون، وهو حلاف مهين (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ)، ينعت خصمه بأنه مهين (أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ):

- وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52)

ظانا بأنه هو خير منه، فجاء الرد الإلهي عليه بأنه هو (أي فرعون نفسه) من كان فعلا مهين:

- وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (10)

السؤال: ما معنى أن يكون فرعون مَّهِينٍ؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن مفردة المهين مشتقة من الهين:

- إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ (15)

فهذه الآية تبين لنا (كما نفهمها) بأن المهين هو عكس العظيم، فهناك من حسب أن الأمر هيّن (وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا)، فرد الله عليهم بأنهم مخطئون في حسبتهم، وذلك لأن الأمر عند الله فعلا عظيم (وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ).

فهذا زكريا يتعجب من أن يكون له ولد وقد بلغ من الكبر عتيا، فيرد الله عليه بالقول بأن هذا الأمر هو على الله هَيِّنٌ:

- قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (9)

وهذه مريم تتعجب من أن يكون لها ولد ولم يمسسها بشر:

- قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (21)

فبالنسبة لله العظيم، فإن خلق يحيى من والده الذي بلغ من الكبر عتيا ليس بالأمر العظيم، بل على العكس فهو على الله أمر هَيِّنٌ، وكذلك هو خلق المسيح عيسى بن مريم من أم دون أن يمسسها بشر. وهذا ليس استثناء لأن خلق الإنسان كله جاء من ماء مهين بعد أن خلقه الله من طين:

- الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (8)

فمن صفات الخالق أنه قادر على أن يخلق مما هو مهين (كالماء أو التراب)، وأن العلمية برمتها هي عملية هينة (هَيِّنٌ)، لأنها لا تعجزه. فالخلق على الله عمل هين، ويصبح أهون عندما يعيده:

- وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27)

السؤال: ما الذي يمكن أن نستفيده من ذلك في ضوء حديثنا عن فرعون؟

رأينا: كان يظن فرعون أن إله موسى مهين، أي لا يقدر على فعل ما هو عظيم. فظن بنفسه أنه خير منه، لأنه كان يعتقد بنفسه القدرة على فعل ما هو عظيم، لأنه هو نفسه (كما زعم) ليس مهين. فرد الله عليه بالقول بأنه هو (أي فرعون) فعلا مهين، بعد أن وصفه بأنه حلاف.

- وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (10)

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى والخطير جدا: نحن نظن أن فرعون كان مهينا، لأنه كان حلافا، أي يقول القول وهو يعلم أنه يكذب فيه.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن كل ما كان يقوم به فرعون من فعل لم يكن ليتحصل له بفعل قدراته الذاتية، فهو شخصيا لا يستطيع فعل ذلك بنفسه، ولكنه كان يقوم بذلك بالاستعانة بغيره.

السؤال: من هم الذين كان يستعين بهم فرعون لتنفيذ ما يريد؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: إنهم آلهته الذين كان يؤمن بهم. فهم الذين يستعين بهم فرعون في تنفيذ ما يبدو للناس أنها أفعال خارقة غير مألوفة من البشر العاديين.

تخيلات مفتراة: في حين أن قوم فرعون كانوا يظنون أن فرعون كإله هو الذي يقوم لهم بكل هذه الأفعال التي تبدو عظيمة، كجعل أرض مصر جنات تجري من تحته أنهارها، جاء القول الرباني ليبين لنا بأن فرعون نفسه كان مهينا، لأنه كان بشخصه أضعف من أن يقوم بذلك بنفسه. لكنه كان يستعين بمن يفعل له ذلك، فيبدو للناس ويكأنه هو من فعل لهم ذلك.

السؤال: من هم إذن آلهة فرعون هؤلاء الذين كان فرعون يستعين بهم لعمل الخوارق من الأفعال؟

جواب مفترى: إن هذا السؤال يدعونا إلى طرح تساؤل ربما يبدو للوهلة الأولى بأنه غريب. والسؤال هو: لماذا كانت نهاية فرعون بالغرق؟

رأينا: لو تفقدنا السياقات القرآنية كلها، لوجدنا أن العقاب بالماء لم يحدث إلا في الحالات التالية:

⇐ قوم نوح
⇐ يونس
⇐ إله السامري
⇐ فرعون

السؤال: لماذا كانت نهاية قوم نوح بالغرق بالماء؟ لِم لم ينزل الله عقابا على قوم نوح غير العقاب بالماء؟ وهل كان من الممكن أن يهلك الله قوم نوح بعذاب غير الماء؟

رأينا المفترى: لمّا كنا نؤمن أن كل شيء يفعله الإله ليس محض صدفة، ولكنه أمر مقدّر تقديرا، فإننا نتجرأ على القول بأن هلاك قوم نوح بالماء كان مقدرا، كما نؤمن بأنه من الاستحالة بمكان أن يهلك الله قوم نوح بغير الماء. لا بل ونتجرأ على البوح بعقيدتنا التي مفادها بأنه لو استخدم الله عقابا غير الماء في إهلاك قوم نوح لما هلكوا جميعا. انتهى.

السؤال: لماذا؟

رأينا: تحدثنا عن هذه الجزئية سابقا وزعمنا الظن (ربما مخطئين) بأنه من الاستحالة أن يوجد قوة كونية تستطيع أن تهلك من كان إلها بغير الماء، لذا عمد موسى إلى أن ينسف العجل (إله السامري) باليم بعد أن حرّقه:

- **قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (97)**

لذا، كان لابد من استخدام الماء ليهلك الله من كان إلها من دونه (كعجل السامري).

السؤال: إن صح ما تقول، فلم يقع العذاب بالماء على قوم نوح مثلا؟ هل كان فيهم آلهة؟

جواب مفترى: لو تفقدنا السياقات القرآنية الخاصة بالعذاب الذي أنزله الله بقوم نوح، لوجدنا أنه قد استخدم الماء الذي خرج من الأرض والماء الذي نزل من السماء حتى التقيا:

- **فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ (11) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (12)**

فطغى الماء:

- **إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاء حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (11)**

فأصبح الماء كتلة واحدة، فذهب الفلك الذي صنعه نوح (كأداة للنجاة من الغرق) يغوص في داخل هذا الماء. لذا نحن نفتري القول بأن ما صنعه نوح لم تكن فقط سفينة:

- **فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (15)**

ولكنها كانت أيضا فلكا:

- **فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ (64)**
- **فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (73)**
- **وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (37)**
- **وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (38)**

السؤال: ما الفرق بين السفينة والفلك؟ هل هما شيء واحد؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن كل فلك هي سفينة ولكن ليس كل سفينة هي فلك.

السؤال: لماذا؟

رأينا: نحن نفتري القول بأن السفينة هي الجارية التي تجري على الماء، أما الفلك فهي الجارية التي تجري في الماء:

- **إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاء حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (11)**

السؤال: ما معنى ذلك؟

رأينا: نحن نظن أن الفلك هي أشبه ما تكون بالغواصة التي تسير داخل الماء، بدليل قوله تعالى (وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ):

- **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164)**
- **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (65)**
- **أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (31)**

وحتى تجري الفلك داخل الماء، فلابد أن تكون مشحونة:

- **فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (119)**

فالسفينة التي تجري على سطح الماء يمكن أن تتحرك دون أن تشحن، لأن قوة الرياح هي التي تحركها. أما الفلك التي تجري في الماء، فإن حركتها محكومة بالتيارات المائية داخل الماء، ولكن حتى تقارع هذه الفلك التيارات المائية ويصبح بالإمكان توجيهها فلابد من أن تشحن، أي لابد من وجود المحرك الذي يتحكم بحركتها لتوجيه دفتها، ليتغلب على قوة التيارات المائية الموجودة داخل الماء. فجميع السياقات القرآنية التي جاء فيها ذكر الفلك (كما نفهمها) تصورها داخل الماء:

- **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164)**
- **فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (64)**
- **هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (22)**
- **فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (73)**
- **وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (37)**
- **وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (38)**

- اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (32)
- وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (14)
- رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (66)
- أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (63)
- وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (22)
- فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ۙ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (27)
- فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (28)
- فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (19)
- فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (65)
- وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (46)
- أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (31)
- وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12)
- وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (41)
- إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (140)
- وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (80)
- وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (12)
- اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12)

وسنحاول بحول الله وتوفيق منه تبيان تبعات هذا الفهم على طريقة دخول يونس في الفلك كما جاء في قوله تعالى:

- إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (140)

فالله وحده أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأدعوه وحده أن يهديني لأقرب من هذا رشدا، إنه هو السميع البصير – آمين.

لكن ما يهمنا هنا هو التركيز على فكرة استخدام الماء في العذاب الذي وقع على قوم نوح. فلماذا (نحن نسأل) استخدم الله الماء في إهلاك قوم نوح؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن السبب في ذلك يعود إلى وجود الآلهة، قال تعالى:

- **وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (23) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (24) مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا (25)**

فقوم نوح كانوا يعبدون آلهة من دون الله، بدليل أنهم قد أصروا على أن لا يذروا آلهتهم (وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ). وجاء التحديد على نحو أن لا يذروا وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا.

السؤال: ما هذه الأسماء التي نجدها عند قوم نوح؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هذه هي الآلهة التي كان يستعين بها قوم نوح لتحقيق مرادهم حتى أصبحت بلادهم جنات:

- **يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (12) مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (14) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (15) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (16) وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (17) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (18) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (19) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (20) قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (21) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (22) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (23) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (24) مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا (25)**

فالسياق القرآني يبين بأن هؤلاء القوم قد ضلوا بسبب هذه الآلهة التي كانوا يؤمنون بها (وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا). ولو تفقدنا السياقات القرآنية الأخرى، لوجدنا بأن قوم نوح على وجه التحديد كان هم الأظلم والأطغى على مر التاريخ:

- **وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (50) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى (51) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى (52)**

فلا شك إذن أن قوم نوح كانوا أظلم وأطغى من عاد الأولى ومن ثمود. ليكون السؤال الآن هو: لماذا؟ ما الذي جعل قوم نوح هم الأظلم والأطغى؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لا شك عندنا أن جميع الأمم التي حقّ عليها العذاب، قد عبدوا آلهة من دون الله. فبعضهم قد عبدوا ولات:

- **كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (3)**

وبعضهم عبدوا اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى:

- **أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (19) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (20)**

وكانت هذه جميعا (في نظر الأقوام السابقة) آلهة تستحق أن تعبد، لا بل فقد كانت معضلة هذه الأقوام في دعوة رسلهم تتمثل بأن هؤلاء الرسل قد جعلوا الآلهة جميعا إلها واحدا، وهو ما نعتوه بالشيء العجاب:

- **ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (1) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (2) كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (3) وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (4) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (5) وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (6) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (7)**

ولو تفقدنا السياقات القرآنية الخاصة بعبادات هؤلاء الأقوام، لوجدنا أنهم ينعتوها بأنها أصنام، كما جاء في دعوة إبراهيم:

- وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (35) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (36)

فهذا إبراهيم يتساءل عن عبادة قومه، فيجد أنهم يعبدون أصناما:

- إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (70) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (71) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (74) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77)

وكانت هذه الأصنام هي آلهتهم:

- وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ (51) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ (53) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (54) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (55) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (56) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (57) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (58) قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (60) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (61) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (62) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (63)

ومن هنا جاءت دعوة إبراهيم ربه أن يجنبه وبنيه أن يعبدوا الأصنام:

- وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (35) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (36)

ولا شك عندنا أن هذه الأصنام لا علاقة لها بالكواكب أو بالشمس أو بالقمر، لأن إبراهيم الذي رفض أن يعبد الأصنام التي كان يعبدها أبوه وقومه قد توجه إلى الكوكب وإلى الشمس وإلى القمر كبدائل لهذه الأصنام:

- وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (74) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79)

فهذه الأصنام هي متواجدة على الأرض بدليل ما وجده موسى وقومه عند قوم بعد أن جاوز الله بهم البحر:

- وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (138)

وقد تعرّضنا سابقا للفرق بين الأصنام والتماثيل، فزعمنا القول بأنه في حين أن التماثيل هي للاعتكاف:

- **إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52)**

فإن الهدف من وجود الأصنام هي العبادة مادام أن القوم يتخذونها آلهة:

- **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ (74)**

السؤال المربك: ألم يثور إبراهيم على عبادة قومه للأصنام؟ ألم يجد أنها لا تضر ولا تنفع؟

- **إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (70) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (71) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73)**

ألم يتخذ إبراهيم قراره بأن هذه الأصنام هي عدو له؟

- **قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77)**

لِم إذن يطلب إبراهيم بعد ذلك من ربه أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام (وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ)؟ وكيف بهذه الأصنام تضل كثيرا من الناس (رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ)؟

- **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (35) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (36)**

السؤال: ما السر في هذه الأصنام؟ هل هي فعلا حجارة صماء كما صورها لنا أهل الدين؟

رأينا: نحن نتخيل بأن هذه الأصنام لم تكن عبارة عن حجارة صماء لأن مثل تلك الحجارة لم تكن لتضل كثيرا من الناس، ولأن مثل تلك الحجارة لن تشكل هاجسا لإبراهيم نفسه ليخشى على نفسه وعلى بنيه من عبادتها.

السؤال: ما هي إذن تلك الأصنام التي أضلت كثيرا من الناس؟

رأينا المفترى: مادام أن تلك الأصنام تستطيع أن تقوم بفعل الضلال، فلا شك أنها تقوم بذلك من تلقاء نفسها، بدليل أنها هي من أضلت كثيرا من الناس:

- **رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (36)**

السؤال: كيف تقوم الأصنام بفعل الضلال؟ أو كيف تكون هذه الأصنام (التي نظن بأنها حجارة صماء) هي من تضل كثيرا من الناس؟ ولماذا فتنت كثير من الأمم السابقة بهذه الأصنام حتى عكفوا عليها عابدين؟ فهؤلاء بنو إسرائيل وقد تجاوز بهم الله البحر، فينجيهم من فرعون، وها هم لازالوا بصحبة موسى نفسه، وفي الوقت ذاته ها هم يطلبون من موسى أن يجعل لهم آلهة مثل تلك الآلهة التي يعكف عليها أهل القرية التي أتوا عليها في طريقهم إلى الأرض المقدسة:

- **وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (138)**

السؤال: ما الذي جعل بني إسرائيل ينعتون هذه الأصنام بأنها آلهة، فيطلبون من موسى أن يجعل لهم آلهة كما كان لهؤلاء القوم آلهة من الأصنام؟

رأينا المفترى: لو تتبعنا قصة بني إسرائيل مع نبيهم موسى من بعد ذلك، لوجدنا أنهم قد وقعوا في الضلالة مرة أخرى على يد السامري عندما أخرج لهم من حليهم عجلا جسدا له خوار:

- **فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَى فَنَسِيَ (88)**

فلو تدبرنا ما جاء في هذا السياق القرآني جيدا، لوجدنا أن القوم أنفسهم ينعتون هذا العجل الذي أخرجه لهم السامري من حليهم هو فعلا إله، حتى قالوا بأن هذا إلهكم وإله موسى (فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى).

رأينا: للإجابة على هذا التساؤل، لابد (نحن نرى) من التعرض لماهية هذا العجل الذي أخرجه السامري للقوم. فلقد زعمنا الظن بأن السامري لم يكن ليستطيع أن يخرج لهم العجل الذي له خوار من حليهم لولا تلك القبضة التي قبضها:

- **قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (96)**

السؤال: ما هي تلك القبضة التي قبضها السامري من أثر الرسول؟ وكيف استطاع السامري بتلك القبضة التي قبضها من أثر الرسول أن يخرج لهم ذلك العجل الجسد الذي له خوار؟

رأينا المفترى: عندما تعرضنا لهذا التساؤل في مقالاتنا تحت عنوان باب السامري، زعمنا أن القبضة التي قبضها السامري كان جزءا من تلك العصا التي تركها موسى مع أخيه هارون عندما طلب منه أن يخلفه في قومه:

- **وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (142)**

السؤال: ما هي تلك القبضة التي قبضها السامري إذن؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: كان موسى على موعد مع ربه في الواد المقدس، فاستعجل موسى اللقاء، فذهب متعجلا إلى ربه:

- **وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى (83) قَالَ هُمْ أُولَاء عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (84)**

وقبل أن يغادر المكان، أعطى موسى العصا التي كانت بيده إلى أخيه هارون، وطلب منه أن يكون خليفته في قومه:

- **وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (142)**

وفي هذه الأثناء، كان على القوم أن يضعوا أوزارهم التي كانوا يحملونها معهم، وكذلك فعل السامري، فألقى أوزاره التي كان يحملها:

- **قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87)**

وما أن ألقى السامري أوزاره مع أوزار القوم حتى أبصر ما لم يبصره الآخرون:

- **قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (96)**

فوقع بصره على عصا موسى التي كانت متواجدة حينئذ مع أوزار القوم، وهنا طارت الفكرة إلى رأس السامري بأن يقبض قبضة من تلك العصا، التي شهد السامري بنفسه على العجائب التي فعلتها تلك العصا في يوم الزينة:

- **وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (117) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (118) فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ (119)**

فما كان منه إلا أن يأخذ قبضة منها ليرى بأم عينه ما يمكن أن تفعل له تلك القبضة.

السؤال: ما هي القبضة التي قبضها السامري من عصا موسى؟

رأينا: تحدثنا كثيرا في مقالاتنا السابقة عن عصا موسى، وتصورنا بأنها عبارة عن عصا طويلة، وعلى رأسها ما يشبه قبضة الرجل، وهي ما نظن أنها تسمى باللسان الأعجمي بـ bludgeon، والتي يعرفها القاموس الإنجليزي على النحو التالي:

a heavy stick which is thick at one end and is used as a weapon

فهي إذن عبارة عن عصا يكون أحد طرفيها ثخينا بما يشبه قبضة الرجل كما في الشكل التوضيحي التالي:



فعمد السامري إلى أخذ ذلك الجزء من العصا بقبضته، فأصبحت العصا بعد ذلك قصيرة، وانتهت في آخر الأمر بأن تكون منسأة في يد سليمان:

- **فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (14)**

(للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان باب السامري، ومادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته)

وبتلك القبضة استطاع السامري أن يدخل الحياة إلى العجل الذي أخرجه لهم من حليهم، فدبت فيه الحياة بفعل تلك القبضة، فأصبح عجلا جسدا له خوار، وهنا لم يتردد القوم أن ينعتوا هذا العجل بأنه إله، فقالوا بألسنتهم بأن هذا إلههم وإله موسى:

- **فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (88)**

نتيجة مهمة جدا: الإله هو شيء مادي كالعجل الذي لم يكن أكثر من زينة القوم الذي دبت فيه الحياة بفعل تلك القبضة من العصا.

ولما أصبح هذا العجل إله، لم يكن بالإمكان التخلص منه بالتحريق، بل كان على موسى أن ينسفه في اليم نسفا:

- **قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (97)**

وذلك لأن الإله لا يمكن التغلب عليه – كما أسلفنا- إلا بالماء. فالله هو من أغرق فرعون (الذي زعم أنه إله بالماء)، وكذلك كان الهدف – برأينا- من إغراق قوم نوح بالماء، وذلك لكثرة الآلهة التي تتواجد فيهم:

- **وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (23)**

السؤال: ما علاقة هذا بفحوى النقاش؟

رأينا المفترى: لمّا كان الصنم هو عبارة عن شيء مادي، كان لابد من وجود الحياة بداخله حتى ينعته الناس بصفة الإله. فالقوم الذين أتى عليهم بنو إسرائيل بعد أن جاوز الله بهم البحر كانوا يعكفون على أصنام لهم، فظن بنو إسرائيل أن هذه الأصنام هي آلهة، فطلبوا من موسى أن يجعل لهم آلهم كما كان لهؤلاء القوم آلهة:

- **وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (138)**

نتيجة مفتراة مهمة جدا: نحن نفتري القول بأن القوم هم من قالوا بأن موسى هو من يستطيع أن يجعل لهم آلهة، أي لقد كان القوم يظنون أن بإمكان موسى نفسه أن يجعل لهم آلهة. فالآلهة هي إذن من صنع الناس أنفسهم. فالسامري هو من أخرج لبني إسرائيل العجل كإله:

- **فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (88)**

وها هم أنفسهم يطلبون من موسى شخصيا أن يجعل لهم آلهة:

- **وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (138)**

السؤال: كيف كان يتصور بنو إسرائيل ما يمكن أن يفعله موسى ليخرج لهم آلهة كما لهؤلاء القوم آلهة لو أن موسى فعلا نزل عند طلبهم؟

رأينا المفترى: لو أن موسى نزل عند رغبة بني إسرائيل حينئذ، لعمد موسى إلى شيء مادي، ولوضع فيه الحياة، وما أن تدب الحياة فيه حتى يكون هذا الشيء هو عبارة عن صنم.

ولو تفقدنا الآيات الكريمة التالية، لوجدنا أن ما يعبده الناس من دون الله هي أوثان:

- **وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَاۖ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (25)**
- **إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًاۚ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (17)**
- **ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (30)**

ولو تفقدنا الآيات الكريمة التالية، لوجدنا أن الله نفسه ينعت كل ما اتخذه الناس للعبادة من دونه بأنها فعلا آلهة:

- وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (3) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْمًا وَزُورًا (4) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (5) قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (6)

نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا: الآلهة من دون الله لا تَخلق ولكنها تُخلق (وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ). فما يعيب هذه الآلهة إذن هو أنها لا تَخلق (وإنما تُخلق) ولا تملك لنفسها ضرا ولا حياة ولا تملك موتا ولا حياة ولا نشورا.

والمتدبر لهذه الآيات الكريمة يجد أن الذين عبدوا هذه الأوثان كآلهة من دون الله إنما خلقوا إفكا:

- إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (17)

فحتى تصبح هذه الحجارة أوثانا تعبد من دون الله فلابد أن يُخلق فيها الإفك، وأن هذا الإفك الذي يُخلق فيها إنما هو من صنع الناس أنفسهم.

وما دام أن ما خلقوه هو إفك، فإننا نتجرأ على القول بأن الفك هو تصوير الشيء على غير حقيقته، وليس أدل على ذلك من قصة الإفك التي جاءت به العصبة:

- إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (11)

ولا شك أن من يأتي بالإفك، إنما يجيء به لغاية في نفسه (للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان حديث الإفك)

وبهذا المنطق المفترى من عند أنفسنا، فإننا نتجرأ على القول بأن الذين اتخذوا تلك الأصنام آلهة، قد فعلوا ذلك نتيجة ما رأوه من العجب من أمر هذه الأصنام، فهي في الأصل عبارة عن أشياء جامدة لا حراك فيها، ثم عمد بعض الناس إلى إدخال الحياة فيها بطريقة محددة (كما فعل السامري مثلا)، فتجسدت وتحركت بعد أن دبت فيها الحياة، فكانت تلك عبارة عن أوثان، أي أصنام (جامدة) قد دبت بها الحياة، فكانت أوثانا، فأصبحت مثار تساؤل لمن رءاها. فما كان من اللذين خلقوها (ومن اللذين رأوها بأم أعينهم) إلا أن ينعتوها بأنها آلهة، وكان ذلك كله بهدف التغطية على الحقيقة، فجاء ذلك من باب خلق الإفك:

- إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (17)

نتيجة مهمة جدا: كان كل ما عبد الناس من دون الله هي عبارة عن أوثان، فكانت آلهة مزيفة غير حقيقية، بالرغم من أنها تبين للناظر بأنها حية.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: كان الهدف الأول لشياطين الإنس والجن الذي يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا أن يصدّوا الناس عن عبادة الإله الأوحد، رب السموات والأرض وما بينهما، وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله، وهو الذي يعلم السر في السموات والأرض:

- **قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (6)**

ونحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن السر في السموات والأرض هو سر الحياة والموت. ولما كانت فئة من هؤلاء الناس يعلمون سر الحياة والموت استغلوا ذلك للصد عن سبيل الله، فكان أول ما فعلوه هو استخدام ذلك العلم من أجل خلق الإفك، فتمثل ذلك في عبادة الآلهة (الأوثان) التي هي آلهة من دون الله. لنخلص من خلال هذا النقاش المفترى من عند أنفسنا أن هذه الكينونات التي عبدتها الأقوام السابقة إنما هي من صنيعة الناس أنفسهم، فهم الذين خلقوا الإفك، وهم الذين أضلوا الناس عن صراط الله المستقيم بهذه الكينونات التي تضل الناس:

- **قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85)**

فالله هو من فتن بني إسرائيل بالعجل، والسامري هو الذي أضلهم.

السؤال: لماذا؟

رأينا: لما كان الله هو من يعلم ما في صدور العباد، كان لابد من وقوع الفتنة الإلهية على بني إسرائيل الذين طلبوا من موسى أن يجعل لهم آلهة كما كان للقوم الذين وجدوهم في طريقهم بعد أن جاوز الله بهم البحر:

- **وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (138)**

فبالرغم من كل ما فعله موسى لهم على مرأى ومسمع منهم، إلا أن القوم قد فتنوا بتلك الأصنام التي وجدوها عند القوم في طريق خروجهم. فكان لابد أن يمحص الله الخبيث من الطيب، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين:

- **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (16)**
- **أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (3)**

فكان العجل هو أشبه ما يكون بما طلبوا. فبالرغم أن موسى لم ينزل عند طلبهم لإيمانه بأن ما يفعله هؤلاء القول هو باطل، وأن هؤلاء متبرون ما هم فيه:

- **وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (138) إِنَّ هَؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (139) قَالَ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (140) وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (141) وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (142)**

لم يكن رد موسى ليرضيهم تمام الرضا، فلازال بينهم من يساوره الشك بما فعله موسى، فاستغل السامري هذا الشك الذي كان يملأ صدور كثير منهم لكي يخرج لهم العجل كمثال على تلك الآلهة التي طلبوها بأنفسهم من موسى.

- **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (35) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (36) وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (37) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (38) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (39)**
- **إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا (7)**

وضل هذا العجل في قلوبهم حتى بعد أن تم التخلص منه، فالله هو من وصفهم بقوله (وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ):

- **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ (93)**

السؤال: كيف فعل السامري ذلك؟

رأينا: لقد صنع السامري من حلي القوم عجلا، فخلق فيه الإفك، فكان عجلا جسدا له خوار:

- **فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (88)**

فكان هدف السامري هو صد الناس عن عبادة الإله الأوحد، فقبض قبضة من أثر الرسول (وهي لا شك عندنا فيها سر الحياة)، مادام أنها جزء من العصا التي أعاد الله فيها الحياة عندما طلب من موسى أن يلقيها في النار:

- **قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (20) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (21)**

فاستخدم ما هو من عند الله ليضل الناس عن علم:

- **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (23)**

لتكون النتيجة التي نحاول الوصول إليها هو أن هؤلاء الناس الذين اتخذوا إلهم هواهم (كالسامري) قد استخدموا العلم الإلهي لتنفيذ مآربهم الخاصة، وذلك هوى من أنفسهم. فضلوا وأضلوا الناس:

- **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ (77)**

السؤال: كيف استطاع هؤلاء الذين اتبعوا أهواءهم أن يضلوا الناس بعد أن ضلوا هم أنفسهم عن سواء السبيل؟

جواب مفترى: نحن نفتري القول بأنهم قد فعلوا ذلك بما تحصل لهم من العلم.

السؤال: وما هو ذلك العلم؟

جواب: إنه علم القرون الأولى

سؤال: من هم هؤلاء الذين اتبعوا أهواءهم؟

رأينا المفترى: نحن نفتري القول بأن فرعون كان واحدا من هؤلاء الذين اتبعوا هواهم:

- **وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176)**

وهنا طلب الله من نبيه أن يقصص القصص مباشرة بعد هذه الآية مباشرة. وهنا تبدأ قصة سورة القصص نفسها التي مطلعها على النحو التالي:

- **طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4)**

رأينا المفترى: لقد افترينا سابقا أن علم القرون الأولى التي تحصلت لفرعون هي الآيات الثلاثة التي بدأت بها سورة القصص:

- طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3)

وهذه الآيات الثلاثة هي على الترتيب:

⇐ ط (العلم الخاص بتسخير الجن)

⇐ س (العلم الخاص بالفلك)

⇐ م (العلم الخاص بالموت والحياة)

الدليل

لو تفقدنا هذه الآيات جيدا، لوجدنا أن تسخير الجن يحتاج إلى الأداة، وهي بظننا تلك العصا

أما العلم الخاص بالفلك، فهو يحتاج إلى بلوغ الأسباب

وأما العلم الخاص بالموت والحياة، فهو العلم الخاص بدرء القتل عن النفس

دعنا نبدأ القصة من آخرها، مادام أن حديثنا منصبا في باب القتل هنا عن علم الحياة والموت. لنطرح التساؤل التالي: كيف استطاع فرعون أن يدرأ عن نفسه الأذى؟

جواب مفترى: إن هذا التساؤل يعيدنا مباشرة إلى قصة الشفاء من المرض في كتاب الله، فها هو إبراهيم ينسب المرض لنفسه بينما يؤمن أن الشفاء هو من الله:

- **الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81)**

ولكننا نجد بالمقابل بأن فرعون هو نفسه إله، لذا لم يكن ليمرض، فما أصابه الأذى في حياته.

السؤال: كيف استطاع فرعون فعل ذلك؟

هذا ما سنتابع البحث فيه في الأجزاء القادمة من هذه المقالة بحول الله وتوفيق منه،

فالله وحده أدعو أن ينفذ مشيئته وإرادته لي الإحاطة بشي من علمه لا ينبغي لغيري، إنه هو العليم الحكيم، وأدعوه أن يزدني علما وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا. وأدعوه وحده أن يؤتيني رشدي، وأعوذ به أن يكون أمري كأمر فرعون وما أمر فرعون برشيد، إنه هو العليم الخبير – آمين.

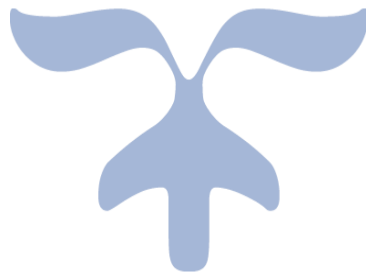
المدّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان & المهندس يزن علي سليم الجراح

بقلم د. رشيد الجراح



قصة يونس

الجزء التاسع والثلاثون



قصة يونس – الجزء التاسع والثلاثون

الافتراءات السابقة:

- ⇐ عبد الناس من دون الله آلهة
- ⇐ كان فرعون إله
- ⇐ كان لفرعون آلهة
- ⇐ العجل إله
- ⇐ السامري هو من صنع ذلك العجل
- ⇐ صناعة الآلهة تتطلب صناعة الإفك
- ⇐ الآلهة تقوم بضلال الناس
- ⇐ الآلهة تفعل للناس الأعاجيب حتى تضلهم
- ⇐ هذه الأعاجيب هي تسخير قوى الكون
- ⇐ ينخدع الناس بأن هذه الأفعال هي من فعل هذه الآلهة أنفسهم
- ⇐ الحقيقة أن هذه الأعاجيب هي القوى الكونية التي وضعها الله للناس للاستفادة منها، فتصبح حياتهم رغدا
- ⇐ كان قوم نوح هم الأظلم والأطغى لأنهم استطاعوا تسخير قوى الكون كلها
- ⇐ كان في قوم نوح خمسة آلهة وهي ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر
- ⇐ أغرق الله قوم نوح بالماء للقضاء المبر على الإفك الموجود في هذه الآلهة حتى لا تضل الناس عن عبادة ربهم الواحد
- ⇐ الخ.

السؤال: ما هي هذه الآلهة؟

رأينا المفترى: إن أهم ما يميز هذه الآلهة التي خلقها الناس بذلك الإفك الذي وضعوه فيها هو عدم قدرتها على الخلق، فهي آلهة لا تخلق (فلا تملك موتا ولا حياة):

- **وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (3)**

ولو تدبرنا هذا السياق القرآني جيدا، لوجدنا أن هذه الآلهة التي هي من دون الله لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا، أليس كذلك؟

السؤال: ماذا نفهم من القول الإلهي بأن هذه الآلهة لا تملك لنفسها ضرا ولا نفعا (وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا)؟ ولِم لَم يأت القول الإلهي على نحو (ولا يملكون ضرا ولا نفعا) على إطلاقها؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن هذه الآلهة وإن كانت لا تملك لنفسها ضرا ولا نفعا إلا أنها تضر وتنفع غيرها.

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن هناك سر عظيم في هذه الآلهة يجعلها قادرة على إحداث الضر والنفع لغيرها. وربما لهذا السبب (نحن نرى) خشي إبراهيم على نفسه وعلى بنيه أن يعبدوها، لأنها فعلا قد أضلت كثيرا من الناس:

- **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (35) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (36)**

السؤال: وما هو الضر والنفع الذي يمكن أن تحدثه هذه الآلهة لغيرها؟

رأينا المفترى: إنها تسخير قوى الطبيعة، التي هي في الأساس من صنع الله الذي أتقن كل شيء:

- **وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (88)**

السؤال: وكيف ذلك؟

باب الماء والريح

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الماء هو واحد من أهم عوامل الطبيعة الذي يمكن أن يسبب الضر والنفع للناس، فبالماء ينبت الزرع:

- **وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (18) فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (19)**
- **وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء طَهُورًا (48) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (49)**
- **خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (10) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (11)**

وبالماء – بالمقابل – يمكن تدمير ما خلق الله، فالله قد أهلك أمما كثيرة بهذا الماء كما في حالة آل فرعون:

- **وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (50)**

أو كما في حالة قوم نوح:

- **فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (73)**
- **وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (37)**

لمّا كان الله هو من أنزل من السماء ماء، فخلق به من كل زوج كريم، ولما كان الله هو من جعل في الماء هلاك أمم بأكملها، فهل يستطيع الذين من دونه أن يخلقوا مثل ذلك؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا. فالله هو من وضع خاصية الموت والحياة في الماء. فبالماء تكون الحياة وبالماء يكون الموت. انظر التقابل في الآيتين الكريمتين التاليتين:

- **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (32)**
- **وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (45)**

السؤال: ما سر الحياة في الماء؟

جواب مفترى: دعنا نتفقد السياقات القرآنية التالية:

- **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (32)**
- **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (65)**

فلو حاولنا أن نتدبر هذه الآيات الكريمة، لوجدنا على الفور أن الفلك تجري في البحر (أي في داخل البحر) بأمر الله. أليس كذلك؟

السؤال: كيف تجري الفلك في البحر بأمر الله؟

تخيلات مفتراة: دعنا نضع جسما ماديا (بغض النظر عن حجمه ووزنه) على اليابسة ثم نتركه فترة من الزمن، فهل سيتحرك هذا الجسم المادي فينتقل من مكان إلى آخر على اليابسة؟

جواب كلا وألف كلا.

السؤال: ومتى يمكن لهذا الجسم أن يتحرك من مكانه؟

جواب مفترى: إذا وقع عليه تأثير من قوة متحركة كالريح مثلا.

السؤال: وماذا لو وضعنا هذا الجسم على الماء، فهل يتحرك من مكانه؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا.

السؤال: وكيف ذلك؟ ألا تجري السفن على الماء.

جواب مفترى: كلا وألف كلا. فالسفن لا تتحرك على سطح الماء.

السؤال: وهل يعقل ذلك؟ ألا ترى أنك تهذي؟ أليس ما تقوله هنا ينافي مشاهدات الناس جميعا.

جواب: دعني أثير السؤال التالي: هل فعلا تجري السفن على الماء بفعل الماء نفسه؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا.

السؤال: ما الذي يجعل السفن تجري على الماء إذن؟

جواب مفترى: إنها الريح:

- **هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (22)**

ألا ترى – عزيزي القارئ- أن الذي يجعل الأجسام تتحرك على الماء هي الريح. فإذا ما كانت ريح طيبة تحركت السفن بطريقة تجلب الخير للناس، وإذا ما تحركت الريح بطريقة عاصفة جلبت العذاب للناس.

نتيجة مفتراة مهمة جدا: الريح هي التي تحرك السفن على البحر.

السؤال: ما الذي يجعل الريح مصدر الحركة للأجسام على الماء وعلى اليابسة؟ وما الذي يجعل الماء مصدر الحركة للأجسام داخل الماء؟

رأينا المفترى: إنه الأمر الإلهي

السؤال: ما معنى ذلك؟

جواب مفترى: دعنا ندقق في بعض السياقات القرآنية السابقة مرة أخرى:

- **اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (32)**
- **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (65)**

ألا ترى – عزيزي القارئ- أن الفلك في البحر تجري بأمر الله (وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ)؟

السؤال: ما هو ذلك الأمر؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: إنه الروح

الدليل

دعنا ندقق في الآية الكريمة التالية جيدا:

- **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (85)**

ألا ترى إذن أن الروح هي من أمر الرب؟

السؤال: ما معنى ذلك؟

رأينا المفترى: لو تدبرنا آيات الكتاب الحكيم جيدا، لوجدنا أن الله قد خلق السماوات والأرض، أليس كذلك؟

- **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (19)**
- **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (32)**
- **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (33)**
- **مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ (3)**
- **قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ۖ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (4)**
- **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (99)**

- إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (54)
- إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (190)
- الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191)
- وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (16)
- الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۖ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (1)
- وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ الْحَقُّ ۚ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ۚ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (73)
- إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164)
- هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (29)
- خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (3)
- إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (36)
- وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (22)
- يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5)
- وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (85)
- هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (4)
- وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (38)
- وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (22)
- وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27)

- أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (8)
- وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (9)
- وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (38)
- خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّۖ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (5)
- اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (4)
- وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (29)
- وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُواۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (27)
- اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (12)
- تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (4)
- أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ (36)
- خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (44)
- وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (61)
- لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (57)
- قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُۚ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (40)
- الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِۚ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (59)
- قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9)
- وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (38)
- مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (51)
- خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (10)
- وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (25)
- وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (18)
- أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُۚ بَنَاهَا (27)
- خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّۚ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (3)

- أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60)
- وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (7)
- سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (36)
- أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (81)
- إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (3)

السؤال: بعد هذا العدد الهائل من الآيات الكريمة التي تبين أن السماوات والأرض قد خلقن خلقا، فالسؤال الذي نود أن نثيره الآن هو: هل خلق الله الماء خلقا؟ فهل جاء الماء بطريقة الخلق كما جاءت السماوات والأرض؟

رأينا المفترى: نحن ننفي جملة وتفصيلا أن يكون الماء قد خلقه الله خلقا، وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في جميع السياقات القرآنية التالية:

- وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۗ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (99)
- أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (17)
- وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (22)
- هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (10)
- وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (65)
- وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (45)
- الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (53)
- أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (63)
- وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (18)
- أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (43)
- وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (45)

- وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (48)
- وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (54)
- وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (63)
- وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (24)
- أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (27)
- أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (21)
- وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39)
- وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (11)
- وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5)
- وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (9)
- أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (30)
- أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (20)
- وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (14)
- خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (6)

نتيجة مفتراة: الماء ليس خلق الله. فالله لم يخلق الماء خلقا. ولكن أنزله من السماء إنزالا. انظر التقابل بين خلق السموات والأرض من جهة وإنزال الماء من السماء إنزالا من جهة أخرى في الآيات القرآنية التالية:

- اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (32)
- أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60)

السؤال: لماذا لم يخلق الله الماء خلقا مثلما خلق السماوات والأرض خلقا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لأن الماء أزلي. انتهى.

الدليل

دعنا ندقق في السياق القرآني التالي:

- **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (7)**

لو تدبرنا في هذا السياق القرآني جيدا، لوجدنا على الفور أن وجود الماء سابق لخلق السماوات والأرض. فهو الكينونة التي كان عرش الله عليها قبل أن يخلق السماوات والأرض (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ **وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**).

السؤال: ما فائدة هذا الظن؟

جواب مفترى خطير جدا جدا من عند أنفسنا لا تصدقوه إذا لم تجدوا أن الدليل يدعمه: الماء قديم بقدم الإله نفسه. انتهى.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن الماء موجود مع وجود الإله نفسه. فعندما كان الله موجودا (ولا وجود غيره) كان الماء موجودا كذلك.

السؤال: لماذا؟ أو لم يكن وجود الماء مصاحبا لوجود الإله نفسه؟

رأينا المفترى: لأن الماء هو الروح. انتهى.

- **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (85)**

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن لله روح، فهو الذي نفخ من روحه عندما خلق بشرا:

- **إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (72)**

وما أن دبت تلك الروح بذلك الجسد الذي خلقه الله (أي آدم) حتى تحرك، فسجد له الملائكة أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون من الساجدين.

وهذا الروح هو – برأينا- من ينفِّذ الأمر الإلهي:

- **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (82)**

وهذا الروح قادر على التمثل (أي التشكل)، بدليل أنه تمثل لمريم بشرا سويا:

- **فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (17) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (18) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (19)**

وهذا الروح قادر على التجزئة بدليل وجود الروح الأمين الذي نزل بالقرآن على قلب محمد:

- **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (195)**

فالروح الأمين هو الذي ينزل في البلد الأمين:

- **وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (3)**

وبدليل وجود روح القدس الذي كان مؤيدا للمسيح عيسى بن مريم:

- **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ (87)**
- **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا**

جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (253)

- **إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِىءُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (110)**

فروح القدس هو الذي ينزل بالأرض المقدسة (مدينة القدس):

- **يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (21)**

ولا شك عندنا أن هذه الروح هي مصدر الحياة لكل شيء. فما أن تدب الروح في ما هو ميت حتى يكون حيا.

السؤال: ما الذي يبعث الحياة فيما هو ميت؟

رأينا المفترى: إنه الماء:

- **أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (30)**

السؤال: ما علاقة هذا كله بالآلهة (الأصنام) التي هي من دون الله (وهي التي أضلت كثيرا من الناس)؟

- **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (35) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (36)**

رأينا المفترى: لما كانت الفلك تجري في البحر بأمر الله، فإن المحرك للماء هو الروح نفسه. انتهى.

سيناريو غريب جدا: لماذا نجد أن الكتلة المائية (كالبحر مثلا) دائمة الحركة؟ ما الذي يحرك الماء؟ ولماذا لا تتحرك الكتل الأخرى (كاليابسة) كما يتحرك الماء؟

الجواب: لأن الأرض اليابسة هي كتلة ميتة أصلا، فلا حراك فيها. ولا تدب فيها الحياة إلا لحظة أن ينزل عليها الماء (أي الروح):

- **وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (33)**
- يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5)
- **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39)**

نتيجة مهمة جدا: كل ما خلق الله فهو ميت لا حراك فيه، ولا تنبعث فيه الحياة إلا لحظة أن تدب الروح فيه. فالروح الموجودة في الماء هي مشغل الحياة لكل ما خلق الله. فالماء هو محرك الحياة.

نتيجة مهمة جدا جدا: نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن روح الله تسكن الماء. انتهى.

سيناريو مفترى من عند أنفسنا: في القديم كان الله وحده ولم يكن معه شيء، وكان عرش الله على الماء الأزلي، فخرج الروح من الماء، فكان هذا الروح هو المشغل الحقيقي للحياة فيما خلق الله من بعد ذلك. فإذا ما خلق الله خلقا، كان هذا الخلق جسدا لا حراك فيه، ولا تدب الحياة فيه (أي يتحرك) إلا إذا دخلته هذا الروح، فأصبح بذلك جسدا حيا.

تخيلات مفتراة (1): اذهب عزيزي القارئ إلى شاطئ البحر، واجلس هناك متأملا البحر بعضا من الوقت، ألا تجد أن الهدوء يسيطر على المكان؟ ألا تجد النفس المثقلة بمشاكل الحياة تهدأ عندما تجلس تنظر حركة الأمواج الهادئة في البحر العريض؟ ألا تجد هذا الشعور ملازما لك في أي وقت تقضيه عند البحر سواء كان ذلك في وضح النهار أو في وقت الغروب والشروق أو حتى في ظلمة الليل؟

حاول – بالمقابل - أن تجلس في الغابة أو في أي مكان في اليابسة القاحلة، كالوديان السحيقة أو كالجبال الشاهقة، هل تجد الشعور نفسه الذي يبعثه لك ماء البحر؟ لِم يسود الظلام ويسيطر الخوف على الإنسان في الأماكن القاحلة؟ ولم لا يحصل مثل هذا الشعور عند البحر؟ من يدري؟!!!

تخيلات مفتراة (2): لماذا كان الأكل مما يعيش على اليابسة مضبوطا بشرائع ربانية لا تُحِلّ لنا أن نأكل كل ما يعيش عليها؟ لكن بالمقابل لم نجد أن الله قد أحل لنا أن نأكل كل ما يعيش في البحر؟ فما السر في أن كل ما في البحر حلالا طيبا على إطلاقه؟ من يدري؟!!!

تخيلات مفتراة (3): لماذا نجد أن الله إلها في السماء وهو نفسه إله في الأرض بينما لا نجد أنه إلها فيما بينهما؟ وبالمقابل لماذا نجد أن الله رب السموات والأرض وما بينهما؟ من يدري؟!!!

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن كل ما خلقه الله للعبادة يسكن السماء أو الأرض، لكنه لا يسكن ما بينهما (الماء)، لذا فإن الإنس والجن (وهم من يسكنون الأرض والسماء) هم المكلفون أصلا بعبادة الله:

- وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56)

فلا يقتربون من الماء، ولا يستطيعون العيش فيه، لكنهم يستطيعون العيش في السماء والأرض، لذا فإن السر في بعث الطمأنينة في النفوس عند الاقتراب من شاطئ البحر هو (نحن نفتري الظن) عدم وجود الشياطين في المكان، لكن مثل هذا الشعور لا يحدث في أصقاع الأرض كلها لأنها أصلا مواطن للإنس وللجن. فالخوف الذي قد يمتلك في ساعات الظلمة على اليابسة مبعثه وفرة الشياطين (وكثير من الإنس) في المكان على عكس الماء الذي ينعدم فيه حضور الشياطين والناس.

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن الماء هو موطن الروح الذي يبعث الحياة في كل شيء. فما هو موجود في البحر (الماء) فإن الله ربه، لكنه غير مكلف بعبادة الله، بينما نجد أن اليابسة هي موطن من هو مكلف بعبادة الله.

السؤال: لماذا كان الماء قديما بقدم الإله نفسه؟

رأينا المفترى: لأن الماء هو روح الله. لذا فهو ليس مخلوقا، بل هو جزء من الإله نفسه. فإله بدون الماء لا يستطيع أن ينفذ أمره:

- بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (117)

- قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (47)
- إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (59)
- وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوْلُهُ الْحَقُّۚ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِۚ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (73)
- إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (40)
- مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍۖ سُبْحَانَهُۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (35)
- إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (82)
- هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (68)

فروح الله هو – برأينا- المنفذ الفعلي لما يقول الله نفسه (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ).

انتهى.

نتيجة مفتراة (1): ليس هناك قوة في الكون تستطيع أن تصمد أمام روح الله (الماء).

نتيجة مفتراة (2): الله ينفذ رحمته بروحه

نتيجة مفتراة (3): الله ينفذ عذابه بروحه

السؤال: ما الذي يسيّر هذه الروح؟

جواب: إنه القول الإلهي

السؤال: وما هو القول الإلهي؟

رأينا: إنه السر الموجود في السماء والأرض والذي يعلمه الله.

- قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (6)

نتيجة مفتراة: تتحرك الروح بمجرد صدور القول الإلهي لها. فالقول الإلهي هو عبارة عن شيفرة خاصة جدا تتلقاه الروح، فتقوم بتنفيذ المراد على الفور، لذا فإن الروح تتحرك بالقول.

السؤال: وكيف يكون ذلك؟

رأينا: عندما يريد الله شيئا، فكل ما يفعله هو أن يقول "كُن"، أليس كذلك؟

السؤال: كيف يمكن أن فهم هذا القول الإلهي؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نفتري القول أن مراد الله هو الكاف فقط، فكل ما يريد الله تنفيذه موجود في هذا الحرف.

السؤال: وما هو النون؟
جواب مفترى خطير جدا جدا: إنه القوة الموجهة لها القول الإلهي من أجل تنفيذه المراد الإلهي على أرض الواقع، أي هي الروح. فيصبح المعنى (كما نفهم على النحو التالي:
عليك يا نون (أي الروح) أن تقوم بتنفيذ هذا المراد الإلهي (أي الكاف).
السؤال: ما الذي يحدث بعد ذلك؟
رأينا: يقوم الروح (نون) بتنفيذ المراد الإلهي (الكاف) في الحال (فَيَكُونُ)
السؤال: ما معنى ذلك؟ أي ما معنى (فَيَكُونُ)؟

افتراء خطير جدا (1): الفاء هي الفترة الزمنية التي يتطلبها تنفيذ المراد الإلهي، فقد يحتاج مراد الإله (1) إلى لحظة واحدة لتحقيقه:

- **وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (50)**

وقد يحتاج المراد الإلهي (2) إلى ليلة لتنفيذه على أرض الواقع:

- **قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (81)**

وقد يحتاج المراد الإلهي (3) إلى ثلاثة ايام لتنفيذه:

- **فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (65) فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (66)**

وهكذا. لذا تتفاوت الفترة الزمنية (نحن نفتري القول) بتفاوت المراد نفسه.

افتراء خطير جدا (2): الياء هي تحقق المراد الإلهي (أي الكاف) على أرض الواقع. فيصبح المراد الإلهي حقيقة واقعة على الأرض

افتراء خطير جدا (3): الواو هي الطريقة التي يتم تنفيذ المراد الإلهي، لذا فكل قول إلهي يتحقق على أرض الواقع بطريقة محددة تختلف عن الطريقة الأخرى.

افتراء خطير جدا (4): النون هي القوة التي تنفذ كل ذلك على أرض الواقع (أي هي الروح).

(وسنتحدث عن الطريقة الفعلية للأمر الإلهي لاحقا بحول الله وتوفيقه، فالله وحده أسأله أن يأذن لي الإحاطة بشيء من علمه فيها لا ينبغي لغيري إنه هو العلي العظيم – آمين)
السؤال: من يستطيع أن يحرك تلك الروح لتفعل فعلها؟
جواب: من يملك القول الذي يسيرها.

السؤال: هل يمكن أن أملك أنا (أو أنت) هذا القول لأجعل الروح تفعل لي ما أريد.

جواب مفترى خطير جدا: نعم.

الدليل: الآلهة التي أضلت كثيرا من الناس

لقد تمكنّ بعض عباد الله من معرفة هذا السر، ولكن بدل أن ينسبوا الفضل فيه لصاحبه (وهو الله نفسه)، استخدموه كإفك، فأضلوا الناس على علم.

السؤال: ما الذي يمكن أن تحركه هذه الروح بالقول الصادر لها؟

رأينا المفترى: إنها قوى الطبيعة الخمسة، وهي على النحو التالي:

⇐ الرياح

⇐ التراب

⇐ النار

⇐ الصوت

⇐ الضوء

باب الريح والرياح

بداية، لا شك عندنا أن الله قد بيّن لنا في كتابه الكريم أن هناك الريح، قال تعالى:

- **مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَـٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (117)**
- **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (46)**
- **هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (22)**
- **وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ (94)**
- **مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (18)**
- **أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (69)**
- **وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (81)**
- **حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (31)**
- **وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (51)**
- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (9)**

- وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (12)
- فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (36)
- فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ (16)
- إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (33)
- فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (24)
- وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (41)
- إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (19)
- وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6)

وأن هناك الرياح، قال تعالى:

- إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164)
- وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (57)
- وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (22)
- وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (45)
- وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (48)
- أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (63)
- وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (46)
- اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (48)
- وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ (9)

وقد حاولنا في مقالات سابقة لنا التمييز بين الريح من جهة والرياح من جهة أخرى، فحاولنا بداية تفنيد الفكر السائد الذي ظن أن مفردة الرياح تدل على الخير بينما تدل مفردة الريح على الشدة والصعوبة وربما العذاب، وهم الذين ظنوا أن ذلك ما يمكن استنباطه من قوله تعالى:

- وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (57)

مقابل ما جاء في قوله تعالى:

- فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (24)

وقد حاولنا حينئذ إلقاء ضلال الشك على هذا الرأي السائد، مستندين في ذلك على ما جاء في قوله تعالى:

- إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (33)

و ما جاء في قوله تعالى:

- هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (22)

و ما جاء في قوله تعالى عن ريح يوسف التي وجدها أبوه يعقوب يوم أن فصلت العير:

- وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ (94)

فهذه الآيات الكريمة تنقض (نحن نرى) كل ما جاءنا من عند أهل الدراية عن فهمهم لمفردة الريح، فالريح لا تدل على الشدة والعذاب (كما زعموا) بدليل ريح يوسف التي كانت فعلا رحمة ليعقوب ولآل يعقوب كلهم أجمعين. فهل كانت ريح يوسف التي وجدها يعقوب لحظة أن فصلت العير تحمل في معانيها العقاب والعذاب؟ هل وقع على يعقوب (أو ربما على قومه) العذاب بسبب ريح يوسف؟ فأين - يا ترى- معنى العذاب أو العقوبة في "رِيحَ يُوسُفَ"؟

إننا نعتقد جازمين بأن ريح يوسف هي ريح فيها الخير والبركة، فهي التي حملت البشرى ليعقوب بانتهاء سنين "بثه وحزنه" على فراق ولده. فمفردة الريح هنا – على عكس ما قاله أهل العلم تماماً- تدل على وجود الرحمة والخير والبركة. والقرآن نفسه يبين لنا بما لا يدع مجالاً للتأويل بأن هناك ريح طيبة وهناك ريح عاصفة (وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ).

نتيجة مفتراة: نحن نفتري الظن بأن الريح – على عكس ما وصلنا من عند أهل الدراية – تدل على الخير.

السؤال: ومتى يكون في الريح العذاب؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الريح لا يمكن أن يكون فيها العذاب إلا إذا أدخل هذا العذاب فيها إدخالا.

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب مفترى: دعنا ندقق في السياق القرآني التالي:

- مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (117)

ألا ترى - عزيزي القارئ- أن هذه الريح (فِيهَا صِرٌّ). ألا يكون ذلك الصر قد أدخل في الريح إدخالا. ولو تدبرنا السياق القرآني التالي لوجدنا أن العذاب الأليم قد أدخل في الريح إدخالا:

- فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (24)

السؤال: ما الذي تريد قوله إذن؟ يسأل صاحبنا.

رأينا المفترى: نحن نظن أن الريح (التي هي في الأصل تحمل الخير):

- وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (46)

تنقلب على الفور إذا ما أدخل فيها "العذاب"، فقد تصبح ريحا عاصفا:

- هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (22)
- مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (18)

وقد تصبح قاصفة:

- أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (69)

وقد تصبح هاوية:

- حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (31)

وقد تكون مصفرة:

- وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (51)

وقد تصبح صرصرا:

- فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ (16)
- إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (19)

وقد تصبح صرصر عاتية:

- وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6)

وتصبح عقيما:

- وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (41)

وقد يصبح فيها العذاب الأليم:

- فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (24)

فهي إذن في نهاية المطاف مرسلة لغاية محددة بعينها، فتفعل فعلها كما تفعل جنود ربنا الذين لا نراهم فعلا وإن كنا نجد أثر فعلهم:

- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (9)

أما الرياح – بالمقابل - فهي التي تجلب الأمطار والخير للناس:

- **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164)**
- **وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (57)**
- **وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (22)**
- **وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (48)**
- **أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (63)**
- **وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (46)**
- **اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (48)**
- **وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ (9)**
- **وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5)**

وهي نفسها التي تذروا الهشيم:

- **وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (45)**

السؤال: ما الفرق بين الريح والرياح إذن؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نعتقد جازمين بأن الفرق بين الريح من جهة والرياح من جهة أخرى يعود إلى الأصل وليس إلى النتيجة. فلو تدبرنا السياق القرآني التالي:

- **فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (24)**

لوجدنا أن هذا السياق القرآني يصور لنا الفرق بين ظن القوم الذين سيقع عليهم العذاب من جهة وحقيقة ذلك الشيء الذي يرونه بأم أعينهم من جهة أخرى. فلقد كان ظن القوم على نحو أن ما رأوه ليس أكثر من عارض مستقبل أوديتهم فقط، فهو إذن من قبيل ما يجلب لهم المطر (قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا)، ولكن تبين فيما بعد أنها ريح فيها عذاب أليم (بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ). فأصبح هناك تعارض واضح بين ظن القوم وحقيقة الشيء الذي يرونه بأم أعينهم.

ولو تدبرنا طبيعة ردهم أكثر، لربما حق لنا أن نظن أن العارض الممطرهم (الذي ظنوه) هو ما يشبه الرياح وليس الريح، فمعظم سياقات القرآن الكريم التي وردت فيها مفردة "الرياح" تصورها على أنها تحمل في ثناياها البشرى، ولكن الدقة تستدعي القول أنهم لم يذكروا أنها رياح بصريح اللفظ، ولكنهم ذكروا أنها "عارض

ممطرهم"، لنستنتج مفترين القول أنهم لم يكونوا جازمين أمرهم أنها رياح ولكنها – حسب ظنهم- حاملة لهم البشرى بالمطر بكل تأكيد:

- **وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (57)**
- **وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (22)**
- **وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (48)**
- **أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (63)**
- **وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (46)**

لكن نجد - في المقابل – أن الله يكذّب ظنهم ذاك، ليصحح المعلومة المغلوطة عندهم بقوله تعالى (بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ)، لنجد أنه في حين أن ظنهم كان على نحو أن ذلك الشيء الذي يرونه بأم أعينهم هو عارض ممطرهم (أي ما يشبه الرياح التي تحمل في ثناياها بشرى المطر) تبين لهم فيما بعد أن ذلك الشيء هو في حقيقته ريح فيها عذاب أليم (رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ)، فالتقابل هو بين ما يشبه الرياح (كما يظنون هم) والريح التي فيها عذاب أليم (كما هي فعلاً)، أليس كذلك؟

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: مادام أن هذه ريح فيها عذاب أليم (رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ)، فلابد إذن من وجود ريح من نوع آخر قد لا يكون فيها عذاب أليم كما في قوله تعالى:

- **هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (22)**

فهناك إذن ريح طيبة وهي التي تجلب الخير وهناك – بالمقابل- ريح عاصف وهي التي تحمل معها العذاب.

وليس أدل على تلك الريح الطيبة من ريح يوسف وهي التي جلبت الخير ليعقوب (فارتد إليه بصره) ولقومه جميعاً، فلقد انقضى حزن يعقوب مع تلك الريح:

- **وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ (94) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (95) فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (96) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (97)**

السؤال: كيف يمكن إذن أن نفهم معنى مفردة الريح في هذا السياق القرآني؟ وكيف يمكن أن نربطها مع مفردة الريح نفسها التي وردت في قصة عذاب القوم التي تصورها الآية التي تعرضنا لها سابقاً:

- **فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (24)**

افتراء من عند أنفسنا: إننا نظن أن مفتاح الفهم هو ما وضعنا تحته خطاً في السياقات التي تتحدث عن يوسف وهو "لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ" و "إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ"، فالسياقات القرآنية تثبت أن من كانوا حول يعقوب حينئذ لم يكونوا يدركون حقيقة تلك الريح، ولكن الشخص الوحيد الذي عرف حقيقتها هو يعقوب نفسه. فالذين كانوا حينئذ حول يعقوب كانوا بلا شك خاطئين بدليل أنهم هم أنفسهم قد اعترفوا بخطئهم ذاك عندما قالوا "إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ"، أليس كذلك؟

والآن لنربط السياقين القرآنيين معاً من هذا المنظور الذي نظن (ولا نجزم) أنه صحيحاً: هناك شيء قادم من بعيد، قد لا يدرك البعض حقيقته أصلاً كما هي حال من كان حول يعقوب، وقد يخطئ البعض في فهم ماهيته إن هم رأوه (كحالة القوم الذين ظنوا أنه عارض ممطرهم)، فيظنون (ربما من شكله الخارجي الذي يرونه بأم أعينهم) أنه شيء ما، فيتبين فيما بعد أنه ليس ذلك تماماً، وأنهم بلا شك مخطئون في ظنهم، فلقد ظن أهل القرية الذين استقبلهم العذاب أن ذلك عارض ممطرهم، وتبين بعد ذلك أنها ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها. وظن من كان حول يعقوب أن الرجل لازال في ضلاله القديم، فلم يدركوا حقيقة ذلك الشيء القادم إليهم من بعيد، وتبين لهم بعد ذلك أنها فعلا ريح يوسف وقد جلبت لهم البشرى بنجاة يوسف وانتهاء سنين حزن يعقوب على ضياع ولده.

نتيجة مهمة جدا: نحن نعتقد جازمين بأن مفردة الريح تشير إلى تلك الكينونة التي يصعب التنبؤ بها من ظاهرها، لأن حقيقتها على غير ما يمكن أن يبين لنا من ظاهرها. إنها تحتوي على عنصر المفاجأة بغض النظر عن النتيجة سواء كان ذلك عذاباً (كما كان في حالة عذاب القوم) أو رحمة (كما كان في حالة ريح يوسف). فالريح هو ذلك التيار الهوائي الذي لا نستطيع أن نفهم كنهه من ظاهره. فأنت قد تظن أنه شيء ما، ويتبين لك فيما بعد أنه شيء آخر غير الذي ظننت. لذا لابد من علم يأذن الله لك به لتعلم كنهه كما فهم ذلك يعقوب ولم يفهمه من هم حوله، فهو على علم لم يحط به من كان حوله:

- **وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (94) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (95) فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (96)**

وكـ أخ عاد، نبي القوم الذي أنذر قومه بالأحقاف:

- **وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (21) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (23) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (24) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (25) وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (26)**

ولو تدبّرنا تتمة السياق القرآني لوجدنا أن الله يبيّن لنا أن سمع القوم وأبصارهم وأفئدتهم لم تغني عنهم شيئاً، لأنها ببساطة لم تساعدهم في فهم كنه ذاك الزائر القادم إليهم من بعيد ويحمل في ثناياه العذاب الأليم.
(دعاء: اللهم رب أسألك أن لا تجعلني ممن لا يغني عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء)

نتيجة مفتراة: الريح هي ذلك التيار الهوائي الذي يأتي على الدوام بشيء مفاجئ، لذا نحن نفتري الظن أنها (أي الريح) غير مفهومة عند الذين لا يعقلون، لأن سمعهم وأبصارهم وأفئدتهم قد لا تغني عنهم شيئا، ولكنها تحتاج إلى الذين يعلمون لكي يدركوا ماهيتها.

أما الرياح – بالمقابل- فإننا نعتقد أنها هي التي نعرفها من ظاهرها، والتي لا تحمل عنصر المفاجأة إطلاقاً:

- **وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (57)**
- **وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (22)**
- **وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (48)**
- **أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (63)**
- **وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (46)**

ولو تدبرنا بعض سياقاتها القرآنية، لوجدنا القرآن الكريم يصور الرياح على أنها آيات للقوم الذين يعقلون، أي يستطيعون أن يخضعوها للتعقل (أي الدراسة):

- **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164)**
- **وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5)**

نتيجة مفتراة: الرياح هي ظواهر تخضع للعقل البشري، لذا يمكن دراستها، وفهم ماهيتها. فهي التي تثير سحاباً (وهو ما لم يذكر إطلاقاً في حالة الريح):

- **اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (48)**

- وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ (9)

والرياح تصرف تصريفا:

- وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164)
- وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5)

فالعلم الذي يعنى بدراسة ماهية هذه الرياح هو علم التصريف، أي علم تصريف الرياح.

أما الريح، فهي بحاجة إلى قوم يعلمون، فهي إذن بحاجة إلى من يملك علما كيعقوب مثلا:

- قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (86)

ولو تدبرنا قصة سليمان مثلا جيدا، لوجدنا أن الريح حاضرة فيها، فهي التي سخرها الله تسخيرا لسليمان:

- وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (81)
- وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (12)
- فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (36)

فجميع السياقات القرآنية التي تتحدث عن ريح سليمان تصورها لنا بأنها ريح خاصة بسليمان نفسه، لذا لا يستطيع الآخرون أن يتنبئوا بها أو أن يفهموا كنهها، وذلك لأن قوانينها لا تخض للتعقل (أي للذين يعقلون) وإنما للعلم (للذين يعلمون)، ونحن لا نشك قيد أنملة أن سليمان كان من الذين يعلمون:

- وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (78) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (79) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ (80) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (81)

ولكن الذي يلفت الانتباه في قصة "ريح سليمان" هي الحقيقة القرآنية بأن تلك الريح كانت عاصفة:

- وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (81)

فكيف إذن هي؟ وما معنى أن تكون تلك الريح عاصفة؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نزعم الظن أن مفردة "عاصفة" جاءت هنا لتصور لنا سرعة تلك الريح، ولكن كيف؟

جواب: لو تدبرنا السياق القرآني التالي، لوجدنا أن الريح العاصف هي النقيض من الريح الطيبة؟

- هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (22)

ففي حين أن الريح الطيبة هي الريح التي يشتهيها من كان يركب الفلك في البحر، فإن الريح العاصف هي التي لا يتمناها من كانت تلك حالته، وذلك لأن الريح العاصف تكون بلا شك سريعة جداً لدرجة أنها قد تغرق الفلك التي يركبونها.

نتيجة: الريح العاصف هي الريح السريعة جداً، وليس أدل على ذلك مما جاء في الآية الكريمة التالية:

- **مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (18)**

افتراء من عند أنفسنا: لذا نحن نفتري الظن بأن ريح سليمان كانت ريحا سريعة جداً لأنها كانت عاصفة، ولكن مع ذلك فهي كانت تجري بأمره رخاء:

- **فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (36)**

لذا، كانت حركتها مقيدة بأمر من سليمان، فهو يستطيع أن يتحكم بسرعتها لدرجة أن يجعلها تسير به بسرعة شديدة (عاصفة)، كما يستطيع أيضا أن يبطئ حركتها لأنها كانت تجري بأمره رخاء، وهو يستطيع أن يوقفها حيثما أراد، لأنها كانت تجري بأمره رخاء حيث أصاب. فما معنى "حيث أصاب"؟

جواب: نحن نظن أن العبارة تدل على مقصد الرحلة (destination)، انظر السياقات القرآنية التي تصور لنا المكان (أو القوم) الذي انتهت إليه تلك الريح أو الرياح:

- **مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (117)**
- **اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (48)**

فنحن نظن أن عبارة حيث أصاب تشير إلى المكان الذي كان يريد أن يصل إليه، أي مقصد الرحلة.

دعنا إذن نلخّص عرضنا السابق حول مفردتي الريح والرياح بالنتائج المفتراة من عند أنفسنا التالية:

الرياح: كلمة تدل على جمع، تأتي بما هو مألوف، ولا تحمل في ثناياها عنصر المفاجأة، ويمكن إخضاعها للتعقل، لذا فهي آيات للذين يعقلون.
الريح: كلمة تدل على المفرد، تأتي بما هو ليس مألوفا، فتحمل في ثناياها عنصر المفاجأة، ولا يمكن إخضاعها للتعقل ولكنها بحاجة إلى العلم، لذا فهي آية للذين يعلمون

السؤال: ما فائدة هذا الظن؟

رأينا المفترى: إن ما يهمنا التركيز عليه هنا هو مفردة الريح وليس الرياح، لأن الرياح (نحن نظن) تجري حسب قوانين الطبيعة التي يمكن إخضاعها للدراسة النظرية والتجربة العملية، فقد نستطيع (نحن البشر العاديين) فهم كيفية تصريف الرياح. أما ما يصعب على الناس فهمه فهو كيفية تسخير الريح، كالتي سخرها الله لسليمان، أو كالريح التي تجيء بالخير كما في حالة ريح يوسف، أو تلك التي تأتي بالعذاب الشديد كالتي أرسلها الله لعذاب الأقوام السابقة. فهذه تحتاج إلى من عنده علم من الله ليدرك ماهيتها.

(دعاء: رب هب لي علما لا ينبغي لغيري إنك أنت العليم الحكيم – آمين)

ولو دققنا في هذه الريح (وهي التي تحمل في ثناياها عنصر المفاجأة)، لوجدنا أنها على أنواع كثيرة، فمنها مثلا ريح فيها صر، وهي التي تهلك الحرث:

- **مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَـٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (117)**

ومنها الريح الطيبة التي تسيّر الفلك في البحر، في مقابل الريح العاصف التي تهدد سير الفلك في البحر:

- **هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (22)**
- **مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (18)**

ومنها الريح القاصف التي تسبب الغرق:

- **أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (69)**

ومنها الريح التي تهوي بالناس في المكان السحيق:

- **حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (31)**

ومنها الريح المصفرة:

- **وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (51)**

ومنها الريح الصرصر التي تذيق الناس عذاب الخزي في الحياة الدنيا:

- **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ (16)**
- **إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (19)**

ومنها الريح الصرصر العاتية التي أهلكت عاد:

- **وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6)**

ومن مواصفات تلك الريح أيضا أنها ريح عقيم:

- **وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (41)**

ومنها الريح ذات العذاب الأليم:

- **فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (24)**

وأخيرا، فإن المتدبر للسياقات القرآنية الخاصة بالريح والرياح، فإنه يجد على الفور إن الرياح تصرف تصريفا:

- **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164)**

- وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5)

بينما تسخر الريح تسخيرا:

- فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ (36)

فهي إذن مرسلة لغاية محددة بعينها، فتفعل فعلها كما تفعل جنود ربنا الذين لا نرى فعلها:

- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (9)

السؤال: ما الذي يجعل هذه لريح قادرة على فعل كل هذه الأفاعيل؟

رأينا المفترى: إنه الأمر الإلهي

السؤال: ما معنى ذلك؟

جواب: إنه الروح

السؤال: لم أفهم شيئا. ما الذي تقصده بالضبط؟

رأينا المفترى: الريح هي جند من جنود الله، يستخدمها لتنفيذ ما يشاء بمن يريد، فيصدر قوله الحق، فيتولى تنفيذ ذلك أمره، وهو الروح نفسه، فيتشكل بالطريقة المناسبة للغرض المنوي فعل، فإذا ما أرادها أن تهلك حرث قوم ظلموا أنفسهم، كانت تلك الريح ريح صر:

- مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (117)

وإذا ما أرادها أن تهلك الفلك في البحر كانت ريحا عاصفا:

- هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِۖ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْۙ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (22)

وإذا ما أرادها أن تغرق الناس حتى على اليابسة كانت ريحا قاصفا:

- أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (69)

وإذا ما أرادها أن تهلك قوما فلا تذر لهم باقية، كانت ريحا صرصرا عاتية، وكانت في الوقت ذاته ريحا عقيما:

- وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (7) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ (8)
- وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (41) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (42)

وإذا ما أراد أن يعذب بها عذابا أليما، حتى كانت ريح فيها عذاب أليم، فدمرت كل شيء بأمر ربها:

- فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (24) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (25)

نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا: إن القوة الكامنة في هذه الريح هي أمر الرب، إنها الروح.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: تكون الرياح وافرة في الطبيعية تتحرك بقوانين الطبيعة العادية التي يمكن للبشر أن يتدارسونها، فيعقلونها. ولكن ما أن يأتي الوقت المناسب والظرف اللازم لتحقيق المراد والمشيئة الإلهية بقوم ما، حتى يصدر الله قوله لأمره (أي للروح)، فتخرج تلك الروح الإلهية الموكلة بتنفيذ القول الإلهي من الماء، فتسكن في تلك الرياح، فتنقلب على الفور لتكون ريحا خاصة جدا بعد أن كانت رياحا عادية (طيبة)، فتتحرك تلك الريح إذن بأمر ربها، فما أن تحل بقوم حتى تفعل فعلها فيهم. فإذا ما تشكلت على نحو ريح صر حتى كانت النتيجة إهلاك حرث القوم الذين ظلموا أنفسهم، وإذا ما تشكلت على نحو ريح قاصف حتى تكون النتيجة إغراق أولئك القوم، وهكذا.

السؤال: ما فائدة هذا الظن؟

رأينا: إذا ما كنت أنا صاحب علم حقيقي بطريقة تحريك هذه الريح، فإنني أستطيع أن أنفذ بواسطتها ما أريد.

السؤال: هل فعل أستطاع أحد من تحصيل العلم الحقيقي الذي يتحكم بالريح؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نعم، لقد استطاع بعض الناس الوصول إلى هذا العلم.

السؤال: وكيف استغلوا ذلك؟

رأينا المفترى: عمد من كان عنده هذا العلم من الذين أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم إلى تخزين ما وصلهم من علم حقيقي عن كيفية تسخير الريح في بعض الأصنام، فكانت هذه الأصنام عبارة عن أوثان، أي آلهة من دون الله، فعبدها المغفلون من الناس، لظنهم أنها هي من تقوم بهذه الأفعال الخارقة لنواميس الطبيعة. فكانت تلك هي بعض الأصنام التي أضلت كثيرا من الناس. فهم الذين ظنوا أن هذه الأصنام هي من لديها القدرة على التحكم بقوى الطبيعة كقوة الريح هذه.

والمنطق نفسه ينطبق على قوى الطبيعة الأخرى، كالضوء:

- **وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ (43) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ (44) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ (45)**
- **وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (67)**
- **وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (94)**
- **فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (73)**
- **فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (83)**
- **فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (41)**
- **يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (42)**

ويكون العذاب لا شك مناسبا لنوع المعصية:

- **فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (40)**

نتيجة مفتراة: يتوافر في الطبيعة قوى حقيقة قابلة للدراسة بالعقل البشري، لكن ما أن يأتي القول الإلهي لأمره حتى يدخل ذلك الأمر (الروح) في تلك القوى، فتصبح مسيّرة به، فتفعل فعلها الذي يخرج عن قدرة العقل البشري العادي. ولا يستطيع أن يفهم ماهيتها إلا الذين آتاهم الله رحمة منه وعلمهم من لدنه علما.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: ما أن وصل هذا العلم إلى أيدي بعض الناس خاصة الذين آثروا الحياة الدنيا على الآخرة حتى عمدوا إلى التغطية على هذا العلم، فحجزوه عن الناس العاديين، ومن ثم أسروه لأنفسهم فما عاد متاحا بأيدي غيرهم، وحتى يستطيعوا إطفاء نور الله بأفواههم، وتضليل من حولهم قاموا بتخزين هذا العلم في أصنام، فأضلت الناس عندما ظنّ الكثيرون أن هذه الأصنام قادرة على فعل الأعاجيب، فكانت أوثانا عبدها الناس كآلهة من دون الله.

سؤال: من أول من توافر بين أيديهم هذا العلم العظيم؟

رأينا المفترى: نحن نفتري القول بأن قوم نوح كانوا هم الأظلم والأطغى على مر التاريخ. فهم الذين حيز لهم العلم الحقيقي بقوى الطبيعة الخمسة، وهي الرياح والتراب والنار والصوت والضوء.

- **وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (23)**

فكانت هذه ليست أكثر من أوثانا قد خلقوا فيها إفكا:

- **إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (17)**

وكان الهدف من ذلك هو المودة في الحياة الدنيا فقط:

- **وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (25)**

فكان قوم نوح هم القوم الأشد على مر التاريخ:

- **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (17)**

وأخذت القوة (بسبب العلم المتوافر في هذه الأصنام) تتناقص شيئا فشيئا:

- **قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78)**

وكان السبب في ذلك – برأينا- هو عدد هذه الأصنام. فمادام أنه كان في قوم نوح خمسة أصنام، فقد كانوا قادرين على التحكم بقوى الطبيعة الخمسة. ثم ما لبث العلم المخزون في هذه الأصنام أن يتلاشى واحدا بعد الآخر، فأصبح هناك أمة عندها أربعة أصنام، ثم جاءت أمة تملك العلم المخزون في ثلاثة، ثم أثنين ثم واحد، ثم انتهى ذلك وتلاشى كله كما نجد الآن في قرننا الحالي. فالعلم المخزون بواحدة من هذه الأصنام لم يعد متوافرا فينا الآن.

النتيجة: لقد استخدم الذين اتخذوا إلههم هواهم ما هو من عند الله (علم الروح) ليضلوا الناس عن علم:

- **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (23)**

- **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ (77)**

فهؤلاء (كفرعون والسامري مثلا) قد فعلوا ذلك بما تحصل لهم من العلم: إنه علم القرون الأولى

- **قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (51) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (52)**

السؤال: وهل يمكن لنا أن نحوز على علم القرون الأخرى من جديد؟

جواب: نعم بكل تأكيد

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب مفترى: اللهم أدعوك وحدك أن أكون ممن علمتهم من لدنك علما لا ينبغي لغيري إنك أنت العليم الحكيم. وأدعوه وحده أن يعلمني ما لم أكن أعلم، وأن يزدني علما وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا. وأدعوه وحده أن يؤتيني رشدي، وأعوذ به أن يكون أمري كأمر فرعون، وما أمر فرعون برشيد، إنه هو العليم الخبير – آمين.

وللحديث بقية بإذن الله

المدّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان & المهندس يزن علي سليم الجراح

بقلم د. رشيد الجراح



قصة يونس

الجزء الأربعون



قصة يونس – الجزء الأربعون

زعمنا الظن في الجزء السابق من هذه المقالة بأن الماء لم يُخلق خلقا كما خُلقت السماوات والأرض، كما افترينا القول بأن الماء أزلي وهو موطن الروح، فمن الماء خرج الروح، وهو بذلك مصدر الحياة والموت. كما افترينا القول بأن الروح هو الذي يدخل في الرياح التي تصرف تصريفا، فتنقلب على الفور لتكون ريحا مسخرة تسخيرا، فترسل لهدف محدد، فتتحرك إذن بأمر ربها. فقد ترسل من أجل جلب الخير للناس كالريح الطيبة التي تجري بالفلك في البحر، وكريح يوسف التي ردت إلى يعقوب بصره. فارتداد بصر يعقوب إليه كان (نحن نفتري الظن) بسبب الروح التي جاءت مع قميص يوسف. فالروح هي الشفاء من السقم. وبالمقابل، فإن هذه الروح قد تنقلب لتكون مصدر العذاب، كما حصل مع الأمم السابقة، وهم اللذين جاءتهم الريح الصرصر، والريح العاتية، والريح المصفرة، والريح العقيم، والريح العاصف، والريح القاصف، والريح التي فيها صر، والريح التي فيها العذاب الأليم.

نتيجة مفتراة: الريح تتحرك بأمر ربها (أي بالروح)، وهذا الروح هو من أمر الله:

- وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (85)

لذا، لا نجد في كتاب الله أن العذاب قد وقع على قوم إلا لحظة أن يجيء أمر الله، قال تعالى:

- حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ ۚ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (40)
- وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (58)
- فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (66)
- يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۖ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (76)
- فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (82)
- وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (94)
- وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (101)
- فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ۙ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (27)
- وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (78)
- يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (14)

والله هو من يستطيع أن يأتي بأمره:

- وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (109)
- إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (54)
- قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (24)
- اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (32)
- وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (12)
- لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (27)
- وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (81)
- أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (65)
- وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ (25)
- وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (46)
- فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (36)
- اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12)

ولكن هذا لا يمنع أن يُؤتي الله بعضا من عباده شيئا من الملك، فتصبح تلك الروح في ذلك الشيء على وجه التحديد تجري بأمر بعض عباد الله كما حصل مع سليمان:

- وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (81)
- فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (36)

فكانت الريح عاصفة تجري بأمر سليمان رخاء حيث أصاب، أليس كذلك؟

ولو دققنا في الآيات الكريمة، لوجدنا أنه كما أن الريح مسخرة بأمر الله، فإن النجوم مثلا مسخرات أيضا بأمره، لذا نحن نفتري الظن بأنه لو آتي الله عبدا من عباده ملكا يخص النجوم مثلا (كما آتى الله سليمان ملكا يخص الريح)، لسُخّرت تلك النجوم له، فأصبحت تجري بأمره:

- إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (54)
- وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (12)

ولو حاولنا عقد مقارنة بين ما كان لداوود مع ما كان لولده سليمان، لوجدنا أن الله قد سخر الجبال لداوود:

- **فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (79)**
- **إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (18)**

بينما نجد أن الله قد سخر الريح لسليمان:

- **فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (36)**

لكن المفارقة العجيبة تكمن – برأينا- أن تسخير الجبال لداوود لم يكن بوجود الأمر (وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ)، بينما تسخير الريح لسليمان فقد كان بوجود الأمر (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ).

السؤال: ما الفارق بين الحالتين؟

رأينا المفترى: لما كانت الرياح مسخرة بأمر سليمان، كان النتيجة الطبيعية لذلك أن تجري الرياح رخاء حيث أصاب. فحركة الريح تعتمد على ما يريده سليمان نفسه، لذا، فهي تشتد وتتباطأ وتتوقف بأمر سليمان نفسه (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ). لكن لما كانت الجبال مسخرة مع داوود (وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ)، لم يكن ذلك بأمره، فلم تكن حركة الجبال مقيدة بما يريده داوود، فالجبال أصلا تمر مر السحاب:

- **وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (88)**

فحركة الجبال مقدرة من الله تقديرا، لا يتدخل داوود في حركتها بشيء وإن كانت مسخرة معه، لكنها لا شك تسبح:

- **فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (79)**

وهي أيضا تئوب مع داوود:

- **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (10)**

السؤال: لماذا كانت الجبال تسبح؟ وما السر الذي يجعل الجبال تسبح؟ وكيف كانت تئوب مع داوود؟

جواب مفترى: إنه الروح

تخيلات مفتراة: افترينا الظن في الأجزاء السابقة من هذه المقالة بأن الجبال هي عبارة عن مستقطبات الروح، فالروح الكامنة في الجبال هي التي تجعل الجبال تتحرك، فتمر مر السحاب:

- **وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (88)**

فحركة الجبال تشبه تماما حركة السحاب المسخر بين السماء والأرض. وبالرغم أن السحاب يتكون بين السماء والأرض بحجم لا يقل عن حجم الجبال:

- **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (43)**

إلا أنها تتحرك، فتمر مر السحاب. فالروح (أو لنقل الطاقة) الكامنة في الجبال هي الكفيلة (نحن نظن) بديمومة حركتها الثابتة التي لا تتغير، وربما لهذا السبب نجد أن بعض الأقوام السابقة قد اتخذت من الجبال بيوتا:

- وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (74)

فكانوا آمنين،

- وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (82)

وكانوا فارهين:

- وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (149)

فهؤلاء الذين اتخذوا من الجبال بيوتا آمنين هم أصحاب الحجر، فكان عقابهم بالصيحة:

- وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (80) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ (81) وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (82) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (83) فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (84)

وهم – لا شك عندنا - قوم صالح:

- وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (61) قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (62) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةً مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (63) وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (64) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (65) فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (66) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (67) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّثَمُودَ (68)

فهم ثمود:

- كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (141) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (142) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (143) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (144) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (145) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (146) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (147) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (148) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (149)

السؤال: لماذا اتخذت ثمود من الجبال بيوتا؟ وما سر تلك البيوت؟

جواب مفترى: نحن نظن أن قوم صالح كانوا على علم بسر الروح الكامنة في الجبال، فاستفادوا منها من أجل منفعتهم الشخصية. فكانت بيوتهم هي مصدر الأمان الذي تحصل لهم:

- وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (82)

وبهذا الفهم المفترى يمكن أن نستوعب السر في الوحي الإلهي للنحل بأن تتخذ من الجبال بيوتا:

- وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68)

وبهذا الفهم المفترى يمكن أن نستوعب السر في أن يكون مما يخرج من بطون هذا النحل فيه شفاء للناس:

- ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (69)

فالسر في اتخاذ النحل بيوتا من الجبال، ثم خروج الشراب المختلف ألوانه الذي فيه شفاء للناس هو تلك الروح الكامنة في الجبال.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا خطيرة جدا: نحن نظن أن سر الشفاء هو وجود الروح، فقميص يوسف جاءت معه الروح (ريح يوسف)، والشفاء في الشراب الذي يخرج من بطون النحل هو الروح الذي اكتسبته من الجبال بفعل الروح المخزونة فيها، وكذلك كان سر الأمان في أصحاب الحجر هو الروح نتيجة اتخاذهم من الجبال بيوتا، فكانوا آمنين، وكانوا فارهين.

ولما وقع على قوم صالح (ثمود) العذاب، كان عذابا بالصاعقة وعذابا بالصيحة:

- فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (66) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (67) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ (68)
- فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (13)

السؤال: لماذا؟ أي لماذا وقع عليهم عذابا بالصيحة وعذابا بالصاعقة؟

جواب مفترى: إن هذا الطرح يدعونا على الفور لأن نتدبر الفرق بين العذاب الذي يحصل بالصاعقة والعذاب الذي يحصل بالصيحة.

الفرق بين الصيحة والصاعقة

السؤال: من الذين أخذتهم الصيحة؟

عند بحثنا في آيات الكتاب الكريم، وجدنا أن الأقوام التالية قد حق عليهم عذاب الصيحة، وهم:

1. قوم صالح (ثمود)

- فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (66) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (67) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ (68)
- وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (80) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (81) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (82) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (83)
- فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (77) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (78)

2. قوم شعيب

- وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مَّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (94)
- وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ (90) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (91)

3. قوم لوط

- قَالَ هَؤُلاء بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (71) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (72) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (73)

السؤال: من الذين أخذتهم الصاعقة؟

رأينا: لو بحثنا في آيات القرآن الكريم عن الأقوام الذين أخذتهم الصاعقة، لوجدنا على الفور أن الصاعقة قد أخذت عادا وثمود:

- فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (13)
- وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (17)
- وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (43) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ (44)

السؤال: فما هي الصاعقة؟ وما الفرق بين الصاعقة من جهة والصيحة من جهة أخرى؟

رأينا المفترى: تحدثنا في مقالات سابقة لنا عن الصاعقة، خاصة عندما تعرضنا للآية الكريمة التالية التي تخص بني إسرائيل:

- وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (55)

وزعمنا الظن حينئذ بأن الصاعقة تحصل عندما ينكشف الغمام الذي يحجب رؤية البشر للإله نفسه كما حصل مع موسى:

- يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا (153)

فالله (نحن نتخيل) يحجب نفسه عن خلقه بظلل من الغمام:

- هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الامُورُ (210)

فما أن تجلى الله للجبل بانكشاف الغمام الذي يحجب رؤيته المباشرة حتى حصلت الصاعقة، فالصاعقة هي إذن (نحن نفتري الظن) ذلك الضوء الشديد الذي يخطف الأبصار، فهي إذن قوة الضوء، لأنها – برأينا- تقع على الأبصار، فالصاعقة التي أخذت بني إسرائيل أخذتهم وهم ينظرون:

- وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (43) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ (44)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: الصاعقة ترى بالأعين

أما الصيحة فهي – بالمقابل- قوة الصوت، وذلك لأنها تقع على الأسماع:

- يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (42)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: الصيحة تسمع بالآذان

نتيجة مهمة جدا: في حين أن الصاعقة تقع على الأبصار، فإن الصيحة تقع على الأسماع.

ولو عدنا الآن إلى ما حل بالأمم السابقة من العذاب، لبدأنا على الفور بعاد (الأمة الأولى من بعد نوح). فهؤلاء قد وقع عليهم عذاب بالصاعقة:

- فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (13)

ولكن ثمود (الأمة التي جاءت بعد عاد) فقد وقع عليهم العذاب بالصاعقة (كما حصل لثمود):

- فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (13)
- وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (43) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ (44)

ووقع عليهم أيضا عذاب بالصيحة:

- وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (17)
- فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (66) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (67) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّثَمُودَ (68)
- وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (80) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ (81) وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (82) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (83)

وحصل (نحن نظن) نتيجة تلك الصيحة (قوة الصوت) والصاعقة (قوة الضوء) الرجفة:

- فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (77) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (78)

ولو تدبرنا قصة ثمود أكثر، فإننا سنجد الآية الكريمة التالية:

- فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (5) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (7)

لنخلص إلى النتائج المفتراة التالية الخاصة بعاد:

⇐ كان هلاك عاد قد حصل بالريح الصرصر العاتية

⇐ لحق بهم بعد ذلك عذاب بالصاعقة

والنتائج المفتراة الخاصة بثمود:

⇐ كان هلاك ثمود بالطاغية

⇐ لحق بهم بعد ذلك عذاب بالصيحة

⇐ لحق بهم بعد ذلك عذاب بالصاعقة

⇐ حصلت فيهم الرجفة

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: لما أنزل الله بثمود عذابا أكثر من العذاب الذي أنزله بعاد، فإن ثمود قد تحصل لهم من الآلهة التي كانت تنفعهم (وربما تضرهم) أكثر من الآلهة التي كانت عند عاد، لذا وجب (نحن نفتري الظن) إنزال عذاب أشد وأقسى للقضاء المبرم على الإفك الموجود بهذه الآلهة.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: في حين أن ثمود قد تحصنوا بالجبال

- **وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (82)**
- **وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (149)**

لم يكن عذاب الصاعقة (الضوء) كافيا للقضاء عليهم قضاء مبرما، لذا وجب إنزال عذاب آخر، وهو عذاب يطال أسماعهم حتى وإن كانوا قد تحصنوا بالجبال، التي قد تمنع عنهم عذاب الصاعقة (الضوء).

لنخلص من خلال ذلك إلى تصورات مفتراة من عند أنفسنا هي على النحو التالي: عندما يحق القول على أمة من الأمم، يصدر الله قوله للروح، فيتحرك الروح على الفور، ويتشكل بالطريقة التي تناسب عذاب القوم، فقد يدخل الروح في الريح، فتصبح ريحا صرصرا عاتية، فيتم تدمير القوم أنفسهم، ولكن لا يتوقف الأمر عند ذلك، بل يتبع ذلك عذاب من نوع آخر وهو عذاب الصاعقة، فتتخطف أبصار القوم الذين وقع عليهم العذاب:

- **وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (43) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ (44)**

وإذا ما تحصنوا من هذه الصاعقة (قوة الضوء) بما قد يحميهم من إلحاق الأذى بهم (كالجبال مثلا) حتى يقع عليهم عذاب من نوع آخر وهو الصيحة، فيقع العذاب على كل من يسمع تلك الصيحة من الناس:

- **يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (42)**

فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم من شيء:

- **وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون (26)**

ولو دققنا في السياق القرآني التالي، لوجدنا أن عادا وثمودا على وجه التحديد كانوا مستبصرين:

- **وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (38)**

السؤال: كيف استطاعت ثمود أن تتخذ من الجبال بيوتا آمنين وكيف كانوا يتخذون بيوتا فارهين؟

لو دققنا في السياقات القرآنية الخاصة بقصة ثمود، لوجدنا أنهم قد استوطنوا مكانين اثنين وهي السهول والجبال. ففي حين أنهم اتخذوا من السهول قصورا:

- **وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (74) قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (75)**

ولكن كانت بيوتهم التي نحتوها من الجبال هي مصدر الرفاهية والأمان لهم:

- **وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (82)**
- **وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (149)**

فكيف تحصل لهم ذلك؟

رأينا المفترى: لو دققنا في السياق القرآني التالي، لوجدنا أن الله قد جعل لنا من الجبال أكنانا، أليس كذلك؟

- **وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (81)**

السؤال: كيف جعل الله لنا من الجبال أكنانا؟ وما هي تلك الأكنان؟

رأينا المفترى: نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن الأكنان هي جمع أكنة، وهي – برأينا- الغلاف الذي يحيط بالشيء ليمنع وصول التأثير الخارجي إليه، وليس أدل على ذلك من الأكنة التي تغلف القلوب:

- **وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (25)**
- **وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (46)**
- **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (57)**
- **وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (5)**

فعندما تكون القلوب في أكنة، فهي إذن بمنأى عن دخول التأثير الخارجي إليها، ليحدث فيها تغيرا، فبعض الناس يمكن أن يكنوا في أنفسهم شيئا:

- **وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاء أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلاَّ أَن تَقُولُواْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا وَلاَ تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىَ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (235)**

فقد يكون في نفس الإنسان شيئا خاصا بالنسبة للنساء، كالحب مثلا، لكن هؤلاء الناس يحاولون حجب هذا الشعور في صدورهم، لذا لابد من تغليفه بما يمنع الآخرين من الوصول إليه.

السؤال: ما علاقة هذا بالأكنان التي جعلها الله لنا من الجبال:

- وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (81)

نحن نرى (ربما مخطئين) أن هذه الأكنان كانت من أجل أن تحجز تأثيرا خارجيا فلا يصل إلى ما يكون بداخلها، ولا شك عندنا أن ليس لهذا علاقة بالحر أو ببأس الناس بين بعضهم، لأن الذي يقي الناس من الحر، والذي يقيهم من بأسهم هي السرابيل: وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ.

لذا فإن الأكنان – نحن نفتري الظن- لا تقي الناس من الحر ولا تقيهم من بأسهم مادام أن هذه مهمة السرابيل (وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ)، ليكون السؤال إذن هو: ما الذي يمكن أن يقي الناس من بأس الله؟

رأينا: لو تدبرنا الآية الكريمة التالية، لوجدنا أن القوم الظاهرين لا يمكن أن يحصل لهم وقاية من بأس الله:

- يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (29)

فقوم فرعون كانوا كما جاء في الآية الكريمة قوما ظاهرين (يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ)، لذا لم يكن متوقعا أن تحصل لهم الوقاية من بأس الله إن جاءهم. لذا كان لابد لمن أراد أن يق نفسه من بأس الله أن لا يكون ظاهرا.

السؤال: ما الذي فعلته ثمود إذن لتقي نفسها من البأس؟

رأينا: كان لابد لثمود أن تعمد إلى اتخاذ الأكنان الموجودة في الجبال. لكن معرفتهم تعدت مرحلة اتخاذ الأكنان من الجبال فقط، بل كانوا ينحتونها بأنفسهم، فهم لم يستفيدوا فقط مما هو متوافر في الجبال من الأكنان بشكل طبيعي، بل عمدوا إلى صناعة هذه البيوت (كأكنان) لتقيهم من البأس متى حل بهم.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لما كانت ثمود تتخذ من السهول قصورا، كانت تلك هي مساكنهم اليومية، ولكن كانوا على علم بأن هذه المساكن (الظاهرة) لم تكن لتشكل أكثر من قرى ظاهرة:

- وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (18)

لذا، كان لابد من إيجاد الملجأ الذي يتحصنون به إن وقع عليهم البأس، فكانت الجبال هي ملاذهم، فقد سبقهم في ذلك ابن نوح عندما ظن أن الجبل يمكن أن يعصمه من الماء:

- قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43)

لكن لما كان العذاب قد جاء به أمر الله (أي الروح) لم يغني ذلك عنه شيئا مادام أنه لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم.

إن ما نود إثارته هنا هو الظن بأن الجبال فيها من الملاجئ التي قد يتخذها الإنسان لينجو من العذاب. وقد توافر في ثمود هذا العلم، إلا أنهم برعوا فيه عندما كانوا ينحتون تلك البيوت بأنفسهم، فكانوا هم أنفسهم أصحاب الحجر:

- وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (80) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ (81) وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (82)

فكانت هي عبارة عن حجرات (من الحجر) التي تقيهم البأس، ولا زلنا لغاية اليوم نقوم بعملية الحجر على بعض الناس، فعندما تحجر على شخص، فإنك تحاول أن تضعه في مكان محصن حتى لا يصل إليه الآخرون، فيكون بذلك أشبه بالسجن الانفرادي.

فعمدت ثمود إلى صناعة الحجر، فكانوا هم – برأينا- أصحاب الحجر، وكان ذلك لغرض الوقاية من البأس إن جاءهم. فهم الذين استفادوا من أكنان الجبال لا بل وعمدوا إلى صناعتها، حتى أصبحت تعرف أرضهم من ذلك الوقت (نحن نفتري) بأرض الكنانة. فمصر التاريخية هي البلاد التي صنعت فيها الأكنان، أي ما يشبه الحجرات الجبلية التي تقي من البأس إن حصل. وهذا يوسف يدعو أهله ليدخلوا مصر آمنين:

- **فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ (99)**

فكانت مصر التاريخية (ولازالت) هي أرض الكنانة. فيعقوب هو الذي طلب من أبناءه أن يتحسسوا من يوسف وأخيه ولا ييأسوا من روح الله:

- **يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (87)**

نتيجة مفتراة: فالروح (نحن نتخيل) تسكن في أكنان مصر.

لذا، جاء عذاب أصحاب الأيكة (قوم صالح – ثمود) بالصيحة، لأن من الاستحالة أن يطالهم العذاب بالريح أو العذاب بالماء أو العذاب بالصاعقة، فكان لابد من حدوث الصيحة، وهو العذاب بالصوت. فمن تحصن في حجره، فإن الصوت هو القوة الطبيعية الوحيدة القادرة على اختراقه. لذا نحن نرى أن الله قد ضرب على آذان أصحاب الكهف والرقيم سنين عددا، ربما ليكونوا بمنأى عن تأثير الصوت عليهم:

- **فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (11)**

وأما فرعون، فقد حاز على علم القرون الأولى:

- **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (9) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (13)**

لا بل وتحصل له ما لم يكن لتلك الأقوام السابقة مجتمعة، فكان لابد من إنزال العقاب المناسب به، فكان الماء (أي الغرق) هو نهايته:

- **وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90)**

السؤال: ما الذي يمكن أن يفعله العذاب بالماء؟

افتراءات من عند أنفسنا:

⇐ العذاب بالريح يدمر الأشياء

- **وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (41) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (42)**

⇐ العذاب بالصاعقة تدمر الأبصار:

- فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ (44)

⇐ العذاب بالصيحة تدمر الأسماع:

- يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (42)

⇐ العذاب بالماء يدمر الفؤاد:

- وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (92)

⇐ الخ.

كانت مشكلة فرعون (نحن نرى) تكمن في فؤاده، فهو في شك من أمره، خاصة مع رب موسى:

- وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37)

والله هو من أرسل موسى وأخاه هارون إلى فرعون لعله يتذكر أو يخشى:

- اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44)

فكان السؤال الأول الذي طرحه فرعون على موسى وأخيه هارون هو:

- قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى (49)

فجاء رد موسى على النحو التالي:

- قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50)

فجاء السؤال الثاني من فرعون على النحو التالي:

- قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (51)

فرد عليه موسى قائلا:

- قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (52)

فكان فرعون نفسه (نحن نفتري الظن) على علم بتلك القرون الأولى (أي عادا وثمودا)، فقد حيز له علم ما في ذلك الكتاب مادام أنه يسأل بصيغة ما بال، بالضبط كما حصل مع يوسف عندما جاءه رسول الملك:

- وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (50)

فقد كان يوسف يعلم ما بال تلك النسوة اللاتي قطعن أيديهن مادام أنه هو المتكلم، لكنه كان يريد للملك أن يعرف بنفسه ما بالهن.

ولما كان فرعون يعلم ما بال تلك القرون الأولى، فقد كان على علم بما في ذلك الكتاب الذي جاء فيه علم تلك القرون وهم عاد وثمود على وجه التحديد. انظر الآيات السابقة مرة أخرى. فالربط هنا بين هؤلاء الثلاثة، وهم: عاد وثمود وفرعون:

- أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (9) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (13)

لذا، كان فرعون (نحن نتخيل) على علم بنقاط القوة ونقاط الضعف التي كانت تميز تلك الأقوام التي سبقته، وربما لهذا السبب استفاد من نقاط قوتهم، واستطاع أن يتجنب نقاط ضعفهم.

إن صح هذا المنطق المفترى من عند أنفسنا، فإننا نتجرأ على الافتراءات التالية: استطاع فرعون أن يق نفسه العذاب الذي يمكن أن يقع عليه كما وقع على تلك الأقوام، فقد استطاع أن يتجنب عذاب الريح وعذاب الصاعقة وعذاب الصيحة. فلا العذاب بالريح سيجدي نفعا معه، ولا العذاب بالصيحة سينفع، ولا العذاب بالصاعقة سيقضي عليه تماما، فكيف سيقع عليه العذاب المبرم إذن؟

رأينا المفترى: جاء العذاب على فرعون من النوع التالي:

- فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (25)

فكان عذابه على نحو أن ينجي الله فرعون ببدنه، فلا الريح أهلكت بدنه، ولا الصيحة أهلكت سمعه، ولا الصاعقة أهلكت بصره، فخرج من الماء سالما ببدنه، فكان لم خلفه آية:

- فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (92)

ولكنه وإن نجاه الله ببدنه، إلا أنه خرج من الماء (كما نتصور) كالأنعام:

- وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (179)

فما أغنى عنه سمعه ولا بصره ولا فؤاده من الله من شيء:

- وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون (26)

نتيجة مفتراة (1): خرج فرعون سليم جسمه

نتيجة مفتراة (2): خرج فرعون سليمة أذنيه

نتيجة مفتراة (3): خرج فرعون سليمة عيناه

نتيجة مفتراة (4): خرج فرعون غير سليم فؤاده

السؤال: ما الذي قضى على فؤاد فرعون؟

رأينا: إنه الماء. انتهى.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: إن الروح هي القوة الإلهية التي تتحرك بأمره، فهي التي تدخل في التراب فتحركه، وهي التي تدخل في الهواء فتتحكم بحركته، وهي التي تدخل في الضوء فتتحكم بقوته، وهي التي تدخل في الصوت فتتحكم بارتفاعه وانخفاضه، وهي التي تسكن في الماء فتتحكم في طغيانه، فإذا ما تحرك الروح بأمر

ربه حتى تنقلب القوى الطبيعة هذه إلى مصدر عذاب على من نزل بهم العقاب الإلهي، فإذا دخلت في الهواء كانت ريح عقيم وريح عاتية، وهكذا، وإذا ما دخلت في التراب، أصبحت ريحا فيها صر، وريحا صرصرا عاتية، وإذا ما دخلت في الضوء أصبحت صاعقة، وإذا ما دخلت في الصوت أصبحت صيحة، وإذا ما دخلت في الماء، أصبحت طاغية:

- **إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاء حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (11)**

فالذي يسيّر هذه القوى الطبيعة هو الروح الذي يأتمر بأمر الرب، وما أن يسخر الله تلك القوى الطبيعة الكامنة فيها الروح تسخيرا حتى تكون مصدر عذاب هذه الأقوام. ويتناسب نوع العقاب الرباني مع طبيعة آلهة القوم التي يعبدونها كما يتناسب أيضا مع عددها. فقد يحل العذاب على قوم من الأقوام بأكثر من طريقة، ويكون ذلك – برأينا- تبعا لعدد الآلهة المتواجدة فيهم والتي يظنون أنها تسخر لهم قوى الطبيعية هذه.

تخيلات مفتراة: نشأت في تلك الأمم البائدة فكرة تعدد الآلهة:

- **أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (5) وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (6) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (7)**

فكانت الفكرة المسيطرة في هذه الأقوام (كما نتخيلها) على نحو أن للريح إله، وأن للتراب إله، وأن للضوء إله، وأن للصوت إله، وأن للماء إله. وكل واحد من هذه الآلهة (هم يظنون) قادر على التحكم بواحدة من ظواهر الطبيعة الخمسة هذه. وقد اجتمعت تلك الآلهة كلها في الأمة الأظلم والأطغى وهم قوم نوح:

- **وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى (52)**

فكان فيهم خمسة آلهة هي:

- **وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (23) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (24)**

ثم أخذت تتلاشى شيئا فشيئا، فربما تواجد في عاد من الآلهة أثنين، وحصلت ثمود على ثلاثة من الآلهة، وحصل فرعون بنفسه على أربعة منها:

- **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (9) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (13) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14)**

فكان لفرعون آلهة:

- **وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127)**

ولما تحصل لفرعون بشخصه هذا العدد الهائل من الآلهة، كان قادرا على معرفة الإفك المفترى في هذه الآلهة، فاستطاع أن يستخف قومه:

- **فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54)**

ثم تجرأ على أن ينصب من نفسه إلها لهم:

- **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)**

فكان هو بزعمه ربهم الأعلى:

- فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)

فأضل فرعون قومه وما هدى:

- وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (79)

السؤال: كيف نصب فرعون من نفسه إلها؟ ولماذا صدّق قوم فرعون ما قاله لهم فرعون بنفسه (أي أنه إله لهم، وأنه ربهم الأعلى)؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: بالذهب

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: من أجل الإجابة على هذه التساؤلات، نجد الضرورة تستدعي أن نطرح السؤال التالي على الفور: لماذا أخرج السامري لبني إسرائيل في غياب موسى إلها لهم من الحلي؟ وبكلمات أكثر دقة نحن نسأل: لماذا استخدم السامري حلي القوم ليخرج لهم ذلك العجل الذي قالوا على الفور أنه إلها؟

- **وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ (148)**
- **فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (88)**

السؤال: كيف كان فرعون يستطيع أن يقنع قومه بأنه إله لهم؟

جواب: دقق عزيزي القارئ – إن شئت- في السياق القرآني التالي:

- **أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54)**

إذن، كان فرعون قد ألقي عليه أسورة من ذهب مادام أنه يرى أن نظيره لم يلق عليه أسورة من ذهب. فما فائدة تلك الأسورة من ذهب الملقاة على فرعون نفسه؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: لابد لمن كان إلها أن يتحصن بالذهب. انتهى.

السؤال: ما فائدة أن يكون عجل السامري من الحلي إذن؟

جواب مفترى: نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأنه حتى يكون هذا العجل إلها، فلابد أن يكون الذهب داخل في تكوينه.

السؤال: كيف يمكن أن نتصور الآلهة التي عبدتها الأقوام السابقة؟

جواب: لابد أن تكون هذه الآلهة قد دخل في تركيبها الذهب.

السؤال:لماذا؟

جواب مفترى: لأن الذهب (كما أسلفنا) هو السد المنيع من اقتراب الشياطين.

السؤال: لماذا يكون الذهب سدا منيعا من اقتراب الشياطين؟

جواب مفترى: إن هذا السؤال يدعونا إلى التفكر من جديد بالسر الذي يتواجد في هذا المعدن النفيس. ولكي نستبين سر هذا المعدن، فإننا نقدم الافتراءات الخطيرة التالية:

⇐ أولا، الذهب معدن لا يمكن تصنيعه في الأرض، وذلك لأن تصنيع الذهب يحتاج إلى قوة هائلة جدا، ونحن نقتبس العبارة التالية من أحد المواقع المهتمة بهذا الموضوع:

"كان العلماء يعتقدون أن مصدر الذهب على الأرض و في الكون هو انفجارات السوبرنوفا (المستعرات العظمي) إذ لا يمكنها التكوّن في النجوم نفسها مثل الكاربون و الحديد، لكن دلائل جديدة تُشير إلى مصدر

أعنف بكثير لهذا العُنصر الثمين – اصطدام بين نجمتين بكثافات خيالية، حيث الملعقة الواحدة من إحدى النجمين بوزن جميع البشر على وجه الأرض"

The ancient Aztecs believed gold was in fact "the sweat of the sun". Though this isn't literally true, the phrase is in fact a highly accurate metaphor. Gold, like most heavy metals, are forged inside stars through a process called nuclear fusion. In the beginning, following the Big Bang, only two elements were formed: hydrogen and helium. A few hundred million years after the Big Bang, the first stars were blazing away with their nuclear fires. These nuclear fires forced lighter elements together to make slightly heavier elements, and these nuclear reactions released a huge amount of energy. Gradually, these early stars began making elements such as carbon, nitrogen, oxygen — working their way up through the periodic table towards iron. But there was still no gold in the Universe. Once these earlier stars ran out of light elements to burn, they kicked in on the heavier ones. Finally, as they burnt silicon to make iron, they exploded as a supernova, and for a few short moments, each star would release as much energy as all the regular stars in that galaxy put together. In that cataclysmic explosion, for the first time, atoms of gold were manufactured — and then hurled out into the Universe, along with the other debris from that explosion.

Another theory concerning the formation of gold that's been gaining a lot of traction today is that the element can form following the collision of two neutron stars. Following the collapse of a massive star star – at least eight times more massive than the Sun – what remains is a extremely dense core. They have masses comparable to a star, but that mass is compressed into an object roughly 10 kilometers in diameter,or the size of a city on Earth. An other way to look at this would be to imagine cramming Mount Everest into your morning cup of coffee to achieve the same density as a neutron star. At these huge densities, the fabric and space and time is stretched by exotic physics. (source: http://www.zmescience.com/science/how-gold-is-made-science-064654)

⇐ ثانيا، الذهب لا يصدأ، ولا يتآكل بمرور الزمن

Gold doesn't even do that. What's called tarnishing in gold is really just discoloration and isn't the result of gold reacting with oxygen in the environment. This is because gold is a pretty unreactive element (source: https://www.quora.com/Why-does-gold-not-rust)

⇐ ثالثا، الذهب هو المعدن الأعلى قدرة على توصيل الموجهات الكهربائية (الضوئية):

Possibly gold's greatest use to mankind didn't became evident until early last century, when its fantastic electrical conductivity properties came to light. Solid state electronic devices use very low voltages and currents which are easily interrupted by corrosion or tarnish at the contact points. Gold is the highly efficient conductor that can carry these tiny currents and remain free of corrosion, which is why electronics made using gold are highly reliable. A small amount of gold is used in almost every sophisticated electronic device. This includes: cell phones, calculators, personal digital assistants, global positioning system units and other small electronic devices. (source: http://www.zmescience.com/science/how-gold-is-made-science-064654)

⇐ رابعا، الذهب المعدن الوحيد الذي يكون أحادي التركيب:

Gold belongs to group Ib of the periodic table, as do silver and copper. Its atomic number is 79, and atomic weight is 197.0; it consists of a single isotope. Its metallic radius is 1.44A., univalent ionic radius 1.37A., and trivalent ionic radius 0.85A.table, as do silver and copper. (source: http://pubs.usgs.gov/circ/1969/0612/report.pdf).

السؤال: ما علاقة هذا كله بالحديث عن الآلهة؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: انظر – عزيزي القارئ- في القطعة الأثرية التالية التي وجدت في بنما:



A striking artifact discovered in Panama, dated 700-1000 CE. "Winged Pendant, Gran Coclé," credit: Gilcrease Museum

إن ما نحاول الوصول إليه هو علاقة الذهب بالإله، فالذهب هو المركب الذي لا يقدر على صناعته إلا من كان إلها، أو من يملك قدرات الإله الحقيقي. فالطاقة اللازمة لإنتاج ذرة واحدة من الذهب تحتاج إلى طاقة تعادل التحام نجمين من نوع المستعرات العظيمة (the collision of two neutron stars).

ولما كان الذهب هو العنصر الذي لا يصدأ لأنه لا يتفاعل مع الأكسجين، فهو أبدي، لذا علم الأقدمون (نحن نتخيل) سر أن يكون الذهب من مكونات الإله كعجل السامري مثلا. ولا شك أن فرعون قد أدرك القيمة الحافظة للذهب، فألقى على نفسه أسورة من ذهب، وبالتالي فقد عمل لنفسه درعا واقعيا من التأثيرات الخارجية، فأصبح في منأى عن التأثيرات الخارجية.

السؤال: لماذا لا يمكن أن يؤثر شيئا على الإله نفسه، أي لماذا لا يمكن أن يلحق الإله ضر من قبل الآخرين؟

- إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39)
- **فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (57)**

رأينا المفترى: لما كانت قدرة الإله لا متناهية، فإن باستطاعته أن يصنع الذهب، فيحيط نفسه بتلك الهالة العظيمة التي يعجز غيره أن يخترقها، فتشكل الحاجز المانع من الوصول إليه، أو إلحاق الضر به.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: تشكلت هذه الصورة الذهنية عن الإله في أذهان الأمم السابقة، فكان لابد لمن أراد أن يخلق إفكا في آلهة من دون الله أن يستعين بالسر المخزون في هذا المعدن النفيس. فإله بدون الذهب لا يمكن أن يكون كذلك. وربما لهذا السبب كان فرعون يغطي نفسه بالذهب، وربما لهذا السبب جاء عجل السامري من الذهب.

لكن لو تدبرنا ما حصل من بني إسرائيل عندما جاوز الله بهم البحر، لوجدنا أنهم قد وجدوا قوما يعكفون على أصنام لهم:

- **وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ ... (138)**

فجاء طلبهم على النحو التالي:

- ... قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ... (138)

فكان رد موسى على طلبهم على النحو التالي:

- ... قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (138) وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (138) إِنَّ هَؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (139) قَالَ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (140)

فكيف يمكن أن نتخيل ما حصل؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: عندما مر بنو إسرائيل بأولئك القوم الذين يعكفون على أصنام لهم، ظنوا أنها آلهة لأنها كانت مغطاة بالذهب، فظنوا أنها فعلا آلهة، فطلبوا من موسى أن يجعل لهم إلها مشابها لآلهة هؤلاء القوم، لكن موسى كان على علم بأن هذه الآلهة ليست حقيقية لأنها متبرة تتبيرا، أي لا يعدو أن يكون إلها مزيفا لأنه الذهب فيه ليس أكثر من قشرة خارجية، فكان عملهم باطل. لأنهم ليس حقا مادام أن الحق يمكن أن يدمغه:

- لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ (17) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (18)

نتيجة مفتراة: هناك فرق بين من كان فعلا حقا (كله ذهب خالص) وبين ما كان متبر تتبيرا، والفرق بينهما هو كالفرق بين الحق والباطل.

السؤال: ما السر المخزون في هذا المعدن النفيس؟

رأينا المفترى: دعنا نتدبر الآية الكريمة التالية:

- إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (91)

تساؤلات

⇐ لماذا جاء مبدأ المقايضة هنا بتوافر عنصر الذهب على وجه التحديد؟

⇐ إذا كان الله لن يقبل بملء الأرض ذهبا من الذين كفروا وماتوا وهم كفارا، فماذا عن من مات وليس من الكفار؟ وماذا لو كان منافقا؟ وماذا لو كان مؤمنا مقصرا؟ وماذا لو أنه من المؤمنين الذين خفت موازينهم؟ فهل يقبل الله مبدأ المقايضة معهم بالذهب؟

دعنا نتدبر أيضا الآيات الكريمة التالية:

- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (34) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (35)

تساؤلات

⇐ لماذا توعد الله كل من يكنز الذهب والفضة ولا ينفقونها؟

⇐ وماذا عن الذين يكنزون الأموال الأخرى غير الذهب والفضة؟ فهل سيلاقون النهاية نفسها التي سيلاقيها من يكنز الذهب والفضة؟

⇐ ولماذا سيحمى عليها (أي على الذهب والفضة) لتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم؟

⇐ أليس الذهب والفضة من متاع الحياة الدنيا كما النساء والبنين والخيل المسومة والأنعام والحرث؟

- **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (14)**

⇐ لماذا إذن جاء الوعيد الإلهي خاصا بمن يكنز الذهب والفضة ولا ينفقونها؟

⇐ هل يجب على الإنسان أن لا يكنز الذهب والفضة؟

⇐ وهل إذا كنت أملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، فهل علي أن أنفقها كلها في سبيل الله؟

⇐ السؤال: لماذا خسف الله بقارون وبداره الأرض؟ أليست تلك أمواله الخاصة؟

- **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77)**

⇐ ما علاقة وجود الكنوز الكبيرة بيد قارون مع وجود الفساد في الأرض؟

⇐ فهل من يكنز الذهب والفضة هو ممن يبغي الفساد في الأرض؟

⇐ الخ

جواب مفترى خطير جدا جدا: نعم. نحن نؤمن أن في كنز الذهب والفضة وقوع الفساد في الأرض.

السؤال: وكيف يكون ذلك؟ وما علاقة حصول الفساد في الأرض بكنز الذهب والفضة وعدم إنفاقها في سبيل الله؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن غاية قارون من كنزه الكميات الهائلة من الذهب والفضة هو إحداث الفساد في الأرض، فالله يبين لنا بأن هذا الرجل كان ممن يبغون الفساد في الأرض (وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)، ليكون الافتراء الخطير جدا الذي سنحاول ترويجه الآن هو أن الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله هم من المفسدين في الأرض.

السؤال: وكيف ذلك؟

دعنا نتدبر الآيات الكريمة هذه الخاصة بقارون:

- **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77)**

منطلقين من الافتراءات التالية:

- ⇐ كان قارون من قوم موسى
- ⇐ بغى قارون على أولئك القوم
- ⇐ الله هو من آتاه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة
- ⇐ كان قارون من الفرحين
- ⇐ الله لا يحب الفرحين
- ⇐ كان على قارون أن يبتغ فيما آتاه الله من تلك الكنوز الدار الآخرة
- ⇐ كان عليه أن لا ينسى نصيبه من الدنيا
- ⇐ كان عليه أن يحسن لغيره كما أحسن الله إليه
- ⇐ كان عليه أن لا يبغ الفساد في الأرض
- ⇐ الله لا يحب المفسدين
- ⇐ الخ.

نحن نظن أن أول ما يجب أن نتنبه له هنا هو أن قارون قد بغى على قوم موسى فقط. كما يجب أن ننطلق من الفهم المفترى الذي مفاده أن بغي قارون عليهم لا يعني بأي حال من الأحوال أنه قد استولى على أموالهم زورا وبهتانا، وذلك لأن مصدر كنوزه من الله نفسه، فالله هو من أعلمنا بأن كنوز قارون كانت منه (وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ). فلا يجب أن ننظر إلى الأمر بطريقة معكوسة كأن نظن بأن بغي قارون على قومه كان باستيلائه على أموالهم.

لكن يبقى السؤال مطروحا على النحو التالي: إذا كان مصدر كنوز قارون من الله نفسه (وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ)، فكيف يكون الرجل قد قام بفعل البغي عليهم؟

جواب مفترى: لأن هدف الرجل من جمع الكنوز كان بغية الفساد في الأرض.

السؤال: وما معنى ذلك؟

رأينا: لما جاء القول الرباني الموجه إلى شخص قارون بأن لا يبغي الفساد في الأرض (وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ) لأن الله لا يحب المفسدين (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)، فإن ذلك قولا إلهيا صريحا يبين لنا الهدف الحقيقي عند الرجل من كنزه الأموال الكثيرة. لتكون النتيجة المهمة جدا الآن على النحو التالي: كان قارون ممن يبغون الفساد في الأرض، لذا كان من المفسدين.

السؤال: وكيف كان الرجل من المفسدين في الأرض؟ وما علاقة هذا ببغي الرجل على قومه؟

بداية، نحن نريد الخوض في معاني بعض مفردات هذه الآية الكريمة بشيء من التفصيل لأنها ستشكل في نهاية المطاف (نحن نظن) فهما ربما يكون أكثر واقعية من الأفهام المتوافرة حتى الساعة.

أولا: وَآتَيْنَاهُ

حاولنا التفريق في مقالات سابقة لنا بين فعلين متقاربين في المعنى وهو فعل الإتيان وفعل العطاء. فالله قد آتى قارون الكنوز إتيانا، ولم يعطه ذلك عطاء. ليكون السؤال: ما الفرق بين أن تعطي وأن تؤتي؟

رأينا المفترى والخطير جدا: العطاء يكون دفعة واحدة بينما يكون الإتيان تدريجيا. قال تعالى:

- **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء (24) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (25)**

فالشجرة لا تعطي أكلها عطاء ولكنها تؤتي أكلها، وذلك لأن ثمار الشجرة لا يأتي دفعة واحدة، وإنما يكون ذلك تدريجيا.

والآيات الإلهية قد جاءت الأقوام تباعا، فجاءت بطريقة الإتيان ويس بطريقة العطاء:

- **سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (211)**

وكذلك هي الحال بالنسبة لما آتاه الله لآل إبراهيم مثلا، فلم يتحصلوا عليه دفعة واحدة:

- **أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (54)**

والقرآن العظيم جاء محمدا بطريقة الإتيان:

- **وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (87)**

فما كان لمحمد أن يعجل به:

- **لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18)**

وكذلك هي طريقة الحصول على الحكم والعلم، بالإتيان:

- **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (22)**

فالعلم لا يتحصل دفعة واحده لأن الحصول عليه يكون بطريقة الإتيان.

والله هو من آتى إبراهيم رشده:

- **وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ (51)**

فلا يمكن أن نتصور أن ذلك قد حصل دفعة واحدة، وإنما هي هبة تدريجية، تحصّل عليها إبراهيم شيئا فشيئا.

والله هو من كشف عن أيوب ضره وآتاه أهله:

- **فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (84)**

فلا يمكن أن نتصور أن ذلك قد حصل دفعة واحدة.

ونحن نتصور فعل الإتيان بالمشهد الذي حصل مع مريم، فهي من أتت قومها تحمل المسيح:

- **فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (27)**

لذا، يستحيل أن تكون قد حضرت في قومها فجأة، فهيا هي (نحن نتخيل) قادمة إليهم من بعيد، يرونها بأعينهم، فتحققوا من شخصيتها بعدد أن اقتربت، حتى وصلت إليهم، وتيقنوا أنها هي مريم نفسها.

لكن العطاء، بالمقابل، فإنه يحصل (نحن نفتري الظن) دفعة واحدة، وبطريقة مفاجئة، قال تعالى:

- **فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى (5)**

فأنت عندما تعطي شخصا شيئا ما، فإن ذلك يحصل مرة واحدة، فأنت لا تجزئ الشيء الذي تعطيه، فإذا ما كان بيدي رغيفا من الخبز، وأردت أن أنقله من يدي إلى يديك، ليصبح ملكا لك بعد أن كان ملكا لي، فإن ذلك يكون عطاء، فأقول أعطيت فلانا رغيفا من الخبز، ولا يمكن أن أقول بأني قد أتيتك رغيفا من الخبز. لأن الرغيف انتقل مني إليك كله مرة واحدة.

فالله هو من وعد محمدا بالعطاء:

- وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (5)

فكان عطاءه هو:

- إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (1)

ففي حين أن القرآن قد جاء محمد بطريقة الإتيان، فإن الكوثر قد جاءه بطريقة العطاء. فالقرآن جاء محمدا شيئا فشيئا، ولكن الكوثر تحصل له مرة واحدة.

السؤال: ما هو الكوثر الذي جاء محمدا دفعة واحدة؟

رأينا: لن ندخل بتفاصيل القضية كلها هنا، لكننا سنجمل القول لأن النقاش منصب على القضية الخاصة بقارون، لكن يكفي أن نبوح بالفهم أن الكوثر هو مصدر العلم، أي هو نافورة العلم، أي الكأس الذي تشرب منه، فقد شرب محمد من ذلك الكوثر حتى ارتوى، فكان كل ما خرج على لسان محمد قولا صادقا، لا شائبة فيه، فكان لا ينطق عن الهوى:

- وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (3)

أما آلية عمل الكوثر، فهذه قضية كبيرة جدا، سنفرد لها أبحاثا خاصة بحول الله وتوفيق منه، لذا أسأل الله أن يأذن لي الإحاطة بشيء من علمه فيها، لا ينبغي لغيري، إنه هو الواسع العليم.

إن يهمنا قوله حتى الساعة هنا هو أن فعل الإتيان هو فعل تدريجي لا يجيء دفعة واحدة، لذا نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن قارون قد تحصل على الكنوز بطريقة تدريجية، فلم يتحصل على تلك الكنوز دفعة واحدة:

- **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77)**

ثانيا، كان قارون من الفرحين

السؤال: لماذا كان قارون من الفرحين؟ ولماذا لا يحب الله الفرحين؟ فهل حرّم الله على الناس الفرح؟ أليس الله هو من قال في كتابه الكريم أن الناس سيكونوا فرحين بما آتاهم الله من فضله:

- **فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (170)**

جواب مفترى: لو استعرضنا آيات الكتاب الحكيم التي ترد فيها مفردة الفرح لوجدنا أن الفرح بشكل عام مذموم، قال تعالى:

- **إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (120)**
- **لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (188)**

- فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (44)
- إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ (50)
- فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (81)
- هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (22)
- وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ۚ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (20)
- اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (26)
- وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ۚ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (36)
- فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (53)
- فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (36)
- إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76)
- فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4)
- مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (32)
- وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (36)
- ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (75)
- فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (83)
- فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ۗ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ (48)
- لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (23)

السؤال: لماذا جاء الفرح في كتاب الله مذموما بشكل عام ()؟

- ... إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76)

رأينا المفترى: يجب علينا أن نميز بين الفرح في الحياة الدنيا والفرح في الحياة الأخرى. فالفرح في الحياة الأخرى شيء إيجابي:

- قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (58)
- فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (170)

بينما الفرح في الحياة الدنيا فهو شيء مذموم:

- ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (75)

- فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (83)

جواب مفترى: لأن الفرح في الحياة الدنيا يكون بغير الحق. انتهى.

السؤال: لماذا يكون الفرح في الحياة الدنيا بغير الحق؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لأنه يؤدي إلى أن يصبح الإنسان الذي يشعر بالفرح مختالا فخورا:

- **لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (23)**

السؤال: وكيف يؤدي الفرح إلى الاختيال والفخر؟

رأينا المفترى: بعيدا عن المعنى الشعبي الدارج بين الناس للفرح، فإننا نظن أن الفرح هو الشعور بأن الإنسان قد وصل إلى نهاية الأمر، فالإنسان الفرح يظن أنه قد أصاب كبد الحقيقة وأن هذا هو نهاية المطاف، فالذي يفرح بالعلم، يظن أنه قد أمسك بناصية العلم:

- فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (83)

وهذا لا يكون (نحن نؤمن يقينا) من سلوك الإنسان المؤمن الذي من أبجديات عقيدة قول الله تعالى:

- فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (114)

فالمؤمن (الذي على علم) يؤمن على الدوام بأن هناك فوق كل ذي علم عليم:

- **... نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (76)**

فمتى تحصل الإنسان على علم، فإنه يصبح على مفترق طرق، إما أن يكون فرحا بما عنده من العلم:

- فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (83)

وهنا يصبح فرحا، فيصيبه الشعور بالاختيال والفخر، وإما أن يكون بالمقابل ممن يطلبون من الله أن يزيدهم من العلم، فلا يسبب ذلك له الفخر والاختيال.

(دعاء: أعوذ بك ربي أن أكون فرحا بما آتيني من العلم، وأدعوك وحدك أن تزدني علما، إنك أنت العليم الحكيم – آمين)

وينطبق هذا على من يصبيه الله برحمة منه، فإما أن يصبح فرحا بما عنده، وينتابه الشعور بالفخر والاختيال:

- **وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (36)**

وإما أن يكون ممن يظنون أن هذا ليس نهاية المطاف وأن ما عند الله هو خير:

- **فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (80)**

(دعاء: أعوذ بك رب أن أكون فرحا بما أذقتني من رحمة، وأدعوك وحدك أن تزيدني من فضلك، إنك أنت الرحمن الرحيم – آمين)

فالفرح إذن هو الظن بأن ما عندك هو نهاية المطاف، وأنه من الاستحالة أن يكون هناك خير مما عندك. لذا نجد أن من كان مؤمنا بفكر حزبه، ظانا أنه هو فقط من يملك ناصية الحقيقة وأن غيره مخطئ تماما، فهو إذن من الفرحين:

- **مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (32)**

(دعاء: أعوذ بك رب أن أكون فرحا، وأسألك وجدك أن تهديني صراطك المستقيم، إنك أنت العلي العظيم - آمين)

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: لأن الشعور بالفرح يتبعه العذاب:

- **هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِۖ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْۙ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (22)**

وذلك بسبب الفخر الذي يسببه ذلك الفرح:

- **وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّيۚ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (20)**

نصيحة مهمة: على الإنسان الذي أصابه الفرح وأدى به إلى الشعور بالفخر أن يعلم أن فرح الحياة الدنيا إنما هو فرح زائف، لأن الحياة الدنيا كلها ليست أكثر من متاع الغرور:

- **اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُۚ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (26)**

السؤال: متى يكون الفرح إذن حقيقيا ليس مزيفا؟

رأينا: في الآخرة:

- **قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (58)**
- **فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (170)**

السؤال: ما علاقة هذا بقارون الذي كان فرحا () ؟

- **... إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76)**

رأينا المفترى: أصاب قارون الشعور بالفرح، لأنه ظن أنه قد حاز على ما يريد وأن هذا هو نهاية المطاف، وليس هناك خير مما جمع. فكان فرحا فخور، وهذا – برأينا- هو سر خروجه على قومه في زينته:

- **فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79)**

فجاء رد الذين آمنوا من الذين أتوا العلم على النحو التالي:

- **وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (80)**

فكانت عاقبة فخره الذي نتج عن فرحه وبالا عليه:

- **فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (81)**

افتراءات مهمة لمن آتاه الله من فضله: حاول عزيزي المسلم أن لا تفرح مهما آتاك الله من فضله، وأعلم أن هذا الفضل قد ينقلب نقمة عليك إذا ما تحصل عندك الشعور بالفرح، عندما ظننت أنك قد وصلت إلى نهاية المطاف. فتذكر دائما أن الدار الآخرة لا تكون إلا لمن لا يريدون علوا في الأرض:

- **وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (82) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83)**

لأن الذين يريدون علوا في الأرض، ويريدون إحداث الفساد فيها، ليس لهم نصيب من الآخرة.

(دعاء: أعوذ بك رب أن أكون ممن يريدون علوا في الأرض ولا فسادا، إنك أنت الغفور الرحيم – آمين)

نتيجة مهمة جدا: لما كان قارون من الذين فرحوا بما آتاهم الله، كان من الذين يريدون علوا في الأرض، لا بل وكان من الذين يبغون فسادا في الأرض:

- **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77)**

السؤال: إذا كان قارون يريد علوا في الأرض بسبب الفرح الذي أصابه، فكيف أراد أن يبغي في الأرض؟

رأينا المفترى: كان الأولى بقارون وهو الذي آتاه الله تلك الكنوز العظيمة (وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ) كان الأولى به أن يبتغي بذلك الدار الآخرة، وأن لا ينس نصيبه من الدنيا. ولكن الرجل عمد إلى فعل العكس تماما، فقد وجه كل ما آتاه الله بغية الحياة الدنيا. وكان يريد الفساد في الأرض.

السؤال: كيف أفسد قارون في الأرض؟

جواب مفترى: بتلك الكنوز.

السؤال: وكيف فعل ذلك؟

جواب مفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن قارون كان يعي تماما الهدف من جمعه لتلك الثروة العظيمة.

السؤال: وما هي بغية قارون من جمعه تلك الثروة؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن قارون قد جمع ثروته على شكل كنوز (وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ).

السؤال: وما هي تلك الكنوز؟

رأينا المفترى: إنها الذهب والفضة:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (34)**

السؤال: لماذا جمع قارون ثروته على شكل كنوز (أي ذهب وفضة)؟ لماذا لم يجمع ثروته على أشكال أخرى من متاع الحياة الدنيا كالنساء والبنين والخيل المسومة والأنعام والحرث؟ أليست تلك جميعها من متاع الحياة الدنيا؟

- **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (14)**

السؤال المحوري: لماذا انحسرت شهوة قارون في الذهب والفضة من بين جميع شهوات الحياة الدنيا؟

جواب مفترى: لأن قارون كان يعي تماما ما يفعل. وهو يفعل ذلك من أجل غاية محددة في نفسه.

سؤال: وما هي تلك الغاية إذن؟

رأينا المفترى: نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن قارون كان يعلم أن في جمعه الذهب والفضة سيحدث فسادا في الأرض.

السؤال: وكيف يكون ذلك؟

جواب: لأنه كان يريد أن يبغي على قومه:

- **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77)**

السؤال: وكيف يمكن أن يبغي قارون على قومه عندما يعمد إلى جمع الذهب والفضة؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا هي أغرب من الخيال نفسه: نحن نفتري الظن بأن قارون كان يعي تماما بأن في جمعه الذهب والفضة سيحدث ضررا يصيب قومه، ويكون هذا هو بغيه عليهم. فالرجل على دراية تامة بمفعول الذهب في صد الشياطين. فإذا ما جمع قارون الذهب والفضة، وعمد إلى كنزها في مكان واحد، فهو بذلك قد ترك الساحة خالية تماما للشياطين يفعلون بالناس من حوله ما يريدون. فإفراغ يد الناس من الذهب والفضة، وإفراغ السوق من الذهب والفضة، سيجعل الشياطين قادرة على أن يفعلوا بالناس ما يريدون، فيحدثون الفساد كما يحلو لهم، لأن السوق كله قد خلى من هذه المعادن النفسية التي كانت تصد الشياطين، وتعيق حركتهم لا بل وتأثيرهم على الناس، فالشياطين – كما افترينا سابقا- تهاب الذهب والفضة، فلا يقربون المكان الذي يتواجد فيه الذهب والفضة، ولا يقربون الناس الذين يملكون في أيديهم تلك المعادن النفيسة.

الدليل

لكي لا يبقى كلامنا هذا في إطاره النظري دعني أقدم للناس بالمجان هذا الاختبار البسيط الذي (إن صح رأينا فيه) فسينفعهم بإذن الله.

الاختبار

يشتكي بعض من الناس من مس الشياطين، فينقلب سلوك هؤلاء ليكون أقرب إلى الجنون منه إلى الوضع الطبيعي. فتنتابهم نوبات من الصرع. وتبدأ رحلتهم في طلب العلاج من عند أطباء الجسد المادي في العيادات والمستشفيات المرخصة، ويصرف لهم أطباء الأجساد بعض الأدوية والعقاقير التي قد لا تفيد في شيء أكثر من تثبيطهم، لا بل والتأثير السلبي على أجسادهم.

ولما يجد الكثيرون منهم أن هذه العقاقير الطبية التي صفت لهم من قبل أطباء الجسد لا تفيد في شيء، ولا يتعدى مفعولها أكثر من مسكنات للجسد، تنتقل رحلة البحث عندهم في اتجاه آخر، فيذهبون إلى الأطباء الروحانيين (أي رجال الدين)، ويبدأ هؤلاء المشعوذون اللعب في أجساد وأرواح العباد عن غير علم، فيجربون معهم شتى أصناف العلاج الروحاني، والتي غالبا لا تجدي نفعا، وإن حصل مفعول إيجابي في بعضها فيكون ذلك محض الصدفة لا أكثر، فيظن الناس أن بعض هؤلاء المشعوذون قادرون على العلاج، فيصدقونهم وذلك لأن الغريق لا يهمه البلل (كما يقول المثل الشعبي).

السؤال: كيف الخروج من هذا المأزق؟ وهل لديك البديل؟ يسأل صاحبنا مستغربا.

رأينا المفترى: دعني أقدم لك – عزيزي القارئ- البديل التالي الذي يمكن أن تجربه بنفسك، وترى مدى فاعليته بأم عينك. فلك أن تقتنع بصحته أو أن ترده بالتجربة العملية الفردية. فأنت لست بحاجة إلى طبيب جسدي كما أنك لست بحاجة إلى طبيب روحاني، فكن أنت طبيب نفسك وطبيب من حولك، بعد أن تتيقن بأن الشفاء هو في نهاية المطاف بيد الله وحده كما جاء في قول إبراهيم:

- وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80)

إذا اشتكى شخص من حولك بمس من الشيطان (خاصة النساء)، فما عليك إلا أن تعمد إلى تشخص الحالة أولا، لتعرف إن كان ما يشكو منه هذا الشخص المصاب هو فعلا مس من الشيطان أم أوهام نفسيه لا علاقة للشيطان بها. والاختبار بسيط جدا هو على النحو التالي: خذ قطعا من الذهب، واطلب من الشخص المصاب أن يلبسها، ثم انظر النتيجة الفورية التي ستراها بأم عينك في غضون ساعات معدودة، أو على أكثر تقدير أياما قليلة: إذا كان ما أصاب هذا الشخص هو فعلا مس من الشيطان، فلن يطيق الشخص المصاب ذلك، وسترى أنه يتصرف بطريقة جنونية جدا، وسيبين أثر ذلك على جسمه على الفور. أما إذا كانت تلك أوهام نفسية لا علاقة للشيطان بها، فإن ذلك الذهب لن يحدث تأثيرا يذكر في الشخص المصاب.

السؤال: لماذا يحصل ذلك؟

رأينا: نحن نظن أنه بمجرد أن يلبس الشخص المصاب قطعا من الذهب، فإن ذلك سيسبب أذى مباشر للشياطين التي تسكن جسده، لذا فستثور فورا، وستحاول الخروج من جسده. ولكن ذلك سيسبب تأثيرا كبيرا في الشخص المصاب، لأن الذهب سيحرق تلك الشياطين، فسيشعر الشخص المصاب بذلك على الفور ويبين أثر ذلك على جسد الشخص وفي تصرفاته على الفور.

ملاحظة: إذا كان هذا التأثير شديدا جدا، اخلع الذهب على الفور، وانتظر قليلا، لأن الأمر ربما سيكون له نتائج كارثية.

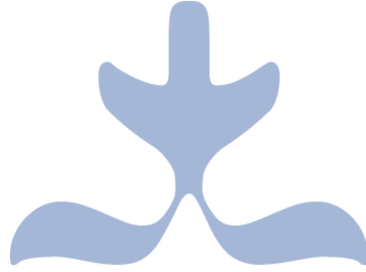
السؤال: ما العمل بعد ذلك؟

رأينا: هذا ما سنتناوله بحول الله وتوفيق منه في الجزء القادم من هذه المقالة إن أذن الله لنا الإحاطة بشيء من علمه فيها.

سائلين الله وحده أن ينفذ مشيئته وإرادته لنا الإحاطة بشي من علمه فيها لا ينبغي لغيرنا، إنه هو العليم الحكيم، وأدعوه وحده أن يؤتيني رشدي، وأن يجعل لي من لدنه سلطانا نصيرا، وأعوذ به أن يكون ممن يفترون عليه الكذب، أو ممن يقول عليه ما ليس لهم بحق، وأعوذ به أن يكون أمري كأمر فرعون، إنه هو الواسع العليم – آمين.

المدّكرون: رشيد سليم الجراح & محمد المقداد

بقلم د. رشيد الجراح
23 أيار 2016



قصة يونس

الجزء الواحد والأربعون



قصة يونس – الجزء الواحد والأربعون

انتهى الجزء السابق من هذه المقالة عند محاولتنا تدبر الآيات الكريمة التالية الخاصة بقارون:

- **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77)**

وافترينا القول بأن ثروة قارون قد تحصلت له بطريقة الإتيان (وَآتَيْنَاهُ)، أي التحصيل التدريجي، فلم يتحصل عليها دفعة واحدة، وإلا لجاء النص على نحو (وأعطيناه). وقد سبب ذلك الفرح عند قارون لظنه أنه قد ملك ناصية الأمر، وأنه حصل على مبتغاه النهائي. فكان ذلك (نحن نفتري القول) سببا في إيقاع العذاب الإلهي عليه. ولم يتوقف الرجل عند هذا الحد، لأنه عمد إلى جمع ثروته كلها على شكل كنوز، أي ذهبا وفضة، وكان هذا هو الجانب الذي بغى فيه قارون على قومه، فقد كان الرجل يعي تماما ما يفعل، فهو يحاول سحب الذهب والفضة من أيدي الناس ومن الأسواق، ثم جمعها في مكان محدد، وكان هدف الرجل من فعله هذا (نحن نظن) أن يترك الساحة خالية للشياطين ليعيثوا في الأرض فسادا. فكان جمعه للثروة كلها على شكل كنوز (ذهبا وفضة) ابتغاء الفساد في الأرض (وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ).

فتكديس الذهب والفضة في المخازن مدعاة (نحن نرى) لأن تعيث الشياطين في الأرض فسادا. فتتلاعب بالناس وبالأسواق، فلا يقوون على صد خطرها، مادام أن أداة صدهم قد تكدست في مخازن لا يطالهم الأذى من ورائها.

السؤال: ما الذي نستفيده من هذه الافتراءات ربما غير المسبوقة؟ يسأل صاحبنا

أولا، باب مهر العروس

لعل أكاد أجزم الظن بأن الممارسات الشعبية التي تتخطى حواجز الثقافة والسياسة والجغرافيا هي من الأمور التي يجب أن تجلب انتباه العامة وأهل الاختصاص على حد سواء، ثم تكون مثار البحث والدراسة لطلاب العلم. فعندما نجد سلوكا يكاد يكون بشريا بصبغته، وعندما نجد بعض ممارسات الشعوب المختلفة بغض النظر عن العقيدة والثقافة والجغرافيا تتشابه وتتشابك، فإن ذلك يجب أن يكون – برأينا- سببا في جلب الانتباه وأخذ الدروس والعبر منها، لا بل دافعا للتدبر من قبل من أراد الوصول إلى العلم الحقيقي. فمن غير المفهوم أن تسود هذه الممارسات في المجتمعات المختلفة على مرّ العصور ثم النظر إليها وكأنها تقع في باب المصادفة. وربما من الأكثر إثارة أن تستمر هذه الطقوس قرونا طويلة من الزمن، وتبقى شبه عصية على الاندثار، وربما بعيدة عن الفهم والإدراك.

ولعل واحدة من هذه الممارسات التي قلما التفت إليها أهل العلم (إلا ربما من قبيل فرض سياسة الأمر الواقع) هو ما توارثته الأجيال في المجتمعات المتنوعة في باب طقوس الزواج. فلقد سادت في المجتمعات المتنوعة فكرة أن يقدم الزوج لزوجته مهرا عند خطبتها وطلب يدها للزواج. وغالبا ما يكون جزءا من مهر العروس مساغ ذهبي بغض النظر عن حجمه وقيمته. فمهما كانت قدرة الزوج المادية وجب عليه توفير شيئا

من المساغ الذهبي لعروسه. فأخذ هذا السلوك في المجتمعات المتنوعة طابع العرف والعادة، ربما دون أن يلق الاهتمام الكافي من طلاب العلم لمعرفة السبب من وراء مثل هذا السلوك الذي قد يرق إلى درجة العالمية.

والملفت للانتباه أيضا أن المجتمعات البدائية أكثر تمسكا بهذه التقاليد من المجتمعات التي تعتبر نفسها أكثر مدنية وتحضرا. فكلما ازداد ظن المجتمع برقيه، كلما قلت هذه العادات وربما تلاشت في بعض الأحيان. فلازلنا نجد المجتمعات الشرقية مثلا أكثر تمسكا بهذه التقاليد من المجتمعات الغربية التي قطعت شوطا كبيرا فيما يسمى بالمدنية والتحضر. فأخذت هذه العادات تنحسر شيئا فشيئا في المجتمعات المدنية، ربما لظنهم بأن هذه السلوكيات هي أقرب إلى البدائية منها إلى المدنية والتحضر. فلم يتبقى في المجتمعات الغربية من هذه العادات سوى خاتم الخطوبة (أو wedding ring بالكلمات الأجنبية).

وظلت هذه السلوكيات أكثر وضوحا في المجتمعات الشرقية والبدائية، لكن ما يؤسف له أن تبريرها لم يكن مرضيا للجميع. فالبعض يظن أنها عبارة عن هدية يقدمها العريس لعروسته الجميلة، وظن آخرون أن للذهب قيمة مادية يمكن للعروس أن تستفيد منه وقت الحاجة، وهكذا.

لكن هذه التبريرات لا ترق – برأينا- أن تصيب كبد الحقيقة، وذلك لأن مثل هذه التفسيرات يمكن أن تنهار أمام بعض التساؤلات البسيطة مثل: هل تقبل العروس أن تأخذ بدل مساغ الذهب الخاص بها نقدا أو عقارا أو شيئا آخر من متاع الحياة الدنيا كالخيل المسومة والأنعام والحرث؟ من يدري؟!

رأينا: لو سألنا العروس نفسها عن ذلك، لربما وجدنا أنها أميل إلى حب المساغ الذهبي من كل أنواع المتاع الأخرى كالنقد والخيل المسومة والأنعام والحرث. فلربما قطعة صغيرة واحدة من الذهب تدخِل إلى نفسها من البهجة والسرور أكثر ما يمكن أن يدخله إليها كل متاع الحياة الدنيا الأخرى بغض النظر عن قيمته المادية. ليكون السؤال المطروح هو: لماذا؟ أي لماذا تفضل العروس (وكل نساء الأرض) هدية من الذهب (وإن كانت صغيرة) على أعطية من المتاع الآخر كالخيل المسومة والأنعام والحرث (وإن كانت كبيرة)؟

بداية، لا نريد إجابة على هذا السؤال من قبل الرجال، لأن الرجل (نحن نظن) لن يستطيع أن يفهم الموضوع كما يجب، وذلك لأن الرجال (أي الناس) قد جُبلوا على حب متاع حياة الدنيا بطريقتهم. فالرجل يحسب القيمة المادية لكل صنف من هذا المتاع. فإن هو وجد أن القيمة المادية للخيل المسومة والأنعام والحرث أكبر من القيمة المادية للذهب والفضة، فهو لا شك سيفضل من كانت قيمته المادية أكبر.

لكن الأمر بالنسبة للنساء مختلف تماما. فالمرأة لا يهمها كثيرا القيمة المادية للمتاع بقدر ما يهمها نوع ذلك المتاع. فقطعة صغيرة من الذهب والفضة أحب إلى نفس المرأة من كمية كبيرة من الخيل المسومة والأنعام والحرث. وسألوا نساءكم إن شئتم. وربما من الأفضل أن تجربوا ذلك بالفعل وليس بالقول. فاجلب اليوم – عزيزي القارئ- خاتما من فضة أو ذهب كهدية لزوجتك، ثم انظر كيف ستكون ردة فعلها المباشرة، وجهز نفسك لما يمكن أن تقدمه لك في عشية ذلك اليوم لقاء هذه الهدية الصغيرة. وحاول في اليوم التالي أن تجلب لها معك سبع بقرات سمان كهدية ثم انظر ما ستكون عليه ردة فعلها المباشرة على ذلك، ثم جهز نفسك لما ستفعله معك في ذلك اليوم وتلك الليلة، هذا إن ظلت تسكن البيت معك حتى الصباح.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: في حين أن الرجال يهتمون بالكمية، فإن النساء أميل إلى النوعية. فالذي يهتم به الرجل هو الحسبة النهائية من منظور المكسب والخسارة المادية النهائية. فالرجل يهتم بعاقبة الأمر وبمنتهاه. ولكن المرأة تهتم أكثر بالطريقة والوسيلة. ففي حين أن تركيز الرجل يكون منصبا على الوصول إلى الشهوة الجنسية النهائية (بالمتعة التي يتحصل عليها بالقذف)، فإن المرأة تتمتع أكثر بالمعالجة الجنسية. فطريقة الجماع بالنسبة للمرأة أكثر أهمية من غايته التي هي لا شك مقصد الرجل.

ولربما فنجان قهوة واحد في فندق سبعة نجوم أقرب إلى نفس المرأة من مئات الفناجين من القهوة على قارعة الطريق التي يفضلها الرجل. وهنا يحصل سوء الفهم بين الطرفين. فالرجل الذي تدفعه غريزته إلى النهاية والغاية لا ينتبه كثيرا للطريقة والتفاصيل التي تشتهيها المرأة. والمرأة التي تهتم كثيرا بالوسيلة والمعالجة لا تعير كثير الانتباه إلى طبيعة الرجل. فالمرأة التي تهتم بتشرب فنجان واحد من القهوة في فندق فاخر قد لا تهتم كثيرا بفاتورة الحساب في نهاية الجلسة. والرجل المشغول ذهنه دائما بالعاقبة (فاتورة الحساب) قد لا يتمتع كثيرا بتفاصيل الأجواء الجميلة التي يعيشها في تلك اللحظة. فلو استطاعت المرأة أن تتفهم شعور الرجل، ولو استطاع الرجل أن يتفهم شعور المرأة، لربما توصلوا إلى الحل المرضي للطرفين. فقليل من الجور على النفس من أجل تلبية رغبات وغرائز الطرف الآخر هو الكفيل بحل الإشكال بين الطرفين. لكن هل نتوقع من المرأة أن تستطيع تبيان رغباتها بطريقة يستطيع أن يتفهمها الرجل؟ وهل يستطيع الرجل أن يوضح رغباته بطريقة مبسطة تستطيع المرأة نفسها أن تتفهمها؟

رأينا: لا أظن أن كثيرا من النساء بذكاء رشيد الجراح حتى تستطيع أن تنقل مشاعرها للطرف الآخر بطريقة واضحة، ولا أظن في الوقت ذاته أن كثيرا من الرجال بغباء رشيد الجراح حتى يستطيع أن يتنازل عن كل رغباته من أجل إرضاء زوجته، فبين هذين النقيضين تضيع كثير من التفاصيل المهمة.

على أي حال، ما الذي يجب فعله؟

رأينا: لو تدبرنا قصة المهر في المجتمعات المسلمة، لربما حق لنا أن نسأل: لِم حافظ الشارع على هذا التقليد وهو فرض جزء من مهر العروس على شكل مساغ ذهبي؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الحكمة من فرض جزء من مهر المرأة على شكل مساغ ذهبي هو ذلك الشعور الغريب الذي يجلبه الذهب إلى نفس المرأة. فالذهب هو الذي يهدئ نفسية المرأة ويحفظها من شر الشيطان الذي يولي مدبرا من المكان الذي يلمع فيه بريق الذهب. لذا نحن ننادى أن يتدبر الناس هذا السلوك ويحافظوا عليه. لا بل ويحرصوا على ديمومته بأقصى درجات الاهتمام والانتباه.

ولعلي استطيع الجزم بالقول بأن المشاكل الزوجية تتفاقم بعد الزواج بشكل كبير عندما يعمد الرجل، خاصة في المجتمعات التي يغلب عليها طابع الفقر (كالكثير من المجتمعات المسلمة)، إلى بيع مساغ المرأة الذهبي. فهو بذلك يعمد إلى فعل مشابه لما فعله قارون مع قومه. فالرجل الذي يبيع مساغ زوجته إنما هو ممن يبغون الفساد. فهو بذلك إنما يبغي على زوجته، عندما يتركها عرضة وفريسة سهلة للشياطين. لذا نحن نوجه نصيحة للآباء والأزواج والنساء تتمثل بالمحافظة على مساغ المرأة من الذهب، لأنه كفيل بحمايتها من أن تقع فريسة سهلة للشيطان. وعلى المرأة أن تحافظ على لبسها للذهب، فلا تخزّن الذهب الذي في حوزتها في صناديق مغلقة، لأنها بهذا السلوك (ربما غير المقصود) تترك جسمها بلا حماية (أو لنقل وقاية) من خطر

الشياطين. فالمرأة يجب أن تظل دائمة التزيين بالذهب على كل أجزاء جسدها، في ظل كل الظروف وفي جميع الأحوال (حتى في مناسبات الموت والعزاء). فلبس المرأة للذهب ليس للزينة والمناسبات الاجتماعية السعيدة فقط، وإنما هو (نحن نفتري القول) الوقاية اليومية الدائمة من خطر الشياطين. انتهى.

كما لا نتردد أن ننصح الرجال (كل الرجال) أن يعمدوا إلى توفير ما يكفي من قطع الذهب في أطراف البيت كله، فالبريق الذي يصدر من الذهب كفيل (نحن نفتري الظن) بأن يبعد الشياطين عن المكان كله، فلا تتلاعب بأفراد الأسرة صغارا كانوا أم كبارا.

وعلى الأمهات أن يحرصن على تزين صدور الأطفال (خاصة الإناث) بقطع من الذهب، فوجود قطعة صغيرة من الذهب في يد الطفلة أو في أذنها أو على صدرها كفيل بأن يحميها من خطر الشياطين.

ونحن ننصح الجميع ونلفت انتباههم إلى الملاحظة التالية: إذا وجدت عزيزي القارئ أن المرأة قد أصبحت تتضايق من لبس الذهب، فأعلم أن الشياطين قد بدأت تستحكم عليها. وإذا وجدت أن لبس الذهب قد أصبح يحدث تأثرات ملموسة على جسم المرأة، فأعلم أن الشياطين قد تمكنت منها. فالمرأة التي لا تطيق (على غير العادة) لبس الذهب، إنما يكون ذلك جراء ما يحدثه الذهب من تأثير في الشياطين التي تسكن جسدها. فالذهب هو مادة تعذيب الشياطين، وبكلمات أكثر دقة نقول: عندما تلبس المرأة التي يسكن جسمها الشياطين قطعا من الذهب، فإن بريق ذلك الذهب يحرق تلك الشياطين، فتبدأ المرأة تشعر وكأن جسمها يحترق من الداخل، لدرجة أنه قد يبين ذلك على جلدها الخارجي في أشد الحالات حرجا. ولا شك عندنا أنه سيسبب لها ضيقا ملحوظا، يستطيع كل من حولها رؤية ذلك التأثير على المرأة المصابة بأم أعينهم.

نتيجة مهمة جدا: وجود الذهب في المكان كفيل بأن ينظف المكان كله من الشياطين، فلا يقربون منه، ولا يستطيعون أن يعبثوا به.

باب نزع اللباس عن أبوينا

كانت خطة الشيطان الأولى للإيقاع بآدم وزوجه تتمثل بأن ينزع عنهما لباسهما، فكانت تلك هي فتنته الأولى لهما:

- **يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ (27)**

فقد كان آدم وزوجه (نحن نتخيل) في منأى عن خطر الشيطان بذلك اللباس الإلهي الأول الذي ألبسهما إياه ربهما (يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا). فلم يكن الشيطان يستطيع نتيجة وجود ذلك اللباس (نحن نفتري القول) أن يلحق الأذى بهما. فأجسامهما محصّنة بفعل ذلك اللباس من وصول أذى الشيطان لهما. فكان على الشيطان أن يعمد أولا إلى خلع هذا اللباس عن عدوه (وهما آدم وزوجه) من أجل الوصول إلى مبتغاه، وهو إلحاق الأذى بهما. فكيف استطاع تحقيق مراده ذاك؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: كانت الوسيلة الأكثر فاعلية التي دبرها الشيطان تتمثل بأن يدلهما على فعل يتطلب منهما نزع اللباس للقيام به، أي ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما:

- فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (20) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21)

فكان الأكل من الشجرة هي الطريقة المثالية لتحقيق مراده:

- فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (22)
- فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (121)

لذا، كان من الواجب على آدم أن لا يلتفت إلى نصيحة الشيطان، لأن هذا الشيطان كما جاء في القول الإلهي الأزلي هو عدو له ولزوجه:

- فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (117)

نتيجة مفتراة: كان اللباس الإلهي الأول لهما (نحن نتخيل) بمثابة الحصن الحصين من فعل الشيطان، فهذا اللباس الإلهي لهما - لا شك عندنا- يحفظ آدم من أن يجوع أو أن يعرى أو أن يضمأ أو أن يضحى:

- فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (117) فِيهَا وَلَا تَعْرَى (118) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (119) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ

ولكن، ما أن أكل آدم وزوجه من الشجرة حتى حصلت هذه الأمور مجتمعة لآدم، فكان في ذلك شقاءه، وأصبح عرضة للجوع (وبالتالي العري)، وأصبح أيضا عرضة للضمأ (وبالتالي الضحى). فنحن نتخيل بأن العري كان أمرا محتما لا فرار منه ما دام أن آدم قد أكل من الشجرة؛ فما أكله من الشجرة، كان لابد أن يخرج بالتغوط، وسبب ذلك له الضمأ (العطش) أيضا، فكان لابد للماء الذي شربه أن يخرج بالتبول (الضحى).

السؤال: ما هو الضحى؟

جاء الرد الأول من القراء على الجزء السابق من هذه المقالة من مصر على لسان د. محمد يوسف (أستاذ علم الفيزياء)، على النحو التالي:

1-ضحى الشمس (عملية الاخراج للشمس=التبول): هو ما يتدفق منها من فوتونات ضوئية و رياح شمسية

2-قد يكون تسمية يوم الاضحى راجع الى تدفق و سيلان دم الاضاحي

لكن ما هى العلاقة بين الضحى من هذا المعني و الليا اذا سجى؟

فنحن نرد على تساؤل د. محمد يوسف على النحو التالي: تسمى الفترة الصباحية بالضحى وذلك لأن مسببها (كما يرى د. محمد) هي الشمس نفسها بدليل قوله تعالى:

- وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1)

وهو برأينا ما جاء في النص القرآني بصيغة اللفظ وَالضُّحَى الذي يقابله الليل إذا سَجَى:

- **وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2)**

ففي فترة الصبح الباكر تُحدِث الشمس نفسها الضحى (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا) عندما يتكاثف البخار الموجود في الجو (خلال الليل) إلى حبات الندى في الصباح الباكر، فتسيل قطرات الندى تلك (أي كمادة سائلة بعد أن كانت في حالتها الغازية خلال الليل. وكل هذا بفعل الشمس في بداية دلوكها:

- **أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (78)**

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: فالضحى هو – برأينا- النتيجة الطبيعية لدلوك الشمس، لأن أشعة الشمس الأولى هي التي تكثّف بخار الماء الذي كان منتشرا (أي ساجيا) طوال الليل، ليتشكل في الصباح الباكر (أي فترة الضحى) على شكل قطرات من الماء السائل. وما أن تشتد حرارة الشمس حتى تبدأ هذه القطرات من الماء بالتبخر من جديد، فتكون كلها قد تبخرت مع قدوم الليل في غياب الشمس، فينتشر الماء على شكل بخار في الليل، ويتحرك هذا البخار في كل اتجاه، فيكون بذلك (نحن نظن) هو الليل وقد سجى:

- **وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2)**

السؤال: ما علاقة هذا بقول الله في قصة آدم الأولى، خاصة عبارة وَلَا تَضْحَى:

- **فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (117) فِيهَا وَلَا تَعْرَى (118) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (119) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ**

رأينا المفترى: ما أن أكل آدم وزوجه من تلك الشجرة حتى ارتفعت درجة حرارة جسميهما قليلا، فأخذت تتشكل وتتجمع السوائل في جسميهما، فكان لابد أن تخرج تلك السوائل بطريقة الضحى.

السؤال: كيف كان من المفترض أن يتخلص آدم وزوجه من السوائل الموجودة في جسميهما لو أنهما لم ينزلا عند إرادة الشيطان الذي هو أصلا عدو لهما؟

تخيلات مفتراة: كان من الطبيعي أن تخرج السوائل من جسميهما بطريقة التبخر، فما كان موجودا في جسميهما هي ليست أكثر من غازات يمكن أن تخرج من الجسد بطريقة التعرق التي نعرفها. لكن النزول عند رغبة الشيطان هو – برأينا- ما جعل تلك السوائل تتكاثف بسرعة أكبر من الطبيعي، فما عاد التعرق العادي يستطيع أن يجاري عملية التكثيف السريعة التي حصلت داخل جسميهما بعد الأكل من الشجرة. فتولدت الحاجة عند آدم وزوجه إلى التبول (الضحى). لذا، أحدث الأكل من الشجرة (نحن نرى) خللا في الوظيفة الطبيعية للجسم، فبدلا من التخلص من السوائل الموجود في الجسم بطريقة التعرق الطبيعية التدريجية لأنها موجودة في الجسم على شكل غازات (ساجية)، أصبح لزاما التخلص منها بطريقة التبول بسبب التكثيف السريع لتلك الغازات الساجية في جسميهما.

الدليل

لو دققنا في السياق القرآني التالي الذي جاء خاصا بحياة آدم وزوجه في الجنة الأولى، لوجدنا الغرابة – برأينا- تكمن في أن الله قد طلبا منهما الأكل منها حيث شاءا:

- **وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ (35)**

ليكون ما يلفت الانتباه على الفور هو غياب الشرب، فالله لم يطلب من آدم وزوجه أن يأكلا وأن يشربا، ولكنه طلب منهما أن يأكلا من الجنة حيث شاءا فقط. دقق عزيزي القارئ – إن شئت- في السياق القرآني نفسه مرة أخرى من هذا الجانب:

- **وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ (35)**

ففي السياقات القرآنية الأخرى، نجد أن الشرب مصاحبا للأكل، لا بل تابعا له:

- **أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (187)**
- **يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (31)**
- **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (17) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (18) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (19)**
- **فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ (19) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (24)**
- **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (41) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (42) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (43) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (44)**

السؤال: لماذا لم يأت الأمر الإلهي الأول لآدم وزوجه على نحو أن يأكلا ويشربا من الجنة؟ ولماذا جاء الأمر الإلهي الأول على نحو أن يأكلا منها فقط (وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا)؟ فأين الشرب إذن؟ ألم يكن متاحا لهما حينئذ؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن آدم وزوجه لم يكونا يحتاجان أن يشربا في الجنة الأولى، وكان عليهما أن يأكلا منها فقط حيث شاءا، وذلك لأن الماء الذي يحتاجه جسميهما كان يتحصل لهما من الأكل نفسه، كما نتخيل بأن التخلص مما كان يدخل أجسادهما من السوائل المأخوذة من الأكل يتم بطريقة التعرق وكفى. فتلك السوائل المتواجدة في جسميهما من جراء ما يأكلان من الجنة تخرج بطريقة التعرق، لأنها كانت ساجية ولم تكن تضحى (أي متجمعة).

ولو تدبرنا الجسم البشري نفسه، لوجدنا على الفور بأن الإنسان الطبيعي يتخلص من السوائل المتواجدة في جسمه بطريقتين اثنتين هما، التعرق والتبول. فلماذا؟ لماذا نجد السوائل المتواجدة داخل جسم الإنسان تصرف بهاتين الطريقتين؟

رأينا المفترى (1): نحن نفتري الظن بأن التعرق كفيل بإخراج السوائل الداخلة والمتحصلة للجسم من الأكل، لأنها (نحن نتخيل) تنتشر على شكل غازي (أي تكون ساجية)، فيكون التعرق وحده كفيلا بإخراجها تدريجيا، فهذه هي (نحن نفتري الظن) الطريقة البطيئة التدريجية للتخلص منها.

رأينا المفترى (2): نحن نفتري الظن بأن التبول هو الذي يخرج من الجسم السوائل التي تكثفت (أي التي أضحت)، وهذه هي الطريقة السريعة للتخلص منها.

السؤال: كيف حصل هذا كله عندما نزل آدم عند إرادة الشيطان؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: من أجل فهم هذا السؤال (كما نتخيل)، لابد أن نعود (نحن نرى) إلى قصة العصا الأولى. فنحن نرى أن الفهم الصحيح لتلك القصة سيساعدنا في الوصول إلى مبتغانا. لذا، سنتجرأ في الصفحات التالية إلى تقديم افتراءات نحن نظن أنها غير مسبوقة، لهذا نحن نطلب من القارئ الكريم – إن هو أراد متابعة القراءة- الحذر، فلا يأخذها على محمل الجد إلا أن وجد أن هناك من الأدلة ما يثبتها. وإن هو وجد غير ذلك، فلا يتردد أن يضرب بها عرض الحائط غير مأسوف عليها ولا على من افتراها من عند نفسه. فهذه لا تخرج عن إطار الفهم البشري المنقوص (وربما المغلوط) للنص القرآني الذي هو – لا شك عندنا- مطلق الحقيقة والثبات.

السؤال: كيف حصل الأمر؟

رأينا المفترى: عندما طلب الله من الملائكة السجود لآدم كان ذلك بسبب أن الله قد اتخذ القرار الأبدي بخلافة آدم. أي تبديل الخلق، فأصبح المخلوق الجديد (الإنس) خليفة للمخلوق القديم (الجن):

- **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (30)**

فكان لزاما أن ينزل الجن (والملائكة جزء منهم) عند أمر آدم:

- **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56)**

فكان خلق الجن سابقا لخلق الإنس:

- **وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (27)**

فجاء القرار الإلهي بأن يخلف الخلق الثاني (الإنس) الخلق الأول، لأن الجن قد فعل ما وجب هذا الاستخلاف. وسنتحدث عن هذه الجزئية بحول الله وتوفيقه لاحقا في مقالات منفصلة. فالله أدعو أن يأذن لي الإحاطة من بشيء من علمه فيها لا ينبغي لغيري، إنه هو الواسع العليم – آمين.

إن ما يهمنا قوله الآن هو أن آدم قد أصبح الآن هو صاحب الأمر، فهو يستطيع أن يسخر الجن كلهم لخدمته، فكانت الخلافة.

ومادام أن آدم قد أصبح خليفة، فهذا يتطلب (نحن نرى) وجود الأداة التي من خلالها يستطيع تسخير الجن كلهم لخدمته، فكانت العصا. ولم يكن الشيطان (والجن من بعده) يستطيع أن يزغ عن أمر آدم بسبب تلك العصا. فوجود الخليفة يتطلب امتلاك الأداة التي تؤهله للخلافة كما فعل موسى مع هارون مثلا عندما تركه في قومه (خليفة) وذهب للقاء ربه:

- **وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (142)**

فقد ترك موسى هارون خليفة له في قومه عندما أعطاه العصا التي تؤهله لأن يخلف أخاه في غيابه.

(للتفصيل انظر سلسلة مقالات قصة السامري وقصة موسى)

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: فمادامت تلك العصا بيد آدم (لأنه هو الخليفة)، كان الجن (والملائكة فئة منهم) تعمل تحت أمر آدم نفسه. فلم يكن الشيطان نفسه يستطيع أن يزغ عن أمر آدم، لأن تلك العصا (أداة الخلافة) تلحق به وبجنده العذاب المهين، بالضبط كما كانت حالهم مع سليمان (صاحب المنسأة):

- **وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (12)**

فما الذي سيفعله الشيطان إذن في ظل توافر العصا بيد آدم؟

رأينا المفترى: نحن نتخيل بأن خطة الشيطان كانت تنطوي على أن يضع آدم من يده تلك العصا، حتى لا يلحق بهم العذاب المهين بها. ومن ثم أن تبد لهما سوآتهما حتى يستطيع أن يلحق بهما الأذى على هواه. فكيف سينفذ خطته هذه؟

رأينا: لقد وجد الشيطان أن هذا لن يكون ممكنا مادام آدم خليفة، أي حاملا العصا بيده، فيجب أن يتخلى آدم عن الخلافة (بوضع العصا من يده)، ومن ثم أن ينزع اللباس عنهما. وهنا عمد الشيطان إلى عمل خطوتين تدريجيتين وهما:

1. أن يتقبل آدم فكرة الملك بدلا من الخلافة
2. أن يأكل آدم وزوجه من الشجرة

وبالفعل استطاع الشيطان أن يقنع آدم بالتخلي عن الخلافة، فوضع آدم العصا من يده، واستبدلها بالملك:

- **فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى (120)**

ولو دققنا في السياق القرآني جيدا، لوجدنا أن الشيطان قد فعل ذلك بطريقة معكوسة، فدلهم على الشجرة أولا، وكان هذا سببا في أن يضع آدم العصا من يده بعد ذلك. فأصبح السيناريو (كما نتخيله) على النحو التالي:

1. أن يأكل آدم وزوجه من الشجرة، فتبد لهما سوآتهما
2. أن يضع العصا من يده، فيصبح ملكا بدل أن يكون خلافة.

السؤال: كيف يمكن أن نفهم ما حصل؟

رأينا المفترى: عندما اقتنع آدم بفكرة الملك بدلا من الخلافة، كان عليه أن يأكل من الشجرة، أليس كذلك؟

سؤال: فما الذي حصل مباشرة بعد أن أكل آدم وزوجه من الشجرة؟

جواب مفترى: بدت لهما سوءاتهما، أليس كذلك؟

السؤال: ما معنى هذا؟

رأينا المفترى: حاولنا في مقالة سابقة لنا تحت عنوان لماذا يدفن الناس موتاهم التفريق بين لفظتين قرآنيتين وهما والسوءة السوآة:

- **فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (22)**
- **فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (121)**

دقق ملّيا عزيزي القارئ – إن شئت- في هاتين الآيتين اللتين وردتا لتصورا لنا ما حصل مع آدم وزوجه، ففي حين أن اللفظ في الآية الأولى جاء على صيغة (سَوْءَاتُهُمَا)، جاء اللفظ في الآية الأخرى على صيغة (سَوْآتُهُمَا). فما الفرق بين الحالتين؟

رأينا: نحن نظن أن اللفظ (سَوْءَاتُهُمَا) يقصد به (كما نفهمه بالطبع) العورة فقط بدليل أن ذلك ما طفق آدم وزوجه يخصفان عليهما من ورق الجنة، فلا أخال أن آدم وزوجه قد طفقا يخصفان على كامل جسديهما بما في ذلك الرأس والوجه. ولكنهما (نحن نتخيل) طفقا يخصفان من ورق الجنة على كل ما ظنا أنه يجب تغطيته.

ولكن لو تدبرنا قصة قتل أحد ابني آدم أخيه لوجدنا أنه يحاول أن يواري سوءة أخيه:

- **فَبَعَثَ اللّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (31)**

فهنا كان الرجل الذي قتل أخاه يحاول (نحن نتخيل) تغطية كامل جسد أخيه المقتول بدفنه بالتراب كما فعل الغراب الذي بعثه الله ليعلمه ذلك.

نتيجة مفتراة: ما أن أكل آدم وزوجه من الشجرة حتى بدت لهما سوآتهما (أي كامل الجسد)، فعمدا إلى تغطية السوءة منه، أي الجزء الذي يجب تغطيته وهو العورة. فأصبح آدم وزوجه فريسة سهلة للشيطان لأنه أصبح يراهما من حيث لا يرونه:

- **يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ (27)**

افتراء خطير جدا جدا (1): لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فما أن بدت لآدم وزوجه سوءاتهما، حتى ارتفعت حرارة الجسم الداخلية بسبب الأكل من الشجرة، فحصل نتيجة ذلك (نحن نتخيل) التكثيف للغازات الموجودة في أجسادهما، فتشكلت كسوائل بعد أن كانت غازات (أي ساجية)، فكان لابد من تفريغها بالعري (التغوط) والضحى (التبول). فأصبح آدم وزوجه بحاجة إلى الشرب بعد كان الأكل وحده يكفيهما:

- **وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ (35)**

فطغى بذلك الجانب "الحيواني" (إن صح التعبير) على الجانب البشري. فانطلقت الغريزة الأولى "الحيوانية" في آدم وزوجه متمثلة بالتغوط والتبول، بسبب الأكل والشرب معا.

افتراء خطير جدا جدا (2): لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل ظهرت الغريزة "الحيوانية" الأخرى في سلوكهما وهي غريزة الجنس. فانتصب العضو الذكري لآدم، فما عاد يستطيع إسكات انتصاب عضوه الذكري (سوءته) إلا بممارسة الجنس من زوجه.

الدليل

نحن نظن أن الإجابة على هذا التساؤل يأتي من قصة عصا موسى. فلو تدبرنا الحوار الذي دار بين موسى وربه في الواد المقدس لربما احتجنا أن نتفهم المفردات بشكل أكثر دقة، قال تعالى مخاطبا موسى:

- **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17)**

فجاء رد موسى على النحو التالي:

- **قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (18)**

وهنا نحتاج أن نتدبر استخدامات العصا التي كانت بيد موسى، لتكون على النحو التالي:

1. التوكؤ (أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا)
2. الهش (وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي)
3. مآرب أخرى (وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى)

السؤال: ما هي هذه الاستخدامات؟

رأينا: بعيدا عن الموروث الذي نظن جازمين أنه لا يسمن ولا يغني من جوع، دعنا نعيد النظر في هذه الاستخدامات بطريقة جديدة. ولنبدأ بها الواحدة تلو الأخرى.

باب التوكؤ على العصا

بداية، نحن ننفي جملة وتفصيلا بأن يكون التوكؤ هو استخدام العصا كعكاز من أجل المسير كما جاءنا من عند أهل الدراية من سادتنا العلماء على لسان أهل الرواية من أهل الفصاحة والبيان، فموسى لازال (نحن نتخيل) رجلا شديد البنية، قوي الجسم، لا يحتاج إلى عكاز يدعم حركة أطرافه. فهو (نحن نتخيل) يستطيع السير بدون العصا. فكيف كان موسى يتوكأ على عصاه إذن؟

رأينا: نحن نظن أن مفردة التوكؤ لها علاقة بالمتكأ، والمتكأ نفسه له علاقة بالراحة التي ينشدها الرجل، كما حصل مع النسوة التي أعتدت لهن امرأت العزيز متكأ:

- **فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ (31)**

فبالرغم أن امرأت العزيز قد آتت كل واحدة من النسوة سكينا (وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا)، إلا أنها اعتدت لهن جميعا متكأ واحدا (وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً). فما هو ذلك المتكأ الذي أعدته لهن جميعا؟

جواب مفترى: عندما تطرقنا لهذه الجزئية في سلسلة مقالاتنا تحت عنوان قصة يوسف، افترينا القول من عند أنفسنا بأن المتكأ هو ما يشبه غرفة النوم التي يرتاح فيها الرجل مع زوجته، بدليل قوله تعالى:

- **إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (55) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِؤُونَ (56)**

(للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان قصة يوسف)

فالرجل يتكئ مع زوجته على الأرائك، وكذلك كان يفعل موسى، فقد كان يتكئ على عصاه، فموسى (نحن نتخيل) لا يستطيع الاسترخاء والخلود إلى السكينة والهدوء، ولا يشعر بالمتعة واللذة إلا مادام متكئا على تلك العصا.

فما الذي كان يفعله موسى عندما يتكئ على عصاه؟

رأينا المفترى: ما أن يحتاج موسى إلى الهدوء والسكينة والشعور بالمتعة حتى يجد تلك العصا هي ضالته، فتلك العصا تُدخِل على قلب موسى من الفرح والبهجة ما يدخله المتكأ الذي يتخذوه الأزواج على الأرائك.

ولعلنا نتجرأ أن نفتري الظن بأن هذا هو السبب الذي من أجله أرسل الله موسى ليتربى طفلا صغيرا في بيت فرعون: إنه العصا. فالله هو من شاءت إرادته أن يتربى موسى في البيت الذي كانت العصا تتواجد فيه.

تخيلات مفتراة: كانت العصا موجودة في بيت فرعون. فبعث الله موسى ليتربى في ذلك البيت الذي كانت العصا متواجدة فيه. ومنذ اليوم الأول الذي حط فيه التابوت في بيت فرعون، وضعت تلك العصا في تابوت موسى، وهنا جاءت صناعة موسى على عين الله:

- **أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (39)**

فكبر موسى شيئا فشيئا بجانب تلك العصا التي يتكئ عليها، فكانت تلك هي الصناعة الإلهية لموسى على عين الله.

السؤال: لماذا صنع موسى على وجه التحديد على عين الله؟ لِم لم يصنع أي رسول آخر على عين الله؟

جواب مفترى: لأن عين الله على آياته. فعين الله لا تغفل عن آياته. ومادام أن العصا هي آية الله الكبرى:

- **فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20)**

فعين الله (نحن نفتري القول) لا تفارق تلك العصا. انتهى.

- **... وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (39)**

نتائج مفتراة خطيرة جدا جدا
نتيجة مفتراة (1): لله عين واحدة
نتيجة مفتراة (2): فرعون له عينين:
نتيجة مفتراة (3): ليس لله لسان
نتيجة مفتراة (4): فرعون له لسان
نتيجة مفتراة (5): ليس لله شفتين
نتيجة مفتراة (6): لفرعون شفتين

- **أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (9)**

لكن إذا كانت عين الله على آياته، فصنع موسى على عين الله مباشرة، فهل عين الله على الآخرين مباشرة مثل ذلك؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا.

سؤال: فكيف يراقبنا الله؟
جواب مفترى: بطريقة غير مباشرة.
الدليل
في حين أن الخطاب جاء خاصا بموسى على نحو:

- **... وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (39)**

جاء الخطاب موجها إلى نوح بالصيغة التالية:

- **وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (37)**
- **فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (27)**
- **وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (13) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ (14)**

وجاء الخطاب موجها لمحمد على النحو التالي:

- **وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (48)**

لذا في حين أن الله كان يراقب موسى بنفسه، كانت رسل ربنا هي التي تراقب صناعة الفلك وجريانها في حالة نوح، وكان محمد تحت المراقبة الدائمة من رسل ربنا.

السؤال: لماذا كانت عين الله على موسى مباشرة، بينما كانت عين الله (غير مباشرة) على غيره؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: خلق الله آدم بيده، فسواه ونفخ فيه من روحه، وطلب من الملائكة السجود لآدم:

- **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (28) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ (29)**

وأسكنه وزوجه الجنة وطلب منهما الأكل منها حيث شاءا ونهاهما عن الاقتراب من هذه الشجرة:

- **وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ (35)**
- **وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (19)**

فكان القرب الإلهي واضحا بدليل أن البيان الإلهي للقصة بكلماته الأزلية في كتابه الكريم جاء بصيغة القول (وَقُلْنَا يَا آدَمُ)، وبدليل قرب الشجرة نفسها، فكان الخطاب على نحو (هَذِهِ الشَّجَرَةَ).

ولكن ما أن نزل آدم عند إرادة الشيطان بالأكل من الشجرة حتى حصل البعد الإلهي، بدليل أن الخطاب انتقل الآن من صيغة القول إلى صيغة المناداة (وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا)، وبدليل أن الشجرة أصبحت بعيدة، فأصبح الخطاب على نحو (تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ):

- **فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (22)**

السؤال: كيف حصل ذلك؟

رأينا المفترى: لما أكل آدم وزوجه من الشجرة نزولا عند إرادة الشيطان، كانت النتيجة المباشرة هي الابتعاد الإلهي عن المكان كله، فالله هو من ابتعد عن المكان كله.

السؤال: لماذا ابتعد الله بنفسه عن المكان؟

رأينا: لأن الله حي قيوم؟

السؤال: ما معنى ذلك؟

جواب مفترى: لما كان الله حيّ (من الحياء) لم يكن ليتواجد ليرى بعينه مباشرة تلك السوءة التي بدت لآدم وزوجه. فالله أجل وأعلى من أن ينظر بعينه إلى سوءة خلقه، لذا فهو لا يراقبها بعينه.

سيناريوهات غريبة: ماذا لو كنت أخي الكريم في الخلاء (الحمام) تقضي حاجتك بالتبول والتغوط، هل تظن أن الله ينظر لك بعينه؟ وماذا لو كنت في غرفة نومك تجامع زوجتك، هل تظن أن الله ينظر إلى تلك المشاهد بعينه؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا. فالله نفسه حيّ (من الحياء)، فهو لا ينظر بعينه إلى هذه المناظر التي تخدش الحياء.

السؤال: وكيف تتم المراقبة الإلهية لمثل هذه المشاهد؟

رأينا: نحن نظن أن ذلك يتم بطريقة غير مباشرة (أي بأعيننا). فرسل الله الموكلين بنسخ ما يعمل عباده هم من يتولون هذه المهمة:

- **هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (29)**

السؤال: لما كانت أعمال العباد تستنسخ على الفور، لم يكن هناك حاجة أن يقوم الله بالنظر بعينه إليها، لأن الله الحي القيوم، لا ينظر إلى مثل هذه المشاهد الخادشة للحياء.

السؤال: لماذا كان موسى على وجه التحديد تحت عين الله مباشرة؟

جواب مفترى: لأن موسى كان يهش على غنمه بتلك العصا:

- **قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (18)**

باب الهش على الغنم: وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي

تحدثنا في سلسلة مقالاتنا عن قصة سليمان عن الآية الكريمة التالية:

- **وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (78)**

فافترينا الظن من عند أنفسنا بأن الحرث متعلق بالنساء، مصداقا لقوله تعالى:

- **نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (223)**

(للتفصيل انظر سلسلة مقالات ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته: باب الغنم)

وزعمنا الظن أن الحرث يظهر في السياقات القرآنية الخاصة بالنساء وبالزراعة:

- **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (14)**
- **مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (117)**
- **وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ**

الأمر الذي جعلنا نبحث عن العلاقة بين الحرث (في النساء) والحرث (في الزرع)، فافترينا القول من عند أنفسنا بأن الحرث هو "التربة الصالحة للإنبات"، فهي التي يوضع فيها الحب والنوى الذي ينفلق بأمر الله ليخرج به الحي من الميت:

- **إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (95)**

وهذه العملية تحدث في حالتين: (1) في حالة النبات، وكذلك (2) في حالة إنجاب الذرية، لذا نجد أن مفردة الحرث لا تشمل فقط الأرض القابلة للإنبات والإخصاب وإنما أيضا النساء:

- **نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (223)**

فطرحنا حينئذ السؤال التالي: كيف تكون نساؤنا حرث لنا؟

فكان الجواب على النحو التالي: نحن نظن أن النساء حرث للرجال لأن المرأة تملك البيئة الملائمة للإنجاب (للنمو)، بالضبط كالأرض القابلة للإنبات، لذا افترينا القول بأن الحرث هو عبارة عن التربة (أو لنقل البيئة) القابلة للإخصاب (أي للإنبات). وهذا الظن ربما يؤكده التلازم بين عملية إنبات الزرع بعد نزول المطر وتكون الجنين في بطن المرأة بعد إنزال المني فيها، قال تعالى:

- **أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (58) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (59) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (60) عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (61) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (62) أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (63) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (64) لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (65)**

ففي هذا (نحن نظن) تطابق بين عملية إنبات الزرع من جهة وإنبات الإنسان من جهة أخرى، فكلاهما يبدأنا من الحرث، أي البيئة الملائمة للإنبات، قال تعالى

- **وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (17) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (18)**

فقدمنا الافتراءات التالية:

1. الحرث: الأرض المؤهلة للإنبات
2. الحرث: النساء المؤهلات للإنجاب

وبناء على هذا الفهم المفترى، ظننا أن قضية الحرث التي حكم فيها داوود وولده سليمان:

- **وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (78)**

كانت تتعلق بامرأة قابلة للإنجاب، فكانت تلك المرة هي حرث واحد، ولكن هذا الحرث (أي تلك المرأة) قد نفشت فيه غنم القوم.

فكانت التساؤلات المطروحة المباشر حينئذ هي:

⇐ كيف نفشت غنم القوم في الحرث؟
⇐ ومن هم القوم الذين نفشت غنمهم جميعا في الحرث؟
⇐ ولماذا نفشت غنم قوم كثيرين في حرث واحد؟
⇐ الخ.

فكان الافتراء حينئذ أن الغنم التي نفشت في الحرث كانت تعود ملكيتها إلى مجموعة من الناس (فكانت بصريح اللفظ القرآني غنم القوم):

- **وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (78)**

ولكن كان الحرث الذي نفشت فيه غنم القوم لا تعود ملكيته لمجموعة من الناس (أي قوم)، وإنما هو حرث واحد، أي امرأة واحدة.

- **نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (223)**

وعندما حاولنا تدبر ما حصل فعلا، وجدنا أن الغنم قد دخلت في الحرث بطريقة النفش:

- **وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (78)**

فقدمنا منطقنا المفترى على هذه الجزئية على النحو التالي: كانت عملية نفش الغنم في الحرث على نحو أن تتوزع الغنم الكثيرة بشكل شبه عشوائي في مكان محدد بعينه كما تتوزع حبات تراب الجبال المنفوشة:

- **الْقَارِعَةُ (1) مَا الْقَارِعَةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (3) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (4) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ (5)**

بعد أن تنسف تلك الجبال نسفا:

- **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (105)**

(للتفصيل انظر المقالة المشار إليها سابقا)

فتخيلنا الذي حصل على نحو أن الحرث الذي نفشت فيه غنم القوم هو رحم امرأة واحدة بعينها، وأن غنم القوم التي نفشت في الحرث هي ما يصبه الرجل من المنيّ في رحم المرأة. فتكونت الصورة في مخيالنا على النحو التالي:

يعمد قوم كثيرون في زمن نبي الله داوود وولده سليمان إلى امرأة واحدة (مومس)، فيقترفوا جميعهم فاحشة الزنا معها، فتنفش غنمهم (أي منيّهم) جميعا في رحم تلك المرأة، فيتولد نتيجة ذلك في رحم تلك المرأة مولودا واحدا، وهنا تختلط غنم القوم في رحم تلك المرأة، فيصبح من الصعب تمييز الفاعل الحقيقي الذي بسبب غنمه حملت المرأة جنينا في بطنها، وهنا يحاول الجميع أن يتنصلوا من المسؤولية الفردية، وإن تعذر عليهم أن يتنصلوا من المسؤولية الجماعية، فالمرأة (الحرث) تعلم كل واحد منهم بعينه، وتستطيع أن تحدد كل من ارتكب معها الفاحشة من القوم، فلا يستطيع أن ينكر أنه قد فعل فعلته تلك، ولكن أحدا منهم لا يستطيع أن يجزم بأنه هو الأب الحقيقي لذاك المولود الذي في بطن تلك المرأة (الحرث)، فلربما ظن كل واحد منهم أن الحمل لم يكن نتيجة فعله بحد ذاته، وهنا تنشأ مشكلة حقيقية (تحديد الشريط الوراثي DNA) تتطلب قاض بحجم داوود وسليمان للبت فيها، فكيف حصل ذلك؟

تخيلات من عند أنفسنا: يحصل في زمن نبي الله داوود وولده سليمان أن تضع امرأة من نساء القوم مولودا نتج عن نفش غنم القوم، فيحدث ذلك مشكلة تخص نسب ذلك المولود (أي من هو والد ذلك الطفل فعلا)، فتحضر المرأة مع طفلها إلى المحكمة، وتضع القضية بين يدي داوود وولده سليمان للبت فيها، ومادام أن القضية قد وضعت بين أيدي القضاة، فلابد من أن يتم الخوض في تفاصيلها كاملة، وما هي إلا سويعات قليلة حتى يتبين للمحكمة المنعقدة برئاسة داوود وعضوية ولده سليمان بأن قوما كثيرين قد نفشت غنمهم (منيّهم) في ذلك الحرث (رحم تلك المرأة)، وما أن يحضر القوم الذين صبوا منيهم في رحم تلك المرأة أمام

القضاة حتى يحاول كل منهم أن يتنصل من المسؤولية الفردية وإن كان يتحمل قسطا من المسؤولية الجماعية، فهم لا يستطيعون أن ينكروا أنهم قد ارتكبوا فاحشة الزنا مع المرأة، ولكن يحاول كل واحد منهم أن يتنصل من مسؤولية نسب الطفل إليه، فتحتاج القضية الآن أن يكون هناك حكما ذا علم للبت بالقضية، فهي تحتاج في نهاية المطاف إلى فحص الشريط الوراثي (DNA) لتحديد نسب الطفل. فمن يستطيع ذلك؟

جواب: سليمان.

- **وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (78) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (79)**

نعم، بالرغم من صغر سن سليمان وحداثة خبرته في القضاء (مقارنة بوالده داوود) إلا أنه استطاع أن يفهم ما يدور حوله.

(للتفصيل انظر المقالة المشار إليها سابقا)

إن مراد النقاش هنا هو الخروج بفهم أكثر دقة لمفردة الغنم. فنحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن الغنم هي (بالمفردات العلمية الدارجة) عبارة عن الحيوانات المنوية التي يصبها الرجل في رحم المرة (الحرث) من أجل الإخصاب، أي إنبات الحياة.

السؤال: كيف يمكن ربط هذا المفهوم بما قاله موسى لربه في الواد المقدس:

- **قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (18)**

ردا على سؤال ربه:

- **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17)**

وبكلمات أكثر دقة نحن نسأل: كيف يمكن أن نفهم المقصود من قول موسى لربه بأنه كان يهش على غنمه بتلك العصا؟

جواب خطير جدا جدا لا تصدقوه ما لم تظنوا جازمين بأن الدليل يدعمه: لقد كان موسى يستخدم عصاه تلك من أجل تهدئة شهوته الجنسية فلا تنفش غنمه (أي الحيوانات المنوية عنده) في الحرث (النساء). انتهى.

الدليل

عندما خلق الله آدم، كان من المفترض أن يكون آدم خليفة. وكان ذلك تكريما من الله لهذا المخلوق الجديد:

- **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (70)**

فكان أول ذلك التكريم أن يتميز هذا المخلوق الجديد عن العالمين (أي الجن والدواب والطير)، وكان من مظاهر هذا التكريم الإلهي الابتعاد عن الغرائز التي نسميها نحن بالغرائز الحيوانية وهي التبول والتغوط والجنس. وهذه جميعها تستخدم الأعضاء التناسلية التي نعرفها. فكان من المفترض أن لا يجوع آدم ولا يعرى وأن لا يضمأ ولا يضحى، فكان يأكل ولا يحتاج أن يشرب. وكان من المفترض أن يتخلص من الفضلات التي تدخل جسمه بطريقة التعرق. ولكن الأكل من الشجرة، وهو ما جعله بحاجة أن يستخدم ما وري عنهما من سوءاتهما.

وفي الوقت ذاته، كان من المفترض أن لا يشقى آدم مادام أنه خليفة، وذلك لأن التكاثر كان مصمما أن يكون بطريقة تختلف عن ما نعرفه الآن. ونحن نفتري القول بأن التكاثر في الجنة كان من المفترض أن يتم بطريقة النفخ كما حصل مع عيسى بن مريم، فلا يكون هناك حاجة إلى الجماع واستخدام الأعضاء التناسلية من أجل التكاثر. ولو لم يقع آدم فريسة لمصيدة الشيطان، لما كان بحاجة أن يستخدم الأعضاء التناسلية في التكاثر. ولن يشقى آدم مادام كذلك، لأن النتيجة تكون على نحو أن من مميزات حياة الجنة أن لا أنساب بينهم ولا يتساءلون:

- **فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ (101)**

نتيجة مفتراة (1): التكاثر بالخلافة لا ينتج الأنساب

نتيجة مفتراة (2): التكاثر بالملك ينتج الأنساب

فهذا نوح في الجنة يتنعم فيها بالرغم أن ولده في النار، وهذا إبراهيم في الجنة بالرغم أن والده في النار. ويمكن لأي واحد منا أن يكون في الجنة بينما تكون كل ذريته في النار، فلم (نحن نسأل) لا ينغص هذا علينا حياة الجنة حينئذ؟!

رأينا: لما كانت من مميزات حياة الجنة انتفاء وجود الأنساب فإن وجود ولدك في النار لا ينغص عليك حياتك في الجنة. (وسنتطرق لهذا الموضوع بالتفصيل لاحقا بحول الله وتوفيقه).

على أي حال، إن ما نود قوله هنا هو أنه عندما آثر آدم الملك (إرادة الشيطان) على الخلافة (إرادة الله)، كانت النتيجة تتمثل بوجود الأنساب. فنحن نظن أن سر شقاء الرجل (أي رجل) هو وجود علاقة الأنساب بينه وبين ذريته. فالرجل هو المسئول عن ذريته، وهو يتحمل مشاق الحياة من أجل ذريته، وهو الذي لا يتوانى في بذل كل جهد ممكن من أجل أن لا يصيب ذريته مكروها، وكل ذلك بسبب علاقة الأنساب التي تربطه معهم. فعندما يشعر الولد بالمرض يكابد والده عناء ومشقة ربما تفوق مشقة الولد المريض نفسه. وهذا بسبب أن هذا الولد هو ملك أبيه، أي أن الأب يشعر بأن الولد قطعة منه، وهو امتداد له، فيحرص على أن لا يتأذى هذا الولد. فيكون بذلك شقاء له. وهذا ما نظن بأنه الشقاء الذي جاء التوجيه الإلهي لآدم من أجله، فلا ينزل آدم (إن هو أراد أن لا يشقى) عند رغبة الشيطان الذي هو أصلا عدو له:

- **فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (117)**

فخروج آدم من الجنة (بتخليه عن الخلافة وقبوله للملك) هو ما تولد عنه الشقاء لآدم نفسه. فلو لم ينزل آدم عند إرادة الشيطان لما حصل له الشقاء أبدا، وذلك لأن عملية التكاثر ستكون بالنفخ (فلا يحصل رابط النسب) مادام أن آدم هو خليفة.

ولن يكون الوبال بالنزول عند إرادة الشيطان على آدم وحده وإنما على زوجه أيضا. فلو حصل التكاثر في الجنة بطريقة النفخ، لما عانت زوج آدم الآلم المخاض، بالضبط كما حصل مع مريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها. فبالرغم أن رسول ربها قد تمثل لها بشرا سويا:

- **فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (17)**

وبالرغم أنه قد نفخ فيها:

- **وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (91)**

وبالرغم أنه قد نفخ في فرجها:

- **وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (12)**

إلا أنها ظلت محصنة فرجها. فكانت تبعات ذلك على النحو التالي:

- ⇐ قصر فترة الحمل
- ⇐ عدم حصول الشهوة الجنسية
- ⇐ عدم انكشاف السوءة
- ⇐ بقاء الفرج محصنا
- ⇐ خروج المولود غير ناسيا من بطنها، كما كان من أمر عيسى بن مريم
- ⇐ عدم تكبد مشقة الحمل
- ⇐ عدم حصول الأنساب، فلا ينسب المولود إلى الشخص الذي قام بالنفخ وإنما ينسب إلى المرأة التي حملته
- ⇐ الخ

ولكن لما نزل آدم عند رغبة الشيطان مؤثرا الملك على الخلافة، كانت التبعات على النحو التالي:

- ⇐ طول فترة الحمل
- ⇐ حصول الشهوة الجنسية
- ⇐ انكشاف السوءة
- ⇐ عدم بقاء الفرج محصنا
- ⇐ تكبد المرأة مشقة الحمل
- ⇐ حصول الأنساب، فينسب المولود إلى الرجل الذي نفست غنمه في حرث المرأة
- ⇐ الخ.

السؤال: كيف يمكن أن نتخيل طبيعة الحياة لو أن آدم لم ينزل عند إرادة الشيطان ونزل عند الإرادة الإلهية؟

رأينا المفترى: كان من المفترض أن لا تبدى لآدم وزوجه ما وري عنهما من سوءاتهما (أي العورة أو لنقل الأعضاء التناسلية)، فكان الذي يحجب تلك السوءة عنهما هو ذلك اللباس الذي نزعه عنهما الشيطان:

- **يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ (27)**

ولو ظل آدم وزوجه محافظان على ذلك اللباس، لما كانا بحاجة إلى استخدام تلك السوءة، ولما كانا بحاجة إلى تلك السوءة لأنهما لن يكونا بحاجة إلى ثلاثة أشياء وهي:

1. التغوط
2. التبول

3. الجنس

ولكن لما آثر آدم نصيحة الشيطان، آثر تكبد مشقة هذه الأشياء الثلاثة مقابل الرغبة الجنسية. فكيف حصل ذلك؟

رأينا المفترى: كانت مكيدة الشيطان تتمثل في أن يصبح آدم فريسة سهلة لفتنه، فما كان الشيطان يستطيع النفاذ إلى آدم وزوجه وإحداث الفتنة فيهما ماداما متسلحان بذلك اللباس الذي هو الوقاية الإلهية الآمنة من فتنة الشيطان. لذا عمد الشيطان إلى تجريد آدم وزوجه من ذلك السلاح الفتاك، ليصبح آدم وزوجه فريسة سهله له ولجنده. فكيف سيفعل ذلك؟

رأينا المفترى: كان على الشيطان أن يثير الرغبة الجنسية في جسم آدم، فكان لزاما عليه أن يستطيع إقناع آدم بالتنازل عن ما يسكت تلك الرغبة.

السؤال: ما الذي كان يسكت الرغبة الجنسية عند آدم حينئذ؟

رأينا المفترى والخطير جدا: إنها العصا

تخيلات مفتراة: عندما خلق الله آدم ألبسه ذلك الثوب، فكان بمثابة الدرع الواقي له من خطر الشيطان. وبالإضافة إلى ذلك أعطاه تلك العصا، ليتوكأ عليها ويهش بها على غنمه، فمادامت تلك العصا بيده، فإن رغبته الجنسية لن تثور، ولكن ما أن عصى آدم ربه، حتى كانت الغواية:

- **فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (121)**

السؤال: ما هي الغواية؟

رأينا: لو تدبرنا السياق القرآني التالي، لوجدنا أن الغواية هي الإيقاع بالآخرين، وتزين الأمر لهم من أجل فعل ما لا يجب فعله. فهذا الذي استصرخ موسى وقد كان قد استنصره بالأمس هو من كان غوي:

- **فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ (18)**

فهو من صور لموسى الأمر على غير ما يجب، وهو من حثه على الوقوع في ما هو محظور (القتل). لذا نحن نفتري القول بأنه ما أن عصى آدم ربه حتى غوى، أي فعل ما كان من المفترض أن لا يفعله.

السؤال: كيف حصل ذلك؟

رأينا المفترى: عندما دلّ الشيطان آدم وزوجه على شجرة الخلد، أكلا منها، فكانت النتيجة الحتمية الأولية هي أن تبدى لهما سوءاتهما وهي ما كان الله قد واراهما عنهما بذلك اللباس:

- **فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (121)**

وهنا تنبه آدم وزوجه إلى وجود تلك السوءة، فعمدا يطفقان عليهما من ورق الجنة، فكان لزاما على آدم أن يستخدم يديه من أجل قطع ورق الجنة لتغطية تلك السوءة، فامتدت يد آدم وزوجه إلى سوءاتهما للمرة الأولى. فأمسك آدم سوءته (عضوه الذكري) بيده، فكان ذلك مدعاة لأن يضع آدم العصا التي كانت بيده جانبا. وكان نتيجة مسك آدم عورته بيده هو انتصاب ذلك العضو الذكري عنده، فكان انتصاب عضوه الذكري السبب في الغواية التي وقع آدم فيه. فكيف سيسكت آدم عضوه الذكري الآن؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لم يكن بمقدور آدم أن يسكت تلك الرغبة الجنسية الجامحة عنده التي أشعل فتيلها الشيطان إلا بالمجامعة الزوجية، فعمد آدم إلى الوقوع بزوجته، فما عادت محصنة لفرجها.

وما عاد آدم قادرا على مقاومة هذه الرغبة الجنسية إلا بتكرارها. فأصبح ينفش غنمه في حرث زوجته كلما ثارت تلك الرغبة في نفسه.

وكان من أول تبعات هذا الفعل هو نسيان آدم ما كان ربه قد علمه:

- **فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (114) وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (115)**

فالعدو الأول للعلم هو الرغبة الجنسية، فمتى ثارت الرغبة الجنسية عند الرجل كان نسيان الرجل كل ما حوله هو المحصلة الأولى لهذا الفعل. فلا أظن أن رجلا يستطيع أن يفكر مليا، ولا أظن أن رجلا يستطيع أن يتعلم مادامت رغبته الجنسية حاضرة. فهذه الرغبة تعطل مستقطبات العلم عنده، فلا يعدو أكثر من "حيوان" نهم لا يهمه سوى إشباع تلك الرغبة عنده.

مقابلة بين الخلافة والملك: مقابلة بين العصا والعضو الذكري

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: عندما خلق الله آدم وجعل إرادته بأن يكون آدم خليفة، أعطاه تلك العصا التي يهش بها على غنمه، فتكون بمثابة الحماية له من أن تثور رغبته الجنسية مادام متكئا عليها ومادام يهش بها على غنمه. ولكن ما أن وضع آدم تلك العصا من يده حتى بانت له عصا من نوع آخر، إنها عضوه الذكري، فكان على آدم أن يختار بين استخدام العصا الإلهية (العصا) أو العصا الشيطانية (العضو الذكري)، ولكن لما لم يكن لآدم من عزم، نزل عند رغبة الشيطان، فكان من الغاوين، فأصبح للشيطان سلطانا على آدم:

- **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (42)**

ولو حاولنا أن نربط ذلك بما كان لموسى نفسه، لوجدنا أن الله هو من آتى موسى سلطانا مبينا:

- **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (96)**
- **ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (45)**
- **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (23)**
- **وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (38)**

السؤال: ما هو ذلك السلطان المبين الذي آتاه الله موسى؟

رأينا المفترى: إنه العصا

تخيلات مفتراة: في حين أن العصا هي سلطان مبين، كان العضو الذكري هو السلطان الذي واراه الله عن آدم، وهو ما استغله الشيطان، فأشعل فتيله.

ولو حاولنا تدبر تلك العصا التي كانت بيد موسى من حيث الشكل مثلا، لوجدنا أنها لا تختلف كثيرا في شكلها عن شكل السلطان الذي وري عنه، فالعصا التي كانت بيد موسى تشبه في شكلها العضو الذكري عندما ينتصب.

السؤال: وماذا عن مفعولها؟

رأينا: عندما كانت عصا موسى في يده في الواد المقدس، كانت خامدة (كما العضو الذكري غير المنتصب)، ولكن حتى تعود تلك العصا إلى سيرتها الأولى طلب الله من موسى أن يلقيها في تلك النار الحاضرة حينئذ:

- قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (19)

فما أن القها حتى عادت الحياة لها من جديد، فأصبحت تسعى:

- فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (20)

فخرجت من النار تهتز كأنها جآن:

- وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10)
- وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (31)

فما عاد شيء يستطيع إسكات تلك العصا، فأصبحت ذات مفعول حقيقي، فأصبحت مصدرا للحياة، فأصبحت أداة للضرب، فضرب بها البحر فكان كل فرق كالطود العظيم:

- فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63)

وضرب بها البحر فخرج منه الماء:

- وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (60)

ويمكن أن نفهم المشهد أكثر (من وجهة نظرنا) عند تشبيهه بما يفعله العضو الذكري للرجل، فهو أداة الضرب للنساء من قبل الرجال:

- الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (34)

السؤال: كيف يضرب الرجل المرأة؟

رأينا المفترى: ما أن يدخل قضيب الرجل في رحم المرأة حتى يفلقه (إلى شطرين)، فيكون كل فرق كالطود العظيم.

وما أن يضرب الرجل المرأة حتى تكون النتيجة المباشرة خروج ذلك السائل المحتقن في الداخل. فيفعل قضيب الرجل في رحم المرأة ما يشبه ما فعلته عصا موسى بالبحر وبالصخر.

خلص بكفي قلة حياء، شكلي قلبت المشهد كله فيلم إباحي. بكفي.

نتركم مع مخيلتكم لاستيعاب هذا المشهد على غرابته، على أن نعاود الحديث في الجزء القادم لتكملة المشهد نفسه (لكن بشيء من الأدب والحياء)، ومن ثم التعريج على القضايا التالية التي نظن أن لها علاقة مباشرة بالقضية قيد الشرح هنا، وهذه القضايا هي على النحو التالي:

⇐ باب اعتزال النساء في المحيض

- وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (121)

⇐ باب حضور الشياطين

- وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (97) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ (98)

⇐ باب لتعاملات النقدية: البنوك الشيطانية (قارون أول من أسسها)

⇐ باب إلوهية فرعون بوجود البنين الشهود

⇐ الخ.

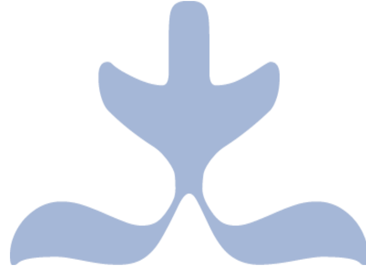
هذا ما سنخوض فيه في الجزء القادم من هذه المقالة بحول الله وتوفيق منه.

سائلا الله وحده أن ينفذ مشيئته وإرادته لي الإحاطة بشي من علمه لا ينبغي لغيري، إنه هو العليم الحكيم، وأن يزدني علما وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا. وأدعوه وحده أن يؤتيني رشدي، وأعوذ به أن يكون أمري كأمر فرعون، فالله وحده أدعو أن أكون ممن أتوه بقلب سليم، فهداهم الصراط المستقيم، وأعوذ به وحده أن أكون ممن يفترون عليه الكذب أو ممن يقولون عليه ما ليس لهم بحق، إنه هو العليم الخبير – آمين.

المدّكرون: رشيد سليم الجراح د. محمد يوسف

بقلم د. رشيد الجراح

31 أيار 2015



قصة يونس

الجزء الثاني والأربعون



قصة يونس – الجزء الثاني الأربعون

افترينا الظن في الجزء السابق بأنه عندما نزل آدم عند إرادة الشيطان، فإنما هو قد آثر بذلك استبدال عصا الخلافة بعصا الملك:

- **فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى (120)**

فدلّه الشيطان على الملك الذي لا يبلى، فكان (نحن نتجرأ على القول) عضوه الذكري.

الدليل

لو تفقدنا هذا السياق القرآني (هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى) نفسه، لوجدنا أن الشيطان قد دلّ آدم على شيئين اثنين، وهما:

1. شجرة الخلد (هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ)
2. ملك لا يبلى (هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى)

فإذا كنا ربما نستطيع أن نستوعب مفهوم الشجرة التي دلّهما الشيطان عنها (شَجَرَةِ الْخُلْدِ)، فكيف يمكن أن نستوعب ماهية الملك الذي لا يبلى (وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى)؟ فما هو الملك الذي لا يبلى الذي دل الشيطانُ آدم عليه؟

السؤال المربك: لمن تحصّل الخلد والملك الذي لا يبلى؟ هل تحصلا لآدم وزجه معا أم لآدم فقط؟

رأينا المفترى: لو تفقدنا السياق القرآني الذي يبيّن ما دار بين الشيطان من جهة وآدم وزوجه معا من جهة أخرى، لوجدنا أن الملك الذي لا يبلى غير حاضرا:

- **فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (20)**

ولكن لما كان خطاب الشيطان موجها لآدم لوحده، جاء على النحو التالي:

- **فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى (120)**

وما أن أكل آدم وزوجه من الشجرة حتى بدت لهما سوآتهما:

- **فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى (120) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (121)**

ولكن الملفت للانتباه هنا هو – برأينا- تتمة السياق القرآني التي تبين أن المعصية والغواية جاءت خاصة بآدم وحده (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى). وبكلمات أخرى يمكن القول أنه في حين أن آدم وزوجه قد تشاركا الأكل من الشجرة (فَأَكَلَا مِنْهَا)، وأنهما قد تشاركا أيضا في النتيجة عندما بدت لهما سوآتهما معا (فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا)، وأنهما طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة معا (وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ)، إلا أن هناك فرقا واضحا بين الحالتين تتمثل في نهاية الآية نفسها في قوله تعالى (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى).

لنثير بناء على ذلك سلسلة من التساؤلات، نذكر منها:

- ⇐ كيف كان آدم هو من عصى ربه فقط؟
- ⇐ ولم لم تعصي زوج آدم ربها؟ ألم تأكل هي من الشجرة؟ ألم تبد لها سوآتها؟ ألم تطفق تخصف عليها من ورق الجنة؟

⇐ فكيف إذا كان آدم هو من غوى فقط؟

⇐ ولم لم تقع زوج آدم في فعل الغواية كما وقع زوجها فيه؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نعتقد بأن زوج آدم لم تتقبل فكرة النزول عند إرادة الشيطان، فما عصت ربها أبدا. وجلّ ما فعلت (نحن نرى) أنها أقدمت على الأكل من الشجرة، نزولا عند رغبة زوجها، فشاركته في هذا الأمر تلبية لرغبة منه وليس معصية لله أو نزولا عند إرادة الشيطان. فكانت النتيجة (جزاء فعلتها تلك) أن بدت لها سوءتها كما بدت لآدم سوءته:

- فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (121)

لتكون النتيجة التي نريد الوصول إليها هي على النحو التالي: في حين أن معصية آدم تمثلت بالأكل من الشجرة وبالملك الذي لا يبلى (قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى)، كانت خطيئة زوجه قد تمثلت في الأكل من الشجرة فقط، فهي قد شاركت آدم في الأكل من الشجرة لكنها لم تشاركه في الملك الذي لا يبلى. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في السياق القرآني نفسه مرة أخرى:

- فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى (120) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (121)

لذا، لما كانت المعصية خاصة بآدم:

- ... وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (121)

ولما كانت التوبة خاصة بآدم:

- فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37)
- ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (122)

ولما كان غياب العزم خاصا بآدم:

- وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (115)

ولما كان النسيان خاصا بآدم:

- وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (115)

كانت زوج آدم – بالمقابل- في حالة أفضل من حالة زوجها التي وضع نفسه فيها. فكان لابد من وجود الميزات التي تخص زوج آدم ولا يستطيع آدم أن يتمتع بها، نذكر منها:

آدم	زوجه
الشقاء (فَتَشْقَى)	عدم الشقاء
النسيان (فَنَسِيَ)	عدم النسيان
عدم وجود العزم (وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا)	وجود العزم
ملك لا يبلى (وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى)	ملك يبلى
عدم الطهارة من أذى الشيطان	الطهارة من أذى الشيطان

السؤال: كيف يمكن أن نفهم ذلك كله؟ لماذا كان الشقاء والنسيان وغياب العزم من نصيب آدم فقط؟ لِم لَم يطل ذلك زوجه؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الشقاء والنسيان وعدم وجود العزم عند آدم كان لسبب واحد وهو: الملك الذي لا يبلى.

تساؤلات:

- ⇐ كيف يمكن أن نفهم أن ذلك خاص بآدم وحده؟
- ⇐ فما هو الملك الذي لا يبلى؟
- ⇐ وكيف يمكن أن يكون هناك ملك لا يبلى؟ فهل هناك بالمقابل ملك يبلى؟
- ⇐ ولم كان ذلك الملك الذي لا يبلى خاصا بآدم ولا تشاركه زوجه فيه؟
- ⇐ الخ.

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن هذا كله يمكن أن يُلخّص بعبارة واحدة: إنه العضو الذكري. انتهى.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن بأن شقاء آدم ونسيانه وغياب العزم عنده قد نتج (عن عصيانه لربه ونزوله عند إرادة الشيطان) عندما استبدل العصا الإلهية (التي هي أصلا حية) بالعصا الشيطانية التي كانت ميتة (لا حياة فيها).

السؤال: كيف حصل ذلك؟

تخيلات مفتراة غريبة جدا هي من عند أنفسنا: نحن نظن أن الأمر قد حصل على نحو إفراغ شحنات العصا الإلهية (التي كانت بيد آدم) بالعصا الشيطانية (عضوه الذكري). وبكلمات أكثر دقة نستطيع أن نفتري القول بأن آدم قد أفرغ شحنات السلطان المبين (العصا الإلهية) في سلطان غير مبين (عضوه الذكري)، فانتقلت الحياة من السلطان المبين إلى السلطان الذي لم يكن مبينا (العضو الذكري).

باب السلطان المبين

لو تدبرنا الآيات القرآنية التي تتحدث عن السلطان، لوجدناها تتحدث تارة عن السلطان على إطلاقه:

- **وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (81)**
- **قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (71)**
- **قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَعلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (11)**
- **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (42)**
- **إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ (100)**

وتتحدث تارة أخرى عن السلطان الذي قد يكون بيّنا:

- هَؤُلَاء قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (15)

ولا شك عندنا أن السلطان يمكن أن يكون أداة مادية:

- يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (33)

فالنفاذ من أقطار السموات والأرض يحتاج إلى سلطان (أي أداة أو وسيلة). وهذا السلطان (أي الأداة) يمكن أن يكون مبين (فلا مجال لإنكاره):

- سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا (91)
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا (144)
- يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا (153)
- وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (96)
- قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (10)
- ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (45)
- لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (21)
- مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (154) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (155) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ (156) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (157)
- وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (23)
- وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ۖ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (19)
- وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (38)
- أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (38)

ولا شك عندنا أن السلطان الذي جعله الله لموسى وأخيه هارون هو ما كان يمنع آل فرعون عنهما، فلا يصلان إليهما:

- قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (35)

ونحن نفتري الظن بأن هذا السلطان الذي كان مع موسى وأخيه هارون هو العصا التي كانت هي الآية الكبرى:

- اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (17) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى (18) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (19) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21)

نتيجة مفتراة: كانت العصا التي بيد موسى هي السلطان المبين:

- وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (23)
- ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (45)
- وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (96)
- وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (38)
- يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا (153)

السؤال: إذا كانت عصا موسى هي السلطان المبين، فمن أين جاءت هذه العصا أصلا؟

جواب مفترى: لو تدبرنا السياق القرآني التالي الذي حصل بين موسى وربه في الواد المقدس حيث الحديث بينهما يدور عن العصا:

- وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (18) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (20) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (21)

لربما احتجنا أن نطرح عدة تساؤلات نذكر منها:

⇐ كيف أصبحت عصا موسى حية تسعى؟

⇐ لماذا خاف موسى منها؟

⇐ كيف أعاد الله سيرتها الأولى؟

⇐ وما هي أصلا سيرتها الأولى؟

⇐ الخ

نحن نفهم أن موسى قد ألقى عصاه في النار التي كانت في ذلك الواد:

- فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (8)

بدليل أنها خرجت تهتز كأنها جآن:

- وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10)
- وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (31)

فمادام أن الجآن مخلوق أصلا من نار السموم:

- وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (27)

يمكن أن نفهم إذن لم خرجت العصا تهتز كأنها جآن. فمادة النار حاضرة في الصورتين المتقابلتين: صورة العصا التي تهتز مقابل صورة الجان الذي يهتز.

فما أن ألقى موسى عصاه في تلك النار حتى دبت الحياة فيها على الفور بدليل قوله تعالى:

- **قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (20)**

السؤال: كيف يمكن أن نتخيل تلك العصا قبل أن تصبح حية تسعى؟

رأينا: لا شك أنها كانت منزوعة الحياة منها، أليس كذلك؟

ولو تدبرنا الآية الكريمة التالية، لوجدنا أن الله هو من تعهد لموسى بإعادتها سيرتها الأولى:

- **فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (20) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (21)**

السؤال: ما هي إذن سيرة تلك العصا الأولى؟

رأينا: نحن نظن بداية أن تلك العصا قد كانت حية تسعى في سيرتها الأولى، وأن هذه الحياة قد نزعت منها فما عادة حية تسعى، ثم حصل أن أعادها الله سيرتها الأولى (أي أعاد لها تلك الحياة مرة أخرى) في الواد المقدس عندما ألقاها موسى في تلك النار.

العصا في سيرتها الأولى	العصا في الواد المقدس
- كانت حية تسعى - نزعت منها الحياة	- كانت منزوعة الحياة - عادت حية تسعى

السؤال: كيف يمكن أن نربط ما حصل للعصا بالواد المقدس مع سيرتها الأولى أصلا؟

تساؤلات

⇐ ما هي سيرة العصا الأولى؟
⇐ كيف كانت في سيرتها الأولى؟
⇐ هل كانت فعلا حية تسعى؟
⇐ متى نزعت منها الحياة فما عادت حية تسعى؟
⇐ كيف نزعت منه الحياة حينئذ؟
⇐ الخ.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا خطيرة جدا: كانت تلك العصا (نحن نتخيل) حاضرة في جنة المأوى التي سكنها آدم وزوجه، وكانت تلك العصا بيد آدم كأداة الخلافة التي تطوّع الجن (والملائكة جزء منهم) له، فما كانوا يستطيعون الزيغ عن أمره.

الدليل

لو تدبرنا مفردة الخلافة على وجه التحديد على مساحة النص القرآني كله، لما وجدناها قد تحققت إلا في ثلاث محطات تاريخية فقط، وهي على التوالي:

⇐ آدم:

- وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (30)

⇐ هارون وموسى:

- وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (142)

⇐ داوود وسليمان:

- يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (26)

لذا، نحن نطلب من القارئ الكريم تصور السيناريو المفترى من عند أنفسنا التالي: ربط قصة الخلافة مع العصا.

⇐ بدأت الخلافة مع آدم وكانت أداة الخلافة هي العصا، فأضاعها آدم بسبب فتنة الشيطان

⇐ عادت الخلافة لتظهر من جديد مع العصا التي كانت بيد موسى، فأعادها الله سيرتها الأولى في الواد المقدس. ترك موسى العصا مع أخيه هارون ليكون خليفة له في قومه في فترة غيابه، فما حافظ هارون عليها جيدا حتى استطاع السامري أن يستغلها عندما قبض قبضة منها. فأصبحت منسأة ، أي عصا قصيرة. (للتفصيل انظر سلسلة مقالات السامري وقصة موسى)

⇐ عادت للظهور في التابوت الذي جاءت تحمله الملائكة كآية ملك لطالوت. فوقعت العصا (أو لنقل الآن المنسأة) بيد داوود، فكانت سلاحه الذي قتل به جالوت. وانتقلت ليد سليمان، فكانت أداة حكمه المسلطة على الجن الذين ما كانوا يزيغون عن أمره. وانتهت بأن أكلتها دابة الأرض. (للتفصيل انظر سلسلة مقالات ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته)

نتيجة مفتراة مهمة جدا: إن هذه النتيجة المأسوية التي آلت إليها العصا في نهاية المطاف والغياب المتكرر الطويل لها في فترات زمنية متباعدة ربما يدلنا على أن هذه العصا أداة الملك لكنه الملك الذي قد يبلى، فكان ترويج الشيطان لآدم (نحن نتخيل) على نحو أن يبدله هذا الملك الذي قد يبلى (العصا) بملك لا يبلى:

- فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى (120)

إن ما نود إثارته من هذا النقاش الآن هو ربط الخلافة بوجود العصا. فمنذ اللحظة الأولى التي كان فيها آدم خليفة في الجنة، كانت أداة خلافته هي تلك العصا، التي كانت مسلطة على الجن، فلا يستطيعون أن يزيغوا عن أمره. فكان لابد للشيطان (عدو آدم وزوجه) أن يعمل المكيدة التي تخلصه وجنوده من العذاب المهين. فكيف سيفعل ذلك؟

رأينا المفترى: كان لابد للشيطان من أن يبطل مفعول تلك العصا، أي أن يسحب منها الحياة، فلا تعود حية تسعى. ولكن كيف سيفعل ذلك؟

جواب مفترى: عمد الشيطان إلى الخطة التالية: أن يدل آدم أولا على شجرة الخلد ثم يدله بعد ذلك على الملك الذي لا يبلى. دقق عزيزي القارئ – إن شئت- في ترتيب الأحداث في الآية الكريمة التي تصور لنا ما حصل بالضبط:

- **فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى (120)**

السؤال: ما فائدة ذلك بالنسبة للشيطان؟

رأينا المفترى: إذا ما نجح الشيطان في إقناع آدم بالتخلي عن العصا، فهو إذن قد نجح في أن يجعله يتخلى عن الخلافة، وما أن ينجح في أن يقنعه بالتخلي عن الخلافة حتى يكون ملكا.

السؤال: ما فائدة ذلك؟

جواب مفترى: بدل أن تكون الحياة في الجنة خلافة، فلا أنساب بينهم ولا يتساءلون، أصبحت الحياة شقاء بوجود الأنساب (ووالد وما ولد).

السؤال: وما الفرق بين الخلافة والملك؟

رأينا المفترى (1): التكاثر بالخلافة يتم بالنفخ، فلا ينكشف الفرج (كما حصل مع مريم ابنت عمران)

رأينا المفترى (2): التكاثر بالملك يتم بالدخول، فينكشف الفرج (كما يحصل مع ذرية آدم جميعا)

السؤال: كيف سينفذ الشيطان هذه الخطة؟

رأينا المفترى: كان لابد للشيطان حتى ينجح في مهمته أن ينزع أولا عن آدم وزوجه لباسهما بالأكل من الشجرة، فأصبحا بحاجة أن يعريا (التغوط) وأن يضحيا (التبول).

السؤال: ما الذي يمكن أن نتخيله قد حصل بعد أن بدت لآدم وزوجه سوآتهما؟ وبكلمات أكثر دقة يمكن أن نسأل: ما الذي فعله الشيطان عندما وجد أن آدم وزوجه قد عريا؟

رأينا المفترى: هنا (نحن نظن) جاءت المفارقة العجيبة جدا التي نحاول تسويقها: ترك الشيطان زوج آدم مادامت غير راغبة في النزول عند إرادته، فلم يعبث معها من جديد، وتوجه إلى آدم فقط ليصب جآم غضبه عليه (فهو الذي آثر النزول عند إرادته)، فأصبح آدم ألعوبة بيد الشيطان. فكانت المكيدة الأكبر وهي الملك الذي لا يبلى. فكان لابد أن يدل الشيطانُ آدم وحده على الملك الذي لا يبلى. فكيف سيفعل ذلك؟

تخيلات مفتراة: عندما وجد آدم أن سوءاته (عضوه الذكري على وجه التحديد) قد بدت له، لم يكن يعرف ماهيته بالضبط، فما كان من الشيطان إلا أن دلّه على ماهيته، فكان هو (نحن نفتري الظن) الملك الذي لا يبلى. وبكلمات أخرى نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن الشيطان قد جلب انتباه آدم (أي دلّه) إلى وجود عضوه الذكري كأداة (عصا) ذات قيمة استثنائية تختلف عن جميع أعضاءه الأخرى. فكانت هذه – برأينا- مدلة من الشيطان نفسه.

فحتى هذه اللحظة استخدم آدم عضوه الذكري للتبول بعد أن أكلا من الشجرة فحصل له الظمأ، فكان لا بد أن يضحى، أي أن يتبول (للتفصيل انظر الأجزاء السابقة). لكن هذا التبول يحصل دون الحاجة لهذا العضو الذكري أن ينتصب.

نتيجة مفتراة مهمة جدا: استخدام العضو الذكري للتبول هو نتيجة للأكل من الشجرة.

لكن هناك استخدام آخر للعضو الذكري، فكيف تعرف عليه آدم؟

رأينا المفترى: هنا تدخل الشيطان من جديد ليدل آدم على الملك الذي لا يبلى. فحتى يفعل هذا العضو الذكري فعله، كان لابد من إدخال الحياة فيه، وهنا جاء دور الشيطان ليجرد آدم من هيمنته المطلقة عليه وعلى سائر الجن (بمن فيهم الملائكة)، فعمد إلى نزع السلاح الذي بيده وهو العصا (أداة الخلافة). فكيف سيفعل ذلك؟

تخيلات غريبة جدا مفتراة من عند أنفسنا: عمد الشيطان إلى فعل ما يبطل مفعول العصا التي بيد آدم، فتصبح عصا لا حياة فيها، فكان هو (أي الشيطان) من دل آدم على ما يستطيع أن يفعل بهذه العصا حيال عضوه الذكري حتى يصبح فعالا، فيكون له ملكا لا يبلى. فكيف دلّه على ذلك؟

تخيلات خطيرة جدا جدا لا تصدقوها: استطاع الشيطان أن يقنع آدم بأن هذا العضو الذكري لا يمكن أن يفعل فعله، ويحقق له الملك الذي لا يبلى، إلا بأن يتم إفراغ شحنه النار المقدسة الموجودة بالعصا فيه. ولكن كيف يمكن تحقيق ذلك؟

جواب مفترى: هنا (نحن لازلنا نتخيل) دلّ الشيطان آدم على إمكانية أن تنتقل الحياة من العصا التي بيده إلى العصا التي بين فخذيه. فبدل أن يكون سلطان آدم مبينا (عصا بيده) أصبح سلطانا غير مبين (بين فخذيه). فتمت عملية الشحن بنجاح، فانتقلت الحياة من العصا (فأصبحت لا حياة فيها) إلى العضو الذكري، فأصبح هو مصدر الحياة وسببها بعد أن كان لا حياة فيه أصلا. فأصبح هذا العضو الذكري هو الأداة التي تطلق شرارة الحياة في الوجود. فلا يمكن لأداة أخرى أن تحدث الحياة مثل ما يفعل هذا العضو الذكري.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا خطيرة جدا: انتقلت شرارة الحياة الأبدية من العصا (السلطان المبين) التي كانت بيد آدم إلى السلطان غير المبين الذي كان بين فخذيه.

آدم قبل المعصية (خلافة)	آدم بعد المعصبة (ملك لا يبلى)
- عصا حية تسعى (سلطان مبين) - عضو ذكري لا حياة فيه (سلطان غير مبين)	- عصا لا حياة فيها (سلطان مبين) - عضو ذكري تدب الحياة فيه (سلطان غير مبين)

فكان آدم (بعضوه الذكري الذي تم شحنه) هو مصدر الحياة وشرارتها. ومنذ تلك اللحظة فقدت العصا التي كانت بيده الحياة، فما عادت حية تسعى، فكانت تلك برأينا المفترى جزء من سيرتها الأولى. وما عادت له الحياة إلا في الواد المقدس عندما ألقاها موسى بطلب بأمر ربه في النار التي كانت حاضرة حينئذ.

لكن هذا النقاش يدعونا إلى الظن بأن زوج آدم لم تستفد من تلك الشحنة التي كانت في العصا، فالحياة التي كانت متواجدة في العصا انتقلت إلى العضو الذكري لزوجها. ولم ينتقل شيء من الحياة في تلك العصا إلى الجهاز التناسلي لزوج آدم، فما كان جهازها التناسلي مصدرا للحياة قط، بل هو مستقبل لها. فالمرأة (بجهازها التناسلي) ليست أكثر من حاضنة لشعلة الحياة التي يطلقها العضو الذكري فيها.

في تلك اللحظة التي نقل آدم شحنة الحياة من العصا التي كانت بيده إلى العصا التي بين فخذيه، فقدت تلك العصا خاصية الحياة، فما عادت حية تسعى إلا عندما طلب الله من موسى أن يلقيها في النار المقدسة مرة أخرى، وحصل ذلك في الواد المقدس طوى، فأعادها الله سيرتها الأولى:

- **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (18) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (20) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (21)**

السؤال: كيف عادت الحياة لتلك العصا عندما ألقاها في النار المقدسة؟

رأينا المفترى: لو تفقدنا السياق القرآني التالي، لوجدنا أن هناك من كان حاضرا في داخل النار نفسها، قال تعالى:

- **فَلَمَّا جَاءهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (8)**

نتيجة مفتراة: كان الروح حاضرا في داخل النار المقدسة، وما أن ألقى موسى عصاه في النار حتى دخل الروح في تلك العصا، فخرجت من النار حية تسعى. فعادت العصا سيرتها الأولى بإذن ربها كما كانت قبل أن يقع آدم في المعصية الأولى.

مقارنة بين آدم وزوجه

في حين أن آدم وزوجه قد تشاركا في الأكل من الشجرة، وفي حين أن السوآة قد بدت لهما معا، وفي حين أن كلاهما طفقا يخصفان على سوءاتهما من ورق الجنة، إلا أن فعل العصيان والغواية قد كان خاصا بآدم وحده:

- **فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى (120) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (121)**

ولو تفقدنا الفرق بين الذكر والأنثى على أرض الواقع، لوجدنا أن حاجات الأنثى من أعضاءها التناسلية مشابهة لأعضاء الذكر التناسلية باستثناء وظيفة واحدة: وهي الرغبة الجنسية.

فالأنثى (كما الذكر) تستخدم عضوها التناسلي للتبول، لكن لا نجد أن عضو الأنثى التناسلي متقدا بالشهوة الجنسية كالعضو الذكري للرجل، وتبين هذه الشهوة الجامحة عند الذكر (على خلاف الأنثى)– على الأقل- في أمرين اثنين، هما:

⇐ الانتصاب
⇐ القذف
⇐ تساؤلات
⇐ لماذا ينتصب العضو الذكري؟
⇐ ومن أين تأتي القدرة على القذف؟
⇐ وما هي ماهية هذه العملية أصلا؟
⇐ ولماذا لا يحصل مثل ذلك للأنثى؟
⇐ الخ.

رأينا المفترى: لما كانت عملية القذف هذه هي أساس الحياة وشعلتها، فإننا نفتري الظن من عند أنفسنا أن هذه الشعلة الموقدة لجذوة الحياة قد أكتسبها العضو الذكري من تلك العصا الأولى التي كانت بيد آدم عندما أفرغت الروح الموجودة في العصا التي كانت بيد آدم في عضوه الذكري، فأصبحت جذوة الحياة كامنة فيه. فهذا موسى يقول لأهله عندما آنس من جانب الطور نارا:

- **فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29)**

فللنار إذن جذوة (أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ)، وهي ما يمكن استخدامه لرفع الحرارة (لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ). وهذا بالضبط ما يمكننا تخيّله في حالة الحياة التي تنتج بفعل العضو الذكري في رحم الأنثى. فللذكر نار تسعّر في داخله، تعمل على تشويش وظائفه الأخرى، فتعمل على رفع حرارته الداخلية (فتكون شهوة جنسية جامحة)، تسير كلها باتجاه عضوه الذكري، فتبين جلية عليه، فينتصب، ولا يمكن أن تنطفئ هذه الجذوة إلا بإخراجها من جسده بالقذف عن طريق عضوه الذكري فسه، وإذا ما أفرغت هذه الشحنة في الحرث الملائم (رحم المرأة)، فإن الحياة تتولد فيه من جديد.

أما بالنسبة للأنثى، فإن رغبتها الجنسية ليست ذاتية التولد، فلو ظلت المرأة من غير تحفيز من الطرف الآخر، لما اشتعلت الرغبة الجنسية عندها إطلاقا. فرغبة المرأة الجنسية (نحن نفتري الظن) ليست أكثر من ردة فعل، فلا يمكن أن تثور إلا بوجود التحفيز (أي المثير). فرغبة المرأة الجنسية هي استجابة للمثير (أي الطرف الآخر)، وهو الذكر نفسه. وما دام أن رغبة المرأة الجنسية ليست ذاتية التولد (كما الحال بالنسبة للذكر)، لا يحصل عند المرأة انتصاب (أو انتفاخ)، وما دام أن جذوة الحياة ليست كامنة في جسدها، لا يحصل عندها قذف (تفريغ للطاقة) كما يحصل عند الرجل. وجل ما يحصل في حالة الأنثى هو أن شهوتها الجنسية تكمن وتزداد بمقدار تلبيتها لحاجة شريكها (الذكر)، فكلما وجدت المرأة أن شريكها الرجل قد حصل على متعة أكثر، كلما زادت رغبتها في ذلك. وليست الإفرازات التي تخرج من جسد المرأة أكثر من انعكاس لتلك الحالة، فكلما زادت رغبتها الجنسية التي حفزها الذكر نفسه، كلما زادت كمية إفرازاتها، إلا أن هذه الإفرازات لا تخرج مرة واحدة على شكل قذف قوي وسريع كما في حالة الرجل. والأهم من ذلك كله هو استحالة أن تؤخذ جذوة الحياة من إفرازات المرأة.

ولو تفقدنا سلوك المرأة في الفراش، لوجدنا أنها قادرة على التوقف في أي لحظة من الجماع، فهي تنتهي (وربما تكتفي) عندما ينتهي شريكها الرجل. فرغبتها بالجنس محكومة بشهوة الرجل النهائية، لكن هذا غير ممكن بالنسبة للرجل، فالرجل لا يستطيع التوقف إلا عندما ينهي المهمة عن آخرها. فما دام الرجل يحمل في داخله نارا متقدة، فهو لا يستطيع أن يتوقف إلا بإخراجها من جسده. وما أن تخرج هذه النار من جسده مرة واحدة حتى يقع خائر القوى، ويكأنه كان في عراك شديد، وقد أفقده كثيرا من قوته البدنية. وهذا ما لا يكون بالنسبة للمرأة، بل على العكس فهي تنتهي ويكأنها قد اكتسبت نشاطا زائدا. فاهتزت وربت وأنبتت كما الأرض التي سقط عليها المطر فأخرج فيها الحياة. وهذا التصوير واضح في أجمل صوره في التقابل الذي تجلّيه الآية الكريمة التالية:

- **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ**

طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5)

تبعات هذا الظن

لو تدبرنا السياق القرآني التالي، لوجدنا فيه ما يدعونا فعلا أن نتدبره ملّيا:

- **فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (86) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87)**

فهذا السياق يبين لنا الحوار الذي دار بين موسى من جهة وقومه من جهة أخرى بعد أن عاد من لقاء ربه، ليجد أن قومه قد فتنوا بضلالة السامري.

السؤال: ماذا يمكن أن نفهم من رد القوم على سؤال موسى عندما قالوا (قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا)؟ ألا يقع القارئ للقرآن في حيرة من أمره فيصعب عليه فهم المراد عند هذا القول؟ ألا يجد من الصعوبة عليه أن يفهم المقصود من قولهم (بِمَلْكِنَا)؟

جواب: قبل أن نتجرأ (بناء على نقاشنا السابق) على تقديم افتراءات من عند أنفسنا نظن أنها غير مسبوقة، دعنا نقدم للقارئ الكريم بداية ما جاء في بطون بعض أمهات كتب التفسير (كتفسير الطبري مثلا) عن هذه الآية الكريمة، ثم ليقارن هو بنفسه بعد ذلك بين ما سطرّت أقلام أهل الدراية من علم عظيم في بطون تلك "الكتب القيّمة" مقابل ما سنفتريه نحن من قول من عند أنفسنا في الصفحات القليلة (ربما غير القيّمة) التالية:

قالوا ما أخلفنا موعدك

القول في تأويل قوله تعالى : { قالوا ما أخلفنا موعدك } يقول تعالى ذكره : قال قوم موسى لموسى : ما أخلفنا موعدك , يعنون بموعده : عهده الذي كان عهده إليهم , كما : 18295 - حدثني محمد بن عمرو , ثنا أبو عاصم , قال : ثنا عيسى " ح " ; وحدثنا الحارث , قال : ثنا الحسن , قال : ثنا ورقاء , جميعا عن ابن أبي نجيح , عن مجاهد , قوله : { موعدي } قال : عهدي . وذلك العهد والموعد هو ما بيناه قبل .

بملكنا

وقوله : { بملكنا } يخبر جل ذكره عنهم أنهم أقروا على أنفسهم بالخطأ , وقالوا : إنا لم نطق حمل أنفسنا على الصواب , ولم نملك أمرنا حتى وقعنا في الذي وقعنا فيه من الفتنة . وقد اختلفت القراء في قراءة ذلك , فقرأته عامة قراء المدينة : " بملكنا " بفتح الميم , وقرأته عامة قراء الكوفة : " بملكنا " بضم الميم , وقرأه بعض أهل البصرة { بملكنا } بالكسر . فأما الفتح والضم فهما بمعنى واحد , وهما بقدرتنا وطاقتنا , غير أن أحدهما مصدر , والآخر اسم . وأما الكسر فهو بمعنى ملك الشيء وكونه للمالك . واختلف أيضا أهل التأويل في تأويله , فقال بعضهم : معناه : ما أخلفنا موعدك بأمرنا . ذكر من قال ذلك : 18296 - حدثني علي , قال : ثنا عبد الله , قال : ثني معاوية , عن علي عن ابن عباس , قوله : { ما أخلفنا موعدك بملكنا } يقول : بأمرنا . 18297 - حدثني محمد بن عمرو , قال : ثنا أبو عاصم , قال : ثنا عيسى ; وحدثني الحارث , قال : ثنا الحسن , قال : ثنا ورقاء , جميعا عن ابن

أبي نجيح , عن مجاهد , قوله : { بملكنا } قال : بأمرنا . * - حدثنا القاسم , قال : ثنا الحسين , قال : ثني حجاج , عن ابن جريج , عن مجاهد , مثله . وقال آخرون : معناه : بطاقتنا . ذكر من قال ذلك : 18298 - حدثنا بشر , قال : ثنا يزيد , قال : ثنا سعيد , عن قتادة { قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا } : أي بطاقتنا . 18299 - حدثنا موسى , قال : ثنا عمرو , قال : ثنا أسباط , عن السدي : { قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا } يقول : بطاقتنا . وقال آخرون : معناه : ما أخلفنا موعدك بهوانا , ولكنا لم نملك أنفسنا . ذكر من قال ذلك : 18300 - حدثني يونس , قال : أخبرنا ابن وهب , قال : قال ابن زيد , في قوله : { ما أخلفنا موعدك بملكنا } قال : يقول بهوانا , قال : ولكنه جاءت ثلاثة , قال ومعهم حلي استعاروه من آل فرعون , وثياب . وقال أبو جعفر : وكل هذه الأقوال الثلاثة في ذلك متقاربات المعنى , لأن من لم يهلك نفسه , لغلبة هواه على ما أمر , فإنه لا يمتنع في اللغة أن يقول : فعل فلان هذا الأمر , وهو لا يملك نفسه وفعله , وهو لا يضبطها وفعله وهو لا يطيق تركه . فإذا كان ذلك كذلك , فسواء بأي القراءات الثلاث قرأ ذلك القارئ , وذلك أن من كسر الميم من الملك , فإنما يوجه معنى الكلام إلى ما أخلفنا موعدك , ونحن نملك الوفاء به لغلبة أنفسنا إيانا على خلافه , وجعله من قول القائل : هذا ملك فلان لما يملكه من المملوكات , وأن من فتحها , فإنه يوجه معنى الكلام إلى نحو ذلك , غير أنه يجعله مصدرا من قول القائل : ملكت الشيء أملكه ملكا وملكة , كما يقال : غلبت فلانا أغلبه غلبا وغلبة , وأن من ضمها فإنه وجه معناه إلى ما أخلفنا موعدك بسلطاننا وقدرتنا , أي ونحن نقدر أن نمتنع منه , لأن كل من قهر شيئا فقد صار له السلطان عليه . وقد أنكر بعض الناس قراءة من قرأه بالضم , فقال : أي ملك كان يومئذ لبني إسرائيل , وإنما كانوا بمصر مستضعفين , فأغفل معنى القوم وذهب غير مرادهم ذهابا بعيدا ; وقارئو ذلك بالضم لم يقصدوا المعنى الذي ظنه هذا المنكر عليهم ذلك , وإنما قصدوا إلى أن معناه : ما أخلفنا موعدك بسلطان كانت لنا على أنفسنا نقدر أن نردها عما أتت , لأن هواها غلبنا على إخلافك الموعد .

بعد أن تدبرنا هذا التفسير العظيم، وجدنا أن من حقنا (ربما مخطئين) أن نسطر الملاحظات التالية التي نظن أنها ربما (حسب ظننا) تعيب هذا التفسير (على مكانته)، نذكر منها:

أولا، نحن لا نجد أصلا تفسيرا لمفردة بِمَلْكِنَا، التي كان من المفترض أن ينصب الاهتمام عليها لما تسببه من إشكالية في ذهن كل من يقرأ هذه الآية في كتاب الله. فجل ما فعله أهل الدراية من سادتنا العلماء هو استبدال مفردة بمفردة أخرى، فهم قد استبدلوا المفردة الصحيحة بِمَلْكِنَا بمفردات خاطئة مثل (بقدرتنا وطاقتنا وبأمرنا). ولو كان هذا هو المقصود، فلم لم يستخدم الإله نفسه هذه المفردات للتعبير عن مراده؟ وما الذي يمكن أن يستفيده الباحث عن التفسير عندما يجد أن الأمر لا يعدو أن يكون أكثر من استبدال مفردة بأخرى؟

ثانيا، بالرغم من كثرة أصحاب الرأي، إلا أنهم في نهاية المطاف يرددون القول ذاته تقريبا (بقدرتنا وطاقتنا وبأمرنا)، ولعلي أجزم القول بأن الغلو في ذكر الأسماء الكثيرة من أصحاب الرأي يدفعه هدف واحد، هو إلزام الناس هذه الآراء شاءوا أم أبوا مادامت قد صدرت عن هذا الكم الهائل من أهل العلم. فهذه هي سياسة "التسكيت" (أو تكميم الأفواه) التي لا تخلو من المكر والدهاء. فأنت عندما تسمع رأيا يقول به كثير من العلماء (ويتبناه السواد الأعظم من الأمة) لا تجد بدا من تصديقه، حتى وإن لم يكن الدليل فيه مقنعا لك، فتقف حائرا لا حول لك ولا قوة أمام هذا العدد الكبير من أهل العلم حتى وإن كنت لا تفهم شيئا مما يقولون، وحتى لو

كنت غير مقتنعا بما يقولون. فتكذيب هذا العدد الهائل من أهل العلم (والإبحار ضد التيار الجارف) هي مجازفة لا يقوى عليها إلا المجانين (من مثلي طبعا).

ثالثا، الاختلافات في الرأي عندهم (إن وجدت أصلا) لا تفضي إلى نتيجة كبيرة، فما الفرق في تفسيرهم لمفردة بِمَلْكِنَا عندما قالوا أنها تعني بقدرتنا وطاقتنا وبأمرنا. فهل فهمنا شيئا ذات قيمة من هذا الاختلاف في القول؟ وما الفرق بين القدرة والطاقة والأمر؟ فهل نحن فعلا نفهم هذه المفردات كما يجب؟ من يدري؟!

رابعا، بالرغم من المجهود العظيم الذي بذلوه (مشكورين طبعا) حتى خرجوا بهذه الأفهام العظيمة، إلا أننا لا نجد لرأيهم أثرا في فهم القصة كلها، فما علاقة هذه المفردة بِمَلْكِنَا مثلا في سياق الحديث عن قصة موسى مع قومه وعودته غضبان أسفا من لقاءه مع ربه ثم فتنة السامري وحلي القوم، والعجل وغيرها؟ من يدري؟!!!

خامسا، ربما يجد المدقق في التفسير أن إستراتيجية التعمية واضحة تماما. ونقصد بإستراتيجية التعمية نقل الحديث من موضوع واضح بيّن إلى موضوع مبهم من أجل قتل الفكرة قيد البحث. فالموضع قيد البحث هو محاولة شرح مفردة بِمَلْكِنَا كما جاءت في هذا السياق القرآني، لذا يبدأ القارئ موجها جلّ الاهتمام على هذه المفردة، في محاولة للخروج بمفهوم واضح يساعده في فهم الأحداث كما حصلت على أرض الواقع، أليس كذلك؟

لكن ما الذي يحصل في التفسير بعد ذلك؟

رأينا: ما أن يكون ذهن القارئ لهذه التفاسير العظيمة منشغلا تماما في محاولة إيجاد المعنى الحقيقي للمفردة قيد النقاش، فيحاول مطاردة الفكرة مع المؤلف، حتى يجد أن المؤلف قد نقله دون سابق إنذار إلى موضوع آخر بعيد كل البعد أن فحوى النقاش، فيشوش أفكاره ويتعبه ولا يعود يقوى على متابعة النقاش معه في الموضوع الأساسي قيد البحث. ولتوضيح الفكرة أكثر، انظر كيف أنه في حين أن ذهن القارئ كان منشغلا في إيجاد معنى حقيقي لمفرد بِمَلْكِنَا، فما أنهى السطر الأول من التفسير:

<u>وقوله : { بملكنا } يخبر جل ذكره عنهم أنهم أقروا على أنفسهم بالخطأ , وقالوا : إنا لم نطق حمل أنفسنا على الصواب , ولم نملك أمرنا حتى وقعنا في الذي وقعنا فيه من الفتنة .</u>

حتى نقله المؤلف إلى موضوع آخر يتعلق بكيفية قراءة المفردة بالرفع أو بالفتح أو بالضم، الخ:

وقد اختلفت القراء في قراءة ذلك , فقرأته عامة قراء المدينة : " بملكنا " بفتح الميم , وقرأته عامة قراء الكوفة : " بملكنا " بضم الميم , وقرأه بعض أهل البصرة { بملكنا } بالكسر . فأما الفتح والضم فهما بمعنى واحد , وهما بقدرتنا وطاقتنا , غير أن أحدهما مصدر , والآخر اسم . وأما الكسر فهو بمعنى ملك الشيء وكونه للمالك

فضاعت الفكرة، وانتهى البحث عن معنى المفردة قيد البحث، وانتقل الحديث إلى الغوص في سبر أعماق اللغة الفصيحة الجميلة، وتمجيد إمكاناتها التي لا يمكن للغة أخرى (أرضية كانت أو سماوية) أن تعدلها أو حتى أن تجاريها (حسب ظنهم).

السؤال: ما الحاجة إلى هذا الانتقال؟ وماذا يستفيد القارئ من ذلك؟ وهل لهذا الانتقال علاقة مباشرة في توضيح مراد القول في تفسير المفردة قيد البحث؟ أي هل يساهم هذا الحديث عن الرفع والنصب والجر في توضيح الفكرة وتجليتها أكثر عن معنى بِمَلْكِنَا؟ وهل فعلا يمكن أن تقرأ كلمة واحدة في كتاب الله بكل هذه الطرق (بالرفع والنصب والجر)؟ ألم نعهد من سادتنا أهل العلم القول بأن تغيير حركة واحدة في الكلمة يغير

معناها ومدلولاتها؟ فهلا أفهمتمونا (يا سادتنا العلماء) كيف غيرت هذه الحركات المتنوعة في معنى مفردة بِمَلْكِنَا هذه؟ هل فعلا الأمر على هذه الشاكلة؟

رأينا المفترى والخطير جدا: كلا وألف كلا، فهذه ليست إلا صنيعة أهل العلم الذين كان ديدنهم على الدوام هو ما أفهمه من الآية الكريمة التالية:

- **وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (91)**

فهم إذن يبدون ما يريدون من قراطيسهم ويخفون كثيرا منها، إما لحاجة في نفوسهم لأنهم لا يريدون الآخرين الإطلاع عليه، أو لجهل عندهم فلا يريدون الآخرين أن يعلموا حقيقتهم. فنحن نحاول أن نلفت انتباه من يريد من الناس إلى الملاحظة التالية: متى وجدتم الخطيب (محدثكم) يقفز من سؤال طرحته عليه إلى سؤال آخر، ويسهب متى أراد ويختصر متى أراد، دون تقديم إجابة واضحة مقنعة أو الاعتذار صراحة بعدم المعرفة، فأعلم أن هذا من إخوان الشياطين، لأنه بكل بساطة لا يريد للناس أن يروا بأم أعينهم مقدار جهله، فهو إنما يحاول مراوغا إتباع أسلوب التعمية، فيغطي على ما يجهل (وهو كثير) ببعض ما يعلم (وهو قليل). فيتجنب طرح المواضيع التي لا علم عنده فيها، وربما ينعت من يطرحها بالزندقة والكفر والإلحاد، ويؤثر أن ينصب الحديث دائما على ما عنده من أفهام يظن أنها ذات قيمة أصلا، فيظل يلوكها كالعلكة البالية في فمه في كل وقت وحين (أو CHEWING THE OLD GUM بالمثل الإنجليزي)، ويكثر من ترداد أصحاب الرأي من سادته العلماء الأقدمين والمحدثين الذين قالوا بقوله في محاولة لتسكيت خصمه، فينصعق بسطاء العامة من الناس بما يسمعون منه، وينسون ما كان من المفترض أن يكون هو موضوع النقاش. فالخطيب الذي لا يقوى أن يقول لك صراحة بأنه لا يعلم إجابة السؤال الذي تطرحه عليه نفسه (ليتسنى لك البحث عند غيره عن إجابة لما تريد) هو الذي يتبع أسلوب التعمية التي صدت الناس (برأينا) عن الذكر قرونا طويلة من الزمن، بالرغم من أن القرآن ميسر للذكر:

- **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (17)**

نحن نريد معنى بِمَلْكِنَا في قوله تعالى (قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا) بغض النظر عن طريقة قراءتها، فهل عندك من شيء تبديه لنا وإلا أصبحت ممن يتبعون أسلوب التعمية "الخبيثة"؟ هل فعلا من اليسير علينا أن نفهم مفردة بِمَلْكِنَا؟ يرد صاحبنا قائلا.

جواب مفترى من عند أنفسنا: نعم، أظن أننا قد نخرج بعد قليل بفهم مختلف تماما عن ما وصلنا من عند سادتنا أهل الدراية، ولعلي أجزم أنه غاية في البساطة التي قد تفاجئ القارئ العادي لكتاب الله. لكن دعنا ندقق في القصة كلها لنحاول ربط هذه المفردة بها، ثم نرى ما يمكن أن تؤول إليه الأمور.

أما بعد،

هذا موسى يحاور قومه بعد أن رجع من لقاءه ربه غضبان أسفا، فيسألهم عند سبب إخلافهم لموعده:

- **فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (86)**

إذن يمكن أن نستنبط من ذلك أن موعدا قد تم تحديده من ذي قبل (أي قبل ذهاب موسى إلى لقاء ربه في الواد المقدس) بين موسى من جهة وقومه من جهة أخرى، أليس كذلك؟

ولا شك عندنا أن الموعد يتطلب وجود عامل الزمن، أليس كذلك؟ فالموعد يتحدد بالزمان كما حصل مع موسى نفسه:

- **وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (142)**

كما أن الموعد يتطلب وجود عامل المكان، أليس كذلك؟ فالموعد يتحدد بالمكان كما في قوله تعالى بخصوص بني إسرائيل:

- **يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى (80)**

نتيجة مفتراة: كان من المفترض أن يحصل اللقاء بين موسى من جهة وقومه من جهة أخرى في زمان محدد وفي مكان محدد. فما الذي حصل فعلا على أرض الواقع؟ هل تلاقى الطرفان حسب الموعد الذي تم تحديده من قبل؟

جواب مفترى: حصل إخلاف للموعد، أليس كذلك؟ فمن الذي أخلف الموعد موسى أم قومه؟

جواب مفترى: حصل إخلاف للموعد من قبل بني إسرائيل وليس من قبل موسى، وليس أدل على ذلك من رد القوم أنفسهم على سؤال رسولهم ذاته:

- **قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87)**

نتيجة مفتراة: لقد أخلف القوم موعد رسولهم، وهم يعترفون بذلك صراحة بألسنتهم.

السؤال: لماذا أخلفوا موعد رسولهم؟ فهل أخلفوه رغبة في إخلاف الموعد وكفى؟ أم أنهم أخلفوه لسبب قاهر حصل معهم؟

رأينا المفترى: نحن نرى أن القوم لم يخلفوا الموعد رغبة منهم في ذلك، فها هم يحاولون تبرير إخلافهم لذاك الموعد، فيحاولون تقديم العذر لإخلافهم لذلك الموعد، فكان عذرهم مبنيا على تبريرين هما،

⇐ عدم إخلافهم موعد رسولهم بملكهم (قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا)

⇐ حملهم لأوزار من زينة القوم وما حصل لها من قبل السامري (وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ)

السؤال: لماذا جاء تبريرهم على هذه الشاكلة؟

جواب مفترى: لمّا كان القرآن ميسرا، دعنا نفهم الأمر بطريقة سهلة جدا بتقديم مثال بسيط يمكن أن يفهمه كل الناس لأنه يحصل معهم دائما في حياتهم اليومية العادية.

المثال: تخيل عزيزي القارئ أن والدك (المسافر في الاغتراب) قد طلب منك القيام بعمل معين لتنجزه في غيابه في فترة محددة من الزمن، وحصل الاتفاق بين الطرفين (الأب والابن مثلا) على ذلك، وكانا كلاهما يظنان أن الفترة الزمنية كافية لانجاز العمل وأن المقدرة متوفرة لإنجازه فعلا، وليس هناك عائقا على إتمام العمل بالوجه المطلوب وفي الزمن المحدد. ولكن تخيل أنه عندما عاد الوالد المغترب من سفره وجد أن العمل لم ينجز تماما كما تم الاتفاق عليه بين الطرفين، فكيف يمكن أن تتخيل ردة فعل الأب الذي كان يتوقع أن يجد العمل منجزا حسب الاتفاق؟ وكيف يمكن أن تتخيل ردة فعل الولد (الذي أخلف موعد والده)؟ ألن يسأل الوالد ولده مباشرة عن سبب عدم إيفاءه بالموعد؟ ألن يسأله عن السبب الذي حال دون إنهاءه المهمة كما يجب؟

ثم بالمقابل ألن يحاول الولد تبرير موقفه؟ ألن يحاول أن يقدم الحجة (أو التبرير) لعدم إنجازه المهمة كما يجب؟

السؤال إذن: كيف يمكن أن ترد على سؤال والدك حينئذ لو أنك كنت أنت – عزيزي القارئ- في هذا الموقف؟ وكيف ستبرر له ما حصل فعلا؟

رأينا: إن من أولى الأولويات عند الولد (وهو المتهم الآن بالتقصير) أن تظهر لوالدك أنك قد أخذت الأمر فعلا على محمل الجد، وأنك لم تدخر وسعك في إتمامه، وأنك فعلا بذلك ما بوسعك لإتمامه، وأنك ما كنت تلهو ولا كنت تلعب في غيابه، ولكن حصلت على أرض الواقع ظروف محددة هي التي حالت دون إتمام العمل على الوجه المطلوب في الفترة المحددة، أليس كذلك؟

نتيجة مفتراة مهمة جدا: إذن نحن نتخيل أن التبرير سيكون من جانبين: الأولى أن تدفع عن نفسك تهمة التقصير المتعمد، والثانية أن تذكر السبب الحقيقي الذي حال دون إنجاز المهمة كما يجب.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: هذا بالضبط ما حصل عندما حاول قوم موسى تبرير سبب إخلافهم لموعد رسولهم، فقد حاولوا أن تصل رسالتهم (أي خطابهم الشفهي) واضحة لموسى، الرسالة التي مفادها بأنهم قد حملوا الأمر فعلا على محمل الجد، وأنهم لم يدخروا جهدهم في اللحاق به، وأنهم لم يكونوا يلعبون ولم يكونوا يلهون في غيابه (أي دفع تهمة التقصير عن أنفسهم)، وتمثل هذا بقولهم (مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا)، ولكن حصل على أرض الواقع أحداث كبيرة هي التي حالت دون اللحاق به والظفر بموعده، وتمثلت بقولهم (وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ). فهذه هي الأحداث التي حصلت على أرض الواقع وحالت دون لحاقهم بموعد رسولهم.

السؤال الأول: كيف دفعوا تهمة التقصير عن أنفسهم؟

جواب: قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا

سؤال: ما معنى ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن القوم كانوا يحاولون إيصال الرسالة لموسى بأن إخلافهم لموعده لم يكن بملكهم، أي لم يكن (ملكهم) هو سبب إخلافهم لموعده، فهم – كما أسلفنا- يحاولون تبرير موقفهم بأنهم لم

يألوا جهدا في اللحاق بموعد رسولهم وأنهم لم يكونوا يلعبون ويلهون، وإنما بذلوا كل ما يستطيعون ولكن الظرف الذي حصل كان أقوى من قدرتهم على اللحاق بموسى والظفر بموعده.

السؤال: وما علاقة هذا بمفردة بِمَلْكِنَا؟ لم لم يقولوا له ذلك صراحة؟ لم لم يستخدموا لفظ اللعب واللهو صراحة؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لأنهم يقصدون لهوا من نوع خاص؟

السؤال: ما هو هذا اللهو الخاص؟

جواب مفترى: هو اللهو واللعب بِمَلْكِنَا؟ أي إخلاف الموعد بملكهم؟

سؤال: وما معنى ذلك؟

رأينا المفترى: حاول أن تربط عزيزي القارئ – إن شئت- ما نفتريه الآن من قول في هذا الموقف عن فهمنا لمفردة بِمَلْكِنَا كما جاءت في هذه الآية الكريمة:

- **قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87)**

مع ما افتريناه من قول سابقا عندما تعرضنا للآية الكريمة الخاصة بفتنة الشيطان لآدم، خاصة عبارة (وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى):

- **فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى (120)**

السؤال: وما الرابط؟ يسأل صاحبنا مستغربا.

رأينا: لقد افترينا الظن بأن الملك الذي لا يبلى هو العضو الذكري.

السؤال: آه. نعم. تفضل. شو بدك تقول؟

جواب: نحن نظن أن لذلك علاقة بمفردة بِمَلْكِنَا عندما قال بنو إسرائيل:

- **قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87)**

سؤال: لو سمحت وضح أكثر، ما علاقة العضو الذكري بقولهم (بِمَلْكِنَا)؟ وما علاقة هذا كله بقولهم (مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا)؟

جواب مفترى: لقد حاولت جهدي (كما تعهدت في الجزء السابق من هذه المقالة) أن أضل مؤدبا خلال الكلام، فلا ألجأ إلى قلة الحياء وإلى إساءة الأدب في التعبير، لكن لما كان هذا ينافي طبعي الحقيقي، أجد لزاما العودة إلى هذا الطبع المشين مرة أخرى لتوضيح المراد.

أما بعد،

ما أود أن أقوله هو أنه عندما تحاول أن تدفع عن نفسك تهمة التقصير في القيام بعمل كان من المفترض أن تنجزه ولكنك أخفقت في انجازه لسبب ما حصل على أرض الواقع، فإن أول دفاع عن نفسك هو إظهارك الجدية في محاولة تحقيق الأمر كما يجب، وأنك لم تكن تلهو وتلعب، وأشد حالات اللعب واللهو التي تحاول دفعها عن نفسك هي اللهو بعضوك الذكري، ولازلنا حتى يومنا هذا نقول بالعامية لتبرير عدم التقصير في انجاز مهمة ما كان من المفترض أن تنجز "لم أكن بشرمط، لم أكن بتمنيك، لم أكن بلعب بـ ....، الخ.

(بعرف شو بعض الناس الآن بدهم يقولوا عني بـ .... ، بس ماشي ... لكن اعلم أني بـ .... خلص، أحسن)

نعم هذا ما كان يحاول بنو إسرائيل (نحن نفتري الظن) إيصاله لرسولهم الذي أخلفوا موعده. فهم يريدون أن يوصلوا له الرسالة أن إخلافهم لموعده لم يكن بسبب بِمَلْكِنَا، أي اللهو بعضوهم الذكري إتباعا للشهوات التي يجلبها هذا العضو الذكري:

- **قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ... (87)**

ولكن السبب الحقيقي هو ما فعل السامري لهم بحليهم :

- **... وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87)**

السؤال: ما معنى بِمَلْكِنَا إذن؟

جواب مفترى: الباء تستخدم للحديث عن الأداة (كقولنا فتحت الباب بالمفتاح)، كما تستخدم للسبب (كقولنا دخل السجن بكلامه)، أما ملكنا فهو الشيء الذي يحقق لك الملك، فما هو الشيء الذي كان يحقق الملك لبني إسرائيل كما حققه لآدم. إنه العضو الذكري.

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن مفردة بِمَلْكِنَا تعني (كما نفهمها) استخدام العضو الذكري من أجل جلب المتعة الجنسية التي تسبب الخلد (أي الملك). انتهى.

عودة على بدء: وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى (بِمَلْكِنَا): العضو الذكري

إن أول ما يمكن أن نستنبطه من مثل هذا النوع من التفكير (ربما الخاطئ) هو طريقة إيقاد شعلة الحياة في رحم المرأة. فنحن نتجرأ على الظن بأن الذكر هو مصدر الحياة وهو الذي يوقد شعلتها، فهو من عنده الملك الذي لا يبلى، وأن الأنثى ليست أكثر من حاضنة لهذه الشعلة، لذا فإن الذكر (بِمَلْكِه) هو من يحدد جنس المولود، قال تعالى:

- **لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاء يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذُّكُورَ (49) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاء عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (50)**

فلو دققنا في صيغة الخطاب، لوجدنا أن الفاعل في كل الحالات هو الذكر بدليل صيغة التذكير للفعل يشاء (يَشَاء يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذُّكُورَ). فالمشيئة هي مشيئة الذكر ولا دخل للأنثى بذلك.

السؤال: وكيف يكون ذلك؟

رأينا: لو تفقدنا الآيات الكريمة التالية التي افترينا القول سابقا بأنها خاصة بفرعون:

- **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13)**

لوجدنا أن الله قد وهب لفرعون بنين:

- **وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (100)**

لذا نحن نتجرأ على الافتراء بأن ذرية فرعون (الثاني) كانت من البنين، ولم يكن عنده ذرية من البنات.

السؤال: لماذا؟ أي لماذا وهب الله لفرعون بنين ولم يهب له البنات؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الذرية هي على إطلاقها هبة من الله، لكن من الذي يحدد جنسها سواء كانت ذكرا أم أنثى؟

جواب مفترى: إنه الشخص نفسه. فحن نتجرأ على القول بأنه ليس لله دخل في تحديد ما تشاء من الذرية. فإن أنت شئت الذكر وهب الله لك الذكر، وإن أنت شئت الأنثى وهب الله لك الأنثى. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا: نحن لا نريد أن نجادل من أرادوا أن يعيشوا على الدوام في عصور ما قبل التاريخ والحضارة، الذين ما فتئوا ينكرون ويحرمون كل جديد، الذين لا تنطق ألسنتهم إلا بالافتراء الكاذب على الله. فكم روجوا بأن جنس المولود هو قرار إلهي لا دخل للإنسان به، وها هم اليوم يراجعون هم أنفسهم عيادات النسائية ليحدد لهم الطبيب (بالمختبر) جنس وعدد ومواصفات المولود. ولا شك أنهم يراجعون العيادة للحصول على ذرية من الذكور. فهم الذين يخطبون على المنابر بأن دينهم يساوي بين الذكر والأنثى فتراهم لا يتأففون من الحصول على ذرية من الذكور ولكن وجوههم تسود إذا بشر أحدهم بالأنثى.

السؤال: هل نحن بحاجة أن نراجع عيادة النسائية لتحديد جنس المولود؟

رأينا المفترى: كلا وألف كلا. فأنت تستطيع عزيزي القارئ أن تحدد جنس مولودك بطريقة سهلة وبسيطة جدا. فكيف يمكنك فعل ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن مفتاح الإجابة يكمن في الآية القرآنية السابقة نفسها:

- **لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاء يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذُّكُورَ (49)**

السؤال: وكيف ذلك؟

دقق عزيزي القارئ في الآية الكريمة نفسها لتجد أن الله قد ابتدأ الآية بهبة الإناث قبل الذكور، فقال تعالى (يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء إِنَاثًا) أولا ثم قال بعد ذلك (وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذُّكُورَ). ليكون السؤال الذي يجب أن يطرح على الفور هو: لماذا؟

جواب مفترى: الأنثى تأتي قبل الذكر

السؤال: ما علاقة هذا بفحوى النقاش عن تحديد جنس المولود؟

جواب مفترى: لو تدبرنا ما يحصل في حالة الحمل لوجدنا أن المرأة تبدأ الاستعداد للحمل بعد الطهارة من المحيض:

- **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (222)**

وما أن تتطهر المرأة من الحيض حتى يكون للرجل الحق بأن يأتي زوجه من حيث أمره الله. فيحصل الجماع، وتتمثل النتيجة في عملية قذف الرجل لجذوة الحياة في رحم زوجه، فتنطلق ما نسميه علميا بالحيوانات المنوية التي قذفها الرجل لتسبح في رحم المرأة.

نتيجة مفتراة: جذوة الحياة تنطلق من الرجل، لهذا نجد قوله تعالى:

- **وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (3)**

وربما لهذا نجد الأمر الإلهي بأن ندعو المولود لأبيه وليس لأمه:

- ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (5)

نتيجة مفتراة: الولد (ذكرا كان أم أنثى) هو قطعة من أبيه:

- وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (172)

لمّا كان الرجل هو مصدر الحياة، فإن هذه الحيوانات المنوية تكون ذكرية وأنثوية، أو ما يسمى باللغة العلمية (XY). فالرجل هو إذن من يحدد جنس المولود ذكرا كان أم أنثى ولا دخل للمرأة في ذلك. فالحيوانات المنوية الذكرية والأنثوية التي يقذفها الرجل في رحم المرأة هي المسئولة عن تلقيح البويضة الموجودة في رحم المرأة. فإذا لقح البويضة حيوان منوي ذكري كانت النتيجة ذكرا، وإذا لقح البويضة حيوان منوي أنثوي، كانت النتيجة الأنثى.

لكن كيف يحدد الرجل نفسه جنس المولود بمشيئته؟

- ... يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذُّكُورَ (49)

رأينا: تعيش الحيوانات المنوية التي قذفها الرجل في رحم المرأة فترة من الزمن، ثم تموت، لكن الملاحظ هو أن الحيوانات المنوية الذكرية تكون حياتها أقصر، فتموت أسرع من الحيوانات المنوية الأنثوية، فتتناقص الحيوانات الذكرية في الرحم بشكل أسرع من الحيوانات المنوية الأنثوية.

نتيجة مفتراة (1): تعيش الحيوانات المنوية الذكرية والأنثوية في رحم المرأة فترة من الزمن

نتيجة مفتراة (3): الحيوانات المنوية الذكرية أسرع من الحيوانات المنوية الأنثوية

نتيجة مفتراة (2): تموت الحيوانات الذكرية أسرع من الحيوانات الأنثوية

السؤال: متى يحصل التلقيح؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن التلقيح لا يمكن أن يتم إلا في اليوم الرابع من الطهارة من الدورة، وهو وقت نزول البويضة عند الأنثى (وسنتحدث عن ذلك لاحقا بحول الله وتوفيقه). فالمرأة التي تتطهر من المحيض لا تكون جاهزة للحمل مباشرة، بل تستمر ثلاثة أيام بعد الطهارة من الدورة في مرحلة تحضيرية لنزول البويضة القابلة للتلقيح. وفي اليوم الرابع من الطهارة من المحيض تنزل البويضة فتكون جاهزة للتلقيح. فما الذي يحصل على الفور؟

جواب مفترى خطير جدا: إذا كان الرجل قد جامع زوجته قبل نزول البويضة، وحصلت عملية القذف داخل الرحم، فأن الحيوانات المنوية تكون حاضرة من ذي قبل في الرحم، وما أن تنزل البويضة حتى تتسابق الحيوانات المنوية المتواجدة حينئذ في الرحم إلى تلقيحها. فكيف يتحدد جنس المولود؟

جواب مفترى: تصور عزيزي القارئ أن جماع الرجل لزوجته كان قبل يوم واحد من نزول البويضة، فما الذي يحصل؟

جواب مفترى: نحن نفتري القول بأن احتمالية أن يكون المولود ذكرا أقل بكثير من احتمالية أن يكون أنثى. لكن لماذا؟

رأينا: تذكر عزيزي القارئ بأن الحيوانات الذكرية تموت أسرع من الحيوانات الأنثوية، فعندما حصل الجماع والقذف قبل يوم كامل فإن عدد الحيوانات الأنثوية ستكون أكثر بكثير من عدد الحيوانات الذكرية المتبقية، فتكون الغلبة للأنوثة على الذكورة.

السؤال: وماذا لو كان الجماع قد حصل قبل يومين اثنين من نزول البويضة؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن النتيجة ستكون لا محالة التأنيث، وذلك لأن معظم (وربما كل) الحيوانات الذكرية تكون قد تلاشت حينئذ وما تبقى في رحم الأنثى إلا جزءا بسيطا من الحيوانات الأنثوية التي ربما تنجح في تلقيح البويضة.

السؤال: وماذا لو حصل الجماع قبل ثلاثة أيام من نزول البويضة؟

جواب مفترى: ربما لن يحصل الحمل لأن الحيوانات المنوية الذكرية والأنثوية تكون قد ماتت جميعا في الرحم، ولو تبقى منها شيء فلن يكون إلا حيوان منوي أنثوي.

السؤال: متى يمكن أن تكون النتيجة ذكرا إذن؟

جواب مفترى: نحن نظن أن أفضل الأوقات لأن يكون المولود ذكرا هو أن يتم الجماع والقذف بعد نزول البويضة مباشرة، أي في اليوم الرابع والخامس من الطهارة من المحيض.

السؤال: لماذا؟

رأينا: في اليوم الرابع من المحيض تنزل البويضة في الرحم، وتكون قابلة للتلقيح، وتكون في أفضل حالاتها. فإذا ما حصل جماع في تلك اللحظة، فإن الحيوانات الذكرية والأنثوية القادمة من الرجل ستتسابق لتلقيح البويضة، ولكن لما كانت الحيوانات الذكرية بطبيعتها أسرع من الحيوانات الأنثوية، فإنها لا محالة ستسبق إلى البويضة وتلقحها، وستكون النتيجة بإذن الله مولودا ذكر. مبروك.

السؤال: ما الذي يمكن أن يفعله من أراد ذرية من الذكور؟

رأينا: إذا أردت عزيزي القاري أن تتحصل لك ذرية من الذكور فأنت لست بحاجة لمراجعة عيادات النسائية ناهضة التكاليف ومعقدة التقنية، فإننا نقدم لك الوصفة بالمجان، فما عليك فعله إلا أن تتوخى الحذر بأن لا تقذف في رحم زوجك ثلاثة أيام بعد الطهارة من المحيض، فيمكنك إتيان زوجك وجماعها لكن احرص أن لا يحصل القذف داخل الرحم خلال هذه الأيام الثلاثة الأولى للطهارة من المحيض.

في اليوم الرابع من الطهارة من المحيض، ستجد المرأة الذكية أن التغيرات المصاحبة لنزول البويضة قد أقبلت وتتمثل في تقلّب درجة حرارة جسمها، وفي زيادة الإفرازات وتغير ماهيتها. يمكنك في ليلة ذلك اليوم الرابع (مش عارف لريش بالليل يمكن كما بالنهار) يمكنك أن تجامع زوجتك وتقذف كل ما في جعبتك من

الحيوانات المنوية فيها، وإياك أن تشك بأن النتيجة لن تكون ذكرا. وإذا أردت أن تتأكد أكثر فانتظر إلى اليوم الخامس.

فنحن نقول لمن أراد الذكر أن ما عليك توخيه هو التأكد من عدم نزول البويضة والرحم ملىء بالحيوانات المنوية التي باتت فيه من البارحة أو قبل البارحة، لأن هذا سيؤدي إلى تلاشي الحيوانات المنوية الذكرية وبقاء الحيوانات المنوية الأنثوية حية تسعى، وما أن تنزل البويضة حتى تسبق هذه الحيوانات الأنثوية إلى تلقيحها وتكون النتيجة هي الأنثى، ثم تبدأ أنت وأمك وجاراتك بإلقاء اللائمة على المرأة بأنها هي سبب ذلك.

كلا وألف كلا، أنت السبب في ذلك، فلو منعت نفسك عن زوجك لبضعة أيام لكانت النتيجة مختلفة، ولكن حب الرجل للجماع وشهوته الجنسية الكبيرة هي التي أنتجت له عددا كبيرا من الإناث مقابل عدد قليل من الذكور.

ولو تفقدنا القصص الشعبية لوجدنا فيها من الحكمة ما لم ينتبه له العقلاء. عندما يتحصل لرجل ما ذرية كثيرة من الإناث يعمد إلى الزواج من زوجة الأخرى، وبالفعل يتحصل له من زوجته الجديد (والقديمة) ذرية من الذكور بعد زواجه بالثانية أو الثالثة. السؤال: لماذا؟

رأينا: إنه تغير نمط الجماع. لما كان الرجل متلهفا على الجنس، فإن مجرد نظافة زوجته من المحيض يكون دافعا له للوقوع بها وقذف ما في جعبته من الحيوانات المنوية في رحمها، فيفعل فعلته أكثر من مرة في اليوم الأول والثاني من النظافة من الدورة، ولما كانت الحيوانات المنوية تموت بشكل أسرع يصبح الرحم ملي بالحيوانات الأنثوية وتكون النتيجة في أغلب الأحيان التأنيث. وتتكرر القصة في كل مرة من الحمل حتى يصبح عنده عدد لا بأس به من الإناث. وهنا يبدأ رحلة البحث عن زوجة أخرى ظانا أنها هي من ستجلب له البنين. وبالفعل يحدث الزواج الثاني وتتحصل له ذرية من الذكور من الزوجتين (السابقة واللاحقة) في معظم الحالات.

السؤال: لماذا؟

جواب: لأنه حصل تنظيم للدور بين الزوجتين، فما عاد الجماع يكتسب نفس السلوك السابق عندما كان للرجل زوجة واحدة، لقد تغير سلوك الرجل في جماعه زوجته مادام أن هناك زوجة أخرى تشاطرها الدور. فالمرأة التي كان دورها أقرب إلى لحظة نزول البويضة هي من يكون نصيب بطنها الذكر، أما المرأة التي كان دورها أبعد عن لحظة نزول البويضة هي من يكون نصيب بطنها الأنثى.

السؤال: من الذي فهم الطريقة السليمة لإنتاج ذرية من الذكور؟

جواب مفترى: نحن نظن بأن يعقوب قد فهم ذلك:

- **إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (8)**

السؤال: لماذا كانت ذرية يعقوب من الذكور؟

جواب: لأن يعقوب كان يعي تماما كيف يمكن له أن يتحصل على ذرية من الذكور.

السؤال: من الذي فهم أيضا الطريقة السليمة لإنتاج ذرية من الذكور؟

جواب مفترى: إنه فرعون:

- **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13)**

السؤال: لماذا كانت ذرية فرعون كلها من الذكور؟

جواب مفترى: لأن فرعون كان يعلم كيف يمكن أن يتحصل له الذرية من الذكور؟

السؤال: لماذا كان فرعون يريد ذرية من الذكور؟

جواب مفترى خطير جدا: ليكونوا شهودا:

- **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13)**

السؤال: ما معنى أن يكون أبناء فرعون شهودا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن ما فعله أبناء فرعون هو ما جاء في السورة الكريمة التالية:

- **وَالسَّمَاء ذَاتِ الْبُرُوجِ (1) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (2) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (3) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (4) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (6) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (9) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (10) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (11) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (13) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (14) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (15) فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (16) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (17) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (18) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (19) وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ (20) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (21) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (22)**

السؤال: وكيف ذلك؟

أولا، دعنا ندقق في معنى مفردة "شهود". فلو تفقدنا السياقات القرآنية التي وردت فيها هذه المفردة، لوجدنا أن الله نفسه شهود علينا:

- **وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (61)**

فمن هم شهود رب العالمين الذين جعلهم علينا (إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا)؟

رأينا: إنهم الذين يستنسخون ما كنا نعمل:

- **هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (29)**

فهم رسل ربك الذين يكتبون:

- **أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (80) قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (81) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (82)**

ولو دققنا في هذا السياق القرآني لوجدنا أن شهود رب العالمين هم رسل (بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) لكنهم ليسوا ولد الله (قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ)

وإذا كان هناك شهود (رسل)، فهناك ما هو مشهود (أي ما تمت شهادته من قبل الشهود)، قال تعالى:

- **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (103)**

فرسل ربنا هم الذين سيشهدون ذلك اليوم حتى يكون يوما مشهود (وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ). وهناك رسل من ربنا تشهد قرآن الفجر حتى أصبح قرآنا مشهودا:

- **أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (78)**

السؤال: لماذا كان أبناء فرعون شهودا؟

- ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13)

رأينا المفترى: لما كان فرعون يظن بأنه إله، ولما كان فرعون يظن أنه هو ربهم الأعلى، كان عليه أن يثبت لهم ذلك. فكيف سيفعل؟

رأينا: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الجميع حينئذ كان يعلم بأنه لابد لمن كان إلها أن يكون له رسل يكتبون، فيشهدون، وهم الذين يراقبون العباد (وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا). فكان على فرعون أن يتصرف كإله، فاتخذ لنفسه شهودا (كرسل يشهدون ويكتبون، فلا يغيب عنه خبر من هو إلههم) فكان شهود فرعون هم أبناءه.

مفارقات مهمة:

⇐ فحين أن لله شهود، كان لفرعون شهود
⇐ كان شهود الله هو رسله، فيشهدون ويكتبون أعمال عباده
⇐ كان شهود فرعون هم رسله، فيشهدون ويكتبون أعمال من عبّدهم
⇐ لم يكن شهود رب العالمين أبناءه، فالله لم يتخذ ولدا
⇐ كان شهود فرعون هم أبناؤه، لأن فرعون اتخذ ولدا
⇐ الخ

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن بأن هذه الآيات الكريمة تصور لنا قصة فرعون مع بني إسرائيل، في ذلك اليوم الموعود (يوم لزينة)، وكيف تصرف فرعون كإله، فحشر الناس ضحى، وكيف كان أبناءه هم رسله الذين يشهدون، وكيف أوقد فرعون النار ذات الوقود، وكيف أمد فرعون السحرة بتلك القوة التي أرهبت جميع الحاضرين (حتى أوجس موسى نفسه خيفة منهم)، الخ.

- وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (1) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (2) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (3) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (4)
النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (6) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7) وَمَا
نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (9) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ
عَذَابُ الْحَرِيقِ (10) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (11) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (13) وَهُوَ الْغَفُورُ
الْوَدُودُ (14) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (15) فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (16) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (17)
فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (18) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (19) وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ (20) بَلْ هُوَ
قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (21) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (22)

السؤال: كيف حصل الأمر على أرض الواقع؟

هذا ما سنخوض فيه في الجزء القادم من هذه المقالة بحول الله وتوفيق منه.

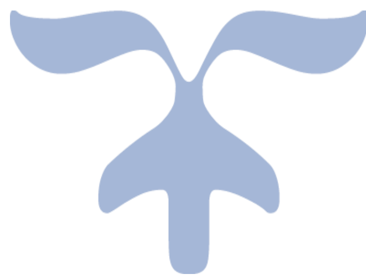
سائلا الله وحده أن ينفذ مشيئته وإرادته لي الإحاطة بشي من علمه لا ينبغي لغيري، إنه هو العليم الحكيم، وأن يزدني علما وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا. وأدعوه وحده أن يؤتيني رشدي، وأعوذ به أن يكون أمري كأمر فرعون، فالله وحده أدعوه أن أكون ممن أتوه بقلب سليم، فهداهم الصراط المستقيم، وأسأله أن أكون ممن جاهدوا فيه، فهداهم السبل، وكانوا من المحسنين. وأعوذ به وحده أن أكون ممن يفترون عليه الكذب أو ممن يقولون عليه ما ليس لهم بحق، إنه هو العليم الخبير – آمين.

المدّكرون: رشيد سليم الجراح
بقلم د. رشيد الجراح
15 حزيران 2015



قصة يونس

الجزء الثالث والأربعون



قصة يونس – الجزء الثالث الأربعون

حاولنا في الجزء السابق من هذه المقالة افتراء القول من عند أنفسنا بأن تحديد جنس المولود (ذكرا كان أم أنثى) هو نتاج مشيئة الرجل نفسه، مصداقا لقوله تعالى:

- **لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاء يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذُّكُورَ (49)**

وزعمنا الظن بأن هذه المشيئة مرتبطة بالزمن الذي يحصل فيه الجماع بين الرجل وزوجته. فكان الافتراء على نحو أن أيام هبة الذكور والإناث هي ثمانية، تنقسم إلى قسمين رئيسيين وهما أيام الأنوثة وأيام الذكورة، فالأيام الأربعة التالية للطهارة من الدورة هي أيام إنجاب للإناث بينما الأيام الأربعة الأخرى التي تليها هي أيام إنجاب الذكور. والشخص نفسه هو صاحب القرار في أي هذه الأيام يحب أن يأتي زوجه، ونحن نفهم هذا (ربما مخطئين) من قوله تعالى:

- **نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (223)**

فنحن نفتري الظن بأن عبارة (فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ) الواردة في هذه الآية الكريمة تضع الخيار بيد الرجل نفسه، فإن هو شاء الإناث عليه أن يأتي زوجه في وقت إنجاب الذرية من الإناث، وإن هو أراد الذكور فعليه أن يأتي زوجه في أيام إنجاب الذكور التي نفهمها (ربما مخطئين) من قوله تعالى:

- **... يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذُّكُورَ (49)**

الدليل

قال تعالى:

- **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (222) نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (223)**

لو تدبرنا هذه الآيات الكريمة، لوجدنا فيها من الغرابة ما يدعو إلى التفكر، ففي حين أن الآية الأولى تأمرنا بأن نأتي النساء من حيث أمرنا الله (فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ)، فإن الآية التالية مباشرة تبيّن لنا إمكانية أن نأتي نساءنا أنى شئنا (فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ). ليكون السؤال على الفور هو: كيف يأمرنا الله أن نأتي النساء بعد طهارتهن من المحيض من مكان محدد بعينه وهو الفرج (للتفصيل انظر مقالاتنا السابقة) ثم هو يحل لنا بعد ذلك أن نأتيهن أنّى شئنا؟ ألا يحدث هذا تناقضا في ذهن القارئ (من مثلي) لكتاب الله؟

جواب: نحن نظن أن الخلط في الفهم الإنساني هو ما يجلب التناقض في الذهن، فكيف يمكن فض هذا التناقض الظاهري؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الآية الكريمة الأولى:

- **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (222)**

جاءت لتحدد المكان بالضبط الذي يحق للرجل أن يأتي زوجته منه وهو الفرج (فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ)، فعبارة "من حيث" الواردة في قوله تعالى (فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ) هي لا شك مكانية بدليل قوله تعالى:

- **وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (149)**
- **ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (199)**
- **وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (68)**
- **أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى (6)**
- **فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (44)**

أما الآية الثانية، وهي قوله تعالى:

- **نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (223)**

فهي تحدد الكيفية التي يأتي بها الرجل زوجته، بما فيها الوقت الذي يريد الزوج أن يجامع فيه زوجته، فتحديد الحال والزمن مرتبط بمشيئة الرجل، فيستطيع الرجل أن يعاشر زوجته في أي وقت (When) وفي أي وضعية شاء (How)، لكن الشرط الوحيد الذي لا يقع ضمن مشيئة الرجل هو مكان الإتيان (Where) وهو الفرج. فمادام الرجل ملتزما بإتيان زوجته من حيث أمره الله (وهو الفرج)، فهو بعد ذلك مخير المشيئة في الحال (الزمان والكيفية)، بدليل وجود (أَنَّى) كما جاءت في سياقات قرآنية أخرى:

- **وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوَا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (247)**
- **قَالَ رَبِّ أَنَّىَ يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاء (40)**
- **قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (8)**
- **قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاء إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (47)**
- **قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20)**
- **بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (101)**

وقد حاولنا في الجزء السابق من المقالة تسويق الظن بأن هذه المشيئة للرجل (الخاصة بزمان إتيانه لزوجه) هي ما يحدد له جنس الذرية، فإن شاء الرجل أتى زوجه في وقت تحصيل الذرية من الإناث (وهي الأيام الأربعة الأولى للطهارة من الدورة)، وإن شاء أتى زوجه في وقت تحصيل الذرية من الذكور (وهي الأيام الأربعة التالية لذلك).

وهذا - برأينا - ما كان من أمر فرعون، الذي جاءت الآية الكريمة التالية (نحن نظن) لتصور لنا حاله:

- ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13)

فزعمنا الظن حينئذ أن فرعون كان له ذريّة من البنين فقط، وهم – برأينا- من كانوا له شهودا. وذلك لأن فرعون (نحن نرى) قد ظن بأنه إله، فكان عليه أن يثبت ذلك لمن هم إله لهم (أي قومه)، فكان عليه أن يتصرف كإله، فاتخذ لنفسه شهودا، فكان شهود فرعون هم أبناءه. والجدول التالي يوضح التقابل بين الإله الحقيقي (رب العالمين) وفرعون (من كان له ملك مصر):

الله (رب العالمين)	فرعون
لله شهود شهود الله هم رسله، فيشهدون ويكتبون أعمال عباده لم يكن شهود رب العالمين أبناءه، فالله لم يتخذ ولدا	لفرعون شهود شهود فرعن هم رسله، فيشهدون ويكتبون أعمال من عبّدهم كان شهود فرعون هم أبناؤه، لأن فرعون اتخذ ولدا

تساؤلات

⇐ من هم أبناء فرعون؟
⇐ كم كان عددهم؟
⇐ ما هي مهامهم التي أوكلت إليهم؟
⇐ ماذا كانوا يفعلون؟
⇐ الخ.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن بأن الآيات الكريمة التالية تصور لنا قصة فرعون مع بني إسرائيل، في ذلك اليوم الموعود (يوم الزينة)، فهي تصور لنا (كما نفهمها) كيف تصرف فرعون كإله، فهو من حشر الناس ضحى، وهو من جعل أبناءه رسلا له يشهدون، وهو من أشعل النار ذات الوقود، وهو من أمد السحرة بتلك القوة التي أرهبت جميع الحاضرين (حتى أوجس موسى نفسه خيفة منهم)، الخ. قال تعالى

- وَالسَّمَاء ذَاتِ الْبُرُوجِ (1) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (2) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (3) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (4)
النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (6) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7) وَمَا
نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (9) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ
عَذَابُ الْحَرِيقِ (10) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (11) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (13) وَهُوَ الْغَفُورُ
الْوَدُودُ (14) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (15) فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (16) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (17)
فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (18) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (19) وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ (20) بَلْ هُوَ
قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (21) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (22)

السؤال: كيف حصل الأمر على أرض الواقع؟

باب وَالسَّمَاء ذَاتِ الْبُرُوجِ (1)

بداية، نحن نرفض جملة وتفصيلا (كما تعرضنا لذلك في أكثر من مكان في مقالاتنا السابقة) أن تكون الواو في قوله تعالى (وَالسَّمَاء ذَاتِ الْبُرُوجِ) التي جاءت في بداية هذه السورة الكريمة هي واو القسم (كما أتحفنا أهل الدراية من قبل)، ونفتري القول بأنها واو الحقيقة (للتفصيل انظر مقالاتنا السابقة)، فالله يسطر لنا حقائق كونية لابد من التسليم بها دون جدال، وواحدة من هذه الحقائق الكونية هي أن السماء فيها بروجا، مصداقا لقوله تعالى في مواقع أخرى من كتابه الكريم:

- **وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (16) وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (17) إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ (18)**
- **تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاء بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (61)**

ولو تدبرنا الآية الكريمة التالية لوجدنا أن البروج هي عبارة عن مكان يمكن تشييده:

- **أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا لِهَؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (78)**

فقد يظن الذي يتخذ البروج المشيدة أنه في مأمن من أن تلحق به المصائب كمصيبة الموت مثلا، لتكون وظيفة البروج – برأينا- هي الحماية والوقاية. ولكن يستحيل أن تكون البروج حتى وإن كانت مشيدة عصيّة على رب العالمين أو على جنود ربك (كالموت) مثلا.

ولكن البروج التي جعلها الله في السماء هي – لا شك- عصية على الشياطين وإن كانوا مرجومين في السماء:

- **وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (5)**

بدليل عدم استطاعة الشياطين من اختراقها، لأن السماء ذات البروج محفوظة من كل شيطان رجيم:

- **وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (16) وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (17) إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ (18)**

فمنطقنا المفترى الآن هو على النحو التالي:

⇐ السماء هي رجوما للشياطين

⇐ السماء فيها بروجا

⇐ هذه السماء ذات البروج محفوظة من الشياطين

⇐ الشياطين تحاول استراق السمع

⇐ من يستمع منهم يجد له شهابا رصدا

⇐ البروج هي محطات المراقبة والرصد، أي هي خطوط الدفاع من الأخطار الخارجية

⇐ الخ

السؤال: كيف يمكن فهم هذا كله؟

منطقنا المفترى: نحن نفتري القول (كما ذكرنا في مقالات سابقة لنا) بأن الرجم هو ما يشبه الحجر (بمفرداتنا الدارجة). فعندما اتخذ الله قراره الأول بالرجم كان ذلك خاصا بمن رفض السجود لآدم وهو إبليس، فجاء الخطاب الإلهي موجها له على النحو التالي:

- **قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (32) قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (33) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (34)**
- **قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (75) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (76) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (77) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (78)**

فالله هو من قام بفعل رجم إبليس، فعمد (نحن نفتري الظن) إلى حجر إبليس في مكان محدد لا يستطيع إبليس أن يخرج منه، كما نفتري القول من عند أنفسنا بأن هذا الرجم الذي أوقعه الله بحق إبليس هو ما يمنعه من أن يمارس طقوس العبادة، لذا لا يستطيع إبليس أن يقوم بفعل التوبة.

وأصبحت السماء رجوما للشياطين:

- **وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (5)**

فلا يستطيعون استراق السمع، ولا يستطيعون النفاذ إلى الأعلى. ومن يتجرأ على ذلك يجد له شهابا رصدا

- **وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (8) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (9)**

فكان الله هو من حفظ السماء من كل شيطان رجيم:

- **وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (16) وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (17)**

فعندما يتم حجز أي شيطان في السماء، يصبح هذه الشيطان رجيما عندما يتم إيداع هذا الشيطان في حجرة خاصة به في السماء، فلا يستطيع الخروج منها، وتقع عليه المراقبة الدائمة التي تقيده، فلا يستطيع أن يحدث خرابا في السماء، فيكون بذلك شيطانا رجيما، وتكون السماء نفسها رجوما لهؤلاء الشياطين، ولكنها في الوقت ذاته محفوظة منهم.

نتيجة مفتراة 1: رجيم هو الشخص الذي وقع بحقه فعل الرجم (أي هي اسم الفاعل كما يحب أهل اللغة وصفه)

نتيجة مفتراة 2: رجوم هي الحجرات (الأماكن) التي يتم فيها حجز هذه الشياطين في حبس انفرادي (أي اسم مكان جمع كما يحب أهل اللغة وصفها)

(للتفصيل انظر مقالة فقه الرجم – رؤية جديدة). ودعنا الآن ننتقل إلى الآية الثانية في السياق القرآني الذي نحن بصدد محاولة تدبره:

- **وَالسَّمَاء ذَاتِ الْبُرُوجِ (1) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (2)**

باب: وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (2)

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن اليوم الموعود الذي جاء في قوله تعالى (وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ) هو يوم الزينة الذي حشر فيه فرعون الناس للمواجهة الفعلية بين موسى من جهة والسحرة من جهة أخرى.

الدليل

لو تدبرنا السياقات القرآنية على مساحة النص القرآني، لوجدنا أن الله هو من انظر إبليس نفسه (بطلب منه) إلى يوم محدد بعينه:

- قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (14) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (15)
- قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (37) إِلَى يَومِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (38)
- قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (79) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (80) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (81)

نتيجة مفتراة: ذلك هو يوم الوقت المعلوم.

السؤال: فما هو اليوم الموعود؟

رأينا المفترى: هذا موسى ينظر السامري إلى موعد لن يخلفه:

- قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (97)

وكذا كان هناك موعد بين موسى ومن معه من جهة وفرعون وقومه وملئه وسحرته من جهة أخرى:

- فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى (58)

وهناك الموعد الحق بيننا وبين ربنا:

- وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا (48)

ولو تدبرنا هذا الموعد الذي جعله الله لنا لوجدنا أنه يوم الحشر، أليس كذلك؟ انظر الآية السابقة في سياقها القرآني الأوسع:

- وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (47) وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا (48)

وكذلك كان هناك حشر لفرعون:

- اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (17) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى (18) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (19) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)

وحصل ذلك ضحى في يوم الزينة:

- قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (59)

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا مهمة جدا: كان هناك موعد بين فرعون ومن معه من جهة وموسى ومن معه من جهة أخرى، وحصل ذلك ضحى في يوم الزينة. فأطلق فرعون (كإله) نداء الحشر، فحضر الناس جميعا، وخرج فرعون ومن معهم في زينتهم العظيمة، في استعراض لمظاهر القوة:

- وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ (88)

ولم يقتصر ذلك – برأينا- على المال والبنين فقط:

- الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (46)

بل تعداه إلى الخير والبغال والحمير:

- وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (8)

وهو ما ورثه بنو إسرائيل من قوم فرعون في نهاية المطاف:

- قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87)

إن ما يهمنا قوله هنا هو أن فرعون قد خرج في زينته، فكان أبناؤه جزءا من تلك الزينة:

- ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13)

السؤال: ماذا كانت مهمة أبناء فرعون في يوم الزينة؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن أبناء فرعون كانوا هم الشهود، فهذا ما نفهمه نحن (ربما مخطئين) مما جاء في الآيات الكريمة التالية:

- وَالسَّمَاء ذَاتِ الْبُرُوجِ (1) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (2) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (3) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (4) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (6) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (9) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (10) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (11) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (13) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (14) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (15) فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (16) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (17) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (18) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (19) وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ (20) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (21) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (22)

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نتخيل بأن ما حصل في يوم الزينة كان على النحو التالي: حضر الناس كفريقين اثنين: فريق مع موسى وفريق مع فرعون، وكان ذلك بناء على نداء الحشر الذي أطلقه فرعون، وحصل اللقاء بين الطرفين في مكان سوى، أي منطقة تتوسط الأرض التي كان يسكنها بنو إسرائيل والأرض التي تعلوها صروح فرعون وقومه. فكانت أرض بني إسرائيل قبلة:

- **وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (87)**

وكانت أرض صروح فرعون وقومه فوق الأنهار الجارية:

- **وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51)**

ولازال إخواننا المصريين يستخدمون عبارات مثل وجه قبلي ووجه بحري كبقايا (نحن نظن) لذلك التقسيم التاريخي بين الطرفين.

افتراء خطير جدا جدا من عند أنفسنا لا تصدقوه: نحن نظن أنه لو تفحصنا جغرافية المكان لاستطعنا تحديده بعلامة جغرافية فارقة وهي الأخدود، فنحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الفاصل بين المكانين هو أخدود واضح المعالم، فلم يتعدى بسببه طرف على أرض الطرف الآخر. تدبر عزيزي القارئ الكريم – إن شئت- السياق القرآني نفسه من هذا المنظور:

- **وَالسَّمَاء ذَاتِ الْبُرُوجِ (1) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (2) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (3) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (4) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (6) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (9)**

فأشعلت في ذلك الأخدود نار ذات وقود، وكان فرعون هو (نحن نفتري الظن) من أشعلها ليمد السحرة بالطاقة العجيبة لتفعيل حبالهم وعصيهم التي سترهب خصمه، وكان ذلك انتقاما من الذين آمنوا بالله العزيز الحميد، وكان أبناء فرعون هم الشهود لفرعون على إيقاع العذاب بهؤلاء المؤمنين. لتصبح الصورة (في مخيالنا) على النحو التالي:

- ⇐ يتخذ فرعون لنفسه في السماء بروجا
- ⇐ تكون وظيفة هذه البروج المراقبة
- ⇐ كان أبناء فرعون هم من يسيطر على هذه البروج
- ⇐ كانت مهمتهم تتمثل في مراقبة من تحتهم من بني إسرائيل
- ⇐ كانوا هم من يتولون الانتقام من الذين آمنوا
- ⇐ كانوا ينتقمون منهم لأنهم لم يؤمنوا بفرعون كإله (من له ملك مصر)، بل لأنهم آمنوا بالله رب السموات والأرض
- ⇐ كان الحد الفاصل بين الطرفين هو الأخدود
- ⇐ كان هذا الأخدود مرتبطا بهم، فكانوا قادرين على إشعال النار فيه، فيرهبون عدوهم إذا ما حاول تجاوز حده المرسوم له
- ⇐ كانت النار ذات وقود
- ⇐ الخ

هذه هي بعض الافتراءات الخطيرة التي سنحاول تسويقها تباعا، ثم محاولة جلب الدليل الذي نظن أنه يدعمها. فالله وحده نسأل أن يعلمنا ما لم نكن نعلم، وأن يأذن لنا بشيء من علمه فيها، فلا نفتري عليه الكذب ولا نقول عليه ما ليس لنا بحق، إنه هو السميع العليم – آمين.

أما بعد،

دعنا نبدأ من النقطة الأخيرة في الافتراءات السابقة وهي أن النار التي أشعلت في ذلك الأخدود كانت نارا ذات وقود (النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ)، ليكون السؤال على الفور هو: لماذا كانت تلك النار هي نار ذات وقود؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لأن هناك نارا ليست ذات وقود. انتهى.

تساؤلات:

- ⇐ ما هي النار ذات الوقود؟
- ⇐ ما هي النار التي ليست ذات وقود؟
- ⇐ من الذي يستطيع أن يشعل نارا ذات وقود؟
- ⇐ من الذي يستطيع أن يشغل نارا ليست ذات وقود؟
- ⇐ وهل فعلا يمكن أن تشتعل نارا بدون وقود؟
- ⇐ الخ.

رأينا: للإجابة على هذه التساؤلات، لابد (نحن نرى) من طرح التساؤل الأولي التالي: لماذا أشعلت النار أصلا؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نفتري الظن بأن إشعال النار مرتبط بحضور الإله: إذا ما حضر الإله بنفسه إلى مكان محدد بعينه، فلابد أن تشعل النار. انتهى.

السؤال: أين الدليل على مثل هذا الافتراء الخطير جدا؟

جواب مفترى: نحن نجد الدليل على ذلك في قصة لقاء موسى ربه في الواد المقدس طوى. فلقد كانت العلامة الأولى التي آنسها موسى في ذلك المكان هي النار، فطلب من أهل المكوث ليذهب بنفسه في رحلة استكشافية لتلك النار التي آنسها:

- إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (10)
- **إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (7) فَلَمَّا جَاءهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (8)**
- **فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (30)**

فلو تدبرنا هذه السياقات القرآنية كلها، لوجدنا أن الذي جلب انتباه موسى إلى ذلك المكان، وأن الدافع الذي جعله يترك أهله خلفه ليذهب إلى ذلك المكان هي النار التي آنسها. وما أن ذهب موسى إلى ذلك المكان حتى وجد من يناديه من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة، فكان المنادي هو الله نفسه:

- **فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (30)**

- **فَلَمَّا جَاءهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (8) يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9)**

إن هذا الفهم المفترى من عند أنفسنا يدعونا على الفور إلى طرح التساؤلات التالية بخصوص تلك النار على وجه التحديد:

⇐ ما هي تلك النار التي آنسها موسى؟

⇐ ما هي ماهيتها؟

⇐ من الذي أشعلها؟

⇐ لماذا أشعلت هناك؟

⇐ كيف أشعلت؟

⇐ الخ.

لو تفقدنا السياقات الخاصة بهذه النار، لوجدنا على الفور بأن هذه النار قد أحدث البركة فيما هو داخلها وفيما حولها، بدليل قوله تعالى:

- **فَلَمَّا جَاءهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (8)**

فهذه إذن نار قد جلبت البركة لمن كان فيها ومن كان حولها، أليس كذلك؟

تساؤلات:

⇐ من الذي كان فيها؟

⇐ ومن الذي كان حولها؟

⇐ لماذا حصلت المباركة؟

⇐ وكيف حصلت المباركة؟

⇐ الخ

بداية، نحن نفهم أن البركة تحدث من الله نفسه، فها هم رسل الله يأتون بالبركات على أهل البيت:

- **قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (73)**

وقد حصلت المباركة لإبراهيم وإسحق ومن ذريتهما على وجه التحديد:

- **سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (109) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (110) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (111) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (112) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ (113)**

ولكنها لم تتحصل لأهل بيت محمد:

- **يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (32) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33)**

فكانت النتيجة أننا لازلنا إلى يومنا هذا ندعو الله في دبر كل صلاة (فيما يسمى بالصلاة الإبراهيمية) بأن ينزل البركات على أهل بيت محمد كما أنزلها على أهل بيت إبراهيم قائلين:

اللهم بارك على أهل بيت محمد كما باركت على أهل بيت محمد

(للتفصيل انظر الأجزاء السابقة)





وهذا عيسى بن مريم يحدث الناس بأن الله قد جعله مباركا أين ما كان:

- وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31)

وهذا أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا:

- إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (96)

وهذه البركات قد حلّت حول المسجد الأقصى ولم تدخله بذاته:

- سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ (1)

فكان هناك الأرض المباركة:

- سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (109) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (110) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (111) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (112) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ (113)

وهي الأرض التي نجىّ الله إليها إبراهيم ولوطا:

- وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (71)

السؤال: ما الرابط بين هذه السياقات كلها؟ ولماذا حلت البركات بهؤلاء الأشخاص وهذه الأماكن على وجه التحديد؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الرابط هو الآية الكريمة التالية:

- وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (9) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (10) رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (11)

السؤال: ما علاقة هذه الآية الكريمة بقصة البركات؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: إنه الروح. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: لو تفقدنا هذا السياق القرآني، لوجدنا بأن الماء الذي ينزل من السماء هو ما يحقق الإنبات، وذلك لأنه أصلا ماء مبارك. فبذلك الماء المبارك تنبت الجنات وحب الحصيد، وبذلك الماء المبارك تخرج النحل الباسقات طلع نضيد، وهكذا.

السؤال: ما سر هذا الماء المبارك الذي أنزله الله من السماء؟ ولماذا يكون الماء المنزل من السماء على وجه التحديد مباركا؟

جواب مفترى: لو تدبرنا قصة الإنبات في الأرض، لوجدنا أن الأرض تكون أساسا ميتة، وما أن ينزل عليها الماء المبارك من السماء حتى تهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج بعد أن كانت هامدة وخاشعة:

- وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (33) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (34)
- يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5)

- **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39)**

فتدب الحياة في الأرض، فيخرج الزرع الذي يهيج، ثم ما يلبث بعد فترة مقدرة تقديرا أن يصفر، ثم يكون حطاما، ليكون ذلك ذكرى لأولى الألباب:

- **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ (21)**

(دعاء: اللهم رب أسألك وحدك أن تهديني إلى نورك، وأن تعلمني من لدنك علما، فأكن من أولي الألباب الذين يتذكرون فيتقون فلا يسحرون، إنك أنت العليم الحكيم – آمين)

وهكذا يتكرر السيناريو نفسه مرة أخرى وأخرى، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فتموت الأرض وتهمد وتخشع، وما تلبث أن تدب فيها الحياة من جديد بمجرد أن ينزل عليها الماء المبارك من السماء.

السؤال: ما الذي يجلب الحياة؟ وما الذي يحافظ على ديمومتها فترة من الزمن؟ وما الذي يجعلها مقدرة تقديرا بهذا النظام المحكم الذي لا يمكن أن يختل؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: إنه الروح.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الماء الذي ينزل من السماء هو ماء مبارك لأن فيه الروح، وهو ما يجعله مباركا، وهو ما يبعث الحياة في الأرض، وهو ما يسبب الإنبات، فتكون في اشد حالاتها عندما تنزل وهو ما يؤدي بالزرع أن يهيج، وما أن تبدأ تلك الروح بالتلاشي شيئا فشيئا حتى تبدأ مرحلة الاصفرار، وإذا ما نفذ الروح تماما، أصبح الزرع حطاما تذروه الرياح. فسر الحياة كلها (نحن نفتري القول) موجود في الروح، وذلك هو أمر الله:

- **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (85)**

نتيجة مفتراة: نحن نفتري القول بأن البركات تحل بوجود الروح. انتهى.

عودة على بدء

في ذلك الواد كان هناك بقعة مباركة:

- **فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (30)**

وهناك اشتعلت النار:

- **فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29)**

- **فحلّت المباركة في البقعة المباركة بنزول الروح فيها. وكان ذلك في ليلة محددة بذاتها وهي ليلة القدر:**
- **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (4) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5)**

الدليل

نحن نتخيل تلك البقعة المباركة على نحو أنها مكان منخفض، فسيح بعض الشيء، تحيط به الجبال من كل الجهات، كما هي أرض البَقعة القريبة من عمان البلقاء (عاصمة الأردن). فالمكان لا زال حتى الساعة يسمى بأرض البَقعة، وهي الأرض التي اتخذت مخيما للاجئين الفلسطينيين على أعقاب الحروب العربية الإسرائيلية، وأصبحت بعد ذلك مكانا دائما لمعيشتهم فيها، فأصبحت تعرف باسم "مخيم البقعة". فالذي يعرف جغرافية هذه المنطقة يستطيع أن يتخيل جغرافية البقعة المباركة التي حصل فيها اللقاء الإلهي مع موسى. وهي البُقعة التي اشتعلت فيها النار، وهي البُقعة التي طلب الله من موسى أن يخلع نعليه قبل دخولها، وذلك – برأينا- خوفا من أن تحل المباركة في نعلي موسى، فيصبحا مباركين، وعندها تصبح قصة بني إسرائيل مبنية في كثير من تفاصيلها على المحافظة والبحث عن نعلي موسى المباركين (للتفصيل انظر الأجزاء السابقة من هذه المقالة والمقالات الأخرى الخاصة بقصة موسى وقصة السامري)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: هناك في الأرض المقدسة وعلى مقربة من المسجد الأقصى توجد بقعة مباركة، وهي عبارة عن أرض منخفضة تحيط بها الجبال، وهي أرض يطلع عليها ذلك الطور، أو ما يسمى عند اليهود بحائط المبكى:

- **وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (46)**

فكان هذا الطور في الجهة الغربية:

- **وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44)**

وتمت المناداة من الجهة الشرقية، وذلك لأن نور الله يأتي دائما من الشرق:

- **وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (69)**

فتكون الصورة على النحو التالي: يدخل موسى تلك البقعة المباركة خالعا نعليه، وتكون النار (التي ليست ذات وقود) مشتعلة حينئذ في تلك البقعة المباركة على مقربة من الشجرة:

- **فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (30)**

فيقف موسى بجانب الطور الغربي، سامعا من يناديه من الجهة الشرقية، وهناك يكون ميقات موسى مع ربه في تلك البقعة المباركة:

- **وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (143)**

السؤال: لماذا كانت هذه البقعة مباركة (فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ)؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن السبب يعود إلى الروح (نحن نرى) قد نزل بها فعليا.

فالمتدبر للسياقات القرآنية يجد بأن المباركة لا تتوقف على الأماكن والأشخاص وإنما قد تحصل للزمن والأوقات كذلك، ففي ليلة مباركة أنزل الله الكتاب المبين:

- **حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (3)**

فأصبح هناك ليلة مباركة، ونحن نفتري الظن بأن المباركة لتلك الليلة قد جاءت أيضا من نزول الروح فيها:

- **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (4) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5)**

وهنا ننبه القارئ الكريم إلى ضرورة الفصل بين الملائكة من جهة والروح من جهة أخرى، فالملائكة شيء والروح شيء آخر، والملائكة تتنزل في تلك الليلة وكذلك يتنزل الروح فيها، والفرق يكمن في أن تنزل الملائكة يكون في كل الأوقات ولكن لتنزل الروح (نحن نفتري القول) لا يكون إلا فيها، أي في ليلة القدر.

لكن يبقى السؤال الكبير هنا هو: ما فائدة نزول الروح في تلك الليلة؟

جواب مفترى: نحن نظن أن نزول الروح في تلك الليلة هو ما يجعلها ليلة مباركة. انتهى.

السؤال: ما الذي يحصل إذا ما نزل الروح؟ وماذا لو لم ينزل أصلا؟ هل سيحدث ذلك فرقا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: بداية، نحن نظن أن نزول الروح يتطلب إشعال النار، ولكنها نار ليست ذات وقود.

السؤال: من الذي كان في النار عندما أشعلت في الواد المقدس؟

- **فَلَمَّا جَاءهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (8)**

جواب مفترى: إنه الروح

السؤال: لماذا كان الروح متواجدا في تلك النار؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: ليمد عصا موسى بالطاقة اللازمة لتفعيلها حتى تعود سيرتها الأولى، فتصبح قادرة على فعل الأعاجيب. انتهى.

السؤال: كيف حصل ذلك؟ وما الذي أشعل تلك النار؟ وما هي ماهية تلك النار؟

رأينا المفترى: تعرضنا في مقالات سابقة لهذه الجزئية وزعمنا القول بأن الذي أشعل تلك النار هو ذلك النجم الذي هوى، كما جاء في الآيات الكريمة التي تتحدث عن لقاء محمد ربه في ليلة الإسراء :

- **وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (7) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (10) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (11) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (12) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (13) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (14) عِندَهَا جَنَّةُ**

الْمَأْوَى (15) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (16) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (17) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (18)

فكان افتراؤنا على النحو التالي: هناك على الدوام ليلة محددة تحصل مرة واحدة بعد كل ألف ليلة، وتسمى ليلة القدر:

- إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (4) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5)

(للتفصيل انظر الجزء السابق من المقالة الذي يتحدث عن حكاية ألف ليلة وليلة).

في هذه الليلة نزل الروح، فحصلت البركات، وحصل تنزيل الكتاب:

- حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (3) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (4)

وكان ذلك هو روح القدس الذي نزل بالكتاب المبين جملة واحدة. وتولى الروح الأمين تنزيله قرآنا على قلب محمد في البلد الأمين.

نتيجة مفتراة (1): الروح هو الذي ينفذ الأمر الإلهي

نتيجة مفتراة (2): الروح قادر على التمثل (أي التشكل)

نتيجة مفتراة (3): الروح قادر على التجزيء

نتيجة مفتراة (4): الروح ينزل في الليلة المباركة (ليلة القدر) فقط

نتيجة مفتراة (5): روح القدس ينزل في الأرض المباركة (القدس)

نتيجة مفتراة (6): الروح الأمين ينزل في البلد الأمين (مكة)

تخيلات من عند أنفسنا: كانت تلك ليلة مباركة، حيث نزل فيها الملائكة والروح (تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا) بإذن ربهم، وقد حصل ذلك (كما نتخيله) مباشرة بعد أن هوى ذلك النجم، الذي يدل على الهداية الحقيقية:

- وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2)

فكان النجم نفسه هو الذي أشعل تلك النار التي آنسها موسى في الواد المقدس:

- إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (10)

وهناك وجد موسى الهداية الحقيقية. فكان النجم هو سبب إشعال تلك النار، وكانت تلك نارا ليست ذات وقود، وهو ما يميزها عن النار ذات الوقود.

عودة على بدء

لو عدنا إلى قصة فرعون، لوجدنا أن فرعون (كإله) يتصرف (نحن نفتري القول) بنفس منطق الإله الحقيقي، فهو يحشر الناس ضحى:

- **قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (59)**

وقد كان حضور فرعون بنفسه إلى المكان بطريقة الإتيان:

- **فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (60)**

وكان ذلك محاكاة لفعل الإله نفسه:

- **هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الامُورُ (210)**

ولعل واحدة من أهم ميزات الإتيان هو الترتيب والنظام والانتظار:

- **أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (41)**
- **بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاء وَآبَاءهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (44)**

فنقصان الأرض من أطرافها هو أمر منظم مرتب غير فوضوي.

وهذه مريم تأتي قومها، وذلك لأنهم (نحن نظن) كانوا في حالة ترقب وانتظار لقدومها إليهم:

- **فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (27)**

فتكون الصورة في مخيالنا على النحو التالي: يطلب فرعون من موسى أن يجعل بينهما موعدا لا يخلفه أحد منهما في مكان سوى:

- **فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى (58)**

فيختار موسى الموعد في يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى:

- **قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (59)**

فيطلب فرعون نداء الحشر:

- **ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)**

وهنا تولى فرعون ليجمع كيده ثم يأتي:

- **فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (60)**

ولكي يصور فرعون للناس بأنه فعلا ربهم الأعلى، وأنه فعلا إلها، كان لابد أن يجتمع الناس أولا، ثم تبدأ مراسم قدوم الإله، فيبدأ حضور الناس بناء على أهميتهم ومرتبتهم، فيحضر أراذل الناس أولا، ثم يبدأ حضور من هم أعلى شأنا، وهكذا، ليكون حضور فرعون آخر حدث في مراسم ذلك الحفل العظيم. وكان لابد من أن يحضر مع فرعون ناديه، لأن الإله الحقيقي يحضر ومعه زبانيته:

- **فَلْيَدْعُ نَادِيَه (17) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (18)**

فكما يتنزل الملائكة والروح فيها كمراسم أولية لكي يأتي الإله الحقيقي، عمد فرعون إلى أن يحضر كيده وناديه في مقدمة لبروتوكولات إلهية ظن أنها تجعله يتصرف كما لو أنه إلها حقيقيا، ففرعون يعلم تماما أن الله يأتي في ظلل من الغمام ومعه الملائكة:

- **هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الامُورُ (210)**

وهنا نصل إلى تقديم الافتراء الخطير التالي: كان فرعون يعلم أن قدوم الإله يتطلب إشعال النار، ولكن المفارقة العجيبة هي أنه في حين أن نار الإله الحقيقي لا تكون ذات وقود، كانت نار فرعون ذات وقود:

- **وَالسَّمَاء ذَاتِ الْبُرُوجِ (1) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (2) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (3) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (4) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (6) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (9) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (10) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (11) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (13) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (14) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (15) فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (16) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (17) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (18) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (19) وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ (20) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (21) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (22)**

فهناك إذن فرق بين من يستطيع أن يشعل نارا ذات وقود (كفرعون) ومن يستطيع أن يشعل نارا ليست ذات وقود (كرب العالمين).

السؤال: ما فائدة إشعال تلك النار التي هي ذات وقود أصلا؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نظن أن فرعون كان بحاجة أن يشعل تلك النار ليحاكي النار التي تشتعل عندما يأتي رب العالمين.

السؤال: وما فائدة إشعال النار أصلا؟ ربما يريد أن يسأل صاحبنا متعجلا الإجابة.

جواب مفترى خطير جدا جدا: ربما نستطيع أن نفهم غاية فرعون من إشعال النار لو أننا تدبرنا ما فعلت النار التي ليست ذات وقود في الواد المقدس في البقعة المباركة من الشجرة.

السؤال: وما علاقة هذا بذاك؟

جواب: لو تدبرنا ما حصل في الواد المقدس، لوجدنا أن النار قد أشعلت في الواد المقدس لهدف (نحن نفتري القول) أن تجعل الحياة تدب من جديد في عصا موسى عندما طلب الله منه أن يلقيها في تلك النار:

- **قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (20) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (21)**

فالذي أعاد للعصا سيرتها الأولى والذي أخرجها حية تسعى هو ما كان متواجدا داخل تلك النار: إنه الروح. فحتى تخرج العصا حية تسعى، تستطيع مقارعة فرعون وسحرته، كان لزاما أن تدب الحياة فيها من جديد. فما أن ألقى موسى عصاه في تلك النار حتى اكتسبت عصا موسى شيئا من الروح المتواجد في النار، فأصبحت قادرة على فعل الأعاجيب. فبتلك الروح التي دخلت فيها، التقفت عصا موسى حبال السحرة وعصيهم، وبتلك العصا شق موسى البحر، فكان كل فرق كالطود العظيم، وبتلك العصا انفجرت اثنا عشر عينا من الماء، وبقبضة من تلك العصا استطاع السامري أن يخرج للقوم عجلا جسدا له خوار، وبما تبقى من تلك العصا التي أصبحت منسأة بعد أن قبض السامري منها قبضة، عذب سليمان الشياطين، فما استطاع أحد من الجن أن يزغ عن أمره. وتلك هي المنسأة التي أكلتها دابة الأرض التي ستخرج لتكلم الناس بأنهم كانوا بآيات الله لا يوقنون:

- **وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (82)**

(دعاء: اللهم أسألك أن أكون من عبادك الموقنين بآياتك، وأسألك أن أكون أول من تريهم آياتك فيعرفها، وأعوذ بك أن يكون أمري كأمر فرعون، إنك أنت السميع البصير – آمين).

نتيجة مفتراة: كانت كل تلك الأعاجيب التي نُفِّذت بواسطة العصا تكمن بوجود الروح فيها. فليس هناك قوة تستطيع أن تقف بوجه الروح الكامنة في تلك العصا.

(دعاء: أعوذ بك ربي أن أكون ممن يوادّون من حادك ورسولك ولو كانوا آباءنا أو أبناءنا أو إخواننا أو عشيرتنا، وأسألك أن أكون ممن كتبت في قلوبهم الإيمان وأيدتهم بروح منك، إنك أنت العزيز الحكيم – آمين)

- **لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (22)**

السؤال: لماذا أشعل فرعون تلك النار؟

جواب: ليمد سحرته بالقوة اللازمة لتفعيل عصيهم وحبالهم.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا: هذا ما سنخوض فيه في الجزء القادم من هذه المقالة بحول الله وتوفيق منه.

سائلين الله وحده أن ينفذ مشيئته وإرادته لنا الإحاطة بشي من علمه لا ينبغي لغيرنا، إنه هو العليم الحكيم، وأن يزدني علما وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا. وأدعوه وحده أن يؤتيني رشدي، وأعوذ به أن يكون أمري كأمر فرعون، فالله وحده أدعو أن أكون ممن أتوه بقلب سليم، فهداهم الصراط المستقيم، إنه هو العليم الخبير – آمين.

المدّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان

بقلم د. رشيد الجراح

18 آب 2016